العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

عمر بن عبد العزيز — أبو الحسن الأشعري
الحسن البصري — أبو حامد الغزالي
أحمد بن حنبل — عبد القادر الجيلاني
جلال الدين الرومي — أحمد بن تيمية

تقديم

الدكتور مصطفى السباعي — الدكتور مصطفى الخن

الجزء الأول _ الجزء الثاني



دمشق - بيروت

فهرس الموضوعات

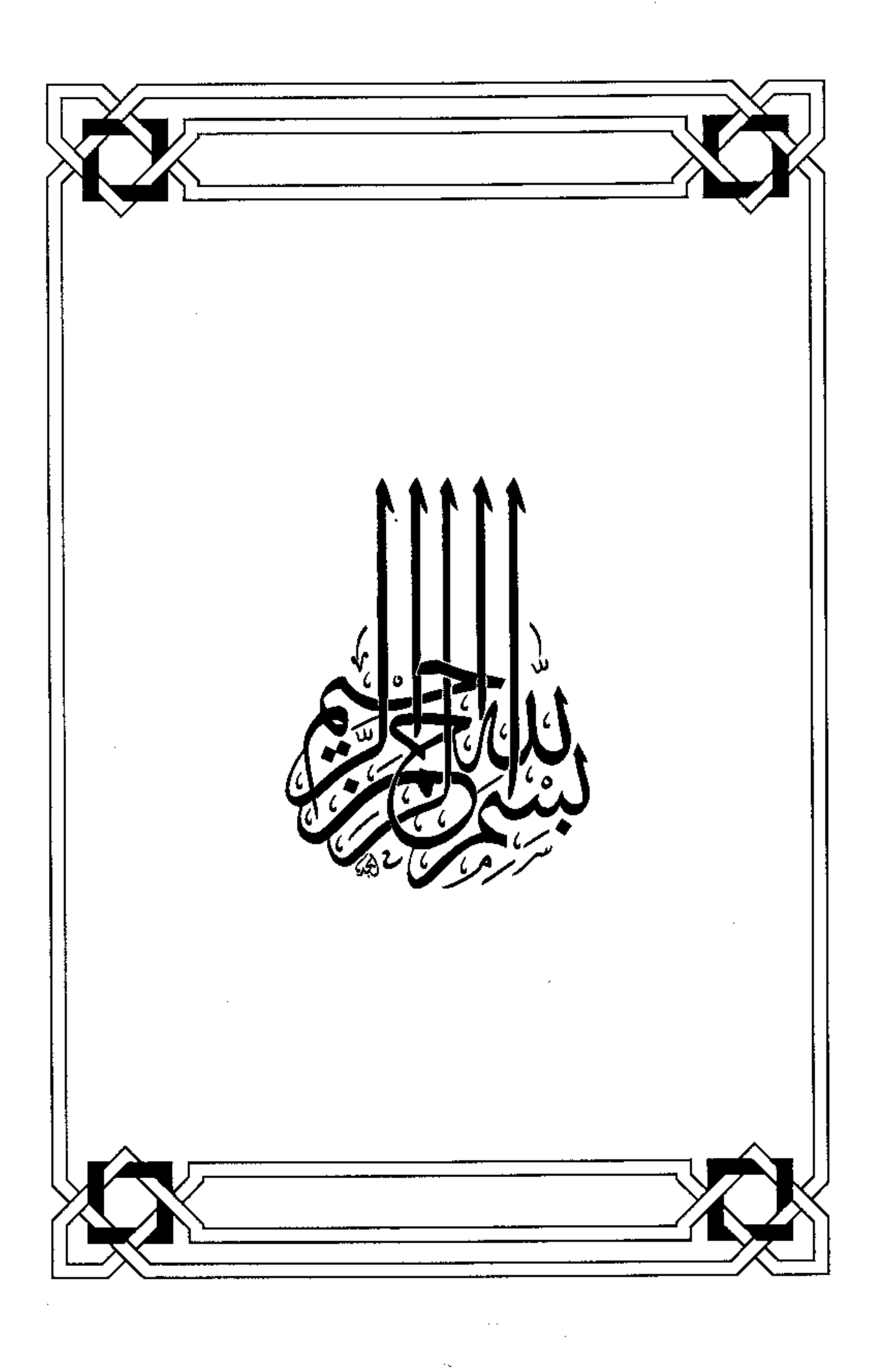
* * *

فهرس الموضوعات

الجزء الثالث

الجزء الرابع

* * *


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده ، ويدفع نِقمه ، أحمده حمد الشاكرين ، وأسأله سؤال الصالحين ، وهو الله القادر رب العالمين.

والصَّلاة والسلام على سيِّدنا محمد ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، أرسله تعالى هداية للخَلْق ، فأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغُمة ، صلى الله عليه وعلى آله ، ورضي عن أصحابه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ سِيَر الصالحين ، والعلماء العاملين ، يدفع مسيرةَ الأمة نحو المجد والعلياء ، فهؤلاء الجهابذة هم مصابيح الطريق لمن ابتغى الرقي ، وفتَّش عن القدوة الحسنة ؛ ليحتذي بها ، ويجعلها نصب عينيه ، فهي المثال الرائع ، والنموذج الصالح ؛ من أجل تعزيز البناء ، وتشييد الصريح القويم لكل متطلبات التقدم في مختلف ميادين الحياة.

وهذا الكتابُ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ سار بين الناس كالهواء والنُّور ، فكان مُتنفَّساً للورى ، حيث يجدون في صفحاته تاريخ الأمة مرسوماً بكلمات معبِّرة ، ويلحظون زبدة الأفكار تتهادى بين طيَّاته ، ولقاح الألباب يشرئب بعنقه ؛ تيَّاهاً بتلك الفرائدة المتألِّقة التي نجبت ، وضاء شعاعها ،

فكانت بلسماً للجراح ، وغذاء للفكر والروح ، وحروفاً من نار ونور على جبين التاريخ .

وقد أراد المؤلِّف ـ رحمه الله ـ من صناعة كتابه هذا : إصلاح الأمَّة ، وضرورة عودتها السريعة للنهل من تاريخها العتيد ، وورود ينابيع الإسلام في إشراقته عبر العصور؛ وبذا يأخذ الكتاب لقطات مختلفة من بطون التاريخ ، ويعرضها في سير رجال عظام ، قدَّموا كلَّ مفيد ، فكانوا زعماء الإصلاح الإسلامي .

هذا، وإنَّ الطبعة الثانية من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» نقدِّمها إلى القرَّاء الأعزَّاء ، والتي اعتنينا فيها بالمراجعة الدقيقة ، وضبط النصوص ، والتعليقات وتخريج الأحاديث بين المعقوفتين ، وإيراد النصوص التي أرادها العلاَّمة المؤلِّف كاملةً غير منقوصة، ممَّا يشفع لنا بإعادة طبع الكتاب، عسى أن يجد فيه القرَّاء مبتغاهم ، بما يحقِّق مطلوبَهم ، ويدفعهم للقراءة والتعمُّق والاستفادة من زاد الفكر، وخلاصة الدراسات التاريخية الإسلامية .

وجزى الله دارَ ابن كثير كلَّ خير ، على ما بذلَتْ من عناية بهذا الكتاب ، وغيره من مؤلَّفات العلاَّمة الندوي ، فكانت العنايةُ واضحةً للعيان في جودة التصحيح ، وجمال الإخراج ، والمسحة الجمالية في الطباعة والتجليد .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل جهد كلٍّ منَّا في خدمة هذا الكتاب خالصاً لوجهه ، إنَّه سميع مجيب .

دمشق في ١/ رمضان ١٤٢٤هـ

كتبه المعتز بالله
عبد الماجد الغوري

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور

مصطفى السباعي رحمه الله تعالى

في العالم الإسلامي اليوم حركةٌ قويةٌ ترمي إلى الرجوع للإسلام كشريعة تنظم شؤون الحياة ، وتُقيم الموازين القسطَ بين الناس ، وتُحقِّق للمسلمين تحرير ديارهم من الاستعمار ، وتحريرَ عقولهم من الجَهالة والخُرافة ، وتحريرَ مجتمعهم من الظلم والفقر والفوضى .

وترى هذه الحركةُ أنَّ الإسلام ـ في ينابيعه الصافيةِ وتراثِهِ السليم في عهد السلف الصالح ـ زعيمٌ بتحقيق هذه الأهداف في أتمِّ وجه وأكمله ، كما أنه هو الطريقُ الذي لا بدَّ منه لنهوض العالم الإسلامي من كَبْوَتِه وسُباته .

وهذه الحركةُ قائمةٌ في كل قطر من أقطار العرب والمسلمين ، تجدها في القاهرةِ ، ودمشقَ ، وبغداد ، وعمانَ ، ومكةَ ، والكويت وغيرها من الأقطار العربية ، كما تجدها في باكستان ، والهندِ ، وأندونيسية ، والأفغان ، وإيرانَ وغيرها من بلاد الإسلام ، ولها في كل بلد قادةٌ تميَّزوا بها لِصدْقِ في عزائمهم للنهوض إلى هذه الغاية ، والوضوحِ في إعلان مبادئها والتبشير بها بين جماهير أمّتهم .

ومِن أعلام هذه الحركة المباركةِ الأستاذُ أبو الحسن النَّدْوي مؤلِّفُ هذا الكتاب ، فهو عالِمٌ مُصلح ، وداعية مخلصٌ ، دَأب منذ آتاه الله العلمَ على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه ، وبرحلاته المتعدِّدة إلى أقطار العروبة والإسلام ، وبجولاته الموفَّقة في ميادينِ الدعوة ، حتى إنه اليوم ليُعَدُّ من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند ، له تلاميذه المنتشرون في كلِّ بلد ، وله كتُبه ومؤلَّفاته التي تتميَّز بالدقة العلمية ، وبالغوصِ العميق في تَفهُّمِ أسرار الشريعة ، وبالتّحليل الدقيق لمشاكلِ العالم الإسلامي ووسائلِ معالجتها ، عدا عمَّا يمتاز به من روحٍ مُشرقة ، وخُلُق نبوي كريم ، ومعيشة تُذكِّرُكَ بعلماء السلف الصالح في زُهدِه وتقشُّفِه وعبادته وكرامةِ نفسه .

وهذا الكتابُ الذي نُقدِّمه اليوم لقرَّاء العربية صورةٌ واضحةٌ لأفكار الأستاذ الندوي ، ومُيوله الإصلاحية ، ولِفَهْمِه العميق للتاريخ الإسلامي ولروح الإسلام الصافية المشرقة ، وما علق بها ـ في العصور الأخيرة ـ من غبار ، وما أصابها من انحراف ، وبذلك يَسُدُّ هذا الكتابُ ثَغْرَةً في دراسة التاريخ الإسلامي ، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها ، إذ يتحدَّث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي مُنذ العصر الأُموي .

وإنِّي ـ وإن لم يُسعدني الحظُّ بالاستماع إلى هذه المحاضرات حين ألقاها الأستاذ الندوي في المدرج الكبير للجامعة السورية بدمشق ـ إذ كنتُ في رحلة علمية إلى جامعات أوربة ـ قد لمستُ آثارها العميقةَ في نفوس الذين استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة ، وغيرهم من طلبة الجامعة ، وكما سمعتُ الثناءَ الكثير عنها في الأوساط العلمية والإصلاحية ، ثم أُتيحَ لي أن أقرأها قبل تقديمها إلى المطبعة ، فاستفدتُ منها كثيراً ، وسألتُ اللهَ أن يَمدَّ في عمر الأستاذ الندوي لإكمال هذا البحث القيِّم الذي بدأَهُ ، حتىٰ يصل بنا

الحديث عن زُعماء الإصلاح في العصر الحاضر ، وخاصة في الهند[١]، التي لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإسلاميين إلاَّ النَّزْر اليسير ، وإنها لأمانة لا ينهض بعبئها إلاَّ مثلُ الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته ، وإشراقِ روحه ، وواسع علمه ، وجميلِ مُثابرته .

وإنِّي باسم كلية الشريعة أشكر الأستاذَ الندوي على تلبية رجائها بإلقاء هذه المحاضرات .

فجزاه اللهُ خير الجزاء ، وشكر له جهده ، وبارك في علمه وحياته .

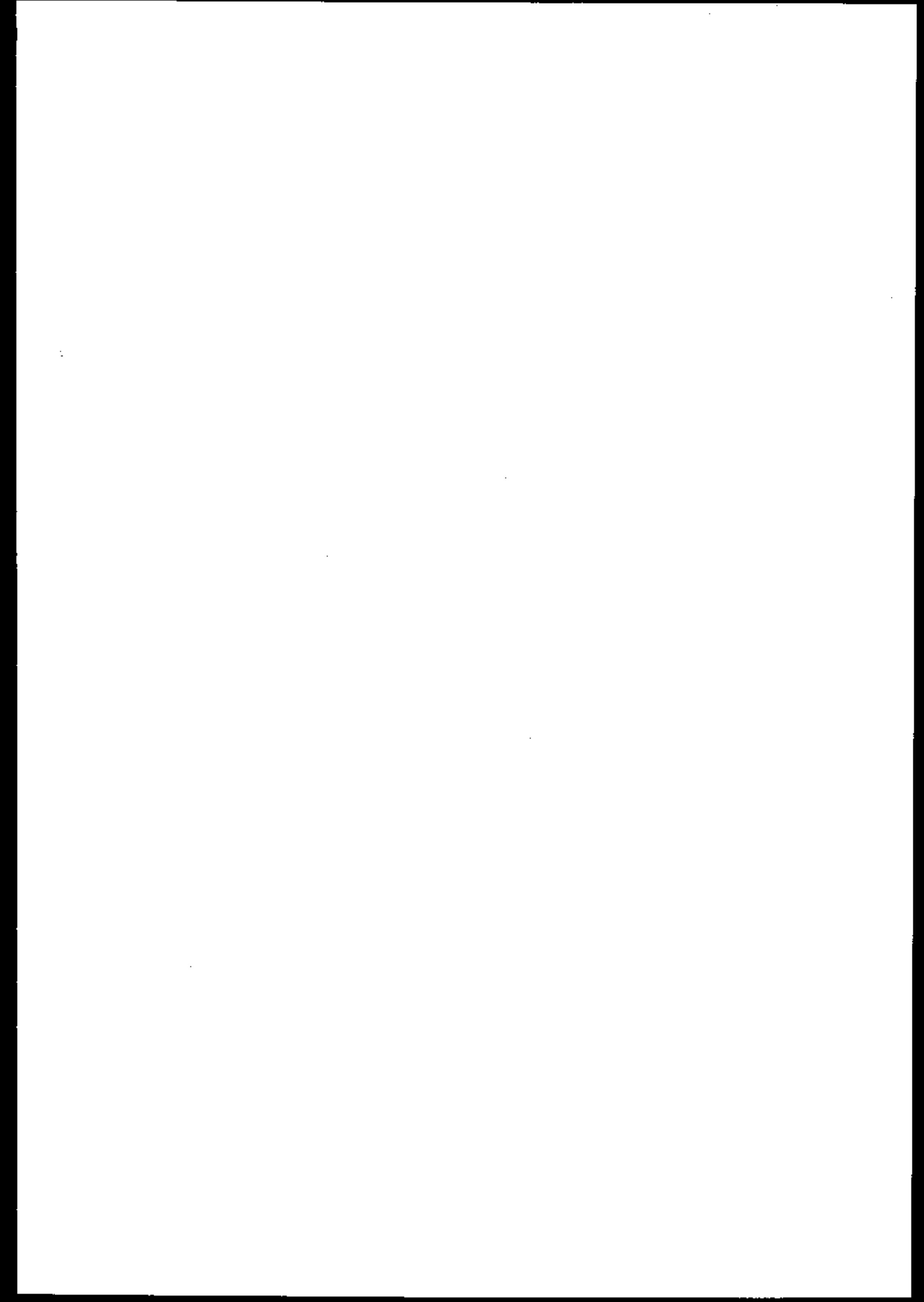
دمشق : المحرم ١٣٧٨ — الدكتور مصطفىٰ السباعي[٢]

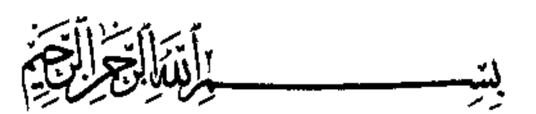
آب (أغسطس) ١٩٥٨ — عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق

---

(١) [وقد كتب العلاَّمة المؤلِّف من زعماء الإصلاح في الهند كالإمام السرهندي والإمام شاه ولي الله الدهلوي ضمن هذه السلسلة ، اقرأ عنهما في الجزءين الثالث والرابع].

(٢) توفي الأستاذ العلامة الداعية رحمه الله في يوم السبت الواقع في ٢٧ جمادىٰ الأولى ١٣٨٤ هـ ، الموافق ٣ تشرين الأول ١٩٦٤ م . [وقد كتب العلامة المؤلِّف مقالاً عنه إثر وفاته ، اقرأه في كتاب من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٣١٦) طبع في سلسلة «تراث العلامة الندوي» في دار ابن كثير بدمشق].





مقدمة

بـقلم الدكـتـور مصطـفى الخـن

الحمد لله بمَحامده كلِّها ما علمنا منها وما لم نعلم . الحمد لله حمداً يوافي نِعَمه ، ويكافىء مزيده . الحمد لله على نعمائه .

والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ، وصفوته من أنبيائه ، محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته ، ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الملوان .

وبعد : فإنَّـه من فضـل الله تعالىٰ على الأمـة الإسلاميـة ، أن تكفَّل لها بحفظ قرآنها ودينها ، فقال جلَّ ثناؤه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وذلك بأن هيَّأ في كل عصر من العصور أناساً قد حبسوا أنفسَهم ، وأحيوا ليلهم ، وأظمؤوا نهارهم ، وبذلوا جهدهم لدراسة هذا الدين ، وللدرء عنه اعتداء المعتدين ، ولكشف شبه الشاكِّين ، وقد قال رسول الله ﷺ : «إن الله

يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئة سنة من يُجدِّد لها دينَها»[١]. وهذا الحديث يشمل الفردَ والجماعة ، كما يشمل الزمان والمكان.

ولعلَّ أبا الحسن الندوي ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ هو من هؤلاء الناس الذين وجدوا في هذا العصر ليتحمَّلوا أعباء الدعوة ، ويبذلوا كلَّ نفيس في سبيل نشر هذا الدين ، ويرفعوا كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله في زمان كثر فيه الانحراف عن المبدأ القويم ، الذي أراده الله لعباده: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

إنَّ الشيخ أبا الحسن قد متعه الله تعالى بجرأة في الحق ، قلما تجدها في غيره من العلماء ، وحباه الله تعالى علماً واسعاً جامعاً ، قلما تراه عند كثير من العلماء أيضاً ، وأعطاه الله لساناً بليغاً ، وقلماً معبِّراً عن مآسي المسلمين ، وراسماً طريق العودة إلى الله تعالى ، كي تأخذ الأمة الإسلامية في هذا العالم مكان القيادة ، ذلك المكان الذي فقدته منذ أمد بعيد.

إن الكتاب الذي نقدِّمه اليوم لقراء الشيخ ، فيه عرض لصفات تحلّى بها أربابُ الفكر والدعوة إلى الله تعالى في هذا العالم الإسلامي ، الذي أكرمه الله بوجود هؤلاء الأفذاذ الذين يحاول أعداء الله أن يطمسوا معالم حياتهم.

ومِن المؤكَّد أنَّ أبا الحسن ـ حفظه الله ـ لم يتحدث عن أولئك الأعلام من ناحيتهم التاريخية ، ولكنه أراد أن يبرز جوانب القدوة فيهم ، ويجسد صفات الداعية إلى الله تعالى ، ويبين أن الله جلّ جلاله قد وفى بما وعد به من حفظ الدين ، وليكون هؤلاء منارات يهتدي بهم من بعدهم من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المئة برقم (٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٨) برقم (٨٥٩٣) ، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٤) برقم (٦٥٢٩). وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إنَّ الدعوة إلى الله سبحانه ، وإلى الاستظلال بظلّه ، وإلى الدخول تحت طاعته ، وامتثال أوامره ، هي وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلقد قال الله سبحانه في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

ولقد حمَّل الله مهمة هذه الدعوة إلى الله تعالى: حمّلها رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام فقال مخاطباً له : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال أيضاً : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

وحمَّل هذه الأمة، أمة الرسول الأعظم هذه المهمة من بعده ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وجعل أمته خير الأمم، وأرقاها ، بما اتصفت به من الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

ومِنْ هنا يكون العلماء الذين يقومون بالدعوة إلى الله تعالى هم ورثة الأنبياء ، والخلّص من عباد الله الصالحين.

وفي هذا العصر الذي نحن فيه نشطت الدعوةُ إلى الله تعالى بمقدار ما يحاول أعداء الله تعالى نَشْر أباطيلهم ، واستعمالهم الأساليب المضللة والوسائل المغرية ، وفي طليعة هؤلاء الدعاة في هذا العصر فضيلة المجاهد الكبير الشيخ السيد أبي الحسن الندوي ، وفقه الله لما يحبه ، ويرضاه.

نسألُ الله سبحانه أن يجعلنا من الدعاة إلى الله على هدى وبصيرة، وأن

يحمي الإسلام والمسلمين من شرور أعداء الله تعالى ، ويحفظ الدعاة المخلصين ، ويذود عنهم الحاقدين المغرضين. والله الموفق ، والهادي إلى سبيل الرشاد.

دمشق : ١٨/ ٣/ ١٤٢٠ هـ
١/ ٧/ ١٩٩٩م

د. مصطفى سعيد الخن

ترجمة
العلَّامة المؤلِّف

هو المربِّي العظيم، والداعية الحكيم، والمفكِّر المجدِّد، والأديب البارع، والكاتب القدير، وعلَّامة الهند، وربَّانِيُّ الأمَّة، ونموذج السَّلف، والعالِم العامل، والحبر الكامل، والزَّاهدُ المجاهد: الشيخ السيِّد أبو الحسن علي الحسني الندوي، صاحبُ الكُتب الفائقة، والرَّسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، «والذي أجمع عليه السلفيُّون والمتصوِّفون، والمذهبيون واللَّامذهبيون، والتقليديون والمعاصرون»[١]، و«الذي أخلص وجهَه لله تعالى، وسار في حياته سيرةَ المسلم المُخلِص لله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فدعا إلى الإسلام بالقُدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكُتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها، ووجَّه وأرشدَ»[٢]، و«الذي [كان] ذخراً للإسلام ودعوته، وكُتبه ومؤلفاته تتميَّز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها»[٣]، و«الذي عرفتُه في شخصيته وفي قلمه، فعرفتُ فيه قلبَ المسلم، والعقلَ المسلم، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام

(١) قاله فقيه الدعاة، وداعية الفقهاء: الدكتور يوسف القرضاوي.
(٢) قاله شيخ الأزهر الأسبق: الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ.
(٣) قاله الداعية الفقيه، الصابر المجاهد: الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ.

على فقهٍ جيِّـدٍ للإسلام . . . هذه شهادة لله أودعها»[١]، و«الذي [كان] مدرسةً فكريةً افتقدها العالمُ الإسلامي برحيله»[٢].

اسمه ونسبه وأسرته:

هو عليٌّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأَشْتَر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنَّى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

أولُ من استَوْطَنَ الهندَ من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ).

والدُه مؤرِّخ الهند الكبير العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني ، الذي استحقَّ بجدارة لقب «ابن خلّكان الهند» لمؤلَّفه القيم «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثماني مجلَّدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»[٣].

والدتُه ـ رحمها الله ـ كانت من السيِّدات الفاضلات ، المربِّيات النادرات ، المؤلِّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعرَ ، وقد نظَّمتْ مجموعةً من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته:

أبصَرَ العلاَّمة أبو الحسن الندوي النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣ هـ الموافق

---

(١) قاله الأديب الكبير ، الداعية الشهيد: سيد قطب.

(٢) قاله الدكتور عبد الله المحسن التركي ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

(٣) في ثلاث مجلَّدات ضخمة ، في دار ابن حزم ، بيروت.

عام ١٩١٤ م بقرية «تَـكِيَـة كَلان» الواقعة قرب مديرية «رَائي بَرِيْلي» في الولاية الشمالية «أُتَـرَابَـرْدِيْش».

بَـدَأَ دراستَـه الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادئَ اللغتين (الأردوية والفارسية) شأن أبناء البيوتات الشريفة في الهند في ذلك العصر ، وكان عمره يتراوح بين التاسعة والعاشرة إذ تُوفِّي والده الجليل عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م).

فتولَّـى تربيتَه أمّهُ الفاضلـة ، وأخوه الأكبر الدكتـور عبـد العلي الحسني[١] وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي.

بدأ دراسةَ العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني[٢] في أواخر عام ١٩٢٤ م ، وتخرَّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المرَّاكشي[٣] عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠ م.

دراسته الجامعيّـة:

التَحَقَ بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها. قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كُتباً تُعتبر

---

(١) انظر ما كتب عنه العلاَّمة الندوي في كتابه «شخصيات وكُتب» ص(٦٣) طبع دار القلم بدمشق.

(٢) انظر ترجمته في «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص(٢٨١) طبع دار ابن كثير ، دمشق.

(٣) هو العلاَّمة البحَّاثة ، وأحد كبار علماء اللغة العربية في هذا العصر ، وُلِدَ بسجلماسة في المغرب ، ونشأ نشأة صوفية ، ثم تركها واتخذ السلفيةَ معتقداً ، سافر إلى الهند وقرأ الحديث على كبار محدِّثيها يومئذ ، وعيِّن أستاذاً خلال إقامته فيها في كلية اللغة العربية في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، توفي ـ رحمه الله ـ بالدار البيضاء عام ١٤٠٧ هـ.

في القِمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقَّفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلّفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

ثمَّ التحقَ بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩ م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدِّث الشيخ حيدر حسن خان الطُّونكي[١] ، ودرس التفسيرَ لكامل القرآن الكريم على العلاَّمة المفسِّر المشهور أحمد علي اللاَّهوري في لاهور عام ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني[٢] في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

في سِلك التدريس:

انخرَطَ في سلك التدريس عام ١٩٣٤ م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ـ ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب.

واستفاد خلال تدريسه في دار العلوم من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعُلمائها وأدبائها ومفكِّريها عن كثب، واستفاد أيضاً مِن كُتب المعاصرين من الدعاة والمفكِّرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيِّين.

نشاطاته الدعويّة والإصلاحية:

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تَعَرَّفَ فيها

(١) انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلاَّمة عبد الحي الحسني ، ج: ٣ ، ص١٢١٨ ، طبع دار ابن حزم ، بيروت.

(٢) انظر ترجمته في «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص(٢٥٩).

على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرَّأي فُوْرِي[١] ، والداعية الشيخ محمد إلياس الكَانْدَهْلَوِي[٢] ، وكان هذا التعرُّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأسَّى بالشيخ الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها.

أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنَّة النبوية عام ١٩٤٣ م ، وأسَّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م.

شارَكَ في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ م.

رحلتُه مع الكتابة والتأليف:

كتبَ أوّلَ مقال بالعربية في مجلّة «المنار» للعلا السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الرابعة عشر عاماً ، ثم نشره العلاّمة رشيد رضا ككتاب مستقل لما رأى إعجاب كبار كتّاب العرب به.

ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ م يحمل اسمَه «سيرة أحمد شهيد» ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان ، وصدر له طبعات عديدة بعد.

(١) انظر ترجمته في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٢٣٩).
(٢) انظر ترجمته في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص (٢٣٣).

بَدَأَ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠ ، و«قصص النبيِّين» للأطفال و«القراءة الراشدة» عام ١٩٤٤ م ، وقرِّرت جميع هذه الكتب في مقرَّرات المعاهد والجامعات الإسلامية في بلاد العرب وشبه القارة الهندية .

أَلَّف كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟» عام ١٩٤٤ م ، الذي عُدَّ من أفضل الكُتب التي صدرت في هذا القرن[١] .

دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٥٦ م ، وألْقى محاضرات بعنوان «التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي» نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتابٍ مستقلٍّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والذي الآن بين يدي القرَّاء .

أَلَّفَ حول القَاديَانية بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨ م ، وكتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥ م وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧ م ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠ م و«المُرْتضىٰ» في سِيرة أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عام ١٩٨٨ م .

رئاسة تحرير للمجلاّت والجرائد الإسلامية والإشراف عليها:

شَارَكَ في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ م، ومجلّة «الندوة» الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ م، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تَعْمِيْرِحَيَات» بالأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكَتَبَ مقالاتٍ في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ: «الرّسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيّات و«الفتح» للأستاذ محب الدين

(١) كما قاله المربِّي المفكِّر ، الداعية الناقد البصير : الأستاذ محمد مبارك ـ رحمه الله ـ.

الخطيب و«حضارة الإسلام» للدكتور مصطفى السِّباعي و«المسلمون» للدكتور سعيد رمضان المصري.

وأشْرَفَ كذلك على إصدار جريدة «نَدَاي مِلَّتْ» بالأردوية عام ١٩٦٢ م، ومجلّة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥ م وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ومجلة «تعميرحيات» الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ، (الهند).

رحلاته:

سافَرَ إلى الشرق والغرب مرَّات داعيةً إلى الله بالحِكْمة والموعظة الحسنة، عامِلاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المَسْمُوعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كُلِّ مجال، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله، محاضِراً، ومحدِّثاً، ومُحَاوِراً، واعِظاً وهادياً، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية، والمؤتمرات والندوات فيها[1].

تقدير وتكريم:

انتخَبَه مجمعُ اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتَّصف به من العِلْم الجمّ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية، ولمساعيه المكثَّفة المشكورة في الأدب العَربي الإسلامي.

اخْتِير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م.

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م.

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م، لمؤلَّفه القيم

(١) اقرأ للاطلاع على رحلاته الدعويّة في الخافقين كتاب «رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ محاضراته ـ انطباعاته ـ لقاءاته». إعداد المعتني بهذا الكتاب طبع دار ابن كثير بدمشق.

«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

مُنحَ شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كَشْمِيْر عام ١٩٨١ م.

اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م.

اختير عضواً في المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م.

أُقِيمَتْ ندوةٌ أدبيةٌ كبيرة حول حياته، وجُهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب في إستانبول «تُركيا» عام ١٩٩٩ م، حضر فيها كبرى الشخصيات الدينية، والأدبية من العرب والعجم.

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية، وقدَّمَ إليه الجائزةَ وليُّ العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سُمُوّ الشيخ محمد بن راشدٍ المكتوم.

مَنَحَهُ له سلطان بروناني جائزةً للخدمات الإسلامية عام ١٩٩٨ م، وذلك اعترافاً بمكانته العلمية والفكرية الإسلامية العظيمة، وتقديراً لخدماته المتميزة التي أنجزها في مجال الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع:

توَلّى العلامةُ الندوي الرئاسةَ والعضوية لِعِدَّة جامعات إسلامية ومجامع عربية، ومنظَّمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفةَ العالمية منذ ترأَّسَ أمانتَها، وتفوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

رئيس المجمع الإسلامي العِلْمِي في لكهنؤ (الهند).

رئيس مركز أكسفورد للدرسات الإسلامية (إنجلترا).

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعُموم الهند.

رئيس هيئة التعليم الدِّيني للولاية الشمالية (أُتْرَابَرْدِيْش).

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

عضو المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسَّسة آل البيت) بالأردن.

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرّباط (المغرب).

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة.

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسْلاَم آبَاد (باكستان).

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم دِيُوْبَنْد الإسلامية (الهند).

وعدا ذلك توَلّى العلامةُ الرئاسةَ والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظَّمات الدعوية، ولِجَان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه.

خَلْقُه وخُلُقه:

كان نحيفَ البدن ، نحيل العود ، نقيَّ اللون ، له لحية سمراء ، وقوراً مهيباً في غير عبوس ، أو فظاظة ، طلقَ الوجه ، دائم البِشْر ، نظراته عميقةٌ نفاذة ، ونبراته دقيقة أخَّاذة ، فيها بحة .

كان جمَّ التواضع ، هادئاً ، محباً للخير ، ودوداً محبوباً من كافة الطبقات .

كان خيرَ مثل للعالم الورع الخلوق ، الذي يضمر الخير للجميع .

كان مثالاً في النزاهة ، والتواضع والجرأة الناقدة في الدعوة إلى الإصلاح ، وفي الاستقامة ، والحرص على الحقِّ .

كان عدواً للمظاهر الكاذبة ، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلُّف والمجاملة الزائدة ، ولا يُقيم للمال وزناً في حياته ، كانت ثقته بربِّه فوق كلِّ شيء .

وكانت مثابرته على النضال في سبيل ما يُؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق كان سرَّ نجاحه ، بينما يفشل الآخرون .

كان دائمَ المطالعة ، حريصاً على صحبة الكتاب في خلواته وأوقات فراغه ، وكان شديد الاهتمام والعناية بكتب السيرة ـ على صاحبها ألف ألف سلام ـ وبكتب السلف والتاريخ والأدب .

كان فصيح اللسان ، بليغ الكلام ، وكان يمتاز بتمكُّنٍ عجيبٍ من اللغة العربية ، وتذوُّقٍ رفيعٍ للأدب ، وكانت تراكيبه اللفظية تلفت السامع ، وتستهوي القلب ، وكان يغلب على أسلوبه العنصر العاطفي الملتهب ، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع .

وكان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤمُّه مئاتُ من الناس من أنحاء الهند ويصومون معه ويقومون ، ويتحوَّل المكان الذي يقضي فيه رمضان

إلى زاويةٍ عامرةٍ بالذكر والتلاوة ، والسهر والعبادة .

وكان من أعظم آماله رحمه الله أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية مقهورة حتى يسلّي نفسه ، ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلامَ وأذلُّوا المسلمين .

وفاته:

توفِّي ـ رحمه الله ـ عَقِب نوبة قلبية مفاجأة عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر العظيمة ، والخدمات الجليلة في مجال الفكر والدَّعوة والأدب ، وذلك يوم الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠ هـ (وكان آخر يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٩٩ م) في مسقط رأسه «رَائي بَرِيْلي» .

صُلِّي عليه في أنحاء العالم الإسلامي صلاة الغائب ، وصلَّى عليه كذلك حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أصقاع العالم في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العِشاء ، رحمه اللهُ رحمةً واسعةً ، وتغمَّده بها وأسكنه فسيح جناته .

مؤلّفاته:

للعلامة الندوي ـ رحمه الله ـ مؤلَّفاتٌ قيمةٌ ، ورسائل ممتعةٌ في السيرة والفكر ، والدَّعوة ، والأدب والتراجم ، نذكر هُنا ما هو الأشهر منها بالعربيَّة :

١ ـ السيرة النبوية .

٢ ـ الطريق إلى المدينة .

٣ ـ سيرة خاتم النبيين ﷺ (للمبتدئين) .

٤ ـ المُرتضى (في سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

٥ ـ رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام (أربع مجلَّدات) .

٦ -الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله.
٧ -شخصيات وكُتب.
٨ -ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!
٩ -الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية.
١٠ -الإسلام: وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية.
١١ -إلى الإسلام من جديد.
١٢ -المسلمون وقضية فلسطين.
١٣ -روائعٌ من أدب الدعوة في القرآن والسيرة.
١٤ -الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة.
١٥ -العقيدة والعبادة والسُّلوك.
١٦ -التربية الإسلامية الحُرَّة.
١٧ -المدخل إلى الدراسات القرآنية.
١٨ -المدخل إلى دراسات الحديث.
١٩ -ربَّانيةٌ لا رهبانيَّة.
٢٠ -القاديانية والقادياني دراسة وتحليل.
٢١ -في مسيرة الحياة (ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية).
٢٢ -مختاراتٌ من أدب العرب (مجلَّدان).
٢٣ -روائع إقبال.
٢٤ -إذا هبَّت ريحُ الإيمان.
٢٥ -المسلمون في الهند.
٢٦ -مذكَّراتُ سائحٍ في الشرق العربي.

٢٧ ـ قصصُ النَّبِيِّين (للأطفال).

٢٨ ـ قصصٌ من التاريخ الإسلامي (للأطفال).

وللعلاَّمة غير هذه المؤلَّفات والكُتب مئاتُ المقالات والمحاضرات والبُحوث في السيرة النبوية ، والفكر ، والدَّعوة ، والأدب ، والتراجم وفي موضوعات مختلفة، وقد أعددنا نشرها مصحَّحةً ومنقَّحةً في سلسلة «تراث العلامة الندوي» من دار ابن كثير بدمشق، وقد صدر منها إلى الآن :

١ ـ محاضراتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (ثلاث مجلَّدات).

٢ ـ مقالاتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (مجلَّدان).

٣ ـ دراساتٌ قُرآنيةٌ.

٤ ـ مقالاتٌ في السيرة النبوية.

٥ ـ من أعلام المسلمين ومشاهيرهم.

٦ ـ أبحاثٌ في التعليم والتربية الإسلامية.

٧ ـ أبحاثٌ في الحضارة الإسلامية والتربية.

٨ ـ بحوثٌ في الاستشراق والمستشرقين.

٩ ـ رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي.

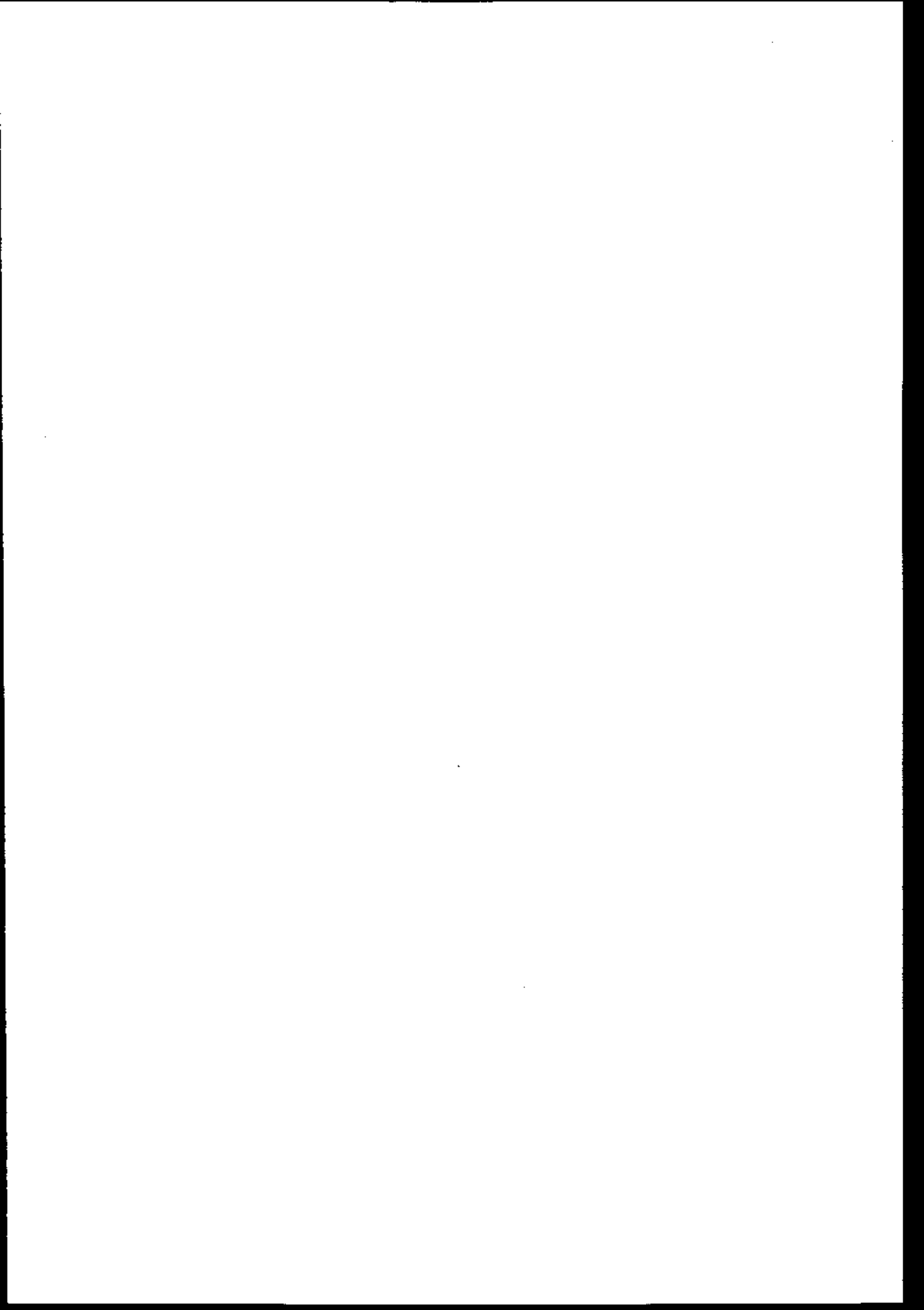
١٠ ـ مكانة المرأة في الإسلام.

١١ ـ خطاباتٌ صريحةٌ إلى الأمراء والرُّؤساء.

١٢ ـ اسْمَعِيَّات[1].

* * *

(١) من يريد الاستزادة من الاطلاع على شخصية العلامة الندوي كداعية ومفكّر ، ومربٍّ وأديب فليرجع إلى كتابنا «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» (الطبعة الثالثة) طبع دار ابن كثير بدمشق.

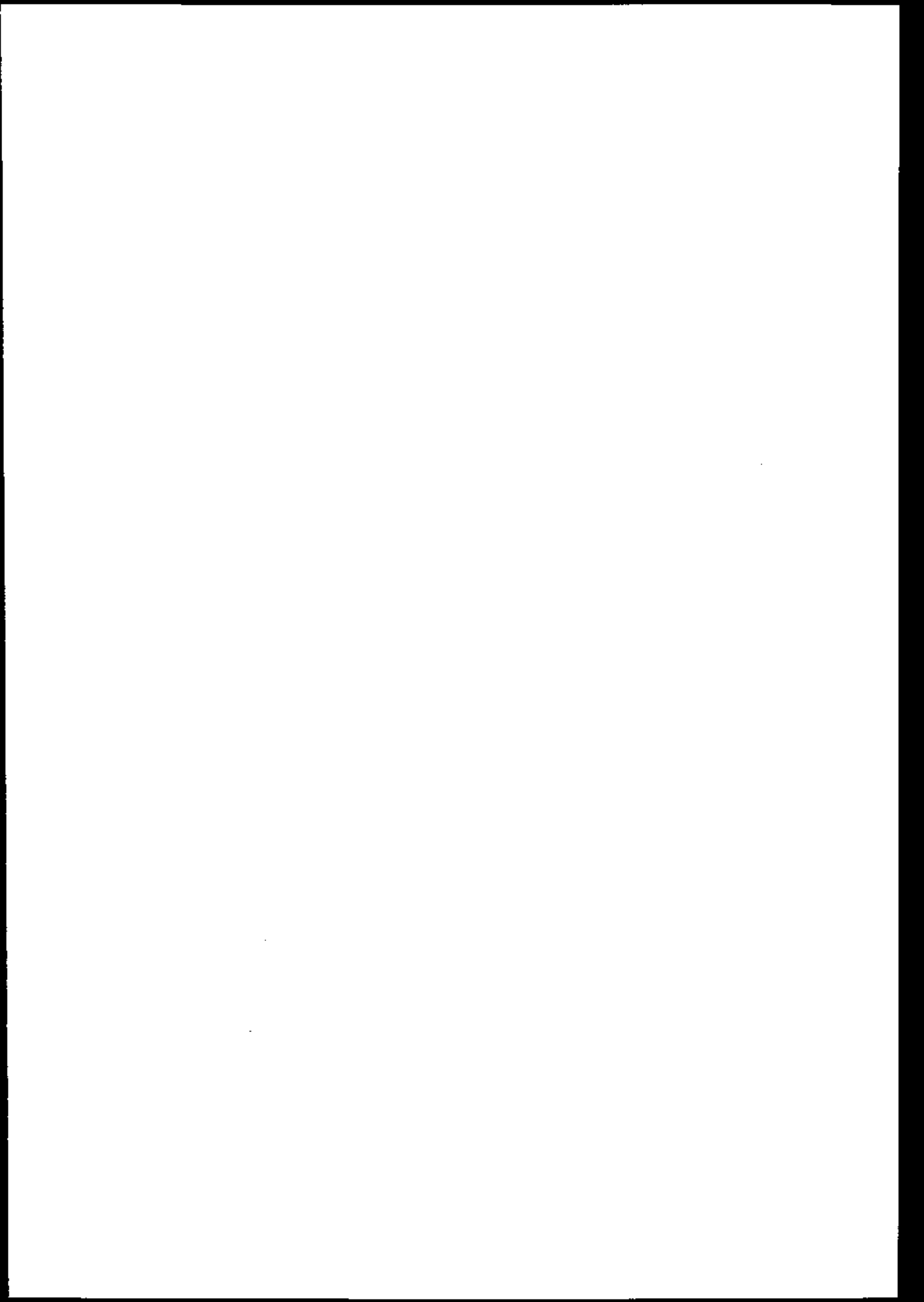


رجال الفكر والدّعوة في الإسلام

للداعية الحكيم المفكّر الإسلامي الكبير
العلاّمة السيّد أبي الحسن علي الحسني الندوي
(١٣٣٣-١٤٢٠هـ)

الجزء الأول

عمر بن عبد العزيز
الحسن البصري وخلفاؤه
أحمد بن حنبل
أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه
الإمام الغزالي
الإمام عبد القادر الجيلاني
جلال الدّين الرّومي



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أمَّا بعد، فقد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب «رجال الفكر والدعوة» في سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وقد وُجِدَتْ للمؤلف دراسات وتأملات، ألحَقها بالطبعة الأردوية، وحالتِ الشواغلُ، ومؤلفاتٌ اشتغل بها المؤلف في هذه الفترة عن العناية بهذا الكتاب، وتجهيزِه للطبعة الجديدة، رغم إلحاح بعض دُورِ النّشر على ذلك، وشعورِ المؤلف بفراغٍ واقعٍ في المكتبة الإسلامية الحديثة، بنفاد الطبعة الثانية من زمان، وحاجةِ الشبابِ الإسلامي إلى مثلِ هذه الكتب، في إيجاد الثقة بتاريخ الإصلاح والتجديد، وبصلاحية الإسلامِ وتعاليمهِ في إنشاء المصلحين والدعاةِ وأصحابِ الرسالة والإبداع في التفكير والإنتاج.

وما يعتقده المؤلف ـ وكثيرٌ من رجال التربية والتعليم ـ أنَّ خيرَ وسيلة لإشعال المواهب، وإثارة الروح، وتقويمِ الأخلاق، والعزمِ على مكافحة البيئة الموبوءة، والمجتمع الفاسدِ، والتسامي لمعالي الأمور، هِي سِيَـرُ عُظماء الرجال، وزُعماء الإصلاح والتجديد والربانيين والصدِّيقين، فحَمَله كل ذلك على إعادة النظر في هذا الكتاب، وتناوله بالزيادة والتنقيح، وتقديمه للطبع والنشر في أول فرصة.

وليستِ الزياداتُ كثيرةَ العدد، ولكنها كبيرةُ القيمة، وأهمُّها ما جاء تحت

عنوان: «غارَةُ التتار على العالم الإسلامي وظهورُ معجزة الإسلام» وقد بحث فيه المؤلف لأول مرة في أسباب هذه الكارثة الجذرية في ضوء القرآن وقانون المجازاةِ الإلهي، وتجارب الأمم، واستعرض واقع العالم الإسلامي في فجر القرن السابع الهجري، وفي هذا الفصل دروسٌ للأجيال الإسلامية في جميع العصور، وخاصة في العصر الذي وقعت فيه كارثةُ العالم العربي والإسلامي «كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧».

ويليها في الأهمية معلوماتٌ جديدة في محاولات الإصلاح في تاريخ الديانة الهندوكية والمسيحية ومصيرها في مقدمة الكتاب.

وما عدا ذلك فزيادات مُبعثرة في ثنايا الكتاب، وتصويبات لأخطاء مطبعية أكثرها في السنين والتواريخ.

وأسألُ الله أن ينفع بهذا الكتاب، ويُحقِّق به آمالَ المؤلف، ويسد به عوزاً في المكتبة الإسلامية وفي مناهج التربية والتعليم، وأن يحمل هذا الكتاب الشبابَ على تقليد هؤلاء العظماءِ، واقتفاء آثارهم وحبِّهم وتقديرهم، وعلى الله قصدُ السبيل.

ندوة العلماء ـ لكهنؤ　　　　　　　　أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٨/ ٥/ ١٣٨٩هـ

٣/ ٨/ ١٩٦٩م

مقدّمة الطبعَة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فقد طلبتْ مني كلية الشريعةُ في الجامعة السورية إلقاءَ محاضراتٍ على طلابها في موضوع ديني علمي. وأجبتُ إلى رغبتها حرصاً مني على التعاون مع أساتذتها في خدمة هذه المؤسَّسة العلمية العظيمة الناشئة، التي يُرجى أن تقوم بدور مهمٍّ في نشر العلوم الدينية، وتكوين جيل علمي جديد في هذا البلد، واخترتُ موضوع الإصلاح والتجديد والتعريف بكبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام.

وقدمتُ إلى دمشق في آخر شعبان سنة ١٣٧٥، واستمررت في إلقاء المحاضرات إلى ١٩ شوال سنة ١٣٧٥ الموافق ٣٠ أيار سنة ١٩٥٦، وكانت في كل يوم أربعاء محاضرةٌ في مُدرَّج الجامعة الكبير، وكانت ثماني محاضرات، وهي في الأصل عشر محاضرات أدمجت بعضها في بعض حرصاً على توفير الوقت، وأعدتُها إلى أصلها ـ عشر محاضرات ـ عند نشرها، ثم أضفْتُ إليها خمسَ محاضرات عن الإمام عبد القادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرُّومي.

لقد كان في النِّية أن أختم السلسلةَ الأولى من هذه المحاضرات بمولانا

جلال الدين الرومي ، وأبدأ الثانية بشيخ الإسلام ابن تيمية ، وأختمها برجال الإصلاح في القرن الثالث عشر الهجري ، ولكنَّ وصولي بتأخير ، وضيق الوقت قد حالا دون ذلك ، فختمتُها بحجة الإسلام الغزالي[١] .

وإنّي في هذه المحاضرات لا أدَّعي علماً غزيراً ، ولا اكتشافاً جديداً ، كلُّ ما حرصت عليه هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها وإبرازها ، والقول المتَّزن ، وألاَّ أقول شيئاً إلاّ عن اعتقاد واقتناع؛ مستنداً إلى حقائق التاريخ وشهاداته؛ غير مجازفٍ في القول ، ولا معتمد على القياس والنزعة الفردية .

ولم يكن شأني في ذلك شأن من يُحدد غايةً ثم يُخضِع التاريخ لها ، وما أهون ذلك على مؤلف قدير وكاتب لَبِقٍ .

وفي الأخير أرى من واجبي أن أشكرَ الجامعة السورية ، وكلية الشريعة بصفة خاصة على أنَّ اقتراحها للتحدُّثِ في هذا الموضوع أثار في نفسي رغبةَ دراسةِ هذا الموضوع في نطاق واسع ، واستعراضَ التاريخ من هذه الناحية من جديد انتفعتُ بها شخصياً ، وقد أتاحتْ لي فرصةَ التحدُّث إلى مجموعة طيبة من المثقفين .

وأُوجِّه كلمةَ شكرٍ وتحية بصفةٍ خاصة إلى صديقي الجليل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي ، عميد كلية الشريعة على أنَّ إلحاحه لم يدع لي عذراً ، وكان سبباً في تكوين هذه المحاضرات؛ وأشكر زملاءَه الفضلاء على عنايتهم بتنظيم هذه الحفلات الأسبوعية ، والدعوة إليها ، وبذل الوُسع في إنجاحها .

وأشكرُ أخيراً لا آخراً أساتذة الجامعة وطلبتَها ، وعلماء دمشق ، والشباب المثقَّف ـ على حرصهم على حضور هذه المحاضرات والتفرُّغ لها وحسن

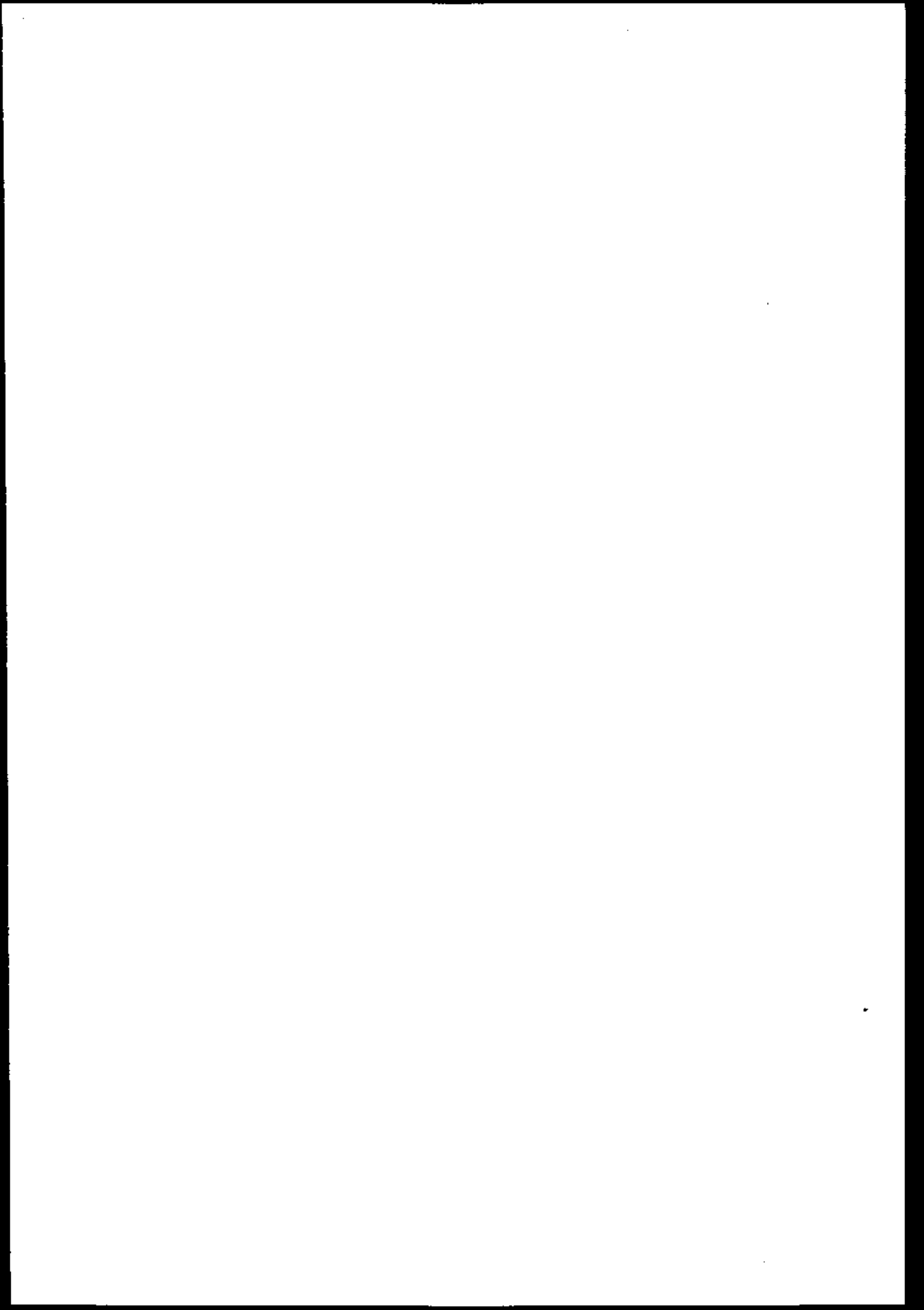
---

(١) استدرك المؤلف أثناء الطبع فأضاف خمس محاضرات أخرى على الكتاب، فأنهى السلسلة بمولانا جلال الدين الرومي كما نوى سابقاً.

استماعهم ، وقد كان لكل ذلك أطيبُ الأثر في نفسي ، وكان مُشجِّعاً كبيراً في دراسة هذا الموضوع الخطير والبحث فيه؛ وشهادةً للذوق العلمي والروح العلمية في هذا البلد الإسلامي العربي. وأدعو الله أن ينفعني والمستمعين الكرام بكل ما جاء في هذه المحاضرات من معانٍ ساميةٍ ، وأن يُحرِّك في النفوس رغبة الإصلاح والتجديد على الأساس الإسلامي الصحيح ، وتلك رسالة هذه الشخصيات التي تحدثتُ عنها ، وذلك ما يَطلبُه منا العصر الجديد ، والله الموفّق للسداد ، والهادي إلى سبيل الرشاد.

دمشق ٢٣ من ذي القعدة الحرام سنة ١٣٧٥هـ

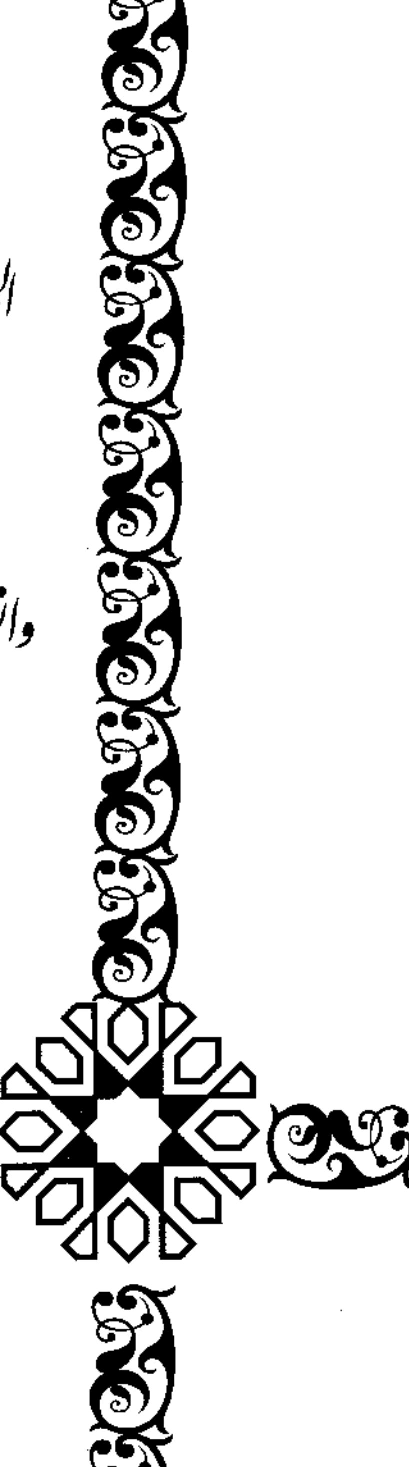
أبو الحسن علي الحسني الندوي

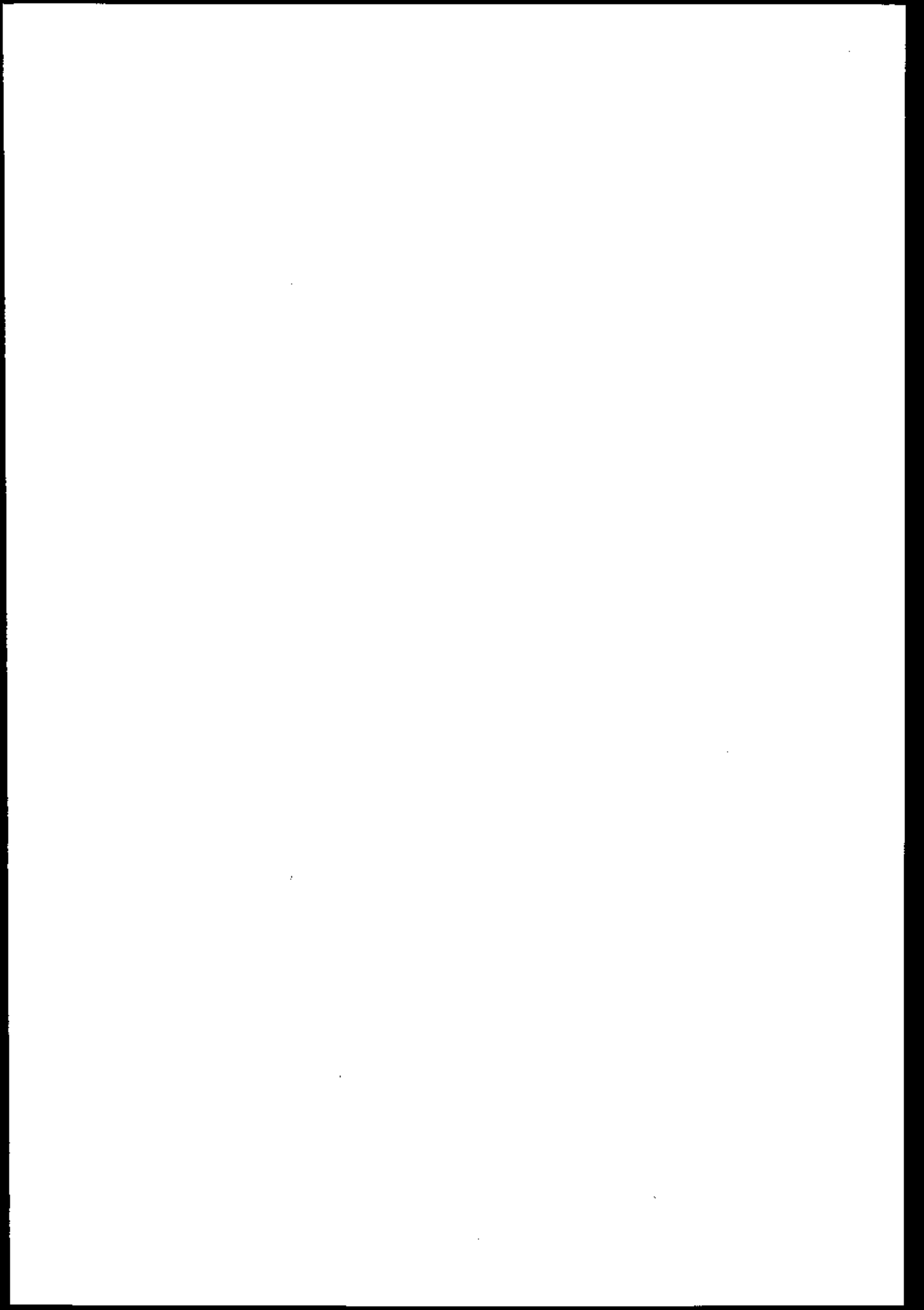


الحاجة إلى الإصلاح والتجديد

والبعث الجديد

واتصالهما في التاريخ الإسلامي





المحاضرة الأولى:

الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد واتصالُهما في تاريخ الإسلام

الحياة متحركة ومتطورة:

سادتي وإخواني: من الحقائق الأولية أنَّ الحياةَ متحرِّكةٌ ومتطوِّرةٌ، دائمةُ الشباب، مستمرَّةُ النُّمو، تنتقل من طورٍ إلى طور، ومن لونٍ إلى لون، لا تعرف الوقوف ولا الركود، ولا تُصاب بالهَرم والتعطل، فلا يُسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط، لا يتخلَّفُ عن ركب الحياة، ولا يَعجزُ عن مسايرتهِ وزمالته، ولا تقصُر عنه خطواته، ولا تنـفَد حيويتُه ونشاطه.

وذلك شأنُ الإسلام، فإنَّه ـ وإن كان مؤسَّساً على عقائدَ ثابتةٍ وحقائق خالدةٍ ـ زاخراً بالحياة، حافلاً بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضُب، ومادة لا تنفد، صالحاً لكل زمان ومكان، وعندَه لكل طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة ولكل جديدٍ من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنَفٍ من عهود التاريخ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر، مددٌ لا يقصُر عن الحاجة، ولا يتأخَّر عن الأوان.

إنَّ الإسلام بخلاف ما يعتقدهُ كثيرٌ مِن المسلمين، وبعكس ما يُصوِّره أكثرُ

المُستشرقين والمؤرِّخين الغربيين ـ ليس حضارَة عهدٍ خاص ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ ، يمثله آثار العهد ومبانيه ، ويعيش في الأحجار والرُّسوم والصُّور لا في واقع الحياة، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدَّى رسالته، كالذي يتحدَّث عن الحضارةِ اليونانية والرومية ، أو الفنِّ التركي والمغولي.

إنَّه دينٌ حيٌ ورسالةٌ خالدة ، إنه حيٌ كالحياة نفسها ، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم وصنعُ الله الذي أتقن كل شيء ، وقد ظهر في شكله النهائي وطوره الكامل وأعلن يوم عرفة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدينٍ آخر ، ولا حاجةَ معه إلى رسالةٍ جديدة ، وبين الحيوية التي لا نفادَ لها ، والنشاطِ الذي لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يُساير الحياة ويراقبها في وقتٍ واحد ، ويُتابعَها في صلاحها واستقامتها ، ويُنكر عليها في انحرافها وزيغها ، فلا هو مسايرٌ مائع ككثير من الأديان المحرَّفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مَثَلُ الدِّين الكامل ، ومَثَلُ الدِّين الحيِّ للإنسان الحيِّ الذي يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ، ويرشده في مشاكله ، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

عَهد الأمة الإسلامية أكثرُ العهود تَقلُّباتٍ ومشاكل:

ولمَّا كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدِّين العالمي ، ولما كانت الأمة الإسلامية هي الأمَّة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنَّه لا نبيَّ بعدي ولا أمَّةَ بعدكم»[١]. وكُتب لها الخلود والانتشار في الآفاق ، كانَ من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ،

(١) [أخرجه ابنُ حبَّان في الصحيح (١٥/ ١٩٦) برقم (٦٧٨٨) من حديث فاطمة بنت قيس ، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٥) برقم (٧٥٣٥) و(٧٦١٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٣): رواه الطبراني ورجال أحد الطريقين ثقاتٌ وفي بعضهم ضعف].

ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ، وتُبتلى بعصورٍ وأجيال لم تعرفها أمةٌ قبلها ، وأن تواجه صراعاً في ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة ، والاجتماع ، والتشريع ، لم تواجهها أمةٌ في التاريخ .

ولذلك نرى أنَّ الفترة التي منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلُّباً وتطوُّراً ، وأكثرها تنوعاً واختلافاً ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمةٍ على بالٍ ، ولم يحلم به جيلٌ من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلّها ، وتخرج من هذه المعارك ظافرةً منتصرةً ، هي أمةٌ جديرة بالحياة ، صالحةٌ للقيادة ، ولا يُمكن لقوَّة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها ، وتمحوها من الوجود .

كيف استطاعت الأمة أن تُقاوم تغيراتِ الزمانِ والمكان:

ولكم أن تتساءلوا : كيف استطاعت الأُمَّةُ أن تُقاومَ المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي لا تكاد تنتهي ، واختلافَ الزمان والمكان ، وقد كان بَعْضُه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمةٍ ، أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

والجواب : أنها استطاعت ذلك بقوتين :

القوَّة الأولى : هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسِه ، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئةٍ وفي كل محيطٍ ، وفي كل عَهدٍ من عهودِ التاريخ .

فقدَ خَصَّ اللهُ محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكلِّ زمان ومكان ، تستطيع أن تُواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحلَّ كلَّ ما يعتري من المشكلات والمعضلات .

والدراسةُ العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح

ومصادر الإسلام ،كافلةٌ بالاقتناع بما أقول ، ولكنه موضوع الفقه الإسلامي والنُّظُم الإسلامية.

والقوّة الثانية: هو أنَّ الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها وخلودها رجالاً أحياءَ أقوياء في كل عصر ، يَنقُلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة ، ويُعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إنَّ هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصرٍ ومصر ، لأنَّه يُثيرُ في أتباعه ودارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرُّد على الأوضاع الفاسدة ، والمجتمع الزائغ ، والأخلاق المنحلّة ، والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والتَّرف المسرف ، ويَفْرضُ عليهم إنكار المُنكر ، وكلمةَ حقٍّ عند سلطان جائر ، ويُحرِّمُ عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وَبيعَ الضمائر.

ويَهَبُهُم كذلك الأصول والنصوص المتينةَ الحكيمة التي يَحلُّون في ضوئها المشاكل الطريفةَ ، والمسائلَ المعقدة ، لذلك نرى أن هذه الأمة لم تَعْدَم في عصر من عصورها مُجدِّدين في الدين ، وأئمةً في العلم ، وعماليقَ في الفكر ، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في الإصلاح ، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمية ولا في الكيفية ـ في أُمةٍ من الأمم ، ولم يكن ذلك من المصادفات والاتفاقات ـ وأنا لا أؤمن بالمصادفات في صنع الله وسَيْرِ الكون ـ إنَّما هو طبيعةُ هذا الدين ، وقدرتُه العجيبة على الإنتاج والتوليد ، وطبيعةُ هذه الأمة وصلاحيتُها للبعْثِ الجديد ، وإنما هو لُطفُ الله بهذه الأمة بل بالإنسانية ، إذ لو ضاعتْ هذه الأمة لضاعتْ أمانة السماء، ولضاعت أمانة الإنسانية ، وإنما هي حراستُه الكريمة وخفارتُه القوية لهذا الدين الذي فُرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩] .

هجمات على الإسلام:

وقد كان الإسلامُ من أوّلِ عهده هدفاً لهجماتٍ عنيفةٍ قاسية لا تحتملُها

ديانةٌ من الديانات ، هجماتٍ على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرِّفْق ، ولا تَرضَى إلاّ بالفناء ، إنَّ الديانات التي فَتحتْ في عصرها الدُّنيا ، وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلَّلتْ أمام هجماتٍ أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيتها وكيانها ، ولكنَّ الإسلام بالعكس من ذلك ردَّ هذه الهجمات كلّها على أعقابها وكسرَها ، وظل محافظاً على قُوَّته وشخصيته ، وعلى مزاياه وروحِه .

وقد كانتِ الباطنيةُ بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام النقية ، وعقائدِه الصافية الواضحة ، تتهدَّد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارةُ الصليبية ، ثم هجومُ التَّتار ـ ذلك الجرادُ المنتشر ـ صاعقةً نزلت على الإسلام والأمةِ الإسلامية ، وكانت جديرةً بأن تقضي على الإسلام وتُقصيه من ميدان الحياة ومصافِّ الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات للفَظَ نفسَه الأخير ، وأصبحَ أُسطورة من الأساطير .

ولكنَّ الإسلام تحمَّل كلَّ هذه الصدمات وكلَّ هذه الصواعق ، واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكفِ أنه عاش وبقي يلعب دوره ، بل إنه شقَّ طريقه إلى الأمام ، وفتح فتوحاً جديدة في ميدان العلم والعقلِ والسياسة .

وقد مُنِيَ الإسلامُ في سَيره الطويل بمؤثرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية ، فقد كان مراراً عُرضة لتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبطلين ، ودخلتْ فيه البِدع والأفكار العجمية وتسرب إليه الشِّرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تُسْلِمُ ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشَتْ فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية .

ثم امْتُحِنَ ـ منذ العهد الأموي ـ بمادية جارفة ، وترفٍ فاحش ، وعبادة البُطون والشهوات ، ثم ابتُـلي ـ من العهد العباسي ـ بالإلحادِ والزندقة ، والفلسفات العجمية ، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام الدينيُّ والعقليُّ .

وقد كانتْ هذه الهجماتُ شديدةً ودقيقةً ؛ حتى أصبح كثيرٌ من الناس يَشُكُّون

في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضُهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهايةَ الأمة الإسلامية بصفتها أمةً ذاتَ عقيدةٍ ورسالة.

ولكنَّ الإسلامَ أبى أن يستسلم لهذه الهجمات ، وأن يخضعَ ويستكينَ لأعدائه ، وأبَتْ رُوح الإسلام أن تنهزمَ ، وأبى ضميرُ الأمة المسلمة أن يُصالح هذه الفتن ، وأن يتفاهم مع أعداء الإسلام والمتآمرين ضدَّهُ ، وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام في كل عهدٍ وفي كل ناحية منٍ نواحي العالم الإسلامي رجالٌ فضحوا المحرِّفين والمتآمرين ، ورفعوا اللِّثام عن وجه الإسلام ، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات ، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السُّنة دفاعاً قوياً ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنُّوا الحربَ على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا الماديةَ والتَّرف بكل قوة ، ونَعَوْا على المترفين في عصرهم ، وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرينَ والملوكِ المستبدين ،وحَدُّوا من سلطان العقل الذي قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدةً ، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقةً جديدةً.

وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقليةً وعلماً وخُلقاً ، وكانوا أصحابَ شخصية جذّابةٍ ، وكفاية فائقةٍ ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة «يد بيضاء» تُبدِّدُ الظلماتِ وتُنير السبيلَ.

وقد وَضَحَ من وجود هؤلاء المصلحين المجدِّدين للدين الإسلامي باستمرار لا يُحْمَلُ على مجرَّد المصادفات: أنَّ هذا هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشادِ الإنسانية ، وقضى بخُلوده وبقائه ، وأنَّ مهمَّة الهداية والإرشاد الجليلةِ التي كان الأنبياءُ يُبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيتْ على عاتق هذه الأمة التي تَخْلُفُ خاتم النبيين ﷺ في هذه المهمة ، وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته.

نُدرَةُ شخصياتِ التجديدِ في الأديان الأُخرى :

بالعكسِ من ذلك يَندُر في الديانات الأخرى شخصياتٌ عظيمةٌ تعيد إليها الحياةَ والشباب ، وتُوجِد في أتباعها وأصحابِها الحركة والنشاط ، وتُوجِدُ فيهم الثقة بأديانهم وعقائِدهم ، وتنفُض عنهم غُبارَ القرون الماضية ، ورُكامَ عصور الانحطاط .

إنَّنا إذا استعرضنا تاريخَ هذه الديانات رأينا فتراتٍ طويلة قد تمتدُّ على مئاتٍ وآلافٍ من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والإصلاح من يُجدِّد هذا الدِّين ويُدِيلُه من أعدائه الذين تآمروا ضد رُوحه ونظامه ، وينقِّيه من شوائب البِدَع وألوانِ التَّحريف ، ويَعرِضُه في صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوةً قوية سافرة ، ويُجرِّده من التقاليد والبدع التي لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترفَ الذي ابتُلِيَ به أتباع هذا الدين ، ويُوجد بإيمانه القوي وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة ، وثقة جديدة بدينهم .

ونضربُ لذلك مثلاً بالمسيحية ، فقد امتُحِنت في عهدها الباكر ـ يعني في منتصف القرن الأول المسيحي ـ بتحريفٍ لا يوجد له نظيرٌ في تاريخ الديانات في عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطةٍ توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (Paul ـ ١٠ ـ ٦٥م) وكان هذا الانتقال أشبهَ بقفزةٍ من رُوح إلى روحٍ ، ومن وضع إلى وضع ، ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثاني الأول إلا في الاسم وبعض الطُّقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحي (Ernest de bunsen) فيقول :

«إنَّ العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيِّدُ المسيح بقوله وعمله ، إن مَردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليومَ وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارِق اليهودي والمسيحي ، وشَرحِه للصُّحف المقدسة على طريقة التجسيم Essenie

والتمثيل ، ومَلْئِه هذه الصحفَ بالنُّبوءات والأمثلة ، إن بولس في تقليده لإسطفانوس Stephen داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليدَ البوذية .

إنَّه واضعُ ذلك المزيج ، من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً .

ليس المسيحُ ، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان ، همُ الذين وضعوا تلك العقيدة والنظامَ الديني الذي تلقَّاه العالم المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً» [١] .

وبَقيتِ المسيحيةُ قروناً طوالاً ـ ولا تزال ـ تحمل روح بولس وتحافظ على تُراثه ، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة من يثورُ على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ، ويحاول نَقْلَها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفاءَه المخلصِينَ من أتباعه .

وانسلختْ قرونٌ ومضت أجيالٌ إثر أجيالٍ ولم يظهرِ الرجل المنتظرُ لتجديد المسيحية وتجريدِها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي ، فظهر «مارتن لوثر» Martin Luther في ألمانية وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جُزئية ، وعارض بضع عقائدَ ألَحَّتْ عليها الكنيسةُ النصرانية ، ولم يكن إصلاحها جوهرياً شاملاً ، ولا ثورةً ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلُفْه رجلٌ في العالم المسيحي يرفعُ صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتداءاتها ، ويقومُ بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفِه .

يقول الكاتب الفاضل ج . باس مولينغر (J.Bass Mullinger) في مقاله في : «دائرة معارف بريطانيا» :

(١) Islam or Trueó Christianity P. 128.

«إذا بحثنا عن الأسباب التي جعلتْ جهُود الإصلاح الديني قبل القرن السادس عشر لم تنجحْ أيَّ نجاحٍ نستطيع أن نقولَ بلا تلعثمٍ: إنَّ السَّبب الوحيد في ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمُثُلِ القديمةِ».

ويقول في محلٍّ آخر:

«إنَّ إخفاقَ الجهود المتتابعة لاتخاذ قرارٍ جامعٍ حول إصلاح الكنيسة من حقائقِ التاريخ الأوربيِّ الثابتة».

ويقول:

«وُجِدتْ جهودٌ كثيرةٌ ذاتُ أهميةٍ بالغةٍ لإصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر. ولكنها وقعتْ فريسةَ ضغطِ الكنيسة وأخفقت».

وظلَّتِ المسيحية تمشي على الدَّرب الذي اختارته أو بالأصح فُرِضَ عليها، وضَعُف تأثير الكنيسة وانحلَّ سُلطانها في العهد الأخير، وقامت دولة الماديَّةِ في أوربة، وأصبحت الديانةَ الحقيقية التي خَلفتِ المسيحية وخلفتْ كل ديانةٍ في هذا العالم الغربي، فلَم يظهرْ في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويُعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يُوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، ويُنشىء فيهم القوة الروحية والخُلقية التي يُقاوِمون بها إغراءات الماديَّةِ القاهرة، ويتظاهرون بحياةٍ فاضلة تقوم على العلمِ والأخلاق والعقائِد المَسيحية، ويواجهون مُعضلات العصر وأزَماتِه، ويحاولون حَلَّها في ضوء الدِّين، بالعكس من ذلك نرى أن المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربة يائسون من مُستقبل المسيحية، ومُصابون بمركَّبِ النقص أمام الماديَّة اللادينية.

* * *

وهكذا الدياناتُ الشرقيةُ الأخرى، فالبَرهميَّةُ قد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادَّتها الأولى، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطرِ

الكون ، وفقدت قُوتها الخُلقية ، وتعقَّدت تعقداً أصبحت به فلسفةً دقيقةً غير عملية، وفقدت ـ على مَرِّ الأيام ـ التوحِيدَ الخالص في العقيدة، والعَدل في الاجتماع، وهما الدعامتان اللَّتان يقوم عليهما بناءُ ديانةٍ في الباطن وفي واقع الحياة.

وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبنشد ـ شروح الكتب المقدسة عند البراهمة ـ أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوسَ التي استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندي ، وقدّموا نظاماً فلسفياً تصورياً يقوم على وجود الوحدة في الكثرة ، ونال هذا العرضُ الجديد للديانة البرهمية رضا الأوساط العلمية لنزعتها الدائمة إلى «وحدة الوجود» ، ولكنه لم يُرضِ الشعبَ القاصر في الفكر ، المُفتقرَ إلى النظم العملية والتعاليمِ الواقعية ، وبقيتِ الديانةُ البرهمية تَفقدُ قُوتها ونفوذها ، وبقيَ التذمُّر منها وعدمُ الثقة بها يزداد ويقوىٰ على مر الأيام ، وتجسَّم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماسُ العِوَضِ عن الديانة الهرِمة في شخص بوذا Buddha ولم يكن ذلك إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد.

ظهر بُوذا بفكرةٍ جديدة أو ديانةٍ جديدة ـ إذا كان لا بدَّ من هذه الكلمة [١] ـ تقوم على تجريد النفس وتهذيبها ، وقمع الشهوات ، والعفة والمواساة ، واللهج بالعمل ، وعلى رفضِ التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقي الذي أُصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير ، وانتشرتْ هذه الفكرة أو الديانة بسرعة ، وشملت الجزءَ الجنوبي والشرقي من آسيا الواقعة بين بحر الهندِ والبَحر الكاهل.

ولكنْ ما لَبِثَتْ هذه الحركةُ الدينية العظيمة أن انحرفتْ وتحرَّفت ،

---

(١) أتردَّد في إطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لاتحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين (راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذا» Buddha).

وهجمتْ عليها الأوثانُ والتماثيل والطقوسُ التي حاربتها البوذية وثارت عليها ، حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها ، وأُصيبت بانحطاط في الأخلاق ، والتعقُّدِ في الأفكار ، والكَثرة في المذاهب والفِرق.

يقول أستاذُ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولةٌ تُعنى بمظاهر الآلهة وعبادة الأوثان ، وتغير محيط الرابطة الأخوية البوذية وظهرت فيها البدع»(١). وتقول مؤلِّفة أوربية (Mrs. Rhys Davids) كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية (Sir Radha Krishnan): «لقد أظلتِ الأفكارُ العليلة تعليم بوذا الخُلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهبٌ جديد في الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب ، ثم اضمحلَّ وخلفه مذهبٌ آخر ، وهلمَّ جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهامُ الخلاَّبة وحجبتِ الجوَّ ، وساد الظلام ، وقد اضمحلتْ دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتَّنطعات».

ولم يظْهَرْ في العالم البوذي الواسع وفي المدَّة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مُصلحٌ كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويُحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، يُجدِّد لهذه الديانة العظيمة شبابها الأول وبساطتها الضائعة ونقاءَها المفقود.

وهكذا بقيت الديانةُ البرهميَّةُ منكسرةً أمام البوذية التي تغلَّبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شَنْكَرْ أَجَارِيَهْ (Shankiracharia(٢)) في القرن الثامن المسيحي.

وقام بنشاطٍ عظيمٍ في محاربة البوذية ونَشر البرهمية حتى تمكَّن من إجلاء

---

(١) الحضارة الهندية: لمؤلفه ايشورا توبا.

(٢) وُلد في ملابار جنوبي الهند، وجال في الهند من أقصاها إلى أقصاها ومات في الثانية والثلاثين من عمره.

الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها وإضعاف سُلطانها حتى ضعفت جداً وبقيت ديانةً من الديانات الهندية القَديمة الدارسة.

استطاع شنكر أجاريه بنشاطه وحماسته وذكائه أن يُقصي البوذيةَ من الحياة ولكنه لم يستطع ـ ولعل الأصح أنه لم يُرد ـ أن يُعِيدَ البرهميةَ إلى وضعِها الأول، ويُعيدَ عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون، ورفض الوسائط بين العبد وربِّه، والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات.

ويقولُ كاتب مقال «موسوعة الديانات والأخلاق» C.V.H Chate الذي كان أستاذ السَّنْسكريتية بكلية «الفستن» في «بمباي» ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها، وهو يتحدَّث عن (شنكر أشاريه):

«إنَّ الغاية الأولى التي استهدفها (شنكر أجاريه) في حياته، هي إحياء ذلك النظام الديني والفلسفة الدينية التي تَحثُّ عليهما «اوبنشد» (شروح الكتب المقدَّسة عند البراهمة) إنه نشَرَ العقيدة المطلقة لوحدة الوجود، وكانت غايته الرئيسة أن يقوم بتعليم الناس أن «اوبنشد» و«بَهكْوَتْ كِيْتَا» لا يتعرَّضان للقانون، وإنما جُلُّ ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود في أكمل صورها.

إنَّ شنكر أشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها. إن الأصنام عنده مظهرٌ للإله ورمز له. إنه ذَم الغُلوَّ في الطقوس والتقاليد وفلسفة الأعمال، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التي حَظيت بالقبول، يقول: «إن الوثنية حاجةٌ طبيعية لنا في مرحلة خاصة لنشأتها، وعندما تبلغ الروحُ الدينية النضجَ والاكتمال تستغني عن الوثنية. فكلما تبلغ الروحُ الدينية مرحلة النُّضج يجب الإعراض عن المظاهر والرموز».

وقد سمَحَ شنكر أشاريه بعبادة الأصنام كرمز الإله. ولكن لمن لم يبلغ مبلغ

البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكانٍ لا يقبلون أي تغيير وتبديل» [١] .

ولا تزالُ هاتان الديانتان الهنديتان ـ البرهمية والبوذية ـ محتفظتين بوضعهما المحدَث ، محتفظتين بتُراث عصور الانحطاط ، محتفظتين بالطقوس والتقاليد والأصنام والتماثيل ، وأخفقتْ جميع المحاولات والجهود التي تبتدىء من (شَنْكَرْ أَشَارِيَهْ) وتنتهي إلى (دَيَانَنَدْ سَرَسْوَتِي [٢]) إلى غاندي الزعيم ، أن تُعيدَ هذه الديانة القديمة إلى وضعها الأول ، وإلى الوضع الصحيح الذي يَتَّفق عليه مع رسالات الأنبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدِّد .

وقد ألقتْ أوزارها أخيراً للمادية واللادينية واعتزلَتِ الحياة وانحصرَتْ في المعابد وفي بعض المظاهر والتقاليد ، ولا يُعرف في الهند دعوةٌ قوية ذاتُ بالٍ شعارُها وهتافها «إلى الدين من جديد» بينما نعرفُ دعواتٍ قويةً نشيطةً شعارها وهتافها «إلى الحضارة القديمة من جديد» وإلى لغة الهند القديمة الدارسة «السَّنْسَكريتية» من جديد .

حَاجــةُ الأديــان إلى الرّجــال الأَحيــاء:

والسِّرُّ في ذلك أن الأديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ، ولا تنسجمُ مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءمُ مع روح العصر إلا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين ، يملكون الإيمان القويَّ الجديد وسمُوّاً روحياً لا يُشارِكهم فيه عامَّةُ الناس ، ونزاهةً ممتازة عن الأغراض وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً في المبادىء والعقائد

---

(١) مقتطف من مقالة شنكر أشاريه باختصار وتلخيص، اقرأ كتاب: Encyclopaedia of Religion and Etchics (Fourth Edition 1958). Volume XI. Article Shankar Acharya.

(٢) واضع الديانة الآرية الثائرة على الوثنية وهي أشد الفرق حماسة وعداء للمسلمين وتقول بقدم العالم.

وفي سبيل الدعوة؛ ومستوىً عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير ، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة ، ويخلقون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة ، ويُلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة .

وذلك لأنَّ مطالب الحياة وتكاليفَها مُتجدِّدة ، وإغراءات المادية قويةٌ جديدة دائماً ، وشجرةَ المادية لا تذوي ولا يعروها الذبول وهي خضراء لا تنقطع ثمارها ، وللمادّية ـ مع أنها غنيةٌ بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الدعاة والترغيب ـ في كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون ، فإذا أصاب الدعوةَ الدِّينية الوهن ، وإذا أُصيب أهل دينٍ بضعفٍ في العقيدة ، أو ضَعفٍ في الخُلق أو ضَعْفٍ في الدعوة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادّية الفتية والدعواتِ المعارضةَ القوية .

إنَّ الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتلةً للحياةِ ، وإنَّ اللات ومناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجِدَّتهما كما يقول إقبال ، فلا يَظُنَّ الدَّاعي أنه قد انتهت مهمته ، ولا تُمكن مقاومة المادية الفتاة ، ولا يمكن سحبُ اللات ومناة عن الحياة إلاّ بالدّين القوي والإيمان الجديد والدّعوة المتحمسة والعِلم الراسخ والعقل الواسع .

تاريخُ الإصلاحِ والتَّجديد مُتَّصلٌ في الإسلام:

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتَّجديد متصلٌ في الإسلام ، والمُتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثَغرة ولا ثُلمة في جُهود الإصلاح والتجديد ، ولا فَترة لم يظهر فيها من يُعارض التيار المنحرف ويُكافح الفساد الشامل ويرفعُ صوت الحق ، ويتحدَّى القوى الظالمة أو عناصرَ الفساد ويفتحُ نوافذ جديدةً في التفكير .

والدَّارسُ لهذا التاريخ والمُتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلامُ فيه على العالم الإسلامي ، وخبتْ مصابيحُ الإصلاح وخفتتْ

أصواتُ الحق ،وماتَ الضمير الإسلامي ،وتبلَّدَ الشعور ، وأضرَب الفكر الإسلامي عن العمل.

إنَّ هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إن مردَّها إلى منهج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال ، إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلِّفين الذين أَدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدينُ لهم كل مؤلِّف ودارس ـ في التأليفِ وليس في التاريخ ، أو بكلمة أخرى: إن المسؤولية تقع على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جِدَّته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفِتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في رُكام الماضي ، لا يهتدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بَحث وعناء ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس وإجهادِ العقل والعين.

وقد كان بعضُ هذه المذاهب وبعض هذه الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستندُ إلى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْلٍ وطَوْل ، ولكنها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحتْ موضوعَ علماء الآثار لا محل لها إلا في المتاحف والصحائف.

التَّجَنِّي على صَلاحيةِ الإِسلام:

إنَّ هذا النقصَ في التأليف الذي صَرَّحْتُ به مع الاعتذار ، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام مُتقطعٌ يحتوي على ثَغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيها إلا المندفعين مع التيار ، المستسلمين للفساد ، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والإنتاج ، لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقريٌّ بعد عصر طويل ، وقد تخلو قرونٌ ومئات

سنينَ عن عظيم يستحق أن يُسمَّى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدِّداً في العلم والدين.

إنَّ هذه العقيدة الخاطئة التي لم تَقُم إلاَّ على الدراسةِ القاصرة المستعجلة للتاريخ، وعلى منهاج التأليف الذي اتَّخذه مع الأسف أكثر المؤرِّخين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها اتصالٌ بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمِّسين وببعض رجال الدعوة إلى سُوء الظن بالإسلام وضَعف إنتاجه، إنها نتيجة خطرة تُضعِف الثقة بالإسلام، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل للدعوة، لا تنبعُ إلا من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والإخلاص، وسنداً من الكفاح والنجاح.

مَصادرُ التَّاريخ المهجُورة:

والذَّنْبُ ليس على المؤرِّخين فقط، إن الذَّنْبَ على من يقتصرُ على كُتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح، ولا يتعدَّى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا تُوجد في ركن التاريخ في مكتبة، ولكنها مادة واسعة للتاريخ، ومصدرٌ قيِّمٌ من مصادر التاريخ، هي كُتب الأدب وكُتب الدين والكتب التي دَوَّنَ فيها بعضُ العظماء اعترافاتهم وسجَّلوا حوادث حياتهم وتجاربهم، والكتبَ التي حفظ فيها بعضُ التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظَهُم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميعُ الرسائل والخطب التي تدلُّ على روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتُب التي أُلِّفتْ في الحسبة وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات.

فلو اتسعت الدِّراسةُ وشملت هذه المصادرَ المهجورة وتخصَّص لهذا الموضوع باحثٌ واسعَ الفكر، صبورٌ على المطالعة، دقيق في الملاحظة؛ استطاع أن يُنتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مرافقان لهذه الأمة لا يتخلَّفان عنها.

كيف يُؤلَّفُ تاريخُ الإصلاح؟

ويجبُ على هذا الدارس ألا يقتصر على بعض النقول ، وألا يقتضب العباراتِ المنقولةَ عن كُتب هذه الشخصيات العظيمة ، ولا يضُنَّ بالألفاظ والكلمات ، وألا يمرَّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مرّاً سريعاً في دراسته التاريخية ، بل يجب أن يعيش في كُتبها ومؤلَّفاتها وأفكارها مدةً ، ويتذوّق أدبها وفكرتها ، ويتنسَّم طِيبها ، ويحاولَ أن ينتقل من جَوِّه إلى جَوِّ هؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ، ويُصوِّرهم في حقيقتهم ، ويُشعرَ القارئَ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفةً شخصية ، وعاشَ معهم مدة من الزمان.

لذلك تسمحون لي بأن أَعرض لكلٍّ واحد ممن أذكرهم في محاضراتي أمثلةً مِن كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم ، وقد تكون متنوِّعَة ، وقد تكون مُسهبَةً ، لأني أعتقد أن الرجل لا يُعرف إلا في كتاباته المتنوعة الطويلة ، ولا يجوز الحكم عليه إلا بعد مشاهدة طويلة ، ومجالسَ وألوانٍ من الحياة عديدة ، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهد وإلى هذه المجالس إلا عن طريق هذه الكتابات والمؤلَّفات.

تَطبيقُ مقاييسِ العصر على الشَّخصياتِ القديمة:

ثمَّ الخطيئةُ الثانيةُ التي يرتكبها بعضُ المتحمِّسين والمؤلِّفين في هذا العصر ، أنهم يُكوِّنون في ذهنهم صورةً خاصّة للمُجدِّد أو المصلح ، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام ، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبةَ في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور ، تذمَّروا وأنكروا ، وكثيرٌ منهم عندهم مقاييس خاصةٌ ، وهي مقاييسُ عصريةٌ يَقيسون بها «العظيم» أو «الدَّاعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة ، فإذا لم تنطبقْ هذه المقاييسُ ـ التي هي مقاييس العصر ـ على رجل مهما كان عظيماً ، ومهما كان قديماً ، ومهما كانت خدمتُه للإسلام عظيمة ، ومهما كان

مخلصاً ، ومهما نجح في مهمته التي تكفَّلها أو أُسندت إليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ، ولم يَعدُّوه من المصلحين .

وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً كمقياس الإبداع في الأفكار مثلاً ، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً ، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي ، أو معارضةِ الدولة القائمة في عصره مثلاً ، فإذا لم يُحققْ هذه الشريطة ، لم يكنْ رجلَ عصره ، ولم يَستحقَّ أن يَدخُلَ في صفِّ المُصلحين .

إنَّ هذه المقاييسَ والمعايير لها قيمةٌ عظيمةٌ ، وأنا لا أُنكِر أهميتها ومكانتها في الإصلاح ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم : إن الزمان والبيئة عاملان هامان في حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكلُ ومسائل ، وملابساتٌ وعوائق ، قد تحدِّد نطاق العمل ، وقد تفرِض منهَجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغايةُ واحدة .

فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، ونُطبِّق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكُم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ونسلبَه محاسن نفسه ، ونحرِمَه من كل مأثرةٍ وكل عظمة ، لأنه لم يحقِّق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن «المثل الكامل» في الإصلاح المنشود ، والتجديدِ المطلوب .

التُّراثُ الإسلامي مجموعةٌ تَدِينُ لكل مُصلحٍ وعامل:

إنَّ هذا التراث الذي وصل إلى أيدينا اليوم ـ ولستُ أسميه التراثَ بالمعنى الذي يريده الغربيون من كلمة (Legacy) ، لأن الإسلام دينٌ حيٌّ خالدٌ ، ولكنْ أسمِّيه بمعنى الثروة التي انتقلتْ إلينا من أسلافنا : تُراث العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والإيمان القوي ، والسُّنَّة الخالصة ، والأخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة ، والأدب الإسلامي الرائع مجموعةٌ فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حُكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومُحاربة الجاهلية والمادية ، وبالعودة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية ، وبثِّ الروح الإيمانية في هذه الأمة .

ولكلٍّ مَن أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، وردَّ هجماتِ الفلسفات الأجنبية .

ولكلٍّ مَن دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنةٍ هددتِ الإسلام .

ولكلٍّ مَن حَفِظ على هذه الأمة دينَها ، ومصادرَهُ ، وقام بتدوينٍ جديدٍ للحديث والفقه ، أو فتحَ باب الاجتهاد ، ومَنحَ هذه الأمة ثروة واسعة في التشريع ، وقانوناً مُنظِّماً للحياة والمجتمع .

ولكلٍّ مَن حاسب المجتمع في عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظُمِهِ ، ودعاه إلى الإسلام الصحيح .

ولمَن سلك سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثُرت فِيه الشكوكُ ، واضطربتِ العقائد ، ووضع لعصره كلاماً جديداً .

ولكل من خَلف الأنبياءَ في الدعوة والتذكير ، والإنذارِ والتبشير ، وحرك الإيمان في النفوس ، وقام في وجه المادية الجارفة في عصره ، فحدَّ من تأثيرها ، وأنقذ خلقاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيه .

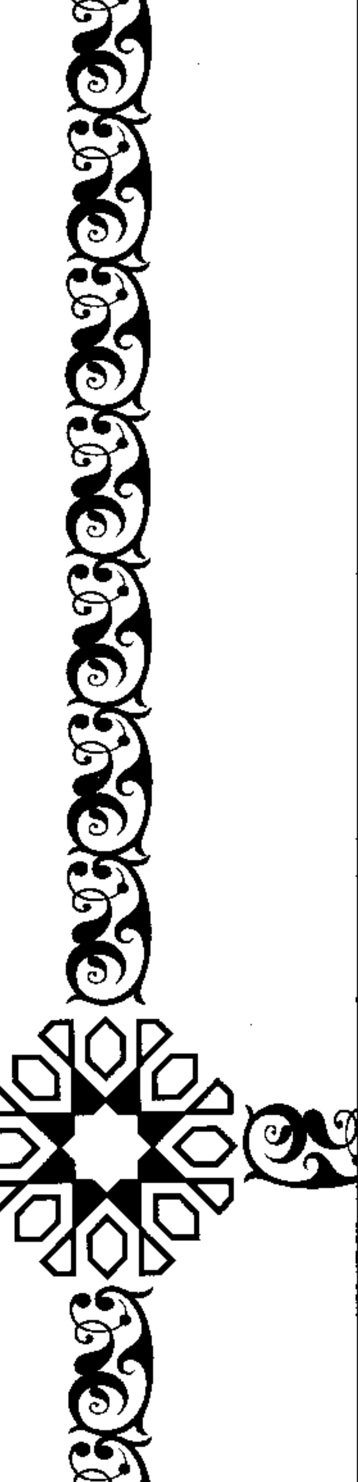
ولكُلٍّ مَن حفظ هذه الأمة وقُوّتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكونَ فريسةً للغاراتِ الأجنبية ، ولمنْ أخضع بدعوته الحكيمة الرفيعة عدوّاً لم تَعملْ فيه السيوف ، ولم تُقاومه الجنود ، وحطَّم العالمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فسخَّرهُ أصحاب الدعوة بقُوتهم الروحية وإيمانهمُ القوي للإسلام ، وجعلوه من أتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبِه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تُخضعها المباحثُ العلمية والفلسفات الدينيةُ إلى غير ذلك ، ولكُلٍّ فضلٌ .

وما التاريخُ إلا تأديةُ الأمانات إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل، والاعترافُ بالفضْلِ، وقد قام كلُّ واحدٍ منهم بدوره، وساهم بقسطه؛ القسط المطلوب منه، وكلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌّ كان سهماً مُصيباً في كنانة

الإسلام ، ولولا هذه الجهودُ المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلا بِمُكَبِّرَة التاريخ ، لما وصلتْ إلينا هذه المجموعة التي نَعتزُّ بها ونَستندُ إليها ، ونقتبسُ منها النور سليمةً مَوفورة نتباهى بها على الأمم والديانات.

وعلى هذا المنهاج الذي أعتقدُ أنه المنهاج العادل الواسع ، سأتحدّث عن هذه الشخصيات الإصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات التي تكتنفها ، ومقدارِ نجاحها في حقل الدّعوة والإصلاح والتجديد ، وبِيَدِ اللهِ التوفيقُ.

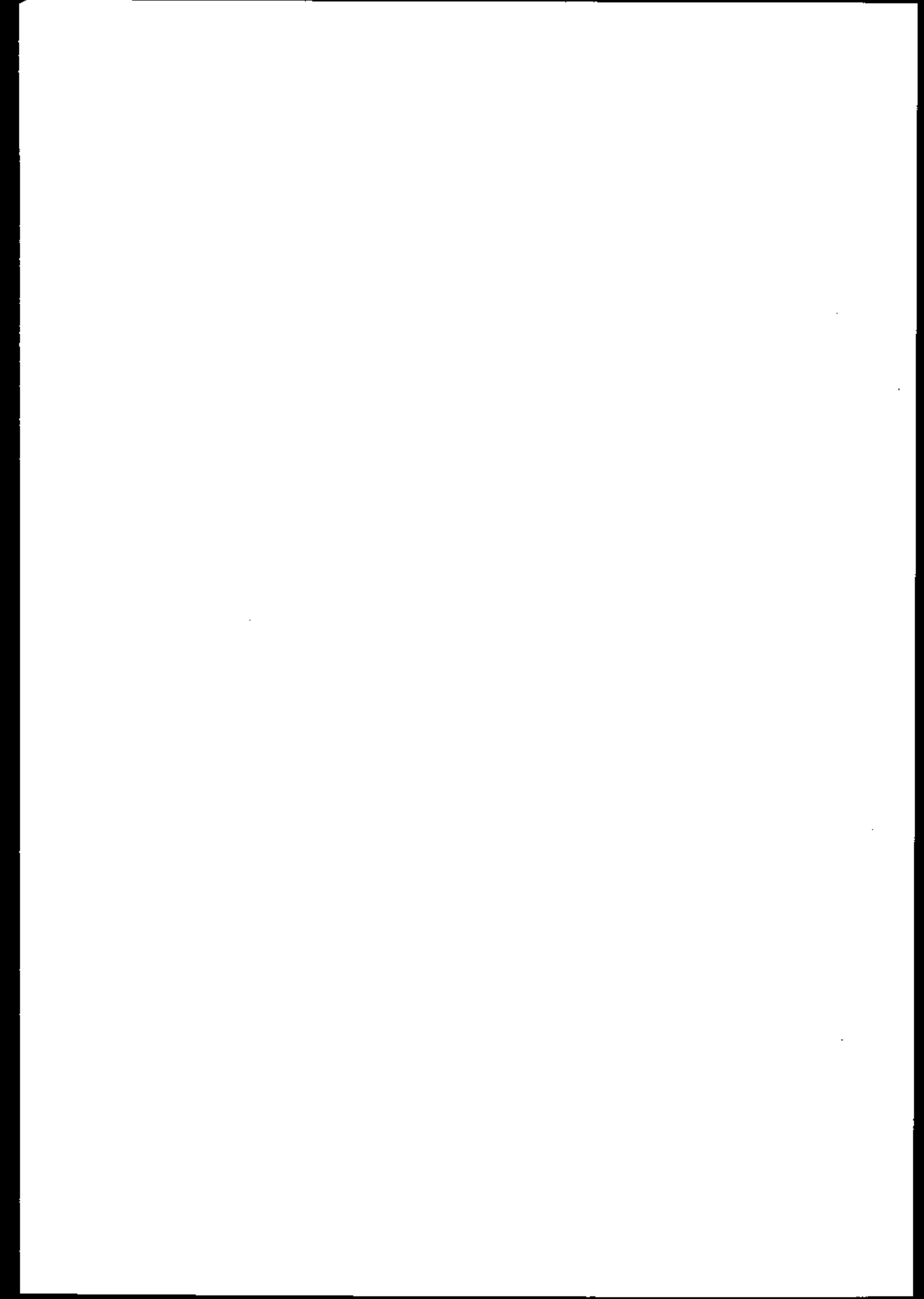
* * *



جهود الإصلاح والتجديد

في القرن الأول

سيدنا عمر بن عبد العزيز



المحاضرة الثانية:

جهودُ الإصلاح والتَّجديد في القَرْنِ الأول
سيدُنا عمرُ بن عَبد العَزيز

النّـزعَاتُ الجاهليّـةُ في العَهْـد الأُموي:

كانتْ نهايةُ الخلافة الراشدة واستحكامُ الدولة الأموية ـ التي كانت بالاختصار دولةً عربيةً أكثر منها دولةً إسلاميةً ـ انتقالاً جديداً في تاريخ الإسلام، وفرصةً انتهزَتْها الجاهليةُ التي كانت لا تزال بالمِرصاد، فعاشت النزعاتُ التي قضى عليها الإسلام، وعادت العصبيّاتُ القبليّةُ والنخوةُ الجاهلية التي نعاها النبي ﷺ في خطبته بقوله: «إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء، كلُّكم من آدم، وآدمُ من تراب، لا فَخرَ لِعَربيٍّ على عَجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلاّ بالتقوى»[1] والتي نفاها الإسلام من مراكزِهِ وحواضره، فلجأتْ إلى بادية العرب.

---

(١) [أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في التفاخر برقم (٥١١٦)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة الحجرات برقم (٣٢٧٠)، وفي أبواب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة برقم (٣٩٥٥)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٣٢) برقم (٢٠٨٥١)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١ـ٥٢٣) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

عادت هذه العصبيّاتُ إلى نشاطها ونفوذها ، وأصبحتْ هذه العصبيّةُ الذميمةُ والنخوة الأثيمة ، والأَثَرةُ القَبليّة والطائفية والنَّسَبيَّةُ التي هي أشدُّ خطراً على المصلحة الاجتماعية ، وأشدُّ معارضة للروح الإسلامية من الأَثَرةِ الفردية ، فضيلةً في هذه الحياة ومفخرةً من مفاخر الإنسان ، بعد ما كانت رذيلةً من رذائل الجاهلية ، وَسُبَّةً على الرجل المؤمن.

وحدث انقلابٌ خطيرٌ في دوافع العمل ـ التي هي من أقوى العوامل في الحياة الفردية والجماعية ـ فأصبح الرجل في هذا العهد مدفوعاً إلى العمل، مدفوعاً إلى المَكْرُمات والبطولات ، وإلى الجُود والمواساة بدافع من السُّمعة والرِّياء ، والظهور في القبائل والمجامع ، والتّفوُّق على الأقران ، بعدما كان مدفوعاً إلى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضاً من الله.

وقِصَّةٌ يرويها أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» تُمثل هذا التطورَ الخطيرَ ، وهذه الروح الجاهلية التي كانت تُخامِرُ رؤساء القبائل وأشراف العرب في ذلك العهد خيرَ تمثيل ، قال:

«حَدَّث ابنُ عياش قال: كان حَوْشَبُ بن يزيدَ بن الحارث بنِ رُؤيم الشيباني ، وعِكْرِمَة بن رِبْعِيّ يتنازعان الشرفَ ، ويتباريان في إطعام الطعام ونحر الجُزُر في عسكَر مُصعب ، وكان حوشَب يغلبُ عِكرمة لسَعة يده ، وقال: وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بُحتر الفقيه بسفائن ، فأتاه عكرمة فقال له: اللهَ اللهَ فيَّ ، قد كادَ حوشب أن يَسْتَعليني ويَغلبني ، فبعْني هذا الدقيقَ بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنِه رِبحاً ، فعجنُوه كُلَّه ثم جاء بالعجين كُلِّه ، فجَمَعَهُ بِهُوَّةٍ عظيمة ، وأمر به فَغُطِّي بالحشيش ، وجاء بِرَمكَةٍ[1] ، فقرَّبوها إلى فرس حوشب ، حتى طلبها وأفلت ، ثم ركَضوا بين يديه وهو يَتبعها ، حتى ألقوها في ذلك العجين ، وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين وبقيا فيه جميعاً ، وخرج قومُ عكرمة يصيحون في المعسكر: يا معشر المسلمين أدركوا فرس

(١) الرمكة : الفرس تتخذ للنسل.

حوشب فقد غرق في خمير عكرمة ، فخرج الناس تعجُّباً من ذلك أن تكون خميرةٌ يغرق فيها فرسٌ ، فلم يبق في المعسكر أحد إلا ركب ينظر ، وجاؤوا إلى الفرس وهو غريقٌ في العجين ما يبين منه إلا رأسُه وعُنقه ، فما أُخرِج إلا بالعُمد والحِبال ، وغَلب عليه عكرمة ، وافتضح حَوشب»[١] .

وهذه وإنَّ كانتْ قصةً فردية ـ ولم يكن كُلُّ رئيس للقبيلة وكُلُّ شريفٍ في المجتمع الأموي ، يحمل روحَ عكرمة ويضعُ هذه التمثيلية الغريبة لاشتهار جُوده وتفوُّقِه في إطعام الناس ، وكان في هذا المجتمع أجوادٌ مخلصون ، يحرصون على إخفاء مَكرماتهم ـ ولكنها لا شك تُصوِّر الغاية التي وصل إليها تأثير الجاهلية ونفوذها ، والتَّفكيرُ الجاهلي في المجتمع الأموي الإسلامي .

والذي يُقارن بين هذه القصة الطريفةِ وبين ضِيافةِ أبي طلحةَ الأنصاري رضي الله عنه وإطفائِه للمصباح حتى لا يَفطَنَ الضيوفُ بقلّة الطعام ، وامتناع المضيف عن الأكل[٢] ؛ يستطيع أن يَقيس المسافة النفسية والهُوة الواسعة التي وقعتْ بين العهدين ، ويعرفَ التطور الذي حَدث في المشاعرِ والتفكير .

وقد أصبَحَ بيتُ المال الذي كان ملكاً للأمة ، ملكاً لفردٍ واحد ، خاضعاً لشهواته وتصرفاته ، وكان المبدأ الإسلاميُّ المسيطرُ على هذه الأموال هو ماذكره الرسول ﷺ في كلمته الجامعة : «تُؤخَذ مِن أغنيائهم وتُرَدُّ على فقَرائهم»[٣] ، فأصبح المبدأ المسيطرُ في هذا العهد : «تؤخذ من فقرائهم وتُرد

---

(١) الأغاني .

(٢) والقصة بطولها في كتب الحديث والسيرة ، راجع تفسير قوله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] في تفسير ابن جرير الطبري وابن كثير .

(٣) حديثٌ شريفٌ ورد في كتب السنة المعتمدة . [أخرجه البخاري في كتاب الزكاة برقم (١٣٩٥) ، وباب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة برقم (١٤٥٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم (١٩) ، وأبو داود في كتاب الزكاة ، باب في زكاة السائمة برقم (١٥٨٤) ، والترمذي في أبواب الزكاة ، باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة برقم (٦٢٥) ، والنسائي في =

على أغنيائهم وأمرائهم وشُعرائهم» ، وأحاطت بالخليفةِ هالةٌ من الشعراء المحترفين ، والنُّدماء المتزلِّفين المتملِّقين ، تُنفق عليهم أموالُ الصدقاتِ بسخاء.

وَبينما كان عليٌّ ـ الخليفة الراشد ـ يُعاتب أحد عماله على أنه حضر دعوةً لقومٍ «عائلُهم مَجْفوٌّ وغَنيُّهم مَدْعُوٌّ»[1] ، أصبحت دعوة الأغنياء وإكرامُهم ، وطرد الفقراء وإهانتهم عادة فاشية وسُنّة متبعة.

وبينما كان الفاسق يُقصى ويُجْفى ، أصبح يُكرم ويُدنى ، لشعره أو غنائه في السياسة أو مصالح الدولة.

فقد حدَّث المؤرِّخون ، أنّ الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير إذن ، وعليه جُبَّةُ خَزٍّ ، وفي عُنقه صليبُ ذَهب ، ولِحيته تنفُض خمراً[2].

ومنزلَةُ الحجّاج بن يوسف ـ على سفكه للدماء وجرأتِه على الله ـ عند الأمويينَ معلومةٌ.

وقد شاعَ الغِناء في العهد الأُموي شيوعاً عظيماً ، وعَظُمَ الشَّغفُ به في حواضر الدولة الإسلامية حتى يَزور مُغَنٍّ مثل «حُنين» المدينة ويجتمع الناس في منزلٍ من منازل البلد ، ويزدحمون على السطح ويكثرون ليسمعوه، فيسقُط الرُّواق على مَنْ تحته ، ويموت المغنّي تحتَ الهدم[3]، إلى غير ذلك من الظواهر التي تدل على تطور المجتمع الإسلامي ونزعاته الجديدة.

وقد أثَّرت سِياسةُ الدولة وحياةُ رجال الحكم المترفة تأثيرَها الطبعي في ميول الناس ومَقاييسهم للسعادة والشرف ، ونشأت في المسلمين طبقةٌ مُترفةٌ

= السنن الكبرى (٢/ ٣٠) برقم (٢٣٠١) وابن ماجه في أبواب الزكاة ، باب فرض الزكاة ، برقم (١٧٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنه].

(١) نهج البلاغة.
(٢) الأغاني: ج٧ ، ص ١٧٨.
(٣) انظر الأغاني: ج ٢ ، ص ١٠٧.

تشبه المترَفين في الأمم القديمة في أخلاقها وسلوكها ورغَباتها ، ولا تمتاز عنهم إلا ببعض العقائد والعباداتِ ، وبالبقية الباقية من الإسلام ، وهي بقيةٌ لها قيمةٌ لا تُنْكَر.

وقد دلَّ كلُّ شيءٍ في هذا المجتمع على أنه تدلَّى تدلياً عظيماً ، وعلى أن الجاهلية ـ الثائرة الموتورة ـ قد نَهضتْ تَنْتَصِفُ مِن مُنافسِها ـ الإسلام ـ وهي حريصةٌ كلَّ الحرص على ألا تفوتها الفرصة ، وتُريد أن تستوفي أربعينَ سنة ـ مضت في ازدهار الإسلام روحيّاً وخُلقيّاً ـ في بِضْعِ سنين.

أعلامُ الدّين وشخصيّاتُه البارزةُ وتأثيرُها:

ولكن يجب ألاَّ ننسى أنَّ الدِّين كان لا يزالُ له السُّلطان الروحيُّ والمكانةُ الأولى في قلوب الناس حتى في هذا العصر ،وكان الجمهورُ من الناس لا يُقِرُّون هذه المنكرات وهذا الإسفاف ، وكانوا لا يزالون ينظرون إلى الخلفاء والأمراء وحاشيتهم ومن سار سيرتهم ، بنظرة فيها الانتقادُ وفيها الازدراء وفيها السُّخط.

وكان الشعب لم يَسُغْ بعدُ هذا التطور ، وكان لا يزال ـ باستثناء المتَّصلين بالخلفاء اتصالاً وثيقاً وباستثناء من تغيَّرت نفسيتُه ـ ينظرُ بإجلال إلى العلماء وإلى أصحاب الدّين والاستقامة والخلق ، ومن آنسَ فيهمُ الزهد في حطام الدنيا والابتعادَ عن أصحاب الحُكم والسلطان ، وعفافاً وقناعةً وترفُّعاً عن المطامع والمناصب ، واشتغالاً بالدعوة إلى الله ونشرِ العلم ، والنُّصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، وكانوا أعزَّ وأكرم عندَه من كثير من أصحاب الجاه والنفوذ والثروة ، وحتى من الخلفاء والأمراء في بعض الأحيان.

ويُمكن أن يُقال: إنَّ نفوذ الخلفاء والأمراء كان محصوراً في دائرة خاصة ، هي الدائرةُ السياسية ، ودائرة الطَّبقة التي تُسمى في هذا العصر «الطبقَة الأرستقراطية».

أمَّا خارج هذه الدائرة وفيما عدا هذا الوسط ، فكان يسود فيه أهلُ الصلاح

والعلم ، وأهلُ الزُّهد والتقوى ، والصالحون والعلماء من أبناء الصحابة ، والسادةُ من أهل البيت النبوي ، فإذا اجتمع من يُمثل هذه الطبقَة الصالحة من سادات التابعين وأهل العلم والدين ، ومن يُمثل الحكومة والإمارة والجاه والسلطان ، غلب سُلطان الدين والسلطانُ الروحي على سلطان السياسة والحكم.

يُمَثِّلُ ذلك أجملَ تمثيل ما وقع لهِشَام بن عبد الملك يومَ كان وليَّ العهد ، مع سيدنا علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ، فقد روى المؤرِّخون «أن هشام بن عبد الملك حجَّ في أيام أبيه وطاف وجَهد أن يصل إلى الحجر ليستَلِمه ، فلم يَقدرْ عليه لكثرة الزحام ، فنُصب له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعةٌ من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين عليُّ بنُ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وكان من أحسنِ الناس وجهاً ، وأطيَبِهم أرَجاً ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحَجَر تنحّى لهَ الناسُ حتى استلم ، فقال رجلٌ من أهلِ الشام: مَنْ هذا الذي قد هابَهُ الناسُ هذه الهيبةَ؟ فقال هشام: لا أعرفه ، مخافَة أن يرغَبَ فيه أهل الشام فيُملِّكُوه ، وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه ، فقال الشَّاميُّ: مَن هو يا أبا فراس؟ فقال قصيدتَه السائرةَ التي مطلعُها[1]:

هذا الذي تَعرِفُ البَطحاءُ وطأَتهُ وَالبَيْتُ يعرِفُه والحِلُّ والحَرَمُ

وهذه القصةُ وإنْ كانت بسيطة في الظاهر ، تَدُلّ على ما كان يتمتعُ به أهل الفضل والدّين ورجالُ الأسرة النبوية وساداتُ التابعين ، من النفوذ والإجلال.

وقد كان لسيدنا حسن المثنَّى بن حسن بن علي بن أبي طالب وابنه عبد الله المحض ، وسالم بن عبد الله بن عمرَ ، وقاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وسعيدِ بن المسيَّب ، وعروة بن الزبير ، مكانةٌ مرموقة ومنزلةٌ عالية في

(١) وفيات الأعيان: لابن خلكان الجزء الخامس ص١٤٥ ، طبع مكتبة النهضة المصرية.

قلوب الناس ، وتأثيرٌ كبير لما يقولونه[١] .

وكان لهذه المكانة ولهذا النفوذ الروحي ولهذا الإجلال والحبّ العميق الذي يَدينُ به الشعب لهم سلطانٌ يحفظ على الشعب جلالَ الدين ومهابتَه ، ويمنعه من الاندفاع المتهوِّر إلى التَّرف الفاحش والحياة الجاهلية السافرة ، والجهر بالمعاصي والمنكرات ، ويمنع من أن يكون الخليفةُ المستهتر ، أو الأمير السِّكير ، أو المغني المعربد ، أو الشاعر الماجن «المثل الكامل» للمجتمع ، ويُحدِث وجودُ هؤلاء الأعلام صراعاً نفسياً على الأقل ، ويُحدِث ـ إذا فرطت من أحدٍ معصيةٌ أو زل زلَّةً أواتَّصل بالخلفاء والأمراء ـ تأنيباً داخلياً ووخْزاً للضمير وتألُّماً نفسياً .

وهذا الصراعُ وهذا التأنيب لهما قيمة لا يُستهان بها ، ولهما تأثير لا يُقلَّل من أهميته ، ويمكن أن يُعرف غناؤهما في مجتمع لا يملك إلا طرازاً واحداً من البشر ، وهو الطِّراز الرسميُّ أو المادي ، وفقدُ العُنصر الذي يختلف عنه كل الاختلاف ، واكتسحت موجةُ المادية هذه المجتمع ـ كما نرى في أوربة ـ فلا صراع ولا تأنيب ، ولا جزيرة في هذا البحر المادِّي المائج ، ولا منارَ للنور في هذه الظلمات ، ولا أسوة يأتسي بها الإنسان ، وللأسوة والمثال العملي سحرٌ في النفوس لا يجهلُه علماءُ النفس والأخلاق .

الحاجةُ إلى تغيير الحُكومة ، والصُّعوباتُ في سبيله:

وظَلَّتِ الحكومةُ ـ الأمويةُ ـ تُؤثِّرُ في الميول والنزعات ، وفي مقاييس الحياة ، وتفعل فِعلها الطبيعي في المجتمع والحضارة ، والأخلاق والاجتماع ، وظَلَّت الشخصيات الدينية تفقدُ نفوذها على مرِّ الأيام وينتقصُ عددها ، وتضيقُ دائرة نفوذها ، فلا مطمعَ إذاً في ثورة دينية وخلقية ، وتحسُّنٍ كبير في أحوال المسلمين وأوضاعهم ، إلا بحدوث انقلاب صالح في الحكومة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وقد قامتِ الحكومة الأموية على

(١) انظر: تراجمهم في «وفيات الأعيان» و«صفة الصفوة».

أُسَس عسكرية متينة لا تتزعزعُ ولا تضطرب ، وكانت جديدة فتيّةً لا تزالُ بعيدةً عن الضَّعْف والهَرَم ، ولم تكن في داخل المملكة وخارجها قوةٌ حربية تهزمها في الميدان ، وقد أخفقتِ المحاولات والجهود التي قام بها المخلصون والأكفاء ، مثل الحُسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وعبدِ الله بن الزبير رضي الله عنهما ، لِقَلْبِها والتخلُّص منها وإقامة حكومة إسلامية راشدة من جديد.

وقد قَطَعَ نظامُ الوراثة الذي سار عليه الأمويون ومبدأ الحكومة الشخصية التي كانت الحكومةُ تدين به، كلَّ أملٍ في الإصلاحِ والتغيير، وأصبح الجالسون على عَرش الحكومة والمتملّكون لزِمامها ، سلسلةً من حلقاتٍ متشابهة آخذٌ بعضُها برقاب بعض ، فكان كل شيء يَدُلُّ على أن الحكومةَ ستستمر على هذا الحال ، وأنَّ المسلمين قد كُتب لهم أن يعيشوا في مثل هذه الأوضاع، وكان الإسلامُ في عودته إلى مركزه في الحياة يحتاج إلى «مُعجزة» ، فقد عَجزتِ الأمورُ العادية والحوادثُ العادية عن إعادته إلى مكانه ، وعنْ إصلاح الأوضاع الفاسدة ، وعن قلب التيار القوي الجارف ، وإنما كان يحتاج إلى خارقةٍ للعادة تقعُ خلاف القياس ، وتقع على غفلة من الناس، وعلى غير تَرَقُّب منهم ، فتُغيِّرُ مجرى الأمور ، وتُبهر العقولَ والعيون.

استخلافُ عُمرَ بنِ عبد العزيز:

كان عمرُ بنُ عبد العزيز هذه «المعجزةَ» الباهرةَ ، وكان كلُّ شيءٍ في حياته يدلُّ على أنه معجزةٌ من المعجزات التي خبّأها اللهُ لنصرة الإسلام ، يُولَدُ في البيت الحاكم ، ويَنشأ نشأة الأمراءِ المُترَفين ، ويَشتهر بالظُّرْفِ والتَّرف والأناقة في اللباس والمظهر ، ويكون شامةً بين الناس ، وفتى بني أميةَ الذي يحرص على تقليدِهِ الظرفاءُ والمتنعِّمون.

يتحدَّثُ عنه اللَّيثُ بن سعدٍ فيقول: «كان عمرُ بنُ عبد العزيز أعظمَ أُمويٍّ تَرَفُّهاً وتَملُّكاً» غذي بالملك ونشأ فيه ، لا يُعرف إلا وهو تعصف ريحهُ ، فتوجد رائحته في المكان الذي يَمُرُّ فيه ، ويمشي مِشيةً تُسمَّى العُمريَّةَ ، فكان

الجواري يتعلَّمنَها من حُسنها وتَبختره فيها ، وكان يُسبل إزاره حتى ربما دخلت نَعلُه فيها فيتحاملُ عليه ، فيشقه ولا يخلعُها ، ويَسقط أحدُ شِقَّيْ ردائه عن مَنكبه فلا يرفعهُ ، وتنقطِعُ نعله فلا يعرِّجُ عليها ، وربما لحقه بها المملوك فيُعتِقه ، ويضع الطيب بخاتمه فتتسخ الطِّينة من العَنبر»[1] .

وكان أميرَ المدينة في عهد ابن عمه الوليد ، وكان أثيراً في عهد ابنِ عمه سليمان ، وكان لا يمتاز عن بني أعمامه وإخوته وأترابه إلا بسلامة الفطرة ، والاعتراف بالحقّ ، والتواضع والعفاف «فلم يغمص في ولايته ـ على ترفهه ـ في بَطْنٍ ولا فَرجٍ ولا حُكمٍ» وكان لا يمتاز عنهم إلا بدمٍ زكيٍّ فيه نصيبٌ للفاروق العادل ، جاءه عن طريق أمِّه أمّ عاصِم بنت عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب وجدَّته ـ لأمه ـ صاحبةِ القصة المعروفة في اللَّبَن .

ولم تكن سيرتُه ومواهبه مع ذلك تدلُّ على أنه سيقوم في تاريخ الإسلام بهذه المأثرة العظمى التي عز نظيرها في تاريخ الحكم والإصلاح ، وأنه سيكون ذلك العصاميَّ الذي كان يرتقبه الإسلام ويحتاجُ إليه المسلمون في هذه الساعة الدقيقة ، وأنه سيُعيد الخلافةَ الراشدة من جديد ويرُدّ التاريخ على أعقابه[2] .

وكان استخلافُه لا يقلُّ عن مُعجزة ، فلو جَرتِ الأمورُ مجراها الطبيعي لم يكنْ له نصيبٌ في غير الإمارة وولاية بعض الإقطاع ، ومن أيْن تقفز إليه الخلافة وتتخطى أولادَ سليمانَ وهو صاحبُ الأمر ؟

ولكنَّ للهِ في خلقه شؤوناً[3] ، فقد كان لسليمان بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوبُ بنُ سليمان ، عُقدت له خلافة ولاية العهد من بعده ، وتُوفي أيوبُ قبل سليمان ، ولم يبقَ لسليمان إلا ولدٌ صغير ، فلما حضرتْه الوفاة أراد أن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لعبد الله بن الحكم ص ٢١ ، بعناية وتصحيح الأستاذ أحمد عبيد.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: لعبد الله بن الحكم ص ٢٠ .
(٣) اقرأ القصة في ص١٧و ١٨ من «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم.

يستخلفَ ، فحضره عمر بنُ عبد العزيز ورجاء بنُ حَيَوة ، فقال لرجاء : اعرضْ عليَّ ولدي في القُمص والأردية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صغارٌ لا يحتملون ما لبسوا من القُمص والأردية يسحبونها سحباً ، ثم قال : يا رجاء ، اعْرض عليَّ بنيَّ في السيوف ، فقلَّدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه فإذا هم صغارٌ لا يحملونها يجرُّونها جرّاً. فلما لم يرَ في ولده ما يُريد حدَّث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله ، فشاورَ رجاءً فيمن يَعْقِدُ فأشار إليه رجاءٌ بعمرَ ، وسدَّد له رأيه. فوافَق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب(١).

وهكذا جاءت الخلافةُ إلى عمر بن عبد العزيز وهو غافلٌ عنها زاهد فيها ، وكان لرجاء مأثرةٌ لا ينساها الإسلام ، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتُفعَ بقُربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه ، وانتهزَ الفرصة مثل انتهازه ، وأسدى للإسلام خدمةً مثلَه.

حياتُه بعدَ الخلافة:

كان مِن أوَّل ما بدأ به عمرُ في خلافته هو عزلُه لبعض الولاة الجائرين ، ورفضُه لمظاهر الأُبَّهةِ والفَخفخة التي جرى عليها الخلفاءُ الأمويون عند استخلافهم ، وردُّ كل ما عُرض عليه في ذلك الوقت من مواكبَ وسرادقات جديدة إلى بيت المال ، وتغيَّرتْ سيرتُه في تلك الساعة ، فكأنه لا يتصل بآبائه بصلةٍ ، ولا يعرفُ غير عمرَ أُسوةً له. رَدَّ الجواري إلى أهلهنَّ وبلادهنَّ ، ورد المظالم ، وردَّ المجالس التي أَشبهت مجالس الأباطرة ، وتمسَّكت بِسَنن كِسرى وقيصر إلى بَساطتِها الأولى ووضعِها الإسلامي ، فنهى عن القيامِ له ، وابتدأ بالسلام ، وأباح دخول المسلمينَ عليه بغير إذنٍ ، وخرج من مالهِ وعَقاره ، وردَّه إلى مال المسلمين ، ووضع حُلِيَّ زوجته في بيت المال ، وبلغَ من الزهد والشظَف في الحياة والتَّقشُّفِ في المعيشة مبلغاً

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم ، ص٢٩ ـ ٣٠.

يعجَزُ عنه الزهاد فضلاً عن الملوك والأمراء.

فقد كان يتأخَّر في بعض الأحيان عن الخروج لصلاة الجمعة انتظاراً لقميصه أن يجفَّ ، وقد يكون طعامُ بناتِهِ عدساً وبَصلاً فيبكي ويقول: يا بناتي ما ينفعُكنَّ أن تعشَّيْنَ الألوانَ ويُؤمَرَ بأبيكُنَّ إلى النار؟

ويَشتهي الحجَّ فيقولُ لمولاه: إنِّي قد اشتهيْتُ الحجَّ فهل عندكَ شيءٌ؟ قال: بضعةَ عشر ديناراً. قال: وما تقعُ مني؟ ويمكث قليلاً ، فيقول له مولاه: يا أمير المؤمنين تَجهَّزْ فقد جاءنا مالٌ سبعة عشر ألف دينار من بعضِ مال بني مَرْوَان ، فيقول: اجعلْها في بيت المال ، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبْنا منها.

وكانت نفقتُه اليومية لا تزيد على درهمين ، حين كان يفرض للعمال ثلاثمئةِ دينارٍ لكل واحد ، ليُغنيهم عن الخيانة ، وكان يتورَّع عن تسخين الماء على مطبخِ العامة ، ويتورَّعُ عن شَمِّ مِسْك الفَيْءِ ، وكان يُطفىءُ الشَّمعة التي زيتُها من بيت المال إذا شغله أحدٌ بالسؤال عن شخصه ، كراهةً لإنفاق مال المسلمين في غير حاجاتهم.

ولم يكنْ تورُّعه وضَنُّه على مال المسلمين نَزعةً غريبةً في الزهد ، نقرأ أمثلتها في كتب التاريخ والتراجم ، في مثل «حلية الأولياء» لأبي نُعيم ، ولم يكن فيه شيءٌ من الغلوّ والإسراف أو الزُّهد الأعجمي ، فقد كان بعيداً عن كل ذلك ، إنما هي الطبيعة الدينية ونتيجةُ الإيمان القوي ، والشعورُ بالمسؤوليةِ ، ومعرفةُ قيمةِ الحياة واستحضارُ الآخرةِ ، ونتيجة «الحُب» الذي إذا ملك القلب واستولى على الشعور ، ذابتِ الرَّغبَاتُ وتغيَّرتِ القِيَمُ والأقدار.

ولولا هذه المؤاخذةُ الشديدة للنفس ، ولولاَ هذا الحَذر الشديد من ملاذِّ الحياة والتَّمتع بالمباحات ، لما استطاع مثلُ عمرَ بنِ عبد العزيز ـ وهو أكبرُ ملوك الأرض في عصره ـ وهو في دمشق ـ عاصمةِ العالَم المتمدِّن يومئذ ـ أن يحفظ نفسَه من الاندفاع إلى التَّرفِ ، ويَضْربَ مثلاً عالياً لأمرائه وعُمال مملكتهِ

في الورع والزهادة والتحرُّز من الشُّبهات ، وما استطاع أن يُخففَ غلواء المدنية المترفة ويَحد من شِدَّتها وشِرّتها .

ولم يكنْ تورُّعه مقتصراً على ذاته ـ كما يفعله كثير من الزهاد ـ بل كانت سياسةً عامة كان يريد أن يطبِّقهَا تطبيقاً دقيقاً على الدولة ورجالها . فكان يطلب منهم ويَعْزِمُ عليهم أن يكونوا مُتورِّعين في أموال المسلمين ، لاَ ينفقون منها إلا القدْر اللازم ، وأن يكونوا أشِحَّة على أنفسهم أسخياء على المسلمين بخلاف ما تجري عليه الحكومات هذا اليوم .

وكان حريصاً على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقدُ أن الدرهمَ دمٌ فلا يجوز أن يجري في غير عروقهم ، ولا يرى أن يضيع في الكماليات والشَّكليات ، كتَبَ إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، ـ وكان والي المدينة ـ : «أما بعد ، فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يَقطع لمن كان قِبلك من أُمراءِ المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئونَ به في مخرجهم ، فابتليتُ بجوابك فيه ، ولَعمري لقد عَهِدْتُكَ يابنَ أمّ حَزْم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتيةِ المظلمة من غير مصباح ، ولَعمْري أنت يومئذٍ خيرٌ منك اليوم ، ولقد كان في فتائل أهلك ما يُغنيك ، والسلام»[1] .

وكتَبَ إليه أيضاً وقد طلب من الخليفة قراطيس يكتب عليها في مصالح ولايته : «أما بعد ، فقد قرأتُ كتابك إلى سليمان تذكُر أنه قد كان يُجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليتُ بجوابك فيه . فإذا جاءك كتابي هذا فأَرِقَّ القلم ، واجْمع الخطَّ ، واجمعِ الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة ، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قولٍ أضرَّ ببيتِ مالِهم ، والسلام عليكم»[2] .

وهذا شأنُ من يعتبر المسلمين طفلاً عزيزاً في حَضانته ، ويعتبر مالَهم أمانةً

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) المصدر السابق : ٦٤ .

عنده لا ينفق منه إلا عن ثقةٍ ويقين ، وهذا مَثَلُ الحاكم العاقل العامل الدقيق ، الذي سمّاه التاريخ وسماهُ المسلمون بحق «بالخلافة الراشدة».

إصلاحاتُه الواسعةُ في نِظام الحُكم:

إنَّ عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريتَه ليست محصورةً في ورعه وزهادته ـ وهو عظيم في ذلك حقاً ، ويستحق أن يُسمى عبقرياً إذا عرفنا ما كان يَحُفُّ الملوكَ من الإغراءات وفُرَص المتعة ، وما كان يملكه من الحرية المطلقة.

ـ وليستْ عظمتُه محصورَةً فيما كان يؤاخذ به عمَّاله وأمراءه من التورُّع. إنَّ أعظم ما يمتاز به هو أنه نظر إلى الحكومة نظرةً لم ينظرها إلا الرسولُ وخلفاؤه الراشدون ، فقد كانتِ الحكومة في عهده مقصورة على جباية الأموال وإنفاقها في مصالح الدولة ، لا صلةَ لها بأخلاقِ الجمهور وعقائدِهِ وأخلاق الناس ، ولا شأنَ لها بالضلالةِ والهداية ، وكان الذين يخْلُفون الرسول الذي أُرسل للناس كافةً بشيراً ونذيراً وهادياً بإذنه تعالى وسراجاً مُنيراً ، كان الذين يخلفون هذا الرسول ، عصابةً من جُباة الأموال يقيسون كل قضيةٍ في هذه الدولة ـ التي كانوا يُسمونها الخلافة ـ بالمقياس المالي ، ولا ينظرون إلى شيء إلا بالناحية المالية.

ظهَرَ عمر بن عبد العزيز في هذه الأسرة الحاكمة ، فثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسيَّةِ ، وقال عن الحكومة كلمتَهُ المأثورةَ التي سجَّلها التاريخ ، ولا أعرفُ كلمةً في التاريخ تبيِّنُ روح الخلافة الراشدة وما تمتازُ به عن الحكومات الزمنيَّة أبلغَ من هذه الكلمة ، لقد شكا إليه بعضُ العمال أن أهل الذِّمة بدؤوا يُقبلون على الإسلام في عدد كبير وقد فشا فيهم الإسلام ، وأصبحت هذه قضيةً تشغَلُ عُقول «الإداريين» ذلك أنَّ الجِزْية التي يفرضها الإسلام على أهل الذمة ـ ولو كان بمقدارٍ طفيف ، يتضاءل بجانب ما يتمتعون به من حقوق ، وما يُعفَون عنه من خدمات ـ من أعظم موارد بيت المال ، فإذا أسلم هؤلاء سقطتْ عنهم الجِزيةُ ، وخَسرتْ ماليَّة الدولَة الإسلامية خسارة

باهظة ، بلغتْ هذه الشكوى عَاهل الدولة الإسلامية ، فأجاب عنها في هدوءٍ وثقة وكتب إليه : «إنَّ الله جل ثناؤُه بعثَ محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبْعثه جابياً»[١] .

وعلى هذا الأساس وعلى هذه النظرة ، قامتْ دولتُه ، وهو أساس «الهداية» التي بُعث لها النبي ﷺ ، وبهذه النَّظرة كان ينظرُ إلى قضايا الحكومة ومصالحها وهي نظرة «المرشد» ونظرة «الداعي» ، ونظرة خليفة الرسول الهادي ، وذلك مفتاح شخصية عمر بنِ عبد العزيز الذي نستطيع أن ندخل به إلى رحاب هذه الشخصية الفذَّة في الإسلام ، الفَذَّة في الأمم .

وقد طبَّقَ هذا المبدأ على حكومته الواسعة تطبيقاً دقيقاً ، فإذا تعارضتِ المصلحةُ المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة ، رجَّح المصلحةَ الشرعية والحُكم الشرعي على المصلحة المالية ولم يتردَّد .

يَدل دلالة واضحة على ذلك ، وعلى إيمانه بهذا المبدأ ، كتابُه الذي كتبه إلى عامله على اليمن عُروةَ بنِ محمد يقول فيه : «أما بعد ، فإنَّك كتبتَ إليّ تذكرُ أنكَ قَدِمتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتةً في أعناقهم كالجزية ، يؤدُّونها على كل حال ، إن أخصبوا أو أجدبوا ، وحَيُوا أو ماتوا ، فسبحانَ الله ربِّ العالمين ، ثم سبحانَ اللهِ ربِّ العالمين ، ثم سُبحانَ الله ربِّ العالمين ، إذا أتاك كتابي هذا ، فدَعْ ما تُنكر من الباطل إلى ما تعرفُه من الحق ، ثم ائتَنِف الحقَّ فاعمل بهِ بالغاً بي وبك ، وإن أحاط بمُهَجِ أنفسنا ، وإن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلا حفْنةً من كَتَمٍ ، فقد علم الله أني بها مسرورٌ إذا كانت موافقةً للحق والسلام»[٢] .

وكذلك رفع المُكْسَ ـ وهو مورد عظيم من موارد الحكومة ـ قال رحمه الله : «وأما المُكْسُ فإنه النجس الذي نهى الله عنه فقال : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ

(١) كتاب الخراج : لأبي يوسف ، ص٧٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ١٢٦ .

أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥] غير أنهم كَنَّوْهُ باسمٍ آخر»[١].

وحَطَّ العُشورَ والضرائب التي فرضتها الحكومة، وقال: «فأما المسلمون فإنما عليهم صدقاتُ أموالهم، إذا أدوها في بيتِ المال كُتبت لهم بها البراءةُ، فليس عليهم في عامِهِم في ذلك في أموالهم تِباعةٌ»[٢].

وفتح طريقَ البَرِّ والبحر للتجارة الحرَّة، ومنع الضرائب والمكوس «أما البحر فإنا نرى سبيلَه سبيل البر قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [الجاثية: ١٢] فأذِن فيه أن يتَّجِر فيه من شاء، وأرى ألا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البرَّ والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده، يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحُولُ بين عباد الله وبين معائشهم ؟!»[٣].

وقد أحدَثَ في مملكته الواسعة إصلاحات واسعةَ الأثر، فأمر بأن يكون تمامُ مكيال الأرض وميزانُها واحداً في جميع الأرض كلِّها[٤].

وحرَّمَ على العمال وموظفي الدولة أن يتَّجروا، فكتب: «ونرى ألاَّ يتَّجر إمامٌ، ولا يحلّ لعاملٍ تجارةٌ في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتَّجر يَستأثر، ويُصِبْ أموراً فيها عَنت، وإن حَرَص على ألا يفعل»[٥].

وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يُصدِّق فراسة عمرَ بنِ عبد العزيز الصادقة، وحكمتَه البالغة، قال: «إنَّ التِّجارة من السلطان مُضرةٌ بالرعايا مُفْسِدةٌ للجباية»[٦]. والبلاد التي يحكمها الأوربيون ـ وهم تُجار قبل كل شيء ـ شاهدَةٌ بِصدق هذه النظرة.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ٩٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٨.
(٣) المصدر السابق: ص ٩٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٩٩.
(٥) المصدر السابق: ص ٩٩.
(٦) مقدمة ابن خلدون: ص ١٩٧.

وحَرَّم السُّخرة بأنواعها ـ وهي التي درجتْ عليها الحكومات. وكان من آثارها الأهرام في مصر ومباني رومة العظيمة ـ فقال: «ونرى أن تُوضع السُّخَر عن أهل الأرض ، فإن غايتَها أمورٌ يدخل فيها الظلمُ»(١) .

وكان الأمراءُ ورجالُ الأسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطعٍ واسعة من الأرض واتخذوها حمىً ، وحُرم منها الشَّعبُ ، فقال: «ونرى أنَّ الحمى يُباح للمسلمين عامة... وإنما الإمام فيها كرجلٍ من المسلمين ، إنما هو الغَيْثُ يُنزله الله لعبادهِ فهم فيه سواء»(٢) .

وفَطِنَ لأمورٍ دقيقة لا تسترعِي اهتمام الخليفة ، وعرفَ منافذ السوء والخيانة فسدَّها ، منها الهدايا التي كانت تُهدى إلى العمال ، وكانوا يَقبلُونها لأن قبولَ الهدايا سنةٌ ، وقد عرف عمرُ بن عبد العزيز تغيُّرَ الأوضاع وتغيُّر البيئاتِ ، فحرَّمها وقال في هدية أهديت إليه ـ وقال القائل: قد كان رسول الله ﷺ يقبلُ الهدية ـ «هو لرسول الله ﷺ هديةٌ وهو لنا رشوة ولا حاجَة لي به»(٣) .

وقد أصبَحَ الخليفةُ محجوباً عن الناس لا سبيل لهم إليه ولا سبيل له إلى معرفةِ أحوالهم وما يجري في مملكته ، وقد بنى الحاشيةُ حوله سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمَحُ به مصالحهم.

أما عمرُ بنُ عبدِ العزيز ، فقد أعلنَ بالجوائز والمكافأة المالية لمن يُخبره بحقيقة الحال ، أو يشيرُ عليه بشيء فيه مصلحة المسلمين ومصلحةٌ لدولتهم ، وكتب إلى أهل المواسم:

«أمَّا بعد ، فأيُّما رجل قدم إلينا في رَدِّ مظلمة أوأمرٍ يُصلح الله به خاصّاً أو عامّاً من أمر الدين ، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثِمئة ، بقدر ما يرى من الحسبة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٧.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦.

وبُعد سفر ، لعل الله يُحيي به حقاً ، أو يُميت باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيراً»[١] .

عنايتُه بأخلاق الجمهور وأعماله:

لقد كان الخليفةُ إلى عهد عمر بن عبد العزيز كما قدَّمنا رأسَ دولة ، هي مُنظَّمة لجباية الأموال وحراسةِ النفوس والأرواح لا غير ، لا شأنَ له بما يعمله الناس في بيوتهم وما يتخلَّقون به من أخلاق ـ ما دامت هذه الأعمالُ والأخلاق لا تتدخل في شؤونِ الدولة ـ ولا شأن له بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم ، وبسعادتهم الأخروية وبِرُقيِّهمُ الرُّوحي والخلقي ، ولكن عمر بنَ عبد العزيز أولُ من عُني بهذه الناحية ، التي هي من مقاصد البعثة ، وواجبات الخلافة ـ بعد الفترة الطويلة التي جاءت بعد الخلافة الراشدة ـ.

وقد انقسمتِ الواجباتُ من مُدَّة طويلة بين طائفتين ، فاستقلَّتِ الخلافة بالأعمال الإدارية والمالية ، وانفرد العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والإرشاد ، مع أنَّ الخلافة بطبيعتها تجمعُ بين الناحيتين ، ولذلك سُميت «الخِلافَةَ الراشدة» .

جاء عمر بن عبد العزيز فحارب هذه «الثَّنوية» وهذا الانقسام ، وجمع بين الإدارة والإرشاد ، والسياسة والدعوة ، وأثبتَ أنه خليفةٌ حقّاً ، فلم يتقلَّدِ الخلافة حتى وجَّه إلى عمال حكومته وأمراءِ الأجناد رسائل طويلة تتجلَّى فيها روح الدعوة والإرشاد ، وهي تُمثل نفسيةَ الداعي والمرشد والعالم ، أكثر مما تمثِّل نفسية الحاكم والأمير ، وقد كُتبت في أسلوب الدعوة إلى الله والتحذير من سخطه وعقابه وفي أسلوب الترغيب والترهيب .

ومِن هذه الرسائل رسالةٌ يصف فيها ما كان المسلمون عليه وما صاروا إليه ، ويُبيِّن سياسته لهم، وفيها وَصْفٌ مُسْهَبٌ وتصويرٌ صادق للجاهلية ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٤١ .

وذكرٌ للبعثة المحمدية ، وحثٌّ على قدر هذه النعمة العظمى والقيام بشكرها ، والتمسك بالدين الذي جاء[١] .

ورسائلُ إلى أمراء الأجناد يعزم عليهم فيها بالمحافظة على الصلوات في وقتها ، والعناية بالمدارسة ونشر العلم[٢] .

ورسالةٌ إلى عماله يحثُّهم فيها على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه[٣] .

ورسالةٌ يحثُّهم فيها على دعوة أهل الذمة إلى الإسلام ، وأنه غايةُ بعثةِ الرسل وبعثةِ محمد ﷺ[٤] .

ورسالةٌ يُشدِّد فيها على العُمَّال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويذكر ما يُحدِث الإخلالُ بهذه الفريضة من نتائجَ وخيمةٍ وعقوبات من السماء ، ويقول فيها: «إنه قد بلغني أنه قد كثُر الفُجور فيكم ، وأمنَ الفساق في مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يُحبُّ الله مَنْ فعَله ، ولا يَرضى المداهنة عليه ، كان لا يُظهر مِثله في علانيته قومٌ يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً ، وهم الأعزُّون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك أمرُ سَلَفكم ، ولا بذلك تمَّتْ نعمةُ الله عليهم . . . إلخ» [٥] .

ومنها رسالةٌ يوصي فيها عمالَه بالاحتياط في تنفيذ العقوبات ، ويَشرح نظام التَّعْزير الإسلامي [٦] .

وفي رسالةٍ ينهى عن النِّياحة واتباع النساء للجنائز والتقاليد الجاهلية التي فَشَتْ في عهده ، ويأمرُ بالحجاب ويقول: «وتقدمْ إلى صاحب شرَطكم فلا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ٧٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٧٩.
(٣) المصدر السابق: ص ٩٤.
(٤) المصدر السابق: ص ٩٣.
(٥) المصدر السابق: ص ١٦٨.
(٦) المصدر السابق: ص ٨٠.

يُقِرَّنَّ نَوْحاً في دار ولا طريق ، فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧][1].

وقد توسَّعَ الناسُ في أمر النبيذ وتوصَّلوا منه إلى المسكرات ، ونشأت من ذلك شرورٌ وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتَب في ذلك رسالةً خاصة يقول فيها: «ولَعمري إن ما قَرب إلى الخمر في مَطعمٍ أو مشربٍ أو غير ذلك لَيُتَّقى».

ويشرحُ نُكتة تدل على بُعدِ نظره واطلاعِه الواسِع ، يقول: «وما يَشرب أولئك شرابهم إلا من تحت أيدي النصارى الذين يَهـونُ عليهم زَيغ المسلمين في دينهم ودخولهم فيما لا يَحل لهم ، مع الذي يجمع نَفاق سِلعهم ، ويَسارة المؤونة عليهم».

ثم يقولُ في أسلوب المربِّي الحكيم: «إنَّ اللهَ قد جعل عن الخمور والمسكرات غنىً في المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحملُ المسلمين على هذا الإثم؟ وما لأحدٍ من المسلمين عذر أن يشربَ ما أشبَه ما لا خير من الشراب؟ فإن الله جعل عنه غنىً وسَعةً ، من الماء الفرات ، ومن الأشربة التي ليس في الأنفس منها حاجةٌ من العَسل واللَّبن والسَّويق والنَّبيذ من الزَّبيب والتمر»[2].

وفي هذه المسائل يتجلَّى عمر الخليفة الراشد بإيمانه وحماسته وحكمته ، وكأنَّنا ـ ونحن نقرأ هذه الرسائل ـ نقرأ رسائل عمرَ بنِ الخطاب إلى عُمَّاله ، ونسمعُ الداعي الحكيم ، والإداري المربِّي ، والوالد العطوف ، يَنصحُ أولاده في رِفق وقوة ، وفي صَرامةٍ وحكمة ، ويجمع بين الإدارة والتذكير ، وبين الإنذار والتبشير ، وذلك شأنُ الحكم الإسلامي الصحيح وتفسيرُ قولـه تعالى:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٠٨.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠٢.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] .

عِنايتُـه بالدعـوة إلى الإسـلام:

ولم يقتصِرْ عمر بن عبد العزيز على إصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية على المملكة الإسلامية ، بل عُني بالدعوة إلى الإسلام في غير المسلمين ، وكان لها تأثيرٌ كبير لإخلاصه وصدقه وحُسنِ تمثيله للإسلام بحياته وأخلاقه.

قال البلاذَرِيُّ في «فتوح البلدان»: «وكتبَ عمرُ بن عبدِ العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملِّكَهُم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بَلَغَتْهُم سِيرتُه ومذهبه ، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء العرب»[1] .

ولمَّا وَلَّى إسماعيلَ بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم بلاد المغرب؛ سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام ، وكتب إليهم عمرُ بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام ، فقرأه إسماعيل عليهم في النوادي، فغلب الإسلام على المغرب.

ولمَّا استخلفَ كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضُهم ، ورفع الخَراج عمَّن أَسلم بخُراسان ، وفرض لمن أَسلم وابتنى خاناتٍ[2] .

تَدوينُ العُلومِ الإسلاميـةِ وإحيـاءُ السنن النبويـة:

ولم يقتصِرْ تجديدُ عمر بن عبد العزيز على إصلاح نظام الحكم، وتحويل السياسة المدنية إلى الخلافة النبوية ، بل تعدَّاه إلى نواحٍ كان لها أبعدُ الأثر

(١) فتوح البلدان.

(٢) الإسلام والحضارة العربية: لكرد علي ، ج٢ ، ص١٨٩ .

وأعمقه في حياة المسلمين ، ولا يزال المسلمون في أنحاء العالم مَدِينين لها في حياتهم الدينية ، فقد أقبل إلى تدوين العلوم الإسلامية التي هي من منابع الحياة في المسلمين، وقد تعرَّضتْ للضَّياع ، لانصراف الناس إلى السياسة والإدارة والحروب ، وأولُ ما عني به عمر بعدَما تقلد الخلافة ، هو علمُ الحديث، وقد أراد الله أن يكون له فضيلة السَّبقِ في هذا الميدان ، كما كان لجدِّه العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ فضيلةُ السَّبْق لجمع القرآن ، فإنَّه هو الذي أشار وألحَّ على خليفة الرسول أبي بكر الصديق بجمعه .

وقد كتَبَ إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره ، أبي بكر ابن محمد بن حزم: «انظرْ ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنّي خفت دُروس العلم وذهابَ العلماء»[1] .

وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميعِ عمرةَ ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسمِ بنِ محمد بنِ أبي بكر ، لأهميَّتهما .

ولم يكتفِ ـ رحمه الله ـ بأبي بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالأقاليم: «انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعُوه»[2] .

ولم يكتفِ بالحثّ على ذلك ، بل سعى في تيسير هذه المهمة ، فأجرى الرِّزقَ على العلماء ورتَّب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم ، ويُكفوا مؤونة الاكتساب.

قال محمدُ بن الحكم: «وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية أن يعلِّما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبِلَ يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال: «ما كنت لآخذ على عِلْمٍ علَّمنيه الله

(1) [أخرجه البخاري في كتاب العلم برقم (٩٨) ، والدارمي في السنن (١/ ١٣٧) برقم (٤٨٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣١) برقم (٩٦)].
(2) تاريخ أصبهان: لأبي نعيم.

أجراً، فذُكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: ما نَعلمُ بما صنع يزيد بأساً، وأكثر اللهُ فينا مثلَ الحارث»[١].

وكان عمرُ من العلماء الراسخين الربانيين، ولولا الخلافةُ وتكاليفها لكان من العلماء المعدودين، ومن الفقهاء المشهورين.

قال الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»: «كان يُقرنُ بالزُّهري في عِلْمِهِ»[٢]، وقال مجاهد: «أتيناه لِنُعلِّمه فما بَرِحنا حتى تعلَّمنا منه»[٣].

وقد حدَّث عنه الزهريُّ وأبو بكر بنُ حزمٍ وأبو سلَمَة بنُ عبد الرحمن، وله مُسنَدٌ مطبوع[٤].

وكان حريصاً على نشر العلم الصحيح والسنن النبوية، إلا أن الخلافة وأعباءها لم تُمهله.

وقد كتب في أوائل خلافته إلى عديِّ بنِ عدي: «إنَّ للإيمان فرائضَ وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكملَ الإيمان، ومن لم يستكمِلْها لم يستكمل الإيمان، فإن أَعِشْ فسأُبيِّنها لكم حتى تعملوا بها، وإنْ أَمُتْ فما أنا على صُحبتكم بحريص»[٥].

نماذجُ من رسائله تدلُّ على فكرته ونَفسيَّته:

ولا أدلَّ على فكرتِه الإسلامية الأصيلة وروحه الإيمانية القوية من رسائله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٦٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ص١٠٦.

(٣) المصدر السابق: ص ١٠٦.

(٤) [هو «مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه» لمحمَّد بن محمد ابن سليمان أبي بكر الأزدي الواسطي المعروف بابن الباغَنْدِي، وقد طُبع بتحقيق وشرح الشيخ محمد عوَّامة].

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٧٢) برقم (٣٠٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٨) برقم (٥٩)].

وكُتبه التي وجَّهها إلى عُمّاله وأمراء أجناده ، وهي رسائل لا يجد فيها المدقِّقُ مأخذاً جاهلياً وظلاًّ من ظلال البيئة التي نشأ فيها ، يشعر فيها القارىء كأنه خُلق في الخلافة خلقاً جديداً ، وكأنَّ الرُّوح الإسلامية تتكلمُ على لسانه وتَفيضُ من قلمه.

منها رسالتهُ التي كتبها إلى عامله الضَّحَّاكِ بن عبد الرحمن ، وقد بلغه أن بعض أهل البادية وممن تقلَّدوا الإمارة حديثاً يتحاربون إلى بعض القبائل العربية ـ شأنهم في الجاهلية ـ ويزعُمون أنهم ولاةٌ على من سواهم ، ولما كان في ذلك إحياءٌ للنَّعرة الجاهلية والحَمِيَّة الجاهلية ، وخروجٌ على الوحدة الدينية والأُخوَّة الإسلامية التي أبدَلها الله بها العرب ، شقَّ ذلك على عمر بن عبد العزيز وأهمَّه ، ولوكان من سبقه من الخلفاء من أُسرته تشاغل عنه أو استغلَّه لمصالح دولته ، ولكن عمر لم يسعْهُ السكوت عليه ، وكتب هذه الرسالة البليغة:

«أمَّا بعد فإنَّ اللهَ جعل الإسلام الذي رضي به لنفسه ومن كَرُم عليه من خلقه ، لا يقبلُ ديناً غيره ، كرمه بما أنزل من كتابه الذي فرّق بين الإسلام وبين ما سواه ، فقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. فبعَثَ الله محمداً ﷺ حين بعثه ، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله ، وأنتم معشرَ العرب فيما قد علمتُم من الضَّلالة والجَهالة والجَهد وضنك العيش وتفرّق الدار ، والفِتَن بينكم عامةٌ ، والناس لكم حاقدون مستأثرون عليكم بالدِّين.

وليس مِن ضلالتهم من شيء إلا وأنتم على مثله ؛ من عاش منكم عاش فيما ذكرتُ من الجهل والضَّلالة ، ومن مات منكم مات إلى النار ، حتى أخذ اللهُ

بنواصيكم عما كُنتم فيه من عبادة الأوثان والتقاطع والتدابُر وسُوء ذات البَيْن ، فأنكرَ مُنكركم ، وكذَّب مكذِّبكُم ، ونبيُّ الله عليه السلام يدعو إلى كتاب الله وإلى الإسلام.

ثم أسلَمَ معه قليلٌ مستضعَفون في الأرض ، يخافون أن يتخطَّفهم الناسُ فآواهُم وأيَّدهُم بنصره ، ورزقَهم الله من أَذن له بالإسلام والدنيا مقبوضةٌ عنه ، والله مُنجِزٌ لرسوله موعودَه الذي ليس له خُلْفٌ ، فيراه من يراه بعيداً إلاّ قليلاً من المؤمنين فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقال في بعض ما يَعِدُه المسلمين أن قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥]. فأنجز الله نبيَّه عليه السلام وأهلَ الإسلام موعودَهُم الذي وعدهم.

فلم يُعطِكم يا أهل الإسلام ما أعطاكم من ذلك إلا بهذا الذي تَفلجون[١] به على خَصْمِكم ، وبِهِ تقومون شهداء يوم القيامة ، ليس لكم نجاةٌ غيره ، ولا حجةٌ ولا حِرزٌ ولا منَعةٌ في الدنيا والآخرة.

فإذا أعطاكم الله منه أحسنَ يوم وُعدتموه فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت ، فإنَّ الله قال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وإنّي أُحذِّركم هذا القرآن وتِباعته ، فإن تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيَّتُها الأمة وقائعُ من هراقة دماءٍ ، وخرَاب ديار ، وتَفَرُّق جماعات ، فانظروا ما زَجرَكُم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه ، فإن أحقَّ ما خِيف وعيدُ الله بقولٍ أو بعملٍ أو غير ذلك ، فإن كان بقول في أمر الله فنعمَّا له ، وإن كان بقولٍ في غير ذلك فإنما يُفضي إلى سبيل هَلَكةٍ.

---

(١) في مخطوطة «ب» «تفلحون» ولعلَّ ما هنا أصوب [هذا التعليق من أحمد عبيد].

ثم إنَّ ما هاجني على كتابي هذا أمرٌ ذُكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أُمِّروا حديثاً ، ظاهرٌ جفاؤهم ، قليلٌ عملهم بأمر الله ، اغترُّوا فيه بالله غرَّة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً ، وغيروا فيه نِعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه .

وذُكِر لي أنَّ رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن ، يزعمون أنهم ولاة على سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم مِنْ شُكرِ نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومَذلة وصغر ، قاتلهم اللهُ أيَّةَ منزلةً نزلَوا ، ومن أي أمانٍ خرجوا ، أو بأي أمر لصقوا .

ولكن قد عرفتَ أن الشقيَّ بِنيَّتِه يشقى ، وأن النار لم تُخلق باطلاً ، أوَ لَمْ يسمعوا قول الله في كتابه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠] . وقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

وقد ذُكِر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحِلف ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحِلف وقال : «لا حِلْفَ في الإسلام»[1] قال ـ وما كان مِنْ حِلْفٍ في الجاهلية فلم يَزِدهُ الإسلامُ إلا شِدَّة ـ فكان يرجو أحدٌ من الفريقين حفظَ حِلفه الفاجر الآثمِ الذي فيه معصيةُ الله ومعصيةُ رسوله ، وقد ترك الإسلام حين انخلعَ منه .

وأنا أُحَذِّرُ كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه ، أن يتَّخذَ غير الإسلام حِصناً ، أو دُونَ الله ودون رسولِه ودون المؤمنين وليجةً ، تحذيراً بعد تحذير ،

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الكفالة ، باب قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [النساء: ٣٣] برقم (٢٢٩٤) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه . . . برقم (٢٥٢٩) ، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٦٢) برقم (١٢٣٠٣) وغيرهم من حديث عاصم الأحول، وروي نحوه عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه أيضاً].

وأذَكِّرهم تذكيراً بعد تذكير ، وأُشهد عليهم الذي هو آخذٌ بناصيةِ كلِّ دَابّة ، والذي هوأقرب إلى كلِّ عبد من حبل الوريد.

وإنِّي لم آلكم بالذي كتبتُ به إليكم نصحاً ، مع أني لوأعلم أحداً من الناس يُحرك شيئاً ليؤخذَ له به أو ليدفع عنه أحرصُ ـ والله المستعان ـ على مذلَّته من كان؛ رجلاً ،أو عشيرة ،أو قبيلة ، أو أكثر من ذلك ، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به ، فإنَّه هو الرشدُ ليس له خفاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم ، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلُفَ فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذاتِ بيننا، والسلام»[١] .

وكذلك رسالتُه التي وجَّهها إلى منصور بنِ غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وفيها يتجلَّى إيمانه القوي بأن النصرَ من عند الله ، وأن فضل هذه الأمة على مَن سواها ومبزتها ، في صِلتها الصادقة بالله ، والاحتراس من المعاصي والتَّفوق في الطاعة ، وهذا هو الفهم الإسلامي الذي كان طابع الصحابة وشعارَهم.

ويظهَر في هذه الرسالة رِفقُه بالمسلمين وحُنوُّه عليهم حُنُوَّ الأمهات والآباء ، وكذلك اهتمامُه بأهل الصلح وأهل الذمة والحضُّ على مصالحهم ، وهذا مَثَلُ الخليفة الراشد ، يقول رحمه الله:

«هذا ما عَهِدَ به عبد الله عمر أميرُ المؤمنين ، إلى منصور بنِ غالب حين بعثه إلى قتال أهل الحرب ،وحربِه من استعرضَ من أهل الصُّلح ،آمرُه في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمرِ الله ، فإن تقوى الله من أفضل العُدَّة ، وأبلغِ المكيدة ، وأقوى القوة.

وآمُرُه ألاَّ يكون من شيءٍ من عدوه أشدَّ احتراساً منه لنَفسه ومَنْ معه من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوفُ عندي على الناس من مكيدةِ عدوهم ، وإنما نُعادي عدُوَّنا ونُنصرُ عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم ، لأن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم ص ١٠٣ وما بعدها.

عددَنا ليس كعددهم ، ولا عُدتنا كعُدَّتهم ، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا ، في القُوة والعدد ، فإن لا ننصر عليهم بحقّنا لا نغلبهم بقوّتنا .

ولا تكونوا لعداوةِ أحدٍ من الناس أحذرَ منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم .

واعْلموا أنَّ معكم من الله حفظةً عليكم ، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم ، فاستحيوا منهم ، وأحسنوا صحابتهم ، ولا تُؤْذوهم بمعاصي الله وأنتم زعمتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إنَّ عدونا شرٌّ منا فلن يُسلَّطُوا علينا وإن أذنبنا ، فرُبَّ قوم قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم بذنوبهم، فاسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوِّكم ، أسألُ الله ذلك لنا ولكم .

وآمُره أن يرفَق بمَن معه في سفرهم ، ولا يُجشِّمهم مسيراً يُتعِبُهم فيه ، ولا يُقصّر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوَّهم ، والسفرُ لم ينقص قوَّتهم ، فإنما يسيرون إلى عدوٍّ مقيم جامِّ الأهبةِ والكُراع ، فإن لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهِم في مسيرهم يكنْ لعدوهم فضلٌ في القوة عليهم بإقامتهم في جِمام الأنفس والكراع ، والله المُستعان .

وآمُره أن يُقيم ومَن معه في كل جمعة يوماً وليلة يكون لهم راحة يَجمعون[1] فيها أنفسهم وكراعهم ، ويَرمون أسلحتهم وأمتعتهم .

وآمُره أن يُنحِّي منزلَه عن قُرى الصلح ، فلا يدخلها أحدٌ من أصحابه لسُوقهم وجماعتهم إلا من يثقُ بدينه وأمانته على نفسه ، ولا يصيبوا منها ظلماً . ولا يتزوَّدوا منها إثماً ولا يؤذوا أحداً من أهلها بشيء إلا لحق؛ فإنَّ لهم حرمة وذمة ابتليتُم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فَفُوا لهم .

ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل (أرضِ) الصُّلح ، فلَعمري لقد أعطيتم مما يحلُّ منهم ما يُغنيكم عنهم ، فلم أترك لكم خَللاً في العدة ،

---

(١) [في مخطوطة ش ود وابن الجوزي والحلية : يُجِمُّونَ].

ولا رِقة في القوة فتظاهرت واكتفتْ لكم العُدد ، وانتخبتُ لكم الجُند ، وأَغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح . وبسطتُ لك أفضلَ ما بسطتُ لغازٍ ، فلم أجعل لك عِلّة في التقوية ، وبِالله الثِّقة ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وآمرُه أن تكون عيونُه من العرب ، وممنْ يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض ، فإن الكَذوب لا ينفعُ خبره وإن صدق في بعضه ، وإنَّ الغاشّ عينٌ عليك وليس بعَين لك ، والسلام عليك»[1] .

تأثيرُ إصلاحاته في الدّولةِ والمجتمع:

إنَّ هذه الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز في عهده ، وإن هذه الخطواتِ الجريئة التي خطاها في سبيل إصلاح نظام الحكم وتطبيق الشريعة على الحكومة كان يُخشى أن تُسبب الأزماتِ المالية والخسائر الفادحة ، وأن تقع الدولة في مشاكل جديدة لا تجدُ لها حلاً ، وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية على النُّظُمِ والحكومات ، والدعاة إلى فصل الدين عن السياسة في كل زمان ، وكان عمرُ بن عبد العزيز مستعدّاً ليُواجه هذه الأزماتِ في شجاعة ، وقد كتب إلى عامله الذي تخوّف من سوء عاقبة فُشُوِّ الإسلام في أهل الذمة أنه يَسرّه أن يَحرُث الأرض ويأكلَ مِن عمل يده إذا أسلم أهل الذّمة كلّهم فتنقطِع الجزية وتعجزَ مالية الدولة من كفالته[2] .

ولكنَّ هذه الأزماتِ لمْ تقعْ ، وفُوجىء الناس أن الرَّفاهية قد عمَّت ومالية الدولة قد قويت ، واطمأنَّ الناس في كلّ رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة ، حتى عزَّ وُجود من يستحقُّ الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلةً للأغنياء وأصحابِ الأموال تطلب حلاً سريعاً .

قال يحيى بن سعيد: «بعثني عمرُ بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتُها ، وطلبتُ فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذُها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن عبد الحكم ص: ٨٤ وما بعدها .

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز: طبع أوربة: ص: ٦٣ .

مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناسَ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتُهم، وولاؤُهم للمسلمين»[١].

وقال رجلٌ مِن ولد زيدِ بنِ الخطاب: «إنما وَليَ عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجلُ يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرحُ بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجعُ بماله. قد أغنى عمرُ بن عبد العزيز الناسَ»[٢].

ولا تزالُ خلافةُ عمر بن عبد العزيز حُجَّةً تاريخيةً على من لا يزال يردِّد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضةٌ للمشاكل والأزمات وعرضةٌ للانهيار في كل ساعة، وأنها ليست إلا حُلُماً من الأحلام. ولا يزال هذا التاريخ يتحدَّى هؤلاء، ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إنَّ هذه الفوائد المادية والرفاهية العامة من بركات الحكومة الإسلامية الصحيحة، ومن نتائجها الطبيعية، وهي فائدةٌ لا يُستهان بقيمتها.

ولكنَّ الفائدة الكبرى التي جرت على يد عمر بن عبد العزيز والتي أَحرزته مَنصبَ التجديد، هي الاتجاهُ الجديد الذي اتَّجهته الأمةُ والمجتمع الإسلامي والتطوُّر الذي وقع في الأذواقِ والأخلاق والميول والرغبات في هذه المدَّة القصيرة.

فقد حدَّثَ الطَّبريُّ في تاريخه عن عليٍّ قال: «كان الوليد صاحب بناءٍ واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص: ٦٩.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٢٨.

فولِّي سليمان فكان صاحب نِكاح وطعام ، فكان الناس يَسأل بعضُهم بعضاً عن التزويج والجواري.

فلمَّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءكَ الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تَختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشَّهر؟»[1] .

النُّقطة المركزية والأساسية في حَياة عمرَ بنِ عبد العزيز:

إنَّ ميزةَ عمرَ بنِ عبد العزيز ليست في الزهادة والتقشّف ، فقد يُشارِكه في ذلك بعضُ المتطوِّعين ورجال الحركات والثورات السياسية ـ وإن كنت أشك أنّ أحداً بلغ مبلغه في العزوف عن الشهوات والزهد في الحياة ـ ولكنَّ ميزته الكبرى والسِّمة التي يتَّسِم بها هو أن الدافع إلى كل ذلك هو إيمانُه القويُّ بالآخرة ، وخشية الله ، والشوق إلى الجنة ، فلم يَعِشْ هذه الحياة الزاهدة إلا خوفاً لله وشوقاً إلى الجنة ، وإيثاراً للآخرة على الدنيا ، وإيماناً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [القصص: ٦] وإيماناً بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وتسليماً لقول رسول الله: «اللَّهم لا عيشَ إلا عيش الآخِرة»[2] .

وهذا مفترقُ الطرق الذي يَنفصل منه زُهَّاد الإسلام عن السياسة ، وتلاميذ الرسول عن تلاميذ المدرسة السياسية والاقتصادية ، وليس لِغير هذا الإيمان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ج٣، ص ٩٨ (حوادث سنة ٩٦).

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب برقم (٢٩٦١)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٨٥) برقم (٨٣١٦)، والترمذي في أبواب المناقب، باب مناقب سهل بن سعد رضي الله عنه برقم (٣٨٥٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١٧٢) برقم (١٢٧٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد روي بنحوه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أيضاً].

القوي الذي امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً ـ في مثل شباب عمر بن عبد العزيز وقوّته وحُرِّيته وسلطانه ـ من إغراءات المادية القاهرة ومن تسويلاتِ الشيطان والنفس المغرية ، وتفرضُ عليه المحاسبةَ الدقيقة للنفس ، والاستقامة على طريق الحق.

فقد رأينا في قادة الحركات السياسية الشعبية ، وفي رُؤساء الدول التي تقوم على مبدأ الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، كيف يتسلَّلون إلى أنواع التَّرفِ والبذخ ، وكيف يعيشون في القصور عَيْشَ الملوك ، وكيف يُبيحون لأنفسهم التمتعَ بالملذات والامتيازات.

أمَّا عمر بن عبد العزيز فإذا نُصح في ذلك ، وأُشير عليه بالتوسع في المطعم والملبس والتمتع ببعض «حقوق» الخلفاء قرأ قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥] .

ولم يكن ذلك إلا لعلوِّ استعداده ومداركه ، ونتيجة الطموح الصادق الذي تَتصفُ به النفس الكبيرة المؤمنة ، فإنه لم يزل يتدرَّج في المعالي حتى بلغ من ذلك الغاية التي ليست وراءها غاية في هذه الحياة؛ فطمحت نفسه إلى غايةٍ فوقها ، وتاقت إلى نعيمٍ لا يحول ، ومُلك لا يزول ، وقرَّة عين لا تنقطع. وكان شأنه في ذلك شأنَ يوسف الصديق إذ قال: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] . يتجلَّى هذا في كلمته التي قالها لمُزاحِمِ مولاه: «إنَّ لي نفساً تواقة ، لم تَـتُقْ إلى منزلةٍ إلا تاقتْ إلى ما هو أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة ، وإنها اليومَ قد تاقتْ إلى الجنة»[1] .

وكان شديـدَ الخوف لله ، سريـعَ الدمعـة ، غزيرَها ، دخـل عليه رجلٌ وبينَ يـديـه كانونٌ فيـه نـارٌ ، فقـال: عِظْني.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص: ٦١.

قال: يا أميرَ المؤمنين ، ما ينفعُك من دخل الجنة إذا دخلتَ أنت النار؟ وما يضرُّك من دخل النار إذا دخلتَ أنت الجنة؟ قال: فبكى عمرُ حتى أطفأ الكانون الذي بين يديه[1].

وقال يزيد بن حَوْشَب: ما رأيتُ أخوفَ من الحسن وعمر بن عبد العزيز! كأنَّ النَّار لم تُخلقْ إلا لهما[2].

وفَاةُ عمرَ بنِ عبد العزيز:

ولكنَّ هذه المدَّة التي كانت أشبهَ بفصل الربيع في عالم الدِّين والأخلاق، وفي تاريخ الإنسانية ، وكانت فَلْتةً من فَلَتاتِ الدهر لم تَطُل؛ فقد تُوفي عمرُ بنُ عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة بدَير سمعان ، وهو ابنُ تسعٍ وثلاثين سنةً وأشهُرٍ[3].

وتدلُّ بعضُ القرائن على أنه سُمَّ؛ لأنه بمقدار ما سَعدت الأمة وسَعِد به المجتمع الإسلامي ، شَقي بنو أمية ، أسرتُه التي كانت تنظر إلى الخلافة كطُعمة أو مُلك شخصي ، ووقف عمر بن عبد العزيز حاجزاً بينهم وبين شهواتهم وتصرُّفاتهم ، فكان ربحُ الإسلام فيه على حساب الأسرة الحاكمة؛ فلا غرابة إذا تخلَّصوا منه ، وحرموا الإسلام من هذه الثروة الغالية.

إنَّ كلَّ ما تحدَّثنا عنه من مآثرَ جليلة ، وأعمال خالدة ، وإصلاحاتٍ واسعة تتجمَّلُ بها حياةٌ طويلة ، وعُمر عريض قد تمَّ في سنتين وخمسةِ أشهر؛ فكان عمر بنُ عبد العزيز معجزة من معجزات الإسلام ، وآيةً من آيات الله العظام في جلالة عمله ، وضخامة إنتاجه ، وبُعد أثره ، وكان معجزةً؛ لأن كل ذلك قَد تمَّ في مُدة قصيرة لم تُعرف عن مصلح وعبقري وإداري.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ص: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) صفة الصفوة: لابن الجوزي: ج٣ ص١٥٦.

(٣) ابن سعد، ابن الأثير، ابن الجوزي.

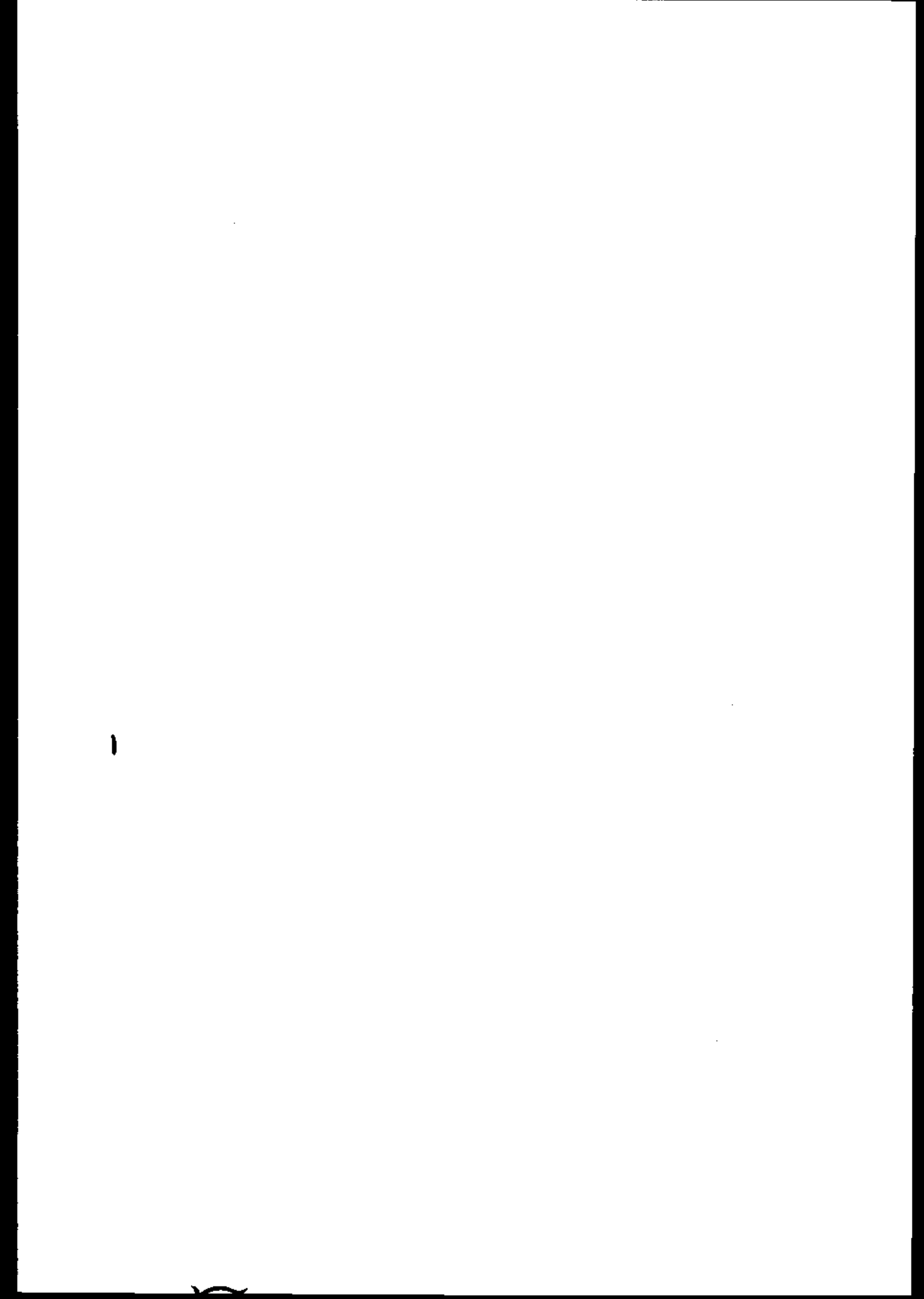
سَنتان وبضعة أشهر يُحقِّقُ فيها ما لا تحقِّقه الحكومات والمنظَّمات في عُقود من السنين ، ويُغيِّر اتجاهَ أمة ومجتمعٍ بأسره.

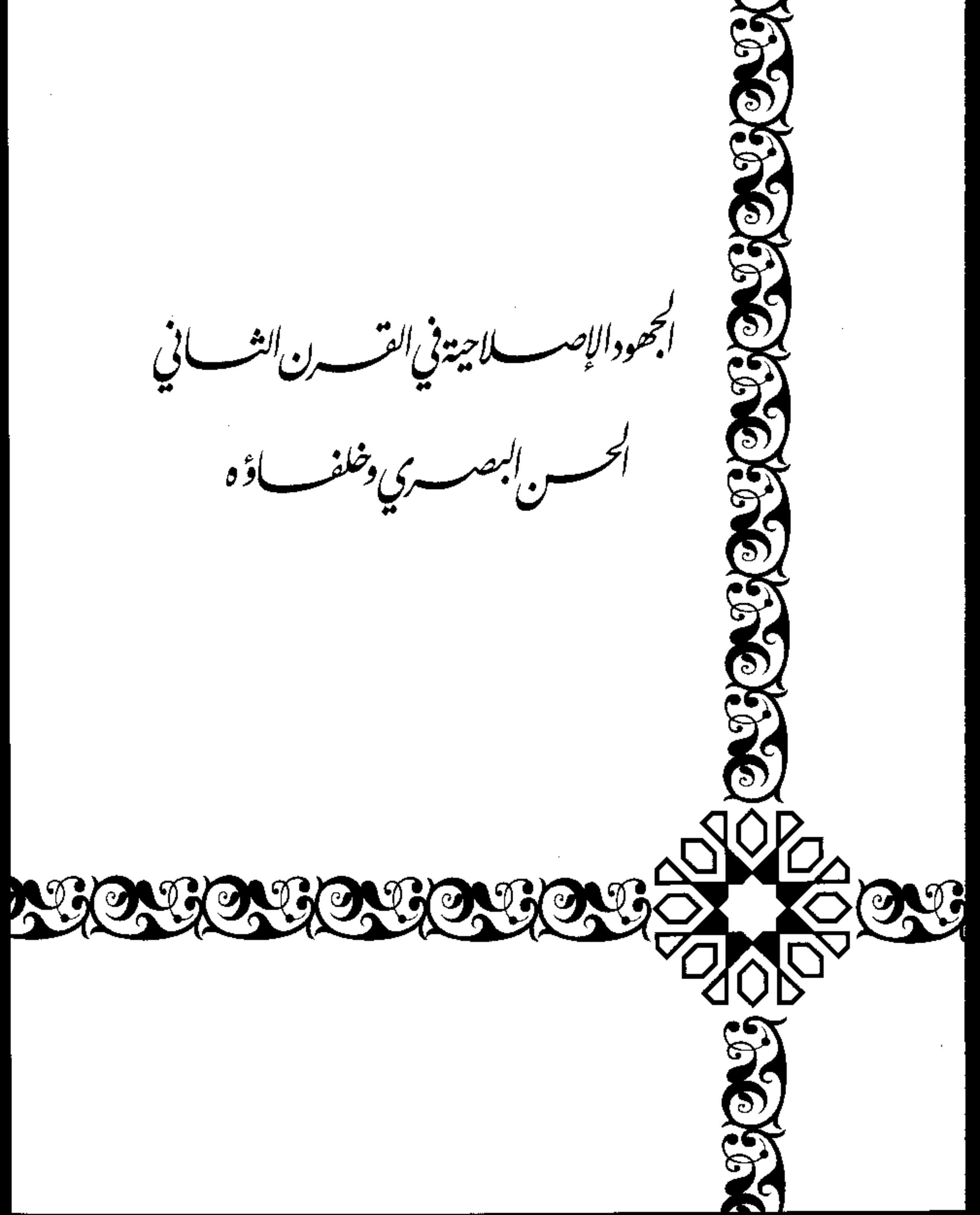
إنَّ هاتين السنتين لتَرجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجحُ على مكتبةٍ حافلة في تاريخ الإصلاح والإدارة والسياسة.

يُسعدني ـ وأنا واقفٌ في دمشقَ ـ أن أُحيِّي هذه الروحَ الطاهرة والشخصيةَ الفريدة في بلده ، وأُعلِنَ أن هذا العصر ليس بأحوج إلى شيء منه إلى رجل من طراز عمر بنِ عبد العزيز ، وقد خَلَتِ القرون والأجيال ولم يَظهر مثله ولا يزال التاريخ منشداً:

حَلَفَ الزَّمانُ لَيأتِينَّ بمِثْلِه حنَثَتْ يمينُك ـ يا زمانُ ـ فكَفِّرِ

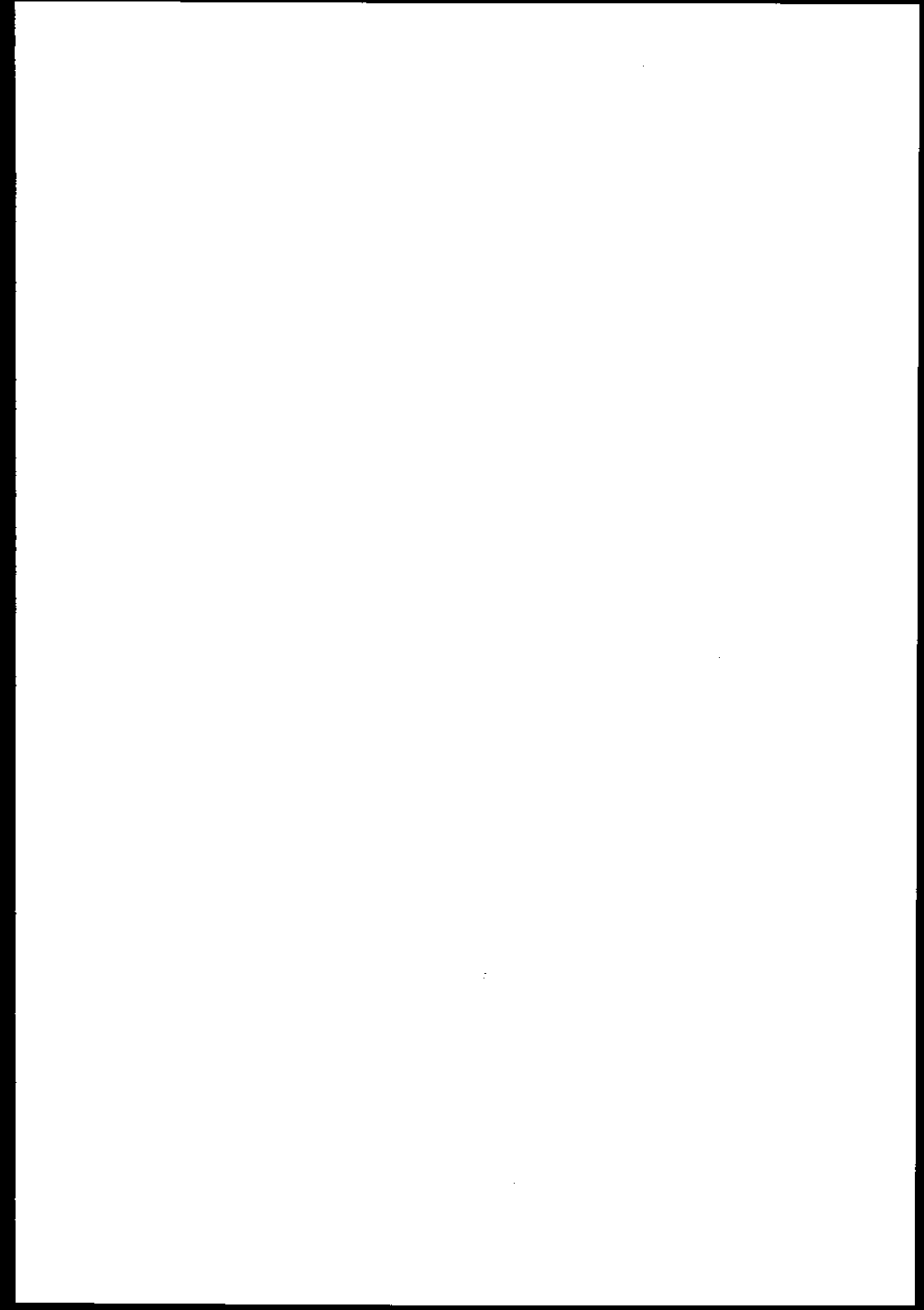
* * *





الجهود الإصلاحية في القرن الثاني

الحسن البصري وخلفاؤه



المحاضرة الثالثة:

الجُهود الإصلاحيّةُ في القرن الثاني
الحسَنُ البَصْريُّ وَخُلفاؤُه

الانحطاطُ الخُلُقيُّ والإيمانيُّ في الأُمة:

عادتِ الخلافةُ ـ عقبَ وفاة عمرَ بنِ عبد العزيز ـ سيرتَها الأولى ، وأَنشَبتِ الجاهليةُ أظفارها في المجتمع الإسلامي ، وكأنَّ الخليفة بعده كان حريصاً على أن يملأ هذا الفراغ الذي أحدثهُ عمر في اتجاه الخلافةِ المستمر ، وكذلك مَن جاء بعده من الخلفاء .

لقد نشأ التَّرفُ في المجتمع الإسلامي ـ كما قدَّمنا ـ لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ، ونشأت طبقةُ المترفين بأخلاقهم ونفسيَّتهم ، وكثُرتِ الأموال وأدواتُ الترف ، واشتدتِ الإغراءات المادية وفعلتْ فعلها في المجتمع حتى أشرف الإيمانُ والعمل الصالح ـ وبهما تمتاز هذه الأمةُ عن غيرها من الأمم ، وفيهما سِرُّ قوتها وانتصارها ، وهما تُراث النبوّة ـ على الضَّياع والتلف ، وأصبحت هذه الأمة تتقدّم إلى انهيارٍ في الأخلاق والروح ، وخمود في العاطفة والشعور الإيماني ، وضعْفٍ في صِلتها بالله بخُطىً واسعةٍ .

وكان ذلك نذيراً لكارثةٍ كبرى ، كارثة أصيبت بها الأممُ من قَبل ، وهي

الإفلاسُ في الإيمان والروحِ والأخلاق ، وهي خسارة لا تُعوِّضها الدول والحكومات والفتوحُ المادية والسِّياسية ، ولا بقاءَ لأمةٍ ـ ذات رسالة وعقيدة ـ بعد ذلك .

بَدَتْ طلائعُ هذه الفاجعة في الأفق ، والخلافةُ مشغولةٌ عن ذلك ؛ بل هي السبب في حلولها ودُنوِّها ، ولو أرادت أن تَمنع وقوعها لما استطاعت ؛ لأنَّ القائمين على رأسها لا يملكون تِلك المؤهِّلات التي يستطيعون بها أَن يُواجهوا هذه الفاجعة ، وهي الإيمانُ القوي والحياة النزيهة ، والأخلاق الإسلامية ، والدعوة التي تملك عليهم قلوبَهم ومشاعرهم ؛ إنما هي طبقة من المترفِين المتنعِّمين يحتاجون بأنفسِهم إلى الدعوة والتربية .

لقد كان هذا التَّطوُّرُ خطراً كبيراً على هذه الأمة ، وكان أبعثَ على القلق من انتقاص أطراف مملكة الإسلام الواسعة ، وقِلَّة مواردها ، إلى غير ذلك من الحوادثِ السياسية والتطوُّراتِ الاقتصادية ؛ وذلك لأنَّ الإيمان ليس خَلْقُه في أمةٍ أمراً يسيراً ، وليس لكل أحد أنْ يبعث هذا الإيمان ، وإذا زال لا يعود في الغالب .

وتاريخُ الأمم والديانات شاهدٌ على ذلك . تُفْلِس أمة في الإيمان وتملك كل شيء ، وتنقطعُ صلتها بربها وتتَّصل بكل شيء ؛ فلا تعود سيرتَها الأولى ، ولا تستردُّ ذلك الإيمان وتلك الصِّلة القوية بالله ، وتذهبُ جهود المصلحين والدعاة هباءً منثوراً . وهذه الأُمم الأوربية والأمة الهندوكية العظيمةُ تُصدِّق هذه الحقيقة .

إنَّ هذا الإيمان بالله ، وإنَّ هذه الصلةَ الحية القوية التي عُرفت بها هذه الأمةُ ، وسَحقتْ بها الأممَ ، وأخضعتْ بها العالم ، وإنَّ هذه المظاهر الإيمانية التي تُقرأُ أمثلتُها الرائعة في تاريخ العهد النبوي والخلافة الراشدة : من إنابةٍ صادقة إلى الله ، وثقةٍ بهِ ، وتَفانٍ في سبيله ، وعزوفٍ عن الشهوات ، واستهانةٍ بزخارف الحياة ، وشَوقٍ إلى الشهادة ، وحَنينٍ إلى الجنة ، وخُشوع في الصلاة ، ولَذَّة في الدعاء ، وعطف ومواساةٍ ، وزُهد وإيثار ، إلى غير ذلك ،

مما هو نتيجةُ الإيمان القوي العميق، إنما كان مِنْحةَ النبوَّة، وتأثيرَ الشخصية النَّبوية الفَذَّة التي سُعد بها العالم مرَّةً في التاريخ.

فإذا تجرَّدتِ الأمةُ من هذه الثروة الإيمانية التي مَنحتها النُّبوة الأخيرة وشخصية الرسول المعجزة، فقد تجرَّدت من رأسِ مالها، وأفلست إفلاساً تاماً، ولا مطمع في إيجاد هذا الإيمان، وإعادة هذه الثروة بعدما انقطعت النبوة.

أمّا تجديدُ هذا الإيمان وتَقويتُه قبل أن يزول، والمحافظةُ على هذه الثروة والزيادة قبل أن تضيع، فمُمكِنةٌ وميسورة، إذا قام لذلك رجالٌ أكفاء، وجاهدوا في سبيله حقَّ الجهاد.

لقد واجهَتِ الأُمّةِ في سَيْرِها نقطةَ تحوُّل، قد فَطن لها من فَتح اللهُ بصيرتَه، وألهَمه الحكمةَ والدعوة، عرفوا أن الأمة مُهَددة بخطرٍ هو أعظم من الخطر الخارجي ومن الأخطار السياسية، هو خطر المادية الجارفة، والانحطاطِ الخُلقي والروحي، ما أصيبتْ به أمةٌ إلا كانت فريسة للأدواء الخلقية والاجتماعية، وخواءِ الروح، وإفلاس الباطنِ، وعبادةِ الشهوات، والتنافس في الحياة.

وما أُصيبتْ بذلك أمةٌ إلا ضاعت وطُويت مع الأمم الغابرة.

وقد أنبأ بهذا الخطر لسانُ النبوّة قبل حدوثه، فقد روي عن النبي ﷺ أنه خطب قبل وفاته خُطبةً أنذر فيها المسلمين بهذا الخطر وقال: «**ما الفقر أخشى عليكم؛ ولكن أخشى عَليكُم أن تُبسط عليكُم الدنيا كما بُسطت على من قَبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلكَكُم كما أهلكتهم**»[1].

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً برقم (٤٠١٥)، وفي كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا...، برقم (٦٤٢٥)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق باب «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» برقم (٢٩٦١)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب حديث «والله ما الفقر أخاف عليكم» برقم (٢٤٦٦)،

لقد حَلَّ هذا الخطر ، وتحقَّق الذي تخوَّفه النبي ﷺ على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجَـهُ في عهدِ بني أمية؛ ولكن الله لطفَ بهذه الأمة؛ إذ قيَّض لمواجهته ، والوقوفِ في وجهه رجالاً مخلصين ، ودعاةً مؤمنين ، عارضوا هذا التيار بكل ما عندهم من قوىً ومواهب ، ومنعوا عدداً كبيراً من المسلمين أن تجرفهـم الماديـةُ وتستعبـدَهـم الشهـوات.

إنَّهم لم يستطيعوا أن يُحوِّلوا التيار أو يُوقفوا سَيْـرَهُ؛ ولكنهم استطاعوا أن يُبطئوا سيرهُ ويُنقـذوا من لُـجَّتِه من استمـع إليهم أو جـالَسهم وتأثَّـر بدعوتهـم. إنّ لهم فضلاً لا ينساه الإسلام ، ولا يغمطه التاريخ؛ لأنهم كانوا سبباً وعاملاً قوياً في استمرار الإسلام الرُّوحي والخُلقي الذي هو أهم من استمرار هذه الأمة النَّسْليِّ والسياسي.

فإذا كان الفضلُ في بقاء هذه الأمة ذاتَ عددٍ كبير ومكانةٍ سياسية يرجع إلى المجاهدين وملوك الإسلام ، فالفضلُ في بقائها أمةً ذاتَ عقيدة ودينٍ وأخلاق خاصة ، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم ، يرجع إلى هؤلاء الدعاة المُخلصينَ والمصلحين والمجاهدين الذين بذلوا جُهدَهم في المحافظة على خصائص هذه الأمة الباطنية والنفسيَّة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية ، ولا شكَّ أن فضلهم أكثرُ ، ومِنَّتهم أعظمُ؛ فلا خيرَ في بقاء هذه الأمة من غير هذه الخصائص.

ولا لذلك بُعثَ الرسول ﷺ ودعا دعوته ، وجاهد الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان ، ولا لذلك كانتْ بدرٌ وأحد ، واليرموك والقادسية.

ولا لذلك استحقَّ المسلمون النصرَ والتأييد من الله ، إنما كان كل ذلك للعقيـدة التـي يعتقـدونهـا ، والأخـلاقِ التـي يتَّصفـون بهـا ، والـدعـوة التـي يحملونها ، والسِّمة التي يتَّسِمون بها؛ فمن ساهم في ذلك فهو من مُحسِني هذه

= ابن ماجه في أبواب الفتن ، باب فتنة المال برقم (٣٩٩٧) ، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٧) برقم (١٧٢٧٣) وغيرهم من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه].

الأمة وخلفاء الرسول بالحق ، والأمةُ مدينةٌ له بالفضل إلى أن تقوم القيامة.

لقد كان هؤلاء الدُّعاةُ والمصلحون مُنْبَثِّينَ في الحواضر الإسلامية ، مرابطين على الثغور ، قائمين بالدعوة ، وليس كلُّ واحد منهم ذكره التاريخ ، وليس كل أحد سُجِّلت مواقفه ونتائجُ دعوته وجهاده؛ ولكن اشتهرتْ منهم جماعةٌ من فضلاء التابعين كان أشهرهم سعيدُ بن جُبَير ، ومحمدُ بن سِيْرين ، والشَّعبيُّ؛ ولكن الذي حمل هذه الراية ، وتفرَّد من بينهم بالإمامة ، هو الحسنُ البَصري.

الحَسَنُ البَصْريُّ ، شَخصيّتـهُ ومُؤَهِّلاتُـه:

وُلِـدَ الحسنُ البصري سنـة ٢١ للهجرة ، وأبـوه يَسَـار ، مولى زيـد ابنِ ثابت ، صـاحبِ رسول الله ﷺ ، وكـاتبِ الوحـي ، وأُمُّـه خَـيِّرة ، مولاةُ أُمِّ سلمـة ، زوجِ النبـيِّ ﷺ ، نشـأ فـي بيتهـا ، ولقـيَ جماعـة كثيـرةً من الصحابة وسمع منهم.

وقد جَمَعَ الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يُؤثِّر في قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين في المجتمع ، فقد كان واسعَ العلم غزير المادة في التفسير والحديث ، ولم يكن لأحد في ذلك العصر أن ينشرَ دعوته ويقوم بالإصلاح ، إلا إذا كان متوفِّراً على هذين العلمين.

وقد أدرَكَ عصرَ الصحابة وعاصر كثيراً منهم ، ويظهرُ من حياته ومواعظه أنَّه درسَ هذا العصر دراسةً عميقة ، وأدرك روحَه ، وعرف كيف تطوَّر المجتمع الإسلامي ، ومن أين انحرف.

وكان واسعَ الاطلاع ، دقيقَ الملاحظة للحياة ومختلف الطبقاتِ وعوائدِها وأخلاقها وعِللها وأدوائِها ، كطبيبٍ مارس العلاج مُدةً.

وكان مع ذلك غايةً في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير في مستمعيه، يقول أبو عمرو بن العلاء: «ما رأيتُ أفصحَ من الحسن البصري ، والحجَّاج بن يوسف ، والحسنُ أفصحُ منه».

وكان آيةً في اتساعِ المعلومات ووُفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت إلى الحسن عَشْر سنينَ ، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمعْ قبله .

وقال محمدُ بن سعد: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ، ثقة مأموناً ، عابداً ناسكاً ،كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً وسيماً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس إليهِ ، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط!

وقد وصَفَه ثابتُ بنُ قُـرَّةَ ـ كما نقل عنه أبو حيَّان التَّوحِيدي ـ فقال:

«كان مِن دراري النجوم عِلماً وتقوى ، وزهداً وورعاً ، وعِفَّةً ورِقَّة ، وفقهاً ومعرفة ، يجمع مجلسه ضُروباً من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يَلقَفُ منه التأويل ، وهذا يسمعُ منه الحلال والحرام ، وهذا يحكي له الفتيا ، وهذا يتعلَّم الحُكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ، وهو في جميع ذلك كالبحر اللَّجاج تدفّقاً ، وكالسِّراج الوهَّاج تألُّقـاً ، ولا تُـنسَى مواقِفُه ومشاهدُه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشباهِ الأمراء ، بالكلام الفَصْل واللفظ الجَزْلِ» .

وكان فوق ذلك كلِّه ـ وهو سرُّ تأثيره في القلوب ، وسحره في النفوس ، وخضوع الناس له ، وقد قَسوا على كثيرٍ من الوعاظ والعلماء ـ أنه كان صاحب عاطفةٍ قوية ، وروح مُلتهبة ، وكان من كبار المخلصين ، وكان يجمع بين بلاغة اللسان ، وقوة الإيمان ، وكان يُؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده ، وكان الذي يقول يَخرُج من القلب فيدخل في القلب .

وكان إذا ذَكر الصحابةَ ، أو وَصف الآخرة ، أدمعَ العيون وحَرَّك القلوب؛ لأنه يتذوّق الإيمان ، ويتكلَّم عن عاطفة ووجدان؛ لذلك كانت حلقته في البصرة أوسعَ الحلقات ، وانجذاب الناس إليه انجذابَ الحديد إلى المغناطيس ـ وذلك شأنُ أهل القلوب والإخلاص في كل زمان ـ.

وكان مِن أعظم ما امتازَ به هو أنَّ كلامه كان من أشبهِ ما سمع الناس بكلام النبوّة ، وقال الغزالي في «إحياء العلوم» : «ولقد كان الحسنُ البصريُّ رحمه الله

أشبهَ الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم ، اتَّفقتِ الكلمة في حقه على ذلك»[١] .

كانت نتيجةُ المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة ، أنه كان صاحبَ شخصيةٍ قويةٍ جذَّابة حبيبة إلى النفوس ، وكان الناس مأخوذين بسحرها ، خاضعين لعظمتها ، حتى قال ثابتُ بنُ قُرَّةَ الحكيمُ الحرَّاني : «إنَّ الحسنَ من أفراد الأمة المحمدية التي تَتباهى بهم على الأمم الأخرى» .

مَواعِظُ الحَسَنِ البَصْريّ:

ومَواعِظُ الحَسن البصري تجمع بين القوة والسهولة التي عُرف بها كلام عَهد الصحابة ، وهي تدور غالباً حول قِصَر الحياة وغَدْر الدنيا ، وخُلود الآخرة ، والحثِّ على الإيمان والعمل الصالح والتقوى ، والخشية والتحذير من غرور النفس وطول الآمال .

ولا شكَّ أنَّ المجتمعَ الذي افترستْهُ المادية ، واستحوَذتْ عليه الشهواتُ ، وأُصيب بالإغراق في التَّرفِ ، والإمعان في الأماني ، كان في حاجة مُلِحَّة إلى مثل هذه المواعظ التي تكشِفُ الغطاء عن العيون ، وتمسُّ القلوب .

وكان يُصوِّر في أكثر مواعظه عصر الصحابة ، وما اتَّسم به من أخلاق وصِفاتٍ ، ويُقارن بين عصرهم وعصرِه ، ويَصِفُ التَّدهور الذي أُصيب به المجتمع الإسلامي في الإيمان والأخلاق . وكان إذا وصل إلى هذه النقطة أثار الأحزان ، وأهاج الوِجدان .

ومَواعِظُه مثالٌ جميل للنثر البليغ ، والأدب الرفيع ، وموضوعُ دراسة الأَديب والناقد ، وأُقدِّمُ هنا مثالين من هذه المواعظ ، فمنها موعظَة يذكُر فيها عَهد الصحابة ، ويصفُ المؤمن :

---

(١) إحياء العلوم: ج١ ، ص٦٨ .

«هَيهاتَ هَيهاتَ! أهلك الناس الأماني ، قولٌ بلا عمل ، ومعرفة بغير صَبر ، وإيمانٌ بلا يقين .

ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً! وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً!

دخل القومُ والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرَّموا ثم استحلُّوا ، إنما دين أحدكم لَعقةٌ على لسانه ، إذا سُئل : أمؤمنٌ أنت بيوم الحساب؟ قال : نعم . كذب ومالك يوم الدين .

إنَّ من أخلاق المؤمن قوةً في دين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم ، وكَيساً في رِفق ، وتحمّلاً في فاقة ، وقَصداً في غنى ، وشفقةً في نفقة ، ورحمةً لمجهود ، وعطاءً في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، لا يهمز ، ولا يغمِز ، ولا يلْمِز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتَتبعُ ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه ، ولا يتجاوز في العُذر ، ولا يَشمَتُ بالفجيعة إن حلَّت بغيره ، ولا يُسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمنُ في الصلاة خاشعٌ ، وإلى الركوع مسارعٌ ، قولُه شفاءٌ ، وصبره تُقىً ، وسكوته فكرةٌ ، ونظَرُه عِبرةٌ ، يُخالِط العلماء ليَعلَم ، ويَسكت بينهم ليسلَم ، ويتكلَّم ليَغْنَم ، إنْ أحسن استبشر ، وإنْ أساء استغفر ، وإنْ عُتِبَ استعتَب ، وإنْ سُفه عليه حلُم ، وإنْ ظُلم صَبَر ، وإنْ جير عليه عدَل .

ولا يتعوَّذ بغير الله ، ولا يستعينُ إلا بالله ، وَقورٌ في الملأ ، شكورٌ في الخلاء ، قانع بالرزق ، حامد في الرخاء ، صابرٌ على البلاء ، إنْ جلس مع الغافلين كُتب من الذاكرين ، وإنْ جلس مع الذاكرين كُتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحابُ النبي ﷺ ، الأوَّل بالأولِ ، حتى لحقوا بالله عزَّ وجلَّ ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غُيِّر بكم لما غيَّرتُم ، ثم تلا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١][١] .

وموعظةٌ أخرى يُفسّر فيها آيات من سورة الفرقان ، [الآيات: ٦٣ ـ ٦٥]، ويَصِفُ المؤمنين الأولين:

«إنَّ المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله صدَّقوا بها ، وأفضى يقينُها إلى قلوبهم ، خشعتْ لله قلوبهُم وأبدانهم وأبصارهم ، كنتَ والله إذا رأيتهم رأيتَ قوماً كأنَّهم رأيُ عين ، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر من عند الله فصدَّقوا به ، فنعَتَهُم الله في القرآن أحسنَ نَعت ، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ والهَوْنُ في كلام العرب: اللِّين والسكينةُ والوقار ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ حُلماء لا يجْهلون ، وإن جُهل عليهم حَلِموا ، يُصاحبون عباد الله نَهارهم بما يسمعون.

ثم ذَكَرَ ليلَهم خيرَ ليلٍ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ ينتصبونَ لله على أقدامهم ، ويفترشونَ وجوههم سُجّداً لربهم ، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم ، لأمرٍ مَّا سهروا ليلَهم ، ولأمرٍ مَّا خشَعوا نهارهم ، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ وكلُّ شيء يصيبُ ابنَ آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام اللاَّزم له ما دامتِ السموات والأرض ، صدقَ القومُ واللهِ الذي لا إله إلا هو ، فاعملوا وأنتم تتمنَّون ، فإياكم وهذه الأماني رحمكم الله، فإنَّ الله لم يُعط عبداً بأُمنيته خيراً في الدنيا والآخرة»[٢] .

---

(١) الحسن البصري: لابن الجوزي: ص ٦٩، ٦٠.

(٢) قيام الليل: ص ١٢.

صَدْعُه بالحقِّ وشجاعتُه أمام رجال الحُكم:

وكان الحسنُ البصريُّ صادعاً بالحق ، شُجاعاً لا يخشى في صَدْعِه بالحق غائلةً ، وهذه الشجاعة لها قيمتها ومكانتُها في الحكومات الشخصيَّة التي لم تزلْ حُرةً في تصرفاتها وأهوائها ، عنيفة قاسية في حُكمها ، سريعةً مُتهوِّرة في تنفيذ إرادتها وانفعالاتها ، وقد روى التاريخُ من أخبار شجاعة الحسن الدينية ما يرفعُ مكانته في علماء عصره ، ودُعاة الإصلاح.

منها ما رواه ابن خلِّكان ، قال: «لمَّا وليَ عمر بنُ هبيرة الفِزاريُّ العراق ، وأضيفت إليه خراسان ، وذلك في أيامِ يزيد بنِ عبد الملك ، استدعى الحسنَ البصري ، ومحمدَ بن سيرين ، والشعبيَّ ، وذلك في سنة ثلاثٍ ومئةٍ فقال لهم: إن يزيدَ خليفةُ الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهمُ الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولَّاني ما ترون ،فيكتب إلي بالأمر من أمرِه فأقلِّده ما تقلده من ذلك الأمر ، فما ترون؟

فقال ابنُ سيرين والشعبي قولاً فيه تقيَّةٌ.

فقال ابنُ هبيرة: ما تقول يا حسن؟

فقال: يابن هبيرةَ خَفِ اللهَ في يزيد ، ولا تخفْ يزيدَ في الله.

إنَّ اللهَ يمنعُك من يزيد ، وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله.

وأوشكَ أن يبعث إليك مَلَكاً فيُزيلك عن سريرك ، ويُخرجك من سَعةِ قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا يُنجِّيك إلا عملك.

يابن هبيرَة ، إن تَعْص الله ، فإنما جعلَ الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تَركبَنَّ دينَ الله وعباده لسلطان الله؛ فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فأجازهُم ابن هبيرة ، وأضعَف جائزة الحسن ، فقال الشعبيُّ لابن سيرين: سَفْسَفْنا له فسَفْسَفَ لنا.

وروى ابنُ سعد في «طبقاته» بإسناده عن مسلم بن أبي الذَّيال، قال: «سأل رجلٌ الحسنَ وهو يسمعُ وأناسٌ من أهل الشام، فقَال:

لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟

فغضب، ثم قال بيده فخَطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نَعم، ولا مع أمير المؤمنين»[١].

النِّفاق والمُنافقون في الدولة الإسلامية:

لقد نشأتْ في المملكة الإسلامية بحُكم نفوذ الإسلام السياسي والمادي، طبقةٌ تَدينُ بالإسلام، وتتسَمَّى بالمسلمين؛ ولكنها لم تُسغ الإسلام إساغة يطلبها الإسلام، ولم تُمثِّله في أخلاقها وسلوكها وميولها إنها لم تتحقق بحقيقةِ الإيمان، ولم تدخل في السِّلْم كافَّةً كما يأمر به القرآن، وقد وُجد في الجيل الإسلامي الجديد الذي لم تتمَّ تربيتُه على أساس الإسلام، رجالٌ لم تَنْقَ رُؤوسهم ولا نفوسهم من النّزعات الجاهلية، ولم تكن صِلَتهم بالإسلام صلةً عميقةً مُتَغلغلةً في الأحشاء، مُسيطرة على الحياة والتفكير، وقد وُجد في المجتمع، وبصفةٍ خاصة في دوائر الحكومة، وفي أوساط الأمراء والأغنياء، أفرادٌ ـ ليس عددُهم قليلاً ـ يُمثِّلون بأخلاقهم وأساليب حياتهم ومناهج تفكيرهم المنافقين القدماء، وهؤلاء هم الذين كانت لهمُ السيطرة على الحياة والنفوذُ في المجتمع، يَشغلون في الحكومة مناصبَ خطيرةً، ويحتلُّون في الجيش مراكزَ كبيرة، وكانت عاداتُهم وأخلاقهم وأزياؤهم هي التي يُقلِّدها المُترفون والمتأنِّقون من الشباب والأغنياء.

اعتقَدَ بعضُ العلماء أنَّ النفاق قد انقرض، وأنَّه كان مَرضاً محلياً ومُؤقتاً اقتضتهُ الظروف الخاصة في العصر الإسلامي الأول، فلمَّا غلب الإسلام

---

(١) طبقات ابن سعد: ج٧، ص٢١٩.

وزالت شوكةُ الكفر وانتهى الصراع بين فكرتين متنافستين وبين قُوتين متحاربتين ، وبقي الإسلام لا يُصارعه الكفر ، فقدتِ الطبقةُ التي كانت تعالج صراعاً نفسياً ، وتتأرجح بين الإسلام والكفر ، فلا تخلُص لأحد منهما؛ وتتمتع بمنافعهما في وقت واحد ، أما وقد بقي إسلام ولا كفر ـ كما هو الشأن في الدولة الإسلامية ـ أو كفرٌ ولا إسلام ـ كما هو الشأن في دار الحرب ـ فلا حاجةَ إلى هذا الأسلوب من التفكير وهذا الطِّراز من النفسية ، ولا محلَّ للنفاق في دار الإسلام التي يحكم فيها الإسلام ، ويَسودُ فيها الدين؛ وقد راجتْ هذه الفكرة في الأوساط العلمية في الزمن المتقدم ، وترى لها ظلالاً في كتب التفسير والتاريخ.

ولكن يجب أن يُلاحظ ، أنَّ النِّفاق عِلَّةٌ قديمة من عِلَل الفطرة البشرية ، يُصاب بها ضِعاف النفوس في كل عصر من العصور. ولا يتولَّد هذا المرض في مجتمع يتصارع فيه الإسلام والكفر ويتكافآن فحسب؛ بل يتولد كذلك حيث يسيطر الإسلام ويحكم. فتوجدُ طبقة لا تُسيغ الإسلام بسبب من الأسباب؛ ولكنها لا تملك الشجاعة التي تحملها على إنكار الإسلام والإعلان بعقيدته وموقفه ، أو لا تسمح مصالحه وأغراضه وملابساته بأن تتنازل عن الفوائد والمناصب التي تتمتع بها بفضل الانتساب إلى الإسلام. وعن المركز الذي تحتله في الأمة لأجل ثِقتها بها واعتمادها عليها. فهي تستغلُّ الإسلام لمصالحها وتظهر في مظهر لتحافظ على شخصيتها وتُؤمِّن مستقبلها؛ ولكنها لا تخضع للإسلام خضوعاً حقيقياً ولا تُسيغ فكرته وعقيدته ونظامه. فتظلُّ طول حياتها مذبذبة بين الإسلام والكفر ، مُضطربة اضطراباً عقلياً ونفسياً وعملياً. تحكي المنافقين السابقين في فساد الأخلاق ، وعبادة الشهوات والتَّهالك على اللذات ، وانتهاز الفرص ، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية ، والجرأة والاستئسادِ على الضعفاء ، والجُبن والخَوَر أمام الأقوياء.

وقد وُجِدَ في العلماء والمحقِّقين من أثبت أن النِّفاق ظاهرةٌ اجتماعية وعِلَّة

نفسية لا ينحصر في زمان خاص ومكان خاص. يُعجِبني في ذلك كلمة المفكِّر الإسلامي الكبير شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، المعروف بالشيخ وَليِّ الله(١)، فقد قال في كتابه البديع «الفوز الكبير في أصول التفسير»(٢) بعد ما ذكر أن النفاق قسمان: النفاق في العقيدة، والنفاق في العمل والأخلاق:

أما النفاقُ في العقيدة فإن كان ممكناً وواقعاً بعد عصر الرسالة، ولكنه لا يُمكن الجزمُ به لانقطاع الوحي.

أمّا نفاق العمل والأخلاق، فكثيرٌ وشائع في كل عصر من العصور. يقول: «إن النفاق شائع ومشهود في هذا العصر. وإن أحببتَ أن ترى أنموذجاً للمنافقين، فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم، كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع، إن الحقَّ يجب أن يقال: إنه لا فرق بين من سمع كلام النبي ﷺ من غير واسطة، واختارَ النفاق، وبين من وُلد في هذا العصر، وعَرف بطريق اليقين حكمَ الشارع ثم آثر ضِدَّه عليه ورجَّح كلام غيره، وكذلك جماعةٌ من علماء الفلسفة والعلوم العقلية اليونانية ـ في الإسلام ـ يحملون شبهات عظيمة، وشكوكاً كثيرة في قلوبهم، ونسوا المعاد حتى لا يخطُر منهم على بال، هم نموذج المنافقين في عصرنا».

دَلالةُ الحسَن البصري على النِّفاق والمُنافقين ونُفوذه في المجتمع:

لقد كان مِن ذكاء الحسن البصري وفطنته الدينية؛ أنَّه اهتدى إلى أن النِّفاق لا يزال يَعيش في المجتمع الإسلامي، وأن المنافقين لهم صولةٌ وجوْلَةٌ في الدولة الإسلامية، وسيطرةٌ على الحياة السياسية، وأن المدن الكبيرة

(١) [انظر سيرته في الجزء الرابع من هذه السلسلة].

(٢) [أصل الكتاب بالفارسية، وقد نقله الشيخ سلمان الحسيني الندوي إلى العربية، وطبع في دار الفارابي بدمشق].

والعواصم الإسلامية مَدينة لهؤلاء في الزَّهو واللهو، قال له رجلٌ: يا أبا سعيد اليومَ نِفاقٌ؟ قال: «لو خَرجوا من أزِقَّة البصرة لاستوحشْتُم فيها»[١].

وقال في مناسبة أخرى: «يا سبحان الله! ما لَقِيتْ هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها»[٢] يشير إلى الحُكّام والأمراء.

وقال مرةً: «لو خرجوا لما انتصفْتُم من عدوكم» يشير إلى الجيش الإسلامي وقُوّاده. وهكذا تناول الطبقات الممتازة في الأمة، وبيَّن أن فيها النفاق والمنافقين، وأن لهمُ السيادةَ والغَلَبة.

وكان مِن أعظم أسباب تأثير الحسن البصري في المجتمع، ونفوذِه في القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل في أعماق المجتمع، ووصَف أمراضَه، وانتقده انتقادَ الحكيم الرفيق، والناصحِ الشفيق، لقد كان عصرُه يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يخضع لأحد خضوعَه للحَسن؛ لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل في صميم الحياة، ويُعارض التيار.

إنَّه كان يَنْعى على الإخلاد إلى الحياةِ والانهماك في الشهوات. وقد انتشرَ هذا المرضُ في الحياة. إنه كان يُذكر بالموت، ويستحضرُ الآخرة. والمُترفون يتنَاسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأماني الكذَّابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يُكدِّر عليهم الحياة ويُعكِّر صفوَ عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية. والجاهليةُ لا تخضع إلا لمن صارعها. ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذي يحاربها.

وكان الحسنُ البصريُّ هو ذلك الرجل، فعظُم تأثيرُه، وكثر التائبون والمُقْلِعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها، وانطلقتْ موجة

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين: للمحدث أبي بكر ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٧.

الإصلاح قويةً مؤثِّرة؛ لأن الحسنَ لم يقتصر على مواعظَ وخطبٍ كانَ يُلقيها؛ بل كان يُعنى بتربية من يتَّصل به ويجالسه. فكان جامعاً بين الدعوة والإرشاد ، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية. فاهتدى به خلائقُ لا يحصيهم إلا الله ، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلَّوْا بحقيقة الإسلام. وقد صدق عَوام بن حَوشب إذ قال: «ما أشبه الحسن إلا بنبيٍّ أقام في قومه ستينَ سنةً يدعوهم إلى الله»(١).

وفَاةُ الحسن البصري:

وكان مِن أثر هذا الإخلاص، والتفاني في الدعوة، والتأثير في القلوب، أنه أَجمعت القلوبُ على حُبّه والاعتراف بفضلِه وشغلتْ به البصرة. وكانتِ المدينةَ التي تلي دمشق في العظمة والأهمية في ذلك العصر. حتى إذا مات في سنة ١١٠هـ ـ وكان دفنُه بعد صلاة الجمعة ـ تبعَ الناس كُلُّهم جنازتَه ، واشتغلوا به ، فلم تُقمْ صلاة العصر بالجامع؛ لأنه لم يَبْقَ بالمسجد من يُصلي العصر. وقال بعضُهم ممَّن شهد جنازته: «لا أعلم أن صلاة العصر تُركت في الإسلام (يعني في جامع البصرة) إلا يومئذٍ»(٢).

خلفاء الحسن:

وجرى خُلفاء الحسن ـ ممَّن توارثوا علمه وروحه ـ على الدعوة إلى الله والتذكير بالآخرة ، والدَّعوة إلى حقيقة الإيمان وسيرة الإسلام؛ وهكذا اتصل تاريخُ الإصلاح والتجديد والدعوة إلى الإسلام الحقيقي من جديد لا تتخلَّله فترة ، وانتقلتِ العاصمة الإسلامية بعد اثنتين وعشرين سنةً من وفاة الحسن البصري من دمشق إلى بغداد ، وأصبح العراقُ مركز الحضارة والسياسة في عالم الإسلام.

---

(١) دائرة المعارف: للبستاني ، ج٧ ص ٤٤.
(٢) ابن خلكان: ترجمة الحسن البصري.

الخِلافةُ العباسيةُ وأَثرها:

قامتِ الدولةُ العباسيةُ على أنقاضِ الدولة الأموية ، وخَلفتْها في أساس الحكم ومناهجه ، والروح السارية في الجهاز الإداري ، ونظرتِها إلى بيت المال وإلى المسلمين ، والأثَرة والتَّرف ، وامتازت عنهـا في شيء واحد ، وهو أن الدولة الأمويـة كانت عليها مِسحة العروبـة ، وكانت مُحافظة على الروح العربية والتقاليد العربية ، وكانت عيوبُها والأخلاق التي يُمثِّلها رجالُ الحكم هي عيُوب العرب ورؤساء القبائل إذا ضَعُفت صِلتهم بالدين، أو طغتْ عليهم النزعة القبلية أو جرفتهم المادية .

أمَّا الدولة العباسية ، فقد سرتْ فيها الروح العجمية ، وأُصيبت بعِلَل الحضارة العجمية وعيوبها ، واتَّسعتِ الدولة اتساعاً عظيماً ، وامتدت على مساحة واسعة من آسيا وإفريقية؛ حتى رُوي أنَّ هارون الرشيد مرّت به قطعة من سحاب فخاطبها وقال: «أمطري حيثُ شِئتِ، فسيأتيني خراجُكِ» .

وقد روى ابنُ خلدون أَنَّ دَخْلَ المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطاراً ، والقنطار في حسابه عشرةُ آلاف دينار؛ فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومئةً وخَمسين ألف دينار[١] .

وإذا لاحظنا رُخص الأسعار وكثرة الإنتـاج ، وَجدنا أن الميزانيـة ضخمة .

وقد زادتْ هذه الميزانيةُ زيادةً عظيمة في عهد المأمون ، وقد كانت بغداد ـ بحكم أنها عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ـ مَصبَّ أموال المملكة الواسعة الغنية ، وسوقَ الطرائفِ والخيرات والمنتجات ، ومنتجعَ أصحاب الحِرَفِ والصناعـات ، كما كانتْ مُنْتَجع أصحـاب المُجـون والمغنِّين الكبـار والشعراء ونوابغَ كل فن جديد وهزْل وحق وباطل؛ فأمعنتْ بغداد في الحضارة ، وتفنَّنت في الترف والسرف ، وبلغتِ المدنيَّة شأواً بعيداً لاتبلغه

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ١٥١ .

الدُّول إلا بعد قرون ، وقد وصلتْ إليه الدولة العباسيةُ في قرن واحد ، وقد أثَّرت هذه الحضارة المنحرفة ، والأموال المغدِقة ، والاختلاط بالعجم ، وازدحام الجواري والرقيق من كل جنس ومن كل بلد ، في الأخلاق والميول والعادات ، وأغرق الناس في هذه المدنية التي هي مزيـجٌ من مدنيَّات مختلفة ، وأقبلوا على اللهو والبذْخ إقبالاً يصوِّره كتابُ «الحيوان» للجاحظ ، و كتابُ «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني[1].

ويستطيع الرجُلُ أن يأخذ فِكرة عن هذه المدنيَّة المترفة ، وعن الحياة الباذخة ، وإلى ما وصل إليه الخلفاء ، ومن كان يتَّصل بهم ومن كان على آثارهم إذا قرأَ صفة عرسِ المأمون الخليفة العباسي. يقول ابن خلكان ـ وقد جمع روايات مختلفة ـ:

«تزوَّجَ المأمونُ بورانَ بنتَ الحسن بن سهل ، واحتفل أبوها بأمرها ، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يُعهد مثله في عصر من الأعصار ، وكان ذلك بفمِ الصُّلح ، وانتهى أمرُه إلى أن نَثر على الهاشميين ، والقُوَّاد ، والكُتَّـاب ، والوجـوه بنـادقَ مسك فيها رقـاع بأسماء ضيـاع ، وأسمـاء جَوارٍ ، وصفاتِ دواب ، وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فإذا علم ما فيها ، مضى إلى الوكيل المُرصَد لذلك فيدفعها إليه ، ويتسلَّم ما فيها ، سواء كان ضيعةً أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جاريةً ، أو مملوكاً.

ثم نثَر بعد ذلك على سائر الناس الدنانيرَ والدراهم ، ونوافِجَ المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقُوّاده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ـ وكانوا خَلْقاً لا يُحصى ـ حتى على الحمَّالين ، والمكاريَّـة ،

---

(١) راجع «كتاب الحيوان»: للجاحظ: ج٢، ص ٩١ ، وج٥ ، ص ١١٥ ، ومجلدات «الأغاني».

والملاَّحين ، وكلٌ من ضمه عسكره؛ فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه»[١] .

وذكر الطَّبريُّ في تاريخه : «أنَّ المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً ، يُعِدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألفَ ألفِ درهم ، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألفِ درهم ، وأقطعه فمَ الصُّلْح ، فجلس الحسن وفرَّق المال على قواده وأصحابه وحَشَمِه» .

وقال غيره : «وفُرِشَ للمأمون حصيرٌ منسوجٌ بالذَّهب ، فلما وَقف عليهِ نُثرتْ على قدميه لآلىءُ كثيرة. . . وأطلق المأمونُ خراج فارس وكور الأهوازِ مدة سنةٍ» .

وقال الطبريُّ أيضاً : «دخل المأمونُ على بورانَ الليلة الثالثة من وصوله إلى فَمِ الصُّلح ، فلما جلس معها نَثرتْ عليها جدَّتُها ألفَ دُرَّةٍ كانت في صَينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدُّرِّ كمْ هو؟ فقالت : ألف حَبَّة ، فوضعها في حجرها. . . وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبرٍ وزنُها أربعون منّاً في تَوْرٍ من ذهب ؛ فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سَرفٌ»[٢] .

وأنا لا أُرِيد أن أسائل هل يُبيح الإسلام هذا السَّرفَ المتناهي؟ فالجواب واضح ، ولا أريد أن أقارن بين زواج فتى بني هاشم «علي بن أبي طالب» مع سيدة نساء أهل الجنة ، وبِضعةِ الرسول «فاطمةَ بنتِ محمد رسول الله ﷺ» ، فالقصة غَنية عن المقارنة ، ولا يوجد لها نظيرٌ في التاريخ بسهولة كما لاحظَ ابن خَلِّكان ، ولا أريد أن أسائل من أي مال أنفق هذه النفقات الملوكية؟ وهل سَمحتِ الأمةُ بها؟ إنني لا أريد أن أثير هذه الأسئلة ؛ ولكني أريد أن أُصوِّر لكم ـ بعض التصوير ـ المدنيَّة المُترفةَ التي كانت تسود في العصر العباسي الأول ،

(١) وفيات الأعيان : ترجمة بوران بنت الحسن ، ج١ ، ص ٢٦٠ طبع مكتبة النهضة .

(٢) المصدر السابق : ترجمة بوران بنت الحسن ، ج١ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

وإلى أيِّ حدٍّ بلغ العَبث بالأموال ، وكيف تطوَّر ، بل تطرَّف الذوق العربي الإسلامي؛ حتى وصل في مدَّة قليلة إلى هذا الحد من التأنُّق والتبذير في الولائم والأعراس.

وإليكم حكاية ثانيةٌ تدلُّ على ما وصلت إليه المدنيَّةُ في العصر العباسي من التأنُّقِ والإسراف في الولائم والمآدب ، وذلك في عصر الرَّشيد الذي يتقدَّم عصرَ المأمون الذي حَكيتُ عنه.

روى المسعوديُّ في كتابه «مروج الذهب» قال:

«حدَّثَ إبراهيم بن المهدي قال: استزرتُ الرَّشيد بالرقَّة؛ فزارني ، وكان يأكلُ الطعام الحار قبل البارد؛ فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قُرِّبَ إليه منها جامُ قريض سمكٍ ، فاستصغرَ القطعَ ، وقال: لم صغَّر طبَّاخك تقطيعَ السمكِ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه ألسنةُ السَّمك ، قال: فيشبه أن يكون في هذا الجام مِئة لسان ، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين؛ فيها أكثر من مئة وخمسين ، فاستحلفه عن مَبلغ ثمنِ السمك ، فأخبره بأنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يدَه ، وحلف ألا يطعم شيئاً دون أن يُحضره (مراقب) ألفَ درهم ، فلما حضر المال أمر أن يُتصدق به ، وقال: أرجو أن يكون كفَّارةً لسَرفِك في إنفاقك على جامِ سمكٍ ألف درهم ، ثم ناول الجام بعضَ خدمه ، وقال: أول سائل تراه فادفعه إليه!».

الدُّعاة إلى الله في العَصر العبّاسي:

ولكن بجِوار هذه المدنيّة المائجة والحياة الباذخة ، وبجانب هذا السَّرف والتَّرف ، والزَّهو واللهو ، نرى رجالاً قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعُكوف على التعلُّم والتعليم ، وقد ثاروا على هذه الحياة وإغراءاتها ، وانحسرتْ عنهم موجاتُ الغنى والترف ، وارتـدتْ عنهم خائبةً حسيرة ، وكأنَّها لم تجد إلى قلوبهم سبيلاً ، وقد شُغلوا ـ كالحسن البصري من قبل ـ بالمحافظة على رُوح هذه الأمة وصِلتِها بالله ،

وبالمحافظة على منافع الحياة الإسلامية «القرآن والحديث» وأخفقت الحكومات في أن تشتري ضمائرهم ، أو تَشغلهم عن عملهم.

وكانوا جُزُراً بشرية في بحر المادية المائج ، يَأوي إليها الغرْقى ومن انكسرت سفينتُه ، وقد أقاموا بجنْب الحياة المترفة في بغداد ، حياةً زاهدة تقوم على الإيمان وتقديرِ القِيَم الروحية والخلقية ، تفوق ـ في سلطانها على القلوب ، وفي سعتها أحياناً ـ الحياةَ المادية ، فإن كان الخلفاء وأمراؤهم يحكُمون الأجسام فقد كان هؤلاء يحكُمون القلوبَ والعقول ، فإذا وقع صراعٌ بين هؤلاء وأولئك كان الانتصار في كثير من الأحيان للآخرين ، ويخضعُ سلطان السياسة لسلطان العقيدة ، ويتضاءلُ الخليفة والأمير إمام عالمٍ كبير أو محدِّثٍ جليل.

وقد حكى ابن خلِّكان قصةً تدل على سلطان رجال العلم والدين في هذا العصر. قال: «قَدم هارون الرشيد الرقةَ، فانجفل الناس خَلْفَ عبد الله بن المبارك ، وتقطَّعت النعال ، وارتفعتِ الغبرةُ فأشرفت أمُّ ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رَأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم أهل خراسان قدم الرِّقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت: هذا والله المُلك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَطٍ وأعوان!»[1].

وقد ظهَرتْ هذه الحياةُ الدينية التي يسود فيها الإيمان والتقوى والانقطاع إلى العلم والزهد بوضوح في بغداد؛ فكانت بغدادُ منتجعاً لرواد العلم والدين ، ولأصحاب الإيمان واليقين ، وللدعاة إلى الله؛ فقد قصدوها من كلِّ جانب ، وألقوا فيها عصا التِّسيار ، واتخذوها مركز نشاطهم ودعوتهم؛ لأنّها مركزُ الأعصاب في جسم العالم الإسلامي وقلبُه النابض ، فإذا تأثرتْ بالدعوة فقد تأثر العالم الإسلامي ، وإذا صلح القلب صَلح الجسدُ كله؛ لذلك نرى فيها أئمة الفنون وكبار الدُّعاة وأعلام الزهاد ، حتى إنَّ الذي يطالع كُتب الطبقات

(١) وفيات الأعيان: ج٢، ص ٢٣٨، ترجمة عبد الله بن المبارك.

والتراجم يتَخيل أن بغداد هي مدرسةٌ للحديث ، أو مسجد للوعظ والتذكير ، أو مركزٌ للتزكية والتربية ، لا يسمع فيها إلا درساً يُقرأ ، وقرآناً يُتلى ، وحديثاً يُروى ، وقلباً عليلاً يُداوى فيُشفى ، ويرى فيها دولة للعلم والدين لا تَقِلُّ في سلطانها وسعتها عن خلافة العبّاسيين.

وقد كان للعلماء الأعلام وبعضِ الزُّهاد المحدِّثين مواقفُ مجيدةٌ أمام الخلفاء أدَّوا فيها حق النصيحة، وحذروهم من سَطْوة الله، وتبرَّؤوا من هذا الجَوْر الفاشي ، والظلم القاسي ، كالذي كان من الأوزاعي[١]، وسفيان الثوري[٢] عند المنصور ، وصالح بنِ عبد الجليل[٣] بين يدي المهدي ، وابنِ السَّماك عند الرشيد[٤] ، وإليكم بعض الأمثلة لهذه الشجاعة وقوة الإيمان والصراحة في قول الحق:

«عن الفَضل بن الرَّبيع قال: حَجَّ أمير المؤمنين الرشيد ، فأتاني ، فخرجت مُسرعاً ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك؛ فقال: ويحك قد حَاك في نفسي شيءٌ ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلتُ: هنا سفيانُ بن عيينة، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعتُ الباب ، فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين ، فخرجَ مسرعاً ، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك؟ فقال له: خُذ لما جئناك له رحمك الله فحدَّثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم ، فقال: أبا عباس ، اقضِ دينه.

فلمَّا خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبُك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، فقلتُ له: هاهنا عبد الرزَّاق بن همام ، قال: امضِ بنا إليه ، فأتيناه فقرعت الباب ، فقال: من هذا؟ قلت: أجبْ أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال: يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلي أتيتُكَ؛ قال: خذ لما جئناك له، فحادثَه ساعة ثم قال

(١) انظر: العقد الفريد: لابن عبد ربه: ج٣، ص ١٦٢.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٥.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٨.
(٤) المصدر السابق: ص ١٦٤.

له: عليك دين؟ قال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عنِّي صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله؛ قلت: هاهنا الفضيلُ بن عياض، قال: امض بنا إليه. فأتيناه فإذا هو قائم يُصلي يتلو آية من القرآن يردِّدها، فقال: اقرع الباب فقرعتُ البابَ، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟! فقلتُ: سبحان الله! أما عليكَ طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه»![1] فنزلَ، ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا، فجعلنا نَجُول عليه بأيدينا، فسبقتْ كفُّ هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كفٍّ ما ألينها إنْ نجت غداً من عذاب الله عز وجل! فقلتُ في نفسي: ليُكلِّمَنهُ اليوم بكلامٍ نَقيٍّ من قلب تَقيٍّ، فقال له: خُذ لما جئناك له رحمك الله، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما وَلي الخلافة، دعا سالم بن عبد الله، ومحمدَ بنَ كعب القُرظي، ورجاءَ بن حَيَوة، فقال لهم: إني قد ابْتليتُ بهذا البلاء فأشيروا عليَّ، فعَدَّ الخلافة بلاء، وعددَتها أنت وأصحابك نِعمة.

فقال له سالم بنُ عبد الله: إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله فصُمِ عن الدنيا، وليَكُنْ إفطارك من الموت!.

وقال له محمدُ بن كعب القُرَظي: إن أردتَ النجاة من عذاب الله، فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنّنْ على ولدك.

وقال له رجاء بن حَيَوة: إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحبَّ للمسلمين ما تُحب لنفسك، واكرهْ لهم ما تكْرهُ لنفسك، ثم مت إذا شئت.

وإنِّي أقول لك: إني أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوماً تَزل فيه الأقدام؛ فهل

---

(١) [أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/٥٣٦) برقم (١٤١١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والبزار في المسند (٧/٢١٨) برقم (٢٧٩٠) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه].

معك ـ رحمك الله ـ من يُشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : يابنَ أُمّ الربيع تقتله أنت وأصحابك وأَرفقُ به أنا!؟

ثم أفاق، فقال له : زِدْني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أنَّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكي إليه؛ فكتب إليه عمر : يا أخي أُذكِّرك طولَ سهرِ أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرف بك من عند الله؛ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال : فلما قرأ الكتاب ، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولايةٍ أبداً حتى ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ.

قال : فبكى (هارون) بكاء شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله فقال : يا أمير المؤمنين إن العبّاس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أمِّرْني على إمارة ، فقال له النبي ﷺ : «إنَّ الإمارة حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل»[١] .

فبكى (هارون) بكاءً شديداً وقال له : زدني رحمك الله .

فقال : يا حسن الوجه؛ أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة؛ فإن استطعت أن تَقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحدٍ من رعيتك؛ فإن النبي ﷺ قال : «من أصبح لهم غاشاً لم يَرَحْ[٢] رائحة الجنة»[٣] .

فبكى هارون وقال له : عليك دَينٌ؟

---

(١) [أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٣٩)، وذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (٢/ ٢٤٥)].

(٢) لم يَرَحْ رائحة الجنة: لم يَشُمَّ ريحها.

(٣) [أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٧)، وابنُ عساكر في تاريخه (٤٨/ ٤٣٩)].

قال: نعم دَينٌ لرَبي يحاسبني عليه؛ فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لمْ أُلهمْ حُجَّتِي .

قال: إنما أعني دَين العباد .

قال: إنَّ ربي لم يأمرني بهذا ، أمر ربي أن أوحِّدَه وأطيع أمره ، فقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] .

فقال له: هذه ألفُ دينار ، خذها فأنفِقها على عيالك ، وتَقوَّ بها على عبادتك .

فقال: سبحانَ الله ، أنا أدلُّك على طَريقِ النجاة وأنت تكافئُني بمثل هذا؟ سلَّمك الله ووفقك .

ثم صمتَ فلم يكلمنا؛ فخرجنا من عنده ، فلما صِرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دَلَلْتَني على رجل فدُلَّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين .

فدخلتْ عليه امرأةٌ من نسائه، فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضِيق الحال ، فلو قبلتَ هذا المال فتفرَّجُنا به؛ فقال لها: مَثلي ومَثلُكم كمَثلِ قومٍ كان لهم بَعيرٌ يأكلون من كَسْبه؛ فلما كبر نحروه فأكلوا لحمَه ، فلما سمع هارون هذا الكلام ، قال: تَدخلُ ، فعسى أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل ، خرج فجلس في السطح على باب الغُرفة ، فجاء (هارون) فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينا نحن كذلك ، إذ خرجت جاريةٌ سوداء فقالت: يا هذا قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله فانصرفْنا» (١) .

وقد كان مِن بعض هؤلاء استعراضٌ لنظام الحكم ، ووصفٌ دقيقٌ للجهاز

(١) صفة الصفوة: ج٢، ذكر فضيل بن عياض التميمي، ص ١٣٧ ، ١٣٨، ١٣٩ .

الإداري ومفاسِده ، يدل على فهم عميق واطلاع واسع على شُؤون الدولة ، ومواضعِ الضعف والفساد في الإدارة .

ومن أمثلتِه البليغة الرائعة ما نقل ابن عبد ربه في كتابه ، مِن كلام رجل من العُبَّاد عند المنصور وقد جاء فيه :

«إنَّ الله استرعاكَ أمر عبادِه وأموالَهم ، فأغفلتَ أمورهم ، واهتممتَ بجمع أموالهم ، وجعلتَ بينك وبينهم حجاباً من الجِصِّ والآجُر ، وأبواباً من الحديد ، وحُرّاساً معهم السلاح ، ثم سَجنتَ نفسك عنهم فيها ، وبعثتَ عمالك في جبايات الأموال وجمعِها ، وقوَّيتهم بالرجال والسلاح والكُراع ، وأمرت ألا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلان وفلان ـ نفراً أسميتَهمْ ـ ولم تأمرْ بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ، ولا الضعيفِ الفقير إليك ، ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حقٌّ .

فلمَّا رآك هؤلاء النَّفر الذين استخلصتهُم لنفسك ، وآثرْتَهم على رعيتك ، وأمرت ألاَّ يُحجبوا دونك ، تجبي الأموال وتجمعُها ، قالوا : هذا قد خانَ الله ؛ فما لنا لا نخونه! فائتمروا ألا يصل إليك من علمِ أخبارِ الناس شيءٌ إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرَهم إلاخوَّنوه عنك ونفَوْه ، حتى تسقط مَنزِلته .

فلمَّا انتشرَ ذلك عنك وعنهم ، أعْظَمهُم الناس وهابوهم وصانعوهم ؛ فكان أولَّ من صانعهم عمالُك بالهدايا والأموال ، ليقوَوْا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعلَ ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ؛ لينالوا ظلم من دونهم .

فامتلأت بلادُ الله بالطمع ظُلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء مُتظلِّم حيلَ بينك وبينه .

فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك ، وجَدكَ قد نهيت عن ذلك ، ووقَفْتَ للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فإن جاء ذلك المتظلم فبلغَ بطانتَك خبرُه ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمتَه إليك ، فإنَّ المتظلم منه له بهمْ حُرمة ،

فأجابهم خوفاً منهم؛ فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه؛ فإذا أُجهد وأخرج ثم ظهرتَ، صرخ بين يديك، فيُضرب ضرباً مبرّحاً يكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فما تُنكر، فما بقاءُ الإسلام على هذا؟!».

وقد كان لسِيرة هؤلاء الأعلام، وحياتِهم النزيهة، وزُهْدهم في حكام الدنيا، وابتعادهم عن مناصب الدولة، وتفلتهم من شَرك كان يُنصب لهم حيناً بعد حين، وتمرُّدهم على الشهوات، ومواجهتهم لكبار الملوك والخلفاء بالحق، وإرشادِهم للخلق بإخلاص ونزاهة، ولإيمانهم القوي، تأثيرٌ كبير في نفوس الناس؛ حتى في أهل الذِّمة؛ فكان يُسْلِم منهم كثير، وكانوا خاضعين لهؤلاء يَعترفون لهم بالفضل، ويَدينون لهم بالحُبِّ[1].

جُهودٌ لإقامة الحكم الصالح وتَغيير الأوضاع:

ولم تكن جهودُ المصلحينَ مقتصرةً على الدعوة والإصلاح الفرديِّ، والوعظِ والإرشاد، بل رافقت هذه الجهودَ التي لم تنقطع محاولات كانت تظهر ـ على فترات قصيرة ـ لقلب الحكم، وإعادة الخلافة إلى نصابها، والقضاء على هذا الاحتكار الأموي أو العباسي للخلافة والحكم.

وقد قامتِ الخلافةُ ـ مع الأسف ـ على نظام الوراثة والسُّلالات، ودان العرب ـ مع الأسف ـ لمبدأ الشَّرف في الخلافة؛ فلم يكن لأحد أن يقوم في وجه الخليفة الأموي أو العباسي، ويطمعَ في النجاح إلا إذا كان حائزاً على شرف النَّسب وعُلوِّ البيت، متمتعاً بعصبية قوية واسعة، حتى يقرعَ الحديد بالحديد، ويقابل الريح بالإعصار؛ لذلك كان كلُّ مَن خرج على الدولة الأموية والعباسية، ورفع راية الجهاد، من أهل بيت الرسول ﷺ ومن العلويين؛ لأن إمكانات نجاحهم كانت ألمعَ وأظهر، والمسلمون إليهم أميل، وأيَّدهم أهل

(١) انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«تاريخ ابن خلكان».

الصلاح ومحبو الإصلاح في عصرهم ، والذين كانوا يتألمون بمشَاهدة فسادِ الأوضاع ، وضياع الخلافة ، وضياع أموال المسلمين في الشهوات والنَّزَعات الجامحة العاتية إلى الترف والعادات الجاهلية .

وقد قام بعد الحسين بن علي ـ رضي الله عنه وعن آبائه ـ حفيدُه زيدُ بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وقُتل وصُلب سنة ١٢٢هـ ، وقد أرسل إليه الإمام أبو حنيفة بعشرة آلاف درهم ، واعتذر عن عدم حضوره[١] .

ثم قام من بني الحسن : محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ذو النَّفس الزكية ، في المدينة ، وأخوه إبراهيم ، في الكوفة باتفاق منهما ، وكان أبو حنيفة ومالك من أنصار ذي النَّفس الزكية ، وقد انتصرَ له أبو حنيفة علانيةً ، وأرسل إليه ببعض المال ، ونهى قائد المنصور ، والحسن بن قحطبة ، عن مُحاربته فاعتذر من المنصور ، وكان هذا هو السبب الحقيقي لما وقع من المنصور مع أبي حنيفة بحياتهِ.

وقد جاء في تاريخ «الكامل» لابن الأثير ، أنَّ أهل المدينة قد استفتَوا «مالك ابن أنس» في الخروج مع محمد ، وقالوا : إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر ، فقال : «إنما بايعتُم مكرهين ، وليس على مُكْرَهٍ يمينٌ؛ فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالكٌ بيتَه»[٢] .

وقد قُتل محمد ،سنة ١٤٥هـ في المدينة في شهر رمضان ، وقتل أخوه إبراهيم في ذي القعدة من ذلك العام .

إنَّ هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأتِ بالنتيجة المطلوبة ؛ لأنَّ الحكومة قد كانت قويةً ومنظمة ، وكانت تملك الوسائل والذخائر . وقد رأينا في التاريخ الماضي والحاضر ، محاولاتٍ كثيرةً تقوم على الإخلاص والإيمان والبطولة

(١) مناقب أبي حنيفة : للبزاري : ج١ ، ص ٥٥ .
(٢) الكامل : ج٥ ، ص ٢٥١ .

والشجاعة ، ولا يقصِّر قادتُها وأتباعها في التضحية بالأموال والأنفس، ثم كثيراً ما تُخفق أمامَ الحكومات المنظَّمة وجيوشِها العظيمة وقواها الهائلة.

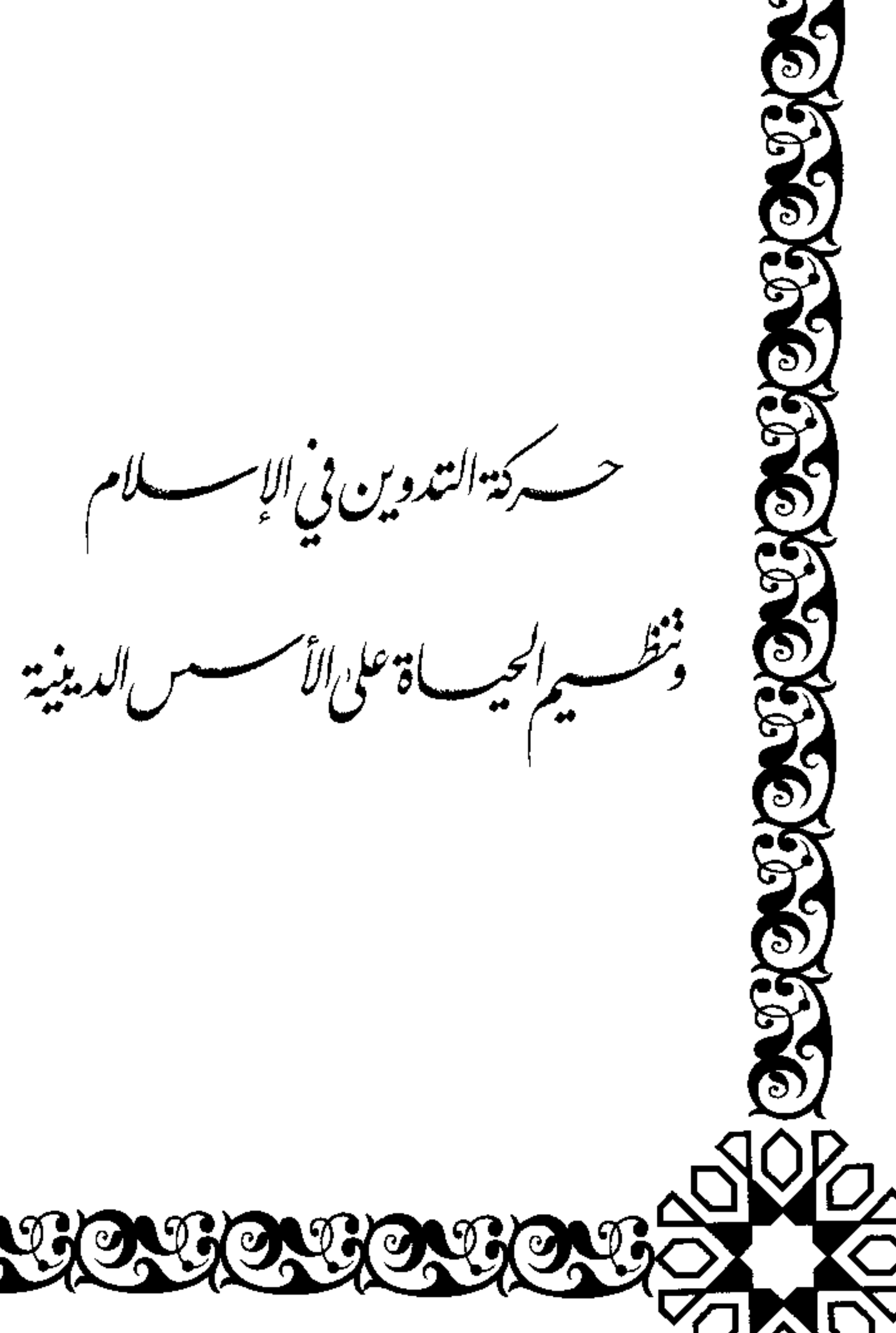
وليس هذا بِبِدْعٍ في التاريخ ، ولا بمُستغرَب في سير هذا الكون؛ ولكنها ـ على إخفاقها في ميدان السياسة والنتائج المادية ـ قد خدمتِ الإسلام خدمة عظيمة؛ لأنها حفظت على تاريخ الإسلام شرَفهُ وكرامته؛ فلولا هذه الجهود وهذه المحاولات حيناً بعد حين ، لكان التاريخ الإسلامي قصةً متصلة للأنانية والنفعية ، قصة الملوك الذين يتسلَّطون ، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون.

ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين؛ ولكن هؤلاء المؤمنين المغامرين قد نَصبوا للأجيال القادمة ماراتٍ للنور تُضيء لهم في غياهب التاريخ من بعيد ، وتُنير لهم السبيل ، وتُلْهِمُ بالفروسية الإسلامية الصادقة والثَّورةِ على الأوضاع الفاسدة ، والغضبِ لنظام الإسلام المظلوم ، ولكرامتِه المُهدَرة.

إنَّه تُراث مجيدٌ يعتزُّ به الإسلام ، وثَروةٌ غالية تتجمَّل بها الأجيال ، وسِلسلَة متصلة من المجاهدين تَبَعث على الثقة والإيمان واليقين.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *



حركة التدوين في الإسلام

وتنظيم الحياة على الأسس الدينية

المحاضرة الرابعة:

حركةُ التَّدوين في الإِسلام
وتَنظيمُ الحَياةِ على الأسس الدِّينيَّة

الأُمّــةُ على مُفترق الطُّرق:

لقد اتَّصل تاريخ الإصلاح والدعوة ، كما قدّمنا في المحاضرتين السابقتين؛ ولكن بقيتْ ناحيةٌ من نواحي الحياة الأولى ، تتطلَّبُ العناية السريعة ، وتَسترعي اهتمام المهتمين بشؤون هذه الأمة ، ولا تسمحُ بالتأخير أو الإرجاء يوماً واحداً ، وذلك ما سيكون موضوع محاضرتنا الرابعة ، إن شاء الله .

لقد خَرجتْ هذه الأمةُ ـ بفضل الدعوة الإسلامية التي عَمَّتِ الآفاق وتخطتِ الحدود ، وبفضل الجهاد الذي أخضع نِصف المعمورة للإسلام ـ من طَور البداوة والبساطة والانحصار في دائرة ضَيقة جغرافية ، ومجتمع صغير ، إلى طَور الإمبراطورية العظيمة .

وقد كانتْ قارةُ إفريقية تحتَ وصاية الإسلام وإدارته ، وتدخُل في هذه الإمبراطورية الإسلامية أقطارٌ وبلادٌ من أرقى البلاد في العالم وأعرقِها في المدنية والعلوم ، وكانتْ هذه الحكومة العظيمة تُواجه بطبيعة الحال تطوراتٍ كثيرة سريعة بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة ، والمدنيّات الكثيرة ، وتواجه

شُؤوناً جديدة ومشاكلَ عديدة في التجارة والزراعة والجِزية والخَراج ، وتُواجِه من مسائلِ البلدان والأقطار التي يَفتحها الإسلام ويحكُمها المسلمون الشيءَ الكثير ، وتَجِدُ من عادات أهلها وتقاليدهم واجتماعهم ما يتنافى مع الإسلام كثيراً ، ويتَّفق معه قليلاً ، وكان الحُكم في كل ذلك مما لا يمكن تأخيرهُ أو الإعراض عنه ، وكانت هذه النواحي كلُّها تتطلب الحل الحاسم السريع ، وتمتحِن كفاية هذه الأمة الفكرية ، وصلاحية التشريع الإسلامي لمسايرة العصر والمدنية وشؤون الاجتماع البشري ، وكانتِ الحكومة في حاجة مُلحَّة إلى دستور شامل كامل ، وكان الجهاز الإداريِ لا يُمكن إيقافه عن السَّير ، أو تعطيلُه عن الحركة في انتظار التشريع .

فإذا تكاسلَ العلماءُ في الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحةَ على العمل والكدح ، أو ضَعُف إنتاجُهم وجَمدت قرِيحتُهم ، التجأتِ الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها ـ إلى أن تقتبسَ النُّظُم الرومية والفارسية ، وتُطبقَ القانون الروماني والإيراني على المملكة الإسلامية، فكان ذلك يَجرُّ على هذه الأمة شقاءً طويلاً ، لأنها تحرَم سعادة القانون الإسلامي ، وبركات المجتمع الإسلامي ،ويُكتبُ عليها أن تَعيش مسلمة متدينة في مساجدها ، جاهليةً أو لا دينية في بيوتها وأسواقها ومحاكمها. كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرسمية النصرانية وليس عندها تشريعٌ مسيحي كما هو واقع ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدُّول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون.

وإذا ساغ في النصرانية التي لا تملكُ الثروة الدستورية ، ولا تُلِحُّ على تطبيق الدين على الحياة ، فإنه لا يسُوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولة ، وعقيدةٌ وسياسة ، وعبادة واجتماع.

فكانتِ الأمةُ تجتاز مرحلةً خطيرة دقيقةً في حياتها ، وقد وقفتْ على مُفترق الطُرق. وكانت الغلطة الواحدة ،أو العَثرة الخفيفة كافيةً لقطع صلتها عن

الحياة الإسلامية والاجتماع والنظم الإسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس فيها إلا نصيب ضئيل.

الحاجـةُ إلى تدويـنِ الحَـديث:

وكانتِ الأمةُ لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المُؤلِم المظلم إلا إذا كانت مصادرُ التشريع ، ومنابعُ الفقه الإسلامي ، محفوظةً من الضياع ، ميسورة للانتفاع. وأهم هذه المصادر ـ بعد القرآن الذي لا يُخاف عليه من الضياع والتحريف ـ هو «الحديث» الذي هو مصدر مُنظَّم ، وثروةٌ زاخرةٌ لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرة نبوية أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتَّعويل ، ويَصحُّ أن يسمى سِجلَّ الوقائع اليومية ، وشبه «مذكَّرات» ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدَّة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبي ﷺ بعد ما أكرمه الله بالنبوَّة على ظهر الأرض ، تُرينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش في هذه الحياة ، وكيف يَقضي نهارَهُ وليلَه.

وهي مجموعةٌ خصَّ الله بها هذه الأمة ؛ فلا نَعرفُ أُمةً من أمم الرُّسل سعدتْ بمثل هذه المجموعة الناطقة ، وبهذا السجلِّ الخالد لنبيِّها ؛ بل بالعكس من ذلك ، نرى الأمم كلها فقيرة لا تملك مصدراً من مصادر العلم عن الأنبياء والرُّسل ، وهي ـ في عمى وظلام تاريخي ـ قد انقطعت الصلةُ بينها وبين أنبيائها علمياً وتاريخياً ، وفقدتِ الحلقة التاريخية التي تصلها بعصر هؤلاء الرسل ـ سلام الله عليهم ـ وتُوقِفُها على شؤون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات.

فهذه الأمةُ المسيحيةُ ـ التي هي من أغنى الأمم بالتأليف والثروة العلمية ـ لا تعرفُ عن سيدنا المسيح إلاَّ أخبارَ ثلاث سنوات حَوتها الأناجيل الأربعة[1] ،

(١) هذا كان يقال في القديم، وقد انتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته (راجع مقال الدكتور شارلس أندرسن أسكات في دائرة المعارف البريطانية ، ج١٣. ص ١٧١٠).

وهي أخبار مُبعثرةٌ متقطِّعة ملفَّقةٌ ، لا يستطيع الإنسان أن يؤُلِّف منها تاريخاً متصلاً .

وأما شأنُ الرُّسل قبله ، وشأن مؤسِّسي الديانات في الهند وغيرها فأمرُها أعجب ، وفقر الأمم أبينُ من ذلك وأوضح؛ حتى صار كثير من المستشرقين والمؤرِّخين يشُكُّون في وجودهم ، ويميلون إلى أنَّها شخصياتٌ خرافية ليس لها وجود تاريخي ونحن ـ على معارضتنا لهذا التطرف ـ نُوافق على أنها شخصيات مطمورة في ركام الماضي ، وعلى أنَّ هنالك حلقات مفقودةً لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها[١] .

وأمَّا الرَّسول الأعظم ﷺ فهو الشخصيةُ الفريدة ـ من بين الرُّسل والعُظماء ـ التي نَعرِفُ عنها كُلَّ دقيقٍ وجليل ، ونَعرفُ عنها من دقائق الأخلاق والعاداتِ والميول والرَّغبات والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي مضت قريباً؛ بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كلُّه بفضل «الحديث» الذي سجَّلَ لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادتِ الأممُ القديمةُ والدياناتُ أن تصوِّر أنبياءَها ، وأن تنحتَ لهم تماثيلَ وأصناماً تُمثِّلُهم للأجيال القادمة ، وتجدد ذكراهم ، ونشأت من ذلك الوثنيةُ وعِبادةُ التماثيل التي يَعرفُها الجميع ، ونشأتْ من ذلك آفاتٌ لا تزال الأمم والدِّيانات تعانيها .

وقد لَطف الله بهذه الأمة وبالإنسانية؛ إذ حرَّم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونَحْتَ تماثيلهم ، وأبدَلها بهذا الحديث النبوي ، الذي هو مجموعُ صُورٍ ناطقةٍ يتعرَّف بها الإنسان بنبيِّه ويَسعدُ بصحبته ، وكأنَّه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مُدَّة من الزمان؛ ليسمع كلامه ويشاهد

(١) اقرأ في ذلك المحاضرة الثانية من محاضرات (الرسالة المحمدية) للأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي رحمه الله . [وقد طُبع بعنايتنا في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٣ هـ] .

فعله ويدرس سيرته؛ فكان ضياعُ هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثةً لا تُقدَّر ، وخسارةً لا تُعوض.

ثم إنَّ الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يَزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتِها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سَير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكاملُ في الأخلاق والأعمالِ إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وهذه الفجوة لا بد منها في السُّنن الإلهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

فلولا الحديثُ الذي يمثِّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة ، ولولا التوجيهاتُ النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي لوَقعتْ هذه الأمةُ في إفراط وتفريط واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العلمي الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] وبقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] والذي يطلُبه الإنسان ويستمدُّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنعُ بأنّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ.

ثم إنَّ الحديثَ زاخر بالحياة والقُوة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإنتاج والزهد والتقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد مَن رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح؛ لذلك كله كان الحديثُ من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بدَّ من تقييده وتسجيله وحِفظه ونَشره.

حركةُ الجَمْع والتَّدوينِ في القَرن الأول والثاني:

وقد يسَّرَ الله ذلك؛ إذ بعثَ نبيه ﷺ في أُمة عُرفتْ بقوة الذاكرة والصدق والأمانة في الرواية ، وفاقتْ في ذلك الأمم ، وقد وَعى الصحابة ـ رضي الله

عنهم ـ لحكمة أرادها الله ـ كلَّ ما سمعوا وشاهدوا، وحرصوا على حفظه ونشره وتبليغه حرصاً لم يُعرف عن أمة نبيٍّ وأصحاب ديانة. وقد بدؤوا يكتبون الحديثَ في عهد النبي ﷺ، ومنهم من كان له مجموعةٌ خاصة اشتهرت به؛ فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العَاص مجموعةٌ تسمَّى (الصادقة)[١]، وأثر عنه أنه كان يقول: ما يُرغِّبني في الحياة إلا خصلتان «الصادقة» و«الوهط»[٢]؛ فأما الصادقة، فصحيفةٌ كتبتُها عن رسول الله ﷺ[٣].

وكان لعليِّ بن أبي طالب صحيفةٌ[٤]، وكان لأنسٍ صحيفة كان يُبرزها إذا اجتمع الناس[٥]، ونُقل الجمع والكتابة عن عبد الله بن

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: لابن عبد البر (١/ ٧٢).

(٢) [الوَهْط: قال ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢٣٢): هو مالٌ كان لعمرو بن العاص بالطائف، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٨): هو بستانٌ عظيمٌ بالطائف، قُوِّم مرةً على عروشه ألف ألف درهم].

(٣) [ولهذه الصحيفة أهمية علمية عظيمة، وقيمة تاريخية كبيرة، لأنها تثبت كتابة الحديث النبوي بين يدي رسول الله ﷺ وبإذنه، وقد اشتملت هذه الصحيفة على ألف حديث كما يقول ابن الأثير، وإذا لم تصل إلينا هذه الصحيفةُ كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطِّه، فقد وَصَلَ إلينا محتواها لأنَّها محفوظةٌ في «مسند الإمام أحمد بن حنبل»].

(٤) الجامع الصحيح: للبخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، [رقم الحديث (١١١)، كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه مجموعةً له فيها أحاديث رسول الله ﷺ، واشتهر أمر هذه الصحيفة، وعلم الناس بها في حياته، لأنه ذكرها في بعض المناسبات لسؤال بعض الناس عنه. ويبدو أنه عندما اشتدَّ الخلافُ بينه وبين معاوية ـ رضوان الله عليهما ـ بدأ بعضُ الناس يشيعون أن رسولَ الله ﷺ عهد إلى عليٍّ بأشياء. قال قيس بن عبادة: «دخلتُ على علي، أنا والأشتر، فقلنا: هل عهد إليك النبيُّ ﷺ عهداً لم يعهده إلى الناس كافة؟ فقال: لم يعهد لي النبيُّ ﷺ عهداً غير ما عهده إلى الناس إلاَّ ما كان في كتابي هذا، وأخرج صحيفة من جفن سيفه، فيها: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (الأموال: ص ١٨٥، والمستدرك: ٢/ ١٤١)، وذكر هذه الصحيفة كثيرٌ من الرواة، ولمزيد من التفصيل عن هذه الصحيفة يُراجع الكتب الأخرى في السنة].

(٥) تقييد العلم: ص ٥. [وقد ورد في بعض الروايات أنه كانت لديه كتبٌ كثيرةٌ، روى عتبة ابن أبي الحكيم عن هُبيرة بن عبد الرحمن قال: كان أنس بن مالك إذا حدَّث وكثر عليه=

عباس[١] ، وعبد الله بن مسعود[٢] ، وعن جابر بن عبد الله[٣] .

وتدلُّ صحيفة[٤] هَمَّام بن مُنبِّه (م ١٠٣ هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه التي يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأنَّ أبا هريرة توفي نحو سنة ٥٨ للهجرة وهي من إملائه) على تقدُّم هذه الحركة .

= الناسُ جاء بكتب فألقاها ، ثم قال: هذه أحاديث سمعتُها من رسول الله ﷺ ، وكتبتُها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه (تاريخ واسط: ص ٣٨ ، وتاريخ الفسوي (٣/ ٣٦٣) ، وتقييد العلم: ص ٩٥ ـ ٩٦ لكنه لم يذكر عرضها على رسول الله ﷺ)].

(١) الترمذي في «كتاب العلل» [قالت سلمى: «رأيتُ عبد الله بن عباس معه ألواحٌ يكتب عليها من أبي رافع شيئاً مِن فعل رسول الله ﷺ (طبقات ابن سعد: ٢/ ١٢٣). ويبدو أنه كان يستخدم أحياناً مواليه للكتابة. قال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٣٣٢): كان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول: ما صنع النبي ﷺ يوم كذا ومع ابن عباس من يكتب ما يقول»].

(٢) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ٧٢) [كَتَب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كتاباً فيه جزء من أحاديث الرسول ﷺ ، فإنه قد روي عن مسعر عن معن قال: أخرج لي عبدُ الرحمن ابن عبد الله بن مسعود كتاباً وحلف لي أنه بخط أبيه بيده (جامع بيان العلم: ١/ ٧٢)].

(٣) صحيح مسلم [كتب جابر بن عبد الله رضي الله عنه صحيفةً له فيها جزء من الأحاديث ، ومن المحتمل أن تكون هذه الصحيفةُ غير «المنسك الصغير» الذي أورده مسلم في كتاب الحج من صحيحه (الدكتور عجاج الخطيب في «السنة قبل التدوين» ص ٣٥٢) ، وكان كثيرٌ من التابعين يذهبون إليه ويكتبون الحديث عنه].

(٤) طبعت هذه الصحيفة تباعاً في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، وطبعت مع المقدمات والتعليقات في حيدر آباد الهند عام ١٣٧٤هـ بعناية الفاضل الأستاذ الدكتور حميد الله الحيدرآبادي الذي حصل على نسخ لها من برلين.

[وهي في الحقيقة صحيفةُ أبي هريرة لهمام ، وإنَّ همام بن منبه كان أحد أعلام التابعين فلقي أبا هريرة وكتب عنه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ وجمعه في صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم الصحيفة الصحيحة ، وقد نقلها الإمامُ أحمد بتمامها في مسنده كما نقل الإمام البخاري عدداً كثيراً من أحاديثها في أبواب كثيرة ، ولهذه الصحيفة أهمية كبرى في تاريخ كتابة الحديث وتدوينه ، لأنها حجة قاطعة ودليل ساطع على أن الحديث كان قد كُتب في عصر مبكر ، وتصحيح الخطأ الشائع بأن الحديث لم يدوَّنْ إلا في القرن الهجري الثاني (السنة قبل التدوين: ٣٥٦)].

وإذا جُمعتْ هذه الصحُفُ والمجاميعُ وما احتوت عليه من الأحاديث، كَوَّنتِ العدد الأكبر من الأحاديث التي جُمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث ، وهكذا يتحقَّق أنَّ المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبقَ تدوينه وتسجيله ـ من غير نظام وترتيب ـ في عصر الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم.

وقد شاع في الناس ـ حتى المثقَّفين والمؤلِّفين ـ أن الحديث لم يُكتب ولم يسجَّل إلا في القرن الثالث الهجري ، وأحسنُهم حالاً من يرى أنه قد كُتب ودُوِّن في القرن الثاني ، وما نشأ ذلك الغلطُ إلا عن طريقين:

الأولى: أن عامَّة المؤرِّخين يقتصرون على ذكر مُدوِّني الحديث في القرن الثاني ، ولا يُعنَون بذكر هذه الصُّحف والمجاميع التي كُتبت في القرن الأول ، لأن عامّتها فُقدت وضاعت ، مع أنها اندمجتْ وذابتْ في المؤلفات المتأخرة.

الثانية: أنَّ المحدِّثين يذكرون عددَ الأحاديث الضَّخْم الهائل الذي لا يُتصوَّر أن يكون قد جاء في هذه المجاميع الصغيرة التي كُتبت في القرن الأول ، مع أنَّ عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزالُ قليلاً ، وقد نبَّه على ذلك العلاَّمة مَنَاظِر أحسن الكيلاني رئيس القسم الديني سابقاً في الجامعة العثمانية بحيدر آباد في كتابه العظيم: «تدوين الحديث»[1] يقول رحمه الله:

«قد يتعجَّب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية ، فيقال: إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعِمئة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبي زرعة ، ويُروى عن الإمام البخاري أنه كان يحفظ مِئتي ألفِ من الأحاديث الضعيفة ، ومئةَ ألفِ من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال:

---

(١) [نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الرزاق الإسكندر ، وراجعه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، لكنه لم يطبع إلى الآن].

جمعتُ كتابي من ثلاثِمئة ألف حديث»[١] .

ولا يَعرِفُ كثير من المتعلِّمين ـ فضلاً عن العامة ـ أن الذي يُكوِّن هذا العددَ الضخم هو كثرةُ المتابعات والشواهد التي عُني بها المحدِّثون؛ فحديث: «إنَّما الأعمال بالنيات»[٢] مثلاً يروى من سبعِمئة طريق ، فلو جرَّدنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد ، لبقيَ عددٌ قليل من الأحاديث .

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيدُ الأحاديث التي رُويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمئةٍ وحديثين ، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث ، وهكذا لا يبلُغ عدد الأحاديث المروية في الصحاح الستة ، ومسند أحمد ، وكُتب أخرى ، خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلَّم فيه .

صرَّح الحاكم أبو عبد الله ـ الذي يُعد من المتسامحين المتوسِّعين ـ أنَّ الأحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف .

ومُعظَم هذه الثروة الحديثية قد كُتب ودوِّن بأقلام رواة في العصر الأول ، وقد يزيد ما حُفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً في العصر النبوي وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم على عشرة آلاف حديث ، إذا جُمِعت صُحف ومجاميع أبي هريرة ، وعبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص؛ وأنس بن مالك ، وجابر بنِ عبد الله ، وعليٍّ ، وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم ، فيمكن أن يقال: إنَّ ما ثَبتَ من الأحاديث الصحاح ، واحتوت عليه مجاميعُها ومسانيدها قد كُتب ودُوِّن في

---

(١) [توجيه النظر إلى أصول الأثر: للشيخ طاهر الجزائري ، وقد طُبع بعناية الشيخ عبد الفتاح أبي غدّة ـرحمه اللهـ في مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب عام ١٤١٦ هـ، انظر اقتباس العلاَّمة الكيلاني من هذا الكتاب في الجزء الأول ، صفحة ٤١].

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب «بدء الوحي» برقم (١) ، وأبو داود في كتاب الطلاق، باب في ما عُني به الطلاق برقم (٢٢٠١) ، وابن ماجه في أبواب الزهد ، باب النية برقم (٤٢٢٧) وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

عصر النبوة ، وفي عصر الصحابة ، قبل أن يُدوَّن الموطأ والصِّحاح بكثير»[١] .

ولمْ ينتَصِف القرنُ الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أشدَّ وأقوى ، وكان ممَّن سبق إليها من رجال هذا القرن ابنُ شهاب الزُّهري (ت عام ١٢٤هـ)، وابن جُرَيج المكي (ت ١٥٠هـ)، وابن إسحاقَ (ت ١٥١هـ)، ومعمرٌ اليمني (ت ١٥٣هـ)، وسعيد بن أبي عَروبة المدني(ت ١٥٦هـ)، وربيعُ بن صَبِيح (ت ١٦٠هـ)، وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، ومالكُ بن أنس (ت ١٧٩هـ) واللَّيث ابن سعد (ت ١٧٥هـ)، وابنُ المبارك (ت ١٨١هـ)، ثم تتابع الناسُ[٢] .

المُحدِّثون وعُلُوُّ هِمَّتِهم:

ثم قَيَّضَ الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة العلم يُعدُّون بالآلاف ، ويمتازون بعلوِّ هِمَّتهم وشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم ، وقوة ذاكرتهم وحفظِهم ، وقد تدفق سيلهُم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبَهم وعقولهم الرغبةُ الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يُعرفا عن أمة من الأمم للعلم في التاريخ ، يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يُروى عن المحدِّثين من التجوُّل في البلاد والسَّفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فقد رُوي أنَّ البخاري صاحب «الصحيح» قد بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشرة من سنِّه ، وقد زار البلدان الإسلامية ما بين بُخارى ومصرَ ، وشيوخَها[٣] .

(١) تدوين الحديث: للعلامة مناظر أحسن الكيلاني (في الأردوية) طبع المجلس العلمي بباكستان.

(٢) يحسن الرجوع في هذا البحث إلى مقالات المرحوم الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي في مجلة (المسلمون) وإلى كتابه القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي).

(٣) تذكرة الحفاظ: ج٣، ص١٣٤.

ورُوي عن أبي حاتم الرَّازي (ت ٢٧٧هـ) قال: «أولَ ما رحلتُ أقمتُ سبع سنين، ومشيت على قدمي زيادةً على ألف فرسخ، ثم تركتُ العدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ثم إلى الرَّملة ماشياً، ثم إلى طرطوس ولي عشرون سنة»[(١)].

وقد سمع محدِّثُ الأندلس ابن حَيُّون (م ٣٠٥هـ) الحديث في الأندلس، والعراق، والحجاز واليمن[(٢)]. وهكذا قطع قارة إفريقية من طَنْجَةَ إلى مصر، وعبر البحر الأحمر.

ومِن المحدِّثين من سافر في قارة آسيا وإفريقية وأوربة في طلب الحديث، وهكذا انتظمتْ رحلته العلمية ثلاثَ قاراتٍ كبرى؛ وكان كثيرٌ من المحدِّثين يخرُج من الأندلس، أقصى الغرب في العالم المتمدِّن المعروف يومئذ، ويبلغ إلى أقصاه في الشرق إلى خراسان أو بالعكس، والمُطالِعُ في «تذكرة الحفاظ» للذهبي يُدْهَش لطموح هؤلاء، واحتمالِهم للمشاق في طلب العلم[(٣)].

فَنُّ أسماءِ الرجال:

ولم يقتصِرْ هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينِه؛ بل تعدَّتْ عنايتهم إلى الوسائط التي قد وقعت في رواية الحديث، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديثَ، فعنُوا بمعرفتهم ومعرفةِ أسمائهم وأسماء آبائهم، وحوادثِ حياتهم وأخلاقهم، ومكانتِهم في الأمانة والصدق والحفظ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعدها الله بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين، وخرجوا من زوايا الخمول، واستحقُّوا الحياة والاشتهار،

---

(١) تذكرة الحفاظ: ج٢، ص ١٤٦.
(٢) المصدر السابق: ج٣، ص٤.
(٣) [اقرأ في ذلك «الرحلة في طلب الحديث» للإمام الخطيب البغدادي، و«صفحات مِن صبر العلماء» للشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة].

وأصابهم فيضٌ من حياة هذه الشخصية الخالدة، فحَيوا وظهروا واحتفَظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورآه حقاً على نفسه.

وهكذا ظهر علمُ أسماء الرِّجال إلى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا يُشارِكها فيها أمة من الأمم.

قال الدكتور «اسبرنجر» (Sprenger) في مقدمته الإنجليزية على كتاب (الإصابة في أحوال الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته:

«لم تُعرفْ أمةٌ في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض ، وُفِّقتْ لاختراع فنٍّ مثل فنّ أسماء الرجال الذي نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسِمئةِ ألفٍ (نصف مليون) من الرجال»[١].

ولم يُعْنَ المحدِّثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا الصدقَ والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتَّصلُ بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدلُّ على قوَّتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهُلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم. وجمعوا كل ما قاله معاصروهم فيهم ولم يُداروا ولم يجاملوا في ذلك. ولم يهابوا أحداً ولو كان بعضهم أميراً مُهاباً أو شيخاً وقوراً.

وقد روى التاريخُ في ذلك طرائف تدل على شدَّة هؤلاء الناقدين وعِلمهم بقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] . وتدقيقهم.

قال أبو داود: كان أبو وَكيع على بيت المال؛ فكان وكيع (م١٩٧هـ) إذا روى عنه قَرنَه بآخر[٢].

---

(١) طبع كلكته ١٨٥٣ ، ١٨٦٤م.

(٢) تهذيب التهذيب: ج١١ ، ص١٣٠.

وقد ترك مُعاذُ بنُ معاذ العنبريُّ (م ١٩٦هـ) روايةَ المسعودي؛ لأنه رآه يطالع الكتابَ، يعني قد تغيَّر حِفظُه[(١)].

وقد قدَّم إليه رجلٌ عشرةَ آلاف دينار، وطلب منه أن يسكُت عن فلان لا يتكلَّم فيه بجَرحٍ ولا تعديل، فأبى ورفض هذا المال العظيم، وقال: «لا أَكتمُ الحقَّ»[(٢)].

وهذا قليلٌ من كثيرٍ يدلُّ على أمانة علماء الحديث والرجال، وتدقيقِهم في موضوعهم، وتحرِّيهم الحقَّ والعدل في شهاداتهم، فهل يوجدُ في تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة والتدقيق؟

قُـوّةُ الذّاكرة واستحضار العلم:

وقد كان هؤلاء المشتغلون بحديث رسول الله ﷺ صفوةَ البلاد التي فتحها الإسلام، كانوا أقوياءَ، وكانوا على جانب عظيم من الصَّبر والجَلَد واحتمال المشاق، وقُوَّةِ الذاكرة، وكانتْ عندهم نَهامة للعمل، وحِرصٌ زائد على اقتباسه والتقاطه من مواضعه، وقد قَويتْ ذاكرتُهم لاعتمادهم عليها، وعنايتهم بها، شأن الأعضاء التي يُعتنى بها ويُعتمد عليها؛ حتى صدرت منهم خوارقُ في ذلك قد يتبادر الشك فيها واستغرابُها إلى من لم يُجرِّبها ولم يشاهد أهلها. ولم يعرف كيف تنشأ الملكات في الرجال بكثرة الاشتغال، وكيف تَقوى، وكيف تأتي بالعجائب.

وقد استفاضَ ذلك عن كثير من الأدباء والشعراء والموهوبين، ورُويت عنهم أخبارٌ في قوة الذاكرة يستغربها الإنسان في هذا العصر الذي انصرفتْ فيه النفوس عن التحفظ والاستحضار، واعتُمد فيه على الكتب والأسفار. وإذا

---

(١) تهذيب التهذيب: ج٦، ص ٢١١.

(٢) الرسالة المحمدية: للعلامة السيد سليمان الندوي [المحاضرة الثالثة، ص ٨٢-٨٣، طبع دار ابن كثير بدمشق]. نقلاً من «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر.

عكف الإنسان على شيء ، وانصرف إليه بكل همته ، وملَك عليه هذا الموضوع فكرَه ومشاعره ، تفتَّحت قريحتُه في ذلك ، حتى يُخيَّل إلى الإنسان أنه يُلهم إلهاماً.

ومِن أَعجب ما رُوي في ذلك ، هو ما يرويه أبو أحمد بنُ عَدِيٍّ الحافظ ، عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب «الجامع الصحيح» ، قال: «سمعتُ عدةً من مشايخ بغداد يقولون: إنَّ محمدَ بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحابُ الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحانَ حِفظه ، فعمدوا إلى مئة حديث ، فقلبوا متُونَها وأحاديثها ، وجعلوا متنَ هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسنادَ هذا المتن لمتنٍ آخر ، ودفعوها إلى عَشرة أنفُسٍ ، لكلِّ رجل عشرةُ أحاديث ، وأمَروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعدَ للمجلس ، فحضروا وحضرَ جماعة من الغُرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلمَّا اطمأنَّ المجلس بأهله انتدَب رجلٌ من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث. فقال: «لا أعرفه». فلم يزل يُلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ والبخاري يقول: «لا أعرفه».

وكان العلماء ممَّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون: «فَهِمَ الرجل». ومَن كان لم يدرِ القصة ، يقضي على البخاري بالعَجز والتقصير وقلَّة الحفظ.

ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال: «لا أعرفه». فسأله عن آخر ، فقال: «لا أعرفه». فلم يزلْ يُلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته. والبخاري يقول: «لا أعرفه».

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة. والبخاري لا يزيدُهم على أن يقول: «لا أعرفه».

فلما علم أنَّهم قد فرغوا ، التفت إلى الأول فقال: أما حديثكَ الأول فقلتَ كذا ، وصوابه كذا ، وحديثكَ الثاني كذا ، وصوابُه كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة. فردَّ كل مَتن إلى إسناده ، وكل إسنادٍ إلى

متنه. وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرَّ الناس له بالحفظ، وأَذْعَنوا له بالفضل».

قال الحافظُ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة «قلتُ: هنا يُخضع للبخاري! فما العَجبُ من ردِّه الخطأ إلى الصواب؛ فإنه كان حافظاً؛ بل العجبُ من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مَرَّةٍ واحدة»[١].

احتشادُ النّاس في مجالس الحديث:

وقد وُجِدَ في الناس ـ خاصَّتِهم وعامَّتهم ـ إقبالٌ غريب على مجالس الحديث، وتهافتٌ على سماعه وحضور دُروسه، فكان الناس إذا قدم مُحدِّثٌ جليل يتقاطرون على أخذ الحديث منه، ويحضرون حَلقته في عددٍ يقضى منه العجب.

وأغرَبُ من هذا العدد هو الوقارُ والسكينة والهدوء الذي كان يسود في هذه المجالس، فكان الناس مُنصتين هادئين كأن على رؤوسهم الطير.

ويَدلُّ ما يحكيه الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ» على الاندفاع القوي، والاتجاه العام الذي وُجد في الجمهور إلى حديثِ نبيهم ﷺ وشغفِهم به، وتأثير المحدِّثين في عقول الناس ونفوسهم.

قال يحيى بن أبي طالب: سمعتُ مِن يزيدَ ببغداد، وكان يقال: في مجلسه سبعونَ ألفاً[٢].

قال أبو حاتم: حضرتُ مجلس سليمان بن حرب (م ٢٢٤ هـ) فحُزر بأربعين ألفاً، بُني له شِبه منبر بجَنْب قصر المأمون فصعده، وحضر المأمونُ والأمراء، فأُرسل للمأمون سِيرسافٌ وبقي يكتب ما يملي[٣].

وقال أبو الحسن بنُ المبارك عن عاصم بنِ علي المحدِّث الشهير

---

(١) مقدمة «فتح الباري» ص ٤٨٧.
(٢) تذكرة الحفاظ: ج١، ص ٢٩٢.
(٣) المصدر السابق: ج١، ص ٣٩٣.

(ت ٢٢١ هـ) كان مجلسُه يُحزر بأكثر من مئة ألف إنسان، قال عمرُ بن حفص السَّدُوسي: وَجَّه المعتصم من يَحزُر مجلس شيخنا عاصم (ت٢٢١هـ) في رحبة النخل، وكان يجلس على سطحٍ سمعته يوماً يقول: «حدَّثنا الليث بن سعد» وهم يستعيدونه. فأعاد أربع عشرةَ مرة والناس يسمعون.

وكان هارون يركب نخلةً معوَجَّة يستملي، فحزر المجلس بعشرين ومئة ألف[1].

وقال أحمدُ بن جعفر الخُتلي: «لما قدم أبو مُسلم الكُجِّي (ت ٢٩٢ هـ) بغداد، أَمْلَى في رَحبة غسان، فكان في مجلسه سبعة مستملين. يُبلِّغ كل واحد منهم الآخر. ويكتب الناسُ عنه قياماً، ثم مُسِحَت الرَّحبة، وحُسب من حضر بمَحبرة، فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظَّارة، قال الذهبيُّ: هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب في تاريخه»[2].

ويقول أبو حفص الزَّيات: لما ورد الفِريابيُّ إلى بغداد استُقبل بالطَّارات والدبادب[3]، ثم أوعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه، فحُزر من حضر مجلسه لسماع الحديث. فقيل: كانوا نحو ثلاثين ألفاً، وكان المستملون ثلاثمئةٍ وستة عشر.

قال أبو الفضل الزُّهري: لمَّا سمعتُ من الفِريـابي، كان في مجلسهِ من أصحاب المحابر مَن يكتب نحو عشرة آلاف إنسان ما بقي منهم غيري، هذا سوى من لا يَكتب.

قال ابن عدي (ت ٣٦٥هـ): كُنا نشهد مجلس الفِرْيابي وفيه عشرة آلاف[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ج١، ص ٣٦٤.
(٢) المصدر السابق: ج٣، ص ١٩٦.
(٣) الطارات: الدفوف. الدبادب: الطبول.
(٤) تذكرة الحفاظ: ص ٢٦٢.

وذكر الفِربابي: أنه سمع «الجامع الصحيح» من البخاري تِسعونَ ألفاً[١].

وبهذه الأخبار التي التقطناها من مجموعة كبيرة يمكننا أن نعرف كيف شُغف الناس في هذا العصر الذي نُؤرِّخه بالحديث النبوي، و كيف تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور.

الصِّحاحُ السِّتَّةُ:

وهكذا أصبح الحديثُ موضوعَ عناية هذه الأمة بعد القرآن. وانصرفتْ إلى جمعه وتدوينه وضبطه وتنقيحه هممُ المخلصين المجاهدين، وما زالوا يعنون به، ويتفانون في سبيله، حتى خرجتْ من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت مُنبثة في الآفاق مجاميعُ مُنقَّحة للحديث النبوي، كان في مقدِّمتهم هذه الكتبُ الستة التي تواضع علماء هذا الشأنِ وأصحابُ الصناعة، والمشتغلون بالعلوم الدينية، والناقدون لها، على صحتها وتقديمها على غيرها، وهي «الجامع الصحيح» للبخاري و«الجامع الصحيح» لمسلم، و«الجامع» للترمذي، «والسُّنن» لأبي داود السِّجْستاني، و«السنن» للنَّسائي، و«السُّنن» لابن ماجه[٢]، واصطلح العلماء على تَسميتها بالصِّحاح الستة.

ثم يمتازُ بينها ويتفوَّق في الصحة والقَبول والاستفاضِة كتابان: أوَّلهما «الجامع الصحيح» لمحمد بن إسماعيل بنِ إبراهيم الجعفيّ البخاري (ت ٢٥٦هـ). والثاني: «الجامع الصحيح» لمسلم بنِ الحجاج القُشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ). واصطلح الناس على تسميتهما (بالصحيحين) وكلٌ ما يرويانه من حديث بـ «متَّفق عليه».

وقد قال إمام الحديث في العصور المتأخرة، شيخ الإسلام، ولي الله بن

---

(١) مقدمة «فتح الباري» ص ٤٩٢، وقد جمع هذه المعلومات والأخبار السري الفاضل والمؤلف المجيد مولانا حبيب الرحمن الشُّيرواني في كتابه البديع (العلماء السلف [بالأردوية]).

(٢) يضاف إلى هذه الكتب الستة «الموطأ» للإمام مالك بن أنس.

عبد الرحيم الدّهلوي (١١٧٦ت هـ)[١] في كتابه : «حجّة الله البالغة» :

«أما الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أنَّ جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيحٌ بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مُصنِّفيهما ، وأنَّ كل من يُهوِّن أمرهما فهو مبتدع متبع غيرَ سبيل المؤمنين»[٢] .

وقد ظلَّتْ هذه الكتبُ الستة ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية. تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلمَ الديني الصحيح، والفِكر الإسلامي النقيّ، واحتـجُّوا بأحاديثه ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفِتن والفساد ، ولا يستغني عنْ هذا المصدر كلٌّ من يريد إرجاعَ المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل ، ويُريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية والأُسوة الكاملة ، وكلٌّ من تُلجئهُ الحاجةُ وتطوُّراتُ العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.

تَـدويـنُ الفِـقْـه:

كذلك كانتِ الأمةُ في حاجة مُلِحَّةٍ إلى حركة تدوين الفقه. وقد اضطرت التطورات التي طرأت على المجتمع الإسلامي ، واتساعُ رقعة المملكة الإسلامية ، وتعقُّدُ المدنيَّة ، وطرافةُ المسائل والحوادث ، وانشعابُ الحياة ، إلى استنباط المسائلِ ، واستخراج النتائج ، وترتيب الجزئيات والفتاوى.

وقد خرج الإسلامُ من الجزيرة العربية ـ حيثُ الحياة بسيطةٌ والمدنية محـدودة ـ إلـى بـلاد مُخصبة واسعـة ذات المـدنيـات القـديمـة، والآفـاق الـواسعـة ،كـالشـام، والعـراق ، ومصـرَ ، وإيـران ، وقـد تـوسَّعت الحيـاة الاجتماعية ،وتعقَّد نظام التجارة والإدارة ، وقد كانت مُهمةُ تطبيق أصول

---

(١) هو أحمد بن عبد الرحيم [المعروف بـ«شاه ولي الله الدهلوي»].
(٢) حجة الله البالغة: ج١، ص ١٠٦.

الإسلام على هذه المسائل والحوادثِ ، وإخضاعُ الحياة المدنية لروح الإسلام وأسُسه تتطلّب ذكاء فائقاً وفهماً دقيقاً ، واطلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وإلماماً كافياً بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرةً واسعة بطبقات الأمة ونواحي الحياة العامة ، يُضاف إلى ذلك الاطلاع الواسع على تاريخ الإسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الإسلامي، مع الرسوخ والتَّضَلُّع في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ونطقَ بها الرسول ﷺ .

الأئمةُ الأربعة وخصائصُهم:

لقد كان مِن لُطْف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير؛ أن قيَّض لهذه المهمَّة الجليلة رجالاً يُعَدون من الأفذاد والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية فقهاً وأمانة ، وإخلاصاً وكفاية .

كان منهم هؤلاء الأربعة (أبو حنيفة) (ت ١٥٠ هـ). و(مالكٌ) (ت ١٧٩ هـ). و(الشافعيُّ) (ت ٢٠٤هـ). و(أحمدُ بنُ حنبل) (ت ٢٤١ هـ) الذين قُدِّر لفقهِهم أن يعيش إلى هذا اليوم ويخضع له العالم الإسلامي.

وقد فاق هؤلاء في فَهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم ، واستعملوا مواهبهم بسخاء في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التي لا تُعادِلها ذَخيرةٌ فقهية في العالم ، والتي لا تزال مَرجعاً ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر.

وقد توفَّر هؤلاء على هذه الخدمة التي تَدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كل راحةٍ ولذةٍ وجاه ومنصب في الحياة ، وقد خابَ ملوك عصرِهم وأمراؤه ، وخابتِ الأطماع والإغراءات أن تَشغلَ قُلوبهم ، أو تَتوزَّع عقولَهم ، وأوقاتهم.

وقد عُرض على أبي حنيفة منصبُ القضاء الذي كان منصباً كبيراً وشرفاً عظيماً مرتين ، فرفض وامتنع ، ومات في السجن.

وقد ضُرب مالكٌ مئتي سوطٍ لأجل مسألة جَهر بها وخُلعت كتفاه ، وهي أن طلاق المُكرَه ليس بشيء .

وقد قَضى الشافعي معظمَ حياته في عُسْر وضَنك ، وبذلَ صحته وقوته في استنباط الأحكام وتدوين الفقه .

وعارض أحمدُ بن حنبل اتجاهَ حكومةٍ هي كبرى الحكومات وأقواها على ظهر الأرض في عصره ، ودافع عن السُّنة والفكر الإسلامي الصحيح حتى عُوقب وعُذِّب وضُرب وسُجن .

وقد أنتجَ كلٌّ واحد منهم ثروةً علمية ، وخلَّف تراثاً فقهياً ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر؛ فقد رُوي أن أبا حنيفة قال ستينَ ألفَ مسألةٍ . وقال بعضُهم : ثمانيةً وثلاثين ألفاً في العبادات ، وخمسة وأربعين ألفاً في المعاملات[١] .

وقد ذكر شمس الأئمة الكُردري : أنَّ عدد المسائل التي دوَّنها يبلغ إلى ستمِئةِ ألف[٢] .

ومهما كان العددُ مبالغاً فيه فلا شك أنه أنتج ثَروة فقهية ضخمة هي أساس هذا الفقه الحنفي الذي استطاع أن يَحكُم المساحة الكبرى في المملكة الإسلامية أيام ازدهارها ، ويكونَ دُستور مملكة هي أرقى المملكات في عصرها ، وهي الدَّولة العباسية .

وكذلك شأنُ مالك في الفقه ، فكتابه : (المُدوَّنة) الذي هو مجموعتُه الفقهية ، تبلغ نحو ست وثلاثين ألف مسألة[٣] .

---

(١) ضحى الإسلام : ج٣ ، ص ١٨٨ نقلاً عن «مناقب أبي حنيفة» للمكي ص ٩٦ .
(٢) سيرة النعمان : للعلامة شبلي النعماني ، نقلاً عن «قلائد عقود العقيان» .
(٣) ضحى الإسلام : ج٢ ، ص ٢١٥ .

وكتابُ (الأمّ) الذي هو إفادات الشافعي مجموعة فقهية ضخمة تقع في سبعة أجزاء.

وقد جمع أبو بكرٍ الخَلاَّل (ت ٣١١هـ) مسائل الإمام أحمد في أربعين مجلداً أسماه (الجامع لعلوم الإمام أحمد)[1].

تَلاميذُ الأئـمّة الأربعـةِ وخلفـاؤُهـم:

وقد رَزَقَ الله هؤلاء الأئمَّة الفقهاء تلاميذَ نُجباء قاموا بعلمهم وزادوا في ثروته ، وظلُّوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه.

وقد رُزق الإمام أبو حنيفة تلاميذَ مثل القاضي أبي يوسف (ت ١٨٢هـ) الذي استطاع بذكائه النادر ،ومَقدرتهِ الفقهية أن يكون قاضي الإمبراطورية العباسية العظيمة ، والمُشرِفَ الدينيَّ عليها ، وقد ألَّف كتاب (الخراج) الذي شهد بسعة علمه ودقةِ فهمه ، ومحمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ) الذي هذَّب الفقه الحنفي وألَّف مؤلَّفات لا تزال مصدر الفقه الحنفي ، وزفر بن هذيل (ت ١٥٨هـ) الذي عُرف بِحدَّة القياس وقوةِ الحُجة.

ورُزق الإمام مالك تلاميذ عُرفوا بحسن الوفاء لشيخهم ، والحرصِ على نشر مذهبه ، مثلَ عبدِ الله بن وَهْب (ت ١٩٧هـ)، وعبدِ الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١هـ)، وأشهبَ بنِ عبد العزيز (ت ٢٠٤هـ)، وعبدِ الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ)، ويحيى بن يحيى اللَّيثي (ت ٢٣٤هـ) الذين دانت بفضلهم مصر وشمال إفريقية بالفقه المالكي.

ورُزق الإمام الشافعي مثل البُوَيطِيِّ (م ٢٣١هـ)، والمُزنيِّ (ت ٢٤٦ هـ)، ورَبيع (ت ٢٧٠ هـ) الذين دَوَّنوا الفقه الشافعي وهذّبوه.

(١) انظر: ترجمة أبي بكر الخلال في «شذرات الذهب» ج٢ ، ص ٢٦١.

وكذلك كان من أتباع الإمام أحمد مؤلِّفٌ ومحقِّق ، مثل ابن قُدَامة ، الذي صنف (المغني) الذي يُعدُّ من مفاخر المكتبة الإسلامية الفقهية .

مَاذا أفادَ تدوينُ الفِقه ؟

لقد كان وجودُ هؤلاء الفقهاء المجتهدين والمشرِّعين في قرون الإسلام الأولى بُرهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمة للبقاء والانتشار . وقد أوجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدةُ الأُمة العملية ، في اجتماعها ومعاملاتها وسياستها المالية ، وهذه الوحدةُ عاملٌ مهم من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أَمِنتْ هذه الأمةُ من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أُصيبت بها الأممُ والديانات في عهدها الأول . والتي تدرَّجت بها إلى حياة لا دينية تسير فيها على النظم اللادينية أو تقتبسُ التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه ، وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ فصل الدين عن السياسة ، الذي هو الخطوة الأولى الحاسمةُ إلى الإلحاد والارتداد .

* * *

الإمام أحمد بن حنبل

نشأة الاعتزال والمعتزلة

المأمون وعقيدة خلق القرآن

أحمد بن حنبل

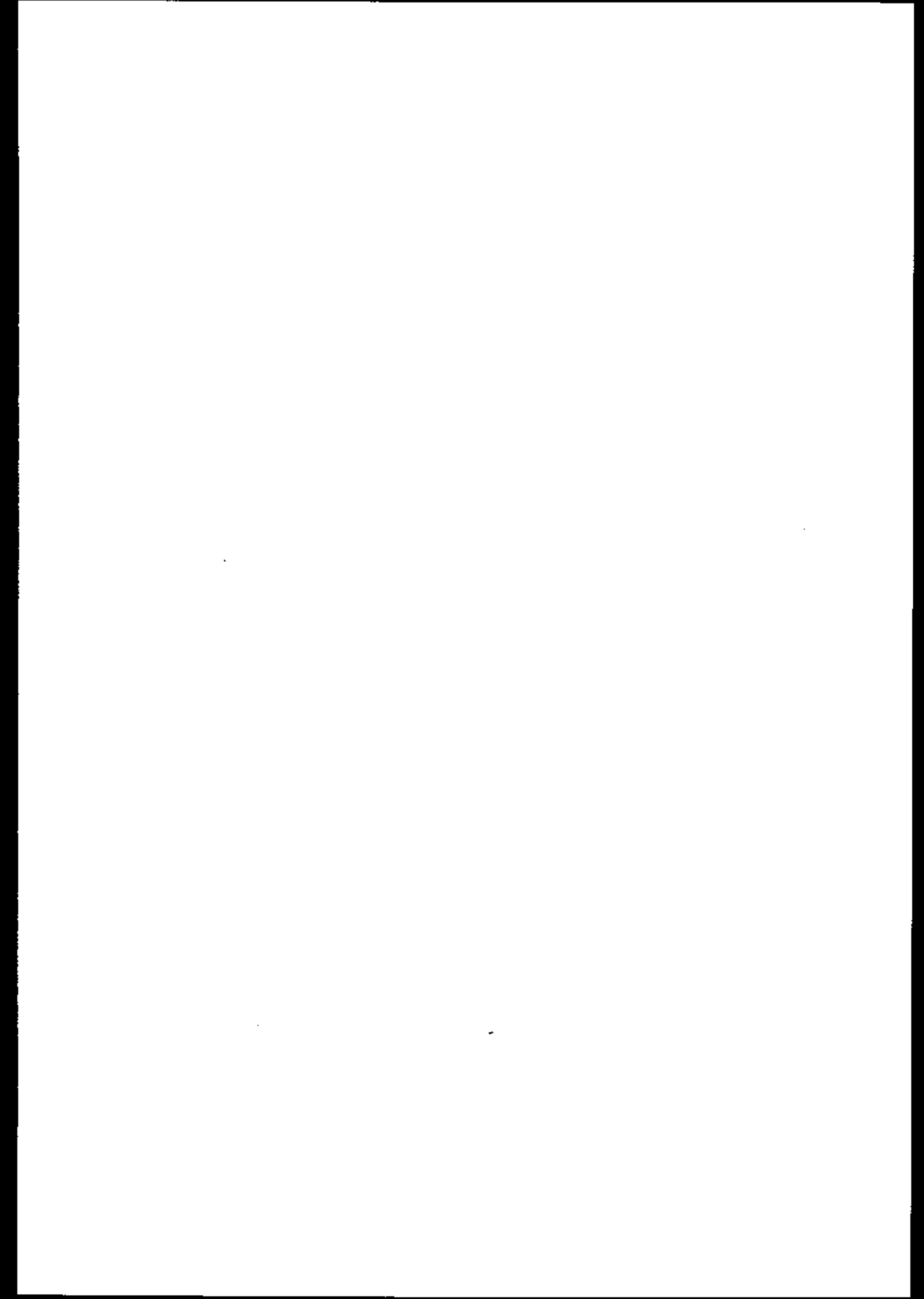
نشأته ودراسته

سيرته وأخلاقه

وفاته

المحنة

أحمد بن حنبل يحكي قصته



المحاضرة الخامسة:

الإمام أَحمد بن حَنْبل

نَشأة الاعتزال والمعتزلة:

يَحْلو لي أن أفتتح هذه المحاضرة بكلمةٍ سبقت لي في كتابي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟!»: قد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاتهِ وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يَهجمُ عليه الإنسان بعدَ موته، وأتَاهم علم ذلك كُلِّه بواسطتهم عفواً بدون تعب، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علومٍ ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم؛ ليتوصلوا إلى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحِسّ والطبيعة، لا تعمل فيها حواسُّهم، ولا يؤدِّي إليها نظرهم وليست عندهم معلوماتُها الأولية.

لكنَّ الناسَ لم يشكُروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جَذعاً[1]، وبدؤوا البحث أُنفاً، وبدؤوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مُرشداً ولا خرِّيتاً[2]. وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً وأشد تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول من رائد لم يقتنع

(١) [أعاد الأمرَ جذعاً؛ أي: جديداً كما بدأ].
(٢) [الخرِّيت: الدليل الحاذق].

بما أدى إليـه العلم الإنساني في الجغرافية ، وما حدد وضبط من الخرائط على تعاقب الأجيال ، وأراد أن يقيسَ ارتفاع الجبال وعُمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قِصر عمره وضعف قوته وفقدان آلته ، فلم يلبث أنِ انقطعتْ به مَطيَّتُه ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلفة ، وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاؤوا في هذا العلم بآراءَ فجَّـةٍ ، ومعلومـاتٍ ناقصـة ، وخواطـرَ سانحـة ، ونظريـات مُستعجلة ، فضلُّوا وأضَلوا.

وكذلك مَنحَهم الأنبياء عليهم السلام مبادى ثابتة ومُحكمات ، هي أساس المدنيَّة الفاضلة والحياة السعيدة في كل زمان ومكان ، فحُرموها على تعاقب العصور ، فبنوا مدنيَّتهم على شفا جُرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار، فزاغ أساس المدنية، وتداعى بناؤها، وخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم.

كان الصحابةُ رضي الله عنهم سعداءَ موفَّقين جداً؛ إذ عوَّلوا في ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكُفوا المؤونة ، وسعدوا بالثمرة ، ووفَّروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غير جهاد ، ووفَّروا عليهم أوقاتهم ، فصرفوها فيما يَعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوُثقى ، وأخذوا في الدين بلُبِّ اللُّباب»[١].

هذا هو تصويرُ الواقع في آخر القرن الثاني ، وإن لم أَقصد تصويرَه؛ وإنما قصدتُ تصوير العصور الجاهلية وعصور الفترة؛ ولكن الطبيعة البشرية جامحة لا تقف على الحدود ، نهمة بالمتاعب والجهاد في غير جهاد ، فلم يَنْقَضِ القرنُ الأول ، ولم ينقرض الجيل الإسلامي الأول ـ الذي تلقى الدين من النبي ﷺ ، وكان كما وصفه عبد الله بن مسعود «أبرَّ الناس قلوباً ، وأعمقهم

(١) [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ الباب الثاني ، الفصل الثاني ، طبعة دار ابن كثير ، بدمشق].

علماً ، وأقلّهم تكلُّفاً»[١] ـ حتى أولع الناس بالخوض في مسائل الذات والصفات ، وأثاروا مسائل ليست عندهم وسائل الوصول إليها، ومُؤهِّلاتُ الحكم عليها ، وكان ذلك بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموع خواطر لا تقوم على أساس علمي ، وطلسماً من كلمات ومصطلحات يروِّعُ الإنسانَ ، فإذا افتقده لم يجده شيئاً. و قد كان المسلمون في غنىً عن ذلك بما جاء به الرسول من عِلم محكم، وبينة واضحة كما قدمنا ، وقد انصرفت هممُهم إلى الجهاد والفتح الإسلامي، ونشْر الدعوة والمسائل الجدية، وتدوين العلوم المفيدة، مَلك عليهم ذلك عقولهم وأفكارهم ، واستنزف جهودهم وأوقاتهم.

فلمَّا انتقلتِ العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية ، وانصرفَ الناس عن ميدان القتال ، وتنفَّسوا عن الجهاد ، أُثيرت هذه المباحث ، وأقبل الناس عليها ، وكان أسرع الناس إليها هي الطبقة التي كانت أشدَّ انفعالاً وتأثراً ، وأسرع قضاء وتحكُّماً ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد؛ ولكنه ذكاء ليس في عُمق ونبوغ ، وكان ذكاء طافياً لم يعرف الرسوبَ والنزول إلى الأعماق والاستقرار في القعر.

كان يتقدَّمُ هذه الطبقة طائفةٌ تُعرف في تاريخ الإسلام «بالمعتزلة» الذين كانوا مع ثقافتهم الواسعة وذكائهم النادر لم يَتعمَّقوا في العلم ولم يُدقِّقوا، وكانت ثقافتُهم أوسع مما هي أعمق ، وقد أخطأ كثيرٌ منهم فهمَ حقيقة الدين، وأسرفوا في تقدير سلطان العقل وحدود العلم الإنساني؛ فجاءت نظرياتُهم في الدين ومباحثُهم في ما وراء الطبيعة نظرياتٍ فجَّةً لم تنضج بعد، ومباحثَ مستعجلة قد فاتها الإحكام والتدقيق ، شأن كل شعب وكلٍّ طائفة في بداية الدَّور العقلي ، وفي الطفولة العقلية ، ولو قُدِّرَ لهم أن يعيشوا أو يتقدموا في العلم لنقضوا كثيراً مما أبرموا ، وأبرموا أكثر ما نقضوا.

وقد لاحظَ الدكتور أحمد أمين ـ الذي انتصرَ للمعتزلة في كتبه ، وكان

(١) [مشكاة المصابيح: ١/ ٣٢].

شديدَ الإعجاب بهم عظيمَ الاعتراف بإنتاجهم وخِدمتهم للدين ـ أنَّ نُقطة الضعف فيهم أنَّهم أسرفوا في تمجيد العقل والإيمان بقُوته واقتداره. يقول ـ وهو يذكر الخلاف بين المُحدّثين والمعتزلة ـ: «فجوهر الخلاف إذاً بين هؤلاء والمعتزلة هو سُلطة العقل ومداها وحدودها، رأى المعتزلة أنَّ العقلَ البشري قد مُنح من السُّلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يَتعلق بالله، فلا حدود للعقل إلا براهينه، ولا زلَل ولا خطأ متى صحَّ البُرهان، فاستعملوا البراهين في أدق الأمور وأصعبها وأعقدها، ففي استطاعة العقل الوصولُ إلى الحق فيها.

وهكذا كانت نزعةُ المعتزلة هذهِ متجليةً في كل أبحاثهم، يسيرون وراء البُرهان إلى نهايته، ويُثيرون أصعبَ المشاكل وأعقدها، ويَتعرَّضون لحلِّها، فإذا تم لهم حَلُّها أو ـ على الأقل ـ اعتقدوا بِحَلِّها، تأوَّلوا آيات القرآن على مقتضاها.

وعلى العكس من ذلك الآخرون، رأوا أنَّ العقل أضعفُ من ذلك، وأنَّ استطاعته محدودةٌ بإدراك ما يتعلق بشأنه هو، أو أقلَّ من ذلك، وأنه مُنح القدرة على أن يُدرك البرهان على وجود الله، والنبوةِ العامة، ونُبوة محمدٍ خاصة، ولم يُمنح القدرة على كُنْهِ الله وصفاته، فلْنُؤمن بما جاء به أنبياؤُه، ولْنَقِفْ عند ما قالوه، ولا نُثير مشاكل لم يأتِ بها الأنبياء، ولْنَسُد الطريق على من يُثيرونَها، فإنْ جادلناهم في شيء ففي بيان خطئهم وفسادِ طريقتهم»[1].

ويقولُ في موضع آخر، منتقداً نزعة المعتزلة إلى قياس الغائب على الشاهد، وهو أساس منطقهم الذي جَروا عليه في فلسفتهمُ الدينية:

«ولعلَّ نُقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياسِ الله على الإنسان، وإخضاعِ الله تعالى لقوانين هذا العالم، فقد ألزموا الله ـ مثلاً ـ بالعدل كما يتصوره الإنسان، وكما هو نظام دنيوي، وفاتَهم أن

(١) ضحى الإسلام: ج٣، ص ٣٩.

معنى العدل ـ حتى في الدنيا ـ معنى نسبيٌّ يتغَير تَصوُّره بتغير الزمان ، وأنَّ ما كان عدلاً في القرون الوسطى يُعدُّ ظلماً الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله؟!

وكذلك الشأنُ في قولهم في الحُسْن والقُبْح ، والصلاح والأصلح ، إنا نرى أن الإنسان إذا ضاق نَظَرُه حكم على الأشياء حُكماً ، فإذا اتَّسع نظَرُه تغيَّر حكمه ، فمَن نظر فقط إلى أسرته كانت بعض أحكامه خطأً بالنسبة لمن اتسعت نظرتُه إلى أمةٍ أو إلى الإنسانية عامّةً.

ونحن في أعمالنا ننظرُ إلى عالمنا ، والله تعالى ربُّ العالمين قد ينظر في أعماله إلى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نُخضعُ الله تعالى لتَصوُّر العدل الذي نتصوره نحن في عالمنا هذا؟! وكذلك قولهم في أن صفاتِ الله هي عينُ الله أو غيرُ الله ، كلٌّ براهينهم مبنيَّةٌ على قياس الغائب على الشاهد ، ولكنَّ الشَّبَه معدوم ، وقد فرضوا أنَّ العينية والغَيرية والزمانية والمكانية والسَّببية ونحوها قوانينُ لازمةٌ لكل موجود ، وهذا ـ في نظري ـ خطأ محضٌ ، فهي قوانين إنسانية ، وإن تسامحنا قليلاً قلنا إنها قوانين عالمنا هذا ، ولسنا نستطيعُ القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق ، فإصدار حكمنا على الله ـ على اعتقاد أنها قوانينُ شاملةٌ للإنسان والله ـ جرأةٌ لا يرتضيها العقل الذي يعرف قَدره ، ولا يَعدو طَوْرَه ، وليس هذا عيبَ المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعدُ من علماء الكلامِ كذلك».

لقد كان هذا الاتجاهُ العقلي الذي تزعَّمه المعتزلة ، والذي كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وخلائق ، بل إخضاع الذات والصفات والأفعال الإلهية له ، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاهاً خطراً على الإسلام ، وفتح باب فسادٍ عظيم في المجتمع الإسلامي.

لقد كان هذا تحويلاً للدين البسيط العملي الذي جاء به الرسول ﷺ ، يستسيغه العقل البشري بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يَعجَز عن فهمها وإساغتها كثيرٌ من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنميةً للعقل على حساب

العاطفة والوجدان ، وإضعافاً للإيمان ، وإثارة للشكوك والشبهات ، وعدم الثقة بما يقوله النبيُّ ﷺ ، ويعجَز العقل عن تعليله وإقامة الدليل على وجوده ، وأكثر ما في العالم يعجز العقل عن تعليله وإقامة الدليل عليه !!.

واسمحوا لي أن أنقل كلمةً أخرى للدكتور أحمد أمين في انتقادِه على المعتزلة في هذه الناحية :

«ربَّما أُخذ عليهم أنَّهم في ـ سيرهم هذا وراءَ السُّلطان العقلي ـ قد نَقلوا الدين إلى مجموعـة من القضايا العقليـة ، والبراهين المنطقية ، وهذا النَّهْجُ ، إذا صحَّ أن يُقتَصرَ عليه في الفلسفة ، فلا يصح أن يُقتصر عليه في الدين ، لأنَّ الدين يتطلَّبُ شعوراً حياً أكثر مما يتطلب قواعد منطقية .

فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية تتطلب من العقل حلها ، وفي ذلك كل الغَناء ، بل الدِّين أكثر من ذلك ، يتطلب شعوراً يدعو إلى العمل ، وحرارة إيمان تبعث على التقوى .

ونظامُ المعتزلة ـ وهو الذي جرى عليه المتكلِّمون بدورهم ـ نظامٌ جيد التفكير ضعيفُ الروح ، غالى في تقدير العقل ، وقصَّر في قيمة العاطفة ، يتجلَّى ذلك لك إذا أنت وازنْتَه مثلاً بمنهج الصوفية ، فهو على العكس من المعتزلة : شعور وعاطفة ولا منطق ، والنظام العقلي في الدين يقفُ الإنسانَ ـ في العادة ـ موقفاً سلبياً أكثر منه إيجابياً»[١] .

المَأمونُ وعَقيدةُ خَلْقِ القرآن:

بقي المعتزلة طائفة من طوائف المسلمين ، لا تملك نفوذاً سياسياً ، ولا سلطةً حتى وَلي المأمون بن الرشيد الذي يصفه الدكتور أحمد أمين فيقول : «كان عقلُه عقلاً فلسَفياً ، حُراً في تفكيره ، مع التقيد بأصول الدين. . . كان الاعتزال أقربَ المذاهب إلى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتماداً على

(١) ضحى الإسلام: ج ٣ ، ص ١٦٣ .

العقل ، فقرَّب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوي نفوذ في القصر ، وكان من أظهرهم ثُمامة بنُ الأشرس ، وأحمدُ بن أبي دُؤاد»[١] .

«لم يكن المأمونُ إمَّعـةً يُوجَّـه فيتوجَّـهُ ، ولكنه ـ مع قوة شخصيته ـ يتأثر برأي من حولـه ، وكان على استعـداد لذلك ، فمن قبلُ ، أدخل المسائل الدينية في شؤون الدولة ، فأعلن تفضيلَ علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، وأغضب بذلك كثيراً من النـاس ، ونادى ـ من قبل ـ بتحليل المتعةِ وهو في طريقه إلى الشام ، لما صحَّ عنده من حديث حِلِّ المتعة ، فما زال يحيى بنُ أكثم يروي له الأحاديثَ في حُرمتها عن الزُّهري وغيره ، ويُقيم له البراهين على حُرمتها ، حتى اقتنع ، فأمر بأن يُنادى بتحرِيمها بعد أن كان قد أمر بها»[٢] .

وهذا وصْفٌ صادقٌ للمأمون ، وتصوير نفسيته وطبيعته ، حدةٌ في الذكاء ، والتقاط للآراء ، وتهوُّرٌ في الرأي ، وسرعة في التنفيذ ، وهي صفة مَلِكٍ قويِّ الشخصية ، شديد الانفعال ، لم تُمهله أحواله والظروف المحيطة به للدراسة العميقة ، والعلم الراسخ ، وقد أحاط به علماءُ أذكياء يحرصون على النفوذ في عقلِه ، وتنفيذ مذاهبهم وآرائهم في الشَّعْب ، وقهر أعدائهم عن طريق السلطان .

وهكذا أصبَحَ المعتزلةُ أصحاب حَوْل وطَوْل في الدولة العباسية ، وأصبح الاعتزال مذهباً رسمياً يتبنَّاه قاضي القضاة ، أحمدُ بن أبي دُؤاد ، ويحميه الخليفةُ العباسي ، ويَدينُ له أصحاب المناصب والجاه والنفوذِ في المملكة .

ولم يشأ تديُّن المعتزلة أو طبيعتُهم الخاصة أن تعيش في المملكة فكرتان متنـافستـان ، وأن ينـازع الاعتـزال مـذهـبُ أهـل الظـاهـر والقشـور (يعنـي المحدِّثين) ، لقد صدق الأستاذ أحمد أمين إذ قال: «كان لهم طابع خاصٌّ

(١) ضحى الإسلام: ج٣ ، ص ١٦٣ .
(٢) المصدر السابق: ج٣ ، ص ١٦٥ .

غريب يجمع بين التعصُّب الحادِّ وحُرية الفكر المفرِطة»[1]. وقد رأينا مراراً في التاريخ ، أن المؤمنين بحُرية الفكر المفرطة يطغى عليهم التعصُّب الحاد ، وكأنهم يريدون أن يحتكروا حرية الرأي ويمنعوها غيرهم ، وشأنهم في ذلك شأن المطففين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٢ ـ ٣] وهذا الذي نُشاهد في العصر عند الأحزابِ السياسية.

انتهزَ المعتزلةُ هذه الفرصة السانحةَ ، وصمَّموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام ، والمذهبَ السائد في المملكة لا يزاحمُه مذهبٌ آخر ، وكانت «مسألة خلق القرآن» هي المسألةَ الحاسمة التي يَصِحُّ أن تُصبح مقياساً للخضوع والاعتزال والتديُّن بمذهبه ، فركَّز المعتزلة إعلامَهم على هذه المسألة وجعلوها فارقاً بين الإيمان والكفر ، وشعاراً للتوحيد ، وشرطاً لصحة العقيدة.

وقد أَلحَّ المعتزلةُ على تَسمية القرآن بالمخلوق ، لأنَّهم يرون أنَّ الله هو وحده القديم ، وكل ما عداه فهو مُحدَث ومخلوق. وأنكر المحدِّثون هذا التعبير المحدَث ، وألحُّوا على أن يُسموه القديم ، واستشنَعوا أن يُسمُّوه المخلوق ، وقالوا: «القرآن كلامُ الله ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، وإثارة هذه المسألة بدعة ، لم يَقُلها النبي ﷺ ولا صحابته ، فلا نُتابعكم في السَّير فيها ، ولا نتابعكم في الجدال أو الخصومة ، ونقف عند قولنا: القرآن كلام الله ، وهذا فقط هو ما قال الله في قرآنه الكريم».

إنَّهم كانوا يعتقدون أن الكلام في هذا لا يصح ، ولا يصح أن يَصلَ إلى العامة ، فإذا قلنا لهم «القرآن مخلوق» لم يبق في نفوسهم إلا شيء واحد ، وهو عدم التقديس والإجلال ، وهذا يدعو إلى ضعف العقيدة ، والاستهانة بالقرآن ، وقد يجلب بعض القائلين إلى أن يعتقدوا ـ كما ظهر في بعض

---

(١) ضحى الإسلام: ج٣ ، ١٦٥.

الأوساط ـ أنَّ المعاني من الله ، وإنما عبّر الرسول عنها بلفظِه وعبارته[١] .

أمّا المعتزلةُ فرأوا ـ بحُكم العقلية التي نشؤوا عليها ـ أنَّ المطالبة بهذه العقيدة فرضٌ مُحتَّمٌ ، لا يصحُّ العدول عنه ، ولا يَسعُ الحكومة التي تدين بالإسلام ، وتحمي عقيدة التوحيد ، أن تُداهن أو تتساهل في تنفيذ هذه العقيدة وأخْذِ الناس بها، يمثّل هذه الفكرة وهذه النفسية خيرَ تمثيلٍ ما جاء في كتاب المأمون:

«قد عظَّمَ هؤلاء الجهلة (القائلون بأن القرآنَ كلامُ الله غير مخلوق) بقولهم في القرآن الثَّلْم في دينهم ، والجَرْح في أمانتهم ، وسهَّلوا السبيلَ لعدوِّ الإسلام. . . ووصفوا خلقَ الله وفِعله بالصفةِ التي هي لله وحده ، وشبَّهوه به. . . . وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظّاً في الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين».

وهكذا رأى المعتزلةُ أنَّ الإسلام يتركّز في الاعتقاد بخلق القرآن ، وحملوا رأسَ الحكومة الإسلامية ـ المأمونَ بنَ الرشيد العباسي ـ على حمل المسلمين على هذه العقيدة ، فحمل الناس عليها سنة ٣١٨هـ ، وبدأ ذلك بإرسال كتاب إلى والي بغداد ، إسحاق بن إبراهيم ذكر فيها: «إنَّ خليفة المسلمين واجبٌ عليه حفظ الدين وإقامته والعمل بالحقِّ في الرعية ، وذكر أن القائلين بقِدم القرآن والمنكرينَ لخلقه «شَرُّ الأمة ورؤوسُ الضلالة المنقوصون من التوحيد. . . وأَحقُّ من يُتَّهم في صِدقه وتُطرح شهادته ، ولا يُوثق بقولِهِ ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد.

وأمرَه بجمعِ الناس وامتحانِهم في هذه العقيدة ، وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها».

---

(١) إذا شئتَ الاطلاع على مذاهب المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة في هذه المسألة ودلائلهم، فاقرأ «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للشيخ نعمان الآلوسي البغدادي.

وهكذا بَدأتْ هذه الفتنةُ التي تسمَّى في التاريخ «بالمحنة» وكان ذلك قبل وفاة المأمون بأربعة أشهر.

احتضنتِ الدولةُ العباسيةُ الكبرى في عهد ملك من أقوى ملوكها، وأعظمهم شأناً وسلطاناً عقيدةً لا يَفهمها العامة، ولا يُوافق عليها الشعب، وفرضَتْها على الجمهور، وجعلتها فارقاً بين الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد، وأمرتْ بإقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها، وامتحانه وتعذيبه، فكانت محنةً عظيمة على الأمة، وفكرة فلسفية ضاقَ عنها تفكير العامة، وضاقت بها نفوسهم، لأنها تطلب مستوى علمياً راقياً، وإلماماً بالفلسفة وذكاءً، والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب.

يُعجبني في ذلك ما قال الأستاذ أحمد أمين، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهَتهم - على ذكائهم - في هذا الشأن:

«كان عقلُ المعتزلة عقلاً حادّاً جافاً فلسفياً، وأضعفُ نقطة فيه أنَّه يراد أن يُفرض على العامة فرضاً، يُراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض، والكميَّة والكيفية، والمحدود واللامحدود، والوحدة والتعدُّد، والمكان والجهة، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط، ولا أدري إن كان ذلك في مصلحة الإنسانية أو لا»[1].

ولكنْ قد كان ذلك، فقد صدرتْ من الخليفة كتبٌ وامتُحِن ناسٌ، وعُزل ناس، وكانت هذه المسألة الفلسفية شُغل الدولة والخليفة، وشُغل الناس الشاغل، ووقع الناس في بلاء عظيم، وفي حيرة عظيمة، ولم يدروا كيف يفعلون! مسألة لا يفقهونها ولا يُسيغونها ولا يُوافق عليها من يعتقدون فيه الصلاح والنزاهة والتقوى وفهمَ الكتاب والسنة، تُفرض عليهم فرضَ الجباية، ويُمتحن فيها علماؤهم، ويُعزل فيها قضاتهم، ويسقط فيها شُهودهم.

(١) ضحى الإسلام: ج ٣، ص١٢.

لقد كانت السُّنةُ بل الأمةُ بحاجة مُلِحّة إلى الإرشاد والتوجيه ، وإنْ شئتم قلتم إلى الزعامة الدينية ، وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى إمام يثقون بدينه وأمانته وفقهه ، يعارض هذا التيار ويقف في وجه الحكومة مُدافعاً عن السنة ، جاهراً بالحق ، محتملاً للأذى ، صابراً على البلاء ، ولا بد أن تكون شخصية قوية معروفة تتمتع بالإجلال والتقدير.

لقد ظهرتْ هذه الشخصيةُ التي يصبح صاحبها «زعيم المعارضة» وحامل لواء السنَّة ، وهي شخصيةُ أحمد بن حنبل.

أحمدُ بنُ حنبل:

هو أحمد بنُ محمد بنِ حنبل بن هلال ، الإمام أبو عبد الله ، الشَّيبانيُّ الذُّهليُّ.

نَشَأَتُه ودِراسته:

وُلد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، جِيء به حَمْلاً من مرو ، ووُلد في بغداد ، وتُوفي أبوه محمدٌ شاباً ، فوليته أمه[1].

نسبه عربيٌّ ، وهو شيبانيٌّ في نسبه لأبيه وأمه ، وقد عُرفت هذه القبيلة بالهِمة والإباء وشِدة الشكيمة والصلابة ، وكان منها المثَنَّى بنُ حارثة ، القائد الإسلامي المعروف ، انتقل جدُّه إلى خراسان ، وكان والياً على سَرخس ، في العهد الأموي ، وناصرَ الدعوة العباسية عند ظهورها ، وأُوذي في هذا السبيل ، وكان أبوه قائداً كما ذكر الأصمعي.

تَرَكَ له أبوه عقاراً ببغداد لا يقوم بنفقات الأسرة ، فنشأ على الصَّبر والقَناعة والكَفاف.

حَفِظَ أحمد بن حنبل القرآن في صباه ، وتعلَّم القراءة والكتابة ، ثم اتَّجه

---

(١) ترجمة الإمام أحمد من «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي ص ١٠.

إلى الدِّيوان يُمرِّن على التحرير ، ويقول في نفسه : «كنتُ وأنا غُلَيم أختلفُ إلى الكُتَّاب ، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة» .

وكانت نشأتهُ فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : «وأنا أنفق على ولدي وأجيئُهم بالمؤدِّبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم! انظروا كيف؟! وجعل يعجَب من أدبه وحسن طريقته»[١] .

وكان عمُّه يُرسِل رسائل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد، ليُعلِمَ بها الخليفة، وقد أرسلها مرةً مع ابن أخيه ، أحمد بن حنبل ، فتورع عن ذلك ، ورمى بها الماء تأثُّماً من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضَررٌ بالمسلمين ، ولقد لفت هذا الورع وهذه النَّجابة كثيراً من أهل العلم والفراسات ، حتى قال الهيثمُ بن جميل : «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجةً على أهل زمانه» .

واتَّجَهَ أحمدُ بن حنبل إلى الحديث ، ورُوي عنه أنه قال : «أوَّلُ من كتبتُ عنه الحديث أبو يوسف» وبقي يتلقى الحديثَ ببغداد من سنة ١٧٩هـ إلى سنة ١٨٦هـ ولزم عالماً كبيراً من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات ، وهو هُشيم بنُ بشير بن أبي حازم الواسطي(١٨٣) وسمعَ عبد الرحمن بن مهدي وأبا بكر بنَ عياش .

وكان في طلبه للعلم مثالَ الجد و الحرص والنشاط ، فقد ذكر عن نفسه : «كنتُ ربما أردتُ البُكور في الحديث ، فتأخذُ أمي بثيابي ، حتى يُؤذِّن الناس ، أو حتى يُصبحوا» .

رَحَلَ أحمد سنة ١٨٦ إلى البصرة ، ثم رحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، وإلى الكوفة ، وضاقتْ نفقتُه عن الرحلة إلى الرّي ، قال : «لو كان عندي خمسونَ درهماً لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد»[٢] .

وفي سنة ١٨٧ التقى في رحلته إلى الحجاز مع الشافعي ، وأخذ عنه

---

(١) أحمد بن حنبل : محمد أبو زهرة ، ص١٨ .

(٢) ترجمة الإمام أحمد : ص ١٢ .

الفقه وأصوله ، وعلمَ الناسخ والمنسوخ ، ولقي الشافعي بعد ذلك ببغداد ، وقد حرَّر الشافعيُّ فقهه ، ونضَج أحمد في الحديث وعلم الرواية ، حتى كان الشافعيُّ يقول له : «إذ صحَّ عندكمُ الحديثُ فأعلِمْني به» .

ويدُلُّ على عُلُوِّ همته في طلب العلم قصةٌ يرويها ولدُه صالح، قال: «عزم أبي على الخروج إلى مكة ، ورافقَ يحيى بن معين ، فقال أبي : نحجُّ ونمضي إلى صنعاء إلى عبد الرَّزاق [1]، قال: فمضينا حتى دخلنا مكة ، فإذا عبد الرزاق في الطواف ، وكان يحيى يعرفه ، فطُفنا ثم جئنا إلى عبد الرزاق ، فسلَّم عليه يحيى ، وقال: هذا أخوك أحمد بن حنبل ، فقال: حياه الله إنه ليبلُغني عنه كل ما أُسَرُّ به ، ثبَّته الله على ذلك ، ثم قام لينصرف ، فقال يحيى[2] : ألا نأخذ عليه الموعد؟ فأبى أحمد وقال: لم أُغيِّر النيةَ في رحلتي إليه أو كما قال ، ثم سافر إلى اليمن لأجله ، وسمع عنه الكتب وأكثر عنه»[3] .

واستمرَّ على هذا الجدِّ والطلب حتى بلغ مبلغَ الإمامة في الحديث .

قال عبد الله بن أحمد: سمعتُ أبا زُرْعة يقول: «كان أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث ، فقيل له: وما يُدريك؟ قال: ذاكرتُه، فأخذت عليه الأبواب»[4] .

وقال إبراهيم الحربي[5]: «رأيتُ أحمد كأنَّ الله جمعَ له علم الأولين والآخرين» .

---

(١) [هو عبد الرزاق همام بن نافع الحميري الصنعاني ، من حفَّاظ الحديث الثقات ، صاحبُ مصنَّفٍ معروف ، توفي عام ٢١١ هـ].

(٢) [هو يحيى بن معين ، من أئمّة الحديث ومؤرِّخِي رجاله ، نعته الذهبيُّ بسيِّد الحفَّاظ. وقال الحافظ ابن حجر: إمام الجرح والتعديل ، توفي بالمدينة حاجاً عام ٢٣٣ هـ].

(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص ١٢ .

(٤) المصدر السابق: ص ١٣ .

(٥) [هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحربي ، من أعلام المحدِّثين ، تفقَّه على الإمام أحمد ، توفي عام ٢٨٥ هـ].

قال أبو عبيدة: «ما رأيتُ رجلاً أعلم بالسنَّة من أحمد».

وكان مع ذلك معجباً بالشافعي ، كثير الإجلال له ، يقول: «ما رأتْ عيناهُ مثله» وقد استفاد منه في الفقه والاستنباط ، واعترَف بذكائه الباهر ، وقُوَّة قياسه.

وكان الشافعيُّ معجباً به حتى قال: «خرجتُ من بغداد وما خلّفتُ بها أفقه وأتقى من ابن حنبل».

وجلسَ أحمدُ للتدريس والفتيا ، وقد بلغ الأربعين ، فوافَق السُّنة ، ووافق في نشر علم النبوة سِنَّ النبوة ، وكان إقبالُ الناس على مجالسه عظيماً ، فقد ذُكر أن عددَ من كانوا يستمعون إلى درسه نحوُ خمسةِ آلاف ، وأنه كان يكتب فيهم نحو خمسِمئة[1].

وكانتْ مجالسُه تمتاز بالوقار والسكينة وحُسن الإنصات وإجلال العلم، وكانت بعيدةً عن الدُّعابة والهزل وكل ما يُذهب رواء العلم وروعة الدين، وكان للفقراء تقديمٌ على الأمراء والأغنياء، نقل الذهبيُّ عن المَرْوَذيِّ قال: «لم أر الفقيرَ في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مُقصراً عن أهل الدنيا.

وكان فيه حِلمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثيرَ التواضع، تعلُوه السَّكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلمُ حتى يسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصَدَّر، يقعد حيث انتهى به المجلس»[2].

سِيرتُه وأخلاقُه:

كانتْ حياةُ أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حياةَ زهد وقناعة وتوكل ، وكان على قدم السلف الصالح ، وأصحاب العزيمة من الطراز الأول ، وكان ذلك

(١) ابن حنبل نقلاً عن «المناقب» لابن الجوزي ص ٣١٠.
(٢) ترجمة الإمام أحمد: ص ٣٥.

عن اختيار لا عن اضطرار ، فلم يقبلْ هدايا الخلفاء والسلاطين وصلاتهم ، وكان يتعافاها «فقد خلف له أبوه طُرُزاً[١] ، وكان يأكلُ من غلَّة تلك الطُرز ، ويتعفَّف بكِرائها عن الناس»[٢] وإذا وجد خصاصةً حمل حَبله على عاتِقه ، وذهبَ فجمع بقايا الزرع الذي يُترك في الأرض ، وهو في حكم المباح فالتقطه.

وقد كان في بعض الأحيان يُؤجّر نفسه للحمْلِ في الطريق ـ وهو إمام المسلمين يومئذ ـ وكان في بعض الأحيان يكتُب بأجرة ، تقول أمُّ ولده: «كان إذا لم يكن عند مولاي (أحمد بن حنبل) شيءٌ فرح يومه ذلك».

وقد ابتُلِي في أيام المتوكل بالإقبال والصِّلات والجوائز ، كما ابتُلي في أيام المعتصم بالتَّعذيب والصرم والقسوة ، وكان في كليهما صابراً عفيفاً نزيهاً ، وكانتِ الآخرة أشدَّ عليه من الأولى.

وقد ثَبَتَ على عفافه وزُهده وعُزوفه عن أموال السلطان ، وله في ذلك أخبارٌ غريبة.

منها ما رواه حنبل قال: «بينا نحن جلوسٌ بباب الدار إذا يعقوب ـ أحدُ حُجّاب المتوكل ـ قد جاء، فاستأذن على أبي عبد الله ، فدخلَ ودخل أبي وأنا ومع بعض غِلمانه بَدْرَةٌ على بَغْلٍ ، ومعه كتابُ المتوكل ، فقرأه على أبي عبد الله: «أنه صحَّ عند أمير المؤمنين براءةُ ساحتك وقد وجَّه إليك بهذا المال تستعين به». فأبى أن يقبله ، فقال: ما لي حاجة ، فقال: يا أبا عبد الله اقبلْ مِن أميرِ المؤمنين ما أمرك به ، فإن هذا خيرٌ لك عنده. فاقبل ولا تردُّه ، فإنَّك إن رَدَدْتَه خفتُ أن يظن بك سوءاً. فحينئذ قبلها. فلما خرج قال: يا أبا علي قلت: لبيك ، قال: ارفع هذه الإجانة وضَعْها (يعني البدرة تحتها) فوضعتُها وخرجنا.

---

(١) الطرز: جمع طراز ككتاب وكتب، والطراز: الموضع الذي تنسج فيه الثياب.

(٢) المناقب: لابن الجوزي.

فلمّا كان من الليل إذا أمُّ ولد أبي عبد الله تدقُّ علينا الحائط ، فقلت لها : مالك؟ قالت : مولاي يدعو عمَّه . فأعلمتُ أبي ، وخرجنا فدخلنا على أبي عبد الله ، وذلك في جَوف الليل . فقال : يا عمِّ ما أخذني النومُ هذه الليلة . فقال له أبي : ولم؟ قال : لهذا المال . وجعل يتوجَّع لأخذه . وجعل يُسكِّنه ويُسهِّل عليه . فقال : حتى تُصبح وترى فيه رأيك ، فإنَّ هذا ليلٌ ، والناس في منازلهم ، فأمسكَ وخرجنا .

فلمَّا كان في السَّحَر ، وجَّه إلى عَبدوس بن مالك والحَسن بن البَزار ، فحضرا وحضر جماعة ، منهم هارون الجمال وأحمد بن مَنِيع ، وابن الدَّورقي وأنا ، وأبي وصالح ، وعبد الله فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها إلى أبي سعيد الأشَجِّ وأبي كُرَيْب ، وإلى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمون أنه محتاج ، ففرَّقها كلها ، ما بين الخمسين والمئة والمئتين . فما بقي في الكيس درهم ، ثم تصدَّق بالكيس على مسكين .

وقد أَقام أحمدُ بن حنبل في عسكر المتوكل في ضيافته ، وتعفَّف عن طعامه وأمواله . قال ابنه صالح : نزلنا في (عسكر المتوكل) في دار التَّيَّاح ، ولم يعلم أبو عبد الله ، فسأل بعد ذلك : لمن هذه الدار؟ قالوا : هذه دارٌ أنزلكها أمير المؤمنين . قال : لا أَبيتُ هاهنا . قال أبي : فلم نزلْ حتى اكترَينا له داراً . وكانت تأتينا في كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل ، والفاكهةُ والثلج وغير ذلك . فما نظر إليها أبو عبد الله ولا ذاقَ منها شيئاً . وكانت نفقةُ المائدة كل يوم مئة وعشرين درهماً[١] . قال : ومكثَ خمسة عشر يوماً يُفطر في كل ثلاث على ثُمن سَويق . ثم جعل بعد ذلك يُفطر ليلةً على رغيف ، وليلةً لا يُفطر ، وكان إذا جيء بالمائدة تُوضع بالدهليز لئلا يراها[٢] .

(١) ترجمة الإمام أحمد : ص ٦١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٦٦ .

ولمَّا رجع إلى الدار نزع الثيابَ. وكانت قد خُلعت عليه ثم جعل يبكي فقال: «سَلمتُ من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بُليت بهم. ما أحسبني سلمتُ في دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجبُ عليَّ نصحه من وقت تقعُ عيني عليه إلى أن أخرج من عنده! يا صالح وجِّه بهذه الثياب إلى بغداد ستُباع ويُتصدق بثمنها، ولا يشترِ أحدٌ منكم شيئاً»[1].

وقال حنبل: كان في حياته ربَّما استعار الشيء من منزلنا ومنزل ولده. فلما صار إلينا من مال السلطان ما صار، امتنع عن ذلك. حتى وُصف له في علته قَرعةٌ تُشوى ويؤخذ ماؤُها، فلما جاؤوا بالقرعة. قال بعضُ من حضر: اجعلوها في تنُّور يعني في دار صالح فإنهم قد خبزوا. فقال بيده: لا!.

وكان لا يرى حُرمةَ هذه الأموال، ولكنه يرى أنها أُخذت من غير حِلٍّ وقد تعلَّقت بها حقوق المسلمين وقلوبهم. فكان يتحاشى أخذها ويتأثَّم من قبولها. وقد قال مرة لأولاده: «لمَ تأخذونَهُ والثغورُ معطلة غير مشحونة، والفَيء غيرُ مقسومٍ بين أهله؟»[2].

وقال مرَّة: «ماذا ننتظرُ؟ إنما هو الموت. فإمَّا إلى جنةٍ وإما إلى نار. فطُوبى لمن قدِم على خير»[3].

وقال له ولده: أليسَ قد أمرتَ ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس أن يَأخذها؟

قال: قد أخذتُ مرة بلا إشراف نفس. فالثانية والثالثة! فما بال نفسِك ألم تُشرف؟

قال فقلت: ألم يأخذ ابنُ عمر وابن عباس؟ قال: ما هذا وذاك! وقال: لو أعلم أن هذا المال يُؤخذ من وجهه، ولا يكون فيه ظُلم ولا حَيْفٌ لم أُبال».

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٦.
(٢) المناقب: ص: ٣٨٤.
(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٢.

وهنا نَقِفُ وقْفةً قصيرة ونتساءل: لم كان هذا التشديد من أحمد؟ ولماذا هذه المغالاة؟ وأقول: لولا هذه الصَّرامة، ولولا هذا التدقيق في الزُّهد والعزوف عن أموال السلطان، ولولا هذه المحافظة الشديدة على منهج الحياة الذي التزمه أحمدُ بن حنبل، لما استطاع أن يستعصي على هذه الدولة القوية، وأن يُفلت من حبالها، ولما استطاع أن يُمثِّل هذا الدورَ الرائع في تاريخ الإصلاح والتجديد والدفاع عن الدين، وأن يُؤثِّر في عقول الناس وقلوبهم هذا التأثير العظيم، وأن يقف طوداً شامخاً، وجبلاً راسياً، في هذه التيارات التي تجرِف الرجال وتُحرِّك الجبال.

ثم إنَّه بهذا الزهد والتوكُّل على الله استفاد قوة روحية، وصِلةً عميقة بالله، وإنابة إليه، استحقَّ بها النصر، وتغلَّبَ على نزوات النفس وشهَواتها.

قد رأينا الزُّهدَ والتجديدَ مترافقين في تاريخ الإسلام؛ فلا نعرفُ أحداً ممن قلَب التيار، وغيَّر مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلَّف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظلَّ قروناً يؤثِّر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب إلا وله نَزعةٌ في الزهد، وتَغلُّبٌ على الشهوات، وسيطرةٌ على المادة ورجالها، ولعلَّ السِرَّ في ذلك أن الزُّهد يُكسب الإنسانَ قوَّةَ المقاومة، والاعتدادَ بالشخصية والعقيدة، والاستهانةَ برجال المادة، وبصَرعى الشهوات، وأَسرى المعدة.

ولذلك ترى كثيراً من العبقريِّين والنوابغ في الأمم، كانوا زُهاداً في الحياة، متمرِّدين على الشهوات، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم، ولأنَّ الزُّهد يثير في النفس كوامن القوة، ويُشعل المواهب، ويُلهب الروح. والدَّعةُ، والرخاوةُ تُبلِّد الحِسَّ، وتُنيم النفس، وتُميتُ القلب.

وهناك تعليلاتٌ أخرى يوافق عليها علمُ النفس وعلم الأخلاق، ولا أُطِيل بذكرها، وأَقتصِرُ على هذه الملاحظة التاريخية، وأُلِحُّ على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلبُ لا محالة زُهداً وترفعاً عن المطامع وسفاسف

الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الرَّخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافةٌ للرسول الأعظم ﷺ وقد قيل له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] وأمر بأن يقول لأزواجه : ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] .

وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وأرجعُ إلى الحديث إلى حديث أحمد بن حنبل فأقول: قد كان ـ مع هذه الزَّهادة وخَصاصة العيش ـ جواداً سَمْحَ النفس ، يقول: «يُؤكل الطعام بثلاث ، مع الإخوانِ بالسُّرور ، ومع الفُقراء بالإيثار ، ومع أبناء الدنيا بالمُروءة» .

ويقول: «لو أنَّ الدنيا تَقِلُّ حتى تكون في مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤٌ مسلم ، فوضعها في فمِ أخيه المسلم ، ما كان مسرفاً »[١] .

وكان كثيرَ العفو عمَّن يُسيء إليه ، أَغلظَ له رجلٌ الكلام وتركه مغاضباً ثم عاد إليه نادماً ، وقال له مُعتذراً: يا أبا عبد الله إنَّ الذي كان مني على غير تَعمُّدٍ ، فأنا أحب أن تجعلني في حِلٍّ.

فقال أحمد: «ما زالتْ قدماي من مكانها حتى جَعلتُك في حِلٍّ»[٢] وقد عَفا عن كل من أساء إليه ، أو تسبَّب في عقوبته ومحنته ، وجعلَهم في حِلٍّ ، وقال: ما على رجل ألا يُعذِّب اللهُ بسببه أحداً[٣] .

وقال حنبل بن إسحاق: سمعتُه يقول: كلُّ مَن ذكرني في حِلٍّ إلا مبتدعٌ ، وقد جعلتُ أبا إسحاق ـ يعني المعتصم ـ في حِلّ ، ورأيت الله تعالى يقول:

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٦٢.
(٢) ابن حنبل: ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٣) المصدر السابق: : ص ٨٥.

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النور: ٢٢] (١).

وكان مع هذه الفضائل التي أوسعهُ الله بها متواضعاً لله ، مُتطامناً للناس ، ولا يَفتخر في شيء.

قال يحيى بن مَعِيْن: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل ، صَحِبتُه خمسين سنةً ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الفلاح والخير(٢).

وقال غارم أبو النعمان: وضع أحمدُ عندي نفقَته ، فكان يجيء فيأخذ منها حاجته ، فقلت له يوماً: يا أبا عبد الله بلغني أنَّك من العرب.

فقال: يا أبا نعمان نحن قومٌ مساكين ، فلم يزل يُدافعني حتى خرج ولم يقل شيئاً(٣).

وقد وضَعَ الله له القبول في قلوب العباد ، وطارَ ذكره في الآفاق ، ودعا له المسلمون ، وتقرَّبوا بحُبّه إلى الله ، وهو يخاف على نفسه من الاستدراج ، قال المَرْوَزِيُّ: قلتُ لأبي عبد الله: ما أكثر الداعي لك! قال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً ، بأي شيء هذا؟

وقلتُ لأبي عبد الله: إنَّ رجلاً قدم طَرسوس فقال لي: إنَّا كنا في بلاد الروم في الغزو ، إذْ هدأ الليل ، رفَعوا أصواتهم بالدعاء ادعُوا لأبي عبد الله وكنا نَمُدُّ المنجنيقَ ونرمي عنه ، ولقد رُمي عنه بحجر والعِلج على الحصن مُتقوسٍ بدَرقة ، فذهب برأسه وبالدرقة ، فتغيَّر وجههُ وقال: لَيته لا يكون استدراجاً، فقلتُ: كلا(٤).

وقد كانَ كثيرٌ من غير المسلمين يُجلُّونه ويَخضعون له ، ويعتقدون فيه الصلاح ، ويتبرَّكون بزيارته ، قال المروزيُّ: رأيتُ بعض النصارى الأطباء قد

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٥٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٥.
(٣) حلية الأولياء: ج٩ ، ص ١٨١.
(٤) ابن حنبل: ص ٢١.

خرج من عند أبي عبد الله ومعه راهبٌ ، فسمعتُ الطبيب يقول: إنه سألني أن يجيء معي حتى ينظرَ إلى أبي عبد الله.

وقال أيضاً: أدخلت نصرانياً على أبي عبد الله يُعالجه، فقال: يا أبا عبد الله إني أشتهي أن أراكَ منذ سنين ، ما بقاؤك صلاحُ الإسلام وحده ، بل للخلق جميعاً ، وليس في أصحابنا أحد إلا رضي بك ، قال المروزيُّ: فقلتُ لأبي عبد الله: إني لأرجو أن يُدعى لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر إذا عرف الرجل نفسَه فما ينفعُه كلام الناس[1]؟

وكان مع هذا التواضع مَهيباً وقُوراً ، وكان الناسُ مدفوعين إلى إجلاله وتهيُّبه شأنَ من «تواضع لله رفعه الله».

يقول أحدُ معاصريه: دخلتُ على إسحاق بن إبراهيم (نائب بغداد) وفلانٍ وفلانٍ من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرتُ إليه أكلمه في شيء ، فوقعت عليَّ الرِّعدة حين رأيته من هَيبته[2].

وفاتُه:

قال المَرْوَزِيُّ: مرض أبو عبد الله ليلةَ الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول ، ومَرِضَ تسعةَ أيام ، وكان ربَّما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجاً ، يُسلِّمون عليه ويردُّ عليهم بيده ، وتسامع الناسُ وكثروا. وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكَّل السلطان ببابه وببابِ الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزُّقاق فكان الناس في الشوارع والمساجد حتى تعطَّل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربَّما دخل من بعض الدُّور وطُرز الحاكة ، وربما تسلَّق.

وجاء أصحابُ الأخبار فقعدوا على الأبواب ، وجاءه حاجب ابن طاهر

---

(١) ابن حنبل: ص ٩١.
(٢) ترجمة الإمام أحمد: ص ٢٢.

فقال: إن الأمير يُقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك، فقال: هذا ممّا أكره، وأمير المؤمنين أعفاني ممّا أكره، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر، والبُرُد تختلف كلَّ يوم.

وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه، وجعلوا يبكون عليه.

وجاء قومٌ من القضاة وغيرهم، فلم يُؤذن لهم، ودخل عليه شيخ فقال: اذْكر وقُوفك بين يدي الله، فشهق أبو عبد الله، وسالتِ الدموع على خديه.

فلمّا كان قبل وفاته بيوم أو بيومين قال: ادعوا لي الصبيان ـ بلسان ثقيل ـ فجعلوا ينضمُّون إليه، وجعل يَشُمُّهم ويمسحُ بيده على رؤوسهم وعينُه تدمع، فقال له رجل: لا تغْتَمَّ لهم يا أبا عبد الله، فأشار بيده، فظننا أنَّ معناه: إنيْ لم أرد هذا المعنى.

وكان يصلِّي قاعداً ويصلي وهو مضطجع، لا يكاد يَفْتُر، ويرفع يديه في (إيماء الركوع) وأدخلت الطَّست تحته، فرأيت بوله دماً عبيطاً ليس فيه بول، فقلت للطبيب، فقال: هذا رجلٌ قد فتَّت الحُزْن والغَمُّ جَوفه، واشتدت علَّتُه يوم الخميس، ووضَّأتُه فقال: خَلِّل الأصابع، فلما كانت ليلة الجمعة ثَقُل، وقُبض صَدْر النهار، فصاحَ النَّاسُ وعَلَتِ الأصواتُ بالبكاء، حتى كأنَّ الدنيا قد ارتجَّتْ وامتلأت السِّكَكُ والشوارع[١].

قال المَرْوزيّ: أُخرجت الجنازَة بعد مُنصرف الناس من الجمعة، قال عبد الوهّاب الوثاق: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله، حتى بلغنا أن الموضع مُسح وحُزر على الصحيح، فإذا هو نحو من ألفِ ألفٍ، وحزرنا على القبور نحواً من ستين ألف امرأة، وفتحَ الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب ينادون: من أراد الوضوء.

وقال ابن إسحاق البغوي: حُزر من حضر جنازَة أحمد من الرجال ثمانمئة

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص٧٧ ـ ٧٨.

ألف ، ومن النساءِ ستين ألف امرأة[١] ، هذا سوى من كان في السفن في الماء[٢] .

وبهذا الاحتشاد العظيم في جنازته تَحقَّق ما أنبأ به بقوله : «قولوا لأهل البدع بيننا وبينكُم الجنائز»[٣] .

وكانت وفاته سنة ٢٤١هـ.

المِحنــةُ:

أصدَرَ المأمون سنة ٢١٨ ـ كما تقدَّم ـ رسالة إلى والي بغداد ، إسحاق بن إبراهيم أمر فيها بجمع القُضاة وامتحانهم في عقيدة خلق القرآن ، وعَزْلِ من لا يقول بذلك منهم ، وإسقاطِ شهادة من لاَ يراها من الشهود ، وأُرسلتْ منها صور إلى الأقطار الإسلامية.

ثم كتبَ إليه أن يرسل إليه سبعة من كبار المحدثين الذين عارضوا هذه العقيدة ، ففعل. وأجاب هؤلاء ، فأعادهم إلى بغداد ، وأمر الوالي أن يجمع الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث في داره ، ففعل ، وأجاب هؤلاء ، فخلَّى سبيلهم.

ثم أصدَرَ كتاباً ثالثاً غلَّظ فيه القول ، وضيَّق الأمر ، وأمر بالتوسع في امتحان الناس ، وامتثلَ الوالي أمرَه ، فأحضر مشاهيرَ العلماء ورؤوس الناس وامتحنهم ، وكانت إجاباتُ القوم مختلفةً ومضطربةً ، وحرَّر الوالي محضراً بجميع أقوال الممتحَنين ، وأرسلَ إلى المأمون وثار المأمون بقراءتِه ، واشتدَّ غضبه ، وعرَّض بهم وَاستخفَّ ، وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي إن لم يرجعا عن قولهما. وأمرَ بالعودة إلى امتحان هؤلاء ، فإن أصرُّوا فاحْملهم أجمعين مُوثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. . . . فإن لم يرجعوا

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٨٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٨١.
(٣) المصدر السابق: ص ٨١.

ويتولوا ، حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله».

وامتثَلَ الوالي أمر الخليفة ، وجمعهم ثانية ، وقرأ عليهم كتابَ المأمون ، فأقرُّوا جميعاً بأن القرآنِ مخلوق إلا أربعة: أحمد بن حنبل ، وسَجادة ، والقواريريُّ ، ومحمدُ بن نوح ، وأمر بهم فشُدوا في الحديد ، واعترفَ سَجادة بخلق القرآن، فأطلق سراحه ، وأجابَ القواريري بعد يومٍ آخر ، فأطلق سراحه ، وانحصر الأمر في اثنين: أحمد بنِ حنبل ، ومحمد بن نوح ، فشدَّهما في الحديد ووجَّههما إلى المأمون ، ثم أرسل البقية من الممتحَنين بأمر المأمون ، وبلغتهم وفاةُ المأمون وهو بالرَّقة ، فخلَّى والي بغداد سبيلَ أكثرهم ، ومات محمد بن نوح وهو عائدٌ إلى بغداد ، وهكذا تركزت رياسةُ المعارضة ـ كما يقول الدكتور أحمد أمين ـ في أحمدَ بن حنبل فكان زعيمَها وعَلَمَها ومتَّجه الأنظار فيها.

ووصَلَ أحمد بن حنبل إلى بغداد مقيَّداً، وحُبس في دار عمارة ببغداد، ثم حُوّل إلى سجن العامة ، ومكثَ في السجن نحواً من ثلاثين شهراً ، قال ابنُه حنبل: كنا نأتيه ، وقرأ عليَّ كتاب الإرجاء وغيرَه في الحبس ، ورأيتُه يصلي بأهل الحبْسِ وعليه القيد ، فكان يُخرج رجله من حَلقة القَيد وقت الصلاة والنوم.

أحمـدُ بنُ حنبلَ يحكـي قِصَّتَـه:

ويحكي أحمدُ بن حنبل قصته وما جرى له أيام المعتصم خليفة المأمون. وهي قصة البطولة الخالدة والإيمان الرائع ، فلنستمع إليه:

«فلمَّا كان في الليلة الرابعة وَجَّه ـ يعني المعتصم ـ ربيعاً الذي كان يقال له الكبيرُ أبو إسحاق ، فأمره بحَملي إليه ، فأُدخلتُ على إسحاق ، فقال: يا أحمد إنَّها والله نفسُك ، إنه لا يقتلُك بالسيف ، إنه قد آلى إن لم تُجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يقتُلك في موضع لا تُرى فيه شمس ولا قمرٌ. . . فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أُخرجت ،

وجِيء بدابة فحُملت عليها وعليَّ الأقياد ، وما معيَ أحد يُمسكني ، فكدتُ غير مرة أن أخِرَّ على وجهي لِثقل القيود ، فجِيءَ بي إلى دار المعتصم ، فأُدخلت حُجرة وأدخلتُ إلى بيت ، وأقفل الباب علي ، وذلك في جوف الليل ، وليس في البيت سراجٌ ، فأردت أن أتمسَّح للصلاة ، فمددتُ يدي فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأتُ وصليتُ.

فلمَّا كان من الغد أخرجت تِكتي من سراويلي وشددْتُ بها الأقياد أحملها ، وعطفتُ سراويلي ، فجاء رسول المعتصم فقال: أجب فأخذ بيدي وأدخلني عليه ، والتِّكة في يدي أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالسٌ ، وابن أبي دؤادَ حاضر ، وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه فقال لي ـ يعني المعتصم ـ: ادْنُه ، فلم يزل يُدنيني حتى قَرُبت منه ، ثم قال لي: اجلسْ فجلستُ ، وقد أثقلني الأقياد ، فمكثتُ قليلاً ، ثم قلت: أتأذن لي بالكلام؟ فقال: تكلم. فقلت: إلام دعا الله ورسولُه؟ فسكتَ هُنيهةً ، ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قلت: إن جدَّك ابن عباس يقول: لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان ، فقال: «أتدرون ما الإيمان؟» قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تُعطوا الخُمس من المغنم» ، قال أحمد: قال ـ يعني المعتصم ـ: لولا أني وجدتُك في يدِ من كان قَبلي ما عرضتُ لك.

ويذكُرُ أحمدُ بن حنبل ما جَرى بينه وبين علماء البلاط من الكلام والمناظرة ، ثم يقول: وجعل ابنُ أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين لئن أجابك لهَو أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار ومئة ألف دينار ، فيَعُد من ذلك ما شاء الله أن يَعُدَّ ، فقال المعصتم: والله لئن أجابني لأُطلقن عنه بيدي ولأَركبنَّ إليه بجندي ، ولأطَأَنَّ عَقِبه.

ثم قال: يا أحمد ، والله إني عليك لشفيق ، وإني لأشفقُ عليك كشفقتي على هارون ابني ، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله.

فلمَّا طال المجلسُ ضَجر وقال: قوموا، وحبَسني - يعني عنده - وعبدُ الرحمن بن إسحاق يُكلِّمني ، فقال المعتصم: وَيحك أجبني؛ فقال: ما أعرفك ، ألم تكن تأتينا؟ فقال له عبد الرحمن بن إسحاق: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة ، يَرى طاعتك والجهادَ والحج معك ، قال: فيقول: والله إنه لعالم ، وإنه لفقيه ، وما يَسوءني أن يكون معي يَرُدُّ عني أهل المِلَل ، ثم قال لي: ما كنتَ تعرف صالحاً الرشيدي؟ قلت: قد سمعت باسمه ، قال: كان مؤدِّبي ، وكان في ذلك الموضع جالساً - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألتُه عن القرآن فخالفني ، فأمرتُ به ، فوُطيء وسحب!

ثم قال: يا أحمد أجِبْني إلى شيء لك فيه أدنى فَرَج حتى أطلق عنك بيدي ، قلتُ: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله! فطالَ المجلس وقام ، ورُددتُ إلى الموضع الذي كنت فيه.

فلمَّا كان بعد المغرب ، وَجَّه إليَّ رجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد ، يبيتان عندي ويناظران ويقيمان معي ، حتى إذا كان وقتُ الإفطار جيء بالطعام ، ويَجتهدان بي أن أُفطر فلا أفعل ، ووجَّه إليَّ المعتصمُ ابنَ أبي دؤاد ، في بعض الليل ، فقال: يقول لك أمير المؤمنين ما تقول؟ فأردُّ عليه نحواً مما كنت أرد ، فقال ابن أبي دؤاد: والله لقد كُتب اسمُك في السبعة ، يحيى بن معين وغيره ، فمحوتُه ، ولقد ساءني أخذُهم إياك ، ثم يقول: إن أمير المؤمنين قد حلَف أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يُلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس ، ويقول: «إن أجابني جئتُ إليه حتى أطلق عنه بيدي ، وأنصرِف».

«قال: فلمَّا كان في الليلة الثالثة قلتُ: خليقٌ أن يحدث غداً من أمري شيءٌ ، فقلت لبعض من كان معي ، الموكَّل بي: ارْتَدْ لي خيطاً فجاءني بخيط فشددتُ به الأقياد ورَددتُ التِّكةَ إلى سراويلي مخافةَ أن يَحدُث من أمري شيء فأتعرّى ، فلما كان من الغد في اليوم الثالث وجَّه إلي ، فأُدخلت فإذا الدار غاصَّة ، فجعلت أدخُل من موضع إلى موضع ، وقومٌ معهم السيوف ، وقومٌ معهم السياط وغير ذلك ، ولم يكن في اليومين الماضيين كبيرُ عددٍ من هؤلاء ،

فلما انتهيتُ إليه ، قال: اقعد ثم قال: ناظِروه! كلِّموه! فجعلوا يناظروني ، ويتكلم هذا فأردُّ عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعلَ صوتي يعلو أصواتهم ، فجعل بعضُ من على رأسه قائمٌ يومىء إلي بيده ، فلما طال المجلس نحّاني ثم خلا بهم ، ثم نحّاني وردّني إلى عنده ، فقال: ويحك يا أحمد أجبني حتى أُطلق عنك بيدي. فرددتُ عليه نحواً مما كنت أرد ، فقال لي: عليك ـ وذكر اللعن ـ وقال: خُذوه واسحبوه واخلعوه، قال: فسُحِبت ثم خُلعت.

قال: وقد كان صار إليَّ شَعر من شَعَر النبي ﷺ في كُمِّ قميصي، فوجَّه إليَّ إسحاق بن إبراهيم: ما هذا المصرور في كم قميصك؟ قلت: شعر من شَعَر رسول الله ﷺ . وقال: وسعى بعضُ القوم إلى القميص ليخرقه عليَّ ، فقال لهم ـ يعني المعتصم ـ: لا تخرقوه! فنزع القميص عني ، قال: فظَننتُ أنه إنما درأ عن القميص الخَرق بسبب الشَّعَر الذي كان فيه ، قال: وجلس المعتصم على كرسي ، ثم قال: العقابين والسياط؛ فجيء بالعقابين ، فمُدَّت يداي ، فقال بعض من حضر خلفي: خُذ نأَي الخشبتين بيديك ، وشُدَّ عليهما ، فلم أفهم ما قال، فتخلَّعت يداي.

ولمَّا جيء بالسياط نظر إليهم المعتصم وقال للجلَّادين: تقدموا فجعل يتقدم إليَّ الرجل منهم فيضربني سوطين ، فيقول له: شد قطع الله يدك ، فلما ضُربتُ تسعة عشر سوطاً قام إلي ـ يعني المعتصم ـ وقال: يا أحمد علامَ تقتلُ نفسك؟إنِّي والله عليك لشفيق ، قال: فجعل عُجيف ينخسني بقائمة سيفه ، وقال: أتريد أن تَغلبَ هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضُهم يقول: ويلَك! الخليفة على رأسك قائم!وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمُه في عنقي ،اقتُله ! وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم ، وأنتَ في الشمس قائمٌ. فقال لي: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ، فرجَع وجلس ، وقال للجلَّاد: تقدم وارجع قطَع الله يدك؛ ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد! أجبني فجعلوا يُـقبِلون علي ويقولون: يا أحمدُ إمامُك على رأسك قائمٌ ، وجعل عبد الرحمن يقول: مَنْ صنع من

أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: ويحك أجِبْني إلى شيء لك فيه أدنى فرَج حتى أُطلق عنك بيدي؟فقلت: يا أمير المؤمنين؟ أعطوني شيئاً من كتاب الله ، فيرجع ، وقال للجلادين: تقدموا فجعل الجلّاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحىّ ، وهو في خلال ذلك يقول: شُدَّ قطع الله يدك ، قال أبي: فذهب عقلي ، فأفقتُ بعد ذلك فإذا الأقيادُ قد أُطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كَبَبْناك على وجهك ، وطرحْنا على ظهرك بارية ودُسناك قال أبي: فما شعرت بذلك ، وأتَوني بسَويق ، فقالوا لي: اشربْ وتقيأ. فقلت: لا أفطر.

ثم جِيء بي إلى دار إسحاقَ بن إبراهيم ، فحضَرَتْ صلاةُ الظهر ، فتقدم ابنُ سماعة فصلَّى ، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليتَ والدَّم يسيلُ في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجُرحه يَـثعَب دماً»[1].

ويقول ابنُه صالح: «ثم خُلِّيَ عنه فصار إلى منزله ، وكان مُكثه في السجن مُنذ أخذ وحمِل إلى أن ضُرب وخُلِّيَ عنه ثمانيةَ وعشرين شهراً.

ولقد أخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه قال: يابن أخي رحمةُ الله على أبي عبد الله، والله ما رأيتُ أحداً يُشبهه ، ولقد جعلتُ أقول في وقتٍ ما يُوجَّهَ إلينا بالطعام: يا أبا عبد الله أنتَ صائم ، وأنت في موضع تَقيَّة ، ولقد عطشت ، فقال لصاحب الشراب: ناولني؛ فناوَله قدحاً فيه ماء وثلج ، فأخذه ونظر إليه هنيهة ، ثم ردَّه ولم يشرب ، فجعلتُ أعجب من صبره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهَول.

قال صالحٌ: كنت أَلتمسُ وأحتال أن أوصل إليه طعاماً أو رغيفاً في تلك الأيام فلم أقدِر. وأخبرني رجلٌ حضره ، أنه تفقده في هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه ، فما لَحَن في كلمة ، قال: وما ظننتُ أن أحداً يكون في مثل شجاعته وشدّة قلبه.

---

(١) ترجمة الإمام أحمد: ص ٤٨ ـ ٤٩.

وهكذا تنتهي هذه القصةُ التي لا تزال حُجَّةَ بُطولة الإمام أحمد ، وقوَّة العقيدة وعجائِب صنع الإيمان ، وقد كان من ثبات ابن حنبل وشجاعته وإخلاصه أنِ انطفأتْ عقيدة خلق القرآن ، وانطفأتْ معها حركةُ الاعتزال حتى بقيت مدفونة في كتب الملل والنحل وعلمِ الكلام .

وانتصر أحمدُ بن حنبل بإيمانه وشجاعته ، وكان انتصارُه دليلاً على انتصار الإخلاص والعزم على القوة والدولة والمعارضات الشديدة والعقوبات الموجعة ، وانهزمتْ حكومةٌ هي من أقوى الحكومات وأوسعها في عصرها ، وانهزم معها كلُّ مَن التف حول رايتها من أهل العلم والجدل والذّكاء والمناصب والرياسات .

وكان المعتزلة ولو انتصروا في المحنة فاستطاعوا ـ بسيطرتهم العملية والسياسية على البلاط ـ أن يُعاقبوا منافسيهم ورئيسَ الحزب الذي يُعارضهم بما شاؤوا ، وينفذوا فيه إرادتهم ولكنهم خسروا دولتهم ، وفَقدوا سلطانهم ، وقَطعوا الصِّلَة بينهم وبين الشعب ، فقد كَرهھم من ذلك اليوم كراهةً شديدة ، وانصرفت القلوب عنهم ، ولم يزل نجمُهم في أفول حتى غرب من غير رجعة ، قال الدكتور أحمد أمين : «ولم يستردَّ المعتزلة سُلطتهم يوماً ما بعد المحنة»[١] .

وخَرَجَ أحمدُ بن حنبل من هذه المحنة خروجَ السَّيف من الجلاء ، والبدر من الظلماء ، وكان كما قال بعض معاصريه : «أُدخل الكير فخرج ذهباً أحمر» ولم يزَل بعد ذلك اليوم في صعود واعتلاء ، حتى تواضعتِ القلوب على حبه ، وأصبح حُبّه شعارَ أهل السنة وأهلِ الصلاح ، حتى نُقل عن أحد معاصريه قتيبةَ أنَّه قال : «إذا رأيتَ الرجل يُحِب أحمدَ بن حنبل فاعلم أنه صاحبُ سنة»[٢] .

وقال أحمد بن إبراهيم الدَّورقي : «من سمعتموه يذكرُ أحمد بن حنبل بسوء

(١) ضحى الإسلام : ج٣، ص ٢٠١ .
(٢) ترجمة الإمام أحمد : ص ١٦ .

فاتهموه على الإسلام»[١] وقال شاعر[٢]:

أَضْحى ابنُ حَنْبلَ مِحنَةً مأمونةً وبِحُبِّ أَحمد يُعرَفُ المُتَنسِّكُ

وإذا رأيتَ لأحمد مُتنقِّصاً فاعلَمْ بأن سُتورَه سَتُهتَّكُ

وقد اعترف معاصروه بأنَّ غَناءه للإسلام، وفي الدفاع عن القرآن كان عظيماً، وأنه سَدَّ ثُلمة عظيمة كادتْ تَحدُث في الإسلام، وشبَّهوا يوم المحنة بيوم الرِّدة، وقرنوا ذكرَ أحمد بن حنبل بذكر أبي بكر الصديق، وكفى به عظمةً!

قال عليُّ بن المَدِيني، أحدُ أئمَّة الحديث في عصره، ومن شيوخ البخاري: «إنَّ الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يومَ الرِّدة، وبأحمدَ بن حنبل يوم المِحنة»[٣].

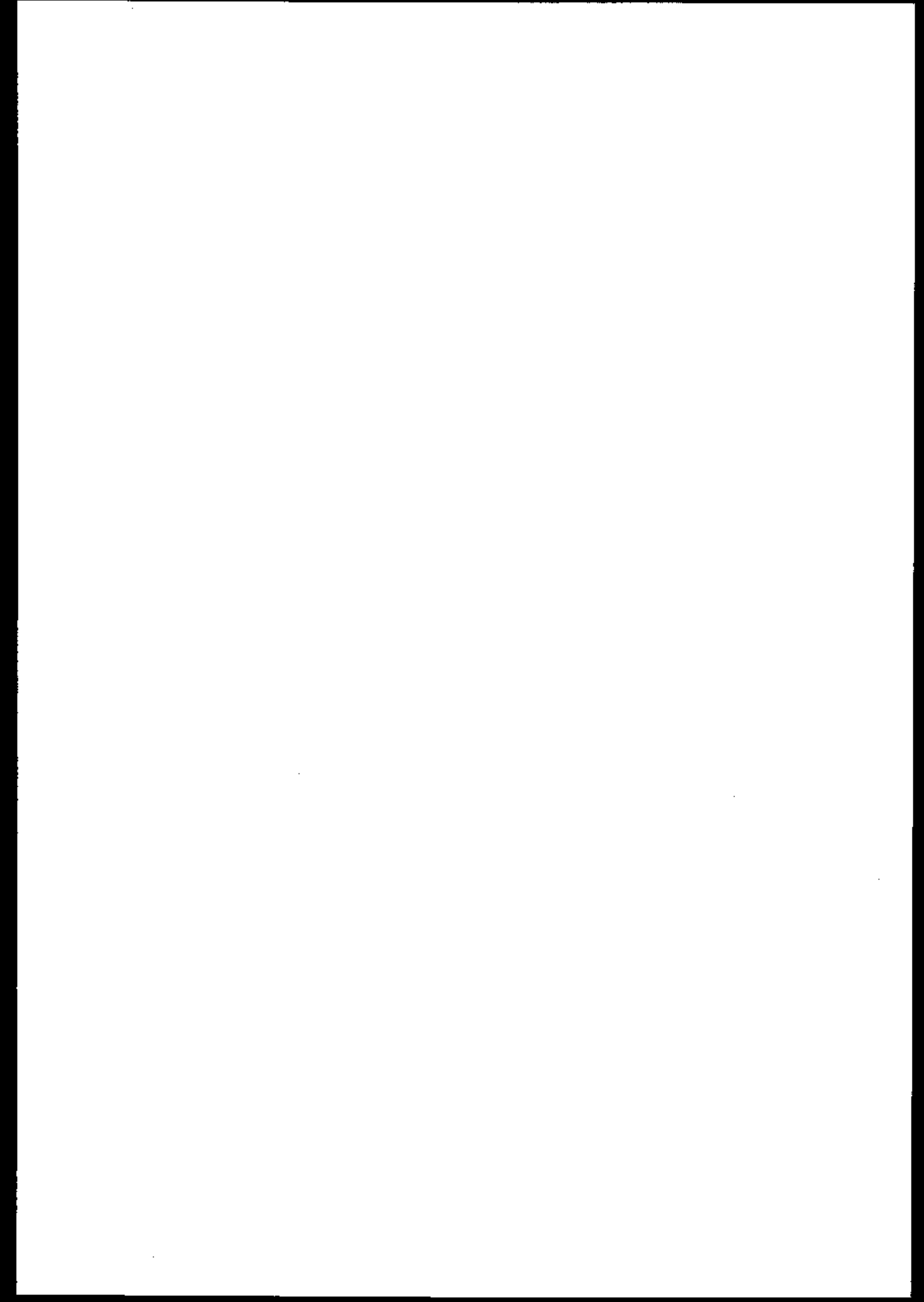
وليس سِرُّ عبقرية أحمد بن حنبل في دفاعه عن عقيدة من عقائد الإسلام، وانتصاره لها ـ وفضله في ذلك لا ينكر ـ ولكنَّ مأثرته الكبرى التي أكسبته منصب التجديد، هو أنه وقف سداً منيعاً في اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفي المتهور، الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى، وعن النبوة المحمدية، وخضعت هذه الأمة للفلسفات، وأصبحت عرضة للآراء والقياسات، وانتصرت الحكومة على الشعب، والسياسة على الدين انتصاراً مؤيداً، وسلبت حرية الرأي والعقيدة.

ولا شكَّ أنها رزيئةٌ جليلةٌ، وفتنةٌ عظيمةٌ في الإسلام، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهي في شبابها وأوجها، وحفظ هذا الدينَ من أن يعبث به العابثون، وتتحكَّم فيه السلطة والأهواء، وحفظ هذه الأمة من أن تكون في حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم، يَفرضون عليها العقائد

(١) تاريخ بغداد: للخطيب ج٤، ص ٤٣١.
(٢) ضحى الإسلام: ج٣، ١٩٤.
(٣) ترجمة الإمام أحمد: ص٧١.

فرضَ الجبايات ، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنَم والبقرات ، وردَّ إلى العقيدة الإسلامية كرامتها وأصالتها ، وإلى الأمة حريّتها وشخصيتها ، فاستحقَّ بذلك تقدير الإنسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الأجيال القادمة وإجلال التاريخ وإكباره ، وكان من المجدِّدين الكبار في الإسلام .

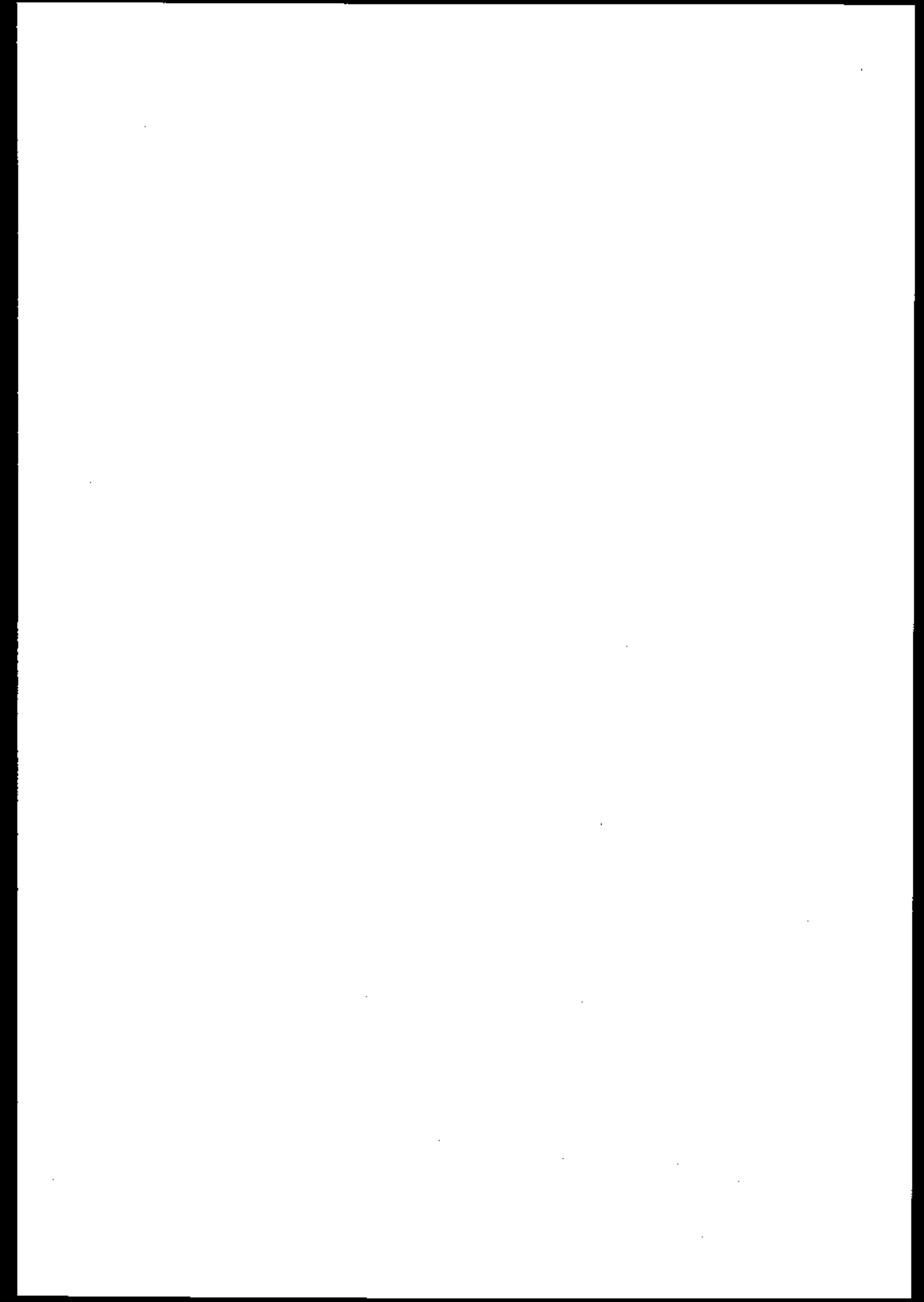
* * *



أبو الحسن الأشعري

وخلفاؤه





المحاضرة السادسة:

أبو الحَسنِ الأشعريُّ وخلفاؤُه

سيطرة المعتزلة العلمية ونتائجها:

لقد ضَعُفَ شأنُ المعتزلة على أثر وفاة المعتصم والواثق ـ اللَّذين تبنَّيا حركة الاعتزال واحتضناها ـ وجاء المتوكل بعد الواثق وهوناقمٌ على الاعتزال مُناوىءٌ للمعتزلة ، وقد تتبَّع المعتزلة فأقصاهم من مناصب الحكومة الخطيرة؛ ولكن رغم ذلك كله ظلَّ المعتزلة يسيطرون على الأوساط العلمية .

إنَّ عقيدة خلق القرآن فقدتْ سلطانها؛ ولكنْ كانت للمعتزلة عقائدُ ونظرياتٌ لا تزال جديدةً تشغَل العقول ، وتُسيطر على الأذهان ، وقد عاد إليهم بعض ما فَقدوه من النُّفوذ والتأثير في القرن الثالث ، ووُجدتْ فيهم شخصياتٌ قويةٌ أعادتْ إلى المعتزلة بعض الثقة والإجلال ، وخَضَع لذكائهم وحدة نظرهم كثيرٌ من الشباب المثقَّف الذكي ، وأصبحَ شبه المقرّر عندهم أَن المعتزلة يمتازون بدقَّة النظر ، واتّساع الفكر والتحقيق ، وأن آراءهم وما وصلوا إليه من نتائج علمية أقربُ إلى العقل ، وقد صار كثيرٌ من طلبة العلم الشباب ، وممن يُحبُّون الظهور والتفوُّقَ على الأقران ، يُظهرون الاعتزال تظرُّفاً .

وبالعكس من ذلك ، لم يظهر في الحنابلة والمُحدِّثين بعد الإمام أحمد

شخصيـةٌ قوية جذابة ، وأعرض المُحدِّثـون ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التي شاعتْ بتأثير المعتزلة ، فكان نتيجةَ ذلك ظهورُ المعتزلة ومن نحا نحوهم في مجالس البحث والمناظرة على منافسيهم الحنابلة والمحدِّثين ، وبدأ الناس يَشعرون ويعتقدون أن المدافعين عن السُّنة وممثِّليها متخلِّفون عن ركب العلم السائر ، ويَجْهلون مبادئَ الفلسفة ، وأصبح الذين لم يتعمَّقوا في العلم ، ولم يرسخوا في الدين ، يعرفون أن الذَّكاء الحاد والرأيَ السَّانح يؤيدان المعتزلة؛ ولكن العقلَ المتعمق والفكرَ الناضج يُرجحَان مذهب المحدِّثين ، ويَقبلان محكَّمات الشريعة.

أصبَحَ هؤلاء مأخوذين ببلاغة المعتزلة ، وحُضور بَديهتهم ، وتدقِيقهم في المسائل الكلامية وتقعُّرهم فيها ، وأصبح كثير منهم يستخفون بظاهر الشريعة ، ويعتقدون أنَّ مسلك السلَف وما ذهبوا إليه من عقائد ، لا يقوم على البحث العلمي والأساس العقلي؛ وقد أُصيب كثير ممن ينتسب إلى الحديث ، وكثيرٌ من تلاميذ المحدثين بمركَّب النقص مأخوذينَ بِسحر المعتزلة وتفلسفهم.

وقد كان هذا الوضعُ خطراً كبيراً على مركز الدّين والسُّنة في نفوس المسلمين ، وقد صار هؤلاء المتفلسفون يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الإسلام ، تتحكَّم فيهما أهواؤهم وعُقولهم ، ويُصرِّفونها كيف يشاؤون ، ووُجد في الأوساط العلمية اتجاهٌ جديد عنيفٌ إلى تقديس العقل وتحكيمه في المسائل التي لا تقوم إلا على تعليمات النُّبوة والإيمانِ بالغيب.

وانطلَقتْ في العالم الإسلامي موجةٌ من الفلسفة السطحية والعقلية المتهورة كادت تكتسحُ الإيمان بالغيب ، والاعتماد على تعاليم الأنبياء ، وازدهرَ التفكير الفلسفيُّ على حساب القلب والعاطفة ، وعلى حساب العمل ، ولا شك أنَّه تحوُّلٌ عظيم في العالم الإسلامي ، وخطر على مستقبل الأمة ، وقد عَجز عن مقاومة هذا التيار العنيف وردِّه المحدِّثون المتصلّبون، والحنابلةُ المتحمِّسون ، وعجز عنه كذلك الزهاد العابدون ، والفقهاء البارعون؛ إذ لم يكن شيء مما

يمتازون به يقوم في وجه هذا التيار العقلي ، ويَردُّه على أعقابه .

الحاجة إلى شَخصيَّة رفيعَة:

لقد كان الإسلامُ يومئذ في حاجة إلى شخصية قوية تفُوق المعتزلة في مواهبها العقلية وفي مُستواها العلمي ، إلى رجل لم يُلمَّ بالعلوم العقلية إلماماً فحسب بل نزلَ في أحشائها ، ورسَب في أعماقها. كان الإسلام في حاجة إلى عملاق في العلم والعقل ، يتضاءَل أمامه حَملَةُ راية العلمِ والعقل في عصره ، كما يتضاءل الأقزام ، وكما يتضاءل التلاميذ الصغار أمامَ أستاذ نابغةٍ وإمام كبير. لقد كان الإسلامُ في حاجة ملحَّة إلى هذه الشخصية الرفيعة القوية ، ووُجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي الحسن الأشعري.

أبو الحسن الأشعري:

هو أبو الحَسن علي بن إسماعيل ، من ذرية أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ . ولد بالبصرة عام ٢٧٠هـ تزوجتْ أمه ـ بعد وفاة أبيه إسماعيل ـ بأبي عليٍّ الجبَّائي ، شيخ المعتزلة في عصره ، وحامل راية الاعتزال ، ونشأ أبو الحسن في حِجره ، وتلقَّى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته وأمين سرِّه.

وكان أبو عليّ الجبَّائيُّ صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنف يأتي بكل ما أراد مُستقصى ، وإذا حضر المجالسَ وناظر لم يكن بِمُرْضٍ ، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الأشعري ، ويقول له: نُبْ عنِّي، ولم يزل على ذلك زماناً [1] حتى تصدَّر المعتزلةَ ، وأصبح يُشار إليه بالبنَان ، وكان كل شيء في حياته يدل على أنه سيكون خليفةَ شيخه ومربِّيه ـ أبي علي الجبائي ـ ويعقد له لواء الإمامة والصدارة في المذهب؛ ولكنَّ الله أراد غيرَ ذلك.

---

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: لأبي القاسم بن عساكر الدمشقي ص ٩١.

لم يزَلْ أبو الحسن يتزعَّم المعتزلةَ ويُدافع عنهم ، وظل على ذلك أربعين سنة ، حتى ثار عقلُه الكبير ، ونفسُه القلقة ، على مذهب الاعتزال الذي كان يُنافح عنه. ونشأ في نفسه ردُّ فعل ضدَّ تأويلات المعتزلة وإمعانِهم في القياس وتحكيم العقل ، وصار يَشعرُ بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعي وللمقدِّمات ، والأصول التي ظنوا ـ وصَوَّر لهم ذكاؤهم ـ أنها قطعيةٌ ، وتأولوا القرآن على آرائِهم.

واقتنعَ بأنَّ الحق الصريح هو الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، وسلَف هذه الأمة ، وهي الغاية التي ينتهي إليها العقل والتفكير العميق ، بعد رحلة طويلة ، وتجارب قاسية ، وعَثَرات كثيرة ، فيؤمن بفضلهم وإصابتهم فيما اعتقدوه وتلقوه عن النبي ﷺ ، وعَضّوا عليه بالنواجذ.

حدَثَ في أبي الحسن الأشعري هذا الصراعُ النفسي ، فاعتكفَ في بيته خمسةَ عشر يوماً يفكر ويتأمل ويدرس، ويستخير الله حتى اطمأنتْ نفسُه ، واستقر رأيُه ، ورأى أنه لا يسَعُه إلا الإعلانُ بالبَراءة عن الاعتزال ، والرجوع إلى مذهب السلف ، ورأى أن البقاء فيما كان عليه من الرأي والمركز الذي يتمتَّعُ به جريمةٌ خُلقية ونفاقٌ ، فخرج إلى المسجد الجامع بالبصرة ، ورقيَ كُرسياً ، ونادى بأعلى صوته: من عرَفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أُعرِّفه بنفسي ، أنا فلان ابن فلان ، كنتُ أقول بخلقِ القرآن وأن الله لا تراه الأبصار ، وأنَّ أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائبٌ مُقلِعٌ معتقد للرد على المعتزلة، مُخرِجٌ لفضائحهم ومعائبهم [١].

ومِن ذلك اليوم انقلبَ أبو الحسن ـ لسانُ المعتزلة من قبل ـ أكبرَ المعارضين للاعتزال ، وأعظمَهم رداً عليه وعلى أهله ، وانقلبتْ مواهبه ، ومِرانه العقلي وحِجاجُه القوي ، إلى الدفاع عن السُّنة ومذهبِ السلف.

---

(١) ابن خلكان: ص ٤٤٧ ، ج٢.

حَماسُه في عَقيدة السَّلف وحِرْصُه على تَبليغها:

ونَهَضَ أبو الحسن الأشعري بعد هذا التَّحوُّل العظيم ، يدعو إلى عقيدة أهل السنَّة ، ويدافع عنها في حَماسة وإيمانٍ ، ويَردُّ على المعتزلة ، ويتَّبعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة ، ومذاهبِ السلف ، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق ، وكان يقصدهم بنفسه يناظرُهم ، فكُلِّمَ في ذلك ، وقيل له : كيف تُخالط أهل البدع وتَقصِدُهم بنفسك وقد أَمرتَ بهجرهم؟ فقال : هم أولو رياسة ، منهم الوالي والقاضي ، ولرياستهم لا يَنزلون إليَّ ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إلي ، ولا أسير أنا إليهم ، فكيف يَظهر الحق ، ويعلمون أنَّ لأهل السنة ناصراً بالحجة؟ [(١)] .

مَواهبُه العقلية وعُلُوُّ مَرتَبتهِ في العِلْم:

وقد اكتسبَ أبو الحسن مَلَكةً قويةً ومِراناً على البحث والاستدلال ، بِحُكم اشتغالِه بالبحث في علم الكلام ، والدِّفاع عن المعتزلة ، وكان صاحبَ موهبة وقريحة في المناظرة والاستدلال شديدَ المعارضة قويَّ الحُجَّة .

وقد أشعَلَ إخلاصُه للدين وانتقالُه إلى معسكر أهل السنة هذه المواهب . وقد كان مُستواه العقلي أعلى من مستوى مُعاصريه وأقرانه ، وكان صاحبَ نُبوغٍ وابتكار في العقليات وكانَ يرد على حُجَج المعتزلة وعقائدهم في سهولة ، وينقُضها بمقدرة وثقة ، كما يرد الأستاذ الكبير على شُبَهِ تلاميذه ، ويَحُلُّ مشاكلهم ، يُصور ذلكَ قصةٌ يرويها تلميذه أبو عبد الله بن خَفيف الشِّيرازيُّ يقول :

«دخلتُ البصرة ، وكنت أطلب أبا الحسن الأشعري رحمه الله ، فأُرشدت إليه ، وإذا هو في بعض مجالس النظر ، فدخلتُ ، فإذا ثَمَّ جماعة من

(١) تبيين كذب المفتري : ص ١١٦ .

المعتزلة ، فكانوا يتكلمون ، فإذا سكتوا وأنهوا كلامهم ، قال أبو الحسن الأشعري لواحدٍ واحدٍ ، قلتَ كذا وكذا ، والجوابُ عنه كذا وكذا ، إلى أن يُجيب الكل ، فلما قام خرجت في أَثره ، فجعلتُ أُقلِّب طَرْفي فيه ، فقال: أيش تَنظر؟ فقلت: كم لساناً لك؟ وكم أُذناً لك؟ وكم عينًا لك؟ فضحك وقال لي: من أين أنت؟ قلت: من شيراز ، وكنتُ أصحبه بعد ذلك [١].

وزادَ في رواية ، قال: «قلتُ مثلك في فضلك وعُلُوِّ منزلتك ، كيف لم تُسأل ويُسأل غيرك؟! فقال: إنا لا نكلم هؤلاء ابتداءً؛ لكن إذا خاضوا في ذكر ما لايجوز في دين الله ، رَدَدْنا عليهم بُحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الردِّ على مخالفي الحق» [٢].

وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في عِلم الكلام ، وأَحَد مؤسسيه ، وقد خضع كلُّ من جـاء بعده من المتكلِّمين لعبقريته ، وعُمق كلامه ، ودِقة نظره ، وإصابةِ فكره.

رُوي عن الإمام أبي الحسن الباهِلي ـ وهو إمامٌ من أئمة الكلام ـ أنه قال: «كنتُ أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرةٍ في جنب البحر» [٣].

وقال الإمام أبو بكر البَاقلاني ـ وهو الذي لُقِّب بلسان الأمة ـ وقد قيل له: كلامُك أفضل وأبينُ من كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله ، قال: إنَّ أفضل أحوالي أن أفهم كلام أبي الحسن رحمه الله.

مَذهَبُه وخِدمَتُه:

ليس سِرُّ عظمة الأشعري في التاريخ ، وجلالة العمل الذي قام به ، في أنه دافعَ عن السُّنة دفاعاً قوياً ، ورَدَّ على المعتزلة؛ فالذين تولَّوا ذلك كثير.

إنَّ سِرَّ عظمته وعبقريته في أنه اتخذ طريقاً وسطاً بين المعتزلة والمحدِّثين؛

(١) تبيين كذب المفتري: ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٦.
(٣) المصدر السابق: ص ١٢٥.

فلم يذهب كما ذهب المعتزلة إلى تمجيد العقل ، والإيمان بأنَّ له سُلطة لا تُحَدُّ ، وأن له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطَّبيعيات ، وأن له الكلمةَ الأخيرة النافذة في كل موضوع ، ولم ير كذلك ـ كما رأى كثيرٌ من أهل عصره ـ أنَّ الانتصار للدين والدفاع عن العقيدة الإسلامية يستلزمان إنكارَ العقل وقوته ـ إلى حد ما ـ وازدراءَه ، وأن السكوت عن هذه المباحث التي يُثيرها المعتزلة وأضرابُهم ، التي نشأتْ بحكم تطور العصر ، والاحتكاكِ بالأمم والديانات أولى وأفضل ، بالعكس من ذلك ، هو عُنيَ بهذه المباحث؛ لأنها كانت تُزلزل العقيدة الإسلامية ، وتُضعف الثقة بالدين ، وباحَثَ المعتزلة والمتفلسفين ، وناقَشهم في مصطلحاتهم ولغتهم العلمية، وعمل بالكلمة الحكيمة المأثورة «كلِّموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟»[(١)].

وكأنَّه كان يعتقد أن العالم إذا كلَّم عاميّاً كلاماً فوق مستواه العلمي والعقلي ، كان ذلك باعثاً على الإنكار وتكذيب الله ورسوله ، كذلك إذا كلَّم عالماً أو ذكياً أو متشككاً دون مستواه العلمي والعقلي ، كان مُثيراً للشكوك ، وداعياً إلى الجحود والإنكار؛ فكان فَهْمُه لهذه الوصية الحكيمة فهْماً أوسع ، وتطبيقُه لها تطبيقاً أشمل.

وبذلك خدم أبو الحسن هذا الدين في عصره خدمة باهرة ، وأعاد إلى نفوسٍ وعقولٍ كثيرةٍ لا يعلم عددها إلا الله الثقةَ بهذا الدين ، والإيمانَ به من جديد.

ولقد كان أبو الحسن الأشعري جريئاً وصريحاً في نقدِه للمعتزلة ، وقد بين أنهم اتبعوا أهواءهم في فهم هذا الدين ، وقلَّدوا رؤساءهم وسلَفهم تقليداً أعمى ، ولم ينظروا في الكتاب والسنة مجرداً ، ولم يتخذوهما إماماً ومصدراً

(١) [فيض القدير: ج ٣ ، ص ٣٧٨].

لعقائدهم وآرائهم ، بل كُلَّما تعارضَ القرآنُ مع ما انتحلوه من آراءَ وعقائد تأوَّلوا القرآنَ ولم يروا بذلك بأساً .

يقول في كتاب : «الإبانة عن أصول الديانة» وهو أول ما صنَّفه بعد الخروج من الاعتزال : «أما بعد ؛ فإن من الزائغين عن الحق من المعتزلة ، وأهل القدَر ، من مالتْ بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم ؛ فتأوَّلوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم يُنزل الله به سلطاناً ، ولا أوضحَ به بُرهاناً ، ولا نقلوه عن رسول الله رب العالمين ، ولا عنِ السلف المتقدِّمين» (١) .

ويشرح عقيدته التي يَدين بها فيقول :

«وقولُنا الذي نقول به ، وديانتُنا التي ندَين بها التمسُّك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسُنة نبينا عليه السلام ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون ، ولما خالفَ قوله مُخالفون ؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيسُ الكامل الذي أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضحَ به المنهاج ، وقمعَ به بِدَع المبتدعين ، وزَيغ الزائغين ، وشَكَّ الشاكين ؛ فرحمةُ الله عليه من إمام مُقَدَّم ، وخليل معظم مفخَّم» (٢) .

ولم تقتصِرْ خِدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنَّة والسلف تأييداً إجمالياً ، فقد كان الحنابلة والمحدِّثون قائمين به غير مقصِّرين فيه .

إنَّ عبقريَّته تتجلَّى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلاميةَ على هذه العقائد ، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة ، وذلك كلُّه في لغةٍ يفهمونها ، وأسلوب يألفونه ويُجلُّونه ، وبذلك أثبتَ أن هذا الدين وعقيدته

(١) الإبانة عن أصول الديانة : ص ٥ طبع دائرة المعارف ، حيدر أباد .

(٢) المصدر السابق : ص ٥ .

الواضحة مؤيَّدان بالعقل ، وأن العقل الصحيح يُؤيد الدين الصريح ، ولا صراعَ بينهما ولا تناقض.

وقد استُهْدِفَ في عمله هذا لنقد المعتزلة وسخَطهم، وكان ذلك طبيعياً ومعقولاً ، إذ هو منافسهم الأكبر ، وزعيمُ المعارضة ، ولكنه استُهدف كذلك لعتاب الحنابلة المتشدّدين الذين كانوا يرون الخوض في هذه المباحث والمناقشات ، واستعمال المصطلحات الفلسفية والاستدلال بالمقدمات العقلية في المسائل النقلية ، ضرباً من الزيغ والضلال.

لقد كان الأشعريُّ مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة ، هو الكتابُ والسنَّة ، وما جاء به الأنبياء ليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية ، ولكنه لم يكن يرى السُّكوتَ والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان ، واختلاطِ هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية ، حتى تكونت على أساسها فِرقٌ ونِحل.

وكان يرى أنَّ السكوتَ عن هذه المباحث يضرُّ بالإسلام ، ويُفقد مَهابة السنة ، ويحمل ذلك على ضعف السنة العلمي والعقلي ، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات ، ويَهتبلُه أهل الفرق الضالة ، فينفذُون في أهل السنَّة والعقيدة الصحيحة ، فينفُثون سمومَهم فيهم ، ويزرعون الشكوك ، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم.

وكان الأشعريُّ مؤمناً بأنَّ مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريقُ إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثَبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة.

ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة ، وغَرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد ، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة ، واستعمال المصطلحات العلمية ، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي ، ولم يكن يسوِّغ ذلك ، بل يَعدُّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر ، وهذا مفترق الطرق بينه وبين كثير من الحنابلة والمحدِّثين الذين كانوا

يتأثَّمون ويتحرَّجون من النزول إلى هذا المستوى .

وكان يعتقد كذلك : أن المباحث التي تتصل بالعقليات والحِسِّيات لا صلة لها في الحقيقة بالعقيدة والديانات ، ولكنَّ المعتزلة والفلاسفة مزجوا البحث في العقيدة وبالبحث فيها ، بل جعلوها بذلاقة لسانهم وذكائهم مقدمات للبحث في الدين ، بل فارقاً بين الحقِّ والباطل .

كان الأشعريُّ يعتقد أن الفرار من البحث فيها ، بحجة أنها لا تتصل بالدين والعقيدة لا يصِحُّ ، بل بالعكس من ذلك ، يجب على من قام لنُصرة السنة أن يواجههم فيها ، ويُثبت مذهب أهل الحق . وكان يعتقد أنَّ النبي ﷺ وأصحابَه لم يسكتوا عن هذه المسائل جهلاً ، بل لأن هذه المباحث ما نشأت في عصرهم ، ولم تمسَّ الحاجة إلى البحث فيها شأن الفقه والجزئيات الكثيرة التي حدثتْ بعد عصرهم فتأملَ فيها الفقهاء والمجتهدون ، وأبدوا رأيهم فيها ، واستنبطوا وفرّعوا وحلوا المشاكل الجديدة ، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد عن الإلحاد والفوضى في العمل والتعطُّل .

كذلك يجبُ على حراس الشريعة ، ومتكلِّمي أهل السنة ، أن يُواجهوا الأسئلة الجديدة التي أثارها المعتزلةُ والمتفلسفة في موضوع الإلهيات ، ويُجيبوا عن الاعتراضات والمطاعن التي يُوجهها إلى أهل السنة أهل الفرق الضالة ، ويُقيموا الدليل والبرهان العقلي على صحةِ عقائدِ أهل السنة ومُطابقتها للعقل والمنطق ، وقد ألف في هذا الموضوع رسالةً أسماها «استحسان الخَوْضِ في الكلام» .

وقد سارَ الأشعريُّ في طريقه مجَاهداً ، ومُناضلاً ، مُنتجاً ، معرضاً عن سَخط الطائفتين : الحنابلة والمعتزلة ، لا يَعبأ بما يقال فيه ، مؤمناً بأنه هو الطريق الذي يَنفع الدين في عصره ، ويَردُّ إلى الشريعة الإسلامية مهابتَها وكرامتها ، ويَحرُس للناشئة دينها وعقيدتها ، حتى استطاع بعمله المتواصل ، وشخصيَّته القوية ، وعقله الكبير ، وإخلاصه النادر ، أن يردَّ سيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدَّد الدين ، ويُثبِّت كثيراً من الذين تزلزلت

أقدامهم ، واضطربتْ عقولهم وعقيدتهم ، وأن يُوجد في أهل السنَّة ثقةً جديدة بعقيدتهم ، ونشاطاً جديداً في دعوتهم ، وزالتْ سطوة المعتزلة على العقول والأفكار ، واشتغلوا بالدفاع عن الهجوم ، وتعرضتْ حركة الاعتزال ودعوتُها للخطر ، وقد خمدوا وانطفؤوا بمعارضةِ إمام كبير ، كأبي الحسن الأشعري.

يقول أبو بكر بن الصَّيرفي:

«كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم ، حتى أظهرَ اللهُ تعالى الأشعري ، فحجزَهم في أقماع السُّمسم»[١] ، وبموقفه الجليل في الدِّفاع عن السنة ونصرِ الدين استحقَّ أن يُعدَّ من المجدِّدين الكبار[٢].

مُؤلَّفاته:

ولم يَقتصِرْ أبو الحسن الأشعري على المُناظرة والمعارضة ، بل خلَّف مكتبة كبيرةً من مؤلفاته في الدفاع عن السنة ، وشرح العقيدة الحسنة ، وقد ألَّفَ تفسيراً للقرآن ، أقل ما قيل في أجزائه أنه في ثلاثين مجلَّداً[٣].

وقد ذكر بعض المؤلِّفين أن مؤلفاته تبلغُ إلى ثلاثمئة مؤلف[٤] ، أكثرها في الرد على المعتزلة ، وبعضها في الرد على مذاهبَ وفرق أخرى ، منها كتاب «الفصول» الذي رد فيه على الفلاسفة والطبيعيين ، والدهرية ، والبراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً ، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب «اللمع» و«إيضاح البرهان» و«التبيين عن أصول الدين» و«الشرح والتفصيل في الردِّ على أهل الإفك والتضليل».

وله ـ عدا العلوم العقلية والكلام ـ مؤلَّفاتٌ في علوم الشريعة منها: «كتاب

(١) تبيين كذب المفتري: ص٥٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٣.
(٣) الذهبي.
(٤) تبيين كذب المفتري: ص ١٣٦.

القياس» و«كتاب الاجتهاد» و«خبر الواحد» وكتاب في الرد على ابن الراونديِّ في إنكاره للتواتر.

وقد ذكرَ في كتابه «العمد» مؤلفاته التي فرغ منها سنة ٣٢٠ هـ ، يعني قبل وفاته بأربع سنوات ، وهي ثمانٍ وستون مؤلفاً ، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر ، وقد ألّف في آخر حياته كتباً كثيرة ، ويدلُّ كتابه «مقالات الإسلاميين» على أنه لم يكن متكلِّماً فحسب؛ بل كان مؤرِّخاً أميناً لعِلْم العقائد ، وقد اعترفَ بدِقته وأمانته وتحرِّيه للصدق في النقل المستشرقونَ [١]. وكُتبُ الفِرَق والديانات تدلُّ على أمانته ودِقَّته في النقل.

اجتهادُه في العبادة:

لم يكن أبو الحسن الأشعري رجلَ علمٍ وعَقْلٍ وبحثٍ ونظرٍ فحسب؛ بل كان ـ مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل ـ مجتهداً في العبادات ، متحلياً بالأخلاق الفاضلة ، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإنَّ اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات ، والحِرص على الطاعات.

وكانوا يَجمعون بين الدراسة والإفادة ، والعِبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه: «خَدمتُ الإمام أبـا الحسن بالبصرة سنين ، وعاشرتـه ببغدادَ إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أورعَ منه ، ولا أغضَّ طرفاً؛ ولم أرَ شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا ، ولا أنشطَ منه في أمور الآخرة» [٢]. ويحكي أبو الحسين السَّروي من عبادته في الليل واشتغاله ما يدل على حِرصه وقوتِه في العبادة [٣].

قال ابن خَلِّكان: «وكان يأكل من غَلَّةِ ضيعةٍ وقفَها بلالُ بن

---

(١) انظر: لفنسنك. Muslim Greed Vinisink

(٢) تبيين كذب المفتري: ص ١٤١.

(٣) المصدر السابق: ص ١٤١.

أبي بُردة بن أبي موسى على عَقبهِ ، وكانت نفقتُه في كل يوم سبعةَ عشر درهماً ، هكذا قال له الخطيبُ» (١) .

وَفـاتُـه:

وكانت وفاته سنة ٣٢٤هـ ، ودفن ببغداد في مشروع الزوايا (٢) ، ونودي على جنازته : «اليوم مات ناصرُ السنَّة» .

الإمَامُ أبـو مَنصـور المـاتُـريْـدِيُّ:

وقد نَهَضَ في نفس ذلك العصر ، في طَرَفٍ آخر من أطراف العالم الإسلامي فيما وراء النهر إمامٌ آخر من أئمـة الكلام ، والمدافعين عن عقيدة الإسلام ، وهو الإمام أبو منصور المَاتُرِيْدِي (ت ٣٣٢هـ) ، وقد أقبل على علم الكلام كما أقبل الإمام أبو الحسن الأشعري في العراق ، وكان راجح العقل ، مُتَّزِنَ الفكر حصيفاً ، وقد كان الأشعري دائماً في معارضةٍ وأخذٍ وردٍّ على المعتزلة ، فدَخل في بحوثه وأفكاره ما قد لا يخلو من الغلو ، وقد زاد الأشاعرة بعدَه في الأمر ، وأضافوا إليه أشياءَ .

وقد جاء أبو منصور الماتريدي ، فحذَف هذه الزوائد والالتزامات التي كان من الصعب إثباتُها وإقامةُ الدليل عليها ، وكانت تحتاج إلى تكلُّف وتأويل ، وتناول علمَ الكلام بالتهذيب والتنقيح ؛ حتى أصبحَ أكثر توسطاً واعتدالاً .

وقد كان الخلاف بينه وبين الأشعري جزئياً ومحدوداً ، والمسائلُ التي خالَف فيها الماتريديُّ الأشعريَّ لا تزيد على أربعينَ مسألة (٣)؛ الخلافُ في معظمها لفظيٌّ .

---

(١) ابن خلكان: ج١ ، ص ٤١٢ .

(٢) المصدر السابق: ج١ ، ص ٤١٢ .

(٣) ابن تيمية: لمحمد أبي زهرة، نقلاً عن الشيخ محمد عبده، في تعليقاته على «العقائد العضدية».

وكان الماتريديُّ مؤلِّفاً كبيراً ، وله مؤلَّفاتٌ عظيمة في الردِّ على الرافضة والقرامطة ، وكتابه «تأويلات القرآن» كتابٌ عظيم يدل على نبوغه وذكائه الباهر ، ورسُوخه في العلم.

وقد كان للإمام أبي الحسن الأشعري بحُكم إقامته في العراق ـ مركز العالم الإسلامي السياسي والثقافي ـ نفوذٌ أكبر في الأوساط العلمية ، وشهرةٌ أوسع ، واسمٌ ألمع في تاريخ علم الكلام من غيره وممن جاؤوا بعده.

العُلماء الأشاعرةُ ونفوذُهم في العالم الإسلامي:

وقد نشأَ في مدرسة أبي الحسن الأشعري الفكرية علماءُ فحولٌ ، ومُتكلِّمونَ كبارٌ خضع لعلمهم ونفوذهم العالمُ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وظلوا مسَيطرين على الحركة العلمية والفكرية لعدةِ قرون ، وبفَضلِهِم انتقلت قيادة العالم الإسلامي الفكرية ، وتوجيهه من المعتزلة إلى أهل السنَّة.

وقد نبغ في القرن الرابع علماءُ كبارٌ ، طبقت شهرتُهم الآفاق ، أمثال: القاضي أبي بكر البَاقلاَّني (ت ٤٠٣هـ)، والشيخ أبي إسحاق الإسْفِرَائِيني (ت ٤١٨هـ).

وقد كان في القرن الخامس للعلامة أبي إسحاق الشيرازي (م ٤٧٦هـ) وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجُوَيني (ت ٤٧٨هـ) مهابةٌ ومحبةٌ في نفوس المسلمين ، لم تكنْ لأحد من الملوك والسلاطين ، يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يرويه تاج الدين السّبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» عن رحلة الأول من بغداد إلى نِيسابور.

يقول السّبكيُّ: «إنَّ الخليفة أمير المؤمنين المقتدي بالله ، تشوش من العميد أبي الفتح بن أبي الليث ، فدعا الشيخ أبا إسحاق وشافَهه بالشكوى منه ، وأن أهل البلد حصل لهم الأذى به ، وأمره بالخروج إلى العسكر ، وشرْح الحال بين يدي السلطان ، وبينَ يدي الوزير نِظام المُلك ، فتوجه الشيخ ومعه جمال الدين عَفيفٌ ، وهو خادم من خُدَّام الخليفة».

قال أبو الحسن الهَمَدانيُّ: «وكان عند وُصوله إلى بلاد العجم يَخرج أهلها بنسائهم وأولادهم ، فيمسحون أردَانه ، ويأخذُون تُراب نعليه ، ويَستشفون به. وكان يُخرج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعهم ويَنثُرونها ، ما بين حلوى ، وفاكهة ، وثياب ، وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم حتى انتهوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات ، وهي تقع على رؤوس الناس ، والشيخ يتعجَّبُ.

ثم إنَّ الشيخ دخل نيسابور ، وتلقَّاه أهلها على العادةِ المألوفة ممن وراءهم من بلاد خراسان ، وحمل شيخُ البلد إمامُ الحرمين أبو المعالي الجُوَيني غاشيتَه ومشى بين يديه كالخديم ، وقال: أَفتخرُ بهذا» [(١)].

«وقد كان لإمام الحرمين في ولاية ألب أرْسَلان السَّلْجُوقي ، وفي وزارة نظام المُلك الطُّوسي ،أعظمُ مركز ديني وقد بُنيتْ له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابة بها ، وحضرَ دروسَه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رياسة الأصحاب ، وفوض إليه الأوقاف. وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مُزاحَم ولا مدافع. مُسلَّم له المحراب والمِنبر والخطابة والتدريس ومجلسُ التذكير يوم الجمعة [(٢)] ، وأُغلقت الأسواق يوم موته ، وكُسر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه ، وأكثروا فيه المَراثي.

وكان تلاميذهُ يومئذٍ قريباً من أربعمئةٍ واحد ، فكسروا محابِرهم وأقلامهم على ذلك عاماً كاملاً [(٣)].

وقد انتشر المذهبُ الأشعري أيامَ وزارة نظام المُلك ـ الذي كان أشعريَّ العقيدة. وكان صاحب الكلمة النافذة في الإمبراطورية السَّلجوقية العظيمة ـ انتشاراً عظيماً. وأصبحتْ شبهَ عقيدة رسمية تتمتَّع بحماية البلاط ، وزاد في

---

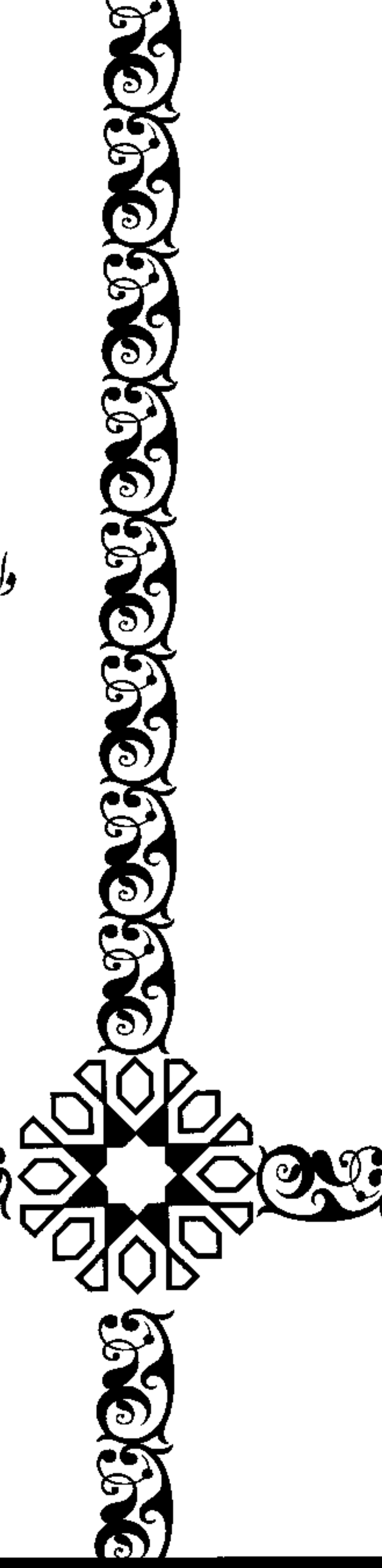
(١) طبقات الشافعية الكبرى: لابن السبكي ج٣ ، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢) ابن خلكان: ج ١ ، ص ٣٦١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٢.

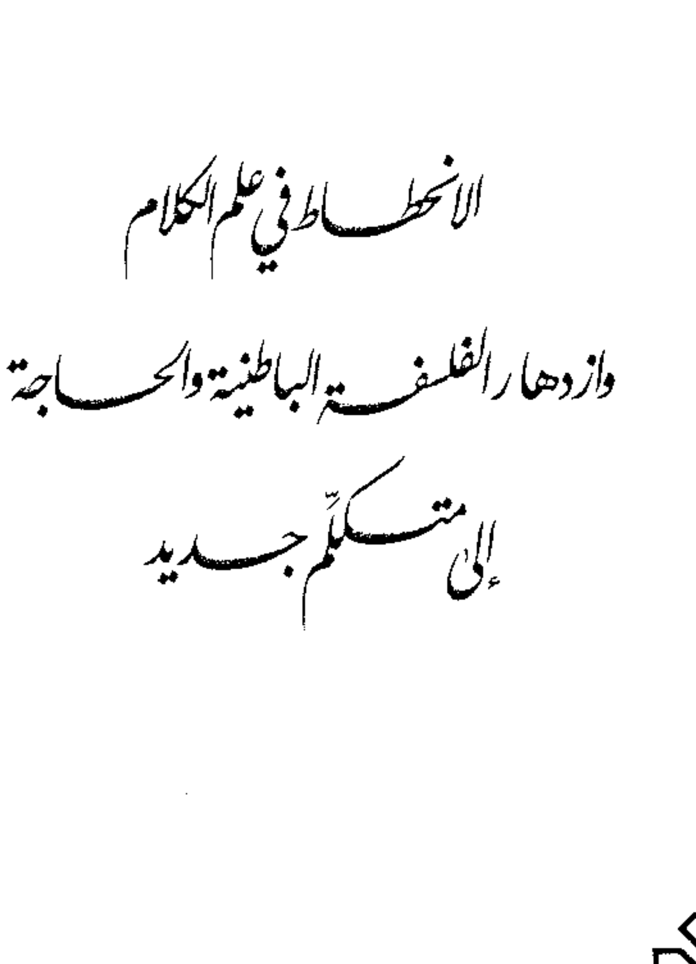
انتشارها وقوتها مدرسة بغداد النظامية ومدرسةُ نيسابور النظامية.

وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي. كان الانتساب إليها شرفاً وفخراً للطالب المتخرِّج، وكانت وظيفةُ التدريس فيها مجداً للعالم وشهادة علمية ليست فوقها شهادة. فكان طبيعياً أن ينتشر المذهب الأشعري ويسودَ في العالم الإسلامي [١].

* * *

(١) تلبيس إبليس: لابن الجوزي ص ١٠٢.

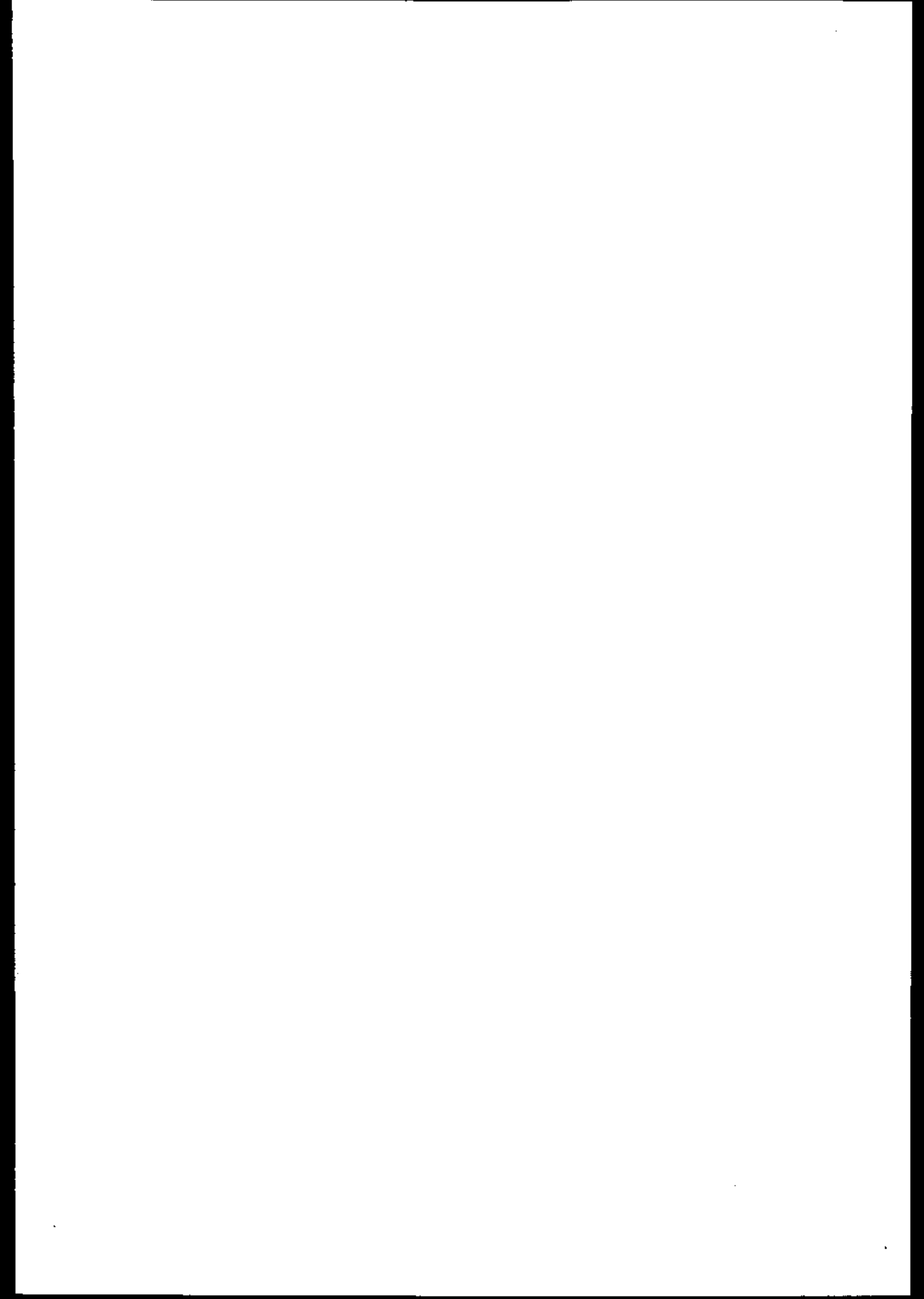




الانحطاط في علم الكلام

وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة

إلى متكلّم جديد



المحاضرة السابعة:

الانحطاطُ في علْمِ الكلام ، وازْدهارُ الفَلسفة البَاطنية والحَاجةُ إلى مُتكلِّمٍ جديد

الانحراف والانحطاط في علم الكلام:

إنَّ مدرسةَ الأشعري الفكرية ، وإن كانت لا تزالُ مهيمنةً على العالم الإسلامي ، وعلى مناهج التعليم ، وعلى الحياة الدينية ، ولكنها قد فقدتْ حيوتها ونشاطها الفكري ، وضعف إنتاجُها في الزمن الأخير ضعفاً شديداً ، وبدَت فيها آثارُ الهرم والإعياء.

لقد استطاعَ أبو الحسن الأشعري ، بشخصيَّته القوية ، وعقلِه الكبير وابتكاره ، أن يهزم المعتزلة في مُعترك العلم والعقل ، ويُغير اتجاه الطبقة المثقّفة في عصره ، والفضل في ذلك لا يرجع إلى أصوله وقواعده ، ولا إلى نظرياتِه وعقائده فحسب ، فيمكن أن تُناقش في ضوء العلم ، ويمكن ألا يقتنع ببعضها باحثٌ ومتأمل ، ولكنه يرجع كذلك إلى مواهبه العظيمة ، ونبوغه ، وعبقريته ، ومَلَكته القوية في الاستدلال ، وقد كانت هذه المدرسة في حاجةٍ دائمة إلى شخصيات قوية جديدة، تحفظ مكانتها ومركزها في العالم الإسلامي ، وتُجدِّد حياتها ونشاطها ، وفي حاجةٍ دائمة إلى إنتاج جديد ، وبَعث وتجديد ، وابتكار مزيد.

ولكنَّ ذلك لم يكن مع الأسف ، فقد طغى التقليد على تلاميذ هذه المدرسة وأصبحوا عيالاً على ما أنتجهُ الإمام أبو الحسن الأشعري وبعضُ خلفائه ، وقفوا عنده ، وعَضُّوا عليه بالنَّواجذ ، وأصبحَ علمُ الكلام علماً متناقلاً يتناقله الخَلَف عن السَّلف ، والتلاميذ عن الأساتذة ، وقد شعر بعضهم بأنَّ الزمان قد تطور ، والعلم قد تقدَّم ، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبَها في الاستدلال في علم الكلام ، ولم يُحسن صنعاً؛ لأنَّ هذا الأسلوب الفلسفي لا يُورث الإذعان في القلوب كما يفعل أسلوب القرآن الطبيعي ، وليس له سِحْرٌ في النفوس ، ولا إقناعٌ كإقناع القرآن؛ ولأنَّ هذه المقدماتِ والدلائل الفلسفية مثارُ بحثٍ وجدال كبير ، ولا يُفيد العلمَ القطعي ، وكانت معرَّضةً للنَّقْض والرد.

وهكذا لم يُحسنوا تمثيل مذهب أهل السنة ، ومسلكَ السلف ، ولم يُحسنوا إليهما ، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية وإجلالَها كذلك، إذ كانتْ تَعتقدُ أنَّ هذه المصطلحات والمقدمات استُغلَّت استغلالاً ، ولم تُهضم هضماً صحيحاً.

شُيوعُ الفَلسفة في العالمِ الإسلامي:

وقد انتقلَتْ إلى العربية ـ بتوجيه المأمون الذي كان من هواة الفلسفة ، وبجهد المترجمين ـ كتبٌ كثيرةٌ في المنطق والفلسفة ، من السِّريانية واليونانية والفارسية ، وكان أكثرها لأرسطو ، وكان فيها كتُب المنطق ، وكتبٌ في الطبيعيات والعنصريات والرياضيات ، وهي كتبٌ وعلوم يحسُن الانتفاع بها. ولا يُخاف منها على العقيدة الإسلامية؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع ، وفيها كُتب في الإلهيات والميتافيزيقا.

والحقُّ أن هذه البحوث في الإلهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان ، وما هي إلا وثنيَّتهُم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية ، وأضفَوْا عليها صبغة من الفنِّ ، وما العقول والأفلاك إلا رموزٌ للوثنية الإغريقية القديمة ، وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها إلا عقائدُ توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنيةٌ

تُعارِضُ التوحيدَ ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

وتشتملُ هذه الفلسفة التي بَهرت المسلمين ، وتسلَّطت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارة على ظُنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، ولا وجود لها في الخارج . وقد كانتِ الأمة التي أكرمها الله بالنبوَّة المحمدية ، ومنحَها العلمَ الصحيحَ الذي لا كدَر فيه ولا تخمين ، العلم الصحيح بالذات والصفات ، والمبدأ والمعاد .

لقد كانت هذه الأمـةُ في غنىً عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، والتدقيق فيها؛ ولكن الذين بَهرتْهُم براعةُ اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات ، أقبلوا على هذه الفلسفة الإلهية في شيء من التمجيد والتقديس ، وتلقَّوْها كصحيفة سماوية ، كأنهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وكأنَّهم أمَّةٌ جاهليةٌ فقيرةٌ في المعاني الدينية والحقائق الإلهية .

الفلسفة اليونانية في الإسلام:

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحُسن حظِّها ، أن رُزقتْ رجالاً أذكياء تطوّعوا لنشر الفلسفة وشرحها ، وجنَّدوا في سبيلها نفوسَهم ومواهبهم ، كيعقوب الكندي (ت ٢٥٨هـ) وأبي النصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وكانوا في حماستهم في الدفاع عن الفلسفة ونشرها في الأمة الإسلامية ، وفي إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها ، وتقديسهم لأرسطو ، لا يقلُّون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم ، وكانوا يجهلون اللُّغات التي أُلِّفت فيها هذه الكتب ، ودُوِّنت فيها هذه الأفكار ، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرة؛ فكانوا عيالاً على من ينقلها لهم من السُّريانية واليونانية ، ووقعُوا في أخطاء وأوهام في فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين ، وقد مَنعهم إجلالهم لأرسطو وتقديسهم

له من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد ، فأخذوها على علاتها ، وعكفوا عليها دراسةً وشرحاً وإيضاحاً وبياناً ، وحوَّلوا العلوم العقلية إلى نقلية يتناقلونها ويتوارثونها .

الفَرْق بين المُعتزِلَة والفَلاسفة:

وهنا حقيقةٌ يجب أن نُقرِّرها : أنَّ المعتزلة وإن أَفرطوا في تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة في الدين ، واتَّجهوا بالأمة ذات النبوَّة والكتاب والتعاليم اتجاهاً كان يُبعدها عن وضعها الصحيح ، ورُوحها الحقيقية ؛ ولكن ممَّا لا شكَّ فيه ، أن طبيعةَ المعتزلة كانتْ طبيعة دينية ، وكانوا يُفكِّرون التفكيرَ الديني ، كانوا يؤمنون بالنُّبوءة والوحي ، وكانوا في حياتهم متقشِّفين زُهاداً يحترزون عن المعاصي ، ويلتزمون العبادات والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان كل ذلك بحُكم عقائدِهم التي يدينون بها ، ورأيهم الذي يرونه ، فكانوا يرون أن مُرتكب الكبيرة مُخلَّد في النار ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ ، وكانوا متحمِّسين نشيطين في خدمة الإسلام ونشرِه ، ومحاربةِ المُلحِدين ؛ فلم يكن نتيجة انتشار الاعتزال وسُلطة المعتزلة أن انتشر الكفر والإلحاد في المجتمع الإسلامي ، وفشا إنكارُ النبوءات ، وإنكارُ المعاد ، والميل إلى الإباحية والتعطُّل ؛ بل بقيَ المعتزلة ، وبقيَ الشعور الدِّيني في المسلمين حياً قوياً .

ولكنَّ الفلاسفة يختلفون في ذلك اختلافاً أساسياً ، فالفلسفة تتنافى مع النبوءة وتعارضها في خط مستقيم ، إنها تَنْحرف عن النبوَّة في النقطة الأولى ثم لا تلتقيان ، فكان طبيعياً أنه كلما ازداد الناسُ إقبالاً على الفلسفة وإجلالاً لها ، ازدادوا انصرافاً عن الدِّين واستخفافاً له ، وكلما ازداد الناس خضوعاً للفلاسفة ازدادوا استهانة بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وما من ناحية من نواحي الحياة الدينية إلا وقد تأثرتْ بهذا التحوُّل الفكري ، ووُجدت في المسلمين طبقةٌ تستهزىء بالدين وتزدريه ، وتتمجَّد بخروجها عن ربقة الدين ، وتحرُّرها من تكاليفه وعقائده في غير كتمان ، ومن غير احتشام ، ومنهم من لا يملك شجاعة

أدبية تحمله على هذا الإعلان؛ فكانوا يظهرون في المظهر الإسلامي وهم يُبطنون الكفر والإلحاد.

فِتنَـةُ الباطنيـة:

ونَشأتْ مع الفلسفة وازدهارها فتنة جديدة كانت أضر على الإسلام وتعاليم النبوءة من الفلسفة، تلك فتنةُ الباطنية، وقد كان مُعظم دعاتها أفراداً وأمماً وشعوباً قد فقدت سيادتَها وحُكمها في تيار الفتوح الإسلامية، ولا مطمعَ في استردادها بالحروب والمقاومة المادية، أو رجالاً يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحيَّة وعبادة النفس ـ والإسلام يَحُدُّ من شهواتهم ويُقيِّد حرياتهم ـ أو رجالاً يطمحون إلى السُّلطة المطلقة، والسيادة الكبيرة.

وقد اجتمعتْ هذه الأضرابُ من الناس تحت راية الباطنية والتفوا حولها؛ إذ هي الراية التي تجمعُهم وتُمنِّيهم بالوصول إلى غاياتهم.

وقد شعر هؤلاء أن الإسلام ـ وهو لا يزال قوياً ـ لا يُهزم في ميدان الحرب، وأنَّ المسلمين ـ وهم أصحاب عاطفة دينية قوية ـ لا تَصحُّ دعوتهم إلى الإلحاد السافر، والكُفر البواح؛ فإن هذا يُشعلُ عاطفتهم الدينية ويُلهبُ غيرتَهم ويُثير فيهم روحَ المقاومة؛ فتضيع الفُرصة ويُفلت الزمام؛ ولذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يُزعج المسلمين ولا يُثيرهم، إنهم اتَّخذوا للوصول إلى غايتهم نفقاً.

الفَـرْقُ بَيْـنَ الظّـاهر والبـاطن:

إنَّهم لاحظوا أنَّ أصول الديانة الإسلامية وعقائدَها وأحكامها ومسائلها، إنما عُرضت في إطار ألفاظٍ وكلماتٍ تدل عليها وتُعبِّر عنها، وكان لا بد من ذلك عند كل رسالة جديدة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقد تعيَّنتْ معاني هذه الكلمات ومفاهيمها؛ وتواتر ذلك عملياً ولفظياً في الأمة واستفاض، وعرفتهُ الأمة الإسلامية ودانت به.

فكلٌّ من كلمات «النبوّة» و«الرسالة» و«الملائكة» و«المعاد» و«الجنَّة» و«النار » و«الشريعة» و«الفرض» و«الواجب» و«الحلال» و«الحرام» و«الصلاة» و«الزكاة» و«الصوم» و«الحج» يُؤدي معنى خاصاً؛ وتُفهم منها مفاهيم خاصة لا يشكُّ فيها مسلم ، ولا يختلفُ فيها اثنان.

وكما أنَّ هذه الحقائق الدينية ـ التي تُعبِّر عنها هذه الكلمات ـ ظلَّتْ محفوظة في الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروةً محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد أصبح كل منها لازماً وملزوماً لصاحبه.

فإذا أُطلقت كلمةُ «الصلاة» مثلاً انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم إلى غير ذلك مما يَدخلُ في أركان الصلاة وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك إذا أطلقت كلمة «النبوّة» أو «المعاد» تعيَّن منهما ذلك المفهوم الإسلامي الذي يفهمه المسلمون ويدينون به.

ولقد أدرَكَ «الباطنيةُ» بذكائهم ، أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساسٌ تقوم عليه الحياة الإسلامية ، والهيكل الفكري والعملي في حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التي يمتاز بها المسلمون.

وعن طريق هذه الصلة يتَّصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فإذا انقطعتْ هذه الصلة ـ بين الكلمات والمعاني ـ وأصبحتِ الكلمات لا تدلُّ على معنىً خاصٍ ومفهوم معين ، أو تَسرَّب الشك والاختلاف إليها ، أصبحتْ هذه الأمة فريسةً لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويُروِّج على كثير من العامة وأشباه العامة؛ بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون.

قالوا: «إنَّ لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللُّبِّ من القِشر ، وإنها بصُورتها تُوهِمُ الجهّال صوراً جَليَّـة ، وهي عند العقلاء

رموزٌ وإشارات إلى حقائق خفية؛ وإن من تَقاعدَ عقلُه عن الغوص عن الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار؛ وقنَع بظواهرها ، كانَ تحت الأغلال التي هي تكليفاتُ الشرع ، ومن ارتقى إلى عالم الباطن سقطَ عنه التكليف، واستراح من أعبائِه، قالوا: وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] [الأعراف:١٥٧] .

ولمَّا تَقرَّرَ أنَّ لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً ـ والباطن هو اللُّب ـ استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم ، وأطلقوا العنان ، وفسَّروا هذه الكلمات والحقائق بما شاؤوا وشاءَ لهم عبثُهُم وثِـقتهم بتقليد المستمعين وبساطتهم ، وهنا أمثلةٌ طريفةٌ لهذا التفسيرالتقطناها من كتاب (قواعد عقائد آل محمد) ، لمحمد بن الحسن الدَّيلميِّ اليماني ، من علماء أوائل القرن الثامن الهجري ، وهو ثِقةٌ مأمون في النقل.

«يقولون للشرائع باطنٌ لا يعرفه إلا الإمامُ ، ومن ينَوبُ منابه ، وكذلك كلُّ ما وَرد في الحشر والنشر وغيرها ، فكلُّها أمثلة ورموز إلى بواطن ، فمعنى الغُسل: تجديدُ العهد عليه ، ومعنى الجِماع: مكالمة من لاعهد له بالباطن. . . والزِّنى: إلقاء العلم في سمع من لم يعاهده. والاحتلام: سبق اللسان لمذهب الباطن. والطَّهور: التبرؤ من كلِّ مذهب خالف الباطنية. والتيمم: الأخذ للعلم من المأذون. والصلاة: الدعاء إلى الإمام. والزكاة: بَثُّ العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها. والصوم: كتمان العلم عن أهل الظاهر ، وكذلك كتمان المذهب. والحج: طلب العلم الذي تُشد رحائل العقل إليه. وقيل: الكعبة: النبي ، والباب: علي. والصفا: النبي. والمروَة: علي. والميقات: علي. والتلبية: إجابة الداعي إلى باطنهم. والطوافُ بالبيت سبعاً: هو الطواف لمحمد إلى تمام الأئمة السبعة. وصلاة الفجر دليلٌ على السابق. والظهر على التالي.

(١) تلبيس إبليس: لابن الجوزي ، ص١٠٢.

والعصر على الأساس، وهو الوصي. والمغرب على الناطق. والعشاء على الإمام»[١].

وفي المعجزات قالوا: الطوفان: هو العِلم غرِق فيه أهل الشبه والظاهر، والسفينة: حِرزه الذي تحصَّن به المستجيب. ونار إبراهيم: غضب نمرودَ عليه. وذبح إسحاق: أخذُ العهد عليه. وعصا موسَى: حجته التي غلب بها عند المناظرة، وليست بخشبة. وانفلاقُ البحر: هو افتراق عِلم موسَى على أقسام، والبحر: هو العالم. والغمام الذي أظلهم: إمامٌ نَصبه موسى. والجراد والقمل والضفادع والدم: هو التزاماتُ موسَى واحتجاجاته. والمن والسلوى: علم نزل من السماء بداع من دعاتهم[٢].

ولعلَّ بعض القراء الكرام يشكُّون في صحة هذه الأقوال، وكيف تصدر من عاقل؟! ويتطرَّقُ الشَّك إلى ناقلها لكونه من أهل السنة، فهنا نُقولٌ من كتاب (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) للدكتور زاهد علي، ظهر حديثاً في الهند، مع ذكر مصادرها وهي كتب أئمة الإسماعيلية ودعاتها:

«لا إله إلا الله، تأويله: لا إمام إلا إمامُ الزمان[٣]. الوضوء: مولانا علي، بحُجَّة أن الحروف في كلتا الكلمتين ثلاثة[٤]. الصلاة: الرسول ﷺ، بحجة أنَّ الحروف في كلتا الكلمتين أربعة[٥]. لا صلاة إلا بوضوء: يعني لا يصِحُّ الإيمان بالرسول بغير الإيمان بوصاية علي[٦]. ركعات الظهر الأربع: محمد عليه الصلاة والسلام[٧]. ركعات العصر الأربع: دعوة مولانا

(١) قواعد عقائد آل محمد: ص١٧. وقد ذكر مثلها الغزالي في «المستظهري».
(٢) المصدر السابق: ص١٨.
(٣) تأويل الشريعة من كلام الإمام مولانا المعز: ص٤.
(٤) تأويل القاضي نعمان.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تأويل القاضي نعمان.
(٧) تأويل مولانا المعز.

علي[١] ، عيد الفطر : مولانا المهدي ؛ لأنَّه ظهرتْ منه دعوةُ الحق[٢] .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ : مولانا حسن بن علي ؛ لأن الله رقَّاه إلى درجة الإمامة ، ثم أهبطه ؛ فقد قطع من ذُريته الإمامة[٣] . ﴿ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ : مولانا الحسين ، وحُجَّته ابنه الذي خَلفه[٤] .

ولم يقتصرْ دعاة الباطنية على التميز بين الظاهر والباطن ، وتفضيل الباطن ؛ بل تدرَّجوا في استخفافٍ بالظاهر حتى جعلوه موضع سُخرية واستهزاء ، يتقذَّره الإنسان ويتبرَّأ منه .

يقول الدكتور زاهد علي : «لقد كان الأئمة والدُّعاة يُفهِمون تلاميذَهم في الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوجٌ ، وأن أهل الظاهر هم أهل الكفر ؛ بل أهل الشرك»[٥] .

ويقولُ في موضع آخر : «إن لُبَّ تعليماتنا الإسماعيلية ولبابها ، أنَّ الغاية من الشريعة التأويلُ الذي هو من الجسد كالروح ، وأن التنزيل ليس إلا جسماً»[٦] .

وتقدَّموا خطوةً أخرى ، فأعلنوا عقيدتهم أن الأئمة الذين هم أهل الأسرار والحقائق يُعطلون ظاهر الشريعة وينسخونه ، يقول سيدنا (إدريس) : «بعث الله محمد بن إسماعيل (ابن الإمام محمد باقر) وهو نبيٌّ ناطق ، نسخ شريعة محمد ﷺ»[٧] .

---

(١) تأويل مولانا المعز .
(٢) تأويل الدعائم .
(٣) المصدر السابق : ذكر ليلة القدر .
(٤) المصدر السابق .
(٥) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها : ص ت .
(٦) المصدر السابق : ص ٢٢ .
(٧) عاصمة نفوس المهتدين وقاصمة ظهور المعتدين : لسيدنا .

ثورةٌ على النُّبوءة المحمَّديَّة:

لقد كان إنكار المفاهيم الدينية التي تَوارثتها الأمة ، وتفسيرُ الكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء ، والفصل بين الظاهر والباطن ، باباً لم يزَل يدخل منه الثائرون على النبوَّة المحمدية ، والمؤامرات ضدَّ الإسلام.

لقد نصبوها ألغاماً ينسفون بها هذا النبأ العظيم الذي أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه ، والذي لا يزال يُؤوي هذه الأمة العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها، ويؤسسون على أنقاضه هيكلاً دينياً جديداً. لقد كان ذلك كله محاولةً لإنشاء دولةٍ مستقلة في ضِمن دولة الشريعة الإسلامية ، وإنشاءِ مجتمع مستقل في وسط المجتمع الإسلامي ، ولا شكَّ أنَّ دولةً من الدول لا تسمح بنشوء هذه الدولة واستفحالها في وسطها.

وقد رأينا المنافقين والمُلحدين الذين ثاروا على هذه النبوة المحمدية في زمانهم أسرعوا إلى إنكار هذا التواتر المعنوي ، والتوارث اللفظي ، وحاولوا أن يَجعلوا هذه الشريعة ومصطلحاتها ومفاهيمها بحيث يعبثُ بها العابثون؛ وبذلك مهَّدوا لأنفسهم قيامَ سيادة دينية ونبوة جديدة يتمتعون في ظِلِّها بسلطانٍ روحي ، وسَيطرة سياسية ، وحُرية مادية. ومن أوضح أمثلتها: «البهائية» في إيران ، و«القاديانيةُ» في الهند [1]. وكلها تلتقي إلى إنكار التوارث المعنوي ، وتأويل الكلمات الشرعية الإسلامية المتواترة ـ تأويلاً لا يقوم على اللغة ، والقياس ، والمنطق ـ والاتجاه إلى إنكار الحقائق الغيبية ، والخرق للسنن الطبيعية ، وتلتقي أولاً وآخِراً على إنكار عقيدة ختم النبوَّة.

وقد كانت الباطنيةُ مؤسسةً على الفلسفة اللاهوتية اليونانية ، وعلى

---

(١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف «القادياني والقاديانية دراسة وتحليل». [وقد طُبع مع مقالات الشيخ أبي الأعلى المودودي والأستاذ إحسان إلهي ظهير ، في دار ابن كثير بدمشق بعنوان: «القادياني والقاديانية دراسة وتحليل وعرض علمي»].

الطبيعيات ، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاء وحرية ، وطَبَّقوا الفلسفة ولغتها وتفكيرها على ديانتهم الجديدة ، ونظامِ عقائدهم وأفكارهم.

ولعلَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذه الفلسفة ، وما جاء فيها من عقائد وأفكار ، حقائقُ علمية ثابتةٌ ، لا تتزعزع ولا تقبل النقاش ، وأنها تَظلُّ كذلك؛ فأرادوا أن يُضفوا بذلك على عقائدهم الواهية شيئاً كثيراً من قدسية العلم ورَوْعَتِه ، وأن يجذبوا إليها كثيراً من النشء الجديد الذي أغشاه ضوء الفلسفة وخلَع قلبه مصطلحاتُهَا المفخمة ، وتشقيقاتُها الدقيقة ، وقد انتقد ذلك العالم الإسماعيلي الدكتور زاهد علي في كتابه (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) يقول: «لقد اعتقدنا أنَّ جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم ، وفي علم الطبيعيات ، وعلم الإلهيات ، صحيحةٌ لا يتطرَّق إليها الشكُّ ، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا الإسماعيلية ونظامِها وحدودها ، وادَّعينا أنَّ المسائل التي قدَّمناها حقائقُ علمية» [(١)].

ويقول في موضع آخر:

«لقد تناولنا معارف المعتزلة بشيء من التغيير ، وأفرغناها في قالبنا؛ ولذلك يقال: إن أكثر معلومات الإسماعيلية ملتقطة من المعتزلة والفلاسفة» [(٢)].

ويقول في موضع آخر:

«لقد وضعنا العقلَ الأول أو العقل العاشر أو إمام الزمان (كما نسميه نحن) بكل ما يوصف به المبدأ الأول والذاتُ الإلهية ، حتى إننا نعني العقل الأول أو إمام الزمان بكل ما جاء في وصف الله تعالى في قوله: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) ديانتنا الإسماعيلية ونظامها: ص ٢٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٥.

﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢] وقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤] إلى آخر الآيات [١].

ولا شكَّ أنَّ الباطنية تبنَّوا الفلسفة؛ فكان طبيعياً أن يكون أكثر اعتمادهم على المشتغلين بالفلسفة وأنصارها، وكان طبيعياً أن يتتبعوهم ويلاحقوهم، يظهر ذلك في نفس كتابات دعاة الإسماعيلية القدماء ورسائلهم ووصاياهم؛ فقد بعث عبد الله بن الحسن القَيْرواني ـ أحد دعاة الإسماعيلية ـ رسالة إلى أبي الحسن بن سعيد الجنابي، زعيم القرامطة، يقول فيها: «ادعُ الناسَ بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كلَّ واحد منهم بأنك منهم، فمن أنسْتَ منهم رشداً فاكشف له الغطاء، وإذا ظَفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة مُعوَّلنا» [٢].

وقد لاحظ ذلك المستشرقُ (دوزي) فقال عن مؤسِّس الدعوة الإسماعيلية، وهو عبد الله بن ميمون القَدَّاح:

«ولم يبحث ابنُ ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشِّيعة الخُلَّص؛ ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمدُ إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدَهم استطاع أن يُفضي بسره وخَفيِّ عقيدته، وهو: أنَّ الأئمة والأديان والأخلاق ليستْ إلا ضلالاً وسخرية، وأن باقي البشر ـ أو الحُمُر كما يسمِّيهم ـ ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادىء؛ غير أنه، تحقيقاً لغايته، لم يَعفَّ عن مؤازرتهم؛ بل كان يلتمسُها، ويحذر في نفس الوقت من أن يَحشُد الأنفس المخلصة الطائعة إلا في المرتبة الأولى لدعوته» [٣].

وقد ساعَدَ الباطنيةَ انتشارُ الفلسفة، والاضطرابُ الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي بصراع الفلسفة وعلم الكلام الذي أدَّى إلى التقعُّر وتشقيق

(١) دياناتنا الإسماعيلية ونظامها: ص ٢٦.
(٢) الفرق بين الفرق: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٣) إخوان الصفا: تأليف الأستاذ عمر الدسوقي، ص ٢٥.

الشَّعرة ، وقد ألفته الأذهان ، وأُولع به الشبان ، ووُجد في المتعلِّمين وأنصاف المتعلِّمين وَلعٌ بالعلوم الغامضة ، وبما يشبه العلوم الغامضة والحقائق البعيدة الغَور؛ فنفقتْ سُوقُ الباطنية وهَبَّت ريحهم ونَمت تجارتهم ، واجتمع حولهم أناس بدوافع مختلفة وأغراض شتَّى.

منهم من دفعه إليهم أخذُ الثأر من الذين كانوا سبباً في ذهاب دولتهم وملكهم.

ومنهم من دفعه بُغض الدولة العباسية القائمة ، وما يُعانونه من ظُلمٍ وحيفٍ في ظلها ، والباطنية هم الذين يعملون ضدَّها وينتصبون لها.

ومنهم من دفعته الرغبة في الأسرار والغوامض ، ومنهم من دفعه إليهم ردُّ فعل ضدَّ الظاهرية السائدة ، والتمسُّك بالقشور والإلحاح عليهما إلحاحاً زائداً ، وإنكار كل ما زاد عليها.

وكثيرٌ منهم اندفع وراء إشباع الرغبات والتهام اللذات التي يُمكِّن منها الباطنية ولا يُمكِّن منها غيرُهم.

وكثيرٌ منهم من دفعه الغضب لأهل البيت والتَّشيعُ لهم ، وكانت الباطنية تنشر دعوتَها باسمهم وتدعو إليهم.

ومهما اختلفت الدوافع والأغراض فقد كسبتِ الباطنية شيَعاً وأنصاراً، وأصبحتْ مؤسسة سِريَّة يُرهَبُ جانبها وتُخشى غائلتها ، حتى أصبحت في زمن قريب قوة تحسب لها الحكومات الإسلامية الكبيرة الحسابَ الكبير ، وظلَّت منها مدةً طويلةً في تَعب عظيمٍ وعناء كبير ، وأضحى كثيرٌ من رجالاتها ووزراء الحكومات صرعى الإرهاب ، واغتيلت نفوسٌ كان غناؤها للإسلام عظيماً ، كنظام المُلك الطوسي ، وفخْر المُلك؛ حتى أتى على المسلمين حينٌ من الدهر، ولا يَعرفُ العالم منهم أو الوزير أو القائد، إذا نام في الليل ، هل يُصبح سالماً أو يكون فريسةَ أحد الإرهابيين ؟!.

قال ابن الجوزي: «واستفحلَ أمرهم بأصبهان ، وآل الأمر إلى أنهم كانوا

يسرقون الإنسان ويقتلونه ويُلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقتُ العصر ولم يعد إلى منزله ، أيِسوا منه»[١] .

هذا عدا ما دسُّوا في العلم والأدب ، وعدا ما تأثَّرت بهم العقول والنفوس؛ حتى تجاسَر الناس على تأويل النُّصوص والقطعيات، وتحريفِ الأصول والمحكمات ، ووُجد في الناس إقبال غريبٌ على الإلحاد والتطرف في الاعتقاد.

إخـوانُ الصَّفَـا:

وقد قَامتْ في العراق في القرن الرابع الهجري ـ وهو قرنٌ قد بلغ فيه الاضطراب الفكري والاضطراب السياسي أوجَهما ـ جماعةٌ سرِّية كالمَاسونية ، تجمع مزيجاً من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ، تَسمَّى بإخوان الصَّفاء ، وكان أصحابُها متأثِّرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يُريدون أن يَضعوا للناس مذهباً جديداً يجمع بين إلهيات اليونان ، ونظرياتِ أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم ، وبينَ العبادات الشرعية الإسلامية ، والطهارة والمروءة والأخلاق الثابتة في كل دين وأمة، وعقيدة الشيعة الإسماعيلية ، ويخرجوا على الناس بخليط فيه حِكمة اليونان وتنظيم الأديان.

يَصفهم أبو حيَّان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» فيقول:

«وكانت هذه العصابةُ قد تألَّفت بالعُشرة ، وتصافت بالصَّداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة؛ فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله؛ وذلك أنَّهم قالوا إنَّ الشريعة قد دُنِّست بالجهالات ، واختلطتْ بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية ، والمصلحةِ الاجتهادية ، وزعموا أنَّه متى انتظمتِ الفلسفة اليونانيةُ والشريعة العربيةُ ، فقد حصل الكمال.

(١) تلبيس إبليس: ص ١١٠.

وصنَّفوا خمسين رسالة [١] في جميع أجزاء الفلسفة عِلْمِيّها وعَمَليّها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها «رسائل إخوان الصفا» ، وكتموا فيها أسماءهم ، وبَثُّوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشَوْا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطُّرق المُوهِمة» .

وهذه الرسائلُ تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات ، ويعوزُها التَّعمق والنظام ، ويظهرُ فيها الإغراق في الخيال ، والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فَحْص وانتقاد ، والبحث في كل علم من غير إشباع وإقناع .

وقد لاحظ ذلك أبو حيَّان فقال : «مبثوثةٌ من كل فنٍّ بلا إشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد [٢] ، ويُفسرون الآخرة والجنة والنار خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفُهِم من النصوص الدينية القطعية [٣] ، ويُنكرون الشياطينَ على الصورة التي يَفهمها معظم المسلمين ، ويقولون : هي النفوس الشِّريرة الهائمةُ فيما دون فَلَك القمر مع أخواتها من النفوس التي جَهلت ذواتَها في الدنيا» [٤] . ويُفسِّرون الكفرَ [٥] والعذابَ [٦] تفسيراً باطنياً فلسفياً .

وتشتملُ على كثير من الآراء الخيالية ، وبعضها متلقَّف من اليونان ، وبعضها وليدُ الأذهان ، وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد [٧] والتنجيم ، والفالِ ، والزَّجْر [٨] ، والسِّحر ، والعزائمِ [٩] ، والإيمان بطوالعِ

(١) الصحيح أنها إحدى وخمسون رسالة .
(٢) رسائل إخوان الصفا : ج٤ ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٣) انظر : رسائل إخوان الصفا : ج٣ ص٧٨ وج٤ ص٤٠ .
(٤) رسائل إخوان الصفا : ج٤ ، ص٢٦ .
(٥) المصدر السابق : ج٣ ، ص٧٦ .
(٦) المصدر السابق : ص٧٦ .
(٧) المصدر السابق : ص٢٧ ـ ٢٨ .
(٨) المصدر السابق : ص١٠٦ .
(٩) المصدر السابق : ص٣٢٠ .

النجوم وتأثيرها [١]، وموسيقا الأفلاك ونغماتها وألحانها [٢]، وتشتملُ كذلك على عقيدة الوحي [٣]، والإمامِ المستور [٤]، والتقية[٥].

وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة، تقوم على إمامة أهل البيت، وإخطار بانتهاء أمد الدولة العباسية وزوالها، وقد جاء فيها ما يلي: «وقد ترون أيها الإخوان ـ أيّدكم الله وإيانا بروح منه ـ أنه قد تناهت قُوة أهل الشَّر، وكثُرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التَّناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنُّقصان، واعلم أنَّ المُلك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودَور وقران من أمة إلى أمة، ومن أهل بيتٍ إلى أهل بيتٍ، ومن أهل بلدٍ إلى أهل بلدٍ» [٦].

وبالاختصار: إنَّ رسائل إخوانِ الصفا مجموعةٌ غريبةٌ من الحكمة والديانة والشَّعوَذةِ والكَهانة والسياسة، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية، ونظرياتها وأوهامها، وتنهار بانهيارها، وليست لها أهميةٌ كبيرة. ولولا الاضطراب الفكري الذي يسود في القرن الرابع والخامس، وإجلالُ كل ما يظهر في الصبغة الفلسفية، لمَا نالتْ هذا الاهتمامَ، ولما استحقتْ أن يتناقلها المعتزلة ومن جرى مجراهم، يتدارسونها ويحملونها معهم سيراً إلى بلاد الإسلام [٧].

وكانتْ هذه الرسائلُ محاولةً لوضع نظام جديد: خُلقي، إلهي، علمي، يحلُّ محل الشريعة الإسلامية التي كان يعتقد «إخوان الصفا» أنها ـ بشكلها

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ص٩٥.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) المصدر السابق: ص٤٠٤.
(٤) المصدر السابق: ص٨٦ ج٤، ص٥٧.
(٥) المصدر السابق: ص٣٠٨.
(٦) المصدر السابق: ص٢٣٤ [illegible]
(٧) [illegible] الإسلام: للطفي [illegible]، ص٢٥٤.

الحاضر ـ قد أصبحتْ عتيقة لا تُؤدِّي رسالتها.

وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً؛ فلم تُنتج نظاماً علمياً، ولم تُنْشِىء مجتمعاً يقوم على أساس، وأصبحت في مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التي لا تأثير لها في الحياة، ولا محل لها إلا في المتاحف والمكتبات.

ويبدو لي كلَّما قرأتُ تاريخ الباطنية وإخوان الصفا، وتاريخ البهائية والقاديانية، أنَّ أصحابها قرؤوا تاريخَ الإسلام، وتاريخَ الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية؛ فرأوا رجلاً يقوم في جزيرة العرب وحيداً فقيراً أعزل، ويدعو إلى عقيدة وشريعة، فلا يلبثُ أن يكوِّن أمةً، ويُكوِّن دولةً، ويُكوِّن حضارةً، ويُرغم التاريخ على أن يَنحو نحواً جديداً؛ فغرَّت هؤلاء نفوسُهم الطامحة، وأغرتهم بأن يجربوا هذه التجربة، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع، عسى أن يُكوِّنوا أمةً ودولةً وحضارة، ولماذا لا تثمر الجهود؟ ولماذا لا تَتكرَّر المعجزة، والفِطرة البشرية لا تزال هي الفطرة، ولا يزال الناس أشباهاً ؟!.

لقد رأى هؤلاء الطامحون هذا الرجلَ الوحيدَ الفقير الأعزل، ولم يروا ما يَعتز به من رسالة ونبوءة وشخصية وسيرة، ولم يروا تلك الإرادة الإلهية الغلاَّبة التي قضتْ بانتصاره وظُهوره وخلوده: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد أثمرتْ جهودُهم مُؤقتاً، فكان لهم أتباعٌ وأشياع، وقد استطاع بعضُهم ـ كالباطنية ـ أن يُقيم دولة، وقد ازدهرتْ هذه الدولة، وبقيتْ ـ ما بقيت ـ تنظيماتُهم وحِيلهم واستدراجاتهم، وما لبث أن تبخَّرتْ وتلاشتْ، وبقيت دياناتُهم في نطاق ضيق لا تقدِّم ولا تؤخِّر في العالَم.

أمَّا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فلا يزالُ القوة الروحية الكبرى، ولا يزال صاحبَ أمة ودُول وحضارة، وأما شمس النبوة المحمدية فلا تزال مُشرقة لم تنكَسفْ، ولم تحتجبْ يوماً واحداً.

الحَاجةُ إلى شَخصيّةٍ قويةٍ جَديدةٍ:

وعلى كلٍّ فقد كان العالم الإسلامي في القرن الخامس ـ وقد تواضعتْ على إضعافه الفلسفةُ والباطنية ، وأحدثتا تبلبُلاً فكرياً ، يَجرُّه إلى الإلحاد في العقيدة ، والتدهور في الأخلاق ، والاضطراب في السياسة ـ في حاجة مُلِحَّة إلى شخصيةٍ قوية جديدة تردُّ إليه الإيمان بالعقيدة ، والاعتمادَ على مصادر الدين الأصلية ، والاستقامة في الأخلاق ، ويُنتج الإنتاجَ الجديد الذي تكسُد معه سوق الباطنية ، وتركُد ريحها ، وتعرض الإسلام عرضاً عقلياً جميلاً تَدْحض معه حُجج الفلاسفة والباطنية ، وكان لا بد لهذه الشخصية أن تكون جَامعة بين العلوم العقلية والنقلية ، لها في كل منهما قدمٌ راسخة ، وباعٌ طويل ، ونظر نافذ ، وتكون عقلية كبيرة تُناهض فلاسفة اليونان ، وقادة الفكر في العالم ، تجري معهم في رهان واحد ، وتستطيعُ أن تُدوِّن كثيراً من العلوم تدويناً جديداً ، وتقول فيهما كلمتها ، وتجمعُ إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية الإيمان القويَّ الراسخَ الذي اكتسَبه هذا الرجل بدراسته وتأملاتِه ، وإخلاصِه وجهاده في سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين ، ويستطيعُ بكل ذلك أن يَنفُخ في المجتمع الإسلامي روحاً جديدة وحياة جديدة.

لقد رُزق العالمُ الإسلاميُّ ـ وهو في أشدِّ حاجةٍ وأدقِّ ساعةٍ ـ هذه الشخصيّة الفذَّة ، في منتصفِ القرن الهجري، هي شخصيةُ الغزاليِّ التي ستكون موضعَ عِدَّة فصولٍ مقبلةٍ.

* * *

حُجَّة الإسلام الغزالي

حياتُه ودراسته

حَيَاتُهُ ودِرَاسَتُهُ.

نَاقِدٌ لِلفَلْسَفَةِ ومُتَكَلِّم.

مُصلِح اجتِمَاعِيٌّ.

المحاضرة الثامنة:

حجّةُ الإِسلامِ الغزالـي
حياتُـه ودِرَاستُـه

نشأته ودراسته:

هو محمَّدُ بنُ محمد بنِ أحمد الطُّوسيُّ ، أبو حامد الغزالي.

وُلد في طابران؛ من ناحية طُوس [1] سنة ٤٥٠هـ ، وكان أبوه فقيراً ، صالحاً ، لا يأكل إلاَّ من كَسب يدهِ في عمل غَزْل الصُّوف ، ويَطوفُ على المُتفقِّهة ويُجالسهم ويتوفَّر على خدمتهم ، ويَجدُّ في الإحسان إليهم ، والنفَقة بما يُمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرَّع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعلَه فقيهاً. ويحضرُ مجالس الوعظ ، فإذا طاب وقته بكى ، وسأل الله أن يرزقه ابناً؛ فاستجاب الله دعوتَه [2].

ولمَّا حضرتْ أباه الوفاةُ ، وصَّى به وبأخيه أحمدَ إلى صديقٍ له مُتصوِّفٍ من أهل الخير ، فلما ماتَ أقبل الصُّوفيُّ على تعليمهما، إلى أن فَنِي ذلك النَّزْرُ اليسير الذي كان خلَّفه لهما أبوهما ، وتعذَّر على الصُّوفيِّ القيام بقُوتِهما ، فقال

(١) مقاطعة في خراسان شمالي شرقي إيران وتسمى الآن «مشهد».
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ج٤ ، ص١٠٢.

لهما: اعلما أني قد أنفقتُ عليكما ما كان لكما ، وأنا رجلٌ من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأَصلحُ ما أرى لكما أن تلْجأا إلى مدرسةٍ؛ فإنكما من طلبة العلم ، فيحصلَ لكما قُوتٌ يُعينُكما على وقتكما. ففعلا ذلك [١].

قَرَأَ الغزالي في صِباه طرفاً من الفِقه ببلده على أحمد بن محمد الرَّاذكاني ، ثم سافر إلى جُرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وعلّق عنه التّعليقةَ ، ثم رجع إلى طُوس ، قال: «قُطِعتْ علينا الطريقُ ، وأخذ العيّارون جميع ما معي ، ومضوا ، فتَبعتُهم ، فالتفتَ إليَّ مُقدَّمهم ، وقال: ارجع ويحك؛ وإلا هلكتَ. فقلتُ له: أسألك بالذي ترجو السّلامةَ منه أن تَرُد عليَّ تعليقَتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعونَ به.

فقال لي: وما هي تعليقتك؟

فقلت: كتبٌ في تلك المخلاة ، هاجرتُ لسماعها وكتابَتها ومعرفةِ عِلْمها ، فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عَرفتَ عِلْمها وقد أخذنَاها منك؛ فتجرَّدتَ من معرفتها ، وبقيتَ بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة. قال الغزاليُّ: هذا مستنطَقٌ أنطقه الله ليرشد به أمري ، فلما وافيتُ طوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاثَ سنين ، حتى حَفظتُ جميع ما علَّقتُه ، وصِرت بحيث لو قُطع علي الطريق لم أتجرَّدْ من علمي» [٢].

وقَدِم الغزاليُّ نيسابور ـ وهي عاصمة السَّلجوقيين ، ومدينةُ العلم بعد بغداد ـ ولازم إمام الحرمين ـ وهو من عَرفنا شخصيته وجلالته في العلم والتدريس ـ وجدَّ واجتهد حتى برَع في المذهب والخِلاف والجدل والأصول. وكانتِ العلومَ السائدةَ في عصره.

وأُعجِب بذكائه وغَوْصِهِ على المعاني الدقيقة واتساعِ معلوماته إمامُ

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ج٤ ، ص١٠٢.
(٢) المصدر السابق: ج٤ ، ص١٠٢.

الحرمين؛ فكان يقول: «الغزالي بَحْر مُغدِقٌ» [1] وفاق أقرانَه وهم أربعمئة؛ حتى أصبح مُعيداً لأستاذه ونائباً عنه.

ولمّا مات إمامُ الحرمين (٤٧٨هـ) خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزيرَ نظام المُلك، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سِنّه، وقد ظهر فضْلُه وذاع صِيته، وكان مجلسُ الوزير مجمعَ أهل العلم وملاذَهم، وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية والمطارحات الكلامية، فناظر الغزاليُّ الأئمةَ العلماء في مجلس نِظام المُلك، وقَهر الخصوم، وظهَر كلامُه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقَّاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولّاه تدريسَ مدرسته (النظامية) ببغداد، وكان ذلك غايةَ ما يطمحُ إليه العلماء، ويتنافسون فيه.

فقدِمَ بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعِمئة ولم يتجاوزِ الرابعة والثلاثين من عمره، وقلَّما تقلَّد هذا المنصب الرفيع عالمٌ وهو في هذه السن.

درَّسَ الغزاليُّ بالنظامية، وأَعجب الخلقَ حُسنُ كلامِه، وكمالُ فضله، وفصاحـةُ لسانـه، ونُكَتُه الدقيقةُ، وإشاراتُه اللطيفةُ، وأحبُّوه [2].

قال معاصره عبد الغـافر الفارسي: وَعَلتْ حشمَـتُه ودرجتهُ في بغداد؛ حتى كانت تغلِبُ حِشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة [3]. وكان يقرأ عليه جَمٌّ غفيرٌ من الطلبة المحصِّلين. يقول في «المنقذ من الضَّلال» في وصف حالهِ والنِّظامية: «وأنا مَمْنُوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئةِ نفس من الطلبة ببغداد» [4].

وأرسله الخليفةُ العباسي المقتدي بالله عام (٤٨٥ هـ) إلى زوجة ملك شاه السلجوقي «تُركان خاتُون» التي كانت مالكـةً لزمام المملكـة. وكان الخليفـةُ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ص١٠٣.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ص١٠٦.
(٣) المصدر السابق: ص١٠٧.
(٤) المنقذ من الضلال: مطبعة الترقي، ص٨٥.

المستظهر معجَباً بـه ، خاضعـاً لفضلـه ، وباقتراحِـه ألَّف الغزالـي كتابـه فـي الـرد على الباطنيـة وسمَّاه «المُستظهري» .

اعتـزالُ الغـزالـي عـن التَّدريس وخـروجـه فـي طلب السعـادة واليقيـن:

لقد بلغتْ شُهرةُ الغزاليّ ومكانته العلميةُ في العالم الإسلامي أوجها ، ووصَل الرجُل إلى أقصى ما يصل إليه عالِم في ذلك العصر من المجدِ والسُّمو والرئاسة ، وأقبل إليه الطلبة من الآفاق، وخَضعَ له العلماء والأمراء والوزراء ، وبقيَ في عاصمة العالم الإسلامي يُدرِّس ويُفيد ويؤلف ، وكان في ذلك ما يُرضي عالماً يحرص على الإفادة ونشر العلم ، وطَموحاً يُريد الرئاسة والمجد .

وكان المنتظرُ أن يبقى الغزالي ـ وقد انتهت إليه رئاسة العِلم في العالم الإسلامي ـ في مركزه العلميِّ الذي ليس فوقه مركزٌ ، ويقضي حياته بين حلقات الطلبة التي تُحيط به ، وجموعِ المستمعين والقاصدين التي تُحدِق به ، وبين إعجاب الناس وثنائهم قريرَ العين ، رَخِيَّ البال ، مرفوعَ الرأس ، عظيمَ الجاه ، كما فعل كَثيرٌ من أساتذته وأكثر أقرانه وزملائه . ولكنَّ الغزاليَّ لم يفعلْ ذلك ، ولم تَسْمح له نفسُه القَلِقَةُ وهِمَّته القعساء بأن يستمرَّ في ذلك .

وفي هذا القلق ، وفي هذا التمرد على ما تهيَّأ له من جاهٍ ومجْدٍ ، سِرُّ عبقريته ، وسِرُّ خلوده من بين الأقران والأعيان ، ولذلك سُميَ «حُجَّة الإسلام» وقد استطاع بقُوة إرادتِه، وصِدْق طَلَبه، وعُلو هِمّته ، أن يُضحِّيَ بأكبر منصب وأعظم جاهٍ يَطمحُ إليه العلماء والأذكياء في عصره ، ثم لا يناله إلا الواحد بعد الواحد في مدة طويلة، وسَهُل عليه أن يتخلَّى عنه ويَعتزله، ويَنفُض يده من كل ما يملكه من مَالٍ وأثاثٍ ورياش ، وينتقلَ من دولة العلم التي كان يَحكمُ فيها وحدَه ويَسُود ، إلى الصحاري والخَلوات التي كان يعيشُ فيها عَيش الفقراء والغُرباء .

إنه مثالٌ رائعٌ في تاريخ العِلم والعقيدة تندُر نظائره في كل زمان ومكان.

وقد حكى لنا الغزاليُّ نفسُه قصةَ هذا التحوُّل العظيم، وذكَرَ أسبابه ودوافعه، والصراعَ النفسي الذي ظَلَّ يُعالجه مدةً طويلة، حتى تغلَّبتْ عليه الإرادةُ الصادقة. وخرَج من بغداد في طلبِ السعادة واليقين؛ حتى ظَفر بطُلبته، ورجع سعيداً مؤمناً، يستطيع أن يُقنع غيرَه ويملأه إيماناً ويقيناً، وكلُّ ذلك في أسلوب طبيعي جميل أخاذ، وبيان سهْلٍ سلسالٍ، يُحِلُّه في المكانة الأولى مما كُتب بالعربية من «اعترافات» و«مذكرات»، وفي المكانة السامية من الأدب العربي الذي يتدفَّق بالحياة. وإلى القُراء بعضُ قِطعها بالاختصار والاقتضاب:

بَحْثٌ عَن العِلْم اليقيني:

«قد كان التعطُّشُ إلى دَرْك حقائق الأمور دَأْبي ودَيدَني من أوَّل عمري، غَريزةً وفِطرة من الله وُضعتا في جِبِلَّتي، لا باختياري وحِيلتي حتى انحلَّتْ عني رابطة التقليد، وانكسرتْ عليَّ العقائد الموروثةُ على قُرب عهد سِنِّ الصّبا؛ إذ رأيت صِبيانَ النصارى لا يكون لهم نُشوء إلا على التَّنصُّر، وصبيان اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التَّهَوُّد، وصبيان المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الإسلام، وسمعتُ الحديث المرويَّ عن رسول الله ﷺ حيث قال: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسَانه»[1] فتحرَّك باطني إلى حقيقة الفِطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضِة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتَّمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تَلقينات، وفي تمييز الحقِّ منها عن الباطل اختلافاتٌ، فقُلتُ في نفسي أولاً: إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الأمور؛

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات... برقم (١٣٥٨) و(١٣٥٩)، والترمذي في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، برقم (٢١٣٨)، وأحمد (٢/ ٤٧٣)، ومالك في الموطأ (١/ ٢٤١) برقم (٥٧١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

فلا بـد من طلب حقيقة العلمِ ، ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه رَيبٌ ، ولا يُقارنه إمكان الغَلَطِ والوَهْم ، ولا يتَّسعُ القَلْبُ لتَقدير ذلك؛ بل الأمان من الخطأ يَنبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة ، لو تحدَّى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكّاً وإنكاراً.

فإنِّي إذا علمتُ أن العَشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائلٌ: لا ؛ بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقَلبها وشاهدتُ ذلك منه ، لم أشكَّ ـ بسببه ـ في معرفتي ، ولم يحصلْ لي منه إلا التَّـعَـجُّب من كيفية قدرته عليه . فأما الشَّكُّ فيما علمتُه ، فلا . . !

ثم علمتُ أنَّ كـلَّ ما لا أعلمه على هـذا الوجـه ، ولا أتيقَّـنُـه هذا النوعَ من اليقيـن؛ فهو عِلْـمٌ لا ثقـة بـه ، ولا أمـانَ معـه؛ فليس بعِلْمٍ يقينـي»[(١)] .

ويذكر الغزاليُّ بعد ذلك ،كيف فتَّش عن علومه ، فوجد نفسه عاطلةً من علم يقينيٍّ موصوفٍ بهذه الصفة إلا في الحسِّيات والضروريات ، ثم تأمَّلَ في المحسـوسـات والضـروريـات ، وشكَّـك نفسَـه فيهـا؛ حتـى بَطُلـتِ الثقـة بالمحسُوسات أيضاً ، وجعل يَشكُّ فيها.

يقول: «فأعضَلَ هذا الداءُ ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السَّفْسَطةِ بحكم الحال ، لا بحكم المَنطق والمقال؛ حتى شفى اللهُ تعالى من ذلك المرض ، وعادتِ النفس إلى الصحة والاعتدال؛ ورجعتِ الضروريات العقليةُ مقبولةً موثوقاً بها على أمن ويقينٍ، ولم يكن بِنظْم ودليلٍ وترتيب كلام؛ بل بنور قذَفَـهُ الله تَعالى في الصَّدْرِ»[(٢)] .

---

(١) المنقذ من الضلال: ص٦٩ ـ ٧١.
(٢) المصدر السابق: ص٧٥ ـ ٧٦.

اختبــارٌ لِعلْم الكَلام:

وبعد الشفاء من مَرض السَّفْسَطة والشَّكِّ في المحسوسات والضروريات، نظَر الغزالي في أصناف الطالبين حولَه ، فوجدها تَنْحَصر في أربعِ فرق ، هم:

١ ـ المتكلِّمون.

٢ ـ الباطنية.

٣ ـ الفلاسفة.

٤ ـ الصُّوفية.

وبدأ يسبر غورَها ، ويَنشد الحقَّ والشِّفاء من مَرضِه عندها ، وابتدأ بعلم الكلام فحصَّله وعقله ، وطالَع كُتب المحقِّقين منهم ، وأَحكمَ هذا العلم حتى صنَّف فيه.

قال: «فصادفتُه علماً وافياً بمقصوده ،غير وافٍ بمقصودي ، إنما مقصودُه حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنَّة ، وحراستُها عن تشويش أهل البدعة.

واعتمادُ المتكلِّمين على مقدِّمات تسلَّموها من خصومهم ، وكان أكثر خوضهم في استخراجِ مناقضات الخصومِ ، ومؤاخذتهم بلوازم مُسلَّماتهم» يقول: «وهذا قليلُ النفعِ في حقِّ من لا يُسلِّم سوى الضروريات شيئاً أصلاً؛ فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً»[1] .

دراســةُ الفَلسفة ورأيُ الغزاليِّ فيها:

ثم أَقبَلَ على الفلسفة اليونانية التي تزعُم أنها الطريقُ الوحيد المُوصِل إلى معرفة الحق و السعادة واليقين ، وهي العلم المبنيُّ على العقل والمَنطق والاستدلال ، ورأى الغزالي بعُلوِّ هِمَّته وما فُطِر عليه من الجدِّ والصرامة ، أنه لا يسوغُ له الحكم عليها ، وَبثُّ الرأي فيها ، حتى يكتنهها ، ويُحيط

(١) المنقذ من الضلال: ص٨٢.

بمقاصدها وكُلِّياتها؛ حتى يُساوي أعلمَ الناس في هذا الموضوع ، وأن لا يعتمدَ في ذلك على ما قال عنها خصومُها والهاجمون عليها ، بل على ما دوَّنه الثقاتُ منهم ، والمدافعون عنهم .

فأقبل يَدرُس الفلسفة في جِد وإخلاص ونهم وشغفٍ ؛ حتى وصل إلى أقصى ما يصل إليه عالِمٌ يتوفَّر على دراسة الفلسفة ويتعمَّق فيها .

وكان أول عالِم ديني فعل ذلك في عصره ، ونسمعُه الآن وهو يتحدَّث عن دراسته للفلسفة :

«ثم إنِّي ابتدأتُ ـ بعد الفراغ من علم الكلام ـ بعلم الفلسفة ، وعلمتُ ـ يقيناً ـ أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقفُ على مُنتهى ذلك العلم؛ حتى يُساوي أعلمَهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيدَ عليه ويُجاوزَ درجته؛ فيطلعَ على ما لم يَطَّلعْ عليه صاحبُ العلم من غَور وغائلة ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يَدَّعيه من فسادِه حقاً ، ولم أر أحداً من عُلماء الإسلام صرَف عنايته وهِمَّته إلى ذلك» .

«ولم يكن في كُتب (المتكلِّمين) من كلامهم ـ حيثُ اشتغلوا بالرَّد عليهم ـ إلا كلماتٌ مُعقَّدة مبدَّدةٌ ظاهرةُ التناقض والفساد ، لا يُظن الاغترار بها بعاقل عاميٍّ ، فضلاً عمن يدَّعي دقائق العلوم ، فعلمتُ أن ردَّ المذهب قبل فهمِه والاطلاع على كُنهه ردٌّ في عَماية ، فشمَّرتُ عن ساق الجِدّ في تحصيل ذَلك العِلْم من الكتُب بمجرَّد المطالعة من غير استعانة بأستاذ . وأقبلتُ على ذلك في أوقات فراغي من التَّصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا مَمْنُـوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفسٍ من الطلبة ببغداد؛ فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلَسة على منتَهى علومهم في أقلَّ من سنتين ، ثم لم أزل أواظبُ على التفكر فيه ، بعد فهمه ، قريباً من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائلَه وأغواره» [1] .

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٨٤ ـ ٨٥.

وبعد هذه الدراسة الشاملة العميقة التي أخلص فيها كلَّ الإخلاص ، وجدَّ فيها كلَّ الجد ، يئس الغزالي من الفلسفة أيضاً ، ولكنه لم يستعجل ولم يسرع في إبداء رأيه شأن كثير من علماء الدين في عصره وفي غير عصره ، ولم يظلمِ الفلسفة ، ولم يشملها باللعن والتكفير ، شأنَ كثير من الفقهاء ورجال الفتوى؛ بل تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم ، وذكر ما لهم وما عليهم ، وما يمسُّ الدِّين من آرائهم وبحوثهم ويتصلُ به ، وما لا يمسه ولا يتصل به ، وما يَستحِقُّون به التكفير. وما ليس من الدين في قليل ولا كثير.

وهو أولُ عالمٍ دينيٍّ يقومُ بهذا التحليل العلمي ، ويَتثبّت هذا التَّثَبُّتَ ، ويعرف تاريخ الفلسفة ، ويعرف طبقات رجالها ومُدونيها.

وأوّلُ عالم ديني يُنصف علومهم التجريبية النافعة ، ويعترف بصحة بعضها وإفادة هذه العلوم.

يقسِّم علومهم إلى ستة أقسام: (١) رياضية (٢) منطقية (٣) طبيعية (٤) إلهية (٥) سياسية (٦) وخُلقية.

ويقول عن الرياضية:

«وأمَّا الرِّياضية ، فتتعلَّق بِعلم الحساب والهندسة وعلم هَيئة العالم ، وليس يتعلَّق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً؛ بل هي أمور بُرهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمِها ومعرفتها»[١].

وهذا رأيٌ متوازنٌ يَدلُّ على سلامة التفكير وسعة الأفق ، ويزيد في قيمة كل ما يقول هذا الرجل في نَقد الفلسفة ، ولكن الغزالي لا يقتصرُ على الاعتراف بصحَّة العلوم الرياضية؛ بل يذكر ما تولَّد منها من الآفات ـ من غير قصد ـ يُرى تأثيرُها في المجتمع الإسلامي المعاصر.

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠.

يقول ـ وهو يذكر الآفة الأولى ـ: «الأولى من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيَحسن ـ بسبب ذلك ـ اعتقادُه في الفلاسفة؛ فيحسَب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سَمع كفرهم وتعطيلهم وتهاوُنهم بالشرع ما تَداولَتْهُ الألسنة؛ فَيَكْفُر بالتقليد المحض». ويقول: « لو كان الدين حقاً ؛ لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم؛ فإذا عرف بالتسامع كُفرَهم وجَحدهم؛ فيستدلُّ على أن الحق هو الجَحْد والإنكار للدين» (١) .

وكأنه يُصَوِّر ـ وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية وردَّ فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكايسين في عصره ـ عقلية النشء الجديد ، وكثير من المتعلِّمين في القرن العشرين ، الذين خَضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والاختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسُّخ خُلُقي؛ فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلَّدوهم فيه.

اسمعوه يقول ـ وكأنه في هذا العصر ، ويتحدَّث عن هذا الطراز ـ: «وكم رأيتُ من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستَند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطِّب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو؛ بل لكل صناعةٍ أهلٌ بلغوا فيها رُتبة البراعة والسَّبق ، وإن كان الحُمق والجهل قد يلزمُهم في غيرها.

فكلام الأوائل في الرياضيات بُرهانيٌ ، وفي الإلهيات تخمينيٌ ، لا يعرف ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيهِ؛ فهَذا ـ إذا قُرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد ـ لم يَقعْ منه موقع القبول؛ بل تَحمِلُه غَلَبَةُ الهوى ، وشهوة البطالة ، وحُبُّ التكايس ، على أن يُصرَّ على تحسين الظن بهم في العلومِ كُلِّها» (٢) .

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) المصدر السابق: ص ٩١.

وبعدما ذكر الرياضيات تكلَّم عن المنطقيات فيقول:

«لا يتعلَّقُ شيءٌ منها بالدين نفياً وإثباتاً؛ بل هو النظر في طُرق الأداة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، وشروطِ الحَد الصحيح، وكيفيةِ ترتيبه، وأن العلم إما تصوُّرٌ، وسبيلُ معرِفته الحدُّ، وإما تصديقٌ، وسبيل معرفتِه البُرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن يُنكَر؛ بل هو جنس ما ذكره المتكلمون وأهلُ النَّظر في الأدلة «وإنما يُفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتَّشعيبات» [١].

وهكذا يقول عن علم الطَّبيعيات، فبعدما يَشرحُه يقول:

وكما ليس من شرط الدِّين إنكارُ عِلم الطب؛ فليس من شرطه أيضاً إنكَار ذلك العلم إلا في مسائل معينة، ذكرناهَا في كتاب «تهافت الفلاسفة». ويقول:

«أمَّا السياسات، فجميعُ كلامهم فيها يَرجع إلى الحِكم المصلحيَّة المتعلقة بالأمور الدنيويـة، والإيالة السُّلطانيـة، وإنما أخذوها من كُتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحِكَم المأثورة عن سَلَف الأنبياء» [٢].

ويقول: «أمَّا الخُلُقية، فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفيةِ معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، ولقد كان في عصرهم؛ بل كان في كلِّ عصرٍ جماعةٌ من المتألِّهين» [٣].

وبعدما ذكر هذه العلوم التي لا تتصادم مع الدين الإسلامي إلا في النادر ذكر الغزالي العلمَ الذي تركَّز فيه الصراع بين الإسلام والفلسفة، وهو علم الإلهيات. يقول:

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٠.

«وأمَّا الإلهيات ففيها أكثرُ أغاليطهم؛ فَما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثُر الاختلاف بينهم فيها» [١].

وبعدما نظر الغزاليُّ في جميع هذه العلوم نظرة عميقة واسعة، ودرسها دراسَة مُتخصِّص مُتوسِّع، يَئسَ من أن ينال بُغيته في هذه العلوم. يقول:

«ثم إنِّي لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتَفهُّمه، وتزييف ما يُـزَيَّف منه علمتُ أن ذلك أيضاً غيرُ واف بكمال الغرض. وأن العقل ليس مستقـلاً بالإحاطـة بجميع المطـالب. ولا كاشفـاً للغطـاء عن جميـع المعضلات» [٢].

اختبار للباطنية ويأس الغزالي منها:

وهنا أقبل إلى الباطنية التي عَظُم شأنُها في عصره واستهووا كثيراً من الشبان ومن طلبة العلم. فأقبل إليهم الغزالي؛ لأنه ضعُفت ثِقته بالعقل والدليل. وكان الباطنية يزعمون أنهم يأخذون عِلمهم من الإمام المعصوم القائم بالحق. وهو مَصدَر العلم الذي يصح الاعتمادُ عليه والثقة به؛ فكان طبيعياً أن يلجأ إليهم الغزاليُّ ويجرِّبَهم ـ وقد يئس من الفلسفة ـ وقد قام بهذه التجربة. ودرسَ عقائد الباطنية وعلومَهم دراسته للفلسفة وفروعها. وانتهى إلى نفس النتيجة.

ندعه يَتحدَّث عن تجربته الجديدة [٣]:

«وكان قد نَبغتْ نابغةٌ تَعليميةٌ، وشاع بين الخلق تَحدّثُهم بمعرفةِ معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائِم بالحق، عَنَّ لي أن أبحث عن مقالاتهم، لأطَّلعَ على ما في كتبهم، ثم اتّفق أن وَرد عليَّ أمرٌ جازم من حضرة الخلافة بتصنيفِ كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يَسعْني مدافعتـه، وصار ذلِك مُستحثّاً من خارج، ضميمـةً للباعث الأصلي من الباطن،

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٨.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٩.

فابتدأتُ بِطَلب كُتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغني بعضُ كلماتهم المستحدَثة التي ولَّدتْها خواطرُ أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلَفهم ، فجمعتُ تلك الكلمات ، ورتَّبتها ترتيباً مُحكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيتُ الجواب عنها»[١] . «والمقصود أنِّي قررتُ شُبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرتُ فسادها بغاية البرهان»[٢] .

وقد اقتنع أخيراً بأنه «لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوءُ نصرة الصديقِ الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة»[٣] .

«إنَّ هؤلاء ليس معهم شيءٌ من الشّفاء المُنجي من ظلمات الآراء ، بل مع عَجْزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام طالما جاريناهم ، فصدَّقناهم في الحاجة إلى التعليم؛ وإلى المُعلّم المعصوم ، وأنه الذي عيَّنوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلَّموه من هذا المعصوم ، وعرضْنا عليهم إشكالات فلم يَفهموها فضلاً عن القيام بحلِّها ، فلما عجَزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا: إنه لا بُد من السفر إليه ، والعجبُ أنهم ضيَّعوا عُمرهم في طلب المعلم وفي التبجُّح بالظَّفَر به ، ولم يتعلَّموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمِّخ بالنجاسة يَتْعَبُ في طلب الماء حتى إذا وَجده لم يستعمله ، وبقي مُتَضَمِّخاً بالخبائث»[٤] .

«ومنهم مَن ادَّعى شيئاً من علمهم فكان حاصلُ ما ذكره من ركيكِ فلسفة فيثاغورس ، وهو رجلٌ من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرَكُّ مذاهبِ الفلسفة ، وقد ردّ عليه أرسطاطاليس؛ بل استَركَّ كلامه واسترْذَلَهُ ، وهو المحكي في كتاب «إخوان الصفا» وهو ـ على التحقيق ـ حَشْوُ الفلسفة .

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق: ص ١١١ .
(٣) المصدر السابق: ص ١١١ .
(٤) المصدر السابق: ص ١٢٠ .

فالعَجبُ ممَّن يَتعبُ طوال العمر في طلب العلم ، ثم يَقنع بمثل ذلك العلم الركيك المُستَغَث ، ويظُن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم! فهؤلاء أيضاً جرَّبناهم وسبَرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلُهم إلى استدراج العوام وضُعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلِّم ، ومجادلتِهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلامٍ قوي مُفْحِم؛ حتى إذا ساعدَهم علَى الحاجة إلى المعلّم مساعدٌ وقال: «هاتِ عِلْمَهُ، وأَفِدنا من تعليمه، وَقف وقال: «الآن إذا سلَّمْتَ لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القَدْر فقط» إذ علم أنه لو زاد على ذلك ، لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات بل عَجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه».

«فهذه حقيقةُ حالهم ، فاخْبُرهم تَقْلِهم ، فلما خَبرناهم نفضنا اليدَ عنهم أيضاً»[1].

إلى التَّصَوُّف:

وهنالك أقبل الغزاليُّ إلى التصوف ، وهو أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين ، ونَتركُهُ يُكمل الحديثَ ، ويُرسل النفس على سجيَّتها:

«ثم إنِّي لما فرغتُ من هذه العلوم أقبلت بِهمَّتي على طريق الصوفية ، وعلمتُ أن طريقَتهم إنما تتمُّ بعلمٍ وعمل ، وكان حَاصلَ عملهم قطعُ عقبات النفس ، والتَّنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثةِ ، وحتى يُتوصَّل بها إلى تخليةِ القلب عن غير الله تعالى ، وتحلِيَتهِ بذكر الله».

«وكان العِلمُ أيسَر عليَّ من العمل ، فابتدأتُ بتحصيل علمهم من مطالعة كُتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ـ رحمه الله ـ وكتب «الحارث المحاسبي» والمتفرقات المأثورة عن «الجُنيد» و«الشِّبلي» و«أبي يزيد البَسْطامي» ـ قدس الله أرواحهم ـ وغير ذلك من كلام مشائخهم ، حتى اطَّلعتُ على كُنهِ مقاصدهم العلمية ، وَحَصَّلْتُ ما يمكن أن يُحَصَّلَ من طريقهم بالتَّعلُّم

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٠ ـ ١٢١.

والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلُّم ، بل بالذوق والحال وتَبدل الصفات» [(١)] .

وبعدما يشرح الفرقَ بين العلم والحال ، ويَضرب لذلك المثالَ ، يقول: «فعلمت يقيناً أنهم أربابُ الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيلُه بطريق العلم فقد حصَّلْتُه ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك» [(٢)] .

وهنالك يشعر الغزاليُّ ـ بفطرته السليمة ومُحَاسبتِه الدقيقة ـ بنَقْصٍ فيه ، وبُعْدٍ عن الحقيقة والحال ، وعن مقام الإخلاص ، ويشعرُ بالخطر المحدِق به لو استمر على هذه الحال ، وهذا الشعور هو الذي يمتاز به الغزاليُّ عن عالم آخر كبير ، وعن مُدرس موفَّق تهيأتْ له أسبابُ النبوغ والمجد ، وخضعت له الأوساط العلمية في عصره ، وذلك الشعور هو الذي رَفعه فوق مستوى عصره ، وخلَّده في التاريخ ، يقول في صراحة وقُوة يمثلُ ما كان يَعتَوِرُه من صراعٍ نفسي:

«وكان قد ظهر عندي أنَّه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكفُّ النفسِ عن الهوى ، وأن رأسَ ذلك كلِّه قطعُ علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبالِ بكُنهِ الهِمَّة على الله تعالى ، وأنَّ ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهَرَب من الشواغل والعلائق» .

«ثم لاحظتُ أحوالي ، فإذا أنا منغمسٌ في العلائق ، وقد أحدَقتْ بي من الجوانب ، ولاحظتُ أعمالي ـ وأحسنُها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مُقبلٌ على علومٍ غيرِ مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة» .

«ثم تفكَّرْتُ في نيَّتي في التدريس ، فإذا هي غيرُ خالصة لوجه الله تعالى ،

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق: ص ١٢٦ .

بل باعِثُها ومحركها طلبُ الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقَّنتُ أني على شفا جُرُفٍ هار ، وأني قد أشفيْتُ على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال» [١] .

ثم يَذكُر حالةَ التردُّد والاصطراع النفسي التي بقي فيها مدة ، وصَوَّر حالَته النفسية تصويراً بارعاً:

«فلم أزل أتفكَّر فيه مُدَّة ـ وأنا بعد على مقام الاختيار ـ أُصَمّمُ العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلُّ العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصْدُق لي رغبةٌ في طلب الآخرة بُكْرةً ، إلا وتحمل عليها جُندُ الشهوة حملة ، فتُفتِرُها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تُجاذِبُني بسلاسلها إلى المُقام. ومُنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ! فلم يَبقَ من العمر إلاَّ القليل ، وبين يديك السَّفر الطويل ، وجميعُ ما أنت فيه من العلم والعمل رياءٌ وتخييلٌ ، فإن لم تستَعدَّ الآن للآخرة فمتى تستعدُّ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تَنبعِثُ الداعية ، ويَنجَزِمُ العَزْم على الهرب والفرار» .

ثم يعود الشيطانُ ويقول: «هذه حالة عارضة ، إياك أن تُطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنتَ لها وتركتَ هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمنَ المسلَّم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتَتْ إليه نفسُك ، ولايتيَّسر لك المُعاودة» [٢] .

الغزالي يُغادِرُ بَغدادَ:

ثم يَذكر كيف غُلِبَ على أمره ، وأفلت الزمام من يده ، وانتقل من الاختيار إلى الاضطرار ، حتى سَهُل عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفضُ اليد من الجاه والاعتبار ، وخرَج من بغداد يطلبُ السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية ، حتى

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

أكرمه الله بها ، ولنستمع إليه فهو في نهاية المطاف :

«فلم أَزَلْ أترَدَّدُ بين تَجاذُب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من سِتَّةِ أشهر؛ أوَّلُهَا رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمئة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدَّ الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفلَ الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنتُ أجاهد نفسي أن أدرِّس يوماً واحداً تطييباً للقُلوب المختلفِة إليَّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعُها البتة ، حتى أورثَتْ هذه العقلةُ في اللسان حُزناً في القلب ، بَطلت معه قوة الهَضم ومراءةُ الطعام والشراب ، فكان لا يُساغ لي ثريد ، ولا تَنهضِم لي لُقمة ، وتعدَّى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طَمَعَهم من العلاج ، وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروَّح السر عن الهَمِّ المُلم».

«ثم لمَّا أحْسَسْتُ بعجزي ، وسَقط بالكلية اختياري ، التجأتُ إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرتُ عزمَ الخروج إلى مكة وأنا أُدبر في نفسي سفرَ الشام ، حذراً أن يطلع الخليفة وجملةُ الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطَّفْتُ بلطائف الحِيل في الخروج من بغداد على عزمٍ ألاَّ أعاودها أبداً ، واستُهدفتُ لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يُجَوِّزُ أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلَغهم من العلم».

«ثم ارتبكَ الناسُ في الاستنباطات ، وظنَّ من بَعُدَ عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قَرُب من الولاة، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلُّق بي ، والانكباب علي، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم؛ فيقولون : هذا أمرٌ سماويٌّ ، وليس له سببٌ إلا عين أصابت أهل الإسلام وزُمرة العِلم».

«ففارقتُ بغداد ، وفرَّقتُ ما كان معي من المال ، ولم أدَّخِرْ إلا قَدر الكفاف وقُوتَ الأطفال؛ ترخيصاً بأنَّ مال العراق مُرصدٌ للمصالح ، لكونه وقفاً

على المسلمين ، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالِم لعياله أصلحَ منه».

«ثم دخلتُ الشام وأقمتُ به قريباً من سنتين ، لا شُغْلَ لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاقِ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصَّلتُه من علم الصوفية ، فكنتُ أعتكفُ مدَّة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طوال النهار ، وأُغلق بابها على نفسي».

«ثم رحلتُ منها إلى بيت المقدس ، أدخلُ كل يوم الصخرة ، وأُغلِق بابَها على نفسي ، ثم تَحرَّكت فيَّ داعيةُ فريضة الحج ، والاستمدادُ من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعدَ الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فَسِرْتُ إلى الحجاز».

«ثم جذَبتني الهِمَمُ ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودتُه بعد أن كنتُ أبعدَ الخلق عن الرجوع إليه ، فآثرتُ العُزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر».

«وكانت حوادثُ الزمان ، ومُهمَّات العيال ، وضرورات المعاش ، تُغيِّر وجه المراد ، وتُشوِّش صفوَة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحالُ إلا في أوقاتٍ مختلفة ، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها»[1].

الاستقرارُ على طَريق الصُّوفية:

وهنا يذكر الغزاليُّ الغاية التي وصل إليها ، والنتيجة التي اقتنع بها في هذه الرِّحلة الشاقة ، والتأمُّلات العميقة الكثيرة ، والبَحث المُضني:

«ودُمتُ على ذلك مقدارَ عشر سنين ، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقَدْر الذي أذكره يُنتفع به. إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٢٨ ـ ١٣١.

أحسَن السير ، وطريقَتهم أصوب الطرق ، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحِكمة الحكماء ، وعلمُ الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليُغيِّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويُبدِّلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإنَّ جميع حركاتهم وسكَناتهم ـ في ظاهرهم وباطنهم ـ مُقتبسةٌ من نور مِشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به»[١].

من الخَلوةِ إلى الجَلْوَة:

وكان مُمكناً ، بل كان من المتوقَّع ، أن يبقى الغزالي في خلوته يتمتَّع بما هو فيه من نَعيم ولذَّة روحية وصفاء نفس ، ويقتصر على ما التزمه من عبادات وأوراد وإشغال بخاصة النفس؛ ولم يُلْهَم دراسةَ هذه العلوم الكثيرة ، ولم يُرزقِ الاقتدار عليها؛ ليكونَ مُتَعبِّداً ، مُنطوياً على نفسه ، مُعتزلاً في بيته . وكان الإسلامُ في حاجة إلى من ينتصر له من الفلسفة التي تجاسرت عليه ، وتسلَّطتْ على عقول الناس .

وقد أصيب المجتمع الإسلامي بفساد الأخلاق ، وشَلل في الفكر ، وجمود في العلم ، فكان في حاجة إلى من يحارب هذا الفساد ، ويُوقظ الفكر ، ويبعث العلم ، وكان الغزاليُّ أجدر الناس بالاضطلاع بهذه الخدمة العظيمة؛ فقد تهيأ لها عِلميّاً وفكرياً وعملياً ، وقد صرح بذلك في غير تَواضع وفي غير أنانية فقال:

«رأيتُ نفسي مُطالبةً بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضحُ هؤلاء أيسَر عندي من شربة ماء؛ لكثرة خوضي في عُلومهم وطرقهم أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسِّمين من العلماء»[٢].

وهنا اعترضت له حالة التَّردُّد مثل الأولى ، هل يبقى في العزلة أم يخرجُ إلى

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٠ .

الميدان؟ حتى ساقَه سائقُ التوفيق إلى البُروز ، وتهيَّأَتْ له الأساليب ، يقول:

«انقدَحَ في نفسي أنَّ ذلك (محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية) مُتعيّن في هذا الوقت محتوم ، فماذا تُغنيك الخَلوة والعزلة ، وقد عمَّ الداء ، ومَرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك؟

ثم قُلتُ في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمةِ هذه الظلمةِ ، والزمان زمان الفترة ، والدَّور دَور الباطل؟ وأنَّى تُقاومهم؟ فكيف تُعايِشُهم؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مُساعد ، وسلطان متدين قاهر».

«فترخَّصتُ بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتَعلُّلاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة ، فقدَّر الله تعالى أن حرَّك داعية سُلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر أمْر إلزامٍ بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارُك هذه الفترة ، وبلغَ الإلزام حداً كان ينتهي ، لو أصررتُ على الخلاف إلى حَدِّ الوحشة ، فخطر لي أنَّ سبب الرُّخصة قد ضَعُف ، فلا ينبغي أن يكون باعثُك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلبُ عزِّ النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم تُرخِّص نفسَك لعُسر معافاةِ الخلق ، والله تعالى يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣] الآية ، ويقول عز وجل لرسوله ، وهو أعزُّ خَلْقِه:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

ويقول عزَّ وجلَّ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ

فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [يس: ١ ـ ١١].

فشاورتُ في ذلك جماعةً من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتَّفقوا على الإشارة بتَرك العُزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك مناماتٌ إلى الصالحين كثيرةٌ متواترة ، تشهدُ بأنَّ هذه الحركة مبدأ خير ورُشد ، قدَّرها الله سبحانه على رأس هذه المئة ، وقد وعدَ اللهُ سبحانه بإحياء دينه على رأس كلِّ مئة ، فاستحكمَ الرجاءُ ، وغلَب حُسنُ الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسَّرَ اللهُ تعالى الحركةَ إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربعمئة ، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، وبلغت العزلة إحدى عشرة سنة ، وهذه حركةٌ قدَّرها الله تعالى ، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداحٌ في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوعُ عن تلك الأحوال مما خطر إمكانُه أصلاً بالبال ، والله تعالى مُقلبُ القلب والأحوال و«**قلبُ المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[1] [2].

الفَرقُ بينَ الحَالتين:

لقد خرجَ الغزاليُّ من عُزلته ، وبدأ يزاول عملَه من تدريس وتأليف ودعوة وصلاح ، ولكن شتَّان بين الحالتين ، لقد كان في الأولى ـ قبل أن يخرج من بغداد ـ يفعلُ ذلك عادة ، أو بحُكم الوظيفة ، أو بدافع من النفس «فأصبح الآن يقوم به بأمر من الله ، متجرِّداً عن طلبِ الجاه وحُظوظِ النفس ، وقد شرح الفَرْق بين الحالتين ، فقال:

(١) [أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٢/٨/٩) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/٩٩) ، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦/٦٥) ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/٢٥٥٧): «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»].
(٢) المنقذ من الضلال: ص ١٥١ ـ ١٥٣.

«وأنا أعلم أنّي ـ وإن رجعت إلى نشر العلم ـ ما رجعت ، فإنَّ الرجوع عودٌ إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأما الآن ، فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه ، هذا هو الآن نيَّتي وقصدي وأمنيتي ، يعلمُ الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولستُ أدري أأَصِلُ إلى مرادي ، أم أخترمُ دون غرضي؟ ولكنْ أؤمن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لاَ حول ولا قوة إلا باللهِ العلي العظيم ، وأنّي لم أتحرك؛ لكنه حركني، وأني لم أعمل؛ لكنه استعمَلَني ، فأسأله أن يُصلحني أولاً ، ثم يُصلح بي ويَهديني ، ثم يَهدي بي ، وأن يُريني الحقَّ حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، وَيَرزقني اجتنابَه» [1] .

بَقِيَّةُ حَياتِه:

تَولَّى الغزاليُ رئاسةَ المدرسة النِّظامية بنيسابور ، عام ٤٩٩هـ ، وكان ذلك في عهد «سَنْجَر السلجوقي» ، ابن ملك شاه ، وَوزارة فَخْر الملك ، ابن نظام المُلك الطُّوسي ، وقد اغتيل «فخر الملك» بيد باطنيٍّ ، سنة ٥٠٠ هـ ، واعتزل الغزاليُ التدريس على أثر هذه الحادثة ، وأقام ببلدة طُوس ، وبنى مدرسةً وزاوية بجوار بيته ، وعكَف على التعليم والتربية.

ولمَّا استوزر السلطانُ محمد بن ملك شاه أحمد بن نظام الملك ، سنة ٥٠٠هـ ، طلب الوزيرُ من الغزالي الرجوع إلى بغداد ، وكان محلُّه في المدرسة النظامية لم يَسدَّه من يُماثل الغزالي ، وكانت المدرسة مما تتباهى به الخلافةُ العباسية وتتجملُ به بغداد ، فبدتِ الرغبة من الخلافة في أن يرجع الغزالي إلى النِّظامية. وكتب الوزير قوام الدين نظام الملك رسالة خاصة إلى الغزالي يذكر فيها مكانة النظامية ومركزها في العالم الإسلامي ، وحرصَ الخليفة على رجوع الغزالي ، وكانت عليها توقيعات أركان دار الخلافة ،

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

ولكنَّ الغزالي اعتذر ، وبقي في طوس يُدرِّس ويفيد ويُرَبِّي الطالبين.

وقَضى الغزاليُّ بقيةَ أيامه في الاشتغال بالدِّين والعلم ، وكان لا يزال فيه الرُّوح العلمية قويةً وفتية ، فلم ينقطعْ عن التأليف والإنتاج ، وقد ألَّف كتابَ «المستصفى» الذي يُعدُّ من أركان أصول الفقه الثلاثة [١] في سنة ٥٠٤ ، يعني قبل وفاته بعام.

وكان الغزاليُّ لم يتوفَّر على دراسة الحديث، فأقبلَ عليه في أواخر أيامه، واستدعى أبا الفتيان ، عمر بنَ أبي الحسن الرّواسي الحافظ الطُّوسي ، وأكرمه وسمع عليه صحيحي البخاري ومسلم [٢]. فقال عبد الغافر الفارسي: وكانت خاتمةَ أمرِه إقبالُه على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسةُ أهله ، ومطالعةُ الصحيحين البخاري ومسلم اللَّذين هما حُجَّة الإسلام [٣].

وفاته:

وانتقلَ إلى رحمة الله تعالى يوم الإثنين الرابعَ عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمئة ، ودُفن بظاهر قَصَبَة طابران.

وقد حَكى ابنُ الجوزي عن أخيه أحمد قصةَ وفاته ، قال: «لما كان يوم الإثنين وقتَ الصبح ، توضأ أخي وصلى وقال: عَلَيَّ بالكفن فأخذَه وقبَّله ووضعه على عينيه ، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على المَلِك ، ثم مَد رجليه ، واستقبلَ ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى» [٤].

لقد رأينا كيف تهيَّأ الغزاليُّ ـ بعد الدِّراسات المتنوِّعة العميقة الواسعة ،

---

(١) وهي «المعتمد» لأبي الحسين البصري، و«البرهان» لإمام الحرمين، و«المستصفى» للغزالي.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ص ١١٢. ج٤.

(٣) تبيين كذب المفتري: ص ٣٩٦ و«طبقات الشافعية الكبرى» ج٤ ص ١٠٩.

(٤) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين: للسيد مرتضى الزبيدي البلكرامي، ج١ ص ١١ نقلاً عن كتاب «الثبات عند الممات» لابن الجوزي رحمه الله.

والمجاهدات الشاقة الطويلة ، وبعد الانتهاء إلى معرفة الحقِّ واليقين ، والوصول إلى مقام الصدق والإخلاص ـ لأن يقومَ بدوره في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وأن يؤدِّي رسالته كعالمٍ وناقدٍ ومُصلحٍ ومتكلِّمٍ وداعٍ ، فلْنَر مقدار إنتاجه. ولْنَر مدى تأثيره في الأمة والمجتمع والعلوم والأفكار. وموعدنا الفصول التالية ، إن شاء الله.

* * *

المحاضرة التاسعة:

حجّة الإسْلام الغزالي
ناقِدٌ للفلسفة ومُتَكلِّمٌ

نقسِّم عملَ الغزالي وإنتاجه وتجديده في ناحيتين رئيسيتين:

الأولى: نَقدُه للفلسفة ومناقشتُه لها، وتجديده لعلم الكلام الذي فقد جِدَّته وحياته.

والثانية: الحُسْبةُ على المجتمع الإسلامي المعاصر، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية، والروح، والتحلِّي بالحقائق. ونتناول الناحية الأولى بالبحث في هذه المحاضرة.

يمتاز الغزاليُّ عن كلِّ مَن سبقه في محاربة الفلسفة: أنهم اتَّخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده، والاعتذار عن الدين الإسلامي، فكانت الفلسفة تُهاجِم الإسلام، وهؤلاء يُدافعون عن الإسلام، ويَنفون التُّهم الموجهة إليه، ويحاولون أن يُبرِّروا موقفه، ويلتمِسوا العذرَ لعقائده ونظرياته، فكأنَّ علم الكلام كان جُنَّـةً تتلَّقى هجماتِ الفلسفة وتُحصِّن العقيدة الإسلامية.

ولم يجترىء أحدٌ من المتكلِّمين أن يُهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها؛ لعدم تعمُّقهم في الفلسفة وتضلُّعهم من أصولها وفروعها؛ ولعدم تَسلُّحهم بالأسلحة التي يُواجهون بها الفلسفة ويُوسعونها جرحاً ونقداً؛ فكان موقفُهم

موقفَ الدفاع عن قضية ، وموقفُ الدفاع دائماً ضعيف ، غايته أن يسامح المتهم ويَعفُوَ عنه .

أمَّا الغزاليُّ ، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنَّقد ، وهجمَ عليها هُجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة والبحث العلمي ، وحُجَّةٍ مثل حُجَّة الفلسفة ، وعقل مثلَ عقلِ الفلاسفة الكبار ومدوِّني الفلسفة ، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتَّهم ، وألجأ مُمثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين؛ فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية عادتْ به الثِّقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها ، وزالت عنهم مهابة الفلسفة ، وسيطرتها العلمية .

خِطَّةُ الغزالي في نقد الفلسفة:

ولم يتهوَّر الغزاليُّ في الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيِّقَ التفكير . إنه درس الفلسفة أولاً كما حكى هو بنفسه في «المنقذ من الضلال» ونقلنا عنه في المحاضرة الأولى[1] ، وكان يؤمن بأنه «لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يُساوي أعلمَهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته» ، فجدَّ واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطَّلع على مُنتهى علومهم .

ثم لم يستعجلْ كذلك ولم يبدأ بالهجوم بل رأى أنَّ المباحث الفلسفية لا تزال غامضـةً معقَّدة ليست في متناول الأوساط من الناس ، وأن الكُتب الفلسفية قد أُلِّفتْ في لغة رمزية وفي أسلوب غير واضح ، وكأنَّ مؤلفيها قد تعمدوا ذلك ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يَحُوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يُحسنون التأليف ، فرأى أنْ يؤلِّف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ،

(١) [انظر المحاضرة الثامنة: حجة الإسلام الغزالي: حياته ودراسته ، ص (٢٢٣)].

ونظريات الفلسفة ومسائلها في لغة سهلة واضحة ، وفي أسلوب مُشَوِّقٍ، وقد رُزق الغزالي قُدرةً عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها فكسَر ذلك السياج ، ورفعَ الاحتكار العلمي ، وألَّف كتاب «مقاصد الفلاسفة» ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليق ونقد ، وعرضَ الفلسفة كأحسنِ ما يعرضها رجالُ الفلسفة.

وبعد أنْ انتهى من هذا العمل ـ وكان يَعدُّه مقدمةً لازمةً لما تكفَّله من تزييف الفلسفة ، وإسقاط قيمتها العلمية ـ شرع في عمله الثاني الذي استحق به أن يُلقب حجة الإسلام ، وهو نَقدُ الفلسفة والهجومُ عليها.

ولم يكنْ في هذه المرحلة الثانية أيضاً مُتهوِّراً أو جامداً يشمل الفلسفة كلها بفروعها وشُعَبها بالإنكار ، ويُطلق القول في العلوم الرياضية والمنطقية والسياسية والخُلقية ، وكل ما جاء عنهم في العلوم الطبيعية ، فيُغلطهم فيها ، ويكفِّرهم بها ، كما فعل كثير ممَّن تقدَّمه وكثيرٌ ممَّن عاصره فأثبتوا بذلك أنهم معاندون مكابرون ، وكان ضررهم بذلك أكبرَ من نفعهم ، ولم تكن لأقوالهم وكتاباتهم قيمةٌ علميةٌ.

أمَّا الغزالي فقد اعترف بكل صراحة ، أن القسم الكبير من هذه العلوم التي ذكرناها «ليس يتعلَّقُ شيء منه بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمورٌ بُرهانيةٌ لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها» [(١)] وانتقد أولئك الذين يَروْنَ أنَّ إنكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية؛ خدمةٌ دينية ونُصرة للإسلام ومحاربةٌ للكفر والضلال ، فكان جهادُهم في غير عَدُوٍّ ، وكانت جنايةً على الدين.

يقول في كتابه «المنقذ من الضلال»:

«الآفةُ الثانية ، نشأتْ من صديقٍ للإسلام جاهل ، ظنَّ أنَّ الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كُل عِلْم منسوب ، فأنكر جميع علومهم ، وادَّعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكُسُوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٠.

الشرع ، فلما قرع ذلك سمعَ من عَرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يَشكَّ في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مَبنيٌ على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حُباً ، وللإسلام بُغضاً ، ولقد عَظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرُّضٌ لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلومِ تعرُّضٌ للأمور الدينية».

وبعد النظر في جميع فروع الفلسفة ، والاعتراف بصحة بعضها وإفادتها انتهى إلى أنَّ الإلهيات فيها أكثر أغاليطهم ، وعلَّله «بأنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق؛ ولذلك كثُر الاختلاف بينهم فيها»[(١)].

والنَّاظر المتأمِّلُ يشعر بأن السبب في إصابتهم وتوفيقهم في العلوم الرياضية والطبيعية ، وأغاليطهم وتناقضاتهم وتخيُّلاتهم في الإلهيات ، هو أنَّ العلومَ الرياضية والطبيعية مثلاً لها مبادىء ومقدماتٌ ومحسوساتٌ عرفها الفلاسفة ، ومعلومات أوَّلية توصلوا بترتيبها إلى أمور مجهولة.

أما الإلهيات فبالعكس ، ليس فيها مبادىء ومقدمات ومحسوسات ومعلومات أولية يتوصلون بها إلى أمور مجهولة ، وليس فيها أساسٌ للقياس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] لذلك كثرت فيها أغاليطُهم وتخيلاتهم ، وجاءت فلسفتُهم فيها مجموع أوهام وقياسات وتخيلات وتخمينات ، وكان ذلك بطبيعة الحال مَدعاة إلى خطأ تصوُّراتهم عن الأمور الغيبية التي لا تُعرف إلا عن طريق الشَّرع المعصوم عن الخطأ.

تهافُتُ الفَلاسفة:

وفي الرَّدِّ على هذه الفلسفة الإلهية ألف الغزالي كتابه العظيم «تهافت الفلاسفة» وقد صدَّره بمقدمة بليغة واضحة ، ذكر فيها سَبب التأليف ، وذكر تأثيرَ الفلسفة في أذهان الناشئة ، وكيف تدرَّج بهم الخضوعُ لبَراعة الفلسفة في

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ٩٢.

العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية ، والإيمان بذكائهم وعبقريَّتهم ، إلى التحلُّل من ربقة الإسلام ، لما رأوا أن هؤلاء ـ مع رَزانةِ عقولهم وغزارة علمهم ـ منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والمِلَل «فألحدوا وأنكروا الدين تظرُّفاً وتكايُساً ، وعظمت الفتنة ، ومسَّت الحاجةُ إلى تأليف كتاب يُبيِّن تهافت عقيدة فلاسفة اليونان ، وتناقضَ كلمتِهم فيما يتعلق بالإلهيات ، ويُبيِّن أنَّ هذه المسائل التي يأخذها المقلدون كحقائق علمية ، وقضايا عقلية «هي ـ على التحقيق ـ مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء» وبيَّن أنه لم يذهب إلى إنكار اللهِ واليوم الآخر إلا شرذمةٌ قليلة من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، ونحن ننقل هذه المقدمة؛ إذ فيها تصوير بارع لعقلية الملحدين المقلِّدين في كل زمان ومكان ، وتصوير بصفة خاصةٍ للعصر الذي كان يعيش فيه ، ونعرف عظم الحاجة إلى تأليف هذا الكتاب وغنائه في نصرة الدين ، يقول:

«أمَّا بعد ، فإنِّي قد رأيتُ طائفةً يعتقدون في أنفسهم التَّميز عن الأتراب والنُّظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، وقد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات ، والتَّوقِّي عن المحظورات ، واستهانوا بتعهُّدات الشرع وحدوده ، ولم يقِفوا عند توقيفاته وقُيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتَّبعون فيها رهطاً يَصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستَنَد لكفرهم غيرُ تقليدٍ سماعيٍّ كتقليد اليهودُ والنصارى ، إذ جرى على غير دين الإسلام نَشْؤُهم وأولادهم ، وعليه دَرَج آباؤهم وأجدادهم ، وغيرَ بحث نظري صادر عن التعثُّر بأذيال الشُّبه الصارفة عن صَوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السَّراب ، كما اتفقَ لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء.

وإنَّما مصدَرُ كُفرهم سماعُهم أسماء هائلة: كسُقراط ، وبُقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وأمثالهم ، وإطناب طوائفَ من مُتَّبعيهم

وضلاَّلهم في وصف عقولهم ، وحُسن أصولهم ، ودِقَّة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ـ لفرط الذكاء والفطنة ـ باستخراج تلك الأمور الخفيَّة ، وحكايتهم عنهم أنهم ـ مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم ـ مُنكرون للشرائع والنِّحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومُعتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة.

فلمَّا قرع ذلك سمعَهم ، ووافق ما حُكي من عقائدهم طبعَهم؛ تجمَّلوا باعتقاد الكفر؛ تحيُّزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم؛ وانخراطاً في سلكهم؛ وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء؛ واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ، ظناً بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمالٌ ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرقٌ وخبالٌ ، فأية رُتبة في عالم الله أخسُّ من رتبة من يتجمَّل بترك الحق المعتقد تقليداً ، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خُبراً وتحقيقاً ، والبُله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سَجيَّتهم حبُّ التكايس بالتشبه بذوي الضلالات ، فالبَلاَهةُ أدنى إلى الخلاص من فطانةٍ بتراء ، والعمى أقربُ إلى السلامة من بَصيرة حَوْلاء.

فلمَّا رأيتُ هذا العِرْقَ من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء؛ انتدبتُ لتحرير هذا الكتاب ، رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافُتَ عقيدتهم ، وتناقُضَ كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي ـ على التحقيق ـ مضاحِكُ العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فُنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه؛ ليتبين هؤلاء الملاحدةُ تقليداً اتفاقَ كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان باللهِ واليوم الآخر ، وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجةٍ عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بُعث الأنبياء المؤيَّدون بالمعجزات ، وأنه لم يذهب إلى إنكارهم إلا شِرْذِمَة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ، ولا يُعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يُعدون

إلا في زمرة الشياطين الأشرار، وغمار الأغبياء والأغمار ، ليكف عن غَلوائه من يَظنُّ أن التجمُّل بالكفر تقليداً يدلُّ على حسن رأيه ، ويشعرُ بفطنته وذكائه ، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبَّه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براءٌ مما عُرفوا به من جحْدِ الشرائع ، وأنهم يؤمنون بالله ، ومُصدِّقون برسله ، وأنهم قد اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول ، قد زَلُّوا فيها ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا عن سواء السبيل ، ونحن نكشف عن فنون من خُدعوا به من التخييل والأباطيل ، ونُبين أنَّ ليس كل تهويل وراءَه تحصيلٌ ، والله تعالى وليُّ التوفيق ، لإظهار ما قصدناه من التحقيق»[١] .

ويَشرع الغزاليُّ ، بعد أربع مقدِّماتٍ ذكر فيها مناهجه في البحث ، وشرح حال الفلاسفة، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة والتي لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الإلهية ، بعد هذا كلِّه ، يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ومناقشتهم في ذلك في ضوء البحث العلمي والحجة العقلية ، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع في الطبيعيات، ويبين فيها ضعف استدلالهم ، وتناقضهم ، واختلافهم ، وتهافت عقيدتهم .

ميزة الكتاب:

ويتَّسم هذا الكتابُ بقوة التعبير، وسلامة العبارة ، وسُهولة الأسلوب، بخلاف عامة الكتب التي ألفت في الموضوع ، ويَدلُّ على أن مؤلِّفه ممتلىءٌ بالإيمان والثقة بدينه ، والاعتداد بشخصيته وتفكيره ، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء ورجال من مستواه العقلي والفكري ، يناقشهم ويباحثهم بحُرِّية واعتداد ، ويقرع الحجة بالحجة .

وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين الذي يواجه الفلسفة بإيمان ، وثقة ، وعقل حر ، وشجاعة علمية ، ويكفر

---

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٣١ ـ ٣٤ طبعة إحياء الكتب العربية.

بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير ، وبهذه الصفة يتَجلَّى الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» ؛ فجاء في أوانه ، وقضى حاجة زمانه .

ولا يقتصر الغزاليُّ على مجابهة الفلسفة ومُهاجمة الفلاسفة بالدليل ؛ بل قد يبلُغ إلى التهكُّم والنقد اللاذع ، ولا شكَّ أنَّ لهما تأثيراً كبيراً في مجتمع قد كاد يؤخذ بسِحر الفلسفة ، وقد أُصيب كثيرٌ من أفراده بمُركَّب النقص ، وخضَع للفلسفة خضوعاً كاملاً ، فجاء تهكم الغزالي ونقدُه اللاذع علاجاً لهذه النفوس المريضة .

ومِن أمثلة هذا التهكُّم والنقد اللاذع تعليقُه على ما قاله الفلاسفة في الذات الإلهية وصفاتها، وعلى ما صنَّفوه من نسبِ العقول والأفلاك ، وكيف تَولَّد بعضها من بعض. قال بعد ما ذكر هذا الهُراء: «قلنا: ما ذكرتموه تحكُّماتٌ ، وهي ـ على التحقيق ـ ظُلماتٌ فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو أُوردَ جِنسُه في الفقهيات التي قُصارى المَطلب فيها تخميناتٌ ، لقيل: إنَّها تُرّهات لا تُفيد غَلباتِ الظنون» [١].

وقال في موضع آخر: «لستُ أدري ، كيف يقنَع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذين يَشقُّون الشَّعر بزعمِهم في المعقولات؟» [٢].

وعلَّقَ على بحثهم في عِلْم واجب الوجود ، وأنَّه يعقِلُ نفسَه ولا يعقِل غيرَه بكلمته اللاذعة القوية: «فقد انتهى بهمُ التعمُّق في الفِطنة ، إلى أن أبطلوا كل ما يُفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله تعالى في حال الميِّت الذي لا خبرَ له بما يجري في العالم ، إلا أنه فَارق الحياة في شعوره بنفسه فقط .

وهكذا يَفعلُ اللهُ سبحانه بالزَّائغين عن سبيله ، والنَّاكبين عن طريق الهدى ،

---

(١) تهافت الفلاسفة: ص ١١٥ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٤ .

المُنكرين لقوله تعالى ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١] ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦] المعتقدين أن أمور الربوبية، تستولي على كُنْهها القوى البشريةُ، المغرورين بعقولهم، زاعمين أن فيها مَندوحة عن تقليد الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأتباعهم ـ رضوان الله عليهم ـ فلا جَرَمَ اضطُروا إلى الاعتراف بأن لُبَاب معقولاتهم رجعَ إلى ما لو حكي في منامٍ لتُعجِّب منه»[1].

وهكذا يَستمِرُّ الغزالي في نَقد الفلسفة وتشريحها إلى آخر الكتاب، حتى يأتي على جميع المسائل التي تكفَّل الرَّد عليها، وهي عشرون مسألة، أكثرُها في الإلهيات، وكفَّرهم في ثلاث مسائل:

إحداها: مسألة قدم العالم، وقولُهم: إن الجواهرَ كلها قديمة.

والثانية: قولهم: إن الله تعالى لا يُحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

والثالثة: إنكارُهم بعثَ الأجساد وحشْرَها.

قال: «فهذه المسائل الثلاث، لا تُلائم الإسلام بوجهٍ، ومعتقدها مُعتَقدُ كَذِبِ الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأنَّهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة؛ تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً، وهذا هو الكُفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فِرَق المسلمين[2]» وتوقَّف في تكفيرهم في المسائل الأخرى.

تأثيرُ الكتاب:

وليس أهميَّة الكتاب في تكفير الفلاسفة؛ بل إنَّ غاية الكتاب هو إسقاط قيمةِ الفلسفة العِلمية، والحطُّ من مكانتها، وإثباتُ أنَّها مجموع أفكارٍ وتخيُّلاتٍ، وقياساتٍ وتخميناتٍ. وبذلك خَدم الغزالي الدينَ خِدمةً باهرة، وخلَّف

---

(١) المنقذ من الضلال: ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٣١٣ ـ ٣١٥.

الفلسفة التي كانت تتقدم بخطىً سريعة وواسعة ، وتُسيطر على عقول الناشئة ، وتَحُلُّ من نفوسهم مَحلَّ القُدسية والإجلال ، خلَّفها الغزاليُّ بضَرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء ، أو وَقَفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها ، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تُقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يردُّ على «تهافت الفلاسفة» حتى جاء ابن رُشد (ت ٥٩٥) في آخر القرن ، فألف كتابه «تهافت التهافت» يقول علماء الإفرنج: «إنَّ الغزالي طعنَ الفلسفة في الشرق العربي طعنةً قاضية ، وكادَ يكون نصيبها في الغرب كذلك ، لو لم تَلق في ابن رشد حامياً لها أحياها قرناً من الزمان»[(١)].

رَدُّه على الباطنية:

ولم يَقتصِر الغزاليُّ على الردِّ على الفلسفة؛ بل عُنِي كذلك بالرد على الباطنية التي تَدرعت بالفلسفة ، وظهرت في مظهر ديني وسياسي؛ فكانت أشدَّ خطراً على الإسلام من الفلسفة؛ إذ كانت الفلسفة تعيش في عزلة علمية ، وكانت قليلة الاتصال بالشعب والجمهور ، وكانت ، كما يصف الأستاذُ أحمد أمين «كالسِّفارات الأجنبية» لا شأن لها بالسياسة الداخلية والشؤون الاجتماعية ، ولا شأنَ لها بالجمهور.

أمَّا الباطنية ، فكانت تتسرَّبُ إلى المجتمع وتنفُثُ سمومَها فيه ، وكانت لها الإغراءات المادية القوية ، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحدٌ أجدرَ بالرد عليها ، والكشف عن أسرارها ، ونقضِ ما تُبنى عليه دعوتها من الغزالي لجمعِهِ بين التضلُّع من الفلسفة والوقوف على لُبِّ التصوف وعلم الباطن ، ولاتِّصافه بالغوص في حقائق الأشياء ، والتعمُّق في العلوم ، وتلك بضاعةُ الباطنية التي تتبجَّحُ بها.

وقد سبق أنَّه ألَّف ـ وهو مدرس في المدرسة النظامية ـ كتاباً في الردِّ على

---

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب: تأليف محمد لطفي جمعة ، ص ٧٢.

الباطنية ، باقتراح من الخليفة المستظهر بالله أسماه «المستظهري» وقد ألَّف ثلاثة كتب في الرد عليهم ـ ولعل ذلك بعد الرجوع من رحلته ـ وهي «حجَّة الحق» و «مفصل الخلاف» و«قاصم الباطنية» ذكرها في كتابه «جوهر القرآن» ويوجد في جريدة مؤلَّفاته كتاب آخر وهو «مواهم الباطنية» (١).

عِلْمُ الكَلام:

لم يكن لمثل الغزاليِّ ـ مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر ، وعلمه الذي لم يزل في نمو مستمر ـ أن يكون ناقلاً لكلام المتكلِّمين المتقدِّمين ، أو يكون شارحاً له فحسب ، ولا تظهر شخصيته العلمية فيما يكتب ويؤلِّف ويفكِّر.

لقد كان علمُ الكلام أحوجَ العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر ، لأنه يتكفَّل الإقناع ودفع الشبهات ، والعقلُ الإنساني متطورٌ ، والشُّبه والأسئلة تتجدَّد ، ولكل عصر تفكيرهُ ومشاكله ، ولكنه جَمُد جمودَ العلوم النقلية ، وغلب عليه التقليد ، وأصبح يُتناقل كرواية ، وأصبح المتكلمون الأشاعرة لا يطالبون بتَسليم عقائدهم فقط ، بل يُلِحُّون على تسليم المقدمات والدلائل التي استدلَّ بها الإمام أبو الحسن الأشعري ، والعلامة أبو بكر البَاقلَّاني ، لإثبات هذه العقائد ، ويُلحون على الاكتفاء بها ،ويَعدُّون العدول عن مسلك الأشعري قيدَ شَعرة؛ ضرباً من البدع والانحراف عن الصراط المستقيم.

لم يخضع الغزاليُّ لهذا التفكير ولهذا التقليد في علم الكلام وإثبات عقيدة الإسلام ، وتكلم في مؤلفاته العظيمة عن عقائد الإسلام والمباحث الكلامية

(١) لم يطبع من كتبه في الرد على الباطنية، إلا فضائل المستظهرية، وهو المعروف بالمستظهري، نشر منه (كولد تسيهر) قسماً كبيراً وبحث فيه بحثاً طويلاً باللغة الألمانية، طبع في ليدن ١٩١٦ مع المتن العربي، أما الكتب الأخيرة فمفقودة. كما يظهر من مقدمات «المنقذ من الضلال» للأستاذين جميل صليبا وكامل عياد [وقد طُبع كتابُ «فضائح الباطنية» بتحقيق الأستاذ محمد علي قطب في المكتبة العصرية ـ بيروت].

كلامَ مجتهد ، كلام واع يعرفُ عقلية أهل عصره ، ويعرف من أين يَدخل إلى عقولهم وقلوبهم ، وأقام على هذه الحقائق مقدمات ودلائلَ جديدة.

وجاء في كلامه في صفات الله تعالى ، ومُعجزات الأنبياء ، والتكليفات الشرعية ، وإثباتِ العذاب والثواب ، والبرزخ والمعاد ، والجبر والاختيار، والقضاء والقدر، بمُقدمات وأمثلة ، تورِث الإذعان ، وتفتح القلب للإيمان.

ولم يُسبق إليها ، وعدَل عن تشكيكات المتكلِّمين ، ومُقدماتهم المنطقية إلى أسلوب واضح مُشَوِّقٍ يُسيغه العامة وأوساط الناس ، ولا يُناقشه الخاصة والعلماء ، ولم يلتزمْ تقليد الأشعري وأتباعِه في الكلام التقليدَ المُطْبَق؛ بل عدل عنه في مسائل قليلة؛ وبذلك قام بدور التجديد في علم الكلام الذي عجزَ في الدور الأخير عن إقناع الأذكياء من الشباب والمتعلِّمين ، وإفحام الأقوياء من الباحثين والمعترضين ، واستحقَّ بذلك كلِّه تقدير علماء الكلام ، ورجال المدرسة الأشعرية الفكرية بصفة خاصة ، إذ أعاد إليها الحياة والوقار ، واستحقَّ شكرهم وثناءهم؛ ولكن بالعكس ، استُهدِفَ الغزاليُّ للأئمة الأشعرية ، وفقهاء زمانه ، واسْتُهدِف لعتابهم وسخطِهم ، لأنَّه خرج عن الطريق المرسوم ، وجاء بشيء طريف لم يجدوه في كتبهم القديمة ، ولم يسمعوه من أساتذتهم ، وخالفَ في بعض المسائل الأشعريَّ وأتباعَه ، ويظهر أن بعض المتحمِّسين من هؤلاء قد شَمُّوا في بحوثه الطريفة رائحة «الزيغ والضلال»ولما انتشر كتابُه العظيم «إحياء علوم الدين» في العالم الإسلامي ، وعظُمَ الإقبالُ عليه والعناية به ـ وهو مشتمل على جزء كبير من هذه البحوث ، والأمثلة العديدة ـ اشتدت لائمَتُهم ، وصار بعضُهم يشك في صحة عقيدته واستقامته ، وقد كتب إليه بعضُ تلاميذه ومُحبِّيه بذلك ، وأظهر توجعه وحزنه ، لما يرى من العلماء والمعاصرين من التجهُّم له ، والتشكك في عقيدته ونسبتِه إلى الزيغ والانحراف ، وأجاب عن ذلك الغزاليُّ في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزَّندقة» يقول فيه:

«أمَّا بعد. فإنِّي رأيتُك ـ أيها الأخ المشفق ، والصَّديق المتعصب ـ موغرَ

الصدر ، مُقسَّم الفكر ، لما قرَع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمِهم أن فيها ما يُخالِف مذهب الصحاب المتقدِّمين ، والمشايخ المتكلِّمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري ـ ولو في قَيْد شبر ـ كفرٌ ، ومباينَته ـ ولو في شيء نَزر ـ ضلالٌ وخُسر.

فهوِّن ـ أيها الأخ المشفق المتعصِّب ـ على نفسك ، لا تضق به صدرك! وفُلَّ من غرْبِك قليلاً! واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً! واستحقر من لا يُحسد ولا يُقذف! واستصغرْ من بالفكر أو الضَّلال لا يُعرف! فأيّ داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ﷺ؟! وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين ، وأيُّ كلام أجلّ وأصدق من كلام رب العالمين؟! وقد قالوا: إنه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمعَ في إفحامهم ، فتطمعَ في غير مطمع ، وتُصوتَ في غير مَسمَع ، أما سمعت ما قيل:

كُلُّ العَداوة قد تُرجى سلامَتُها إلا عَداوةُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ [(١)]

وبعدما ذكرَ دوافعَ هذا الإنكار والمخالفة ، وأنَّ الحامل على ذلك طلب الجاه والمال ، وأنَّ بضاعة المعترضين في العلم مسألةُ النجاسة ، وماءُ الزعفران وأمثالها[(٢)] ، قال مخاطباً تلميذه الذي وجَّه إليه هذه الرسالة:

«فخاطب نفسك وصاحبك! وطالبه بحَدِّ الكفر ، فإن زعم أنَّ حدَّ الكفر ما يُخالف مذهبَ الأشعري ، أو مذهب المعتزلي ، أو مذهب الحنبلي أو غيرَهم ، فاعلمْ أنه بليدٌ ، قد قيَّده التقليد؛ فهو أعمى من العميان؛ فلا تُضيِّع بإصلاحه الزمان! وناهيك حُجَّةً في إفحامه مقابلةُ دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بَين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً ، ولعل صاحِبَه يميلُ من بين سائر المذاهب إلى الأشعري ، ويزعُم أن مخالفته في كل وِرْدٍ وَصدْرٍ كُفر من الكُفْرِ الجَليِّ. فاسأله:

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ص ٧ ـ ٨ مطبعة الترقي.

(٢) المصدر السابق: ١٠.

من أين ثَبت له كون الحق وقفاً عليه ، حتى قضى بكفر الباقلاني ، إذ خالفه في صفة البقاءِ لله تعالى ، وزعمَ أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات؟

ولم صار الباقلاني أولى بالكفر لمخالفته الأشعري من الأشعريِّ بمخالفته الباقلاني؟

ولم صار الحقُّ وقفاً على أحدهما دون الثاني؟ أكان ذلك لأجل السَّبق في الزمان؟ فقد سبق الأشعريَّ غيرُه من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأيّ ميزان ومكيال قدَّر درجات الفضل؛ حتى لاحَ له أن لا أفضل في الوجود من متبُوعه ومقلَّده؟ فإن رخَّص للباقلاني في مخالفته ، فلِمَ حَجَر على غيره؟

وما الفرقُ بين الباقلاني والكرابيسيِّ والقلانسيِّ وغيرهم؟ وما مَدْرَكُ التخصيص بهذه الرخصة؟

وإنْ زعم أنَّ خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه ، كما تعسَّف بتكلُّفه بعض المتعصبين ، زاعماً أنهما متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ، فما باله يَتشدَّد القول على المعتزليِّ في نفيه الصفات. . . إلخ» [1].

ناقش الغزاليُّ في هذه الرسالة خصمَه في هذا التفكير الضيِّق ، وذكَر أنَّ الفحول من العلماء ، والمستقلين بالتفكير ، لم يزالوا ينظرون في المسائل نظرَ المجتهدين ، ويُدلون بآرائهم ، وأنَّ العدول عن رأي سابق في بعض وجهات النظر لا يُعتبر مروقاً في الدين ، قال:

«ولعلَّك ـ إن أنصفتَ ـ علمتَ أنَّ من جعل الحق وقفاً على واحد من النُّظار بعينه ، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب.

(١) فيصل التفرقة: ص ١١ ـ ١٦.

أمَّا الكفر ، فلأنَّـه نزَّله منزلةَ النبيِّ المعصوم من الزَّلَل الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفرُ إلا بمخالفته .

وأمَّا التناقض : فهو أنَّ كل واحد من النُّـظَّـار يُوجب النظر ، وألاَّ تَـرى في نظرك إلا ما رأيتَ ، وكلَّ ما رأيتَه حجـة . وأيُّ فرق بين من يقـول قَلِّدني في مُجرد مذهبي ، وبين من يقول قلِّدني في مذهبي ودليلي جميعاً؟ وهل هذا إلا التناقض»؟ [١] .

ومع كونِ الغزاليِّ من كبار متكلِّمي الإسلام ومن كبارِ النُّظَّار ، فهو لا يُوافق علم الكلام في جميع اتجاهاته؛ بل ينتقِده على غُلُوه وإسرافه ، وينتقد المتكلمين على مؤاخذة عوام المسلمين بعلم الكلام ، وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية ، والتقسيمات المرتبة ، وأن من يجهل ذلك ، ولـم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة ، فهو ناقصٌ في دينه أو شاكٌّ في يقينه .

وبيَّن ـ في شجاعة وصراحة ـ أنَّ الأمر أوسعُ من ذلك ، وأنَّ الإيمان له وسائلُ وطُرقٌ لا تنحصر في علم الكلام . يقول رحمه الله :

«مِنْ أشدِّ الناس غُلوّاً وإسرافاً طائفةٌ من المتكلِّمين ، كفَّروا عوامَّ المسلمين ، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولـم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حرَّرناها ، فهو كافر ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً ، وجعلوا الجنةَ وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جَهِلوا ما تواتر من السُّنة ثانياً؛ إذ ظهر لهم في عهد رسول الله ﷺ ، وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ، ومَنْ ظَنَّ أن مَدْرَكَ الإيمان الكلامُ ، والأدلة المجردة ، والتقسيمات المرتبة ، فقد أبدَع جِدَّ الإبداع ، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده ، عَطِيةً وهدية من عنده ، تارةً ببيِّـنة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها ، وتارة بسبب رؤيا المنام ،

---

(١) فيصل التفرقة : ١٨ .

وتارة بمشاهدة حال رجل متدين ، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال»[١].

ويقول بعد سطور:

«نعم ! لستُ أُنكر أنَّه قد يجوز أن يكون ذِكر أدلة المتكلِّمين أحدَ أسباب الإيمان في حق بعض الناس ، ولكنْ ليس بمقصور عليه ، وهو أيضاً نادر ، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن.

فأمَّا الكلامُ المحرَّر على رسم المتكلمين، فإنه يُشعر نفوسَ المستمعين بأن فيه صنعةً وجدَلاً ، ليعجز عنه العاميُّ ، لا لكونه حقاً في نفسه؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلِّمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ، ولا على العكس.

وتجري هذه الانتقالات بأسباب أخر حتى في القتال بالسيف؛ ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات؛ بل شدَّدوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال»[٢].

وازدادَ الغزاليُّ ـ مع الأيام ، وبعد التجارب العلمية ـ اقتناعاً بأنَّ أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعمُّ وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وبأنَّ علم الكلام علاجٌ مؤقتٌ ومختصٌّ بمَن نشأ عنده شكوك وشبهات ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه.

أمَّا القرآن فكالغذاء الصالح؛ والماء السائغ ، يحتاج إليهما كل إنسان وينتفع ، ولا ضرر فيه ولا خطر. يقول في كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» الذي هو من آخر مؤلفاته:

---

(١) فيصل التفرقة: ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٩ ـ ٧٠.

«فأدلَّةُ القرآن مثلُ الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، وأدلةُ المتكلمين مثل الدواء ، ينتفع به آحاد الناس ، ويَستضرُّ به الأكثرون؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع بـه الصبيُّ الرضيع ، والرَّجل القـوي ، وسائـر الأدلـة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مَرَّة ، ويَمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيانُ أصلاً» [١].

ويَذكُر تجربتَه ومشاهدَته كشاهدٍ على ذلك :

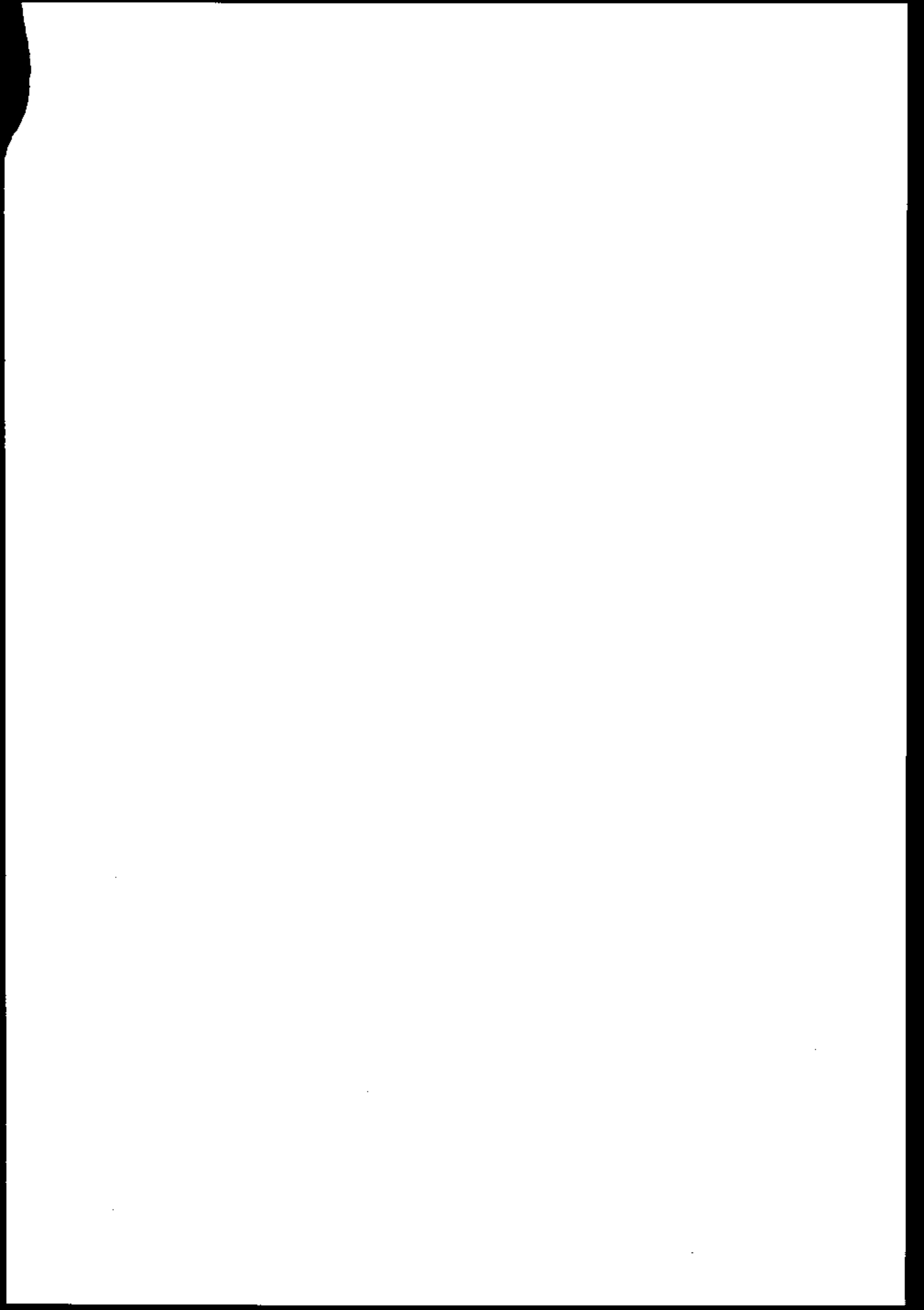
«والدليلُ على تضرُّر الخلق به المُشَاهدةُ والعَيان والتجربة ، وما ثار من الشرِّ منذ نبغ المتكلِّمون وفشَتْ صناعة الكلام ، مع سلامة العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك» [٢].

وهكذا تتجلَّى شخصيةُ الغزالي في نَقْدِ الفلسفة وعلم الكلام ، شخصية فريدة مُستقلة التفكير ، قَوِيّة التأثير ، تمتازُ بسلامة الفكر ، واتِّزان العقل ، وحَصافة الرأي ، وعُمْق النظر ، والثِّقة بالنفس ، له منهجٌ خاص في نقد الفلسفة ، وفي علم الكلام ، وإثباتِ العقيدة الإسلامية ، وهو ممَّن توفَّرت عندهُ أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع ، فكان مِن أئمَّة هذا الفنَّ المجتهدين ، ومن كبار المؤلِّفين المُنتجِين.

* * *

(١) إلجام العوام عن علم الكلام: المطبعة الميمنية ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٠.



المحاضرة العاشرة:

حُجّةُ الإسلام الغزالي
مُصْلِحٌ اجتماعي

تحدَّثنا في الفصل السابق عن أُولى الناحيتين الرئيسيتين في تجديد الغزالي وإصلاحه ، وهي ناحية نقد الفلسفة ، وتجديد علم الكلام ، ونتحدثُ في هذا الفصل عن الناحية الثانية ، وهي الحسبة على المجتمع الإسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية ، والروحِ ، والتحلي بالحقائق ، ويُمثِّل هذه الناحيةَ كتابُه العظيم «إحياء علوم الدين».

إحياءُ عُلومِ الدِّين:

إنَّ كتاب «إحياء علوم الدين» من كُتب الإسلام المعدودة التي أثَّرت في حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيراً عميقاً ، وظلت تُسيطر على عقولهم ونفوسهم زمناً طويلاً ، ولا يزال له نفوذٌ في الأوساط الدينية ليس لغيره ، ولم يزل العلماء وأهل النظر يُثنون عليه ، ويعتَرفون بجلالة مكانته وتأثيره.

قال الحافظُ الإمام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعِراقي ، صاحبُ «الألفية في مصطلح الحديث» (ت ٨٠٦) : «إنَّه من أجلِّ كُتب الإسلام»[١] ،

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء : للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس ، ص ١٤ .

وقال الشيخ عبد الغافر الفارسي ـ وهو معاصر للغزالي ومن تلاميذ إمام الحرمين ـ: إنَّه من تصانيفه المشهورة التي لم يُسبق إليها»[١] ، وقال الشيخ أبو محمد الكَازَرُوْنِي : «لو مُحِيتْ جميعُ العلوم لاستُخرجَتْ من الإحياء»[٢].

وكان الإمام «النووي» شديدَ الإعجاب به ، عظيم الشغف .

إنَّ لهذه الأقوال ، وكثيراً مما نقله الآخرون ، إن لم تَخلُ من شيء من المبالغة ، فإنَّها تدل على خضوع الناس لتأثير الكتاب ، وظلَّ العلماءُ عاكفين على مطالعته وشرحه[٣] وتلخيصه .

وكان الإمامُ ابن الجوزي (٥٩٧هـ) يَنتقِدُ على الغزالي في مواضع كثيرة ، ويرى أنَّ كتاب الإحياء قد اشتمل على أحاديثَ كثيرة لا تَصِحُّ ولا تثبُت على طريق المحدِّثين[٤] ، ومع ذلك يَعترف بتأثيره ، وقد اختصر الإحياء في كتاب ، وسمَّاه «منهاج القاصدين» .

وقد صنَّفَ الغزاليُّ هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين، واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس، ومرَّتْ بـه أدوارٌ من الخـوف والرجـاء ، والزُّهـد والتَّبَـتُّل ، والمعرفـة واليقين .

وصنَّف هذا الكتاب بعدما تذوَّق كلاًّ من هذه الأحوال؛ فجاء الكتاب صورةً لنفسيته وانطباعاته وتأملاته؛ لذلك كان شديدَ التأثير في نفوس قرائه؛ ولذلك نجِدُه يتدفَّق حياة وقوَّة .

لقد رأى الغزاليُّ ـ بعدما أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقية ، وانكشفتْ له حقيقة العلم ـ حقيقةَ ما فيه أهلُ الدنيا ، من العكوف على اللذات

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء: ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٥ .

(٣) من أجلِّ هذه الكتب كتاب «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» في عشرين مجلداً للعلامة السيد مرتضى الزبيدي البلكرامي الهندي (ت ١٢٠٥) وقد اشتمل على مادة غزيرة فيما يتصل بالعلوم الدينية والأدبية .

(٤) راجع «تلبيس إبليس» لابن الجوزي .

وعبادةِ الشهوات ، والتكالُب على الحياة ، وحقيقةَ ما فيه أهل العلم ورجالُ الدين: من طلبِ الجاه والرياسة ، ونيل الحظْوةِ عند أهل الحكم والسياسة ، والجدلِ الفارغ ، والنقاش الحاد ، والاكتفاء بمسائل الفروع والأحكام، والانصراف عن علم الآخرة، وتهذيب النفس، وحقيقة ما فيه المنتدَبون للإصلاح والدعوة من الكلام المُزَخرف ، واللَّفْظ المُسجَع ، والقصَص المُلْهِية.

ورأى عموم الفساد ، وغفلة الناس ، وسُكوت العلماء ، وفُقدان النذير؛ فانبعثَ في نفسه داعيةٌ قوية لتأليف هذا الكتاب الذي يَكشف عن الناس الغطاء ، ويبين لكل طبقة من طبقات الأمة ما فيه هذه الطبقةُ من أوهام وأحلام ، ويكونُ دعوة صارخة سافرة إلى الاستعداد للموت ، والتأهب للآخرة ، والأخذ بلباب الدين وحقيقته ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه ، يقول رحمه الله :

«فأدِلَّة الطريق هم العلماءُ الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغَر منهُم الزمانُ ، ولم يبق إلا المتمرِّسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستهواهم الطغيان ، وأصبحَ كل واحد بعاجل حَظِّه مشغوفاً؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً؛ حتى ظل علم الدين مندَرساً ، ومَنارُ الهدى في منطقة الأرض منطمساً.

ولقد خيَّلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعينُ به القضاة على فصل الخِصام عند تهاوش الطَّغام ، أو الجَدل يتذرَّع به طالبُ المباهاة إلى الغَلَبَة والإفحام ، أو سَجْعٌ مزخرف يَتوسَّلُ به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدةً للحرام ، وشَبكة للحطام.

فأمَّا علمُ طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة ، وعلماً وضياء ونوراً ، وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً ، وصار نسياً منسياً ، ولما كان هذا ثلماً في الدين مُلماً، وخطباً مُدلهماً ، رأيتُ الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهمّاً لإحياء علوم

الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين»[١].

نَقدُ المجتَمع والحسبَةُ عَليه:

وكان لابدَّ للإصلاح الذي نَهض له الغزالي ، وجاشتْ له نفسه ، وتحرَّكت مواهبه ، أن يعرف المجتمع الإسلامي مواضعَ الضعف والفساد في حياته ، ويَعرف علَله وأدواءه ، وكان لابد لذلك من أن تَعرف طبقاتُه المختلفة ، كيف لَبَّس عليها إبليس؟ وما هي الأوهام التي تعيش فيها؟ وكيف تغيرتِ المفاهيم الدينية؟ وكيف تشوَّهت الحقائق؟ وكيف تشاغلَ الناس بالظواهر والأشكال والرسوم؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد ، حتى أصبح المجتمعُ كله ـ إلا من عصمَ اللهُ ـ في شُغْل شاغل عن الآخرة ، وما ينفع فيها وما يلزم لها؟ وأصبح المفكِّرون في أمور الآخرة ، والسَّاعون لرضا الله تعالى قِلَّـةً قليلةً.

عَرف الغزاليُّ هذا قبل أن يُؤلِّف الكتابَ؛ فنظر إلى المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة؛ فبيَّن بكل صراحة وقوة ما وقعَ فيه من انحرافٍ وابتعاد عن الجادة ، وتناوَلَه طبقةً طبقةً ، فذكر أمراضَها ومغالطاتِها ، وميَّزَ بين المقاصد والغايات ، والوسائل والآلات ، وقسَّم العلوم: بين العلوم الدينية وبين العلوم الدنيوية ، وبين العلوم المحمودة والعُلوم المذمومة ، وبين فَرض العين وفرض الكفاية ، ونبَّه على ما هو فرضٌ ومُتعيِّنٌ في زمانه لا يسع العالِم تركُه ، وما فيه مُتَّسَعٌ ومندوحة ، وذكر العلل التي تَخُصُّ الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامَهم وغرورهم ، وانتقدَ الملوكَ والأمراء بشجاعة ، وأنكَر عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفَة للشرع ، وقوانينهم المعارضَة للدين ، وذكر شيئاً كثيراً من أمراض العامة ، والمُنكرات الفاشية في مختلف الطبقات ، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية ، والبدع المنتشرة؛ وبذلك كان هذا الكتاب

(١) إحياء علوم الدين: ص ٣ ، ج١ طبع الحلبي.

موسوعةً إسلامية اجتماعية ، وأوسعَ كتاب وأقواهُ في نقد المجتمع والدعوة إلى الإصلاح.

العُلماء ورجَال الدِّين:

يعتقد الغزالي أنَّ التَّبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل؛ والضَّعف في الدين والانحلال في الأخلاق ، تقعُ على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول في فساد هذه الأوضاع؛ لأنهم مِلْحُ الأمَّة ، وإذا فسد المِلحُ فما الذي يُصلحه؟! ويتمثَّل الغزالي ببيت خُوطب فيه العلماء:

يـا مَعْشَـرَ القُـرَّاء يـا مِلْـحَ البَلَـدْ ما يُصْلِـحُ المِلْـحَ إذا المِلْحُ فَسَـدْ [(١)]

ويذكرُ كيف مَرضتْ قلوب النـاس ، واشتدتِ الغفـلة عن المعـاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها مَرض العلماء واعتلالهم ، وهم أطبَّاء القلوب ، يقول:

«والثالثـة : ـ وهو الـدَّاء العُضَـال ـ فَـقْد الطبيب؛ فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرِضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً ، وعجزوا عن علاجه».

ويَقُولُ في موضِعٍ آخر:

«فإنَّ الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهمُ المرض ، فالطبيبُ المريضُ قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الدَّاءُ عُضَالاً ، والمَرض مُزمناً ، واندرس هذا العلم ، وأُنكِر بالكلية طبُّ القلوب ، وأُنكرَ مرضُها ، وأقبل الخلق على حبّ الدنيا ، وعلى أعمالٍ ظاهِرُها عباداتٌ ، وباطنُها عاداتٌ ومُراءاة» [(٢)].

ويَردُّ الغزاليُّ فساد الملوك والأمراء ، إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم يقول: «وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك

(١) إحياء علوم الدين: ج١ ، ص ٥٤.
(٢) المصدر السابق: ج٣ ، ص ٥٤.

لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء ، لقلَّ فساد الملوك ، خوفاً من إنكارهم» [١].

وَيلومُ الغزاليُّ العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، ويُعلِّل ذلك بوقوع العلماء في شِباك الأمراء ، وحُبِّهم للدنيا ، وطلبهم للجاه.

يقول ـ بعدما يروي حكايات تدل على شجاعة العلماء السلف ، وإنكارهم على الملوك والكبراء ـ :

«فهذه كانت سيرةُ العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يَحرسهم ، ورضُوا بحكم الله تعالى أن يرزقَهُم الشهادة ، فلمَّا أخلصوا للهِ النيةَ أثَّر كلامهم في القلوب القاسية ، فليَّنَها ، وأزَال قَساوتَها.

وأمَّا الآن فقد قَيَّدتِ الأطماعُ ألسُنَ العلماء ، فسكتوا ، وإن تكلموا لم تُساعد أقوالَهم أحوالُهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقَصدوا حقَّ العلم لأفلحوا ، ففسادُ الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفسادُ العلماء باستيلاء حبِّ المال والجاه ، ومن استولى عليه حُبُّ الدنيا لم يقدر على الحُسبةِ على الأرذال ، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعانُ على كل حالٍ» [٢].

لاحظ الغزاليُّ ـ وقد قضى مدة طويلة في التدريس والإفتاء ، وعاش بين العلماء وخَبَر سيرتهم ـ أنه قد شُغل الناس بالجُزئيات الفقهية ، والمسائل الخلافية ، ووقَع الاكتفاء بعلمِ الفقه والفتيا ، وانصرفَ بذلك العلماءُ وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والأشغال المفيدة الأخرى ، وشُغلوا عن العلم الذي يُصلحون به نفوسهم ، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة ، وجَهلوه ، يقول:

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٢ ، ص ١٣٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٢ ، ج٣.

«ولو سُئل فقيهٌ عن معنًى من هذه المعاني ، حتى عن الإخلاص مثلاً ، أو عن التوكُّل ، أو عن وجه الاحتراز عن الرِّياء ، لتوقَّف فيه ، مع أنه فرض عينٍ والذي في إهماله هلاكُه في الآخرة .

ولو سألته عن اللعانِ ، والظهار، والسَّبق ، والرمي ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تَخْلُ البلد ممَّن يقوم بها ، ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً ، وفي حفظه ودَرسه ، ويغفلُ عما هو مهم لنفسه في الدين ، وإذا رُوجع فيه ، قال: اشتغلت به لأنه علمُ الدين ، وفرْض الكفاية ، ويُلبِّسُ على نفسه وعلى غيره في تَعلُّمهِ.

والفَطِنُ يعلم أنه لو كان غرضُه أداءَ حقِّ الأمر في فرض الكفاية ، لقدَّم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيبٌ إلا من أهل الذمَّة ! ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلَّق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات؛ والبلدُ مشحونٌ من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى ، والجواب عن الوقائع .

فليت شعري ! كيف يُرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض الكفاية قد قام بـه جماعة ، وإهمال ما لا قيام بـه ؟ هل لهذا سببٌ إلا أن الطب ليس يتيسَّر الوصول به إلى تولِّي الأوقاف والوصايا ، وحيازةُ مال الأيتام وتقلُّد القضاء والحكومة ، والتقدمُ على الأقران ، والتسلُّط به على الأعداء؟» [(١)] .

ولاحظَ كذلك ـ وقد شاهد بعينه ـ أنه قد نفقت سوقُ المناظرات في الفقه والعقائد وعلم الكلام ، وطغتْ على كل شيء حتى أصبحتْ زينةَ الأعراس والمآتم ، ومجالس الملوك والأمراء ، وأصبحت كسباقِ الخيل ، ونِطاح الأوعال ، وتَناقُر الدِّيَكةِ ، يتفرَّجُ عليه الأغنياء والأمراء .

---

(١) إحياء علوم الدين: ج١ ، ص١٩ .

وقد ذكر أنَّ عِظَم إقبال العلماء على هذا الفنِّ ، وبراعتهم فيه ، لرغبة الملوك والأمراء في ذلك ، وتطوَّرت مع تطوُّر رغبة الأمراء واتجاهاتهم ، وإنما الملك سوقٌ يجلب إليها كل بضاعة تروج فيها ، وهو في ذلك يَظهر مُؤرِّخاً دقيقَ النظر ، قَويَّ الملاحظة ، يقول بعد ما ذكر الدور الأول:

«ثمَّ ظهَرَ بعدَهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعُلِمتْ رغبتُه إلى المناظرة والمجادلة في الكلام؛ فأكبَّ الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتَّبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فُنونَ المناقَضات في المقالات ، وزعموا أنَّ غرضهم الذَّبّ عن دين الله ، والنضال عن السنَّة ، وقَمْع المبتدعة ، كما زعم مَنْ قَبلهم أن غرضهم من الاشتغال بالفتاوى الدّينُ ، وتقلُّد أحكام المسلمين؛ إشفاقاً على خلق الله ، ونصيحةً لهم.

ثمَّ ظهر بعد ذلك من الصدور، من لم يَستصوب الخوض في الكلام ، وفَتْحَ باب المناظرة فيه؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصُّبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص؛ فترك الناسُ الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعيِّ وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك ، وسفيان ، وأحمد ـ رحمهم الله تعالى ـ وغيرهم، وزعموا أنَّ غرضهم استنباط دقائقِ الشرع، وتقريرُ عِلل المذهب ، وتمهيدُ أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتَّبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مُستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندري ، ما الذي يُحدِث الله فيما بعدنا من الأعصار؟

فهذا هو الباعثُ على الإكْباب على الخلافيات والمناظرات لا غيرُ ، ولو مَالتْ نفوسُ أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة ، أو إلى علمٍ آخر من العلوم ، لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعليل بأن ما اشتغلوا به هو

عِلْمُ الدين ، وأنْ لا مطلبَ لهم سوى التقرُّب إلى رب العالمين»[١].

وتكلَّم بعد ذلك الغزاليُّ بتفصيل في آفاتِ المناظرة وما يتولَّدُ منها من مُهلكات الأخلاق وقد عرفَ ذلك عن تجربة واختبار؛ فقد كانَ فارسَ هذا الميدان وإماماً من أئمة هذا الشأن ، وكلامُه كلامُ خبيرٍ مُجرِّب[٢].

وقد فَطِن الغزاليُّ ـ لذكائه الباهر وتجربَتِه العلمية ـ أنَّ من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر ، وبُعدِهم عن الحقائق ، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها ، وفي غير معناها الأصيل القديم ، وصار يُفهم منها ما لم يكن يُفهم في العصر الأول؛ يَعقِدُ في كتاب «الإحياء» فصلاً خاصاً في بيان ما بُدِّلَ مِن ألفاظ العلوم ، ويقولُ في مُفْتَتَحِه :

«اعلمْ أنَّ منشأَ التباسِ العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريفُ الأسامي المحمودة ، وتبديلُها ونقلُها بالأغراض الفاسدة إلى معان غَير ما أراده السَّلَف الصالح والقَرْن الأول، وهي خمسَة ألفاظ : الفقهُ، والعلمُ، والتوحيدُ ، والتذكيرُ ، والحِكمة ، فهذه أسام محمودةٌ ، والمتَّصفون بها أربابُ المناصب في الدين ، ولكنها نُقِلَتِ الآن إلى معانٍ مذمومة؛ فصارت القلوب تَـنْفر عن مذمَّة من يتَّصف بمعانيها لشُيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم»[٣].

ثُم شَرَحَ أنَّ اسمَ الفقه كان يُطلق في العصر الأول على عِلْم طريقِ الآخـرة ، ومعرفةِ دقـائق آفـاتِ النفوس ، ومُـفسدات الأعمـال ، وقُـوة الإحاطةِ بحقارة الدنيا ، وشدَّة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاءِ الخوف على القلب.

فخُصِّصَ في هذا العَصر بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى ، والوُقوف على دقائقِ عِلَلِها ، واستكثار الكلام فيها ، وحِفظِ المقالات المتعلِّقة بها.

---

(١) الإحياء: ج١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) راجع الجزء الأول من كتاب «الإحياء» ص ٤٠ ـ ٤٣.
(٣) الإحياء: ج١ ، ص٢٨.

وكان لفظُ العلم يُطلق على العلم بالله تعالى ، وبآياتِه وبأفعاله في عباده وخلقِه ، وتَصرَّف فيه أهلُ الزمان بالتخصيص ، حتى شهَروه في الأكثر بمن يشتغل بالمُناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها.

وكان التوحيدُ عند الأوَّلين ، هو أن يرى الإنسانُ الأمورَ كُلَّها من الله عز وجل رُؤيةً تقطع التفاتَهُ عن الأسباب والوسائط؛ فلا يَرى الخير والشَّر كله إلا منه جلَّ جلاله ، وقد جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفةِ طريق المجادلة ، والإحاطة بطُرق مناقضات الخصوم ، والقُدرة على التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات؛ حتى لقَّب طوائف منهم أنفسَهم بأهل العَدْل والتوحيد ، وتسمَّى المتكلِّمون العلماءَ بالتوحيد.

والتذكيرُ هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] فنُقل ذلك إلى ما ترى أكثرَ الوعاظ في هذا الزمان يُواظبون عليه ، وهو القصص ، والأشعار ، والشَّطْحُ ، والطَّامات.

والحِكمة هي التي أثنى الله عزَّ وجلَّ عليها فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فصار اسم الحكيم يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم؛ حتى على الذي يُدحرج القَرْعة على أكُفِّ السَّوادية في شوارع الطُّرق»[١].

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحلِّ استعمالها ، وبين معانيها المُحدثة ومحل استعمالها ، وبيانِ التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقولُ:

«فقد عرفتَ كيف صرفَ الشيطانُ دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكلُّ ذلكَ من تلبيس عُلماء السوء بتبدُّلِ الأسامي ، فإن اتبعتَ هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفاتٍ إلى ما عُرف في العصر

(١) انظر «الإحياء» بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٢٨ ـ ٣٤ الجزء الأول.

الأول ، كنُتَ كمنْ طَلبَ الشرف بالحكمة باتباع من يُسمَّى حكيماً؛ فإنَّ اسمَ الحكيم صار يُطلَق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ».

وهكذا يُهِيب الغزاليُّ بالعلماء ، في قُوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعُمق وتحليل علمي ، ويُثير فيهم الغيرة والشعور ، ويَستحِثُّهم على الرجوع إلى مركزهم في الأمة ، وهو خِلافة الأنبياء والوِصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي ، والحُسبة على الحكومة والحكَّام ، والخواصّ والعوام ، معتقداً بأنهم حَجَرُ الزاوية في إصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاَح العالم ، وبفسادهم فسادُ العالم ، ثم يلتفتُ إلى السلاطين والأمراء ، لأنهم الركنُ الثاني في إصلاحِ النوعِ الإنساني.

المُلوكُ والأمراء:

لقد كانتِ الحكوماتُ في عصر الغزالي حكومات شخصية مستبدّةً ، وكان نَقْدُ السلاطين على سياستهم وأموالهم وتصرُّفاتِهم مُجازفةً بالحياةِ ومغامرةً قد تُؤدي إلى الحبس والإهانة والعقوبات المؤلمة. وكثيراً ما تُؤدِّي إلى القتل والنَّفي.

وكان الذي يَرفضُ وظيفةً أو منصباً يُقدِّمه السلطان ، أو يَرفُض عطية سلطانية ، يُعتبر في أكثر الأحيان خارجاً على الحكومة غير وَفيٍّ لها؛ ولكن كل ذلك مما كان يَعْلَمُه الغزالي ـ وهو العالم المطَّلع الواعي ـ لم يَمْنَعْه من إبداء رأيه الصريح. في أموال الملوك والسلاطين في عصره ، وعن نقدِ سياسَتِهمُ المالية ، يقول في «الإحياء»:

«إنَّ أموال السلاطين في عصرنا حرامٌ كُلُّها أو أكثرُها ، وكيف لا ، والحلالُ هو الصدقات والفَيء ، والغنيمة، ولا وجود لها! وليس يَدخُل منها في يد السلطان ، ولم يَبقَ إلا الجزية ، وإنها تُؤخذ بأنواع من الظلم لا يَحلُّ أخذُها به ، فإنَّهم يجاوزون حدودَ الشرع في المأخوذِ والمأخوذ منهُ ، والوفاءِ

له بالشرط ، ثم إذا نُسب ذلك إلى ما يُنصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومِنَ المصادرات والرِّشا وصُنوف الظلم لم يبلغ عُشر مِعشار عُشيره»[١] .

ويَعرف الغزاليُّ ـ وهو الذي عاش بين العلماء ـ أنَّ كثيراً من أهل العلم ، والمتصلين بالملوك والأمراء ، يستدلون بقبول كثير من السلف أموالَ السلاطين وجوائزهم وصِلاتهم ، فـيُـبَـيِّـنُ الفَرق بين الأوضاع الأولى وأوضاع العصر ، ويُثبِت أنه لاَ يَصحُّ القياس على أحوالهم ، يقول:

«إنَّ الظلمة في العصر الأول ـ لقُرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين ـ ، كانوا مُستَشعرين من ظلمهم ، ومُتشوِّقين إلى استمالةِ قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلَّدون المِنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويُفرقون ، ولا يُطيعون السلاطين في أغراضهم ، ولا يَغْشون مجالسَهم ، ولا يُكثِّرون جمعَهم ، ولا يُحِبُّون بَقاءهم؛ بل يَدْعُون عليهم ويُطلقون اللسان ، ويُنكرون المنكراتِ منهم عليهم؛ فما كان يُحذرُ أن يُصيبوا من دينهم بقَدر ما أصابوا من دُنياهم ، ولم يكن بأخذِهم بأسٌ.

فـأمَّـا الآن ، فـلا تَسمـحُ نفـوسُ السـلاطيـن بعطيَّـةٍ إلا لمـن طمعـوا فـي استخدامهم والتكثُّر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمُّل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبةَ على الدعاء والثناء ، والتزكية والإطراء في حضورهم ومَغيبهم ، فلو لم يُذل الآخذُ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردُّد في الخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحُب والموالاة والمناصرة لـه على أعدائـه سادسـاً ، وبالسَّتر على ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعاً ، لـم يُنعم عليه بدرهـم واحدٍ ولو كان في فضل الشافعي رحمـه الله

(١) انظر «الإحياء» ما بدل من ألفاظ العلوم ص ١٢٢ ج٢.

مثلاً؛ فإذاً لا يجوز أن يُؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يُعلم أنه حَرامٌ أو يُشكُّ فيه! فمن استجرأ على أموالهم، وشبَّه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاسَ الملائكة بالحدَّادين»[١].

وقيمةُ هذه الكلمة الجريئة لا تُعرف إلا في جَوِّ الحكومات الشخصية الرهيب الذي كانت كلمةٌ واحدةٌ تصدر من عالم أو مؤلف في نَقْدِ ملِكٍ أو حاكم تُطيحُ بحياته.

ولم يَكْتَفِ الغزاليُّ بالدعوة إلى الامتناع من قبول العطايا السُّلطانية ورفضها، بل دعا إلى الاعتزال عن السلاطين الجائرين، واعتقادِ بُغضهم، وكراهةِ حياتهم، والابتعاد عنِ المتصلين بهم، يقول في «الإحياء»:

«الحالةُ الثالثةُ: أن يَعتزلَ عنهم؛ فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب، إذ لا سَلامة إلا فيه؛ فعليه أن يَعتقد بُغضهم على ظُلمهم، ولا يُحبُّ بقاءهم، ولا يُثني عليهم، ولا يَستخبِرُ عن أحوالهم، ولا يتقرَّب إلى المتَّصلين بهم»[٢].

مُصَارَحتُه السلاطينَ والوُزراءَ بالحقِّ وحثُّهم على الإصْلاح:

ولم يقتصر الغزاليُّ على إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته؛ بل أبدى رأيَه وجهرَ بالحقِّ والنصيحة أمام الملوك كُلَّما سَنَحَتْ له فرصةٌ، وقد قال للسلطان «سنجر بن ملْك شاه السَّلْجُوقي» الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها:

«أسفاً! إنَّ رقاب المسلمين كادَت تنقضُّ بالمصائب والضرائب، ورقابُ خيلك كادت تنقضُّ بالأطواق الذهبية»[٣].

(١) إحياء علوم الدين: ص ١٢٢ ـ ١٢٣ج ٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ١٢٨.

(٣) رسائل الإمام الغزالي: بالفارسية.

وقد كَتَبَ إلى أخيه الأكبر مُحمد بن ملْك شاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالة ذكَّره فيها بمسؤوليته ، وحذَّره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظَرَهُ إلى إصلاح المملكة.

وكان الوزيرُ في الحكومات الشخصية في الشَّرق هو الذي يَملك زمامَ المملكة ، وبيَده الحَلُّ والعَقد؛ فإذا صَلح صَلحت الدولة ، وإذا فسد فسدَت الدولة ، وكان الغزاليُّ يعرف هذا جيداً ، وقد عاصر «نظام الملك» الطوسيّ وَزير المملكة السَّلجوقية العظيمة ومديرَها ، وعاصر أبنَاءه؛ فاعتنى بوزراء المملكة أكثرَ مما اعتنى بالملوك؛ لأنَّهم مفتاح المملكة ، وموجهوها ، والمباشرون للأمور ، وكَتب إلى وزراء المملكة رسائلَ مستفيضة ، ولفتَ نظرهم بكل جُرأة وصراحةٍ إلى فساد الأوضاع ، وجَوْر الحكام وابتزازهم للأموال ، وما كان يعانيه الشعب من حَيْف الأمراء ، وغَفْلَةِ المسؤولين ، وطَمَعِ الموظفين ، وحذَّرهم عقابَ الله وبَطْشَهُ ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين ، والحكام الظالمين ، وحثَّهم على إصلاح الجهاز الإداري ، وتنظيم الحكومة والضَّرْب على يد الظلمة. ورسائلُه الفارسية التي وجهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثالُ الشجاعة والصَّدْع بالحق ، ومثالٌ لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير. ومنها رسالة إلى فَخْر الملك ، يقول فيها:

«اعلمْ أنَّ هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناسَ توجُّهك من إسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاَّحون يبيعون الحبوبَ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستَسْمَحوهم؛ لما كانوا يتوقعون من إنصافٍ منك ، واستطلاعٍ للأحوال ، ونشاطٍ في الإصلاح. أما وقد وصَلْتَ إلى طُوس ، ولم يَر الناس شيئاً فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والخبّازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجَّع الظالمون ، وكل من يُخبرك من أخبار هذا البلد بخلافِ ذلك ، فاعلم أنه عَدُوُّ دِينك».

«واعلمْ أنَّ دُعاء أهل طُوس بالخير والشر مُجَرَّبٌ ، وقد نصحتُ للعميد

كثيراً؛ ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبحَ عبرة للعالمين ونكالاً للآخرين.

اعلمْ يا فخر الملك أنَّ هذه الكلمات لاذعةٌ مُرّةٌ قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فاقْدُرها قَدْرَها؛ فإنك لا تسمَعُها من غيري ، وكلُّ من يقول غير ذلك ، فاعلم أنَّ طمَعه حِجابٌ بينَه وبين كلمة الحق».

وكَتبَ إلى مُجِير الدين: «إنَّ إغاثة الخلق واجبةٌ على الجميع؛ فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم أستطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرتُ من طوس ولي سنةٌ؛ حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ، ولا يُراعون حرمة ، وقد ألجأتني بعض الضرورات إلى زيارة البلد؛ فوجدتُ الظلم مُستمراً لم يَنْقطع»[1].

ويقولُ في هذا الكتاب: «لقد بَلغتِ المُدْيةُ[2] العظمَ ، وبلَغ السَّيل الزُّبى ، وكادَ المسلمون يُستأصلون ، وإن ما قسَمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانة من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتَهبها الظالمون والسَّفَلَةُ من الناس ، ولم يَصِلْ منها شيءٌ إلى السلطان».

ولم يقتصر الغزاليُّ على بذل النصيحة لملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني ، وتحذيرهم من سخط الله ، بل كان يبحث ـ لعلوِّ همته وحِرصه على إقامة الدين وإسعاد المسلمين ـ عن دولة فتية تقومُ على أساس ديني متين ، وفكر ديني سليم ، وكأنه كان يائساً من الحكومات الإسلامية المعاصرة؛ فقد سرى فيها الوهن ، واستولى عليها الفسادُ ، وقد قامت في عصره دولةٌ نشيطة بريئةٌ من كثير من عِلل الحكومات الإسلامية القديمة ، وهي دولة الملثَّمين في المغرب ، كان على رأسها رجلٌ هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم ، هو يوسفُ بنُ تَاشَفِين ، صاحبُ مُرَّاكش.

---

(١) رسائل الإمام الغزالي: بالفارسية.

(٢) [المُدْيَـةُ: الشَّفرة الكبيرة].

ويُحدِّثنا ابن خَلِّكان ، أنَّ الغزالي قصَده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة ، يقول ابنُ خَلكان: «وبلغني أن الإمام حُجَّة الإسلام ، أبا حامد الغزالي ـ تغمَّده الله تعالى برحمته ـ لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ، ومَيلهُ إلى أهل العلم ، عَزم على التوجه إليه؛ فوصل إلى الإسكندرية ، وشرع في تجهيز ما يَحتاج إليه ، فوصله خبرُ وفاته ، فرجع عن ذلك العَزْمِ»[1].

وإذا فاتَ الغزاليَّ أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ويوجِّهه ، فقد ساق الله إليه ـ وهو في بلده ـ من قدَّر الله على يده قيامَ دولة جديدة تقوم على الدعوة والإصلاح ، وعلى الخير والصلاح ، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت ، الذي كان على يده زَوالُ دَولة الملثَّمين التي فَسدتْ وجارتْ بعدَ مُؤسِّسها يوسف بن تاشفين ، وقيام دولة الموحدين ، وقد قال عنه ابن خلدون:

«ولقِيَ ـ فيما زعموا ـ أبا حامد الغزالي ، وفاوَضه بذاتِ صَدْره ، فأرادَهُ عليه ، لما كان في الإسلام يومئذٍ بأقطار الأرض من اختلالِ الدولة ، وتقويضِ أركان السلطان الجامع للأمة ، المُقيم للملَّة ، بعد أن سأله عمَّن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزازُ والمَنَعة».

وإذا صَحَّتْ هذه الروايَة ، فإنَّ للغزالي فضلاً ونصيباً في توجيه الرجل الذي كان صاحب دعوةٍ وحركة في المغرب ، انتهتْ إلى قيام دولة فاضلةٍ تَتَمَسَّك بالدين ، وتُقيم القسط ، وتمنعُ الظلمَ ، وترفعُ شعائرَ الإسلام[2].

طَبقاتُ المُسلمينَ الأُخرى:

ولم يكن نَقْدُ الغزالي مقتصراً على العلماء والسلاطين والأمراء؛ بل إنَّه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصرَ كُلَّه ، فذكر ما انتشر فيه من بِدَعٍ

---

(١) وفيات الأعيان: ترجمة يوسف بن تاشفين.

(٢) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن علي ودولة الموحدين في «تاريخ ابن خلدون» الكتاب الثالث، أخبار البربر.

ومنكراتٍ وأوهام ومغالطات ، ويدل كتاب الإحياء على أنه ـ وإن كان نشأ نشأة علمية وعاشَ بين الكتب والتلاميذ ـ كان مُتصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً ، وقد درسه دراسة عميقة ، وكان واسعَ الاطلاع على المدنيَّة في عصره ، وأساليب الحياة ، وأجواء الطبقات. وإنَّ ما ذكره من أخلاق مختلفِ الطبقات وعِلَلها ليدُل دلالةً واضحة على قوة ملاحظته ، ودقَّة نظره. وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات المألوفة في العادات والتقاليد التي أَلِفَها الناسُ ، فلا يشعر كل واحد بأنها مُنكراتٌ دخيلةٌ على الحياة الدينية ، وقد دقَّق فيها واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرةً طويلة ، وخَبر الحياة ودرَسها دراسة واسعة عميقة ، ذكر فيها مُنكرات المساجد ومُنكراتِ الأسواق ، ومنكراتِ الشوارع ومُنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمُنكَرات العامة [١].

وخصَّصَ الغزاليُّ جزءاً من الكتاب بذَم الغُرور ، ذكر فيه أصناف المغترِّين وفِرَق كُلِّ صنف ، ذكر منهم المغترِّين من أهل العلم وفِرَقهم ، والمغترين من المتصوِّفة ، والمغترِّين من أرباب الأموال وفِرَقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخلَ النفس في هذه الطبقات، وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعُقدهم النفسية مالا يطَّلع عليها إلا عالمٌ كبيرٌ من علماء النفس ، ومُصلحٌ اجتماعيٌ ذكيٌ له تجارب طويلةٌ ، ونظرٌ نافذ.

وقد انتقَدَ العلماءَ والمشتغلين بالعلم في غُلوِّهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافيات ، والكلام ، والجَدل ، والتعمُّق في العلوم الآلية: كالنحو ، واللُّغة ، والشِّعر ، والغريب ، والانهماك به.

وانتقدَ الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم.

ولاحظ أنَّ هذه العلوم لما كانت متعلقةً بعلوم الشرع اغترَّ بها أربابها.

فأما علمُ الطِّب والحساب والصناعات وما يُعلم أنه ليس من علوم الشرع،

---

(١) إحياء علوم الدين: ج ٢ ، ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠.

فلا يعتقِد أصحابها أنهم ينالونَ المغفرةَ بها من حيث إنها علوم؛ فكان الغرور بها أقلَّ من الغرور بعلوم الشرع [١].

وذكَرَ من التباسات الصُّوفية ومبالغاتهم شيئاً كثيراً يدلُّ على إنصافه وتدقيقه [٢].

وقد ذَكَرَ عن المُغتَرين من أرباب الأموال طرائفَ وحقائقَ تدلُّ على النظر العميق، والفَهم الديني الصحيح، يقول:

«ربَّما يحرصون على إنفاق المال في الحج، فيحُجُّون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً؛ ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحُجاج بلا سبب! يَهون السفر عليهم، ويُبسط لهم في الرزق، ويَرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيرُه بين الرِّمال والقفار، وجارُه مأسور بجنبه لا يُواسِيه» [٣].

ويقول:

«وفرقةٌ أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها، يَحفظون الأموال ويُمسكونها بحكم البُخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل، وخَتم القرآن وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمْعِه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مُسْتَغْنٍ عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حيَّةٌ وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السَّكنجبين ليُسكّن به الصَّفراء، ومن قَتَلتْهُ الحية متى يحتاج إلى السكنجبين!؟ ولذلك قيل لبشر الحافي: إن فلاناً الغنيَّ كثيرُ الصوم والصلاة؛ فقال: المسكين؛ ترك حاله، ودخل في حال غيره؛ وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٣، ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق: انظر المجلد الثالث، صفحة: ٣٤٥ ـ ٣٥٠.

(٣) المصدر السابق: انظر: المجلد الثالث، صفحة: ٣٥١.

أفضل له من تجويعِه نفسه ، ومن صلاتِه لنفسه مع جمعه للدينار ومنعِه للفقراء [١]! .

ويقول عن العامّة وطوائف من الأغنياء والفقراء :

«وفرقةٌ أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغترُّوا بحضور مجالس الذكر ، واعتقدوا أن ذلك يُغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنُّون أنَّ لهم على مُجرد سماع الوعظ ـ دون العمل ودون الاتعاظ ـ أجراً ، وهم مَغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مُرغِّباً في الخير ، فإن لم يُهيِّج الرغبة؛ فلا خير منه ، والرغبةُ محمودة؛ لأنها تبعث على العمل ، فإن ضعُفتْ عن الحملِ على العمل ، فلا خير فيها . وما يُراد لغيره إذا قَصَّر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له .

وربَّما يَغتر بما يسمعه من الوعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رِقَّة كرِقَّةِ النساء فيبكي ولا عزمَ ، وربما يسمع كلاماً مخوفاً ، فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : يا سلام سلِّم! أو نعوذ بالله! أو سُبحان الله! ويظنُّ أنه قد أتى بالخير كلِّه وهو مغرور .

وإنَّما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء ، فيسمعُ ما يجري ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يَصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يُغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً ، فكذلك سماعُ وصف الطاعات ـ دون العمل بها ـ لا يغني من الله شيئاً؛ فكلُّ وعظ لا يغير منك صفةً تغييراً يُغيِّر أفعالك؛ حتى تُقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً ، وتُعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادةُ حجةٍ عليك ، فإذا رأيتَه وسيلةً لك كُنتَ مغروراً» [٢] .

وفي هذه القطع كلها يظهر الغزاليُّ مُصوِّراً حاذقاً ، يتناول بريشته البارعة

(١) إحياء علوم الدين : ج٣ ، ص٣٥٢ .
(٢) المصدر السابق : ج٢ ، ص٣٥٢ .

مجتمعَ عصره ، فيُصوّر مخايله وقسماتِ وجهه ، ويُجسّم دقائقه وتجاعيده ، ويَظهر في ذلك كله ذكاؤه ، وسعةُ اطلاعه ، ودقة ملاحظته ، وبَراعة تصويره ، وسلامةُ تفكيره.

مَكانتُه بين عُلماء الأخلاق:

ويدُلُّ كتابُ الإحياء على مكانته العالية بين علماء الأخلاق ، وقد بحث عن الأخلاق ودوافِعها ومنشئها وأصنافها بحثاً دقيقاً عميقاً ، وتكلّم في أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية.

وإنَّ من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع ، حتى لا يخلو عنه قلبٌ إلا بشديد المجاهدة ليخضَع ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية، وتحلِيله العلمي ، وعقلِه الكبير [١].

وقد استحقَّ الغزاليُّ ببحوثه العميقة في الأخلاق ، وبتأليفه العظيم «إحياء علوم الدين» أن يُوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق ، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق ، وعلم النفس ، والمؤرخين لهذا الموضوع.

كتابُ تَرغيبِ وتَهذيب:

ومِن أشدِّ أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس ، ما يشتمل على الترغيب والترهيب ، يُصوّر الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة ، والحاجة إلى الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس ، ويُحذّر من أمراض القلب ، ويُحاسب النفس ، ويدافع عنها ، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديقٌ محبٌّ ، ومحامٍ بارعٌ.

ثم يجيب عن ذلك ويُقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغةٌ ، ومُشرِّع بصيرٌ.

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» المجلد الثالث، صفحة: ٢٤١ ـ ٢٤٤.

ثم يُرقِّق القول ويَصفُ العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيبٌ حاذق ، ومُربٌّ عطوف ، ويجيء بالعجب العُجاب ، ويَسحر الألباب ، ويُدمع العيون ، ويُرقق القلوب .

وقد أثَّرتْ هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف ، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحولاً عظيماً ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها [١] .

وقد أصبَحَ كتاب الإحياء بذلك كُلِّه كتاب إصلاح وتربية ، وكأنَّ المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب ـ كمرشد ومرب ـ مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ لذلك جعله يحتوي على العقائد ، والفقه ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الإحسان .

تَضـرُّرُ بعضِ النـاس من كتـاب الإحيـاء:

ولكن ممَّا يُلاحظ أنَّ كثيراً ممَّن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ، أو يُكثر من قراءته ويُشغَف بـه ، ينشأ عنده غُلـوٌّ في الزهـد والتقشُّف ، ومخالفةِ النفـس فـي المبـاحـات ، والكـراهـة للحيـاة ، والإكثـار مـن الـريـاضـات والمجاهدات ؛ حتى تتأثر بذلك صِحَّتهُ وعقله ، خصوصاً في هذا العصر الذي ضَعُفت فيه القِوى والأجسام ، لذلك يَمنعُ بعضُ المربين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحالِ ، خصوصاً الذين عندهم تأثُّر قويٌّ ، وانفعالٌ سريعٌ ؛ ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ الغزالي صنَّفه في حالةٍ قد غلب عليه فيها الخوفُ والهيبةُ ، وكان متأثراً شديدَ التأثرِ ؛ فجاء كلامه صورةَ نفسيَّته وتأثُّره ، وقد جمعَ فيه أقوالاً كثيرة في الزهد وقَهْرِ النفس وعِصيانها ، لا تخلو من المبالغة والإسراف .

والحقُّ ، أنَّ السيرة النبوية ـ ويدخل فيها الحديث الصحيح ـ على صاحبها

(١) انظر «إحياء العلوم» المجلد الرابع ، صفحة: ٣٥٦ ـ ٣٥٨ .

الصلاة والتحية ـ هي المدرسةُ الوحيدة الي تُربي تلاميذَها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح. و«كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»[١]. ويُمثِّل ذلك بعضَ التمثيل قدوةٌ دينية تجمع بين العلم الراسخ، والسيِّرة المستقيمة، والقلب الحي الفائض قد تشرَّب السيرة وتذوَّق السنَّة، وذاقَ حلاوة الإيمان، وحاز اليقين.

ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من الأحياء، ويقوم بالأحياء، ولم يكن الإنسان في دورٍ من الأدوار غنياً عن القدوة والصحبة.

فضل كتاب الإحياء:

وعلى ما تُعقِّب على الغزاليِّ في الإحياء من إيراد أحاديث ضعيفة، بل موضوعة في كثير من الأحيان[٢]، وأشياء من كلام الصوفية الممعِنة في الغلو، وهضْم النفس وترك المباحات، وقد لا تتفق مع أصول الدين، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة... إلى غير ذلك من مآخذ تعقَّبها العلامة الحافظ ابن الجوزي[٣]، وشيخُ الإسلام ابن تيمية[٤]، مع اعترافهما بفضل الكتاب؛ فإن كتاب الإحياء في مقدمة الكتب الإسلامية، التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كلِّ عصرٍ وجيلٍ، وأثَّرت في النفوس تأثيراً لا يُعرف إلا عن كتب معدودة، ولا يزال الكتاب الذي يَكثُر قراؤه والمُعجَبون به، والمتأثِّرون به في أكثر البلاد، ولا يزال ثروةً زاخرة في الدين، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية.

---

(١) من كلام الإمام مالك رضي الله عنه.

(٢) قام الحافظ الإمام زين الدين العراقي صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجاتها سماه «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٣) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي ج٩ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر آباد.

(٤) انظر: «فتاوى ابن تيمية» ج٢ ص ١٩٤.

شخصيّةُ الغزاليّ وفضلُهُ:

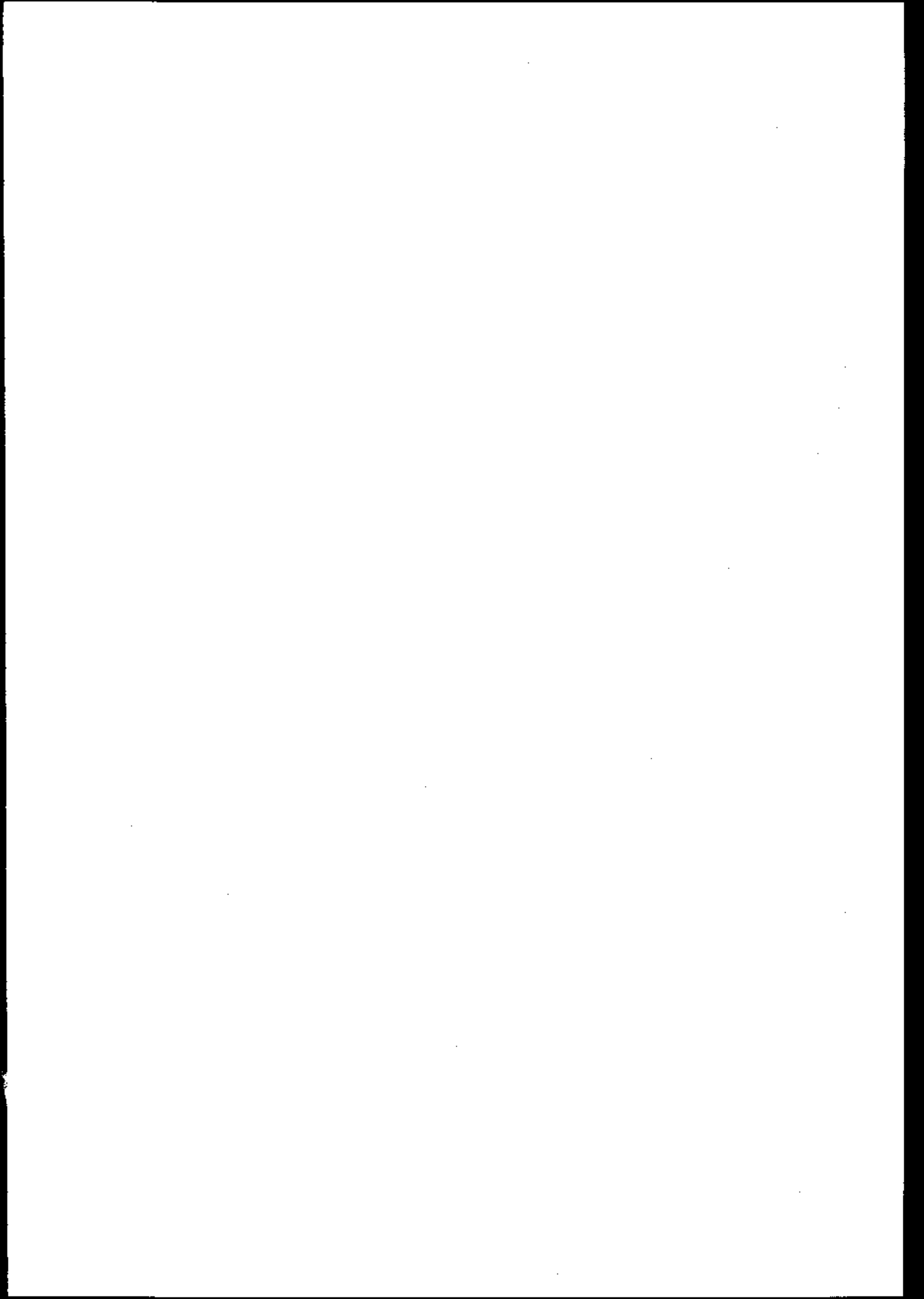
لا شكَّ أنَّ الغزالي من نوابغ الإسلام وعُقُولِهِ الكبيرة ، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي ورجالِ الإصلاحِ والتجديد الذين لهم فضلٌ كبير في بعث الروح الدينية ، وإيقاظِ الفكر الإسلامي ، والدعوةِ إلى حقائق الإسلام وأخلاقه ، وفي مقاومة الغَزوات العقلية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي . ومهما قيل فيه ، وقيلَ عنه ، فإنَّ إخلاصه أسمىٰ مِن أن يُشكَّ فيه .

وإنَّ عُلوَّ هِمَّته في جميع العلوم والنبوغ فيها ، ثم علو همته في طلب الحقيقة واليقين ، ثم عُلوَّ همته في طلب الآخرة وتحقيق غاية الوجود ، لا يزال موضع استغراب وتقدير وإكبار من الجميع ، وإنَّ ما خلفه من آثار وتُراث علمي ثروةٌ علميةٌ إسلامية لا يُستهان بقيمتها ، ولا يُنكَر فضلُها في عصر من العصور .

سلامُ الله على هذه الروح الزكية والهمة العالية والعقل الإسلامي الكبير! وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين[1] .

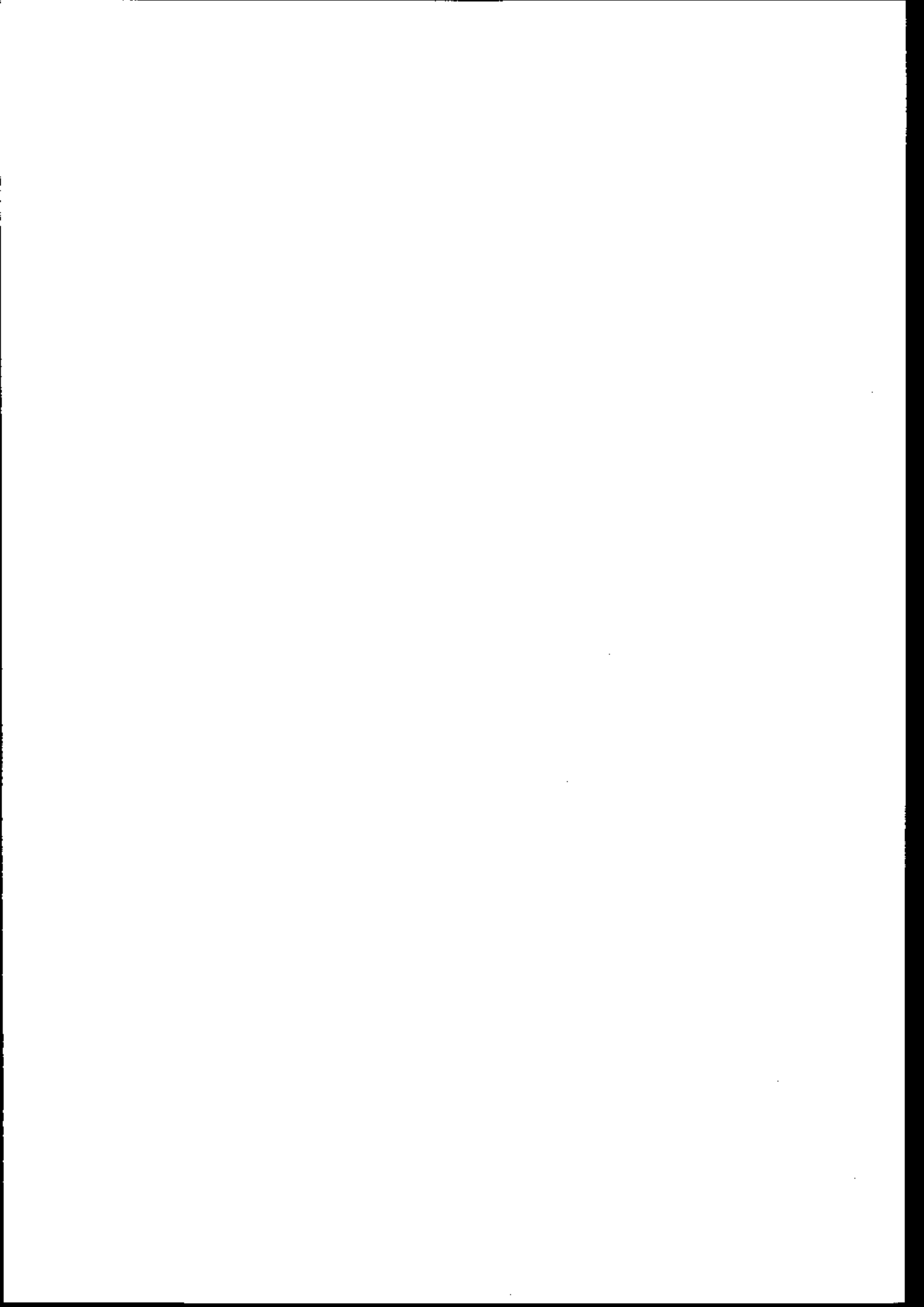
* * *

(١) [قد انتهتْ إلى هنا تلك المحاضرات التي ألقاها العلاَّمةُ المؤلِّف في مدرج جامعة دمشق عام ١٧٣٥ هـ ـ ١٩٥٦ م كأستاذٍ زائرٍ بكلية الشريعة التابعة لها ، ثم أضاف بعد رُجوعه إلى الهند ـ خمس محاضرات جديدة إلى الكتاب كما صرَّح به في حاشية المحاضرة الحادية عشرة القادمة].



الإمام عبد القادر الجيلاني

عَصْرُهُ، حَيَاتُهُ، صِفَتُهُ، تأثِيرُهُ.
دَعْوَتُهُ، إصْلاحُهُ، وَفَضْلُهُ، وَفَضْلُ خُلفَائِهِ في
تَجدِيدِ الإيمَانِ والدَّعوَةِ إلى الإسْلامِ.



المحاضرة الحادية عشرة:

الإمامُ عَبْدُ القَادر الجِيلانيُّ
عصرهُ ، حياتـهُ ، صِفَتُهُ ، تأثيرُهُ

الحاجَةُ إلى الدعوة الشعبيّة والإصلاح العام[1]!

لقد قام حُجَّةُ الإسلام الغزالي ، بشخصيته الفريدة القوية ، وجهادِهِ العلمي والإصلاحي ، بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وكان الرجلَ المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية ، وإلحادِ الباطنية ، وانحراف العلماء ، ولكن ظلَّ العالم الإسلامي في حاجة شديدةٍ إلى داعٍ شعبي ، وشخصية روحية رفيعة ، أكثرَ اتصالاً بالشعب وطبقاتِ الجماهير ، يَنفُخُ في المجتمع بدعوته ، ومواعظِهِ ، وبتزكيته للنفوس ، وإصلاحه للأخلاق ، روحاً دينية ، وحياة إيمانية.

وقد كانت الكثرةُ الكاثرةُ من المسلمين فريسةَ العِلَل الخُلقية والاجتماعية ، وقد انتشر فيها التعطُّل والغفلة والجهالة والنفاق ، ولَم تُؤَثِّـر المناقشاتُ العلمية ، والفلسفات الملحدة إلا في الطبقة المثقفةِ الراقية ، وخاصَّة الخاصَّةِ.

---

(١) زاد المحاضرُ بعد رجوعه إلى الهند محاضرات جديدة عن الإمام عبد القادر الجيلاني ومولانا جلال الدين الرومي، ضمت إلى الكتاب.

وقد ظلَّتِ المَلَكِيَّةُ المطلقةُ والحكُومة الشخصيةُ، تعملان عملهما في أخلاق الشعب طيلَةَ أربعة قرون، وقد وُجِدَت بتأثيرهما طبقة كبيرة لا همَّ لها في الحياة إلا الحصول على الثَّروة والتَّرفِ، أو نيل الجاه والشرف، وقد كانت لا تجحدُ بالله والآخرة كعقيدة؛ ولكنها قد نسيتِ الله بتاتاً، وكانت تعيش في ذهول عن الآخرة، وتحيا حياة مُترفَة لاهية.

وقد أنشبتِ الحضارةُ العجميَّةُ أظفارها في المجتمع الإسلامي، وتَغَلْغَلتِ العاداتُ العجمية والتقاليد الجاهلية في نظام الحياة، وارتفعَ مستوى المعيشة في الحواضر الإسلامية ارتفاعاً عظيماً، وتضخَّمتْ تكاليف الحياة وضرائب المجتمع ـ وهو ما يفرضُه من لِباس ومظاهر وآداب هي أقسى من ضرائب الحكومة ـ ووُجدت أُمةٌ من «رجال البلاط» وحاشيةِ الأمراء، ونُدماء أبناء الملوك، وعُبَّاد الأغراض، ومُنتهزي الفرص «النفعيين».

وقد كانت الطبقةُ الوسطىٰ على أثر الأمراء والأغنياء، وكان العامة والعَمَلةُ والفلاَّحون خاضعين لأخلاق الطبقة الوسطى، يرون الشرف في تقليدها والتشبُّه بها، وكان الذين يملكون وسائلَ الحياة والسَّعة في المعيشة يستخدمونها في التمتع بالحياة وإرضاءِ الشهوات.

أمَّا الذين حُرِمُوها، فَكانوا يقضون حياتهم في تَحَسُّرٍ وَتوجع، ويعتبرون نفوسهم ـ مهما أوتوا من العلم والنَّسَب والأخلاق الفاضلة ـ أذلَّ من الدواب والأنعام.

وكان أصحابُ اليسار والأموال لا يعرفون الإيثار والعطف على الضعفاء والبر بالفقراء، والشكرَ على ما أكرمهم الله به من سَعةٍ ورخاء.

أمَّا البؤساء والكادحون فكانوا لا يعرفون الصبر والرضا، والألفة والإباء، وهكذا فقـدتِ الحياة اتزانهـا وهدوءها، وأصيبت بنوبة عصبية عنيفة، لا يُرى إلا من سيطر على أموال عظيمة، وتَسلَّط على هلكتها واستغلالها للهوى والشباب، أو الجاه والنفوذ، وإلا مَن يَحسُد هذه الطبقة ويعيشُ في هموم

وغموم لا أرجاء لها، ولا تنتهي إلا مع الحياة، فلا دنيا يلهو بها وَيقضي وطره، ولا دين يلجأ إليه وَيَعْتَزُّ به.

كان المجتمعُ الإسلاميُّ ـ بكل ما ذكرناه ـ في حاجة مُلِحَّةٍ إلى دعوة دينية تُخففُ غَلواء حُبِّ الدنيا، وتحُدَّ من شدَّته وحدَّته، وتوقِظُ في النفوس الإيمانَ وتثير عقيدة الآخرة، وتُحرِّك في القلوب الحُبَّ لله والحنينَ إليه، وتَحثُّ على الطموح وعُلوِّ الهِمَّة وبذلِ الجهد في الحصول على علم الله الصَّحيح وعبادته، ونَيْل رضوانه والمسابقة في سبيله، وتدعو إلى التوحيد الكامل، والدين الخالص، دَعوةً صريحة مكشوفة، وتُبيِّن ضعفَ أهلِ الدنيا وأصحابِ الثروة ورجالِ الحكومة وفقرهم، في قوة ووضوح وثقةٍ واعتداد بالنفس، وأنَّ الأسبابَ لا قوة لها ولا تأثير، وأنها مُسخَّرةٌ خاضعة لإرادة الله تعالى يتصرَّف فيها، وَيملِكُها وَيُصَرِّفُها كيفَ يشاء.

مُؤَهِّلاتُ الدَّاعي العلميّة:

يتَّسم القرنُ الخامس والسادس في تاريخ الإسلام بسَعةٍ في العلم وتقدُّم في الآداب، وقد نبغ فيهما علماءُ كبار ومؤلِّفونَ بارعون. وقد كان من رجال أواخرِ القرن الخامس وأوائل القرن السادس والسابع العلامةُ «أبو إسحاق الشِّيرازي»(ت٤٧٦هـ) و«حُجة الإسلام الغزالي»(ت٥٠٥ هـ) و«أبو الوفاء ابن عقيل»(ت٥١٣ هـ) و«عبد القادر الجُرجاني» (ت ٤٧١ هـ) و «أبو زكريا التَّبريزي» (ت ٥٠٢ هـ) و«أبو القاسم الحريري»(ت ٥١٦ هـ) و«جار الله الزمخشري» (ت٥٣٨ هـ) و«القاضي عياضٌ المالكي» (ت٥٤٤ هـ) الذين ظلُّوا قروناً مسيطرين على العقول والاتجاهات، وكانوا مدارسَ أدبية علمية.

لم يكن لأحدٍ في هذا العهد الزاخر بالحياة العلمية ونوابغ الفن كالقرنِ الخامس والسادس، وفي بلد زاخر بالمدارس وحلقات الدروس كبغداد أن يُؤثر في مجتمعه الذي قطعَ شوطاً واسعاً في العلم، وانتشرتِ الثقافة في طبقاته انتشاراً كبيراً، ولم يكن له أن يلفت إليه الأنظار، وينفذ إلى أعماق النفوس

والقلوب ، وتخضعَ له الطبقات المثقفة وحَملَةُ لواء العلمِ في عصره ، إلاَّ إذا كان عاليَ الكعب طويلَ الباع في العلوم السائدة ، متضلِّعاً من علوم الدين والدنيا ، قد أقرَّ له معاصروه بالفضل ، وشهد له علماء بَلَدِهِ بغزارة العلم وسَعةِ المعارف.

وكان يَجِبُ أن يكون هذا الدَّاعي صاحِبَ بيان ولسان ، يخاطب العلماء والمثقَّفين في أسلوبهم ، والعامةَ في أسلوبها ، وكان يجبُ أن يكون صاحب نفس زكية ، وهِمَّةٍ قوية مُؤثرة ، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوفِ عن الشهوات وكِبَر النفس.

يجد ضِعافُ الإيمان وضعاف النفوس في مجالِسه قوةَ اليقين وحرارة الإيمان.

ويجد أهل الشكِّ والارتياب السكينة والإذعان.

ويجدُ أصحابُ النفوس القَلقة والقلوب الجريحة المنكسرة الهدوء والعزاء والسلوان.

وَيجد هواةُ الحقائق والمعارف وأصحابُ الدراسات العلومَ الدقيقة والنُّكت اللطيفة.

ويَجد أصحاب البطالة والعُطلة وأصحابُ القلوب الخامدة ما يملؤُهم حماسةً وإيماناً ، وما يحَفِزُهم إلى العمل والجهاد.

ويَجدُ عُبَّاد اللذات والشهوات والمترفون في الحياة ، الذين تجرؤوا على المعاصي والمحارم، ما يبعث فيهم الإقلاع والنَّدامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة ، يجدُ كل أحد في مجالسه غَناءه ودواءه وغذاءَه وشِفاءَه ويقف كمنارةٍ عالية من الإيمان والعلم في بَحْرٍ من الظلمات والجاهلية ، يأوي إليها الغَرقىٰ ويهتدي بها الحائرون ، ويَخلف الأنبياءَ في دعاء الخلق إلى الله ، ودعوة الناس إلى دار السلام ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ويَخلُفون

الأنبياء في تهذيب النفوس وتجديد الصلة بالله تعالى، والتذكير بالآخرة، وإيثارها على الدنيا، وتجريد التوحيد وإخلاص الدين لله تعالى.

وذلك كلُّه من أهم مقاصد بعثة الأنبياء ومِن أعظم أهدافهم، ولا يُمكن أن يبقى الإسلام كدين ونظام خُلقي وأسلوب للحياة ودعوة مؤثِّرة حتى يكون له دُعاة مجددون من هذا الطراز.

لقد كانت وطأةُ الحكومة التي كان على رأسها الملوك المسلمون الذين يتسمَّون بالخلفاء شديدةً على المجتمع الإسلامي، ولقد كان للمسلمين اندفاع قويٌّ إلى الجاهلية، ولقد كانت هذه الأوضاع خطراً كبيراً على الإسلام وعلى «المِزاج» الإسلامي؛ فكان المجتمع الإسلامي المُحاط بهذه الأخطار في حاجةٍ شديدة إلى مُصلح دينيٍّ ومُجَدِّدٍ إسلاميٍّ من الطبقة الأولى، يُحارب الجاهلية التي تسرَّبت إلى الإسلام، في عاصمتها وفي أوجها، وينفخُ روحاً إيمانية جديدة في هذا العالم المنهار.

لقد وُجد هذا المصلحُ في شخص الشيخ «عبد القادر الجيلاني»، الذي ظهر في بغداد في آخر القرن الخامس، وتسلَّم الزعامة الدينية، وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله، والتفَّ حوله العالم الإسلامي، وأثر فيه تأثيراً لم يؤثِّر مثله عالم أو مصلح من مدَّة طويلة.

دراسته ونبوغه:

وُلِدَ الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة ٤٧٠ هـ في جيلان [١]، ينتهي نسبُه إلى الحسن بنِ عليٍّ رضي الله تعالى عنهما، دخل بغداد سنة ٤٨٨ هـ، وله ثماني عشرة سنة، وهي السَّنة التي خرج فيها أبو حامد الغزالي من بغداد تاركاً

(١) جيلان أو كيلان ويقال أيضاً بلاد الديلم، ولاية من القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس، يحدها شمالاً ناحية تاليس الروسية، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينهما وبين أذربيجان وعراق العجم، وجنوباً بشرق مازندران، وشمالاً بشرق بحر قزوين، وهي تعد من أجمل ولايات فارس «دائرة المعارف للبستاني».

لتدريس النظامية، زاهداً في الدنيا طالباً للمعرفة واليقين [١]، وأقبل إلى العلم بهمة عالية وجد وحرص، ولم يُعقه شغفه بالعبادة والاشتغال بالله عن الاشتغال بالعلم، ولم يرضَ بالقناعة في العلم والاقتصار على القليل الذي لا بد منه.

قرأ العلومَ السائدة في عصره على أساتذتها والمبرزين فيها، وأتقَنها ومهَر فيها، وحصلت له فيها اليد الطولى، ومن شيوخه أبو الوفاء ابنُ عقيل، ومحمد بن الحسن الباقلاني، وأبو زكريا التبريزي، وأخذَ الطريقة عن الشيخ أبي الخير حماد بن مسلَّم الدَّبَّاس [٢]، وأكملها عند القاضي أبي سعيد المخرِّمي [٣]، وحصلت له الإجازة عنه.

الإصلاح والإرشاد:

عُنِيَ الشيخ عبد القادر ـ بعدما أتم دراسته العلمية والروحية ـ بإصلاح وإرشاد الخلق إلى الحق، وجمَع بين الرئاسة الدينية والرئاسة العلمية، وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة لطيفةً بباب الأزج، فَفُوِّضتْ إليه، وتكلَّم مع الناس بلسان الوعظ، وظهرَ له صِيتٌ، فضاقت مدرسته بالناس من ازدحامهم على مجلسه فجلس للناس عند السور أياماً، ثم وُسِّعت بما أُضيف إليها من المنازل والأمكنة التي حولها. وبذل الأغنياءُ في عمارتها أموالهم، وعمِل الفقراء فيها بأنفسهم، واكتملت المدرسة في سنة ثمان وعشرين وخمسمئة، وصارت منسوبةً إليه، وتصدَّر بها للتدريس والفتوى والوعظ، مع الاجتهاد في العلم والعمل.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٢، ص ١٤٩.

(٢) قال الشعراني: انتهت إليه رئاسة تربية المريدين، وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته. توفي سنة ٥٢٥ هـ.

(٣) هو المبارك بن علي بن الحسين. قال عنه ابن كثير: سمع الحديث وتفقه على مذهب أحمد، وناظر وأفتى ودرس، كان حسن السيرة، جميل الطريقة، سديد الأقضية، توفي سنة ٥١١ هـ.

وجمعَ الله قلوب عباده على حبه ، وألهج ألسنتهم بالثناء عليه، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والدعوة إلى الله بالعراق ، وقصَده الناس من الآفاق، ورَزقه اللهُ من الوجاهة والقَبول ما أزرى بوجاهة الملوك والسلاطين، وهابَهُ الخلفاء والملوك والوزراء فمَن دونهم.

قال الشيخ موفَّق ابن قُدامة صاحب «المُغني»: «لم أر أحداً يُعظَّم من أجل الدين أكثر منه». وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء فيجلسون متأدبين خاشعين. أما العلماء والفقهاء فلا يأتي عليهم حصر ، وقد عُدَّ في بعض مجالسه أربعمئة مَحبرة[١].

صِفَـتُـه وأَخـلاقُـهُ:

كان مِن أخلاقه أن يَقف مع جلالـةِ قَدره مع الصغير والجارية ، ويُجالس الفقراء ويُفلِّي لهـم ثيابهم؛ وكان لا يقوم قـطُّ لأحدٍ من العظماء وأعيان الدولة ، ولـم يُلمَّ قَطُّ بباب وزيرٍ ولا سلطان[٢] ، وكان إذا جاءه خليفةٌ أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له[٣] ، وقد اتفقت الألسنة وشهاداتُ المعاصرين على حُسن خُلقه وعُلُوِّ هِمَّته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائِهِ وإيثاره لغيره .

قد وصفه أحدُ رجال عصره «جرادة» وقد عاشَ طويلاً ، وصحب كثيراً من الشيوخ الكبار ، فقال:

«مـا رَأَتْ عينـايَ أحسـن خُلقـاً ، ولا أوسـع صـدراً ، ولا أكـرم نفسـاً ، ولا ألطف قلباً ، ولا أحفظَ عهداً ووداً من سيدنا الشيخ عبد القادر ، ولقد كان ـ مع جلالـة قدره ، وعُلوِّ منزلتـه ، وسَعةِ علمـه ـ يقف مع الصغـير ، ويُوقِّـر

(١) ملخصاً من المنتظم، والبداية، وذيل طبقات الحنابلة والطبقات الكبرى.

(٢) الطبقات الكبرى: للشعراني ، ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق: للشعراني ، ص ١٢٨ .

الكبير ، ويبدأ بالسلام ، ويجالس الضعفاء ، ويتواضع للفقراء ، وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان ، ولا ألمَّ بباب وزير ولاسلطان» [١] .

وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البِرْزَاليُّ الإشبيلي :

«كان مجابَ الدعوة ، سريعَ الدَّمعة ، دائمَ الذكر ، كثيرَ الفكر ، رقيقَ القلب ، دائمَ البشر ، كريمَ النفس؛ سَخيَّ اليد ، غَزيرَ العلم ، شريفَ الأخلاق ، طيّبَ الأعراق ، مع قَدَمٍ راسخٍ في العبادة والاجتهاد» [٢] .

وقال مفتي العراق ، محيي الدين أبو عبد الله بن حامد البغدادي : «كان أبعدَ الناس عن الفُحش ، أقربَ الناس إلى الحق ، شديدَ البأس إذا انتُهكَت محارمُ الله عزَّ وجلَّ ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصِرُ لغير ربه» .

كان له غَرامٌ بإطعام الطعام ، والإنفاق على ذوي الحاجة والعاهة؛ قال العلاَّمة «النَّجار» في تاريخه : قال الجبَّائي : قال الشيخُ عبد القادر : «فتَّشتُ الأعمال كلَّها ، فما وجدتُ فيها أفضل من إطعام الطعام ، ولا أشرف من الخُلق الحَسن . أَودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمتُها الجائع» .

وقال : قال لي : «كفِّي مثقوبةٌ لا تضبط شيئاً ، لو جاءني ألفُ دينار لم تَبِتْ عندي» [٣] .

وقال صاحب «قلائد الجواهر» : «كان رضي الله عنه يأمُر كل ليلة بِمدّ البساط ، ويأكل مع الأضياف ، ويُجالس الضعفاء ، وَيصبر على طلبة العلم ، لا يظُن جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ويتفقَّد من غَابَ من أصحابه ، ويَسأل عن شأنهم ، ويَحفظ وُدَّهم ، ويعفو عن سيئاتهم ، ويُصدِّق من حلف له ، ويُخفي عِلمَه فيه» [٤] .

---

(١) قلائد الجواهر : ص ٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ٩ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٠ .
(٤) المصدر السابق : ص ٩ .

إحياءُ القُلوب الميّتة:

اتفق المؤرِّخون على كثرة كرامات الشيخ عبد القادر؛ قال الشيخ موفق الدين صاحب «المغني»: لم أسمعْ عن أحد يُحكىٰ عنه من الكراماتِ أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر.

وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «إنه لم تتوافر كراماتُ أحد من المشائخ إلا الشيخ عبد القادر؛ فإن كراماتِهِ نُقلت بالتواتر»[1] وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

ولكنْ من أَجلِّ كراماته إحياء موات[3] النفوس والقلوب، وزرعُ الإيمان وخشية الله وحبّه فيها، وإشعال مجامر القلوب التي انطفأت من جديد؛ فقد أعاد اللهُ به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله حياةً وإيماناً، وهبّت بمواعظهِ وتربيته رياح من الإيمان عاشتْ بها قلوب ميتة، ونشطت بها نفوسٌ خامدة، وانطلقت في العالم الإسلامي موجة من الإيمان الجديد، والروحانية القوية، والأخلاق الفاضلة، والتقوى.

وقد هيّأ اللهُ له الزعامة الدينية والروحية في العالم الإسلامي فاختار له بغداد ـ عاصمة المملكة العباسية وقلب العالم الإسلامي ـ وجاءته بغداد ـ وهي من أكبر مُدن العالم ـ تَسعىٰ، وازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً، قال: «كان يجلس عندي رجلان وثلاثة يسمعون كلامي، ثم تسامَع بي الناس وازدحَم عليَّ الخلق؛ فكنت أجلس في المصلّى بباب الحلبة، ثم ضاق علىٰ الناس، فأخرجوا الكُرسيَّ إلى داخل السُّرر بين التنانير، وكان الناس يجيئون في الليل

(١) ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب.

(٢) جلاء العينين: للآلوسي.

(٣) الموات: الأرض الخالية من السكان، أو التي لا ينتفع بها أحد. وفي الحديث: «من أحيا مواتاً من الأرض فهي له». [كما في السنن الكبرى للبيهقي (١٤٧/٦) برقم (١١٥٩٣)].

على الشمع والمشاعل ، يأخذُون لهم مواضع، ثم ضاق على الناس الموضعُ ، فحُمل الكرسي إلى خارج البلد ، وجُعل في المُصلَّى ، وكانوا يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال، وَيقفون ما دار المجلس كالسُّرُر ، وكان يحضر المجلس نحوٌ من سبعين ألفاً»[١].

وكان لمَجالسه تأثيرٌ عظيمٌ ونفعٌ كثيرٌ؛ قال الشيخ عمر الكيساني: «لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه تخلو ممَّن يُسْلِم من اليهود والنصارى ، ولا ممن يَتوبُ من قطاع الطريق ، وقاتلي النفس ، وغير ذلك من الفساق ولا ممن يرجع عن معتقدٍ سَيِّىء»[٢].

وقد كان يشعر بذلك ويحمدُ الله عليه ، ويُفضله على ما كان يهواه من الخلوة بالله والانقطاع عن الخلق والاشتغال بالعبادات.

قال الجُبائي: قال لي سيدنا الشيخ: «أتمنى أن أكونَ في الصحاري والبراري كما كنت في الأول ، لا أرى الخلق ولا يرونني» ثم قال: «أراد الله عزَّ وَجَلَّ مني منفعة الخلق؛ فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى ، وتاب على يدي من العيارين والمسالحة[٣] أكثر من مئة ألف ، وهذا خير كثير»[٤].

وكان الشيخ يعتقد ـ بحق ـ أنه مكلَّف بذلك مأمورٌ به ، يقول في المجلس:

«سبحان من ألقى في قلبي نُصحَ الخلق، وجعله أكبرَ همِّي! إني ناصحٌ، ولا أريد على ذلك جزاء؛ أجرتي قد حصلتْ لي عند ربي عز وجل؛ ما أنا طالبُ دنيا ، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة ، ولا ما سوى الحقّ عز وجل ،

(١) قلائد الجواهر: ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) المصدر السابق: ص٢٢.

(٣) المسالح: الجماعة، أو القوم ذوو السلاح.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٢.

ما أَعْبُدُ إلا الخالق الواحد الأحد القديم. فَرحي بفلاحكم، وغمّي لهلاككم»[١].

اشتغاله بالعلم ونُصرَته للسُّنة:

ولمْ يمنعه اشتغاله بالوعظ والإرشاد وتربية النفوس من الاشتغال بالتدريس، ونشر العلم ونصرِ السنة والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع، وقد كان في العقيدة والفروع متبعاً للإمام أحمد والمحدِّثين والسلف، قال ابن رجب: «كان متمسكاً في مسائل الصفاتِ والقدَر ونحوهما بالسنة، مبالغاً في الرد على من خالفها»[٢].

وقد كان قَوِيَّ الاشتغال بالتدريس، عالماً متفنناً. قالوا: كان يتكلّم في ثلاثة عشر علماً، وكانوا يقرؤون عليه في مدرسته درساً من التفسير، ودرساً من الحديث، ودرساً من المذهب، ودرساً من الخلاف، وكانوا يقرؤون عليه طَرفي النهار التفسير، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأصول، والنحو.

وكان رضي الله عنه يقرأ القُرآن بالقراءاتِ بعد الظهر، وكان يُفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمدَ بن حنبل رضي الله عنهما، وكانت فتواه تُعرض على العلماء بالعراق، فتُعجبهم أشدَّ الإعجاب[٣]؛ رُفع إليه سؤال في رجل حَلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد أن يَعبد الله عز وجل عبادة ينفردُ بها دون جميع الناس في وقت تَلَبُّسه بها، فماذا يفعل من العبادات؟ فأجاب على الفور: «يأتي مكة، ويُخلَّى له المطاف، وَيطوف سبعاً وحده[٤]، ويَنحَلُّ

(١) الفتح الرباني: المجلس السادس.
(٢) طبقات الحنابلة.
(٣) الطبقات الكبرى: للشعراني، ص ١٢٦.
(٤) يعني سبعة أشواط.

يمينه» فأعجبَ علماء العراق ، وكانوا قد عَجزوا عن الجوابِ عنها [١] .

الاستِقامَةُ والتَّحقيقُ:

وقد اتَّجه التصوُّفُ في القرن الخامس اتجاهاً فيه الاستقلال الذي قد ينتهي إلى الانفصال عن الشريعة ، وأصبحَ ـ أو كاد يُصبح ـ مؤسسة أو مدرسة قائمة بنفسها ، لا تتصل بالشريعة إلا اتصالاً شكلياً. وشاعت شطحاتُ الصوفية ، ودعاوي الوصول إلى الحقيقة والنهاية التي تَسقط فيها الفرائض والتكاليف الشرعية ، وظهرت نزعة «وحدة الوجود» ، وبدأت الفوضى في بعض زوايا الصوفية ؛ فكان الشيخ عبد القادر من أكبر المعارضين لهذا الاتجاه الثائر ، ومن أكبر الدعاة إلى إخضاع «الطريقة» للشريعة ، والتمسُّك بالكتاب والسنة وتحكيمهما في جميع الأحوال والأقوال والأعمال.

وقد استطاعَ بقوة شخصيته وبإخلاصه وعلمه القوي ، أن يمنعَ هذا الاتجاه الخطير ، ويَرجع بالتصوف إلى ما كان عليه في العصر الأول.

قال الشعراني: «كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً ، وتحقيقهُ الشرعَ ظاهراً وباطناً».

وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا» [٢] .

ومن قوله رحمه الله: «إنِ انخرمَ فيك شيءٌ من الحدود فاعلم أنك مفتون ، قد لعب بك الشيطان؛ فارجعْ إلى حكم الشرع والزمه ، ودع عنك الهوى؛ لأنَّ كلَّ حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلةٌ» [٣] ويقول حاثاً على التمسُّك بالكتاب والسنة والتزام اتباع الرسول ﷺ :

(١) الطبقات الكبرى: ص١٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص١٢٩.
(٣) المصدر السابق: ص١٣١.

«كُلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشريعة فهي زَنـدَقـةٌ ، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة؛ ادخُلْ عليه وَيـدُك في يد الرسول ﷺ ، اجعله وزيـرَك ومُعلِّمك ، دَع يَـدهُ تُـزيِّنك وتُمشِّطُك وتَعرِضُك عليه»[1]!

ويقول منكراً على من يَعتقدُ أن التّكاليف الشرعية تَسقُط عن السالك في حال من الأحوال: «تَـركُ العبادات المفروضات زندقـةٌ ، وارتكاب المحظورات معصيةٌ؛ لا تَسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال»[2].

وقد كان جَبلاً راسياً في الاستقامة على الشريعة ، وقد وصل بكمال اتِّباعه وعلمه الراسخ ، وتأييدِ الله سبحانه وتعالى ، حيثُ صار يُميز بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والموارد الإلهية والطوارق الشيطانية.

وقد كان أشدَّ الناس إيماناً ـ كما قدمنا ـ بأن الأحكام الشرعية لا تتبدل ، ولا ناسخَ لها بعد الرسول ﷺ ، وأن من ادعى نسخها أو تعطيلها فقد كفر ، وكان مَطيّـةَ الشيطان.

وقد عرضت له محَن ثبت فيها؛ لعلمه الراسخ وبصيرته النافذة ، يقول:

«تـراءى لـي نُـورٌ عظيـمٌ مـلأ الأفـق ، ثـم تـدلى فيه صـورةٌ تناديني: يا عبد القادر أنا ربك! وقد حَلَّلتُ لك المحرمات ، فقلت: اخسأ يا لعين! فإذا ذلك النور ظلامٌ ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبني: يا عبد القادر نجوتَ مني بعلمك بأمر ربك وفقهك في أحوال منازلاتك ، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلتُ: لله الفضـلُ ، فقيل لـه: كيف علمت أنـه شيطـان ؟ قال: بقوله قد حلَّلت لك المحرمات»[3].

(١) الفتح الرباني: المجلس الرابع والأربعون.

(٢) المصدر السابق: المجلس الحادي عشر.

(٣) الطبقات الكبرى: ص١٢٧.

التفويض والتوحيد:

كانت قدمه رحمه الله على التفويض والموافقةِ مع التبري من الحول والقوة. كان الشيخ عديٌّ بن مسافر [١] يقول: «كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه طريقتُه الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح».

وقد جاهَدَ في ذلك نفسه مجاهدةً شديدة، يقول في مقالة: «جاهدتُ نفسي في ترك الاختيار والإرادة؛ حتى حصل لي ذلك؛ فصار القَدرُ يقودني والمِنة تنصُرني، والفعل يحركني، والغيرة تعصمني، والإرادة تُطيعني، والسابقة تقدِّمني، والله عز وجل يَرفعني» [٢].

وقد تجَلَّى هذا الذوقُ وهذا الاتجاه في كلامه واضحاً قوياً.

وقد وصف رجلاً تجرَّد عن إرادته واختياره، واستسلم للقضاء وإرادة الله سبحانه وتعالى ـ وإنما يعني نفسه ـ يقول رحمه الله:

«إذا ابتُليَ العبدُ بِبَليَّة تحرَّك أولاً في نفسه بنفسه؛ فإن لم يتخلَّص منها، استعان بغيره من الخلق كالسلاطين، وأرباب المناصب، وأبناء الدنيا، وأصحاب الأموال، وأهلِ الطب في الأمراض والأوجاع؛ فإن لم يجدْ في ذلك خلاصه، رجَعَ حينئذ إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء، فما دام يجدُ عند نفسه نُصرةً لم يرجع إلى الخلق، ثم ما دام يجد عند الخلق نُصرة لم يرجع إلى الخالق، ثم إذا لم يجد عند الخالق نصرة، استطرح بين يديه مُديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء، والافتقار مع الخوف منه والرجاء.

ثم يُعجزه الخالقَ عز وجل عن الدعاء ولم يُجبه؛ حتى ينقطعَ عن جميع الأسباب، فحينئذٍ ينفُذ فيه القدر، ويُفعل الفعل، فيفنى العبد عن جميع الأسباب والحركات؛ فيبقى روحاً فقط؛ فلا يرى إلا فعل الحق عزَّ وجلَّ،

---

(١) الطبقات الكبرى: ص ١٢٧.

(٢) الفتح الرباني: المجلس الثالث والأربعون.

فيصير موقناً موحداً ضرورة ، وقطع أن لا فاعل على الحقيقة إلا الله ، ولا محرِّك ولا مُسكِّن إلا الله ، ولا خير ولا شر ، ولا ضُرَّ ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع ، ولا فتحَ ولا غلق ، ولا موت ولا حياة ، ولا عزَّ ولا ذل ، ولا غنى ولا فقر إلا بيد الله.

فيصيرُ حينئذٍ كالطفل الرضيع في يد الظِّئْر ، والميِّت الغسيل في يد الغاسل ، والكُرةِ في يد صولجان الفارس ، يُقلَّب ويغير ويبدّل وَيكوَّن ، ولا حراك به في نفسه ولا في غيره ، هو غائب عن نفسه في فعل مولاه؛ فلا يرى غير مولاه وفعلَه ولا يرى سواه ، ولا يسمَع ولا يعقل من غيره؛ إن أبصَر فلِصُنعه أبصر ، وإن سمع وعلم فلكلامه سمع ، ولعلمه علم ، وبنعمته تنعم ، وبقربه سعد ، وبتقرُّبه تزيَّن وتشرف ، وبوعده طاب وسكن ، وبه اطمأنَّ وبحديثه أنِس ، وعن غيره استوحش ونفر ، وإلى ذكره التجأ وركن ، وبه عز وجل وثِق ، وعليه توكل ، وبنور معرفته اهتدى ، وتقمص ، وتسربل»[١].

ويقولُ في مقالةٍ أخرى:

«العبدُ إذا عرف الله عز وجل سقطَ الخلق من قلبه ، وتناثروا عنه كما يتناثر الورقُ اليابس من الشجر؛ فيبقى بلا خَلْق في الجملة. يَعمى عن رؤيتهم ، ويصمُّ عن سماع كلامِهم من حيث قلبه وسره»[٢].

شَفَقَتُه على الخَلْق:

وقد كان ـ رحمة الله عليه ـ عطوفاً ، شفيقاً ، رفيقاً بالأمة المحمدية وعامةِ الناس ، دائم الدعوة لهم ، يرق قلبه ، وَيرثي لضعفائهم والمشتغلين بما لا ينفعهم في الآخرة ، ناصحاً لكل طبقة ، مُحباً للخير لها ، يحرص على إسعادها وإخراجها من الظلمات إلى النور ، يقول مخاطباً لمستمعيه:

«يا خَلْقَ الله إنّي أطلُب صلاحكم ومنْفَعتكُم في الجملة ، أتمنى غَلْقَ أبواب

(١) فتوح الغيب: المقالة الثالثة.
(٢) الفتح الرباني: المجلس السادس والخمسون.

النار وعَدْمها بالكلية ، وألاَّ يدخلها أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ ، وإنما تمنيتُ هذه الأمنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه ، قُعودي لمصالح قلوبكم بتَهذيبها ، لا لتغيير الكلام وتَهذيبه ، لا تهربوا من خشونة كلامي ، فما ربَّاني إلا الخشن في دين الله عزَّ وجلَّ ، كلامي خشنٌ ، وطعامي خشنٌ، فَمَن هرب مني ومن أمثالي لا يُفلح» [(١)].

ويقولُ في مناسبةٍ أخرى ، وهو يصف الدُّعاة إلى الله ، والعلماء الربانيين ، ورحمَتهم بخلق الله ، وحِرصَهم على خلاصهم وسعادتهم :

«كيف لا يرحَمونَ العصاة وهم موضع الرحمة، مقام التوبة والاعتذار، العارفُ خُلقه من أخلاق الحق عز وجل ، فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى ، إذا رأى أحدُكم ولده أسيراً في يد الكافر ، أليس يجتهد في تخليصه ، فهكذا العارف ، الخلقُ جميعهم كالأولاد» [(٢)].

ويحكي ـ رحمه الله ـ حالَ من خصَّه الله بهذه الشفقة العامة والنُّصح الدائم ويدخل في سوق ، وإنما يصف نفسه الكريمة :

«منهم من إذا دخل السوق ، امتلأ قلبُه بالله لأهله ، فتشغل الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم بين أيديهم ، فهو من حين دخوله إلى حين خروجه في دعاء واستغفار ، وشفاعةٍ لأهله ، وشفقةٍ ورحمة ،فقلبُه محترق عليهم ولهم ، وعينُه مُغْرَورِقةٌ لأجلهم ، ولسانُه في ثناءٍ وحمدٍ لله عزَّ وجلَّ أَوْلَى الكافة من نعمه وفضله» [(٣)].

دَعوتُه للإسلام:

إنَّ وجود الشيخ عبد القادر الجيلاني في قوة إيمانه ، وقوة عَمله ، وقوة دعوته ، وسُمو سيرته وأخلاقه ، وزُهده في الدنيا في عصر المادية وعصر

---

(١) الفتح الرباني : المجلس التاسع والأربعون.
(٢) المصدر السابق : المجلس الثالث والخمسون.
(٣) فتوح الغيب : المقالة الثانية والسبعون.

الغفلة والانحطاط ، كان دليلاً على خُلود الإسلام وصلاحيته للبقاء ، وصلاحيته للإنتاج ، وعلى أنَّ شجرته لم تنقطع ـ ولن تنقطع ـ عن الإثمار والازدهار.

فإذا كان الإسلام دينَ عقيدة وإيمان ، وعمل وجهاد ودعوة وإصلاح ـ وهو كذلك ـ فلا بد أن يظهر في مختلف أعصاره وأمصاره رجالٌ عبقريون ، أقوياء في إيمانهم ، أقوياءُ في عملهم ، أقوياء في دعوتهم ، يُمثِّلون سيرة الأنبياء وخُلفائهم بالحق في عصرهم ، وكان وجودُ من تخرَّج على يديه ، ونشأ في تربيته ـ من أهل الصلاح والتقوى ، والصدق والإخلاص ، والزُّهد والقناعة ، والأخلاق والفضائل ـ دعوةً إلى الإسلام ، ودليلاً على صدقه وفضله وحياته وتأثيره ، ومقدرته على إنتاج الرَّبَّانيين في كل عصر ، وعلى أن مَعينه لا ينضب؛ لذلك كان سبباً لدخول عدد كبير من اليهود والنصارى وغير المسلمين في الإسلام ، وإقبالِ عدد كبير هائل من المسلمين إلى تجديد الإيمان ، وإصلاح الحال ، والإقلاع عن المعاصي والمحارم ، وحياة الغفلة واللهو.

وفـاتُـه:

وظلَّ الشيخُ مثابراً على دعوته وجهاده وتربيته للنفوس ، حتى وافاه الأجل المحتوم سنة ٥٦١ هـ ، وقد جاوز التسعين ، وقد وصَف ولدُه ، شرفُ الدين عيسى مرضه الذي مات فيه ، وكيف فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة ربه ، قال:

«لما مرض مَرَضَهُ الذي مات فيه قال له ابنه عبد الوهاب: أوصِني يا سيِّدي بما أعمل به بعدك ، فقال:

«عليك بتقوى الله عز وجل ولا تَخف أحداً سوى الله، ولا تَرجُ أحداً سوى الله، وَكِّلِ الحوائجَ إلى الله عز وجل، ولا تعتمدْ إلا عليه واطْلُبها جميعاً منه، ولا تَثِقْ بأحد غير الله عز وجل، التوحيد التوحيد جماعُ الكل».

وقال: «إذا صحَّ القلبُ مع الله عز وجل لا يخلو منه شيء ، ولا يخرج منهُ شيء».

وقال: «أنا لُبٌّ بلا قُشورٌ».

وقال لأولاده: «ابعدوا مِنْ حولي ، فإني معكم بالظاهر ، ومع غيركم بالباطن».

وقال: «قد حضر عندي غيرُكم فأوسعوا لهم ، وتأدبوا معهم هاهنا رحمة عظيمة، ولا تُضيِّقوا عليهم المكان».

وكان يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، غفَر الله لي ولكم ، وتابَ الله عليَّ وعليكم ، باسم الله ، غير مودَّعين» قال ذلك يوماً وليلة.

وقال: «ويلكم أنا لا أُبالِي بشيء ولا بملك ، ولا بملَك الموت ، يا ملك الموت ، افسح لنا من يتولانا سواك» وصاحَ صَيحة عظيمة ، وذلك في اليوم الذي مات في عشيَّته.

وأخبرني ولدُهُ عبد الرزاق ، وموسى: أنَّه كان يرفع يديه ويمدهما ويقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، تُوبوا وادخلوا في الصف ، هو ذا أَجيءُ إليكم».

وكان يقول: «ارفقوا» ، ثم أتاه الحقُّ وسكرةُ الموت.

وقال ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ : «بيني وبينكم وبين الخلقِ كلِّهم بُعْدُ ما بين السماء والأرض ، فلا تَقيسوني بأحد» ثم سأله ولدُه عبد العزيز ، عن ألمهِ وحالهِ؛ فقال: «لا يسألني أحد عن شيءٍ، هاأنا أتقلَّب في علم الله عزَّ وجلَّ».

وقد سأله ولدُه عن مرضه ، فقال له: «إن مرضي لا يعلمهُ أحد ، ولا يعقله أحد: إنسيٌّ ، ولا جِنّي ، ولا ملَك ، وما يُنقضُ علمُ الله بِحُكم الله ، الحُكم يَتغيَّر ، والعلم لا يتغير ، الحكم يُنسخ والعلم لا ينسخ ، يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أُمُّ الكتاب ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، أَخبارُ الصفات تُمرُّ كما جاءتْ».

وسأله ولدهُ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسدك؟ فقال: «جميع أعضائي تُؤلمني إلا قلبي، فما به ألم، وهو صحيح مع الله عزَّ وجلَّ» ثم أتاه الموت، فكان يقول:

«استعَنْتُ بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى وهو الحيُّ الذي لا يموت ولا يَخشى الفَوت، سبحان من تعزَّز بالقدرة وقهرَ العبادَ بالموت، لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ثم خرجتْ روحُه الكريمة رضي الله عنه وأرضاه [١].

* * *

---

(١) آخر كتاب «فتوح الغيب».



المحاضرة الثانية عشرة:

الإمام عَبد القادر الجيلاني
دَعوته ، إصلاحُهُ ، وَفضله ، وَفَضل خلفائه في تجديد الإيمَان وَالدّعوة إلى الإسلام

عَصره:

قَضَى الشيخُ عبد القادر الجيلاني ثلاثاً وسبعين سنة في بغداد، وعاصر خمسةً من الخلفاء العبّاسيين.

دَخَلَ بغداد ، والخليفةُ المستظهر بأمر الله ، أبو العباس (م٥١٢ هـ)، وجاء بعده المسترشد ، والراشد ، والمقتفي لأمر الله ، والمستنجد بالله.

وكان هذا العصر الذي عاش فيه الشيخ مليئاً بالحوادث الجسام ، وكانت بغدادُ مركزها ، وكان الصراع قائماً بين الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق ، الذين كانوا حريصين على بَسْط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية ونيابة الخليفة برضا من الخليفة وموافقةٍ منه مرةً ، وبإباءٍ وكراهية منه أخرى ، وقد تقعُ معركَةٌ بين جيش الخليفة وجيش السلطان ، ويتقاتل المسلمون.

وَقَعَ ذلك مراراً في عهد المسترشد ، وهو أقوى الخلفاء في أواخر العصر

العباسي وأحسنهم [1]، وكان هو المنتصرَ في أكثر الوقائع، والتقى جيش الخليفة وجيش السلطان «مسعود» في عاشر رمضان ٥١٩ هـ، وانهزم الخليفة في هذه المرة انهزاماً شنيعاً.

قال ابنُ كثير: «وانتصرَ جيش السلطان، وأُسر الخليفة، ونُهبت أموال البغداديين وحواصلُهم، وطار الخبر في الأقاليم بذلك، وحين بلغ الخبر إلى بغداد، انجزع الناس لذلك، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، صورةً ومعنى، وجاءت العامّةُ إلى المنابر فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات، وخرج النساء في البلد حاسرات يَنُحْنَ على الخليفة، وما جرى عليه من الأسر.

وتأسّى بأهل بغداد في ذلك خلقٌ كثير من أهل البلاد، ونمت فتنةٌ كبيرة وانتشرت في الأقاليم، واستمرت الحالُ على ذلك شهر ذي القعدة، والشناعةُ في الأقاليم منتشرة؛ فكتب ملك سنجر إلى ابن أخيه يحذِّره ـ غبَّ ذلك ـ عاقبةَ ما وقع فيه من الأمر العظيم، ويأمره أن يُعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته فامتثل الملكُ مسعود لذلك ثم إنَّ الخليفة قتله الباطنية في طريقه إلى بغداد».

شاهد الشيخُ عبد القادر هذه الحوادثَ الأليمة، ورأى ما أُصيب به المسلمون من تَشتُّت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حبِّ الدنيا، والتقاتل على الملك والجاه والسلطان، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم.

عاش الشيخُ متصلاً بكل ذلك بشعوره وألمه، بعيداً عن كل ذلك بقالبه وجسمه، وانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد، والدعوة والتربية، وإصلاح نفوس المسلمين، وتزكيتها، ومحاربة النفاق والشغف

---

(١) قال ابن كثير: كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة فصيحاً بليغاً عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رُئي خطيباً، قتل وعمره خمس وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً. (البداية والنهاية) ج١٢، ص٢٠٨.

بالدنيا ، والتكالُب على حطامها ومناصبها ، وإثارة الشعور الإيماني ، وتقوية عقيدة الآخرة ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى التوحيد والإخلاص لله تعالى.

وقد كانتْ مواعظه وخطبه مطابقةً لعصره وأهل عصره ، تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام ، تَطِبُّ قلوبهم ، وتُداوي أمراضهم ، وترد على ضلالاتهم ، وكانت تضرب دائماً على الوتر الحساس ، وتمس قلوبهم ، وتجمع هذه المواعظ بين صَولة الملوك ورِقة الدعاة ، وبين زَجر الآباء ورِفق الأطباء.

التّوحيدُ الخالصُ والاستخفافُ بغَير الله:

كانت بغدادُ عاصمة الإمبراطورية العباسية ، وقد تعلَّقت بها قلوبُ أهل البلاد وقلوب الناس ، الذين يسكنون في أنحاء المملكة الإسلامية الكبرى ، وأصبح قَصرُ الخليفة وقصور الوزراء مناط الآمال ومحطَّ الرحال ، وتعلق الناس بالأسباب والوسائط ـ من التدابير والشفاعات والأشخاص ـ تعلقاً شديداً يعتقدون فيها النفع والضرر ، وأصبحتِ الأسباب أرباباً من دون الله. وأصبح كثير من الناس يعتقدون أن أمراء الدولة وعُمَّالها يملكون أرزاقَ الناس وحظوظهم ونفوسهم؛ يُسعدون ويُشقون ، ويعطون ويمنعون ، ويَنصبون وَيعدلون ، بأيديهم القضاء والقدر ، والنفع والضرر؛ فانصرفت إليهم همم الناس ، وتسابقوا إلى إرضائهم والتزلُّف إليهم.

وهكذا نشأت «وثنية» في عاصمة الإسلام ، أصنامُها الأمراء والموظفون ، وهياكلها دور الحكومة ، واتجه الناسُ من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه ، إلى الالتجاء إلى الخلق ، والاعتماد عليهم ، واستعطافهم وتملقهم.

وصَدَع الشيخُ بالتوحيد وتحقير الخلق من الملوك والوزراء ، والأمراء والأغنياء ، وبيانِ ضعفهم وعجزهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ،

ويُصوِّر عجزهم وضعفهم تصويراً بليغاً دقيقاً، ويضرب لذلك الأمثال. يقول في حديث:

«اجعل الخليقة أجمع كرجل كتَّفه سُلطان عظيم ملكه، شديد أمره، مَهولةٌ صَولتُهُ وسطوته، ثم جعل الغلَّ في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطىء نهر، عظيمٍ موجُهُ، فسيح عرضه، عميق غَوره، شديد جريه، ثم جلس السلطان على كرسي، عظيم قدره، عالية سماؤه، بعيد مُرامه ووصوله، وتَرك إلى جنبه أحمالاً من السهام والرماح والنّبل وأنواع السلاح والقسيِّ مما لا يبلغ قدرها غيره؛ فجعل يَرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح.

فهل يَحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان، ويترك الخوف منه والرجاء له، ويخاف من المصلوب ويرجو منه؟ أليس مَنْ فعل يُسمَّى في قضية العقل عديم العقل ومجنوناً، بهيمة غير إنسان»[1].

وإذا كان هذا شأن الخليقة كلها، وإذا كان هذا عجزها وضعفها وخستها ونذالتها، فلماذا يستغيثُ بها إنسان، ويلتجىء إليها في مُلمَّة أو حاجة؟

وهنا يحثُّ الشيخُ السامعين على الإقبال إلى الله وحده، والالتجاء إليه، في أسلوبٍ خطابيٍّ قوي بليغ:

«انظرْ إلى من ينظر إليك، وأقبل إلى من أقبل عليك؛ وأَحببْ من يُحبك، واسْتجب إلى من يدعوك إليه، وأعط يدك من يُثبتك من سقطتك، ويُخرجك من ظلمات جهلك، ويُنجيك من هلكتك، ويَغسلك من أنجاسك، ويُنظفك من أوساخك، ويُخلصك من جيفتك ونتنك، ومن هِمَمِك الرَّدية، ونفسِك الأمارة بالسوء؛ وأقرانك الضالين المضلين؛ شياطينك وهواك وأخلائك الجهال، قطَّاع طريق الحق عز وجل، الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز.

---

(١) فتوح الغيب: المقالة السابعة عشرة.

إلى متى العادة؟ إلى متى الخلق؟ إلى متى الهوى؟ إلى متى الرُّعونة؟ إلى متى الدنيا؟ إلى متى الأخرى؟ إلى متى ما سوى المولى؟ أين أنت من خالق الأشياء ، المكون للأكوان؟ الأول والآخر والظاهر والباطن؛ المرجع والمصدر إليه ، وله القلوب ، طُمأنينةُ الأرواح ، ومحط الأثقال ، والعطاء بلا امتنان» [١].

ويذكر نفاذَ القضاء والقدر ، وأنَّ إرادة الله هي الغلاَّبة القاهرة ، المتصرفة في الخلق ، ويذكر درجات الموحدين ، وطبقاتهم في التوحيد ، والخضوع للمشيئة الإلهية وفعله تعالى:

«الخَلق عَجَزةٌ لا يضرونك ولا ينفعونك ، إنما الحق عز وجل يُجري ذلك على أيديهم. فعلهُ يتصرف فيك وفيهم ، جَرى القلم في علم الله عزَّ وجلَّ بما هو لك وعليك.

الموحدون الصالحون حجةُ الله على بقية الخلق. منهم من يتعرى عن الدنيا من حيث ظاهره وباطنه.

ومنهم من يتعرَّى عنها من حيث باطنه فحسب ، لا يرى الحقُّ عز وجل على بواطنهم منها شيئاً ، تلك القلوب الصافية !

من قدر على هذا فقد أعطي الملك من الخلق ، هو الشجاع البطل. الشجاعُ من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل ، ووقَف على بابه بسيف التوحيد وصمصامة الشرع، لا يخلي شيئاً من المخلوقات يدخل إليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب. الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيدُ والمعرفة يُهذبان الباطن» [٢].

لم يقتصر الشيخُ على أوثان الجاهلية وآلهتها ، وعلى عبَّاد الأصنام

---

(١) فتوح الغيب: المقالة الثانية والستون.

(٢) الفتح الرباني: المجلس الثالث عشر.

ومشركي الملل في عصره؛ بل تعدى ذلك إلى الآلهة الجديدة التي حلت في النفوس محل الآلهة القديمة، وقامت لها دولةٌ في قلب بلاد الإسلام، وهي «المال» و«الثروة» و«القوة» و«السلطان» و«الحيل والحرف» و«الأسباب والوسائل» وحارب هذه الآلهة حرباً لا هوادة فيها ولا رِفق، يقول في مجلس:

«أنت مُعتمدٌ على حولك، وعلى الخَلْق، ودنانيرك ودراهمك، وعلى بيعك وشرائك، وعلى سُلطان بلدك، كلُّ من اعتمدت عليه فهو إلٰهك، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك، كلُّ من رأيته في الضر والنفع، ولم تر أن الحق عز وجل يُجري ذلك على يديه فهو إلهك» [١].

ويقول في مقالة أخرى:

«يا موتى القلوب!؛ يا مشركين بالأسباب، يا عابدين أصنَامَ حولِهم وقواهم، ومعائِشهم ورؤوس أموالهم، وسلاطين بلادهم، وجهاتهم التي ينتمون إليها، إنَّهم محجوبون عن الله عز وجل. كل من يرى الضرر والنفع من غير الله عز وجل، فليس بعبدٍ له، هو عَبدُ من رأى ذلك منه» [٢].

ويقول في مقالة أخرى:

«يا مُعرضاً عن الحق عزَّ وجلَّ وعن الصدِّيقين من عباده، مُقبلاً على الخلق مشركاً بهم، إلى متى إقبالك عليهم؟ أيش ينفعونك؟ ليس بأيديهم ضررٌ ولا نفعٌ، ولا عطاء، ولا منع، لا فرق بينهم وبين سائر الجماعات فيما يَرجع إلى الضر والنفع، المَلِك واحدٌ، المسخِّر واحدٌ، المعطي والمانع واحدٌ، الخالق والرازق هو الله عزَّ وجلَّ» [٣].

العالمُ الربانيُّ، وداعية الحق، طبيبٌ يأتيه المرضى من كلِّ نوع فيداويهم ويحسم فيهم مادَّة الداء، ويريهم طريق الشفاء، ويتوجَّهُ بهم إلى الله تعالى.

---

(١) الفتح الرباني: المجلس العشرون.
(٢) المصدر السابق: المجلس الثالث والعشرون.
(٣) المصدر السابق: المجلس الثالث عشر.

وكان ممَّن يأتيه ويَحضُر مجالسه رجالٌ تعلَّقت قلوبهم بغير الله ، ثم حِيل بينهم وبينه ، فهم في قلق وحسرة ، ويُسلِّيهم الشيخ ويذكر الحكمة في ذلك ، ويشرح غيرة الله سبحانه وتعالى ، وحرصه على أن يكون عبده خالصاً له ، لا يُنازع حبَّه حُبٌّ ، ولا يزاحم حقَّه حقٌّ.

«ما أكثر ما تقول: كلُّ من أحبه لا تدوم صحبتي له ، فيحال بيننا ، إمَّا بالغيبة ، أو الموت ، أو العَداوة وأنواع الأهوال بالتلف ، والفوات من اليد.

فيقال لك: أما تعلم يا محبوب الحق ، المعني به ، المنظورَ إليه ، المغار له وعليه ، ألم تعلم أن الله غيور ، خلقكَ له وتريد أن تكون لغيره؟!

أما سمعتَ قوله عز وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ [الذاريات: ٥٦].

أما سمعتَ قولَ الرسول ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اقتناه».

قيل: يا رسول الله ، وما اقتناه؟ قال: «لم يذر له مالاً ولا ولداً»[1].

وذلك: لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما، فتشعَّبت محبته لربه عز وجل، فتنتقص وتتجزأ؛ فتصير مشتركة بين الله وبين غيره ، والله تعالى لا يقبل الشريك ، وهو غيور قاهر فوق كل شيء ، غالبٌ لكل شيء؛ فيُهلك شريكه ويعدمه؛ ليخلص قلبُ عبده له من غير شريك ، فيتحقق حينئذ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ، حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد ، واللذات والشهوات ، وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات ، والمنازل والمقامات ، والجنات والدرجات ، والقُربات والزلفات؛ فلا يبقى للقلب إرادة ولا أمنية ، كالإناء المنثلم الذي لا يُضبط فيه مائع؛ فلا ينضبط فيه إرادة شيء من الأشياء؛ لأنه انكسر بفعل الله

(١) [أخرجه أبو بكر الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٤٤٥) برقم (٢٤٩٩) ، والديلمي في الفردوس (١/ ٢٥٠) برقم (٩٦٨) من حديث أبي عتبة الخولاني].

عز وجل ، كلما نجمت فيه إرادةٌ كسرها فعل الله عزَّ وجلَّ وغيرته .

فضُربت حوله حينئذٍ سرادقات العظمة والجبروت والهيبة ، وحُفرت من دونه خنادقُ الكبرياء والسطوة؛ فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء فحينئذٍ لا يضر القلبَ الأسبابُ من الولد والأهل والأصحاب والكرامات ، والحكم والعبادات؛ فإن جميع ذلك يكون خارج القلب؛ فلا يغار الله عز وجل؛ بل يكون جميع ذلك كرامةً من الله لعبده؛ ولطفاً به ونعمة ورزقاً ومنفعة للواردين إليه [(١)].

مَكانـةُ الدنيـا في نَظـرِ الشيـخ:

لم يكن الشيخُ عبد القادر من دُعاة «الرهبانية». إنه لا يرى بأساً بالتمتع المباح بالدنيا وأسبابها ، واستعمال خيراتها وطيباتها؛ ولكنه يُعارض العكوف على لذاتها وشهواتها بنَهم وتقديس ، وتعلُّق القلب والشغف بها ، إنه يؤمن بقول النبي ﷺ : «وإنَّكم خُلقتم للآخرة والدنيا خُلِقَتْ لكم»[(٢)] فيعاملُها الإنسان معاملة سَيِّد مطاع ، لا عبد مطيع ، ويقول في بلاغة وإيجاز:

«لا تأكل قَسْمك من الدنيا وهي قاعدة ، وأنت قائم؛ بل كُلْها على باب الملك وأنت قاعِدٌ ، وهي قائمة ، والطَّبق على رأسها ، تخدم من هو واقف على باب الحق عز وجل ، وتُذِل من هو واقف على بابها ، كلٌ منها على قدم الغنى والعِز بالحق عزَّ وجلّ» [(٣)].

إنه لا يُعارض أن يملك أحد الدنيا؛ إنما يعارض أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه ، يقول في مجلس:

«وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يُحبُّها ، يملكها ولاتملكه ، تُحبه

(١) فتوح الغيب: المقالة الثانية والثلاثون.
(٢) [أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٦٠) برقم (١٠٥٨١)].
(٣) الفتح الرباني: المجلس الواحد والعشرون.

ولا يُحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه ، يُفرِّقُها ولاتفرِّقُه ، قد صلح قلبه لله عز وجل ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده ، فيتصرف فيها؛ ولا تتصرف فيه، ولهذا قال النبي ﷺ : «نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح» (١).

إنَّه لا يعارض وجودها في بيت أو صندوق ، إنَّما يعارض وجودها في سويداء القلب وأعماق النفس ، يقول في محل آخر:

«ويحك! الدُّنيا في اليد يجوزُ ، في الجَيب يجوز ، ادِّخارها لسبب وبنيَّة صالحة يجوز. أما في القلب فلا يجوز ، وُقوفها على الباب يجوز ، أما دخولها إلى وراء الباب ، فلا ، ولا كرامَة لك» (٢).

إنَّه يـذمُّ حياة العُطلـة والبطالة ، وأن يعيش الإنسان عيـالاً على غيره متوكـلاً عليهم ، يقـول في مجلس ، حاثـاً على الاشتغال وكسـب الحلال:

«اعْبدوا الله عز وجل ، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ، إن الله عز وجل يُحب عبداً مؤمناً مطيعاً ،آكلاً من حلاله يُحب من يأكل ويعمل ، ويُبغض من يأكل ولا يعمل ، يُحب من يأكل بكسبه ، ويُبغض من يأكل بنفاقه وتوكُّله على الخلق» (٣).

نَقدهُ للخلفاء والأُمراء في عَصْره:

ولمْ يكن الشيخ يقتصر على وَعظ العامة ودعوتهم؛ إنما كان صدَّاعاً بالحق صريحاً قوياً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يتناول الخليفة والملوك

---

(١) الفتح الرباني: المجلس الرابع والثلاثون. [والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٩٧) برقم (١٧٧٩٨) ، وابن حبان في الصحيح (٨/ ٦) برقم (٣٢١٠) ، والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١) برقم (١٢٤٨) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه].

(٢) المصدر السابق: المجلس الواحد والخمسون.

(٣) المصدر السابق: المجلس السادس والأربعون.

والأمراء بالنَّقد والملامة، ويذمُّ ظلمهم؛ ولا يُحابي في ذلك أحداً، ولا تمنعه منه وَجاهة أو سلطان.

قال ابنُ كثير: «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسَّلاطين والقضاة والخاصة والعامة، يَصدعُهم بذلك على رؤوس الأشهاد على رؤوس المنابر وفي المحافل. ويُنكر على من يُولي الظلمة، ولا تأخذه في الله لومة لائم».

ويقول صاحبُ قلائد الجواهر: «ولما وَلَّى المُقتفي لأمر الله أمير المؤمنين القاضي أبي الوفاء، يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفَّر، المشهورَ بابن المزحم المظالمَ، قال على المنبر: ولَّيتَ على المسلمين أظلمَ الظالمين، ما جوابُك غداً عند رب العالمين أرحم الراحمين؟! فارتعد الخليفةُ وبكى، وعزل القاضي المذكور لوقته»[1].

إنكاره على عُلماءِ السُّوء:

وكان يُنكِر على «عُلماء» البلاط و«العلماء الرسميين» الذين التزموا صُحبة الملوك والأمراء، وأصبَحوا نُدماءهم ورجال حاشيتهم، يُوافقونهم على كل ما يراه هؤلاء الملوك ويُنفِّذونه من أحكام جائرة، ويُخضِعون لهم الشريعة ونصوصها، ويُؤَوِّلون لهم أحكام الشرع، وقد تجرأ بهم هؤلاء على المعاصي والأهواء وتنفيذ الأحكام الجائرة، وقد كان الشيخ يُشَنِّع عليهم، ويُغلظ لهم القول، يقول في مجلس مخاطباً لهؤلاء العلماء:

«أين أنتم وهم؟ (يعني علماء الآخرة) يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عزَّ وجلَّ، أنتم في ظُلم ظاهر، ونفاق ظاهر، هذا النفاق إلى متى؟ يا علماء، يا زهاد، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟ أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن

---

(١) قلائد الجواهر: ص ٨.

ظَلمةٌ وخونةٌ في مال الله عز وجل في عباده ، اللّهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم ، أو تُب عليهم واقمع الظلمة ، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم ، آمين» (١) .

ويقول مخاطباً لفرد من أفراد هذه الطبقة :

«أمَا تستحي! قد حملك حرصك على أنَّك تخدم الظلَمة وتأكل الحرام ، إلى متى تأكل وتخدم الملوك الذين تخدمهم؟ يزولُ مُلكهم عن قريب ، وتتولى عن خِدمة الحق عز وجل الذي لا يَزول» (٢) .

والظاهر أنَّه لا يَجرؤ على هذا الكلام الصريح القوي إلا الصِّدِّيقون الذين أَخلصت قلوبهم لله تعالى ، وزال عنها الطمع والخوف من غير الله ، وأصبح غيرُ الله ـ من أصحاب الحول والطول ـ مخلوقاً خسيساً لا قيمة له .

وقد قال في مجلس له :

«إنِّي أقولُ لكم الحق ، ولا أخافُ منكم ولا أرجوكم ، أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذَّر؛ لأني أرى الضُّرَّ والنفع من الله عزَّ وجلَّ ـ لا منكم ـ المماليكُ والملوك عندي سواءٌ» (٣) .

ذَمُّ المُنـافِقيـنَ:

ويُشَنِّع في قوة وشجاعة على المنافقين الذين كَثُروا في المجتمع الإسلامي ، الذين عكفوا على شهواتهم ، ونَبذوا الدين وتكاليفَه وراء ظهورهم ، واستغلُّوا اسم الإسلام والانتساب إليه للتمتع بالحقوق التي يُخولها الإسلام من غير قيام بحقوقه ، ومعرفة لفضله ، وخُضوعٍ لشريعته. يقول في مجلس :

---

(١) الفتح الرباني : المجلس الواحد والخمسون.

(٢) المصدر السابق : المجلس الثاني والخمسون.

(٣) المصدر السابق : المجلس الواحد والخمسون.

«يا منافقون ! حَسبْتُم أن الدين سَمرٌ ، أنَّ الأمر سُدى ، لا كرامة لكم ولا لشياطينكم ، ولا لقُرنَائكم السوء ، اللهم تب عَلَيَّ وعليهم وخَلِّصهم من ذُلِّ النفاق ، وقَيْدِ الشرك» (١).

التَّوجُّع لدين الله:

كان الشيخُ في بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، وقبة الإسلام ، وكان يُشاهد ذلك الانحطاط الديني والخلقي ، الذي ابتلي به المجتمع الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، وكانت بغداد مركزه ، وكان يرى تشاغل الناس بأنفسهم ، واشتغال العلماء لمصالحهم؛ فكان يحترق قلبه على ذلك بما أوتي من غيرة دينية وحسٍّ مرهف، وحرص على صلاح هذه الأمة ، وشعور بالمسؤولية والأمانة؛ فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلماتٌ مؤثِّرةٌ، هي آية في الإخلاص والصدق والحميَّة الدينية ، يقول في مجلس:

«دينُ محمدٍ ﷺ تتواقع حِيطانُه ويتناثر أساسُه، هلمُّوا يا أهل الأرض، نُشيِّدُ ما انهدم ، ونقيم ما وقع ! هذا شيء ما يتم ، يا شمس ويا قمر ! ويا نهار ! تعالوا» (٢).

ويقول:

«يا قوم ! الإسلام يبكي، ويستغيثُ ، يده في رأسه من هؤلاء الفجار، من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظَّلمة ، من اللابسين ثياب الزور ، من المُدَّعين ما ليس فيهم ، انظر إلى من تقدَّمك ، وإلى من كان معك آمراً ناهياً ، آكلاً شارباً ، كأن لم يكونوا ، ما أقسى قلبك ، الكلب ينصحُ صاحبه في صيده وزرعه وماشيته وحراسته ، ويبصبص عند رؤيته ، فإنَّما يُطعمه عند عشائه لقمة أو لقيمات ، أو يطعمه شيئاً يسيراً ، وأنت تأكل

---

(١) الفتح الرباني: المجلس السادس والأربعون.
(٢) المصدر السابق: ٦٤٨ ـ ٦٤٩ .

نِعم الله، وتشبع بها، لا تعطيه منها مطلوبه، ولا توفِّيه حقَّه، تَردُّ أمره، ولا تحفظ حدوده»[١].

البَنيعة والتَّربية:

انتفَعَ أهلُ بغداد ومن أَمَّها من جِهاتٍ بعيدة بهذه المواعظ الرقيقة المرقِّقة، وبهذه الخطب المُجلْجِلة المدوية، وتغيرت حياة ألوف من الناس، ولكنَّ مجالس الدعوة والوعظ حلقاتٌ حرة مؤقتة يَؤمُّها أناس ويحضرونها، ثم يتغيَّبون عنا ويهجرونها، ويداوم عليها كثير من الناس، ثم يظلُّون على ما هم عليه من تقاليد وعادات، وأهواء وشهوات.

اتَّسعَ العمرانُ في الحواضر والمدن، وشَغلت الحياةُ وحاجاتها النفوسَ، فقلَّ من يعتكف في المدارس ويَنقطع إليها ليدرس العلوم الدينية ويتوسع فيها، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التي تخضع لقيود وتقاليد كثيرة، قاصرةً عن إصلاح شعبي وتربية عامة، وبقيت مُنحصرة في نطاق ضيق، لا تُفيد ولا تسعف إلا العدد القليل الذي يَلتحق بها وينتسب إليها؛ فلا صلة لها بالشعب، ولا صلة للشَّعب بها إلا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك، وإنما تعيش في عُزلة عن الحياة، وكذلك المؤلِّفون والمثقَّفون الكبار؛ فالفَجوة الثقافية والعقلية بينهم وبين الشعب واسعة وعميقة لا يَعْبُرها إلا الخاصة والشواذ، ثم إنَّ صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلِّفين صِلةٌ علمية عقلية لا تخضع لها القلوب والنفوس، ولا تنصبغ بها الحياة والأخلاق والطبائع إلا في النادر، ولا يتقيَّد بها الناسُ، ولا يرتبطون بها ارتباطاً روحياً إلا في النادر.

كان المسلمون في حاجة إلى دُعاة، وشخصيات قوية جامعة، تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس[٢]، وهكذا تخلَّف

---

(١) الفتح الرباني: ص ٦٦١.

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

الرسول ﷺ في أمَّته بعد انقطاع النبوَّة ، وتُجدِّد صلتها بالله والرسول وتجدِّد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعاً ، عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين ، وما عاهدت عليه وبايعتِ الرسول ﷺ مع بُعد الزمان والمكان من السمع والطاعة ومُخالفة النفس والهوى والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفر بالطاغوت ، والمجاهدة في سبيل الله؛ فقد تغافلَ عن ذلك الخلفاء ، واقتصروا على الجباية والفتوح ، وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهم ، وعجز عن ذلك العلماء؛ فاشتغلوا بالفتوى والوَعظ والتدريس والعلم والتأليف ، وإذا أرادوا ذلك لم يَخضع لهم العامة؛ لأنهم لا يرون فيهم ـ إلا النادر القليل ـ الإخلاص والزهد وأثر الخلافة النبوية.

وهكذا ضَعُفَ الشعور في العامة والسُّوقة والفلاحين والعَمَلة؛ حتى في كثير من الخاصة والمتعلِّمين بأن الإسلام عهدٌ وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربه ، وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم ، جامحين عاتين في شهواتهم ، هملاً وقُطعاناً لا يضبطهم راع.

وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وبلوغ درجة الإحسان ، والحصول على نور اليقين وَبشاشة الإيمان ، وتقاصرتِ الهمم ، وخَمدت النفوس ، وأقبل الناس ـ إلا من عصم ربك ـ على اللذات والشهوات بِنَهَم وشَرَهٍ.

ضَيَّعت الخلافةُ الإسلاميةُ ـ كما وصفنا سالفاً ـ روحَ الخلافة وأمانة النبوَّة ، وأصبحت مُلكاً وسياسة ، وإدارة وجباية ، فقام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيون ، يُجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاقَ الإسلام ، ويدخلون في السِّلم فقهاً وإرادة بعد ما دخلوا في الإسلام وِراثة وعادة ، ويستردُّون بتعليمهم وتربيتهم حلاوةَ الإسلام ولذة الإيمان ، ويخرجون من سلطان الهوى وَرقِّ الشهوات وعبادة الناس ، وينشطون في العبادات والطاعات ، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

مِن أشهر هؤلاء الدُّعاة والمربِّين: «الحسن البصري» و«الفُضَيْلُ بن عياض»

و «معروفٌ الكَرْخِي» و«الجُنيد البغدادي» رحمهم الله تعالى.

وانتهى الأمرُ إلى القرن السادس ، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها ، واتسعت الدنيا ، وكثرتْ أسبابُ الغفلة واللهو ، وطال على المسلمين الأمد ، فقست قلوبهم.

هنالك نَهَضَ في بغداد ـ دار السلام وقلب عالم الإسلام ـ رجلٌ قويُّ الشخصية ، قوي الإيمان ، قوي العلم ، قوي الدعوة ، قوي التأثير؛ فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي ، والعبودية الخالصة ، وأخلاق المؤمنين المخلصين ، وحارب النفاق الذي اجتمع في المجتمع الإسلامي بقوة منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفتحَ باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، يدخل فيه المسلمون ، من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي يُجدِّدون العهدَ والميثاق مع الله ، ويُعاهدون على ألا يشركوا ولا يكفروا ولا يَفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ولا يتناسوا الآخرة.

وقد دَخَلَ في هذا الباب ـ وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر ـ خلقٌ لا يحصيهم إلا الله ، وَصلُحت أحوالهم ، وحَسُن إسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ، ويُشرف عليهم وعلى تقدُّمهم ، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البَيعة والتَّوبة وتجديد الإيمان على يد عبدٍ مخلصٍ ، وعالم ربانيٍّ شعوراً جديداً ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق ، أقوى من رباط التلاميذ بالأساتذة والشيوخ ، ومن رباط الجند بالقائد ، ومن رباط الرعية بالراعي ، إنما هو رباط روحي ديني ، لا يَهِنُ ولا ينحلُّ ، وإنما هو ميثاق لا يُنقض ولا يُنكث.

ثم يُجيز الشيخُ كثيراً منهم ـ ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية ـ فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويُربُّون النفوس ، ويحاربون الشرك والبدع ، والجاهلية والنفاق ، فتنتشر الدعوة الدينية ، وتقوم ثكناتُ الإيمان ، ومدارس الإحسان ، ومَرابطُ الجهاد ، ومَجامع الأخوة ، في أنحاء العالم الإسلامي.

وقد استطاع الشيخُ عبد القادر أن يستمر في دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن، في بيئةٍ اشتدَّ فيها الاستبداد، وكثُرت فيها الوساوس، وشاعت فيها الوشايات والسعايات، وأخفقتْ فيها الدعوات السياسية، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقَساوة وشدة، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد، وإنكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم، وما كان ذلك إلا لإخلاصه الذي لا يتطرق إليه الشك، ولا ترتقي إليه شبهة، وزُهده في كل ما يحرصون عليه ويَضِنُّون به، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالإسلام؛ بل يتحلى بالإنسانية، وانقطاعه إلى الدعوة إلى الله، والإرشاد إلى معالم الحق.

دُعاة الإسلام ومشَاعِلُ الإيمان:

وقد كان لخلفائه وتلاميذه، ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته، فضلٌ كبير في المحافظة على روح الإسلام وشُعلة الإيمان، وحمَاسة الدعوة والجهاد، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات، ولولاهم لابتلعتِ الماديةُ التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيَّات هذه الأمةَ، وانطفأتْ شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها.

وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تَغزُها جيوش المسلمين، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي [١]، وانتشر بهمُ الإسلام في إفريقية السوداء، وفي أندونيسية وجزر المحيط الهندي، والصين، وفي الهند.

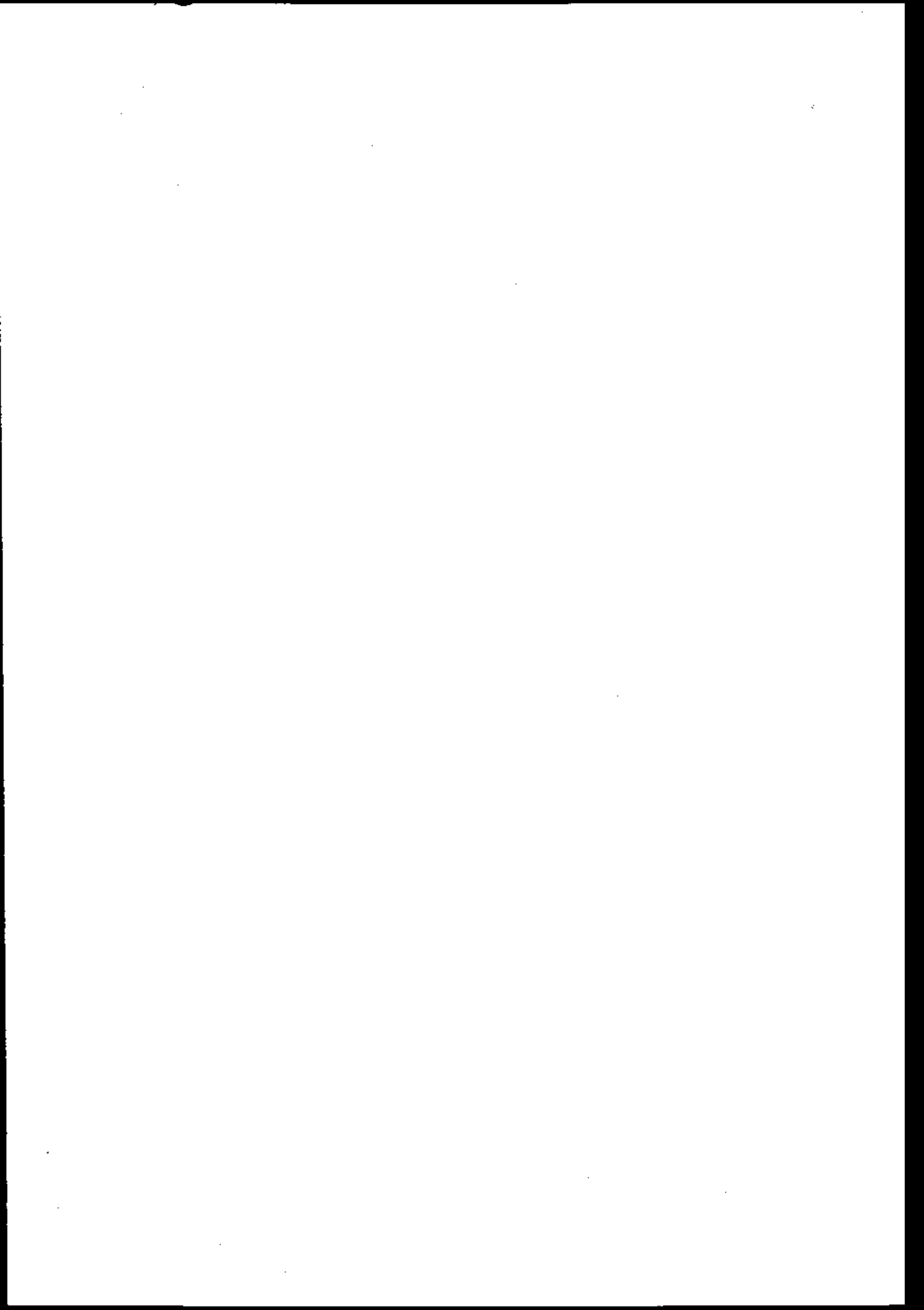
ولما زحف التَّتار على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأثخنوه جراحاً وقتلاً، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة ونفَساً خافتاً، وَفُلَّ سيف الجهاد والمقاومة؛ فأصبح لا يؤثر ولايعمل، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً، وآمن

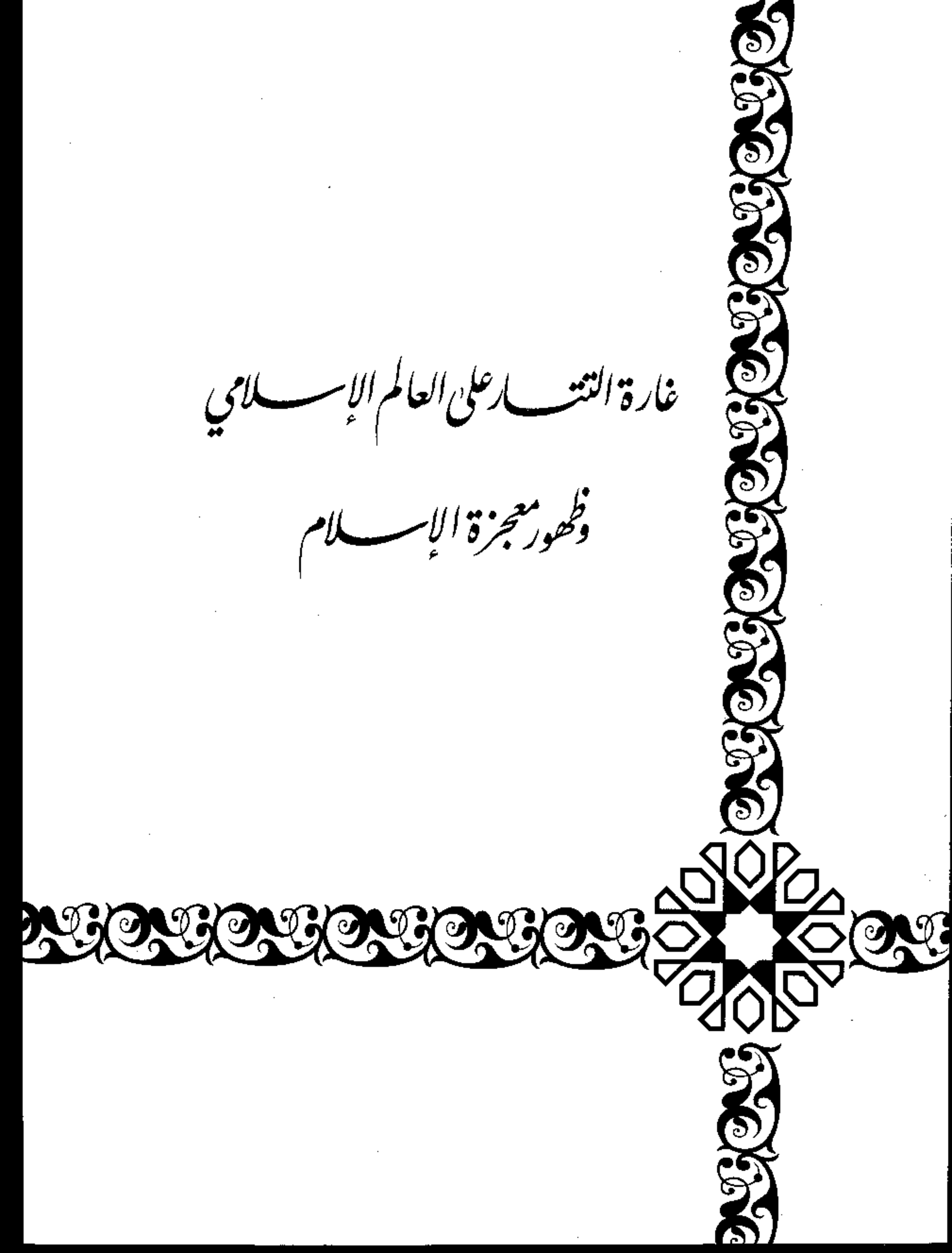
(١) راجع كتاب: «الدعوة إلى الإسلام» لتوماس أرنولد الإنكليزي Preaching of Islam.

الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم ، وأن العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت تحكم هؤلاء الهمج ، وأن الإسلام لا مستقبل له ، قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح ـ على إحصائه واستقصائه ـ يجهلُ أسماء كثير منهم ، يتسرَّبون في هؤلاء الغلاظ الشداد. يفتحون قلوبهم للإسلام؛ حتى تفتَّحت له وأحبَّته ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، ولم يمض على زحفهم على العالم الإسلامي وإذلالهم له كثيرُ زمان حتى أسلم جُلُّهم أو كلُّهم ، وصاروا حماة الإسلام وحملة رايته وكان منهم فقهاء وزهَّاد ومجاهدون.

هكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس من شَرقه إلى غربه ، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها في عصرها في دين لا يحميه سيف ولا يدافع عنه جيش ، وقد كانت ثلاث ديانات ـ هي أعظم ديانات العالم ـ تتنافس في اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم: «البوذية» و«المسيحية» و«الإسلام» وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها ، وكانت النصرانية أرفعَ مكانة وأقرب زُلفى في مجالس سلاطينها؛ ولكن الإسلام ـ بفضل دعاته المخلصين انتصر على منافسيه ـ البوذية والنصرانية ـ وأسلم التتار أمة وجنساً ، وكوَّنوا دولاً إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمَّل بها تاريخُ الإسلام ، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين ـ البوذية والنصرانية ـ حادثة غريبة لا تُعَلَّل إلاَّ بمشيئة الله تعالى وتأييده ، وتفوّق دعاة الإسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية ، وإليك التفصيلُ في الصفحات التالية.

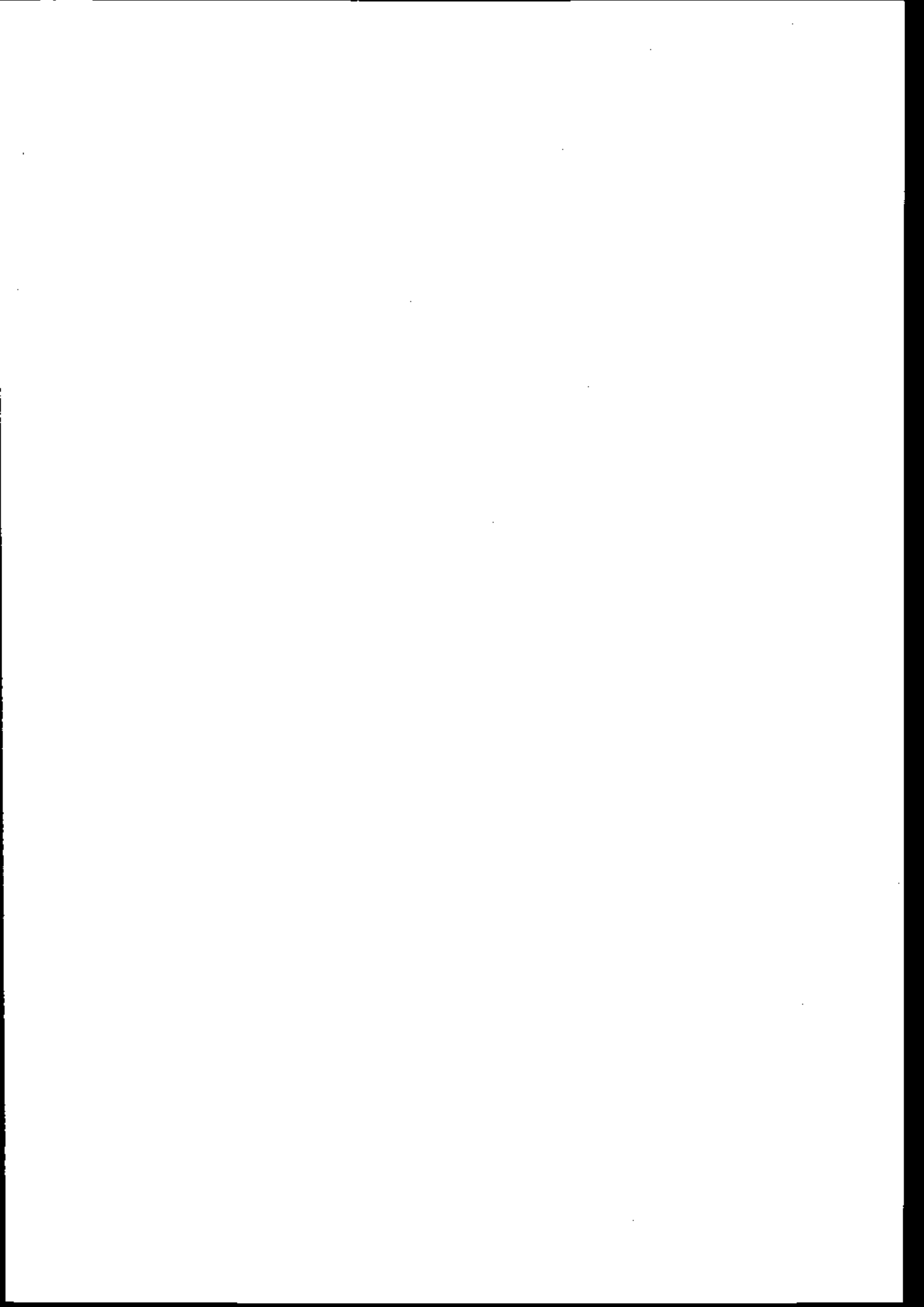
* * *





غارة التتار على العالم الإسلامي

وظهور معجزة الإسلام



المحاضرة الثالثة عشرة:

غارة التّتار على العالم الإسلامي وظهورُ مُعجِزَة الإسلام [(١)]

غارَةُ التّتار وأسبابُها الحقيقيّة في ضوء القرآن:

واجَهَ العالمُ الإسلاميُّ في القرن السابع الهجري كارثةً يَندُر نظيرها في تاريخ العالم ، وكادت تقضي هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامي ، وهو زحفُ الوحوش التتار الذين تقدَّموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الإسلامي كلِّه .

والمعروفُ أنَّ السبب في هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطانُ علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التُّجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الإسلام كله .

(١) فصلٌ كتبه المؤلف في الأردوية لكتابه «تاريخ دعوت وعزيمت» ونقل أكثره الأستاذُ سعيد الأعظمي إلى العربية . وأُضيف إلى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

ولكن إذا تدبَّرنا في ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذي أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره في بدء سورة «الإسراء» من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ، وعُلوِّهم وتمردهم وما جرَّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلُّطهم على بني إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى ، والمِحنة التي أصيب بها العالمُ الإسلاميُّ ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة ، فيتدفَّق سيل عَرِم من المِحَن والبلاء ، ويفاجىء العالم الإسلامي ، وتُصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء ـ التي لم تكن تتوقَّعها ولا تستحقها ـ لمجرَّد أن يُخطىء فردٌ من أفرادها.

إذا حملنا نِبْراس القرآن في يدنا ، واستعرضْنا أوضاعَ المسلمين الخُلقية والدينية ، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقَّق لنا كالشمس في رائعة النهار: أن هذه الحادثة المشؤومة لم تكن مفاجأة ، وإنما هناك أسبابٌ أكثر عمقاً وأصالة مما ظنَّه الناس وذكروه ، ولكي نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب أن نتأخر إلى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع في ذلك العصر.

أوضاعُ العالم العَربيّ ومَركز الخلافة في هذا العصر:

إنَّ المملكة الأيوبية توزَّعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهِّلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلتْ إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة ، وأولي العَزْم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائماً بينهم إلى مدَّةً طويلةً ، حتى إنَّ بعضهم لم يتلكؤوا في الاستعانة بالصَّليبيين بتدبير المؤامرة ضد إخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطراباً سياسياً ، وانحلالاً خُلقياً ،

وفوضىٰ في سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون في جوّ من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارةُ الصليبيةُ الإفرنجيةُ تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردَّها بعد تضحيات ضخمة .

وقد فشتْ أمراضٌ وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجةً لهذا الانحطاط الخلقي ، والانحراف الإداري .

وفي سنة ٥٩٧هـ حدثت مجاعة في مصر فما فاض فيها النِّيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى «اشتدَّ الغلاء بأرض مصر ، فهلَك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناءٌ عظيمٌ ، حتى حكى الشيخ أبو شامة في «الذيل» :

«إنَّ العادل كَفَّن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مئتي ألفِ وعشرين ألفِ مَيِّتٍ ، وأُكلت الكلابُ والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلقٌ كثيرٌ ، يشوي الصغيرَ والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغَتِ الأطفال والميتات ؛ غلب القويُّ الضعيف فذبحه وأكله» [1] .

واستمرَّت هذه الحالُ وفقاً لسنَّة الله في الأرض ، وظلَّت الإنذارات السماوية ، والأحداث الجسام تُحذر الناس ، وكانتْ كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم «وحدثت في نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق . . . وأخربتْ محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة ، ومات بها وبِقُراها ثلاثون ألفاً تحت الردم . . . ومات أممٌ لا يُحصون ولايعدون ، حتى قال صاحب «مرآة الزمان» : «إنه مات في هذه السنة بسبب

(١) البداية والنهاية : ج١٣ ، ص٢٦ .

الزلزلة نحو من ألف ألف ومئة ألف إنسان قتلاً تحتها [١] والله أعلم».

هذا ، وقد تفاقَمَ الشَّرُّ في مركز الخلافة (دار السَّلام ـ بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبَّهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشَم في قصور الخلفاء ، وبلغت الثروةُ والمدنيةُ ذروتَهما ، ولا يُمكن أن نتصوَّر ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار.

ويكفي أن نذكرَ على سبيل المثال، أنَّ علاء الدين الطبرسي الظاهريَّ، وهو ممَّن اشتراهم الخليفة الظاهر، كان يَحصل له من أملاكه التي استجدَّها نحو ثلاثمئة ألف دينار سنوياً، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها.

وكذلك مجاهد الدين أيبك الدُّويدار المستنصري ، وقد ملك جَزيل الأموال من العين، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين ، والضياع ، ويتعذَّر وصفُ ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف.

كما أنَّ الفرَّاش الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفرَّاشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خُلُوّهِ من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مُدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر ، وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يُدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً.

وبجانب ذلك نجد أنَّ ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشَّرابي علي مجد الدين أيبك المستنصري ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل.

ولكي نُدرِكَ مدى نفوذَ هذه المظاهر الكاذبة والتظاهر بالفخفخة والأبهة

(١) البداية والنهاية: ص ٢٧.

الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التي كانت تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى إنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠هـ استمر إلى الليل ، وصلّى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء [١] ، وذكر في «العسجد المسبوك» أنَّ العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس.

وأمّا تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليدِ وعتبة باب النوبي ، وحافِر الخيل والأرض والرغام.

وقد تميَّـزَ هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة وعزل كبار الموظَّفين ، وإلقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشُّطَّار والعيَّارين ، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي ، والانصراف إلى الملاهي والقِيان والتكاثر في الأموال [٢].

وفي نفس هذه الأيام كان التَّتار يعبثُون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارُهم شاخصةً إلى بغداد ، أكبر مركزٍ إسلاميٍّ في ذلك العهد ، يتحدَّث المؤرِّخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتي:

«اسْتُهلَّت هذه السنةُ وملوك بني أيوب مفترقون ، مختلفون» ، وظلَّت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التي قد جَرتْ عادةُ خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠هـ و٦٤٣هـ ، وبقيت جُدران

(١) الحوادث الجامعة: أخبار سنة ٦٤٠هـ.

(٢) استفدنا في هذا الفصل من مقال « عصر الشرابي ببغداد» للأستاذ ناجي معروف المنشور في مجلة «الأقلام» عدد محرم سنة ١٣٨٦هـ.

الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوماً ، فتشاءم به الناس.

في سنة ٥٧٥هـ جلس الخليفةُ الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهي مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسين ، ولكنها أظلمُ عهدٍ في تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمَّه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدَّث عنه المؤرِّخ ابن الأثير ، فيقول:

«وكان قبيحَ السيرة في رعيته ظالماً ، فَخرَّب في أيامه العراق ، وتفرّق أهله في البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضدَّه ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان ، فبقيت مُدَّة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج ، فبقيت مُدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة ، فبطَّل الفتوَّة في البلاد جميعها ، إلا من يلبس منه سراويل يُدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناسُ بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرامُ الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سببُ ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى» [1].

توفِّي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيّد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، مُحسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجاً للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنَّه ـ مع الأسف ـ لم يجد فُرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلَفه ولدُه المستعصم بالله في سنة ٦٤٠هـ.

وكان المستعصم صحيح العقيدة متديناً يظهر عليه خشوعٌ وإنابة ، لم ينقل عنه أنه عصى الله بفَمه ، ولا بفَرجه ، ولا شرب مُسكراً ، ولا أخلَّ بصيام

(١) تاريخ الكامل: ج١٢ ، ص ١٨١.

الإثنين والخميس من كلِّ أسبوع ، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظباً على الصلوات في أوقاتها ، إلا أنَّ المستعصم لم يكن بصيراً بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لينٌ وعدم تيقُّظٍ ، ومحبةٌ للمال وجمعه.

وفي سنة ٦٤٢هـ استوزر الخليفةُ المستعصمُ بالله محمدَ بنَ العَلْقمي ، ولكنه لم يكن وزيرَ صدق ولا مرضيَّ الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥هـ «نُهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نُهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حِنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهلِه ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يُؤرخ أبشعُ منه منذ بُنيت بغداد» [1].

وبالرَّغم من أنَّ التتار كانوا يتقدَّمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتاري يقرعُ الأبواب ، كانت «جيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم ، قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعصى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كلُّه عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي» [2].

كان المستعصم رجلاً صالحاً حَسنَ السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكنَّ فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلا من رُزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سداً منيعاً في وجه الفساد ، ويتغلَّب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع في مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً ، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ.

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص ٢٠١.
(٢) المصدر السابق: ح ١٣ ، ص ٢٠١.

لقد تكرَّر في التاريخ أنَّ آخر أفراد أسرةٍ حاكمة ، وآخر حاكم في مملكة آخذة بالانحطاط كان يتَّصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طَفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يُعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرتِه الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً وديانة ، وأحرصَ على إصلاح الفساد من سَلفه الماضين.

وقد كان عددٌ من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكنَّ الفساد كان قد استحوذَ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يَصف أهل العراق يومئذ:

«واهتمُّوا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتدَّ ظُلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والمُلك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظُّلم» [1].

القِسمُ الشَّرقِيُّ من المَملَكَةِ الإسلامِيَّة:

وكان مُلوك الخوارزم مُنفردين بالحُكم في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي، قامتْ دولتهم ذاتُ الشوكة على أنقاض المملكة السَّلْجُوقيَّة في آخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالمُ الإسلاميُّ كلُّه خاضعاً للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السَّلْجُوقِيَّة الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرىٰ ، وكان علاءُ الدِّين محمد خوارزم

(١) مقال الأستاذ ناجي معروف «عصر الشرابي ببغداد» ، مجلة «الأقلام» ، عدد محرم ١٣٨٦هـ.

شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧) أعظم ملوك الأسر طموحاً ، وأعلاهم همَّة ، وأكثرهم فتحاً وانتصاراً ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم في عهده ، يتحدَّث عنه المؤرِّخ «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» فيقول :

«كان السلطانُ محمد خوارزم شاه متربعاً على عرش الملك في قلب البلاد الإسلامية ، وكانت رقعةُ مُلكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفُرس ، وكان مسيطراً على الممالك الإسلامية كلِّها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصَّليبيين ، وأسرةِ السلاطين من مماليك مصر .

وكان محمد إمبراطوراً بالنظر إلى مكانته ، بالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سَخِطَ عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، إن الخليفة في بغداد بعد ما تجرَّد عن كلِّ سلطانٍ دُنيويٍّ عاد مجرَّد رمزٍ دينيٍّ، شأن البابوات في رومة»[(١)] .

أمَّا المؤرخون العرب ، فإنَّهم لا يُشيرون إلى موضع ضَعْفٍ وعيبٍ شخصيٍّ كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل إنهم يعترفون بتديُّنه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلُّبه بوجه عام ، ولكن الذي لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته في القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وُجِدت في هذا الجزء الشرقي الواسع إنه اضطر السلاجقة إلى التأخر والانسحاب إلى آخر حدودهم في جانب ، كما أنه ظلَّ يحارب الغُوريين في الشرق والجنوب في جانب آخر ، واضطرهم إلى الانحصار في جُزءٍ محدودٍ ، وإنَّ خيرةَ عناصر الفروسية والنضال في إيران وتركستان ، قد أثْخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التي لم تكد تنتهي ، فكان الجو الحربيُّ يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها في كلِّ حين ، وقد اجتمعتْ غنائمُ البلاد المفتوحة ، وحاصلاتُ الأقاليم الخصبةِ ، وتأنَّق الصُّناع في الصناعات ،

(١) جنكيز خان: ص ١٤٧ .

وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنيَّة أوْجَها ، واجتمعت جميع عوامل الغنىٰ والجِدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من تَرَفٍ وبطر.

ومن الصَّعب العسير أن يُوجد حديثٌ عن الأدواء الخُلقية ، التي كانت تُعانِيها الحضارةُ والمجتمع ، في كتب التاريخ التي تدور حول البلاط الملكي ، والسراري ، ورجال الحكومة ، وإنَّ مظنة هذا الحديث هي كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكُتب المواعظ ، التي اكتسح معظمَها السيلُ التتاري ، ولا يسعُنا أن نحمل ما صرَّح به المؤرخ المسيحي «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» على مُجرَّد التعصب الديني والمبالغة ، إنه يقول:

«إنَّ العالَم الـذي كان يعيش فيـه المسلمون كـان عالـم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغَفٍ بالغناء والموسيقا ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنَّه رغم هذا الظاهر كان يعيش في قَلَقٍ واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس في جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخُلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زِمام الأمور في يد أولئك الذين كانوا يَنْهَبُون الرعية ، ويترفَّهون على حسابها ، وكان حِراسة الحرم والإشراف على السراري للخصيان» [١].

خَطَأ المُلوك الخـوارزميـة:

وقد صدَرَ عن الملوك الخوارزميِّين نفسُ الخطأ الكبير الذي وقع فيه الحكام العرب في الأندلس ، ولم يَعْفُ عنهم قانون المكافأة الإلهي ، وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه. وقمع الخصوم، ولم يبذلوا أي اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القِسم البشريِّ الذي كان يعيش بجوار حُدودهم ، وكان بنفسه عالَمَاً مستقلاً ، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي ، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر أن يُعْنَوا بإيجاد الانسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانيَة الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا

(١) جنكيز خان: ص١٤٣.

حولهم سياجاً ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجهُهُم وحدَهُم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كُلَّهم.

زَحفُ التّتار نَحوَ العالَم الإسلاميّ:

في نفسِ هذه الأحوال والزمان تقدَّم التتارُ بادىءَ ذِي بَدء ، كعقاب إلٰهي بقيادة ملكهم «جنكيزخان» [1] نحو الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، إيران وتركستان حتىٰ وصلوا إلى بغداد التي أسلفنا ذِكرَها ، وأخيراً قاموا بتدميرها وإبادة أهلها سنة ٦٥٦هـ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

إنَّ الدافع القريب لهذا الزحف التتاري ، في عالم الأسباب ، هو أن جَنكيزخان بعث إلى خوارزم شاه رسولاً يقول له: إنَّك تحكم رقعة عريضة كما أنني أملك مملكة واسعة، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسُمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك في صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامتِ العلاقات التجارية ، وبدأ التجارُ يتبادلون أموالَ التجارة بين البلدين.

ولكنْ ما الذي حدث بعد ذلك حتىٰ شهد العالم الإسلامي ذلك اليوم المشؤوم الذي يُدعى بغارة التتار؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربي «هيرلد ليمب» ويُصدِّقه تماماً ما جاء في التاريخ الإسلامي ، إنه يقول:

«انفصَمتِ العلاقاتُ التجارية التي أقامها جنكيزخان بين البلدين فجأة ، وكان السبب في ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من «قراقورم» إلى الغرب ، فلما وصلت إلى «أترار» تعرَّض لها حاكمها الذي كان يدعى «أينل

---

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت في سنة ٦١٦هـ وقد مات جنكيز خان ٦٢٤هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التي أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها.

جق» وأسر رجالها ، وأخبر مَلِكه خوارزم شاه بذلك ، وقال: إنَّ هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيزخان ، وكان هذا الخبر مما يُـؤيِّـده العقل.

وما إنْ وصل الخبر إلى خوارزم شاه حتى أمر بقتل التجار كلهم دون أن يفكر في هذه القضية ، ويتأنّىٰ في إصدار الأمر ، ونفَّذ أمرهُ بقتل التجار الذين جاؤوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيزخان ، أرسل سفراءَه إلى خُوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصةَ فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لِحَىٰ الباقين ، الذين رجعوا إلى جنكيزخان وقصُّوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيزخان على جبل في «صحراء الجوبي» ليُفكر في القضية ، لأنَّ قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول في مثل هذه الأمور.

وأعلنَ جنكيزخان قائلاً: إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شَمْسَين ، فإنَّ الأرض كذلك لا تحتملُ وجود مِلكين»[1].

الجُـزءُ الشَّـرقي للعالـم الإسـلامي بَيـنَ التَّتَـار والـدَّمار:

وقد ابتدَأَ التتارُ ببُخارىٰ وأتوا عليها من كل جانب ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من تراب ، ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها وأبادوا أهلها ، ولقيت نفسَ المصير المدُنُ الشهيرة بالعالم الإسلامي كهمَدان ، وزنجان ، وقَزوين ، ومَرو ، ونيسابور ، وخُوارزم.

أمَّا خوارزم شاه الذي كان يُعْتَبَرُ الملك الوحيد للعالم الإسلامي وأقوىٰ الملوك في عصره ، فكان يعيشُ في خـوف وهلع ، وتنقُّـلٍ وارتحـال ، يبحث عنه التتـار ويتعقَّبونـه حتى تُوفي في جزيرة مجهولة.

كان خُوارزم شاه قد ضمَّ ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما

(١) جنكيز خان: ص ١٤٧.

المستقلة إلى مملكته ، فلمّا هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم في هذا الجزء الشرقي، وقد دخل رُعب التتار في قلوب المسلمين ، إلى حدٍّ أنَّ أحد التتار دخل بعض الأحياء في سِكة من سكك مدينة حيث وجد مئة رجل من المسلمين ، فقتلهم كلهم وأتىٰ على آخرهم دون أن يتجرأ أحدٌ منهم لمقاومته.

وذاتَ مرَّةٍ دخلت امرأةٌ تاتاريةٌ بيتاً متزيِّية بزيِّ الرجال ، وقَتلت جميعَ أفراد الأسرة ، وقد عَرَفَ أحدُ المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها، وقد حدثَ بعض الأحيان أنَّ تاتارياً أسر مسلماً وقال له: ضع رأسك على هذا الحجر حتىٰ آتي بالخنجر فأذبحك ، وخضعَ له المسلم ولم يَسَعْه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم أتىٰ التتاريُّ بالخنجر من المدينة وذبحه به [1].

كانت غارةُ التتار فتنةً عظيمةً ، ومحنةً كبيرةً ، هزَّت العالمَ الإسلاميَّ هزاً عنيفاً، وتركت المسلمين مَبهُوتين مشدوهين ، واستولىٰ الرُّعبُ والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وغلبَ على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ، ومُقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل: «إذا قيل لك إن التتار انهزموا فلا تصدق» فكلُّ بلاد أو دولة توجهوا إليها عُرف أنها أُبيدت وخُرِّبت ، ولم يبق فيها شيءٌ من مقدسات المسلمين إلا وانتُهكت حرمتها ، فكان اتجاهُ التتار إلى جِهة يُرادفُ معنىٰ التدمير والإبادةِ ، والذِّلة ، وانتهاك الأعراض.

ولا شكَّ أنَّ العالم الإسلامي كلَّه ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه.

إنَّ المؤرِّخ يشغل بتسجيل كلِّ لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمرُّ به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعوَّد احتمال كل ذلك، فيجري قلمُه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يَرقَّ لها قلبُه؛ وتدمع لها عينه ،

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى «الكامل» لابن الأثير، ج١٢ ، و«دائرة المعارف» للبستاني ، ج٦ مادة «تتر».

ولكنَّ المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألُّمه النفسي ، حينما وصل إلى ذكر حادث التتار ، إنه يقول:

«لقد بقيتُ عدَّةَ سنين مُعرِضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أُقَدِّم إليه رجلاً وأُؤخِّر أخرىٰ ، فمن الذي يَسهل عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يَهُون عليه ذِكْرُ ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْيَاً مَنسياً ، إلا أني حَثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيتُ أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتَضمن ذكر الحادثة العظمىٰ ، والمصيبة الكبرى ، والتي عقمت الأيام والليالي عن مثلها وعمَّت الخلائق ، وخصَّت المسلمين ، فلو قال قائل إنَّ العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمَّن ما يقاربها ولا يُدانيها.

ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شَرَرُها وعمَّ ضَرَرُها ، وسارت في البلاد كالسحاب استدْبَرَتْهُ الريح»[1].

ويقول مؤلِّف «مرصاد العباد»؛ الذي شهد هذه الوقعة بعينه وما دار في مولده «الري» وموطنه «همذان» من حوادث فظيعة بعينه ومن التخريب والتدمير:

«استولىٰ الجيشُ التتاريُّ ـ خَذَلهم اللهُ ودمَّرهم ـ سنة ٦١٨هـ على بلاد الإسلام ، لا يُعرف نظيرٌ لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد ، والقتلِ والهدم والإحراق وما ظهر من أولئك الملاعين من فظائعَ تقشعر منها الجلود في أي عصر من عصور التاريخ ، لا في الإسلام ولا في الجاهلية ، فقد قتلوا

(١) الكامل: لابن الأثير ، ج١٢ ، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وأسروا في «رَيّ» وحدها التي هي مولدي أكثر من سبعمئة ألف مسلم ، إن الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي ، والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسعُ الكلمات أن تصوِّرها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تُشرح للناس.

وعياذاً بالله ، إذا لم تتحرَّك حَمِيَّةُ الإسلام وغيرتُه في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم مسؤولون عن الأمة لقوله ﷺ : «الأميرُ راعٍ على رعيته ، وهو مسؤولٌ عنهم»[1] وإذا لم تنبعث فيهم أريحيَّتُهم ورجولتهم لكي يتَّحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١] . وإذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة ، فإنَّ ذلك كلَّه يدل على أنَّ المسلمين سيُفاجئهم الذُّل والنكسة ، وترتمي مُعظم بلاد الإسلام في أحضان الكفر ، وأخشى أنَّ المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم ، سيفقِدون الاسم والرَّسم كليهما نتيجةً لما ندَّعيه ولا نعمل به»[2].

صاعقةٌ نزلت على العالم كُلِّه:

ولم يكن العالمُ الإسلاميُّ وحده مُصاباً بهذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدِّن كلُّه كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تفشَّىٰ الذعر والخوف في الأمكنة التي لم يكن يُرجىٰ فيها وصول التتار ، يقول «جيبون» في كتابه الشهير «تاريخ انحطاط رومة» :

«حينما اطَّلع سكَّانُ السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا، تسلَّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادةً متَّبعةً لديهم».

وقد تصدَّىٰ المؤلِّفون لتاريخ «العهد المتوسط» في جامعة كامبردج بذكر

---

(١) [أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١١) برقم (٥٩٠١) ، وأبو عوانة في المسند (٢/ ٣٨٣) برقم (٧٠٣٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما].

(٢) مرصاد العباد : (المخطوط المحفوظ في مكتبة ندوة العلماء) ، ص٨.

صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيزخان بما يلي:

«لم يكنْ في وسع الإنسان أن يَسُدَّ سيل المغول ، فقد تغلَّبوا على جميع أخطار الصحاري والغابات ، ولم يقف في وجههم أي شيء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أي خطر ولا مانع ، ولا كان هناك قلعةٌ ترد هجومهم ، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم.

نحن نواجه هنا في مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقَّدة السياسية والوطنية ، التي كانت تشغل العقول في ذلك العصر ، وقضتْ عليها كما تقضي الصاعقة التي تنزل من السماء على كل ما تُصيبه في الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغةً في تعقدها إلى حدٍّ لم يكن يُرجىٰ منه الخلاص لولا أن وقعتْ عليها هذه النازلة».

«إنَّ ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ، أعني قُدرةَ رجلٍ واحد على تغيير حضارة النوع البشري ، يبتدىء من جنكيزخان ، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدتْ في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة.

والحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول».

تَدْميرُ بَغداد:

وأخيراً دَخَلَ هؤلاء الوحوش ـ بعد ما خَضبوا أرضَ العالم الإسلامي كله بدماء أهله ، وأتوا عليه ـ بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر في ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكوخان ، ودمَّروها تدميراً ، ولا شك أن تفاصيل قَتْل المسلمين في بغداد وتدميرها طويلةٌ ومؤلمة، ونستطيع أن نقدر مدىٰ هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرِّخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرِّخ ابن كثير:

«وما زالَ السيفُ يقتلُ أهلها أربعين يوماً ، ولما انقضىٰ الأمرُ المقدور ،

وانقضتِ الأربعون يوماً ، بقيتْ بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحد ، إلا الشاذُّ من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سَقط عليهم المطر فتغيرت صُورهُم ، وأنْتَنَتْ من جِيفِهِمُ البلد ، وتغيَّر الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدَّىٰ وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فماتَ خلق كثير من تغيُّر الجوِّ وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغَلاء والوباءَ والفناء»[1].

ويقول الشيخ تاج الدين السّبكي :

«فأنزل (هولاكو) الخليفةَ (المستعصم) في خيمةٍ ، ثم دخل الوزير فاستدعىٰ الفقهاءَ والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم ، وصار كذلك يُخرج طائفة بعد طائفة فتُضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرّب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفةُ فقيل لهولاكو : إنَّ هذا إنْ أُريق دمه تُظْلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نَصير الدين الطوسي[2] وقال : يُقتل ولا يُراق دمه ، فقيل إن

---

(١) البداية والنهاية : ج١٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوي في كتابه «أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسي» الذي نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسي مسؤولاً عن هذه الوقعة ، إنه يقول :

«إنَّ مكيدة الطوسي السياسية التي نجحت أخيراً هي أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكي ، وقد كان هولاكو مأموراً من قبل أخيه منكوقاآن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

إن هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيراً استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سني المعروف بحسام الدين الذي كان ملازماً لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة في مثل هذه الساعة أخفق في إرادته ، وأصيب ببلاء ، فإنك أيها الملك إذا أبيت إلا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك إن الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأي الطوسي وقال : ماذا تقول عن مصيرنا إذا أغرنا الآن على بغداد؟ فقال له =

الخليفة غُمَّ في بِساط ، وقيل رَفَسُوه حتى مات».

واستمرَّ القتلُ ببغداد بضعة وثلاثين يومَاً ، ولم يَنْجُ إلا من اختفىٰ.

وقيل: إنَّ هولاكو أمر بعد ذلك بِعَدِّ القتلى ، فكانوا ألفَ ألفٍ وثمانمئة ألفٍ ، ثم طَلَبَتِ النصارىٰ أن يقعَ الجَهر بِشرب الخمرِ ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يَفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان ، وأُريقتِ الخمور في المساجد والجوامع، ومُنع المسلمون من الإعلان بالأذان ، . . هذه بغداد لم تكن دار كفرٍ قط ، وجرىٰ عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله» [(١)].

وقد ظلَّتْ بغدادُ ـ على علاتها ومواضع ضعفها ـ أكبرَ مدينةٍ للعالم الإسلامي ، ومركزَ العلوم والفنون ، ومهْد العلماء والصالحين، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلُّهم ، وبَكَوا عليها ، وقد نظم الشيخ مصلح الدين سعدي [(٢)] رحمه الله ، الذي أقام في بغداد كطالبٍ ، وشهد بهاءَها وجمالها ، قصيدةَ رثاء تنطقُ عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم في ذلك الوقت ، ننقل فيما يلي ترجمةً لعدَّة أبياتٍ منها يقول:

«إنَّ للسَّماء كلَّ الحق أن تُمطر دماً على الأرض لِما أصاب مملكة الخليفة

= الطوسي: إن الغارة على بغداد لا يؤول إلا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسي: لقد قتل آلاف من الصحابة رضي الله عنهم ولم يظهر فساد ، وإذا كان كل هذا مما يخص العباسيين ، فانظر إلى طاهر الذي قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ج ٥، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسي ، وصاحب كتابي «كلستان» «وبوستان» الخالدين في المكتبة العالمية.

المستعصم من زَوال وفناء ، إذا كانت القيامة حقاً واقعاً يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحْسر عن وجهك الرداء وشاهدِ القيامة بين الخلق اليوم.

لم يَدُرْ بخَلَد أيِّ إنسان أبداً أن حوادث الدهر تأتي بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدتَ عَظَمة البيت الحرام لتنظرَ أن الملوك دفنوا تحت التراب واحتل محلَّهم المغول والخاقان ، أُهريقت دماءُ أبناء عمِّ النبي ﷺ على تلك الأرض ، التي كانتِ الملوكُ الكبار يَخرُّون عليها رُكَّعاً سُجَّداً ، وأصبحتْ دَجلة تَزْبَدُ بدم أهلها ، وهي تَعجن التراب في نخل بطحاء بالدِّماء ، إنَّ وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة وبَدتِ التجاعيد في هذا الوجه ، إنَّ النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشُّهداء ، فإنَّ أقلَّ جزاء يستحقونه هي جنة الفردوس ، ولكنَّ الواجب الديني ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش في لوعة الفراق»[١].

التَّتارُ في الشام:

توجَّه التتارُ نحو حلبَ الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكره ابن كثير ، ثم تقدَّموا إلى دمشق واستولوا عليها في شهر جُمادىٰ الأولىٰ سنة ٦٥٨هـ ، وقد استقبل نصارىٰ البلد التتارَ الفاتحين خارج البلد ، وقدَّموا إليهم الهدايا ، وقدموا بأمرٍ من حاكمهم حتى دخلوا البلد فاتحين ، يُصَوِّر هذه الوقعة ابن كثير ـ الذي كانت دمشق مسقط رأسه ـ تصويراً يمكن به تقدير انتكاس المسلمين وضعفهم:

«ودَخلوا من «باب توما»[٢] ومعهم صليبٌ منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهرَ الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمُّون دين الإسلام وأهلَه ، ومعهم أوانٍ فيها خمر لا يمرُّون على باب مسجد إلاّ رشُّوا عنده خمراً ، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه

(١) كليات سعدي.

(٢) [باب توما: أحد أبواب دمشق القديمة ، يقع في الشرق من المدينة].

الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقومَ لصليبهم ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سُوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم فمدحَ دين النصارىٰ ، وذمَّ دين الإسلام وأهلَه».

ثم يقول: «وحكىٰ الشيخ قطب الدين في «ذيله على المرآة» ، أنهم دخلوا إلى الجامع[١] بخمر ، وكان في نيَّتهم إن طالت مدة التتار أن يُخربوا كثيراً من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين ، والشهود والفقهاء ، فدخلوا القلعة[٢] يشكون هذا الحال إلى متسلِّمها «إيل سيان» فأُهينوا وطُردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارىٰ عليهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون» [٣].

وَقْعَةُ عَيْنِ جَالوت وتَراجُع التتار عن مصر:

وكان التتارُ متوجِّهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدَها التي لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصرَ المظفَّر سيفُ الدين قطز قد تفرَّس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأىٰ أن يخرج من مصر بالجنود ويشُنَّ عليهم الهجوم في نَفْس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية ، والتتار في عين جالوت يوم ٢٥ من رمضانَ سنة ٦٥٨هـ ، وانهزمَ التتار شرَّ هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعقَّبتهم الجنود المصرية فقتلوهم وأسروا منهم عدَداً كبيراً ، يقول العلامة السُّيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»:

«فهُزم التتار شرَّ هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمدُ ، وقُتِلَ من التتار

---

(١) [أي الجامع الأموي].

(٢) [هي قلعة دمشق ، بناها تاجُ الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ ، وقد خربت عدة مرات ، وجدِّد بناؤها].

(٣) البداية والنهاية: ج١٣ ، ص٢٠٣.

مَقْتَلَةٌ عظيمة ، ووَلَّوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطَّفونهم وَيَنهبونهم» [١] .

وهَزَمَهُم الملكُ الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطرَدهم منها ، حتىٰ بطل المثل السائر : «إذا قيل لك إنَّ التتار انهزموا فلا تُصدِّقْ» .

انتِشارُ الإسلام في التَّتار:

وقبل أن ينجرف العالمُ الإسلاميُّ مع هذا السيل الجارف العنيد ، وتنطمس معالمه وملامحه ، (كما كان المشاهد الملموس عند ذوي البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين) بدأت دعوةُ الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب ، ويتحقَّق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنَّة والرماح ، وبطش السلاطين والملوك ، وبدأ الإسلام يتسرَّب في نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم .

إنَّ خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين أمام الإسلام مِنْ أغربِ الوقائع والأحداث في التاريخ ، فإنَّ هجوم التتار على العالم الإسلامي كالجراد المنتشر ، وإخضاع العالم الإسلامي كله ، ليسَ من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر ، فإنَّ عالم الإسلام في القرن السابع كان بدوره مصاباً بتلك الأمراض والأسقام ، التي تَلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتار ، ذلك الشعب القوي الأبي الذي نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكنَّ الغريب المدهش أنَّ هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين واعتنقَ دينهم في أوجِ قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذي فقد كثيراً من سلطانه السياسي والمادي آنذاك ، وكان أتباعُه موضع سُخرية واحتقار في نظر التتار .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٤٢٥ .

وقد أبدىٰ «أرنولد» استغرابَه في هذا الصَّدد في كتابه المشهور Preaching of Islam «الدعوة إلى الإسلام» حيث قال:

«ولكنْ لم يكن بُـدٌّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولىٰ ، وأطلالِ مجده التَّالد ، كما استطاع بواسطة دُعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويَحملهم على اعتناقه ، ويرجعُ الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين ، الذين كانوا يُلاقون من الصعاب أشدّها لمناهضة مُنافِسَين قَوِيَّيْنِ ، كانا يحاولان إحراز قصْب السَّبق في ذلك المضمار ، وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كلُّ ديانةٍ تنافس الأخرىٰ ، لتكسب قلوبَ أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رِقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشِّرين في جميع الأقطار والأقاليم» [1].

«ويظهر أنَّ منافسة الإسلام في مُستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملاً بعيد المنال ، إذ أنَّ المسلمين كانوا قد قاسَوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول ، وإنَّ معظم هذه المُدن التي كانت حتىٰ ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية ، قد أصبح مُعظمها أطلالاً دارسةً ، حتىٰ إنَّ الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبُهم القتل أو الأسر [2].

وكان من بين حُكَّام المغول الذين عُرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يُظهر الكراهية للدين الإسلامي علىٰ درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيزخان

(١) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين).

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء ، أن رائضي الخيول من أهالي الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحاً ، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلاً مسناً ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين. (Howorth Vol.I.p.159).

بقتل كل من يَذبح الحيوانات على النحو الذي قرّره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائي ، فعيَّن مكافآت لكلِّ مَن دلَّ على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهاداً عنيفاً دام سبع سنين ، حتىٰ إنَّ كثيراً من المعدمين وجَدوا في سَنِّ ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتّهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم [١] ، وقد عانىٰ المسلمون أقسىٰ ضروب الحَيْف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م) الذي ألقىٰ بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيَّين ، والذي امتلأ بلاطُه بالرُّهبان من المسيحيين» [٢] .

«وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) رابع إيلخانات المغول في فارسَ ، المسلمينَ في بلاده ، وصرَفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرَّم عليهم الظهور في بلاطه ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعنَ هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة [٣] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم» [٤] .

إنَّ هذا الحَدث مثارُ دهشةٍ وعجبٍ ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيلَه وافيةً في بطون التاريخ ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حقَّقوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أنَّ هذه المأثرة لا تقل أهمية عن أي مأثرة إسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا يُنكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنهم أنقذوا العالم من دَمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعبٍ يؤمن بالله وحده ، ويدعو إلى دين محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم.

---

(١) Howorth, Vol.I.p.165.

(٢) Deguignes, Vol.III, p.265

(٣) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكاً. (Cahon p.279).

(٤) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

إنَّ دولة جنكيزخان توزعتْ بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتار يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتىٰ دخلوا في ظرف مئة سنة في دين اللهِ ، وقد سردَ أرنولد عدة أحداث تُلقي الضوء على هذا الباب ، إنه يحكي قصة شيوع الإسلام في فرع جوجي خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذي كان يحكم على سيرا داردا ، الجزء الغربي من الدولة ، فيقول:

«وكان بركة خان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتي ١٢٥٦و ١٢٦٧م [١] ، وقد قيل في سبب إسلامه إنه تلاقىٰ يوماً مع عير للتجار آتية من بخارىٰ ، ولما خلا بتاجرَيْن منهم سألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحاها له شرحاً مقنعاً انتهىٰ به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له ، وقد كاشفَ أصغر إخوته أولَ الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الإسلام ، وحبَّب إليه أن يحذو حذوَه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين» [٢] .

«وقد دخل بركة خان في حِلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) سلطان المماليك في مصر ، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفىٰ بشرذمةٍ من جُند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بينَ مَلكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فرُّوا إلى سورية ، حيث يُيَمِّمُونَ منها شطرَ مصر ، وهناك استُقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس ،

---

(١) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدي ، وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين. (Stein Chneider,p.p.63-4.)

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ (أبو الغازي ج٢ ـ ص ١٨١).

الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه [١].

وكان بيبرس نفسه في حَربٍ مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتاباً إلى بركه خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس [٢] ، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثُر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم» [٣].

إنّه يحكي قصة انتشار الإسلام في الإيلخانية الفرع الثاني لأسرة جنكيزخان ، ويقول:

«كان الإسلام أقلَّ انتشاراً في بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول ، ولكي يقوى على صدِّ هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجتُه المحبَّبة إليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين ، كما تزوَّج ابنه أباقا خان (١٢٦٥ ـ ١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية.

ومع أنَّ أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية ديناً له ، فقد امتلأ بلاطه بالقسِّيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربة ، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلبُ إليهم التحالف معه على المسلمين.

كما أرسل لهذا الغرض أيضاً بعْثاً من ستة عشر سفيراً من المغول إلى مجمع

(١) المقريزي (م): ج١ ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، ١٨٧.
(٢) المقريزي (م): ج١ ص ١٢١٥.
(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠، المقريزي (م) ص ٢٢٢.

ليون سنة ١٢٧٤م ، حيث دخل رئيسُ أولئك السفراء في المسيحية ، وعُمِّد مع بعض رفاقه ، وقد طمِع المسيحيون ، فعلَّقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية ، ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلاَّ سراباً خادعاً.

وكان أخوه تكودار أحمد (١) ، الذي اعتلى العرش من بعده ، أول إيلخانات المغول الذين اعتنقوا الإسلام في فارس ، وقد شبَّ على المسيحية ، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه) (٢) : «تَعَمَّد في صباه وتسمَّىٰ باسم نقولا ولكنه دان للإسلام عندما بلغ سِنَّ الرُّشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كَلِفاً بهم ، وأصبح مسلماً دَيِّناً ، ولما ارتد عن المسيحية ، رَغِب في أن يُسَمَّىٰ (محمد خان) ، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ، حتىٰ إن عدداً كبيراً من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين».

وقد بعثَ تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب: «إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن اللهَ سبحانه وتعالىٰ بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربُوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته وحُسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبَريَّته ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، فلم نزل نميل إلَى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضىٰ إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نَوبَة الملك ، فأضفىٰ علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائهِ وعوارفه ، وجَلى هذه المملكة علينا وأهدىٰ عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريليان(Quriltay على الأصح)

---

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

(٢) (Hayton.Ramusio,Tom II p.60,C.).

المبارك؛ ـ وهو المجتمع الذي تُقدح فيه الآراء ـ جميعُ الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبراء ، ومُقدَّمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقتْ كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حُكم أخينا الكبير ، في إنقاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأتِ الأرض رعباً من عظيم صَولتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمّة تخضع لها صُمُّ الأطواد ، وعَزْمةٍ تلين لها الصُّم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخَّضتْ زبَد عزائمهم عنه ، واجتمعتْ أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يُوجب حقن الدماء وتسكين الدَّهماء ، وتجري بـه في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريحُ به المسلمون في سـائر الأمصـار في مهاد الشفقـة والإحســان ، تعظيماً لأمر الله ، وشفقةً على خلق الله .

فألهمنا اللهُ تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه من تقديم ما يُرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء .

وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النِّصال للنضالِ ، إلا بعد إيضاح المحَجة ، ولا نبادر إليها إلاّ بعد تبيين الحقِّ وتركيب الحجَّة .

وقَوي عزمُنا على مارأيناه من دواعي الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذي هو نعم العون لنا في أمور الديـن ، فأرسلنـاه رحمة من الله لمن (لبّى) دعاه ، ونقمةً على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللَّذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفُوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميلُ نيتنا ، وبيَّنا لهم أنَّا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله .

فإن تطلَّعتْ نفوسٌ إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحُجة يثقون

بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعمَّ أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئةً واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا: عفا الله عمَّا سلف .

وتقدَّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارةِ بقاع الدين والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقّيها بشروط واقفيها .

وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سُبلها ، وتيسير قوافلها .

وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافرُوا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم» .

وهو يلتمس محالفة سلطان مصر «بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتَحل الأمة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل[١] والهوان [٢] .

وإنَّ مَن يدرس تاريخ المغول ليَرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير ، التي أعلنتْ عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى

(١) وصاف الحضرة: ص (٢٣١ ـ ٢٣٤).

(٢) وقد ورد هذا الكتاب أيضاً في القلقشندي: «صبح الأعشى» ج١ ، ص ٦٥ ـ ٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة٦٨١ (أغسطس سنة (١٢٨٢)، وقد بعثه به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان، وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمير سنة ١٢٨٣)، وقد ورد الكتاب في القلقشندي ج ٧ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢).

سُلطان المماليك في مصر ، والتي يَدهَشُ الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ «تكودار أحمد» واضطهاده المسيحيين ، المغولَ الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم في الدين ، وشكوه إلى قوبيلائي خان ، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده.

وقد قامت في وجهه ثورةٌ على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبَّر قتله ، ثم خلفه على العرش.

وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصُرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، وحَرَّم عليهم الظهور في بلاطه [١].

وقد ظلَّ خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأناً ، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م ، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس.

وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان [٢]، أملَ المسيحيون آمالاً كباراً في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس عن الدين الإسلامي ، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفاً شديداً ، وأسندت إليهم كثيراً من مناصب الدولة الهامة ، وكان بيدوخان سلف غازان ، الذي كان رأس الفتنة في فارس ، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط ، قد آثر الدين المسيحي ، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين

---

(١) De Guignes, Vol.III p.p.263-5.

(٢) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) ، وأولجايتو (١٢٩١ ـ ١٢٩٥م) وبيدو خان (أبريل ـ أكتوبر سنة ١٢٩٥ م).

المغول ، فحرَّم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو أن ينشر عقائده بينهم [(١)].

وقد شَبَّ غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام ، وشيَّد عدة معابد للبوذية في خراسان ، وكان يُسرُّ كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسَط المغول سلطانهم في هذه البلاد [(٢)].

ويظهر أنَّ غازان كان بطبعه يميل إلى تَقليب نظره في المسائل الدينية؛ لأنه دَرس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه [(٣)] ، وقد أيَّد رشيدُ الدين ، وزيره العالم ومُؤرخ عصره بالبرهان صحةَ اعتقاده الإسلام ، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيرة طوال عهده» [(٤)].

إنَّ ابن كثير نفسه ذكر إسلام غازان في وقائع ٦٩٤هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه ـ ويؤيده في ذلك غيره من المؤرِّخين ـ أنَّ الفضل في ذلك يرجع إلى الأمير التركي الصالح توزون [(٥)] ، فإن ملك التتار أسلم بجهوده ، كتب ابنُ كثير في وقائع ٦٩٤هـ ، يقول:

«وفيها مَلَك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيز خان فأسلم ، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ، ونُثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه ، وتسمَّى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرَّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، وردَّ مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السُّبح

---

(١) C.D.Ohsson, Tome IV p.p. 141-2

(٢) I p,18p.148

(٣) C.D.Ohsson,Tome IV p.365

(٤) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.

(٥) يسميه أرنولد وغيره من المؤرخين «نوروزبيك».

والهياكل مع التتار والحمد لله وحده» [١].

يقول أرنولد: «إنَّ أخاه أولجاتيو Aljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده [٢] Khudabandah كان على المسيحية دين أمه، وعُمِّد باسم نيقولا، على أنه لم يلبثْ أن أسلم بعد موت أمه، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته [٣].

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣ـ ص ٣٤٠.

(٢) ذكر ابن بطوطة ج١ ص(١٤٣) أن اسمه مختلف فيه، وقد قيل خُدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده ومعناه غلام أو عبد، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده، معناها غلام أو عبد. فيكون عبد الله، أو غلام الحمار، وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان)، ولعله يريد هنا الحمار فسمي خربنده، وذكر براون أن غازان لما تولى فر أولجاتيو وظل مشرداً يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير، وقيل أيضاً إن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسماً قبيحاً حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمي خربنده كما يسمي العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلاً بأن يكون الولد في كبره صخراً أو كلباً على عدوه، وقال ابن الوردي (تاريخ الوردي ص ٢٦٤) إن خربنده اسمه خدابنده، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان وديار بكر.

(٣) Hammer-Purgstall: Gesc hichte Der Iichanen Vol.ll p.182

ولا يبعد أن تكون سبايا الإسلام قد قمن في تحويل المغول إلى الإسلام، ويظهر أن المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة بين المغول، ويمكن أن نأتي بأمثلة كبيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية:

«وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا نشرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا، فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد رغب في أن يعمد، ولكن بينما كنا نعد العدة =

ويـذكر ابن بطوطة[١] ، أنَّ سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثرٌ كبيرٌ في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدينَ السائد في دولة إيلخانات فارس [٢] .

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسِّسها جغطائي بن جنكيز خان .

يقول أرنولد : «وإنَّ ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جغطائي ، لا يزال ضئيلاً ، وكان كثيرٌ من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يُبد أي ميل إلى الإسلام .

وقد ضيَّق «جغطائي» على رعاياه من المسلمين بما سنَّه من القوانين الشديدةِ الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء .

ويذكر الجوزجاني أنَّ جغطائي هذا كان ألدَّ أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغبُ في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللَّهم إلا إذا أريد بها التحقير والحطُّ من شأنها [٣] .

وقد ربَّتْ أرغنة (Orghana) زوجة «قراهولاكو» (Qara-Hulagu) حفيدَ جغطائي وخليفتـه ، ابنها على الإسلام ، وتقدم باسم مبارك شـاه في

= لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلاً : إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا ، إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس» (Rubruck p.p.90-1)

(١) ابن بطوطة : ص٥٧ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٣) الجوزجاني ص٣٨١ ـ ٣٩٧ Raverty, p.p. IIIo, 1145-6

سنة ١٢٦٤ مطالباً بعرش خاقانية جغطائي ، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان ، (Buraq Khan).

ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أيُّ أثر بين المغول ، فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحداً منهم قد دخل في دين أبيه [١].

وقد قيل: إنَّ براق خان نفسه «قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة» قبل موته في سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وإنه تسمَّى باسم السلطان غياث الدين [٢]، إلا أنه دُفن حسب طقوس المغول القديمة ، ولم يُدفن وفق شعائر الدين الإسلامي ، وأن من أسلموا في عهده ارتدوا إلى وثنيَّتهم الأولى.

ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم مُتمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد.

وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصَّل الميل إلى الإسلام بعدُ في نفوس المغول ، فإن بوزن الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهدَ المسلمين [٣]، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم في كاشَغْر إلا بعد سنين قليلة ، وكان ضعفُ أسرة جغطائي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقلَّ بحكم هذه البلاد.

ويقول بعض المؤرِّخين إنَّ إسلام «تغلق تيمورخان» (١٣٤٧ ـ ١٣٦٣) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصَّصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن تُوثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يَمثلوا بين يديه ، ثم سأله في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه

---

(١) رشيد الدين ١٧٣ ـ ٤، ١٨٨.

(٢) أبو الغازي: ج٢ ص١٥٩.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ج٣ ، ص٤٧.

الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يَجُوسون أرضاً محرمة.

ولمَّا علم الأميرُ أنهم من الفرس ، قال: إن الكلبَ أغلى من أي فارسي ، فأجاب الشيخ: «نعم قد كُنَّا أخسَّ من الكلب ، وأبخس ثمناً منه لو أننا لم ندِن بالدين الحق».

ولمَّا راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يُقدِّم إليه ذلك الفارسيُّ الجسورُ عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين؟

فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس ، انفطرَ لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصَوَّر له الكفر بصورة مروعة اقتنعَ معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم فلتُمهِلني قليلاً ، فإذا ما آلت إليَّ مملكة أجدادي ، فعُد إليَّ».

وبعد ذلك انقسمت إمبراطورية جغطامي إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً ، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: «سيُصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكاً عظيماً ، فلا تنس أن تذهب إليه وتُقرئه مني السلام ، ولا تخش أن تُذكِّره بوعده الذي قطعه لي».

ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استردَّ عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يَظفرَ بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيراً لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة؛ ففي ذات يوم أخذ يُؤذِّن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ومُثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعدَه وقال:

«حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ، ولكنَّ الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنتَ على الرحب والسعة» ثم أقرَّ بالشهادتين ، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين.

«وأشرقت شمس الإسلام ومحتْ بنورها ظلام الكفر. . . . ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملكُ الأمراء واحداً بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام، فمن قَبله جوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذُبح كما يُذبح الوثنيون وعُباد الأصنام» (١).

أمّا الفرع الرابع الذي ينتمي إلى «اجتائي خان» والذي برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجوخان ، وقوبيلائي خان ، والذي كان يحكم الجزء الشرقي من إمبراطورية التتر ، فيقول فيه أرنولد:

«ولا بدَّ أن يكون هناك كثيرٌ من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طيِّ الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام ، ففي عهد اجتائي (١٢٢٩ ـ ١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذيٍّ يدعى Tangut وكان حاكماً على بلاد الفرس من قبل المغول (٢)، وفي عهد تيمورخان (١٢٢٣ ـ ١٢٢٨) كان آننذا Ananda حفيدُ قوبيلائي (١٢٥٧ ـ ١٢٩٤) وأميرُ كان سو مسلماً متحمساً ، كما دفع كثيراً من أهل تانجوت Tangut وعدداً كبيراً من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية ، أبى إلا التمسُّك بدينه الجديد ، فأُلقي به في غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلُّق به»(٣) .

وهكذا دَخَلَ هذا الشعب (الذي دَوَّخ العالم الإسلامي كُلَّه ، وداس أطرافه

(١) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٢) C.D. Ohsson, Vol. III 121.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ـ ص٢٥٨، رشيد الدين ص٦٠٠ ـ ٦٠٢.

بأقدامه ونِعال خيوله ، والذي لم تتماسك أمامه أي قوة) في دين الله ـ الإسلام ـ في بِضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحةً جليةً ، إنَّ الإسلام لا يزال يملك أكبرَ نفوذ ، ويتمتَّع بأغرب موهبة في تسخير الأرواح وكَسْب الأنصار والأصدقاء ، إن التتار لم يُسلموا رسمياً فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين ، والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدَّوا دورهم الثمين في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقةٍ ولحظاتٍ عَصيبةٍ من التاريخ .

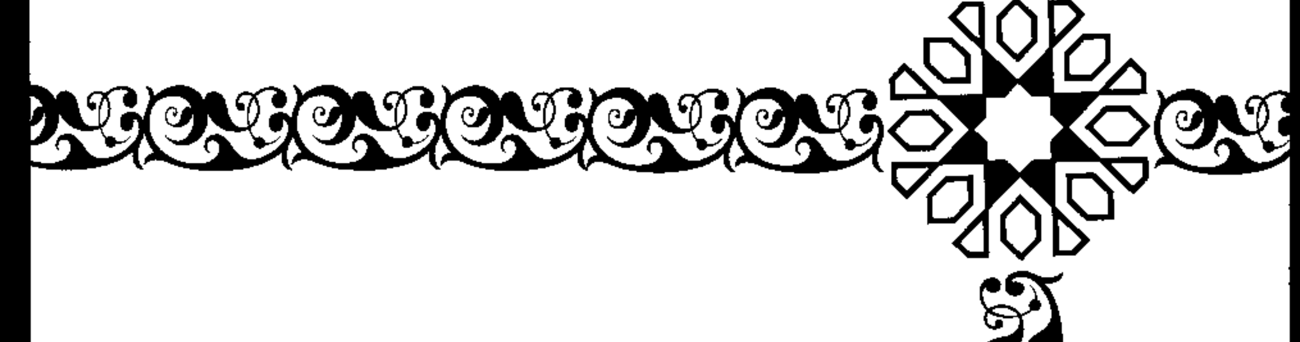
* * *

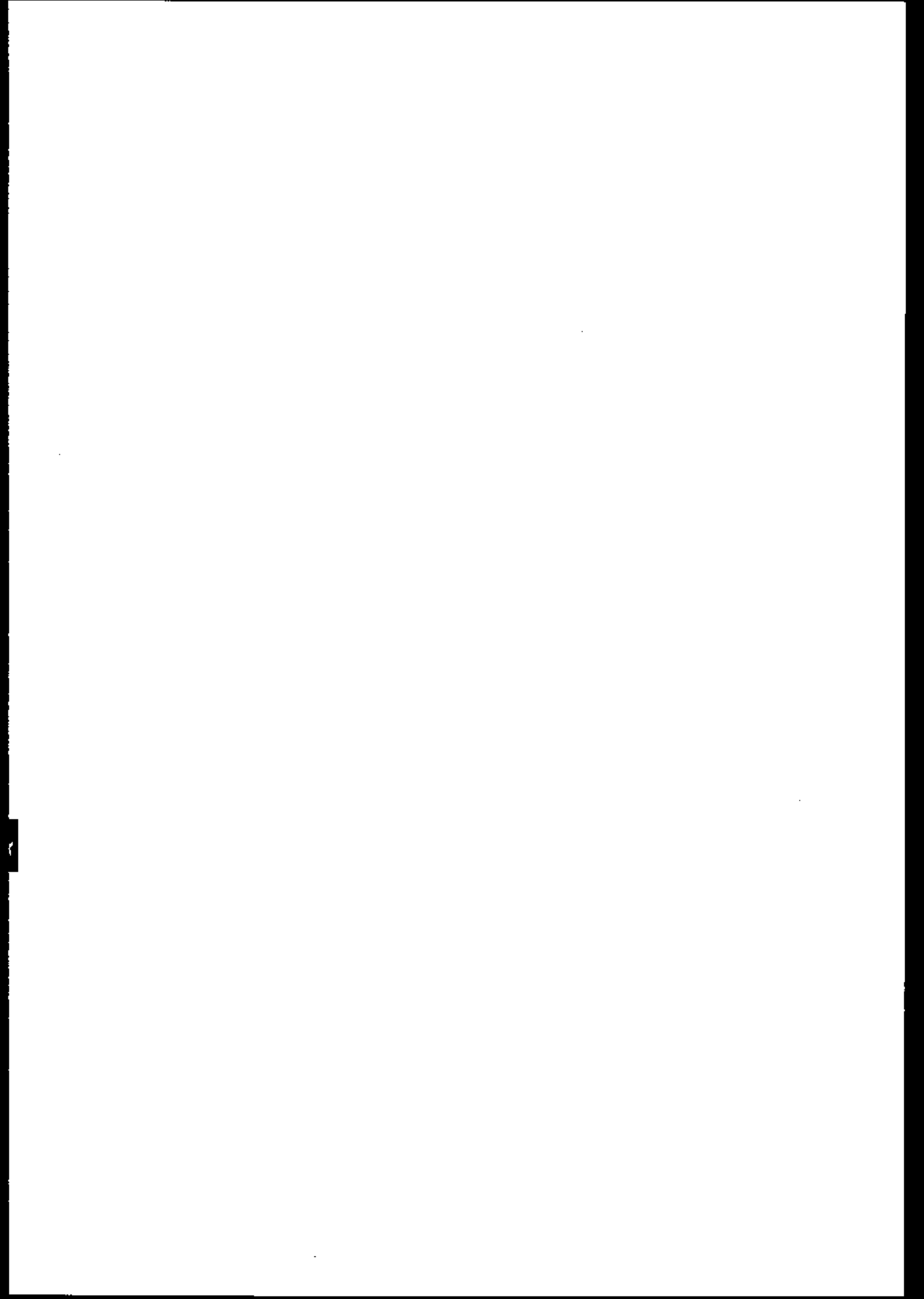
مولانا جلال الدين الرومي

عَصرُهُ وترجمَةُ حياتِهِ.

مُفَكِّرٌ مُبتَكِرٌ ومُؤَسِّسُ عِلْمِ كَلامٍ جَدِيدٍ.

دَاعٍ إلى الحُبِّ والعَاطِفَةِ واحترامِ الإنسَانِ إلى الإنسانيّةِ.





المحاضرة الرابعة عشرة:

مولانا جَلالُ الدّينِ الرُّومي
عصرُه ، وترجمة حيَاته

ثورة عِلمِ الكَلام العقلية ، ونتائجُها:

خَضَعت الأوساطُ العلميةُ والحركاتُ الفكريةُ في القرن السابع للاستدلال والقياس العقلي خضوعاً زائداً، وأصبح المؤلِّفون والمتكلِّمون والباحثون والدعاة مضطرين إلى البراهين العقلية، والمقدمات الفلسفية ، في إثبات حقيقة غيبية ، أو تقرير عقيدة دينية.

وجاء العلامة «فخرُ الدين الرَّازي» (٦٠٦م) فجدَّد دولة علمِ الكلام ، ووسَّعها بشخصيَّته القوية ، ومؤلَّفاته العظيمة ، وبُحوثه الدقيقة.

انتصر الأشاعرةُ على المعتزلة والفلاسفة في الحياة والمجتمع ، وفقد الاعتزالُ والفلسفةُ شيئاً كثيراً من سيطرتهما ونفوذهما؛ ولكنَّ رُوح الاعتزال والنزعة العقلية تغلغلت في أحشاء علم الكلام ، وسيطرت على تفكيره ومناهج بحثه ، وقد غلا المُتكلِّمون أنفسهم في الزمن الأخير في تقدير العَقل ، ووسَّعوا حدوده ، وسمحوا له أن يبحث في مسائل الذات والصفات؛ التي هي وراء طور العقل[١] بحثاً حراً.

---

(١) إننا إذا قلنا: «وراء طور العقل» فلا نعني أنه يعارض العقل أو ينافيه والفرق بينهما كبير ، وقد يخلط بينهما من لم يدقق ولم يرسخ في العلم.

وكان إثباتهم للمسائل الدينية وحقائق الأشياء يعتمد دائماً على الاستدلال الفلسفي والقياس المنطقي ، كما كان يعتمد على ذلك في أدب المعتزلة وكُتب الفلاسفة باختلاف في التعبير والمصطلحات ، وقد حكَّموا الظواهر والمحسوسات تحكيماً كبيراً.

كانت نتيجةُ ذلك أن طغى على العالم الإسلامي « الجَفافُ الفلسفي» ـ إن صحَّ التعبير ـ وإذا كان الغلو في القياس والاستدلال قد أفاد العقول جِدة ونشاطاً ، فقد أفقدَ القلوبَ إيماناً وحرارة.

لقد استطاع المتكلِّمون بقوة استدلالهم وبَراعتهم في المناظرة أن يقطعوا لسان المعترضين ويُفحموا المجادلين؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا في القلوب سكينة وإيماناً ، وفي أهل الشكِّ يقيناً وإذعاناً.

لقد خَلَقت مناهج بحثهم وأساليبُ استدلالهم عُقداً في القلوب والعقول ، عَجز علم الكلام عن حلها وفكها ، واستخفَّ عِلمُ الكلام وأصحابه بالوجدان الذي هو مَنْبعٌ فياض للعلم واليقين ، فنضب معينُه.

كانتِ الفلسفة ، ومن سار سيرتها لا تقرر إلا بالحواس الخمس ، وأصبح كل شيء لا يُدرك بهذه الحواس الظاهرة ، ويَتوقف على الحاسة الباطنة محلَّ الجدال والشك ، ويميل «المثقَّفون» إلى نفيه وإنكاره؛ وقد ضَعُفت في الأمة ـ بتأثير علم الكلام والفلسفة ـ قوةُ العمل ولَوعة الحب التي كانت مصدراً من مصادر قوة هذه الأمة كبيراً ، وموهبةً من مواهب النبوة عظيمة.

وقد حَوَّلت المباحثُ الفلسفيةُ والحروب الكلامية العالمَ الإسلامي إلى «مدرسة» يكثر فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال؛ ولكنها بعيدةٌ عن الحياة والحب ، والإيمان الوثيق العميق ، والعاطفة القوية الرقيقة ، وقد كوَّن أهل

القلوب جُزراً روحية في هذا المحيط العقلي المادي ، يَسودُ فيها الحب واليقين ، والسكينة والطمأنينة.

الحَاجَة إلى مُتكلِّم جَديد:

كان العالمُ الإسلاميُّ حينئذٍ في حاجةٍ شديدةٍ إلى شخصيةٍ قويةٍ عبقريةٍ مُجدِّدةٍ ، قد وصلت بدراستها إلى أحشاء الفلسفة ثم خرجتْ منها سالمة ، وقد شاهدَ بتجاربه الواسعة أن الفلسفة سرابٌ يحسبه الجاهلُ ماء ، وأنَّ تدقيقاتها وما تزهى به من بحثٍ وتحقيقٍ طلاسمُ لفظية وطبولٌ فارغةٌ ، يرغب فيها من لم يختبرها ويتعمَّق فيها.

كان العالمُ الإسلاميُّ في حاجة إلى شخصية تستطيعُ أن تنفخ بقلبها الولوع وعاطفتها القوية روحاً جديدة في المجتمع ، الذي طغى عليه العقل ـ على حساب العاطفة ـ وسادَ عليه الخمود ، شخصية تستطيع أن تؤسس كلاماً جديداً لا يُصارع العقول ، ولا يكتفي بإفحام المجادلين ، بل يَحُلُّ العُقَد النفسية والفكرية التي خلَّفها علم الكلام ، ويملأ القلوب سكينة وإيماناً.

لقد وُجِدَ هذا الرجلُ المطلوبُ في شخصية مولانا «جلال الدين الرومي». وقد كان ديوان شعره الذي يعرف عادة بـ«المثنوي المعنوي» [١] ثورة على علم الكلام الذي فقد جدَّته وقوته ، ونَقد الفلسفة في اتجاهها ومنهجها ، وعلى الفلسفة التي تجاوزت حدودها ، وبالغت في تقدير الحواس وتقديس العقل ، وكان أساساً لكلام جديد كان أكثر إقناعاً للعقول الجامحة الثائرة ، والنفوس المضطربة الحائرة من علم الكلام ، الذي تَزعَّم ذلك وتكفَّلَ به طوال القرون.

---

(١) تُرجم إلى العربية ترجمة دقيقة من قبل أحد أساتذة جامعة بيروت العربية ، وطبع في جزءين فاخرين عام ١٩٦٩.

تَرجَمَة حَياتـه:

وُلِـدَ[١] جلال الدين محمـد الرُّومي ، في سادس ربيـع الأول ، سنـة ٦٠٤هـ في «بلْخ» من أعمال أفغانستان ، وكان والده محمد الملقَّب «بهاء الدين ولد» من كبار علماء بلاده ومشائخ عصره ، وقد لقِّب بسلطان العلماء ، ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

بدَأَ جلال الدين دِراسته عند الشيخ «برهان الدين المحقق الترمذي» الذي كان من تلاميذ والده ، ونبغ على يده ، وقد كان والدُه الشيخ «بهاء الدين» ينتقد علماء العصر لعكوفهم على دراسة العلوم العقلية وتعليمها ، وانصرافهم عن القرآن والحديث.

وكان الشيخ مُهاباً جليلَ القدر يُجِلُّه العامة والخاصة ، وتأتيه الفتاوى من أقاصي البلاد؛ فحسَده العلماء ، وأوغروا صدر الملك عليه ، وقد هاله التفاف الناس حوله وصدُورهم عن رأيه؛ فأوعزَ إليه بالخروج من البلاد ، وهاجرَ الشيخ بأهلِه ، وأقام في مُدن كثيرة كان فيها موضع حفاوةٍ بالغة وإجلال؛ حتى استقر في «قونية» سنة ٦٢٦هـ بدعوة من «علاء الدين كيقباد» سلطانِ الروم ، الذي احتفى به ، وبالغ في إكرامه ، وبايعه.

مكَثَ الشيخُ «بهاء الدين» سَنتين في قونية وتوفي سنة ٦٣٨هـ ، وخلَفه ولده النابغة مولانا «جلال الدين» وبنى له الأمير بدر الدين «كهرتاش» أستاذُ السلطان ، مدرسةً عرفت بمدرسة «خداوندكار» ووقفَ لها أوقافاً واسعة؛ ولاّه رئاستها.

واستمرَّ جـلال الدين في التـدريس والوعـظ والإرشـاد على نمـط والـده

---

(١) اعتمدنا في تلخيص ترجمته وأخباره على كتاب «صاحب المثنوي» للأستاذ المحقق القاضي تلميذ حسين الهندي ، وهو خير ما كتب في هذا الموضوع ومن أوثق المصادر ، واستفدنا قليلاً من كتاب «زندكاني مولانا جلال الدين» للأستاذ بديع الزمان فروزانفر أحد أساتذة الأدب في جامعة طهران.

العظيم ، ولم يمنعه هذا الجاه العريض والمكانة المرموقة من التوسع في الدراسات ، والتبحُّر في العلوم.

وسافَرَ سنة ٦٣٠هـ إلى بلاد الشام ، ومكثَ في المدرسة «الحلاوية» بحلب ، واستفاد من كمال الدين ابن العديم ، وقد أقرَّ له علماء حلب بالنبوغ والاطلاع الواسع.

ومِن حلبَ توجَّـه جلال الدين إلى دمشق ، حيث أقـام بالمدرسة «المقدسية» ، وكانت له مجالسُ لطيفةٌ مع الشيخ محيي الدين بن عربي ، والشيخ سعد الدين الحموي ، والشيخ عثمان الرومي ، والشيخ أوحد الدين الكرماني ، والشيخ صدر الدين القونوي ، وقد اجتمعوا في دمشق في ذلك العصر.

رَجَعَ جلال الدين في سنة ٦٣٤هـ إلى قونية ، وعكفَ على التدريس والإفتاء ، وقد نزح إلى «قونية» كثيرٌ من العلماء والأشراف الذين هاجروا من بلادهم في فتنة التتار؛ فأصبحت مدينة العلم وملجأ العلماء والفضلاء ، واستقرَّ بها أصحاب الشيخ محيي الدين بن عربي بعد وفاته ، منهم الشيخ صدر الدين القونوي.

كان جلال الدين يُدرِّس ويُفيد ويعيش كعالم ومدرِّس؛ حتى حدثت له حادثةٌ قلبتْ تيارَ حياته واتجاهه ، وفتحَتْ قريحته وأشعلت مواهبه ، وكانت سببَ شُهرته وتأثيره وخلوده.

في جمادى الآخرة سنة ٦٤٢هـ وصل إلى «قونية» رَجلٌ من الصوفية من «تبريز» في إيران ، اسمه «محمد بن علي بن ملك داد» ويعرف بشمس تبريز ، يعرف الناس عن نسبه وأحواله قليلاً ، وخرج جلال الدين يوماً في موكبه من التلاميذ والعلماء ، والناس حوله يسألونه ويستفيدون منه ، وتقدم شمس الدين إلى الراكب المحتفَل به وقال: ما المقصود من الرياضيات والعلوم؟

قال جلال الدين: الاطلاع على آداب الشرع.

قال شمسُ الدين في هدوء وثقة: لا؛ بل الوصول إلى المعلوم، وأنشد بيت الحكيم «السّنائي» الذي يقول فيه: «إنَّ العلم إذا لم يُجرِّدك من نفسك فالجهلُ خير منه» وتحيَّر جلال الدين، وأصاب شمس الدين هدفه، وأصمىٰ رميتَه.

ورَجَعَ جلال الدين مع أستاذه الجديد، وبَقيَ معه في حُجرة أربعين يوماً، وفي رواية أنه اعتكف معه ستة أشهر في حُجرة صلاح الدين زركوب «الدقاق» لا يدخلها إلا صلاح الدين، وامتلأ جلال الدين بروح جديدة، وانكشف له عالمٌ جديد من الحقائق والأذواق، وإلى ذلك أشار جلال الدين في بيت له بقوله: «إنَّ الشَّمسَ التبريزي هو الذي أراني طريقَ الحقيقة، هو الذي أدينُ له في إيماني ويقيني» ويقول «سلطان ولد» ابن جلال الدين: «إن الأستاذ الكبير أصبح تلميذاً صغيراً للشيخ التبريزي يتلقى منه الدروس كلَّ يوم، إنَّه وإن كان نابغة في العلوم، ومقدماً في الزهادة؛ ولكنه رأى عنده علماً جديداً لا عهد له به».

وخَضَعَ جلال الدين لشيخه الجديد خضوعاً كاملاً، وانصرف إليه انصرافاً كُلِّياً، وتشاغل عن تلاميذه ومريديه؛ فكبُر ذلك عليهم، وثاروا، وقالوا: «لقد صرفنا أعمارنا في خدمة الشيخ، شاهدنا كراماته، وبنا طار ذكره في الآفاق، وجاء رجل غريب مجهول وقطعه عنا، واستولى عليه؛ فلا سبيلَ لنا إلى لقائه ورؤيته. ووقفتِ الدروس والمحاضرات؛ فلا شكَّ أنه رجل ساحرٌ أو داهية باقعة، جرف هذا الجبل الراسي من العلم كَتِبْنةٍ حقيرة وورقة خفيفة».

واشتدَّتْ عداوتهم لشمس الدين، وعزموا على إقصائه من «قونية» ليخلو لهم وجه أستاذهم، ويكونوا من بعده قوماً صالحين.

وتحمَّل ذلك شمس الدين في صبر وحلم؛ حتى تجاوز الحد، وخاف شمسُ الدين الشر والفتنة؛ فخرج من قونية مستخفياً، وكان ذلك غرة شوال عام ٦٤٣هـ بعدما أقام في «قونية» عاماً وأربعة أشهر.

وحزِنَ جلال الدين لغيبة أستاذه حزناً شديداً ، واعتزل جميع تلاميذه ومريديه ، ولم يتحقق ما أمَّلوه من إقصاء شمس الدين ، وحُرم أصحاب الصدق والوفاء من أصحابه الاستفادة من شيخهم الجليل.

وبقي الشيخُ منقطعاً عن الناس ، مُنصرفاً عن أشغاله؛ حتى فاجأته رسالة للشيخ شمس الدين من دمشق ، فطابت نفس جلال الدين ، وأقبل إلى مجالس السماع كعادته ، وأقبل على من لم يُساهم في إيذاء شمس الدين وإقصائه بعطف ، وكتبَ إلى شمس الدين رسائل حنين وغرام يقول في إحداها:

أيُّها النُّورُ في الفُؤاد تَعالَ ... غَايةَ الوَجْدِ والمُراد تَعالَ

أيُّها السَّابق الذي سَبَقت منْـ ... ـكَ مَصدوقةُ الوِداد تعالَ

«جون بيائي ، زهى كشاد ومراد ... جون نيائي ، زهى كسادَ تعال»[(١)]

أنتَ كالشَّمس إذْ دَنتْ ونَأتْ ... يا قريباً على البِعَاد تعَالَ

وهَدأت ثائرة الناس ، وعرف جلال الدين أنَّ الناس أقلعوا عن عداوة شمس الدين وإيذائه؛ فأرسل ولده «سلطان ولد» مع هدايا نفيسة ينثرها على قدميه ، ويطلبُ منه العفو عمن آذاه ، وأن يصرف عنان عزيمته إلى «قونية» وكتب رسالةً رقيقة منظومة.

ورَجَعَ شمس الدين إلى «قونية» وابتهج بقدومه جلال الدين ، وسُرَّ سروراً عظيماً ، وطابتْ مجالسه مع شمس الدين ، وصفَتْ له الأوقات.

وازدادَ جلالُ الدين إجلالاً لشيخه وحبّاً له واتحاداً معه؛ ولكنَّه لم يمض على هذا النعيم زمنٌ طويل؛ حتى ثارت الفتنة من جديد ، وكان من ساهم في هذه الفتنة ولدُه الأوسط «شلبي علاء الدين» وغاب شمس الدين ثانية.

وقامتْ قيامةُ جلال الدين وجُنَّ جنونه ، وأقصى جلال الدين كلَّ من تسبب في إيذاء شمس الدين ، وطردهم من عنده؛ ولكنه شغل نفسه في هذه المرة

---

(١) معنى البيت بالعربية:

يا سروراً وسعادة إذا قدمت ، ويا حزناً وكساداً إذا غبت

بمجالس السماع ، وكان ذلك في سنة ٦٤٥ هـ.

وبَحَثَ جلال الدين عن شيخه في كل مكان ، ولما لم يجد له أثراً تغيرت حالته ، وأصبح لا يَصبِرُ عن مجالس السماع لحظة ، وكان يدور في مدرسته كالهائم ، ويَئِنُّ ويُرسل زفراته ، ويقول في الحنين إلى شيخه الشعر الرقيق ، وينظم القصائد الطوال ، وكان إذا حدّث أحدٌ بأنه رأى شيخه أو لقيه في مكان خلعَ عليه لباسه شُكراً.

وخَرَجَ جلالُ الدين إلى الشام ليبحث عن شمس الدين ، ورافَقَهُ أصحابُه، ووصل إلى دمشق وأشعل قلوب أهل دمشق حباً وغراماً ، وتعجَّب الناس وقالوا: من هذا الرجل الذي هام به نابغةُ عصره ونادرةُ زمانه هذا الهيام؟!.

ولمَّا لم يَـرَ للشمس عيناً ولا أثراً سكنت نفسه ، وقال: لا فرق بيني وبين شمس الدين ، إن كان هو شمساً فأنا ذَرَّةٌ ، وإن كان هو بحراً فأنا قطرةٌ ، ونورُ الذَّرةِ من الشمس ، وحياة القطرة من البحر ، ورَجع إلى «قونية».

وأقامَ في «قونية» بضعَ سنين ، وثار الحبُّ مرةً ثانيةً ، ورجع إلى دمشق مع جماعة من أصحابه ، ثم رجع إلى «قونية» مقتنعاً بأنَّه عين «الشمس» ، وقال: إنني لم أكن أبحث عن «شمس الدين» إنما كنت أبحث عن نفسي ، وإنَّ كل ما في «شمس الدين» هو في نفسي، وأصبح يشاهد في نفسه ما كان يشاهده في «شمس الدين».

واتخذ الشيخَ «صلاح الدين الدقاق» صاحب سِرِّه ، وخليفة له ، وجليسَه الخاص ، وصار لا يسكن إلا إليه ، وعاش صلاح الدين في هذه الحال عشرَ سنين ، وتوفي سنة ٦٥٧ هـ.

واتخذ جلال الدين «حسام الدين شلبي» جليساً له بعد صلاح الدين ، وكان السَّبب في تأليف «المثنوي» ، فقد سالتْ له قريحته بهذا الشعر الخالد ، ولما

تُوفيت زوجة حسام الدين الشلبي وتشاغل حسام الدين ، جمُدت قريحتُه وتوقفَ تأليف «المثنوي» .

وكان جلالُ الدين ـ كما وصفنا من حاله ـ لا يسكن ولا يرتاح إلا إلى صاحب موافق تنسجم نفسه مع نفسه ، وكان أستاذه السيد «بهاء الدين» أول صاحب له؛ فلما مات بقي الشيخُ خمسَ سنوات يشعُر بفراغ في نفسه وفي حياته ، وجاء «شمس الدين التبريزي» فملأ هذا الفراغ وزاد ، ولما غاب؛ شعرَ جلال الدين بفراغ هائل ، وبقي في قلق دائم حتى ملأه بِصلاح الدين «الدقاق» و«الشلبي حسام الدين» بعده؛ وكأنما كانت المواهب المُودَعة في ضميره وفطرته في حاجة إلى من يُثيرها ويحرِّكها ، ولم يكن تأليف «المثنوي» إلا استجابة روحية لهذا النداء الخفي.

ولمْ يكن اختيار جلال الدين لأصحابه وجلسائه كصلاح الدين وحسام الدين بفضل علمٍ وزهد أو كشف وكرامة ، وإنما كان لمجانسةٍ بين الأرواح والخواطر ، والنفوس والقلوب.

وقد ذكر أنَّ سبب إيثاره لصلاح الدين على غيره واستئثاره به مجانسة بينهما لا غير.

وقال: إنَّ الحبَّ الذي يقومِ على المجانسة لا يعقبه ندامة في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يتمنَّىٰ من لم يلاحظ هذه المجانسة ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٨] ؛ أما المحبُّون المتجانسون فلا فُرقة بينهم ولا عداوة ، ولا ندامة ولا ملامة ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

ويقول: «إنَّ هذه المجانسة هي التي خلقت الإيمان في الصحابة ، وجذبت النفوس إلى الرسول ، وإليها يرجع الفضل في إيمان كثير من السابقين الأولين ، لا إلى المعجزات ، فإنَّ المُجانس يجذب صفات المجانس ، وينصبغ بصبغته».

وفاتُـه:

شَهِـدَتْ «قونية» ـ بلد جلال الدين ـ زلزالاً سنة ٦٧٢هـ ، ودامتِ الرجفة أسبوعاً كاملاً ، وكان جلال الدين مريضاً رهين الفراش ، وزاره الناسُ وطلبوا منه الدعاء؛ فقال: «إن الأرض جائعةٌ تطلب لقمة دسمة ، وستنالها عن قريب ، ويرفع عنكم البلاء» وقال أبياتاً وقصائد يَحنُّ فيها إلى لقاء الحبيب ، ويستقبل الموتَ بنفس منشرحة وثغر باسم.

وعاده صديقُه «صدر الدين» فدعا له بالشفاء القريب؛ فاعتذر وقال: «هنَّأك الله بالشفاء وما يضرُّك إذا رُفع الحجاب بين الحبيب والحبيب»؟.

وقال وهو في سياقة الموت: «إن كُنت مؤمناً وحلواً طاب الموت ، وكان الموت مؤمناً ، وإن كنت كافراً ومرّاً ، كان موتاً كافراً ومراً».

ولم يزل مشغولاً ببيان الحقائق والمعارف؛ حتى فاضت روحه عند غروب الشمس ، لخمس خَلَوْنَ من جمادى الآخرة ، سنة ٦٧٢هـ.

ولمَّا خرجت جنازتُه ، ازدحم عليها أهلُ البلد ازدحاماً كبيراً ، وشيَّعها أتباعُ كل ديانـة وهم يبكون. وكان اليهـود والنصارى يَتلُـون التوراة والإنجيل ، وكان المسلمون يُنَـحُّونَهم فلا يَـتَـنَـحَّـوْن ، وبلغَ ذلك حاكـمَ البلـد، فقـال لقساوسَتِهم ورُهبانهم: مالكم ولهذا الأمر؟ وإنها لجنـازة عالمٍ مسلم ، فقالوا: «بـه عرفنـا حقيقة الأنبياء السابقين ، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين» وكانتِ الجنازة قد خرجتْ في الصباح الباكر ، ووصلتْ إلى مقبرة البلد عند المساء ، ودُفنت في الليل.

أخـلاقُـه وصِفَتُـه:

كان جلالُ الدين [١] شديدَ الرياضة والمجاهدة ، كثيرَ التَّعبد ، قال «سِبَهْ

(١) أكثر معلومات هذا الفصل مستفادة من كتاب «سوانح مولانا روم» باللغة الأردوية للعلامة المرحوم شبلي النعماني.

سالار» وقد كان صاحبه أعواماً طوالاً: «لم أره قَطُّ في لباس النوم، ولم أر عنده فراشاً ولا وسادة، فإذا غلبه النوم نام جالساً» ويقول في بيته: كيف ينام من يتقلَّب على حَسكِ السَّعْدان؟!.

وكان إذا حانت الصلاةُ توجَّه إلى القبلة وتغيَّر لونه.

وكان كثيرَ الاستغراق في الصلاة يقول «سبه سالار»: «رأيته مراراً دخل في الصلاة وقت العشاء، وقضىٰ الليلَ كُلَّه في رَكعةٍ».

وقد وصف جلالُ الدين صلاتَه في شعره وصْفَاً جميلاً بليغاً يَدُلُّ على أن صلاتَه صلاة محبٍّ مستغرقٍ هائمٍ، يغيب عن نفسه ويشتغلُ بربه؛ فلا يشعر بمكان ولا زمان، وإمامٍ وركوعٍ وسجودٍ، يسيل دموعاً ويذُوبُ محبة، ويحترق.

وقد بكىٰ مرَّة في الصلاة وابتلَّ الوجه واللِّحية بالدموع الغزار، وكان الزَّمن زمنَ شتاء، والبردُ في «قونية» شديد، فجمدتِ الدموعُ على الخدِّ واللحية وهو في صلاته.

وكان زاهداً متقلِّلاً قَنُوعَاً، يقسِّم كُلَّ ما يأتيه من هدايا الملوك والأمراء والأغنياء، وقد يكون في خصاصة، وكان يفرح إذا كان في فاقةٍ أو جوع، ويقول: «الآن أَشُمُّ رائحة التجرَّد والافتقار إلى اللهِ».

وكان عظيمَ السَّخاء، كثيرَ البذلِ والإيثار، إذا جاء سائلٌ وليس عنده شيء خلعَ له قميصَه أو عباءتَه، لذلك كان يلبس قميصاً ليسهل عليه خلعه، وكان عظيمَ الصبر والاحتمال.

مرَّ في طريقه بكلبٍ نائمٍ في عرض الطريق، فوقف ينتظر انتباهه، وكَره إزعاجه، ومرَّ به رجل يعرفه، فزجر الكلب وخلَّىٰ له الطريق، وكره ذلك جلال الدين، وقال: قد آذيتَه.

ومَرَّ برجلين يتَسابَّان، وقال أحدُهما للآخر: إنَّك إذا أسمعتني واحدة

أسمعتُك عشراً ، فقال: دونكما نفسي فإن أسمعتماني ألفاً لم أُسْمِعْكُمَا واحدةً، وخرَّ الرجلان على قدميه وتصالحا.

وكان حريصاً على كسب الحلال ، يكره البِطالة والرزق الذي يأتيه من غير شغلٍ ، وكانت له جِراية خمسةَ عشر دينارٍ من الأوقاف ، فكان يكتُب الفتاوىٰ مقابل ذلك ، حتىٰ يستحلَّ ويستحقَّ هذه الجراية ، وكان قد أوصىٰ تلاميذَه أن يُخبروه إذا جاء استفتاءٌ ، حتىٰ لا يتأخر عن إجابته. وكان محتجباً عن الناس ، زاهداً في لقاء الأمراء والسلاطين ، اعتذر إليه أميرٌ عن عدم الزيارة ، فقال: «لا داعي إلى الاعتذار ، فالغَيبة أحبُّ إليَّ من الحضور».

* * *

المحاضرة الخامسة عشرة:

مولانا جَلَال الدِّين الرُّوميّ
مفَكِّر مبتَكر ، ومؤسِّسُ علمِ كلامٍ جديد

«المَثْنَويُّ المعنوي» مَوضُوعه وأغراضُه:

تدلُّ ترجمة حياة «جلال الدين» على أنه كان قويَّ العاطفة ، وجدانياً ، مُلتَهِبَ الرُّوح وَلوعَ القلب ، صاحب استعداد كبير ومواهبَ عظيمة ، قد عُجنت طينتُه بالحبِّ ، وقد غطَّىٰ هذه الشرارة الانهماكُ في العلوم الظَّاهرة ، والاشتغالُ الزائد بالعقليات.

وجاء شمسُ الدين التبريزي ـ وهو شعلة حب ووجدان ـ فألهبَ هذه الشرارة الكامنة ، وأثارَ الطبيعة المطمورة في ركام البيئة والعادة ، والثقافة والتربية ، فإذا بجلال الدين عُودٌ مُلتهب ، ومَجْمَرة مشتعلة ، وعَينٌ بصيرةٌ مفتوحة ، ونفسٌ حسَّاسة تواقة ، قد اشتعلتْ حاسته الباطنة ، وارتفعتْ عن عينه الحُجُب، وانكشفتْ له الحقائق المستورةُ وراءَ الألفاظ، وانهالتْ عليه المعاني ، وتوارتْ على قلبه وضميره العلومُ الصحيحة؛ فأُترِعَتْ كأسه وفاضت ، وكلٌّ من كان هذا شأنُه يصعب عليه السكوت والهدوء ، ويَعِزُّ عليه ألا يجد أنيساً أو جليساً يرىٰ فيه صورة نفسه ، ويُفضي إليه بذات صدره ، ويشكو إليه آلامه وآماله ، ويَبُثُّ إليه أسرارَه وأفكاره.

وكلٌّ من كان هذا شأنه يُقبل على السماع يتسلَّىٰ به ، ويتغذَّىٰ ويتعالج به ويتداوىٰ ، وأقبلَ على الشعر ـ إن كان صاحب قريحة ـ يُعَبِّرُ به عن علومه الدقيقة ، وخواطِره الرقيقة ، ويُـخَفِّف به عن نفسه وبُرَحَـائِـه ، وغَـلبه الشِّعر والتغني ؛ فما يستطيع لـه دفعاً ، وأنشد معتذراً:

سَقَـوني وقالوا لا تُـغنِّ ولو سَـقَوا جِبـال سُـلَيْـمـىٰ مـا سُقِيْـتُ لَغَـنَّـتِ

واتَّجه هذا الشعر الفائض المرسل ؛ الذي هو فيض الخاطر ورَشْح القلب إلى الموضوع ؛ الذي يشغل الشاعر ، أو يَشغل العصر ، فتناوله واشتغل به .

واستخدم الشاعرُ رِقَّـةَ الشعر ولطف التعبير ، وحلاوة الجرْس وموسيقا الوزن والقوافي ، وفكاهة الأدب ؛ لتأديةِ فلسفته الدقيقة العميقة ، والمعاني اللطيفةِ الغامضة ، والمبادىءِ الرفيعة التي تَشْغَلُ فِكرَهُ وتجيش في خاطره ؛ فكان كلامه أوقَع في النفوس ، وأحلىٰ في القلوب ، وأسهل فهماً وأيسر تناولاً ، وأكثرَ نفوذاً وتغلغلاً في المجتمع والآداب .

وكذلك فعل الحكيم (السَّنائي) [١] في «الحديقة» و(فريد الدين العطَّار) [٢] في «منطق الطير» فكان لهما تأثيرٌ لم يكن لكتابِ فلسفةٍ جاف ، أو بحث علمي دقيق ؛ فكان هذان الكتابان السائران المقبولان في الأدب الفارسي ؛ بل الأدب الإسلامي ، حافِزَين لجلال الدين إلى تأليف «المثنوي» وقدوةً ومثالاً له ، كما حكاه صاحبُه حسام الدين الشَّلبي .

ولمَّا كان عِلْمُ الكلام هو الشغلَ الشاغل لعصر جلال الدين ، وأصبحت الحقائق من عقائدَ ومباحثَ إلٰهية وحقائق غيبية ؛ كالألوهية وصفاتها ، والنُّبوَّةِ وأحكامها ، والغيب والوحي ، والجنة والنار ، إلى غير ذلك أصبحت هذه الحقائق موضوع البحثِ والجدال ، وحديثَ النوادي والمجالس ، واتَّجهتِ

---

(١) هو أبو المجد ابن آدم السنائي الشاعر الصوفي المشهور كان معاصراً لبهرام شاه الغزنوي توفي سنة ٥٢٥هـ.

(٢) ولد سنة ٥١٣ وتوفي ٦٢٧هـ وكان معاصراً لخوارزم شاه.

النفوس إلى التشكك فيها أو نفيها ، وظهر في الأوساط العلمية الاضطرابُ في العقيدة ، كان ذلك موضوع «المثنوي» والقُطْبَ الذي يدور حوله .

لقد عاش جلال الدين في وَسَطِ الأشاعرة ومدرستهم الفكرية ، وكان قبل أن يُقابل شمس الدين أستاذاً كبيراً وعالماً جدلياً؛ ولكن بعد ما جذبته الجاذبة الربانية ، وانتقل من القِيل والقال ، إلى حقيقة الحال ، ومن الخَبَر إلى النَّظر ، ومن الألفاظ إلى المعاني ، وبَطل عنه سِحر المصطلحات والتعريفات التي يتبجَّح بها المنطق ، ووصلَ إلى لُبِّ اللباب وغاية ما في الباب؛ انكشفتْ له مواضعُ غلطهم في الاستدلال والقياس والاعتماد في تقريرها أو نفيها على العقل والحواس ، وعرف أنَّ بضاعَتَهُم مُزْجاةٌ في هذا الموضوع ، وَمِن هنا تناول علم الكلام والفلسفة بالنَّقد والتزييف .

نَقْدُه للاعتماد على الحَواسّ في تَقرير الحقائق الدينية:

لقد كان أكبرَ اعتماد الفلسفة والعقليات في هذا العصر على الحَواسِّ الظاهرة ، وقد كانتِ الحواس الخمسُ تُعْتَبَرُ الميزانَ الصحيح لثبوت «الحقائق» ، وكانت تُعتبر أوثقَ مصدر وأقواهُ لحصولِ العلم الصحيح واليقين ، وقد كان «المثقَّفون» ـ كما ذكرنا ـ يميلون إلى نَفْيِ كل ما لا يُدرك بالحواس الخمس ولا يأتي تحتَ الحِسِّ ، ويُسْرعون إلى إنكاره ، ويتحاشون تَقريره والاعتراف به ، وكانت هي النزعة السائدة في المدارس والمجالس .

وقد كان المعتزلةُ ـ ومن نحا نحوَهم ـ أكبرَ الدعاة إلى هذه الفكرة التي نُسميها «الحِسِّيَّة» وقد أضعفتْ هذه الفكرةُ الإيمانَ بالغيب، وضَعُفَتْ بتأثيرها الثقةُ بالحقائق الغيبية التي جاءت بها الشرائع ، وألَحَّتْ عليها الأديانُ السماوية .

وقد انتقدَ جلال الدين هذه النَّزعة وأنصارها في «مَثْنويه» بقوة وصراحة ، يقول في موضع :

إنَّ «الحِسِّيَّةِ» : (الاعتماد على الحواس في تقرير الحقائق الدينية) يتزعمها

المعتزلةُ ، وهم عبيد مسخَّرون لها ، ويزعمون أنَّهم من أهلِ السنة؛ ولكن أهل السنة لا يَتَقَيَّدون بهذه الحواس ، ولا يعكُفون عليها عبادةً وخضوعاً»[١].

إنَّه يُقَرِّرُ؛ أنَّ هناك حواسَّ باطنية وراء هذه الحواس الظاهرة ، كنسبةِ التراب والخزَف إلى الذهب الخالص والتِّبر المسبوك. ويقول: «إن الحَواسَّ الظاهرة تستمدُّ غِذاءها وقُوَّتها من النفوس والأشباح ، أما الحواسُّ الباطنية ، فإنها تستمدُّ غذاءها وقُوَّتها من النفوس والأرواح ، وإنَّ قُوتَ الأولىٰ الظلامُ الذي فُطِرتْ عليه الأجسام ، وقُوت الآخرة ـ الحواس الباطنة ـ النورُ الذي فُطِرتْ عليه الأرواح والقلوب»[٢].

إنَّه يُقرِّر أنَّه لا يكفي لنفي شيء أنه لا يُرىٰ بالأبصار ، ولا يُدرَك بالحواس. إن الباطن دائماً كامِنٌ وراء الظاهر ، ومُضْمَرٌ فيه ، كالفائدة في الدواء. يقول: «إن المُنْكِرَ يقولُ دائماً: إني لا أرىٰ إلا الظاهر ، والظاهرُ دائماً يُخْبِرُ بالحكم المُضْمَرَةِ ، ألا ترىٰ إلى الأدوية النافعة كيف كَمُنَ فيها فائدتُها وتأثيرها ؟»[٣].

يقول: «إنَّ الذين اعتمدوا على حواسِّهم الظاهرة واقتصروا عليها ، وأنكروا كل ما عداها، ضيَّعوا حواسَّهم الباطنة ، وفقدوا قُوَاهم ومواهبهم التي مَنحهُم الله إيَّاها وأصبحوا محجوبين عُمياناً ، لا يمشون إلا بعُكَّازة أو بقائد يَقُودهم ، وأصبح كثيرٌ من الحقائق والدقائق مستورةً عنهم»[٤].

وَظيفةُ العَقلِ وحُدوده:

إنَّه لا يَقتصِر ـ في نقده ـ على الحواس الظاهرة ، ولا يُقرِّر قصورها وعَجزها عنِ الوصول إلى الحقائق الغيبية فحسب ، بل يشرك معها العقل

(١) المثنوي: طبع لكهنؤ ص ١٠١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٨.
(٤) المصدر السابق: ص٢٣٢.

أيضاً ، ويقرر أنه عاجز عن الوصول إلى حقائق عالم الغيب ، وعلوم الأنبياء؛ لأنه لا يملك أساساً وقاعدةً للقياس في هذه المعلومات ، ولا عهدَ له بهذا العالَم الفسيح ـ عالَم الغيب وعالَم ما بعد الطبيعة فمثله كَمَثلِ رجلٍ وُلد وعاش في البحرِ المالح ، وليستْ عنده أية فكرة ولا تقدير للماء العَذْبِ الفُراتِ؛ يقول في تَهَكُّم: «يا من يعيش في البحر المالح ماذا تعرف عنِ الشَّطِّ وجَيحونَ والفُرات؟» [١].

إنَّـه يُسمِّي العقل الذي قيَّد نفسه بالمحسوسات والمقدمات المنطقية بـ: «العقل الجزئي المحدود؛ وهو عقلٌ ثَمَرتُهُ الأوهام والشكوك ، ووطنه عالمُ الظلمات ، إنه عقل كان عاراً للعقل ، وسُبَّةً للعاقلِ ، والجهلُ أفضل من هذا العقل ، ويُفضِّل أن يتحرَّر الإنسان من أسرِهِ ويُحكِّم عاطفته وقلبَه ولو سماه الناس مجنوناً» [٢].

ويقولُ: «لقد جَرَّبْتُ طويلاً هذا العقل المحدود الذي لا يُبصر إلا المحسوسَ ولا يَعقل إلا الظاهر ، الذي يُسميه الناس «العقل الحكيم البعيد النظر». ومَن جرَّب تجربتي ثارَ مثلي على هذا العقل، وفضَّل الانطلاق من قُيُوده والخروجَ من حدوده» [٣].

«ولو كان هذا العقلُ كافيـاً في معرفة الحقائق الدينية لكان فخرُ الدين الرازي ـ زعيم المتكلِّمين ـ أكبرَ العارفين، والغَوَّاصَ في أعماق الدين [٤]؛ ولكنَّ الأمر ليس كذلك ، فتفوُّقه في معرفة حقيقة الدين كان من تَشبُّعِه بالإيمان واليقين.

«أولئك أصحابُ محمد ﷺ أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقُهم علماً ، وأقلُّهم

---

(١) المثنوي: ص ٩٦١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٤٨٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٤٨٩.

تكلُّفاً» [١] ولم يقرؤوا كتابَ حكمة ، ولم يتلقَّوا درسَ فلسفة [٢] .

الاستدلالُ الفلسفي رِجلٌ خشبية:

إنَّه يعتقدُ أنَّ العلوم التي اصطنعها الإنسانُ والحكمة التي نُسِبت إلى اليونان ، لا تزيدُ الإنسانَ إلا بعداً عن الحقائق واشتغالاً عن الخالق ولا تُفيد إلا «الجهل المركَّب» ، وغروراً وصَلَفاً وإعجاباً بالنفس ، وإدلالاً بالألفاظ والقُشور؛ فمن كان حريصاً على سعادته فليَزْهد في هذه الفلسفة التي سماها الناس ـ عن جَهْلٍ ـ حكمةً؛ فإن كُلَّ فلسفة هي وليدة الخيال ولم تَتنوَّر بنور ذي الجلال ، تُولِّد الظَّنَّ والشك ، وتَحْجُبُ عن الرَّبِّ ، أما الحكمة التي تُتَلَقَّىٰ عن الأنبياء؛ فإنها هي الحكمة التي من أُوتِيَها فقد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً [٣] .

ويُقَرِّر أن الاستدلال المنطقيَّ والفَلسَفي ، وترتيبَ المقدمات والبراهين ، واستخراجَ النتائج طريقةٌ مصطنعةٌ لا تفي بكل غَرض ، ولا تُفيد في كل موضوع ، ولا تُساير كل سالك ، إنها أسلوب ضَيق محدود ، ومن اعتادها وتقيَّد بها وعاش عليها ، كان كمن كانت له رِجلٌ من خشب لا تمشي بحُرية ، ولا تنعطف بسهولة ، وقد ذهبَ قوله مثلاً «إن رِجْل أصحاب الاستدلال المنطقي مِنْ خشب ، وإن الرِّجْل الخشبية صُلبةٌ خشبيةٌ لا مُرونة فيها ولا تمكين» [٤] .

ويقولُ: «إنَّ كلام هؤلاء المقلِّدين ، الذين يُردِّدون دلائل الفلاسفة والمنطقيين كالببغاوات ، ويستدلون استدلالهم ، كلامٌ جافٌ ميِّتٌ لا روح فيه ولا حياة ، ولا تأثيرَ فيه ولا جمال؛ لأنه يصدُر عن قلبٍ

---

(١) جملة مأثورة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وصف بها الصحابة رضي الله عنهم [مشكاة المصابيح (١/ ٣٢)].

(٢) المثنوي: ص ٤٨٩ .

(٣) المصدر السابق: ص ١٧١ .

(٤) المصدر السابق: ص ٥٥ .

ميتٍ ، وكيف يُؤثِّر ويُثمر كلامٌ ميِّتٌ يَصْدُرُ عَنْ مَيِّتٍ [١]؟!».

العَقْلُ الإيمانيُّ:

ويعتقد جلالُ الدين أنَّ هنالك عقلاً إيمانياً ، هو نبراس ودليل العقل الجسماني ، وهو مرشد هذا العقل «الجزئي المحدود» وقائدُه ، ويرشدهُ ويبصره الطريق ، كما أنَّ هذا العقل «الجزئي المحدود» ـ مرشدُ الجسم وقائده ـ ، يقضي حاجاته ويخدُمه في أغراضه المادية ، ويَصحُّ أن يُسَمَّىٰ هذا العقل الإيماني «عقلَ العقلِ» لأن العقل يمشي بنُوره ويُبصر بعينه ، ولا يُرزقُ هذا العقل الإيماني إلا المؤمنُ [٢]؛ وإذا كان هذا العقلِ الجسمانيُّ قد سوَّد الأوراق [٣] ، فالعَقْلُ الإيماني قد نوَّر الآفاق ، وبزغَ نورُه على القلوب والأرواح [٤].

«إنَّ العقل الإيمانيَّ هو خفيرُ ركب الحياة ، وكصاحبِ شُرطة البلد ، يحكم بالعدل ويُقيم الموازين القسط ، ويَردعُ الظالمَ ويَنْصُرُ المظلوم ، ويحافظ على النظام ، ويَقهر النفسَ عن شهواتها الجامحة ، ونَزَوَاتها العاتية» [٥].

«أمَّا العقلُ الجسمانيُّ فإنه يُزيِّن الآثام ، ويُثَبِّطُ عن معالي الأمور ، ويَعِدُ صَاحبه الفقرَ ، ويُهوِّل له الأمر [٦] ، وإنَّ العقل الإيماني يَحُلُّ عُقَدَ العقل الجسماني ، ويُنْجده في المشاكل والأزمات ويَفتح له الأقفالَ المُعقَّدة ، ويُحَقِّقُ له ما أعياه أمرُه بكل سُهولةٍ وسرعةٍ» [٧].

«إنَّ الفلسفيَّ يتحدَّث عن «المعقولات» التافهة التي لا قيمةَ لها ،

---

(١) المثنوي: ص ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٦.
(٣) يشير إلى أنه كوَّن مكتبة ضخمة من الفلسفة والعلوم.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٤٦.
(٥) المصدر السابق: ص ٣٤٧.
(٦) المصدر السابق: ص ٣٤٧.
(٧) المصدر السابق: ص ٢٣.

لا يتجاوزها ولا يعرف غيرها ، لأنَّ عقله لم يخرجْ من الباب ، ولم يعرِف العالَم الفَسيح وما خَلقَ اللهُ فيه من عجائبَ وبدائعَ ، إنَّ عقله طفلٌ رضيعٌ لم يبلغ سنَّ الرُّشد وإن زَهْرَة فِكْرِهِ مكمومةٌ لم تتفتَّح»[(١)].

جَهلٌ للنَّفس وغَفلَةٌ عن غَايـة الحياة:

«إنَّ الفلسفيَّ إنما جنىٰ عليه عقلُه وفكره ، وهو ذلك المسافر الشَّقيُّ الذي ظَهْرُه إلى غايته؛ فَكُلَّما أمعن في السفر وجدَّ به السير ازداد بُعداً عن المنزل ، وحُرِم الوصول»[(٢)].

«إنَّ الفلسفيَّ قد أحاط بعلم الكائنات ، وجمعَ ثروة هائلة من المعلومات ، ولكنه لا يزال يَجْهَلُ نفسه ، إنه يعرف خاصِّيَّة كل «جوهر» و«عرَضٍ» ولكنه في معرفةِ نفسه وقيمتها أجهلُ وأضلُّ من حمار أهله. إنه يعرف قيمةَ كل شيء؛ ولكنه لا يعرف قيمة نفسه ، مع أن روح العِلم وجوهَرَ المعرفة ولُباب الحكمة أن يعرفَ الرَّجل قيمةَ نفسه وغايةَ خَلقه ، وموقفه من خالقه ومن هذا العالم ومصيره بعد الممات»[(٣)].

دَعـوَةٌ إلى الحِكمة الإيمانيـة:

وبَعد هذا النَّقد المرير والعِتاب الصريح ، يَدعو المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام دعوةً مخلصة إلى دراسة الحكمة الإيمانية والاستفادة منها ، يقول زاجراً ناصحاً: «إلى متىٰ العُكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية؟ دونكم الحكمة الإيمانية التي يَحويها كلام الأنبياء ، وتُوجَدُ عند خلفائهم والعلماء الربانيين ، فادرسوها وفكِّروا فيها»[(٤)].

---

(١) المثنوي: ص ٨٢.
(٢) المصدر السابق: ص ٥٤٤.
(٣) المصدر السابق: ص ٤٤٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٨٦.

ويقول: «إنَّ المعرفة الصحيحة لا تتأتَّىٰ إلا بتزكية النفس؛ فإذا تجَرَّد لَـوْحُ القلب عن نُقـوش العـلوم المرسومـة وصَفَـا ، تجـلَّت فيـه الحكمـةُ الإيمانية ، ووردتْ عليه علُومُ الأنبياء الصحيحة ، وجَرتْ على لسانه ينابيع الحكمة».

يقول: «جَرِّدْ نَفسَك من صفاتك حتىٰ تُشاهدَ نفسَك وحقيقتها ، إنك ترىٰ في قَلْبِكَ عُلُومَ الأنبياء من غير كتاب ومُعلم ومُعيد [1] ، فإن المرآة كُلَّما صَفَتْ تجلَّتْ فيها الأنوار ، وإذا تفتَّحتْ نافذةُ نفسك دخلَ منها النور الإلٰهي من غيرِ واسطة ومن غيرِ حجاب».

المبَاحثُ الكلاميـة وأسلُوب «المَثْـنَويّ» فيهـا:

ولم يَقْتَصِر جلالُ الدين على النَّقد الإجمالي للتفكير الفلسفي ومَنْهج علم الكلام وخُضوعه للظاهر ، ولم يقتصرْ على التَّنويه بالحواس الباطنة والاهتمام بالوجدان والروح؛ بل بَحث في المباحث الكلامية ومُعضلاتها بأسلوبٍ طريفٍ بديعٍ ، وعرَض مُهمَّات مسائلها عرضاً جميلاً يقبَلُه القلب، ويُسيغه الذوق السلِّيم ، ويَـعْتَـقِدُ السامع والقارىء أنَّها شيءٌ بَـدَهيٌّ ، وحقيقـةٌ من الحقائق المعلومة لا تعقُّـدَ فيها ولا غمـوض ، ولا جفافَ فيها ولا عُبوسَ؛ فالمسائل التي تَتعب فيها الفلسفة كأنما تصَّعَّد في السماء ،وتَقْبض على الهواء ، تتراءىٰ في شِعْره كالماء الزلال.

وهو لا يحرص ـ كالفلاسفة والمتكلِّمين ـ على أن يُعجز مخاطبه بالدلائل الطويلة العريضة ، والمقدمات المرصوفة المنسَّقة ، ويُفَخِّمُها ، بل يحرص على أن يَـقْبَلَها قَلْبُـه كأنه شيء محقق ، وكأنه يُـعَـبِّـرُ عن خواطره وأفكارهِ.

لذلك كان «المثنويُّ» العظيمُ مصدرَ إيمانٍ جديد وإذعان مزيد في كل عصر ، تَنشرح بقراءته الصدورُ الحرجة ، وتَطْمئِنُّ بدراسته العقول المضطربة ، ويَجِدُ فيه كثير من القراء حَلاً لمعضلاتهم ، وشفاءً لدائهم ، وهو من هذه

---

(١) المثنوي: ص ٨٦.

الناحية مؤسِّسُ علمٍ جديدٍ. وإذا كان لابدَّ من مصطلح الفلسفة فهو مؤسِّس فلسفة جديدة، وهو في ذلك إمامٌ مجتهد من أئمة الكلام، لا يُقلِّد ولا يتبعُ إلا القرآن الحكيم، ولا يستوحي إلا فطرته السليمة.

وُجود الفاطِر الحَكِيم ودلائِلِه:

فهو في إثبات وجود الله تعالىٰ مثلاً لا يَتَّبع الطرق الفلسفية والمناهج الكلامية المعروفة؛ بل يتَّبع القرآن الحكيم في الاستدلال بالمصنوع على الصانع، والمتحرِّك على المُحَرِّك، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة، ويُثيرُ في الإنسان الفطرةَ السليمة التي تأبىٰ وُجود مصنوع من غير صانع، ومُتحرِّك من غير مُحَرِّك، ومتأثِّر من غير مُؤثِّرٍ، ويقول في بساطةٍ وَثِقَةٍ:

«إنَّك ترىٰ قلماً كاتباً، واليَدُ التي تُحرِّكه من ورائه مَخْفيَّةٌ، وترى جواداً يَعدو، ولا ترىٰ فارساً، السَّهمُ يُصيبُ غرضه، والقوس غَائبةٌ عن العيون، النُّفوس موجودة وبارئها ومصدر وجُودها وحياتها مستورٌ، لا يُرىٰ بالأبصار [١]، ولكن أليس الحركة دليلاً على المحَرِّك؟ إذا سمعْتَ صريراً للهواء وخريراً للماء ألا تستدل بذلك على وُجود الهواء والماء؟ إذا رأيت هواءً يَـهُبُّ، والأوراق تَهفّ، والأغصان تَهْتَـزُّ، فاعلم يقيناً أنَّ هنالك من يُحرِّكُ الهواء، فإنَّ مع كل مُتحرِّك مُحرِّكاً [٢].

وإذا عجَزتَ أن ترىٰ المؤثر فإنك لا تعجز عن أن ترىٰ الآثار؛ فاستدلَّ بها على وجود المؤثر.

وإذا رأيت جسماً يتحرَّك ويعيشُ، فإنك ـ ولو لم تَـرَ الروح في حياتك ـ تُبرهن به على وُجُود الروح التي هي مصدر الحركة والحياة في الجسم [٣]،

(١) المثنوي: ص ٣٠٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٥.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٥.

وهل لوجُود الشمس دليلٌ أكبر وأقوىٰ من نورها الساطع وضيائها الباهر ؟» [١].

وليس هذا الكونُ موجوداً فحسب؛ بل هو في غاية النظام والانتظام ، كل شيء فيه في مَحلِّه اللائق ، وكل شيء خُلق بقدر ، ولكل شيء نظام مرسوم لا يتجاوزه ولا يخالفه؛ فالكواكب لها نظام ، والشمس والقمر لهما نظام ، وليس الهواء والسحاب كالفيل الهائج والناقة العشواء لانظامَ لهما ولا قيدَ؛ بل كلٌّ خاضع لنظام ، خاضع للأحكام ، فلا تمرُّد ولا عصيان ، ولا فوضىٰ ولا طغيان، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ، ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يقول: «إن فاتك أن ترىٰ الأمرَ الإلٰهي والتدبير السماوي بعينيك ، فانظر في نظام الكون؛ فالشمسُ والقمرُ نوران مسخرانِ يدورانِ ولا يتوقَّفان ، ويُطيعان ولا يعصيان ، والكواكبُ لها دوائر مخصوصة ومجالاتٌ مرسومة ، والسحابُ له سَوْطٌ من نار ، يُنظِّم سيرهُ ويأمره وينهاه ، يأمُره بأن يَسقي الوادي الفلاني ، وَيَتركَ الوادي الفلاني ، وَيُنبِّهه إذا غفا» [٢].

غايـةُ الخَـلق:

ثم يُقرِّر أنَّ الله لم يخلق هذا الكون ، ولم يخلق هذا الخلق لفائدة تعود عليه؛ إنما خَلَقه لفائدة الإنسان نفسه ، ولِيَبْلُغَ كماله المطلوب ، ويَستخدِم قواه ويستعملَ مواهبه ، يقول:

قال الأنبياءُ: إنَّ اللهَ يقول: غايتي في الخَلقِ الإحسانُ إليهم والمَنُّ عليهم ، إنَّما خَلَقْتُهُم لِيَـنْـتَفِعُوا بي وينتفعوا بخيراتي ونِعمتي ، لم أَخْلُقْهم لأنتفعَ بهم

(١) المثنوي: ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١٣.

وأقضيَ بهم حاجة لنفسي ، إنما خلقتُهم إفاضةً للوجود ، وإظهاراً للسخاءِ والجود» (١).

النُّبوّة والأنبياء:

إنه يَدَعُ الأنبياء ـ عليهم صلوات اللهِ وسلامه ـ يُعرِّفون نفوسهم بأنفسهم ، يقول على لسانهم «نحنُ أطباء الروح ، تلاميذُ الرحمن ، انفلقتْ لنا البحار ، وتفجَّرت لنا العُيُون من الأحجار ، إنَّ أطباء الجسم يَجُسُّون النَّبضَ ، ويتعرَّفون المرض ، ولكننا ننظر بنور الله ، ونتكلَّم بوحي الله ، أولئك أطباء الغذاء والثمار ، يعرفون منافع الأغذية والأدوية ومضارَّها وتأثيرها في جسم الإنسان ، أما نحنُ فأطباءُ الأقوال والأفعال ، والعقائد والأخلاق ، نُخبر الخلق بعواقب الأعمال والأخلاق وتأثيرها في الحياة ونتيجتها بعد الممات ، ونقول: إذا عملتَ كذا سَعدتَ ونَجوتَ ، وإذا عملت كذا شَقيتَ وهَلَكْتَ ، وإن الخُلق الفلاني دواءٌ نافع ، وإنَّ الخلُق الفلاني سُمٌّ ناقع ، إن العقيدة الفلانية مُسعِدة مُنجية ، وإن العقيدة الفلانية مُهلكة مُرديةٌ ، إن دليلَ أطباء الجسم الرائحةُ واللونُ والطعمُ ، أما دليلنا فكلام الله وأعلامُه وإلهامُه» (٢).

النَّبيُّ مُعجِزَةٌ كامِلَةٌ وبُرهانٌ على نبُوَّته:

ولا يستدلُّ جلال الدين على صدقِ نبوَّة الأنبياء بالدلائل الخارجية والمعجزات والبراهين الكلامية ؛ إنَّه يقول:

«إنَّ كلَّ شيء في النبي ﷺ يَدل على أنه نبيٌّ مرسلٌ من اللهِ ، إنه يكون في سيرته وخلقه وشمائله ومخايله معجزةً كاملةً وبُرهاناً صادقاً على نبوته ؛ ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام ـ عالِم اليهود ـ على وجه الرسول هتف قائلاً: «واللهِ ليسَ هذا بوجْهِ كذَّاب» .

---

(١) المثنوي: ص ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٠ .

«إنَّ كل من رُزق العقل السليم والطبع المستقيم شعر بالإعجاز في صوت النبي ووجهه ، ولم يحتجْ بعد ذلك إلى دليل وبرهان» .

بَين النَّبيِّ ﷺ وضميرِ الأمَّة مناسَبة وصلةٌ:

ثم يُقرِّر أنَّ بين النبي ﷺ وضمير أمته مناسبةٌ خفيةٌ وصلةٌ روحيةٌ؛ فلا يتكلم النبيُّ بشيء إلا وأسرع ضميرُ المستمعين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويطرب؛ لأنه صوتٌ بريء لا يتطرَّق إليه الشك ، وصوتٌ غريب لم يطرُق الآذان من قبلُ ، وليس بينه وبين أصوات الخلق وما أَلِفَهُ العالم من أدبٍ وفلسفة وعلم مُشابَهةٌ يقول:

«إذا رفعَ النبيُّ صوته بالأذان ودعا إلى اللهِ سجدتْ له أرواحُ أمته وطَرِبَتْ؛ لأن هذا النداء لم تسمَعْهُ الآذان من قبل؛ فلا يعلو هذا الصوتُ الغريب إلا وأسرعَ السعداءُ إلى إجابته قائلين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] »[١] .

ويقول: «إنَّ المؤمن ليسَ بحاجة إلى دليل خارجي على صِدق النبي إذا كان صحيحَ المزاج مُستقيم الطبع؛ إنَّ دليله في نفسِ المستمع ، وعلى ذلك يقوم نظام الحياة .

فهل إذا دعوتَ عطشانَ إلى الماء وقلتَ له إنَّ في هذا القدح ماءً ، هل يقول لك: أين الدليل؟ وكيف أُؤمن بدعوتك وأصدق كلامك؟

وهل إذا دَعتِ الأمُّ الحنون طفلَها الرَّضيع ليرتضع من ثديها ، قال الطفل: هاتي الدليل يا أمي حتىٰ أروي نفسي وأشبعها؟ إنَّ وجود العطش في نفس العطشان وَوجُود الجوع في الرضيع ، ووجود الإخلاص في الداعي لكفيلٌ بالتصديق مُغْنٍ عن كلِّ دليلٍ»[٢] .

---

(١) المثنوي: ص١٨٠ .
(٢) المصدر السابق: ص١٨٠ .

ويَعتقِد مولانا جلال الدين: أنَّ المعجزات لا تُوجب الإيمان؟ لأنها لقَهر العدو وإسكات الخصم وإعجاز العنيد.

إنَّ الذي يُولِّد الإيمان في القلب ويُخْضِع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية، إنَّ المعجزة تَقْهَرُ، والمقهُور لا ينشرح صدره، ولا يَتَفتَّحُ قلبه»[١].

ويَذْكُرُ من صفات الأنبياء وخصائصهم الأنفة والإباء والغيرة، فلا بدَّ للاستفادة منهم من الخضوع والأدب والتذلُّل، يُريدون حسن الاستماع وتمام الالتفات، فيهم عِزة الملوك وإباؤُهم وكبرياؤهم، شأنُهم أن يتكلَّموا ويستمع الجميع، ويأمروا ويُطيعَ الجميع، فمن أخلَّ بالأدبِ معهم حُرم الاستفادة منهم، وشَقي»[٢].

وقال: «كيف تستغرب هذا الخضوع لهم والأدب معهم وقد جاؤوا من محل رفيع، وحملوا رسالةً من العليِّ الكبير؟»[٣].

الحِكمة في المعَاد وحَشْرِ الأجساد:

أمَّا المعاد وحشرُ الأجساد، فإنَّ جلال الدين ينظر إليه بغير النظر الذي ينظر به إليه عامة الناس، إنه ليس متشائماً ينظر إلى الموت بالمنظار الأسود، إنه لا يعتبرهُ نهايةً لحياة سعيدة ثمينة عزيزة؛ بل بالعكس من ذلك، يعتبرُه مقدِّمة لحياةٍ خالدةٍ باقيةٍ، وعيشةٍ سعيدةٍ راضيةٍ، ومقدِّمةٍ لرقيٍّ دائمٍ وازدهارٍ مستمرٍّ، إنَّ العمران لا يكون إلا بعد الخراب، وإنَّ الرِّكاز أو الكنز الثمين لا يُعثر عليه ولا يُستخرج إلا بعد حفر الأرض وإثارتها، فإذا رأيتَ بيتاً يُهدم ويخرب، فاعلم أنَّ هناك تصميماً جديداً وبناءً جديداً، كذلك الملك

(١) المثنوي: ص ٥١٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٢١٧.
(٣) المصدر السابق: ص ١١٢.

يخرب الأجسام ليعمرها ويَبنيها بناءً جديداً ، إنما يُخرب البيت ليستَخرج منه الكنز الدَّفين ، ويُعمر عمارةً جديدة»[١].

إنَّ الشجرة لا تُعطي الأثمار حتىٰ تتفَتَّح وتَسقطَ الأزهار ، كذلك الروح لا تقوىٰ ولا تجدُّ ولا تَلبِسَ كِسوة جديدة قشيبة حتىٰ يتهدَّم الجسم الفاني ، ويَخلع العُمُرَ البالي[٢].

إنَّ الله ـ وهو الجواد المطلق ـ لا يسلبُ نعمة أنعم بها إلا ويُعطي نِعمةً أكبرَ منها؛ فلا يَسلبُ هذه الحياة الضعيفة السقيمة ، التي لا تَستحقُّ أن تُسمَّىٰ الحياة الباقية ، إلا ويعطي حياةً أوسع منها وأبقىٰ؛ وأجملَ وأفضل؛ فمن رأىٰ هذا الملك الكريم يقتل أحداً من مُقَرَّبيه ، فليعلم أنه يَخْلَعُ عليه خِلَعاً سنية ، ويُعطيه ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطر على قلب بشرٍ»[٣].

ويقولُ في شرح وتفصيل: «إنَّ كُلَّ بناء يسبِقُه خَراب وكل إثبات يسبقه مَحْو؛ إن الكاتب إذا أراد أن يكتبَ على لوحٍ محا النقوش السابقة والكتابات الماضية ، وإذا أراد الإنسان أن يستخرج الماءَ أثار الأرض وحفرها ، إذا أراد الزارعُ أن يزرع اختار للفلاحة أرضاً لا زَرْعَ فيها ولا نبات ، وكلما كان الفناء أتمَّ ، والمحوُ أقوىٰ؛ كان الإثبات أكثرَ وأبقىٰ».

ويقولُ في بلاغةٍ وحكمةٍ: «إنَّ الفقرَ التام أجلبُ لصفة الجود ، إن الأغنياء والأسخياء؛ تَرِقُّ قلوبهم ، ويجيش جُودهم على الفقراء الذين لا يملكون شيئاً».

لا داعيَ إلى الإشفاق من الموت:

ويقولُ: «لماذا هذا الإشفاقُ من الموت؟ ولماذا هذا الفِرارُ من الأجل؟ إنك

(١) المثنوي: ص ٢٧١.
(٢) المصدر السابق: ص٤٧.
(٣) المصدر السابق: ص١٠.

لم تزلْ في انتقالٍ من مرحلةٍ إلى مرحلة ، ومن عَدَم إلى وجود ، ثم من وُجُود إلى عدم ، ولم تزل تخلع لباساً وتلبس لباساً حتىٰ وصلت من العناصر الأربعة إلى القالب الإنساني؛ فإذا تَشَبَّثْتَ بحالة وعضَضْتَ عليها بالنواجذ ، وأصررْتَ على أن تبقىٰ فيها ، وأبيتَ الانتقال منها إلى حالة أخرىٰ ، بَقِيْتَ على بدايَتك ، ولم تصل إلى أوج الإنسانية وقِمة الكمالات العلمية والروحانية. إنك لم تَنَل البقاء إلا عن طريق الفَناء؛ فلماذا تَفِرُّ يا هذا من الفناء الجديد الذي هو مُقدّمة للبقاء الجديد المزيد ، ولماذا تتشبَّثُ بهذه الحياة وتلتصق بها ، مع أنها تخلفُ حياة لا زوالِ لها ولا خوفَ فيها ولا حزن؟!»[1].

ويقول: «تحقَّقتُ أن الموت كائن في هذه الحياة ، فإذا فارق الإنسان هذه الحياة نالَ الحياة الخالدة التي لا موت فيها»[2].

ويقولُ: «إنَّ هنالك فرقاً بين مَوْتٍ وموت؛ فالعارفون لا يُقاس موتهم على موت الجُهلاء والعامة ، إن العارفين لا يتوجعون ولا يحزنون لمفارقتهم هذه الدنيا الفانية ، ويستقبلون الموت مسرورين فرحين ، إنَّ الموت في حقهم نفحةُ حياة ، ورسالة فوز ونجاة ، لقد كانت الريح التي أرسلها الله على أمةِ هودٍ لفحةً وجحيماً على الكافرين ، ونفحةً ونعيماً على المؤمنين ، كذلك الموتُ للكفار سموم وبلاء ، وحرمان وشقاء ، وللمؤمنين نَسيم عليل ، وهَواء بليل ، وكوثر وسَلسبيل»[3].

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤] .

---

(١) المثنوي: ص٤١٠.
(٢) المصدر السابق: ص٢٧٦.
(٣) المصدر السابق: ص٢٥.

الجَبْر والاختيار:

إنَّ الجبر والاختيار من المسائل المُهمَّة العويصة التي شغلت حيزاً كبيراً من كُتب علم الكلام ، وذهبتْ فرقة إلى نفي الاختيار المطلق وإثبات الجبْر المحض ، وسُمِّيت في تاريخ الملل والنحل بالجَبرية ، يردُّ عليها جلالُ الدين رداً واضحاً معقولاً ، يقول:

«لو كان الجَبْرُ ، لما توجَّه الأمر والنهي إلى الإنسان ، وما كُلف الإنسان بالشرائع والأحكام ، فهل سُمع إنسانٌ يأمرُ حَجَراً وينهاه» ويقول: «إن القرآن كلُّه أمرٌ ونهيٌ ووعيدٌ ، ولم نسمع عاقلاً يأمر الرُّخام أو يَنهى الحديد» [١].

عَقيدةُ الاختيار في الإنسان والحَيوان:

يقولُ: «إنَّ الإنسان مفطورٌ على عقيدة الاختيار ، وهو يمثل هذه العقيدة ويطبقها في حياته اليومية ، ويُقرر بعمله وسلوكه الاختيار ، ويُنكر الجبر ، فلا يعاقب الجماد ، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح ، مهما لحِقه الأذى والعنتُ من هذه الأشياء.

ويتساءلُ: إذا سقط عليك جَذع من السقف وجرحَك جُرحاً شديداً وأدماك ، فهل يثور غضبك على هذا الجذع؟ وإذا عاتَبْتَه ، وقلت له: لماذا كسرت يدي أو أدميتَ رأسي؟

كذلك إذا جاء سَيلٌ أو فيضان وفاض بأثاثِك ومتاعك ، أو هاجتِ الريح وطارت بعمامتك ، اشتعلتَ غضباً على السَّيل أو الريح ، وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب؟!».

أمَّا إذا تعرَّضَ إنسانٌ لإهانتك أو هتْكِ عرضك ، ثُرْتَ عليه ، وعاقبته عقاباً شديداً ، فدلَّ ذلك على أنك تُميز بين المجبور والمختار ، وتعتقدُ أن الإنسان

---

(١) المثنوي: ص٤٦١ ـ ٤٧٢.

صاحبُ اختيار وإرادة، فتحاسبُه وتعاتِبُه وتعاقبه وتشكوه وتَلُمْه ولا تقبل لهُ عذراً؛ لأنه مخيَّر ليس مجبوراً»[1].

ولا يَقْتَصِرُ جلال الدين على ذلك؛ بل يقرِّر أنَّ الحيوان يعرف ذلك، ويُميز بين المجبور والمختار، وتهديه إلى ذلك فطرته، فإذا ضربتَ كلباً بحجر هجم عليك وأراد أن يَعضَّك، ولم يُقبل إلى الحجر وينتقم منه، كذلك إذا ضرب السائق بعيراً هاج البعير، ولم يثر على الهراوة التي ضُرب بها، إنما يثور على الجمَّال المُسرف في ضَرْبه، فعارٌ عليك أيها الإنسان العاقل أن تَنْسُب الجبر إلى الإنسان، ويَفوقك الحيوانُ غيرُ العاقل في فَهمِ هذه الحقيقة وإدراكها»[2].

ويقولُ: «إنَّ الإنسانَ لا يَجهلُ هذه الحقيقة؛ لكنه يتعامى عنها لأجل مَصلحته وهواه وشَهوته، شأنَ الصائم الذي يتحقَّق طلوع الصبح الصادق؛ لكنه يصرف وجهَه عن النُّور ويُغلق عليه الباب فيستمر في التَّسحُّر والأكل والشُّرب»[3].

العلّة والمَعلول:

وَقَعتْ فرقٌ إسلاميةٌ في مسألة الأسباب والعلل في إفراط وتفريط، فمذهبُ الحكماء أن العالم خاضعٌ خضوعاً تاماً لسلسلة العِلة والمعلول، والمعلولُ لا يتخلَّف أبداً عن العلة، والمسبَّب لا ينفكُّ حيناً عن السَّبب.

ويميلُ المعتزلةُ إلى هذا الرأي فإذا قرروا عِلَّة لشيء، أو اعتقدوا خاصيَّة وتأثيراً في شيء، رأوا ذلك ضربَة لازب لا يقعُ خلافه إلا في نادر النادر، ولذلك تراهم يستبعدون وقوعَ شيء خلاف خاصته، ووقوع حادثة من غير سبب، ويجتهدون في تعليل ما ثبت في القرآن والحديث، وتواتَر نقلُه من المعجزات والخوارق، وردها إلى الأسباب العادية والعِلَل الطبيعية، فإذا

(١) المثنوي: ص٤٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص٤٦٣.
(٣) المصدر السابق: ٤٢٧.

أخفقوا في ذلك ـ وهو نادرٌ جدّاً ـ اعترفوا بالمُعجزة مضطرين.

والأشاعرةُ بالعكس من ذلك على طرف آخر، فيُقرِّرون أنه لا شيء علّةٌ لشيء آخر، ولا خاصَّة في شيء ولا تأثيرَ، وقد أضرَّ هذا التطرُّف أيضاً وأحدث فوضى، واستطاع كلُّ أحد أن يقول ما شاء ويُنكر ما شاء، وتطرَّق كثير من الناس من هذا إلى إنكار الأسباب ورفضها، والتعطُّل والبطالة.

الأسبابُ حَقيقةٌ، ولكنَّ خالقها لم يُعزل ولم يُعطَّل:

والشيخ جلال الدين مذهبه وسَطٌ بين الطرفين؛ فهو يقرِّر أنَّ الأسباب حقيقةٌ، وأنَّ العِلَل والمعلولات والأسباب والمسببات مربوطة بعضُها ببعض، ليس من الإنصاف ولا من المعقول إنكارُها، ولا يمكن ذلك، وسنةُ الله السائرة أن يُخضع المُسببات لأسبابها، ويُظهر من الأشياء خواصَّها؛ ولكنَّ خرق العادة ممكنٌ وواقعٌ؛ فإنَّ الذي خَلق الأسباب وبرأ العلل لم يُعزَل ـ بعدَ خَلْقه الأسبابَ ـ من قُدرته وفعلِه، إنه لا يزال رَبَّ الأسباب والقادر المطلق. فإذا شاء ترك المسبّبات مرتبطة بأسبابها، خاضعةً لنواميسها وعِلَلها، وذلك هو الغالب الأكثر، وإذا شاء جرَّدها من أسبابها وخَلَقها من غير سببٍ أو خلافَ سَببٍ، وهذا هو الخارق للعادة. يقول:

«إنَّ عامة الأحوال والحوادث على السُّنة الإلٰهية الجارية؛ يَخرقُ هذه العادة ويخالف هذه السُّنة بقدرته ومشيئته أحياناً لأنبيائه وأوليائه، فإذا رأينا الأسباب مؤثرة عاملة في غالب الأحوال، فلا ينبغي لنا أن نعتقدَ أنَّ القُدرة الإلٰهية عاجزة مشلولة، وأن الإرادةَ الإلٰهيةَ معطَّلةٌ معزولةٌ، لا نستطيع عزل المسببات عن أسبابها، وفكَّ المعلولات عن عِلَلِها» [1].

الأسبابُ الباطنة وسَبَب الأسباب:

وليست الأسبابُ مقصورةً على ما عرفناه وجرَّبناه، وعلى ما نشاهده ونعرفه،

---

(١) المثنوي: ص ٤٢٧.

بل هنالك أسباب خفية مستورة عن عيوننا ، وهذه الأسباب الباطنة سَبَبٌ ومحرك للأسباب الظاهرة ، كما أن هذه الأسباب الظاهرة سَبَبٌ ومحرك لمسبّباتها تحرك هذه الأسباب الظاهرة؛ ولكن كثيراً مايجهل السببُ الباطن ، فيلاحظ مثلاً إذا قُدح الزّند بالزند اشتعلت النار؛ فيدرك أن القَدْح سببٌ للشُّعلة؛ ولكن لا يعرف السَّبب الباطن[1] .

وسببُ الأسباب الذي تنتهي إليه ، والسبَبُ الحقيقي الأصيل ، هو الأمر الإلٰهي والإرادة الإلٰهية التي هي فوقَ كل سبب ، وأصلُ كلِّ حادث، ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] .

والأنبياء يعرفون الأسبابَ الباطنة ، ويَروْنَها كما نعرف الأسباب الظاهرة ونراها ، ثم هم يؤمنون بأن السبب الحقيقي الذي تنتهي إليه جميع الأسباب والعلل ، والذي هو مصدر كل حادث وعلم إنما هي الإرادة الإلٰهية .

إنَّهم يشاهدون هذه الإرادة الإلٰهية تتصرف في الكائنات ، وتتحكَّم في هذا العالم ، وتعلو كل إرادة وكل قانون ، وهي التي يخضع لها نظام الكون ، وهي التي تخلق في الأشياء خاصيَّتها ، ثم تُجرِّدها منها إذا شاءت ، وتُغير طبائع الأشياء وفطرها ، فتجعل من النار برداً وسلاماً.

ويرون الأسبابَ الظاهرة ضعيفة حقيرة تافهة أمام الأسباب الباطنة ، ثم يَرون الأسباب الباطنة ضعيفة حقيرة تافهة أمام السبب الحقيقي «المشيئة الإلٰهية» ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

وَثَنيَّةُ الأسباب ومحاربةُ الأنبياء لها:

ويُبالِغُ الناسُ قصيرو النظر ـ بتأثير الجاهلية والمادية ـ في تقديس

(١) المثنوي: ص٢٥.

الأسباب ، والإيمان بقوتها وتأثيرها ، والتمسُّكِ بها ، والعُكوف عليها ، ويتخذون الأسباب أرباباً من دون الله ، ويتغافلون عن سبب الأسباب ورب الأرباب ، ويعكفُون على عبادة الظواهر والمظاهر .

هنالك يقوم الأنبياءُ يحاربون هذه الوثنية ـ وثنية الأسباب ـ ويَدْعون الناس من الأسباب إلى المسبِّب ، ويُجري الله على أيديهم ـ تنبيهاً وتعليماً ـ حوادث تنتقض بها قوانين الطبيعة ، ويظهر بها ضعفُ الأسباب وعجزها ، وتتجلّى بها قدرة الله المطلقة ، وإرادتُه الحرة ، ومشيئته القاهرة ، وأنه يملك زمام الكون ، وبيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ ، وهو قادر على كل شيء غيرُ مفتقر إلى الأسباب وغيرُ متقيدٍ بها ، فتنفلق لهمُ البحار ، وتتفجَّر لهم الأنهار من غير الأسباب العادية ، وتنشأ لهم الزروع والحقول من غير زراعة ، ويتحوَّل الرملُ دقيقاً ، والصوف حريراً ، وتنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، ويملكُ الفقيرُ الضعيفُ ، ويَهلكُ الغنيُّ القويُّ .

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨] .

لا رَهبانية ولا بطالة:

ولكنَّه لا يغلو في ذلك غُلوَّ كثير من المتصوِّفة ، وغُلوَّ الأشاعرة ؛ فينكر وجود الأسباب ويدعو إلى رفضها والتجرُّد منها ، والتوكل المفضي إلى البطالة والتعطل والرهبانية ؛ بل يقول :

«إنَّ السُّنة الجارية والعادة الغالبة ، هي وجود المسبب من السبب حتى

يَعرف الطالب أهمية السعي والجهاد ، ويأتي البيوت من أبوابها ، ويَطلب الأشياء من معدنها»[(١)].

بل هو يُحارِب البطالة والتعطُّل والرهبانية والتوكُّل السلبي الذي لجأ إليه العاجزون في القرون الأخيرة ، ويدعو دعوة قوية إلى الكَدْح والجهاد ، والأخذ بأسباب المعاش ، ويدعو إلى الحياة الاجتماعية؛ يقول:

«لو لم تكن الحياة الاجتماعية مطلوبة ومفضلة في الإسلام ، لم يكن الأمر بالجُمعة والجماعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٢)].

وكان التوكُّلُ الإسلاميُّ الممدوح عنده هو الاستعداد والأخذ بالاحتياط اللازم، ثم التوكل على الله ، وتفسير قول الرسول ﷺ : «اعقِلها وتوكَّلْ على الله»[(٣)].

دَعوةٌ إلى الكَدْح والجِهاد:

يَحث جلال الدين على الكَسْب والجهد ، وقد ذَكَر مناظرة بين الحيوانات في موضوع التوكل والعمل ، فذكر خير دلائل وجوب العمل والسَّعي على لسان الأسد ، زعيم العاملين المجاهدين في الحيوانات ، فقال:

«إنَّ الله وهَب الإنسان الأعضاء ، والجوارح ، ومواهب وطاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعي والجهد ، كما إذا منح سيدٌ عبدَه فأساً أو مِعولاً ، فالظاهر أنه يريد أن يحفر الأرض أو يشق صخرة ، نَطَق بذلك أو لم ينطق ، كذلك لما أعطانا الله هذه الأيدي العاملة ، والسواعد القوية ، والأقدام السائرة ، والطاقات الغنية؛ فإنه يريد منا ـ بداهة ـ أن نشتغل ونستخدم قُوانا ،

---

(١) المثنوي: ص٤٢.

(٢) المصدر السابق: ص٥٠٣.

(٣) [أخرجه الترمذي بمعناه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في أبواب صفة القيامة ، باب حديث اعقلها وتوكل . . . ، برقم (٢٥١٧) ، وابن حبان في الصحيح من حديث جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه (٢/ ٥١٠) برقم (٧٣١)].

ونكدح في الحياة ونجاهد فيها ، ونكسَب رِزْقَنا بقُوَّة اليمين ، وعرقِ الجبين؛ فالتوكل الصحيح ألا نُقصر في جهدنا ، ثم نعتمد في نتيجة السعي على الله تعالى ، فالسعيُ شكر لنعمة القدرة ، والجَبْـرُ كُفران لهذه النعمة . والله يقول :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

فاكسَبْ وصُبَّ عَرقَ الجبين ، ثم توكَّل على الرَّزَّاق ذي القوة المتين» [١] .

لقد شاعَ في الناس أنَّ التصوُّف مرادفٌ للبطالة والاستسلام للأوضاع الفاسدة والحكومات الجائرة ، وأن لا شأن له بالجهاد في سبيل الله والكفاح لإعلاءِ كلمة الله [٢] .

وكان آخر ما يتوقَّعه المُعجبون بشعر الرُّومي أن يُشيد بشأن الجهاد في الإسلام وأن يتحدَّث عنه في إيمان وحماس ، ولكننا نقرأ في شعره الرنَّان وفي حديث الحب والحنان ، أبياتاً خلاصتها «أنَّ المصلحة في دين عيسى المغارة وقُلَّة الجبل ، والمصلحة في ديننا الحرب(في سبيل الله) والشَّوكة لدين الله ، ولما كان الرسول نبياً بُعث مع السيف المسلول ، نَهض من أمته الأبطالُ والفحول» .

ما هِيَ الدُّنيا المَذمُومة ؟

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك : بل يزيد عليه ويقول على لسان الأسد : «إن السعي والكسب سُنة الأنبياء والمرسلين ، وإنَّ الدنيا ليست الذهبَ والفضةَ ، والأهلَ والأولادَ ـ كما يعتقد بعضُ غلاة الصوفية ـ إنَّ الدنيا المذمومة

(١) المثنوي : ص٢٧ .

(٢) وقد تناول المؤلف موضوعَ نفي هذه الشائعة في ضوء التاريخ في كتابه «ربانية لارهبانية» طُبع في دار ابن كثير بدمشق .

الغفلةُ عن الله ، أما قال الرسول ﷺ : «نعم المالُ الصَّالحُ للمَرْءِ الصالح»[١].

إنَّ تَعطُّل الصالحين مَهدٌ لِسيادة الفُسَّاق والظالمين:

بل إنَّه يُقرر ، أنَّ تَعَطُّلَ الصالحين وقعودهم عن الجهاد ، وتوكُّلَهم العجميَّ الذي لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفُسَّاق والظالمين وحكومة السفهاء والجاهلين ، الذين سفكوا دماء الأبرياء ، وقتلوا العلماء والصلحاء ، وجاروا في الحكم ، وخانوا في أموال الناس[٢]، وتسلَّط في عهدهم الحمقى ، وتوارى الحكماءُ والعقلاء ، ووُسِّدَ الأمر إلى غير أهلِه»[٣].

* * *

(١) المثنوي : ص٣٨.

(٢) المصدر السابق : ص١٣١ .

(٣) المصدر السابق : ص٣٣٥.

المحاضرة السادسة عشرة:

مَولانا جَلال الدّين الرُّومي داع إلى الحب والعاطفة ، واحترام الإنسان والإنسانية

عصرُ الرومي:

قد هَبّتْ عاصفةٌ عقليّةٌ جامحة في القرن السابع ، بعثَها عِلْمُ الكلام الذي كان الشُّغلَ الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة عاتيةً شديدة ، انطفأتْ بها كوانين القلوبِ ومَجامرُها. وإذا كانت لا تزال بقيةٌ من جَمرات الحب والعاطفة ، فقد كانت كامنةً في الرماد مغلوبة على أمرها. وقد أصبح المسلمون ـ بعدما كانوا شُعلة من الحياة وجذوة من النار ـ رُكاماً بشرياً أو فحماً حجرياً، بَعُدَ عهده بالنار والحرارة.

في هذا الجوِّ الهادىء الخامد هتف مولانا جلال الدين الرومي بالحب والعاطفة ، حتى هبَّ العالم الإسلامي من نومه العميق ، ودبّت فيه الحياة.

الدَّعوةُ إلى الحُب:

لقد دعا الشيخُ إلى الحبِّ دَعوةً سافرة ، وذكر عجائِبَهُ وتصرُّفاته في بَسْطٍ وتفصيل ، فيقول:

«إنَّ الحُبَّ يُحَوِّلُ المُرَّ حُلْوَاً ، والتُّراب تبراً ، والكَدَرَ صفاءً ، والألَم شفاءً ، والسِّجْن روضة ، والسُّقْمَ نِعمة ، والقَهْرَ رَحمة ، وهو الذي يُلينُ الحَديد، ويُـذيب الحجر، ويَبْعثُ الميْتَ ، ويَـنْفُخ فيه الحياة ، ويُسوِّد العَبْد».

«إنَّ هذا الحُبَّ هو الجَناح الذي يَطير به الإنسان الماديُّ الثقيل في الأجواء ، ويَصل من السَّمْكِ إلى السِّماكِ ، ومن الثَّرى إلى الثُّريا.

إذا سرى هذا الحُبُّ في الجبال الراسيات ، ترنحت ورقصتْ طرباً:

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]» .

ويذكرُ: أنَّ الحبَّ غَنيٌّ أبيٌّ ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذَاقَه مرَّة لم يُسغ شراباً ، يقول: «إن الحب غنيٌّ عن العالمين ، إن كان الشَّغفُ بالمحبوب ونَفْيُ ماسواه جُنوناً فهو سيِّد المجانين.

إنَّه ملك المُلوك تخضع له أسِرَّة الملوك وتيجانُهم ، ويَخدمه الملوك كالعبيد ، يقولُ: إنَّ الحبَّ كامنٌ كالنار؛ ولكنَّ الحيرة بادية ، متواضعٌ ؛ ولكنَّ نفوس الملوك الذين يملكون النفوسَ له خاشعَةٌ».

وإذا ذَكر الرُّومي هذا الفقر الجسور ، والحُبَّ الغَيور؛ أخذته نَشْوةٌ ، ونادى بأعلى صوته «بارك الله لعبيد المادة وعُبَّاد الجسم في مُلْكهم وأموالهم! لا نُنازعهم في شيء ، أمَّا نحن ، فأُسارى دولةِ الحب التي لا تزول ولا تحول».

«إنَّ جميعَ المرضى يتمنون البُرء من سقمهم ، إلا أنَّ مرضى الحب يَستزيدون المرض ، ويُحبُّون أن يُضاعف في ألمهم وحنينهم؛ لم أرَ شراباً أحلى من هذا السُّم ، ولم أرَ صحةً أفضل من هذه العِلة».

«إنَّها عِلَّةٌ ولكنها عِلَّةٌ تُخلِّص من كل علةٍ ، فإذا أصيب بها إنسانٌ؛ لم يُصَبْ بمرض قط ، إنها صحَّة الروح؛ بل رُوح الصحة ، يتمنَّى أصحابُ النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم ، كأنه يُعارِض الشاعرَ العربيَّ في قوله:

وَلِي كَبِدٌ مَقروحَةٌ مَن يَبيعُني بها كَبِداً ليسَتْ بِذاتِ قُروحِ

أبَـاهـا عَلـيَّ النـاسُ ، لا يَشتـرونَهـا ومَـنْ يَشتـري ذا عِلَّـةٍ بصَحيـحِ؟

فلو عرَفَ هذا الرجلُ الذي كان يُنادي على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة ، لما تنزَّل إلى بيعها والتخلي عنها ، ولو عرف الناس قيمتها لاشتروها بمُلك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمة كَبِدٍ لم تُقرَّح؟ إنَّها مُضْغَةُ لحمٍ وقِطعةُ حَجر!

إنَّ هذا الحبَّ البريء السامي يصلُ بالإنسان إلى حيث لا تُوصله الطاعات والمجاهدات ، «لم أرَ طاعة أفضلَ من هذا الإثم عند من يُسمِّيه إثماً ، إنَّ الأعوام التي تنقضي بغيره لا تُساوي ساعةً من ساعات الحبِّ».

«إنَّ الدم الذي يسيل في سبيله لا يُشكُّ في طهارته ، إنَّ شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل «إنَّ دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور ، يا لها من خطيئة إنْ كانت خطيئة» يقول: «إن المحبِّين الذين بذلوا مُهَجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفُذ عليهمُ القوانين العامة ؛ ولا يَخضعون للنظم السائدة».

ويَضْـرِبُ الروميُّ لذلك مثـلاً بليغـاً فيقول: «إنَّ القريـة التـي خرِبـتْ لا تُفرضُ عليها الجبايات والضرائب».

ويقارن بين الحُبِّ البريء ، والعقل الشاطر فيقول: «إنَّ الحُبَّ تراثُ أبينا آدم ، أَمَّا الدهاء فهو بِضاعة الشيطان ، إنَّ الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أمَّا الحُبَّ فتفويضٌ وتسليم.

إنَّ العقلَ سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء وقد يغرق ، وإن الحبَّ سفينة نوحٍ لا خوف على رُكابها من الغرق».

هذا ، وبحر الحياة هائجٌ ليس السباحة فيه بالخَطْب اليسير ، فخيرٌ للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونةٍ من الغرق ، وهي سفينةُ الإيمان والحب ، يقول: «لقد رأينا كثيراً ممن يُحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجِّي ولكنا ما رأينا سفينةَ الإيمان والحب تَغرق».

ثم إنَّه يفضِّل حيرةَ المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويَحُثُّ على

الحرص عليها والتنافس فيها؛ «لأن الحكمة ظنٌّ وقياس ، والحَيرة مشاهدة وعرفان» .

إنَّه يقول: «ليس لكلِّ أحدٍ أن يكون محبوباً ، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يُرزقها كل إنسان ، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه في الحب وينعُم به .

فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوباً ، فلا يَفتك يا عزيزي أن تكون مُحباً ، إن لم يكن من حظك أن تكون يوسفَ ، فمَن يَمنعك من أن تكون يعقوب؟ وما الذي يحولُ بينك وبين أن تكون صَادق الحب ، دائمَ الحنين؟» .

يزيد الشيخ على ذلك «إن لذة المُحب لا تعدِلُها صَولَةُ المحبوب؛ فإذا عَرف المحبون ما يَنعَم به العشاق المقيمون ، والمُحبون المُخلصون؛ لتمنَّوا مكانَهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صفِّ المُحبِّين البؤساء» .

إلى مَن يُوجَّهُ هذا الحبُّ؟

ولكن إلى من يُوجَّه هذا الحبُّ الذي هو نور الحياة وقيمة الإنسان؟

«إنَّ الحبَّ خالد لا يجدر إلا بالخالد. إنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأفول. إنه حقُّ الحي الذي لا يموت ، الذي يُفيض الحياة على كلِّ موجود» .

ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثَّل بقوله ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] .

«إنَّ هذا الحُبَّ يجري من صاحبه مَجرى الدم ، إنْ وُضع في محله وصادف أهلَه ، فإنَّه شَمسٌ لا ينتابها الأفول ، وزهرةٌ ناضرة لا يعتريها الذبول. عليك بهذا الحُب السرمدي الذي يبقى ، ويَفنى كُلُّ شيء ، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروي ظمأك، عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا» .

لا دَاعيَ إلى اليأس:

ولكن ليسَ للمُحب الطَّموح أن يشكو قُصورَه ويحتقرَ نفسه مُتعلِّلاً بسمُوِّ المحبوب وعُلوّ مكانته وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب؟!.

إنَّ المحبوب الحقيقي هو الذي يُحب أن يُحَب ، ويجذب إليه من انجذب ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] .

يقول مشجِّعاً: «لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبد ذليل ، لأن الملك كريم ، يدعو عبده ويُسهِّل له السبيل».

ويعود فيتغنَّى بهذا الحب ويُقرّظه في سرور ونشوة ، ويقول:

«إنَّه فيما يبدو للناظر عِلّةٌ علاجها عسير ، وصاحبها في تعب وعذاب؛ ولكنه إذا احتملها وثابر عليها ، وصلَ إلى المعرفة الحقيقية الأبدية».

«إنَّ الحُبَّ مَنشؤهُ انكسار القلب ، وجَرح الفؤاد ، إنه علة لا تُشبهها عِلة ، إن عِلة المحب تختلف عن كل عِلة . إنَّ الحُب اصطرلاب الأسرار الإلٰهية».

ثم يذكر أنَّ هذه العلَّة ، وإن كانت في ذات نفسها علة؛ ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخُلقية.

إنَّ الأمراض التي أعْيَتِ الأطباء ، وتعذَّر منها الشفاء ، وقَطع منها المصلحون الرجاء تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منها السقيم يئس من صحته ، هتف في سرور وطربٍ «حيَّاك اللهُ أيُّها الحُبُّ المضني، يا طَبيب علَّتي وسقمي، يا دواء نَخوتي وكبري، يا طبيبيَ النِّطاسيَّ ، يا مُداويَّ الآسي».

هـذا؛ لأنَّ الحُب شعلة إذا التهبت؛ أحرقتْ كل ما سواه؛ فلا كبر ، ولا خُيلاء ، ولا جُبن ولا خوف ، ولا حزن ، ولا حسد ، ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية؛ إنَّ موجة الحب تَجرف الحشيش ، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم. «إن الحب شُعلة تحرق كل ما سوى المحبوب»

إنَّ التوحيد سيفٌ إذا سلَّه صاحبه؛ قطع كل ما عدا الله؛ فحيَّاك الله وحياك أيها الحب الذي لا يحتمل الشرك».

ويُمسِك مولانا بعد هذا النفس الطويل في مدح الحب ووصفه، ويقول: «إنَّ حكاية الحب لا تنتهي، وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه؛ لأنَّ الدنيا لها نهاية وغاية، والحبُّ وصفُ من لا يَفنى ولا يموت».

عَالَمُ القَلْب:

ولكنْ لا سبيلَ إلى هذا الحبِّ بالقلب الحيِّ الفائض بالحياة والحرارة. وقد طغتِ الناحية العقلية في عصره كما قدَّمنا، وتخطت حدُودَها، وتضخَّمت على حساب القلب والعاطفة؛ فمهما استنارت العقول فقد بردتِ القلوب وفقدت حياتها وحرارتها، وأصبحت المعدة قُطباً تدور حوله رَحى الحياة.

وقد أثار الروميُّ حديثَ القلب وماله من مكانة وكرامة في حياة الإنسان، وما تحويه من عجائب وكنوز، وذكر أنَّ الإنسان يحمل في جسمه روضة، أكُلُها دائمٌ ورَبيعُها قائم، وأنه يحمل في نفسه الصغير عالماً أوسع من هذا العالم المادي، لا يُخاف عليه من عدو، ولا يَطرقه لِص.

«إنَّ القلب بلد عامرٌ مأمون، وحصن مُحكَم مصون، روضة مباركة لا ينفد نَعيمها، ولا ينضُب معينها، تؤتي أكُلها كل حين بإذن ربها».

وذَكَرَ أنَّ حدائق العالم لا تطول حياتها، ولا تأمنُ الآفات والعاهات؛ ولكنَّ نخلة القلب دائمة النضارة والثمار «إن الحدائق تُبطىء في النماء، وتُسرِع في الفناء» أمَّا القلب فسريع النمو، بطيء الزوال: «إنَّ روضة الجسم لا تلبث أن تُصبح صريماً هشيماً؛ فينادي صاحبها: واحسرتاه! أمَّا روضة القلب، فلا تزال مُخضرَّة مُثمرة؛ فينادي صاحبها: وافرحتاه!».

فالذي يُحاوِلُ أن يُحَافِظ على صحته وشبابه، ويبقى شاباً قوياً، لا تتحقق أمنيته، والذي يعتني بقلبه ويُحسن تربيته يبقى شابَّ الروح، نشيط الجسم،

قرير العين ، ناعم البال ، جذلان مسروراً. «عليكَ بالقلب حتى تدوم شاباً ، تتجلى في وجهك الأنوار فيشرق».

«عليك بالقلب حتى تبقى زاخر الحيوية والنَّضارة مثل الصهباء ، مُتهللاً كزَهرة ناضرة ووَردة باسمة».

ولكن لا تغرَّنك كلمة (القلب) فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك ، وتتجمعُ فيها الشهوات والمطامع ، ليس القلبُ هو الذي لم يذق طعمَ الحب ، ولم يعرف معنى اليقين ، ولا يملك شيئاً من الشوق الذي لا تتفتح زهرته ولا يُشرق ليله؛ فليس هو القلب؛ إنما هو قطعة من حجر أو خشب.

«إنَّه ضَيِّقٌ مظلم مثل قلب اليهود ، لا نصيب له من حُبِّ الملك الوَدود ، إنه لا يُشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع».

إنَّه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلا الاشتراك في اللفظ ، والشَّبهُ في الجسم ، كما أن الماء الذي يَجري في العيون الصافية والأنهار الجارية يُسمى ماء ، والذي يختلط بالطين والوحل ويُرى في المستنقعات يسمَّى ماءً كذلك؛ ولكن الأول يروي الظمأ ويُنَقِّي الثوب ، والثاني تُغسَل منه اليَد. هذا هو الفرق بين القلب والقلب.

إنَّ قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء ، أما قلوبُ أشباه بني آدم ، فهي قلوبٌ أشباه القلوب ، وليست بقلوب؛ فإذا قلت (قلبي) فانظر ماذا تقول!.

«تقولُ: قلبي! قلبي! فهل تعرف أنَّ القلب من أمانات السَّماء؟ إنَّ الحَمأ لا شكَّ يحمل ماء ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك؛ لأنه إذا كان ماء، فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فلا تُسمِّ ما يخفق في صدرك (القلب)، إن القلب الذي هو أعلى من السموات العلى ، هو قلب الأنبياء والأصفياء».

ولكنه يُسلِّي قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويُثبِّط همته ، فيقول: «إنَّ سلعتك

التي لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكرماً وتفضلاً ، إنَّه لا يرفض قلباً من القلوب؛ لأنَّه لا يقصد به الربح».

ثم ينصَحُ قارئه بالانطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمَّى «المعدة» والطيران في أجواء القلب الفسيحة ، والاطلاع على عجائب خلق الله ، والتنعم بلذة الروح ، يقول: «إنَّ المعدة وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك؛ فإذا رفعت هذا الستر لم يكن بينك وبين ربك حجاب «تخطَّ حدود المعدة ، وتقدَّم إلى قلبك ، تأتك تحياتُ الرحمن من غير حجابٍ».

كَرامَةُ الإنسان وشَرفُهُ:

لقد تَواضَعت الحكوماتُ الشخصيةُ المستبدةُ ، والفلسفاتُ الخاطئةُ ، والأديانُ المحرَّفةُ على الاستهانة بقيمة الإنسان ، والحط من قدره وشرفه.

وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مَقْتٌ شديدٌ في الناس للحياة ، وتبرم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل ، وشعورٌ عميقٌ بالمهانة أو ما يسمى اليوم (بمركب النَّقص) وأصبح الإنسان حقيراً في عينه.

وجاء بعضُ المتصوِّفين العجم ، فدعوا دعوة متحمِّسة إلى الفناء الذي تُمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي «مُوتوا قبل أن تموتوا» وغلوا في إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحُبّ الذات الذي يتوقَّف عليه الكفاح والحركة والنشاط ، جريمة خُلقية ، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي.

وقد أسرف الدعاة والمؤلِّفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية ، والانسلاخ من اللوازم البشرية؛ حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته ، وأصبح يعتقد أن رقيَّه في الثورة على الإنسانية ، لا في الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنَّه كلما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة ، كان أقرب إلى السعادة والكمال.

ونَشَأَ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور

الحكومات ـ أدبٌ متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنِّقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل (أبو العلاء المعرِّي) في عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامَّةً الثقةَ بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرَّغبة في حياتهم.

وأصبح الإنسانُ في هذا المجتمع المتبرِّم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، مُحطَّم الأعصاب ، قد يحسُد الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبَّارة ، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف أنه قد خُلق ليكون «خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح» ، و«وصياً عليه» ، وأُخْضِع له هذا الكون ، وماكان سجودُ الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع؛ فإنَّهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته؛ فإذا خضعوا فقد خضَع له الكون بالأولى.

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا «جلال الدين الرومي» يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرَّنان ، ويُثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة؛ حتى دبَّ في المجتمع دبيبُ الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنَّح بهذا الرّجز والحُداء القوي (الأدب الإسلامي) كلّه ، وردَّدهُ الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تُسمَّى «الاعتزاز بالإنسانية».

يُذَكِّر جلال الدين الرومي قرَّاءَ شعره وتلاميذه ، أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ الإنسان بأحسن تقويم؛ فقد قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]

وإن هذا اللباس الفضفاض قد فُصّل على قامة الإنسان؛ فلا يطابق كائناً آخر.

ويَحثُّ قارئه على دراسة سورة (التين) والتدبُّر في معانيها، وأن يحسب لكلمة (أحسن تقويم) حساباً خاصاً؛ فإنَّها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره.

ثم يزيدُ على ذلك، ويرجع إلى سورة (الإسراء) ويُذكر بقوله تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول للقارىء: «هل وُجِّه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السمواتِ والأرض أو الجبال؟ إنه لم يُوجَّه إلا إلى هذا الإنسان الذي يستهين بقيمته، ويجهل مكانته. إن الله قد توَّجَكَ ـ أيها الغافل ـ بتاج الكرامة، وخصك بقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ وحلَّى جيدك بالمنحة الخالصة فقال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ [الكوثر: ١]».

إنَّه يقول: إنَّ الإنسان خلاصةُ هذا الكون، ومجموع أوصاف العالم «يتمثل في هذا الجسم الصغير ما شئت في العالم من خيرات وكنوز، وبدائع وعجائب؛ إنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس؛ فإذا طلعت لم يبد كوكب. إنه قطرة صغيرة انصبَّ فيها بحر العلم، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالمُ.

يقولُ: إنَّ الإنسان غايةُ هذا الخلق؛ لأجله خُلق العالم، وهو القطب الذي يدور حوله رحى الكون، تحسده الكائنات، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات؛ إنَّ كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خُلق لأجلك ويطوف حولك، أنت الذي يَحسُده المقرَّبون، لستَ في حاجة إلى جمال مستعار؛ فأنت جمال الدنيا، وواسطة العقد، وبَيتُ القصيد، الإنسان جوهر، والفلَك عَرَض، كلُّ ما عداك فَرْع وظل، أنت الغَرض، إنَّ خدمَتك مفروضة على جميع الكائنات، إنَّ عاراً على الجوهر أن يخضع لعَرَض».

ولا يَقْتَصِرُ الرَّدُّ على ذلك؛ بل يقول: «إنَّ الإنسان مَظهرٌ لصفات الله، وهو المرآة الصادقة التي تجلَّت فيها آياته يقول: «إنَّ الذي يتراءى في الإنسان (من الكمالات والمحاسن) عكس لصفاتِ الله، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي، إن الخلق كالماء تتجلى فيه صفاتُ الله، وينعكس فيه علمه و عدلُه

ولطفه ، كما ينعكس ضوء الكوكب الدُّريِّ في الماء الجاري».

ولكنَّه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الإنسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويُعلِن بصراحة وشجاعة :

«إذا صَرَّحتُ بقيمةِ هذا المُمتَنع [1] لاحتَرقتُ واحتَرَق المُستَمِع»

ثم يتساءلُ: هل يجرؤ أحدٌ أن يساوم هذا الإنسان الغالي ويُمنِّي نفسه بشرائه؟ هل يجوز لهذا الإنسان أن يبيعَ نفسه ـ مهما تضخَّم ثمنُها ـ؟ .

ثم يندفع مخاطباً الإنسان ، ويقول في تَلهُّفٍ وتوجُّع ، وفي شيء من العتاب والأنفة : «يا مَنْ عبيدُه العقلُ والحكمة والمقدرة ، كيف تبيعُ نفسَك رخيصةً؟» .

ثم يقول: لا محلَّ للمساومة؛ فقد تَمَّتِ الصَّفقة ، وتحقَّق البيع : «إنَّ الله اشترانا وخلَّصنا من المساومات والمقاولاتِ إلى آخر الأبد ، فالشيء لا يُباع مرَّتين» .

ثم يَحثُّ الإنسان على أن يعرف قيمتَه ، ولا يرضى إلا بأكرم المُشترين. ويقول: «ابحثْ لك ـ إنْ كنت باحثاً ـ عن مُشترٍ يطلبُك ويبحثُ عنك ، والذي منه بدايتُك وإليه نهايتُك» .

ويُلاحِظ الشاعر أنَّ من بني آدم من لا يستحق هذا الوصف «أشباه الرِّجال ولا رجال» الذين هُم فَريسةُ نفوسهم ، وقَتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلا ما يَفوقُ فيه الحيوان ، من الشِّبَع والرِّي والشَّبَق .

يقول بكلِّ صراحةٍ: «إنَّ هؤلاء ليسوا رجالاً ، إنما هم صُوَر الرِّجالِ ، هؤلاء الذين يحكُم عليهم الخبز ، وقتلتِ الشهواتُ فيهم الإنسانية» .

وقد ندَرَ وُجود الإنسان الحقيقي في عصره ، كما ندر في عصر غيره ، حتى أصبحَ في حكم عَنْقَاءِ المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطرَّ الباحثون أن

(١) يعني به الإنسان.

يبحثوا عنه بمصباح ديوجانس. وقد حكى الروميُّ حكايةً لطيفة في هذا الموضوع في ديوان شِعره فقال:

«رأيتُ البارحةَ شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً ، كأنَّه يبحث عن شيءٍ! فقلت: يا سيدي تبحث عن ماذا؟

قال: قد مَلَلْتُ معاشرة السِّباع والدواب وضِقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحثُ عن إنسان عملاق ، وأسد مغوار. لقد ضاق صدري من هؤلاء الكُسالى والأقزام الذين أجدهم حولي.

فقلتُ له: إنَّ الذي تبحث عنه ليس يَسير المنال، وقد بحثتُ عنه طويلاً فلم أجده.

فقال: إنَّني مغرمٌ بالبحث عمَّن لا يوجد بسهولة ، ولا يُعثر عليه في (الطرقات)».

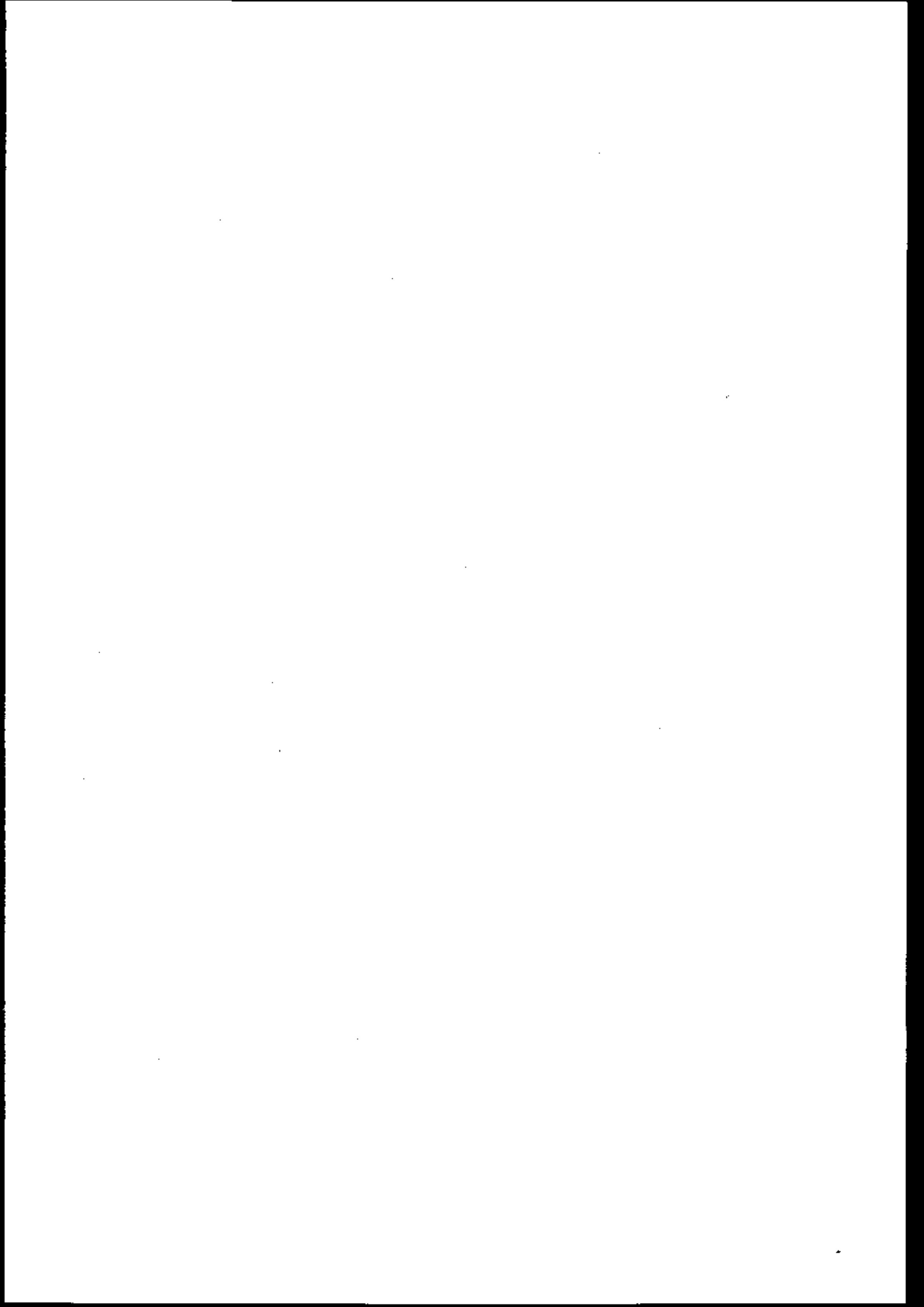
* * *

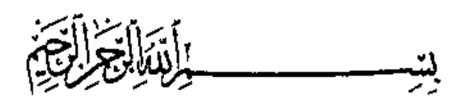
رجال الفكر والدعوة
في الإسلام

شيخ الإسلام
أحمد بن تيمية
٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ

للمفكر الكبير ، الداعية الحكيم
العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
تعريب الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
مدير دار العلوم ـ ندوة العُلماء ، لكهنؤ (الهند) ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة منها

الجزء الثاني





كلمة المؤلف

الحمد للهِ رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من أئمة المسلمين المجددين ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المُبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أمَّا بعد ، فَيسرُّ المؤلِّف ويُسعده أن يقدِّم للقرَّاء العرب الجزء الثاني من كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو الجزء الخاص بحياة شيخ الإسلام تقيِّ الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي ، وقد سبق تأليفه باللغة الأردية سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م ، وهي الحلقة الثانية من سلسلة كتب المؤلِّف «تاريخ الدعوة والعزيمة» .

وقد تولَّى المؤلِّف نقل الجزء الأول من هذا الكتاب إلى العربية مع حذف وزيادة ، وتحسين وتعديل ، سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م ، وأفرغه في قالب محاضرات ألقاها في المدرج الكبير بجامعة دمشق أمام طلبة كلية الشريعة ، وصفوة من أساتذة الجامعة ، وعلماء البلد وأعيانه وقادة الفكر ورجال التعليم والتربية ، في عاصمة بني أميَّة .

وصدر لهذا الجزء عدةُ طبعات ، وقدم له فقيد العلم والإسلام الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً في الأوساط العلمية ، والدينية ، والتربوية ، واعترفَ كثير من أهل العلم ، ورجال التربية أنه سدَّ عَوزاً كبيراً ، وملأ فراغاً في المكتبة الإسلامية العربية المعاصرة ، وجاء في أوانه .

وقد صدر الجزء الثاني لكتاب «تاريخ الدعوة والعزيمة» في أردو سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م من المجمع الإسلامي الأكبر في الهند ، المعروف بـ «دار المصنفين» في أعظم كره ، وصدرتْ له طبعة ثانية من المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ونقل الى اللغة الإنجليزية سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

ورَحَّبتْ بالترجمة الإنجليزية الأوساطُ العلمية ، والمشتغلون بالدراسات الإسلامية ، والبحوث التاريخية ترحيباً كبيراً ، وأبدى عدد من الباحثين والمعنيين بالفكر الإسلامي ، وحركات الإصلاح والتجديد في الإسلام ، إعجابهم الكبير بهذا الكتاب ، وكان أَولَ كتاب يصدر في حياة شيخ الاسلام ابن تيمية في اللغة الإنجليزية بهذا التفصيل والتحقيق .

كان كلٌ ذلك كافياً لانتهاز أول فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغة العربية ، ويصح أن يقال : إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كانت لشخصيته ودعوته ودوره الإصلاحي عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضةٌ لم تكن لمصلحٍ إسلاميٍ ، أو مؤلِّف من المؤلِّفين القدامى ، لأسباب يطلع عليها القارىء في ثنايا هذا الكتاب ومطاويه ، فكان من المعقول والمنتظر أن يبادر المؤلِّف إلى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وإتحافِ المعجبين بشيخ الإسلام بهذا السِّفر .

ولكنَّ المؤلِّف كان يُزهِّده في القيام بهذا العمل ، ويُثنيه عنه صدور عدة كتب لكبار علماء هذا العصر ، وفي مقدِّمتهم علامة مصر الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، وما كان يَعلمه من آثار ابن تيمية في اللغة العربية ، وقد

قيَّض الله للمملكة العربية السعودية ، علماء وأمراء ، لإثارة هذه الكنوز ونشرها ، وكان يُخيَّل للمؤلف حين كان يحدِّث نفسه بإصدار هذا الجزء بالعربية أنَّه كناقل التَّمر إلى هَجَر[1] .

ولكنَّ الله شَرح صدره لتحقيق هذه الأمنية ، وقبول هذا الاقتراح من إخوانه الذين عرفوا وجود هذا الكتاب باللغة الأردية ـ وفي مقدمتهم صديق المؤلِّف الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد صاحب دار القلم الكويتية ـ واقتنع أخيراً بأن لكل مؤلف طابعاً ، ولكل كتاب شخصية يتفرَّد بها كشخصية الإنسان ترجع إلى بيئة المؤلف ، وتجاربه الخاصة ، وفهمه الخاص ، فلا يكون إصدار هذا الكتاب من قبيل تحصيل الحاصل ، ومن قبيل الجهاد في غير طائل ، وإلا كان كلُّ من ألف في موضوعٍ طُرِق وبحث واستوعب من زمان من فضول الأعمال ، وإضاعة الوقت .

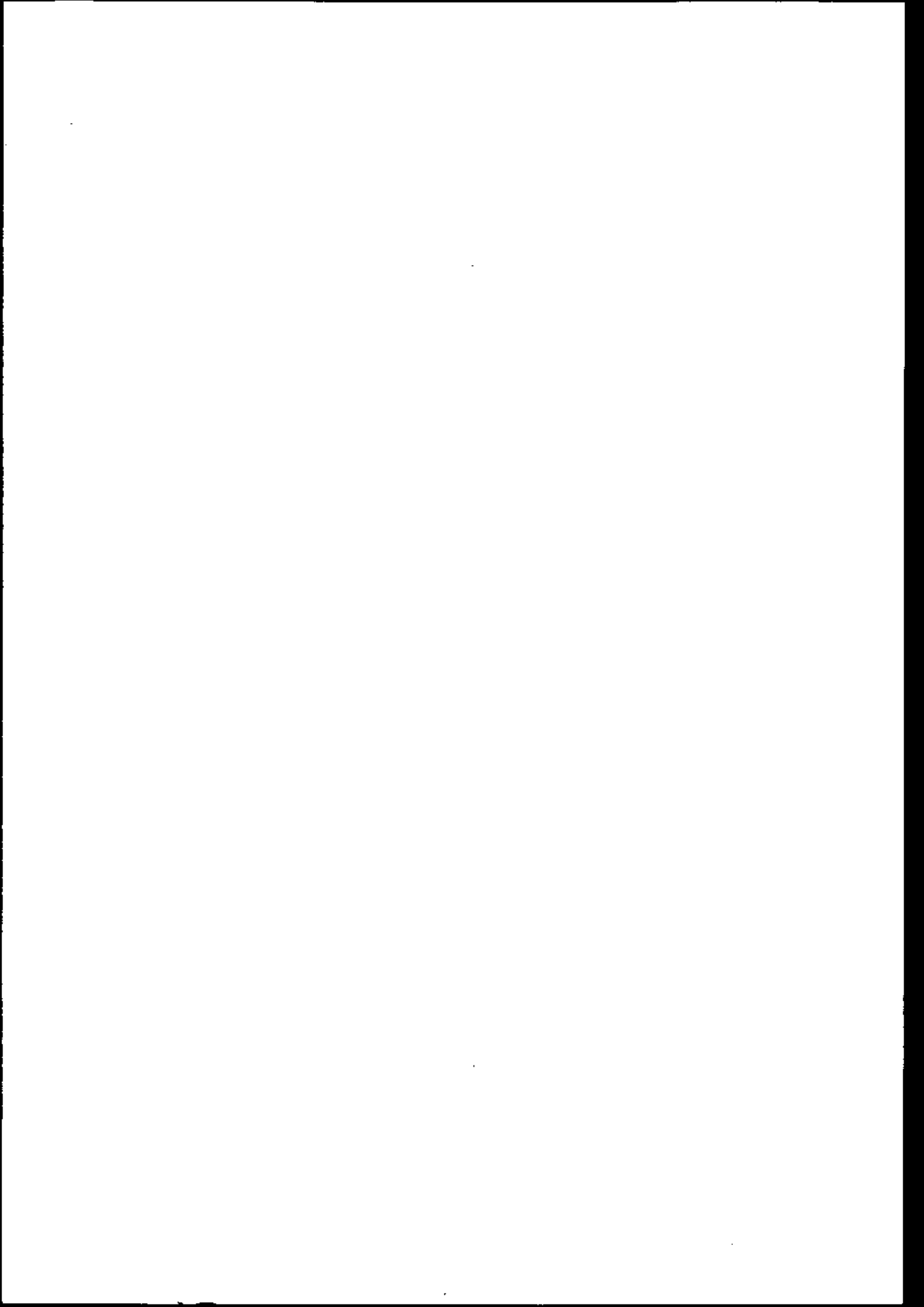
هنالك عهد المؤلِّفُ بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية إلى زميله العزيز الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومحرر مجلة «البعث الإسلامي» فقام به خير قيام ، وقرأه المؤلِّف حرفياً ، وتناوله بالتنقيح والتهذيب ، والحذف والزيادة ، وعلَّق عليه بعض تعليقات جديدة مفيدة ، فجاء أكمل وأجمل ، وأوفق للذوق العربي السليم .

وها هو ذا الكتاب بين أيدي القرَّاء ، والله المسؤول أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، ويرفعَ همة الباحثين والمؤلفين ، والعاملين في مجال الإصلاح ، والتربية ، وخدمة الدين ، وهو الموفق والمعين .

يوم الخميس ٩/ ٥/ ١٣٩٥هـ
٢٢/ ٥/ ١٩٧٥م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

(١) [هَجَر : اسمُ بلدٍ معروف بالبحرين ، اشتهر بالتمر].





سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية

وميزاته وخصائصه

الفصل الأول: الحاجة إلى ترجمان للشريعة ومصلح شامل.

الفصل الثاني: العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصل الثالث: نشأة ابن تيمية وحياته.

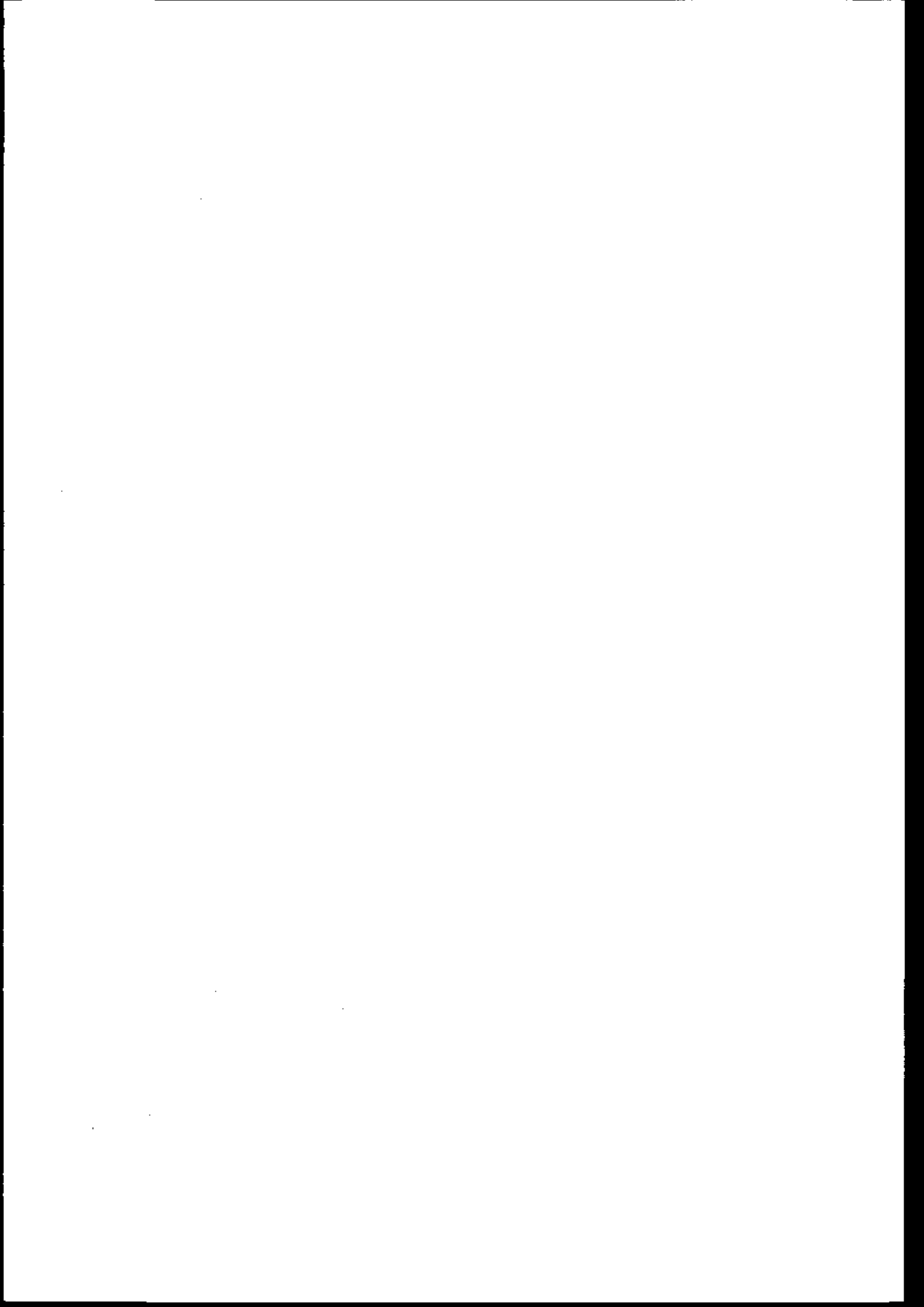
الفصل الرابع: ميزات ابن تيمية البارزة وخصائصه.

الفصل الخامس: خصائصه التأليفية.

الفصل السادس: أسباب معارضة ابن تيمية بين نقاده والمدافعين عن

الفصل السابع: شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ومحقق.





الفصل الأول

الحاجَة إلى تَرجُمَان للشريعَة وَمُصلحٍ شَامِل

حَدٌّ من حرّية الفلسفة ، وإدالةٌ لتعليم النُّبوة منها:

تزعَّم مولانا جلال الدين الرومي تلك الثورة العقليـة التي كانت رَدَّ فِعل ضد الفلسفةِ اليونانيـة وعقليَّة المتكلِّمين [١] ، لقد كان ذلك نموذجاً لعقليـةٍ أسمى وفكرةٍ أرسخ ، وكان افتتاح عهد جديد لكلام جديد قام أساسه على سُمُوِّ العقل والقلب وطهارتهما ، وعلى تجربةِ المتكلِّم الشخصية.

كان مولانا جلالُ الدين الرُّوميُّ عالماً متبحِّراً ومتكلِّماً نابغاً في عصره ، أكرمه الله تعالى بالقلبِ العارف وطبيعة الحبِّ والحنان ، وكان قد سَئِمتْ نفسه من كلام الفلاسفة وتقعير المتكلمين ، وقد بلغ بفضل تربيـة رجلٍ مؤمن حنون ، ومن أجل المجاهدات والرياضات التي قام بها إلى حيثُ أدركَ فيه أنَّ المعاركَ الكلاميـة التي تدور في زمنه إنما تقوم على أساس الذكاء والخطابة أكثرَ منها على الحقيقة ، وهنالك شرح الحقائق الدينية بِلُغته ، واتخذ لإثباتها

(١) كما مرَّ تفصيله وبسط القول فيه في الفصل الأخير من الجزء الأول لكتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

طريقاً كان أقرب إلى الحقيقة ، ومبنياً على التجربة والوجدان.

ولكنَّ الظُّروف كانت تُؤكِّد الحاجةَ إلى ردِّ فعل آخر ضد طُغيان الفلسفة وعُدوان عِلم الكلام لاَ يَقل في خطورته من رد فعلٍ سبقَ ذِكره ، فقد كان البحثُ عن ذاتِ الله وصفاته من رؤوس القضايا الَّتي شَغلت بُحوثَ الفلسفة وعلم الكلام.

أمَّا الشريعةُ الإسلاميةُ فلم تترك موضوع العقائد غامضاً مُلتوياً غير واضح للإنسان ، بل إنها جَعلت هذه الناحية موضع عناية بالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة؛ لأنها أساسُ المجتمع الفاضل والمدنيَّة المُثلى ، والفضائل من الأعمال والأخلاق.

إنَّ الشريعة الإسلامية وجَّهت إلى الإنسان توجيهاتٍ حاسمةً ، سهلةً واضحةً حول ذاتِ الله وصفاته ، لم تَعُد بعد ذلك أيُّ حاجة إلى تحقيقٍ وتدقيقٍ أو قياس.

إنَّ مَصدَر هذا العلم والإيمان إنما هو تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنَّ كلامهم أكبرُ برهان على أنهم هم العارفون بما وراء الكون من إله ، وبصفاته النادرة الفَذَّة التي لا تَقبل القياس والنهاية.

ما كان للفلسفة أن تَتحدَّث عن هذا الموضوع أو تقوم خَصْماً بإزائه؛ إذ لم تكن تُمسك مبادىء هذا العلم الأساسية ، ولا تلك المعلومات التي تتوصَّل بترتيبها إلى مجهول ، ولم تكن تصلح لإجراء اختبار أو تحليل ، ولم يكن الفلاسفة أهلاً لذلك.

ولكنَّ الفلسفة على الرغم من عجزها العلمي تخطَّتْ حدودها ، ولم تكتفِ بالتدخل في هذا الموضوع فحسب بل إنَّها بحثت قضاياه وفروعَه بثقة كبيرة وتحكُّم بالغ ، وبتفصيلٍ زائد وتدقيق شديد ، وقامت بتحليلٍ يختص بالمعامل الكيمياوية فقط.

ظهر علمُ الكلام لِمقاومة الفلسفة ونُصرة الدين ، وكان ذلك أمراً لازماً ،

غيرَ أنَّه تأثر بالفلسفة ، وتسرَّبت إليه روحُها حتى تكونت «فلسفة دينية» تنتهج نفسَ المنهج ، وتبحثُ نفس الموضوع ، وتتَّبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال ، وتُعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أموراً عقلية يُمكن إثباتُها عن طريق العقل ، وكذلك تُسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شَرْحٍ ، وتعبير في هذا الموضوع ، واستخدامِ مصطلحاتٍ يونانية تقوم على علمٍ محدود ناقصٍ ، وتُثير شبهاتٍ ، الأمر الذي دعا إلى تَعقُّدِ القضايا وتوسُّعها بله أن تنحلَّ أو تُختصر .

ووُجدت «فلسفة إلٰهية» وكُتب ضخمة في شرح العقائد ، إزاء أسلوب مُقْنِع مُؤثِّر كان جديراً بشحن النفوس بالإيمان والإذعان ، وإقناع العقول في كل زمان ، وكان مؤسَّساً على نصوص الكتاب والسنة .

وكانت هذه الفلسفةُ الإلٰهية الجديدة قد تأثرتْ بالفكر اليوناني رغم أنها ظَهرت ضدَّ الفلسفة اليونانية ، فكانتْ رُوح الكتاب والسنة تحتجُّ دائماً على هذا الموضوع ، وَوُجدت طبقةٌ وجيهةٌ للأمة الإسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتأويل الكلامية .

غير أنَّ الحاجة إلى عالمٍ كبيرٍ نافذ البصيرة ، وواسع العلم ، قويّ الإيمان كانتْ أكيدة لشرح الكتاب والسنَّة والتعبير القويّ المؤثر عنهما ، ذلك الذي يَعتقد أجزم الاعتقاد أنَّ في نصوص الكتاب والسنَّة حَول ذاتِ الله وصفاته وفي تعبيراتهما عنها غنىً وكفايةً تامة .

ذلك العالِمُ الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطَّلع على خباياها وكوامنها ، ويتمكَّنُ من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي ، بما عنده من علم بمواضع ضَعْفِها الأساسية .

ذلك الذي قد تعمَّق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام ، واطَّلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الإسلامية ، ولا يخفى عليه شيءٌ من تاريخ علم الكلام ونُمُوِّه .

ذلك الرجلُ الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزازِ بنصوص الكتاب والسنة ومذهبِ السلف بفضل دراسته وتجاربه ، يَفيض عزماً وحماساً بنصرته وشرحه ، ويَعيش على حَسَك السَّعدان لكي يُثبت رجحان مذهب السلف وفَضله من الناحيـة العقليـة على غيره من الفلسفاتِ والنُّظم العقليـة ، كما يكون مُتمتِّعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتطلَّبها هذا العمل العظيم ، ومتميِّزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله ، وسَعَةِ نظره وعُمق دراسته عن غيره ، يكون فوق مستوى عصره وكُفؤاً للقيام بهذه الخدمـة بمعنى الكلمـة.

في مُواجَهةِ المسيحيـة ، ونَـقْـدِها العلمـي:

هذا وقد كان الإسلامُ هدفاً للهجمات الداخلية والخارجيـة بجانب آخر ، وكان المسيحيون قد تحمَّسوا لإثبات أن المسيحية هي الدينُ الحق ، وتوجيهِ الإيرادات إلى الإسلام ، إنَّ الهجومَ الصليبي المتتابع ووجودَ عددٍ وجيه مِن مسيحيي الغرب في الشام وقبرص؛ شجَّعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي وعلى تأليفِ كُتب تثبت فضلَ دينهم ، وأخرى تَرفُضُ نبوة محمد ﷺ .

وللردِّ على كلِّ ذلك كانت الحاجة مُلِحَّةً إلى عالم كبير ومتكلِّم ، له دراسةٌ عميقةٌ في المسيحية والديانات الأخرى ، وله اطلاعٌ واسعٌ على الصحف السماوية وما واجَهَتْهُ من تغيير وتحريف ، ويستطيعُ أن يُحسن المقارنة بين الديانات ويُثبت فضلَ الإسلام وخلودَه في أسلوبِ علميٍّ مؤثِّر قوي ، ويتمكنُ من دعوة أتباعِ الديانات الأخرى إلى الإسلام بحكمةٍ وقوةٍ.

فَضْـحُ المذاهـبِ المُنـحَرفـة والحَركـاتِ الهـدَّامـة:

وقد كان أشدَّ وأكثَر خطورة من هذه الهجمات حملةٌ شنَّـتها فرقـةٌ إسلاميةٌ دخيلةٌ على الإسلام ، وهي الفرقة الباطنية التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية ، والأفكار الأفلاطونية ، والأغراض السياسية ، وقد

كانتْ هذه الفرقـةُ وفروعُها المختلفة تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام ، وهي التي مهَّدت الطريقَ ، ودبَّرتِ المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية ، فساعد الصليبيين في شن هجومهم على الشام .

وذلك ما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أنْ قرَّبوا رجالَ هذه الفرقة الباطنية ، وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم ، وأحسنوا إليهم اعترافاً بمساعداتهم المخلصة .

وقد ظلَّ هؤلاء الباطنيون مُشتغلين بتثبيت المؤامرات ، وتدبيرِ الثورات في عهدي صلاح الدين ، ونور الدين ، فلما قصدَ وحوشُ التتار أرضَ الشام بهجماتهم العنيفة ؛ ساعدهم الباطنيون عَلناً وجهاراً ، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ .

وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشرِ اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيغ وثورة على الدين ، وكانوا «كالطابور الخامس» في حِصن المسلمين الديني .

كلُّ ذلك كان يُحتِّم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية ، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطَّلع المسلمون على نواياها ، ويُعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام .

ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا مَنْ له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارِها وتاريخها ، وله معرفةٌ بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرَّدِّ والنقد ، مضافاً إلى ذلك حَماسُه الزائد للإسلام ، ودافِعه القوي للجهاد مع أعداء الإسلام .

مُحاربـة العقائـد ، والأعمـال الشّركيـة ، والدعـوةُ إلى الدِّيـن الخالـص:

هذا وكانتِ الجماهيرُ المسلمة فَريسةَ العقائد الباطلة وأعمال الشِّرك بضغط عواملَ عديدة ، منها اختلاطُهم بغير المسلمين ، وتأثيرُ العجم ، وتَهاونُ

العلماء ، وقد أصبح الدِّين الخالص والتوحيد النَّقي وراء حجابٍ وحجابٍ .

ونشأ الغُلُوُّ والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأنَ اليهود والنصارى ، حتى بدأتْ عقيدةُ التوسُّط والتقرُّب بالأولياء ترسَخُ ، ويَنطبقُ عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] .

وتنتشر هذه الفكرةُ الجاهلية في أوساط المسلمين ، وأصبَحَ كثيرٌ من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغيرِ الله والاستعانةِ به ، واتُّخذتْ قبورُ الأنبياء والصالحين مساجدَ ، وتحقَّق الخطرُ الذي كان قد أنذر به النبي ﷺ وشدَّد النهي عنه .

ولم يكنِ المسلمون يَشعرون بأي غَضاضةٍ في التخلُّق بأخلاق الذِّمِّيين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائِصِهم ، والحضورِ في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم ، واصطناع تقاليدهم وعاداتهم .

فَكانتِ الحاجةُ ماسةً إلى عالم مجاهد يَتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشركة ، والدَّعوة إلى التوحيد الخالص بكُل قوةٍ وإيضاح ، ويكونُ عارفاً بالفرق بين التوحيد والشرك معرفةً دقيقة ، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنَّعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر ، ويكونُ قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرةً من الكتاب والسنَّة وحياةِ الصحابةِ الكرام رضي الله عنهم لا من كُتب المتأخرين وتعامُلِ المسلمينَ الجهلاء ، وتقاليدِ الزمان وعادات الناس .

ولا يُبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضةِ الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ، ولا يخاف في ذلك لومةَ لائمٍ ، ويكون ذا نظرٍ دقيقٍ وعلمٍ واسعٍ بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها ، وبأحوالِ القرون الأولى ، وذا اطلاعٍ كاملٍ على تاريخ اليهود والنصارى ، وقصةِ انحرافهم ومَسخِهم وتحريفهم ، وعلى عقليةِ الأمم الجاهلية ونفسيَّتهم ، ويعيش في تألُّمٍ وقلقٍ لكي يُعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدةِ الصدر الأول ، ويَراهم مُنتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وأتباعهم .

مُحاربةُ الانحرَافاتِ والمُغالطاتِ في الطوائف الدينية، وتَنقيةُ الدِّين من الشوائب:

وقد تسرَّبَ إلى المُتصوِّفين ـ لأسباب تاريخيةٍ وعلميةٍ عديدةٍ ـ تأثيرُ الفلسفة الإشراقية التي جاءت من يونان، والهند، وامتزجتْ بالعقائد الإسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنَّى لكل واحد فصلُها عنها.

إنَّ إشراقية الأفلاطونية الجديدة، أو تنسُّك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهبَ وحدة الوجود، وتقسيمَ الظاهر والباطن، وفِتنة الرموز والأسرار، والعلم الدفين، وسقوط التكاليف الشرعية عن «الكاملين» و«الواصلين» واستثناءهم عن الأحكام الشرعية، كلُّ ذلك كانت معتقداتٍ وأفكاراً نالتْ إعجابَ طبقة كبيرة من المتصوِّفين.

وبالرَّغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة، كانت طبقةٌ من المتصوفين تُلِحُّ عليها، حتى تَسفل بعضُ فروع التصوُّف وسَلاسلهُ إلى حد الشَّعوذة والتهويل، ولا سيَّما بعضُ فُروع السِّلسلةِ الرفاعية التي انحرفتْ في العهد الأخير عن أصلها وتعاليم مؤسِّسها الكبير، وآثَرَ كثير من رجالها الذين لم تَرسخْ قدمُهم في العلوم الشرعية والعقائد الإسلامية الأعمالَ البهلوانية، زاعمين أنها تؤثِّر في عقول المغول والتتار وتُرغِّبُهم في الإسلام، وكان لذلك ضررٌ عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة.

وقد استفحلتْ هذه الفتنةُ في القرنين السابع والثامن، ووقع العامة وكثيرٌ من الخاصة فريسة هذه المغالطات.

وَلِقَمْع هذا الخطر الناجم أيضاً والحفاظِ على الشريعة كانت الحاجة شديدة إلى مؤمن قوي ومصلح جريء، يتناول هذه الطوائف المنحرفةِ بالنقد اللاذع، ويكشفُ القِناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حُرية وجراءة، معرضاً عن صَولتها وقُوتها، وغيرَ مُبال بعدد أتباعها ونفوذهم.

تجديدُ الفِكْر الإسلامي:

وكانت الحَلَقات العلميةُ والتدريسية مُصابةً بِجُمودٍ شديد ، فكلٌّ طائفةٍ تعتبرُ الخروج عن دائرتها الفقهية قيدَ شعرة جريمةً لا تُغتفر ، وكان مألوفاً لدى كل طائفة أن تَنْظُرَ إلى الكتاب والسنة بمنْظار مذهَبها الفقهي ، وتحاولُ تطبيقَ الكتاب والسنَّة في الخلافات الفقهية على آرائها في كل حالٍ فضلاً عن تحكيمها فيها ، وكان بابُ الترجيح والاختيارات الفقهية مُغلقاً عملياً.

وكانت مشكلاتٌ حديثةٌ وقضايا جديدةٌ قد حدثتْ مع تغيُّر الزمان والأحوال ، الأمر الذي كان يحتاج إلى إرشاد المسلمين فيها والبحثِ عن حُلولها إلى رجلٍ يجمع بين سَعَة النظر في ذخائر الفقه الإسلامي ، والتعمُّق في الكتاب والسنة ، والاطلاع على تعامل القُرون الأولى ، والعلمِ الدقيق بأصول الفقه.

وقد كان يضيق مجالُ العلم والنظر والدراسة على مر الزمان ، وتضمحِلُّ القوى الفكرية ، ولم يكن عالمٌ من علماء الإسلام يتجرَّأ على استنباط الأحكام الجديدة ، وكان الفقهُ الإسلامي قد فقد جَدارة النموِّ والتقدُّم ، وَيَعتبر من المستحيل أن يُزاد إلى ثروة الفقه القديمة أَيُّ زيادةٍ.

فكان إصلاحُ هذا الوضع كذلك يحتاج إلى مُحدِّث فقيهٍ وأصوليٍّ ضليع ، يكون قد استعرضَ ذخائرَ المكتبة الإسلامية بأسْرها ، ويستحضرُ الكتاب والسنة بحيث يُحيِّر الناس ، ويَعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانتهِ في صناعة الحديث ، حتى يقولوا: «إنَّ الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجلُ ليس حديثاً» [١].

ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعِهم ودلائلهم في كلِّ حين.

---

(١) من الأقوال التي قالها كبارُ علماء العصر في شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتي في الفصل الرابع.

كما يكونُ له اطلاعٌ تامٌّ على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثَرَ من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين إليها من أهل المذهب ، ولا يَتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه ، عارفاً بمكانة الأئمةِ المجتهدين وفضلِهم وحقِّهم ، ومتطفلاً على موائد علمهم ودينهم ، ويكون ذا قدمٍ راسخةٍ في علوم اللغة وباع طويل فيها ، حتى تأهَّل لذلك للنَّقْدِ والصَّيرفة في مجالها .

يجمعُ إلى ذلك عُلُوَّ الكعب ودقَّةَ النظر في النحو ؛ حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءَهم الفنية .

ويُجددُ بقوةِ عارضته عَهد المحدِّثين الأولين ، ويعتبر ذكاؤه آيةً من آياتِ الله وعلمِه دليلاً على فضل الله ، ويُبرهن بشخصيته على خصوبةِ تربة الأمة الإسلامية وغَضارة دوحة الإسلام ،ونضارةِ العلوم الإسلامية ونُموِّها وازدهارها ، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبي ﷺ من قولته الخالدة: «مَثَل أمَّتي مثلُ المطر ، لا يُدرى أوَّله خيرٌ أم آخره» (١) .

جَامِعٌ بين العِلْم والعَمل ، والسَّيفِ والقلَم:

ويكون مع ذلك من فُرسان العملِ والكفاح ، ويَجمعُ بين القلم والسيف ، جَريئاً على الملوك في الصَّدع بالحق ، لا يُحجِمُ عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أَضرى عدوٍّ مِثل الوحوش التتار ، ويَعرِفُه كُلٌّ من حِلَقِ الدرس ، وزوايا المكتبات ، وخلواتِ المساجد ، ومجالس المناظرة ، ومُعتقلاتِ السجونِ ، وساحاتِ الحرب كفارسٍ عظيم ورجل ذي شكيمةٍ ، مُبجَّلاً في كل عين ومعتَرفاً بإمامته في كل طبقة .

---

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الأدب ، باب مثل أمتي مثل المطر . . . ، برقم (٢٨٦٩) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٠) برقم (١٢٣٤٩) ، وأبو يعلى في المسند (٦/ ٣٨٠) برقم (٣٧١٦) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].

كان القرنُ الثامن بحاجةٍ إلى مثلِ هذا الرجل الكامل الذي يَسعُ نشاطُه كلَّ مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاويةٍ واحدة أو تتركَّز على جانب واحد ، كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظُ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاطٍ وحياة بحركات علمية وعملية ، لا تزال آثارُها خالدةً باقية على مر القرون والأجيال.

* * *

الفصل الثاني:

العَصْرُ الذي عَاش فيه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية

العَصر الذي وُلد فيه ابنُ تَيميّة:

يَتَّسمُ عَصرُ ابن تيميّة بحوادثَ خطيرة وقلاقلَ كثيرة ، وهو عصر ذو أهميَّةٍ كبيرةٍ من النواحي السياسية والاجتماعية والخُلقية والعِلمية والدينية ، ولكي نطَّلع على قيمةِ الجهود الإصلاحية التي قام بها شيخُ الإسلام ابن تيمية ، ونعرفَ طبيعتهُ العلمية والدَّعوية ، يجب أن نَستَعرضَ ذلك الوسط الذي نشأ فيه ، وتركَّزت عليه مُهمته التجديدية والإصلاحية .

وُلد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمسِ سنوات ، ودخول التتار في حلب ودمشق بثلاث سنواتٍ فقط ، فمِن البديهي أنه يكون قد رأى منذ تَعقُّله آثار الدَّمار لهذه المُدن الإسلامية ، وسمعَ قصة مذابح المسلمين وصدى حكايات الفظائع الوحشية التي قام بها التتار في كل مكان ، وترددت على ألسنة الناس جميعاً .

وعندما كان ابنَ سبع سنين شنَّ التَّتارُ حملةً على مسقطِ رأسِه حرَّان؛ التي كانت تَقع في شمالي الأرض المحتلة (العراق) بين دجلة والفرات .

وقد خرجت أُسرتُه شأنَ الأُسر الكثيرة من حَران فراراً من فظائعِ التتار وظُلمهم ، وتوجَّهت إلى دمشق.

وكانت هَيبةُ التتار فاشيةً في الطرق كلّها ، فما عسى أن تُمحَىٰ ذكرى هذه الفَوضى ، والإرجاف والذُّعر من ذاكرته العظيمة ، ولا بُد أن يكون قد شاهَد آثار هذا الخراب والدَّمار بأُمِّ عينيه ، وسَمع تفاصيله المؤلمة عمَّن رأوا مناظره وشهدُوها وشاهدوها ، فمِن الطَّبيعي أن يتأثَّر قلبُه الغيور المرهفُ بنكبَة المسلمين هذه وذلَّتهم ، وتمتلىء نفسُه غيظاً وكراهية لأولئك الوُحُوش الضَّواري.

وكذلك ما حدَثَ في عَين جالُوت من انتصار المسلمين الزاهر إنَّما وقع قبل مَولِده بثلاث سنوات ، كما أن فتوحَ الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديثَ صباه وسميرَ المجالس في ذلك العهد ، فلا شكَّ أن ذلك يكون قد بَعث في قلبه سروراً وقُوة ، وأثارَ في نفسه شجاعة وحماساً.

مُلوك مِصرَ المماليك:

كانَ المماليك يحكمون مِصر والشام من قَبل مولد ابن تيمية بثلاثَ عشرةَ سنة ، وقد كان هؤلاء المماليك أتراكاً أسكَنَهُم الملك الصالح نجمُ الدين أيوب (المتوفى ٦٤٧ هـ) آخرُ ملوك أسرة صلاح الدين الأيوبي اعترافاً بشجاعتهم ووفائهم في مصر ، وعرفوا باسم البَحرية [١] ، وكان مِن بينهم رجلٌ عرف باسم عز الدين أيبك التركماني الذي اغتال تُوران شاه خليفَةَ الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ واستولى على الحكم ، وتلقَّب بلقب الملك المُعز ، واغتيل هو في سنة ٦٥٥ هـ فخلَفه ابنه نور الدين علي.

وفي سنة ٦٥٧ هـ سيطرَ على عرش الحكم غُلام عز الدين أيبك سيف الدين قُطُز وكان رئيس إدارة الحكم ، وذلك هو الذي هزم التتار لأول مرة هزيمة

---

(١) كان مقرُّهم على ضفَّة النيل ولذلك اشتهروا بهذا الاسم، ومن عادة المصريين أنهم يسمُّون النيل بحراً.

نكراء ، وما إن مَضى على تربُّعه عرشَ الحكومة سنةٌ واحدة؛ إذ قتله رُكن الدين بيبرس مملوكٌ من مماليك الصالح نجم الدين أيوب واستولى على الحكم ، واتَّخذ لنفسه لقب الملك الظاهر ، واستمرَّ في الحكم إلى مدَّة ثمانية عشر عاماً في غاية من الأُبهة وعظَمةِ الشأن ، وانتصر على التَّتار والصليبيين متابعاً.

وُلد ابن تيمية في أيام الملك الظاهر بيبرس ، الذي كان يحكم آنذاك مصر والشام ، إنَّه قضى أيام صباه في حكمه ، فلما تُوفِّي بيبرس كان ابن تيمية شاباً بالغاً من العمر ١٥ عاماً.

وكان الظاهرُ بيبرس أولَ ملك قويّ مسلم بعد صلاح الدين اعتنى بأمر الجهاد ، وهزَمَ أعداء الإسلام بالتوالي ، يتحدَّث عنه ابن كثير فيقول:

«كان رحمه الله مُتيقِّظاً ، شَهماً شُجاعاً لا يَفتُر عن الأعداء ليلاً ولا نهاراً ، بل هو مناجزٌ لأعداء الإسلام وأهله ، ولَمِّ شَعثه واجتماع شمله ، وبالجملة أقامه اللهُ في هذا الوقت المتأخر عوناً ونَصراً للإسلام وأهله ، وشجاً في حُلوق المارقين من الفَرَنج والتتار والمشركين ، وأبطلَ الخمور ، ونفى الفسَّاق من البلاد ، وكان لا يَرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته» [(١)].

كانت رقعةُ حكومته واسعةً ، ونظامها متقناً ، فقد امتد حكمه إلى نهر الفرات في الشرق وإلى آخر حدود السودان في الجنوب.

وكانت مصرُ مركز الحكومة ، والقاهرةُ مقرها الرئيسي التي تحولت إلى مركزٍ علمي وسياسي وحضاريّ للعالم الإسلامي في ذلك الحين بفَضل الملك الظاهر ، وإقامة أحد الخلفاء العباسيينَ فيها [(٢)].

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢٧٦.

(٢) بقي المسلمون بعد شهادة الخليفة المستعصم بالله ثلاث سنوات من غير خليفة، يقول المؤرخون عند استهلال العام الجديد «دخلت سنة... والمسلمون بلا خليفة» وأخيراً بايع الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ أحد أفراد بني العباس اسمه المستنصر بالله =

وقد أقبل الملكُ الظاهر على تأسيس المدارس في عدد كبير ، حتى اجتمعَ أهلُ الفضل والعلم في القاهرة من أنحاء بعيدة .

وكان الملكُ الظاهر بيبرس ـ على كفاءته الشخصية ودوافعه الإسلامية وحماسه للجهاد ـ حاكماً مستبداً برأيه ، فلا غرابةَ إذا وُجدت فيه بعضُ مواضع الضعف ممَّا يتَّصف به الملوك المستبدُّون ، وإنَّ تاريخه حينما يتجمَّل بمآثره الجليلة وخدَماته الإسلامية؛ يتَّسم بخصائص المملكة الشخصية وأحداث الاستبداد ، والعناد ، والإصرار أيضاً ، وما حدث للإمام النووي معه من معاملة مؤسفة ، لَدَليلٌ على ذلك [1] .

ومُنذ نهاية حكومة الملك الظاهر التي عاشت ثماني عشرة سنة ، تداول عرشَ الحكم في مصر والشام ملوكٌ كثيرون ، ويمكن أن نُقدِّر ذلك بأنَّ تسعة ملوك تربَّعوا على عرش مصر في فترة ما بين ٦٧٦هـ (وهي السَّنة التي توفي فيها الملك الظاهر) إلى ٧٠٩هـ في خلال ٣٣ عاماً فقط .

وفي خلال هذه الفترة تمتعتِ الدولة الإسلامية في مصر والشام والحجاز بملِكٍ مجاهد قوي مُنظِّم للأمور ، اسمه الملك المنصور سيف الدولة قلاوون؛ الذي شن الغارة على التتار في سنة ٦٧٨هـ وهزمَهم هزيمةً مُنكرة .

وكذلك فَتح طرابلس الشام التي كانت بيد الصليبيين منذ ١٨٥ سنة ، إنَّه حكم بين فترة سنة ٦٧٨هـ و٦٨٩هـ مدةَ اثني عشرة عاماً بغاية من الحكمة والدقة .

ولـمَّا تُوفي المنصور قلاوون عادَ عرش مصر لُعبة بين ملوك وأشباههم ،

= أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر، وقرر مصر قاعدة الخلافة، ولكن هذه المبايعة إنما كانت بالاسم والبركة فقط، إذ كان الملك الظاهر بيبرس هو الحاكم الأصلي في الحقيقة.

(١) اقرأ القصَّة بطولها في ترجمة الإمام النووي في «طبقات الشافعية الكبرى» للشيخ تاج الدين السبكي.

وأخيراً في سنة ٧٠٩ هـ تقلَّد زمام الحكم ابنُه الملك الناصر محمد بن قلاوون في المرة الثالثة ، حتى استقر حكمه إلى ٣٢ سنة .

والحقيقة أنَّ الملك الناصر هو المعاصرُ الأصيل للإمام ابن تيمية الذي يتصل به تاريخه الإصلاحي ، والتجديدي ، إنه كان خليفة الملك الظاهر بيبرس إلى حد كبير ، ومُشاركاً له في عديد من صفاته وخصائصه ، وكان مثالاً لوالده العظيم المنصور قلاوون ، وفي عصرِه نالت الدولة الإسلامية وحدةً وقوةً ، وانتصر على التتار انتصاراً باهراً شأن سَلَفِهِ ، وسَبَّبَ ازدهار الحكومة الإسلامية وانتشار سُمعتها الطيبة .

ظلَّت خراسان ، وفارس ، والعراق تحتَ حكم التتار في هذه الفترة ، ولم تَعُد بغداد إلى أيدي المسلمين ما لم يهتدِ حكامها التتار إلى الإسلام ، على أنَّ الخليفة العباسي في مصر غزا بنفسه ، وأراد الملكُ الظاهر بيبرس غيرَ مرة أن يستردها من أيديهم ولكن دُونَ جدوى ، وقد كانت مصر ، والسودان ، والشام ، والحجاز في حكم المماليكِ آنذاك .

نظام المَملكَة:

كان الإسلامُ دينَ الدولة الرسميَّ في مملكة المماليك ، فقد كان الملكُ وأعيان المملكة كلُّهم يُحبون الإسلام ، وتَجيشُ في قلوبهم حميَّة الإسلام ، والحكومةُ كانت تتولى نَصْبَ القضاة والأئمة وشيوخ الإسلام ، ورجال المناصب الدينية ، مع وجود قسم الحِسبة واعتبار أحكام القضاة واجبة الامتثال ، وكانت المدارس تقوم بتدريس العلوم الدينية الحُرَّة ، ولكنَّ العامل الأساسي في جميع شؤون المملكة ونظامِها كان هو الملك ووزراؤه الموثوق بهم وأعضاء مملكته ، وكان حُكمهم وإرادتهم قانونَ المملكة الأصيل ، ولذلك كانتْ مساحةُ تنفيذ القوانين الإسلامية محدودةً ضيقةً في مملكتهم الواسعة ، وكان نظام الحكومة يشبه النظام العسكري ، ولم يكن يَعتمدُ على دستورٍ مُدَوَّنٍ ، ولا نظامٍ معينٍ ولا كان له مجلسٌ استشاريٌّ .

ولكنَّ الملكَ الظاهر وخلفاءَه من الملوك كانوا يحاولون أن تنال قوانينُ مملكتهم وأحكامِهم وإجراءاتهم تأييدَ العلماء المعاصرين ، ولا ينفذوا أمراً إلا بالاستشارةِ معهم واسترضائِهم ، وقد يُلغى بعض الأحيان قانون جديدٌ صدر من الملك إذا خالفه العلماء.

ولمَّا أراد الملكُ الظاهر بيبرس مصادرةَ الإقطاعات وأراضي الإقطاعيين في مصر ، والشام؛ خالفه الإمام النووي مخالفة عنيفة، ولو أنَّ بيبرس أبدى سخطه على ذلك، واضطرَّ الإمام النووي إلى مغادرة دمشق من جرائه، ولكنَّه لم يتشجَّع على مصادرة الأراضي والإقطاعات كما أرادها ، بل تركها على سابقِ حالها ، ولم يُدخل فيها أيَّ تغييرٍ أو تعديلٍ.

لقد كان أساسُ هذا النظام للمملكةِ قائماً على التوارث ، غيرَ أنَّ الواقع كان على عكس ذلك ، إلا أنه لم يكن مبنياً على أساس إسلامي ، ولا لأنَّ روح الإسلام وتقاليدَه المتبعة تقتضي اختصاص الأمير بكفاءة شخصية وكونهِ موضع ثقة الأمة ، بل لأن أساسَ أسرة المماليك كان يقوم على الكفاح الذاتي ، والشهامة الشخصية ، والسَّعي الدائب والعمل المتواصل ، وأصبحت طبيعةُ هذه المملكة أن يَتغلَّب القويُّ الشجاع ، ويتولى الحكم.

ومعلومٌ أنَّ مماليك الدولة الأيوبية إنما استولوا على مملكة ساداتهم بجهودهم الشخصية ، وهمَّتهم العالية ، واستمرت هذه السِّلسلة إلى آخر زمانهم ، فقد ظل كُلُّ مَلك منهم يجتهد أن يُولِّي ابنه الخلافة ، إلا أن الأقوى جُرأة وهمة من المماليك كان يتغلَّب على غيره ويتربَّع على عرش المملكة ، وإنَّ فُرص الحكم هذه وإمكانياته قد فَتحت أمام الأقوياء وذوي الطُّموح منهم بابَ المنافسة ، وبما يَجري بينهم من مُباراة وتنافسٍ في الحصول على الحكم ، فإذا شُن عليهم هجوم من جهة ، من التتار أو الأفرنج اتحدوا وتعاونوا فيما بينهم أكثر الأحيان.

الوَضعُ الخُلقي والاجتماعيُّ للبلاد:

هذهِ الفئةُ الحاكمةُ التُّركيةُ كانت تعيش في شعور بالأفضلية ، وتمتاز في كل شيء عن المجتمع العام في الدولة ، وتتكلّم بلغتها الأم التركية عدا مناسبات العبادة أو الخطاب مع العلماء أو الحديث مع الجماهير (وقلّما كانت تحتاج إلى الحديث مع الجماهير مباشرة) ، فإنها كانت تستخدم اللغة العربية ، وقد كان البعضُ من هؤلاء الملوك لا يعرفون من العربية إلا القدر الذي يُؤدون به الواجب ، وكانوا مع ذلك يُقدِّرون العلماء ، ويُحبُّون المشايخ والصلحاء ، ويُقبلون على بناء المساجد وتأسيس المدارس ، لم يكونوا يتحيَّزون في تقسيم المناصب إلى فئةٍ دون فئةٍ أو جنسٍ دون جنسٍ ، إلا أنَّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت تتحوَّل إلى الرؤساء الأتراك بحكم الطبيعة ، وكان الأتراك والتتار هم أصحابُ الحكم والإقطاعات الذين كانوا يَستغلون المزارعين والعمال.

وفي ٦٩٧ هـ حينما حاول الملكُ حسامُ الدين لاجين في أيام حكمه توزيعَ الأراضي بطريق ينفع المزارعين ويُصلح حالهم ، وتتقدَّم به الزراعة والإنتاج الزراعي ، لم يرضَ به الحكام في مملكته وثاروا عليه.

كان التتارُ عُنصراً مهماً في المجتمع ، إنَّهم كانوا من مُخلفات الحروب التي نشبت بين سيفِ الدين قطز والملك الظاهر وناصر الدين قلاوون وبين التتار ، فقد أُسر فيها عدد كبير من التتار وجيء بهم إلى مصرَ والشام حيث استوطنوا ، إنَّهم كثروا في أيام الملك بيبرس وملؤوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقُهم فيهما ، كما تحدَّث عنهم المقريزيُّ في «خِطَط مصر» وأنهم على رغم إسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، واستمروا على خصائصهم القومية.

وفي الحقيقة يتعذَّر في التاريخ نظيرُ المهتدين الجدد إلى الإسلام الذين تحوَّلوا إلى الإسلام كلياً ، وتجرَّدوا عن عقائدهم وأفكارهم السابقة وخصائص

حضارتهم وتأثير عقلياتهم تجرداً كاملاً ، إنما كان ذلك من خصائص الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومعجزة النبي ﷺ إذ أَن صراع الجاهلية والإسلام انتهى في حياتهم تماماً ، كأنهم خُلقوا في الإسلام من جديد.

ففي هذا المجتمع والعصر إذ لم يكن للتعليم والتربية نظامٌ دقيق ، وليس في المجتمع الإسلامي من قوة إذابة المهتدين الجدد وصَوغهم في قالبه ، لا يصح أن يُرجى من التتار والأتراك العجم أن ينصاغوا في قالب العقائد والعبادات الإسلامية ، ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم ، ويتجردوا عنها مئة في المئة ، ولذلك فقد كانت حياةُ هؤلاء التتار المسلمين مزيجاً من الإسلام والتأثير الجاهلي ، يتحدَّث عنهم المؤرِّخ المصري الشهير المقريزي في «خطط مصر» فيقول:

«وكانوا إنَّما رُبُّوا بدار الإسلام ، ولُقِّنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملَّة المحمدية ، فَجَمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيِّد إلى الرديء ، وفوَّضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين ، وأربابِ الديون ، ونحو ذلك.

واحتاجوا في ذاتِ أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان والاقتداء بحكم الياسق ، فلذلك نَصَبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويِّهم وإنصاف الضعيف منه على مقتَضى ما في الياسق ، وجعلوا إليه مع ذلك النظرَ في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات؛ ليُنفِّذوا ما استقرتْ عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب ، وكانت من أجلِّ القواعد وأفضلها حتى تحكَّم القِبط في الأموال وخراج الأراضي»[1].

وكان لزاماً أن يتأثَّر المجتمع الإسلامي والعرب القدامى بما حمل إليهم هؤلاء الأتراك العجم والتتار المُهتدون ، من عادات ، وأخلاق ، وحضارات ،

(١) خطط مصر: ج ٢ ، ص ٢٢١.

وتقاليد ، واجتماع ، حتى بما اتَّصفوا به من عقائد وأفكار ، لقد كان الشرق والغرب يختلطان فيما بينهما ويجتمعان بهجوم التتار وفي حالة انتصارهم وانهزامهم ، كما اختلطت آسيا وأوربة في الحروب الصليبية ، قد بدأ هذا الاختلاط من الاشتباكاتِ في ساحة القتال ، ولكنَّه انتهى بالامتزاج الحضاري والفكري والخُلقي ، وتأثَّر كل واحد بصاحبه وأثَّر عليه.

إنَّ هذا الاختلاط أحدثَ مشكلاتٍ جديدةً وعديدة ، فقد نشأتْ حضارةٌ جديدةٌ واجتماعٌ جديدٌ ، يَصعُبُ الحكمُ فيها هل هي حضارة إسلامية أو اجتماع عربي؟ وفي مثل هذا الوضع تتَضاعف مسؤولية مُصْلِحٍ ومُربٍّ لا يَرضى بوجود أيِّ عادة من عادات الجاهلية أو تأثير غير إسلامي في مجتمع المسلمين ، ويُريد أن يرى هذا المجتمع تابعاً للكتاب والسنَّة بأكملهِ ، ومقتفياً آثار الصَّدر الأول وخيرِ القرون من المسلمين ، ويُحب أن يراه تفسيراً عملياً لقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الوَضعُ العِلمي:

نَهَضَ في أوساط هذا القرن أئمةٌ كبارٌ كالعلاَّمة تقيِّ الدين أبي عمرو ابن الصَّلاح (٥٧٧ ـ ٦٤٣هـ) وشيخ الإسلام عزِّ الدِّين بن عبد السلام (٥٧٨ ـ ٦٦٠هـ) والإمام محيي الدين النَّووي (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار مثل المحدِّث الكبير شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢هـ) ، والأصولي المتكلِّم العلامة علاء الدين البَاجي (٦٣١ ـ ٧١٤هـ).

وقد كان من مُعَاصري ابن تيمية كبارُ المحدِّثين والمؤرخين كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المِزِّي (٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ) والحافظ علم الدين البُرزالي (٦٦٥ ـ ٧٣٩هـ) والعلامة شمس الدين الذَّهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ) الذين كانوا يُعدُّون «الأركان الأربعة» للحديث والرواية في عصرهم ، والذين يَعتمدُ على كتبهم المتأخِّرون من العلماء.

كما نَبغ في عصره أساتذةُ الفنّ البارعون وعلماءُ ذوو كفاءاتٍ علمية قوية كانوا مرجع الخلق وطار صيتهم العلمي في الآفاق ، كقاضي القضاة كمال الدين بن الزَّمْلكاني (٦٦٧ ـ ٧٢٧هـ) وقاضي القضاة جلال الدين القَزْويني (م٧٣٩هـ) وقاضي القضاة تَقي الدين السّبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦هـ) والعلامة أبي حيّان النَّحوي (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ) .

لقد كان انتشارُ العلم في تقدُّمٍ مطردٍ ، فقد وُجدت في مصر والشام مدارسُ كبيرة ، ودور الحديث ، تلك التي أسسها الأيوبيون والمماليك ، كان يَـؤُمُّها الطُّلاب من أنحاء العالم لتلقي العلوم الدينية والعقلية ، وكانت مكتباتٌ كبيرةٌ تابعةٌ لهذه المدارس وأخرى مستقلة بذاتها تحتوي على ذخائر علمية ونوادر من كلِّ علمٍ وفنٍ ، لا يُوصد بابُها لأي دارس ، ولقد كانتِ المكتبةُ التابعة للمدرسة الكاملية التي أسَّسها الكامل محمد الأيوبي سنة ٦٢١هـ تحتوي وحدَهَا على مئة ألفِ كتاب .

وقد أُلِّفَ في نفس هذا القرن كتبٌ جليلة تعتبر مرجعاً للمتأخِّرين من العلماء ، مثل: «مقدِّمة» العلامة تقي الدين ابن الصلاح ، و«القواعد الكبرى» للشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، و«المجموع» (شرح المهذَّب) وشرح مُسلم للإمام النووي وكتاب «الإمام» ، و «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد و«تهذيب الكمال» لأبي الحجاج المِزِّي ، و«ميزان الاعتدال» و«تاريخ الإسلام» للعلامة الذَّهبي .

باستثناء عددٍ من الشخصيات ومآثرَ علمية كان يتَّسم العلم والتأليف في هذا القرن بالسَّعة وقلَّة التعمُّق ، ويغلب طابع النَّقل والاقتباس على التفكير والدراسة والتعمق في العلم ، وتكوَّنت للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديد لا تقبل المُرونة والتسامح ، وإن كان القولُ السائد أنَّ الحق دائر بين المذاهب الأربعة ، ولكنَّ أتباع كُلِّ مذهب يحصُرون الحق في مذهبهم في الواقع ، ولا يزيدون إذا توسعوا كثيراً على أن يقولوا: «رَأيُ إمامنا صوابٌ يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب» .

لقد كان أتباعُ كُلِّ مَذهب يُرجِّحون مذهبهم الفقهي على سائر المذاهب الفقهية ، ويعتبرونه مَقبولاً ومؤيَّداً من الله ، كانوا يبذلون كُلَّ ذكائهم وقوة بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره.

أمَّا النظرةُ التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم ، والعقلية التي كانت تسود على أهلها فيمكن تقديرُ ذلك بأن الملك الظاهر بيبرس لمَّا نصب لكل مذهب قاضياً للقضاة خاصاً به ، خلافاً للعادة المتَّبعة في زمنه ، وهي ألا يكون قاضي القضاة إلاَّ شافعياً ، استنكر ذلك فقهاءُ الشافعية ، إذ كانوا لا يرضون إلا أن يروا مصر خاضعة للقاضي الشافعي. ظنّاً منهم أن مصرَ أحق بالمذهب الشافعي لأنها مَدفن الإمام الشافعي ، ولما انتهى حكم الملك الظاهر وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيرها ، رأى ذلك بعضُ الشافعية نقمة إلٰهية وعقاباً لِفعلته التي فعلها.

وقد كان التعصُّبُ الكلاميُّ مع التحزُّب الفقهي بالغاً مداه ، كان أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخاً فيما بينهم معترفين بعضهم بفضل بعض، يتبادلون الحبَّ والإكرامَ والزيارةَ ، غير أنَّ اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبه مستحيل ، فبينما كانت المذاهب تختلفُ في الأفضلية والأولوية، كانت الأشعرية والحنبلية تختلفان في الكُفر والإسلام ، كلُّ طائفة كانت تُلِحُّ على تكفير الطائفة الأخرى ، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعُّر المتكلِّمين تتغلَّب على جميع المباحث الأخرى ، وكان هذا الذَّوق فوق كلِّ ذوق ، يَسكَر به العامةُ والخاصة جميعاً وتُبتلى به الحكومات أيضاً.

هذا ، وكان التصوُّف في جانبٍ آخر قد بلغ أوجَه ، ودخل فيه كثير من الأفكار والعناصر غير الإسلامية ، وانتمى إليه كثيرٌ من الجهلاء والمحترفين والمبتدعين المارقين ، وسبَّبوا ضلال العامة والخاصة ، وازدهارَ الشرك والبدع في المجتمع.

كما اشتغلتْ طائفةٌ من الفلاسفة بنشر تعاليمها جَهراً وعلانية حيناً ، وسِرّاً وخفية بعض الأحيان ، مُتحرِّرة من قيود الدين وتعاليم الأنبياء ، وطائفةٌ أخرى

كانت تعتبر الفلسفـةَ مقياساً أصيلاً وتُريد ترقيعها بالأديان ، وتحاول التوفيق بين العقل والنقل. وكانتِ الطائفتان كلتاهما من مُقلِّدي أرسطاطاليس ، وأفلاطون ، ومُقدِّسي أفكارهما وآرائهما ، ومن المعتقدين لصحةِ علومهما وفضلهما ، وكونهما أمراً فوق الطاقة البشرية ، فلم تكونا تَعترفان بخطئِهما في أي ناحية ، ولا تحيدانِ في شيءٍ عن نتاج أفكارهما ، ودراستهما.

كان ذلك هو الوسطُ السياسيُ والاجتماعيُ والفكريُّ والعلميُ الذي ترعرع فيه ابنُ تيمية ، ورَفع فيه لواءَ الإصلاح والتجديد.

* * *

الفصل الثالث:

نشأةُ ابنِ تيمية وَحَياته

مَسْقَطُ رأس ابنِ تيمية:

تَتَوزَّع بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) بين جُزءين:

١ ـ الجزء الجنوبي الذي يُسمى بالعراق العربي، وهو يتضمن بغداد والبصرة.

٢ ـ الجزء الشمالي ويسمى في الأدب العربي القديم بديار بكر وديار مضر، ويُعبِّر عنه الجغرافيون العرب باسم «الجزيرة»، ويقع في شمالها أرمينيا، وفي جنوبها العراق العربي، وفي شرقها كردستان، وفي الغرب آسيا الصغرى وبادية الشام، وفي هذه المنطقة تقع الموصل والرقة (البيضاء) ونصيبين والرُّها [1]، وفي جنوب الرُّها على بعد ثماني ساعات تقع حرَّان، المدينة التاريخية الشهيرة التي ظلت مركزاً دينياً وعلمياً للصابئين من قديم كما يقول ابن حوقل، واشتهرتْ هذه المدينة وامتازت بصفةٍ خاصة بالفلسفة والعلوم اليونانية القديمة، وتلك هي حران التي كانت موطن ابن تيمية القديم حيث كانت أُسرته تسكن من قرون.

---

(١) وتُعرَف اليوم باسم «أورفا» وهي ضمن دولة تركيا اليوم.

أُسرةُ ابن تيمية:

أُسرةُ ابن تيمية [١]التي عُرِفتْ بهذا الاسم من قديم ، كانت أُسرة حران المعروفة بالعلم والدين ، وكانت هذه الأسرة ـ منذ أن عُرف تاريخها ـ حنبليةَ العقيدة والمذهب ، تتزعَّم المذهب الحنبلي في تلك الديار ، واشتغل رجالُها العلماء دائماً بالتدريس والإفتاء والتأليف .

كان جَدُّ ابن تيمية أبو البركات (مجد الدين) من أئمة المذهب الحنبلي وكبارِ علمائه ، وقد سماه بعض أهل العلم بالمجتهد المطلق [٢] ، يقول الحافظ الذَّهبي إمام فَن الرجال في كتاب «النبلاء» :

«وُلد مجد الدين ابن تيمية حوالي سنة ٥٩٠هـ ، وأخذ العلم أولاً عن عمه الخطيب والواعظ الشهير فخر الدين ابن تيمية ، ثم تلقى العلم من محدِّثي وعلماء حرَّان وبغداد ، وتخرَّج عليهم ، وبرع في الفقه ، وانتهت إليه الإمامة في الفقه. ولمَّا وصل إلى بغداد في سنة ٦٥١هـ في رحلته إلى الحج قضى عُلماء بغداد العجبَ مما رَأوه من ذكائه وبراعته في العلم .

يقول الإمامُ الذهبي : «حكى لي شيخُ الإسلام ابن تيمية بنفسه أنَّ الشيخ ابن مالك[٣] كان يقول : لقد ألان الله الفقه لمجد الدين ابن تيمية كما ألان الحديد لداودَ عليه السلام» .

---

(١) كانت بداية هذه النسبة منذ جده الأكبر محمد بن الخضر، واختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية، وقيل: إن اسم أم محمد بن الخضر التي كانت واعظة كان: تيمية، ومن هنا انتمت هذه الأسرة إليها.

(٢) راجع ترجمة صاحب «منتقى الأخبار» بقلم العلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار».

(٣) [هو محمد بن عبد الله بن مالك ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة في علوم العربية ، وُلد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق وتوفِّي بها سنة ٦٧٢ هـ ، ومن أشهر كُتبه «الألفية» في النحو].

وكان يقولُ أيضاً: «إنَّ جدنا (مجد الدين) كان فيه شيء من السَّورة والغضب.

وقد سأله أحدُ العلماء مرَّة عن مسألة علمية ، فقال له: إنَّ جواب هذه المسألة على ستين طريقاً ، ثم عدد عليه كلَّ جواب واحداً بعد آخر وقال له: حَسْبُكَ أن تُعيدها ، إنه دُهش بهذا الذكاء النادر وبُهت.

ويقول ابنُ تيمية أيضاً: إنَّه كان فريد دهره في نقل المتون وحفظ المذاهب ، لم يكن يفتقر في ذلك إلى تكلُّف أو اهتمام [(١)].

توفِّي سنة ٦٥٢هـ ، ومن أشهر تصانيفه وتذكاره العلمي «منتقى الأخبار» استفاد منه العلماء ، واعتنوا به في كل عصر ، وقد اهتم المؤلف في هذا الكتاب بِجَمع الأحاديث حول الأبواب الفقهية ، التي تُعتبر دليلاً لأهل المذاهب ومرجعهم.

وقد تَصدَّى في الأخير عالمُ اليمن المجتهد ومحدِّثها النابغة العلامة محمد بن علي الشَّوكاني المتوفى ١٢٥٥هـ لشرح هذا الكتاب فشرحه في ثمانية مجلَّدات باسم «نيل الأوطار» الذي يَحْتلُّ مكانةً مرموقةً في الأوساط العلمية والتدريسية لما يحتوي عليه من حسن التلخيص وجودة الترتيب والبحوث المقنعة ، وسَعة نظر المؤلف ، ورَحابة قلبه[(٢)].

أمَّا والدُ ابن تيمية الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية فقد كان عالماً مُحدِّثاً ، وفقيهاً حنبلياً ، وصاحب تدريس وإفتاء ، ولمَّا انتقل من حران إلى دمشق قام بالتدريس بصورة مُنظمة في الجامع الأموي الذي كان يعتبر مركزاً لكبار العلماء والمدرسين ، ولم يكن يَسعُ كلَّ عالمٍ أو مدرِّسٍ أن يُدرِّس فيه ، وقد كانت تمتاز دروسه بالارتجال والتكلُّم عن ظهر القلب ، من غير أن يستعين في أثناء التدريس بكتاب ، إنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه ، وولِّي مع ذلك

(١) وقد انتقلت هذه الخصائص كلها إلى حفيده العظيم.

(٢) راجع «البداية والنهاية» ج١٣ ص٣٠٣.

شياخة دار الحديث السُّكرية[١] بالقصَّاعين وبها كان سكَنه ، توفي سنة ٦٨٢هـ ودفن بمقابر الصوفية[٢] رحمه الله [٣].

مَولدهُ وانتقاله من حرَّان إلى دمشق:

وُلد تقي الدين ابن تيمية يوم الإثنين ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١هـ في هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة ، وسماه والده بأحمد تقي الدين ، واكتنى بأبي العباس يافعاً ، ولكنه اشتهر بابن تيمية ، وغَلب لقبُه النسبي على اسمه وبذلك عُرف بين الناس.

وقد ذكرنا أنَّ عصرَ ابن تيمية كان مليئاً بالقلاقل وفظائع التتار ، فقد كان العالم الإسلامي كُلُّه يرتجف خوفاً من التتار الوحوش ، غير أنَّ أرض العراق والجزيرة كانت مجالهم بصفةٍ خاصةٍ ، وما كاد ابنُ تيمية يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغار التتار على حرَّان ، فالتجأتْ أسرته إلى الفرار منها بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة ، وما كانت تملكه من الفضل والكرامة والشرف والطهارة شأنَ مئات من أُسَر العلماء والأشراف.

وبما أنَّ العراق كان مركز غارة التتار ونهبِهم لم تُفكِّر هذه الأسرة في الهجرة إليه ، وكانت الشام أقرب بلدٍ لم يصل إليه لهيب هذا الفساد والدمار حيث كانت تحكم ملوكُ مصر الأقوياء ، فاتجهتْ إليها أسرة ابن تيمية ، وقصدت دمشق فراراً من فِتنة التتار وغارتهم.

---

(١) [كانت داراً ، وقفها زكي الدين أحمد بن طلائع على الأمير شرف الدين سُكَّر ، ومن بعد تصبح دارَ حديثٍ ومسجداً ، وبعد أن أصبحت دارَ حديثٍ ، سكَنَ فيها شيخُ الإسلام ابن تيمية ، والمدرسة اليوم داخلة في البناء الملاصق لدار القرآن الخيضرية من الجنوب ، ولا أثر لها (خطط دمشق: للأستاذ أكرم حسن العلبي: ٨٠ ـ ٨١)].

(٢) [وهي المقبرة الشهيرة التي هي مدفن كبار أهل العلم والصلاح ، كابن عساكر ، وابن الصلاح ، وابن الأثير ، والحافظ المزِّي ، وابن كثير ، وقد دُرِسَتْ وبُنيتْ عليها عمارة جامعة دمشق].

(٣) راجع «البداية والنهاية» ج ١٣ ص٣٠٣.

ولم تنسَ هذه الأسرةُ العظيمةُ في مثل هذه الحالة القَلِقَةِ والوضع القاسي أن تنقل معها مكتَبَتها الثمينة التي كانت تراثها العلمي التَّليد الوحيد ، ولم ترض بمفارقتها على الرغم ما ستُقاسِيه من جرائها من متاعب ومشاقَّ شديدة ، وحمَّلت الكتب أغلى متاعها على مركبةٍ وخرجت ليلاً من غير أن يُفارقها خوف التتار ، فقد كان الخوف يشملُ كلَّ مكان ومعها النساء والولدان ، وقد تزايدتِ الصعوبة والمشقة في جرِّ المركبة بالأيدي لعدم توفر الدَّواب ، وكان هذا الركب سائراً على قدم وساق ، إذ كاد العدو (التتار) يلحقهم لتوقف المركبة عن السير ، وهنالك تضرَّع أعضاءُ الأسرة إلى الله واستعانوا به ، حتى نَصرهم الله وأنجاهم من المهلكة.

في دمشق:

وما كادتْ هذه الأُسرةُ العلمية تصِل إلى دمشق حتى شاع خبرُها في أوساط الناس ، وقد كان أصحابُ العلم عارفين باسم أبي البركات مجد الدين ابن تيمية وأعمالهِ ، كما كان عبد الحليم ابن تيمية معروفاً بينهم بعلمه وفضله ، وما هي إلا بضعةُ أيام إذ بدأ عبد الحليم يُدرس في الجامع الأموي ، وفي دار الحديث السُّكَّرية ، وصار مرجعَ الطلبة وعلماء المذهب الحنبلي ، وهكذا لم تشعرْ هذه الأسرة في هذا البلد الجديد بأيِّ غُربةٍ أو وحشةٍ.

وانتهى ابنُ تيمية الصغيرُ من حفظ القرآن الكريم في وقت مُبكِّر ، واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعُلوم العربية ، وكان يحضُر خلال ذلك رغم صِغر سنِّه مجالسَ التدريس والوعظ عند والده ، وعندَ العلماء في حِلَقهم ، ويُشارِكهم في المذاكرات العلمية التي كانت سبباً لتوسع عقلهِ الأخَّاذ وتفتُّح ذهنه الفحَّاص.

ذاكرةٌ عَبقريَّةٌ:

عُرِفت أسرةُ ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرةِ الحفظ وسُرعتِه ، فقد كان أبوه وجدُّه قويي الذاكرة ، ولكنَّ تقي الدين ابن تيمية سَبق أسرته كُلَّها في هذه

النعمة ، فقد أدهش العلماءَ وأساتِذته بذاكرته القوية النادرة وسرعةِ حفظه واشتهر بذلك في دمشق ، يتحدَّث عن ذلك صاحب «العقود الدرية»[1] فيقول:

«اتَّفق أنَّ بعضَ المشايخِ العلماء بحلَب قدِم إلى دمشق ، وقال: سمعتُ في البلاد بصبيٍّ يقال له أحمد ابن تيمية ، وأنَّه سريع الحفظ ، وقد جئتُ قاصداً لعلِّي أراه ، فقال له خيَّاط: هذه طريقُ كُتَّابه ، وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعد عندنا الساعة يَجيء ، فجلس الشيخ الجليل قليلاً فمرَّ صَبِيَّان ، فقال الخياط للشيخ الحلبي: هذا الصبيُّ الذي معه اللوح الكبير هو أحمد ابن تيمية ، فناداه الشيخ فجاء إليه ، فتناول الشيخُ اللوح ، فنظر فيه ثم قال: يا ولد امسح هذا حتى أُملي عليك شيئاً تكتبه ، ففعل ، فأملى عليه من مُتون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً فقال: اقرأ هذا ، فلم يزد على أن تأمَّله مرة بعد كتابته إياه ، ثم رفعه إليه ، وقال: اسمعه ، فقرأ عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع ، فقال: يا ولدي امسح هذا ، ففعل ، فأملى عليه عِدةَ أسانيد انتخبها ، ثم قال: اقرأ هذا . فنظر فيه كما فعل أول مرة ، فقام الشيخ وهو يقول: إنْ عاش هذا الصبيُّ ليكونَنَّ له شأنٌ عظيمٌ ، فإنَّ هذا لم يُر مثلُه»[2] .

وبالنسبة إلى حكايات سرعة الحفظ وقوة الذاكرة التي تتضمَّنها كُتب التاريخ الموثوق بها ، وما نشاهده ونجربه في رواة وأئمة الأدب من أمثلة عديمة النظير للذاكرة النادرة ، فليست قصةُ ذاكرة ابن تيمية هذه مستحيلةٌ ولا غريبةٌ ، وإنما يُصدِّق ما ظهر منه نفسُه في حياته الآتية من وقائع الحفظ والنقل أنه رُزق ذاكرة عبقرية يتعذَّر نظيرها.

الدِّراسةُ والتَّخرُّج:

بدأ ابنُ تيمية دراسة العلوم باهتمامٍ وعناية بالغين ، يتحدَّث عنه معاصروه

---

(١) [هو تلميذ شيخ الإسلام الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي ، وكتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قد طبع بعناية الشيخ محمد حامد الفقي].

(٢) ابن تيمية: لمحمد أبي زهرة ، ص٢١.

ومؤرخوه أنه رَغم صِغَر سنه لم يكن يتَّجه إلى الملاعب والملاهي كما يفعل الأطفال فلم يكن يُضيع فيها وقته ، ولكنْ كان على ذلك مطلعاً على أمور الحياة والمجتمع في ذلك الوقت وخبيراً بأحوال المدينةِ وعاداتِ الناس وأخلاقهم ، ويبدو من تأليفاتهِ أنه كان واسعَ النظر عميقَ الدراسة للحياة والمجتمع ، ولم يكن يعيش في عُزلة عن الجماهير قابعاً في ركن علمي فحسب .

درس ابنُ تيمية العلومَ المعروفة في عصره ، وعُني بالعربية عناية كبيرة وبرع في اللغة والنحو براعةً تامة ، وقد اعتنى بدراسة «الكتاب» لسيبويه بنظر ناقد ، وعقل فاحص ، وهو كتاب له أهمية كبرى في النحو ، (حتى إذا قيل «الكتاب» مُطلقاً يعنى به كتاب سيبويه) فخالفَ فيه بعضَ مسائله وانتقد مواضع ضَعفه ، وأخذ على المؤلف أخطاءه ، وكانت له مَلَكةٌ قوية في العربية واللغة والنحو استخدمها في حياته العلمية واعتمد عليها في أبحاثه وتأليفاته ، وقد حَفِظَ على ذلك جزءاً كبيراً من مَنثور كلام العرب ومنظومه .

ودرس أحوالَ الجاهلية والعرب الأولين ، وتوسَّع في دراسة تاريخ العهد الإسلامي والدول الإسلامية ، واستفاد من كلِّ هذه الدراساتِ المتنوِّعة الواسعة في مناحي حياته العلمية المختلفة فيما بعد ، ولم يُوجد ممن عاصروه وناظروه من العلماء أحدٌ يساويه في سَعة المعلومات وعُمق النظر ، وكان ذلك سبباً كبيراً لتفوُّقه العلمي وكَعْبه العالي في العلم والتحقيق .

وعُني مع دراسته للعلوم بالخط والحساب والعلوم الرياضية ، وتلقاها من أساتذتها .

كما أنه اعتنى بالغ الاعتناء بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض والحديث والتفسير .

أمَّا الفقهُ الحنبلي فقد ورثه من آبائه ، وكان أبوه أستاذه العطوف ومربِّيه المخلص في هذه الناحية .

وكان سماعُ الحديث وحفظه وكتابته من عاداتِ عصره المتبعة ، وأولُ

كتاب حفظه في الحديث «الجمع بين الصحيحين» للحُميدي ، ثم استفادَ من شيوخ عصره وعلماء الشام وأخذ عنهم الحديث ورواهُ.

يقول ابن عبد الهادي: «إنَّ شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مئتي شيخ ، ومن خواص شيوخه ابن عبد الدائم المقدسي ورجال طبقته ، وسمع (مسند الإمام أحمد) مرات ، وكذلك سمع الصحاح الستة مراتٍ عديدة» (١).

أمَّا التفسير فكان أحبَّ موضوع لدى ابن تيمية ، وكان له شَغفٌ زائد بهذا الفن ، يتحدث بنفسه أنه درس أكثر من مئه كتاب في تفسير القرآن ، وكانت له مناسبة طَبعية بهذا الفن ، وقد أفاضَ الله عليه علومَ القرآن بوجه خاص لكثرةِ تلاوته القرآن والتدبُّر في معانيه ودراستِهِ بتأمُّل وبصيرة ، وكان لا يكتفي بدراسة القرآن فحسبَ بل يُنيب إلى ربِّه ويسأله نِعمة فَهم القرآن وشَرْح الصدر ، إنه يتحدث عن طَلَبِه لعلم القرآن وتدبُّره فيه ، يقول:

«ربَّما طَالعتُ على الآية الواحدة مئة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علِّمني ، وكنت أذهبُ إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله وأقول: يا مُعلِّم إبراهيمَ فهِّمني» (٢).

وكانت لِعلمِ الكلام الذي حمل لواءه الأشاعرةُ كلمةٌ نافذة في هذا العصر ، ولا سيما في مصر والشام ، فقد كان السلطان صلاح الدين نفسُه أشعرياً ، حافظاً لمتن قُطب الدين أبي المعالي الأشعري (الذي كان قد ألَّفه في العقائد) منذ صِغره ، وكان يُشرف على تحفيظه لأولاد أسرته الصغار ، وكان هو وخلفاؤه بنو أيوب قَد جعلوا الناس ملتزمين للعقيدة الأشعرية ، فكانت «الأشعرية» تتمتَّع بحماية الحكومة إلى عصره وعصر خلفائه مماليك مصر (٣).

وكانت الحنابلة يُعتبرون خصماً معارضاً للأشاعرة ، تَحدث بينهم بعض المناوشات الكلامية ويشتغل كلا الفريقين بالجدل والكلام ، فقد كان كلام

---

(١) راجع «الكواكب الدرية».

(٢) العقود الدرية: ص٢٦.

(٣) راجع «خطط مصر» للمقريزي.

الأشاعرة وطريقُ إثباتهم مبنياً على الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي.

أمّا الحنابلة فكانوا يبحثون عن المعاني الظاهرة للنصوص والآيات والأحاديث، وكان يبدو بعض الأحيان أنّ كفتهم تطيش في الجدال العلمي لعدم تعمقهم في علم الكلام وانقطاعِهم عن ممارسة العلوم العقلية، فكان يغلب على الظن ويُخيل إلى الناس أنّ خبرتهم بالعلوم العقلية قليلةٌ أو عديمة وأنهم ليسوا متعمّقين في العلم.

ولعلّ ذلك ما حفز ابن تيمية، ذلك الشاب الغيور والعالم الذكي على التوسع والتعمُّق في علم الكلام والاطلاع على العلوم العقلية مباشرة، فعكف على الدراسة العميقةِ لهذه العلوم وتبحّر فيها حتى أدرك مواضع الضّعف فيها وأخطاء مؤلفيها وأئمتها من حكماء اليونان، وتصدّى للرد على هذه العلوم وانتقادها، وألف كتباً عَجزت الأوساط الفلسفية كُلُّها عن الردّ عليه.

والحاصلُ أنّ ابن تيمية شمّر عن ساق الجد لشرح الكتاب والسنة في عصره وإثبات تفوُّق الدين وصحته، وإزالة معالم الضلالات العلمية والعملية، وتسلّح له بأسلحة علمية، كان يتطلّبها ذلك العصر في خضمّ علومه وفترةِ الفوضى العلمية والفكرية، إنه تعلم المحاربة بالأسلحة التي كان معارضوه من أعداء الإسلام قد تسلّحوا بها، إنه تبحّرَ في العلوم بما أدهش معاصريه، يَعترف بفضله ونبوغه العلمي مُعاصِرُه الشهير العلامة كمال الدين الزَّملكاني، ويقول:

«قد أَلانَ الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سُئل عن فن من العلم ظنّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثلَه، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه، ولا تكلّم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرِها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف» [١].

---

(١) الكواكب الدرية: ص٥.

دَرْسُ ابن تيميّة الأول:

وما كاد ابنُ تيمية يبلغ من عمره ٢٢ سنة حتى تُوفِّي والده العظيم عبد الحليم بن تيمية في سنة ٦٨٢هـ ، وحدَث فراغ كبير في مشيخة التدريس بدار الحديث السُّكَّرية .

ولكن لم يَطل على فراغه زمن طويل ، وخلفه في التدريس ابنهُ النابغة في الثاني من محرم ٦٨٣ هـ وسدَّ ذلك الفراغ ، وألقى درسه الأول وكان في ذلك الحين ابن ٢٢ سنة، وقد حَضر درسه هذا الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها ، فالشيخ قاضي القضاة بهاء الدين بنَ الزَّكي الشافعي كان حاضراً بنفسه علاوة على الشيخ تاج الدين الفِزاري شيخ الشافعية ، والشيخ زين الدين بن المنجا الحنبلي من علماء الحنفية ، وغيرهم من سراة العلماء وكبارهم حضروا درسه الأول الذي ترك في نفوسهم تأثيراً عميقاً ، وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي ، وسرعة بديهة العالم الشاب ، وفصاحته ، وجراءته .

يتحدَّثُ الحافظ ابن كثير تلميذُ ابن تيمية ضمن أحداث سنة ٦٨٣ هـ عن درسه هذا ، ويصفه بما يأتي :

«وكان دَرساً هائلاً ، وقد كتَبَهُ الشيخ تاج الدين الفِزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرةِ ما استحسنه الحاضرون ، وقد أطنبَ الحاضرون في شكره على حداثة سِنِّه وصغره ، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين» [(١)] .

«ثم جلسَ الشيخ تقيُّ الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيِىء له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره ، وكان يجتمعُ عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يُورد من العلوم المتنوعة المحرَّرة مع الديانة والزهادة والعبادة مما

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ص٣٠٣.

سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان ، واستمرَّ على ذلك مدة سنين متطاولة»[١] .

رِحلته إلى الحج:

«في سنة ٦٩٢ هـ حَجَّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله مع الركب الشامي» وكان أميرُهم الباسطي ، ونالهم في «معان» ريحٌ شديدة جداً مات بسببها جماعة ، وحملتِ الريح جمالاً عن أماكنها ، وطارتِ العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه»[٢] .

عُقوبة شاتِم الرسول ﷺ :

«في سنة ٦٩٣ هـ حدَث ما ظهرت به حميَّتُه الدينية وعاطفته الإيمانية بشكل علمي ، فقد كان في دمشق رجلٌ اسمه عساف النصراني شهد عليه جماعة أنه سبَّ النبي ﷺ ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي ، فاجتمع الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث ، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة ، فكلماه في أمره ، فأجابهما إلى ذلك ، وأرسل ليحضره ، فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس ، فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب ، فسبُّوه ، وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوي: إنه خير منكم ـ يعني النصراني ـ فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عسافاً ، ووقعت خبطة قوية ، فأرسل النائب ، فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي ، فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما في العذراوية ، وقدم النصراني فأسلم ، وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحُقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين ، فأرضاهما ، وأطلقهما.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٣ ، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق ج ١٣ ، ص ٣٠٣.

وصنَّف الشيخ تقي الدين ابن تيمية في هذه الواقعة كتابه الشهير «الصارم المسلول على شاتم الرسول» (١).

«وفي الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٥ هـ تُوفي شيخ الحنابلة العلامة زين الدين ابن المنجَّا فخلفه ابنُ تيمية، وشَغَل شياخة التدريس في المدرسة الحنبلية» (٢).

المعارضة الأولى:

وبينما كان ابنُ تيمية مَشغولاً بالدرس والتدريس، وكان إقبالُ الناس من الخاصة والعامة كبيراً عليه؛ إذْ قامت عليه الضَّجة لأوَّلِ مرة في سنة ٦٩٨ هـ، واستهدفت شخصيته، ومُعْتقداته بصفة خاصة.

وممَّا يُحكى عن تفاصيل هذه القصة أنَّ بعض أهل «حماة» من الشام وجَّهوا إليه استفتاءً في سنة ٦٩٨ هـ يسألونه فيه عن تحقيق العلماء في الصِّفتين التي وصف الله بهما نفسه في هذه الآيات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] و﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وما أشبههما؛ وعن تحقيقهم في هذه الأحاديث «إنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»(٣) و«يضع الجبَّار قدمه في النار»(٤) وما شاكلهما، وسألوه عمَّا يذهب إليه أهل السنة من

---

(١) البداية والنهاية: ج١٣، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٤٤.

(٣) [أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ٤١٤) برقم (٧٧٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٧) برقم (٣١٤٠) من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٤٧) برقم (١٥٣٠) من حديث عائشة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٠): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه العلاء بن الفضل. قال ابن عدي: في بعض ما يرويه نكرة وبقية رجاله وثِّقوا].

(٤) [لم نجده في مصادر الحديث إلا ما ذكره أبو الحسن الجزري في «اللباب في تهذيب الأنساب» (١/ ٤٠٨)، وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه (٥/ ١٢٧) بمعناه من =

العلماء في باب صفات الله تعالى.

فأجابهم شيخُ الإسلام عن هذه الأسئلة بتفصيل كبير وإيضاح كافٍ [(١)]، وتحدَّث عن مذهب الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والمتكلِّمين والمتقدِّمين من العلماء (كالإمام أبي الحسن الأشعري، والقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين) مستدلاً بأقوالهم وتآليفهم، وأثبتَ من مقتطفات كتبهم أن كل هؤلاء العلماء إنما كانوا يرون الإيمان بصفات الله تعالى من واجبات الدين، وأنهم يعترفون بحقيقتها التي تتفق مع جلال الله تبارك وتعالى وتجدر بذاته العلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ومع التنزه الكامل من كل تشبيه أو تجسيم ومن كل نفي وتعطيل.

يعني أن هذه الصفات لا يقيسونها على صفات الخلق، ولا أنهم ينكرونها، وينفونها من شِدَّة المغالاة والإفراط في التنزية والتقديس، ولا أَنهم يُؤولونها تأويلاً يبعدها عن الحقيقة ويتركها مجرد كناية ومجاز، بل إنهم كما يؤمنون بذاته وصفاته السبع (من الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة) يؤمنون كذلك بحقيقتها التي تتَّفق وعظمة الألوهية.

كما أَنَّهم يؤمنون بالألفاظ المنصوصة من الوجه، واليد، والغضب، والرضا، وفي السماء، وفوق العرش، حقيقةً من غير تأويل أو مجاز، ويُثبتون حقيقتها بما يليق ذاته المنزهة المقدَّسة التي ليس كمثلها شيء والتي لا تُحدُّ ولا تقاس.

إنَّ مذهب هؤلاء الرجال من علماء أهل السنة ونظرتَهم لا يختلفان في هذين النوعين من الصفات، وكما أن الإيمان بالحياة، والعلم، والقدرة، وما إلى ذلك لا يستلزم أن المراد بذلك حياة المخلوقات والمحدَثات الضعيفة،

= حديث أنس رضي الله عنه].

(١) عُرف هذا الجواب باسم «العقيدة الحموية الكبرى» رسالة تقع في ٥٠ صفحة ضمن «مجموعة الرسائل الكبرى» طبع في مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

وعلمها المستعار المحدود وقدرتَها الناقصة ، ولا أنَّ الجماعة المؤمنة بحقيقة هذه الصفات تسمَّى «المجسِّمة».

وكذلك الاعتقاد بما جاء في القرآن من ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] و﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] و﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] من غير تأويل أو توجيه لا يَعني أن المراد باليد والوجه المخلوق ويد الحادث ، وأن القَصد من الفوقية والمكانية كفوقية ومكانية المحدود بإزاء المحدود ، والجسم مقابل الجسم ، كما لا يصح الطَّعن «بالتشبيه والتجسيم» لمن يُؤمن بحقيقة هذه الصفات.

يُؤيِّد هذا المذهب ما استدلَّ به ابن تيمية من أقوال السلف الأولين والمتكلمين المتقدمين وعباراتهم ، إنه يقول: «ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا عن أحدٍ من سلف الأمة ، ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرفٌ واحدٌ يخالف ذلك ، لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقلْ أحد منهم: إن الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه في كل مكان ، ولا أن جميعَ الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها .

فلئنْ كان الحقُّ ما يقوله هٰؤلاء السَّالبون النافون من هذه العبارات ونحوها دونَ ما يُفهم من الكتاب والسُّنة إما نصاً وإما ظاهراً؛ كيف يَجوزُ على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نَصٌّ أو ظاهر في خلاف الحق ؟

ثم الحقُّ الذي يجب اعتقاده لا يَبوحُون به قط ولا يدلُّون عليه نصاً ولا ظاهراً حتى أنباطُ الفرس ، والروم ، وفروخُ اليهود ، والفلاسفة يُبيِّنون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف أو كل فاضلٍ أن يَعتقدها»[1] .

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى: ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

ثم إنَّه أثبت بالدلائل أنَّ المتكلِّمين المتأخِّرين اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشيءٍ من المغالاة في التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً بعيداً عن حقيقة اللُّغة ، وفهم الصحابة ، ونصوص الحديث بُعداً شائناً مسَّ حُدود النفي والتعطيل.

إنَّهم ابتعدوا في ذلك عن مذهب السلف من العلماء وأئمة السنة والمتكلِّمين المتقدِّمين أنفسِهم، حتى جعلوا يتكلَّمون عن السلف ما يُزري بعلمهم، أما مَن يأخذ بالحيطة البالغة منهم فيقول: إنَّ طريقة السلف أسلمُ وطريقة الخلفِ أعلمُ.

ولا شكَّ أن هذا الكلام مبنيٌّ على الجهل بمكانة السلف وحقيقتهم ودليلٌ على قلة علمهم ، فإنَّ السلف إنما كانوا على علم جَمٍّ بالشريعة ، وأين فروخ فلاسفة اليونان ، والملتقطون من فُتات مائدة الهنود والفرس من ورثة الأنبياء المتقدِّمين وخلفاء الرُّسل وحملةِ الكتاب والسنة في المعرفة الإلهية وتَفهُّم الأسماء والصفات؟!

إنَّ أقوال الفلاسفة والمتكلِّمين عند رحيلهم من الدنيا تشهدُ على أنهم كانوا نادمين على تقعيراتهم ، هائمين على وجوههم ، وباكين على خيبتهم ، حتى قال بعضهم: إنَّني لم أدَّخر طول حياتي سوى القيل والقال.

وقال آخر: «لقد ضَّيعتُ الحياة في خوض بحرٍ لا ساحل له ، نَقَّبتُ في الصحارى معرضاً عن علوم الإسلام ، ولا أدري ماذا سيكون مصيري إذا لم يأخذِ الله بيدي ، أشهد أنني أموت على عقيدة أمي».

هذه الفتوى رسالةٌ علميةٌ مستقلة تتجلَّى فيها خصائص شيخ الإسلام العلمية والتأليفية بوضوح ، فإنَّ السهولة وقوة الاستدلال ، والخطابة ، وحُسنَ الاستشهاد بالكتاب والسنة ، وجدَّة الأسلوب ، والخطاب إلى العقل ، والارتجال ، وعدم التكلُّف ، والمعلومات التاريخية ، والنقد اللاذع ، للمتكلمين والفلاسفة ، كل ذلك خصائصُ تتميز بها هذه الرسالة ، بينما خَلت

منها عامةُ الكتب التي أُلفت في ذلك العهد ولا سيما كتب الفتاوىٰ التي كانت تؤلَّف باللغة الفقهية ومصطلحاتها.

لأوَّل مرَّة ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الفتوى كمدافع قويٍّ عن العقيدة التي كانت عقيدة السَّلفِ، واعتقادَ أهل السنة في نظره، وعقيدةَ «التجسيم» والحنبلية المشوَّهة عند معارضيه.

إنَّ الأسلوب الذي احتوت عليه هذه الفتوى والتحدِّي السافر الذي ضمنته، ثم الاستقبال الرائع الذي لقيته من الأوساط الحنبلية، كان من النتائج الطبيعية لكل ذلك أن يَعُم بذلك سخط واستنكارٌ عام في وَسط الأشاعرة والمتكلِّمين الذي كان يتمتع بتأييد الحكومة والجماهير، والذي كان رجاله متبوِّئين مناصبَ القضاء والإفتاء الرسمية ومُسيطرين على مراكز التدريس والتأليف.

يتحدَّثُ عن ذلك ابنُ كثير ضمن الأحداث التي وقعت في سنة ٦٩٨هـ يقول:

«قامَ عليه جماعةٌ من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضُر، فنوديَ في البلد في العقيدة التي كان قد سألَهُ عنها أهل حماة المسماة بالحموية فانتصرَ له الأمير سيف الدين جاغان، وأرسل يطلب الذين قاموا عندَه فاختفى كثيرٌ منهم، وضُرب جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكَت الباقون، فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقيُّ الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسَّر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ثم اجتمعَ بالقاضي إمام الدين يوم السبت، واجتمع عنده جماعةٌ من الفضلاء وبَحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقيُّ الدين وقد تَمهَّدتِ الأمور، وسكنتِ الأحوال»(١).

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ص٤.

وكان من المتوقَّع جداً أَنْ تكون هذه القِصة قد امتدَّت وثارتْ هناك ضجَّةٌ أخرى ، ولكن حدثَ في الوقت نفسه من الأحوال ما لم يسمح بالخوض في الخلافات والمناقشات العقائدية ، أعني بذلك غارة التتار ، بَرز فيها ابنُ تيمية كمجاهدٍ عظيم ، وقائدٍ عام.

تَوَجُّه التتر إلى دمشق:

وما إن استهلَّت سنة ٦٩٩ هـ إذ تتابعت الأخبار بأن قازان حاكم التتار في العراق وفارس يَنوي الغارة على الشام ، وأنَّ عساكره متوجِّهة إلى دمشق ، لقد أثار هذا النبأ دهشةً في بلاد الشام كُلِّها نظراً إلى ما جرَّبته الأقطار الإسلامية من شدائد غاراتهم ، وما خلَّفته هذه الغارات من حكايات النهب والقتل الشنيعة ، وهنالك جعلَ الناس يَخرجون من حلب وحماة متوجِّهين إلى العاصمة حتى غلتِ الأسعار والأجور ، وارتفعت أجرة السفر من حماة إلى دمشق إلى مئتي درهم بالفَرَسِ ، ولكن سُرعان ما اطمأنَّ الناس أنَّ سلطان مصر (الملك الناصر محمد بن قلاوون) قادمٌ مع العساكر الملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتار ومقاومتهم.

في ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ دخلتِ الجيوش المصرية دمشقَ ، فاستقبل الناسُ السلطانَ وجيوشه استقبالاً رائعاً رغم شِدة المطر وكثرة الوَحل في الطريق ، وزُيِّنت المدينة واهتمَّ الناس بالدعاء لانتصار السلطان والمسلمين على التتار ، وخرج السُّلطان بعساكره لمبارزة التتار في ١٧ ربيع الأول ، وخَرج معه قاضي القضاة الحنفي وأعيان البلد وعلماؤهُ ، وساند الجيشَ جماعةٌ من المجاهدين وعددٌ من المحاربين ، وعني الناس بالدعاء والقنُوت في المساجد عنايةً خاصة.

انهزامُ السُّلطان ، والوَضعُ في دِمشق:

في ٢٧ ربيع الأول قامتِ المبارزة بين قازان والسلطان ، فحارَب المسلمونَ بشجاعةٍ نادرة ، ولكنَّهم هُزموا ، فتوجهت عساكر السلطان إلى مصر راجعة ،

والتجأ أهل دمشق إلى دمشق وقد عمَّ الخوف في البلد من انسحاب الجيوش المصرية وخطرِ اقتحام التتار في دمشق منتصرين غالبين ، فكان كبار العلماء وأعيان الناس يغادرون دمشق إلى مصر ، فالقاضي الشافعي ، والقاضي المالكي ، وبعضُ العلماء المشهورين ، ووالي البلد ، والمحتسبُ ، وغيرهم من التجار والعامة كانوا قد غادروا البلد ، كما أن الحكَّام كانوا قد خرجوا من دمشق ، سوى نائبِ القلعة فقد كان لا يزال مقيماً ، أما سائرُ الحكام المسؤولين عن الإدارة والنظام فلم يستطيعوا البقاء في المدينة ، وكانت الأسعار قد غلت إلى حد مخيف ، وأُغلقت الحدود.

والذي زاد الطينُ بلَّة أن المسجونين في سجن المدينة هدموه وخرجوا يَنهبون المتاجر والبضائع ، واستغلَّ الوضعَ أوباشُ الناس وعاثوا في ظاهر البلد وكسروا أبواب البساتين (وعليها معظمُ الاعتماد في معاش أهل دمشق) وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً وباعوها بأرخص الأثمان.

وبينما كانت دمشق تعيشُ في هذا الوضع المُرعب إذ طار الخبر في الناس بقصد قازان إلى دمشق ، فزادوا فزعاً على فزع ، وعمَّ الخوف والإرجاف في طول المدينة وعرضها.

لِقاءُ ابنُ تَيميَّة مع قازان:

اجتمع ابنُ تيمية بأعيانِ البلد للتفكير في الوضع الحاضر ، واتَّفقوا على المسير إلى قازان لتلقِّيه في وفد من العلماء وأصحابهم ، وذلك لأخذِ الأمان منه لأهل دمشق.

ففي يوم الإثنين ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ اجتمع مُمَثِّلُ أهل دمشق وسفيرُ الإسلام ابن تيمية بقازان طاغية التتار في بلدة «النبك» [(١)] ، ولْنتركِ الشيخ كمال

---

(١) يقع هذا البلد بين دمشق وحمص، معروف بمائه بصفة خاصة، وهو مُتنزَّه في الوقت الحاضر.

الدين ابن الأنجا الذي رافق ابن تيمية ، وحضر معه إلى قازان يتحدَّث عن هذا اللقاء:

«كنتُ حاضراً مع الشيخ ، فجعَل يُحدِّث السلطان بقول الله ورسولهِ في العدل وغيره ويرفعُ صوته على السلطان ويقربُ منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قربَ أن تلاصق ركبتهُ ركبةَ السلطان ، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكلية مُصغٍ لما يقول ، شاخصٌ إليه لا يُعرِض عنه ، وإن السلطان من شدَّة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أرَ مثله ، ولا أثبتَ قلباً منه ، ولا أوقعَ من حديثه في قلبي ، ولا رأيتُني أعظمَ انقياداً لأحد منه ، فأُخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان: قلْ للقازان: «أنتَ تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمامٌ وشيخٌ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتَنا ، وأبوكَ وَجدُّك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهَدت فغدَرت ، وقلتَ فما وفيت وجُرْتَ».

ثم خرج من بين يديه مُكرَّماً معزاً بحُسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حَقْن دماء المسلمين ، وبلَّغه الله تعالى ما أراده ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غَالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردِّهم على أهلهم وحفظ حريمهم ، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات ، وقُوَّة التجاسر.

وكان يقول: «لن يخاف الرجل غيرَ الله إلا لمرضٍ في قلبه ، فإنَّ رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفَه من بعض الولاة فقال: لو صحَّحتَ لم تخف أحداً ، أي خَوفُك من أجل زوال الصِّحة من قلبك».

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنَّهم لما حضروا مجلس قازان ، قدَّم لهم طعاماً فأكلوا منه ، إلا ابن تيمية ، فقال: لم لا تأكل ؟

فقال: كيف آكلُ مِن طعامك ، وكله مما نَهبتم من أغنام الناس وطبختُموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟!!

ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه: الَّلهم إن كنت تعلم أنَّه إنما

قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وجاهَد في سبيلك ، فأن تؤيِّده وتنصره ، وإن كان للمُلك والدنيا ، والتكاثر فأن تفعل به ، وتَصنع ، فكان يدعو عليه ، وغازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يُقتل فيطرطش بدمه.

ثم لمَّا خرجنا قلتُ له: كدتَ تُهلكُنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال: وأنا لا أصحبكم ، فانطلقنا عصبة ، وتأخر ، فتسامعت به الخَوانين والأُمراء ، فأَتَوه من كل فج عميق ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه ، وأمَّا نحن فخرج علينا جماعة فشلَّحونا [١].

وَحشِيَّة التتار في دمشق:

وإنْ كان أهل دمشق قد حَصلوا على وثيقة الأمن من سلطان التتار وأُعلن ذلك في دمشق ، غير أنَّ التتار كانوا مُستمرين في السلب والنهب ونقضِ القانون والوحشية في نواحي دمشق وضواحيها ، وكان الوضعُ شِبه ثورةٍ خارج سور البلد ، وغلتِ الأسعار غلاءً فاحشاً أزعج الناس.

وممَّا زاد في هَلع الناس أنَّ التتار طالبوا أهلَ دمشق بتسليم جميع ما عند الناس من الخيول والسلاح والأموال المخبَّأة من جهة الدولة السابقة إلى التتار ، وقد عَيَّن التتار سيف الدين قَبجق حاكم الشام من قبلهم ، فبدأ يُشدد على سكانها ، وكانت سيطرة التتار قد تمت على البلد ، إلا القلعة فإنَّ نائب القلعة أرجواش امتنع عن تسليمها إليهم أشد الامتناع ، وكان ذلك بإشارة من الشيخ ابن تيمية كما يقول ابن كثير: «فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسلَ إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبقَ فيها إلا حجرٌ واحدٌ فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فإنَّ الله حفظ لهم هذا

---

(١) الكواكب الدرية: ص ٢٥ ـ ٢٦.

الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة»[١].

عاث التتارُ فساداً في البلد ، وما تركوا شيئاً إلا غيَّروه بالنهب والسلب ، وسجنوا عدداً كبيراً من المسلمين رجالاً ونساء، واسترقُّوهم ، ففي محلة الصالحية[٢] وحدها قتل نحو أربعمئة وأُسر نحو من أربعة آلاف أسير ، وَسَبوا كثيراً مِن الفتيان والفتيات من أُسرِ شريفةٍ وبيوتاتِ فضلٍ وعلمٍ ، واستباحوا حرمات المسلمين بوجه عام ، ونُهبت كتبٌ كثيرة من المكتبات الكبرى ومن الوَقْفِ وباعوها بأبخسِ ثمنٍ.

رأى ابنُ تيمية هذه الأحوال من النهب والقتل والأسر فلم يصبر عليها وخرج في جماعة من أصحابه يوم ٢٥ ربيع الآخر للاجتماع بملك التتار (قازان) مرة أخرى ، وانتظره يومين ولكن لم يُتح له اللقاء وَحَجَبَه عنه وزيره ، واشتهر في البلد أن التَّتار يريدون دخول دمشق ، فانزعج الناس بهذا الخبر وخافوا خوفاً شديداً ، وأرادوا الخروج منه والهرب على وجوههم ولكن أين المفرّ ، ولات حين مناص ؟ وبدا التتار بعمل مجانيقَ بالجامع ليرموا بها القلعة من صَحنه ، ويحفرون الخنادق ، وقعدَ الناس في بيوتهم خوفاً من أن يؤخَذوا بالسخرة ، يقول ابن كثير: «وكانت الطرقات لا يُرى بها أحد إلا القليل ، والجامع لا يُصلِّي فيه أحد إلا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد ، ومَن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زَيِّهم ثم يعود سريعاً ، ويظن أنه لا يعود إلى أهله»[٣].

وفي التاسع عشر من جمادى الأولى توجَّه «قازان» إلى بلاد العراق وترك نُوَّابه بالشام في ستين ألف مقاتل ، وأعلنَ عند رحيله من الشام «إنا قد تركنا

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ص ٧ ـ ٨.

(٢) [الصالحية: أحد أحياء دمشق ، ويوجد على سفح جبل قاسيون ، وقد بناها المقادسةُ في القرن السادس الهجري ، كانت فيها مدارس ومساجد كثيرة].

(٣) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٩.

نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العودُ إليها في زَمَن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها» ، وبالرغم من أن قازان كان قد ارتحل من الشام ولكنَّ أميراً آخر من التتار اسمه «أمير بولائي» ظلَّ مستمراً في النهب والسلب في نواحي دمشق ، وقد خرَّب قرى كثيرة ، وسبى عدداً كبيراً من أطفال المسلمين ، وجَبى من دمشق نفسها أموالاً طائلة ، وفي ثامن رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم بولائي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم ، وكان من بين هؤلاء الناجين مسلمون وغيرهم من الذميِّين الشاميين.

وفي الثالث من رجب نُودي في البلد من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام ، وفي عشية اليوم التالي رحل بولائي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق ، وقد خَلَتْ دمشق ونواحيها من التتار ، وظلت كذلك حتى السابع من رجب ، وأزاح الله عز وجل شرَّهم عن العباد والبلاد.

وفي الثامن من رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم الأمير بولاي ، فاجتمع بـه في فكاك مَنْ كان معـه من أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهـم ، وكان مِنْ بين هـؤلاء النـاجين مسلمـون وغيرهـم من الذميين الشاميين.

وفي التاسع من رجب وصل الخبر بخروج الجيوش المصرية والسلطان محمد بن قلاوون إلى الشام لإنقاذها من أيدي التتار ، ولم يكن بالبلد أحدٌ في ذلك الوقت من الحكام والمسؤولين ، وكانتْ أسوار البلد متهدمة من غارة التتار ، فنادى أرجواش نائب القلعة : احفظوا الأسوار والأبواب ، لا يَبيتنَّ أحدٌ إلا أن يحرس السور مُسلَّحاً ، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ ابنُ تيمية يدور كلَّ ليلة على الأسوار يُحرِّض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آياتِ الجهاد والرباط [1].

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ١١.

أعماله الإصلاحيّة:

ولمَّا سَمع المسلمون بقدُوم الجيش المصري وسلطان مصر ، وأن التتار قد تراجعوا ، فرحوا بذلك كثيراً ، وارتفعت هِممهم ، وصمَّموا على إزالة آثار الفساد الذي كان قد انتشر في ظلِّ هذه الأمة الجاهلية وحُكَّامها المفسدين ، وكان ابن تيمية قد تولى قيادَةَ المحاربة لهذا الفساد ، وكان نائبُ الشام سيف الدين قَبْجَق هو الذي انتشرتِ الحاناتُ في أيام حكمه القصير وشاع شرب الخمر في الناس ، وكانت هذه الحانات مورداً كبيراً من موارده المالية ، ولم يعدِ الآن أيُّ مبرر لبقائها ، ولم يكن في دمشق أي حاكم ولا مسؤول من الحكام ، فتولى ابن تيمية قطع دابر هذا الفساد وتجوَّل في طول البلد مع تلاميذِهِ وأنصاره ، وحيثما رأوا حانةً أو خمَّارة كسروا أواني الخمور فيها وشقَّقوا الظروف وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتَّخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك.

إصلاحُ عَقائِد السُّكان في الجبال:

وفي عام ٦٩٩ هـ عندما كان قد دخل الجيش التتاري إلى دمشق وعاثُوا فيها فساداً وقتلاً ، كانتْ هناك جماعة من الغلاة ساكنةٌ في الجبال من المسيحيين والباطنيين ، قد لاذت بالتتار ووازرتْهم وآذت المسلمين معهم ، ولمَّا كان جيش المسلمين يرجع منهزماً ومرَّ بمنطقتهم حالتْ هذه الجماعة دون طريقهم ووَثبت عليهم ، وسلبتْ ما كان معهم من الأسلحة والخيول وقَتلت كثيراً من المسلمين ، ولم تكن هذه الجماعة قبل ذلك داخلةً في طاعة الجند ولا ملتزمةً أحكام الملة ولا مُتدينةً بدين الحقِّ ولا محرِّمة ما حرَّم اللهُ ورسولُه.

ولمَّا استقرَّتِ الأحوالُ في دمشق، وانقشع السحاب المكفَهِرُّ؛ فكَّر ابن تيمية في تأديب هؤلاء المفسدين وإصلاح أحوالهم ، ومِن حُسن الصدفة خرج نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وانتهزَ هذه الفرصة الشيخ ابن تيمية وخرج معه في خلق كثير من المتطوِّعة

والحوارنة إلى أهل تلك الناحية ، فلمَّا وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فاستتَابهم ، وبيَّن للكثير منهم الصواب ، وحصل بذلك خيرٌ كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا بردِّ ما كانوا أخذوه من أموال الجيش ، وقرَّر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، . . وعاد نائب السلطنة مع ابن تيمية ، وكُلِّلت مساعيهم بالنجاح [1] .

عَودة التتار إلى الشام وإعلانُ ابنِ تيمية الجهاد:

وفي مستهلِّ عام ٧٠٠هـ وَردتِ الأخبار إلى دمشق بقصد التتار بلاد الشام فمادتِ الأرض بالناس ، وطاشَتْ عقولُهم وألبابهم ، وبدؤوا يتهرَّبون إلى مصر والبُلدان الأخرى والحصون المنيعة ممَّا كان بنجوة عن مَعرَّة التتارِ وغائلتهم ، وبيعتِ الأمتعة والثياب والغلاَّت بأرخصِ الأثمان ، فارتفعت أجرةُ الحمَّارة والنقل إلى آخر نقطة ، وأسعار الجمل والحمار من خمسمئة إلى ألف .

واستعدَّ الشيخ ابن تيمية لإلقاء المواعظ والدروس في الجامع بنشاط بالغ ، وحرَّض الناس على القتال ، ونهاهم عن الإسراع في الفرار ، وذمَّ هذه الخصلة ورغَّبهم في إنفاق الأموال في الذَّبِّ عن المُسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما يُنفق في أجرة الهرب إذا أُنفق في سبيل الله كان خيراً ، وأوجَبَ جهاد التتار حتماً في هذه الكرة .

وسكنتِ الأحوالُ بمجالسهِ المتتابعة في ذلك ، ونُودي في البلاد :

لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة ، فتوقَّفَ الناس عن السير والفرار وسكنَ جأشهم ، وتحدَّث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ، ودُقَّت البشائرُ لخروجه .

الرِّحلةُ إلى مصر:

وفي ربيع الآخر قَوِيَ الإرجاف بأمر التتار وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص١٢ .

البيرة بالجهاد العام ، وكانت الأنباء تتوالى بتقدُّم التتار إلى الشام ونُودي في البلد بتطييبِ القلوب بالناس ، وإقبالهم على معايشهم ، وأنَّ السلطان والعساكر واصلةٌ ، ثم فوجىء الناس بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً إلى الشام فكثُر الخوف واشتد الحال ، وخرج كثيرٌ من الناس خِفافاً وثقالاً يتحمَّلون بأهليهم وأولادهم ، وجعلوا يحملون الصغار على الدوابِّ والرقاب.

وخرَج الشيخ ابن تيمية إلى نائب الشام في المَرْج، وكان مُرابطاً خارج دمشق لمقاومة التتار وسدِّ سيولهم ، فثبَّته وقوى جأشه وطيب قلبه ، ووعدهُ بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠].

وسأله النائبُ والأمراءُ أن يركب على البريد إلى مصر ، ويَستحثَّ السلطان على المجيء ، فساقَ وراء السلطان ، وكان قد وصل إلى الساحل ، فلم يُدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفارَط الحال فاستثار غيرته ، وقال له فيما قال: «لو قُدِّر أنكم لستم حُكَّام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ، وجبَ عليكم النصر ، فكيف وأَنتم حكَّامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم» وقال أيضاً: «إن كنتم أعرضتُم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يَحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن».

وقوَّى الشيخُ ابن تيمية جأشَ السلطان وأكَّد له أن النصر حليفُهُ في هذه الكرة ، وظل الشيخ مُقيماً في حِصن مصر إلى ثمانية أيام يُحرِّض الناس على الجهاد ومقاومة التتار.

واستعدَّ السلطانُ للخروج إلى الشام مرة أخرى نتيجةً لجهود ابن تيمية المخلصة التي بذلها في هذا السبيل ، وتوجهتِ العساكر إلى الشام لجهاد التتار ، ولما سمع الناس بذلك فرحوا أشدَّ الفرح بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

ثم قَوِيَتِ الأراجيفُ بوصول التتار ، وتحقُّق عَودِ السلطان إلى مصر ، ونادى ابنُ النحاس متولي البلد في الناس: من قدر على السفر فلا يَقعد بدمشق ، وهنالك ارتفعت الأصوات ، وتَصايَح النساء والولدان ، ورَهق الناس ذِلَّة عظيمة وخمدة ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، وغُلِّقت الأسواقُ ، وتيقنوا أن لا ناصر إلا الله عز وجل ، ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمةً للعدو.

ودخل كثيرٌ من الناس إلى البراري والقفار والمُغر بأهالِيهم من الكبار والصغار ، ولم يبقَ بدمشق من أكابرها إلا القليلُ ، ونودي بالناس: مَن كانت نيَّتُه الجهاد فليلحق بالجيش ، فقد اقترب وصول التتار وخرجَ العلماء ، ومن بينهم شرفُ الدين ابن تيمية أخو ابن تيمية إلى نائب السلطنة الأفرم ، وقوَّوا عزمه على لقاء العدوِّ ، واجتمعوا بـ «مُهَنا» أمير العرب ، فحرَّضوه على قتال العدوِّ ، فأجابهم بالسمع والطاعة.

ورجعَ ابنُ تيمية من مصر ، وبشَّر الناس باستعداد سلطان مصر وأعيان الدولة لجهاد العدو ، ثم جاءتِ الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفُرات راجعاً عامَه ذلك ، فطابت النفوس لذلك وسكنتْ ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين[1] ، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾.

الحَربُ الحاسمة مع التتر ، وصَنيعَةُ ابنِ تيمية:

وفي رجب سنة ٧٠٢هـ قَوِيَتِ الأخبارُ بعزم التتار على دخول بلاد الشام ، فانزعج الناسُ لذلك واشتدَّ خوفهم جداً ، وقَنتَ الخطيبُ في الصلوات ، وقُرِىء صحيح البخاري ، وشَرع الناس في الجَفل إلى الديار المصرية ، والكرك ، والحصون المنيعة ، وتأخَّر مجيءُ العساكر المصرية عن إبَّانها فاشتد لذلك الخوف.

وفي ثامن عشر من رجب قدمتْ طائفةٌ كبيرةٌ من جيش المصريين بقيادة

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ١٦.

الأمراء الأتراك المشهورين ، وتَلَتْها طائفةٌ أخرى فقَويتِ القلوب واطمأنَّ كثيرٌ من الناس ، ولكن الناس في جَفل عظيم من بلاد حلب ، وحماة ، وحمص ، وتلك النواحي ، وتحدَّث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراءُ بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجَّعوا أنفسهم ، ونُودي بالبلد أن لا يرحل أحدٌ منه ، وتوجَّه ابنُ تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القُطَيْفَة[1] ، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوه إلى ذلك ، وحلَفوا معهم ، وكان الشيخ يَحلِفُ للأمراءُ والناس: إنَّكم في هذه الكرَّة منصورون ، فيقول له الأمراء: قُل إنْ شاء الله ، فيقول: إنْ شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، ويقول: نحن مظلومون ، والمظلوم منصور «ومَن بُغي عليه لَينصرنه الله» ، ولذلك فإن النَّصر مؤكَّدٌ ، والفتح قريبٌ ، وإنَّ وعد الله كان مفعولاً [2] .

وقد تكلَّم الناسُ في حُكم قتال هؤلاء التتار من أيِّ قبيل هو؟ فإنهم يُظهرون الإسلام ، وليسوا بُغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقتٍ ثم خالفوه ، فكيف يَجوز القتال ضدَّهم؟ وقد ارتبك العلماء في ذلك ، فقال ابنُ تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على سيدنا عليّ ، ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ورأوا أنهم أحقُّ بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحقُّ بإقامة الحق من المسلمين ، ويَعيبون على المسلمين ما هم متلبِّسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطَّن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني في صفِّ التتار موالياً لهم وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجَّع الناس في قتال التتار وقَويَتْ قلوبهم ونياتهم.

كانت دمشق كلُّها تعيش في قلق وانزعاج شديدين ، لم يصل أيُّ خبر بقدوم السلطان ، ولم يكن الناس متأكِّدين أن العساكر المصرية والشامية ستُحارب

(١) [بلدةٌ تقع في شمال شرق دمشق على طريق حمص].
(٢) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٣٤.

التتار ، وقد وصلتِ التتار إلى قارة [١]، وقيل إنَّهم وصلوا إلى القُطَيْفَة ، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً ، ولم يَبق حولَ القرى والحواضر أحدٌ ، وامتلأتِ القلعة والبلد ، وازدحمت المنازلُ والطرقاتُ، واضطرب الناس ، وخرج ابن تيمية من باب النَّصر بمشقة كبيرة ، وصحبه جماعة ليشهدَ القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصلَ اللوم من بعض الناس ، وقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد! فلم يَرُدَّ عليهم ، وبقي البلد ليس فيه حاكم ، وجاسَ اللصوص ، والحرافيش فيه ، يُخرِّبون ، ويَنتهبون ما قدروا عليه.

ولم يَعُد للناسِ شُغلٌ غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً فتارةً يقولون: رأينا غَبرةً فيخافون أن تكون من التتار ، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجُودة عِدَّتهم وعددهم أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم ، وكلُّ شخص كان ينتظر حكم القضاء فيه ، ويفكر فيما إذا وقعت الحرب أم لا؟ وإذا وقعتْ فمن ينتصر ، وإذا انهزم الجيش ـ لا قدَّر الله ـ فماذا سيكون مصيرهم؟ ومن يحمي أنفسهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وكان كما صوَّر القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

ووَصَلَ ابنُ تيمية إلى العسكر الشامي فطلب منه أمراءُ الجيش أن يسير إلى السلطان يَستحِثهُ على السير إلى دمشق ، فسار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو وإياه جميعاً فسأله السلطانُ أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ : السُنة أن يقف الرجلُ تحت راية قومه، ونحن مع جيش الشام لا نقف إلا معهم ، وحرَّض السلطان على القتال وبشَّره بالنصر ، وجعل يَحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة. فيقول له الأمراء: قُلْ إن شاء الله ، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

---

(١) [بلدةٌ تقع في القلمون على طريق حمص].

وفي ليلة التاسع والعشرين من شعبان ثَبتت رُؤية هلال رمضان فبدأ الناسُ يستعدُّون لصلاة التراويح وقد استبشروا بشهر رمضان وبركته ، وأصبحوا يوم الجمعة في هَمٍّ شديدٍ ، وخوفٍ أكيدٍ ، ورأوا يوم السبت من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة اليوم فابتَهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد ، وطَلع النساء والصغار على الأسطحة ، وكشفوا رؤوسهم ، وضجَّ البلد ضجةً عظيمةً ، فلمَّا كان بعد الظهر قُرئت بطاقةٌ بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان ، وفيها طلبُ الدعاء من الناس ، والأمرُ بحفظ القلعة .

وفي ثاني من رمضان اصطفَّ الجيشان في ساحة شَقْحَب ، وأفتى ابنُ تيمية بالفِطر مُدَّة قتالهم ، وأفطرَ هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليُعلمهم أن إفطارهم ليتقوَّوا على القتال أفضل ، وكان يقرأ لهم حديثَ رسول الله ﷺ «إنكم ملاقو العدوِّ غداً ، والفطر أقوى لكم»[1] .

ولمَّا ابتدأتِ الحربُ والتحم الفريقان ثَبت السلطان ثباتاً عظيماً ، وكان الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان في صحبته ، وأمر السلطان بجواده فقُيِّد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف ، وجرت خطوبٌ عظيمةٌ وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ ، ولكنْ نزل النصر على المسلمين واستظهروا على التتار ، فلما جاء الليلُ ، لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ، ويَرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر ، فقتل منهم ما لايعلم عددَه إلا الله ، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتُضربُ أعناقهم ، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك ، وغرِق منهم جماعةٌ في الفرات بسبب الظلام .

---

(١) [ذكره العراقيُّ في «فتح المغيث» في بحث «الناسخ والمنسوخ» (٣/ ٦٥) ، ولم أجده عند غيره في المصادر الحديثية ، والله أعلم].

وفي يوم الإثنين رابع من رمضان دخل ابن تيمية في دمشق ، ففرح به الناس ودعوا له وهنَّؤوه بما يسَّر الله على يديه من الخير ، ودخل السلطانُ إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس من رمضان ومعه الخليفة والعساكر منتصرين فرحين ، واستقرتِ الخواطرُ ، وذهبَ اليأسُ ، وطابت قلوب الناس.

إنكارُ البدع وتَغييرُ المنكرات:

وما أنْ فرغ ابنُ تيمية من قضية التتار إلا وقد عكف على إلقاء دروسه ومواعظه ، ونشر السنة وردِّ البدع كسابق عهده بذلك ، واشتغل بجهاد الشرك ، والجاهلية ، وكان أحبَّ عمل لديه وأسمى غاية في حياته بكل نشاط وهمة.

وكان قد دخل في ذلك العهد إلى مجتمع المسلمين كثيرٌ من أعمالٍ كانت بقيةَ عهدِ الجاهلية ، وشعارَ المشركين والوثنيين بحكم اختلاطهم باليهود والنصارى ، وتعاليمَ الزعماء الجاهليين وفاسدي العقائد ، كانت بنهر قلوط في ضواحي دمشق صخرةٌ تُزار ويُنذر لها النذور قد اشتهرت عنها قصص وروايات عديدة ، فعادت فتنةً كبيرةً لِضعاف العقيدة من المسلمين ، إذ كانوا يزورونها ويُقدِّمون لها النذور ، فذهبَ إليها ابنُ تيمية مع جماعة من الحجَّارين في رجب عام ٧٠٤ هـ وقطَعها ، وأراح المسلمينَ منها ومن الشِّرك بها ، وأزاح عنهم شبهةً كان شرُّها عظيماً [١].

لم يكن ابنُ تيمية يَصْبِرُ على أمور تخالف الشريعة والسنة ، فإذا رآها قام بتغييرها بيده من غير تأخير؛ إذ كان ذلك هو الدرجةَ العليا للإيمان والحاجةَ الأولى للحميَّة الدينية «مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فمَن لم يستطع فبلِسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان» [٢].

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (٤٩) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب وقت الخروج إلى العيد ، برقم (١١٤٠) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٣٢) برقم (١١٧٣٩) ، وابن ماجه في أبواب =

أمَّا الحُكَّام فكانوا في شُغلٍ شاغلٍ عن أمور الدين ، وكان العلماء لا يُعيرون الأمورَ المخالفة للشرع أهمية في بعض الأحيان ، كما كانوا يَخافون من المعارضة والإنكار في حين آخر ، ولذلك فكان ابنُ تيمية يتولَّى هذه المسؤولية بنفسه في أكثر الأحيان ، وكانت معه جماعةٌ من تلاميذه ومحبيه يؤازرونه في هذه الأمور ويساعدونه ، ولذلك فإنه كان قد أقام حِسبةً شرعيةً وخُلقيةً ابتغاء وجه الله ، فإن كان المنكر يُفلِتُ من عتاب الحكام الذين كان أكثرُهم من أهل البدع ، ومعارضين لابن تيمية ، ومن غضب العلماء؛ لم يكن ليُفلِتَ من رقابة «البوليس الشرعي» الذين كان على رأسِهم ابنُ تيمية .

وفي رجبَ هذا العام أُحضِر إلى ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقاً كبيراً متَّسعاً جداً ، يُسمى المجاهد إبراهيم القطَّان ، وكان ذا شعر طويل ، وأظفار طوال ، وشارب مسبل ، يُكثِر من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات ، فأمَرَ ابنُ تيمية بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناس من كلِّ جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً ، وأمَر بحلق رأسه وشاربه وتقليم أظفاره ، واستتابه من كلام الفحش ، واستعمال الحرام [(١)].

وكذلك كان شخصٌ اسمه محمد الخبَّاز البلاسي ، يُكثر من أكل المحرمات ، ويُجالس اليهود والنصارى ، ويتكلَّم في تأويل الرؤىٰ ، ويتدخَّل في العلوم والمسائل التي لم يكن له بها علم ، فاستحضره ابنُ تيمية ، واستتابه عن أكل المحرمات ، يقول ابن كثير: «وبهذا وأمثاله حَسدوه ، وأبرزوا له العداوة» .

الجِهادُ مع الملحِدين والمُفسدين:

وعلى ما قام به ابنُ تيمية من الإصلاح في الداخل لم يكن في شغل عن

= الصلاة ، باب ما جاء في صلاة العيدين ، برقم (١٢٧٥) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٠) برقم (١١٠٨٨) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٣.

أولئك المفسدين الذين لم يألوا جهداً في الإضرار بالمسلمين والمؤامرة مع أعداء الإسلام ، كلما حَزَبَـهُم أمرٌ أو أحاطتْ بهم مصيبةٌ ، ولو أنه كان قد قام بإصلاح القبائل الساكنة في جبال الجُرد وكسروان ومعه نائب السلطة الأفرم في عام ٦٩٨هـ ، وقد تاب منهم كثيرٌ ، ووعدوا باتِّباع أحكام الإسلام واحترام نظام السلطنة ، ولكنَّ التجارب أثبتت أنهم لم يَمتنعوا عن تخابُثهم ، وأنهم لا يزالون بحاجةٍ ماسة إلى مزيد من الإصلاح والتنبيه ، ولا يزال الخطر موجوداً من قبلهم كلما سنحت لهم بذلك فرصة .

وفي مستهلِّ ذي الحجة ركب ابنُ تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبال الجرد وكسروان ومعه نقيبُ الأشراف زين الدين بن عدنان ، فقامَ فيهم بالتبليغ واستتَاب خلقاً منهم ، وألزمهم بشرائع الإسلام .

إنَّ قبائل الروافض في جبال الجرد أصابوا المسلمين بأضرار ، وجَاهروا في إيذائهم ومعارضتهم ، وهمُ الذين دعوا الصليبيين والتتار للعدوان على البلاد الإسلامية ، ووفَّروا كلَّ نوع من التسهيلات ، واستبَاحوا كُلَّ فرصة لاستغلال ضعف المسلمين وقلةِ وسائلهم ، ونالوا من أعراضهم وأموالهم ، وأذلُّوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم .

لقد شاهَدَ كلَّ ذلك ابنُ تيمية ، فكان يَعيشُ في تألُّمٍ شديدٍ ، وقلقٍ عظيمٍ جداً ، وكان قلبه الغَيور يشعر بشدةِ هذا التألم ، إنه لم يكن ليعفو عن هؤلاء الخساس الأشرار ، ولم يكن ليرضى بالتغاضي عن هؤلاء المنافقين ، الذين أصابوا المسلمين بالذِّلة والتضييق في ساعة حرجة جداً ، وساعدوا أعداءهم ونصروهم ، وقد أراد ابن تيمية ألاَّ يترُك المجرمين إلا ويُذيقهم عقاب أعمالهم ، وأن يَسُدَّ في وجوههم كلَّ طريق يتسلَّلون منه إلى المسلمين بإيلام ، أو إيذاء عند أي حرب ، أو ساعة حرجة ، إنه استَلْفَت نظر السلطان الناصر (سلطان مصر والشام) إلى هذه المهمَّة ، وأخبره بخطرهم ونواياهم الفاسدة ، وقد قال في رسالة وجَّهها إلى السلطان :

«ولمَّا قَدم التتار إلى البلاد؛ فَعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يُحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص، فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يُحصي عددَه إلا الله، وقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص (أي الصليبيين المحاربين للمسلمين) وفرحوا بمجيء التتار.

ولمَّا خرجتِ العساكر الإسلامية من الديار المصرية؛ ظهر فيهم من الخِزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولمَّا نصر الله الإسلام النُّصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعَزاء... كلُّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة كان من أسباب خروج جنكيزخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب الصالحية، وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله».

ويقول فيها أيضاً: «ولقد كان جيرانُهم من أهل البقاع وغيرها منهم في أمر لا يُضبط شره، كل ليلة تتنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد، كانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عُرفت من أهل الجنايات، يَرِدُ إليهم النصارى من أهل قبرص، فيضيفونهم، ويعطونهم سلاح المسلمين، ويَقعون بالرجل الصالح من المسلمين، فإمَّا أن يقتلوه، وإما أن يَسلبوه، وقليل منهم من يَفلت بالحِيلة»[1].

وفي الثاني محرم عام ٧٠٥هـ توَّجه ابن تيمية في طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين، وسار إلى بلاد الجرد، وكسروان، فخرج نائبُ السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغَزوهم، فنصرهم الله عليهم، وأبادوا خلقاً كثيراً منهم، ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من صُنع بلادهم، وقد أفتى ابن تيمية: أنَّه يجوز قطع أشجارهم، ونخيلهم كبني النضير؛

(١) ابن تيمية: للشيخ محمد أبو زهرة، ص ٤٥.

لأنهم يتخذونها كَميناً يتستَّرون فيه ، يجعلونها قواعد للحرب والمؤامرة على المسلمين ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خيرٌ كثير ، وأبانَ الشيخُ علماً وشجاعة فيها ، وقد امتلأتْ قلوبُ أعدائِه حَسَداً له ، وغماً» [١].

مُناظرتُه مع الأحمدية:

وفي يوم السبت التاسع من جمادى الأولى عام ٧٠٥هـ حضَر جماعةٌ كثيرةٌ من الفقراء الأحمدية [٢] إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق ، وحضر الشيخ تقيُّ الدين ابن تيمية ، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكفَّ الشيخ تقي الدين إمارته عنهم ، وأن يُسلِّم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن ، ولا بدَّ لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة ، قولاً وفعلاً ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه.

قال ابنُ كثير: «فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتَعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ: تلك أحوال شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحِيَل ، والبهتان ، ومن أراد منهم أن يدخل النار؛ فليدخل أولاً إلى الحمام ، وليغسل جسده غسلاً جيداً ، ويُدلكه بالخل ، والشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار؛ إن كان صادقاً.

ولو فرض أنَّ أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على صلاحه ، ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالِفة

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ، ص ٣٥.

(٢) تدرج كثير من المنتمين إلى الطريقة الرفاعية ـ التي قد تسمى الأحمدية ، عَزواً إلى مؤسسها السيد أحمد الرفاعي الكبير رحمه الله ـ إلى أعمال ومظاهر ، تبدو أنها كرامات وخوارق ، ويقولون: نقيم بها برهاناً على فضل الإسلام ، ونستدرج بها الجهال من الحكام التتار والمغول إلى الإسلام ، وتورط كثير منهم مع الزمان ، وتأثير الجهل ، وافتتان الناس بالعجائب والشعوذة فيما لا يصح من الاعتقاد ، ولا يجوز من العمل ، والإسلام منه بريء ، وقد أنكر عليهم كثير من علمائهم ، ومن رسخت قدمه في علوم الشريعة وفهم الدين ، والتمسك بتعاليم إمامهم الشيخ أحمد الرفاعي ، وسيرته في التزام الأحكام الدينية ، والتأدب بآداب الشرع. (المؤلِّف).

للشريعة إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظنُّ بخلاف ذلك .

فابتدر شيخُ المنيبع الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تَـنْـفُق عند التتار ليست تنْفق عند الشرع ، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثُر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق للحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديدية من رقابهم وأن من خرج عن الكتاب والسنَّة ضُربت عنقه ، وصنَّف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبيَّن فيه أحوالهم، ومسالكهم، وتخيُّلاتهم، وما في طريقتهم، من مقبول، ومردود بالكتاب، وأظهر الله السُّنة على يديه، وأخمدَ بدعتهم»[1].

مُوافقةُ العلماء على العَقيدةِ الواسطية:

وفي الثامن من رجب في مجلس من العلماء كان قد انعقد عند نائب السلطنة قُرِئت رسالة ابن تيمية «العقيدة الواسطية» وتباحث معه العلماء ووجهوا إليه الأسئلة ، وقرَّروا أخيراً أنها مقبولة ومتَّفقة مع عقيدة أهل السُنّة ، وعاد الشيخ إلى منزله بغاية من الحفاوة والإكرام وقد حمل له العامة شُموعاً طول طريقه ، على جاري عادتهم لإبداء الحب والإعجاب في ذلك الزمان .

ابنُ تَيمية يواجهُ المُعارضة:

كان ابنُ تيمية يتمتَّع بنوع من السيادة الدينية في دمشق ، فكلَّما رأى أنَّ الحكومة تتساهل في منع بدعة أو تغيير منكر ، وأن العلماء صامتون لا يُعارضون الوضعَ؛ رأى نفسه مسؤولاً عن ذلك فلم ينتظر إصدار حكم من الحكومة ، ونفَّذ الأحكام الشرعية بنفسه ، وقد كانت معه جماعة كبيرة من تلاميذه المحبِّين له ، والجماهير المتمسكة بالعقيدة الدينية الصحيحة ، ولم يزل نِطاق عمله يتوسَّع ، حتى كرهت طبقة من أهل العلم سُموَّ مكانته الدينية ، وتأثيره الشخصي ، ورأت في ذلك تفرده واحتكاره لأمر الدين ، ونشأت من

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٦.

هنا جماعةٌ من حُسَّاده كانت تتمنى زوال نعمته ، وتُحاول النيل من شخصيته ، ويقول ابن كثير:

«وكانَ للشيخ تقيِّ الدين من الفقهاء جماعةٌ يَحسُدونه لتقدُّمه عند الدولة ، وانفرادِه بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وطاعةِ الناس له ، ومحبَّتهم له ، وكثرة أتباعه ، وقيامهِ في الحق ، وعلمه ، وعمله» [(١)].

رَدُّه على عَقيدة وَحْدة الوجود:

وقد أثارتْ بعضُ الأحداث النقاشَ حول العقائد ، وانعقدت له مجالس عديدة ، وكان من أعظم ما فعله ابن تيمية: أنه كان يردُّ مذهب الشيخ محيي الدين ابن عربي في وحدة الوجود بكل صراحة وإعلان ، وقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار في مصر والشام ، كما كانت طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ كانوا يعتبرونه عارفاً كبيراً ومحقِّقاً جليلاً ، وإمام مشرب «التوحيد» والشيخ الأكبر الذي لا يدانيه أحدٌ في ذلك العصر.

وكان ابن تيمية يرى أن تحقيقاته وإلهاماته تُعارض تماماً تعاليمَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتخالف تعليمَ التوحيد الذي جاء به كل نبيٍّ في عصره ، وقام بتفسيره الأخير وإكماله نبيُّنا محمد ﷺ ، والذي يُستفاد بكل إيضاح من الكتاب والسنة وبلغنا بالتواتر اللفظي والمعنوي.

وكان الشيخُ محيي الدين بن عربي قد توفي عام ٦٣٨ هـ (قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة) وكانتْ مؤلفاته متداولة بين الناس ، بخاصة «الفتوحات المكية» و «فصوص الحكم» اللَّذين نالا إعجاب الأوساط العلمية.

أمَّا ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والإشراق بتأمُّلٍ ودقةٍ ، ومن بين ما قرأ من الكتب كان هذان الكتابان أيضاً ، إنه يقتطف في مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويرد عليهما ، الأمر الذي يدل على أن دراسته لِمثل هذه

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٣٧.

الكتب كانت مباشرة وعميقة ، وكان قد توصَّل بها إلى نتيجة أن التوفيق بين ما جاء في هذه الكتب من أفكارٍ وآراء وبين تعاليم النبوة مستحيلٌ ، إنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربي [(١)] :

«يقولون ـ ابن عربي وأتباعه ـ: إنَّ الوجود واحدٌ ، ويقولون: إن وُجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يُثبتون مَوجودين خَلق أحدُهما الآخر ، بل يقولون: الخالق هو المخلوق ، والمخلوقُ هو الخالق. . . فأمَّا الوجود فلا يُتصور أن يكون فيه رَبٌّ وعَبْدٌ ، وخالقٌ ومخلوقٌ ، وداعٍ ومُجيبٌ ، وإنما الوجود لمَّا فاض على الأعيان فظهر فيها ، حصل التفرق من جهة الأعيان ، كتفرق النور في الزجاج لاختلاف ألوانه.

ويقولون: إنَّ عُبَّاد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشيخ محيي الدين أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المشهور بابن عربي ولد سنة ٥٦٠هـ بمرسية بالأندلس وتوفي سنة ٦٣٨هـ بدمشق، اقرأ ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان وفي كتب التراجم والتاريخ.

ولا تزال شخصيته وآراؤه الشاذة موضع نزاع وخلاف من العهد القديم وحارت الأذهان في تأويلها ، ويرجح بعض أهل العلم أن كثيراً من ذلك مدسوس عليه ، ومما لا شك فيه أنها موحشة ، وفتن بها كثير من الناس ، وتضرروا بها ، وشغل قسطاً من ذكائهم ، ووقتهم ، لو صرف في محله لعاد على الإسلام والمسلمين بخير كثير ، ويعجبني ما قاله العلامة شمس الدين الذهبي وهو يترجمه في كتابه المشهور «ميزان الاعتدال» قال: «فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سورة من القرآن يصلي بها في الصلوات ويؤمن بالله وباليوم الآخر ، خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ، ولو قرأ مئة كتاب وعمل مئة خلوة» (ج٢ ، ص ٤٢٤).
وقد حمل لواء المعارضة له وتصدى لنقده اثنان من أعلام هذه الأمة أحدهما شيخ الإسلام ابن تيمية من رجال القرن الثامن والثاني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي من رجال القرن الحادي عشر ، كل بأسلوبه الخاص وفي ضوء تجاربه الشخصية ، ولهما موافقات ، والتقاءات لا تدل إلا على أن الحق واحد ، وعلى رسوخ قدمهما ، وعلو كعبهما في العلوم الصحيحة والأذواق الصادقة ، (المؤلِّف).

الذين يَرون الحق في كل شيء ، بل يرونه عينَ كل شيء وأن فرعون كان صادقاً في قوله ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] بل هو عين الحق [١].

وهم يُعظِّمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص (ابن عربي) قال: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسي ، لذلك قال «أنا ربُّكم الأعلى» أي وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما فأنا الأعلى منهم بما أُعطيتُه في الظاهر من الحكم فيكم ، قال: ولما علمت السَّحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا بذلك وقالوا له ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ٧٢] قال: فصح قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» وإن كان فرعون عين الحق.

ولهذا عابَ ابن عربي نوحاً. . . وعظَّم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنَّهم ما عبدوا إلا الله وأنَّ خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله [٢].

يَبدو أنَّ الناس غالوا كثيراً في الاعتقاد بوحدة الوجود في عصر ابن تيمية ، حتى تخطَّوا حدود الشرع ، والعقل ، والأخلاق في هذه العقيدة ، وحدثت «أزمة اعتقادية» في هذا الموضوع ، إنه يقول:

«وقد ضَلَّ في هذا جماعةٌ ولهم معرفةٌ بالكلام ، والفلسفة ، والتصوف المناسب لذلك كابن سبعين ، والصدر القَوْنَوِي تلميذ ابن عربي ، والبَلْيَانِي ، والتِّلْمِسَاني ، وهو من حُذَّاقهم علماً ومعرفة ، وكان يُظهر المذهب بالفعل ، فيشربُ الخمر ، ويأتي المحرمات.

وحدَّثني الثقةُ أنه قرأ عليه «فصوص الحكم» لابن عربي وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما رآه يخالف القرآن قال: فقلتُ له هذا الكلام يخالف القرآنَ.

فقال: القرآن كله شركٌ ، وإنما التوحيد في كلامنا.

---

(١) الردُّ الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم: ص ١١.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول.

وحدَّثني من كان معه ومع آخر نظير له فمرَّا على كلب أجرب ميِّت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله، فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟ نعم الجميع في ذاته [١].

وقيل لبعضهم: «إذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأمُّ حراماً؟

فقال: الكلُّ عندنا واحدٌ، ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم» [٢].

ولقد كتب شيخُ الإسلام ابن تيمية رسالة مفصلة في سنة ٧٠٤هـ إلى الشيخ أبي الفتح نصر المَنْبِجِي وذكر له فيها:

«لولا أنِّي أرى دفعَ ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق، ويهتك أستارها، ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصود الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم.

وهؤلاء موَّهوا على السَّالكين التوحيد الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعثَ الرسل بالاتحاد الذي سمَّوه توحيداً، وحقيقتُه تعطيلُ الصانع وجُحود الخالق، وإنما كنتُ قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي وتعظيمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من «الفتوحات» و«كنه المحكم المربوط» و«الدرة الفاخرة» و«مطالع النجوم» ونحو ذلك، ولم نكن بعدُ قد اطَّلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نُطالع الفصوص ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥.
(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم: ص ٤٢.

الحقَّ ونتبعه ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبيَّن الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا.

فلمَّا قدم من المشرق مشايخ مُعتبرون، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي وحقيقة حال هؤلاء، فوجب البيانُ.

وكذلك كَتب إلينا من أطراف الشام رجالٌ سالكون أهل صدق وطلب أن أذكر النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم، والشيخ أيَّده الله تعالى بنور قلبه، وذكاء نفسه، وحق قصْده من نصحه للإسلام وأهله لإخوانه السالكين يفعلُ في ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته في الدنيا والآخرة».

وهو بعد ذلك يستعرِضُ بشرح وتفصيل العقائد والنظريات والمذاهب التي كانت شائعة حول الاتحاد والحلول بين الفرق المسيحية كاليعقوبية والنسطورية والملكانية، وبين بعض الفرق التي كانت تُنسب إلى المسلمين كالرَّوافض والجهمية.

كما أنَّه يشرح بتفصيل «الاتحاد المعيَّن» و«الاتحاد المطلق» و«الحلول المعين» و«الحلول المطلق» ويذكُر القائلين بذلك، مما يدل على سعة نظره، واطلاعه على المذاهب السابقة، ثم إنه يقوم بشرح مذهب ابن عربي بغاية من التحقيق والدقة والحيطة، ممَّا يدلُّ على أنه كان قد درس كتبه كـ«الفتوحات» و«فصوص الحكم» بتأمل بالغ.

وكان قد أدرك مفتاح كلامه الذي سَهَّل عليه فتح مغاليق علومه وحقائقه، ومن ثم يتَّضح الفرق بينه وبين دُعاة وحدة الوجود الآخرين، وتنكشف حقيقةُ قولِ ابن عربي، وهو عندما يتكلم عن جميع هذا يتصدى لشرح نتائجه والتزاماته الفاسدة، ويمنحه حقَّ الشك والاحتمال بغاية من الإخلاص والانشراح، ويفرِّق بينه وبين الاتحاديين الآخرين، يقول في الرسالة نفسها:

«لكنَّ ابنَ عربي أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة، فإنه يفرِّق بين المظاهر والظاهر، فيُقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثيرٌ من العُبَّاد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون

حقائقه ، ومن فَهمه منهم وفقِه ، فقد تبيَّن قوله» [١].

ويقول في موضع آخر: «وهذه المعاني كلُّها هي قولُ صاحب «الفصوص» والله تعالى أعلم بما مات الرجلُ عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] [٢].

ثم إنَّه يتحدَّث عن مذهب صدر الدين القونوي فيقول: هو أبعدُ عن الشريعة والإسلام.

ويردُّ بعد ذلك على التلمساني وابن سبعين رداً قوياً ، ولكنه يُبغض التلمساني بغضاً شديداً ، فلا يلبث أن تبعثه الحمية الدينية على أن يقول:

«وأمَّا الفاجرُ التلمساني[٣] فهو أخبث القوم ، وأعمقهم في الكفر ، فإنه لايُفرِّق بين الوجود والثُّبوت ، كما يفرِّق ابن عربي ، ولا يفرِّق بين المطلق والمعين ، كما يفرق الرُّومي ، ولكن عنده ما ثم غيره ، ولا سوىً بوجهٍ من الوجوه ، وأن العبد إنما يشهد السوى ما دام مَحجوباً فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثَمَّ غير يبين له الأمر ولهذا كان يستحلُّ جميع المحرَّمات» [٤].

وفي الأخير يشير إلى نُكتة مهمة ويقول: «مُتكلِّمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومُتعبِّدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وذلك لأن متكلِّمهم ليس في قلبه تأله ولا تعبد ، فهو يصف ربَّه بصفات العدم والموات».

وأمَّا المتعبد ففي قلبه تألهٌ وتعبُّدٌ ، والقلبُ لا يقصد إلا موجوداً لا معدوماً فيحتاج أن يَعبُدَ المخلوقات ، إمَّا الوجود المطلق وإمَّا بعضَ المظاهر:

---

(١) جلاء العينين: ص٥٨.
(٢) المرجع السابق: ص ٥٨.
(٣) يعرف التلمساني لدى أتباعه بالعفيف التلمساني.
(٤) جلاء العينين: ص ٥٨.

كالشمس والقمر ، والبشر والأوثان ، وغير ذلك ، فإنَّ قول الاتحادية يَجمع كل شرك في العالم ، وهم لا يوحدون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما يُوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربِّهم يعدلون.

ولهذا حدَّثني الثقةُ أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال: إنَّ أرض الإسلام لا تسعه ، لأن الهند مشركون [(١)] ، يعبدون كلَّ شيء حتى النبات والحيوان.

وهذا حقيقةُ قول الاتحادية فإذا أخذوا يصفون الربَّ سبحانه بالكلام قالوا: ليس بكذا ليس بكذا ، ووصفوا بأنه ليس هو ربُّ المخلوقات كما يقوله المسلمون ، لكن يجحدون صفات الخالق التي جاءت بها الرسل عليهم السلام.

وإذا صار لأحدهم ذَوقٌ ووَجْدٌ ، تألَّه وسلك طريق الاتحادية ، وقال: إنه هو الموجودات كلها ، فإذا قيل له: أين ذلك النفي من هذا الإثبات؟

قال: ذلك وجدي ، وهذا ذوقي.

فيقال لهذا الضالِّ: كلُّ ذوقٍ ووجْدٍ لا يُطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطلٌ ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات ، فإنَّ عِلْم القلب وحاله متلازمان ، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال.

ولو سلَكَ هؤلاء طريق الأنبياء عليهم السلام ـ الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصَفته به رسله ، واتَّبعوا طريق السابقين الأولين: لسلكوا طريق الهدى ووجدوا بردَ اليقين وقُرة العين ، فإنَّ الأمر كما قال بعض الناس : إنَّ الرسل جاؤوا بإثبات مفصَّل ونفي مجمل ، والصابئة المعطلة جاؤوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فالقرآن مملوءٌ من قوله تعالى في الإثبات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧] ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠] وأنه ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١] ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً

(١) سكَّان الهند الأصليون.

وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] وفي النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١] .

ويتحدَّثُ عن الفوضى الخُلقية التي نشرتها هذه العقيدة ، واتخذها الفُسَّاق وأهل الهوس حِجاباً لشهواتهم ، فيقول:

«إنَّ دُعاة هذه العقيدة يجمعون بين شهوات النفس ، والهوس ، وفساد الاعتقاد ، مما أنتج في بعض البلدان أن بعض الناس يُصابون بهوى المُردان ، ويقولون: إنهم مظهر الله تعالى ، ومظهرُ جماله. وبعضُهم يُقبِّلون المحبوب ويقولون له: أنتَ الله ، وبعضُهم يعتدي على أولاده ، ويدعي الألوهية ، وما إلى ذلك».

ذلك هو الزمنُ الذي كان فيه الملك الناصر محمد بن قلاوون مَلكاً رمزاً ليس له من الأمر شيء ، كان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، هو الذي يأمر وينهى ويتصرف في المملكة تصرفاً مطلقاً ، وكان جاشنكير هذا من المعجبين بالشيخ نصر المنبجي ، الذي كان ممن يحب الشيخ ابن عربي حباً شديداً ، ولقد كان الشيخ نصر المنبجي لا يزال يطَّلع في مصر على آراء الشيخ ابن تيمية في ابن عربي التي كان يُبديها حيناً لآخر كِتابةً وكلاماً ، ويكفي ذلك لإثارة سَخطه على الشيخ ابن تيمية ، وكان جاشنكير ضعيفَ الثقافة شأن الأمراء الأتراك مُتمتعاً بتدبير الأمور العسكرية والإدارية ، ولكنه كان متأثراً برأي شيخه ويرى ابن تيمية كما يراه شيخُه.

أمَّا الشام فكانت ولايةً للمملكة المصرية ، وتابعةً لها بالكُلية ، فكان سُلطانها يتمتَّع بامتيازات واسعة ، وله الحق أن يطلب أيَّ شخص إلى البلاط يُخشى منه أن يُسبب ضرراً بالأمن العام أو يُثير فتنة وخصاماً ، وكانت أهواء رجال البلاط أو الاتجاهات الشخصية تعمل في مثل هذه المواقف بوجهٍ عامٍ ،

(١) الرد الأقوم على فصوص الحكم: ص ٥٢.

وكان الوضع إذ ذاك أنَّ الشيخ نصر المنبجي الذي كان يُعظِّمه نائب السلطنة ويقتدي به كان يُبغض ابن تيمية ، ويُريد أن يحط من شأنه ، ويُحبط مساعيه.

ابن تيمية يُطلب إلى مصر:

وعلى كُلٍّ فقد وصل كتاب السلطان إلى ابن تيمية في خامس رمضان عام ٧٠٥هـ يطلبُه إلى مصر ، وقد أقلق ذلك أصحابه وتلاميذه ، وأشار عليه نائب السلطنة ـ وكان من المعجبين به ـ بتَرْكِ الذهاب إلى مصر ، وقال له: أنا أكاتب السلطانَ في ذلك ، وأزيل الوحشة وألمّ الشَّعث ، ولكن الشيخ ابن تيمية امتنع عن ذلك وقال له: إن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة ، فازدحم الناسُ لوداعه ورؤيته وشيَّعوه إلى بعض الطريق ، وهم فيما بين باكٍ وحزين.

ودخَلَ الشيخُ غَزَّةَ في طريقه إلى مصر ، فعمل في جامعها مجلساً وألقى فيه درساً ، ووصل إلى مصر في ٢٢/ من رمضان ، وعُقد له مجلس بالقلعة يوم الجمعة بعد الصلاة ، حضره القضاة وأكابر الدولة ، وأراد أن يتكلَّم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام ، وانتدب له الشمس بن عدنان خصماً وأورد عليه بعض الحاضرين في عقائده ومسائله [١]، فسأله القاضي عن الجواب عليه، فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه ، فقيل له: أجِبْ ، ما جئنا بك لتخطب.

فقال: ومن الحاكم فيَّ؟

فقيل له: القاضي ابنُ مخلوف المالكي [٢].

فقال له الشيخ: كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي؟

---

(١) هذه العقائد والمسائل هي تلك البحوث الكلامية القديمة التي نوقشت في دمشق مراراً وكان ابن تيمية قد ألف في موضوعها رسائل وكتباً مستقلة، مثلاً «حقيقة الاستواء على العرش» وحقيقة كلام الله، وبحث الحرف والصوت.

(٢) كان خصماً لابن تيمية ومن معارضيه في مصر.

فغضب غضباً شديداً ، وانزعج وأصدر حُكمه عليه [(١)] ، وحُبس في بُرج أياماً ، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجبِّ ، هو وأخوه شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن [(٢)] .

وفي ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦هـ أحضَر الأميرُ سيف الدين سلار نائبُ مصر القضاة ، والفقهاء الذين تكلموا في إخراج الشيخ ابن تيمية من الحبس فاشترط بعضُ الحاضرين عليه شروطاً بذلك ، منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة ، وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلَّموا معه في ذلك ، فامتنع من الحضور ، وصمَّم ، وتكررت الرُّسل إليه ستَّ مرات ، فصمَّم على عدم الحضور ولم يلتفت إليهم ولم يَعِدْهُم شيئاً ، وكان جوابه دائماً ، ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾[(٣)] [يوسف: ٣٣].

ابنُ تيمية يتَحدَّث عن سَبب الخلاف ويُوضِّح مَذهَبه:

ومِن حُسن الحظِّ أن رسالة مُستقلة لابن تيمية صدرت جديداً ، حكي فيها عن مجلس النقاش الذي أقيم في مصر للنظر في قضيته ، وسرَد بنفسه قصة الحبس والأسر ، ثم كلام الناس للإفراج عنه ، وإنكاره ، وإيضاحه لمذهبه ، وهذه الرسالة تُضيء كثيراً من الجوانب المهمة والأحوال الجديدة ، وهنا أقدم نتفاً من مقتطفاتها [(٤)] .

فجاء الفتَّاح (ذات يوم) فقال: يسلِّم عليك النائب ، وقال: إلى متى يكون

---

(١) وقد حدَّث الشيخ عمَّا جرى له في هذا المجلس في رسالة له، صدرت باسم «المحنة» حديثاً.

(٢) ابن كثير: ج ١٤ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٢.

(٤) وُجِدت نسخةٌ من هذه الرسالة في المكتبة الظاهرية بدمشق بخط شقيقه ورفيقه في السجن الشيخ شرف الدين ابن تيمية، وقد صدرت باسم «مجموعة علمية» تحتوي على بعض رسائل الشيخ ابن تيمية الأخرى كذلك، اهتمَّ بطبعها وإخراجها فضيلةُ الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي سابقاً، وفضيلة الشيخ محمد نَصِيف (رحمهما الله).

المقام في الحبس، أما تخرج؟ هل أنت مقيمٌ على تلك الكلمة أم لا؟

وعلمتُ أن الفتَّاح ليس في استقلاله بالرسالةِ مصلحةٌ ، لأمور لا تخفى ، فقلتُ له: سلِّم على النائب وقل له: أنا لا أدري ما هذه الكلمة؟ وإلى الساعة لم أدر على أي شيء حُبِستُ؟ ولا علمتُ ذنبي؟ وأن جواب هذه الرسالة لا يكون مع خدمتك ، بل يُرسل من ثقاته الذين يفهمون ويصدقون أربعة أمراء ليكون الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان ، فأنا قد علمت ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب.

فجاء بعد ذلك الفتَّاح ، ومعه شخصٌ ما عرفته ، لكن ذُكر لي أنه يُقال علاء الدين الطبرسي ، ورأيت الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً ، وذكروه بالحسنى ، لكنه لم يقل ابتداءً من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى ، فلم يقل: الكلمة التي أنكرت كَيْتَ وكَيْتَ ، ولا استفهم هل أنت مُجيب إلى كيت وكيت؟ ولو قال ما قال من الكذب عليّ والكفر والمجادلة على الوجه الذي يقتضي الجواب بالحسنى؛ لفعلتُ ذلك ، فإنَّ الناس يعلمون أني من أطول الناس روحاً وصبراً على مُرّ الكلام ، وأعظم الناس عدلاً في المخاطبة لأقل الناس ، دَعْ ولاة الأمور ، لكنه جاء مجيء المُكره على أن أوافق إلى ما دعاه إليه ، أخرج درجاً فيه من الكذب والظلم ، والدعاء إلى معصية الله والنهي عن طاعته ما الله به عليم ، وجعلتُ كلما أردتُ أن أجيبه وأحمِّله رسالة يُبلغها: لا يُريد أن يسمع شيئاً من ذلك ويبلِّغه ، بل لا يريد إلا ما مضمونَه الإقرار بما ذكر ، والتزام عدم العودة إليه ، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فمتى ظَلم المخاطِب لم نكُن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن.

فقلتُ له في ضِمن الكلام: الحقُّ في هذه القضية ليس لي ، لكنْ للهِ ولرسوله ولسائر المسلمين من شرق الأرض إلى غربها ، وأنا لا (أستطيع) تبديلَ الدين وتغييره ، وليس لأجلك أو أجل غيرك أرتدُّ عن دين الإسلام ، وأقرُّ بالكفر والكذب والبُهتان ، راجعاً عنه أو موافقاً عليه.

لمَّا رأيته يُلح في الأمر بذلك ، أغلظتُ عليه في الكلام ، وقلت: دَعْ هذا الفشار ، وقُمْ رُحْ في شغلك ، فأنا ما طلبت منكم أن تخرجوني ، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذي يدخل منه إلى الباب المُطبق ، فقلت أنا: افتحوا لي الباب حتى أنزل ، يعني: فرغ الكلام.

وقلتُ له: أنا لم يصدر منِّي قطُّ إلا جواب مسائل ، إفتاءُ مُسْتَفْتٍ ، ما كاتبتُ أحداً ابتداءً ، ولا خاطبتُه في شيء من هذا ، بل يجيء الرجل المسترشد المستفتي عمَّا أنزل الله على رسوله ، فيسألني مرة بعد مرة ، وهو متحرِّق على طلب الهدى ، أفيَسَعُني في ديني أن أكتمَه العلم؟ وقد قالَ النَّبي ﷺ : «مَن سُئل عن علمٍ يَعلمُه ، فكتمَه ، ألجمَهُ الله يومَ القيامة بلِجَام من نار»[1] وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] أفعلى أمرك أمتَنِعُ من جواب المُسترشِد؛ لأكونَ كذلك؟! وهل يأمُرني بهذا السلطان أو غيره من المسلمين؟! ولكن أنتم ما كان مقصودُكم إلا دفعُ أمرِ الملك لِما بلغتكم من الأكاذيب.

فقال: يا مولانا دع أمر الملك ، أحدٌ ما يتكلم في الملك؟ فقلت: إيه ، الساعة ما بقي أحد يتكلم في الملك ، هل قامتْ هذه الفتنة إلا لأجل ذلك؟ نحن سمعنا بهذا ونحن بالشام ، إن المُثير لها تُهمـة المَلكِ ، لكن ما اعتقدنا أن أحداً يُصدِّق هذا.

وذكرتُ له أنَّ هذه القضية ليس ضَررُها عليَّ ، فإني أنا من أي شيء أخاف؟ إن قتلتُ كُنت من أفضل الشهداء وكان ذلك سعادة في حقي يُترضَّى بها عليَّ إلى يوم القيامة ، ويُلعن الساعي في ذلك إلى يوم القيامة ، فإن جميعَ أمة محمد

(١) [أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب من سئل عن علم فكتمه ، برقم (٢٦٦) ، وأحمد في المسند (٢/ ٤٩٥) برقم (١٠٤٢٥) ، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٨٢) برقم (٢٢٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

يعلمون أني أقتل على الحق الذي بعث الله به رسولَه ، وإن حبست؛ فوالله إنَّ حَبسي لمن أعظمِ نِعَمِ اللهِ عليّ ، وليس لي ما أخاف الناس عليه ، لا مدرسةٌ ، ولا إقطاعٌ ، ولا مَالٌ ، ولا رئاسةٌ ، ولا شيءٌ من الأشياء ، ولكنْ هذه القضية ضررُها يعود عليكم ، فإن الذين سعوا فيها من الشام ، أنا أعلم أنَّ قَصْدهم فيها كيدُكم ، وفسادُ مِلتكم ودولتكم ، وقد ذهبَ بعضُهم إلى بلاد التتار ، وبعضهم مقيم هناك ، فهمُ الذين قصدوا إفساد دينكم ودنياكم ، وجعلوني أنا ما نستر؛ لعلمكم بأني أُواليكم ، وأنصحُ لكم ، وأريد لكم خير الدنيا والآخرة ، والقضية لها أسرارٌ كلَّما جاءت تنكشف ، وإلاَّ فأنا لم يكن بيني وبين أحد بمصر عداوة ولا بغضاءُ ، وما زِلتُ محبّاً لهم ، مُوالياً لهم ، أمراءَهم ومشايخَهم وقُضاتهم.

فقال لي: فما الذي أقوله لنائبِ السلطان؟

فقلتُ: سلِّم عليه ، وبلِّغهُ كلَّ ما سمعتَ.

فقال: هذا كثيرٌ.

فقلتُ: ملخصه أن الذي في هذا الدرج أكثرُه كَذِبٌ.

وأمَّا هذه الكلمة «استوى حقيقة».

ويعني: قلتها حقاً.

فهذه قد ذكر غيرُ واحدٍ من علماء الطوائف المالكية وغير المالكية: أنه أجمع عليها أهلُ السُّنَّة والجماعة، وما أنكر ذلك أحدٌ من سلف الأمة ، ولا أئمتها ، بل ما علمتُ عالماً أنكرَ ذلك ، فكيف أترك ما أجمع عليه أهلُ السُّنَّة ، ولم ينكره أحد من العلماء.

قال أبو عمرَ بنُ عبد البرّ: أهل السُّنَّة مُجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كُلِّها في القرآن والسنة ، والإيمان بها وحملِها على الحقيقة لا على المجاز، إلاَّ أنهم لا يُكيّفون شيئاً من ذلك ، ولا يجدون فيه صفة محصورة.

وأمَّا أهلُ البدع الجهمية ، والمعتزلة كلها ، والخوارج ، فكلُّهم يُنكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مُشبِّهٌ وهم عند من

أقرَّ بها نَافُونَ للمعبود ، والحقُّ فيما قاله القائلون بما نَطَقَ به كتابُ الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة.

وقال الشيخُ العارفُ أبو محمد عبد القادر بنُ صالح الكيلاني في كتاب «الغنية» وهو بجهة العلو ، مُستو على العرش محتوٍ على الملك ، محيطٌ عليه بالأشياء.

قال: ولا يجوز وصفُه بأنه في كلِّ مكان ، بل يُقال: إنه في السماء على العرش كما قال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وذكر الآيات والأحاديث ، إلى أن قال: ينبغي إطلاقُ صفة الاستواء ، من غير تأويل ؛ وأنَّه استواءُ الذات على العرش (١) ، فلو كان الذي حَكم بِهِ ابنُ مخلوفٍ وهو مذهب مالك أو الأشعري ؛ لم يكن له أن يُلزم جميع الناس به ويعاقب من لم يوافقه عليه باتفاق الأمة ، فكيف والقولُ الذي يقوله ويُلزم به هو خلاف نصِّ مالك وأئمةِ أصحابه ، وخلاف نص الأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر ، وأبي الحسن الطبري ، وأبي بكر ابن فورك ، وأبي القاسم القشيري ، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء ، وكلهم مُصرِّحون بمثل ما قلناه وبنقيض ما قاله!

ولهذا اصطلحت الحنبليةُ ، والأشعريةُ ، واتفق الناس كلُّهم ، لمَّا رأى الحنابلة كلام أبي الحسن الأشعري قالوا: هذا خيرٌ من كلام الشيخ الموفَّق ، وزالَ ما كان في القلوب من الأضغان ، وصار الفقهاء من الشافعية وغيرهم يقولون: الحمد لله على اتفاق كلمة المسلمين.

فقال لي: نعم هو مستوٍ على العرش حقيقةً بذاته بلا تكييف ولا تشبيه؟ قلت: نعم ، وهكذا هي العقيدة ، فقال: فاكتب هذه الساعة ، وقال: التزمه ، أو نحو هذا.

---

(١) لقد تصدَّى الشيخُ في هذه المناسبة بذكر كثير من آراء أكابر العلماء للمذاهب الأربعة نكتفي هنا بذكر هذين الرأيين فقط.

فقلتُ: هذا هو مكتوبٌ بهذا اللفظ في العقيدة التي عندكم التي بُحثت بدمشق واتَّفق عليها المسلمون فأيُّ شيء هو الذي أزيده؟

قلت له: أنا أحضرت أكثر من خمسين كتاباً من كتب أهل الحديث والتصوُّف والمتكلمين والفقهاء الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، يُوافق ما قلته.

قلت: أنا أمهل من خالفني ثلاث سنين أن يجيء بحرف واحد عن أئمة الإسلام يُخالف ما قلته، فما الذي أصنعُه؟

فلمَّا خرج الطبرسيُّ، والفتاح؛ عاد الفتَّاح بعد ساعة، فقال: يُسلِّم عليك نائب السلطان وقال: فاكتب لنا الآن عقيدة بخطك.

فقلت: سَلِّم على نائب السلطان، وقل له: لو كتبتُ الساعة شيئاً لقال القائل:

قد زاد ونقص أو غيَّر الاعتقاد، وهكذا بدمشق لما طلبوا الاعتقاد لم آتهم إلا بشيء قد كُتب متقدماً.

قلتُ: وهذا الاعتقادُ هو الذي قُرِئ بالشام في المجالس الثلاثة، قد أرسَله إليكم نائبكم مع البريد والجميعُ عندكم، ثم أرسل إليكم مع العمري ثانياً لما جاء الكتاب الثاني ما قاله القضاة، والعلماء، والمحضر، وكتاب البخاري الذي قرأه المِزِّي، والاعتقاد ليس هو شيئاً أبتدعه من عندي، حتى يكون كل يوم لي اعتقاد، وذلك الاعتقاد بعينه، والنسخة بعينها، فانظروا فيها.

فراح، ثم عاد، وطلب أن أكتب بخطي أيَّ شيء كان.

فقلت: فما الذي أكتُبه؟

قال: مثل العفو، وألا تتعرَّض لأحد.

فقلت: نعم هذا أنا مُجيبٌ إليه، ليس غرضي في إيذاء أحد، ولا الانتقام منه، ولا مؤاخذته، وأنا عافٍ عمن ظلمني، وأردت أن أكتب هذا، ثم قلت: مثلُ هذا ما جرت العادة بكتابتِه، فإنَّ عَفْوَ الإنسان عن حقه لا يحتاج إلى هذا.

فينبغي أن يعرف الشيخ نصر بحقيقة الأمر وباطن القضية ليَطُبَّها بتدبيره ، فأنا ليس مرادي إلا في طاعة الله ورسوله وما يخافُه على جميع المصريين إلا من بعضهم في بعض كما جرت به العادة ، قد سمعتُم ما جرى بدمشق مع أن أولئك أقرب إلى الاتفاق من تجديد القاضي المذكور إسلامَه عند القاضي الآخر ، وأنا لما كنت هناك كان هذا الأذرعيُّ الحنفيُّ قد ذهب إلى القاضي تقي الدين الحنبلي ، وجدد إسلامه ، وحكم بحقن دمه لمَّا قام عليه بعض أصحابهم في أشياء.

وكان من مُدة لمَّا كان القاضي حسام الدين الحنفي مباشراً لقضاء الشام أراد أن يحلقَ لِحية هذا الأذرعي ، وأحضر الموسى ، والحمار ليركبه ، ويطوفَ به ، فجاء أخوه عرَّفني ذلك ، فقمتُ إليه لم أزل به حتى كفَّ عن ذلك ، وجرت أمورٌ لم أزل له فيها مُحسناً إليهم ، وهذه أمورٌ ليست من فعلي ، ولا فعل أمثالي نحن إنما ندخل فيما يُحبه الله ، ورسوله ، والمؤمنون ، ليس لنا غرضٌ من أحد ، بل نجزي بالسيئة الحسنَـة ، ونعفو ، ونغفر.

وهذه القضيةُ قد انتشرت ، وظهرَ ما فعل فيها وعلمه الخاصُّ والعام ، فلو تغيَّرت الأحوال حتى جاء أميرٌ ، أو وزير له في نقل ملك قد أثبته ، أو حكم به ؛ لكان هذا عند المصريين من أسهل ما يكون ، فيُثبتون ردته ، والمرتدُّ أحكامه مردودة باتفاق العلماء ويعود ضررُه على الذين أعانوه ، ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم ، وهذا أمرٌ كبير لا ينبغي إهمالُه ، فالشيخ خبيرٌ يعرف عواقبَ الأمور.

وأنا والله مِن أعظمِ الناس معاونةً على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها ، وإقامة لكلِّ خيرٍ.

وابنُ مخلوف ولو عمل مهما عمل والله ما أقدرُ على خير إلا وأعمله معه! ولا أعين عليه عدوَّه قط ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيَّتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور ، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن أكون عوناً للشيطان على إخوتي المسلمين ، ولو كُنت خارجاً ؛ لكنتُ أعلم بماذا أعاونه ،

لكن هذه قد جعلوها مِسألة دور ، والله يَخيرُ للمسلمين جميعهم ما فيه الخِيرة في دينهم ، ودنياهم.

ولنْ ينقطعَ الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله ، والاستغفار ، والتوبة ، وصدق الالتجاء ، فإنه سبحانه لا ملجأ منهُ إلا إليه ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

أمَّا ما يتعلقُ بالاستغاثة بالنبي ﷺ ، فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام: أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يتوكَّل إلا على الله ، وأنَّ من عبدَ ملكاً مقرباً ، أو نبياً مُرسلاً ، أو دعاه ، أو استغاث به فهو مشرك ، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل ، أو يا ميكائيل ، أو يا إبراهيم ، أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لي ، أو ارحمني ، أو ارزقني ، أو انصرني ، أو أعني ، أو أجرني من عَدُوِّي ، أو نحو ذلك ، بل هذا كُلُّه من خصائص الألوهية ، وهذه مسائلُ شريفةٌ معروفة قد بيَّنها العلماء.

وأنتَ لمّا ذكرتَ لي ذلك اليوم هذا ، قلتُ لك: هذا من أصول الإسلام ، فإذا كان القاضي لا يُفرق بين دين الإسلام ودين النصارى الذين يَدْعُون المسيح وأمَّه فكيف أصنع أنا؟ ولكن من يتخذ نفيسة [1] رَبَّاً ، ويقول إنها تُجير الخائف ، وتُغيث الملهوف ، وأنه والهٌ في حبها ، ويَسجدُ لها ، ويتضرَّع في دعائها ، مثلَ ما يتضرع في دعاء رب الأرض والسموات ، ويتوكَّل على من قد مات ، ولا يتوكل على الحيِّ الذي لا يموت ، فلا ريب أن إشراكه بمن هو أفضلُ منها يكون أقوى ، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩] ، وحديث معاذ لمَّا رجع من الشام فسجَد للنبي ﷺ فقالَ: «ما هذا يا معاذ»؟

---

(١) السيدة نفيسة من أهل بيت الرسول ﷺ وقبرها معروف بالقاهرة يعظِّمه العامةُ.

فقال: رأيتُهم في الشام يسجُدون لأساقِفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم.

فقال: «يا معاذ، أرأيتَ لو مررتَ بقبري أكنتَ ساجداً له؟».

قال: لا.

قال: «فلا تسجد لي، فلو كُنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»[1].

فمن لا ينهى الضالِّين من مثل هذا الشرك المحرم بإجماع المسلمين كيف ينهى عما هو أقلُّ منه؟

ومن دعا رجلاً أو امرأة من دون الله؛ فهو مُضاهٍ لمن اتَّخذ المسيح وأمَّه إلٰهين من دون الله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُطروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسوله»[2] بل من سَوَّغَ أن يُدعى المخلوق ومنع دعاء الخالق الذي فيه تحقيق صمديَّته، وإلٰهيته؛ فقد ناقض الإسلام في النفي والإثبات، وهو شهادةُ أن لا إله إلا الله».

وأمَّا حُقوق رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - مثلُ تقديم محبَّته على النفس، والأهل، والمال، وتعزيره، وتوقيره، وإجلاله، وطاعته، واتباعِ سنته، وغير ذلك؛ فعظيمة جداً.

---

(١) [أخرجه ابن ماجه في أبواب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، برقم (١٨٥٣)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى، والطبراني في الكبير (٨/ ٣١) برقم (٧٢٩٤) من حديث صُهيب، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠٠): رواه البزار والطبراني، وفيه النهاس بن فهم وهو ضعيف].

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، برقم (٣٤٤٥)، وابن حبان في الصحيح (١٤/ ١٣٣) برقم (٦٢٣٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٣) برقم (١٥٤)، وغيرهم عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه].

وكذلك ما يُشرع التوسُّل به في الدعاء كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصحَّحه: أن النبي ﷺ عَلَّم شخصاً أن يقول: «اللَّهم إنِّي أسألك، وأتوسَّلُ إليك بنبيِّك محمَّد نبيِّ الرحمة، يا محمد! يا رسول الله! إنِّي أتوسَّل بك إلى ربِّي في حاجة لِتقْضِيها، اللهم فشَفِّعْهُ فيَّ»[1] فهذا التوسلُ به حسنٌ، وأما دُعاؤه والاستغاثة به، فحرامٌ.

وأنا قد صنَّفتُ كتاباً كبيراً سميته «الصارم المسلول على شاتم الرسول» وذكرتُ فيه في هذه المسألة ما لم أعرف أحداً سبق إليه، وكذلك هذه القواعد الإيمانية، وقد كتبتُ فيها فصولاً هي من أنفع الأشياء في أمر الدين.

وممَّا ينبغي أن يُعرف به الشيخ أني أخاف أن القضية تخرج عن أمره بالكُلية، ويكون فيها ما فيه ضررٌ عليه، وعلى ابن مخلوف ونحوهما، فإنه قد طُلب مني ما يجعل سبباً لذلك، ولم أجب إليه، فإني إنما أنا لون واحد، والله ما غَشَشْتُهما قط، ولو غَشَشْتُهما كتمتُ ذلك، وأنا ساعدٌ لهما على كل برٍّ، وتقوى.

وتُعرِّفه: أن الأصل الذي تَصلُح عليه الأمور: «رُجوع كل شخص إلى الله، وتوبتُه إليه في هذا العشر المبارك، فإذا حَسُنتِ السرائرُ؛ أصلحَ الله الظواهر، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]»[2].

قِيامُه بالإصلاحِ والتّعليم في السّجن وتأثيرُ ذلك:

يتحدَّث الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي صاحب «الكواكب الدرية» عن مُعاصر الشيخ ابن تيمية وزميله في الدراسة الشيخ عَلمِ الدين البرزالي، يقول:

«ولمَّا دخل الحبسَ وجَد المحابيس مَشغولين بأنواع من اللعب يَلْتهون بها عما هم فيه، كالشطرنج، والنَّرد مع تضييع الصلوات، فأنكرَ الشيخُ ذلك

---

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات، برقم (٣٥٧٨) من حديث عثمان بن حُنَيف بهذه الألفاظ: «اللَّهم إنِّي أسألك وأتوجَّهُ إليك بنبيِّك محمد نبيِّ الرحمة، إنِّي توجهتُ بكَ إلى ربِّي في حاجتي هذه لتُقضَى لي، اللَّهمَّ فشَفِّعْهُ فِيَّ»].

(٢) مجموعة علمية: ص ٦٥.

عليهم ، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجّه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلّمهم من السُّنَّة ما يحتاجون إليه ، ورغَّبهم في أعمال الخير ، وحضّهم على ذلك ، حتى صار الحبسُ بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخَوانق والمدارس، وصار خلْقٌ من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده»[١] .

وفي الرابع عشر من صفر سنة ٧٠٧هـ بعد أربعة أشهر استُؤنفت جهودٌ للإفراج عنه ، ولقيَه قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة نفسُه وتكلم معه في الموضوع طويلاً ، ولكنه لم يَرض بالخروج من السجن.

وأخيراً في الثالث والعشرين من ربيع الأول ذهبَ إليه الأمير حسام الدين مُهنّا بن عيسى ملك العرب[٢] في السجن، وناشده الله وجاء به إلى منزل نائب السلطنة ، وكان الأمير حسام الدين يُريد أن يذهب به إلى دمشق ، ولكنَّ النائب أشار عليه بالإقامة في مصر لمدةٍ حتى يعرف الناس بمكانته العلمية والدينية ، ويتمكّنوا من الاستفادة منه.

سُمُوُّ أخلاقِ ابنِ تيمية:

وتَجلّى سُموُّ أخلاق ابن تيمية في هذه الفترة أكثر مما كان عليه ، فإنه لم يُطأطِىء رأسَه أمام أيّ قوة ، ولا راوَدَتْهُ رغبةٌ دنيوية ، أو منفعةٌ مالية ، إنه رَفض بصراحةٍ أن يَقبل أي خلعةٍ سُلطانية ، أو عَطايا ملوكية.

وكانتْ مأثَرتُه الأخرى أنه عفا عن جميع من حاولوا إيذاءه ، أو عارضوه فور خروجه من السجن من غير استثناء وتلكُّؤ ، وأعلن مُدوّياً: أنه لا مؤاخذة ،

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٨١.

(٢) كان الأمير حسام الدين أحد أفراد أسرة الأمراء العرب، ومن سراة الشام ورؤسائها الأقوياء وكان أكثر اطلاعاً على مآثر ابن تيمية وجهوده الإصلاحية بالنسبة إلى المصريين ، وقد بذل اهتمامه بصفة خاصة في الإفراج عنه وتأثر ابن تيمية بإخلاصه ، وعلو نسبه وحبه للحرية فقبل اقتراحه ورضي بالخروج من السجن.

ولا عتاب على أحد ، يقول في رسالته التي وجَّهها إلى الشام بعد الإفراج عنه :

«تَعلَمُون رضيَ الله عنكم أني لا أحبُّ أن يُؤذى أحدٌ من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً لا ظاهراً أو باطناً ، ولا عندي عَتبٌ على أحد منهم ، ولا لَوْمٌ أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة أضعاف ما كان ، كل بحسَبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد مَعفُوٌّ عنه ، والثالثُ فاللهُ يغفرُ لنا وله ولسائر المؤمنين ، لا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذِبه عليَّ ، أو ظلمه ، أو عُدوانه ، فإنِّي قد أحللتُ كلَّ مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي ، والذين كذبوا ، وظلموا هم في حلٍّ من جهتي» [١] .

التَّدريسُ والإفَادةُ:

اشتغلَ ابنُ تيمية بعد خروجه من السجن بالتدريس والإفادة ، ولم يكن الجوُّ في مصر مُلائماً له بعد ، وكان العلماء والقضاة قد أذاعوا عنه في الناس أنواعاً عديدة من سُوء الظن ، فقد كانت جماعةُ الصوفية ـ التي كانت تتسم بالتوحيد الوجودي ـ مُسيئَة الظنِّ به ، ومتألمةً منه ، ولم تكن هناك شخصية قوية تُمثل المذهب الحنبلي وحده من بين المذاهب الأربعة ، كما تُمثِّل عقيدة السلف من بين العقائد [٢] ، بينما وُجد كبارُ العلماء والقضاة للمذاهب الأخرى هناك .

وعلى ذلك فقد عَزم ابنُ تيمية على الإقامة في مصر لمدة يقوم فيها بإلقاء الدروس والإفادة العامة ، وابتدأت دروسه ومجالسُه منظَّمةً وغير منظمة ، وقد ألقى عِدّة دروس عن القضايا العلمية والكلامية الخالصة في مدارس القاهرة

(١) ابن تيمية: محمد أبو زهرة ، ص ١٦٢ .

(٢) كان القاضي الحنبلي آنذاك قليل العلم ومحدود الذكاء ، فكان الحنابلة ضعيفي الجانب لذلك .

الشهيرة وبخاصة في الصالحية ، استفاد منها الخاصَّة ، واطلعوا على أفكاره وعقائده الأصيلة.

استمرَّتْ هذه الدروسُ والمجالس إلى ستة أشهر ، استفاد منها العامة والخاصة كلهم فوائد علمية ودينية ، وشُغف الناس بوجهٍ عام بإخلاصه ، وذكائه النادر ، وعقله الكبير ، ونُبوغِه العلمي.

رسالة ابن تيميَّة إلى أمِّه:

لقد كان قدُوم ابن تيمية إلى مصر على غفلةٍ منه ، وما كان يعرفُ أنه يمكُث هناك هذه المدَّة الطويلة ، وكانتْ أمُّه وأسرته كلها في الشام تنتظرُ عودته بسلامة ، ولما أراد ابنُ تيمية أن يقضي بعض المدة في مصر أخبرَ أمَّهُ بهذه النية ، واستأذنَها في ذلك برسالة تحتوي على عواطف لطيفة ، وحُبّ بريء ، وبِرٍّ مع الأم ، وطموح ، ورجولة ، وعزم ، كما أن أسلوبها سهل مطبوع ، وهي جديرة بأن أنقُل جميعَها إلى القراء الكرام:

«مِن أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقرَّ الله عينيها بِنعَمِه وأسبغَ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من إمائِهِ وخدمه.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته:

إنَّا نحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو لِلحَمد أهلٌ ، وهو على كلِّ شيء قدير ، ونسألُه أن يُصلي على خاتم النبيين وإمام المتقين محمدٍ عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نِعَم من الله عظيمة ، ومِنَنٍ كريمة وآلاء جسيمةٍ نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت في نُموٍّ وازديادٍ ، وأياديه جلَّت عن التعداد ، وتعلمون أن مقامنا الساعةَ في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها؛ فسد علينا أمرُ الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبُعد عنكم ولو حملَتنا الطيورُ؛ لَسِرْنا إليكم ، ولكنَّ الغائب عذرُه معه وأنتم لو اطَّلعتُم على باطن الأمور؛ فإنكم ـ ولله الحمد ـ ما تختارون

الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقامِ والاستيطان شهراً واحداً بل كلَّ يوم نستخيرُ الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخِيرة ، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خيرٍ وعافية .

وقد فتحَ الله مِن أبواب الخير ، والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطُر بالبال ، ولا يدور في الخيال ، ونحن في كلِّ وقتٍ مهمومون بالسفر مُستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظنّ الظانُّ أنَّا نؤثر على قُربكم شيئاً من أمور الدنيا قطُّ ، بل لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قُربُكُم أرجح منه ولكن ثَمَّ أمور كبار نَخافُ ضرر الخاصِّ والعام من إهمالها ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب .

والمطلوبُ كثرة الدعاء بالخيرة فإن الله يعلم ، ولا نعلم ، ويَقْدِر ، ولا نقدر ، وهو علاَّم الغيوب ، وقال النبي ﷺ : «مِن سعادة ابن آدم استخارتُه الله ، ورضاه بما يقسم الله له ، ومِن شقاوة ابن آدم تركُ استخارته الله ، وسخَطُه بما يقسم الله له»(١) .

والتاجر يكون مسافراً ويخافُ ضياع ماله ، فيحتاجُ أن يُقيم حتى يستوفيَه ، وما نحن فيه أمر يَجِلُّ عن الوَصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً ، وعلى سائر من في البيت من الكبار ، والصغار ، والأهل ، والأصحاب واحداً واحداً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً» .

اعتِقالُ ابنِ تَيميةَ مَرَّةَ أُخرى:

لقد كانت مِصر مركزاً مُستقلاً لعقيدة وحدة الوجود ونظرتها ، ويبدو أن

---

(١) [أخرجه أحمد في المسند (١٦٨/١) وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٩/٢): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار بنحوه ، وفيه محمد بن أبي حميد ، وقال ابن عدي: ضَعْفُه بيِّن على ما يرويه ، وحديثه مقاربٌ ، وهو مع ضعفهِ يُكتَبُ حديثه ، وقد ضعَّفَه أحمد والبخاري وجماعة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٥١٨/١) ، والترمذي في أبواب القدر ، باب ما جاء في الرضا بالقضاء ، برقم (٢١٥) والبزار كما في «كشف الأستار» (٧٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه].

الشاعر المتصوف الشهير ابن الفارض الذي توفي عام ٦٣٢هـ كان من أصحاب هذا «المشرب» ، وفي شعره إشارات يستدلُّ منها على هذا الاتجاه ، وكان ابنُ تيمية يردُّ على هذه العقيدة جَهاراً ، ويعترض على هذه الأقوال والأعمال في دروسه ومجالسه ، التي كان يَعتبرها فيما يرى ضدَّ الكتاب والسنة ، ومن زيادات المتأخرين من الصوفية ، إنه يذكر في مواضع كثيرة من كتبه ومؤلفاته المحقِّقين من الصوفية والراسخين منهم أمثال: الإمام عبد القادر الجيلاني ، والشيخ عدي بن مسافر الأموي في غاية من الاحترام والتأدب ، ولكنه لا يتلكأ في انتقاد مُعاصريه من المتصوفين والمشايخ ، الذين كانوا مُعجَبين فيما يعتقد بفلسفة اليونان ، وفلسفة الإشراق لمصر والهند.

وكان من الطبيعي أن تُثير انتقاداتُه هذه استنكاراً في أوساط التصوف ، ونَهض شيخ الطريقة في مصر المعروف بابن عطاء الله الإسكندري (صاحب الحِكَم) واشتكى إلى الحكام ضدَّ ابن تيمية نيابة عن جماعة الصوفية ، كما ذهبتْ طائفة من الصوفية إلى القلعة تشكو ابن تيمية ، فلما سمع السلطان بهذه الشكاوى أمر بعقد المجلس في دار العدل ، وتحقيقِ هذا الأمر ، وحضر ابنُ تيمية في المجلس وتولّى قضيته بنفسه ، وأسكتَ الناس بدلائله وقوة كلامه ، وأمسكَ السلطان عن إصدار أي مرسوم ضدَّه.

غير أنَّ الثورة التي قامت عليه لم تَنْتَهِ ، وكان من بين ما اتُّهم به أنه يُعلن جهاراً أنه لا يُستغاث إلا بالله ، وحتى لا تَصِحَّ الاستغاثةُ بالنبي ﷺ ، ولما عُرضت هذه الشَّكاةُ قال بعض العلماء: ليس عليه في هذا شيء ، ورأى قاضي القضاة: أن هذا فيه قِلَّةُ أدب ، أمّا أن يؤدي هذا إلى الكفر ، فلم يَقُل به أحَد ، ولذلك لم يَعُد للشكوى أيُّ أثرٍ.

ولكنَّ الحكومة تضجَّرتْ من هذه الإثارات التي استمرت في غير انقطاع فخيرتِ ابن تيمية بين ثلاث أمور: إمّا أن يسير إلى دمشق ، أو يُقيم في

الإسكندرية بشروط [١] يستوفيها ، أو يختار الحبس ، فاختار الحبس ، فألحَّ عليه جماعة من تلاميذه وأنصاره أن يسافر إلى دمشق ، فأجابهم جبراً لخواطرهم ، وتوجه إليها ليلة ١٨ من شوال سنة ٧٧٠هـ ، ولكنه ردَّ في نفس اليوم إلى مصر ، وقيل له: إنَّ الدولة ما ترضى إلا بالحبس ، غير أن القضاة والعلماء كانوا مُرتبكين في حبسه؛ إذ لم يَثْبت عليه شيء ، وقد صاح القاضي المالكي شمسُ الدين التونسي وقال: لم يثبت عليه شيء يُبرر حَبْسه ، وكان نور الدين المالكي متردِّداً في هذا الأمر فسكت.

ولمَّا رأى الشيخ ابن تيمية صراع العلماء والقضاة الفكري حكم لنفسه بالحبس ، فقال نور الدين الزواوي: يكون في موضع يَصْلُح لمثله ، فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسعى الحبسِ ، فأرسل إلى حبس القضاة ، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه.

واستمرَّ الشيخُ ابن تيمية في الحبس يُستفتى ، ويقصِده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء ، وأعيان الناس ، فيكتب عليها بما يُحيِّر العقول من الكتاب والسنة.

وبعد مدَّةٍ عُقِدَ مجلسٌ للشيخ في الصالحية ، وأفرج عنه نزولاً على رغبة الفقهاء والقضاة ، فاستقبله الناس بحماس وحرارة ، وأكبُّوا على الاجتماع به ليلاً ونهاراً [٢].

التَّطوُّراتُ السياسية ، وابن تيمية يُواجه الشدائد:

فُوجِئت مصرُ بتطوُّراتٍ وتغييراتٍ سياسية أحدثتْ لابن تيميَّة مشكلات جديدة ، وانتهز المعارضون هذه الفرصة للتآمر عليه بحُرِّية تامة ، وكان ناصر بن قلاوون لا يزال سلطان مصرَ والشام ، وهو الذي كان مُعْجَباً بعلمه

(١) ولعلَّ من أهم الشروط: ألا يدعو الناس إلى اعتناق معتقداته بوجه عام.

(٢) اقرأ التفاصيل في «البداية والنهاية» ج١٤ ، ص٤٦.

وإخلاصه يَعطف عليه ، فإنّ ابن تيمية هو الذي كان قد حمله على مقاومة التتار ، فكان قد شاهد بنفسه شجاعته ، وقُوَّة إيمانه واستقامته.

وفي سنة ٧٠٨ هـ اعتزل السلطانُ السَّلطنةَ لأسباب كثيرة بعثَتْ فيه التشاؤم ، واقتنع بالإقامة في كرك ورقعة مملكته المحدودة فيها.

وتخلَّى عن عرش مصر لرُكن الدين بيبرس الجاشنكير ، فأعلن بسَلطنته المستقلة ، ومن ثمَّ أصبح ركن الدين الحاكم المستقلَّ لمصر والشام ، وصار الشيخ نصرٌ المنبجي المربِّي الروحي لهذه المملكة الكبيرة ومستشارها الخاص.

أمَّا ابن تيمية فكان يُعتبر من أنصار السلطان ناصر بن قلاوون عدا ما اشتُهر به من عقائد وتحقيقات دينية تُضادُّ اتجاهات الشيخ نصرٍ المنبجي تماماً ، ولذلك فقد اجتمعتِ العوامل الدينية والسياسية لتنفيذ الأحكام ضدَّه.

وفور هذا التغييرِ الذي حَدث في سياسة الدولة صدر مرسومٌ ملكي لنفي ابن تيمية إلى الإسكندرية وحبسِه هناك ، فقد أرسل إلى الإسكندرية في اليوم الأخير من صفر سنة ٧٠٩هـ ، ويقال: إنَّ الغرض من توجيهه إلى هذه المدينة الجديدة التي كانت تُعتبر مركز التصوُّف والصوفية القديم ، أن يتصدَّى له بعضُ من يغتاله ، وتنجُوَ الدولة من هذا الصداع المتكرر من غير اتِّهام ، أو سُوء سُمعةٍ.

ولكنَّ سُرعان ما اجتمع لديه حلقةٌ من تلاميذه والمعجبين به ، وتزايد إقبال العامة عليه ، فلم يؤثر الصَّمتَ ، والتعطيل على الكلام والعمل ، وشغله نشرُ تعاليم الكتاب والسنة ، والردُّ على البدع والمنكرات عن كلِّ شيء ، وبدأ الناس يُحبُّونه ، ويُكرمونه حتى أحرز قبولاً عاماً بينهم ، يقول شقيقهُ شرف الدين ابن تيمية الذي كان رفيقَه ومشاركه في الحبس في رسالة بعث بها إلى أهل دمشق:

«وانقلبَ أهْلُ الثَّغر أجمعون إلى الأخ مُقبِلين عليه مُكرمِين له ، وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسُنَّة رسوله ما تَقَرُّ به عين المؤمنين ، وذلك شجيٌ في حلوق الأعداء. . . واستقرَّ عند عامة المؤمنين وخواصِّهم من أمير ، وقاض ،

وفقيه ، ومفتٍ ، وشيخ ، وجماعة المجتهدين إلا من شذَّ من الأغمار الجُهَّال مع الذِّلة والصَّغار محبةُ الشيخ ، وتعظيمُه ، وقبول كلامه ، والرجوعُ إلى أمره ونهيه» [١].

ووُجِد بالإسكندرية في ذلك الحين غلبةٌ لأفكار فرق السَّبعينية ووحدة الوجود ، وكان هناك بعض دُعاتها المتحمسين ، حتى نالتْ هذه الأفكار قبولاً في أوساط العامة أيضاً، فكان لها تأثيرٌ سيِّئٌ في أخلاقهم وأعمالهم، وأنتجت فيهمُ انطلاقاً في أمور الشريعة وحُرِّية فيها ، فقاومَ ابنُ تيمية هذا الاتجاه بشدة وحماس ، وردَّ أفكار هؤلاء الدعاة ، ومزَّق كلمتهم ، فشتَّتَ جمعَهم ، وفرَّق شملَهم ، وذلك في فترة إقامته فيها التي لا تجاوز ثمانيةَ أشهر ، وأعرض عنهمُ العامة ، والخاصة ، واستتاب جماعةً كثيرة منهم ، وتاب رئيسٌ من رؤسائهم كبير.

وكان مَقرُّ ابن تيمية في الإسكندرية مُتَّسعاً نظيفاً مليحاً ، له شُبَّاكان أحدُهما إلى جهة البحر والآخرُ إلى جهة المدينة ، وكان يدخل عليه مَنْ شاء ويتردَّدُ إليه الأكابر ، والأعيان ، والفقهاء ، يقرؤون عليه ، ويَستفيدون منه [٢].

انقراضُ أمر رُكن الدين الجاشنكير:

كان الشيخُ ابن تيمية يتنبَّأُ أحياناً عن نهاية أيام الجَاشَنْكِير وشيخهِ نصر المنبجي ، ويقول: «زالتْ أيامه ، وانتهت رئاسته ، وقرب انقضاء أجله» وما كان قد مرَّ على حكمه عام واحد؛ إذ قرر السلطان ناصر بن قلاوون العودة إلى الحكم ، فتوجَّه إلى دمشق في ١٣ / من شعبان سنة ٧٠٩هـ واستقبله أهل دمشق الذين كانوا يُحبونه بحماسٍ بالغ ، ودخل إلىدمشق في ١٧/ من شعبان في أبَّهةٍ عظيمة ، وتوجَّه من دمشق إلى مصر حيث أعدَّ أهلُها إعدادات كبيرة لاستقباله ، ودخل ركبُ السلطان إلى مصر.

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٥٠.
(٢) المصدر السابق: ج١٤ ، ص٥٠.

ولمَّا رأى ركنُ الدين الجاشنكير أنَّ الأحوال تنقلب؛ استقال عن الحكم، وفي ٧/ من ذي القعدة قبض عليه الأمير سيف الدين نائب الشام، وقُتل في مصر.

والمؤرِّخون متفقون على أن الجاشنكير كان مقبولاً لدى الناس أيام نيابته كما كان راجح الجانب، ذا هيبة ووقار، وقد بدأت سلطنتُه المستقلة وخُذلانه في وقت واحد، فقد انتهت هيبته، وزال نجمه الطالع منذ إعلانه بالسلطنة، وابتدأ زوال دولته، وظل يتفاقم أمره فساداً، وحكمهُ اضطراباً، وتحدَّث عنه مؤرِّخ مصر الكبير المقريزي فقال:

«وكان رحمه الله خيّراً، عفيفاً، كثيرَ الحياء، وافرَ الحُرمة، جليلَ القدر، مُهاب السطوة في أيام إمارته، فلما تلقَّب بالسلطنة، ورسم باسم الملك؛ اتَّضع قدرُه، واستضعف جانبه، وطُمع فيه، وتغلَّب عليه الأمراء والمماليك، ولم تنجحْ مقاصده، ولا سَعِد في شيء من تدبيره إلى أن انقضتْ أيامُه، وأناخ به حِمَامه»[١].

ولا عجَبَ أن يكون انقراض دولة الجاشنكير من غير أسباب مسبقة نتيجة إيذائه لرجل مخلص كبير، ومعارضته له، وتفسيراً لما قاله الشاعر الفارسي، ومعناه:

«كم جرَّبنا في عالم المكافأة: أن من حارب عبداً مخلصاً لله تعالى تفانى في دعوته، وهجر فيها راحته ولذته؛ انطمسَ، وقُضي عليه بالزوال».

الإفراج عن ابن تيمية، والحفَاوَةُ المَلكية:

يقول الشيخُ علَمُ الدِّين البرزالي معاصرُ الشيخ ابن تيمية: إنَّ السلطان لمَّا دخل إلى مصر يومَ العيد لم يكن له همٌّ إلا أن يُفرج عن ابن تيمية، ويؤتىٰ به

(١) خطط مصر: ج ٢، ص ٤١٨.

مِصْرَ مُعززاً ، مكرماً ، مبجلاً ، فوجَّه إليه في الثاني من شوال ٧٠٩هـ يطلبه إلى مِصْر.

في ٨ من شوال غادر ابن تيمية الإسكندرية ، وودَّعه خلقٌ كثيرٌ في إجلال كبير ، واحتفاء بالغ.

ولمَّا وصَلَ ابنُ تيمية إلى البلاط الملكي مشىٰ إليه السلطان خطوات ، واستقبله في مجلسٍ حافل فيه كبار علماء مصر والشام وقُضاتِهما ، يتحدث عن هذا القدوم واستقبالِ السلطان إياهُ القاضي جمالُ الدين ابن القلانسي قاضي الجيش الذي كان حاضراً في المجلس يومَ ذاك ، وشاهد الأمور بنفسه ، يقول:

«إنَّ السلطان لمَّا قدم عليه الشيخُ تقي الدين ابن تيميّة ؛ نهض قائماً للشيخ أوَّل ما رآه ، ومشى له إلى طرف الإيوان ، واعتنقا هناك هُنيهةً ، ثم أخذه معه ساعة إلى طبقة فيها شُباك إلى بستان ، فجلسا ساعة يتحدَّثان.

ثم جاء ويدُ الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابنُ جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابنُ الخليلي الوزير ، وتحته ابن صَصْرَىٰ ، ثم صدرُ الدين علي الحنفي ، وجلس الشيخُ تقي الدين ابن تيمية بين يدي السلطان على طرف طُرَّاحته ، وتكلم الوزير في إعادة أهل الذِّمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم [(١)] ، وأنهم قد التزموا الديوان بسبعمئة ألفٍ في كل سنةٍ زيادة على

---

(١) توصَّلَ علماء الإسلام في ضوء بعض التجارب الماضية إلى أنه لا بدَّ من وجود علائم في لباس الرعية غير المسلمة في المملكة الإسلامية ، فقد بقي في مصر والشام بعد الحروب الصليبية عددٌ لا بأس به من المسيحيين الذين كانوا قد قدموا من الخارج ، ويعملون كجواسيس للأجانب تطوُّعاً ، كما أنهم كانوا ينشرون عدوى تقاليدهم في المجتمع المسلم ، وكتب ابن كثير في أحداث ٧٢١: «وقع حريقٌ عظيمٌ في ٦ جمادى الأولى في القاهرة في الدور الحسنة والأماكن المحلية المرتفعة وبعض المساجد وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ، وقنتوا في الصلوات ثم كشفوا عن القضية فإذا هو من قبل النصارى... فقتل السلطان بعضهم ، وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها» ، ولمَّا عاد السلطان ناصر حاول بعض النصارى أن ينسخ هذا القانون.

الحالية ، فسكت الناس ، وكان فيهم قُضاة مصر ، والشام ، وكبار العلماء من أهل مصر ، والشام ، من جملتهم ابنُ الزملكاني. قال ابنُ القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني ، فلم يتكلَّم أحدٌ من العلماء ، ولا من القضاة ، فقال لهمُ السلطان:

ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك ، فلم يُجبْ أحدٌ ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه ، وتكلَّم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ وردَّ على الوزير ما قاله رداً عنيفاً ، وجعلَ يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفق ، وتؤدَة ، وتوقير ، وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال ما لا يستطيع أحدٌ أن يقول بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ في التَّشنيع على من يُوافق في ذلك ، وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلستَه في أبهة الملك تنصُر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فاذكر نعمة الله عليك؛ إذ ردَّ ملكك إليك ، وكبَتَ عَدُوك ، ونصرك على أعدائك».

فذكر: أن الجاشنكير هو الذي جدَّد عليهم ذلك ، فقال: «والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب السلطان ذلك ، واستمرّ بهم على ذلك»[(١)].

اتباعُ سُنة يُوسف عليه السلام في مِصر:

يقول ابنُ القَلاَنسي: إنَّ ابنَ تيمية حدَّثه ، قال: إن السلطان استفتاه في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلَّموا فيه ، وأخرج فتاوى بعضهم بعزله من المُلك ، ومبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك ، وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قتل بعضهم ، ففهمتُ قصده بذلك ، فأخذتُ في تعظيم أولئك العلماء ، والقضاة ، وأنكرُ أن ينال أحداً منهم بسوء ، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٥٤.

فقال: إنَّهم قد آذوك، وأرادوا قتلك مراراً.

فقلت له: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصرُ لنفسي، وما زِلتُ به حتى حَلُم عنهم السلطان، وصفح.

ويقول ابنُ كثير: «كان قَاضي المالكية ابنُ مخلوف يقول: ما رأينا مثلَ ابن تيمية، حرَّضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدرَ علينا، فصفحَ عنا، وحاجَجَ عنا»[١].

ثم إنَّ الشيخ بعدَ اجتماعه بالسُّلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بثِّ العلم ونشرِه، وأقبلت الخلقُ عليه، ورحلوا إليه يشتغلون عليه، ويستفتُونه، ويُجيبهم بالكتابة والقول، وجاء الفُقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه، فقال: قد جعلتُ الكُلَّ في حِلٍّ.

ولمَّا اطمأنَّ الشيخُ، واستقرَّتْ به الحال؛ بعثَ كتاباً إلى أهله يذكرُ فيه ما هو فيه من نعم الله، ويَطلُب منهم جملةً من كُتب العلم.

ولمَّا رأى خصومُ ابن تيميَّة أنَّ مكانته ارتفعتْ، وَصَفَتْ حياتُه أكثر من ذي قبلُ، وعجزوا عن تحريض الناس عليه في مسألة علمية؛ اتجهوا إلى العامة يُحرّضونهم ولقد كان تحريضُهم عليه في مصر حيث لم يكنِ الناس عارفين بمكانتِه أسهل شيء، فحدث في الرابع من رجب سنة ٧١١هـ أنه انفرد به جماعةٌ بتحريض خصومِه، فامتدتْ أيديهم الأثيمة إليه بالضرب، ولكنَّ سُكَّان الحُسينية (حيثُ رأس سيدنا الحسين مدفونٌ كما هو المشهور لدى العامة) تجمَّعوا ليثأروا للشَّيخ فردَّهم، ولم يأذنْ لهم بذلك، وقال لهم:

«إمَّا أن يكون الحق لي أولكم أو للهِ، فإن كان الحق لي؛ فهم في حِلٍّ منه، وإن كان لكم، فإن لم تَسمعوا مني، ولم تستفتُوني؛ فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق للهِ؛ فاللهُ يأخذُ حقَّه إن شاء الله».

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤، ص ٥٤.

وفي أثناء هذه المناقشة حضَر وقتُ العصر ، فذهب ليصلِّي في الجامع ، فنهوه عن ذلك حتى لا يُؤذى ثانية ، فلم يلتفتْ إلى قولهم ، ومضى إلى المسجد ، وتبِعَتْهُ جماعةٌ كبيرةٌ من الغاضبين له .

وحَدَثَ لهُ بعدَ ذلك أنْ أساءَ إليه بعضُ الفقهاء بالقول ، ثم اعتذر إليه ، ولعله اعتذَر خوفاً من بَطشِ السلطان أو النَّاس ، ولكنَّ الشيخ على أيِّ حالٍ عفا وقال: لا أنتصرُ لنفسي [١] .

ولم يكتفِ الشيخُ ابن تيمية خلال إقامته في مصر بالبحث ، والتدريس ، ونشر الكتاب والسنة ، بل انتهزَ فرصة اتصاله بالسلطان ، فأشار عليه في بعض الأمور وأصدَر منه بعض الأوامر مما كان له تأثيرٌ حسن ، وفائدة كبيرة ، يقول ابن كثير:

«وفيها (سنة ٧١٢ هـ) قدم كتابٌ من السلطان إلى دمشق أن لا يُولَّى أحدٌ بمال ، ولا برشوة ، فإنَّ ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية ، وإلى ولاية غير الأهل ، وكان سببَ ذلك الشيخ تقيُّ الدين ابن تيمية رحمه الله ، وكذلك جاءَ كتاب السُّلطان أن من قُتل لا يجني أحدٌ عليه بل يُتَّبعُ القاتل حتى يُقتَص منه بحكم الشرعِ الشريف ، وكان سببُه ابن تيمية أيضاً.

العـودةُ إلـى دمشـق:

وفي شوال سنة ٧١٢هـ كانتِ الأخبار تتوارد عن عَزْم التتار على الهجوم ، وأخيراً قضى السلطانُ بخروجه عن مصر ، ومقاومتهم بنفسه ، وفي الثامن من شوال توجَّه إلى دمشق ، ودخل فيها في الثالث والعشرين من شوال ، وكان ابنُ تيمية يَصحبُ السلطان في هذه الرِّحلة ، وكان يعود فيها إلى وطنه الحبيب بعد سبعِ سنين كوامل ، فاستقبله الناس بحماسٍ زائد ، وأبدَوا سُرورهم بقدومِه ، وقدَ خرج عددٌ كثير من النساء ـ فضلاً عن ـ الرجال لرُؤيته ، وكانتْ رِحلَتُه هذه

(١) ابن تيمية: لمحمد أبو زهرة ، ص ٧٤.

بِنيَّةِ الجهاد ، ولكنه علم بعد مقدمه إلى دمشق: أن التتار عادوا راجعين ، فنَوى الشيخُ زيارة بيت المقدِس من دمشق ، وبعدما مكثَ هُناك مُدَّة من الزمان عادَ إلى دمشقَ زائراً بعضَ البلدان الأخرى ، وانهَمك في عَملِه ، وعكف عليه كامل العكوف.

شَغَفُ شيخ الإسلامِ بالأحكام الفقهية:

ولو أنَّ الشيخَ ابن تيمية بعدَ رجوعه إلى دمشق في هذه المرة كان قد عاد إلى وظيفته القديمة من الأشغال العلمية ، والدينية ، والتربوية ، وبدأ بالتدريس ، والإفتاء ، والتأليف كما هي عادتُه ، غير أنه انصرف في هذه المرَّة إلى دراسة الأحكام الفقهية وفُروعها بوجهٍ خاص بينما كانتِ العقائد ، والأصول ، والمسائل الكلامية مجالَه الأول ، تلك التي كانت موضع خلاف بين الأشاعرة والحنابلة.

ويبدو أنَّ الشيخ أدرك: أنَّ الموضوع الأول قد أشبَعه وفرَة معلومات ودلائل ، وأنَّ الحقَّ اتَّضح كالشَّمس في رائعة النهار بمواعظِه ، ودروسه ، وتأليفاته ، فلا بُد من الالتفات إلى جانب مهم آخر ، حيث يمكن استخدام خصائِصه العلمية ، ومواهبه الطبيعية ، وهو الفقه الإسلامي من غير شك.

لقد كانت أسرةُ ابن تيمية متمسِّكة بالمذهب الحنبلي ، ولذلك فإنَّ مُعظم فتاويه تُبتنى على المذهب الحنبلي [1] ، إلا أنه لم يَتقيَّد بالمذهب الحنبلي مئة في المئة ، إذ كان من الصعب جداً أن يفعل ذلك بعد ما أوسعه الله اطلاعاً على ذخائر الكتاب ، والسنة ، واستحضاراً بالمذاهب الفقهية ، وأصولها ، ودلائلها ، فكان يُرجِّحُ بعض الأحيان المذهب الذي يراه أقوى دليلاً من الكتاب ، والسنة ، وأقربَ إليهما بالنسبة إلى المذاهب الأخرى ، ويجدُ أنه ينال تأييدَ الجمع الكبير من الصحابة ، والتابعين.

---

(١) انظر «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ١ ـ ٥ .

إنَّ شيخَ الإسلام كانَ شديدَ الاعتراف بعُلوِّ مكانةِ الأئمة الأربعة ، وحُسنِ اجتهادهم ، ودينهم ، وورعهم ، وتفوّقهم العلمي ، على تبحُّره في العلم ، وقُوَّة استنباطه ، واستقلالِ فكره ، كان يَعتبرُهم طُلاّبَ الحقِّ ، ومُتَّبعي السُّنـةِ ، وراسخي العلم ، الذين كان مَصدرَ اجتهادهم الكتابُ ، والسنة ، ونُصوصهما ، والإجماع ، والقياس الشرعي ، وقد كانوا في ذلك متَّبعين ، لا مبتدعين.

ولذلك فقد كان ابنُ تيمية يكره الذي يتناول هؤلاء الأئمة الأعلام بالنَّقْد والطعن ، وقد ركَّز عِنايته بالإشادة بذِكْرهم والانتصار لهم ، والحدِّ من ألسنة المعترضين المنتقدين ، فألَّف رسالته الشهيرة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» التي تُعتبر من أحسن ما ألف في هذا الموضوع ؛ إنَّه يقول في فاتحة الرسالة :

«يَجبُ على المسلمين بعدَ موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين ، كما نطق به القرآنُ وخصوصاً العلماءُ الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظُلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ، ودرايتهم ، إذ كُلُّ أمة قَبْلَ مبعثِ محمد ﷺ علماؤُها شِرارُها إلاَّ المسلمين فإنَّ عُلماءَهم خيارُهم ، فإنَّهم خلفاء الرسول في أمته ، والمُحْيُون لما مات من سُنَّته ، بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا.

ولْيعلم أنَّه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يَعتمدُ مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنة دقيقٍ ، ولا جليل ، فإنهم مُتَّفقون اتفاقاً يقينياً على وُجوب اتِّباع الرسول ، على أن كلَّ أحدٍ من الناس يُؤخذ من قوله ، ويُترك إلا رسول الله ﷺ ، وإذا وُجد لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيح بخلافهِ فلا بُدَّ له من عُذْرٍ في تَركه ، وجميعُ الأعذار ثلاثةُ أصنافٍ :

أحدها : عدم اعتقاده أنَّ النبي ﷺ قاله.

والثاني : عدمُ اعتقادِه إرادَة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث : اعتقادُه أنَّ ذلك الحكم منسوخٌ.

مَسألَةُ الطَّلقاتِ الثَّلاث:

وعلى ذلك كلِّه فإنَّه كما رجَّح المذاهبَ الأخرى على المذهب الحنبلي وخرَج عن نطاقه بعضَ الحين؛ خالفَ الأئمة الأربعة كذلك في بعض المسائل أحياناً ، وأفتى مخالفاً لهم واتَّبع فيها نصوص الكتاب والسنة ، ودلائلَهما ، ولكنَّ هذه المسائل التي خالف الأئمة الأربعة فيها لا تَعدُو عِدَّة مسائل ، ولكنَّ أشهرها مسألةُ الطلقات الثلاث في مجلسٍ واحدٍ.

مسألة: إذا طلَّق أحدٌ زوجته ثلاث طلقات في مجلسٍ واحدٍ (سواء بلفظ واحد أو بألفاظ متعدِّدة) فمهما ارتكبَ المُطلِّق بدعة باتفاقِ الأئمة ، وجمهور الأمة ، وخالف الشرع ، وأثم ، ولكن ما حكم هذه الطلقات؟ هل وقعتْ ، وبانتِ المرأةُ ، واستحالتِ الرَّجْعَةُ بحُكم الشريعة ما لم تتزوَّجْ رجلاً آخر يتَمتَّعُ بها ، ويطلِّقها؟ أو أنَّ هذه الطلقات الثلاث تُعتبر واحدة وتُمكِنُ الرجعةُ؟

فمذهبُ الأئمة الأربعة ، وأئمةِ الفقه ، والحديث: (الأوزاعيّ ، والنَّخْعيّ ، والثَّوري ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي ثور ، والبُخاريّ) وجمهورِ الصحابة ، والتابعين: أنَّ هذه الطلقات تقع من غير أن المطلِّق ارتكبَ بفعلِه هذا بدعةً ومعصية ، يقول الإمام النووي في «شرح مسلم»:

«وقد اختلفَ العُلماء فيمن قال لامرأته أنتِ طالق ثلاثاً ، فقال الشافعيُّ ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، وجماهيرُ العلماء من السَّلف والخَلف يقع الثلاث».

ويقولُ العلاّمة ابن رشد في «بداية المجتهد»: «جُمهُور فقهاء الأمصار على أنَّ الطلاق بلفظِ الثلاث حُكْمُه حُكْمُ الطَّلْقةِ الثالثة» ، كما يقول العلامة ابن قيم الجوزية تلميذُ ابن تيميَّة في كتابه «زاد المعاد»: «وهذا قول الأئمةِ الأربعة وجمهورِ التابعين وكثير من الصحابة».

إنَّ أقوالَ هؤلاء الأعلام تستندُ إلى عدَّةِ أحاديث مرفوعةٍ تُثبت أنَّ

النبي ﷺ اعتبَر هذه الطلقات الثلاث ، أو أكثر ، ثلاث طلقات ، وأفتى ببينُونة المرأة [١] .

أمَّا مذهبُ شيخ الإسلام ابن تيمية وبعضِ أصحابه وتلاميذه؛ فهو: أن هذه الطلقات الثلاث إنما تعتبر واحدةً ، ويُمكن معها الرجعة مثلما يمكن الرجل أن يرجع إلى زوجته التي طلَّقها واحدة ، إنه يقول: «وهذا القول منقول عن طائفة من السَّلَفِ من أصحاب رسول الله ﷺ مثل الزُّبير بن العَوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ويروى عن عليٍّ ، وعن ابن مسعود ، وابن عبَّاس ، وهو قول داود وأكثرِ أصحابه ، ويُروى عن أبي جعفر محمد الباقر بن علي بن حسين ، وابنِهِ جعفر الصادق ، ولهذا ذهبَ إلى ذلك مَن ذَهب من الشيعة [٢] .

ويَستدلُّ شيخُ الإسلام لتأييد مذهبه، وإثباته بالقرآن، والسنة، والقياس[٣] .

وفي الحقيقة: إنَّ شيخ الإسلام كانَ السبب في ظهور هذه المسألة ، واشتهارها ، وإليه يرجع الفضلُ في ذلك ، سواء تفرَّد هو بذلك ، أم كان من السلف من يرى فيها هذا الرأي ، إنه هو الذي حمل رايتها ، ولمَّا أبدى رأيه؛ وتحقيقه فيها؛ أثار ذلك استغراباً واضطراباً في الأوساط الفقهية .

مسألَةُ الحَلِف بالطَّلاقِ واعتقالُه:

وعلى كُلٍّ فإنَّ مسألة الطَّلقات الثلاث إنما كانت مسألةً فِقهيةً خالصة تَختصُّ بحياةِ الرجل المنزلية ، وكانت تُؤثِّر على حياة أسرةٍ واحدة ، ولكنَّ المسألة الثانيةَ التي خالف فيها المذاهبَ الأربعة والمذهبَ المشهور ، والتي كان يتعدَّى

(١) تكلَّم الفريق الثاني في إسناد ومتون هذه الأحاديث ، ولكن الفريق الأول ردَّ على ذلك في أسلوب المحدِّثين.

(٢) فتاوى ابن تيمية: ج ٣ ، ص ٦٣.

(٣) وللاطلاع على البحث والاستدلال بتفصيل راجع «زاد المعاد» للحافظ ابن القيم مبحث (من طلق ثلاثاً بكلمة واحدة) ج ٤ ، و«إغاثة اللهفان».

تأثيرُها إلى المعاملات والسياسة ، وعلاقاتِ الدولة والرعية كانت مسألةَ الحَلفِ بالطلاق.

وقد كان الحَلفُ بالطَّلاق عامّاً بين الناس في ذلك الحين؛ إذ كانوا يستندون إلى الحلف بالطلاق للتأكيد على كلام ، أو إبداء عزم ، أو صدق من غير تردُّدٍ ، ولا تكلُّفٍ ، فمثلاً كانوا يقولون «عليّ الطلاق لأفعلن كذا» «عليّ الطلاق لأمتَنِعنَّ عن كذا» «عليَّ الطلاق لتفعَلَن كذا» «عليَّ الطلاق اشتريتُها بكذا».

كان ابنُ تيمية يرى: أن هذا أسلوب من القسم ، أو التأكيد واليقين ، من غير أن يُريدوا بها الطلاق في أي حال ، ولذلك فإن هذا نوعٌ من القسَم ، ولكنه ينفذ عليه أحكامُ الطلاق من أجل اعتبارهم ذلك الطلاق بالتعليق ، وذلك ما يُسبِّب خراب مئات من الأسر ، والبيوتات ، واضطراب الحبل في الحياة المنزلية.

وقد أُدخلت في صيغة البَيعة كلماتُ الطلاق؛ لتثبيت البَيعة وتأكيدها منذ عهد الحجاج بن يوسف ، حتى إن هذه الكلمات صارت كجُزء للبيعة ، وذلك كأنْ يقول: «لو أنَّني خرجتُ عن بيعة فلان؛ فزوجتي طالقٌ».

تأمَّل ابنُ تيمية في هذهِ المسألةِ ، وبدأ يُفتي بأن هذا نوعٌ من الحلف ، وأنَّ القائل يَحنُث إذا خالف قولَه ، وعَمِلَ خلافَه ، وتَلزُم عليه كفارة اليمين من غير أن يقعَ الطلاق.

وليت أنَّ ابنَ تيمية قدَّم أقوال بعضٍ من الأئمة الأربعة وأصحابهم؛ لتأييد فتواه [١] ، ولكنَّ الحقيقة أن هذه الفتوى إنما كانت تُعارض القول المشهور ، والمفتى به لهذه المذاهب، وكان يبدو ذلك تحقيقاً جديداً ، واجتهاداً صريحاً ، ولذلك فإنّها أثارت اضطراباً عاماً ، ورأى العلماء والقضَاة أن يَمنعوه عن هذه الفتوى لكيلا يَشتدَّ الاضطراب ، يقولُ ابنُ كثير ضمن أحداث عام ٧١٨هـ:

«وفي يوم الخميس مُنتصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين

---

(١) راجع كتاب «ابن تيمية» للشيخ محمد أبي زهرة ، مبحث الحلف بالطلاق ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

ابن مُسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية ، وأشار عليه في ترك الإفتاء في مسألة الحلفِ بالطلاق ، فقبل الشيخ نصيحته ، وأجاب إلى ما أشار به رعايةً لخاطره وخواطر الجماعة المفتين.

ثم ورد البريدُ في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه مَنعُ الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق ، وانعقد بذلك مجلس ، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان ، ونودي به في البلد ، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتين الكبار ، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق ، فعلم الشيخ نصيحته ، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثَوران فتنةٍ وشرٍّ»[١].

ويبدو أنه بعد صدور المرسوم ازداد ثقة وطمأنينة في هذه المسألة ، وبدأ يُفتي فيها حسب ما تحقَّق له من غير أن يبالي بأي منع من قبل الحكومة ظناً منه: أن الحكومة ليس لها حقُّ التدخل في هذه المسألة ، ولا يجوز لأيِّ عالمٍ أن يُخفي عقيدته وعلمه خوفاً من الحكومة ، يتحدَّث ابن كثير في أحداث عام ٧٢٠ هـ فيقول:

«وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب عُقد مجلسٌ بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة ، وحضر فيه القضاة ، والمفتون من المذاهب ، وحضر الشيخ ، وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق ، ثم حُبس في القلعة»[٢].

ولكنَّ مُدةَ الحبس هذه لم تَطُل كثيراً ، وورد مرسوم من السلطان من مصر بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء من عام ٧٢١هـ بعدما مكث فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق: ج ١٤ ، ص٩٧.

اعتِقالُهُ الأخير:

اشتغل ابنُ تيمية من عام ٧٢١هـ خمس سنين بالتدريس والإفتاء والتأليف والوعظ بكل حرية وانهماك بالغ ، فكثيراً ما كان يُدرس خلال هذه المدة في المدرسة الحنبلية أو مدرسته الخاصة به الواقعة في القصاصين ، كما أنه أعاد النظر خلال ذلك في مؤلفاته ورسائله القديمة ، وقام بتأليفاتٍ جديدة.

ولعلَّه كان يتمكَّن من إنجاز أعمال مفيدة جدّاً في هذه المدَّة ، وإخراج مؤلفات كبيرة القيمة في موضوعات مهمة ، غير أن تفوقه العلمي ، وتفرُّده في بعض المسائل سبَّب له ولمعاصريه امتحاناً يدفع ثمنه وغرامته بين فينةٍ وأخرى ، وعلى ذلك ما كان يتيسَّرُ له الهدوء إلى مدة طويلة ، فما كاد يُمضي إلا مدة قليلة إذ عرضتْ مسألة أخرى كانت موضع بحث وجدال بين الخاصة والعامة على السواء ، وهي لم تكن مسألة فقهية خالصة كمسألة الطلاق ، بل كانت تحتوي على العنصر العاطفي ، وتكفي لإثارة الاضطراب في النفوس ، وهي مسألة زيارة قبر النبي ﷺ .

وقد كان ابن تيمية أفتى قبل سبعة عشر عاماً بأنَّه لا يجوز شد الرحال لزيارة القبور بما فيها قبر النبي ﷺ ، وذلك لأنه جاء في الحديث الشريف: «لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى»[1] ، ثم إنه يفيض حسب عادته في بيان الحِكم الشرعية في ذلك وما

(١) [أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة ، والمدينة ، برقم (١١٨٩) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل المساجد الثلاثة ، برقم (١٣٩٧) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب في إتيان المدينة ، برقم (٢٠٣٣) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/ ٢٥٨) برقم (٧٧٩) ، وفي الصغرى في كتاب المساجد ، باب ما تشد الرحال إليه من المساجد ، برقم (٧٠١) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس ، برقم (١٥٠٩) ، وأحمد في المسند (٢/ ٥٠١) برقم (١٠٥١٤) وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد روي بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً].

في خلاف ذلك من المضار ، والمفاسد ، إن كلامه يتلخص في أن الاهتمام الشديد بالسفر لزيارة القبور يفتح الأبواب، والأعمال التي قد تُفضي إلى الشِّرك ، ويعتقدُ كثير من الناس أنَّ مثل هذه الزيارة عِبادةٌ وذريعة إلى التقرب إلى الله ، وعندما يفعلون ذلك يتعدَّوْن حدود الشريعة ، ويتفلَّتُ منهم حبل التوحيد.

وقد كان النبي ﷺ شديدَ الاهتمام بحفظ قبره من العادات والتقاليد الجاهلية ، التي كانت شائعة منتشرة بين اليهود والنصارى حتى قال:

«لَعنَ الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قُبورَ أنبيائهم مساجدَ»(١) ، وابتهل إلى الله تعالى فقال: «اللّهم لا تجعلْ قَبري وثناً يعبد ، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»(٢) وقال أيضاً: «لا تـتَّخِذوا قبري عيداً ، وصَلوا عليّ ، فإنَّ صلاتكم حيثما كنتم تبلغني»(٣).

ولذلك لم يُحبَّ النبي ﷺ أن يدفن في الصحراء ، وإنما دفن في حُجرة عائشة ـ رْضي الله عنها ـ التي هي مكان حريز ، وذلك لكي يُصان قبره من جميع هذه الأخطار ، ولا يسمح للناس بالرحلة إليه وزيارته أفواجاً إلا الذي يأتي إلى المسجد النبوي للصلاة فيه يزور القبر الشريف بالطريق المسنون ، ويصلي

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، برقم (١٣٣٠) ، ومسلم في كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المسجد على القبور. . . ، برقم (٥٣٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/٢٥٩) برقم (٧٨٢) و(١/٦٥٨) برقم (٢١٧٣) ، وأحمد في المسند (١/٢١٨) برقم (١٨٨٤). وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنه].

(٢) [أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الصلاة ، باب جامع الصلاة ، برقم (٤٢٣)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٢/١٥٠) برقم (٧٥٤٤) و(٣/٣٠) برقم (١١٨١٩)، وعبد الرزاق في المصنف (١/٤٠٦) برقم (١٥٨٧) مرسلاً من حديث عطاء بن يسار].

(٣) [أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٦٧) برقم (٨٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/١٥٠) برقم (٧٥٤٢) و(٣/٣٠) برقم (١١٨١٨) ، وعبد الرزاق في المصنف (٣/٥٧٧) برقم (٦٧٢٦)، وأبو يعلى في المسند (١/٣٦١) من حديث علي بن حسين رضي الله عنه].

ويُسلم على النبي ﷺ كما كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يفعلون [١].

لقد أُخرجت هذه الفتوى بعدَ سبعة عشر عاماً بحكم عوامل عديدة، وشُهرت، واتُّخذت ذريعة لإثارة عواطف المسلمين لما للنبي ﷺ من مكانٍ قُدسيٍّ في القلوب، إنهم رأوا فيها إساءة أدبٍ إلى مكانة النبي ﷺ، كما أنَّ العلماء رأوها يتجلّى فيها الاعتماد الزائد على الرأي الشخصي، ومعارضة لجمهور الأمة، ولعلَّ ذلك هو العامل الأقوى لمعارضتهم إياه.

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ هذا الخلاف قد نال من الأهمية والشهرة ما جعل الحكومة (سواء على طلب من العلماء، أو نُزولاً على مصالح النظام) تتدخَّل فيه، وصدر المرسومُ في السابع من شعبان ٧٢٦هـ بحبسه، فرحب به الشيخُ ترحيباً بالغاً، وأبدى سروره على ذلك، وقال فور ما علِمَ بحبسه «أنا كُنت منتظراً ذلك، وهذا فيه خيرٌ كثير، ومصلحة كبيرة»، ونُقل الشيخ إلى قلعة دمشق حيث أُخْليت له قاعةٌ، وأجري إليها الماء، وأقام معه أخوه زينُ الدين ابن تيمية يخدمُه بإذن السلطان، وأجري عليه ما يقوم بكفايته.

«وما إنْ اعتقل الشيخُ حتى تكشَّفت القلوب عن خبيئاتها، وتوجَّه الأذى إلى تلاميذه، وأوليائه، فأمر قاضي القضاة بحبس جماعة من أصحابه، وعزّر جماعة منهم بإركابهم على الدواب، والمناداة عليهم، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم، ما عدا صفيه، وحامل اللواء من بعده شمس الدين محمد ابن قيم

---

(١) إنَّ قضية صيانة عقيدة التوحيد، وسد ذرائع الشرك، والغلو في التعظيم، والتشبه بالأمم التي اتخذت قبور أنبيائها مساجد قضية مسلمة لا تقبل نقاشاً، ويؤيدها كل من فهم روح الدين وتذوق الكتاب والسنة، ولكن المنع عن زيارة القبر النبوي الشريف بتاتاً، والتشديد في ذلك لا يخلو من شيء من المغالاة، والتطرف إنما كان ذلك نتيجة ذكاء ابن تيمية المتوقد، وحسه المرهف، الذي يمثل لصاحبه أبعد الإمكانات، وأقبح الاحتمالات، وذلك لا يغطي فضائله الكثيرة ومواقفه العظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين، وبلوغه درجة الإمامة في علوم الدين، ولم يكن يستحق بذلك ما لقيه من نكران وجفاء، وبقاء في الحبس إلى أن يفارق الدنيا. (المؤلِّف).

الجوزية فإنه حُبس بالقلعة» [١] ، وظلَّ معه في الحبس ، وما أفرج عنه إلا بعد وفاته.

تَأسُّف أهلِ العلم والدين واحتجاجُهم:

إذا كان اعتقالُ شيخ الإسلام ابنِ تيمية موضعَ سرور عند شِرْذِمَةٍ قليلةٍ من الحُسَّاد والمناوئين؛ فلقد كان مَبعثَ ألَمٍ عميق عند جماعة كبيرة من أهل العلم والمسلمين والمخلصين الذين اعتبروه انتصاراً للبِدعة على السنة ، وذلةً للحق وأهله ، ولقد بعَثَ أهلِ العلم والدين من أنحاء المملكة المختلفة إلى السلطان الناصر بمصر كتاباً يُصوِّرون فيه النازلة التي نزلت بالإسلام والمسلمين ، ويَحسُن بي أن أنقلَ إلى القارىء الكريم كتاباً بعثَه علماء بغداد إلى السلطان ، وحسبُنا أن نقدِّر بذلك أنَّ دعوة الشيخ وشُهرته كانت قد انتشرت في جميع الأقطار الإسلامية ، وأنَّ أهل الحق جميعاً إنما كانوا يحبونه ، ويُعجبون به. يقول علماءُ بغداد:

«لمَّا قرأ أهلُ البلاد المشرقية والنواحي العراقية التَّضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية سلَّمه الله ، عظُم ذلك على المسلمين ، وشقَّ على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس المُلحدين ، وطابت نفوسُ أهل الأهواء ، والمبتدعين ، لمَّا رأى علماءُ أهل هذه الناحية عِظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء ، وأئمة العلماء؛ أنهوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً ، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ سلَّمه الله في فتاواه ، وذكروا مِن علمه وفضائله بعض ما هو فيه ، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعزَّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ، غيرةً منهم على هذا الدين ، ونصيحةً للإسلام ، وأُمراء المؤمنين» [٢].

---

(١) ابن تيمية: محمد أبو زهرة ، ص ٨٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٥٠ ـ و«الكواكب الدرية» ص ١٩٨.

وهذا الكتابُ يدلُّ على أمرين:

أحدهما ، وهو العُمدة: أن ذلك العالم الجليل قد عمَّت دعوته إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة البقاعَ الإسلامية ، ولم تَعُدْ آراؤه ومنهجه مقصورة على أهل الشام ، بل تجاوزتها إلى البقاع الإسلامية كلِّها ، وفوق ذلك لم تعد مقصورة على الحنابلة ، بل تحمَّسَ لها المالكيةُ ، والحنفيةُ ، والشافعيةُ ، مما يُثبت أنه لم يعد نصيراً لمذهب مُعيَّن مِن مذاهب الإسلام بل نصيراً للإسلام في لُبِّه وصميمه.

الأمر الثاني: أنَّ أهل الأهواء قد أظهروا الشماتة ، والعداوة ، وأبدوا صفحتهم بعد أن كانوا قد أخفوها ، وكانوا مستورين غير مكشوفين ، وإذا كان أوَّلُ متهم بجريمة هو المنتفع منها فلا بدَّ أن أولئك الذين والوا دَسَّهم على الشيخ ، وكانوا يتظاهرون بالمذاهب السُّنية؛ ليخدعوا الأمراء والقضاة ، ولمَّا تمَّتِ الخديعة ظهرت شماتَتُهم للعيان ، وبدت ظاهرة غير مستورة.

أشغالُ الشَّيخ في القلْعة:

تمتَّع الشيخُ بنعمة الهدوء والخلوة في القلعة بعد مُدَّة طويلة ، ولعلَّه كان قد أشار إلى ذلك بقوله: (فيه خيرٌ كثيرٌ ، ومصلحةٌ كبيرةٌ) إنه قدَّر فرصة الخلوة والانقطاع هذه حقَّ قدرِها ، وأقبل على العبادة والتلاوة بكل رغبة وانهماك ، فإذا توفَّر له بعضُ الوقت من هذه الأعمال شَغَله بالمطالعة والتأليف ، وتنقيح كتبه ، الأمر الذي كان يُعدُّ عبادة من العبادات ، وطاعةً من الطاعات التي يتقرَّب بها إلى الله ، غير أنه كان لتلاوة القرآن قسطٌ أكبر ، ونصيبٌ أوفر من أوقاته وأشغاله؛ إذ أنه ختم القرآن مع أخيه الشيخ زين الدين ابن تيمية خلال الفترة التي قضاها في هذا المحبس (وهي سَنتان) ثمانين ختمة.

وجُلُّ ما ألَّفه في ذلك المحبس كان يتَّصل بالتفسير ، ولعلَّ إكثارَه من تلاوة القرآن والتدبر فيه كان السبب في ذلك ، كما أنه ألَّف الرسائل ، وردَّ على بعض

المسائل ، وكان يُجيب على كل ما يرِدُ إليه من الخارج من الأسئلة العلمية ، والاستفتاءات الفقهية ، وهكذا فقد كان مستمراً في جميع أعماله وأشغاله سوى المواعظ والدروس العامة ، أضِف إلى ذلك كثرة التلاوة ، والعبادة.

القُيود الجَديدة وحرمانُه أدواتِ الكتابة والدراسة:

كانَ الناس يتلقَّفون كُلَّ ما كان يكتُبه الشيخ في المجلس ، ويصل من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ومن بين ما كتبه الشيخ من الرسائل والمسائل في حبسه رسالةٌ في موضوع مسألة الزيارة ردّاً على أحد قضاة المذهب المالكي في مصر القاضي عبد الله ابن الأخنائي [1] ، أثبتَ فيها أنَّ القاضي المذكور رجلٌ قليلُ البضاعة في العلم ، فاشتكى القاضي من ذلك إلى السلطان ، وأبدى سخطه ، واستنكاره ، فأصدر السلطان مرسوماً يُصرح بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكُتب، حتى لا يبقى عنده ما يستعينُ به في التأليف، والكتابة.

وفي التاسع من جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ هـ نفَّذ المرسومُ وصُودرت جميعُ أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ باسم الحكومة.

وفي غرة رجب أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من المحبس إلى المكتبة «العادلية [2] الكبرى» وكان ذلك نحو سِتِّين مجلَّداً من الكتب ، وأربع عشرة ربطة كراريس التي كان يشتغل بها دراسة وتأليفاً.

الكِتابةُ والتَّأليفُ بالفَحم:

ولكنَّ الشيخَ لم يُفزعه كلُّ ذلك ، وما أبدى شَكاةً منه للحكومة ، ولمَّا مُنع من الكتابة ، وأُخذ منه القلم والدواة ، بدأ يكتُب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك ، ووجدت له عدةُ رسائِل وكتابات مكتوبة بالفحم ، وظلَّت محفوظة في

(١) اقرأ «الرسالة الأخنائية» طبع مصر.
(٢) [والتي تقع اليوم أمام مكتبة الظاهرية ، كانت مقرَّ المتحف الوطني ، ومجمع اللغة العربية في عصر الانتداب].

هذه الحالة ، وإنه في مثل هذا الاضطرار والعجز يبدو شاكراً ، وراضياً بقدر الله ، إنه يشعر بأنه سيُحرز بهذه الأحوال فضيلةَ الجهاد ، وكأنَّ الوضع لم يتغير عما كان عليه ، ويقول في رسالة له:

«نَحنُ ولله الحمدُ في عظيم الجهاد في سبيله ، بل جهادُنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية ، والجهمية ، والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك مِن أعظم نعمِ الله علينا ، وعلى الناس ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون».

الخضوع أمام قَدَر الله وعاطفةُ الحَمْد والشُكر:

ويتجلَّى في رسالةٍ أُخرى الخضوعُ أمام قدرِ الله وعاطفةُ الرضا والشكر ، يقول:

«كلُّ ما يقضيه الله تعالى فيه الخيرُ والرحمة والحكمة ، إنَّ ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يَدخلِ على أحد ضررٌ إلا من ذنوبه ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

فالعبدُ عليه أن يَشْكُر الله ويحمده دائماً على كلِّ حالٍ ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشُكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفَع النِّقم ، ولا يقضي الله للمرء من قضاءٍ إلا كان خيراً له ، إنْ أصابته سرّاءُ شكَرَ ، وإن أصابته ضرَّاء صبَر فكان خيراً له».

إنَّه في هذه الحال أيضاً متأكدٌ من صحة مذهبه وبراءته ، ويعتقدُ أنه ليس عليه ذَنب سوى أنه لم يخضع أمامَ السلطان في مسألةٍ شرعية ، وظل قائماً على ما كان يراه حقاً ، ولكنه يعترفُ بجريمته ، ويعتبرُ ذلك مقتضى الإيمان والتوحيد ، يقول:

«غايةُ ما عندهم أنه خُولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائناً مَن كان إذا خالف أمرَ الله تعالى ورسوله لم يَجبْ بل لا تجوزُ طاعته في مخالفة أمر الله ورسولهِ باتفاق المسلمين».

أيّامُه الأخيرةُ ووفاتـه:

يقولُ الشيخ زين الدين عبد الرحمن شقيقُ شيخ الإسلام:

إنَّه لمَّا بدأ يقرأ القرآن بعد ما أكمل ثمانين ختمة ووصل إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥] تركني وأخذ في مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن مُحب وعبد الله الزَّرعي ، وكانا في غاية من الصلاح والتقى ، وأخوين شقيقين ، وذلك لأن الشيخ إنما كان مُعجباً بقراءتهما القرآن ، وما كادت تنتهي هذه المُدارسةُ حتى انتهت أيام حياته.

ولمَّا بلغ نائبَ دمشق نبأُ مرضه الأخير استأذن في الدخول عليه ليعوده ، فأذن له ، فلمَّا جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى في حقه ، فأجابه الشيخ:

«إنِّي قد أحلَلْتُك ، وجميعُ من عاداني، وهو لا يعلم أني على الحق ، وأحلَلْتُ السلطان المعظَّم الملك الناصر من حبسِه إياي ، لكونه فعل ذلك مُقلِّداً معذوراً ، ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد أحلَلْتُ كلَّ أحد مما بيني وبينه إلا مَن كان عدواً لله ورسوله ﷺ ».

دامت العِلَّةُ مُدةً تُقارب ثلاثة أسابيع ، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل في ليلة ٢٢ من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ ، وارتحل من هذه الدنيا وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ـ٢٧].

ونعى الشيخَ مؤذِّنُ القلعة على المنارة ، وتكلَّم بها الحرَّاس على الأبرجة ، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم ، وبادروا على الفور إلى القلعة من كلِّ مكان أمكنهم المجيء منه ، وفُتح بابُ القلعة واجتمع حَشْدٌ عظيم من الخاصة والعامة يدخلون إليه أفواجاً ويزورونه ، ومنهم

من كان يقبل رأسَه وناصيته التي كانت تَـنْصَب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربِّـه.

وبدأ الناسُ يختمُون القرآن قبل غسله، وأُذِن للنساء بعد الرجال فزُرْنَه، ولم يبق عند الغسل إلا من كان عليه أن يُغسله.

وَصْفُ الجنازة والتَّدفين:

وصُلِّيَ عليه أولاً بالقلعة، وتقدَّم في الصلاة عليه أولاً الشيخُ محمد بن تمام، وأخرِجت الجنازةُ بعد الصلاة، وغصَّتِ الطرقُ كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازةُ في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووُضعت في الجامع، والجُند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وتزايدَ الزحامُ إلى حدٍّ لا يبلغ الإحصاء والتقدير، وقد صاح بين هذا الزحام صائحٌ يقول «هكذا تكونُ جنائز أئمة السنة»الجملةُ التي هاجت الناس وأثارت أحزانهم، وحماسهم، فارتفعتِ الأصوات، وعلا النشيج.

وصُلِّي عليه عقيب صلاة الظهر في الجامع الأموي، وقد تضاعف اجتماعُ الناس إلى أن ضاقت الرِّحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، وأُغلقت الأسواق، والمتاجر، والمطاعم، وقد نَوى كثير من الناس الصيام؛ إذ كانوا في شُغل شاغل عن الطعام والشراب.

ثُم حُمِلَ بعد أن صُـلِّي عليه على الرؤوس والأصابع، واشتد الزحامُ، وعَلَتِ الأصواتُ بالبكاء، والنحيب، والترحُّم عليه، والثناء، والدعاء له، وألقى الناس على نعشِه مناديلهم، وعمائِمهم، وثيابهم، وفارقتِ النعالُ، والقباقيبُ الأرجلَ، والأقدامَ، وسقطت المناديلُ، والعمائم عن الرؤوس، والناس لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النَّعش على الرؤوس تارةً يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يقف، حتى يمر الناس.

وعَظُمَ الأمر بسوق الخيل، وتضاعف الخلق، وكثر الناس، ووُضعت

الجنازةُ هناك ، وتقـدَّمَ للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحُمل إلى مقبرة الصوفية [١] حيث دُفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله .

وكان دَفْنُه قبل العصر بيسير ، وذلك من كثيرٍ من يأتي ويُصلِّي عليه ، ولم يتخلَّف عن الحضور إلا مَن هو عاجز عن الحضور ، ويُحزَرُ الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مئة ألف ، عدا النساء ، يُقدَّر عددُ الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة ، عدا من كُنَّ على الأسطحة والغرف ، ولم يُعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق ، ويمكن أن يكون ذلك في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين وكانتْ دمشقُ دار الخلافة [٢] .

صَلاةُ الغائب على ابنِ تيمية:

وصُلي عليه صلاة الغائب في معظم الأقطار الإسلامية حتى في أقصى الجنوب والشرقِ . يقول ابنُ رجب في ذيل «طبقات الحنابلة» :

---

(١) هي المقبرة الشهيرة التي هي مدفن كبار أهل العلم والصلاح كابن عساكر ، وابن الصلاح ، وابن الأثير ، وأبي الحجاج المِزِّي ، والحافظ عماد الدين ابن كثير ، وغيرهم ، وقد زالت آثارها وتقوم عليها الآن عمارات شامخة ، إلا أن قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية ، وعمارة مستشفى الولادة ، وقد أتيحت لي زيارته في ١٠ شوال عام ١٣٧٠هـ (٢٨ يوليو سنة ١٩٥١م) بصحبة علامة الشام الشيخ بهجة البيطار ، وقد حدَّثني الشيخ بأن هذه المقبرة درست من القبور في إحدى الليالي بمناسبة تأسيس عمارة في الجامعة السورية ، ولمّا انتشر الخبر في الصباح أرسل الرئيس شكري القوتلي إلى مدير الجامعة النصراني ، وقال له: لو أنَّ قبر ابن تيمية اندرس ماذا عسى أن يكون جوابي لصديقي الملك عبد العزيز بن سعود إذا سألني عن هذا الحادث فإنه من محبي ابن تيمية ، وأنصاره؟! وهنالك أبقي قبر الشيخ ابن تيمية الذي لا يزال موجوداً حتى الآن . (المؤلِّف).

(٢) كلُّ هذه التفاصيل مما كتبه ابن كثير برواية الشيخ علم الدين البرزالي الذي كان من معاصري الإمام ابن تيمية وزميل دراسته ، انظر «البداية والنهاية» ج ١٤ ص ١٣٦ - ١٤٩ .

«وصُلِّي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة ، والبعيدة ، حتى في اليمن ، والصِّين ، وأخبر المسافرون : أنه نُودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة ، وأُعلِن : «الصلاة على ترجمان القرآن» .

* * *

الفصل الرابع

ميِّزاتُ ابن تيميَّة البارزة وخصائصُه

ذَاكرَتهُ الموهوبة وذَكاؤه النادر:

إنَّ المكانة الاجتهادية في العلوم الإسلامية التي أحرزها شيخُ الإسلام ابن تيمية في عصره ، وإنَّ التأثيرَ العميق الذي خلَّفه على أهل زمانه لإمامته في التفسير والحديث معاً ، وتبحُّره ، ونبُوغه في العلوم إنما كان الفضلُ الأكبرُ في ذلك يرجعُ إلى ذاكرته النادرة ، وذكائه المفرط ، وكلُّ ذلك نعمةٌ أكرمه الله بها ، وموهبةٌ اختصه بها.

وكانتِ العلومُ الإسلاميةُ قد توسَّعت في عصره، وتجمَّعت ذخيرةٌ واسعةٌ للعلوم النَّقلية بحيث لم يكن بإمكان أحد أن يُحيط بها علماً ، ولا أن يتجرَّأ على الكلام في المسائل المختلفة فيها أمام مُعاصريه الكبار ، ولا كان يَملك حقَّ اختلاف مع عالم متقدِّم في أي مسألة ما لم يكن يتمتع بذاكرةٍ نادرةٍ ، وذكاءٍ مفرطٍ.

ولكنَّ الذاكرة القوية ، وقُوة الاستحضار التي كان قد أكرمَ اللهُ بها ابن تيمية مكَّنته من الإحاطة بالذخائر الموجودة آنذاك من التفسير ، والحديث ، والفقه ،

وعِلْمِ الخلاف ، والكلام ، والتاريخ ، والسير ، والآثار ، وعلم الرجال ، واللغة ، والنحو .

فقد درس ما تيسَّر له من الكتب ، والمواد العلمية ، ووعتْها ذاكرتُه القوية الأمينة ، واستعانَ بها في حياته العلمية ، والتأليفية ، كما يستعينُ الجنديُّ المُحنَّك بذخائر كِنانته .

كان مُـعترَفاً بذاكرته النادرة القوية وذكائِه البارز لدى معاصريه من العلماء . وقد اتفق المعاصرون ، والمتأخِّرون كُلُّهم على قوَّة حفظه ، وسُرعة فهمه ، وشِدة ذكائه ، يقول زميلُه في الدراسة العلامة عَلم الدين البِرْزَالي : «قَلَّ أنْ سمع شيئاً إلا حفظه ، وكان ذكياً كثير المحفوظ» [١] .

ويقول الحافظُ الذهبي الذي يُعتبر من أئمة علم الرجال ومؤرِّخ الإسلام : «ما رأيتُ أشد استحضاراً للمتون ، وعَزْوِها منه ، وكانت السُّنة بين عينيه وعلى طرف لسانه »[٢] .

ومِن أكبر الشهادات على حفظِه للمتون وقُوَّة ذاكرته هو قول معاصريه فيه : «كلُّ حديث لا يعرفُه ابنُ تيمية فليس بحديث» .

ولا يخفى أنَّ حفظَ ذخائر الحديث الواسعة إنما كان من الصعوبة بمكان ، ولكنَّ الاعتماد على عِلمه وذاكرته وحدهما في موضوع الحديث والحكم على أساس قوله لا يمكن مالم يُعترف بأنه أكبر حافظ للحديث في عصره ، وأنَّ قوة حفظه لا تخذله في أي حال ولا مجال .

يقول الحافظُ الذهبي : «يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» [٣] .

وحتى قال بعضُ معاصريه : وهذا معاصره العلامة كمال الدين الزَّملكاني

---

(١) الرد الوافر : ص ٦٦ .
(٢) القول الجلي : ص ١٠١ .
(٣) الكواكب الدرية : ص ١٤٥ .

الذي كان خصمه في مجلس المناظرة ، وكان بينه وبين ابن تيمية خلاف كبير في كثير المسائل يشهد بصفته الموهوبة هذه ، فيقول :

«لم يُرَ من خمسمئة أو أربعمئة سنة ـ والشك من الناقل ـ أحفظ منه »[١] .

ويتحدَّث عن ذكائه المُفرط الحافظُ الذهبي ، فيقول : «كان يتوقَّد ذكاء» ، ويقول في مكان آخر : «كان آية على الذكاء ، وسُرعة الإدراك» [٢] .

التَّبحُّر العِلمي والجَامعيّة:

لقد تبحَّرَ ابنُ تيمية في العلوم الإسلامية ، والموضوعات السائدة في زمانه ، وتمتَّع بصفة الجامعية في هذه العلوم والفنون بفضل ذاكرتِه الموهوبة، وذكائه النادر، وذوقه العلمي الذي ورثَه من آبائه ، ثم بجُهوده البالغةِ والمشاقّ التي احتملها في سبيل دراسته ، وبفضل التوفيق الإلهي قَبل كل شيء؛ بحيث إنَّ معاصريه الكبار الذين كانوا يكبُرونه في السن ، وكانوا أساتذة الفن ، والذين انتهت إليهم رئاسة التدريس ، والإفتاء ، وسُلِّمت إمامَتهم في العلوم الإسلامية قد قضوا من هذه الصفات عجباً ، وشهدوا: أنه بحر العلوم ، ومكتبةُ الإسلام الناطقة ، وله في كل فَنٍّ براعة تدلُّ على أنه صاحب اختصاص في هذا الفن.

ولمّا سافر ابنُ تيمية إلى مصر في عام ٧٠٠ هـ ولقي هناك العلامة ابن دقيق العيد؛ أعجب به على ما كان يحتله من المكانة العليا في علم الحديث ، ويعتبر أستاذ العلماء ، وكبيرهم ، وقد عبَّر العلامة عن إعجابه بابن تيمية ، فقال : «لما اجتمعتُ بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلُّها بين عينيه ، يأخُذ منها ما يريد ، ويَدعُ ما يريد» [٣] .

ويُبدِي عَجبه من ابن تيمية زميلُه العلاَّمة كمال الدين الزَّمْلكاني، الذي كان

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٤٥ .

(٢) الرد الوافر: ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق: ص ٣١ .

عالماً مُتبحِّراً بنفسه في كثير من الفنون ، فيقول: «كان إذا سُئل عن فَن من العلم؛ ظن الرائي ، والسامع : أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحَكم أنَّ أحداً لا يعرف مثله» [١] .

أمَّا العلاَّمة تقي الدين السّبْكِي الذي هو خصمه الشهير ، وألَّف في الردِّ عليه حول مسألة شد الرحال ، وفي بعض المسائل الفقهية كُتباً مستقلة بذاتها ، وأبدى رأيه عنه في النظام أيضاً ، فإنه بالرغم من ذلك كتب في رسالة له موجهة إلى الحافظ الذهبي :

«المملوكُ يتحقَّق كبيرُ قدره، وزَخارة بحره، وتوسُّعه في العلوم الشرعية ، والعقلية ، وفرط ذكائه ، واجتهاده ، وبلوغه في كل ذلك المبلغ الذي لا يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً» [٢] .

إنَّ التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية : ولم يتوفر على دراسته كتوفره على دراسة العلوم الدينية ، ولكن الذهبي الذي كان من مؤرِّخي الإسلام المبصرين في التاريخ والناقدين له يتحدَّث عن معرفته بالتاريخ فيقول :

«ومعرفته بالتاريخ ، والسير فعجبٌ عجيب» .

وقد نقلَ تلميذُه النابغةُ ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه بالتاريخ ، وسَعةِ نظرهِ ، وحضور ذهنه في كتابه «زاد المعاد» إنه يقول :

«ولمَّا كان في بعض الدول التي خَفيت فيها السُّنة وأعلامها أظهر طائفةٌ منهم كتاباً قد عتَّقوه ، وزوَّروه ، وفيه : أنَّ النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية ، وفيه شهادةُ عليّ بن أبي طالب ، وسعد بن معاذ ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، فراج ذلك على مَنْ جَهل سُنَّة رسول الله ﷺ ومغازيه وسيره ، وتوهَّموا بل ظنوا صحته ، فأُجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور ، حتى ألقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية (قدَّس الله روحه) وطُلب منه أن يعين على تنفيذه ،

---

(١) الرد الوافر: ص ٣٠.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (ترجمة العلامة تقي الدين السبكي).

والعمل عليه ، فبصَق عليه واستدل على كذبه بعشرة أوجه :

منها : أنَّ فيه شهادة سعد بن معاذ ، وسعدٌ تُوفِّي قبل خيبر .

ومنها : أنَّ في الكُتب : أنه أسقط عنهم الجزية ، والجزية لم تكن نزلت بعدُ ، ولا يعرفها الصحابة حينئذ ، فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام .

ومنها : أنَّه أسقط عنهم الكُلَف ، والسُّخَر ، وهذا محالٌ ، فلم يكن في زمانه كُلَفٌ ؛ ولا سُخَرٌ تُوجد منهم ، ولا من غيرهم ، وقد أعاذَهُ الله ، وأعاذَ أصحابه من أخذ الكلف ، والسخر ، وإنما هي من وضع الملوك الظَّلَمَة ، واستمر الأمر عليها .

ومنها : أنَّ هذا الكتاب لم يذكره أحدٌ من أهل العلم على اختلاف أصنافهم ، فلم يذكُره أحدٌ من أهل المغازي ، والسير ، ولا أحدٌ من أهل الحديث ، والسنة ، ولا أحدٌ من أهل الفقه ، والإفتاء ، ولا أحدٌ من أهل التفسير ، ولا أظهروه في زمان السَّلَف لعلمهم أنهم إن زوَّروا مثل ذلك ؛ عَرفوا كذبه ، وبطلانه [1] .

ويُمكن تقدير ذكائه وتبحُّرِه العلمي بما حدَّثه أحدُ معاصريه الشيخُ صالح تاج الدين ، إنه يقول :

«حَضَرْتُ مجلسَ الشيخ رضي الله عنه وقد سألهُ يهوديٌّ عن مسألة في القدر ؛ وقد نظمها شعراً في ثمانية ، فلما وقف عليها فكَّر لحظة يسيرة ، وأنشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ، ونحن نَظُنُّ أنه يكتب نثراً ، فلما فرغ تأمَّله من حضر من أصحابه ؛ فإذا هو منظوم من بحر أبيات السؤال ، وقافيتها ، تقرُب من مئة وأربعة وثمانين بيتاً ، وقد أبدى فيها من العلوم ما لو شُرح لبلغ مجلَّدين كبيرين» [2] .

ولمَّا رأى المعاصرون من العلماء والمتأخِّرون منهم تبحُّره في العلوم ،

---

(١) زاد المعاد : ج ١ ص ٣٣٦ ، فصل في هدي النبي ﷺ في عقد الذمة وأخذ الجزية .
(٢) الكواكب الدرية : ص ١٥٤ .

وجَمعه للصفات العالية ، والمميزات البارزة ، لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات ، فاعتبروه نادرة الزمان ، إمام المحققين ، آخر المجتهدين ، وآيةً من آيات الله ، حتى يقول ابن سيد الناس (المتوفى عام ٧٣٤هـ) : «لم ترَ عَيْنٌ مَن رآه مثله ، ولا رأت عينُه مثل نفسه» [١] ولم يملك الحافظُ شمس الدين الذَّهبي ذلك المؤرِّخ الكبيرُ الناقد البصير إلا أن يصفه بقوله :

«لو حَلَفْتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثله ، ولا والله رأى هو مِثل نفسه في العِلم» .

الشَّجاعةُ والاستقلال الفكريُّ:

لقد كانتْ شجاعةُ ابن تيميَّة وبسالتُه وصمُوده ، أمامَ الموت موضع دهشةٍ عندَ جميع معاصريه حتى ضباط الجيش، وقواد الأتراك ، فإن الشجاعة والجرأة التي أبداها إزاء المغول ، وثبات الجأش الذي ظهر به أمامهم أثار استغراب الجميع ، ولم يترك «قبجق» نفسه الذي يعتبر من كبار الضباط العسكريين الأتراك وأشهرهم في عصره إلا وجعله يندهش من شجاعته الفذة التي لا يُعرف لها نظير في حملة العلم ، يصفه الحافظُ سراج الدين بالكلام الآتي :

«وكان إذا ركب الخيلَ يجول في العدو كأعظم الشُّجعان ، ويقومُ كأثْبت الفرسان ، ويُنكي العدو من كثرة الفَتك بهم ، ويخوض بهم خوض رجلٍ لا يخاف الموتَ» [٢] .

ولكنِّي لا أريد أن أتحدَّث هنا عن شجاعته التي أبداها في ساحة القتال وبلاط الملوك إعلاءً لكلمة الحق ، فقد مرَّ بعض التفاصيل عنها في الصفحات الماضية ، إنني أتحدث هنا عن شجاعته التي ظهرت منه في مجال العلم ، والتحقيق ، والمعارك الكلامية ، والصَّدع بالحق.

يعرفُ أهلُ العلم من القُرّاء أن ابن تيمية ليس مُتفرِّداً في أكثر المسائل ،

---

(١) الكواكب الدرية : ص ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق: ص ١٦١ .

فقد نوقشتْ هذه المسائل من قبل ، وأُلِّفتْ في موضوعها رسائل ، وقد وُجد في عصره من كان يوافقُه في آرائه من معاصريه ، غير أنَّ الجُرأة والصراحة اللتين اتَّسم بهما في إبداء آرائه وتحقيقاته ، وأعلنهما في كتاباته وخُطبه كان المجلِّي فيهما ، ولا أدلَّ على صفته هذه مما قام به من شرح التوحيد الخالص ، وردِّ الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، ومُعارضة البدع والمنكرات السائدة في عصره ، والكِفاح بالقلم واللّسان مقابل وحدة الوجود ، ونظرية الحلول والاتحاد ، وهَتْك الأستار عن تلبيسات المتصوفين الدُّخلاء والمبتدعين المفترين.

إنَّ الجرأةَ البالغةَ التي مَثَّلها في إحقاق المسائل والتحقيقات التي كان يراها حقاً سواء كان لها علاقة بالمباحث الكلامية ، أو المذاهب الفقهية ، وإنَّ الأسلوب القويَّ الذي اتخذه لإثبات عقائده ونظرياته ، وإن الأذى الذي احتمله في هذا السبيل ، كلُّ ذلك ليس حجَّة على شجاعته واستقامته فحسب ، بل يَدُلُّ على عظمته ، وإمامته في الدين أيضاً.

يتحدَّث الحافظُ الذهبي عن شجاعته ، واستقامته العلمية والدينية ، فيعبر عنهما بما يلي:

«أطلَقَ عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا ، وجسَر هو عليها، حتى قام عليه خلقٌ من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه ، وبدَّعوه ، وناظروه ، وكاتبوه ، وهو ثابت لا يُداهن ، ولا يُحابي ، بل يقول الحقَّ المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده ، وحِدَّة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتُهر عنه من الورع ، وكمالِ الفكر ، وسعة الإدراك ، والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمات الله ، فيَجري بينه وبينهم حملاتٌ حربيةٌ ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة رَموه عن قوس واحد ، فيُنجيه الله»[1].

ولا شكَّ أنَّ ابن تيمية إنما كان يمتاز في تبحُّره العلمي عن معاصريه ، كما

(١) الرد الوافر: ص ٧١.

اعترف بذلك معاصروه بكلمات قوية ، غير أنَّ مِيزَته الأصيلة التي جعلته فَذّاً بين أقرانه المعاصرين ، وخلَّدتِه في التاريخ لم تكن مجرد تبحُّره في العلم ، بل إنما هو استقلالُه الفكري ، وذوقه للبحث والتحقيق وأسلوبُه الاجتهادي ، إنه لم يدرس من العلوم والفنون إلا ما كان قد درسه أكثر معاصريه ، ولكنَّه شق فيها طريقه الذي سار عليه ، وسُرعان ما أحرز مكانته الخاصة ، لقد كان كلّ العلماء في زمنه قد تعلموا النحو ، واعتقدوا في سيبويه إماماً للنحو واجبَ الاتباع ، واعتبروا قَوله هو الحُجَّة الأخيرة في النحو ، ولكنَّ ابن تيمية كان قد درس «الكتاب» لسيبويه دراسةَ نقد وتحليل ، فلما ذكر أبو حيان النحوي بعض مسائل النحو برواية سيبويه ، أجابه الشيخ ابن تيمية ، بأنه لم يكن نبياً نزل عليه النحو ، بل إنه أخطأ في ٨٠ موضعاً من «الكتاب».

وقد أخذ أكثرُ علماء عصره بالحيطة في دراسة المنطق والفلسفة اليونانية ، أما الذين كانوا درسوهما؛ فقد تأثروا بهما في قليل أو كثير ، حتى إنَّ حُجة الإسلام الغزالي الذي يُعتبر أكبر ناقد للفلسفة اليونانية ، ومُطَّلع على مواضع ضعفها في جماعة المسلمين لم يتمكّن من صَون مؤلفاته وحتى كتابه «إحياء علوم الدين» من تأثير العلوم الإلهية اليونانية ، وفلسفةِ أخلاقها كلياً ، ويتجلّى ذلك لكثير من مؤرخي الفلسفة في كثير من مؤلفاته»[(١)].

أمّا ابن تيمية فإنَّه رفع لواء الثورة على المنطق ، والفلسفة اليونانية ، ولم يتفاهم معهما في أي حال ، إنه ناقش مسائل ومقدمات المنطق ، والفلسفة المعتَرف بها كناقد بصير ، وصوفي خبير في كتابه «الرد على المنطقيين» وتناولها بعملية جراحية ، وزَعزع أساسها بالكلية ، ولم يترك موضعاً إلا وثَـقَـبَـهُ بسهامه الحادة.

مُنذُ مدَّةٍ كان البحث والدراسة في مجال الفقه والحديث قد انحصر في نطاق

---

(١) راجع للتفصيل «فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية» و«تاريخ الأخلاق» للدكتور محمد يوسف مرسي.

محدود ، ولم يكن يتجرأ أحدٌ أن يخرج عنه ، ولا كانت ذخائرهما العلمية تتسع ، وتنمو منذ مُدة طويلة ، وجاءَ ابنُ تيمية فاستأنفَ النظرَ في كثير من المسائل الفقهية التي كانت تُعتبر مقرَّرةً لا تحتاج إلى تفكير ، أو دراسة من جديد ، وقدَّم نتائج بحثه ودراساته إلى أوساط العلماء والفقهاء بكل شجاعة وصرامة علمية ، لقد أثار ذلك سواكن العقول ، وحرَّك الأوساط العلمية ، وفتح باب التفكير والدراسة من جديد ، وفي الأخير بدأ يُفتي على أساس الكتاب ، والسنة ، وآثار الصحابة.

يقول الحافظُ الذهبي ـ وابن تيمية لا يزال بقيد الحياة ـ:

«ولهُ الآن عِدَّة سنين لا يُفتي بمذهب معيَّن ، بل بما قام الدليل عليه ، ولقد نَصر السنة المَحضةَ ، والطريقة السلفية ببراهين ، ومقدمات ، وأمورٍ لم يُسبق إليها»[1].

وهو يتقرَّرُ في هذه الاجتهادات أحياناً ، ولا يَبعد أن يُخطيء كما هو الشأن في جميع البشر ، ولا يتحَتَّم أن تكون دلائله في كلِّ مسألة قوية واجبة التسليم ، ولكن الذي لا شك فيه: أنه إنما كان جد مُخلص في مقاصده ، وأنه لم يكن يترك مذهب إمام من الأئمة أو قول الجمهور ، ولا كان يستنبط مسألةً اتباعاً للهوى ، أو النفس ، أو لأجل مصلحة ، أو حاجة في نفسه ، بل إنه كان طالباً للحق ، خاضعاً للدليل ، مُتَّبعاً للكتاب ، والسنة.

وللحافظِ ابن حجر العسقلاني الشافعي صاحب «فتح الباري» قولٌ فصلٌ في هذا الموضوع إنه يقول:

«إنَّه شيخ مشايخ الإسلام في عصره بلا ريبَ ، والمسائل التي أُنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي. ولا يُصر على القول بها إلا بعد قيام الدليل عليه[2] غالباً ، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر ، سيُستفاد منه ، ويترحم عليه بسببه ،

(١) الرد الوافر: ص١٧.

(٢) الضمير يعود على «القول».

والذي أخطأ فيه لا يُقلَّد فيه بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد فيه، حتى كان أشدُّ المتعصبين عليه، والعاملين في إيصال الشرِّ إليه، وهو الشيخ جمال الدين الزَّملكاني شهدَ له بذلك»[١].

إخلاصُه وانهماكُه:

ومِيزَتُه البارزةُ الثانية: أنه وَقف نفسَه لخدمة علوم الدين، إنه لم يسمح لنفسه بأيةِ علاقة بأمرٍ آخر طول حياته، بينما ظل أكثر معاصريه، وزملائه، وأترابه ـ الذين وُجد من بينهم كبار المخلصين والفضلاء ـ يَشغلون مناصب الحكومة المختلفة، أو أنهم كانوا يحملون المسؤولية عن منصب دينيٍّ، أو إداريٍّ، أو حَظُوا بمنحة ملك، أو خِلعة سلطان، أو جائزة ملكية، أو كانوا يَقبلون رواتب الحكومة، ولكنَّ ابن تيمية ظل في غِنىً عن جميع هذه الملابسات، وكان في شُغل عن كل شيء سوى الاشتغال بالعلم والدين من الإفتاء، والتدريس، والوعظ والإرشاد، والتأليف، والتحقيق.

يشهد بانهماكه الديني، وانصرافه إلى العلم مع الانقطاع عن الدنيا أحدُ معاصريه بالكلام الآتي:

«وما خالطَ الناس في بيع ولاشراء، ولا معاملة ولاتجارة، ولا مشاركةٍ، ولا مزارعة، ولا عمارة، ولا كان ناظراً، أو مباشراً لمالِ وقف، ولم يقبل جراية، ولا صِلةً لنفسه من سلطان، ولا أمير، ولا تاجِر، ولا كان مدَّخراً ديناراً، ولا درهماً، ولا متاعاً، ولا طعاماً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثُه بعد وفاته رضي الله عنه العلمُ، اقتدى بسيِّد المرسلين، فإنه قال: «إنَّ العلماء ورَثَةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً، ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلمَ، فمن أخذ به؛ أخذ بحظٍّ وافر[٢]»[٣].

(١) الرد الوافر: ص٧٨.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٥٦و١٥٧.

(٣) [أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم =

ويَقولُ صاحب «الكواكب الدرية» رواية عن الثقات: «إنه كان قد قَطع جُلَّ وقته وزمانهِ في العبادة حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلةً تشغلهُ عن الله وما يزاوله، لا من أهلٍ، ولا من مالٍ»[(١)].

لم تُمهِله أشغالُه وأفكاره، وانهماكه في العلم والدِّين، وحياتهُ المشغولة (وقد قضى جزءاً وجيهاً منها في الحبس والاعتقال) أن يتزوَّج، فقد عاش طوال حياته عَزباً، اشتغالاً بطلب العلم والمجاهدة.

يتحدَّث مؤِّلف «الكواكب الدرية» عن برامجه اليومية، وأعماله الرتيبة فيقول:

«ولا يزالُ تارةً في إفتاء الناس، وتارةً في قضاء حوائجهم حتى يُصلِّي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه، ثم يُصلِّي المغرب ويُقرأ عليه الدرس، ثم يصلِّي العشاء، ثم يُقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل وهو في خلال ذلك كله يقضي الليل والنهارَ يذكر الله تعالى، ويُوحِّده، ويستغفره»[(٢)].

إذا كان العلمُ شُغلاً مؤقَّتاً، وخدمة طارئة لأي مدرِّس، أو مُفتٍ؛ فإنه كان غِذاءه، ولباسه، امتزج بطبيعته.

يقول الشيخ سراج الدين أبو حفص البزَّار: «وكان العلم قد اختلط بلَحْمِه، ودمه، وسائره، فإنه لم يكن مُستعاراً، بل كان له شعاراً، ودثاراً»[(٣)].

ولا أدلَّ على إخلاصه ووَرَعه من أنه عفا عن أعدائه، ومعارضيه في كلِّ مناسبة، وأعلنَ بصراحة: «أَحلَلْتُ كلَّ مسلم عن إيذائه لي».

وإنَّنا نستطيع أن نُقدِّر مدى وَرَعه، وسماحةِ نفسه، وإخلاصه بقصة عفوه

= (٢٢٣)، وابن حبان في الصحيح (١/٢٨٩) برقم (٨٨) وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه].

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق: ص ١٥٦.

عن أكبر معارضيه القاضي ابنِ مخلوف بعد عودة السلطان الناصر ، ورغم إلحاحه على عدم الصفح عنه ، وبما أَثنى على القاضي ، وجميع شركاء المملكة ، وعلمائِها للسلطان ، وشفاعته لهم إليه ، وقد ثَبت بذلك أنَّ كُلَّ خلافاته إنما كانت على الأساس العلمي ، والديني ، لا تَشُوبها شائبة من النفسانية والعداوة .

إنه خلَّف ذخيرةً من الآثار العلمية والمؤلَّفات القيمة، التي تُعتبر مفخرة لجماعة من أهل العلم في حياته البالغة ٦٧ سنة الحافِلة بالحوادث والوقائع الشاذَّة نتيجَةَ إخلاصه ، وانهماكه ، وخلَّف نتيجةً لذلك أيضاً تأثيراً عميقاً في عصره يُؤهِّله بكل جدارة أن يُسمى رائدَ عهدٍ جديد ، وذا شخصيةٍ قويَّةٍ تُغيِّر مَجرى التاريخ .

* * *

الفصل الخامس

خَصائِصُه التَّأليفية

إنَّ مؤلَّفاتِ ابن تيمية تَتَفرَّد بخصائص بارزة تُميزها من بين مؤلفات عصره بكل وضوح ، إنها لا تزال تُؤثِّر في قلوب الجيل الجديد وعُقوله رغم أنه مضى عليها قرون عديدة ، وحَدثت في خلالها ثورات في دنيا العلم والتفكير ، وقد أنتج ذلك أنها تَنالُ الإعجاب والقبول من جديد في هذا العصر الوَلوع بالتجديد والعقلية ، وهناك أربعةُ جوانبَ ذاتُ أهمية في هذه الخصائص :

١ـ كُلُّ دارسٍ لمؤلَّفات ابن تيمية يرجع بانطباع : أنَّ مؤلِّفها عارفٌ بمقاصد الشريعة ، ومُطَّلعٌ على روح الدين ، وأنهُ آخذ بأطراف الدين وأصوله ، ولذلك فإنه يركز بحثه في كل أمر من أموره على الأصول بحيث يشفي العليل ، ويروي الغليلَ ، ويَبعث الطمأنينة ، واليقين في النفس ، إنَّه يضغط على الأصول دون الفروع ، ويبدأ كلَّ بحث بأسلوب يُشعر القارىء بأنه هو طبيعة الدين ، وروحه ، ومقتضى الشريعة المحمدية بالبَداهة والاضطرار ، إنَّ السرَّ في تفوقه بإزاء معاصريه ، والمؤلفين الآخرين هو اطِّلاعه على مقاصد الشريعة ، وروح الدين ، وشرحهِ الناجح لهما ، وذلك ما يتجلى في كل ما أَلَّفه من صغير ، وكبير ، ولا سيَّما عندما يَتحدَّث في العقائد ، والمسائل الكلامية ، والفقهية المهمَّة .

٢ ـ الميزة الثانية البارزة : أنَّ كُتبه تفيض حيويّة ، ويبدو أنها لم تُؤلَّف في

رُكن من المكتبة مُنْـزَوٍ ، أو جزيرة منقطعة عن الناس ، بل إنها أُلِّفت في معترك الحياة ، وأوساط العامة ، إن من يدرسها يستطيع أن يُعيِّن ، ويُقدِّر العصر الذي أُلفت فيه بسهولةٍ عقليةَ المجتمع وأخلاقه الذي كان يتصل به مؤلِّفها [١].

كما أَنَّ مؤلَّفاته تُشير إلى عواطفه ، وحماسه ، وحُبِّه ، وكراهيته ، ويبدو أنَّ مؤلفها كان صاحب عقل واعٍ ، وقلبٍ حساس ، ومشاعرَ حية قوية ، ولم يكـن مُجـرَّد آلـة للكتابـة ، ولا محْض عقل.

وكذلك أُسلوبُ تفسيره يتَّسم بارتباطه مع الحياة ، إنَّه يُطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة ، والإنسان ، ويستعرض الحياة من وجهة نظرها ، ويتناول معاصريه ، وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب ، إنَّه يضع الأصبع في مواطن الانحراف عن هذه الآيات ، والحقائق ، ويُخبر بنتائج ذلك [٢].

إنَّ ميزة الحيوية هذه مَنحتْ مؤلفاته حياة طويلة ، وتأثيراً عميقاً ، وروعة عجيبة ، قد تندر في مؤلفات غيره ، وقد تكون مفقودة فيها.

٣ ـ إنَّه يَجمع معلوماتٍ ، وموادَّ في كل موضوع يطرقه في عشراتٍ من الكتب ومئات من الصفحات ، إنَّ أسلوب تأليفه هذا ـ الذي يمكن أن يُسمَّى أسلوباً موسوعياً ـ أبرز ميزة لجميع مؤلفاته سواء كانت في المباحث النقلية ، أو العقلية ، وهكذا فإن كتبه تجمع معلومات كثيرة وفيرة تُغني أكثر الأحيان عن مكتبة، بل تقوم مقامها، ويَستغني بها الطالب عن مراجعة المصادر، والمباحث.

وطالمَا يُفلِت منه طرفُ البحث في تأييد كلامه بالمواد ، والمعلومات؛ حتى إنَّ الدارس يضل في خضم الأقوال والشواهد ، ويتعسّر عليه التغلب على البحث ، ولكن على الرغم من ذلك لا يُستهان بجانب الإفادة في كتبه ، وهو أنها مخزن أقوال المعاصرين ، وآرائهم ، وموسوعة صغيرة في مواضيعها ، إنه حفظ كثيراً من المواد ، والمعلومات القديمة ، وكثيراً من الآراء ، والأفكار في

---

(١) وكنموذج اقرأ كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم».

(٢) اقرأ تفسير «سورة النور» و«سورة الإخلاص» وما إلى ذلك، لابن تيمية.

كتبه ، وصانها من الضياع ، وهي مِنَّةٌ علمية كبرى ، لا تنسى من ابن تيمية .

٤ ـ تمتازُ كتبه بين كُتب الفقه والكلام العامة بخُلوِّها من الجفاف ، والتعقيد ، والاختصار ، الأمر الذي يُعتبر سِمة الكتب المؤلَّفة في هذا الموضوع ، ولكن بالعكس من ذلك إن مؤلفات ابن تيمية تتَّسم بالسلامة ، والقوة ، والعربية ، وأحياناً بصفة البلاغة ، والأدب ، والخطابة من غير قصد ، تلك التي تجعل كتبه (وأكثرها دفاتر ضخمة) ذاتَ روعة ، وحيوية ، وقوَّة ، لا سيما عندما يبحث هو في ترجيح مذهب السلف ، وفي تفوُّقهم العلمي ، والديني ، وفضلِهم العملي ، والفكري يستمد قلمه قوَّةً ، ويستوحي بحثه صفة من الرجز .

لقد تحدَّثَ معاصروه ، والمؤلفون عن حياته ، وبلاغته ، وخطابته بصفة خاصة ضمن الحديث عن أحواله ، وفضائله ، يقول الحافظ أبو حفص :

«يجري كما يجري التيار ، ويَفيض كما يفيض البحر ، ويَصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين ، مُغمضاً عينيه ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوب ، ويُحيِّر الأبصار ، والعقول» [1] .

يبدو من دراسة مؤلَّفاته : أنَّ سلاسة الألفاظ ، وفيضان العلم ، لا يختصان بمجالسه ، بل يشارك قَلَمُهُ لسانه ، هكذا أبدى الأقشهري انطباعه عنه في رحلته ؛ إذ إنه يقول : «وقلمه ولسانه متقاربان» .

وعلى هذا الاعتراف بمحاسنه لا بدَّ من الإشارة إلى بعض جوانب الضعف لكل مؤرخ ناقد ، وهي أن في كتبه ومباحثه اضطراباً ، وانتقالاً من معان إلى أخرى ، وبدء بحث جديد بأدنى مناسبة ، كما أنها تتَّسم بالإطناب ، والتطويل ، ولا شك أنَّ ذلك مما يسبب حيرة شديدة للقارىء لا سيما إذا كان يجهل أسلوبه ، وطراز تأليفه ، إنَّ السبب الكبير لذلك إنما هو حِدَّةُ ذهنه ، وفَرطُ ذكائه ، ووفرةُ عِلمه ، وحماسُ طبيعته ، ويبدو أنَّ ذهنه وقلمه لا يكادان

---

(١) الكواكب الدرية : ص ١٥٥ .

يستقران في مجال البحث على نقطة واحدة وترد إليه الخواطر ، وينتقل ذهنه بسرعة بالغة ، لا تضع عليهما حداً ، وذلك ما كان يتصف به درسه ، يقول تلميذه أبو حفص البزَّار:

«كان ابنُ تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم، وغوامض ، ولطائف ، ودقائق فنون ونقول ، واستدلالات بآيات وأحاديث ، واستشهاداً بأشعار العرب ، وهو مع ذلك يجري كما يجري التيار ، ويفيض كما يفيض البحر» [١].

وهذه الخِصِّيصة مِن وفرة المعلومات ، وكثرة البراهين ، والدلائل ، وتَموُّج ذهنه هي التي كانت تسد الطريق على مناظريه في مجلس المناظرة ، إنه كان يُدخل في ثنايا بحثه ومناظراته علوماً ومسائل تعسر على خصمه أن يرتكز علىٰ بحث واحد ، ويَنضبط في مسألة واحدة ، وذلك ما جعل العلماءَ والفقهاء في مصر والشام يتجنَّبون مناظرته في المجالس العامة ، ويعتذرون إليه ، وقد عبر عن هذه الصعوبة أحد معاصريه ، ومناظريه الفضلاء الشيخ صفيُّ الدين الهندي بكلامه الآتي:

«ما أرَاكَ يابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردتُ أن أقبضه من مكان فرَّ إلىٰ مكان آخر» [٢].

إنَّ هذه الطبيعة العلمية (التي ليست نتيجة نقص ، أو عيب ، بل إنها دليلٌ على كثرة معلوماته ، ووفرة فضله ، وذكائه ، وعلمه) توجد في مؤلَّفاته ، فإذا تجلَّد الطالب الصادق ، ودأب على الغوص في بحره؛ فلا شك أنه يرجع منها بدرر ثمينة ، ولآلىء فاخرة.

* * *

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٥.

(٢) نزهة الخواطر: ج ٢ ، ص ١٤٠، ترجمة محمد بن عبد الرحيم الأرموي (الشيخ صفي الدين الهندي).

الفصل السادس

أسبابُ معارضة ابن تيميَة بين نُقّاده والمُدافعين عنه

ينشأُ هنا سؤالٌ في نفس كلِّ إنسان سليم الطبع ، هو أن ابن تيمية على رغم تبوئه هذا المنصب العالي للعلم ، والدين ، وتحلِّيه بالفضائل الفكرية ، والتدين ، والإخلاص إلى حدِّ الإبداع ، والتفرد ، لماذا خُولف وعورض هذه المعارضة الشديدة [١] من قِبل معاصريه وبعض المتأخرين من العلماء؟

ولماذا ظلَّت شخصيتُه موضع بحث وانتقاد منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا؟ .

ولماذا لم يتفقِ الناس على عظمة هذا الإنسان الجامع للفضائل والكمال؟ .

إنَّ هذا السؤال حقٌّ ، ويجدر بأن نردَّ عليه في وضوح ، وصراحة في ضوء سيرته ، وتاريخه المعاصر .

١ ـ إنَّ وجود فريقين منافسين في شخصيةٍ ، وصراعهما في تحديد مكانتها لدليل على عظمتها قبل كلِّ شيء ، فإن الشخصيات التي لمعت في التاريخ ، وتميَّزت بفضائل خارقة للعادة إنما واجهتْ هذا الوضع دائماً ، ونالتْ تأييدَ

(١) لا يغيبنَّ عن البال: أنَّ هناك فرقاً بين المخالفة والاختلاف؛ إذ أن الاختلاف حقٌّ لأهل العلم والتحقيق دائماً، لا يمكن سلبه من العلماء في أيِّ زمان، ولذلك فإننا لا نعني هنا الاختلاف مطلقاً بل نبحث في المخالفة ، وأسباب تضليله ، وتكفيره.

فريق ، وإعجابه ، ومبالغةً في مدحها والثناء عليها ، وانتقاد فريق آخر ومعارضته ، ومغالاته في الحط من شأنه ونقص منزلته ، إنها تجربة مستمرة للتأريخ ، فيما يتصل بالشخصيات العظيمة ذات العبقريات حتىٰ إنَّ بعض فلاسفة التاريخ وعلم النفس ، وأصحاب البصيرة للعظمة والعبقرية اعتبروا ذلك من مبادىء العظمة ، وشروط العبقرية .

٢ ـ كان ابنُ تيميَّة أعلىٰ من المستوىٰ الفكري والعلمي للجيل الذي نشأ فيه ، وكان ذلك بـلاءً عظيماً لمعاصريه ؛ إذ أنَّ السمو على المستوىٰ السائد نعمةٌ موهوبة ، ومِنحةٌ من الله يغتبط عليها ، إلا أن صاحب هذه النعمة يضطرُّ إلى دفع ثمنٍ باهظٍ لها ، إنَّـه يعيش في بلاء مستمر ، ومحنة دائمة من قِبل معاصريه .

كما أنَّ أولئك المعاصرين يُعانون من شقاء ومصيبة طول حياتهم من أجله ، وذلـك لأنهـم لا يسـايـرون طـراوة فكـره ، وعُلـو نظـره ، وقـوة اجتهـاده ، ولا يستطيعون أن يتوصلوا إلى آفاق عِلمِه وفكره العالية .

هذا وهو لا يقدر على أن يبقىٰ مُقيَّداً محدوداً في مصطلحاتهم المحدودة المرسومة ، وحدودهم المدرسية ، بل إنه يطير بحرية في أجواء العلم والفكر الواسعة ، ويَسْبَح في بحار الكتاب والسنَّة الزاخرة ، إنَّ مبلغ علمهم لا يعدو فَهْمَ كتب المتقدِّمين ، وأهل التدريس ، أمَّا هو فإنه يكون مجتهداً ، ومجدداً في علوم كثيرة ، وقد يكون مُرْسِياً لقواعد بعض الفنون ، مُبْتكراً لها .

وبالجملة فإنَّ تفاوت المدارك والكفاءات يُحدِث صراعاً عجيباً ـ لا يكاد ينتهي ـ بينه وبين معاصريه المخلصين ، فلا يستطيع أن يقنعهم في حال ما ، إن أصحاب الفضل ، ومجتهدي الفن من العلماء واجهوا هذه المشكلة في كلِّ زمانٍ ، إنهم وجدوا أنَّ تحقيقاتهم وعلومهم تعدَّت المستوىٰ العلمي ، والدراسي السائد في عصرهم ، فلم يتمكنْ من فهمها ، والتغلب عليها أولئك العلماء الذين لم ينطلقْ فكرهم من نطاق الكتب المتداولة ، وذلك هو العامل

الكبير لمعارضة كثير من أهل العلم [١].

٣ ـ إنَّ طائفةَ المعارضين إنما كانت تُعارض هؤلاء العباقرة على أساس أنهم إنما كانوا يسيطرون على رجال الحكومة، وينالون إعجاب الجميع من العامة والخاصَّة بفضل ذكائهم، وعِلمهم، وعُلوِّ مكانتهم، وجمال شخصيتهم.

ولا يقوم أحدٌ أمام علمهم، وبيانهم، إنهم يستولون على الجميع حيثما كانوا، فإن درَّسوا؛ أوحشتْ مجالس الآخرين، وإنْ خطبوا، تتدفَّقُ منهم بحار العلم، ولقد أشار الحافظ الذهبيُّ في الفقرة التالية ذات المغزىٰ الدقيق إلى كوامن النفوس هذه، يقول «غير أنه يَغترفُ من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السَّواقي» [٢].

ولا شكَّ أنَّ العلماء في كل عصرٍ إنما كانوا بشراً يتمتعون بأفكار، ومشاعر البشر، فلا غرابة إذا كان سببُ معارضتهم لدىٰ كثير منهم ما يسمَّىٰ في عصرنا بمُركَّب النقص، وضَعْف الطبيعة البشرية، ذلك الذي يتعسَّر التحرُّز منه، إنَّ المؤرِّخين حينما يتحدَّثون عن أسباب العداوة والمعارضة مع الإمام أبي حنيفة ينشدون البيت الذي يصدق في كل عصر:

حَسدوا الفَتىٰ إذْ لم ينالوا سَعْيَه ... فالناسُ أعداءٌ لَهُ وخُصُومُ

٤ ـ إنَّ السَّبَبَ الطبيعيَّ لمعارضته لدىٰ كثير من المعاصرين خِصِّيصةٌ كانت في نفس شيخ الإسلام تلك التي توجد عند كثير من أهل الفضل الذين يتميزون بذكاء غير عادي، وسعة النظر، وكثرة المعلومات، وأعني بها حِدّة الطبيعة؛

---

(١) ولقد أشار إلى هذه النقطة أفضل المتأخِّرين شيخُ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدِّهلوي في مؤلفاته، يقول في موضوع من كتابه «إزالة الخفاء»: «بما أنَّك لم تقرأ هذه المقدمة في كتب علم الكلام بمثل هذه الروعة يحتمل أن تتطرق إلى قلبك وحشة»، ويقول في مكان آخر: «إنْ فهم هذا المعنى في غاية من الدقة، فإن الجماعة التي لا يتجاوز علمها شرح «الوقاية» و«الهداية» كيف تستطيع أن تدرك هذا السر الدقيق» (ج٢، ص ٨٤).

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

التي تَبعثهم في بعض الأحيان على تَناول بعض معاصريهم بالنقد اللاذع؛ وإظهار جهلهم، وغبائهم، وقِلَّة علمهم، وتخرج من أفواههم من شِدَّة التأثر كلماتٌ تجرح شعور أهل العلم من معاصريهم والمعجَبين بهم تُثَبِّط همةَ تلاميذهم، الأمر الذي يبذرُ في قلوبهم بُذور النفور، والعداوة الدائمة، وذلك ما يُنتج إصدار فتاوىٰ الكفر والضلال عليهم، والمعارضة المستمرة، والتربص لهم بالدوائر.

لم يَصرفْ معاصرو شيخِ الإسلام ومترجمو حياتِهِ نظرهم عن تلك الخِصِّيصة الطبيعية التي كانت نتيجة أحواله، ويقول الحافظ الذهبي الذي كان مُعْجَباً بفضائله العلمية، والدينية:

«تَعْتريه حِدَّةٌ في البحث، وغضبٌ، وصَدْمةٌ للخصوم، تَزْرَعُ له عداوةٌ في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمةَ إجماع، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحرٌ لا ساحلَ له، وكنزٌ ليس له نظير».

ونجد في حياته عدداً مِن أحداث تؤكِّد: أنه لم يتمكن من تحمُّلِ قِلَّة فَهْم، أو قِصرَ نظرٍ ودراسة لمعاصره في أي مسألة دينية، وعلمية، فلم يلْبث أن جهر بذلك حتىٰ إنَّ معاصره عاد منافساً، ومعانداً له بصورة دائمة.

ففي مسألة الزيارة حينما ردَّ عليه تقي الدين ابن الأخناني المالكي، وقرأ رسالة ردِّه تصدىٰ للردِّ عليها، وقال فيها: إنه قليل العلم والمعلومات، لا يَصلُح للكتابة في هذه المسألة ولكنَّ نَقْدَه هذا سببُ محنته وإيذائه، فقد يرىٰ بعضُ مترجمي حياته ومؤلِّفي سيرته: أن ذلك هو السبب في اعتقاله الأخير وطول أسارته ومصادرة أدوات كتابته [١].

وهكذا حضر أبو حيَّان المفسِّر الذي كان يُعتبر إمام عصره في النحو ابنَ تيمية مُعْجَباً به ومعترفاً بفضله، وقد كان قد قرض قصيدة في مدحه كان مطلعها:

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٤ ص ١٣٤.

لمَّا أتانا تَقِيُّ الدِّينِ لاحَ لَنَا داعٍ إلىٰ اللهِ فَرْدٌ مالَه وِزْرُ

ومن جُملتها قوله:

يا مَنْ يُحدِّث عَنْ عِلْمِ الكِتاب أصِغْ هٰذا الإمامُ الذي قَدْ كَانَ يُنْتَظَرُ

وفي ثنايا الكلامِ دار الحديثُ حَول مسألة نحوية، فأورد أبو حيان مذهب سيبويه مؤيِّداً جانبه، وكان يتوقَّع أن يسكُت ابن تيمية، ويعترف بفضل سيبويه، ولكنه ردَّ عليه قائلاً: «إنَّ سيبويه ليس نبياً للنحو معصوماً عن الأخطاء بل إنه أخطأ في «الكتاب» في ثمانين موضعاً، لا تستطيعُ أن تتفطَّن لها»، وما إن صادف أبو حيان هذا الكلام الشاذَّ من ابن تيمية؛ إذ تنغص خاطره، حتىٰ أخرج قصيدة ابن تيمية من ديوانه، ولم يَعُد مُعْجَباً بابن تيمية بل أصبح من معارضيه، ونقَّاده.

٥ ـ وسببٌ آخر لمعارضته هو تحقيقاته، وترجيحاته التي ينفرد بها، ويَنْشَقُّ فيها عن جماعة الأئمة الأربعة والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان، إنَّ هذه التفردات لا تَبْعَثُ وحشةً واستنكاراً في نفوس مَن لهم اطلاعٌ واسعٌ على تاريخ الفقه والخلافيات وأقوال الأئمة والمجتهدين ومسائلهم، إنَّهم يعرفون جيداً: أَنَّ تفردات الأئمة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جُمِعَتْ تتضاءل أمامها هذهِ التفرُّدات وتبدو لهم كلُّ شيء، ويتضعضعُ اعتقادهم بالتفرد الذي يعتبرونه مُضاداً للقبول، ومُنافياً للحق، ويشترطون لعظمته، وولايته ألا يكون له رأيٌ، أو تحقيق يُعارض الآراء، والتحقيقات المشهورة.

أمَّا الذين لا يملكون نظرةً واسعةً حول الخِلافيات، أو أنهم يَسمحون بالتفرد، والشُّذوذ للمتقدِّمين، لكنهم لا يَرون في ذلك مندوحة للمعاصرين مهما بلغوا من التَّفوُّق، والكمال شأواً بعيداً، فقد أصبحَ لهم هذا التَّفرُّد أيضاً مبعثاً للمخالفة، وفساد العقيدة، والضلال، ودليلاً إلى خرق الإجماع.

وما أعدلَ وأجملَ كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (وقد تقدم فيما مضىٰ) وأبعد من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع ، إنه يقول :

«فالذي أصابَ فيه ـ وهو الأكثر ـ يستفاد منه ، ويُترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يُقلَّد ، فيه بل هو معذور» .

٦ ـ وهناك سببٌ آخر قويٌّ لمعارضته ، وهو أنه خالف ذلك الأسلوب في تأويل الصفات والمتشابهات الذي كان يعرف باسم «العقيدة الأشعرية» بل باسم عقيدة أهل السنة ، وكان الناس يرون العدول عنه نوعاً من الجهل ، أو معارضة أهل السنة ، وقد أسلفنا التفصيلَ بأن الإمام ابن تيمية خالفَ ذلك بكل جرأة وقوة ، وشرح مذاهب الصحابة ، والتابعين رضي الله عنهم ، والأئمة المجتهدين ، والمتكلمين ، والمتقدِّمين ، والإمام أبي الحسن الأشعري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني ، وإمام الحرمين بأقوالهم ومؤلفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم : أنَّ هؤلاء الأئمة كلهم إنما يُوجبون الإيمان بالصفات ، إنهم يعترفون بحقيقتها التي تتفق وعظمة الله سبحانه وتعالىٰ أو تنطبق على قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورىٰ: ١١] وتتنزَّه من النفي والتعطيل والتشبيه والتجسيم ، إنهم يَدَّعون : أنَّه لم يثبت خلاف ذلك لفظٌ واحدٌ لا نصاً ولا ظاهراً من الصحابة ، والتابعين ، والسلف رضي الله عنهم .

لقد كان العالم الإسلامي آنذاك تحتَ تأثير العلماء والمتكلِّمين الأشعريين ، ولذلك فإنَّ اختلاف ابن تيمية الذي كان مؤسَّساً على أُسس علمية خالصة اعتبره الناس نوعاً من البدعة ، ومرادفاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : [النساء: ١١٥] واتهموه بالتجسيم .

وبما أنَّ العلماء في ذلك العصر كانوا يَرون : أنَّه لا مناص منه قد أطبقوا على «التأويل» ركَّز ابن تيمية كل قُوته على رد التأويل ، وقد شكَّ الناسُ بجهره برد التأويل في اعتقاده ، ورمَوْه بالتجسيم ، وغالوا في ذلك إلى حدٍّ أنهم نسبوا إليه رواياتٍ تؤكد : أنَّه من الفرقة المجسمة ، مثلاً : أنَّه كان يخطب في الجامع

الأموي بدمشق ، ونزل من درجة المنبر إلى أدناها ، وقال: إنَّ الله تعالىٰ ينزل كنزولي هذا [١] .

إنَّ الإمام ابن تيمية وتلاميذَه كلهم نَفَوا هذه التهمة ، وأبدوا ، وأعادوا براءتهم عن التجسيم ، ولكن كتاباته القوية في معارضة التأويل التي كانت عن ضرورةٍ قدَّمها معارضوه كدليلٍ على عقيدة تجسيمه ، وقد كان ذلك أقوىٰ سبب من الأسباب التي دعت كثيراً من العلماء وأتباعهم إلى معارضته ، والواقع: أنَّ الطريق بين التأويل والتجسيم شائك حَرِج بحيث لا يتسنَّىٰ لكلِّ إنسان أن يَفهم الفرق بينهما ، وقد لُوحظ: أنَّ عدداً من الحنابلة ومنكري التأويل تسرَّبوا إلى ثغر التجسيم ، فلا غرابة فيما إذا رمي ابنُ تيمية بالتجسيم في مثل هذه الأوضاع ، علىٰ أنَّ الحقيقة تؤكد أنَّه كان بريئاً من هذه التهمة كل البراءة.

٧ ـ وسببٌ آخر لمعارضته هو مخالفته للشيخ محيي الدين ابن عربي ، فإنَّ ذلك ذنبٌ لا يُغتفر لدىٰ كثير من الناس، ولا سيما الذين يغالون في المذهب الصوفي ، ويتَّجهون إلىٰ أنهم يرون أن نفيه لمذهب وحدة الوجود، وردَّه على آراء الشيخ محيي الدين وتحقيقاته المشهورة يكفيان للقضاء على جميع فضائله ، ومحاسنه التي كان يتحلَّىٰ بها.

وليس شيخُ الإسلام ابن تيمية هو الفريد في نقده لآراء الشيخ محيي الدين ابن عربي ومذهبه ، بل يوافقه في هذا الاتجاه بعضُ كبار الصوفية وأئمة الطرق المحقِّقين ، وقد حمل لواء الرد على الشيخ محيي الدين ، ومخالفة مذهبه في وحدة الوجود الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، إمام الطريقة المجدِّدية

(١) سجَّل ابن بطوطة هذه القصة في رحلته كحادث رآه بعينه، وقد سألتُ علامة الشام الشيخ بهجة البيطار عن هذه القصة فقال: إنها لا تستند إلى أصلٍ تاريخيٍّ، فإنَّ ابن بطوطة يتحدَّث عن وصوله إلى دمشق في رمضان ٧٢٦هـ والمعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان قد اعتقل في ٧٢٦، ثم إنه لم يكن خطيباً في الجامع الأموي في أيِّ زمان، وكان الشيخ جلال الدين القزويني هو خطيب الجامع الأموي في عهده، وهذا يؤكِّد: أنَّ ابن بطوطة التبس عليه الأمر ، أو أنه زوَّر الكلام.

النقشبندية في رسائله الخالدة ، وانتهت إليه رئاسة معارضة الشيخ ، والدفاع عن العقيدة السنية ، ورسائله وجهها إلى أحد أصحابه :

«إنَّ أكثر معارفه التي تتعلق بالكشوف ، وتُعارض علومَ أهل السنة بعيدة عن الصواب ، ولا يتَّبعه فيها إلا من هو مريض القلب ، أو أنه مُقلِّدٌ بحتٌ» [١] .

وقد ذكر العلاَّمةُ نُعمان الآلوسي صاحبُ «جلاء العينين» قائمة لأولئك العلماء الذين كانوا يؤيِّدون ابن تيمية في هذه المسألة ، وقد ألَّف عدد منهم رسائل مستقلة في هذا الموضوع نجد من بينهم العلامة السَّخاوي ، والعلامة سعد الدين التَّفتازاني ، والعلامة نور الدين بن علي بن سلطان محمد الهَرَوِي المعروف بمُلاَّ علي القاري ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، وأبا حيَّان المفسر ، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبا زُرْعة ، وشيخ الإسلام سراج الدين البَلْقِيني ، شخصيات لامعة من الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام [٢] .

ثم إنَّ مخالفة شيخ الإسلام ابن تيمية مع الشيخ الأكبر لا تقوم علىٰ أساسِ الشخصية أو العاطفة ، إنما هي مخالفة باعثُها الحمية الدينية ، والغيرة الشرعية ، يزخر بأمثلتها تاريخُ السلف ، والخلف ، فإن أهل الحمية الدينية ، والمحافظين على الشريعة كلما رأوا كلاماً لأحد يعارض السنة ونصوص الشريعة ، ويتنافىٰ مع عقائدهم القطعية المتواترة ، تصدوا للردِّ عليه ، ولم تَحُل دون ذلك عظمةُ صاحب ذلك الكلام ، وشهرتُه ، ولا آثار ولايته وقبولهِ العام ، وذلك لأن حُرمة الشريعة ، وعظمةَ مكانة النبوَّة فوق كلِّ حرمة وعظمة ، وإن الشيخ السرهندي نفسه لم يستطع أن يضع حَدّاً على حماسه العُمري ، وسَوْرَة حمِيَّته الدينية ، وتصدَّىٰ للرد على مثل هذه الأقوال بكل

(١) مجموع رسائل: رقم ٢٦٦، ج١.

(٢) جلاء العينين: للعلامة خير الدين نعمان ابن العلامة محمد الآلوسي ، ص٤٣ ـ ٤٤ .

قوة ، أخبره أحد العلماء المعاصرين مرة : أن الشيخ عبد الكبير اليمني يعلم غيبَ الله تعالىٰ ، فردَّ عليه قائلاً :

«يا سيِّدي! إن هذا الفقير لا يحتمل أن يسمع مثل هذه الترهات ، فإن العِرْق العُمري الذي ورثته عن آبائي ينبض ، ويثور ، ويفور فيَّ ، ولا يتركني أن أؤوِّل مثل هذا اللغو من الأقوال ، وإنْ كان الذي يقوله الشيخ عبد الكبير اليمني ، أو الشيخ الأكبر الشامي ، إنَّ الحجة في كلام سيدنا محمد العربي (عليه وعلىٰ آله الصلاة والسلام) ، لا في كلام محيي الدين ابن عربي ، وصدر الدين القونوي ، وعبد الرزاق الكاشي ، إنما يَعنينا النصُّ [1] لا الفصُّ [2] ، وقد أغنَتْنا الفتوحات المدنية [3] عن الفتوحات المكيَّـة» [4] .

هذه الحميةُ والغيرةُ ، وهذا الاختلاف والإنكار ، ذلك الذي لا ينبعث إلا من الحمية الدينية ، والانتصار للكتاب والسنة ، وإيثار جانب الله والرسول ﷺ على كل شيء سواهما ، وهذا الحُب الخالص لمن يستحق الحب والاحترام ، ليس كُلُّ ذلك ما يُعَدُّ من المعائب ، إنما يجدر أن يعتبر ذلك من أفضل المناقب ، وأعلىٰ الفضائل ؛ إذ إنه مصداق كامل لما صح من حديث :

«ثلاثٌ مَنْ كَنَّ فيه وجد بِهِنَّ حلاوة الإيمان ، مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَىٰ في النار» [5] .

---

(١) يريد به نصوصَ الكتاب والسنة .

(٢) يشير إلى كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي المعروف بـ «فصوص الحكم» .

(٣) يريد بها تعاليمَ الكتاب والسنة .

(٤) كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي المعروف بـ«الفتوحات المكية» .

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، برقم (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن. . . ، برقم (٣٤) والترمذي في أبواب الإيمان ، باب حديث «ذاق طعم الإيمان» برقم (٢٦٢٤) ، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٢٧) برقم (١١٧١٨) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٠٣) برقم (١٢٠٢١) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

٨ ـ وأُصيبت طائفةٌ بسوء ظنّ كبيرٍ به ، ومغالطات كثيرة في بابه ، فقد نسبَ إليه بعض المؤلِّفين الحاقدين عليه أقوالاً تُوجب الكفر ، وِفقاً لمذاهب الجمهور ومعتقدات أهل السنة العامة ، كما نُسبت إليه أقوال أخرىٰ تحط من شأن صاحب النبوة العظمىٰ ، وتسيء إليه (أعاذنا الله وجميع المسلمين منها).

ولم يكن ابنُ تيمية وحده هدفاً لهذه المعاملة الشنيعة ، بل تناول المعاندون رجال الأمة الآخرين أيضاً بهذه المؤامرة الدنيئة ، إنهم لم يكتفوا بنسبة تلك الأقوال ، والعقائد التي كانوا أبرياء منها ، بل زادوا في مؤلَّفاتهم من المواد التي تستوجب الكفر ، والضلال.

وتقدَّموا خطوة زائدة ، فألفوا كتباً بذاتها ـ مشتملة على مواد الكفر ـ ونسبوها إليهم ، جاهدين في نشرها على أوسع نطاق ، هكذا عُومِل حجَّة الإسلام الإمام الغزالي من قِبل معارضيه؛ إذ أنَّ جماعةً كبيرةً من العلماء تعتقد أن الكتب التالية: «المضنون به على غير أهله» و«المضنون به على أهله» و«معراج القدس» «ومشكاة الأنوار» منحولة إليه ، فعلَ ذلك أعداؤُهُ وحُسَّاده ، ويقال: إن بعض مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن عربي دسَّ فيها مواد وآراء تُخالف مبادىء الإسلام ، وما ثبت بالضرورة في الإسلام ، كما يقول الإمام الشعراني ، وقد جرب هو نفسه في كتبه أيضاً قصة تثير الاستغراب والدهشة ، يقول في «الأجوبة المرضية»:

«لقد ألحَقَ بعضُ الحسَّاد إلى كتابي «البحر المورود في المواثيق والعهود» زياداتٍ كانت تعارض الشريعةَ ، وتولَّوا إشاعتها في الجامع الأزهر وغيره ، حتىٰ نجمتْ بذلك فتنة ، وهنالك اضطررت إلى أن أقدم النسخة الصحيحة الأصلية من كتابي إلى العلماء ، فكتب عليه كبار العلماء ، ومشايخُ الإسلام تزكية وتصديقاً ، ومن ثَمَّ اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات التي كان قد ألحقها الحسَّاد إلى كتابي ، وماتت الفتنة».

ولا شكَّ أن المعاملة القاسية التي لقيها ابن تيمية من بعض المعاصرين ، والمتعصبين تؤكد أن كثيراً من أقوال الكفر والعبارات التي يستدل بها على

الإساءة إلى مقام الرسالة العظمىٰ ، وقلة الأدب معه (أعاذ الله شيخ الإسلام وجميع المسلمين منها) ، مما حمل كثيراً من المخلصين والعلماء ذوي حميَّة دينية على معارضته ، بل على تكفيره ، وضلالته.

وقد غالت طائفةٌ من معارضيه وأعدائه في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع إلى حدٍّ أنها أصدرت فتوىٰ بأنَّ من يُسمي ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر [١] ، فألَّف حافظ الشام شمس الدين الشهير بـ«ابن ناصر الدين» الشافعي (م ٨٤٢) رداً على هذه الفتوىٰ ، وإثباتاً لفضل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعظمته ، وإمامته ، وبراءته من هذه الأقاويل كتابه الشهير «الردُّ الوافر على من زعم أن من سمَّىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر» [٢] ، جمع فيه شهادات من ٨٧ عالماً وإماماً وآراءهم وانطباعاتهم واعترافاتهم بعظمته وإمامته ، وقدَّم لهذا الكتاب الحافظُ ابن حجر العسقلاني والعلامة العيني، وأفاضا في الثناء على ابن تيمية وتأييده ، وأبديا أنه كان صحيحَ العقيدة ، وسنيَّ المذهب ، وشيخَ الإسلام بلا نزاع ، حتىٰ إن العلامة بدر الدين العيني قال فيما كتب «من نَسبه إلى الزَّندقة؛ فهو زنديق ، وقد سارت تصانيفُه إلى الآفاق وليس فيها شيءٌ مما يدل علىٰ الزيغ والشقاق».

بيد أنَّ هذه المؤامرة على ابن تيمية ظَلَّت مستمرةً ، ولم تزل طائفةٌ من

---

(١) يتقدَّم هذه الطائفة الصغيرة الشيخ محمد بن محمد البخاري المشهور بعلاء البخاري، ولد سنة ٧٧٩هـ ، وتوفي ٨٤١هـ، كان فقهياً حنفياً ، ولد بإيران ، ونشأ ببخارى ، ورحل إلى الهند ، ثم إلى مكة ، ومصر ، وأقام بهما طويلاً ، ثم انتقل إلى دمشق ، ومات فيها، وكان شديد الإنكار على ابن تيمية ، وعلى الشيخ محيي الدين ابن عربي في وقت واحد، وألف في الأخير كتاباً أسماه «فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين».

(٢) صدر هذا الكتابُ في مجموعة ألَّفها ورتَّبها فرج الله زكي الكردي، واهتم بطبعها الشيخ عبد القادر التلمساني في مطبعة كردستان العلمية في مصر عام ١٣٢٩هـ، وقد أصدر المكتب الإسلامي في بيروت طبعة جميلة منقحة بتحقيق صديقنا الفاضل الأستاذ زهير الشاويش مع حواش مفيدة وفهارس عديدة سنة: ١٣٩٤هـ، فكان عملاً مشكوراً، والكتاب أثمن ذخيرة تحتوي على حياة الشيخ وسيرته (المؤلِّف).

الناس تنسب إليه أقوالاً لم تكن تمتُّ إليه بصلة ، وتناقلها الناسُ مما أثار العواطف خلافه ، وجعل الناس يُخالفون بكتاباتهم ، وكان في مقدِّمتهم عالم القرن العاشر ومؤلِّفه الشهير العلامة ابن حجر الهَيْتَمِي المكِّي [(١)] ، الذي أصدر فتاوىٰ قاسية على ابن تيمية ، تضمَّنت كلمات نابية مثلاً «عبدٌ خذلهُ الله تعالىٰ ، وأضلَّه ، وأصمَّه ، وأذلَّه».

ولكنَّ عبارة الفتوىٰ نفسها تدل على أن العلامة ابن حجر نفسه لم يطلع على كتبِ ابن تيمية ، وأن معلوماته لم تكن مباشرة وشخصية ، إنما كان جُلُّ اعتماده في ذلك على تلك النقول ، والإشاعات التي تولىٰ إشاعتها ، وترويجها بين الناس معارضوه ، ودسوها في كتبهم ومؤلفاتهم ، وتحدَّثوا عنها في مجالسهم في ذلك العصر ، إنه يقول في نفس الفتوىٰ بعد ما يَنقل تفرُّدات ابن تيمية الفقهية ، والكلامية : «وقال بعضهم : ومَن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل» ويُبدي شكَّه في آخر الفتوى بقوله : «فإنْ صحَّ عنه مُكَفِّر ، أو مبدِّع ؛ يعامله الله تعالىٰ بعدله ، وإلا يغفرُ الله لنا وله».

وقد قام بالردِّ على هذه الفتوىٰ والمحاكمة بين ابن حجر وابن تيمية العلاَّمةُ خير الدين نعمان الآلوسي ابن العلاَّمة محمود الآلوسي صاحب «روح المعاني» في كتابه القيم «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» ، وردَّ على العلاَّمة ابن حجر بتفصيل ، وأثبت: أنَّ جزءاً من هذه المنقولات زُورٌ ، وافتراء محض ، لا أساس له ، فإن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تتضمن بياناً وتصريحاً تعاكس هذه المنقولات ، وتضادها تماماً ، وإنَّ جزءاً خفيفاً جداً من هذه المنقولات

---

(١) [وُلد عام ٩٠٩هـ في مصر ، وتوفي سنة ٩٧٣هـ بمكة المكرمة، وأشهر كتبه «تحفة المحتاج» أربعة أجزاء و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» و«الصواعق المحرقة» و«الفتاوى الفقهية والحديثية»، وابن حجر المكي هذا غير العلامة ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري» ومتأخر عنه، إن ابن حجر العسقلاني إمام شهير في الحديث ومحقق بالغ النظر، يتعذر نظيره في المتأخرين، ولا يدانيه ابن حجر المكي في العلم وسعة النظر ورحابة الصدر والتحقيق].

يحتاج إلى تفصيل؛ إذ أنه لا يتحدث عن الحقيقة التي بينوها ، أو أن ابن تيمية لا يتفرد فيه وحده كما أنه جمع في هذا الكتاب ذخيرةً قيمةً من سيرته وأحواله [١].

ولقد ظلّ العلماءُ المحقِّقون ، والمؤلفون من العلماء المنصفين ، وواسعي النظر يُعارضون ابنَ حجر المكّي في هذا الموضوع، ويُبرئون ابن تيمية ، ويعترفون بنبوغه ، وعلو مكانته في رسائلهم ومؤلفاتهم ، حتى إن تلميذ ابن حجر المكي العلامةُ نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المشهور بالمُلاّ علي القاري [٢] يعارض آراءَه في ابن تيمية ، فإنه يُثني عليه في مؤلفاته ثناء بالغاً ، يقول في «شمائل الترمذي» و«المرقاة شرح المشكاة» :

«ومَن طالع شرح «منازل السائرين» تبين لهُ: أنَّهما[٣] كانا مِن أكابر أهل السنة والجماعة ، ومن أولياء هذه الأمة».

وقد تصدَّرَ في آخر الزمان إمامَ المتأخرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدَّهلوي بالدفاع عن ابن تيمية بكل قوّةٍ ، وصرح بأنه لم يكن عالماً سني العقيدة ، وسلفي المذهب فحسب ، بل كان شارحاً كبيراً ، ومناضلاً قوياً عن الشريعة الإسلامية ، وخادماً مخلِصاً للكتاب والسنة ، وعالماً جليلاً أتحفَ الله به الأمة المحمدية ، كان من نوادر الزمان ممن لا يجودُ

---

(١) طُبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بمصر عام ١٢٩٨هـ، بالحروف الحديدية الدقيقة ويقع في ٣٦٢ صفحة.

(٢) [كان مِن أهل هرات (أفغانستان) ويعتبر من أكابر العلماء الحنفية في عصره، سافر إلى مكة المكرمة حيث توطَّن، وكان من علماء المناسك ، والفقه ، والحديث البارزين ، اشتهر من بين مؤلفاته «المرقاة شرح المشكاة» و«شرح الفقه الأكبر» و«شرح الشفاء» و«شرح شمائل الترمذي» و«شرح النخبة» و«شرح الشاطبية» و«شرح الجزرية» و«خلاصة القاموس» وما إلى ذلك، كانت له قدم في التصوُّف أيضاً، توفي عام ١٠١٤هـ، وصلَّت عليه جماعةٌ كبيرةٌ صلاة الغائب في الجامع الأزهر بمصر].

(٣) [أي: الإمام ابن تيمية، وتلميذه النابغ العبقري: الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمهما الله].

به الدهر إلا بعد قرون ، والذين عارضوه ، وتعقبوا عليه لم يبلُغوا معشار ما آتاه الله من العلم العميق ، والنظر الدقيق .

يقول عنه الشيخ الدَّهلوي تعديلاً لعلماء الإسلام ، وحملة الكتاب والسنة ، ومستشهداً بالحديث الشهير : «يحمل هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدوُله»[1] :

«وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فإنا قد تحققنا من حاله : أنه عالم بكتاب الله ، ومعانيه اللغوية ، والشرعية ، وحافظ لسنَّة رسول الله ﷺ ، وآثار السلف ، عارفٌ لمعانيهما اللغوية والشرعية ، أستاذ في النحو واللغة ، مُحرِّرٌ لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائقٌ في الذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الذَّبِّ عن عقيدة أهل السنة ، لم يُؤثَر عنه فِسقٌ ، ولا بدعةٌ ، اللهم إلا هذه الأمور التي ضُيِّق عليه لأجلها ، وليس شيءٌ منها إلا ومعه دليلُه من الكتاب ، والسنة ، وآثار السلف ، فمثلُ هذا الشيخ عزيز الوجود في العلم ، ومن يُطيق أن يلحق شأوه في تحريره وحديثه ، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ، وما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم ، والواجب في ذلك كَفُّ اللسان إلا بخير»[2] .

---

(١) [أخرجه أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه في «سنن الشاميين» (١/ ٣٤٤) برقم (٥٩٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٤٠): رواه البزار ، وفيه عمرو بن خالد القرشي ، كذَّبه يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، ونسبه إلى الوضع].

(٢) هذه العبارة جزء من رسالة وجهها الشيخ الدهلوي إلى أحد معاصريه المخدوم معين الدين تَهْتَهوِي (تهتهة مدينة بولاية السند). رداً على رسالة له. وقد كان صاحب هذه الرسالة وجه إلى الشيخ الدهلوي بعض الأسئلة حول تفردات ابن تيمية، مشيراً إلى خلافات معارضيه ، وطلب منه أن يبدي رأيه في ابن تيمية، وقد تولىٰ تلميذ الشيخ الدهلوي ومسترشده الشهير الخواجه محمد أمين الكشميري تدوين مجموعة لرسائله، طبعت في المطبعة الأحمدية باسم «مناقب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وفضيلة ابن تيمية» وتوجد نفسُ هذه العبارة المذكورة لرسالة الشيخ الدهلوي في «جلاء العينين» أيضاً.

وبَعد هذه التزكية والشهادة من شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي، وثنائِهِ البالغ على ابن تيمية لا يقام أيُّ وَزنٍ لنقدٍ أو جَرحٍ يصدران من عالم ، أو مؤلف لا يبلغ إلى آفاق ابن تيمية العلمية والفكرية ، وإن كلام الشيخ الدَّهلوي الذي كان قد أكرمه الله بالتبحُّر العلمي، وتنوع الفضائل ، والفكر المجتهد ، وملكة الاعتدال ، والاتِّزان ، وميزة المعرفة لمكانة علماء الإسلام وقيمتهم لهو القولُ الفصل في هذا الموضوع ، ولا أحَدَ يُجيد الدفاع ، والقول أحسنَ مِن هذا .

* * *

الفصل السابع

شيخُ الإسلام ابنُ تيمية كعارف بالله ومُحقِّق

اكتشافٌ جَديد في شَخصية ابنِ تيمية:

عُرف شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ بوجه عام ـ كعالم متكلم ، وفقيهٍ جدليٍّ ، ومُحدِّثٍ كبيرٍ ، ولا يَتخيَّله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية أكثر من أنه كان عالماً ذكياً ، واسعَ العلم ، قوي الحجة ، غزير المادة .

والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامة المؤرِّخين ، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه [١] لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدِّث جافٍّ ، وعالم متبحر في العلوم الظاهرة .

أمّا ما ذكره الحافظ ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين» من أحواله وأقواله بمناسبات شتّى ، وكذلك ما ذكره العلامة الذهبي وأمثاله في ترجمته ، من أخلاقه وأذواقه ، وعاداتِه وشمائله ، وأشغاله وأعماله ، فيدلُّ دلالةً

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنة؛ في كتابه «مدارج السالكين» شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهروي، وأثبت فيه أن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكاناً عالياً في المعرفة والروحانية، والذوق الباطني.

واضحةً على أَنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية يستحقُّ كلَّ الاستحقاق أن يُعدَّ من العارفين، ورجالِ الله في هذه الأمة، وهنالك يَنشرح كلُّ صَدرٍ للاعتراف بأنه كان يتبوأ تلك المكانة، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسّر ـ بوجه عام ـ إلا برياضات شاقة، ومجاهدات طويلة، وتربيةِ أئمة الفن، ودوام الذكر والمراقبة، وذلك ما يُعبّر عنه الصوفية المتأخرون بالنِّسبة مع الله [1]، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

تَنوُّعُ الوسائل، ووَحدة الغاية:

ولا يخفى على أصحاب البصيرة: أنَّ الذوق والمعرفة، والإيمان الحقيقي، واليقين، والإخلاص، والاستقامة، وتَزكية الباطن، وتهذيب الأخلاق، والاتباع الكامل للسنة، والتفاني في الشريعة غاياتٌ حقيقيةٌ مقصودةٌ، تُتخذ لأجلها وسائل مختلفة، وطرق متعددة، ولا يقصُر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة، وقد كان الطريق القويُّ المؤثِّر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الإسلامية صحبة النبي ﷺ؛ التي لا يَجهل تأثيرها وقُوَّتها أحدٌ.

ولمَّا حُرمت أمةُ الإسلام هذه النعمة؛ قام خلفاء النبوة، وأطباء هذه الأمة في عصورهم بطريقة تَنوب عنها، وأخيراً ركزوا جُلَّ عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة وكَثرة الذكر، ولها طريقةٌ مدونة مُنقَّحة تُعرف بنظام التصوف والسلوك.

غير أنه لا مَساغ لإنكار، أن الحصول على هذه الغايات، والمقاصد لا يَتوقف على هذه الوسائل، فإن الإيمان والاحتساب، ومحاسبة النفس، وتتبع السنة، والاشتغال بكتب السنة، والشمائل درساً وتدريساً، وخِدمة ونشراً مع الحُب، والإجلال، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، وخدمة الخلق، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة والتبليغ بصدقِ النية

(١) يعني الصلة الروحية بالتدين.

والاحتساب ، كلٌّ ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد ـ سببٌ للتقرب إلى الله ، وحصـول النسبة معـه؛ إذا صدر عن إيمان واحتساب ، وحُضورٍ ، واهتمام.

ولا مانعَ عن أن تكون الوَسائلُ مختلفةً ، والطرق متعددة ، فإن الغاية واحدةٌ ، ولا شك أنَّ جُملةَ أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية ، وذلك ما أُريد إيضاحَه في السطور التالية:

مِيزانُ كَمال الإنسان ، وآيَةُ بلوغه درجةَ الولاية والتحقيق:

ونَستطيعُ أن نَشهدَ لرجلٍ بأنه كان من العارفين والمحقِّقين الكاملين ، وممَّن وضعَ الله لهم القبول نظراً إلى الأحوال والأذواق ، والعادات التي عاش فيها ، ولا يكونُ له مقياس ظاهرٌ أو دليلٌ منطقيٌّ ، وقد يُخطىء من رُزق سلامة الفطرة ، وصفاء الذوق؛ لكثرة ما يدرسُه من أحوال العارفين ورجال الله ، ويَلزم صُحبتهم بملكةٍ ، ووجدان ، يتمكَّن بهما من الحكم في ذلك.

ولكنْ هناك علامات وأحوالٌ يُدرك بها: أن مستوى هذا الرجل الديني أرفعُ من مستوى عامة الناس ، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله ، وأذواقهم ، وفهم الدين الصحيح مُثَلاً ، وذوقٌ خاص للعبودية ، والإنابة إلى الله ، وتذوُّق العبادة ، والانهماك فيها ، ولذة الدعاء ، والابتهال ، والزهد ، والانقطاع عن الدنيا ، وازدرائها ، وسجية السخاء ، والإيثار ، والتواضع وهضم النفس ، والسكينة والسرور ، والكمال في اتباع السنة ، والقبول في الصالحين ، وشهادة العلماء له ، وتصلُّب أتباعه ومحبيه في الدين ، وحسن سيرتهم ، وما إلى ذلك.

وبهذه المناسبة ننقل للقرَّاء شهاداتِ معاصري شيخ الإسلام ، وما سجَّله المؤرِّخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها.

ذَوقُـه فـي العبوديـة والإنابـة إلـى الله:

إنَّ الذوق الحقيقي الصحيح للعبودية والإنابة إلى الله شهادة جليةٌ على أن قلبَ صاحبه عامرٌ باليقين ، ومغمور بجلال الله وكبريائه ، ومُنوَّر بمشاهدة قُدرة

الله سبحانه وتعالى وجلاله ، وبشعور العجز والضعف أمامه ، وحينما يَرسخ هذا اليقين والمشاهدة في الباطن؛ يتجلَّى ذلك في الأعمال والألفاظ ، والفرق بين الحقيقة والصناعة في ذلك كالفرق بين الأصل والنقل ، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان ، وقد قال الشاعر العربي:

... ... لَيسَ التَّكحُّل في العَينينِ كالكَحَل

والأَحوالُ التي عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد بأنه كان مُتحلِّياً باليقين والمشاهدة ، التي بَعثتْ فيه صفةً من الافتقار والاضطرار ، والعبودية والإنابة.

وقد رُوي أنه إذا أشكلتْ عليه مسألة أو صَعُب فهمُ آية؛ التجأ إلى مَسجد مهجور، ووضع جبهته على التراب، وردد قوله: «يا معلِّم إبراهيم! فهِّمني»[١].

يقول العلاَّمةُ الذَّهبي:

«لم أرَ مثلَه في ابتهاله ، واستغاثته ، وكثرة تَوَجُّهه» ويقول: «إنه ليقف خاطري في المسألة ، أو الشيء ، أو الحالة التي تُشكل عليَّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة ، أو أكثر ، أو أقل ، حتى يَنشرح الصدر ، وينجلي إشكال ما أشكل».

ولا يَحُول دون هذه الحالة نوعٌ من الجَلوة ، والمجالس ، وصَخب الأسواق يقول:

«وأكونُ إذ ذاك في السوق ، أو المسجد ، أو الدروب ، أو المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر ، والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»[٢].

وعندما ينشأ هذا اليقينُ ، وذَوقُ العبودية في النفس ، ويتمكن في الباطن يَشعر الإنسان بعجزه ، وافتقاره ، وضَعْفِهِ ، وقِلة بضاعته ، ويتمثل كأنه واقف

---

(١) العقود الدرية: ص٦.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

على الباب الملكي بكَشكُوله [١] الفارغ ، ويستَجدي من الله رحمته ، وفضله .

وحياةُ ابن تيمية ، وما ذُكر له من أحوالٍ ، وأقوالٍ ، ومواقفَ تشهد بأنه كان يَنعم بنِعمة الفقر ، وعزة التذلُّل.

يقول ابنُ القيم : «إنَّني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص بمثل ما شاهدته في شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول: «مالي شيءٌ ولا مِني شيءٌ ، ولا فيَّ شيءٌ» ، وطالما كان ينشد البيت التالي :

أنا المُكَدِّي وابن أَلْمُكَدِّي وهكذا كانَ أبي وجَدِّي» [٢]

تَذوُّق العبادة ، والانهماكُ فيها:

لا يستطيع أَيُّ إنسان أَن يتذوق العبادة ، وينهمك فيها ما لم يشعر بلذَّتها ، وَيَذُق طعمها [٣] ، وما لم تحتل العبادة محلَّ الدواء ، والغذاء ، والقوت ، ويصل إلى درجة تصبحُ الصلاة فيها لعينهِ قُرَّةً ، ولروحه مسرةً.

أمَّا الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصرُوه والمطَّلعون على أحواله بأنه كان له القدح المعلَّىٰ في هذه الثروة الغالية ، وكان له ذوق خاص في العبادة ، والمناجاة والخلوة ، وكان شديد الشغَف بهذه الناحية ، عظيم الانهماك فيها.

جاء في «الكواكب الدرية» :

«وكان في ليلهِ منفرداً عن الناس كلِّهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً إليه ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مُكرراً لأنواع التعبدات الليلية ، والنهارية ،

---

(١) وعاء المتسوّل الذي يجمع فيه رزقه.

(٢) مدارج السالكين: ج١ ص ٢٩٦، طبعة «المنار».

(٣) [وقد ورد في الحديث: «جعلت قرَّة عيني في الصلاة» (أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٢٠) برقم (١٠١٢) عن المغيرة بن شعبة ، وفي الصغير (٢/ ٣٩) برقم (٧٤١) عن أنس بن مالك) وكان النبي ﷺ يقول: «يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها» (أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة ، برقم (٤٩٨٥) ، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) برقم (٦٢١٤) وغيرهما من حديث مسعر)].

وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يَمنـةً وَيسرةً» [١].

ولا شكَّ في أَنَّ قـوت أصحـاب الـذوق ، وأهـل القلوب ونشاطهم ، إنمـا يقوم على الذكـر والعبـادة ، فإذا اختـلَّ ذلك؛ انهـارت قُواهـم ، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة ، يقول ابنُ القيم:

«وكان إذا صلَّى الفجرَ يجلس في مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول هذه غَدوتي لو لم أتغدَّ هذه الغدوة سقطت قواي» [٢].

ويَرزقُ الله سبحانه وتعالى الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام ، فيصبح الذكرُ والعبادة ، والمواظبةُ عليهما طبيعةَ الإنسان.

يقول العلامةُ الذهبي: «له أورادٌ وأذكارٌ يُدمنها بكيفية ، وجَمعية» [٣].

الزُّهدُ في الدنيا ، وازْدِراؤُها:

لا يَنبعثُ الدافع الصحيح الخالص للزُّهد في الدنيا وازدرائها ما لم تنكشف حقيقةُ الدنيا بوضوح ، وما لم يطرأ على المرء حال: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الشورى: ٣٦]، وذلك لا يتحقق بدون اليقين ، والمعرفة الصحيحة ، والاتصال بالله.

وقد ذكر مُعاصروه أحوال زُهدَ شيخ الإسلام وتجرده من الدنيا ، وافتقاره إلى الله.

يقول زميلُه في الدراسة ومعاصره الشيخُ علم الدين البَرْزالي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ: «وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر ، والتقلُّل من الدنيا ، وَردِّ ما يُفتح به عليه» [٤].

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.
(٢) الرد الوافر: ص ٣٦.
(٣) المرجع السابق: ص ١٨.
(٤) المرجع السابق: ص ٦٥.

ومَن انصبغ بهذه الصبغة ، ورَزقه الله نِعمة غنى القلب الخالدة؛ تلاشت في عينه مملكة كسرى ، وقيصر ، ورأى النظر إليها كفراناً بنعمة الله تعالى ، وجحوداً لمِنَّتِهِ ، وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه:

«إنَّني لا أرضى بإعطاء مُسوحي عوضاً عن حالة الملوك ، ولا أرضى ببيع فقري بملك سليمان ، إنَّ الثروة التي نِلتها في آلام الفقر لن أرضى باستبدالها بتنعُّم الملوك».

ومَن جَهِلَ حالَه يُسيء به الظن ، ويتَّهمه بالطمع في الملك ، والحكم ، ولكنه يتأسَّف على جهله وفساد ذوقه ، ويقول: «كيف يمكن النظر إلى هذا المُلْكِ الفاني بعد هذه الثروة الغالية ، والنعمة الخالدة؟».

وقد كانت هذه قصةُ الشيخ ابن تيمية ، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة: سمعتُ بأن الناس أطاعوك ، وأنت تفكر في الحصول على المُلْكِ ، فردَّ عليه الشيخ قائلاً بصوت عالٍ سمعه الناس الحاضرون كلُّهم:

«أنا أفعل ذلك؟! والله إنَّ مُلكَك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً!» [1].

السَّخاء والإيثار:

وممَّا يتصف به رجالُ الله ، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة ، هو السَّخاء ، والإيثار ، وقد بسطَ الحافظ ابن القيم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه: «زاد المعاد» وذكر ما للإحسان إلى الخَلْق ، ونفعهم بالمال والجاه ، والبدن من التأثير العميق في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب [2].

وقد اعترفَ معاصروه ، وأَحِبَّته بسخائه ، وأثنوا على جوده ، وإنفاقه ،

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٦٦.

(٢) راجع زاد المعاد: ج٢ ص ١٥٤ـ طبع المطبعة المصرية.

وقد جاء في «الكواكب الدرية»: «وهو أحد الأجواد الأسخياء؛ الذين يُضرب بهم المثل»[(١)].

ويتحدَّث الحافظُ ابن فضل الله العُمري، أحدُ معاصري الشيخ عن جُوده وسخائه، فيقول: «كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، فيهبُ ذلك بأجمعه، ويَضعهُ عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليَهبه، ولا يحفظه إلا ليُذهبه»[(٢)].

وقد بلَغَ من السخاء والإيثار أن كان يَخلع ما كان عليه من ثياب، ويُقدِّمها إلى السائل إذا لم يجد شيئاً آخر، يقول الحافظُ ابن فضل الله: «كان يتصدَّق، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه، فيَصِلُ به الفقراء»[(٣)].

ويقول أحدُ الرواة: «وكان يتفضَّل من قوته الرغيفَ، والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسه»[(٤)].

ومِن مواقف الإيثار المُحرجة أن يعامل المرءُ أعداءه ومعارضيه برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء، والنصح، وهذا منصبٌ خطيرٌ لا يناله إلاَّ من تجاوز حدودَ الكبر، والأنانية، ونسي نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عِداء، ومعارضة، فيجدُ قلبه عامراً بدافع النصح، والرِّثاء لأعدائه.

وقد سبقَ أنه عندما أُطلق سراحه في سنة ٧٠٩ هـ مرة أخرى خلا به السلطان، واستفتاه في قتلِ أولئك القضاة الذين قاموا بحماية «جاشنكير» وأفتوا بعزل السلطان، وزاد له السلطان قائلاً: إنهم أثاروا عليك الضَّجة، والأقاويل، وآذَوك، فما وسع ابن تيمية إلا أن مَدحهم، وأثنى عليهم أمام

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٤٦.
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٨.
(٣) المرجع السابق: ص ١٥٧.
(٤) المرجع السابق: ص ١٥٧.

السلطان ، وشفع لهم بالعفو ، والصفح عنهم ، ومَنَعه عن قتلهم .

وقد مدحه القاضي ابنُ مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضي شيخ الإسلام ومنافسيه ، بقوله : «ما رأيتُ كريماً واسعَ الصدر مثل ابن تيمية ، فقد أثرنا الدولة ضدَّه ، ولكنَّه عفا عنَّا بعد المقدرة ، حتى دافع عن أنفسنا ، وقام بحمايتنا» .

يقول تلميذُه النجيب ، ورفيقه في كلِّ آنٍ[1] : «كان يدعو لأعدائه ، ما رأيتُه يدعو على واحدٍ منهم ، وقد نَعيتُ إليه يوماً أحد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه ، وعدائه ، فزجرني ، وأعرض عني ، وقرأ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وذهب لساعته إلى منزله ، فعزَّى أهله ، وقال : «اعتبروني خليفةً له ، ونائباً عنه ، وأساعدُكم في كل ما تحتاجون إليه ، وتحدث معهم بلطفٍ ، وإكرام بعثَ فيهم السرور ، فبالغ في الدعاء لهم حتى تعجَّبوا منه» .

إنَّ مكانة العفو ، والإحسان ، والشفقة ، والرحمة مع الأعداء أرفع ، وأسمى من مكانة الإيثار المالي ، والمادي بكثير ، إنها مكانة لا يَسعَدُ بها إلا الأولياء ، والصديقون ، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة ، وكأنه كان يُنشد بلسان حاله ما أنشده الشاعر الربَّاني الذي سَعد بهذه المكانة بالفارسية وهذا معناه :

«إنَّ مَن ضاق صدره عن مودَّتي ، وقَصُرَتْ يدُهُ عن معونتي ؛ كان الله في عَونه ، وتولى جميع شؤونه .

وإن كل من عاداني ، وبالغ في إيذائي لا كدّر الله صفو أوقاته ، ولا أراه مكروهاً في حياته .

وإن كل من فرش الأشواك في طريقي ، وضيَّق عليَّ السبل ؛ ذُلل له كل طريق ، وحالفه النجاح والتوفيق» .

---

(١) [أي : الحافظ ابن قيِّم الجوزية].

التَّواضُع وهَضْمُ النَّفس:

إنَّ التواضع وهَضْمَ النفس من خصائص رجال الله الخاصة ، وهو المنصِب الأعلى في الدين ، أفضلُ من ألف فضيلة وألفِ كرامة ، ولا يبلغ الإنسانُ هذه المنزلة ، إلا أن تموت الأنانية ، ويتزكَّى قلبهُ من جميع الشوائب والعلائق ، وقد كان شيخ الإسلام مُتحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية ، وسُموِّه الديني ، والعلمي ، وأقوالُه تشهد بما كان يتصف به من التواضع ، والربانية ، وهضمِ النفس.

يقول الحافظ ابنُ القيم: إنه كثيراً ما كان يقول: «مالي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء». وإن مدَحه أحدٌ في وجهه ، قال: «والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت ، وما أسلمتُ بعد إسلاماً جيداً» [١].

وقد يقول لمَن مدحه: «أنا رَجل مِلَّةٍ ، لا رجل دولةٍ» [٢].

وإذا بلغ الإنسانُ إلى هذه المنزلة من العبودية ، وهضم النفس لا يرى له حقاً على أحد ، ولا يُطالبه بشيء ، ولا يعاتب أحداً ، ولا ينتقم لنفسه في أيِّ حال ، وقد بلغ به الله هذه الدرجة.

يقول ابن القيم:

«سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: «العارف لا يَرى له على أحد حقاً ، ولا يشهدُ على غيره فضلاً ، ولذلك لا يُعاتب ، ولا يطالِب ، ولا يضارب»[٣] ويَعلَم المطَّلعون على أحواله جيداً: أنه في ذلك إنما يتحدَّث عن نفسه ، ويحكي حاله».

---

(١) مدارج السالكين: ج١ ، ص ٦٩٦.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٦٤.

(٣) مدارج السالكين: ج١ ، ص ٤٩٦.

السَّكينـةُ والسُّـرور:

وبعدَ هذا الإيمانِ ، واليقينِ ، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى ، والتحرر من الخلق ، وانطلاقِ القلب من القيود المادية يحصُل للعارف السكينة ، والسرور ، يذوق بهما لذة النعيم والجنة في الدنيا .

ويقول ابنُ القيم : إنَّ شيخ الإسلام قال مرة :

«إنَّ في الدنيا جنة ، مَنْ لَمْ يَدخُلها لم يدخل جنة الآخرة» [١] .

ولا يخفى على أهل البصيرة : أنَّ عباد الله تعالى المخلصين ينطبقُ عليهم وصف الله تعالى لعباده المكرمين : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] يذوقون هذه اللذة ويرون نموذجها في الدنيا ، ولا شكَّ أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة ، كما ذكر أصحابه ، وقد قال مرَّةً في حماس :

«ما يصنع أعدائي بي؟! إنَّ جنتي وبستاني في صدري ، إنْ رحتُ فهي معي لا تفارقني» [٢] .

وظلَّت نسبةُ السكينة والرضا هذه ، لا تُفارقه في حياته ، وبعد مماته ، يقول ابن القيم :

زرتُه ذات ليلة في الرؤيا ، وذكرتُ له بعض الأعمال القلبية ، فقال : «أمَّا أنا فطريقي الفرحُ والسُّرور به» [٣] .

ويقول ابنُ القيم في «مدارج السالكين» : «هكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، وينادي به عليه حاله» [٤] .

---

(١) الرد الوافر : ص ٣٦ .
(٢) الوابل الصيِّب : ص ٦٦ .
(٣) إغاثة اللهفان .
(٤) مدارج السالكين .

الكَمالُ في اتّباع السنـة:

وتبتدىءُ هذه المكانة (مكانة القبول والولاية) باتِّباع السنة ، وتنتهي بكمال اتباع السنة ، وقد اعترفَ الناس جميعاً حتى الأعداء بشغفِ شيخ الإسلام بالسنة ، وانهماكه في الحديث ، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً ، أو نظرياً فقط ، وإنما كان يتصل بالسنة عملياً ، وفي الظاهر .

وقد شهدَ مُعاصروه : أنهم لم يَروا جَلال مكانة الرسول ﷺ والاهتمام باتباع سنته عند أحد من العلماء مثل ما رأوا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية .

يقول الحافظ سراج الدين البزَّاز ، وهو يُقسمُ بالله :

«لا وَاللهِ ما رأيت أحداً أشدَّ تعظيماً لرسول الله ﷺ ، ولا أحرصَ على اتباعه ، ونصْرِ ما جاء به منه»[١] .

وقد كانت هذه الناحيةُ تستحوذ عليه ، وتُسيطر على قلبه ، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتِّباعه للسنة ، وحُبِّه العميق للرسول ﷺ .

يقول العلاَّمة عماد الدين الوَاسِطي :

«ما رأينا في عصرنا هذا من تُستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يَشهد القلب الصحيح : أنَّ هذا هو الاتباع حقيقةً» [٢] .

وهنالك مُقتطفاتٌ من كلام شيخ الإسلام الملتقطة من موسوعة معارفه المسماة بـ«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ، تَدل على إقراره بحقيقة السلوك وضرورته ، وعُمق نظره ، ورُسوخ علمه فيه ، يقول رحمه الله :

«فإنَّ السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات ،

---

(١) الكواكب الدرية : ص ١٤٩ .

(٢) جلاء العينين : ص ٨ .

والعبادات ، والأخلاق ، وهذا كُلُّه مُبيَّن في الكتاب والسنة ، فإن هذه منزلةُ الغذاء الذي لا بُدَّ للمؤمن منه» [١].

ويقول: «وفي السلوك مسائلُ تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسَائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصةٌ في الكتاب والسنة» [٢].

ومِن إفادته: «وكذلك من بنى الإرادة ، والعبادة ، والعمل ، والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية ، والأعمال البدنية على الإيمان ، والسنة ، والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه؛ فقد أصابَ طريق النبوة ، وهذه طريق أئمة الهدىٰ» [٣].

ومِن مَعارفه: «أعمالُ القلوب التي تسمى (المقامات والأحوال) مثلُ محبة الله ورسوله ، والتوكل عليه ، وإخلاص الدين له ، والشكر ، والصبر على حكمه ، والخوف ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك واجبة على جميع الخلق: خاصتهم وعامتهم ، للخاصة خاصَّتُها ، وللعامة عامتها ، تتفاوت أحوال القلوب ، وصفاتها» [٤].

قَبولهُ في الصالحين ، وشهادةُ علماءِ عصره له:

إنَّ ثناء حَشْد من الناس على رجل لا يُعتبر دليلاً على قبوله عند الله ، واستقامتهِ وعلو منزلته ، أمَّا إذا شهد له رجال العلم والبصيرة ، وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره ، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله ، وعلو منزلته ، ولا بد من أن يتَّصف أتباعه ، ومحبوه ، وجلساؤه بالصلاح والسداد ،

(١) جلاء العينين: ج١٩، ص ١٧٣.
(٢) المرجع السابق: ج١٩، ص ٢٧٤.
(٣) المرجع السابق: ج ١٩، ص ١٧٣.
(٤) المرجع السابق: ج ١٠، ص ٢١.

وحسن الاعتقاد والتقوى ، والاهتمام بالآخرة ، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تديُّنهم ، وحسن سيرتهم.

وهذا كان شأنُ شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد شهد بفضله ، وصحة اعتقاده ، وسلامة عقيدته ، ومكانته العالية كبارُ رجال العلم ، والبصيرة ، وأصحابُ الصلاح ، والرشد في عصره ، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك ، فمدحوه ، وأثنوا عليه ، أما معارضوه؛ فقد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة ، ويطلبون الدنيا ، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً[١].

يقول مؤلِّف «الكواكب الدرية» :

«قالوا: ومَن أَمعن النظر ببصيرته ، لم ير عالماً من أهل أيِّ بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أَتْبع علماء بلده للكتاب والسنة ، وأشغلهم بطلب الآخرة ، والرغبة فيها ، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا ، والإهمال لها ، ولا يَرى عالماً مخالفاً له ، مُنحرفاً عنه إلا وهو من أكبرهم تُهمة في جمع الدنيا ، وأكثرِهم رياءً وسمعة ، والله أعلم»[٢].

ويقول العلاَّمةُ الذهبي: «وأُخيف في نَصْر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى منارهُ ، وجمعَ قلُوبَ أهل التقوى على محبَّتِهِ ، والدعاء له»[٣].

الفِراسة والكَرامة:

وبالرَّغم من أنَّ الكُشوف والكرامات ، لا تعد جزءاً من الولاية ، والقبول ، ولا دليلهما ، وقد أوضح المحققون ، فقالوا: «الاستقامة فوق الكرامة» ، وهي قَضيةٌ لا تقبل الجدل.

ولكنَّ الحقيقة: أن الله سبحانه وتعالى يُنعم على كثير من عباده المخلصين

(١) ويستثنئ من هذه الكلية من عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عام إلا وقد خص منه البعض.

(٢) الكواكب الدرية: ص ١٦١.

(٣) جلاء العينين: ص ٦.

بهذه النعمة ، فتظهر من أيديهم ، أو ألسنتهم وقائعُ تؤيد قبولهم ، ووجاهتهم عند الله ، والناس.

وقد اتفق أهلُ السنَّة على أن «كرامات الأولياء حق» ، وتؤيِّد ذلك بعض الوقائع ، والشواهد في الكتاب والسنة أيضاً.

وقد جاء في مؤلَّفات شيخ الإسلام إثبات هذه الحقيقة ، وتقرير هذه المسألة.

وقد شهد معاصروه ، وتلاميذُه ، ومحِبُّوه بتلك الوقائع التي حدثت كخَرْقٍ للعادة والكرامة ، واعترف بها المتأخِّرون ، وقالوا: لا يمكن إنكارها لكثرة ما عُرفت ، ونقلت.

يقول العلاَّمة بدر الدين العيني ، صاحب «عمدة القاري ، شرح صحيح البخاري» في «تقريظ الرد الوافر» :

«وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نُقلت عنه على لسان جَمٍّ غفير من الناس كراماتٌ ظهرت منه بلا التباس»[1] .

والفِراسة الصادقةُ من هذه الكرامات التي يُكرم الله بها عباده المتقين وكبار المؤمنين ، وتُحكَى لهذه الفراسة حكاياتٌ عجيبة ، ذكر الحافظ ابن القيم[2] ، طائفةً منها في كتابه «مدارج السالكين» :

«ولقد شاهدتُ مِن فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة ، وما لم نُشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعي سِفراً ضخماً».

ونظراً إلى كل ذلك قال العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهَرَوِي المتوفَّى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤ هـ: «ومن طالع شرح «منازل السائرين» تبين

(١) الرد الوافر: ص ٩٨.
(٢) مدارج السالكين: ج٢، ص ٢٥٠.

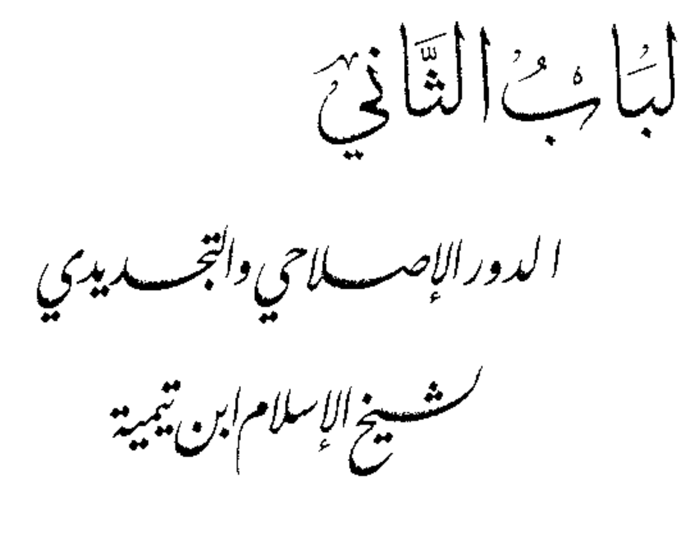
له: أنهما [١] كانا من أكابر أهل السُّنة، والجماعة، ومن أولياءِ هذه الأمة» [٢].

وقال شيخُ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي المعروف بولي الله المحدِّث (م ١١٧٦ هـ)، في كلام طويل:

«مثلُ هذا الشيخ عزيزُ الوجود في العالم، ومَن يُطيق أن يلحق شَأوه في تحريره، وتقريره، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما أعطاه الله تعالى» [٣].

* * *

(١) [يعني شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيِّم الجوزية].
(٢) المرقاة شرح المشكاة: ج ٤، ص ٤٢٧.
(٣) التفهيمات الإلهية: لشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي.

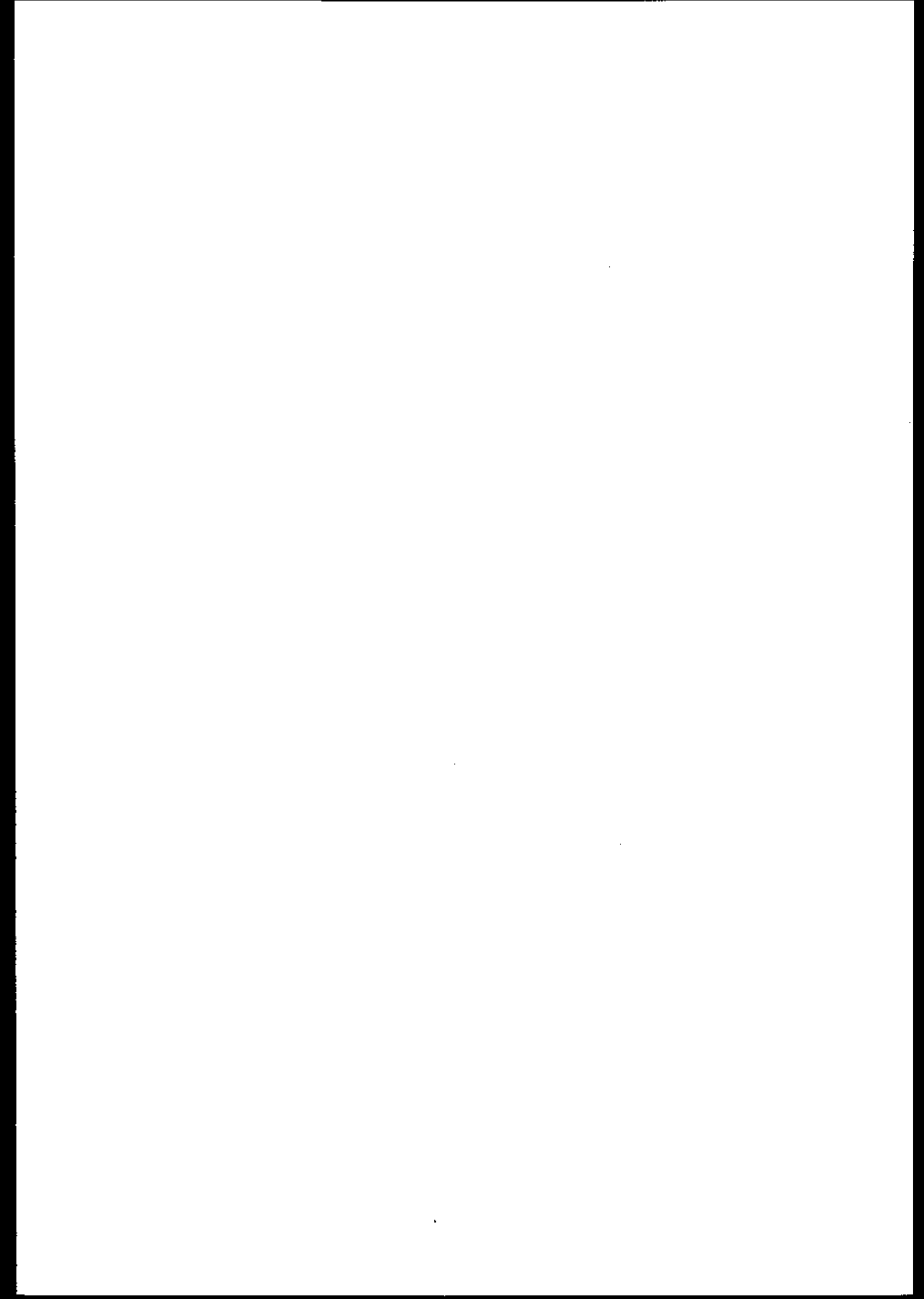


الفصل الأول: تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد الشركية.

الفصل الثاني: نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبها على كل منهج وأسلوب.

الفصل الثالث: الرد على الفرق والملل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها.

الفصل الرابع: تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي.



أركان الإصلاح والتجديد الأربعة في حياة شيخ الإسلام ابنِ تيمية

الدَّور الذي مثَّله شيخُ الإسلام ابن تيمية في تاريخ الإسلام الدعويِّ الفكريِّ ـ وإن كان ذا جوانب علمية وعملية كثيرةٍ ـ يمكن توزيعه في أربعة أجزاء ، تلك التي لها أهميةٌ خاصة في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وهي كما يلي :

١ ـ تجديدُ عقيدةِ التوحيد ، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة .

٢ ـ نَقْدُ الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وترجيحُ منهج الكتاب والسنة ، وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب .

٣ ـ الرَّدُّ على الفرق ، والمِلَل غير الإسلامية ، ومقاومة عقائدِها ، وتقاليدها ، وتأثيرها .

٤ ـ تجديدُ العلوم الشرعية ، وبعثُ الفِكر الإسلامي .

الفصل الأوَّل

تجديد التوحيد
وإبطالُ العَقائدِ والتقاليد الشركية

العقائد والتقاليد في عهد ابن تيميّة:

كانت العقائدُ والتقاليدُ المشركة قد نالتْ رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين ، والعَجم ، ونُفوذ الحكومة الباطنية ، وتأثيرها ، وانتشار تعليماتِ الجهلَة ، والضالة من الصوفية وأعمالهم.

فقد وُجد عددٌ وجيهٌ من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ، ومشايخهم ، والأولياء ، والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ، ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود ، والنصارى في عُزير ، والمسيح عليهما السلام ، وأحبارهم ، ورُهبانهم.

وكلٌّ ما كان يدور حول قبور الأولياء ، والمشايخ إنما كان تقليداً ناجحاً للأعمال ، والتقاليد التي كانت تُنجز في معابد غير المسلمين ، وقبور المقدسين عندهم ، فالاستغاثة بهم ، والاستعانة بهم ، ومَدُّ يد الطلب ، والضراعة إليهم ، كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم.

كما عمَّت عادةُ بناء المساجد الفخمة على قبورهم ، وجَعلِها مسجداً ، وعَقْدُ المهرجانات عليها عاماً فعاماً ، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها.

وقد تفاقمتْ هذه العقائدُ السيئةُ ، وانتشرت هذه البدع ، والمنكرات في أواخر القرن السابع بشكل فظيع ، ولكي نُقدّر مدى هذا الفساد نُقدِّم مقتطفات من مؤلفات شيخ الإسلام وكتاباته نفسه ، فقد تناول فيها ذكر بعض الضلالات الشائعة في عصره ضِمن بحث أو رَدٍّ على سؤالٍ ، وهي تشير بعض الشيء إلى الانحطاط الديني ، والهجمات التي شنتها الجاهلية على قلب الإسلام في ذلك العصر ، يقول:

«وآخرون قد جعلوا الميِّتَ بمنزلة الإله ، والشيخَ الحيَّ المتعلِّق به كالنبيِّ ، فمِن الميتِ يُطلب قضاء الحاجات ، وكشف الكُربات ، وأما الحيُّ فالحلال ما حلَّله ، والحرام ما حرَّمه ، وكانوا في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهاً ، وعزلوا محمداً ﷺ عن أن يتخذوه رسولاً ، وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام أو التابعُ لهم لحُسن الظن بهم ، أو غيره يطلب من الشيخ الميِّت إما دفعَ ظُلم ملك يريد أن يظلمه ، أو غير ذلك ، فيدخل ذلك السادن فيقول: قد قلت للشيخ ، والشيخُ يقول للنبي ، والنبي يقولُ لله ، والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان ، فهل هذا إلا محض دين المشركين ، والنصارى؟! وفيه من الكذب والجهل مالا يستجيزُه كل مشرك ، ونصراني ، ولا يروج عليه ، ويأكلون من النذور ما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به في معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩]»[1].

عبادة القُبور السافرة:

«فطائفةٌ مِن هؤلاء يُصلُّون إلى الميت ، ويَدعو أحدُهم الميِّتَ ، فيقول: اغفرْ لي ، وارحمني ، ونحو ذلك ، ويسجد لقبره.

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٨.

ومنهم من يستقبل القبرَ، ويُصلِّي إليه مستدبراً الكعبة ويقول: القبرُ قِبلة الخاصة، والكعبة قِبلة العامة، وهذا يقولُه من هو أكثرُ الناس عبادة وزهداً وهو شيخ متبوعٌ، ولعله أمثلُ أتباع شيخه يقوله في شيخه.

وآخَر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق، والاجتهاد في العبادة، والزهدِ يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ، فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل.

وجمهورُ هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرّقة، والخشوع، والدعاء، وحضور القلب ما لا يجد أحدهم في مساجد الله تعالى التي أذن أن تُرفع ويذكر فيها اسمُه »[1].

يَخشَونَ القبُور وأصحابها ولا يخشَونَ الله:

«حتى إن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتَحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قُبة الميت، أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه: ويْحَك هذا هلال القبة، فيخشون المدفون تحت الهلال، ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض، وجعل أهلّة السماء مواقيتَ للناس، والحج.

وهؤلاء إذا نُوظروا خوَّفوا مناظِرَهم كما صنع المشركون بإبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٥.

الاستخفافُ بشعائر الله والاستهزاءُ بالله:

«وهؤلاء الذين اتَّخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته ، ويُعظّمون ما اتخذوه من دون الله شفعاءَ؛ حتى إن طوائف منهم يستخفُّون بحج البيت وبمن يَحجُّ البيت ، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت ، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة ، وآخرون يسْتخفون بالمساجد ، وبالصلوات الخمس فيها ، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى يونس القيسي حتى إنهم ينشدون:

تعالوا نخربِ الجامعْ ونَجعَلْ فيه خَمَّارَه
تعالوا نَكْسِر المِنبَر ونَجْعَل منه طِنْبَارَهْ
تعالوا نَخْرِقِ المُصحَفْ ونَجعْلْ مِنهُ زَمَّارَه
ونَنْتِفْ لِحيةَ القَاضي ونَجْعَلْ منهُ أوتارَهْ[1]

وَقَاحَةُ المُشركين وجُرأتُهم:

«ويَحلِفُ أحدُهم اليمين الغموس كاذباً ، ولا يجترىء أن يحلف بشيخه اليمين الغموس كاذباً ، ومنهم من يقول: كل رزق لا يرزقه إياه شيخه لا يريده ، ومنهم من يذبح الشاة ، ويقول: باسم سيدي ، ومنهم من يقول: إن شيخه أفضل من الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من يعتقد فيه الإلهية كما يعتقده النصارى في المسيح ، فإذا ذكروا شيخهم؛ عظَّموه ، وادعوا فيه الإلهية ، وأنشدوا على لسانه:

مُوسىٰ على الطُّور لما خَرَّ لي ناجىٰ وصاحِبُ التُّرب أنا جئتُه حتى جا

ولهم أيضاً:

وأنا صرخْتُ في العرش حتى ضجّ وأنا حملتُ على علي حتَّى هج
وإنَّ البحار السبعة من هَيْبتي تَرتَجّ»

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٥١.

العَقيدة بألُوهية المشايخ:

«وهؤلاء يجعلون الرسلَ ، والمشايخ يُدبرون العالم بالخلق ، والرزق ، وقضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، وهذا ليس من دين المسلمين ، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده لشُبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقولوا ذلك في إبراهيم ، وموسى ، وغيرهما من الرسل مع أنهم في غاية الجهل في ذلك» (١).

«ومِن هؤلاء مَن يظن: أن القبر إذا كان في مدينة ، أو قرية؛ فإنهم ببركته يُرزقون ، وينصرون ، وأنه يندفع عنهم الأعداء ، والبلاء بسببه ، ويقولون عمن يعظمونه: إنه خفير البلد الفلاني ، كما يقولون: السيدة نفيسة خفيرة مصر القاهرة ، وفلان ، وفلان خفراء دمشق ، أو غيرها ، وفلان خفير حران ، أو غيرها ، وفلان ، وفلان خفراء بغداد ، أو غيرها ، يظنون: أن البلاء يندفع عن هذه المدائن والقرى بمن عندهم من قبور الصالحين ، أو الأنبياء» (٢).

«حتى إنَّ العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجُون عندها كشف ضرِّهم ، وقال بعضُ الشعراء:

يــا خَــائفيــنَ مِــنَ التَّتَــرْ ... لُــوذوا بقَبْــرِ أبــي عُـمَــرْ

أو قال:

عُــوذُوا بقَبْــرِ أبــي عُمَــرْ ... يُـنجِيكُــمُ مِــنَ الضَّــرَرْ

فِتنَةُ المَشاهد:

وكانت النتيجةُ الحتميةُ لهذا الإجلال والتعظيم أن تتزايد أهميةُ المشاهد بإزاء المساجد ، وتتحوَّل المشاهد مزارات الجهلة ، ومراكز قضاء الحاجات ، والاستغاثة بها لدى هذه الطبقة ، فقد انتشرتْ هذه المشاهدُ ، والمزاراتُ في

---

(١) الرد على البكري: ص ٣٢٨.
(٢) الرد على الأخنائي: ص ٨٢ ـ٨٣.

كل ركن من أركان العالم الإسلامي ، ووُجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة ، وتصدَّى الأمراء ، والسلاطين لوقف الممتلكات والأراضي الواسعة عليها ، وأقيمتْ عمارات ضخمة ، وقباب فخمة في أمكنة هذه القبور ، ومشاهد المشايخ ، كما وُجدت أمة بأسرها من العاكفين ، والكنَّاسين ، والخدم لهذه القبور ، ونالتِ الرحلة إليها كلَّ إعجاب ، واهتمام ، حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات بعيدة تضارع قوافل الحجيج إلى بيت الله ، بل تفوقها بعض الأحيان في الشوكة ، والزينة ، وتحوَّل إقبالُ عامة المسلمين من المساجد إلى هذه المشاهد.

وفي القرنين السابع ، والثامن دخلتْ هذه المشاهدُ ، والضرائحُ في حياة المسلمين الدينية ، ونالت عندهم من القبول ، والمركزية ما جعلها تُنافس بيت الله ، وتتحدَّاه ، ونستطيع أن نقدِّر مدى خطورة فتنة المشاهد هذه ، وتَغلغل جذورها في أحشاء المجتمع ، وكم كان للجَهلة من المسلمين ، والانتهازيين من علاقةٍ عميقة بها عن طريق كتابات ابن تيمية ، ومؤلفاته.

ومن الأسباب التي أدَّت دوراً هاماً في توسُّع هذه الفتنة ، وتأصلها: أن الدولة الباطنية [١] حكمت قروناً طويلة في رُقعة تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر والشام ، وما يعرفه الجميع: أن أهل الرفض والتَّشيّع كانوا يتصلون بالمشاهد أكثر منهم بالمساجد ، وبالنجف ، والكربلاء ، والمشهد أكثر منهم بالحرمين الشريفين.

ولو أنَّ دولة مصر الفاطمية كانت قد انتهت قبل ولادة ابن تيمية ، إلا أن تأثيرها الفكري والحضاري لم ينته بعد ، وبخاصة في الشام فقد وُجد فيها عدد كبير من الشيعة ، والباطنية ممن لم تكن صحبتهم تخلو من تأثير سيِّئ على العامة والجهلة من المسلمين.

كما أنَّ التصوُّف الدخيل الذي ابتعد عن تعاليم الإسلام في العصر الأخير

---

(١) وتعرف بوجهٍ عامٍّ باسم الدولة الفاطمية ، والحقيقة أنها دولة العبيدية.

الذي تحتل فيه المشاهد والضرائح محلاً خاصاً من الأهمية والتقديس ، وتنعقد عليها اجتماعات سنويـة ، سبَّبت ازدهارها ، حتى غدت وسيلة كبرى من وسائل الشرك ، والبدع، يقول الإمام ابن تيمية وهو يتحدث عن هذه المشاهد والقبور:

الحَـجُّ إلـى المشاهـدِ والقبور:

«وآخرون يَحجُّون إلى القبور ، وطائفةٌ صنَّفوا كتباً ، وسمَّوها مناسك حجِّ المشاهد ، كما صنَّف أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقَّب بالمفيد أحد شيوخ الإمامية كتاباً في ذلك ، وذكر فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفةٌ بالنقل ، وآخرون يُسافرون إلى قبور المشايخ ، وإن لم يُسمَّوا ذلك منسكاً وحجاً ، فالمعنى واحد ، ومن هؤلاء من يقول: وحقِّ النبي الذي تحجُّ إليه المطايا ، فيجعلُ الحج إلى النبي لا إلى بيتِ الله عز وجل» [(١)] .

التَّرجيح علـى الحـجِّ إلـى الكعبـة:

«ومِن هؤلاء من يُرَجِّحُ الحج إلى المقابر على الحجِّ إلى البيت ، لكن قد يقول أحدهم : إنك إذا زُرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً؛ كان كحجةٍ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات ، يُسافرون إليها وقت الموسم ، يُعرِّفون بها كما يُعرِّف المسلمون بعرفات ، كما يفعل هذا في المغرب ، والمشرق.

ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يُعظمه أفضل من الحج ، ويقول أحد المريدين للآخرين وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق : أتبيعُني زيارة قبر الشيخ بالحِجج السَّبع؟ فشاور الشيخ : فقال: لو بعتَ؛ لكنتَ مغلوباً ، ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعاً كان كحجة» [(٢)] .

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٩٦.

الإعراضُ عن المساجد والاهتمام بالمشاهد:

«وكثيرٌ مِن هؤلاء يُخرِّبون المساجد، ويعمرون المشاهد، فتجد المسجد الذي بُني للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسوة إلا من الناس وكأنه خانٌ من الخانات، والمشهد الذي بُني على الميت عليه الستور، وزينةُ الذهب، والفضة، والرخام، والنذورُ تغدو، وتروح إليه، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله تعالى، وآياته، ورسوله، وتعظيمهم للشرك، فإنهم اعتقدوا: أنَّ دعاء الميت الذي بُني له المشهد، والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى، والاستغاثة به في البيت الذي بُني لله عز وجل، ففضَّلوا البيت الذي بُني لدعاء المخلوق على البيت الذي بُني لدعاء الخالق، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم؛ مُضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله تعالى حالَهم في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] [الأنعام: ١٣٦].

وبهذه المقتطفاتِ التي أوردناها يستطيع أن يُقدِّر القارىء الكريم مدى الضلالات العقائدية، والعملية التي كان الجهلة، والعامة من المسلمين قد أصيبوا بها في القرنين السابع، والثامن الهجري على رغم وجود حكومات إسلامية قوية، ووجود كبار أئمة الفن من المحدِّثين، والفقهاء، والمدارس الدينية، والمراكز العلمية، وكيف كانتِ العقائد، والأعمال المُشركة قد تسرَّبت إلى نفوس العامة منهم.

وبصرفِ النظر عن هؤلاء العامة والجهلة من الناس، فإن كثيراً من العلماء والفقهاء وجدتِ الشبهات سبيلاً إلى نفوسهم حول هذه العقائد والأعمال، فإن

(١) الرد على البكري: ص ٢٥٠.

كتاباتهم ، وفتاواهم تشير إلى أن أفكارهم لم تكن نقيّةً في موضوع الشرك ، والتوحيد كما ينبغي أن تكون لرجل استفاد عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة مباشرة ، واطَّلع على سيرةِ السلف الصالح ، وعقيدتِهم ، وسلوكهم.

وتُقدَّر وجهةُ نظرِ هذه الطبقة التي تأثرت بتقاليد عصرها الرائجة ، وعاداته القديمة من كتاباتِ مُعاصِري ابن تيمية الشيخ علي بن يعقوب البكري ، والأخنائي التي تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية للرد عليها ، فألَّف كتابين مبسوطين [(١)] اقتطفنا منهما ما مرَّ آنفاً.

مُهمَّته الإصلاحية ومعارضته للعقائد المشركة:

رفع ابنُ تيمية لواء الجهاد ، والتَّجديد محارباً لهذه الأعمال ، والأفكار ، والتقاليد المشركة الرائجة ، مُستغنياً في ذلك عن سَخَط العامة ، وغَضب الخاصة ، وعِتابهم ، وضربَ على جذور تلك العقائد ، والآراء التي كانت أساسَ هذه الأعمال المشركة.

والذي دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور ، وممارستهم لهذه الأعمال، والتقاليد المشركة هو أنَّهم إنما كانوا يدعون أصحابها لتحقيق أغراضهم ، ومآربهم، فكانوا يستغيثون، ويستعيذون بهم، وقد صرَّح ابن تيمية في مؤلفاته أن دعاء غير الله لا يجوز ألبتة ، وهو شِركٌ جليٌّ دخل فيهم بجهالتهم ، واختلاطهم بغير المسلمين ، إنه يقول في كتابه «الرد على البكري» :

المَنع عن الدعاء والاستغاثة بغير الله:

«فإنَّا بعدَ معرفة ما جاء به الرسول نعلمُ بالضرورة: أنه لم يَشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات ، لا الأنبياء ، ولا الصالحين ، ولا غيرهم ، لا بلفظ الاستغاثة ، ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ، ولا بغيرها ، بل نعلم: أنه نهى

---

(١) تلخيص كتاب «الاستغاثة» المعروف بـ«الرد على البكري» ، المطبعة السلفية مصر عام ١٣٤٦هـ ، وكتاب «الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية» ، المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ ، والكتاب المذكور آخراً على هامش المذكور أوّلاً.

عن كل هذه الأمور ، وأنَّ ذلك من الشرك الذي حرّمه الله تعالى ورسوله ، لكنْ لغلبة الجهل ، وقِلَّة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخِّرين لم يكن تفكيرهم بذلك حتى يتَبَيَّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ ممَّا يُخالفه »[١].

ويقـول فـي مُناسبـة أخرى:

«(أبعدُها) عن الشرع أن يَسأل الميِّتَ ، أو يَستغيث به ، كما يفعل كثيرٌ من الناس بكثير من الأموات ، وهو من جنس عبادة الأصنام، ولهذا تتمثل لهمُ الشياطين على صورة الميت ، أو الغائب كما كانت تتمثل لعُبَّاد الأصنام ، بل أصلُ عبادة الأصنام إنما كانت من القبور ، كما قال ابن عبَّاس ، وغيره»[٢].

ويقول في موضع آخر:

«سؤالُ الميِّت ، والغائب ـ نبياً كان أو غيره ـ من المحرَّمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ، ولا رسوله ، ولا فعله أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحبَّه أحدٌ من أئمة المسلمين ، وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين المسلمين: أن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترةٌ، أو عرضت له حاجةٌ لميتٍ: يا سيدي فلان! أنا في حَسْبك ، أو اقضِ حاجتي ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى ، والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعدَ موته ، ولا بغيره من الأنبياء ، لا عند قبورهم ، ولا إذا بَعُدوا عنها ، وقد كانوا يقفُون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ، ويشتد البأسُ بهم ، ويظنون الظنون ، ومع هذا لم يَستَغث أحدٌ منهم بنبي ، ولا غيره من المخلوقين ، ولا أقسموا بمخلوقٍ على الله أصلاً ، ولا كانوا يَقصدُون الدعاء عند قُبور الأنبياء ، ولا قبور غير الأنبياء ، ولا الصلاة عندها ، وقد كرِه العلماء كمالكٍ ،

---

(١) الرد على البكري: ص ٣٧٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٥٦.

وغيره أن يقومَ الرجل عند قبر النبيِّ ﷺ يدعو لنفسه ، وذكروا : أنَّ هذا مِن البدع التي لم يفعلها السلفُ » (١) .

ويقول في رسالته المعروفة باسم «التوسل والوسيلة»:

«فإنَّ دعاء الملائكة ، والأنبياء بعد موتهم ، وفي مغيبهم ، وسؤالهم ، والاستغاثة بهم ، والاستشفاع بهم في هذه الحال ، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم ، هو من الدّين الذي لم يَشرَعْهُ الله ، ولا ابتعثَ به رسولاً ، ولا أنزل به كتاباً » (٢) .

الحِكمة في تَحريم دُعاء غير الله:

ويتحدَّثُ في هذا الكتاب عن الحكمة في تحريم دعاء غير الله ، فيقول: «نهىٰ سبحانه عن دعاء الملائكة ، والأنبياء ، مع إخباره لنا: أنَّ الملائكة يدعون لنا ، ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء في قبورِهم ، وإن قدر: أنهم يدعون للأحياء ـ وإن وردت به الآثار ـ فليس لأحد أن يَطلُب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأنَّ ذلك ذريعةٌ إلى الشرك بِهم ، وعبادتهم من دون الله ، بخلاف الطَّلب من أحدهم في حياته ، فإنه لا يُفضي إلى الشرك ، لأنَّ ما تفعله الملائكة ، ويَفعله الأنبياء ، و الصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يُؤثِّر فيه سؤال السائلين ، بِخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يُشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم» (٣) .

أَشْكَالٌ وأنواعٌ متعدِّدة للداعين:

وفي موضع آخر يشرح ألوان ، وأحوال الداعين ، والسائلين علىٰ القبور ، ويَذكرُ أحكام كلٍّ منهم ، يقول:

---

(١) الرد على البكري: ص ٢٣٣ .
(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ١٥ .
(٣) المرجع السابق: ص ١٣٢ .

«وأمَّا مَن يأتي إلى قبر نبيٍّ ، أو صالح ، أو من يُعتقد فيه : أنه قبر نبي ، أو رجل صالح ، وليس كذلك ، ويسأله ، ويستنجده فهذا على ثلاث درجات : أحدها : أن يسأله حاجته ، مثل أن يسأله أن يُزيل مرضه ، أو مَرضَ دوابِّه ، أو يقضي دَينه ، أو ينتقمَ له من عدوِّه ، أو يعافي نفسه ، وأهله ، ودوابه ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، فهذا شِركٌ صريح يجب أن يُستتاب صاحبه ، فإنْ تاب ، وإلا ؛ قُتل .

وإنْ قال : أنا أسأله لكونه أقرَب إلى الله منِّي ؛ ليَشْفع لي في هذه الأمور لأني أتوسَّل إلى الله به كما يُتوسَّلُ إلى السلطان بخواصِّه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين ، والنصارىٰ ، فإنهم يزعمون : أنهم يتخذون أحبارهم ، ورهبانهم شُفعاءَ يستشفعون بهم في مطالبهم ، وكذلك أخبرَ اللهُ عن المشركين : أنهم قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر : ٤٣ـ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

فهذا هو القِسم الثاني ، وهو ألاَّ تَطلبَ منه الفعل ، ولا تدعوه ، ولكن تَطلُبُ أن يدعو لك كما تقول للحيِّ : ادع لي ، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء ، فهذا مشروع في الحيِّ ، كما تقدَّم .

وأمَّا الميتُ من الأنبياء ، والصالحين ، وغيرهم ؛ فلم يُشرع لنا أن نقول : ادع لنا ، ولا اسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحدٌ من الصحابة ، والتابعين ، ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا وردَ فيه حديث .

بل الذي ثبت في الصحيح : أنهم لما أجدَبوا زمن عمر رضي الله عنه استسقىٰ بالعباس ، وقال : «اللهم إنا كنَّا إذا أَجْدَبنَا ؛ نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا ،

فتسقيَنا ، وإنا نتوسَّلُ إليك بِعمِّ نبيِّنا ، فاسقنا! فيُسقون»[١] .

ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين : يا رسولَ الله! ادعُ لنا ، واستسقِ لنا ، ونحن نشتكي إليك مما أصابنا ونحو ذلك ، لم يفعل ذلك أحدٌ من الصحابة قطُّ ، بل هو بِدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

وأمَّا القِسمُ الثالث : وهو أن يقول : اللَّهم بجاه فُلانٍ عندك ، أو ببركة فلان ، أو بِحُرمَة فلانٍ عندك افعل بي كذا ، وكذا ، فهذا يفْعَله كثير من الناس لكن لم يُنقل عن أحد من الصحابة أو التابعين وسَلَفِ الأمة : أنَّهم كانوا يَدْعُون بمثل هذا الدعاء ، ولم يَبْلُغني عن أحدٍ من العلماء في ذلك ما أحكيه إلا ما رأيتُ في فتاوىٰ الفقيه أبي محمد بن عبد السلام[٢] فإنه أفتىٰ أنه لا يجوز لأحدٍ أن يفعل ذلك إلا للنبيِّ ﷺ؛ إن صحَّ الحديث .

وقالتْ طائفة : ليس في هذا جوازُ التوسُّل به في مماته وبعد مغيبه ، بل إنما فيه التوسُّل في حياته بحضوره» [٣] .

لا يَجوز للمَرء أن يطلب من أيِّ كائنٍ حيٍّ ما وراء الأسباب الدنيوية:

ولا يكتفي ابنُ تيمية باعتبار حُرمة مَدِّ يد السؤال إلى شيخ ميت ، أو نبيٍّ ، أو صاحب قبر ، بل إنه يعتبرُ طَلب كلِّ شيء يكون وراء الأسباب الدنيوية ، ويتَّصل بالقدرة الإلٰهية ، أو بالإرادة المطلقة التي عبَّر عنها بقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، برقم (١٠١٠) ، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب ذكر عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، برقم (٣٧١٠) ، والبيهقي في السنن (٣/ ٣٥٢) برقم (٦٢٢٠) ، والطبراني في الكبير (١/ ٧٢) برقم (٨٤) عن أنس رضي الله عنه ، ولم يذكر أحدٌ منهم لفظَ «أجدبنا»] .

(٢) [هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم ، عز الدين الملقَّب بسلطان العلماء ، فقيه شافعي بلغ رتبةَ الاجتهاد ، توفِّي بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ] .

(٣) ملخصاً عن رسالة «زيارة القبور» ص ١٠٦ ، ١١٢ .

﴿لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. واختصَّهُ الله بنفسه وإن كان ذلك إنساناً حيّاً ، يقول في رسالته «زيارة القبور»:

«إنَّ مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله مثل أن يَطلُب شفاءَ مرضه من الآدميين ، والبهائم ، أو وفاء دينه من غير جهة معينة ، أو عافيةَ أهله ، وما به من بلاء الدنيا والآخرة ، وانتصاره على عدوه ، وهداية قلبه ، وغفران ذنبه ، أو دخوله الجنة ، أو نجاته من النار ، أو أن يتعلَّم العلم ، والقرآن ، أو أن يُصلح قلبه ، ويحسن خلقه ، ويزكي نفسه ، وأمثال ذلك ، فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تُطلب إلا من الله تعالىٰ ، ولا يجوز أن يقول لمَلك ، ولا نبي ، ولا شيخ سواء كان حيّاً ، أو ميّتاً اغفر لي ذنبي ، ولا انْصُرني على عدوي ، ولا اشف مريضي ولا عافني ، أو عاف أهلي ، أو دابَّتي وما أشبه ذلك ، ومن سألَ ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك برَبه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة ، والأنبياء ، والتماثيل التي يُصَوِّرونها على صورهم ، ومن جِنس دُعاء النصارىٰ للمسيحِ وأمه»[١].

حقيقَةُ الواسطة:

ويحتوي هذا الموضوع على بحث آخر يسمىٰ بالواسطة ، أو التوسُّط ، ويقال لمن يخالفون أن يُدعى الرسول ، أو الشيخ ، أو الولي: أنَّهم يُنكرون الواسطة ، على أن من المعلوم أن النبيَّ هو الواسطة بين الخلق والخالق ، ويستحيل الوصول إلى الله بدونه.

وقد تصدَّىٰ ابنُ تيمية للردِّ على الاعتراض بطريق واضح ، وبيَّن: أنَّ هناك مفهومين للواسطة ، مفهوماً حقاً مُتَّفقاً عليه ، وعليه أساس الدين كله ، ومفهوماً باطلاً لا أساس له اخترَعَه الناس ، وقد وضع في هذا الموضوع رسالةً مُستقلة باسم «الواسطةُ بين الخَلْقِ والحقِّ» يقول فيها:

«إنْ أراد بذلك أنَّه لابد من واسطة تُبَلِّغُنا أمر الله فهذا حق ، فإنَّ الخَلْقَ

(١) رسالة زيارة القبور: ص ١٠٤ ، ١٠٥.

لا يعلمون ما يُحِبُّه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعدَّه لأوليائه من كرامته ، ما وعدَ به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقُّه الله تعالىٰ مِن أسمائه الحسنىٰ ، وصفاته العليا التي تعجز العقولُ عن معرفتها ، وأمثالِ ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عبادِهِ.. وهذا مما أجمع عليه جميعُ أهلِ المِلَل من المسلمين ، واليهود ، والنصارىٰ ، فإنهم يُثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن أمر الله وخبره قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]. ومن أنكر هذه الوسائط؛ فهو كافرٌ بإجماع أهل الملل»[١].

«وإنَّ مَن أراد بالواسطة: أنَّه لا بد من واسطة في جلبِ المنافع، ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهُداهم يسألونه ذلك ، ويرجعون إليه فيه ، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله بهِ المشركين ، حيثُ اتَّخذوا من دون الله أولياء ، وشُفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ، ويجتنبون المضار»[٢].

وقد غالىٰ العامَّةَ ، والجهلةَ ، وكثير من الخواص أيضاً إلى حدٍّ أن اتخذوا الأولياء ، والصلحاء واسطة بينهم وبين الله تعالىٰ فضلاً عن الأنبياء ، والرسول ﷺ فكانوا يرجعون إليهم في كلِ شيء من الدعاء ، والاستعانة ، والتوكُّل ، والرجاء، يتحدَّث ابن تيمية عنِ الفَرْقِ بين هؤلاء، وأولئك، فيقول:

«ومَنْ سِوىٰ الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فَمَنْ أثبتهم وسائط بين الرسول وأمَّته ، يُبَلِّغونهم ، ويعلمونهم ، ويُؤدِّبونهم ، ويقتدون بهم؛ فقد أصاب في ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا؛ فإجماعهُم حجَّة قاطعة ، لا يجتمعون على ضلالة ، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول ، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق بل كُلُّ أحد من الناس يُؤخذ من كلامه ، ويُترك إلا رسول الله ﷺ .

---

(١) الواسطة بين الخلق والحق: ص ٤٥ ، ٤٦.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٦.

وإنْ أثبتُّم وسائطَ بين الله وبين خلقه كالحجاب الذي بين المَلك ورعيَّته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائجَ خلقه، فالله إنما يهدي عباده، ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أنَّ الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقُربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يُباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفعُ لهم من طلبهم من الملوك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافرٌ مشركٌ يَجب أن يُستتاب، فإن تاب، وإلا؛ قُتل، وهؤلاء مُشبِّهون لله، شبَّهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أنداداً»[1].

المَشاهِدُ بِدْعَةٌ قَبيحة:

يُعارِض ابنُ تيمية بعنفٍ، وصراحةٍ هذه المشاهد و«المزارات» التي كانت قد تحولت في العالم الإسلامي كُلِّه إلى مرتع للشرك، والبِدع، والفِسق، والفجور، وألوان من المنكرات، وظهرتْ فيه كفِتنة عظيمة، ويَعتبرها ابن تيمية معارَضة مكشوفة للشريعة، وبدعة قبيحة في الزمن المتأخِّر، يقول في «الرد على البكري»:

«وكذلكَ المساجدُ المبنيَّةُ على القبور التي تسمَّىٰ المشاهد مُحدَثة في الإسلام، والسفرُ إليها محدَث في الإسلام، لم يكن شيء من ذلك في القرون الثلاثة المفضَّلة.

بل ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أنه قال: «لَعنَ اللهُ اليهودَ والنصارىٰ اتَّخذوا قُبور أنبيائهم مساجد»[2] يُحذِّرُ ما فعلوا. قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأُبرز قبره، ولكن كَرِه أن يُتَّخذ مسجداً.

---

(١) الواسطة بين الخلق والحق: ص ٤٧ـ ٤٨.

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها، والنسائي في «السنن الكبرى» (١/ ٦٥٨) برقم (٢١٧٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٦) برقم (٨٧٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

وثبت في الصحيح عنه: أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجدَ، ألا فلا تتخِذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك[١]»[٢].

ويتقدَّم فيقول: «وأيضاً فلمَّا فتح المسلمون تُسْتَرَ[٣]؛ وجدوا فيها قبر دانيال عليه السلام، وكان أهل البلد يستسقون به، فكتب في ذلك أبو موسىٰ إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه: أن احفِر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، وادفنه في الليل في واحد منها؛ لئلا يفتتن به الناس، فيستسقون به، فهذه كانت سنة الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان علىٰ وجه الأرض في ديار الإسلام مسجد مبنيٌّ على قبرٍ، ولا مشهد يُزار، لا بالحجاز، ولا باليمن، ولا مصر، ولا العراق، ولا خراسان»[٤].

ويقول في كتابٍ آخر:

«وأمَّا الحُجَّاج إلى القبور، والمتَّخذون لها أوثاناً، ومساجدَ، وأعياداً فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة، والتابعين، وتابعيهم منهم طائفة تُعْرَف، ولا كان في الإسلام قبرٌ، ولا مشهد يُحجُّ إليه، بل هذا إنما ظهر بعد القرون الثلاثة.

والبدعةُ كُلَّما كانت أظهرَ مخالفة للرسول؛ يتأخَّرُ ظهورها، وإنما يحدث أولاً ما كان أخفىٰ مخالفةً للكتاب والسنة»[٥].

---

(١) [أخرجه أبو نعيم الهراني في «المسند المستخرج على صحيح مسلم» (٢/١٣٣) من حديث جندب بن سفيان].
(٢) الرد على البكري: ص ٣٣٣.
(٣) [مدينة إيرانية تقع في خوزستان شمالي الأهواز، وهي تسمَّى بالفارسية «شُوشْتَر»].
(٤) الردُّ على البكري: ص ٢٨٢.
(٥) الرد على الأخنائي: ص ١٠٢.

المَشاهد «مسحة» الرَّوافض والباطنية:

إنَّه يعتقد: أنَّ الروافض، والباطنية هم الذين أحدثوا بِدْعة المشاهد، ووضعوا أحاديث تُؤيِّد مذهبهم فيها، وذلك لأنَّهم مُعْجَبون في الحقيقة بقبور أئمتهم ومشاهدهم، يقول:

«وأول مَن وضع هذه الأحاديث في السَّفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهلُ البدع من الروافض، ونحوهم الذين يعطِّلون المساجد، ويُعظِّمون المشاهد التي يُشْرَك فيها، ويكذب فيها، ويُبتدع فيها دينٌ لم يُنَـزِّل الله بِهِ سُلْطَاناً.

فإنَّ الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾، [الأعراف: ٢٩].

وقال: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى الْمَسَٰجِدِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد ثبت عنه ﷺ: أنه كان يقول: «إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك[1]»[2].

معظم هذه المشاهد والقُبور مُزوَّرة:

وقد حقَّق ابنُ تيمية: أن معظم هذه المشاهد، والقبور مُزوَّرةٌ مفترَضةٌ، وما أحسن ما يقول في تأييد هذا المعنىٰ:

«وكثيرٌ من المشاهد كَذِبٌ، وكثيرٌ منها مشكوكٌ فيه، وسبب ذلك: أن معرفة المشاهد ليست من الدين الذي تكفَّل الله بحفظه للأمة لِعَدمِ حاجتِهم إلى

(١) قد سبق تخريجه قبل قليل.
(٢) الرد على الأخنائي: ٤٨، ٤٩.

معرفة ذلك»[1] ، ولذلك فقد وَقع فيها التزوير بصفة عامة ، وكثيرٌ منها تزوير بَحْتٌ لا يستند إلى أيِّ أصل ولكن ينخدعُ به خَلْقٌ كثيرٌ.

قَصصٌ يُزوِّرونها لإنجاز أغراضهم من المشاهد:

ومِنَ الفتن التي شاعتْ ، وانتشرتْ في الناس هي أنَّ هذه المشاهد ، والقبور تُوفِّرُ الشِّفاء للمرضىٰ المزمِنين ، ويُستجاب عندها الدعاء ، وكان الناس يتحدَّثون في ذلك عن تجارِبهم ، ومُشاهداتهم الشخصية ، ولكنَّ ابن تيمية لم يكن ليتأثر بمثلِ هذه الإشاعات والدَّعاوىٰ الكاذبة لما كان يتمتع به من الرسوخ في الدين وقُوَّة الإيمان واليقين ، ولم يكن ليترك قطعيات الدين ومنصوصات الكتاب والسنة لمُجرَّد إشاعات وروايات يتناقلها الناس.

إنَّه ظلَّ قائماً على فِراسته الإيمانية ، وفَهمه النيِّر للدين ، وأثبت أنَّ هذه الإشاعات ، والدعاوىٰ كلها وَهم على وَهم لا يمتُّ إلى الحقِّ والصدقِ بِصِلَةٍ ما ، وكثيراً ما كان الناس يَروون عن شفاء الحيوانات والبهائم على هذه المشاهد والقبور ، ولكنَّ ما ذكره ابنُ تيميّة لهذه الأحداث من تأويل عجيب إنما يستلفتُ الأنظار ، ويُنَـوِّرُ الأبصار ، إنَّه يقول:

«وكان بالبلد جماعةٌ كثيرون يَظنُّـون في العُبيديين: أنَّهم أولياء الله تعالىٰ صالحون ، فلما ذكرتُ لهم أن هؤلاء كانوا منافقين زنادقة ، وخيارُ مَن فيهم الرافضة ، جعلوا يتعجَّبون ، ويقولون: نحن نذهب بالفَرس التي بها مَغْلٌ إلى قبورهم ، فقلتُ: إن هذا من أعظم الأدلة على كفرهم ، وطلبتُ طائفة من سُيَّاس الخيل ، فقلتُ: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المَغْلُ أين تذهبون بهم؟ فقالوا: في الشام نذهب إلى القبور التي ببلاد الغلاة كالعليقة ، والمنقية ، ونحوهما.

وأمَّا في مصر فنذهب بها إلى ديْرٍ هناك للنصارىٰ، ونذهبُ بها إلى قبور هؤلاء

---

(١) الرد على البكري: ص ٣١٢.

الأشراف، وهم يَظنُّون أن العبيديين شرفاءُ لِما أظهروا أنَّهم من أهل البيت.

فقلتُ: هل تذهبون بها إلى قبور صالحي المسلمين مثل قبر الليث بن سعد، والشافعي، وابن القاسم، وغير هؤلاء؟، فقالوا: لا، فقلت لأولئك: اسمعوا إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار، والمنافقين، وبيَّنتُ لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يُعذَّبون في قبورهم، والبهائم تسمع أصواتهم كما ثبتَ ذلك في الحديث الصحيح، فإذا سمعت ذلك فزعت، فبسبب الرُّعب الذي يحصل لها تنحلُّ بطونها، فترَوثُ فإنَّ الفَزع يقتضي الإسهال، فـيَعْجَبون من ذلك، وهذا المعنىٰ كثيراً ما كنت أذكُره للناس، ولم أعلم أحداً قاله، ثم وجدتُه قد ذكره بعضُ العلماء»[1].

تَمثيلُ الشَّياطين للمُشركين:

ويتحدَّثُ ابنُ تيمية عن عِلَّة ما يحدث على قبور الأولياء والصالحين من استجابة الدعاء، وانقِضاء الحاجة، ومن كلام صاحبِ القبر، وزيارته، فيقول:

«وكثيرٌ مِن هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأىٰ صورته، وربما قضىٰ بعض حاجاته، فيظنُّ أنه الشيخ نفسه، أو إنه ملك تصوَّر على صورته، وأنَّ هذا من كراماته، فيزداد به شركاً وفيه مُغالاة، ولا يعلم: أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بِعُبَّاد الأوثان، حيث تتراءىٰ أحياناً لمن تَعْبُدها، وتخاطبهم ببعضِ الأمور الغائبة، وتقضي لهم بعض الطلبات، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضَّلة»[2].

ويقُـولُ فـي مكـان آخـر:

«إنَّ هذه الشياطين تتصوَّر على صُورة المستغاثِ بهِ، وحَكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ: أنَّه جرىٰ لمن استغاث بهم مثلُ ذلك، وحَكىٰ خلقٌ كثيرٌ: أنَّهم استغاثوا بأحياءَ وأموات، فرأَوا مثل ذلك، واستفاض هذا، حتىٰ عُرِف

(١) الرد على البكري: ص ٣١٠، ٣١١.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٣.

أنَّ هذه من الشياطين تغري الإنسان بحسب الإمكان فإن كان ممَّن لا يَعرفُ دينَ الإسلام؛ أوقَعَتْهُ في الشرك الظاهر ، والكفرِ المحض ، فأمَرَتْهُ ألا يَذْكُرَ ، وأن يَسجُدَ للشيطان ، ويذبَح له ، وأَمَرتْهُ بأكل الميتة ، والدم ، وفعل الفواحش ، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكُفر المحض ، وبلاد فيها كُفر ، وإسلام ضعيف ، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يَضْعُف إيمان أصحابها ، حتىٰ قد جرىٰ ذلك في مصر ، والشام على أنواع يطول وصفها، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثيرٌ جداً ، وكلَّما ظهر فيهم الإسلام ، وعرفوا حقيقته؛ قَلَّتْ آثار الشياطين فيهم» (١).

يقول ابنُ تيمية: إنَّ ذلك لا يحدث مع الصالحين فقط ، بل يحدث ذلك لعُبّاد الكواكب أيضاً ، ويحصلُ لهم مثل هذه الانتصارات والأحاسيس:

«والذين يَدْعون الكواكب تنزل عليهم أشخاصٌ ، يسمونَها روحانية الكواكب ، وهو شيطان نزل عليه لمَّا أشرك ليُغويه ، كما تدخل الشياطين في الأصنام ، وتكلِّم أحياناً بعض الناس ، وتتراءى للسَّدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً» (٢).

دوْرُ ابنِ تيميّة في إصلاحِ العقيدة وتأثيرُه:

إنَّ القرنين السابع والثامن (وقد مضىٰ الحديث عن خصوبتهما وإنتاجاتهما في أول الكتاب) وإن كانا حافلين بكبار العلماء والشيوخ ، وكان العمل في كل مجال من مجالات التأليف ، والوعظ ، والإرشاد ، والدعوة ، والتبليغ مستمراً بكل قوة لا يترك مجالاً للشكِّ في أن العلماء الراسخين وحمَلة الكتاب والسنة لابدَّ أنهم قد استنكروا هذا الشرك الجَليَّ، والجاهلية ، والوثنية كلَّ الاستنكار ، وعارضوها بالقلم واللسان.

ولكنَّ ابن تيمية يمتاز بأنه كان في طليعة العلماء الذين رفعوا راية الجهاد

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ١١٨.
(٢) كتاب النبوات: ص ٢٧٤.

لمحاربةِ هذا الوضع ، وتصدَّوا لمقاومة هذه الفتنة الكبرىٰ رغم اشتغالهم وبَحْثهم في العلم ، وخاطبوا عقول الجماهير ، وتبنَّوا مُهِمَّة الرد على الشرك الصريح ، غايةَ حياتهم ، وكانوا يتمتَّعون بمكانة عالية في العلم والدين ، وخلَّفوا ذخيرة علمية ذات قيمة كبيرة في هذا الموضوع تُخَلِّد شخصيَّتهم وتجدِّدُ مهمَّتهم الإصلاحية حيناً لآخر.

والحقيقةُ: أنَّ مقاومة هذه الفتنة العامة ، وشرحَ عقيدة التوحيد ، وبَعثَ الفكر الإسلامي الصحيح ، واستعراضَ هذه التقاليد والعقائد المشركة التي كانت تُغَطِّي المجتمع ، وتُسَيْطِرُ عليه ، والردَّ عليها رداً قويّاً حاسماً ، كل ذلك كان يحتاج إلى شخصية ابن تيمية القوية ، وطبيعة التوحيد تأبىٰ أن تلوذ بالتأويل والمداهنة أو المحاباة إنها تتطلَّب خطاب الأنبياء الواضح الحاسم وأسلوب دعوتهم الصريح الذي يتسم بميزة «الفرقان».

ولا شكَّ أنَّ ابن تيمية ، إنما قام بمسؤولية النيابة عن الأنبياء في عصره ، وعمل بمصداق ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]. حتىٰ إن هذه العقائد والتقاليد الباطلة التي كانت قد عمَّت في المجتمع الإسلامي باختلاط غير المسلمين وصحبتهم وتأثير الفرق الضالة والمُغرضين قد انهزمتْ ، وذهبتْ ريحُها ، وتمثَّلت عقيدةُ التوحيد التي ترتكز عليها دعوة الأنبياء ، وتُعتبر غايتهم الكبرىٰ بملامحَ أوضح وأجمل من جديد: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إنَّ هذا العملَ الذي قام به ابن تيمية كفاه دليلاً على ما خصَّهُ الله به من مكانة عالية في مجال الإصلاح ، والتربية ، والدعوة ، والتجديد ، وقد وُجِد بتأثير كتاباته ومؤلفاته رجالٌ من أهل الدعوة والتربية بين حين وآخر ممن رفعوا راية الجهاد ضد هذه التقاليد و«الوثنية الجاهلية» بكل صَدْع وإعلان ، وارتفع صوت القرآن مدوِّياً عالياً: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣]. فارتجَّ العالمُ الإسلاميُّ ، وتجاوَب معه السهلُ والجبل.

* * *

الفصل الثاني

نَقْدُ الفلسَفة وَالمنطق وَعلم الكلام وَترجيحُ أسلوبِ الكِتاب والسّنةِ

مُهِمّة الإصلاح والتّجديدِ الثانيةُ:

أمّا مهمّة الإصلاح والتجديد الثانية التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهي أنَّه تناول الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام بنَقْد مفَصَّل، وأثبت فضلَ أسلوب الكتاب والسنة إزاء هذه العلوم مؤيَّداً بالدلائل والبراهين.

ولكي نُقدِّر مدى عظمة هذه المهمة يجب أن نَعرف ما كان يتمتع به المنطق والفلسفة من مكانة عالية في العالم الإسلامي، وما كان لهما من سيطرة على الأفكار، والآراء، وفي مثل أي ظرفٍ وبيئة قام شيخ الإسلام بمهمتِّه هذه.

تَأثيرُ فلسفةِ اليونان وسَيطرتُها على العالم الإسلامي:

لا يَخفى: أنَّ مهمة تَرجمةِ كتب الفلسفة والمنطق اليوناني كانت قد بدأت منذ عهد الخليفة المنصور عام ١٣٦هـ، وكانَ المُعتزلة قد درسوا هذه الكتبَ واستفادوا منها، ومنذ ذلك العهد دخلت في كتبهم مُصطلحات الفلسفة اليونانية.

إلاَّ أنَّ علوم اليونان ازدهرتْ في الحقيقة في عصر المأمون، ذلك الذي

أشرف على حركةِ الترجمة إشرافاً مَلكياً ، واحتضنَ هذه الحركة ، فقد كان من أحرص الناس على هذه العلوم ، وأكثرِهم تقديراً لها ، فقد ذكر صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» أنَّـه طَلب من ملوك الروم كُتب حكماء اليونان ، فأرسلوا إليه مؤلَّفات أفلاطون ، وأرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس كهديَّةٍ ، وأمر المأمونُ بترجمتها في غاية من الاهتمام ، وحثَّ الناس على دراستها ، وفي عهده نالتْ هذه المؤلفات رَواجاً عاماً ، ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً ، وأقبل الشباب هم الآخَرون على إتقان هذه المواد ، وجاء به كُلٌّ كَهديَّة غالية إلى بلاط المأمون السخي ، وأُكرموا بالجوائز ، والصلات ، والمناصب العالية ، وهكذا فإن الدولة العباسية أصبحتْ منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم [١] .

وظلَّ عملُ الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون ، وفي التاريخ ما يدلُّ على أنَّ ذخائر وجيهة من علوم اليونان كانت قد انتقلت إلى العربية حتى القرن الرابع الهجري [٢] .

وعلى أنَّ هذه الذخيرة العلمية إنما كانت تحتوي على مؤلفات وتحقيقات أفلاطون و غيره من حكماء اليونان ، إلا أن كتب أرسطو نالتِ القبول والإعجاب في أوساط العالم الإسلامي العلمية والمدرسية أكثر من غيره ، ولعل ذلك جاء من قبل المترجمين الذين كانوا في الغالب من النصارى النَّسطوريين ، واليَعقوبيين ، ومن فلاسفة جُنْد يسابور ، وحرَّان ، إما لاتجاهاتهم الشخصية ، أو لأن عصر أرسطو أقرب بالنسبة إلى غيره ، وأنَّ كتبه تحتوي على مباحث الفلاسفة المتقدِّمين بشكل أكثر تدويناً وترتيباً ، حتى أصبحتْ هي الأخرى مُمثِّلةً فلسفة اليونان ، والحاميَة لها ، ورمزَ الفلسفة وآيتَها في العالم الإسلامي ، ومِن سوء حظِّ العالم الإسلامي : أنَّه لم يحظَ من فلاسفة

---

(١) طبقات الأمم : ص ٤٧ .

(٢) وللاطلاع على التفاصيل ، راجع «فهرست ابن النديم» ، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ، و«أخبار الحكماء للقفطي» ، وما إلى ذلك .

اليونان إلا بمن كان أبعدَ ، وأجهل من الجميع في تَفهُّم روح الأديان السماوية ، ومفاهيمها ، وحقائقها ، وكانَ أكبر داعية للفكرة المادية ، ومن كبار أنصارها ومؤيِّديها (وستأتي تفاصيل البعض منهم في كتابات الإمام ابن تيمية وانتقاداته).

عَهدُ تَقليد الفَلسفَة:

في أَوَّل الأمر رفض علماءُ الفلسفة في العالم الإسلامي قبول فلسفة أرسطو ومنطقه على علاَّتهما ، وما رأوه فوق النقد والتحقيق ، بل تصدَّى كثير منهم ، وألفوا كتباً في الرد عليه ، وتناولوا بحوثه الفلسفية والمنطقية بالنقد الحرِّ ، وتجاهروا بكل ما ظهر عليهم ضعفُه وركاكته ، وكان المعتزلة أوَّل من حملوا لواء ذلك ، وَيجدُر بالذكر منهم النظَّام ، وأبو علي الجبّائي.

وجاء حسن بن موسى النّوبخْتي في القرن الثالث ، فألف «كتاب الآراء والديانات» ، ورد على بعض المسائل المنطقية لأرسطو ، كما ألف الإمام أبو بكر الباقلاني كتاباً باسم «الدقائق» في القرن الرابع ، فَنَّدَ فيه الفلسفة ، وأثبتَ فضْلَ منطق العرب على منطق اليونان.

أمّا في القرن الخامس؛ فنهضَ العلاَّمة عبد الكريم الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل» وألَّف كتاباً في الرد على برقلس ، وأرسطو ، ونقض فيه دلائلهما وِفق قواعد المنطق.

وفي أواخر هذا القرن نفسه تصدى الإمام الغزالي كمنافس للفلسفة ، وألف كتابه المعروف باسم «تهافت الفلاسفة» ذلك الذي أحدث ضجة في إيوان الفلسفة بقيت إلى قرن كامل [١].

وقامَ أبو البركات البغدادي في القرن السادس فواصلَ هذا العمل ، وتقدم به إلى الأمام ، وألف كتاباً باسم «المعتبر» أصبح موضعَ البحث والنقد فيما بعد ، أبطل فيه أفكار أرسطو في معظم المسائل ، وفي هذا القرن برز الإمام فخر

---

(١) اقرأ التفاصيل في المجلد الأول من هذا الكتاب.

الدين الرازي (٦٠٦ هـ) «كمحامٍ» لمتكلمي الإسلام، والأشاعرة، واستهدف الفلسفة لإيراداته.

أمّا الأوساط العلمية في العالم الإسلامي التي كانت تُعتبر حاملةً لواء الفلسفة اليونانية في الواقع، وتُرجمانها؛ فقد ظَلَّت مسحورةً بشخصية أرسطو، وعظمته، وكانت تراه فوق كل نقدٍ وتحقيق، وكان هذا الهيام، والإعجاب بشخصية أرسطو يتزايد مع مرور الأيام لدى علماء الفلسفة، ويكاد يَحتلُّ في أوساط الفلسفة محل القدسية والعظمة، فكلُّ خلَفٍ يفُوق سلَفه في تقديسه وتعظيمه.

يقول أبو نصر الفارابي والمتوفى ٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م عن أفلاطون، وأرسطو:

«وكان هذان الحكيمان هما المُبدعان للفلسفة، والمنشئان لأوائلها، وأصولها، والمتمّمان لأواخرها وفروعها، وعليهما المُعوَّل في قليلِها وكثيرها» [١].

وهذا «أبو علي ابن سينا» (م ٤٢٨ هـ) أكثر اعترافاً بعظمة أرسطو وسلطانه من الفارابي، إنه يقول في كتابه «الشفاء» ما معناه: «إن أرسطو مضى عليه أمد طويل إلا أن القضايا والتحقيقات التي أدلى بها لم تحتجْ إلى زيادة» [٢].

ولم تُنجِبْ أوساطُ الفلسفة بعد أبي علي ابن سينا أيَّ عالمٍ ومحامٍ للفلسفة أكبرَ من ابن رشد (م ٥٩٥ هـ) إنه يتقدم خطوةً في تقديس وتعظيم أرسطو من أبي علي ابن سينا أيضاً، واسمحوا لي بهذه المناسبة أن أُعبر عن ذلك بما اعتاده المتصوِّفون من كلمة «التفاني في الشيخ» يَتحدَّث أحدُ مُترجميه عن خصِّيصَتِه هذه، فيقول:

«أمّا تَمجيدُ ابن رِشد لأرسطو فلا حدَّ له، فيكاد يُؤَلِّهه، وقد وضع له

---

(١) «الجمع بين رأيي الحكيمين».

(٢) مأخوذ من مقال العلاّمة شبلي النعماني «بين الإسلام وفلسفة اليونان» المنشور في مجلة «الندوة» ج١، رواية عن كتاب «الشفاء».

أوصافاً تجعلُـه فوق درجات الكمال الإنساني عقلاً ، وفضلاً ، ولو كان ابنُ رُشد يقول بتعدُّد الآلهة لجعلَ أرسطو ربَّ الأرباب»[١] .

وفي القَرن السابع تَبرُز شخصية نَصير الدين الطُّوسي (م٦٧٢هـ) في أوساط الفلسفة ، ذلك الذي عرفته حلقات المدارس الفلسفية بالمحقّق الطوسي ، وكانَ العالم الإسلامي قد أصابَته دَهشة الفتْح ، وأصيب بالذهول في هذا الزمن بهجوم التتار ، وسقوط بغداد ، وأظلَّ العالم الإسلامي كله انحطاط علمي عام ، وقد كان نصيرُ الدين الطوسي هو حامل لواء العلم ، والفلسفة اليونانية ، وهو من مُقرَّبي هولاكوخان ، ومستشاريه ، وتولى تلاميذُه أمور التدريس ، والتأليف (وأَخُصُّ بالذكر منهم قطب الدين الشِّيرازي ، وسَميّه قطب الدين الرَّازي) ، وعلى يَدهم وُجد ذلك المنهج الخاص للتعليم السائد في إيرَان ، الذي يَحُل فيه المنطق ، والفلسفة محلاً رئيسياً ، وقد كان نصيرُ الدين الطوسي يتصل بالمدرسة التي كانت تعتبر أرسطو العقلَ الكلَّ ، وتَرى في نظراته ، وتحقيقاته المرجع الأخير ، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالفاً للإمام الرازي ، وكان قد نفخ في فلسفة أرسطو روحاً جديدة .

المُحاسبة العلمية للفلسفة والمنطق ومأثرة ابن تيمية في هذا المجال:

وُلِد شيخُ الإسلام ابن تيمية قبلِ وفاةِ نصير الدين الطوسي بعشر سنين ، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غَلبةٌ ، وازدهار عظيم ، بتأثير نصير الدين الطوسي ، وتلاميذِه البارعين ، وكان يُعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يَفهم المرء مسائلهما وبحوثهما ، ولم يكن لأحد أن يتجرَّأ على القول بإزائهما أو ضدهما ، ولم يكن المحدِّثون والفقهاءُ فرسان هذا الميدان ، وجُلّ ما كان يَسعُهم هو أن يُفتوا بحُرمتها ، إلا أن هذا السَّيل ما كان يقف بهذا ومثلِه من الأعمال ، فقد كان العالم الإسلامي كُلُّه يعيش تحت ضغطهما ، ولقد كان

---

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب: لطفي جمعة ، ص١٥٥ .

للتشكُّكِ ، والارتياب جولةٌ في بعض الأوساط التي كانت تتَّصل بالفلسفة اليونانية مباشرةً ، ويوجد فيها اتجاهٌ نحو إنكار حقائق الأشياء.

أمّا الطَّبقةُ التي ابتعدت عنها ، ولم تتصل بها مباشرة؛ فقد وقعتْ فريسة مركَّب النقص ، والشعور بالعَجز.

ولِمُحاربة هذا الوضع كانتِ الحاجة ماسَّة إلى نَقْدٍ صريح ، واستعراضٍ علمي حُرٍّ للفلسفة والمنطق ، وإلى إزاحة الستار عن مواضع ضَعفها العلمية ، وقد أنجزَ حاجةَ الساعةِ هذه شيخُ الإسلام ابن تيمية ، وقام بنَقْدِ الفلسفة اليونانية ، ومحاسبتها العملية مُؤيِّداً بحوثه بالدلائل والبراهين ، وناظَرَ أرسطو مناظرة علمية وجهاً لوجه ، ذلك الذي كان علماءُ الفلسفة يعتبرونه شخصيةً فوق مستوى البشر ، وغنيةً عن النَّقدِ والردِّ.

ولكنْ لِنُدرك مكانَةَ علمه هذا وطبيعَته ، ونعلم معيارَ نقدِه ومحاسبته ، ووجهةَ نظرِه ، وأساس خِلافه معه ، نرجع إلى كتبه ، ونقتطف فيما يلي ملخصات من كتاباتِه بعناوينَ مختلفة ، ومقتطفاتٍ من كتبه تُبيِّن وجهةَ نظره ، وأسلوب تفكيره.

الاعتِرافُ بالطَّبعيات والرياضيات:

إنَّ رأيَه في تلك الذخيرة العلمية التي تنتَمي إلى أرسطو ، وفلاسفة اليونان مُتَّزنٌ معتدل ، إنه يُفرّق بين الطَّبعيات ، والرياضيات ، والإلهيات ، ويعترف بصحةِ معظم مسائل الطبعيات ، والرياضيات ، وبذكاءِ علماء اليونان في هذا الموضوع ، كما فعل ذلك الإمام الغزالي يقول في إحدى المناسبات:

«نَعَمْ لهم في الطَّبعيات كلامٌ غالِبُه جيد ، وهو كلامٌ كثير واسع ، ولهم عُقولٌ عَرفوا بها ذلك ، وهم قَد يَقصدون الحق لا يَظهرُ عليهم العناد»[1].

كما يَعترفُ في محلٍّ بوضوح بالغ: أنَّ الطَّبعيات ، والرياضيات ، وما إلى

(١) الرد على البكري: ص ١٤٣.

ذلك موضوعٌ خاص بفلاسفةِ اليونان ، ومجالِ تفكيرهم ، ودراستهم ، يقول:

«لكنْ لهمْ معرفةٌ جيدة بالأمور الطبعية ، وهذا بَحرُ علمهم ، وله تفرغوا ، وفيه ضيَّعوا زمانهم» [١].

إنَّه يُبدي رأيه في العلم الرياضي لليونان ، يقول في كتابه الشهير «الرد على المنطقيين» :

«فهذه الأمورُ وأمثالُها مما يَتكلَّم فيه الحُسَّاب أمرٌ معقول مما يَشترك فيه ذوو العقول ، وما من أحد من الناس إلا يَعرف منه شيئاً ، فإنه ضروري في العلم ، ضروريٌّ في العمل ، ولهذا يُمثِّلون به في قولهم: الواحد نصف الاثنين ، ولا ريبَ أن قضاياه كلِّية واجبة القبول ، لا تَنتقِض ألبتَـة» [٢].

فلسفـة الإلهيات ، المجـالُ الرئيسـيُّ للخِـلاف:

إنَّ الجانبَ المهم الذي يُعارضه ابن تيمية في فلسفة اليونان هو جانب «الإلهيات» إنَّه يؤكد عجزَ فلسفة اليونان عن إدراك سرِّ الإلهيات ، وفقرها ، وقلة بضاعتها في ذلك ، ويُثبت مرة أخرى إخفاق فلاسفة اليونان ، وخيبتَهم ، وجهلَهم بذلك ، إنه يعتقد: أنَّ هذا الجانب المهم لم يكن مجالاً لفلسفة اليونان ، ولا مضماراً لتفكير فلاسفتها ، وموضع بحثٍ لدراستهم ، وإنَّهم بخوضهم في هذا الموضوع إنما تعدَّوا حدُودهم ، ومَهَّدوا الطريق لتحقير شأنهم ، والضحك عليهم يقول:

«للمُتَفلْسِفة في الطبعيَّات خوضٌ ، وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فإنهم أجهلُ الناس بها ، وأبعدُهم عن معرفة الحق فيها ، وكلامُ أرسطو معلِّمهم فيها قليلٌ كثيرُ الخطأ» [٣].

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٥٧.

(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٣٤.

(٣) معارج الوصول: ص ١٨٦.

وفي موضع آخر حيث يَعترف باطِّلاعهم على الطبيعيات ، ويذكر إفلاسهم في الإلهيات يقول:

«وأمَّا معرفةُ الله تعالى فحظُّهم منها مَبخوسٌ جداً ، وأما ملائكتُه ، وكتُبه ، ورسُله؛ فلا يعرفون ذلك ألبتة ، ولم يتكلَّموا فيه لا بنَفْيٍ ، ولا بإثبات ، وإنما تكلَّم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل» [١].

يقولُ ابن تيمية : إنَّ أساطين فلسفة اليونان ، وأركانَها يعترفون هم أنفسُهم بأنَّهم لا يملكون وسائل ، ومبادىءَ اكتساب هذا العلم ، وصرّحوا بأن التوصل إلى اليقين في هذا الموضوع يصعبُ عليهم أيَّما صعوبة ، يقول:

«بل قد صرَّح أساطين الفلسفة : أنَّ العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين ، إنما يُتكلم فيها بالأحرى والأَخْلق ، فليس لهم فيها إلا الظَّن ، وإن الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً» [٢].

المُقارنةُ بين الإلهيات اليونانية وعلومِ الأنبياء وتعاليمِهم:

إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحثَ العلوم الإلهية لفلسفة اليونان ، وأقوالَ فلاسفتهم الذين يُقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم السلام ، يقول في حماسٍ زائد وقوةٍ بالغة:

«إذا نَظر في كلام مُعلِّمهم الأول ـ أرسطو ـ وتَدبَّرهُ الفاضلُ العاقل لم يُفِدْه إلا العلم بأنهم كانوا من أجهلِ الخلق برب العالمين ، وصار يتعجَّب تَعجُّباً لا ينقضي ممن يَقرنُ عِلمَ هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى: أنَّ هذا من جنس من يَقرِن الحدَّادين بالملائكة ، بل من يقرن دهاقين القُرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العِلم والعدل ممن يَقرن هؤلاء بالأنبياء ، فإنّ دُهقان القرية مُتَولٍّ عليها كتولّي الملكَ على مملكته ، فلَه جُزءٌ من المُلك».

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ٥٧.

(٢) نقض المنطق ص ١٨٧.

«وأمَّا ما جاءتْ به الأنبياء؛ فلا يَعرفه هؤلاء ألبتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كُفَّار اليهود ، والنصارى أعلمُ منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا يناله غيرهم ، فإن هذا ليس من علمهم ، ولا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلومَ العقلية التي بيَّنها الرسلُ للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده ، ومعرفةِ أسمائه وصفاته ، وفي النُّبوات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تُورِث السعادة في الآخرة ، فإن كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدل عليها ، وأما ما اختصتِ الرسل بمعرفته ، وأخبرتْ به من الغيب؛ فذلك أمر أعظم من أن يُذكر في ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية ، دعْ ما جاءت به الأنبياء فإنَّه مرتبة عالية»[(١)] .

جَهْلُ فَلاسفةِ اليُونان وإنكارُهم:

وَيشرحُ ابنُ تيمية الأسباب التي دعتْ فلاسفة اليونان إلى الجهل بالعلوم الإلهية ، وقِصر باعهم فيها ، وفي كثيرٍ من الحقائق الغيبية ، وإنكارِ الموجودات ، يقول:

«أمَّا الغيب الذي تُخبر به الأنبياء ، والكُلِّيات العقلية التي تَعم الموجودات كلها ، وتقسِم الموجودات قِسمةً صحيحة؛ فلا يَعرفونها ألبتة ، فإن هذا لا يكون ممن أحاطَ بأنواع الموجودات وهم لا يَعرفون إلا الحساب ، وبعض لوازمها ، وهذا معرفةٌ بقليل الموجودات جداً ، فإنَّ ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظمُ قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير.

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفَتْهُ الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجنة ، والنار ، وهم يظنون أنْ لا موجود إلا ما علموه ، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأوِّلين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا النفي عِلم ، فإنَّ عدم

(١) الرد على المنطقيين: ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

العلم ليس علماً بالعدم ، لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب لِلجن؛ لأنه ليس في صناعة الطِّب ما يَدُلُّ على ثبوت الجن ، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجُودَ الجن.

وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم ، وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه ، فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه ، وبنو آدم ضَلالُهم فيما جحدوه ، ونفُوه بغير علم أكثرُ من ضلالهم فيما أثبتوه ، وصدَّقوا به ، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩]»[١].

اليُونان عُبّاد الكَواكب والأوثان:

يَتبيَّنُ من تاريخ يونان القديم: أنَّ يونان التي مَنحتِ العالم تُراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والرياضية ، وتولَّت قيادَة الدنيا العقلية والفكرية لآلاف من السنين ، ظلَّت تعبد الكواكب والأصنام في مُعظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسَة الأوهام والخرافات الكثيرة.

إنَّ التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وَجه عِلم الأصنام في اليونان ، ووثنيَّتها القومية ، فلم يعدِ الآن من شك: أنَّ يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ، ومعابد الكواكب ، وهياكلها ، إنَّ فلسفة اليونان التي وصلت إلى العالم الإسلامي عن طريق الترجمة ، ثم انتقلت إلى أوربة إنما هي مُصطبغة بصبغة الوثنية ، وعبادة الكواكب هذه ، لقد نقل فلاسفة اليونان عقائدَهم الدينية ، وأفكارهم المشركة إلى مُصطلحات الفلسفة الهائلة ، وتلقَّاها علماءُ الفلسفة المسلمون ـ الذين لم يكونوا مطَّلعين على تاريخ اليونان الديني ـ كحقائقَ علمية ، وجعلُوها موضع دراستهم ، وتفكيرِهم ، وبذلوا جهودهم لإثباتها.

وممَّا يدل على ذكاء ابن تيمية ، وألمعيَّته: أنَّه كشف الستار عن هذه النقطة قبل قرون ، يقول:

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٠ ـ ٣٥٦.

«أمّا قُدماء اليونان؛ فكانوا مشركين من أعظم الناس شِركاً ، وسحراً ، يَعبدون الكواكب ، والأصنام ، ولهذا عَظُمتْ عناياتهم بعلم الهيئة ، والكواكب لأجلِ عبادتها ، وكانوا يَبنون لها الهياكل» (١) .

ويقول في موضع آخر:

«ولهذا كان رُؤوسهم المتقدمون ، والمتأخِّرون يأمرون بالشرك ، فالأَولون يُسمُّون الكواكب الآلهة الصغرى ، ويَعبدونها بأصناف العبادات ، كذلك كانوا في مِلَّة الإسلام لا ينهون عن الشرك ، ويُوجبون التوحيد ، بل يُسوِّغون الشرك ، ويأمرون به ، أو لا يُوجبون التوحيد» (٢) .

الفَرقُ بين المتقدّمين والمتأخرين من فَلاسفة اليونان:

وممّا يُؤكِّد دِقّة الفهم ، وحُسن التوصل إلى الحقيقة لدى ابن تيمية: أنّه قام بالتَّفريق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان ، إنه يعتقد: أنَّ المتقدمين على «أرسطو» كانوا أقربَ إلى فهم الحقائق الغيبية ، ومعرفةِ المفاهيم الدينية وأفكارها؛ إذ لا يتجلى فيهم ذلك الاتجاه نحو رَفْضِ الحقائق الغيبية وإنكارها الذي يتجلى في أرسطو بكلِّ وضوح ، إنه يقول في موضع:

«هؤلاء المتفلسفة أتباعُ أرسطو لم يَسلُكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين ، فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون: إن فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ الجنة ، وكانوا يُثبتون معاد الأبدان كما يوجد هذا في كلام سقراط ، وتاليس ، وغيرهما من أساطين الفلاسفة» (٣) .

---

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٠ ـ ٣٥٦.
(٢) نقض المنطق: ص١٧٧ .
(٣) تفسير سورة الإخلاص: ص ٦٧ .

أرسطو أبعدُ عن الحقائق الدّينية:

وسَببُ هذا الفرق الذي يراه ابن تيمية بين المتقدمين منهم ، والمتأخرين هو: أنَّ المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقتْ لهم السياحةُ في البلدان التي بُعث فيها الأنبياء عليهم السلام ، فتسنَّى لهم الاطلاع على الحقائق الدينية ، أما أرسطو فلم يَـتَّفق له ذلك ، إنه يتحدث عن ذلك روايةً عن بعض المؤرخين:

«وسببُ ذلك ما ذكره طائفة ممَّن جمع أخبارهم: أنَّ أساطين الأوائل ـ كفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون ـ كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام ، ويَتلقَّون عن لقمان الحكيم ومن بعدَه من أصحاب داود ، وسليمان ، وأنَّ أرسطو لم يُسافر إلى أرض الأنبياء ، ولم يكنْ عنده من العلم بأثارةِ الأنبياء ما عند سلفه ، وكان عِنده قدر يسيرٌ من الصابِئيَّة الصحيحة ، فابتدَع لهم هذه التعاليم القياسية ، وصارتْ قانوناً مشى عليه أتباعُه» [1].

ومِن سوء الحظِّ: أنَّ فلسفة أرسطو هي التي نالتْ رواجاً في العالم الإسلامي ، وهي التي اشتهرت في العهد الأخير بفلسفة اليونان ، يقول ابن تيمية:

«ولكنَّ هذه الفلسفة التي يَسلكها الفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، والسَّهرورديُّ المقتول ، ونحوه فلسفة المشَّائين ، وهي المنقولة عن أرسطو الذي يُسمُّونه المعلِّمَ الأول» [2].

مَكانة الإله في الفَلسفة اليُونانية:

وفي فلسفة أرسطو هذه لم تعد فكرة الإله ، وذاتِه إلا وجوداً ذهنياً فقط ، يقول:

«فإذا تصوَّر العاقل أقوالهم حق التَّصوُّر؛ تَبيَّن له: أنَّ هذا الواحد الذي

(١) نقض المنطق: ص ١١٣.
(٢) الرد على البكري: ص ٢٠٦.

أثبتوه لا يُتصور وجوده إلا في الأذهان ، لا في الأعيان» [١] .

إنَّ أسلوب المبالغة الذي اتَّخذه الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإله ، وصفاته ، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال ، وعن المحاسن ، والامتيازات التي يتمتع بها أدنى الخلق ، يعتقدُ ابن تيمية على أساس هذه الاعتقادات الفاسِدة: أنَّه لا يُمكن إهانةُ الله أكثر من هذا ، إنَّه يتحدث عن هذه الحقيقة ضمن ما ينقل من الأقوال:

«لقد أحسَن بعضُ الفضلاء؛ إذ قال: الصَّفعُ أحسن من توحيد الفلاسفة ، بل قصَّرَ فيما قال» [٢] .

فلاسفةُ الإسلام مُقلّدون بَحتٌ لليونان:

إنَّه يرى: أنَّ المتأخِّرين من الفلاسفة الذين نشؤوا في العَهد الإسلامي إنما هم مُقلّدون عميان لأرسطو وفلسفته ، وبتَقَيُّدهم بالتقليد تقع منهم أخطاء فاحشة كبيرة ، ويُوجد في كلامهم تناقض شديد ، يشكو ابن تيمية تألمه الشديد ، ويُبدي عتابه على هؤلاء الفلاسفة المسلمين الذين جَحدوا تلك النعمة التي وصلت إليهم عن طريق رسول الله ﷺ ، ولم يَستفيدوا من نور الهداية الذي كان بمتناول أيديهم ، بل إنهم أرادوا أن يَحجُبوا ذلك النور ، ويحولوا دون ضيائه ، يقول:

«إنَّ هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام من أَجهل الخلق عند أهل العلم والإيمان ، وفيهم من الضَّلال ، والتناقض ما لا يخفى على الأذكياء الصبيان؛ لأنهم لما التزَموا ألاَّ يسلكوا إلا سبيل سَلَفهم الضالين ، وألاَّ يُقروا إلا بما يَبْنُونه على تلك القوانين ، وقد جاءهم من النور والهدى والبيان ما ملأ القلوب ،

(١) تفسير سورة الإخلاص: ص ٣٧.
(٢) الرد على المنطقيين: ص٢٢١.

والألسنة ، والآذان ، صاروا بمنزلة من يُريد أن يطفئ نور الشمس بالنَّفخ في الهَباء ، أو يُغطي ضوءها بالعَباء» (١).

ابنُ سينا جاهلٌ بحقيقة النُّبوة وَمنصِبها:

إنَّ الفلاسفة الذين حاولوا شرح الحقائق الغيبية ، والعقائد الدينية تقليداً للفلسفة ، واتباعاً لأرسطو ، وأرادوا تفهم هذه الحقائق والعقائد ، وإفهامها في ضوء الفلسفة ، ومعتمدين عليها؛ يتناولهم ابنُ تيمية بنقدٍ لاذع ، ولا يترك في ذلك حتى أولئك الفلاسفة الذي يُسمَّون بحكماء الإسلام ؛ إذ أن هذه الحقائق والعلوم الغَيبية لا تُدرك بمساعدةِ فلسفة اليونان ، ومُجرَّد أصولِها ومبادئها ، إنَّه ينتقد قبل كل شيء ابنَ سينا الذي يُعتبر خليفةَ أرسطو الكبير في الشرق الإسلامي ، وشارحَ فلسفته العظيم ، يقول:

«بيَّن ابنُ سينا أمرَ النبوة: أنها من قِوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتةٌ ، وكل هذا كلامُ من لا يَعرف النبوة ، بل هو أجنبيٌّ عنها ، وهو أنقصُ ممن أراد أن يقرر: أنَّ في الدنيا فقهَاء ، وأطباء ، وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدلَّ بوجود الشُّعراء على وجود الفقهاء ، والأطباء ، بل هذا المثال أقربُ ، فإن بُعْدَ النبوة عن غير الأنبياء أعظمُ من بُعد الفقيه ، والطبيب عن الشاعر ، ولكنَّ هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريجَ ذلك على أُصول قومٍ لم يَعرفوا الأنبياء» (٢).

ويقولُ في موضعٍ آخر:

«وأبعَدُ هؤلاء عن النَّبوةِ المتفلسفةُ ، والغلاة ، والملاحدةُ ، فإنَّ هؤلاء لم يَعرفوا النبوة إلا من جهة القَدْر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو ، وأتباعه كلامٌ في النُّبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يُفَضِّل هو وأمثالُه الفيلسوفَ على النبي ، وابنُ سينا

(١) الرد على البكري: ص ١٦٨.

(٢) النبوات: ص٢٢.

عظَّمها أكثر من ذلك ، فجعل للنبيِّ ثلاث خصائص :

إحداها: أن ينالَ العلم بلا تَعلم ، ويُسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحَدسيَّة عنده .

والثاني: أن يتَخيَّل في نفسه ما يعلمُه ، فيرى في نفسه صُوراً نورانيةً ، ويَسمع في نفسه أصواتاً ، كما يرى النائم في نومه صوراً تُكلِّمه ، ويَسمعُ كلامهم ، وذلك موجود في نفسِه لا في الخارج. فهكذا عند هؤلاء جميعُ ما يختصُّ به النبيُّ ممَّا يراه ، ويسمَعُه دون الحاضرين ، إنما يراه في نفسه ويسمعُه في نفسه ، وكذلك المَمرورُ عِندهم.

والثالث: أن يكون له قوة يَتصرَّف بها في هيولى العالم بإحداثِ أمور غريبة ، وهي عندهم آياتُ الأنبياء ، وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قُوةٍ نفسانية ، أو ملكية ، أو طبعية. . . وهؤلاء عندهم جميع ما يَحصُل في نفوس الأنبياء إنما هو من فَيض العَقل الفعَّال.

ثم إنَّهم لمَّا سمعوا كلاَم الأنبياء؛ أرادوا الجمعَ بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء ، فيضَعونها على معانيهم ، ويُسمُّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ، ثم يتكلمون ويصِفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظن من لم يعرفْ مُراد الأنبياء ومرادَهم: أنَّهم عَنوا بها ما عَنَتْهُ الأنبياء ، وضلَّ بذلك طوائفُ ، وهذا موجود في كلام ابن سينا ، ومَن أخذَ عنه» [١].

نقصُ عِلم الكَلام وتَردُّد المُتكلِّمين:

لا يَكتفي شيخُ الإسلام ابنُ تيمية بتوجيه انتقاده إلى فلاسفة اليونان ومقلِّديهم من متفلسفي الإسلام فحسب ، بل يتعدَّاهم إلى أولئك المتكلمين الذين وإن حاولوا الدفاع عن الإسلام إلا أنهم اتخذوا أساليب الفلسفة ،

(١) النبوات: ص ١٦٨.

ومقدماتها ، ومُصطلحاتها الناقصة المحدودة لإحقاق الحقائق الغيبية الدينية التي كانت تختص بمفاهيمها الخاصة ، وكانت ترتبط بها تقاليدُ ، وانطباعاتٌ خاصة ، إنه يقول في «كتاب النبوات» :

«كلامُهم في الخَلْق ، والبَعْثِ ، والمَبـدأ ، والمعاد ، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلاً ، ولا نقلاً ، وهم مُعترفون بذلك كما قال الرازي : «لقد تأملتُ الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تَشفي عليلاً ، ولا تَروي غليلاً ، ورأيتُ أقرب الطرق طريقةَ القرآن ، أقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وأقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦]، ثم قال: ومَن جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مِثْل معرفتي ، وكذلك الغزاليُّ ، وابنُ عقيل ، وغيرهما يقولون ما يُشبه هذا ، وهو كما قالوا» (١).

ويقول في موضع آخر :

«وسَببُ ذلك إعراضُهم عن الفطرة العقلية ، والشرعة النبوية بما ابتدعه المُبتدعون ، ممَّا أفسدوا به الفطرة ، والشِّرعة ، فصاروا يُسفسِطون في العقليات ، ويُقرمِطون في السمعيات» (٢).

ويَتحدَّث عن مواضع الضَّعف في المُتكلمين ، فيذكر أسئلتهم ، وشُبهاتِهم في غاية من القوة غالباً ، وأجوبتُها ضعيفةٌ بالنسبة إليها في بعض الأحيان ، إنه يرى: أنَّ ذلك أحياناً يصيب أولئك الذين يعتقدونهم مُدافعين عن الإسلام ومُمثِّليه بأضرار بالغة ، والذين لا يدورون في دراستهم إلا في فَلَكهم ، إنَّه يقول :

«لمَّا تكلَّموا في إثبات النبوة؛ صاروا يُورِدُون عليها أسئلة في غاية القوة

---

(١) النبوات: ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق: ص ١٤٨.

والظهور ، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة ، كما ذكرنا كلامهم ، فصار طالب العلوم ، والإيمان ، والهدى من عندهم ـ لا سيما إذا اعتقد : أنَّهم أنصار الله ، ونُظَّاره والقائمون ببراهينه ، وأدلته ـ إذا عرف حقيقة ما عندهم ؛ لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء ، بل وَجده يَقدح في الأنبياء ، ويُورث الشكّ فيها ، أو الطعن ، وأنها حُجَّةٌ لمكذِّب الأنبياء أعظمُ مما هي حُجَّةٌ لمصدِّق الأنبياء ، فانسد طريق الإيمان والعلم ، وانفتَح طريق النفاق والجهل ، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه»[1].

الخَطأ المُشاع بين المُتكلِّمين والفلاسفة ومواضعُ ضعفِهم:

يَعتقد ابن تيمية : أنَّ المتكلِّمين ، والفلاسفة كُلَّهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ ، وأنَّ خطة عملهم واحدةٌ بالرغم من جميع الخلافات التي توجد بينهم ، إن خطأ كلٍّ من هؤلاء ، وضعفَهم: أنَّهم حاولوا أن يعتمدوا على الحَدْس في الحصول على الشيء الذي لا يَحصل بالحَدْس والتَّخمين، وصارعوا الفطرة والنبوة كِلتيهما ، ولذلك فإنَّ تحقيقاتهم إثمُها أكبرُ من نفعها.

التَّكلُّف والتَّطويل:

إنَّه يرى : أنَّ دلائلَ المتكلمين ، والفلاسفة ، وأسلوبَ استدلالهم يتضمَّن تطويلاً ، وتكلُّفاً لا طائل تحتهما ، فإنّ الحقائق ، والمقاصد التي تناولها المتكلِّمون ، وحاولوا إثباتها بِدلائلَ ، ومقدمات طويلة مطولة إنَّما يمكن إثباتها بغاية من الاختصار ، وأسلوب يَتفق مع الفطرة.

لقد سلك المتكلِّمون والفلاسفة لإثبات مقاصدهم طريقاً طويلاً وَعِراً ، إنَّه يضرب لذلك مثلاً بِقَول بعض السلف: سُئل رجل أين أذنك؟ فتكلف في الجواب بحيثُ طاف بيمينه رأسَه ، وأوصلها إلى أذنه اليسرى ، ومَسكها بها في غاية من العُسر ، على أنه كان يستطيع بكل سهولة أن يُشير بيده اليمنى ، أو اليسرى ، وتمثَّل بالمناسبة ببيتِ الشاعر :

---

(١) النبوات: ص ٢٤٠.

أَقـــام يَعَمـــلُ أَيـــامـــاً رَوِيَّتَـــه وشَبَّـه المـاءَ بعـدَ الجُهـدِ بـالمـاء

لا اعتمادَ على دلائلِ المتكلِّمين:

إنَّه يُعارِض المتكلِّمين فيما يزعمون من أنَّ تحقيق هذه المقاصد إنَّما يحتاج إلى نفس الاستدلالات، والمقدمات التي اصطنعها هؤلاء المتكلمون بدون أن يكون هناك طريق آخر إلى ذلك، وهو يعتقد في هذا الخصوص: أنَّ هذه المقدمات، وطريق الاستدلال وإن كانت صحيحة، ولكن من الخطأ أن يزعم أنه ليس هناك أي طريق آخر للاستدلال، ولا مقدّماتٌ غيرها، وذلك لأن الدراسة، والتجارب تؤكدان «أن المطلوب كلَّما كان الناس إلى معرفته أحوج، يَسَّر الله على عقول الناس معرفةَ أدلته، فأدلةُ إثبات الصانع، وتوحيده، وأعلامه، وأدلَّته كثيرة جداً، وطُرق الناس في معرفتها كثيرة، وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره، أو من أعرض عن غيره»[1].

لا يَنتفعُ بهذا الأسلوب إلا طبقةٌ من الناس:

وبالرَّغم من ذلك فإنه يعترف: أنَّ بعض الناس ينتفعون بِهذا الأسلوب من الاستدلال، والمقدمات الكلامية، والمنطقية، وذلك بحكم عقْليَّتهم، وعادتهم الخاصة التي يتَميزون بها عن غيرهم، وهم لا يقتنعون بغيره من الأسلوب، ولكنَّ ذلك لا يعني: أنَّ العلم، واليقين يتوقفان على هذه الطرق، بل إنها حالةٌ عقلية تحدث بتأثيرِ بيئةٍ وتربية خاصة، وظروف نفسية خاصة، إنه يقول:

«وبعضُ الناس يكون الطريق كلَّما كان أدقَّ، وأخفى، وأكثر مقدمات، وأطولَ؛ كان أنفع له، لأنَّ نفسه اعتادتِ النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليلَ المقدمات، أو كانتْ جليَّةً؛ لم تفرح نفسُه به، ومثل هذا قد يُستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية، وغيرُها؛ لمناسبتها لعادته، لا لكونِ

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٥٥.

العلم بالمطلوب متوقفاً عليها مطلقاً ، فإنَّ من الناس من إذا عرف ما يعرفُه جمهور الناس ، وعمومُهم ، أو ما يمكن غيرَ الأذكياء معرفتُه؛ لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم ، فيُحِبُّ معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات ، وهذا يُسلك معه هذه السبيل» (١).

استدلالُ القُرآن أبلغُ وأكثرُ تأثيراً في النَّفس:

إنَّه يُثبت في كتاباته بكل تأكيد: أنَّ أسلوب القرآن ومنهَجه في الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبية ، وإبداء مقاصد الشريعة ، وتحقيقِ الحقائق الدينية أبلغُ من كلِّ أسلوب ، وأشد تأثيراً في النفس من أيّ استدلال آخر ، يقول:

«وبينٌ: أَنَّ ما عند أئمة النظَّار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أبلغ ، وأكمل منها على أحسن وجه، مع تنزُّهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء» (٢).

ويقول في موضع آخر:

ولهذا كانتِ الأَقيسَةُ العقليةُ البرهانيةُ المذكورةُ في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته ، وإلهيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإمكان المعاد ، وغير ذلك من المطالب العالية السَّنية ، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم ، وأعظمُ ما تكملُ به النفوس من المعارف» (٣).

الفَرق الأساسي بين القرآن والفَلسفة في ذاتِ الله تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطةٍ عِلمية مُهمة وهو يتحدث عن الفَرْق المَبدئِيِّ بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته ، يقول:

«والقُرآن أثبتَ الصفاتِ على وجه التفصيل ، ونفَى عنها التمثيل ، وهي

---

(١) الرد على المنطقيين: ص٢٥٥.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٢١.
(٣) المرجع السابق: ص ١٥٠.

طريقة الرسل ، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّل ، ونفي مُجمَل ، وأعداؤهُم جاؤوا بنفيٍ مفصَّل ، وإثباتٍ مُجمل»[1].

نَـفـيُ الصّفـات ، وتـأثيرُه علـى الحياةِ كُلِّها:

إنَّ مكتبة الفلسفة اليونانية بأسرها تُصَدِّق النقطةَ التي توصَّل إليها ابن تيمية ، فإنَّ المبالغة والاهتمام اللذين بذلهما فلاسفة اليونان في نفيِ الصفات إنما جعلَ ذلك وجود الإله فكرةً ذهنية ، وشخصيةً عقيمةً مجهولةً عاجزةً.

أمَّا عن كيفية الإله وحقيقته ؛ فلا يعدو مفهوم ذلك عندهم عدداً من الكلمات ، ومصطلحات فلسفية ، مما أدى إلى أنَّ الأوساط الخاضعة لفلسفة اليونان ـ سواء في داخل يونان ، أو خارجها ـ ظلَّت محرومة من أيِّ صلة حية ، وعلاقة عملية بالله تعالى ، وذلك لأن هذه العلاقة الحقيقية ، والعملية ؛ التي تنبُع من القلب والعاطفة إنما تحتاج إلى أسماء الله تعالى ، وصفاتِه ، وأفعاله ، بينما الفلسفة مُلحَّةٌ على نفيها.

إنَّ تاريخ العالم العقلي كلَّه شاهدٌ على أن الإنسان لم يتصل عاطفياً ، ولا قلبياً بأيَّة شخصية مجهولة لا يعرفُ شيئاً عن صفاتها ، وأفعالها ، ومما لا يخفى: أنَّ الحب والخوف ، والأمل والرجاء ، والطَّلَب والسؤال ، كلُّ ذلك يحتاج إلى الصفات ، تلك التي تتجرد عنها فلسفة اليونان ، ومن ثمَّ اتفق مؤرخو الأخلاق ، والأديان على أنَّ صلة اليونان ليست سطحيةً ضعيفة بالله تعالى فحسب ، بل هي صِلَة ضعيفة بالدين أيضاً من غير أن تَتَّسِمَ بروح ، أو عُمق.

وقد صدَقَ الإمام ابن تيمية إذ قال: «إنَّ مئات الآلاف من النَّفي لا يقوم مقام إثباتٍ واحد» والحقيقة: أنَّ النفي المجرد لا يقوم عليه بِناء دين وحياة.

ولعلَّ فلسفة اليونان في الغَرب ، والديانة البوذية في الشرق أخفَقتا في بناء

(١) النبوات: ص ١٥٣.

مجتمع إنساني يقوم على أساس فكرة الإله من أجل ذلك ، وقد أنتج هذا : أنَّ الوثنية إذا تسرَّبت في أوساط إحدى هاتين الفلسفتين؛ عمَّ الإلحاد في أوساط الأخرى ، وذلك لأن الجماهير ـ الذين هم مَفطُورون على العبادة ، والإيمان بالله ـ لا يرضَون بفلسفةٍ تضغط كل الضغط على الرياضة العقلية والأفكار الفلسفية من غير أن تُهيِّىء للقلب والعقل غذاءً من الحبِّ والمعرفة .

مِيـزَةُ الصحـابة رضـي اللهُ عنهـم:

إنَّه يرى : أَنَّ ما حصل للصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ الذين درجوا في ظلِ النبوة من معرفةٍ ، وعلوم متكاملة عميقة بدون أن تشوبَهم شائبةٌ من التَّكَلُّف ، كل ذلك كان نتيجة التربية الصحيحة التي نالوها في رعاية النبي ﷺ .

إنه يُوازن بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثَّروا بالفلسفة وعلم الكلام ، ويقول :

«وأصحابُ محمَّد ﷺ كانوا ـ مع أنهم أكبر الناس علماً نافعاً ، وعملاً صالحاً ـ أقلَّ الناس تكلفاً ، يَصدر عن أحدهم الكلمة ، والكلمتان من الحكمة ، أو من المعارف ما يهدي اللهُ به أمة ، وهذا من مِنن الله تعالى على هذه الأمة ، وتجدُ غيرَهم يحشُون الأوراق من التكلُّفات ، والشَّطَحات ما هو من أعظم الفُضول المبتَدعة ، والآراء المختَرعة»[1] .

سِحْـر المَنطق اليوناني ، وهَيبَـتُه فـي العَالـم الإسـلامي:

تناولَ الإمامُ ابن تيمية علمَ المنطق الذي كانتْ تفتخرُ به اليونان بالنقد اللاذع بعد ما انتقدَ الفلسفة اليونانية بتفصيل وإجمال ، وردَّ كثيراً من بحوثها ، وقضاياها بأسلوب عقلي واستدلالي بحت ، وأثبت أنَّها لا تقوم إلا على أساس مُتضعضع ضعيف .

ولقد كان علماءُ الإسلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى الفلسفة ،

(١) نقض المنطق: ص١١٤ .

ومتَّفقين بوجهٍ عام على كونه معقولاً مدلَّلاً ، ومُحكَماً مبرهَناً.

وكانتْ كُتب المنطق نالتْ رواجاً عامّاً في القرن الثالث كما ذكره صاعد القرطبي ، ولمَّا جاء الإمام الغزالي في القرن الخامس؛ اهتم بالمنطق ، واعتبره مُقدِّمة للعلوم كلِّها، إنه يقول في مقدمة كتابه الكبير «المستصفى»: «هي مُقدِّمة العلوم كلها ، ومن لا يُحيط بها فلا ثِقَة بعلومه أصلاً» [١].

ويقول في كتابه الآخر «مقاصد الفلاسفة»:

«أمَّا المنطقيات؛ فأكثرُها على منهج الصواب ، والخطأُ نادر فيها بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد؛ إذْ غَرضُها تهذيب طرق الاستدلالات ، وذلك مما يَشترك فيه النُّظار» [٢].

وفي القَرن السابع ظهر الفيلسوف ، والحكيم الشهير ابن رشد ، فكان مُغالياً في المنطق ، واثقاً به إلى حد: أنَّه كان يعتبرُه منبعَ السعادة البشرية ، ومقياسها الأصيل ، وكان يرى من المستحيل أن يتوصل الناسُ إلى الحقيقة بدونه ، يتحدَّث عنه أحد مترجمي حياته:

«كان متهوِّساً بمنطق أرسطو ، وقال عنه: إنَّه مصدرُ السعادة للناس ، وإنَّ سعادة الإنسان تُقاس بعمله بالمنطق ، والمنطق أداة تُسهِّل الطريق الشاقة في الوصول إلى الحقيقة التي لا يصل إليها العامة ، بل بعض الخاصة بفضل المنطق» [٣].

لقد تناولَ علماء الإسلام سِجلَّ هذا المنطق اليوناني بيدٍ من الإجلال والاحترام ، وكانوا متهيِّبين لدعاويه ، ومقدماته ، وأصوله ، وكلِّياته ، أما الفلسفة فقد أُخذت بالنقد والإيرادات بعد فترات طويلة إلى حد ما ، ولكنَّ

---

(١) المستصفى: ص ١٠ ج١.

(٢) مقاصد الفلاسفة: ص٣.

(٣) تاريخ فلاسفة الإسلام: محمد لطفي جمعة ص ١٢٠ ـ ١٢١.

المنطق لم يتناوله أحد ـ فيما نعلم ـ بالمحاسبةِ العلمية والتشريح ، وليس هناك كتاب كبير يتحدث عن هذا الموضوع في تفصيل وتحقيق.

المَنطِقُ ليسَ ميزاناً للعُلوم العَقلية:

ولكنَّ الإمام ابن تيمية هو أول من ركَّز اهتمامه على المنطق ، وجعلَه موضوعاً مستقلاً بذاته ، وأخذه بالنقد والبحث بكل حرية واجتهاد ، فله كتابٌ مُجملٌ ومختَصر باسم «نقض المنطق» وآخر مفصل باسم «الرد على المنطقيين»[1] في هذا الموضوع ، إنه يبحث في الكتاب الثاني عن قضايا المنطق ودعاويه ، وحدودِه ، وكلياته ، وجُزئيّاته بتفصيل ، وأثبتَ أنَّ الأهمية التي حصلت للمنطق من قِبَل علماء الإسلام ، واعتبارِهم إياه علماً ثابتاً ، ومسلماً لا يستند إلى صحة ، إنَّه يرفُض أن يكون المنطق ميزاناً للعلوم العقلية ، ويتوقَّف عليه الاستدلال ، والاستنتاج ، والتوصل إلى علم اليقين.

يقول: «وهؤلاء يقولون: إنَّ المنطق ميزان العلوم العقلية ، ومُراعاته تعصِم الذهن عن أن يغلط في فكر. كما أنَّ العروض ميزان الشعر ، والنحوَ والتصريف ميزانُ الألفاظ العربية المركبة والمفردة ، وآلاتِ المواقيت موازينُ لها.

ولكنْ ليس الأمر كذلك ، فإن العلوم العقلية تُعلم بما فطر الله عليه بني آدم من أسباب الإدراك ، لا تقف على ميزان وَضْعيٍّ لشخص معين ، ولا يُقلَّد في العقليات أحدٌ بخلاف العربية ، فإنها عادة لقوم لا تُعرف إلا بالسماع ، وقوانينُها لا تعرف إلا بالاستقراء بخلاف ما تُعرف مقادير المكيلات ، والموزونات ، والمذروعات ، والمعدودات ، فإنها تفتقر إلى ذلك غالباً ، لكن تعيينُ ما به يكال ، ويوَزن بقدرٍ مخصوص أمرٌ عاديٌّ.

---

(١) صدر هذا للكتاب أخيراً عن المطبعة القيمة في بومباي (الهند) ، ويتحلَّى بمقدمة قيمة للعلامة السيد سليمان الندوي ، والكتاب يقع في (٥٤٥) صفحة ، ينبغي ألا تفوت أهل الفنّ مطالعة هذا الكتاب.

وقد كانتِ الأممُ قبلهم تعرف حقائقَ الأشياء بدون هذا الوضع ، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم ، وجماهير العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلُّمٍ منهم بوضع أرسطو ، وهم إذا تدبروا أنفسهم؛ وجدوا أنفسهم تعلمُ حقائق بدون هذه الصناعة الوضعية» [١] .

مُعظَمُ الحُدود المنطقية ضَعيفةٌ لاثباتَ لها:

إنَّه لا يعترف بأن الحدود والتعاريف المنطقية كلها كاملة شاملة لا تحتمل أيما اعتراض ، أو نقض ، يقول:

«وصاروا يُعظِّمون أمر الحدود ، ويدَّعون أنَّهم هم المحقِّقون لذلك ، وأن ما يذكره غيرهم من الحدود إنما هي لفظيةٌ لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة بخلاف حدودهم ، ويسلكون الطرق الصَّعبة الطويلة ، والعبارات المتكلِّفةِ الهائلة ، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان ، وإتعاب الأذهان ، وكثرة الهذيان ، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان ، وشَغلُ النفوس بما لا ينفعُها ، بل قد يضلها عما لا بد لها منه ، وإثبات الجهل الذي هو أصلُ النفاق في القلوب ، وإن ادَّعوا: أنَّه أصل المعرفة والتحقيق» [٢] .

لا سَهْلٌ فيرتقى ولا سَمينٌ فيُنتقى:

إنَّـه يُثبت في مكانٍ: أنَّ المنطق في الواقع عملٌ يَصدُق عليه المثل: «لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمينٌ فَيُنْتَقَى»[٣] فإنَّ البحث ، والاجتهاد كثيران لا نهاية لهما ، ولكنَّ محصولَهما قليل لا عبرة به ، يقول في كتابه «نقض المنطق»:

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) المرجع السابق: ص ٣١.

(٣) [هذا ليس مثلاً بل هو جزءٌ من حديث أمِّ زَرْعٍ ، أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب حسن المعاشرة مع الأهل ، برقم (٥١٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب ذكر حديث أم زرع ، برقم (٢٤٤٨) ، والترمذي في «الشمائل المحمدية» برقم (٢٥٤) ، والنَّسائي في الكبرى (٥/ ٣٥٥) برقم (٩١٣٨) وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها].

«ومِن المعلوم: أنَّ القولَ بوجوبه قولُ غُلاتِه ، وجُهَّالِ أصحابه ، ونفسُ الحُذَّاق منهم لا يلتزمون قوانينَه في كل علومهم ، بل يُعرضون عنها ، إما لطولها ، وإما لعدم فائدتها ، وإما لفسادها ، وإما لعدم تميُّزها ، وما فيها من الإجمال والاشتباه ، فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جَمل غَثٍّ على رأس جبلٍ وَعِر ، لا سَهلٌ فيُرتقى ولا سَمين فيُنتقى» (١) .

تأثيرُ المَنطقِ على العَقل وقُوة البَيان:

ويرى : أنَّ المنطق طالما جنى على المرء ، فأَفقده نشاط الطبيعة ، وسَلاسة اللسان والأفكار ، ولا شكَّ فإنَّ الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي يُصابون بعجز اللسان ، وتعقيد البيان ، وتطويل الكلام ، وزَيغ في التفكير ، وأوضح مثال لذلك مُتون المتأخرين ، وكتب المناهج الدراسية المتقدمة ، يقول الإمام ابن تيمية :

«وما زال نُظَّار المسلمينَ يعيبون طُرق أهل المنطق ، ويُبينون ما فيها من العيِّ ، واللكْنَة ، وقُصور العقل ، وعجز المنطق ، ويُبينون: أنَّها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقربُ منها إلى تقويم ذلك» (٢) .

ويقول في موضع آخر: «إذا اتَّسعتِ العُقولُ ، وتصوراتُها؛ اتسعت عباراتُها ، وإذا ضاقتِ العقول ، والتصورات؛ بقي صاحبُها كأنه محبوسُ العقل واللسان ، كما يصيب أهلَ المنطق اليوناني ، تجدُه من أضيق الناس عِلماً وبياناً ، وأعجزِهم تَصوُّراً وتعبيراً ، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرَّف في العلوم ، وسلك مسلك أهل المنطق طَوَّلَ وضَيَّق ، وتكلَّف وتعسَّف ، وغايتُه بيان البَيِّن ، وإيضاحُ الواضح من العَيّ ، وقد يُوقعه ذلك في أنواعٍ من السفسطة التي عافى الله منها مَن لم يَسلك طريقهم» (٣) .

---

(١) نقض المنطق: ص١٥٥ .
(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٩٤ .
(٣) المرجع السابق: ص ١٦٧ .

بَعْضُ المُستَثنيَات:

لا يُطْبِقُ الإمام ابن تيمية عَينيه عن بعض أولئك الرجال الذين بَلغوا في العلوم اليونانية إلى درجة الإمامة ، ورغماً من انهماكِهم الشديد ، وشغَفِهم الزائد بهذه العلوم لم يَنقُصهم رُواء القلم ، وطلاوة الكتابة ، وذَوق الأدب الرفيع ، مثلاً ابن سينا الذي تعتبر قصيدته في الروح [1] نموذجاً عالياً للروح العربية ، وتتَّسم كتاباتُه بالحلاوة ، والبلاغة خلافاً لأهل الحكمة ، يَرى ابن تيمية: أنَّ ذلك فضلُ الاشتغال بالأدب الإسلامي العربي ، وفيضٌ للعلوم الإسلامية ولا شك فإنَّ حياة ابن سينا تُصدِّق ذلك ، يقول:

«ومَن وُجد في بعض كلامه فصاحةً ، وبلاغة كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره؛ فَلِمَا استفاده من المسلمين من عُقولهم ، وألسنتهم ، وإلا فلو مشى على طريقةِ سلفهِ ، وأعرض عما تعلمه من المسلمين؛ لكان عقله ولسانه يُشبه عقولهم وألسنتهم» [2].

رَأي إجمالي عَن المَنطق:

وبعد هذه الانتقاداتِ نطَّلع على رأيه الإجمالي عَن المنطق بلسانه ، يقول: «فَحقُّه النافع فطِري لا يُحتاج إليه ، وما يُحتاج إليه ليس فيه مَنفعةٌ إلا معرفة اصطلاحِهم ، وطريقِهم ، أو خطئِهم» [3].

ويقول في محلٍّ آخر:

«إنِّي كنت دائماً أعلمُ: أن المنطق اليوناني لا يَحتاج إليه الذكي ، ولا يَنتفعُ به البليد» [4].

---

(١) التي مطلعها:
هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

(٢) الرد على المنطقيين: ص ١٩٩.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٠١.
(٤) المرجع السابق: ص ٣.

مَكانَـةُ المَنطِـق الصحيحـةُ وفَائدتُـه:

ومهما لمَسَ القارئ نوعاً من التطرف في آراء ابن تيمية ، وأفكاره عن المنطق اليوناني ، ولوناً من المغالاة ، إلا أنَّ قُدسية المنطقِ وعظمته التي كانت تُسيطر على عقل العالم الإسلامي من بعد القرن الخامس أصيبت بصدمة ، وكان لا بد من ذلك ، فإنَّ أوساطنا الدراسية ، والعلمية قد أُولعت بالمنطق ، وأُعجبت به إلى حد المغالاة ، والمبالغة ، ويمكن أن يُقدَّر هذا الإعجاب بالمنطق من لم يكن له معرفة بالمنطق ، فإنه يُعتبر أجهلَ شخصٍ ، وأحمقِ رجلٍ لدى أهلها بالرغم من جميع ما يحمله من علم ، وفضل ، وذكاء .

وقد ظلَّ المنطق ، والفلسفة يُعرفان في الهند إلى مدة طويلة باسم «العقلانية» ، كما أَنْ كتبهما كانت تعرف باسم «كتب العقل» وكان من الطبيعي أن يُوجد هناك ردٌّ فعلٍ عنيف ضد هذا الغُلوِّ والولوع ، فقد يكون سبباً للفكر المتزن في هذا الموضوع ، وينالُ هذا العلم مكانَته الصحيحة مِن أجله .

إنَّ المنطق نوعٌ من الرياضة العقلية والفكرية ، ونستطيع أن نستخدمه كأداةٍ لتشحيذ الذهن ، فإن لم يتجاوز حدَّه هذا لا يعترض عليه أحد ، وإنَّ الإمامَ ابنَ تيميّة نفسَه يعترف بذلك ، ويقولُ في كتابه «الرد على المنطقيين» :

«وأيضاً فإنَّ النَّظر في العلوم الدقيقة يُفتِّـقُ الذهن ، ويُـدَرِّبُه ، ويُـقَـوِّيه على العلم ، فيصيرُ مثل كثرةِ الرَّمي بالنّشاب وركوب الخيل تُعين على قوة الرمي والركوب وإن لم يكن ذلك وقتَ قتال ، وهذا مَقْصدٌ حسن» [1] .

ولكنْ كُلُّ منصفٍ بالغِ النظر يخالف ما قد جَعله الناس غايةً عوضاً عن الوسيلة ، وأصلَ العلم بدلاً من المقدمة .

عَجْـزُ المَنطـق عـن مواجهـة الحَقـائق الدّينية والإلهيـة:

مِن قَديمٍ وُجِدتْ مغالطةٌ فيما يتَّصل بالمنطق والفلسفة ، وهي أنَّ أصولهما

---

(١) الرد على المنطقيين : ص ٢٥٥ .

وقواعدهما كما تعتبر عقلاً حاكماً حاسماً في العلوم العقلية؛ كذلك يُستعان بها في إثبات الحقائق الدينية والإلهية من غير أي تكلُّف ، ويعترف بحكمها في هذه الحقائق.

ولكنَّ ابن تيمية يؤكِّد: أنَّ المنطق إذا نُزِّل منزلةَ ميزان فلا بد من أن يدور عمله في نطاق محدود ، أما وَزنُ الحقائق الدينية على هذا الميزان؛ فيماثل وزن الذهبِ، والفضة ، والجواهر في ميزان الحَطَبِ ، والحديد ، والرصاص، والحجارة.

يقول في «نقض المنطق» : «ومِن المعلوم: أنَّ موازين الأموال لا يُقصد أن يوزنَ بها الحَطب ، والرصاص دون الذهب ، والفضة ، وأمرُ النُّبوات ، وما جاءت بِه الرسل أعظمَ في العلوم من الذهب في الأموال ، فإذا لم يكن في منطقكم ميزانٌ له كان الميزان ـ مع أنه ميزان ـ عائِلاً جائراً ، وهو أيضاً عاجز ، فهو ميزان جاهل ظالم؛ إذ هو إمَّا أن يَردَّ الحق ، ويدفَعه ، فيكون ظالماً ، أو لا يَزِنُه ، ولا يُبيِّن أمره ، فيكون جاهلاً ، أو يجتمعُ فيه الأمران ، فيردُّ الحق ، ويدفعه ، وهو الحقُّ الذي ليس للنُّفوس عنه عِوض ، ولا لها عنه مندوحة ، وليست سعادتُها إلا فيه» (١) .

وبالمناسبة يَحسُنُ بي أن أقتَطف كلاماً لابن خلدون الذي يُعتبر من كبار علماء النقد والتاريخ ، وهو يشير إلى نفس المفهوم الذي يَدل على أن عديداً من رجال العالَم المتصفين بسلامة الطبع إنما تُعينهم سلامة طبيعتهم على التوصل إلى الحقيقة ، وتتماثل أفكارهم ، وآراؤُهم في موضوع واحد ، إنه يتحدَّث عن مَحدودية العقل ، وقِصَر باعِه عن إحاطة الحقائق الغيبية ، والدينية ، فيقول:

«بل العقلُ ميزانٌ صحيحٌ ، فأحكامُه يقينيةٌ لا كَذِب فيها ، غير أنك لا تطمعُ أن تزن به أمور التوحيد ، والآخرة ، وحقيقةَ النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكلَّ ما وراء طوره ، فإن ذلك طمَعٌ في مُحال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى

---

(١) نقض المنطق: ص ١٦٣.

الميزان الذي يُوزن به الذهب ، فطبع أن يَزِن به الجبال ، وهذا لا يُدرَك ، على أنَّ الميزانَ في أحكامه غيرُ صادق ، لكن العقل قد يَقف عنده ، ولا يَتعدى طوره ، حتى يكونَ له أن يحيط بالله وصفاته ، فإنه ذرة من ذرَّات الوجود»(١) .

نَقدُ المَنطق الفني بتفصيلِ واجتهاداتِ ابن تيميَّة وزياداته:

لم يكتفِ ابنُ تيمية بتوجيه النقد الإجمالي ، والإيرادات الأساسية إلى فنِّ المنطق ، بل إنه تناول الفن بأسره بالنقد ، والاجتهاد ، والاحتساب العلمي ، ورفض كثيراً من أصوله ، ومُسلّماته ، وانتقدها من الناحية العقلية ، والفنية الخالصة ، وأثبت ضَعْفَ كثير من حُدوده ، ونَقْصَها ، وأوردَ له حُدوداً أحسن منها ، وخالف عديداً من قضاياه ، وترتيبها ، وأثبتَ ترجيح الاستقراء بإزاء القياس الذي هو أساس منطق أرسطو ، وادّعى: أنَّ الاستقراء طريقٌ طبعي أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين ، كما أنه قدَّم عدة نظرات جديدة في المنطق والفلسفة وزاد إلى هذا الفن ، يقول المغفور له العلامة السَّيد سليمان الندوي في مقدمته على كتاب «الرد على المنطقيين» مُعترفاً بخدمته ، وعظمته في هذا المجال ، يقول:

«ما قاله المصنِّفُ في حَقيقة الحَدِّ ، والجنس ، والفصل ، واللُّزوم ، وحقيقة العلة ، والقياس ، والاستقراء ، والاستدلالِ بالمشهودات ، والاكتفاءِ بمقدمة واحدة في القياس ، وغيره من المباحث العويصة التي حل المُصنف مُشكلها ببيان واضح، ودليل راهن، وما قال في العلة ، واللزوم هو عين ما قال هيوم (Hume) الفلسفي في كتبه ، ومسألةُ اللزوم والعِلّية من المسائل العويصة التي ضلت في واديها الأفهام ، ونبعت من عيونها ضلاَلاتُ الطباعيين من أهل الإلحاد ، وكم لهذا النابغة في هذا الكتاب من نوادر لم يَسبقه إليها أحد»(٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٣٨٥.

(٢) مقدمة الرد على المنطقيين: ص ق.

لا يَصحُّ التَّقليد في العُلوم العَقلية:

ويخشى ابنُ تيمية أن يقول الناس بعد ما يطَّلعون على إيراداته، وخلافاته هذه التي يوجهها إلى العلوم اليونانية: إن العلوم اليونانية ذخيرة علمية قديمة أسهمتْ في ترقيتها، وتهذيبها عقولُ نخبة من عدة أجيال، وهي التي تولَّت إبلاغها إلى أوج الكمال، والتقدم، ولذلك فإنها بنَجْوة من أي احتمال للخطأ، فإن تصدى أحدٌ من المتقدمين للانتقاد، والاعتراض عليها؛ فإنما يرادف ذلك وقاحة، وإضاعة للوقت.

ولكنَّ ابنَ تيمية لا يعترف بهذه القضية، ويقول: إن هذه العلوم ما دامتْ عقلية مجرَّدة، وهي لا تقوم إلا على أساس الفكرة والدراسة، فأيُّ مبرِّر للتقليد البحث فيها، حتى إن ناقليها لا يعتبرونها مبنيةً على أي وحيٍ أو إلهام إنما يبنونُها على العقل، ولذلك فأهل العقل في كل عصر يحقٌّ لهم أن يتناولوها بالنقد والوزن في ميزان العقل، ويرفض كل ما يعارض العقل، إنه ينقل قول بعض شيوخ المنطق في كتابه «الرد على المنطقيين» «هذه علومٌ قد صقلَتْها الأذهان أكثر من ألف سنة وقَبِلها الفضلاء» ثم يردُّ عليه ويقول:

«هَبْ: أنَّ الأمرَ كذلك، فهذه العُلوم عَقليةٌ محضةٌ ليس فيها تقليد لقائل، وإنما تُعلم بمجرد العقل، فلا يجوز أن تصحَّح بالنقل، بل ولا يتكلم فيها إلا بالمعقول المجرَّد، فإذا دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها؛ لم يَجُز رَدُّه، فإن أهلها لم يدَّعوا: أنَّها مأخوذة عمَّن يجب تصديقه، بل عن عقلٍ محضٍ، فيجب التحاكم فيها إلى موجب العقل الصريح»[1].

انحطاطُ العلوم العقلية وجمودها في العصر المتأخر في العالم الإسلامي، وأهمية عمل ابن تيمية:

والواقعُ: أنَّ «المعقول» لا بدَّ أن يكون معقولاً على الدوام، ولا يتحوَّل

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٠٨.

إلى «منقول»، ولكنْ لما أظلّ الانحطاطُ العلمي ، والفكري العالمَ الإسلامي، ورفضتِ العقول والقِوى الفكرية أنْ تقوم بواجبها في جوٍّ من الحرية ، عاد علماء الحكمة ، والفلسفة اتّباعاً لمن سبقهم مُقتفين آثارهم ، واقتنَعوا بالنقل والشرح لتحقيقاتهم ومؤلفاتهم ، ولم يعد أيُّ فرق بين المنقول والمعقول ، وكان أسمى مكانةٍ في العلم أن يتصدى المتأخِّرون لشرح كلام المتقدمين ، ويُعبِّروا عن مفاهيمهم بكلمات قليلة .

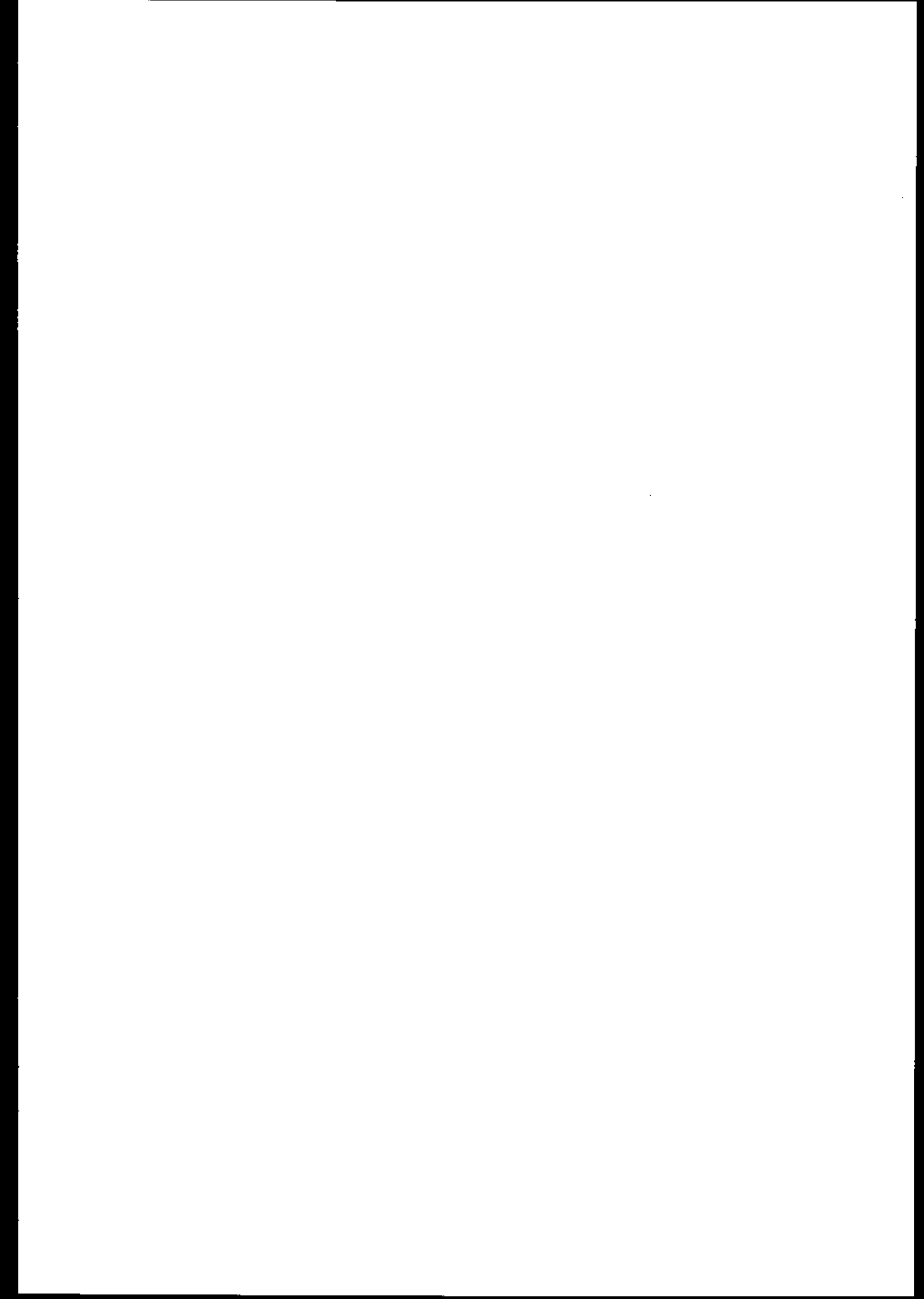
ذلك هو عصر الانحطاط في الشرق يوم انغلق باب الاجتهاد ، والتجديد ، والزيادة ، والعَمل المُنتج في العلم ، والحكمة .

أمَّا أوربة ـ التي كانتْ قد اكتسبت المنطق ، والفلسفَة عن طريق المسلمين ، وتعلَّمت أفكارَ حكماء اليونان ، وفلسفتَهم بواسطة ابن سينا ، وابن رشد ـ فإنها لم تقتنعْ بهذا التراث العلمي إلا مدة يسيرة فقط ، ثم نهضت تُعيد النظر ، والتفكير في هذه العلوم ، وقامتْ بالتحقيق ، والتجربة بكل حرية ، الأمر الذي طوى بساط المنطق والفلسفة اليونانيين ، واحتلَّ الاستقراءُ محل القياس في المنطق ، ونالَتِ العلوم الطبيعية اهتمام الناس بعد ما فقدتِ العلومُ الإلهية ، وعلومُ ما بعد الطَبعية قيمتَها ، تلك التي لم يكن لها أيُّ دور في الحياة العلمية ، والعملية .

إنَّ هذه الثورةَ الفكريةَ لم تُخلِّف تأثيرها في أوربة فحسب ، بل تَعدَّتها إلى العالم كله ، بالعكس من ذلك فقد تَمسَّكتْ أوساطُنا العلمية والمدرسية بالعلوم اليونانية ، وعضَّت على كُتب علماء الشرق ، وشروحِهم ، وتعليقاتهم في هذا الفن بالنواجذ ، كأنها هي العروة الوثقى ، وسِدرة المنتهى للفكر والنظر .

ولا شكَّ فإنَّ العمل الاجتهادي الذي قام به الإمام ابن تيمية من انتقاد الفلسفة ، والمنطق ، ومحاسبَتهما العلمية في صحراء التقليد ، والجمود العقلي كمنارةِ ضوء على الساحل ، ومعالم واضحةٌ في الطريق ، وهو يفتح بابَ الاجتهاد ، والتفكير من جديد .

* * *



الفصل الثالث

الرّد على الفِرَق وَالمِلَل وَمقاومة عقائِدها وتقالِيدِهَا وتأثيرها

تمهيد
نَقْدُ الدِّيانات والنِّحَل

لا يخفى أنَّ الإمامَ ابنَ تيمية قام بدورٍ ممتازٍ في مَجال انتقاد بعض الديانات ، والفرق ، وقضى مُعظم حَياته في هذا الجهاد العلمي ، وقد لا يخلو مؤلَّف من مؤلفاته من البحوث ، والمناظرة الكلامية ، إلا أنَّنا نختار مِن بين هذه الديانات والفِرق التي ناقشها ابن تيمية ديانة «المسيحية» ونحلة «الشيعية» ، وذلك لأنه اختصَّهما بالنقد ، والتحقيق وأفرَد لكل واحدة منهما كتابين مستقلين لهما قيمتُهما ، وأهميتهما ، وهما: «الجوابُ الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» و«منهاج السنة النَّبوية في نَقض كلام الشِّيعة والقدرية» كما أنَّ بين هذه الديانة وتلك الفرقة مناسبةً لطيفة يُشير إليها الحديثُ النبوي الذي خُوطب فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو قوله ﷺ : «فِيكَ مَثلٌ مِن عيسى ، أبغضَتْهُ اليهودُ حتى بَهتوا أُمَّه، وأحبَّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة

التي ليس به»[١] ولسبب آخر ، وهو أنَّ المسيحيةِ ، والشيعية بمختلف فروعها ، وأنواعها هما اللَّتان كانتا الفِرق ، والديانات الحيَّة النشيطة في العصر الذي عاش فيه ابن تيميـة، ولعلَّ ذلك ما بعثَ ابن تيميـة على تركيـز اهتمامـه عـليهما ، ووضع كـتُب مستقلـة تـتـفـرَّد بهما .

* * *

(١) [وفي الرواية: ثم قال (علي): يهلك فيّ رجلان محب مفرط يقرظني بما ليس فيّ ، ومبغض يحمله شنآني أن يبهتني. أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ١٣٧) برقم (٨٤٨٨)، وأحمد في المسند (١/ ١٦٠) برقم (١٣٧٦)، وأبو يعلى في المسند (١/ ٤٠٦) برقم (٥٣٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه].

أ ـ الردُّ على المسيـحية

حركـةُ المسيحيّة الجديدة فـي العالم الإسـلامـي:

انتبهتِ المذاهبُ ، والدياناتُ الأخرى في الدولِ الإسلامية مع انحطاط المسلمين السياسي ، وجدَّدت نشاطها ، وكانت المسيحيةُ هي أنشط الديانات من بين هذه الديانات والمذاهب كلها في إبداء الجرأة والتغلُّب على غيرها .

فقد وُجد لأتباعها عددٌ وجيهٌ آنذاك في العالم الإسلامي ، سيَّما في مصر ، وسورية ، وبالأخص كانت سلسلةٌ من الدول المسيحية تتصل بأرض الشام ، وتمسُّها ثغور المملكة المسيحية الكبرى (مملكة قسطنطينية) المملكة البيزنطية .

ومعلومٌ: أَنَّ أوربة بدأت هجماتٍ متتابعة على الشام ، وفلسطين في أواخر القرن الخامس الهجري ، وهي التي تُعرف بالحروب الصليبية في التاريخ ، وفي خلال ذلك حُرم المسلمون جزءاً كبيراً من الشام ، وظلَّتِ القدس تحت سيطرة المسيحيين وولايتهم طوالَ تسعين سنة ، وبالرغم من أنَّ السلطان صلاح الدين الأيوبي كان قد هزم المسيحيين في ساحة حِطِّين هزيمةً مُنكرة ، واستردَّ القدس من أيديهمِ إلا أن دولَة مسيحية لم تزل موجودة على ساحل الشام ، وكانت همة المبشِّرين المسيحيين ، وعلمائهم ارتفعتْ بالفتح الصليبي حتى إنهم كانوا يحلمون بالاستيلاء على الشام ، وإقامة دولة مسيحية تحت ظلال الصليبية فيها .

إنَّ هجمات التَّتَرِ المتتاليةَ كانت قد أضعفتِ المسلمين ، وبَعَثَتْ قوةً ، وهمة في المسيحيين ، وقد تحدَّثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب : أنَّ التتار عندما دخلوا الشام منتصرين في عام ٦٥٨ هـ استقبلَهم المسيحيون خارج المدينة ،

وقدَّموا لهم الهدايا ، وقد كانوا رافعين صُلباناً على رؤوسهم ويقولون: قد غلب الدين الحق ، دينُ يسوعَ المسيح [١].

تَأليفُ «الجَواب الصحيح»:

كانتِ المناظرةُ بين علماء المسيحية والقسِّيسين ، وبين المسلمين تدور حيناً لآخر ، وَيَردُّ علماء المسلمين على إيراداتهم ، ويفضحون مواضعَ الضعف في أقوالهم ، ولكنَّ الذي استرعى انتباه ابن تيمية إلى هذا الموضوع ، وجعله موضع اهتمامه الخاص هو أن مؤلَّفاً جديداً للمسيحيين في المناظرة وصل من قُبرص إلى الشام ، حاول فيه مُؤلِّفه إثبات المسيحية ، وإثبات عقائدها من طريق العقل والنقل.

كما أنَّه بذل قُصارى جُهدِهِ في إثبات: أن بعثة الرسول ﷺ لم تكن عامة ، وإنما كانت تخص العرب وحدهم ، ولذلك فإن المسيحيين لم يكلَّفوا الإيمانَ به ، يبدو: أنَّ هذا الكتاب نال أهميةً كبرى في أوساط الشام العلمية ، والدينية.

إنَّ أصلَحَ رَجلٍ للرَّد على هذا الكتاب هو الذي يَتمتَّع بنظرٍ عميق واسع في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والعقائد ، والفِرق في جانب ، وفي جانب آخر يكون مُطَّلعاً على صُحُف العهد القديم ، والعهد الجديد (بايبل) وعلى تاريخ المسيحية اطلاعاً كاملاً ، فبالنسبة إلى هذه الناحية لم يكن هناك أيُّ عالم أصلحُ من ابن تيمية لهذا العمل في ذلك العصر ، فتصدّى للكتابة في هذا الموضوع وألَّف كتاباً باسم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» [٢] في أربعة مجلَّدات ، لا يتميَّز في هذا الموضوع فحسب ، بل إنه يحتل مكانة ممتازة بين سائر مؤلفات ابن تيمية.

يدلُّ هذا الكتاب على سَعة نظره ، وتنوُّع دراسته ، واطلاعه الواسع العميق

---

(١) وللاطلاع على التفصيل راجع الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) هذا الكتاب يقع في ١٣٩٥ صفحة ، طبع في مصر في عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٠ م) باهتمام الشيخ فرج الله زكي الكردي ، والشيخ مصطفى قباني الدمشقي.

على تاريخ الديانات ، والصحف السابقة ، إنه لم يكتفِ فيه بأسلوب الدفاع والتزكية ، بل إنه نقد أُسس المسيحية ، ولم يعتمدْ في إثبات النبوة المحمدية على الدلائل القديمة المصطلحة التي تتَّسم بها كتب علم الكلام ومناظرة الفِرق ، بل إنه جاء ببراهينَ جديدة تُؤثر في النفس ، وتبعَث الإيمان في القلوب ، وتضطر كلّ رجل مُنصِف عاقل إلى الاعتراف بالحقيقة.

كما أنَّه شحَن هذا الكتابَ بمواد غزيرة لتاريخ المسيحيةِ ، وعلم الكلام المسيحي ، وإيرادات علماء المسيحية ، وتعبيراتهم ، وتأويلاتهم ، وبذخيرةٍ كبرى من بِشارات البعثة المحمدية ، ودلائل نبوءة النبي ﷺ ، ونبوءاته لا توجد مجتمعة في أي كتاب آخر ، بل يحتاج المرء للاطلاع على مِثلها إلى عملية تنقيب واسعةٍ في مكتبة كبيرة ، ولقد صدق الشيخُ محمد أبو زهرة عالمُ مصرَ الكبير عندما قال عن هذا الكتاب :

«وإنَّ هذا الكتابَ أهدأُ ما كتبه ابن تيمية في الجدال ، وهو وحدَه جديرٌ بأن يُكتب ابنَ تيمية في سِجل العلماء العاملين ، والأئمة المجاهدين ، والمفكِّرين الخالدين» [1].

وفي الصفحات التالية نَقوم باستعراض إجمالي لهذا الكتاب؛ لكي نُقدِّم ملخَّصاً منه تتضح به وجهة نظره ، وتتجلى فيه روح الكتاب.

المَسيحيّةُ مزيجٌ مِن تعاليم سيدنا المسيح والوثنية الرومانية:

إنَّ معظمَ العلماء المسلمين ، والمؤلِّفين الذين تصدوا للردِّ على المسيحية ونقدِها ، وحاولوا الكتابة حولها كانوا قليلي المعرفة بتاريخ المسيحية ، إنهم زعموها مجموعةً لأقوال ، وأحوال سيدنا المسيح وبحثوا فيها كدينٍ سماويٍّ ، فأكرموها بما لم تكن جديرة به ، أمَّا ابن تيمية فله اطِّلاعٌ واسعٌ على تاريخ المسيحية ، ونموها التدريجي ، وتغيراتها ، ولا يجهل حقيقة أنَّ المسيحية الموجودة في عصره إن هي إلا مجموعة لتعاليم سيدنا المسيح ، وعقائد

(١) ابن تيمية : لمحمد أبي زهرة ص ٥١٩.

الروم ، واليونان المشركة ، وتقاليدهم ، وعلم الأصنام ، ولذلك فإنه لا يقع فريسة الخطأ التاريخي الذي يقع فيه العامة من النُّقَّاد ، ويتناول المسيحية الحاضرة بالنقد ، والرد عليها بكل جرأة وشجاعة ، إنه يقول :

«وكانَ الرُّومُ ، واليونان ، وغيرُهم مشركين ، يَعبدون الهياكلَ العُلوية ، والأصنام الأرضية ، فبعثَ المسيحُ عليه السلام رسلَه يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضُهم في حياته في الأرض ، وبعضُهم بعدَ رفعه إلى السماء ، فدعَوْهم إلى دين الله تعالى ، فدخل مَن دخل في دين الله وأقاموا على ذلك مدَة ، ثم زيَّن الشيطان لمن زيَّن له أن يُغيرَ دين المسيح ، فابتدعوا ديناً مركَّباً من دين الله ورسله دينَ المسيح عليه السلام ، ومِنْ دين المشركين» [1] .

ويقول في مكان آخر :

«ولكنَّ النصارى رَكَّبوا ديناً من دينَين من دين الأنبياء الموحدين ودين المشركين ، فصار في دينهم قِسط مما جاءت به الأنبياء ، وقِسطٌ مما ابتدعوا من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا الأقانيم وهي ألفاظ لا توجد في شيء من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومَة بدل الأصنام المُجسَّدة ، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب بدل الصلاة إليها ، والصيام في وقت الربيع ليجمعوا بين الدّين الشرعي ، والأمر الطبيعي» [2] .

المَسيحيَّة الحاضرةُ من وَضع عَهْدِ قسطنطين:

ويَتقدَّم خُطوةً ويوضِّح : أنَّ المسيحية أُصيبتْ بتحريفٍ ، وتغيير أكبر في عهد الملك قسطنطين ، الذي كان مَلِكَ الروم الشهير في القرن الرابع الميلادي ، والذي هو مُؤسِّس المملكة المسيحية الأولى ، وذلك عدا ذلك التحريف الذي دخل المسيحية في بَدء عهدها أيام بولس يقول :

(١) الجواب الصحيح : ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق : ص١٩٩ .

«النَّصارى تضعُ لهم عقائدَهم ، وشرائعَهم أكابرُهم بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمئة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانَة التي اتفقوا عليها ، ولعنوا من خالفها من الأريُوسيَّة ، وغيرهم ، وفيه أمور لم يُنزِّل الله بها كتاباً بل تُخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقلِ الصريح»[(١)].

وفي موضعٍ آخر :

«ولم يقولوا ما قاله المسيحُ ، والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يُوجَد في كلام الأنبياء ، فليس في كلام الأنبياء لا المسيح ، ولا غيره ذكر أقانيم لله لا ثلاثةً ولا أكثر ، ولا إثباتُ ثلاث صفات ، ولا تسمية شيءٍ من صفات الله ابناً لله ، ولا رباً ، ولا تسميةُ حياته روحاً ، ولا أن للهِ ابناً هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، وأنه خالق كما أن الله خالق إلى غير ذلك من الأقوال المتضمِّنة لأنواع من الكفر ، لم تُنقل عن نبيٍّ من الأنبياء»[(٢)].

المَكانةُ الصّحيحة للأناجيل:

أخطأً بعضُ علماء الإسلام ، فوضعوا الإنجيل في بحوثهم بإزاء القرآن ، والصُّحف السماوية الأخرى ، واعترفوا بأنَّه كتابٌ سماوي كسائر الكتب السماوية بتأثيرٍ من دعاوي العُلماء والمبشرين المسيحيين ، ولقد كان ذلك خطأً أساسياً ناتجاً عن مُجرَّد الجهل بتاريخ العهد الجديد ، أما الإمام ابنُ تيمية ؛ فإنه يُحلُّ الإنجيل محله الذي يستحقه ، إنَّ قيمة الصحُف الأربع للإنجيل عنده لا تعدو قيمة كُتب السيرة والحديث العامة في أيِّ حال ، يقول :

«إنَّ هذه المقالاتِ الأربعة التي يُسمُّونها الإنجيل ، وقد يُسمُّون كلَّ واحد إنجيلاً ، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفع المسيح ، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلَّغها عن الله ، بل نَقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من

(١) الجواب الصحيح : ج ١ ، ص١١٨ .
(٢) المرجع السابق : ج ٣ ، ص١٣٤ .

أفعاله ، ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم يَنقُلوا كل ما سمعوه منه ورأوه ، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي ﷺ من أقواله ، وأفعاله التي ليست قُرآناً ، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة ، وكُتب الحديث» [١].

ويقول في موضع آخر :

«وأمَّا الإنجيل الذي بأيديهم؛ فإنَّهم معترفون بأنه لم يَكتُبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاَه على مَنْ كتبه ، وإنما أَملوه ـ بعد رفع المسيح ـ مَتَّى ، ويوحنا ـ وكانا قد صحبا المسيح ، ولم يحفظه خَلْقٌ كثير يبلغون عدد التواتر ـ ومُرقس ولوقا، وهما لم يَريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء : أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعضَ أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله ، وأفعاله. ونَقْلُ اثنين ، وثلاثة ، وأربعة يجوز عليهم الغلَط لا سيما وقد غلِطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب» [٢].

وهو لا يَتحدَّث عن الإنجيل وَحده بل يقول عن التوراة أيضاً :

«أمَّا التوراة فإنَّ نَقْلَها انقطع لما خَرِبَ بيتُ المقدس أولاً ، وأُجلي منه بنو إسرائيل ثم ذكروا : أنَّ الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخصٌ واحد يقال له عازر ، وزعموا : أنه نبي ومن الناس من يقول إنه لم يكن نبياً وأنها قُوبلت بنسخة وجدوها عتيقة ، وقيل : إنه أُحضرت نسخة كانت في المغرب ، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ، ولا يمنع وقوع الغَلط في بعضها ، كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يَلي نسخَها ومُقابلتها وحفظها القليلُ الاثنانِ والثلاثة »[٣].

ويَستنتِجُ في الأخير بقوله :

(١) الجواب الصحيح : ج ٣ ، ص ١٠.
(٢) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩.
(٣) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٦٨.

«ليس مِن النصارى نَقلٌ متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ، ولا نقلٌ متواتر ، ولا آحاد بأكثرَ ما هم عليه من الشرائع .

ولا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ، ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقلٌ متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة» [١] .

ويتحدَّثُ عن الفَرق بين القرآن، والتوراة، والإنجيل فيقول: «إنَّ المسلمين تواتر عنهم عن نبيِّهم ألفاظُ القرآن ومعانيه المجمعُ عليها والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومةُ الصدقِ بطُرق متنوعة ، كتصديق الأمة المعصومة ، ودلالة العادات وغير ذلك ، وهم يَحفظون القرآن في صدورهم لا يحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عُدمت المصاحفُ من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه ، بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نُسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها إذ لا يحفظها إلا قليل لا يوثق بحفظهم .

فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيه من تبديل الكتب إما تبديلُ بعض أحكامها ، ومعانيها ، وإما تبديلُ بعض ألفاظها . ما لم يقوموا بتقويمه ولهذا لا يوجدُ فيهم الإسناد الذي للمسلمين ولا لهم كلامٌ في نقلةِ العلم ، وتعديلِهم ، وَجرْحهم ، ومعرفة أحوال نَقلة العلم ما للمُسلمين» [٢] .

التَّحريفُ في الأناجيل:

اشتُهِرَ عن ابن تيمية بوجه عام: أنه لا يقول بالتحريف اللفظي في التوراة والإنجيل إلا أن دراسة هذا الكتاب تنفي هذا الظن .

أمَّا حقيقة ما يقولُه ابنُ تيمية فهي أنه يؤكّد مراراً ، وتكراراً: أن الناس كلهم مُتَّفقون على وقوع التحريف المعنوي ، وبما أنَّ علماء اليهود والنصارى يقولون بالتحريف المعنوي ، فإنه يعتمد على ذلك في استدلالاته ، ويُقدِّمها بإزاء

---

(١) الجواب الصحيح: ص ٣٧٢.
(٢) المرجع السابق: ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٣ .

علماء اليهود والنصارى ، إنه يقول في إحدى المناسبات :

«وإذا عُرف أنَّ جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدون: أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف ، وتبديلٌ في معانيها ، وتفاسيرها ، وشرائعها ، فهذا القدر كاف» (١).

ويقول في مناسبةٍ أخرى :

«ولكنَّ علماء المسلمين ، وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني ، والتفسير» (٢).

ولكنْ هل وقع تحريفٌ في ألفاظ التوراة والإنجيل؟ .

فإنَّه لا يوافق على أن هذه الكتب مُحرَّفة من أولها إلى آخرها ، وليست فيها ألفاظها الأصيلة ، يقول: «ثم زعموا أن المسلمين يدَّعون أن ألفاظ هذه الكتب حُرِّفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد ﷺ ، وهذا لم يَقُلْه أحد من المسلمين فيما أعلم» (٣).

ولكنَّه يقول بالتَّحريف الجُزئي في هذه الكتب ، بحيث إنَّ ألفاظها قد بُدِّلت في مواضع عديدة ، وذلك هو مذهب الجمهور كما يقول :

«فجُمهور المسلمين يَمنعون هذا ، ويقولون: إنَّ بعض ألفاظها بُدِّل كما قد بدل كثيرٌ من معانيها» (٤).

ويقول في محلٍّ آخر :

«والصَّواب الذي عليه الجمهور أنَّه بُدِّل بعضُ ألفاظها» (٥).

---

(١) الجواب الصحيح: ج ١ ، ص ٣٧٦.
(٢) المرجع السابق: ج ١ ، ص ٣٨٠.
(٣) المرجع السابق: ج١ ، ص ٣٧٤.
(٤) المرجع السابق: ج ١ ، ص ٣٧٣.
(٥) المرجع السابق: ج٢ ص٤.

إنّ النّصارى لم يفهموا ألفاظ الأنبياء:

إنَّه يعتقدُ: أن السببَ الكبير في ضلال النصارى ومنه الفساد الذي تسرَّب إليهم من التثليث والعقائد المشركة إنما يرجع إلى أنهم لم يَفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء عليهم السلام، ولا أدركوا مفاهيمها، كما قد حرَّفوا مفاهيم ألفاظ كثيرة، إنه يقول: «وإن القوم عندَهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيراً منه، وما حرَّفوا كثيراً منه، وعندهم من المعقول في ذلك ما يفضُلُهم اليهود فيه، لكنَّ اليهود وإن كانوا أعظم منهم فَهماً أعظمُ عناداً، وكِبراً، وجَحداً للحقّ»[1].

إنَّه يؤكِّد على: أنَّ فَهْمَ هذه الكتب السماوية، والاستفادة منها بطريقٍ صحيح يتطلَّب فهمَ لغات الأنبياء، ومصطلحاتهم، يقول:

«إنَّ معرفة اللغة التي خاطَبنا بها الأنبياء، وحملَ كلامهم عليه أمرٌ واجب مُتعيّن، ومَنْ سلك غير هذا المسلك فقد حرَّف كلامهم عن مواضعه، وكذب عليهم، وافترى»[2].

ونتيجةً لذلك وقع خطأٌ عظيم في فهم معاني «ابن» و«روح القدس» وظهرتْ عقيدةُ التثليث.

المَفهومُ الصّحيحُ للألفاظ:

إنَّه يقول: «فأهلُ الكتاب نَقلوا عن الأنبياء: أنَّهم تكلَّموا بلفظ الأب، والابن، ومرادهم عندهم بالأب الرَّب، وبالابنِ المصطفى المختارُ المحبوب، ولم ينقلْ أحدٌ منهم عن الأنبياء أنَّهم سمَّوا شيئاً من صفَات الله ابناً، ولا قالوا عن شيء من صفاته: أنَّه تولَّد عنه، ولا أنه مولود له، فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال: عَمِّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس، ثم فسروا الابن بصفةِ الله القديمة الأزلية، كان هذا كذباً بيّناً على

(١) الجواب الصحيح: ج٢، ص ١٠٩.
(٢) المرجع السابق: ج١، ص ١٨١.

المسيح حيث لم يكن في لغته: أنَّ لفظ الابن يراد به صفةُ الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء: أنَّ حياة الله تُسمَّى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء، والصالحين، ويؤيِّدهم» (١).

ويقول في موضعٍ آخر حيث يخاطِب النصارى:

«إنَّكم إنما ضَللتم بعُدُوْلِكم عن صريح كلام الأنبياء، وظاهره إلى ما تأوَّلتُموه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها لفظه، لا نصاً ولا ظَاهراً، فعدلتُم عن المُحكَم، واتبعتمُ المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، فلو تمسَّكتم بظاهر هذا الكلام لم تضلوا، فإن «الابن» ظاهرُه في كلام الأنبياء لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وَليُّه، وحبيبه ونحو ذلك، وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وَحيه، ومُلكه، ونحو ذلك، فعدلتم عن ظاهر اللفظ، ومفهومه إلى معنى لا يدلُّ عليه اللفظ البتَّة» (٢).

كلمتا «الابن» و«روح القدس» مشتركتان عامتان:

ثم إنَّه يُثبت من عبارات التوراة، والإنجيل، والنصوص: أنَّ كلمتي «الابن» و«روح القدس» لا يختصَّان بسيدنا المسيح بل طالما استُعملتا في حق غيره يقول:

«لفظُ «الابن» و«روح القُدس» قد جاء في حقّ غير المسيح عندكم حتى الحواريين عندكم يقولون: إنَّ المسيح قال لهم: إنَّ الله أبي، وأبوكم، وإلهي وإلهكم، ويقولون: إنَّ روح القدس تَحلُّ فيهم.

وفيما عندكم من التوراة: أن الرَّب قال لموسى: اذهب إلى فرعون، فقُل له يقول لك الرب: ابني بكري أرسله يعبدُني، فإن أبيت أن ترسل ابني بكري؛ قتلتُ ابنك بكرك، فلمَّا لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله؛ قتلَ الله

(١) الجواب الصحيح: ج٣، ص ١٨١، ١٨٢.
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٥.

أبكار فرعون ، وقَومَه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين ، إلى ولد الحيوان إليهم .

فهذه التوراة تُسمِّي بني إسرائيل كلَّهم أبناء الله ، وأبكاره ، وتسمِّي أبناء أهل مصر أبناءَ فرعون ، وتتوسع ، فتسمى سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان .

وفي مزامير داود يقول : «أنت ابني سَلْني أُعطك» .

وفي الإنجيل يقول عن المسيح : «أنا ذاهب إلى أبي ، وأبيكم ، وإلهي وإلهكم» .

وقال : «إذا صليتم ؛ فقولوا : يا أبانا الذي في السماء قُدُّوس اسمكَ افعل بنا كذا وكذا» .

ويقولون عن القِدِّيسين : «أن روح القدس يَحُلُّ فيهم» (١) .

وهكذا فإنه أثبت بالدلائل : أنَّ الألفاظ التي يَستدل به النصارى على ابنيَّة سيدنا المسيح ، وعلى الحلول ، والاتحاد ، والألوهية إنما جاءت في التوراة والإنجيل مِراراً وتكراراً لغير سيدنا المسيح ، وأنَّ كل هذه الكلمات كنايات ، ومجازات ، وتعبيرات ، وفي الأخير يستنتج بقوله :

«وجماع هذا : أنَّ النبوات المتقدمة ، والكتب الإلهية ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وسائر نبوات الأنبياء لم تَخُصَّ المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به ، وحُلوله فيه كما يقوله النصارى ، بل لم تخصَّه إلا بما خَصَّه به محمد ﷺ في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

فكُتُبُ الأنبياء المتقدمة ، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ يُصدِّق بعضهم بعضاً .

وسائر ما تَستدلُّ به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك

(١) الجواب الصحيح : ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

الكلمات في حق غير المسيح ، فتخصيص المسيحِ بالإلهية دون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ، ومثل حلول روحِ القدس فيه ، ومثل تَسميته إلهاً ، ومثل ظهور الرب ، أو حلوله فيه ، أو سكونه فيه ، أو في مكانه ، فهذه الكلماتُ وما أشبهها موجودة في حق غير المسيح عندهم ، ولم يكونوا بذلك آلهة» [١] .

وقد يُعرِض المسيحيُّ عن هذه المنقولات ، ويَبحثُ في الأقانيم ، والحلول ، والاتحاد عن طريق العقل ، بحيث يُحوِّله إلى بحث فلسفي ، أو صوفي ، ولكن ابن تيمية تناولَ هذا الموضوع ، وأشبَعه بحثاً من وجهة النظر الفلسفية ، وبما أنَّ هذا الموضوع مما يَخصُّه ، وقد بحثه غير مرة بصدد الكلام حول العقائد ، ووحدة الوجود ، وعلم الكلام ينصرف إلى البحث فيه بكامل الانشراح والاهتمام ، ويُـثبت : أنَّه ليس كلاماً معقولاً ، بل إنَّه فلسفة مزعومة ، لا تَمُتُّ إلى الحقائق والمعلومات بصلة ما» [٢] .

أمور تُنافي العقل:

وعندما يُورِد على المسيحيين من الناحية العقلية حولَ عقيدة التثليث ، ويُـثبت أنَّ هذه العقيدة ليست مما يقبله العقل ، بل إنها تُعارض العقل الإنساني العام سُرعان ما يلتجئون إلى المنقولات ، ويقولون : هكذا تتحدثُ لنا الكتبُ السماوية ، وأنَّ هذه الأمور ، والعقائد حقائق هي وَراء طَوْر العقل ، والقياس ، فلا مَناص من تصديقها والإيمان بها ، من غير أن نُحاول الاعتماد على العقل فيها .

أمّا الإمام ابن تيمية ؛ فإنه يرفض قبل كل شيء أنَّ هذه العقائد ، والتعاليم توجد في الكتب السماوية ، بل الحقُّ : أنَّ الكتب السماوية تحتوي على عكس هذه التعاليم ، والعقائد .

---

(١) الجواب الصحيح : ج٢ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى «الجواب الصحيح» ج٣ ، ص ١١٩ ـ ٩٠ ـ ١٩١ ـ ٢١٥ .

ثمَّ إنَّه يقول: إنَّ هناك شيئين مختلفين:

الأول: ما هو باطل، ومستحيل عقلياً، والكل يعلم: أنَّ ذلك محال.

والثاني: ما يتقاصر عنه العقل، ولا يستطيع أن يتوصل إلى حقيقته، ولا أن يحكم فيه بنَفي أو إيجاب، إنَّه يعتقدُ أنَّ تعاليم الأنبياء إنما هو من النوع الثاني، ومعنى ذلك أن كلامهم ليس فيه ما يعارض العقل، بل فيه ما وراء العقل، والفرق بين ما يعارض العقل، وبين ما هو وراء العقل كبير، إنه يقول:

«لايُميِّزون بين ما يُحيله العقل، ويبطله، ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يَعجز عنه العقل، فلا يعرفه، ولا يعمل فيه بنفي، ولا إثبات، وأنَّ الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تُخبرَ بالنوع الأول، فلم يُفرّقوا بين مُحالات العقل ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً»[1].

إنَّه يُثبت بكلِّ قوَّةٍ وتأكيدٍ، وكتُبه كلها مليئةٌ ببيان: أنَّ الدين الصحيح لا يضادُّ العقل الصريح، يقول:

«وهذا الموضوع غَلِطَتْ فيه طائفتان من الناس:

غالية غَلَتْ في المقولات، حتَّى جعلتْ ما ليس معقولاً من المعقول، وقدَّمته على الحسِّ، ونُصوصِ الرسول.

وطائفةٌ جَفَتْ عنه، فردَّتِ المعقولات الصريحة، قدَّمت عليها ما ظنَّته من السمعيات، والحسيات.

وهكذا الناس في السَّمعيات نوعان، وكذلك هم في الحسِّيات الباطنة والظاهرة نوعان، فيجب أن يُعلم: أنَّ الحق لا ينقُض بعضه بعضاً، بل يُصدِّق بعضه بعضاً، بخلاف الباطل فإنه مختلف متناقض كما قال الله تعالى في

---

(١) الجواب الصحيح: ج٢ ص ٨٩.

المخالفين للرسل: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٧ ـ ٩].

وإنَّ ما عُلم بمعقولٍ صريحٍ لا يخالفه قط، لا خبرٌ صريح، ولا حسٌّ صحيح، وكذلك ما عُلِم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقلٌ، ولا حسٌّ، وكذلك ما عُلم بالحسّ الصحيح لا يُناقضه خبرٌ، ولا معقول»[(1)].

وذلك هو الفَرق بين المسيحية والإسلام، ففي الإسلام اتحاد تام بين العقل والنقل، اللهم إلا الحقائق الغيبية التي هي وراء العقل، ولكنها لا تُعارض العقل، خلافاً للمسيحيـة التي تَحتوي على كثير من المسائل، والعقائد المخالفة للعقل، ويعتبرُها كثيرٌ من علمائها معارضاً للعقل أيضاً، إلا أنهم يقولون: إنَّ هذه الأمور إنما هي وراء مرتبة العقل، ولا مناص من اعتقادها، والإيمان بها.

علماء النصارى القائلون بالتوحيد وعبديّة المسيح عليه السلام:

وقد أحسنَ (ابنُ تيميّة) في كتابه (الجواب الصحيح) وأوسعَه علماً مفيداً، وهو أنّه نقلَ فيه آراءَ علماءِ المسيحيّة، وأئمتها، وأقوالهم، الذين كانوا يعتقدون بعبدية المسيح عليه السلام، ويقولون بالتوحيد، إلا أنَّهم لم ينالوا أيَّ قبولٍ في العالم المسيحيِّ لأسبابٍ عدّة، وقد تناولَ بالمناسبةِ فِرَقَ النصارى، والمذهب الغالب عندَهم بنوعٍ من التفصيلِ، والشَّرحِ، الأمر الذي يدل على اطلاعِـه العميقِ، ومعلوماتـِه الواسعـةِ، ودِقَّةِ النظرِ؛ كما نقل بصدد الموضوع رسالةً طويلةً لعالمٍ حديثِ العهدِ بالإسلام اسمه (حسن بن أيوب) بسطَ فيها الأسبابَ التي دفعته إلى قبولِ الإسلامِ، والدلائل التي رجَّحَ بها الإسلامَ على الديانات الأخرى، وهذه الرسالةُ تحتوي على معلوماتٍ قيّمةٍ[(2)].

---

(١) الجواب الصحيح: ج ٣ ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٦٢ ـ و٣/ ٢.

بَشائرُ عن النبي ﷺ في التوراةِ والصُّحفِ السماوية:

وبعد انتهائهِ مِن ذلك نَقل ابنُ تيمية تلكَ البشائر ، والنبوءات التي تُخبر بنبوة النبي ﷺ، وبعثته ، وقد سار في ذكر هذه البشارات والنبوءات منهجَ الاستقصاء والاستيعاب ، ولم يألُ جُهداً في نقل كلام وعبارة أشعياء النبي ، وحبقوق ، ودانيال ، وسيدنا المسيح عليه السلام ، ممَّا يتعلَّق بالنبي ﷺ .

وقد اجتمعَ في هذا الموضوع من المعلومات في هذا الكتاب ما يتعذَّر وجوده في أيِّ كتاب آخر ، إنَّه تناول هذه النبوءات بالشرح ، وأثبت: أنَّها لا تنطبق إلا على النبي ﷺ[1] .

ومِن بَين هذه النبوءات نُبوءةٌ من إنجيل يوحنَّا بأن سيدنا المسيح عليه السلام قال: «إن أركونَ العالم سيأتي وليس لي شيءٌ» ومعنى أركون في العبرانية جليلُ القَدْر ، والشأن ، ويقال للعظماء والكبار أراكنة ، يقول ابن تيمية : وهو يثبت : أنَّ مصداق هذه النبوة إنما هو النبيُّ ﷺ :

«فمعلومٌ باتفاق أهل الأرض ، والاضطرار : أنَّه لم يأتِ بعد المسيح من ساد العالم باطناً وظاهراً وانقادتْ له القلوب ، والأجساد ، وأُطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار ، وأفضلِ الأقاليم شرقاً وغرباً أحدٌ غير محمد ، فإنَّ الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً ، ولا يُطاعون بعد موتهم ، ولا يُطيعُهم أهل الدين طاعةً يرجُون بها ثواب الله في الدار الآخرة ، وَيخافون عقاب الله في الدار الآخرة بخلاف الأنبياء .

ومحمَّدٌ أظهرَ دينَ الرُّسل مثلَ موسى ، والمسيح ، وغيرهما في أمم عظيمة ولولا محمد لم يؤمنوا بهم ، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب في المسيح ، وكانوا يقولون في داود ، وسليمان ، وغيرهما بما هو معروف عندهم ، وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل

---

(١) الجواب الصحيح : ج ٣ ، ص ٣٦٢.

ما لم يكونوا يعرفونه ، مثل هود ، وصالح ، وشعيب ، وغيرهم» [١].

المُعجزاتُ ودَلائل النبوءة:

وبعدَ الانتهاءِ من هذا الموضوع انتقلَ ابنُ تيمية إلى بيان معجزات النبي ﷺ ويَرى: أنَّها إذا سُمِّيت بها آيات الأنبياء؛ كانتْ أدلَّ على المقصود من لفظ المعجزات. وقد جَمع من ذخائر المعلومات شأنه في هذا الصدد ما لا يوجد مجتمعاً في كتاب واحد [٢] ، وقد احتوى هذا البحثُ على تعريف المعجزات ، وطريق إثباتها ، وعلى كثيرٍ من البحوث الكلامية ، والموضوعية ، والنُّكتِ اللطيفة.

ولم يكتفِ ابنُ تيمية في هذا البحث ببيانِ تلك المعجزات الشهيرة التي تتحدّثُ عنهَا كتب السيرة والكلام ، بل إنه وسَّع نطاق الآيات ، ودلائل النبوة إلى أن تضمن جميعَ سيرِه وشمائله التي هي أكبرُ حجة على النبوءة ، وأسطعُ برهان على النبوة المحمدية لدى المُنْصِفين ، وأصحاب النظر ، والبصيرة ، كأنه يلتقي مع الشيخ الرومي على هذه النقطة ، الذي يقول ما معناه:

«كُلُّ قَلْبٍ يتمتَّـعُ بلـذَّةِ العلم ، ويتحـلَّى بالبصيرة يُـدرِكُ مـا في وجـه النبي ﷺ ، وصوته من معجزةٍ».

وقد عرضَ في هذه المناسبة عُصارة جيدة لسيرته ﷺ وشمائله ، إنَّه يوسع هذا النطاق ، ويقول:

«وسيرةُ الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقُه ، وأقوالُه ، وأفعالُه ، وشريعتُه من آياته ، وأمَّتُه من آياته ، وعِلم أمته ، ودينُهم من آياته ، وكراماتُ صالح أُمَّتِه من آياته» [٣].

---

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق: ج٤ ص٦٦ ـ ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق: ج٤ ص ٧٨.

ثورةُ الإسلام والأمّة المحمدية معجزةٌ بذاتها:

وبعد بيانِ خلاصة السيرة الطيبة التي تَبعث قراءَتها إيماناً بأنه ﷺ نبيٌّ صادقٌ، مُؤيَّدٌ من الله، ورسولٌ حق، يقول:

«حتَّى ظهرتِ الدعوةُ في جميع أرض العرب التي كانت مملوءةً من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان، وطاعةِ المخلوق في الكفر بالخالق، وسَفْك الدماء المحرمة، وقَطيعة الأرحام، لا يَعرفون آخرةً، ولا معاداً، فصاروا أعلمَ أهل الأرض، وأديَنهم، وأعدَلهم، وأفضلَهم؛ حتى إنَّ النصارى لمَّا رأوهم حين قدموا الشام قالوا: ما كان الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضلَ من هؤلاء، وهذه آثار عِلمِهم، وعَمَلهم في الأرض، وآثار غيرهم، يَعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ ـ مع ظهور أمرِه، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات ﷺ ولم يُخلِّف درهماً، ولا ديناراً، ولا شاةً، ولا بعيراً إلا بغلَته، وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عَقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يُورَث، ولا يأخذُ ورَثتُه شيئاً من ذلِك.

وهو في كلِّ وقتٍ يَظهر على يديه من عجائب الآيات، وفُنون الكرامات ما يَطولُ وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان، وما يكون، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويُحرم عليهم الخبائث، ويُشرِّع الشريعة شيئاً بعد شيء، حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به» [١].

«وأُمَّتُه أكمَلُ الأمم في كلِّ فضيلةٍ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأممِ؛ ظهر فضل علمهم.

---

(١) الجواب الصحيح: ج٤، ص ٨١.

وإنْ قيس دينُهم ، وعبادتهم ، وطاعتُهم لله بغيرهم؛ ظهر أنهم أدينُ من غيرهم.

وإذا قيسَتْ شجاعتهم ، وجهادهم في سبيل الله ، وصبرُهم على المكاره في ذات الله ؛ ظهر أنهم أعظم جهاداً ، وأشجع قلوباً.

وإذا قِيسَ سخاؤهم ، وبذلُهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم؛ يتبين أنهم أسخى ، وأكرم من غيرهم.

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله مُتَّبعين لكتابٍ جاء هو بتكميلهِ كما جاء المسيح بتكميلِ شريعة التوراة ، فكانتْ فضائلُ أتباع المسيح ، وعلومِهم بعضُها من التوراة ، وبعضُها من الزبور ، وبعضُها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممَّن بعده كالحواريين ، ومَنْ بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة ، وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دينِ المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضةِ لدين المسيح.

وأمَّا أُمةُ محمدٍ ﷺ فلم يكونوا يقرؤون قبلَه كتاباً ، بل عامَّتُهم ما آمنوا بموسى ، وعيسى ، وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ، ويُقروا بجميع الكتب المنزلةِ من عند الله ، ونَهاهم أن يُفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل [(١)].

إعجازُ الشّريعةِ المُحمدية:

ويتحدَّثُ عن كمال الشريعة المحمدية ، فيقول:

«وجاءتْ شريعتُه أكمَلَ شريعةٍ ، لم يَبق معروف تَعرف العقول: أنَّه معروف إلا أمر به ، ولا مُنكَر تعرف العقول: أنَّه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء ، فقيل: ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء ، فقيل: ليته لم يَنْهَ عنه.

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ٨٢.

وأحلَّ الطيبات ، لم يَحرِّم شيئاً منها كما حُرِّم في شرع غيره ، وحَرَّمَ الخبائث ، لم يُحلَّ منها شيئاً كما استحلّه غيره.

وجمعَ محاسن ما عليه الأمم ، فلا يُذكر في التوراة ، والإنجيل ، والزبور نَوعٌ من الخبر عنِ الله ، وعن ملائكته ، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه.

وأخبرَ بأشياء ليست في هذه الكتب ، فليسَ في تلك إيجابٌ لعدل ، وقضاء بفضْل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به ، وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيبُ في العبادات التي شرعها وعباداتِ غيره من الأمم؛ ظهر فضلها ، ورجحانها ، وكذلك في الحدود ، والأحكام ، وسائر الشرائع»[١].

وبعد ما ذكر بصَددِ الموضوع غايةَ العبادات ، وتحدَّث عن مختلف المذاهب ، ووجهات النظر عنها ، تَناول العباداتِ الإسلامية ، وبحث عن مقاصدها ، وأسرارها ، وفوائدها في غايةٍ من الحكمة ، كما أَثبتَ: أنَّ النبي ﷺ كان نموذجاً كاملاً للصدق ، والعدل ، وقد تجلَّى هذا الصدق ، والعدل في خُلفائـه الراشديـن وأصحابه الكرام في حياتهم ، وحكومتهم ، وخِلافتهم ، ومعاملتهم ، وسياستهم ، وعاشوا حياة كُلُّها ورعٌ وزَهادة ، لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم[٢].

الاعتقادُ بالنبوّة المحمّديّـة واجبٌ على كُلّ مُقِرٍّ بالنبـوة:

ويُثبِت الإمامُ ابنُ تيمية بكلام واضح مُؤيَّـد بالدلائل: أنَّ كُلَّ عارف بمفهوم النبوة ، وقائلٍ بهـا ، ومؤمن بـأيِّ نبيٍّ من الأنبيـاء لا يَسعُـه إنكـار النبـوة

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ، ص ٨١.
(٢) المرجع السابق: ص ١٠٤ ـ ١١٩.

المحمدية ، فإنَّ الدلائل التي يُعلم بها نبوة الأنبياء الآخرين يُعلم بها نبوة محمد ﷺ بطريق الأوْلى .

فإنْ قال قائلٌ: إن نُبوة الأنبياء تَثبت بالمعجزات؛ فإن معجزات النبي ﷺ أعظمُ ، وتواترها أبلغُ ، والكتاب الذي جاء به أكملُ ، وأُمَّته أفضلُ ، وشرائعُ دينه أحسنُ ، فيَبطُل بتكذيب نبوَّته جميع ما مع الناس من النُّبوَّات [١] .

ويَرى: أنَّ الإصرار على إثبات نبوات الأنبياء الآخرين ، وإنكارَ نبوة محمد ﷺ مَثلُه كمثلِ الذي يُقرُّ بعظمة علماء الفن ، وإمامتهم ، ويُنكر زعيمَ ذلك الفَنِّ ، وأستاذه الأول ، إنَّه يضرب لذلك أمثلةً عديدة طريفة ، يقول:

«وصار هذا كما لو قال قائل: إن زُفر ، وابنَ القاسم ، والمُزنيَّ ، والأثَرَم كانوا فقهاءَ ، وأبا حنيفة ، ومالكاً ، والشافعيّ ، وأحمدَ ، لم يكونوا فقهاء .

أو قال: إنَّ الأخفشَ ، وابنَ الأنباري ، والمبرِّد كانوا نُحاةً ، والخليل ، وسيبويه ، والفرَّاءُ لم يكونوا نُحاة .

أو قال: إنَّ صاحب المَلكي ، والمَسيحي ، ونحوهما من كُتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط ، وجالينوس ، ونحوهما لم يكونوا أطباء .

أو قال: إن كوشيار ، والخِرقي ، ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، وبطليموس ، ونحوَه لم يكن له علمٌ بالهيئة .

ومَنْ قال: إنَّ داود ، وسليمان ، ومليخا ، وعاموص ، ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمدُ بن عبد الله لم يكن نبياً ، فتناقُضه أظهرُ ، وفسادُ قوله أبيَنُ من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال: إنَّ موسى ، وعيسى رسولان ، والتوراةَ ، والإنجيل كتابان مُنزَّلان من عند الله ، ومحمد ليس برسول ، والقرآنُ لم ينزل من الله ، فبُطلان قوله في غاية الظهور ، والبيان لمن تدبر ما جاء بهِ

(١) الجواب الصحيح: ص ١٨٠ .

محمد ﷺ ، وما جاء به مَنْ قبله ، وتدبَّر كتابَه ، والكتب التي قبله ، وآيات نبوته ، وآياتِ نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه ، وشرائع دين هؤلاء»[١].

البعثَةُ العامّة لرسول الله ﷺ:

ومنِ الأَفضَل أن أَختم هذا البحثَ بذِكر دَعوى النصارى التي ذكرها ابن تيميّة في أول كتابه ، وهي أنَّ النبي ﷺ إنما كان قد بُعث خصيصاً إلى العرب الجاهلين ، وهم الذين كانوا مُطالبين بالإيمان به ، وأنَّ النصارى غير مضطرّين إلى الإيمان به ، فإنْ لم يؤمنوا به ؛ لا يؤاخذون على ذلك.

وهذه العقيدةُ شائعةٌ بين النصارى العرب وعُلمائهم اليوم أيضاً ، كما أن في بلادنا الهند وُجدت في بعض الأوساط فكرة : أنَّ الاتّباع الكامل للأديان السابقة يتكفَّل النجاة من النار ، ولا حاجةَ لمسيحيٍّ ، أو يهوديٍّ صادقٍ ، أو رجلٍ من غير المسلمين أن يُـؤمن بالنبوّة المحمدية ، وبما أن هذا الاعتقادَ الفاسد يقضي على جُذور الدعوة الإسلامية ، وبعثةِ الرسولِ العامة ، ويَنسَدُّ به بابِ الدعوة ، والتبليغ للإسلام ، وتذهب الجهود التي بُذلت في نشر الإسلام سُدىً ؛ تصدَّى الإمام ابن تيميّة لردِّ هذا الاعتقاد الفاسد ، وركَّز كتابته في دحض هذا الباطل ، وتحدّث في هذا الموضوع في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» في الجزء الأول من الصفحة ٢٨ إلى الصفحة ٢٣٠ ، وتناوَلَه من الناحيتين العِلمية ، والاستدلالية بأكمل وجهٍ ، وأوسع طريق ، وهو مما يَدُلُّ على قُوَّة عارضته ، وتَعمُّق علمه ، وقد جمع في هذا البحث جميعَ نصوص الكتاب ، والسنة التي تقضي على كل شبهة تتطرَّق إلى بعثة النبي ﷺ بأنها كانتْ تختص العرب وحدهم ، أو أنَّ النجاة مأمولةٌ من غير الإيمان بنبوته ، يقول في موضع :

«وقال ﷺ : «وكان النبيُّ ﷺ يُبعثُ إلى قومه خاصةً ، وبُعثتُ إلى الناس عامة»[٢].

---

(١) المرجع السابق: ج٤ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب التيمم ، برقم (٣٣٥) ، والدارمي في السنن في كتاب =

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن دعوة المشركين، وعباد الأوثان، وجميع الإنس، والجن ما لا يُحصى إلا بكُلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنَّه لم يَذكر: أنَّه بُعث إلا إلى العرب خاصة، وهذه دَعوتُه، ورسُله، وجهاده لليهود، والنصارى، والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرتهُ ﷺ فيهم، وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يُذكر فيه دعاؤه لأهلِ الكتاب إلى الإيمانِ به» [(١)].

ويقول في مكانٍ آخر:

«فهذه الدلائل، وأضعافُها مما تبيَّن: أنَّه نفسه ﷺ أخبر: أنَّه رسول الله إلى النصارى، وغيرِهم من أهل الكتاب، وأنَّه دعاهم، وجاهدهم، وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فَعَلَتْهُ أُمته بعده بدعةً ابتدعوها، كما فعلتِ النصارى بعد المسيح عليه السلام، فإنَّ المسلمين لا يُجوِّزون لأحدٍ بعد محمد ﷺ أن يُغير شيئاً من شريعته، فلا يُحلِّل ما حرم، ولا يُحرِّم ما حلل، ولا يُوجب ما أسقط، ولا يُسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلَّله الله ورسولُه، والحرام ما حرَّمه الله ورسولُه، والدِّين ما شرَعه الله ورسوله» [(٢)].

* * *

= الصلاة، باب الأرض كلها طهور...، برقم (١٣٨٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٠٤) برقم (١٤٣٠٣)، وابن حبان في الصحيح (١٤/ ٣٠٨) برقم (٦٣٩٨)، والبيهقي في السنن (١/ ٢١٢) برقم (٩٥٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه].

(١) الجواب الصحيح: ج٤ ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) المرجع السابق: ص ١١٧ ـ ١١٨.

ب ـ نَقْدُ الشّيعـة وآراؤهـا

كِتـاب «منهـاج السنـة»:

لقد قام الإمامُ ابن تيمية بالردِّ على الشيعة في غير موضع من مؤلَّفاته ، وأدَّى حقَّ الدفاع القوي عن السُّنة ، وعقائد أهل السنة ، وعن الخلفاء الراشدين ، والصحابة الكرام رضي الله عنهم ، إلا أنه أفرد في موضع الردِّ على الشيعة كتاباً مستقلاً سمَّاه «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» .

أمَّا الباعثُ على هذا التأليف فهو: أنَّ العالم الشيعيَّ المعاصر الكبيرَ ابنَ المطهّر الحِلِّي ألَّف كتاباً ضخماً لولي نعمته ، ومخدومه الملك التاتاري «أوليجا خدا بنده خان» ، الذي كان قد تَشيَّع بفضل جُهوده التي بذلها في دعوته إلى الشيعية ، وقد سَمَّى هذا الكتاب باسم «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» لإثبات الشيعة والإمامة ، والرد على السُّنية والخلافة.

وقد وَصل هذا الكتاب إلى الشام ، حيث اطَّلَع عليه شيخُ الإسلام ، وكان الشيعة يعتزُّون بهذا الكتاب ، ويظنون: أنَّ الرَّد عليه مستحيلٌ ، ومعظم ما كان يحتوي عليه هذا الكتاب هو إثباتُ الإمامة لسيدنا علي كرّم الله وجهه ، وعصمةُ أهل البيت رضي الله عنهم ، وعلى ردِّ خلافة الخلفاء الثلاثة ، والطعن عليهم وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، كما بُذلت فيه محاولةٌ لتفضيل سيدنا علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء ، وذكرُ فضائل الأئمة الاثني عشر ، وإمامتهم ، وعصمتهم ، مؤيِّداً كلَّ ذلك بنصوص الكتاب والسنة ، مع توجيه المطاعن إلى الخلفاء الثلاثة والصحابة رضي الله عنهم مُبرهِناً عليها بالآيات ، والأحاديث ، والتاريخ ، والسير ، وقد تجلَّى في كلّ ذلك ذكاءُ المؤلف ، وقوّة

استدلاله ، وتبحُّره العلمي بغايةٍ من الوضوح والقوة ، واقتنع بأنه أقام بذلك الحجة على أهل السنة.

وبما أنَّ المؤلِّف معتزليُّ العقيدة في الأصول والعقائد كعامة المتأخرين من الشيعة؛ تصدى للبحث في الذات ، والصفات ، وفي عقائد أهل السنة ، وأصولهم بحثاً كلامياً فلسفياً.

وقد ألحَّ أهلُ السنة على ابن تيمية بأن يؤلِّف ردّاً على هذا الكتاب ، ومعلوم أنَّ هذا الكتاب يشمل أبحاثاً كثيرةً لعلم الكلام ، والعقائد ، والفلسفة ، والتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، والآثار ، فكان من المناسب جداً أن يقوم للرد عليه رجلٌ يجمع بين النظرة العميقة الواسعة في جميع هذه العلوم والمواضيع ، وبين النَّقد والمعرفة لها.

وممَّا لا يخفى: أنَّ للمؤلِّفين من الشيعة جرأةً، ومهارة في وضع الأحاديث، واختراع الرواية ، وكان عِلمُ الحديث قد توسَّع آنذاك ووضعت له مجموعات ، ودواوينُ كثيرة كان من الصعب أن يميَّز الموضوعُ فيها من الصحيح ، وأن تنقد الروايات في ضوء مبادىء الجرح والتعديل ، وتوزن في ميزان فنّ الرجال بغايةٍ من الدقة والإتقان ، لذلك كانتِ الحاجة ماسّةً إلى رجل نابغةٍ في علم الحديث ، متبحِّرٍ في أسماء الرجال ، مُطَّلعٍ على جميع ذخائر الحديث ، عارفٍ بأحوال الروايات والرواة بحيث لا يمكنُ لَبْسُها عليه.

كما يكون ذا اطلاعٍ واسع على التاريخ الإسلامي حتى يستطيعَ أن يضع أُصبعه على موطن كل خطأ تاريخي ، ولا يفوتُه أيُّ افتراض ، أو اختلاق في الرواية.

ومن المسلَّم المعلوم: أنَّ توجيه الاعتراض والنقد إلى شخصية تاريخية عمل سهل جداً من بين ذخائر التاريخ الواسعة ، أما تزكيتها والدفاعُ عنها فأمرٌ صَعْب . وكان من المواضع المعجَب بها لدى الشيعة هو الطعن في الصحابة

رضي الله عنهم الذي كانوا يتَّخذونه مجالاً واسعاً لصَبِّ غيظهم ، وحِقدهم الدفين ضد أصحاب الرسول ﷺ .

ومِن حُسن حظِّ المسلمين : أنَّ الله تعالى قيَّض في نفس ذلك الزمن الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب عالماً من علماء أهل السنة كان يُعتبر أمير المؤمنين في الحديث في عصره ، وقد عُني بالرد عليه . وكانت مكتبة الحديث ، والرجال ككتاب مفتوح أمام عينيه ، ذلك الرجل الذي قيل عنه في معرفته بالحديث : إنَّ الحديث الذي لا يعرفه هو ليس بحديث ، والحقيقة أنه (ابن تيمية) أدَّى فرض الكفاية عن الأمة في الرد على مطاعن الصحابة ، وقام بعمل تَعذَّر على غيره من العلماء بعدَه ، ولا شك : أنَّ علماء الإسلام بعده إنما يستفيدون منه في هذا الموضوع .

إنَّ كتابه «منهاج السنة» [1] الذي أَلَّفه رداً على كتاب «منهاج الكرامة» لابن المطَهَّر الحِلِّي ، إنما يمتاز عن سائر مؤلفاته بميزة خاصة ، فمن أراد أن يطَّلع على تبحُّره العلمي ، وسَعةِ نظره ، وحُضور بديهته ، وقُوَّةِ حفظه واستحضارِه للمسائل ، ونُضجهِ ، وإتقانه ، وذكائه ، وألمعيته ؛ فليقرأ هذا الكتاب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

العَامِلُ في هذا الكتاب والباعِثُ عليه :

إنَّ العاملَ الرئيسيَّ في تأليف هذا الكتاب عندَ ابن تيمية ، والباعث عليه في الحقيقة هو أَنَّ صاحبَ «منهاج الكرامة» أطلقَ لسان الطَّعْن بأسلوب شائن في الخلفاء الراشدين ، والسابقين الأولين الذين يَعتقدهم الإمام ابن تيمية ـ كسائر

(١) يحتوي هذا الكتاب على أربعة مجلَّدات بالقطع الكبير ، ويقع في ١٢١٤ صفحة ، طبع في المطبعة الأميرية في مصر باهتمام الشيخ مصطفى البابي الحلبي ، وقد لخَّصه العلامة الذهبي باسم «المنتقى» الذي صدر حديثاً من مصر بعناية الشيخ محمد نصيف ، واهتمام الأستاذ محب الدين الخطيب .

أهل السنة ـ أفضلَ الخلق بعد الأنبياء ، وأصلحَ أفراد النوع البشري ، ولكنَّ صاحب المنهاج أثبتهم شرار الخلق ، وأرذل الكائنات ، الأمر الذي أزعج ابنَ تيميَّة ، وجعله يعلن بصراحة : أنَّ مثل هذا الاعتقاد يُرادف تقويض أركان الإسلام ويفتح باب الطعن والاعتراض على النبوة المحمدية ، ويُؤدي إلى الإلحاد والزَّندقة ، يقول في موضع ما معناه :

«لولا أنَّ هذا الرجلَ الجائر المتعدِّي حدودَ الأخلاق والحِشمة لم يتناول الصحابة الكرام رضي الله عنهم بالنَّقد اللاذع ، أولئك هم الرعيلُ الأول لأولياء الله ، وأئمةُ أهل الأرض ، وأفضلُ الخلق بعد الأنبياء ، ولولا أنَّ انتقاده سبَّب الفِتنة في الدين ، ووفَّر الحُجةَ للكفار ، والمنافقين ، وأحدَث الشكوك في قلوب كثير من المؤمنين ؛ لم نرَ حاجة إلى كشف القناع عن نَقْد هذا الرجل . أَنْصَفَ الله من هذا الرجل ، وأتباعِه في العقيدة» .

الشِّيعة يرَون أن اليَهود والنصارى أفضلُ من خَير الأمم:

وفي مناسبةٍ أخرى يتحدَّث عن مطاعن الشيعة ، ونَيلهم من مكانة الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ فيقول : «وهذه الأمةُ خيرُ الأمم ، وخيرُها القرن الأول ، كان القرن الأول أكملَ الناس في العلم النافع والعمل الصالح .

وهؤلاء المفترون وَصفوهم بنقيض ذلك بأنهم لم يكونوا يعلمون الحقَّ ، ويتَّبعونه ، بل كان أكثرهم عندهم يعلمون الحق ، ويُخالفونه ، كما يزعمونه في الخلفاء الثلاثة ، وجمهور الصحابة والأمة ، وكثيرٌ منهم عندهم لا يعلم الحق ، بل اتَّبع الظالمين تقليداً لعدم نظرهم المفضي إلى العلم ، والذي لم يَنظره قد يكون لقُصوره ، ونَقص إدراكه .

وأدَّى : أنَّ منهم مَن طلب الأمر لنفسه بحقٍّ يعني علياً ، وهذا مما علمنا بالاضطرار : أنه لم يكنْ .

فلزم من ذلك على قول هؤلاء أن تكونَ الأمة كلُّها كانتْ ضالَّةً بعد نبيها ، ليس فيها مُهْتَدٍ .

فتكون اليهودُ، والنصارى بعد النَّسخ، والتبديل خيراً منهم؛ لأنهم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ اليهود والنصارى افترقتْ على أكثر من سبعين فرقة فيها واحدةٌ ناجية، وهذا الأمة على موجب ما ذكروا لم يكن فيهم بعدَ موت النبي ﷺ أمةٌ بالحقِّ ولا تَعدِل به، وإذا لم يكن ذلك في خيار قرونهم؛ ففيما بعد ذلك أولى، فيلزمُ من ذلك أن يكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً من خير أمة أُخرِجت للناس»[١].

خِيار الأمة شِرارُها عندَ الشيعة:

ويقول في موضع آخر:

«فإنَّهم عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأوَّلين بعد النبيِّين والمرسلين، وإلى خير أمةٍ أخرجت للناس، فجعلوهم شرارَ الناس، وافتروا عليهم العظائم، وجعلوا حسناتهم سيئاتهم.

وجاؤوا إلى شرِّ من انتسب إلى الإسلام من أهل الأهواء وهم الرافضة بأصنافها غاليها، وإماميِّها، وزيديِّها، والله يعلم، وكفى بالله عليماً، ليس في جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام مع بدعة وضلالة شرٌّ منهم، لا أجهل، ولا أكذب، ولا أظلم، ولا أقرب إلى الكفر، والفسوق، والعصيان، وأبعد عن حقائق الإيمان منهم، فزعموا أن هؤلاء هم صفوةُ الله من عباده.

فإنَّ ما سوى أمة محمدٍ كفارٌ، وهؤلاء كفَّروا الأمة كلَّها، أو ضلَّلوها سوى طائفتهم التي يزعمون: أنَّها الطائفة المُحقَّة، وأنها لا تجتمع على ضلالة، فجعلوهم صفوةَ بني آدم، فكان مَثلهم كمن جاء إلى غَنم كثيرة، فقيل له: أعطنا خيرَ هذا الغنم؛ لنضحي بها، فعمد إلى شرِّ تلك الغنم إلى شاة عوراءَ، عجفاء، عرجاء، مهزولة، لا نِقْيَ لها، فقال: هذه خيار هذا الغنم لا تَجوز

(١) منهاج السنة: ج١، ص١٥٢.

الأضحية إلا بها ، وسائر هذه الغنم ليست غنماً ، وإنما هي خنازير ، يجب قَتلها ، ولا تجوز الأُضحية بها» (١).

الإمام الشعبي يقول:

يُروى عن الشعبيّ: أنَّ اليهود ، والنصارى أعرَفُ بمنزلة الأنبياء بالنسبة إلى الرافضة «سُئلت اليهودُ: مَنْ خَير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحابُ موسى ، وسُئلتِ النصارى: من خير أهل ملّتكم؟ قالوا: حواريُّو عيسى ، وسُئلت الرافضةُ: من شرُّ أهل ملّتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، أُمروا بالاستغفار لهم، فسَبُّوهم»(٢).

المُعاداة للسابقينَ الأوّلين والمُوالاة للكفار:

«وهذا دَأْبُ الشيعة دائماً ، يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلى اليهود ، والنصارى ، والمشركين في الأقوال ، والموالاة ، والمعاونة ، والقتال ، وغير ذلك ، ومَنْ أضلُّ من قوم يُعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويُوالون المنافقين ، والكفار» (٣).

ثم يقول بعد ما ذكر مُناصرةَ الشيعة للكفار ، ومساعدتَهم إيَّاهم:

«وكثيرٌ منهم يُوادُّ الكفار من وسَطِ قلبه أكثرَ من موادته للمسلمين ، ولهذا لمَّا أخرج التركُ الكفارَ من جهة الشرق ، وقتلوا المسلمين ، وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان، والعراق ، والشام ، والجزيرة ، وغيرها؛ كانت الرافضة معاونةً لهم على المسلمين.

وكذلك الذين كانوا بالشام ، وحلب ، وغيرهم من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.

---

(١) منهاج السنة: ج٣ ، ص ٤٠.
(٢) المرجع السابق: ج ١ ، ص ٦.
(٣) المرجع السابق: ج٢ ، ص ٨٣.

وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم.

وكذلك إذا صار لليهود دولةٌ بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائماً يُوالون الكفار من المشركين، واليهود، والنصارى، ويُعاونوهم على قتال المسلمين، ومعاداتهم»[1].

العَصبيَّة والانْحِـرافُ:

يذكر ابنُ المُطهر الحِلِّي في إحدى المناسبات في كتابه خواجه نصير الدين الطُّوسي، فيبالغُ في تقديسه، وتعظيمه، ويُضفي عليه الألقاب العظيمة فيقول: «شيخنا الإمام الأعظم خواجه نصير الملَّة والحقِّ والدين محمد بن الحسن الطوسي قدَّس الله روحَه» وهنالك جاشت في ابن تيمية حميته الدينية فلم يَلْبَث أن تناول خواجه نصير الدين الطوسي، وفضائِحَه، ومؤامراته على قتل الخليفة العباسي[2]، وصنيعته في مجزرة بغداد، وأفكارَه، وعقائده المُلحِدة، ويقول في غاية من الاستغراب:

«ومِنَ العجب: أنَّ هذا المصنِّف الرافضي، الكذَّاب، المفتري يذكر أبا بكر، وعمرَ، وعثمانَ، وسائر السابقين، والتابعين، وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين بالعظائم التي يفتريها عليهم هو وإخوانه، ويَجيء إلى من قد اشتُهر عند المسلمين محاربتُه لله ورسوله، يقول عنه: «قال شيخنا الأعظم» ويقول: «قدَّس الله روحَه» مع شهادته عليه بالكفر، وعلى أمثاله، ومع لعنه طائفة خيار المؤمنين من الأولين، والآخرين، وهؤلاء داخلون في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) منهاج السنة: ص ٨٤.

(٢) حيث كان وزيراً لهولاكو.

سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾[1] [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

تَناقُضات الشيعة:

يقولُ الإمامُ ابن تيمية: «ثم مِن جهل الرافضة: أنَّهم يُعظِّمون أنساب الأنبياء، آباءهم، وأبناءهم، ويَقدحون في أزواجهم، كل ذلك عصبيةٌ، واتباعٌ للهوى، حتى يُعظِّمون فاطمة، والحسن، والحسين، ويقدحون في عائشة أمِّ المؤمنين»[2].

ومِن تَناقض الشيعة: أنَّهم يُبالغون في تعظيم محمد بن أبي بكر (رضي الله عنه) ويَقدحون من شأن والِده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يقول ابن تيمية:

والرافضةُ تغلو في تعظيمه على عادتهم الفاسدة في أنهم يَمدحون رجالَ الفِتنة الذين قاموا على عثمان، ويُبالغون في مدح من قاتل مع علي حتى يفضِّلون محمد بن أبي بكر على أبيه أبي بكر، فيلعنون أفضلَ الأمة بعد نبيها، ويمدَحون ابنه الذي ليس له صُحبة، ولا سابقةٌ، ولا فضيلة، ويتناقضون في ذلك في تعظيم الأنساب»[3].

البُغضُ للصَّحابة الكرام دليلٌ على ما في القلب من غلٍّ وخُبثٍ:

إنَّه يقول ما معناه: «أكبَرُ خُبثٍ للقلوب ومرَضها أنَ تنطوي على بُغض أولئك الرجال العظام؛ الذين كانوا خيار المؤمنين، ورَعيل أولياء الله الأُول، وتاج مَفْرِقِهم.

ولذلك فإنَّ في الفَيْء سَهماً لأولئك الذين ليس في قلوبهم غل للمهاجرين، والأنصار، والسابقين الأولين، بل يَدْعون، ويستغفرون لهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا

(١) منهاج السنة: ص ١٠٠.
(٢) المرجع السابق: ص ١٩٣.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

الطّاعن في الشّيخين لا يَخلُو من الحالين:

لا يجترئ على الطعن على أبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ إلا نَوعان من الرجال:

إمَّا منافق زنديق، عدوٌّ للإسلام الذي يتَّخذ الطعن عليهما ذريعةً للطعن على شخصية رسول الله ﷺ وعلى الإسلام، وفي هذه الحال عاش المُعلّم الأول[1] للرافضة، وتلك هي معاملةُ أئمة الغلاة.

وإمَّا جاهلٌ غالٍ في اتباع هواه وجهله، وهذه هي حالة العامة من الشيعة، إذا كانوا مسلمين في باطنهم يقول في «منهاج السنة»:

«قد عُرف بالتواتر الذي لا يَخفى على العامة والخاصةِ: أنَّ أبا بكر، وعمر، وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ كانَ لهم بالنبي ﷺ اختصاصٌ عظيم، وكانوا مِن أعظم الناس اختصاصاً به وصُحبة له وقُرباً إليه واتصالاً به، وقد صاهرهم كلِّهم، وما عُرف عنه: أنَّه كان يَذُمُّهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه: أنه كان يُحبُّهم، ويُثني عليهم، وحينئذٍ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً في حياته وبعدَ موته.

وإمَّا أن يكونوا بخلاف ذلك في حَياته، أو بعد موته، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرب؛ فأحد الأمرين: إما عَدمُ عِلمه بأحوالهم، أو مُداهنته لهم، وأيُّهما كان؛ فهو من أعظم القَدْح في الرسول ﷺ كما قيل:

فإن كُنتَ لا تدري فتلكَ مُصيبةٌ ... وإن كنتَ تدري فالمُصيبةُ أعظَمُ

وإنْ كانوا انحرفوا بعد الاستقامة؛ فهذا خُذلانٌ من الله للرسول في خواصِّ أُمته، وأكابر أصحابه، ومن قد أَخبر بما سيكون بعد ذلك أين كان عن عِلم

(١) [لعلَّه أراد به عبد الله بن سبأ، والذي كان رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي رضي الله عنه، كان أصلُه من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلامَ].

ذلك؟! وأين الاحتياطُ للأمة حتى لا يولّىٰ مثل هذا أمرها ، ومن وُعد أن يظهر دينه على الدين كله ، فكيف يكون أكابر خواصه مرتدِّين ، فهذا ونحوه من أعظم ما يقدَح به الرافضة في الرسول ﷺ .

كما قال مالكٌ وغيره .

«إنَّما أراد هؤلاء الرافضة الطَّعن في الرسول؛ ليقول القائل : رجلُ سوء كان له أصحابُ سوء ، ولو كان رجلاً صالحاً؛ لكان أصحابه صالحين» .

ولهذا قال أهل العلم : «إنَّ الرافضة دَسِيسَةُ الزَّندقة »[(١)] .

فَضائِلُ الصحابة ومَناقِبُهم مُتواترةٌ قَطعية:

يعتقد الإمامُ ابن تيمية : أنَّ عدالة الصحابة الكرام أساسٌ مُهِمٌّ للإسلام ، إنه يؤمن بصدقهم ، وثِقتهم ، ويراهم أصدقَ مثال ، وأروع نموذج لتعاليم الإسلام ، وتربية الرسول عليه الصلاة والسلام، وأطيبَ ثمرة لصحبته ﷺ ، وإنَّ فضل الصحابة الثابت عنده بالقطعية ، والتواتر ، وبنصوص الكتاب ، وآياتِه ، وصحيح الأحاديث ، والروايات ، بحيث لا يتطرق إليه شكٌّ بأيِّ رواية تاريخية ، أو حديثٍ غريب شاذ ، إنه يقول :

«وإذا كان كذلك ما عُلم بالكتاب ، والسنة ، والنقل المتواتر من محاسن الصحابة ، وفضائلهم لا يجوز أن يُدفعَ بنقولٍ بعضُها متقطّع ، وبعضُها مُحرَّف ، وبعضها لا يقدح فيما عُلم ، فإنَّ اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنَّا ما دلَّ عليه الكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف قبلَنا ، وما يصدِّق ذلك من المنقولات المتواترة عن أدلة العقل من أنَّ الصحابة رضي الله عنهم أفضلُ الخلق بعد الأنبياء فلا يَقدح في هذا أمورٌ مشكوكٌ فيها ، فكيف إذا عُلم بُطلانها» [(٢)] .

---

(١) منهاج السنة : ج٤ ، ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق : ج٣ ، ص ٢٠٩ .

الصّحابة الكـرام ليسُوا معصومين عَنِ الخطـأ:

إنَّـه يعتقـد: أنَّ الصحـابـة الكـرام لـم يكـونـوا معصـوميـن عـن الخطـأ كالرسول ﷺ ، كأَنْ يستحيلَ صُدور الذنوب منهم ، ولكنَّه يعتقدُ أنَّهم كانوا أعدلَ الأمة ، وأتقاها ، وأصدقَ الناس ، وأشدَّهم أمانة ، فإن صدرتْ منهم أخطاء؛ أو ذنوب فقد تَبعها حسناتٌ ، وأعمالٌ ترضي الله ورسوله ، كفَّرت عنهم سيئاتهم ، وعلى كلٍّ فإن كَفَّة حسناتهم ، وأعمالهم الصالحة راجحةٌ على تقصيراتهم ، وأخطائهم ، يقول: «وقد قدَّمنا أنّا لا نَدَّعي عصمةً في أحدٍ بعد رسول الله ﷺ من الذنب فضلاً عن الخطأ في الاجتهاد، وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ ـ ٣٥] وقال تعالى:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (١) [الأحقاف: ١٦].

لا نظيـر لهـم فـي التاريـخ:

إنَّه يُصرِّح بأنَّه ليس هناك جيلٌ في التاريخ البشريِّ من حيث المجموع أجملَ سيرة ، وأروعَ سلوكاً من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ عدا الأنبياءِ عليهم السلام على رغم جميع الزَّلات ، والتقصيرات التي هي من خَواصِّ البشر ، فإن وُجد في حياتهم آثار من الأخطاء ، والزَّلات؛ فمَثَلها كمثل الثوب الأبيض يخالطُه شيء من السَّواد في بعض أجزائه ، والذَّنْبُ في الحقيقة يرجع إلى أولئك المنتقِدين؛ الذين يُدركون النُّقط السوداء في الثوب الأبيضِ ولا يدركون بياضه .

أمَّا حياة الطوائف الأخرى؛ فكلُّها سوداء ، ويخالطها نُقَطٌ بيضاء في بعض جوانبها ، إنَّه يقول:

(١) منهاج السنة: ج٣ ، ص ٢٤٢.

«وخِيار هذه الأمّةِ همُ الصحابة ، فلم يكن في الأمة أعظمُ اجتماعاً على الهدى ودين الحق ، ولا أبعدَ عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يُذكر عنهم مما فيه نقصٌ فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قِيس ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير.

وإنَّما يَغلَطُ من يَغلطُ: أنَّه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض ، وهذا من الجهل ، والظُّلم بل يُوزن هؤلاء بنظرائهم ، فيَظهر الفَضلُ ، والرَّجحان.

وأمّا ما يقترحُه كلُّ أحد في نفسه مما لم يُخلق ، فهذا لا اعتبار به ، فهذا يقترح معصوماً من الأئمة ، وهذا يقترح ما هو كالمعصوم ، وإن لم يُسَمِّه معصوماً ، فيقترح في العالم ، والشيخ ، والأمير ، والملك ، ونحو ذلك مع كثرة علمه ، ودينه ، ومحاسنه ، وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير ، يقترحُ مع ذلك ألاَّ يكون قد خَفيَ عليه شيء ، ولا يُخطىءُ في مسألة ، وأن يخرجَ عن حدّ البشرية ، فلا يغضب ، بل كثيرٌ من هؤلاء يُقترح فيهم ما لا يُقترح في الأولياء»[(١)].

ويشدِّدُ ابنُ تيمية على نقطة مهمة ، وهي أن مَن يكون مُطَّلعاً على التَّاريخ ، وتكونُ قد مرت عليه أحوال أممٍ ، وشعوبٍ ، وملل مختلفة ، وتجارب جماعات بشرية متعددة يتيَقَّن: أنَّـه لا جماعةَ أكثرُ اتحاداً ، واتباعاً للحق ، وأبعدُ عن الفُرقة ، والفتن ، وأشدُّ نفوراً من النفسانية وحُب الدنيا من جماعة الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، يقول:

«فمَن استقرأ أخبارَ العالَم في جميع الفِرق ؛ تبيَّن له أنه لم يكن قَطُّ أعظمَ اتفاقاً على الهدى والرشد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله ﷺ الذين هُم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك؛ إذ يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

---

(١) منهاج السنة: ج ٣ ، ص ٢٤٢.

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (١)

[آل عمران: ١١٠].

كُلُّ خَير يوجد لدى المسلمين إنما هو بفَضل الصحابة الكرام:

وقد أصَاب الإمامُ ابنُ تيمية حينما قال: كُلُّ خيرٍ فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإسلام، والإيمان، والقرآن، والعلم، والمعرفة، والعباداتِ، وعوامل الخير والتوفيق إنما هو ببركةِ ما قام به الصحابة رضوان الله عليهم من الجهاد، والعمل، والإخلاص، وعلو الهمة، ونتيجة لتضحياتهم، وإيثارهم، وقُدسيتهم، يقول في غاية من الحماس:

«وأمّا الخُلفاءُ والصحابةُ فكلُّ خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان، والإسلام، والقرآن، والعلوم، والمعارف، والعبادات، ودخول الجنة، والنجاةِ من النار، وانتصارِهم على الكفار، وعُلوِّ كلمة الله، فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلَّغوا الدين، وجاهدوا في سبيل الله، وكلُّ مؤمنٍ آمن بالله فللصَّحابة رضي الله عنهم عليه فضلٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ خير فيه الشيعةُ وغيرهم فهو ببركة الصحابة، وخير الصحابة تَبَعٌ لخير الخلفاء الراشدين، فهم كانوا أقوَم بكلِّ خير في الدين والدنيا من سائر الصحابة (٢)».

خِلافة سَيدنا أبي بكر الصديق دليل على النُّبوة والصِّدق:

وقد صَدَقَ الإمامُ ابن تيمية عندما قال: إن خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ دليلٌ على كمال النبوة، وشهادةٌ على صدق النبوة أيضاً، فقد كانت طبيعتُه ﷺ طبيعةَ النبوة، لا طبيعةَ السياسة، ولا شَبه بينه وبين مُلوك العالم وسلاطينه الذين يختارون أولادهم أو أفراد أُسرهم خلفاءَهم، وأولياءَ

(١) منهاج السنة: ج ٣، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق: ج ٣، ص ٢٤٥.

عهدهم ، فلو كانت عنده شائبةٌ من الملوكية ، أو إيثار لقرابة ، لوُجد هناك أفرادٌ كثيرون من بني هاشم ـ عدا علي بن أبي طالب وعباسٍ بن عبد المطلب رضي الله عنهما ـ يستخلِفهُم رسول الله ﷺ وأَسّس مُلوكية خاصةً بأسرته ، وحَصر تلك الغَلَبة والعِزّة التي أكرمه الله بها في قبيلته ، وأسرته إنَّه يقول:

«ثُمَّ خلافة أبي بكر، وعمر هي من كمال نُبوّة محمد ﷺ ورسالتِه، وما يُظهر أنَّه رسولٌ حقّ ليس مَلِكاً من الملوك ، فإن عادة الملوك إيثارُ أقاربهم ، والموالاةُ بالولايات أكثر من غيرهم ، وكان ذلك مما يُقيمون به مُلْكَهم.

وكذلك مُلوك الطوائف ، كبني بُويه ، وبني سَلْجق ، وسائر الملوك بالشرق والغرب ، والشام ، واليمن ، وغير ذلك.

وهكذا مُلوك الكفار من أهل الكتاب ، والمشركين ، كما يوجد في ملوك الفرنج وغيرهم ، وكما يوجد في آل جنكشخان بأن الملوك تبقى في أقارب الملك. ويقولون هذا من العَظْم وهذا ليس من العَظْم أي من أقارب الملك.

وإذا كان كذلك فتولية أبي بكر ، وعمرَ بعد النبيِّ ﷺ دون عمه العباس ، وبني عمه عليٍّ ، وعقيلٍ ، وربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وغيرهم ، ودون سائر بني عبد مناف ، كعثمان بن عفان ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأبَان بن سعيد بن العاص وغيرهم من بني عبد مناف؛ الذين كانوا أجلَّ قريش قدْراً ، وأقربَ نسباً إلى النبي ﷺ مِنْ أعظم الأدلة على أنَّ محمداً عبد الله ، ورسولُه ، وأنه ليس مَلِكاً حيث لم يُقدِّم في خلافتهِ أحداً لا بقُرب نَسَبٍ منه ، ولا بشرَفِ بَيتهِ ، بل إنما قدَّم بالإيمان ، والتقوى.

ودلَّ ذلك على أنَّ محمداً ﷺ وأمَّته من بعده إنما يَعبدون الله ، ويُطيعون أمره ، لا يُريدون ما يريده غيرهم من العُلوّ في الأرض ، ولا يريدون أيضاً ما أُبيح لبعض الأنبياء من الملك ، فإن الله خيَّر محمداً بين أن يكون عبداً رسولاً ، وبين أن يكون نبياً ، فاختار أن يكون عَبداً رسولاً.

وتوليةُ أبي بكر ، وعمر بعده من تمام ذلك ، فإنه لو أقام أحداً من أهل بيته ؛ لكانت شبهةً لمن يَظن : أنَّه جمع المال لورثته»[١] .

عَصبيَّة النَّسَبِ الجاهليةُ:

الواقعُ أنَّ الفِرَق التي تدَّعي وصايـة علي بـن أبي طالب رضي الله عنه ، والتي لا تستسيغُ أن يَنال الخلافة أحدٌ آخر بالرغم من وجود ابن عمه الحقيقي وصهرِهِ إنما يتغلب عليها لونُ الجاهلية بأوسع معناه ، وهي تعيش في عصبيةٍ جاهلية للنسب والقرابة ، وتتقاصر عن إدراك : أنَّ المناصب ، والمنازل لا تُعطى على أساس النسب ، والقرابة بل على أساس الكفاءة ، والفضائل ، والجدارة التي تُوجد في الإنسان.

وكانتِ الأممُ كلُّها سواء في الهندِ ، أو العرَب ، أو الفرس تصطبغ بهذه الصِّبغة الخاصة ، ولذلك فإن الذين حكموا بِقطْعيَّة : أنَّ الخليفة لا بُدَّ هو عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، إنما فعلوا بحُكم عادتهم القومية ، وطبائعهم الجاهلية ، من غير أن يُدركوا مكانة الأنبياء عليهم السلام ، وطبيعتَهم ، وسماحَتهم ، وهِمَّتهم العالية التي يعيشون فيها ، يقول الإمام ابن تيمية :

كلامُ الرَّافضة من جِنْس كلام المشركين الجاهلين يتعصبون للنَّسب ، والآباء لا للدين ، ويَعيبون الإنسان بما لا ينقص إيمانَه ، وتقواه ، وكلٌّ هذا مِن فعل الجاهلية»[٢] .

انتِسابُ الرَّافضة إلى ولَد الحسين ومَدحُهم لهم مُصيبة عليهم:

يرى ابنُ تيمية : أنَّ الرافضة أصدقاء حمقى لأهل البيت ، فإن مبالغتهم في أمر أهل البيت ، وغُلُوَّهم، ونِسبة الأحداث ، والروايات المزورة إليهم تنالُ من سمعتهم ، وتَحُطُّ من شأنهم ، يقول :

---

(١) منهاج السنة : ج٤ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

«مِن المصائب التي ابتليَ بها ولَدُ الحسين انتساب الرافضةِ إليهم، وتعظيمُهم، ومدحهم لهم، فإنهم يمدحونهم بما ليس بمدح، ويدَّعون لهم دعاوى لا حجة لها، ويَذكرون من الكلام ما لو لم يُعرف فضلهم من كلام غير الرافضة؛ لكان ما تذكره الرافضة بالقَدح أشبه منه بالمدح»[1].

ويقولُ في موضعٍ آخر:

«ولكنَّ القوم جُهَّال بحقيقة المناقب، والمثالث، والطُّرق التي يُعلم بها ذلك»[2].

نَتـائِـجُ العَـصبيَّـة:

استطـاع مـؤلِّـفُ «منهـاج الكـرامـة» أن يَجمـع قـدراً كبيـراً مـن الآيـات، والأحاديث، والروايات كدليلٍ على إمامة سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ، وفي مناقب أئمة أهل البيت رضي الله عنهم. إنَّ نظرة عابرة في هذه الآيات، والأحاديث، والروايات تُبيِّن مدى أضرار العصبية التي تَـنْحَرف بالمرء من الجادة الصحيحة إلى ضلال وجهل، إنَّ معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بأهل البيت بتاتاً، أو إنها تتناقض مع المعاني التي تُريد أن يُثْبِتهَا منها، كما أنَّ أكثرها ضعيفة، وموضوعة وقد وَصفها ابنُ تيمية بأنها «الروايات المُسَيَّبَةُ التي لا زِمام لها، ولا خِطام».

وقد بلغ مُؤلِّف «منهاج الكرامة» في ذلك من الوقاحة والجرأة مبلغاً لا يتصوره العقل، فقد نَسب كثيراً من هذا الروايات إلى «الصحيحين»، وكثيراً منها إلى «مسند أحمد بن حنبل»، وجاء ابن تيمية فكشف عنها القناع، وأثبت: أنها لا تُوجد في أية مجموعة من الأحاديث، ولا في دواوين السنة.

وبما أنَّ هذه الفرقة أجهلُ الناس بالكتاب والسنة، فإنها لا تستطيع أن تفهم مصطلحات عادية، فلا تتردَّد شيئاً في الكذب، والتزوير بعض الأحيان.

---

(١) منهاج السنة: ص ١٢٥.
(٢) المرجع السابق: ج ٢، ص ١٢٥.

أمّا بخصوص الآيات فقد جاء المؤلف في تفسيرها بما لا يقل عن المِلَح الخُرافية ، وما أن يقرأ أحدٌ تفسيره للآيات إلا ويتذكر المِلحة المعروفة التي تدور حول سَاغبٍ سُئل عن اثنين كم يكون بعد الضرب في اثنين؟ فقال: أربعةُ أرغفة ، وقد أَدرجَ المؤلف في كتابه أربعين آية ، ويعتَقد: أنها نزَلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، نذكر منها البعض:

١ ـ الآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] يذكر المؤلِّف في تفسير هذه الآية حديثاً لأبي نُعيم يُفيد أنها نزلت بعد خُطبة غَدير خُمٍّ وقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعليٍّ من بعدي»[1] .

يُثبت ابنُ تيمية على طريقة المحدِّثين: أنَّ هذا الحديث موضوع بإجماع أهل الفنِّ ، ولا يُوجد في أي كتاب من كُتب الحديث الموثوق بها.

ثم يُثبت عن طريق التاريخ ، والتفسير ، ويقول: «إنَّ كُتُب الصحاحِ ، والمسانيد ، والتفسير تؤكد: أنَّ هذه الآية إنمانزلت في عرَفة ، وهو واقف بها ، وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشرَ اليهود نزلتْ لاتَّخذنا ذلك عيداً ، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أيَّةُ آيةٍ هيَ؟ قال قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . ﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: إنِّي لأعلَم أيَّ يومٍ نزلت ، وفي أيِّ مكانٍ ، نزلت يومَ عرفة بعرَفة ورسولُ الله ﷺ واقفٌ بعرفة، يقول ابن تيمية: «وهذا مُستفيض من وجوه أخرى، وهو منقول في كتب المسلمين الصحاح ، والمسانيد ، والجوامع ، والسِّير ، والتفسير ، وغير ذلك، وهذا اليوم كان قبلَ يوم غَديرِ خُمٍّ بتسعة أيام ، فإنه كان يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، فكيف يُقال: إنها نزلت يوم الغدير!؟».

---

(١) لم أعثر على مصدره.

وأمَّا ما جاء في هذه الرواية من هذا اللفظ، وهو قوله: «اللّهم وَالِ مَنْ وَالاه، وعادِ مَن عاداه، وانصر مَن نصره، واخذل مَن خذله»[1] كَذِبٌ باتفاق المعرفة بالحديث، ويقول: إنَّ دعاء النبي ﷺ مُجاب، وهذا الدعاء ليس بمُجابٍ، فعُلم أنه ليس من دعاء النبي ﷺ.

٢ ـ وقال مُؤلِّف «منهاج الكرامة»: إن قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠] عليٌّ وفاطمةُ بينهما برزخ لا يبغيان النبيُّ ﷺ، وأوّلَ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] الحسن والحسين.

يقولُ ابن تيميّة رَداً على هذا الكلام:

«إنَّ هذا، وأمثاله قَول من لا يَعقل ما يقول، وهذا بالهذيان أشبهَ منه بتفسير القرآن، وهو مِن جِنس تفسير الملاحدة، والقِرامطة الغلاة للقرآن، بل هو شرٌّ من كثير منه».

وقد ذكرَ بعد ذلك ستةَ وجُوه تكذِّب هذا الرأي:

أَحدُها: إنَّ هذه في سورة الرحمن، وهي مَكِّيةٌ بإجماع المسلمين، والحسنُ والحُسين إنما وُلدا في المدينة.

والثاني: إن الله ذكرَ أنه مرجَ البحرين هذه في آية أخرى فقال في [الفرقان: ٥٣] ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان: ٥٣] فلو أراد بذلك علياً، وفاطمةَ؛ لكان ذلك ذمّاً لأحدهما بإجماع أهل السُّنة، والشيعة.

والثالثُ: أنه لو أُريد بذلك عليٌ، وفاطمة؛ لكان البرزخ هو النبيّ ﷺ

(١) [أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/٤٥) برقم (٨١٤٨)، و(٥/١٣٠) برقم (٨٤٦٤)، والحاكم في المستدرك (٣/١١٨) برقم (٤٥٧٦)، وأحمد في المسند (٤/٣٦٨) برقم (١٩٢٩٨) من حديث زيد بن أرقم، ورواه أيضاً أبو هريرة، والبراء بن عازب، وغيرهما، رضي الله عنهم أجمعين].

بزعمهم أهل أو غيرُه هو المانعُ لأحدهما أن يبغيَ على الآخر ، وهذا بالذمِّ أشبهُ منه بالمدح»[١].

وهكذا فإنَّ هذا الجزء من كتاب «منهاج الكرامة» مَليءٌ بالغرائب ، والعجائب ، وقد تصدَّى ابن تيمية للرد عليه في ضوء الحديث ، والفقه ، والتاريخ ، والنَّقد بما يتبيَّن به مدى ذكائه ، ووفرة علمه ، وغزارة مادته ، وقُوة مناظرته ، إنَّه يقول وهو ينتقد دلائل المؤلف : «فَضْلُ عليٍّ ، وولايته للهِ ، وعُلُوُّ منزلته عندَ الله معلومٌ عند الناس ـ ولله الحمد ـ من طُرق ثابتة ، أفادتنا العلمَ اليقين ، لا يُحتاج معها إلى كَذِبٍ ، ولا إلى ما لايُعلمُ صِدْقُه»[٢].

والجُزء المهمُّ الآخرُ من كتاب ابن تيميّة هو ما يبحث فيه عن «منهاج الكرامة» ويَـرُدُّ على المطاعن التي يتناولُ بها الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بوجهٍ عام ويطعن بها في الشيخين بوجه خاص ، وفي أبي بكر الصديق رضي الله عنه بوجه أخص ، وهذه المطاعن والإيرادات على شخصية الصحابة والشيخين مأخوذةٌ من القرآن أيضاً كما يزعم المؤلّف الشيعي ، ومن الأحاديثِ ، وكُتُبِ السير ، والتاريخ أيضاً ، وهي دليلٌ على أن العداوة لا تَترُك أيَّ إنسان مهما كان عاقلاً ، ومتعلِّماً إلا وتُعميه ، ونُورد فيما يلي نموذجين لهذه المطاعن :

إنَّ الآية الشهيرة في القرآن التي تُعتبر أكبر دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومنزلتِه السامية التي يتفرَّد بها ، لا يعادلُه فيها أيُّ فرد من أفراد الأمة وهي قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يقول صاحبُ «منهاج الكرامة» : إنَّه لا فضلَ له في الغار لجواز أن يَستصحِبه حذراً منه لئلا يُفشي سِرَّه ، وأيضاً فإن الآية تدل على نقيضه لقوله «لا تحزن» فإنه

(١) منهاج السنة : ج٤ ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ، ص١٧٦ .

يدل على خوفِه ، وقلّة صبره ، وعدم يقينه بالله تعالى ، وعدم رضاه بمساواته النبي ﷺ وبقضاء الله وقدره ، . . . وأيضاً فإن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشركَ معه المؤمنين إلا في هذا الموضع ، ولا نقيضَ أعظمُ منه»[١].

وقد أجاب عنه ابنُ تيمية أولاً بإثبات المناقب والفضائل الكثيرة التي جمعها الله تعالى في هذه الآية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبأنَّ هذه المعيَّة التي أكرم الله بها أبا بكر الصديق رضي الله عنه إنما كانت خاصةً به .

وأمَّا قول ابن المُطهِّر الحِلّي : «لجواز أَنْ يستصحبه حذراً منه لئلا يظهر أمره» يدل على أن النبي ﷺ لم يكن يثق به ، ولا كان مطمئناً من قبله «فمعلومٌ أن أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يَصحبُه في مثل هذا السَّفر الذي يُعاديه فيه الملأ الذين هو بين أَظْهُرهم ويَطلبون قتلَه ، وأولياؤه هناك ، لا يستطيعون نصره ، فكيف يَصحبُ واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره ، وقد أظهر له هذا حُزنه ، وهو مع ذلك عَدُوٌّ له في الباطن ، والمصحوبُ يعتقد أنه وليُّه ، وهذا لا يفعله إلا أحمق الناس ، وأجهلهم ، فقبَّح الله من نسبَ رسوله الذي هو أكملُ الخلق عقلاً ، وعلماً ، وخِبرة إلى مثل هذه الجهالة ، والغباوة»[٢].

ويقول ابنُ تيمية :

«ولقد بلَغَني عن ملكِ المغول خربنداه الذي صنَّف له هذا الرافضي كتابه هذا في الإمامة : أن الرافضة لما صارت تقول له مثل هذا الكلام : أنَّ أبا بكر كان يُبغض النبي ﷺ وكان عدوَّه ، ويقولون مع هذا إنَّه صحبه في سَفَر الهجرة الذي هو أعظم الأسفار خوفاً؛ قال كلمة تلزمُ عن قولهم الخبيث ـ وقد برأ الله رسوله منها ـ : كانَ قليل العقل .

---

(١) منهاج السنة : ج ٤ ، ص ٢٣٩ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ، ص ٢٥٥ .

ولا ريب: أنَّ منْ فعل ما قالته الرافضة فهو قليلُ العقل (وقد برَّأ الله رسوله وصِدّيقه من كَذِبهم)» [(١)].

ثم تناولَ ابنُ تيمية كلام صاحب كتاب «منهاج الكرامة» جزءاً جزءاً، رَدَّ عليه بتفصيل، وذكر المواضع التي جاء فيها ذِكر الحزن، والخوف في القرآن الكريم، وأنَّ الحزن، والخوف إنما ثَبتا لأولي العزم من الرسلِ، والأنبياء، وكبار الأولياء، والصلحاء، وأفراد أهل البيت، أما قول الحِلِّي: إنَّ القرآن حيثُ ذَكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرَك معه المؤمنين، يُوهمُ أنه ذكر ذلك في مواضع متعدِّدة، وليس كذلك، بل لم يَذكر ذلك إلا في قصة حُنين كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦] فذكر إنزال السكينة على الرسول والمؤمنين بعد أن ذكر تَوليتهم مدبرين» [(٢)].

وقد ذَكر إنزالَ السكينة على المؤمنين وحدَهم في مواضع عديدة من القرآن، وتناول ذلك بالبحث، والتفصيل.

والنموذجُ الثاني لهذا التعصب والجهل الأعمى لما جاء في كتب السِّير: أنَّ النبي ﷺ عندما كان في العريش يوم بدر كان أبو بكر رضي الله عنه أنيسَه، يقول الحِلِّي:

«وأمَّا كونَه أنيسه في العريش يوم بدر فلا فضل فيه؛ لأن النبي ﷺ كان أُنسُه بالله مُغنياً له عن كل أنيس، لكن لما عرف النبي ﷺ أنَّ أمره لأبي بكر بالقتال يُؤدي إلى فساد الحال، حيث هَرب عِدة مرار في غزواته» [(٣)].

---

(١) منهاج السنة: ج٤، ص ٢٥٦.
(٢) المرجع السابق: ج ٤، ص ٢٧٢.
(٣) المرجع السابق: ج ٤، ص ٢٨٤.

وقد حرّكتِ ابنَ تيميّة هذه التهمةُ، فثارت فيه حماسةُ الإيمان والصِّدق، وردَّ عليه بقوله: «الجواب أنْ يقال لهذا المفتري الكذَّاب ما ذكرته من أظهرِ الباطل بوجوه:

أحدها: أنَّ قوله «هَرب عدةً مرار في غزواته» يقال له هذا الكلام يدل على أن قائله من أجهل الناس بمغازي رسول الله ﷺ وأحواله، والجهلُ بذلك غير منكَرٍ من الرافضة، فإنهم من أجهل الناس بأحوال الرسول، وأعظمهم تصديقاً بالكذب فيها، وتكذيباً بالصدق منها، وذلك أن غزوة بدر هي أولى مغازي القتال لم يكن قَبْلها لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر غزاةٌ مع الكفار أصلاً، وغزواتُ القتال التي قاتل فيها النبي ﷺ تسع غزوات، وأما الغزوات التي لم يقاتل منها؛ فهي نحو بضعَ عشرة.

وأمّا السرايا فمنها ما كان فيه قتال، ومنها ما لم يكنْ فيه قتال، وبكل حال فبَدرٌ أوّلُ مغازي القتال باتفاق الناس... وليس قبلَها غزوة، ولا سريّة كان فيها قتال إلا قصة بني الحضرَميّ ولم يكن فيها أبو بكر، فكيف يُقال: إنه هربَ قبل ذلك عدَّة مراتٍ في مغازيه.

الثاني: أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لم يَهْرب قط حتى يوم أُحد لم ينهزم لا هو، ولا عمر... فمن أثبتَ ذلك عليهما هو المدَّعي لذلك؛ فلا بدَّ من إثبات ذلك بنَقْلٍ يَصْدُق.

الثالث: أنَّه لو كان في الجُبْن بهذه الحالة لم يخُصَّه النبي ﷺ دون أصحابه بأن يكون معه في العريش، بل لا يجوز استصحابُ مثل هذا في الغزو، فإنه لا ينبغي للإمام أن يُقدمه على سائر أصحابه، ويجعله معه في عريشه»[1].

التناقض في سيّدنا علي رضي الله عنه:

يتَحدَّثُ ابنُ تيمية عن سيدنا علي رضي الله عنه، ويُشبّه الرافضة بالنصارى،

---

(١) منهاج السنة: ج٤، ص ٨٤ ـ ٢٨٥.

فكما أنَّ النصارى اتخذوا أربابهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، واتخذوا المسيح ابن الله، ثم صوَّروا حادثَ صلبه بحيث إنه إنما يبدو إنساناً عاجزاً لا يَملك من أمرِه شيئاً ، ويُستهدف لكل إهانة ، وذُلٍّ ، واستهزاء ، وسخرية.

كذلك الرافضة الذين خلعوا على سيدنا علي رضي الله عنه صفات تثبت: أنَّ مكانته أرفع من مكانة النبيﷺ ولولاه لم يزدهر الإسلام ، ولم ينتشر في الآفاق ، ولم ينهزم الكفر ، ثم أثبتوا عَجْزه وضعفه بإزاء الخلفاء الثلاثة إلى أنه لم يستطع أن يستنكرَ ما قد كان يراه خلافاً لضميره ، وعقيدته ، ويحتملُ كل إهانة ، وذلة لنفسه ، ولأهل البيت من غير أن يحارب ذلك ، أو يدافع عنه ، فهذا تناقضٌ صريح ، يَعرفه كلُّ ذي عَقلٍ ، يقول ابنُ تيمية:

«وهؤلاء الرافضة يَجمعون بين النقيضين لفَرْط جهلهم ، وظُلمهم يجعلون علياً أكملَ الناس قدوة ، وشجاعة حتى يجعلوه هو الذي أقام دينَ الرسول، وأنَّ الرسول كان مُحتاجاً إليه، ويقولون مثل هذا الكفر؛ إذ يجعلونه شريكاً لله في إقامة دين محمدﷺ ، ثم يصفونه بغاية العَجز ، والضَّعْف ، والجَزَع ، والتَّقيَّة بعد ظهور الإسلام ، وقوّته ، ودخول الناس فيه.

ومِن المعلوم قطعاً: أنَّ الناس بعد دخولهم في دين الإسلام أَتبعُ للحق منهم قبل دخولهم فيه، فمن كان مشاركاً لله في إقامة دين محمد حتى قهر الكفار ، وأسلم الناس ، كيف لا يفعل هذا في قهر طائفة بَغَوْا عليه هم أقلُّ من الكفار الموجودين عند بعثة الرسولﷺ ، وأقلُّ منهم شوكة ، وأقربُ إلى الحقِّ منهم»[1].

مَبحَث الإمامة:

تناولَ ابنُ تيمية مبحثَ الإمامة بغايةٍ من التفصيل ، وأنكر بقوة ما يقولُه الإمامية في تعريف معنى الإمامة ، واعتبارها ركناً من أركان الدين ، وردَّ على جميع الدلائل التي يستدلُّون بها على إثبات الإمامة عقلاً ، ونقلاً ، ولا سيَّما

(١) منهاج السنة: ج ٤ ، ص ٥٦.

عقيدةَ الإمام الغائب، فقد استهزَأ بها، وأثبت: أنَّ هذه العقيدة لا تُثمِرُ سوى الفساد، والخِلاف، والبِطالة، والتعطُّل»[1].

الشِّيعة لا تَعْتني بالكِتاب والسُّنة:

يقول ابنُ تيمية: «والرافضة لا تعتني بحفظ القرآن، ومعرفة معانيه، وتفسيره، وطلب الأدلة الدالة على معانيه، ولا تعتني بآثار الصحابة، والتابعين حتى تَعرفَ مآخِذَهم، ومسالكهم، بل عُمدتُها آثارٌ تنقل عن بعض أهل البيت، فيها صِدْقٌ، وكَذبٌ»[2].

تَعطيلُ الشيعةِ المساجدَ وَرَفْضُهم الجُمعةَ والجَماعة:

ويقول: «وكذلك الرافضةُ غلوا في الرُّسل، بل في الأئمة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله، فتركوا عبادة الله وحده لا شريك له التي أمَرَهم بها الرسل، فتجدُهم يعطِّلون المساجد التي أمر الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه، فلا يُصلُّون فيها جمُعة، ولا جماعة، وليس لها عندهم كبيرُ حرمة، وإن صلَّوا فيها صلَّوا فيها وُحداناً، ويُعظِّمون المشاهد المبنيَّة على القبور، فيعكُفون عليها مشابهة للمشركين، ويحجون إليها كما يُحَجُّ إلى البيت العتيق»[3].

متأخِّرو الشِّيعة أتباعُ للمعتزلة:

ويقول شيخُ الإسلام: «وهم في دينهم لهم عَقليات، وشرعيات، فالعقلياتُ متأخِّروهم فيها أتباع المعتزلة، إلا من تفلسف منهم، فيكون إمّا فيلسوفاً وإما مُمتزجاً من فَلسفةٍ واعتزال. ويَضمُّ إلى ذلك الرفض مثل مُصنِّف هذا الكتاب»[4].

---

(١) منهاج السنة: ج٣، ص ٥٠ ـ ٢٤٩.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٠.
(٣) المرجع السابق: ج١، ص ١٣١.
(٤) المرجع السابق: ج٣، ص ٤٠.

فإنَّ مؤلِّف كتاب «منهاج الكرامة» قد أثار في هذا الموضوع بُحوثاً للعقائد والكلام يتجلَّى فيها لون الاعتزال والفلسفة بوضوح.

وقد ردَّ عليها جميعاً ابنُ تيمية بغايةٍ من التفصيل، ويتضمَّنُ كلامه هذا بحوثاً فلسفية، وكلامية عميقة، وبما أنَّ شيخ الإسلام غوَّاصٌ في بحور المعقول، والمنقول كليهما تناول الموضوع كعادته بشرحٍ وافٍ، وإيضاحٍ كافٍ [١]، ولم يُغادر صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصاها، وتَوصَّل إلى نتيجة: أنَّ اطلاع هذه الفرقة على العلوم العقلية عابرٌ سَطحي، حتى إنَّ علماءهم لا يُعدُّون تلاميذ الابتدائية في هذا العِلم.

التاريخ الماضي:

لقد أشار ابنُ تيمية في مواضعَ متعددة من مؤلَّفاتِه إلى أنَّ الشيعة في كل دور من أدوار التاريخ «يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معاداتهم من اليهود، والنصارى، والمشركين، وليس لهم سعيٌ إلا في هدم الإسلام، ونقض عراه، وإفساد قواعده»، حتى اضطر أخيراً إلى أن يصرح فيقول: «فأيامهم في الإسلام كلُّها سود»[٢].

أَهلُ السُّنة على طريق عادل:

يعتقد ابنُ تيمية: أنَّ أهل السنة هم وحَدهم الذين يأخذون بالقَصْد، والعدل في طريقهم من بين جميع فِرق المسلمين، وهم الذين يُعتبرون بمَعزِلٍ عن كلِّ إفراطٍ وتفريط، لا تعَارُضَ عندهم بين حُبِّ أهل البيت، وتعظيم الصحابة الكرام رضي الله عنهم، إنَّهم يجمعون بين هاتين النعمتين، وكِلتا الحسنيين، وذلك هو الإسلام الصحيح، إنه يقول:

«وأمَّا أهلُ السنة؛ فيتولَّون جميع المؤمنين، ويتكلَّمون بعلمٍ، وعدلٍ،

---

(١) منهاج السنة: ص ٣٠ ـ ١٢٩.
(٢) المصدر السابق: ج٤، ص ١١١.

ليسوا من أهل الجهل ، ولا من أهل الأهواء ، ويتبرؤون من طريقة الروافض ، والنواصب جميعاً ، ويتولَّون السابقين الأولين كلَّهم ، ويَعرفون قَدْرَ الصحابة ، وفضلَهم ، ومناقِبَهم ، ويَرعَوْن حُقوق أهل البيت التي شرَعها اللهُ لهم»[1] .

* * *

(١) منهاج السنة : ج١ ، ص ١٦٥ .

الفصل الرابع

تجْديدُ عُلومِ الشريعَةِ وتَنشيطُ الفِكر الإسْلامي

أ ـ تجديد علوم الشريعة

العَصْرُ الذي عاش فيه ابن تيمية

كانت العلوم الشرعية والدينية قد توسَّع نِطاقُها في العصر الذي وُلد فيه ابن تيمية سيَّما علوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، فقد تكونتْ لها مكتبةٌ واسعةٌ ، إذا اطَّلع أحد على علم من هذه العلوم ، وعثرَ على الذخائر العلمية الموجودة آنذاك ـ ولو بإجمال ـ كان يُعتبر ذلك مأثرةً علمية كبرى لرجل متوسِّط .

وأمَّا عصْرُ ابن تيمية فقد امتاز بوجود عددٍ وجيه من علماءَ ، ومدرسين كان كلٌّ مطلعاً على هذه المكتبة الواسعة ، كما وُجد من بينهم عددٌ أتقن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة ، وحفظها في الصدور ، نظراً إلى ما كان يتمتع به من قوة الذاكرة والاشتغال بالعِلم ، وكثرة المطالعة ، والدراسة ، والتدريس ، وكان يتمكنُ من إعادة ما كان يحفظه من العلم ، والاستفادة منه بدون تكلُّف كلما ألجأتهمُ الضرورة إلى المُناظرة ، والتدريس ، فمثلاً العلامة كمالُ الدين ابنُ

الزَّمْلكاني ، وتقي الدين عليٌّ ابنُ السُّبْكي ، وشمسُ الدّين الذَّهبي ، وأبو الحجاج المِزيُّ كُلُّهم نموذجٌ لذلك.

إنَّ دراسة كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» تُفيد تقدير المدى الذي بلغ إليه هؤلاء العلماء مِن استحضار العلم والتبحر فيه ، وكثرةِ المحفوظات والتفنن في العلم ، وقد كان عديدٌ من رجال ذلك العصر ممن استحقوا أن يُسمَّوا دائرة معارف العلوم الشرعية بكل جَدارة.

إنَّ هؤلاء الرجال وإن كانوا مُتوسِّعين في العلم والمعلومات إلا أن النقل كان فيها غالباً على العقل والتفكير ، فكانت الحاجةُ ماسَّةً إلى رجال لهم نظرةٌ ناقدةٌ وخِبرةٌ تامةٌ بهذه الذخائر العلمية كلها ، يحملون قوة الموازنة بين آراء المتقدمين ، وأفكارهم ، كما يتفرَّدون بآرائهم ، ونظرياتهم الخاصة في المسائل والمشكلات.

لقد كان المتأخِّرون من العلماء في ذلك العصر يكتفون بالتبحر في التراث العلمي الذي كان قد خلَّفه المتقدّمون ، والاشتغال بشرحهِ ، وتوضيحه ، واختصاره ، وتلخيصه ، فكان العَمل العلمي راكداً لم يكن يَنال من زيادةِ قيمة ، ولا كانت تتوسعُ آفاقه ، وكانتِ المكتبة العلمية تشكو فُقدان الكتب التي تتسم بالأصالة ، والاجتهاد.

أمَّا الكُتب التي كانت تُعتبر منعدمة النظير في ذلك العصر؛ فلم تكن لها ميزة سوى أنَّ مؤلّفيها كانوا قد جمعوا فيها المواد المُبعثرةَ ، ورتّبوا المعلومات المتفرِّقة السابقة بتَنسيق جيد ، أو أنها كانت شرحاً جيداً لمتنٍ فِقهيٍّ سابقٍ.

خَصائِص ابنِ تيميّة العلميةُ والتّأليفية:

تبحَّر ابنُ تيمية ـ بفضل ذكائه ، وقوةِ ذاكرته الموهوبة ـ في هذه الذخائر العلمية بأكملها ، واستساغها فكرياً ، واستفادَ منها في مؤلفاته استفادة كاملة ، إلا أن نفسَه الطموحة المضطربة ، وعقلَه النادر الكبير ، وقلَمه السَّيالَ البليغ ، لم يكن كلُّ ذلك يُقنعه بأن يكتفي بالنقل ، والرواية ، والشرح ، والتلخيص ، أو

الاختبار ، فما كاد يُفارقه علمه العميق بكتاب الله تعالى ، واطّلاعه الواسع الصحيح على مقاصد الشريعة ، وملكته الراسخة في أصول الفقه وأصول التشريع في أي مرحلة من مراحل تأليفه ، وكُلُّ موضوع يريد أن يؤلِّف فيه يَنفخُ فيه روحاً جديدة بعِلمه الناضج الطري ، ولذلك لا نَجد أي كتاب من كتبه يخلو من حقائِقَ علمية جديدةٍ ، وبحوث ناقدة ، ومباحثَ أصولية جديدة ، بل إنَّ مؤلفاته تَشُقُّ طريقاً جديداً لفهم الكتاب ، وتَفتح باباً جديداً إلى إدراك مقاصد الشريعة.

وقد سبقَ أن تناولنا كتابين ضخمين من كُتبه بالنقد والتلخيص في تفصيل ، وهما: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» و«منهاج السنَّة» وله عدا هذين الكتابين عدَّةُ مؤلَّفات تشهد بأفكاره ، وآرائه الاجتهادية ، وذكائهِ الخارق ، وقوة نقده ، وتُهيىء للعقول في كل عصر غذاءً دَسماً صالحاً من العلم والفكر ، ويَجدُ فيها أهلُ العلم في كل زمان بُغيتهم من المعلومات الجديدة ، والدلائل الطريفة ، والتحقيقاتِ الحديثة ، فمثلاً «كتاب النبوءات» و«الردُّ على المنطقيين» و«اقتضاء الصراط المستقيم»[1] ، ليستْ منَ المؤلفات العلمية القيمة ذات المستوى العالي والمتفرِّدة في مواضيعها فحسب ، بل إنها كُتبٌ تفتح آفاق الفكر ، وتُعِدُّ العقول للتفكير ، وتَعرِض عليها مجالاتٍ جديدة ، للمسائل العلمية ، والقضايا الفكرية.

التَّفسيرُ:

خَصَّ ابنُ تيمية التفسيرَ بتأليفه ، وتفكيره ، كموضوعٍ مُفضَّل ، وقد غلب عليه ذوق التفسير إلى حدٍّ لا يخلو أي كتاب من كتبه عن مواد التفسير ،

---

(١) إنَّ هذا الكتاب وإنَّ كان يدور حول عدم التمسك بتقاليد غير المسلمين ، وشعائرهم ، والامتناع عن الاشتراك في مناسباتهم ، وأعيادهم الدينية ، إلا أنَّ الكتاب يحتوي ـ كما هو المألوف من المؤلِّف ـ على مباحث ، وعلوم نفيسة ، ويصلح أن يحتلَّ محلاً عالياً بين مؤلَّفات شيخ الإسلام ، أصدرت إحدى طبعاتها جمعية أنصار السنة في القاهرة.

والاستدلال بالآيات ، وشرحِها وتفسيرها ، إنه لا يمر بآية إلا ويتناولها بالشرح والتفسير ، ولذلك فإن الذخائر التفسيرية التي تركها تربو على ثلاثين مجلداً ، كما يقول تلاميذه ، ولا شكَّ فإنها إذا جُمعت؛ لتكوَّنت ذخيرة تفسيرية لها قيمتها واعتبارها ، ولكانَ تفسير ابن تيمية من أجود التفاسير ، وأجمعها لما قد رزقه الله تعالى من نِعمة التعمُّق في الفِكر والنظر ، وسلامَة الذوق ، والتبحُّر الكامل في الروايات ، والاستشهادِ بها ، وتطبيق الآيات على الحياة ، والاطلاع على المجتمع الذي عاش فيه ، وروح الدعوة ، ودوافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحَمية الدين.

ولو أنَّ تفسيره الكامل المتَّصل مفقودٌ ، ولكنَّ تفسيرَه لسور عديدة مطبوع موجود ، وهو يكفي لتقدير خصائصه التفسيرية ، وقد صدر «تفسير سورة الإخلاص» ، و«تفسير المعوذتين» ، و«تفسير سورة النور» منذ زمن طويل في مصر ، كما صدرت مجموعة من التفسير ، مأخوذة من كتبه المختلفة ، منذ زمن قريب [١] ، لقد عُرِفتْ صلتُه بالتفسير واشتغالهُ به في حياته أيضاً ، وكانت تُعتبر ميزتَه العلمية ، ولما نودي للصلاة عليه بعدَ وفاته سُمِّي بهذا الاسم: «الصَّلاة على تُرجمان القرآن» ، وله رسالة وجيزةٌ في أصول التفسير ، وهي رسالته الأولى الخاصة بأصول التفسير فيما نعلم.

الحَديثُ:

وإنْ لم يكنْ له كتابٌ مستقلٌ في فَنِّ الحديث وشرحه ، وكان هذا الفنُّ قد بلغ ذروة الاتساع ، والكمال في القرنين السابع ، والثامن حيث لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى تأليف ، أو شرح للحديث ، إلا أنَّ مؤلفاته تحوي مواد غزيرة لأصول الحديث ، وأسماء الرجال ، والجرح والتعديل ، ونقدِ الحديث ، وفِقه الحديث ، حتى إذا جُمعت في كتاب مستقل؛ تكوَّنت ذخيرةٌ قيمة[٢] ، وكانت

---

(١) صدر هذا التفسير باسم «تفسير ابن تيمية» من المطبعة القيمة في بمبائي.

(٢) [ولشيخ الإسلام كتابٌ في علوم الحديث ، طُبع في دار الحرم للتراث بالقاهرة ، بتحقيق=

تأليفاً ضخماً ، وبالأخصِّ فإن آراءه فيما يتصل بالأحاديث الموضوعة تبلُغ من الصراحة والتحقيق إلى حدٍّ يصعب العثور عليه في مكان آخر ، والمواد التي نطَّلع عليها حول هذا الموضوع في كتاب «منهاج السنة» وما بحثه هو عن عشرات من الأحاديث المشهورة ، والمتداولة ، كلُّ ذلك ذخيرةٌ نادرةٌ قيمةٌ.

أصولُ الفقه:

كان هذا الموضوعُ ممَّا يرَغبُ فيه ، ويتذَّوقُه ، وقد حصلتْ له فيه مَلَكةٌ راسخة ومكانةٌ اجتهادية ، ولذلك نرى أنَّ مؤلَّفاته كلها تحتوي على هذه المباحث الأصولية ، ولا سيما كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» ومجموعُ فتاواه ينطويان على أكبر مقدارٍ من المباحث الأصولية ، كما أنَّ له رسائل مستقلة في هذه الموضوع ، كـ «رسالة القياس» و«منهاج الوصول إلى علم الأصول» وما إلى ذلك.

عِلمُ الكَلام:

لو ذهبنا نُحلِّل مؤلَّفات ابن تيمية ؛ لوجدنا علمَ الكلام والعقائد يَشغل نِصف كتاباته ، أو ثُلثين منها ، ورسائلُه التي ألفها في هذا الموضوع ، وعزاها [1] إلى مُدُن ، أو أمكنة مختلفة «كشرح الأصبهانية» و«الرسالة الحموية» ، و«التدمرية» ، و«الواسطية» ، و«الكيلانية» ، و«البغدادية» ، و«الأزهرية» ، وما إلى ذلك ، خيرُ دليل على معرفة أفكارِه الأصيلة ، وقوة استدلاله ، وحَمِيَّته الدينية ، ومِرآة لِعلمه وذكائه.

الفِقْهُ:

أمَّا فِقه كلِّ مذهب فكان قد تناوله المدوِّنون في عصره بما لم يترك أيَّ مجال

= وتعليق الأستاذ موسى محمد علي ، تأليفه ليس على طراز كتب علوم ومصطلحات الحديث ترتيباً ، لكنه يحتوي على الفوائد والنُّكت القيمة في الحديث وعلومه].

(١) سمَّى رسائله باسم المدينة التي ورد منها استفتاء بوجهٍ عامٍ.

للزيادة فيه ، إلا أن ابنَ تيمية درس كثيراً من المسائل ، والأحكام في ضوء الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وأصول الفقه ، وقام بالاستنباط ، والاجتهاد فيها ، وحاول التوفيق بين الفِقه والسنة ، وجعلَ الفروع والآراء الفقهية تابعة للأحاديث الصحيحة ، واجتهدَ في المسائل المستحدثة ، والأحوالِ ، والمقتضيات الجديدة ، واستنبطَ أحكامَها من الكتاب والسنة شأنَ الفقهاء والقضاة في كلِّ عصرٍ ، الذين يجتهدون في المشكلات والمسائل المعاصرة ، وقد كانتْ شروط الاجتهـاد تتوفَّر فيـه كما يقول بعض أهل البصيرة من العلماء ، وخلَّف ذخيرة واسعـة من فتاواه ، واختياراته ، وهذه الفتاوى تحفظها أربعةُ مجلدات كبار ، وهي ليست مجموعة من المسائل ، والأحكام الفقهية فحسب ، بل إنها ذخيرةٌ قيّمـةٌ من المباحث الأصولية ، والمسائل العلمية [١].

تَأثيرُ ابن تيميّة في القُرون المتأخرة:

قامَ ابنُ تيمية بتجديد علوم الشريعة بجنب ما أَنجز من جلائل الأعمال العلمية التي كانت تتَّسم بالسَّعة والعُمق ، وبالامتزاج بين العقل ، والنقل ، إنه قضى على ذلك الجمود ، والاضْمحلال اللَّذين كانا قد تسربا إلى الفكر الإسلامي ، وفتح أبواباً جديدة للفكر ، وخلَّف وراءه ذخائرَ من العلوم والمؤلَّفات التي تُوسّع آفاقَ الذهن ، وتُنشِّط العقلَ ، وتُحرِّكُ القلبَ ، والتي مَثَّلتْ دوراً رائعاً في إيجاد طَبقةٍ عالية من المؤلفين ، والمفكرين ، والدعاة ، والمصلحين في كل دور من أدوار التاريخ ، ففي الحركة الفكرية ، والإصلاحية

(١) صدرت مجموعةُ فتاوى شيخ الإسلام في أربعة مجلَّدت عام ١٣٢٦هـ في مصر ، واهتم بطبعها الشيخ فرج الله الكردي ، وهي تقع في ١٥٨٦ صفحة ، وفي آخر المجلد الرابع منها ملحق باسم «الاختيارات العلمية» وهو يحتوي على اختياراته ، وترجيحاته ، والجزء الخامس من الفتاوى يتعلق بمسائل علم الكلام ، والعقائد ، ووسائلها ، أمَّا مجموعة فتاوى شيخ الإسلام التي أصدرتها المملكةُ السعودية ، والتي تحتوي على ٣٧ مجلداً فهي بمثابة مكتبة بأسرها ودائرة معارف مستقلة.

التي نَشطت منذ القرن الثاني الهجري يرَجع الفضل الأكبر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وله الحظُّ الأوفر فيها .

إنَّه يستحِقٌّ بكل جدارة أن يُعتبر في أعلام المجدِّدين للعلوم والأفكار الإسلامية ، وبالأخصّ فإن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية عامل قوي من بين العوامل الأخرى للحركاتِ الإصلاحية العلمية ، والفكرية التي نشأت في أرجاء العالم الإسلامي المختلِفة منذ القرن الثاني عشر الهجري .

* * *

ب ـ بَعثُ الفِكر الإسلامي

١ ـ مصدَرُ العقائدِ كُلِّها الكتابُ والسنة

مَصدَرُ العقائد والحقائق الدينية الصحيح:

ومِن مآثر ابن تيميَّة التجديدية المستقلة: أنَّه قام ببعثِ الفكر الإسلامي، ولعلَّ هذه المأثرة من أجلِّ أعماله الفكرية التي تميَّز بها في حياته.

وممَّا لا يخفى: أنَّ الإسلام يمتازُ بالنسبة إلى النظم الفكرية الأخرى بأنه يقُوم على أساس الوحي، والنبوة المحمدية، وأنَّ عقائده، وحقائقه لا تُبتنى على القياس، والتجارب، والظن، والتخمين، والذكاء الإنساني، والبحث، والجدال، بل تُبتنى على تعليم الله تعالى، وتبليغِ رسوله ﷺ، والذي قاله ﷺ، وشَرحه حول ذات الله تعالى وصفاته، وأفعالَه، وعن بدء العالم ومنتهاه، ومَبدئه ومصيره وعن المعاد والآخرة، وخواصّ الأعمال ونتائجها، وعن الأمور مما وراء الطبيعة[1] التي لها علاقة بالدين، إنَّما هي العقائد، والحقائق، ولا سبيلَ إلى معرفتها، والإيمانِ بها في الحقيقة سوى الوحي والنبوة، وذلك لأنَّ الطريق إلى التوصل إلى المعلومات والحقائق كلها هي المبادىء الأولية، وهذه المبادىء الأولية لهذه الحقائق الدينية والغيبية لا يطلع عليها أحدٌ.

إنَّ الوسيلة الوحيدة للاطلاع على أمر جديد هي أن تُرتّب المعلومات بحيث يتيسَّر الوصول إلى المجهول، إلا أننا لسنا مُطَّلعين على المبادئ الأولية لهذه

(١) [أي: عالم الغيب].

الحقائق الغيبية ، والدينية؛ كما أننا نحن مُطَّلعون على المعلومات الأولية عن الطبيعات ، والماديات.

إنَّ ذاتَ الله تعالى ، وصفاتِه وراءَ الحواس ، والعقلُ الإنساني يُعْجز الإنسان عن أية تجربة ، أو مشاهدة عنها ، ولا أساس هناك للقياس فيها ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ولذلك فلا مناص من ذلك من الاعتماد على تلك الطائفة من البشر التي أكرمها الله تعالى بِعِلْم ذاته ، وصفاته ، ونوَّر قلوبهم بنور الهداية والإيمان ، كما لا يَسعنا الإنكارُ ، والبحث بإزائها في أيِّ شيء منها ، وتلك هي الحقيقة التي تحدَّث عنها القرآن بلِسان أحدِ الرُّسل ، فقال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

عَجزُ الفلسفةِ واندحارُها:

عبثاً حاولتِ الفلسفةُ البحثَ في ذات الله تعالى ، وصفاته ، وعلى الرَّغم من وجود هذه الحقيقة الواضحة ، ولكنَّه حادث غريب في تاريخ العلم الإنساني ، فقد واصلتِ الفلسفةُ جهودها في هذه المضمار إلى عدة آلاف من السنين ، وركَّزت طاقتها وذكاءها على موضوع لم تكن تَعرف مبادئه ، ومقدماته ، ولم تكن عندها ذريعة للإيمان به ، وأخذِ فكرة حتمية عنه.

ولكنها على الرَّغم من ذلك قامت بالتحقيق ، والتدقيق في هذا الموضوع ، من غير تلكُّؤٍ ، ولا تردُّدٍ ، كما يفعل علماءُ اللغة ، والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها ، وعلماء النحو والتصريف في الإعراب والتصريف ، بل كما يفعل علماء الكيمياء في الأدوية والعقاقير ، وجَمعت ركاماً من المباحث ، والتفاصيل ، والتحقيق ، والتقعير حتى ظنَّ القارىء أن البحث كله يدور حول شخصيةٍ عاديةٍ هي في تصرُّف الإنسان ومُتناوَلِ يده.

تفَلسُفُ المُتكلِّمين:

وأغربُ مِن هذا كلِّه أنَّ متكلِّمي الإسلام الذين كانوا يهدفون ردَّ الفلسفة والدِّفاع عن الإسلام أخذوا مُصطلحات الفلسفة ، وافتراضاتها ذاتها ، وبدؤوا

يبحثون عن ذات الله تعالى ، وصفاتِه في اعتمادٍ ، وتفصيل؛ كأنهم يتحدَّثون عن شَخصية مشاهَدةٍ ملموسةٍ ، وعن مسألة طَبْعية .

لقد كان هؤلاء المتكلِّمون تصدَّوا للرد على الفلسفة ، ونَفْي نَظراتِها ، وآرائها، ولكنَّهم تاهوا في غاية الفلسفة، وافتراضاتها، ومصطلحاتها الخاطئة .

إنَّهم نَسُوا في سَوْرَةِ الجدال ، والنقاش أن يَلُوموا الفلسفة على أخطائها الأساسية ، وأَنْ يحولوا دون بَحثها حَول مسألةٍ ليست من شأنها ، لا تجدُر بأن تكون مركَز نظرها ، وبحثِها في حال ما ، إنهم نَسوا أن يُوصوا الفلسفَة بتحديد مضمارها في الجدال والنقاش حول الرياضيات ، والطبعيات ، أمَّا التدخل في موضوع الإلهيات؛ فخروجٌ عن مركزها ، وتعدٍّ عن حدِّها ، و«تدخُّل غير معقول» وأن يُخاطبوا الفلاسفة بخطاب القرآن البليغ الحكيم : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦] .

انحطاطُ الفكر الإسلامي في القُرون المتأخرة:

بلَغَ انحطاطُ الفكرُ الإسلاميُ في القرون المتأخِّرة إلى حدٍّ اعتبروا فيه نفس الدلائل وترتيبَ المقدمات التي كان المتكلمون قد رتبوها ، والتي قامتْ على أساس الفلسفة أصلاً لإثبات ذات الله ، وحُدوث العالم ، والتوحيد ، والمعادِ ، وجميع العقائد الأساسية .

فقد كان المتكلِّمون ، والنُّظار كلُّهم يعتبرون العقل مقياساً أصيلاً سوى طائفة قليلة من المحدثين ، والفقهاء ، ويَجعلون كتب المتكلمين مصدراً للعقائد ، والأحكام عِوضاً عن الكتاب والسنة ، وكانوا يُؤولون الآيات والأحاديث تفادياً من إيرادات الفلسفة ، أو إبقاء على بعض أصول الفلسفة الثابتة ومُطبِّقين الفلسفة على الدين ، وقد بلغ إعجابُهم بالفلسفة مبلغاً كانوا يتناولون فيه الآيات ، والأحاديث بالتأويل والتوجيه بدلاً من إنكار الفلسفة ، والتغيير في علم الكلام .

يتحدَّث الإمامُ ابن تيميَّة مشيراً إلى هذه العقلية:

«ومثلُ هذا القانونِ الذي وَضعه هؤلاء يَضع كلّ فريق لأنفسِهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه، ويعتمدونه هو ما ظنوا: أنَّ عقولهم عرفَتْهُ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تَبَعاً، فما وافَق قانونهم؛ قبلوه، وما خالفه؛ لم يَتبعوه» [١].

وبعدَ اعتبار هذه العقائد والمباحث الكلامية مِقياساً وأصلاً، والاعتقاد بأن هذه المباحث تحمل في جَنبها علوماً عاليةً جمّة، وحِكَماً، ومعارف عميقة كان يَحدثُ هناك صراع، وهو: أنَّ هذه العلوم والمعارف إذا كانت أصيلَة؛ لا ينبغي أن يَخلُو عنها كلامُ النبيِّ ﷺ، وأصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بل وَيجبُ أن يحتويَ عليها، وعلى جميع هذه التحقيقات، والتدقيقات.

والذين كانوا مُعجَبينَ بالفلسفة، وعلم الكلام، وكانت عُقولهم مسحورةً بها يقولون بصراحة حيناً، وبكناية حيناً آخر:

إنَّ ذلك العصر كان عصراً بدائياً، وكان الناس في ذلك العصر بُسطاء لم يكن لديهم اطلاعٌ على هذه الحقائق، والعلوم العميقة، والدقيقة.

أمَّا المعترفون بقيمة الفلسفة وعَظمة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فكانوا يعيشون في اضطراب، وحَيرة من غير أن يَقطعوا في ذلك رأياً.

يشيرُ ابنُ تيميَّة إلى الحالة النفسية لهذه الطوائف، ويقول:

«مَنِ اعتقدَ: أنَّ ذلك من أصول الدين، وأنَّه يشتمل على العلوم الكلية، والمعارف الإلهية، والحكمة الحقيقية، أو الفلسفة الأولية؛ صارَ كثيرٌ منهم يقول: إنَّ الرسول لم يكن يَعرفُ أصول الدين، أو لم يُبيِّن أصول الدين، ومنهم من هاب النبي، ولكن يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك، ومَنْ عظَّم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقى حائراً كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل في هذه الأمور التي هي أفضلُ العلوم؟!

(١) صريح المعقول: ج١، ص ٣.

ومَن هو مؤمنٌ بالرسول ، مُعظِّم له يستشكل كيف لم يُبيِّن أصولَ الدين مع أَنَّ الناس إليها أحوجُ منهم إلى غيرهم» [١].

ويتقدَّم ، فيقول عنهم: «وهو أنَّهم جعلوا قَول الله ورسوله من المُجمَل الذي لا يُستفاد منه عِلْمٌ ، ولا هُدى ، فجعلوا المتشابه من كلامِهم هو المُحكَم ، والمُحكَم من كلامِ الله ورسوله هو المتَشابِهَ» [٢].

الغلوُّ في تعظيم العقل وتقديسه:

لقد قام الفلاسفةُ ، والمتكلِّمون كُلُّهم بتقديس العقل ، ورفع قيمته ، واعتباره ميزاناً ، وحكَماً في مسائل الذات ، والصفات حتى كان يبدو: أنَّ العقل له الخبرة الكاملة للحكم في هذه المسائل شأنَ الحواس الخمس في حُكمها في المحسوسات ، وشأن التجربة والاستقراء في الأمور العلمية ، وقد أنتج هذا الوضع: أنَّ العقل صار أساساً لإثبات الشريعة ، سواء في الأمور الشرعية ، أو الفقهية ، ولكن لم يقُم هناك خلال القرون الستة الإسلامية أيُّ عالم أو مفكر يُحارب هذا الوضع ، ويَرفعُ لواء الثورة على هذا العقل صاحب الحكم والنفوذ اللامحدود.

تَصدَّى حُجَّةُ الإسلام الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ للجهاد ضدَّ تَدخُّل الفلسفة في الإلهيات ، وجَعلَها هدفاً بكتاباته التي نالتْ من شأن الفلسفة ، واستهانت بها ، إلا أنَّه لم يرفع صوتاً عالياً ضد العقل وحُكومته المطلقة ، وضدَّ تدخُّله في أمورٍ ليست من شأنه.

إنَّ الإمام ابنَ تيميَّة هو أوَّل رجلٍ ـ فيما نعلم ـ ثار على هذا الوضع الشائن ، واحتجَّ عليه في غاية من الاستنكار ، وحارَبه بكل جرأة ، وشجاعة ، وأثبت: أنَّ مصدر العقائد ، والحقائق إنَّما هو الوحي ، والنبوة ، والكتاب ، والسنة ،

---

(١) صريح المعقول: ج١ ، ص ١٢.
(٢) المرجع السابق: ص ١٦٤.

أما العقل؛ فليسُ مؤيِّداً لها، وليس أساساً في أيِّ حال.

يقول في بعض كتاباته:

«إنَّ العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا مُعطياً له صفةً لم تكن له، ولا مفيداً له صفةَ كمال» (١).

منصبُ العقل ومَكانتُه:

إنَّه يعتقد: أنَّ «العقل متول وَلْيَ الرسول، ثم عَزل نفسَه لأنَّ العقل دل على أن الرسول ﷺ يَجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والعقلُ يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة، وهذا كما أنَّ العاميَّ إذا علم عينَ المفتي، ودلَّ غيره علَيه، وبيَّن له أنه عالم مفت، ثم اختلف العامي الدالُّ والمفتي؛ وجب على المستفتي أن يُقدِّم قولَ المفتي.

فإذا قال له العاميُّ: أنا الأصل الذي أعلمك بأنَّه مُفْتٍ، فإذا قدمتَ قولَه على قولي عند التعارُضِ قدحتَ في الأصل الذي علمتَ به أنه مفتٍ.

قال له المستفتي: أنتَ لما شهدت أنه مفتٍ ودلَّلْتَ على ذلك، شَهدتَ بوجوب تقليدك له (٢).

إنَّه يعتقد أيضاً: أنَّ العقل لا يَسعه إلا الاعتماد على الرسول ﷺ وطاعتُه بعد ما اعترف بالرسالة.

كما أنَّه يجب تقليد صاحب الصناعة في كل صناعة، وقَبولُ كلامه من غير تردد، مع الاعتقاد بأن ما يقوله هو القول الفصل في ذلك، كذلك الرسول هو سَنَدٌ في الأمور الغيبية، والأحكام، والشرائع، وفيما بعد الطبيعيات، وكلامُه فصل في كل ذلك، يقول:

«فإذا عَلِمَ الرجلُ بالعقل: أنَّ هذا رسول الله، وعلم: أنَّه أَخبر بشيء،

(١) صريح المعقول: ج ١، ص٤٦.
(٢) المرجع السابق: ج١، ص ٧٧.

ووُجد في عقله ما ينازعه في خبره ؛ كان عقلُه يوجب عليه أن يُسلِّم موارد النزاع إلى من هو أعلمَ منه ، وألا يُقدِّم رأيه على قوله ، ويَعلَم : أنَّ عقله قاصر بالنسبة إليه ، وأنه أعلمُ بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، واليوم الآخر منه ، وأنَّ التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطبِّ .

فإذا كان عقلُه يوجِب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مُقدَّرات من الأغذية ، والأشربة ، والأضمدة ، والمُسْهلات ، واستعمالها على وجه مخصوص مع ما في ذلك من الكُلفة ، والألم لِظَنّه : أن هذا أعلمَ بهذا مني ، وأنّي إذا صدَّقتُه ؛ كانَ ذلك أقربَ إلى حصول الشفاء لي مع علمه بأن الطبيب يُخطئ كثيراً ، وأنَّ كثيراً من الناس لا يُشفى بما يَصفه الطبيب ، بل يكون استعمالُه لما يصفه سَبباً في هلاكه ، ومع هذا يَقْبل قوله ، ويُقلِّده وإنْ كان ظنُّه واجتهادُه يخالِف وَصْفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم ، والرُّسل صادقون مُصدَّقون ، لا يجوز أن يكون خَبَرُهم على خلاف ما أخبروا به قط ، وأن الذين يُعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلاَّ ذو الجلال» (١) .

الإيمانُ بالرسول واجبٌ من غير شَرط:

إنَّ المُعجَبين بالفلسفة ، والعقلانية تكوَّنت لهم عَقليّة خاصة في قبول أمور الشريعة ، ورفضها ، فالأمور الشرعية التي كانت تُوافِق عقولهم ، وفلسفَتهم قبلوها ، وتردَّدوا في قبول ما كان يُصادم عقولهم ، ومُسلّماتِ الفلسفة ، ورأوا فيه تعقُّدات كثيرة ، والذين كانوا مُتجرِّئين ، ولا يبالون بالحيطة يَرفضون كل ما لا تستسيغه عَقْليَّتُهم الخاصة ، ويقولون : إنه لا بدَّ من الانسجام بين العقل والشريعة ، وبما أنّ هذا الأمر يضَادُّ العقل لا يجدر بالقبول .

أمّا من كانوا يأخذون بشيء من الحيطة في ذلك ، فيلجؤون إلى التأويل ،

(١) صريح المعقول : ص ٧٩ .

والتوجيه مهما كان ذلك مستحيلاً ، وبعيداً عن القياس .

لقد أثبَتَ ابنُ تيميَّة في مواضع كثيرة : أن الإيمان بالرسول واجبٌ لا محالة من غير شَرط ، ولا قيد ، وأن مكانة الرسول الصحيحة ومَنصبه الذي يتبَوَّؤُه لَيُوجبان ذلك ، وذلك هو الإيمان في الحقيقة .

أمَّا الاشتراط في تصديق الرسول ، والإيمانِ به ؛ فليس من الإيمان في شيء ، يقول :

«ففي الجملةِ لا يكون الرجل مؤمناً حتى يُؤمن بالرسول إيماناً جازماً ، ليس مُشروطاً بعدم مُعارضٍ ، فمتى قال أؤمن بخبره إلا أن يظهر له معارض يدفع خَبره ؛ لم يكن مؤمناً به ، فهذا أصلٌ عظيمٌ تجب معرفتُه»[١] .

ويَقولُ في مكانٍ آخرَ :

«كان مِن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أنَّه يجب على الخلْق الإيمانُ بالرسول إيماناً مُطْلَقاً جازِماً عاماً بتصديقه في كلّ ما أخبر به ، وطاعته في كلِّ أمر ، وإنَّ كل ما عارضَ ذلك ؛ فهو باطل ، وإنَّ من قال : يجب تصديق ما أدركتُه بعقلي ، ورَدُّ ما جاء به الرسول لرأيي ، وعقلي ، وتقديمُ عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأنَّ الرسول صادق فيما أخبر به ؛ فهو متناقضٌ ، فاسد العقل ، مُلحدٌ في الشرع .

وأمَّا من قال : لا أُصدِّق ما أخبرَ به حتى أعلمه بعقلي ؛ فكُفرهُ ظاهر»[٢] .

أوهَامُ العَقْلِ:

ثم يستعرضُ ابنُ تيميَّة دعوى هؤلاء «العقلاء» التي تقول بالتعارض بين العَقل والنقل في أكثر الأحيان ، وأنَّ الأمور التي جاء بها الأنبياء والرسل كعقائد وحقائق دينية قد تتعارض مع العقل الصريح والهداية ، وتتصادم مع تلك

---

(١) صريح المعقول : ج ١ ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق : ج١ ، ص ١٠٨ .

الحقائق والمُسلَّمات؛ التي أنتجَتها الفلسفة بعد دراسات طويلة الأمد ، والتي تُعتبر أساس الفلسفة ، يُثبت الإمام ابن تيميَّة : أن هذه العقليات التي تتعارض مع أخبارِ الرسل ، ونصوص الكتاب ، والسنة لا تعدو إلا أوهاماً ، وأباطيل اخترعها العقل بحيث إذا تولت بالنَّقد العلميِّ والمحاسبة الدقيقة؛ ظهر أنها ليست إلا مجموعةً من الألفاظ والتوهُّمَات التي لا تستند إلى أساس مِن العلم ، يقول :

«على أنَّ ما يدَّعونه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقيقةَ لها عند الاعتبار الصحيح ، وإنما هي من باب القعقعة بالشّنان لمن يُفزعه ذلك من الصبيان ، وإذا أُعطي النظر في المعقولات حقَّه من التمام وجدها براهين ناطقة بصدق ما أخبر به الرسول وأنَّ لازم ما أخبر به لازمٌ صحيح وأن من نَفاه؛ نفاه لِجَهله بحقيقة الأمر ، وفزعاً باطناً وظاهراً ، كالذي يَفزع من الآلِهة المعبودة دون الله أن تضرَّه ، ويفزع من عدو الإسلام لما عِنده مِن ضعف الإيمان» [١] .

ويقول في موضعٍ آخر : «هؤلاء من رُعبهم من الألفاظ الهائلة التي لم يَعلموا حقيقتها أشبه بمن رأى العدوَّ المخذول ، فلمَّا رأى لِباسَهم رعِبَ منهم قبل تحقُّق حالهم الذي هو في غاية الضعف والعجز ، ولكن قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾[٢] [آل عمران : ١٥١] .

جَهلُ العقلاء:

إذا نظر المُنصِف في هذه الأقوال ، والتدقيقات التي يَفتخر بها الفلاسفة ، ويُسمونها «الإلهيات» والتي يُقدّمها أتباعهم بإزاءِ كلام الأنبياء ، وأقوالهم ، سوف لا يجد فرقاً بينها وبين كلام المجانين ، يقول :

«ليتأمَّلِ اللَّبيبُ كلامَ الذين يَدَّعون من الحِذْق والتحقيق ما يدفعونَ به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما يُشبه

(١) صريح المعقول: ج ٤ ، ص ١٥٣ .
(٢) المرجع السابق: ص ١٥٤ .

كلام المجانين ، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطلَ الذي يعلم العلماء بطلانَه بالضرورة مقبُولاً بكلام فيه تَلبيس ، وتدليس» [(١)].

لا تَعارض بينَ صريح العقلِ وصَحيح النقل:

ولكنَّه يُلاحِظ حرمةَ العقل ، وقيمتَه ، فإن القرآن قد أشار في آيات كثيرة إلى استخدام العقل ، والتفكير به ، إنه لا يرى أيَّ تعارض في أي حالٍ بين صريح العقل ، وصحيح النقل ، لأنه لم يَعثر على أي تعارض بين العقل والنقل خلال دراسته الطويلة الواسعة ، بشرط أن يكون العقل سليماً ، والنقلُ صحيحاً محفوظاً ، فقد ألَّف في هذا الموضوع كتاباً ضخماً باسم «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» [(٢)] ، أثبتَ فيه بالدلائل ، وبكل تفصيل ألَّا تعارض بين المعقول والمنقول ، فإنَّ الأمور التي ثَبَتَتْ صِحَّتها بالكتاب ، والسنة ، والوحي ، والنبوة يُصدِّقها العقلُ الكامل الصحيح ، وظلّ العقل يؤيد النصوص ، والمنقولات على الدوام ، وكُلّما يُستخدمُ العقلُ بالدّقة ، والإمعان يوجَدُ أنه يُصدِّق هذه المنقولات ، ويؤيِّدُها ، يقول:

«إنَّ الأدلةَ العقلية الصحيحة البيِّنة التي لا ريب فيها ، بل العلوم الفِطرية الضرورية تُوافق ما أخبرتْ به الرسل ولا تخالفه ، وإنَّ الأدلة العقلية الصحيحة جميعُها موافقةٌ للسمع ، لا تُخالف شيئاً من السمع ، وهذا ولله الحمد قد اعتبرّته فيما ذكرتُه عامةُ الطوائف» [(٣)].

ويقـولُ فـي مناسبـة أخـرى:

«المَنقولُ الصحيحُ لا يُعارضه معقولٌ صريح قط ، وقد تأملتُ ذلك في عامة

---

(١) صريح المعقول: ج٣ ، ص ٢٧٢.

(٢) [ظهر هذا الكتاب على هامش «منهاج السنة» في أربعة مجلدات ثم أعيد طبعه في (١٢) مجلَّداً في جامعة محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم بعنوان «درء العقل عن مناقضة النقل»].

(٣) صريح المعقول: ج١ ، ص ٨٣.

ما تنازع الناس فيه ، فوجدتُ ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شُبهاتٍ فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها ، بل يُعلم بالعقل ثُبوت نقيضها الموافق للشرع ، وهذا تأمَّلْته في مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد ، والصفات ، ومسائل القَدر ، والنُّبوءات ، والمعاد وغير ذلك.

ووجدتُ ما يُعلَم بصريح العقل لم يُخالفه السمع قط ، بل السَّمع الذي يقال إنه يُخالفه إما حديثٌ موضوع ، أو دَلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول.

ونحن نَعلم: أنَّ الرُّسل لا يُخبرون بمُحالات العقول ، بل بمحارات العقول ، فلا يُخبرون بما يعلمُ العقلُ انتفاءَه ، بل يُخبرون بما يعجز العقل عن معرفته»[(١)].

إنه يدَّعي (ولما يدَّعيه أهميةٌ ووَزنٌ كبير) إنه لا يوجد حديثٌ واحدٌ ، أو نَقلٌ واحدٌ معارضٌ للعقل ، فإن كان هناك حديث يعارض العقلَ السليمَ فهو مَوضوعٌ ، أو ضعيفٌ لدى أصحاب الفنِّ.

القُرآن يحتوي على دلائل عَقليّة جَيِّدة:

إنَّه يرفض دعوى هؤلاء المتكلّمين والفلاسفة: أنَّ القرآن الكريم صحيفةٌ تقوم على أساس النقليات ، والسمعيات ، فقد أثبتَ في مواضع كثيرة: أن القرآن يحتوي على دلائلَ عقلية جيِّدة ، تَبلُغ من الإحكام ، والقوة ، والوضوح مبلغاً لا تستقرُّ أمامه دلائلُ المتكلمين والفلاسفة التي لا تعدو بيت العنكبوت بعد البحث والنقد ، إنه يقول:

«إنَّ الله سبحانه وتعالى بيَّن الأدلةَ العقليةَ التي يُحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحدٌ من هؤلاء قَدْرهُ ، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بُخلاصته على أحسنِ وجه»[(٢)].

---

(١) صريح المعقول: ج ١ ، ص ٨٣.

(٢) المرجع السابق: ج ٣ ، ص ٦٨.

وفـي مَوضـع آخـر:

«إنَّ ما جاء به الرسول ﷺ هو الحقُّ الموافق لصريح المعقول ، وإنَّ ما بيَّنه من الآيات ، والدلائل ، والبراهين العقلية في إثبات الصانع سبحانه ، ومعرفة صفاته ، وأفعاله هو فوق نهاية العقول ، وإنَّ خيار ما عند حُذَّاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعضُ ما فيه ، لكنهم يُلبِّسون الحقَّ بالباطلِ ، فلا يأتون به على وجهه» (١).

لا لَبْسَ في تعـاليـم الرسـول ﷺ:

إنَّ كثيراً مِن الفلاسفة والمتكلِّمين وأنصارهم كانوا يعتقدون : أنَّ الرسول ﷺ لم يتناول ذات الله تعالى ، وصفاته بالشرح والتفصيل ، بل إنَّه أجمل هذا الموضوع ، مما ترك فيه إبهاماً وغموضاً ، كما أن جزءاً كبيراً من القرآن يحتاج إلى شرح ، وقد وفَّق الله المتكلمين فيما تقدَّم من الزمان أن يَشرحوه ، ويُفصِّلوه ، ويعرضوا العقائد ، والحقائق الدينية أمام الأمة بتفصيل مُؤيد بالدلائل .

يقول ابنُ تيميَّة : إنَّ الرسول كان مأموراً بالبلاغ المبين ، فقـام بتفصيل وشرح كل شـيء كـان الدين بحاجـة إليـه ، فهل كان من الممكن أن يترك العقائد ، وأصول الدين وأساسه ، وذات الله تعالى ، وصفاته التي يتوقف على علمها معرفةُ الدين ، وسعادة الإنسان ، ونجاتُه؟!

وكيف يترك كل ذلك مجملاً من غير شرح وتفصيل؟!

وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذي دعا الناس إلى تَفهُّمه ، والتدبر فيه مُبهَماً مجملاً؟ يقول :

«إنَّ الرسول بلَّغ البلاغَ المبينَ ، وبيَّن مراده ، وإن كل ما في القرآن والحديث من لَفْظٍ يقال فيه : إنَّـه يحتاج إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صَرْفُ اللفظ عن ظاهره ، فلا بُد أن يكون الرسول قد بيَّن مراده بذلك اللفظ

---

(١) صريح المعقول : ج٣ ، ص ٦٨ .

بخطاب آخر لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ، ومدلُوله باطل ويسكت عن بَيان المراد الحق ، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يَفهموا من كلامه تعالى ما لم يُبيِّنه لهم ، ويَدلُّهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم ، وأن هذا قَدْحٌ في الرَّسول الذي بلَّغ البلاغ المبين» [١] .

ويقول في موضع آخر :

«إنَّ الله تعالى أمَرَ الرسولَ بالبلاغ المُبين ، وهو أطوع الناس لربِّه ، فلا بُد أن يكون قد بلَّغ البلاغ المبين ، مع أن البلاغ المبين لا يكون بيانُه مُلْتبساً مدلَّساً ، والآيات التي ذكر الله فيها : أنها متشابهات لا يَعلم تأويلها إلا الله إنما نفى عن غيره علمَ تأويلها [٢] لا علم تفسيرها ومعناها» [٣] .

دَعوةُ ابنِ تيميّة ومأثَرته:

ركَّزَ ابنُ تيمية كُلَّ جهوده على إثبات : أنَّ مصدر العقائد إنما هو الكتاب ، والسنة ، والوحيُ ، والنبوة ، وأنَّ نصوص الكتاب والسنة هو المقياس الأصيل في هذا الكتاب ، إنَّه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره ، وقد لا يخلو أيُّ كتابٍ من مؤلفاته من هذه الدعوة .

وهكذا استطاعَ ابنُ تيمية أن يُنشِّط الفكرَ الإسلاميَّ ، ويبعثَه من جديد ، الذي كان قد جُرح ، واضمحل بتأثير الفلسفة ، وعلم الكلام ، والروح العَجميَّة في ذلك الحين .

* * *

(١) صريح المعقول : ج١ ، ص ١٠ .

(٢) لقد أثبت ابن تيمية في مؤلَّفاته المختلفة بغاية من التفصيل : أنَّ التأويل له ثلاثة معان :
أوَّلاً : المصطلح القرآني الذي يراد به الحقيقة والمآل .
ثانياً : مصطلح المتقدِّمين الذي يعني التفسير .
وثالثاً : مصطلح المتأخِّرين والمتكلِّمين الذي يُراد به مدلول اللفظ الخفي ، ولا يراد به مدلوله الظاهر لسبب خاص .

(٣) صريح المعقول : ص ١٦٧ .

٢ ـ مصدرُ الفِقه الكتابُ والسُّنة

قَبلَ عهدِ التّقليد:

يؤكِّد لنا التاريخُ أن تقليد إمامٍ من أئمة الفقه ، أو اتباعَ مذهب من المذاهب الفقهية لم يُعرف قبل القرن الرابع الهجري ، فكانَ الناسُ يعملون في قضايا الحياة من غير تقليد ، والتزام ، واثقين بأنَّ عملهم هذا لا يعدو روحَ الشريعة ، بل إنَّهم يتبعون سنة الرسول ﷺ مباشرة ، وكلما اعترتْهمْ حاجة إلى السؤال عن مسألةٍ فقهية ؛ راجعوا من شاؤوا من العلماء ، وعملوا بها .

وفي القرن الرابع أيضاً لم يَعُمَّ التقليد الخالص لمذهب ، ولا جرت العادةُ بدراسة الفقه ، والإفتاء وفق مذهب خاص ، يقول شيخ الإسلام ولي الله ابن عبد الرحيم الدَّهلوي في كتابه «حُجة الله البالغة» :

«إنَّ أهل المئة الرابعة لم يكونوا مُجتمعِين على التقليد الخالص على مذهب واحد ، والتفقُّه له والحكاية لقوله . كما يظهر من التَّتبع ، بل كان فيهم العلماء ، والعامّة .

وكان من خبر العامَّة : أنهم كانوا في المسائل الاجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أو جمهور المجتهدين لا يُقلِّدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلَّمون صفة الوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك من آبائهم ، أو مُعلِّمي بلدانهم ، فيمشون حَسْب ذلك ، وإذا وقَعتْ لهم واقعةٌ ؛ استفتوا فيها أيَّ مُفْتٍ وجدوا من غير تعيين مذهب .

وكان مِن خبر الخاصة : أنَّه كانَ أهلُ الحديث منهم يشتغلون بالحديث يَخْلُص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثارِ الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء

آخر، فالمسألة من حديثٍ مستفيضٍ أو صحيح قد عملَ به بعضُ الفقهاء ولا عذر لتارك العمل به أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها، فإن لم يجد في المسألة ما يَطمئنُّ به قلبه لتعارُض النقل، وعدم وضوح الترجيح، ونحو ذلك؛ رجَع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء، فإنْ وجد قولين؛ اختار أَوْثَقهما سواء كان من أهل المدينة، أو من أهل الكوفة.

وكان أهلُ التخريج منهم يُخرِّجون فيما لا يجدونه مُصرَّحاً، ويجتهدون في المذهب، وكان هؤلاء يُنسبون إلى مذهب أصحابهم، فيقال: فلانٌ شافعيٌّ، وفلانٌ حنفيٌّ، وكان صاحب الحديث أيضاً قد يُنسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له، كالنَّسائي، والبَيهقي ينسبان إلى الشافعي، فكان لا يتولَّى القضاء، ولا الإفتاء إلا مجتهد، ولا يُسمَّى الفقيهُ إلا مجتهداً»[1].

بَدءُ التَّقليد وأَسبابُه:

وظهرتْ حاجةُ التقليد بعد القرن الرابع لأسبابٍ عدَّةٍ ترجع إلى خلافات بين العلماء، وفُشوِّ الجدال، والمناظرة، وانخفاضِ مستواهم الديني، والخلقي، والانحطاط العلمي، وقِصر الهمة، وقلة الاجتهاد.

فمراعاةً للمصالح الدينية رأى الناسُ تقليد الأئمة المجتهدين الذين سبقوا، واتِّباع المذاهب الفقهية المدونة، والعملَ بفتاوى المتقدمين بدلاً من المعاصرين.

إلا أنَّ هذا التقليد لم يكن يَتقيَّد إلى مدَّة طويلة بالالتزام، والتعيين، والتقليد الشخصي الذي شاع في القرون المتأخِّرة، ولكنَّ الناس تعودوا هذا النوع من التقليد تدريجياً، وكان شيئاً يقوم على رعاية المصلحة، وتَوخِّي السهولة، والتفادي من الفوضى، والتقاط الرخص، واتباع الهوى، لا أنه كان شيئاً تشريعياً لا يجوز العدول عنه، وكان ذلك طبيعياً، وأمراً وفق الأحداث تماماً، وسيَّما ما أصاب العالم الإسلامي، من انحطاط فكري،

(١) حجة الله البالغة: ج١، ص ١٢٢.

وتسفُّل علمي عامٌّ بعد هجوم التتار ، وما واجه العالم الإسلامي من فُقدان الشخصيات الكبيرة في ذلك الحين التي تتمتع بكفاءة الاجتهاد ، وما شاهده العالم الإسلامي في تلك الفترة من كثرة الفِرق ، وتطلع الفتن.

رأى الناسُ العافيةَ في أن يعملوا بالمذاهب الفقهية التي ثَبتتْ صحتها بالكتاب والسنة ، والتي مرَّتْ بمراحل البحث ، والنقد ، وتم تدوينها ، وتلك ميزة استوفَتْها المذاهبُ الفقهية الأربعة ، فكان إقبال الناس عليهم بوجه عام.

مَكانَةُ التّقليد ووَضعِيَّتُها:

لم تكنْ وضعيةُ هذا التقليد إلا أنَّ المرء عندما كان يُقلِّد مذهباً من هذه المذاهب كان يرتاح إلى أنه يعمل بالكتاب والسنة ، ويتَّبع سُنَّةَ صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ، أمَّا إمامُ ذلك المذهب الذي يُقلِّده فليس إلا واسطة بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومكانتُه في ذلك كمكانة شيخ معاصر ، فهو ليس إلا تُرجماناً وشارحاً ، لا مُطاعاً وشارِعاً ، يقول شيخ الإسلام ولي الله الدَّهْلَوي:

«لا يَدين إلا بقولِ النبيِّ ﷺ ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكنْ لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ، ولا بطريقِ الجمع بين المختلفات من كلامه ، واتبع عالماً راشداً على أنه مُصِيب فيما يقول ويفتي ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ ، فإن خالفَ ما يظُنه أقلعَ من ساعته من غير جدال ولا إصرار» [١].

وقد وُجِد هذا النوعُ من التقليد، وعادةُ الرجوع إلى فقيه معين أو غير مُعيَّن ، والاستفتاء منه في المسائل الفقهية في كل زمان ، وسواءٌ كان هذا الرجوع في فتراتٍ مختلفة ، أو بصفة دائمة ، لا يسوغ الاعتراض عليه ، يقول شيخ الإسلام الدَّهلوي:

(١) حجة الله البالغة: ج ١ ، ص ١٢٤.

«إنَّ الاستفتاءَ ، والإفتاء لم يزلْ بين المسلمين في عهد النبي ﷺ ولا فَرْق بين أن يسَتفتي هذا دائماً ، أو يَستفتي هذا حيناً ، وذلكَ بعد أن يكون مُجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نُؤمن بفقيه أيّاً كان أنه أوحى الله إليه الفقهَ وفرضَ علينا طاعتَه ، وأنَّه معصوم ، فإن اقتدينا بواحدٍ منهم؛ فذلك لِعلمنا بأنه عالِمٌ بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكونَ من صريح الكتاب والسنة ، أو مستنبَطاً عنهما بنحوٍ من الاستنباط ، أو عُرف بالقرائن أنَّ الحكم في صورةٍ ما مَنوطة بعلةٍ كذا، واطمأنَّ قلبُه بتلك المعرفة، فقاسَ غير المنصوص على المنصوص. فكأنه يقول ظَننتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال كلما وجدت هذه العلة فالحُكم ثمةَ هكذا ، والمَقيس مُندرِجٌ في هذا العموم ، فهذا أيضاً مَعْزُوٌّ إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقة ظُنون ، ولولا ذلك لما قلَّد مؤمنٌ مجتهداً.

فإنْ بلغَنا حديثٌ من الرسول المعصوم ـ الذي فرض الله علينا طاعته ـ بسندٍ صالح يَدلُّ على خلاف مَذهبه وتركنا حديثه واتَّبَعْنا ذلك التخمين ، فمن أظلمُ منا ، وما عُذرنا يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين؟!»[١].

انحـرافُ القُـرون المتأخّـرة وغُلُـوُّها:

وظَلَّ الجهلُ يُـؤثِّـر في الجماهير من الناس ، حتى أَحَلُّوا هؤلاء الأئمة في بعض المناطق محلَّ المقصود ، وجعلوهم كالشارع والمُطاع عوضاً عن الوسائط والوسائل ، وقد تعصَّب الناس لهذه المذاهب ، ونالت منهم إعجاباً لم يسمحْ لهم بالتنازل عن أي جزء منها في أيِّ حال.

ولكنَّ الذنبَ في هذا لا يرجع إلى العامة كثيراً؛ لأنهم قلَّدوا هذه المذاهب اتِّباعاً للسنة ، ولم يكن لهم من السهل الميسور أن يتتبعوا أسباب الترجيح فيتركوا التقليد ، أو ينتقلوا من مذهب إلى آخر.

---

(١) حجة الله البالغة: ج ١ ، ص ١٢٥.

بل قد كان هناك عددٌ كبيرٌ من العلماء ممن إذا ثبتَ لديهم في مسألة فقهية: أنَّ مذهب إمامهم لا يوافق فيها الكتاب والسنة، وعلموا بالقطعيّة: أن ذلك المذهب مرجوحٌ في تلك المسألة ومذهبُ غيره راجح يتفق مع الكتاب والسنة، وبالرغم من توافر الأحاديث الصريحة والصحيحة خلافُ تلك المسألة لا يجدون في نفوسهم مَندوحةً لترك تلك المسألة، والعمل بالأحاديث الصحيحة الواردة خلافها.

ولعلَّ شيخ الإسلام عزَّ الدين ابن عبد السلام العالم الشافعي الشهير في القرن السابع يتحدّث عن أمثال هؤلاء، فيقول:

«ومِن العجب العجيب: أنَّ الفُقهاء المقلِّدين يقفُ أحدهم على ضعف مأخذِ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلِّده فيه، ويترك من شهد الكتاب، والسنة، والأقيِسَةُ الصحيحة لمذاهبهم جمُوداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة، ويتأوّلها بالتأويلات البعيدة الباطلة نِضالاً عن مُقلِّدِهِ» (١).

كما كانتْ هناك جماعةٌ من العامة تَظُنُّ في إمامها العصمةَ، وقد رسخ في نفسها: أنه لا يجوز ترك التقليد لإمامه في أيِّ حالٍ، يتحدَّث شيخ الإسلام ولي الله الدَّهلوي عن مثل هؤلاء العامة فيقول:

«وفي من يكون عامياً ويُقلّد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع مِنْ مِثله الخطأ، وأنَّ ما قاله هو الصواب البتةَ، وأضمر في قلبه ألاَّ يترك تقليدَه وإن ظهر الدليل على خلافه، وذلك ما رواه الترمذيُّ عن عديِّ بن حاتم: أنّه قال سمعته (يعني رسول الله ﷺ) يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال: «إنَّهم لم يكونوا يعبُدُونَهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حَرَّموه» (٢).

---

(١) حجة الله البالغة: ص ١٢٤.
(٢) حجة الله البالغة: ج ١، ص ١٢٤ [والحديث أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن =

التَّقليد والاجْتِهاد كما يراهُما ابن تيميَّة:

قد أنكرَ المحقِّقون من العلماء الراسخين في كل عصر مثلَ هذا التقليد المطلق الذي يوازي اتباع الرَّسول ﷺ وطاعته ، إنهم لا يُحرِّمون التقليد كابنِ حزم وغيره من غلاة العلماء ، ولا يجيزون التقليدَ المطلق الذي لا يُفرِّق بين الرسولِ ، والإمام في الاتباع ، والطاعة .

فمِن العلماء الذين يحملون رأياً مُتَّزناً جداً في هذا الموضوع ، شيخُ الإسلام ابن تيمية في المتقدِّمين ، وشيخُ الإسلام ولي الله الدهلوي في المتأخرين ، ويعترف ابن تيمية بواقع أن العامة وغيرَ المجتهدين من العلماء لا بُدَّ لهم من الرجوع إلى الفقهاء والمجتهدين وتقليدِهم ، وأن الأئمة كالوسائل والوسائط ، وأنَّ تقليد المذاهب حاجةٌ عملية وأمر طبعي ، يقول في موضعٍ :

«فطاعةُ الله ورسولِه ، وتحليلُ ما أحله الله ورسوله ، وتحريمُ ما حرَّمه الله ورسوله ، وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجبٌ على جميع الثَّقلين الإنس ، والجن ، واجبٌ على كل أحد في كل حال سِراً ، وعلانية .

لكنْ لمَّا كان من الأحكام ما لا يَعرفه كثير من الناس؛ رجَع الناس في ذلك إلى من يُعلِّمهم ذلك؛ لأنه أعلمُ بما قاله الرسول ، وأعلَم بمراده ، فأئمة المسلمين الذين اتَّبعوهم وسائلُ ، وطُرق ، وأدلةٌ بين الناس وبين الرسول ، يُبلِّغونهم ما قاله ، ويفهِّمونهم مُرادَه بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد يَخُصُّ الله هذا العالِمَ من العِلْم والفَهم ما ليس عند الآخر ، وقد يكون عند ذلك في مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩] فهذان نَبيَّان كريمان حكما في

= في تفسير سورة التوبة ، برقم (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغُطَيْف بن أَعْيَنَ ليس بمعروف في الحديث].

قضية واحدة ، فخَصَّ الله أحدهما بالفهم ، وأثنى على كل منهما ، والعلماء ورثة الأنبياء ، واجتهاد العلماء في الأحكام كاجتهاد المستدلِّين على جهة الكعبة ، فإذا كان أربع أَنْفُس يصلي كل واحد بطائفة أربَع جهات لاعتقادهم: أنَّ الكعبة هناك ، فإن صلاة الأربعة صحيحة. والذي صلَّى إلى جهة الكعبة واحدٌ وهو المصيب الذي له أجران كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهدَ الحاكمُ ، فأصابَ؛ فله أجران ، وإنْ اجتهد ، فأخطأ؛ فله أجرٌ» [(١)].

ويتقدَّمُ فيعترفُ ابنُ تيميَّة بأنَّ نشأة المرء على مذهب فقهي خاصٌّ ، وقيامَه بأداء العبادات والأحكام وفق مذهب خاصٌّ أمرٌ طبيعي ، تَعوَّده الناسُ من قديم ، و لكن شأنُ المؤمن أن يَعتقد نفسَه مُتَّبعاً لله والرسول في الحقيقة ، ويتهيأ دائماً لاتّباع ما يَثبُت من الكتاب ، والسنة من غير تَلَكُّؤٍ ، ولا تَردُّدٍ ، يقول:

«إنَّ الإنسان يَنشأ على دين أبيه ، أو سيِّده ، أو أهل بلده كما يَتبع الطفلُ في الدين أبويه وسادته ، وأهل بلده ، ثم إذا بلغ الرجلُ فعلَيه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيثُ كانت لا يكونُ ممن إذا قيل لهم اتَّبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فكُلُّ من عدل عن اتباع الكتاب والسنة ، وطاعة الله ورسوله إلى عادته ، وعادة أبيه وقومه؛ فهو من أهل الجاهلية المستحقّين للوَعيد. وكذلك من تبيَّنَ له في مسألة من المسائل الحقُّ الذي بَعث الله به رسوله ، ثم عَدل عنه إلى عادته؛ فهو من أهل الذَّم والعقاب» [(٢)].

والعالِمُ الذي يَصْلُح للتَّحقيق والاستدلال ، ويَستطيع أن يتبيَّن أسباب الترجيح في المسائل ، فيتحدَّث عنه ، ويقول:

«أمَّا القادرُ على الاستدلال ، فقيل: يحرمُ عليه التقليد مطلقاً ، وقيل:

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ج٢ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ [والحديث أخرجه ابن الجارود في «المنتقى» (١/ ٢٤٩) برقم (٩٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وذكره العيني في «عمدة القاري» (٢/ ١٧١) ، والنووي في «شرح مسلم» (١١/ ٩١)].

(٢) فتاوى شيخ الإسلام: ج ٢ ، ص٢٠٢.

يجوز مطلقاً ، وقيل: يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القولُ أعدل» [١].

وأمَّا من يَقدر على الاجتهاد قُدرةً تامة ، فيُحكَمُ فيه: أنه إذا اطَّلع على النصوص في جانب، ولم يجدْ في جانب آخر ما يُقاوم به النصوص ، ويَدفعُها؛ يلزمُه اتِّباع تلك النصوص ، يقول:

«أمَّا إذا قدرَ على الاجتهادِ التام الذي يَعتقد معه: أنَّ القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص؛ فهذا يَجب عليه اتِّباع النصوص ، وإن لم يفعل؛ كان مُتَّبعاً للظنِّ وما تَهوى الأنفُس ، وكان أكبرَ العُصاة للهِ ولرسوله» [٢].

عَملُ ابنِ تيميّة ومكانتُه الفقهيـة:

أمَّا تعامُلُه في المسائل الفقهية؛ فإنه أفتى في معظم المسائل على مذهب الإمام أحمدَ بن حنبل وأصوله ، وإنَّ فتاواه وآراءه الفِقهية في أكثر المسائل تتفق مع فتاوى ومذاهب الأئمة الأربعة ، أو مذهب إمام من أئمة المسلمين ، واجتهاده ، كما قام بالاجتهاد في بعض المسائل ، وأفتى فيها في ضوء الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وبالنَّظر إلى جميع هذه الوجوه والموازنة بينها يصح أن يُقال: إنه كان مجتهداً منتسباً [٣] للمذهب الحنبلي» [٤].

دَعوةُ ابنُ تيميّة وتأثيرُها:

ومِن مآثر ابن تيميَّة التجديدية: أنه عندما دعا الناس بقُوة إلى اعتبار الكتاب والسنة مَصدراً للعقائد ، وعملَ بها نفسُه في غاية من الاهتمام ، دعاهم كذلك

---

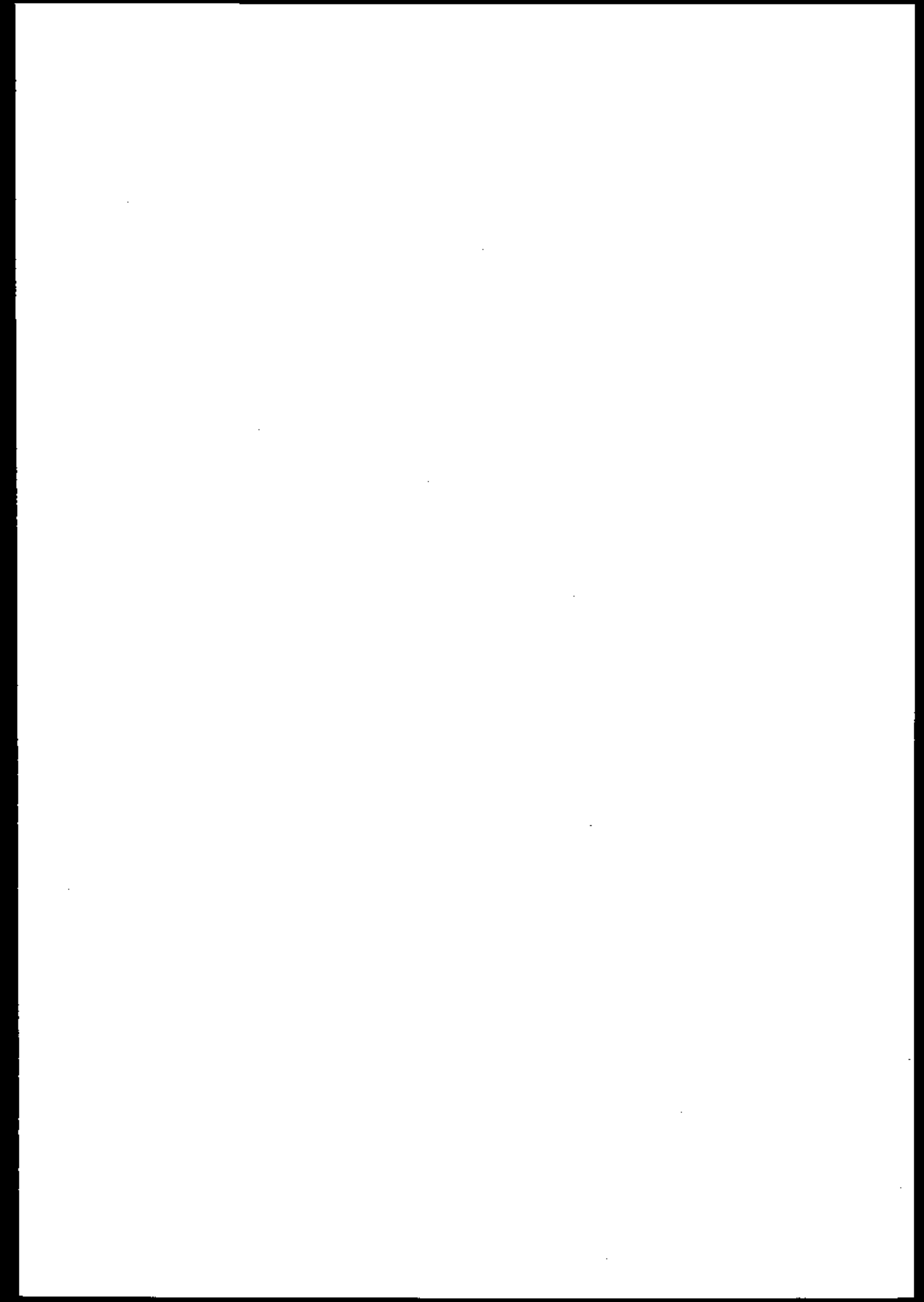
(١) فتاوى شيخ الإسلام: ص ٣٨٤.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٨٥.
(٣) المجتهد المنتسب هو الذي يكون مجتهداً في الفروع والأصول ، ولكنه يتفق مع أي إمام في طريق استدلاله، واستنباطه، ولا يتجاوز نطاقه بوجهٍ عام.
(٤) وللاطلاع على فقه ابن تيمية ومكانته ، والتفاصيل عن مكانته الاجتهادية راجع كتاب «ابن تيمية» للشيخ أبو زهرة ، ص ٣٥٠ ـ ٤٥٢.

بقوة بالغة إلى اتخاذ الكتاب والسنة مصدراً للفقهيات ، والأحكام ، ومِقياساً للحق ، وقدَّم نموذجاً عالياً للعمل بهذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] .

إنَّ دعوةَ ابن تيمية هذه أثارتْ رُوحاً ونشاطاً من جديد في أوساط الأمة الفِقهية ، والعلمية التي كانت قد توقفتْ منذُ مدة بعيدة عن دراسة الأحكام والمسائل ، والتفكير فيها ، ومقابلتها مع الكتاب والسنة ، وكان بابُ الاجتهاد والاستنباط مُغلَقاً من زمن طويل ، وهكذا فإنه قام بِبعثِ الفكر الإسلامي الصحيح الذي وُجد في القرون الأولى ، وقامتْ عليه حياةُ المسلمين ، وهو على أساس هذه المآثر العلمية والعملية كُلِّها يُعتبر من شخصيات التاريخ الإسلامي المصطفاة التي اختارَها الله لتجديد هذا الدين ، وبعثه من جديد .

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]

* * *



البَابُ الثالِثُ

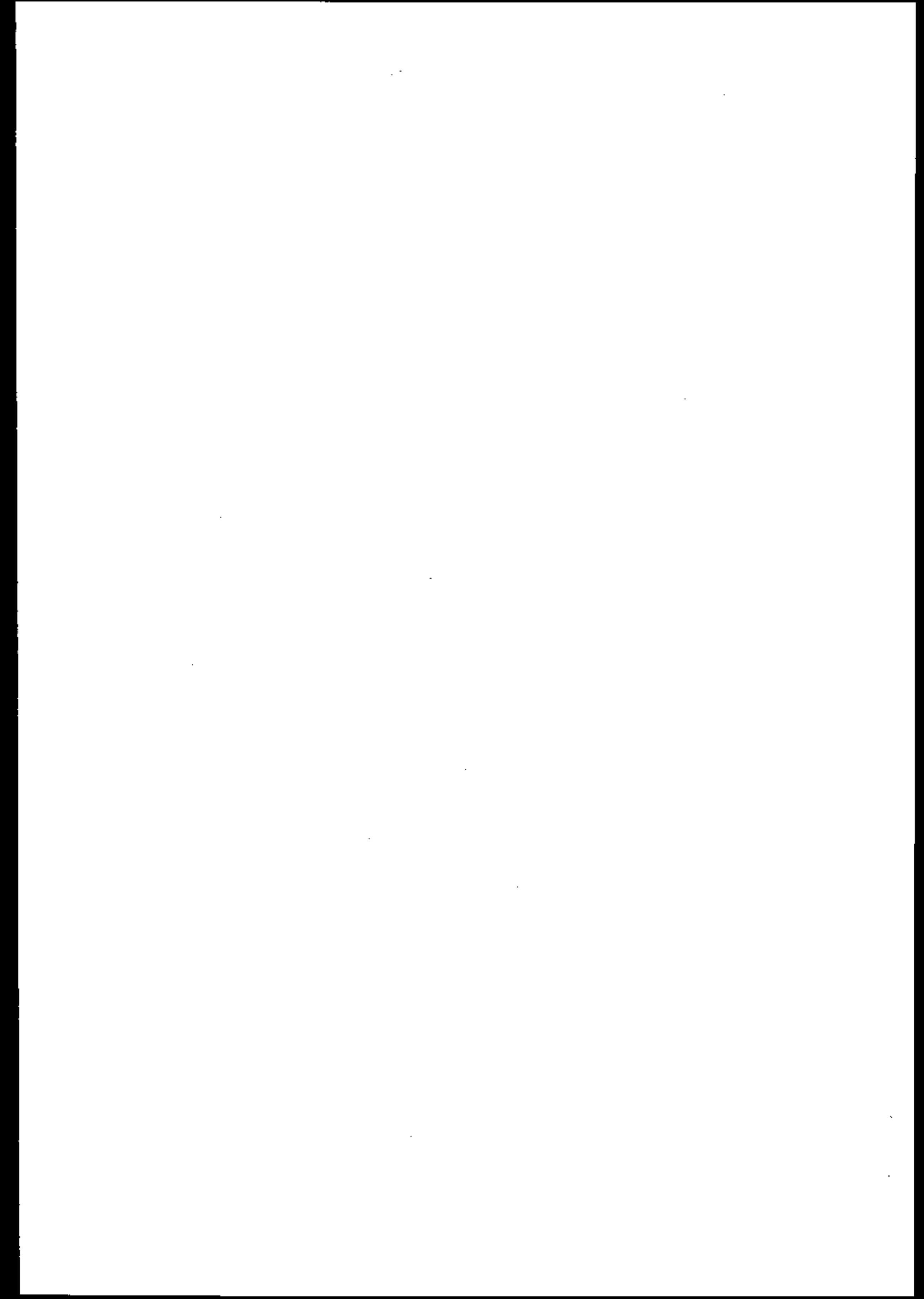
تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء

الفصل الأول: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

الفصل الثاني: عماد الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي.

الفصل الثالث: عماد الدين إسماعيل بن كثير.

الفصل الرابع: زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.



الفصل الأول

الحافظ ابنُ قَيِّمِ الجَوزيَّة
تلميذهُ وخليفَتُه

عُرف شيخُ الإسلام ابن تيمية بكثرةِ تلاميذه والمستفيدينَ منه، وكان من الطبيعي أن يكون له نفوذٌ قوي في عصره الذي عاش فيه بما قد رَزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامي العظيم ومن شخصيَّة عِملاقة جبَّارة، ولا غَرْوَ أن يتجمَّع حوله حشدٌ كبير من تلاميذه والمعجَبين به.

وقد تميَّز مِن بين هؤلاء التلاميذ تلميذُه النجيب الحافظ ابنُ قيّمِ الجوزية الذي يُعتبرخليفَته الراشد، ومُدوِّن علومه من بعده، إنَّه تفرَّد بخصائص ومزايا لم تتوافر في غيره من تلاميذه، فقد ظلَّ يُشارك أستاذه في أحواله، وأعماله طول حياته، ولم يُفارقه حتى آخر لمحة من حياته، وثَبت على جادَّته بعد وفاته من غير أن يَفتُر حبُّه له، وإعجابه به.

إنَّ خَدماته العلمية، وجلالة قدره وفضائِله لَجديرةٌ بتأليف كتابٍ مستقلٍّ[1]

(١) وقد صدرت عشرات الرسائل: الماجيستر، والدكتوراه حول سيرة ومؤلَّفات ومنهج الحافظ ابن قيم الجوزية، ومن أشهر ممَّا كُتب عنه: «ابن قيم الجوزية» للأستاذ عبد العظيم شرف الدين، و: «ابن قيم الجوزية» للشيخ مسلم الغنيمي، و: «ابن قيم الجوزية وآراؤه التربوية» للأستاذ عبد الرحمٰن النحلاوي، و: «ابن قيم سيرته ومؤلَّفاته» للأستاذ أبو بكر زيد] «وابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية» للدكتور أيمن الشَّوَّا.

عنه، يبحث عن مؤلفاته، ودراساته العلمية بغايةٍ من التفصيل، ومما يَبعثُ على الدهشة والاستغراب: أنَّ التاريخ لا يتحدَّث عن سيرته إلا بإيجاز، والمعتمدُ في ذلك هو ماذكره تلميذُه النابغة الشهير الحافظ ابنُ رجَب الحنبلي عن سيرته في «طبقات الحنابلة».

والحقيقةُ: أنه أذاب شخصيته في حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يَعُد له وجود مستقل ولا شخصيةٌ وحدها، وإلى القارىء نُبذة من سيرته التي اطَّلعنا عليها وظفِرنا بها.

اسمهُ ونَسَبُه:

هو مُحمَّدٌ الملقَّب بشمس الدين، ويُكنى أبا عبد الله، وهو في النسبة زرْعِيٌّ[1]، واسم والده أبو بكر بن أيوب.

ولد في دمشق حيث قضى حياته، توفِّي هناك، ودُفن فيها، وكان والده[2] قيِّمَ المدرسة الجوزية[3] فقيل له ابنُ قيِّم الجوزية نسبة إلى مَنْصب والده، ويُؤْثِرُ بعضُ الناس الإيجازَ فيقولون ابنُ القيم.

سمعَ الحديث من الشّهاب النابلسي العابر، والقاضي تقي الدين سليمان، وفاطمة بنت جوهر، وعيسى بن مطعم، وأبي بكر بن عبد الدائم، وغيرهم من شيوخ عصره.

برَع في الفقه على المذهب الحنبلي، وأفتى، ولازمَ ابنَ تيميَّة حتى آخر لحظة من حياته، يقول العلامةُ ابن كثير: «لازمَه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه عِلماً جمَّاً»[4].

---

(١) [نسبة إلى قرية «زُرَع» من قُرى حَوْرَان قُرْب دمشق].

(٢) [كان عالماً مشهوراً في علم الفرائض].

(٣) [الكائنةُ اليوم في سوق البُزوريَّة بدمشق، وصفها الحافظُ ابن كثير بأنها أحسن المدارس، جُعل فوقها مسجدٌ صغيرٌ تقام فيه بعضُ الصلوات إلى يومنا هذا].

(٤) البداية والنهاية: ج١٤، ص ٢٣٤.

مكانَتُه العِلْميّة:

شارَكَ في جميع العلوم الإسلامية ، ولكنه تفرَّد بالتفسير ، كما يقول الحافظُ ابن رجب ، ونبغَ في أصول الدين ، وبلَغ فيها إلى القمة ، لم يُوجد له نظيرٌ في الحديث ، وفقه الحديث ، ودقائقِ الاستنباط .

كما برع في الفقه ، وأصول الفقه ، والعربية ، وعلم الكلام ، وحَصل له اطلاعٌ واسعٌ على إشارات أهل القلوب ، ودقائق أصحاب المعرفة والتصوف .

يقول ابن رجب: «لم أجدْ عالماً أكبرَ منه في معاني الكتاب والسنة ، والحقائِق الإيمانية ، إنه لم يكن معصوماً عن الخطأ إلا أنني لم أرَ أحداً يحمل هذه الصفات مثله» .

ويقول العلاَّمةُ الذهبي: «كانْت له عِنايَة فائقةٌ بمتُون الحديث ورجالِه ، إنه كان يشتغل بدراسة الفقه ، ويكتب مسائله في غايةٍ من التفصيل ، كما كانتْ له بَراعة في تدريس النحو ، وأصول الفقه ، وأصول الحديث» .

زُهْدُه وعِبادَتُه:

كان كثيرَ العبادة ، كثيرَ إحياء الليالي ، يُطيل الصلاة ، ويخشع فيها ، يُداوم على ذكرِ الله ، ويَغلب عليه ، ويأخذ بمجامع قلبه حُبُّ الله ، وحالةٌ خاصة من الإنابة إليه ، يعلو وجهَه نورٌ من التواضع ، والافتقار إلى الله ، حَجَّ مرَّاتٍ عديدة ، وأقام بمكة المكرمة مُدَّةً طويلة .

يحكي أهلُ مكة حكايات من كثرة عبادته ، وطوافه مما يبعث على الاستغراب والدهشة .

تَحدَّث عنه العلامة ابن كثير في تاريخه فقال: «كانَ كثيرَ التودُّد ، لا يَحسُدُ أحداً، ولا يؤذيه، ولا يَستغيبه، ولا يحقِد على أحد، وكنتُ من أصحَبِ الناس له ، وأحبِّ الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالَم في زماننا أكثرَ عبادةً منه ، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يُطيلها جدّاً، ويَمُدُّ ركوعها، وسجودها، ويَلُومه

كثيرٌ من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يَرجع، ولا ينزِع عن ذلك ـ رحمه الله ـ.

وبالجُملة كان قليلَ النظير في أموره وأحواله»(١).

محنَتُـه:

مَرَّ بمراحل المحنة والمُجاهدات الشَّاقة كأستاذه وشيخه، عندما حُبس شيخه ابنُ تيميَّة في القَلعة في المرة الأخيرة حُبس هو معه أيضاً، ولكن فُرِّق بينهما في السجن، وأُفرج عنه بعد وفاة شيخه، وقد ظلَّ طوالَ هذه المدة مشغولاً بتلاوة القرآن، ودراسة معانيه، والتدبُّر فيها.

يقول عنه ابنُ رجب:

«ففتح عليه من ذلك خيرٌ كثيرٌ، وحَصل له جانبٌ عظيمٌ من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في عُلوم أهل المعارف، والدُّخول في غوامضهم، وتصانيفُه ممتلئةٌ بذلك».

تَلاميذهُ ومُعاصروه يَعترفون بفَضله:

تلقَّى منه العلمَ جماعةٌ كبيرةٌ من العلماء في حياة شيخه ابن تيمية، وبعدَ وفاته، واستفادوا من مَناهل علمه، وكان علماؤه المعاصرون يُبجِّلونه كثيراً، وَيَرَوْنَ التَّلمذةَ عليه شرفاً كبيراً، فمِن تلاميذه ابنُ عبد الهادي، وابنُ رجب، ولقد قال عنه القاضي بُرهان الدين الزُّرعي «لا يوجدُ الآن رجلٌ أوسعَ علماً مِنه تحتَ هذه السَّماء».

التَّدريسُ والتَّأليفُ:

قامَ ابنُ القيِّم بتدريس العُلوم الشرعية في المدرسة الصَّدْرية(٢)، وتولَّى

---

(١) البداية والنهاية: ج١٤، ص ٧٣٥.

(٢) [هي من مدارس الحنابلة، أنشأها أسعدُ بن عثمان بن المنجا التنوخي ثم الدمشقي، كانت بدربٍ، يقال له: درب الريحان، وقد درس فيها ابن عبد الهادي، وابن القيِّم، وابن إبراهيم وغيرهم، وقد محيت آثارها، وصارت دُوَلاً، ولا ذكرَ لها اليوم].

إمامةَ المدرسة الجوزية إلى مدة طويلة ، وقد أَلَّف بقَلمه كُتباً كثيرة ، يشهد ابنُ رجب بشغَفه الزائد بالكتابة ، والمطالعة ، والتأليف ، واقتناءِ الكتب ، ونتيجةً لهذا الشوق تألفتْ لديه مكتبةٌ واسعةٌ ، كانت تحتوي على كثير من الكتب الخطية التي انتَسخها بيده.

بماذا تمتاز مؤلّفاته؟

تمتازُ مؤلَّفاته بحُسن الترتيب ، وجودة التأليف ، وهي تفوق في هذا المجال مؤلفاتِ شيخه ابن تيمية أيضاً ،وهي بجانب ذلك تتميَّز بِرقَّة الأسلوب ، وسَلاسة العبارة ، وتأثيرِها ، ولعلَّ ذلك جاء من قِبل نَفسه التي تحلَّت بالجمال أكثر منها بالجلال.

أهمُّ مُؤلّفاته:

لمؤلَّفاته قائمةٌ طويلة ، نُدرِجَ فيما يلي ما له أهميةٌ كبيرة:

١ ـ تهذيب سنن أبي داود.

٢ ـ مَدارج السالكين بين منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

هذا الكتابُ شرح لكتاب «منازل السائرين» لشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهَروي ، ويُعتبر من أجود كتب التصوف والمعرفة.

٣ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد.

٤ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.

٥ ـ إعلام الموقِّعين عن رب العالمين:

وهذا الكتاب مرجع كبير للمشتغلين بالفتاوى والحديث ، ومن أجود تصانيفه.

٦ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

٧ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٨ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

في وصف الجنة وأحوالها ، وهذا الكتاب على هامش «إعلام الموقعين».

٩ ـ كتاب الداء والدواء.
١٠ ـ مفتاح دار السعادة.
١١ ـ اجتماعُ الجيوش الإسلامية على غَزو المعطلة والجهمية.
١٢ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
١٣ ـ بدائع الفوائد.
١٤ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح.
١٥ ـ تُحفة المودود بأحكام المولود.
١٦ ـ كتاب الروح.
١٧ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.
١٨ ـ نفحة الأرواح وتحفة الأفراح.
١٩ ـ الفوائد.
٢٠ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
٢١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي [١].
٢٢ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين.
٢٣ ـ إغاثة اللهفان في مكايد الشيطان.
٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين[٢].

وأمَّا كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»، فإنه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته، ويحتوي في نفس الوقت على مواضيع مختلفة من السِّيرة، والسنة، والفقه، وعلم الكلام، والتزكية، والإحسان، وأعتقد أنه ليس هناك كتابٌ جامع أُلِّف للعمل والإصلاح بعد كتاب «إحياء العلوم» للإمام الغزالي، بل وقد يفوقه من نَاحية التحقيق، والاستناد، والتطبيق بين الكتاب والسنة.

ويبدو أنه أراد أن يُؤلِّف كتاباً يَنُوب عن المكتبة الدينية إلى حدٍّ كبير، ويقوُم

(١) [هو ـ والله أعلم ـ كتاب «الداء والدواء» السابق ذكره].
(٢) [قد طُبع معظم كُتبه في بلاد الشام بتحقيق الأستاذين الفاضلين: يوسف علي بديوي، ومحمد بشير عيون، في دار ابن كثير، ودار البيان].

مقام مُربٍّ ومرشدٍ ، وفقيهٍ ومحدِّثٍ ، ولقد شُغف بهذا الكتاب ، وأولع به من كانوا يتذوَّقون الحديثَ ، ويحرصون على اتّباع السنة والآداب النبوية ، وكانوا يهتمون بها [١] .

وقد تحلَّى الكتاب بالطبع لأول مرةٍ في الهند سنة ١٢٩٨هـ ، وفي مصر ١٣٢٤هـ ، وتقع الطبعة الهندية في ٩٣٧ صفحة بالقطع الكبير ، ولكن الطبعة المصرية بالحروف الحديدية تقع في ٩٢٦ صفحة[٢] .

وقد تحدَّث المؤلِّف عن الكتاب في أوله ، فقال :

«وهذه كلماتٌ يسيرةٌ لا يَستغني عن معرفتها من له أدنى هِمةٍ إلى معرفة نبيه ﷺ ، وسيرتهِ وهديه ، اقتضاها الخاطرُ المكدود على عُجَره وبجَرِه ، مع البضاعة المزجاة ، . . مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة ، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة ، والهمة قد تفرقت شذَر مذَر ، والكتاب مَفقودٌ ، ومن يَفتح بابَ العلم لمذاكرته معدوم غير موجود» [٣] .

إذا كان بيانُ المؤلِّف هذا يتعلَّق بأول الكتاب وببعض الفصول والأبواب ، فلا يَبعث على الاستغراب الكثير ، ولكنه إذا كان عن الكتاب كُلِّه فلا شك : أنه مَبعثُ دهشة وغرابة ، وذلك لأن البُحوث المفصَّلة الدقيقة لِمتُون السنة والأسانيد والرِّجال والدقائق من السيرة ، والتاريخ ، والأحكام التي يشتمل عليها هذا الكتاب يُؤكد للقارىء : أن هذا الكتاب لم يؤلَّف إلا في مكتبة واسعة كبيرة ، فإنْ صَحَّ أن هذا الكتاب كُله إنما أُلِّف في حال السفر ، فلا بدَّ من

---

(١) وقد جاء في ترجمة العالم المتورع ، الزاهد الإمام عبد الله الغزنوي : أنَّه كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ويدعو الله تعالى ويقول : يا أرحم الراحمين يسر لي وجود هذا الكتاب ، واجعله خير زاد لمعادي ، وكان عزيز الوجود في زمانه وبلاده (أفغانستان) ، اقرأ ترجمته الحافلة في كتاب «نزهة الخواطر» ج٨.

(٢) [قد طُبع هذا الكتاب بتحقيق وتعليقات الأستاذين الجليلين : الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط في ستّ مجلَّدات في مؤسسة الرسالة ببيروت].

(٣) زاد المعاد : ج ١٥ ، ص ١ .

الاعتراف بأنَّ مُؤلِّفه كان متبحراً في العلوم الإسلامية كُلِّها وخاصة في الفقه والسنة ، وأنَّ مكتبة العلوم الدينية كانتْ تموج في صدره ، وكان خيرَ خَلَفٍ لخير سَلف من المحدِّثين المتقدِّمين في قوة الذاكرة ، واستحضارِ العلوم ، وخليفةَ صِدْقٍ لأستاذه العظيم.

لقد شَرح الحافظُ ابنُ القيِّم في أول هذا الكتاب موضوعَ البعثة المحمدية ومَراتبَ الوحي ، إنَّه استوعب في بيانِ مراتب الوحي وأنواع الوحي ما لا يُوجد له نظير في كتب السيرة العامة [١].

ثم ذكَرَ تلك المدارج التي مرَّت بها الدعوةُ الإسلاميةُ ، كما تناول الأسماءَ المباركة ، ومعانيها ، ودقائقها ببحثٍ لطيف ، ولم يَترُك في هذا البحث مسائل ونكتاً من النحو والفقه ، وما يتعلَّق بالذوق والوجدان؛ إلا وقد ذكرها كلَّها كعادته وعادة شيخه في ذلك.

وبهذه المناسبة جمع كُلَّ ما يتصل بالسيرة ، وشخصية النبي ﷺ من التفاصيل ، حتى تكوَّنتْ ذخيرةٌ قَيِّمة للأخلاقِ ، والشمائل ، والعادات النبوية [٢].

ثم إنَّه تَناول عباداتِ النبي ﷺ وهيئةَ صلواته ، وسُنَنها ، وعاداته بتفصيلٍ دقيق يُعتبر عصارة دِراسته للحديث والعلوم الدينية ، وهو يتجلَّى في ذلك بلون المحدِّث ، وأسلوب المُحقِّق ، وقد تضمن هذا البحث كلاماً دقيقاً لأصول الحديث ، والفقه [٣] ، ومعلوماتٍ مهمَّةً بفَنِّ الرجال [٤].

إنَّ أبوابَ الكتاب التي تَشمل بيان العبادات ، والأركان الأربعة ليست مجرد كتاب للأحكام والخلافيات الفقهية ، بل إنها تتضمَّن نُكتاً عِلميةً لطيفةً ،

(١) زاد المعاد: ص ١٨/١ للمطبعة النظامية.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٥ ـ ١/٤٩.
(٣) المرجع السابق: ١/٦٩ ـ ١/١٠٥.
(٤) المرجع السابق: ١/٧٣ ـ ١/٩٩.

ومعاني غزيرةً للذوق والوُجدان ، تَبعثُ الإيمان من جديد .

وقد ذكر في بيان الزكاة والصدقة: «كان ﷺ أشرحَ الخلق صَدْراً ، وأطيَبهم نفساً ، وأنعمَهم قلباً ، فإنَّ للصدقة وفعلِ المعروف تأثيراً عجيباً في شَرح الصدور انْضاف ذلك إلى ما خصَّه الله به من شَرْحِ صدره للنبوة ، والرسالة ، وخصائِصها ، وتوابعها ، وشَرحِ صدره حسّاً ، وإخراج حظِّ الشيطان منه» [1] .

واهتمَّ المؤلِّف ببيان حِكمة العبادات ، والأركان ، والأحكام ، وأسرارها ، وفوائِدها قبل أن يتحدَّث عنها ، وقد تصدَّى بعرض تاريخي للتشريع وحِكمته في هذه العبادات والأركان وفوائدها ، بأسلوبٍ شيّق جذاب .

أمَّا الجُزء المهمُّ لهذا الكتاب الذي يَشهدُ على عُلو كعب المؤلف ، وسعة اطلاعه ، واستحضاره للعلم هو باب الحج ، فإنَّني لم أطلع في أيِّ كتاب على مثل هذه الذخيرة العلمية ، والتحقيق الجامع ، والبحث الدقيق على الحجِّ ، ومناسكه ، وحِجَّةِ النبيِّ ﷺ وأحكامِها ، ويمتدُّ هذا البحث في الطبعة المصرية من ص ١٨٠ إلى ص ٣٤٩ ، يعني في ١٦٩ صفحة ، تناول المؤلف بيان حجة النبي ﷺ بغاية من التفصيل من خروجه من المدينة إلى عودته إليها، وهو مُلخَّص لذخائر مختلفةٍ للحديث، ومجموعةٌ للروايات الصحيحة، والجزئيات الكثيرة [2] .

إنَّه في ضمن هذا البحث يُلقي ضوءاً على كثير من مباحث الحج الخلافية والمسائل المختلف فيها ، ذكَر حكمها في ضوء الحديث باجتهاده ، وبرأيه ، ويبدو: أنه لا يتقيد في ذلك بمذهب معين ، على الرَّغم مِنْ أنه حنبلي يثبت بالدلائل أن النبيَّ ﷺ لم يكن مفرداً بل قارناً.

ثم إنَّه يضع الأصبع في مواضع الخطأ والخلافات التي تَرجع إلى المتقدمين

---

(١) زاد المعاد: ١/١٥٨.

(٢) وللاطلاع على التفاصيل والجزئيات راجع كتبَ الفقه.

والمتأخرين في بيان كيفية حَجِّ القِران للنبي ﷺ ، ويُشير إلى مصدرها وعُذرِهم فيها [١].

كما أوضَحَ الأوهام التي عرضت لكبار العلماء ، والمحققين في حِجَّةِ النَّبي ﷺ قديماً وجديداً ، وذكر القول الفصل في ذلك ، فمن التابعين طاووس ، ومن المتقدِّمين الطَّبريِ ، ومن المتأخِّرين القاضي عياض ، والعلامة ابن حزم ، وأمثالهم من أساطين العلم والرجال وقعوا في بعض الأخطاء والأوهام في تفاصيل حِجَّة النبي ﷺ ، التي [٢] صحَّحها المؤلف ، وبذلك نستطيع أن نُقدِّر مدى رُسوخه وتبحُّره في العلم.

والحقيقةُ: أنَّ مجرد باب الحج في هذا الكتاب يكفي لمعرفةِ قيمة الكتاب ، وإمامة مؤلفه ، وجلالة قدره.

وقد جاء المؤلِّف في ثنايا الكتاب بمباحث كلامية وعقائدية تشهدُ بعُلوِّ مكانته ، وسَعة نظره وتحقيقه ، وحاول التعبير الصحيح عن روح الشريعة ، مُتَّبعاً في ذلك ذوقَه وذوق شيخه.

وممَّا يَجدُر بالدراسة والاستفادة في هذا الموضوع هو ما بحث فيه عن حقيقة التوكل ، والتوسل بالأسباب في تحقيق دقيق [٣].

وقبل أن يَبدأ الكلام عن الغزوات بحثَ عن حقيقة الجهاد ، ومراتبه في غاية من التحقيق والمعرفة كعادته ، وذكر بدء دعوة الإسلام ، وأحوالَ مكة آنذاك ، والهجرةَ إلى المدينة ، وفَرضيَّة الجهاد والغنيمة ، والصُّلح والأمان ، والجزية والمعاملة مع أهل الكتاب ، وَأحكام المنافقين بتفصيل كبير.

وهو بمناسبةِ ذكر فرضية الجهاد ومشروعيته تحدث عن قيمة النفس ، وضآلتها بإزاء حقيقة الجنة ونعيمها بحماس ، وقوة ، وأسلوب يستهوي

(١) زاد المعاد: ص ١/١٨٥ ـ ١/١٩٠.
(٢) انظر «فصل في الأوهام» ١/٢٤٩ ـ ١/٢٥١.
(٣) زاد المعاد: ١/٢٦٤ ـ ١/٢٦٦.

القلوبَ ، وهو نموذج رائع لقوة كتابته ، وإيمانه .

ثم تعرَّضَ بذكر مغازي النبي ﷺ ، وبعوثه ، ومهماته بترتيب ، وبما أنَّ له اطِّلاعاً واسعاً على الحديث والسيرة معاً ، وهو نَقَّاد ومُحدِّث أكثر من مؤرخ . يتميَّز هذا الجزء من كتابه بالنسبة إلى كتب السيرة الأخرى ، وأَنَّ قوله فَصل في الأمور الخلافية ، وهو عندما يتحدَّث عن الوقائع والأحداث يأتي بتَفسير الآيات ، ولطائِفها ، وأسرارها في أسلوبه الخاص به .

ومِن دَأْبه في بيان الغزوات : أنَّه يتناول كل ما يتعلَّق بها من الأحكام ، فَمثلاً بعد ذكر غزوة خيبر عَقد فصلاً مستقلاً «فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية» [1] وبعد غزوة الفتح «فصل في إشارة إلى ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف [2]» وكذلك بعد غزوة حنين ، وأوطاس «فَصْل إلى إشارة ما تضمَّنت هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكيمة» [3] ، وما إلى ذلك مما يَشحنُه بمواد قيمة ، ومعلوماتٍ مهمَّة .

وهو في هذه الغزواتِ والوقائع ليس مُقلِّداً أو ناقلاً للمتقدِّمين من أهل السِّير والمغازي ، فإنه عارضهم في بعض المناسبات في أمور اشتهرت بين الناس ، وقـدَّم فيها تحقيقاً خاصاً بدراسته الشخصية ، وفهمِه العميق ، فمثلاً يُعرف بوجه عام ، وتذكر كُتب السير والتاريخ أنَّ نِسوة الأنصار وبناتِهم أنشدن هذه الأبيات :

طلَعَ البَدْرُ علينَا ... مِن ثَنِيَّات الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ علَينا ... ما دَعا للهِ داعْ
أَيُّها المَبْعوثُ فِينا ... جِئْتَ بالأَمْرِ المُطَاعْ

عندما كان النبيُّ ﷺ يدخلُ المدينة مهاجراً من مكة ، ولكنه يُعارضُ هذا

---

(١) زاد المعاد: ١/٣٩١ .
(٢) المرجع السابق: ١/٤٠٠ .
(٣) المرجع السابق: ١/٤٣٩ .

الرأي ، ويَرى أنَّ هذه الأبيات إنما أُنشدت لدى عودته ﷺ من غزوة تبوك التي هي في جهة الشام كما يقولُ:

«وبعضُ الرُّواة يَهِمُ في هذه ويقول: إنما كان ذلك عندَ مقدَمِه المدينة من مكة ، وهو وَهم ظاهر ، فإنَّ ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام» (١) .

وبعد ذِكر غَزوة تبوك أيضاً تصدى لذِكر أحكامها (٢) وفوائدها بتفصيل يتضمَّن فوائد مهمة ، ومعلومات فقهية ، واستنباطات لطيفة ، وأحكام اجتماعية ومدنية.

ولمَّا فرَغ من بيان الغزوات والبُعوث بدأ بذكر قُدوم وفود العرب في تفصيل (٣) ، وذَكر وفد النبي ﷺ ومكاتِيبه التي وجَّهها إلى ملوك العالم وأمراءِ القبائل (٤) .

وأمَّا الجُزء الثاني من الكِتاب فمُعظمُه يختصُّ بالطب النَّبوي ، ذكر فيه أسرار الطِّب النبوي ، وحِكمَه ، وتوجيهاته الطبية ، واجتمع في هذا البحث الأحكامُ الطبِّية مع الأحكام الفقهية ، والمباحث الحديثية (٥) ، وقد بَذل جُهداً في جمع تلك الأدوية ، والأغذية ، والمفردات في مكان واحد بترتيب حروف الهجاء؛ التي يتَّصل بها حديثٌ صحيحٌ ، أو ضعيفٌ ، أو موضوعٌ ، وأخذ عليها من الناحية الطِّبية ، وبيَّن خواصّها (٦) ، ويُمكن تقديرُ مدى دراسته الواسعة للحياة ، وأمراض القَلب ، واطلاعه الواسع على نفسيَّة الإنسان بما قد ذكره في

(١) زاد المعاد: ١/٤٦٦.

(٢) اقرأ «فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد» ١/٤٦٥ ـ ١/٤٨٢.

(٣) زاد المعاد: ١/٤٨٣ ـ ١/٥١٨.

(٤) المرجع السابق: ١/٥١٨ ـ ٢/١٤١.

(٥) المرجع السابق: ٢/١٤١.

(٦) المرجع السابق: ٢/٩٨.

باب الأمراض والمعالجات من مَرض العشق، والحُبِّ وعلاجِه، وحقيقة المحبة وأسبابها الطبعية، وأقسامها ودرجاتها، ثم علاجها والتدبير لها [١].

ولا شَكَّ أن الحقيقة ما ذكره شيخُ الإسلام ولي الله الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» عن هذا الطب النبوي من أنَّ مكانة هذا الطب ليستْ تبليغيةً، ولا تَشريعيةً، وإنما يُبتنى على تجاربه ﷺ وعاداتِه، وتجارب العرب، وعاداتهم [٢].

وعلى كل فإنَّ لمُعَظِّمي أقوال النبي ﷺ والمعجَبين بتوجيهاته في كل فَنٍّ عن إيمان ويقين معلوماتٌ قيمة في هذا الجزء من الكتاب.

ولمَّا فرغ من بيان ذلك التفتَ إلى أحكام النبي ﷺ في القضايا، واستطاع أن يجمع ذخيرة غاليةً واسعة لأبواب الفقه المختلفة، وكأنه ألَّف كتاباً للفقه يُبنى على الأحاديث، والأحكام، والأقضية [٣].

وإنَّ هذا الكتاب يتضمن عدا هذه الفصول والأبواب تحقيقات ولطائفَ تفسيرية، ونحوية، وتاريخية، وكلامية قيِّمة تتفرَّق في ثنايا ألف صفحة من الكتاب.

وممَّا يُنتقد في هذا الكتاب هو أنه خليطٌ للعلوم الإسلامية كلِّها من السيرة، والحديث، والفقه، والتاريخ، والكلام، والنحو، والصرف، ولعلَّ نفسية أستاذه وشيخِه كانت تعمل فيه لدى تأليف هذه الكتاب، فإنه لا يلبث إلا وينتهز أضعفَ مناسبة للتعرض في مسألة كلامية أو نحوية ثم يتفرّغ للكلام عنها بغاية من الشرح والتفصيل.

فإنْ أُفرز من هذا الكتاب كلُّ موضعٍ على حدة تسنَّت الاستفادةُ منه، ولكنه على الرَّغم من ذلك يُعتبر من أهم كتب الإسلام الذي يَقوم مقام مكتبة بأسرها،

---

(١) زاد المعاد: ٩٢ ـ ٢/٩٧.
(٢) حجة الله البالغة: باب «بيان أقسام علوم النبي ﷺ» ص ١/١٠٢ الطبعة المصرية.
(٣) المرجع السابق: ٢/١٤٢ إلى آخر الكتاب.

وإنَّ وجوده كوجُود عالمٍ كثير الفنون ، متبحِّرٍ ومحقِّقٍ في العلوم ، نال به آلافٌ مؤلَّفة من طُلاَّب الحق ومتبعي السنة هداية دينية ، وغذاء روحياً ، وحلاوة إيمانية .

وفاتُه:

توفِّي في ٢٣ رجب عام ٧٥١ هـ يوم الأربعاء ليلاً ، وصُلِّي عليه في اليوم التالي بعد صلاة الظهر في المسجد الجامع[١] ، ودُفن في مقبرة الباب الصغير[٢] ، رحمه الله ، ورفع درجاته!

* * *

---

(١) [أي الجامع الأموي].

(٢) [يقع قبره على يسار الشارع خارج إحاطة المقبرة].

الفصل الثاني

الحافظ ابنُ عَبْدِ الهادي المَقْدَسِي

ومِن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذين حصل لهم تبحُّرٌ في علم الحديث والسنة ، وقضوا جُلَّ حياتهم في خِدمة السنة ونشرِها وفي الإصلاح والدعوة ، والذين حازوا قَصْبَ السبق والميزة والشهرة عدا الحافِظ ابنِ القيِّم؛ هم:

ابنُ عبد الهادي ، وابنُ كثير ، وابن رجبٍ بوجهٍ خاصٍ.

عاشَ ابنُ عبد الهادي أقلَّ من ٤٠ سنة ، ويُقدّر مؤلِّفو السير والتاريخ: أنَّه لو امتدتَّ به الحياة لكان من كبارِ علماء عصره ، وفاقَ كثيراً من العظماء ، وقد شَهد بذلك الصفدي بقوله: «لو عاشَ؛ لكان آية».

وذكره العلامة الذهبي في «معجمه» فقال:

«هو الفَقيه ، البارع ، المقرىء ، المجوِّد ، المحدِّث ، الحافظ ، النحوي الحاذق ، ذو الفنون ، كَتَبَ عنِّي ، واستفدتُ منه»[1].

ويقول عنه العلاَّمة أبو الحجاج المِزِّي اعترافاً بفضله: «ما التقيتُ به إلا واستفدتُ منه»[2].

---

(١) الدرر الكامنة: ج٣ ، ص ٣٢٢.

(٢) المرجع السابق: ٣ ص ٣٣٢.

ونَفسُ هذا الاعتراف مَروِيٌّ عن العلامة الذهبي أيضاً [١].

ويقول الصَّفديُّ:

«كنتُ إذا لقيتُه؛ سألتُه عن مسائلَ أدبية، وفوائد عربية، فينحَدِر كالسيل».

ويتحدَّث عنه الحافظُ ابن كثير (صاحب التاريخ والتفسير) فيقول:

«حَصَّل من العُلوم ما لا يَبلُغه الشيوخ الكبار، وتفنَّن في الحديث، والنَّحو، والتصريف، والفِقه، والتفسير، والأصْلَين [٢]، والتاريخ، والقراءاتِ.

وله مجاميعُ، وتآليف مفيدة كثيرة.

وكان حافظاً جَيِّداً لأسماء الرجال، وطُرق الحديث، عارفاً بالجَرح والتعديل، بصيراً بِعِلَل الحديث، حسَنَ الفهم له، جَيِّد المذاكرة، صحيحَ الذهن، مستقيماً على طريقة السَّلَف، واتباعِ الكتاب والسنة، مُثابراً على فعل الخيرات» [٣].

حَياتُه بإيجاز:

هو شَمسُ الدين محمَّد الملقَّب بالعماد، يُكنى أبا عبد الله، وأبا العباس، عُرِف بوجه عام بابنِ عبد الهادي، ونسبه هكذا:

محمَّد بنُ عبد الهادي بنُ عبد الحميد بنِ عبد الهادي بن يوسف بنِ محمد بن قُدامة، والموطن الأصيل لأسرته هو بيت المقدس، ولكنها انتقلت إلى دمشق، وسكنتْ في الصالحية بدمشق حين وُلد ابن عبد الهادي عام ٧٠٤هـ [٤].

قرأ القرآن بقراءات مختلفة، وقرأ الحديثَ، ومُعظمَ كُتب الدرس على القاضي أبي الفضل، سليمانَ بن حمزة، وأبي بكر بن عبد الدائم،

(١) المرجع السابق: ج ٣، ص ٣٢٢.
(٢) أي أصول العلوم الشريعة كالحديث والفقه.
(٣) البداية والنهاية: ج ١٤، ص ٢١٠.
(٤) ابن رجب، ولكن عند ابن كثير ٧٠٥هـ.

وعيسى بن مطعم الحجَّار ، وزينبَ بنت الكمال ، وغيرهم من الشيوخ الكبار ، وأساتذة الفنِّ.

واشتغل بالحديث وفنونه ، وبَرع في الرجال وعِلَل الحديث بصفة خاصة ، وتَفقَّه في المذاهب.

كما كانتْ له براعةٌ كاملةٌ في الأصلين ، وعلوم العربية ، يقول ابنُ رجب:

«ولازَم الشيخ تقيَّ الدين ابن تيميَّة مدَّة ، وقرأ عليه قِطعة من الأربعين في أصول الدين للرَّازي»[١].

أمَّا شيخُه في الفقه فهو الشيخ نَجم الدين الحرَّاني ، ولازم المحدِّث الشهير والعالم الكبير الحافظ أبا الحجاج المِزِّي عشر سنين ، وتلقى العلمَ من العلامة الذهبي أيضاً ، وقد اعترف الذهبي بتفوقه في الرِّجال ، والعلل ، والعلوم الأخرى ، وتولَّى رئاسة التدريس في المدرسة الصدرية[٢] ، والضِّيائية[٣] لمدة طويلة ، كما ذكره الحسيني.

تحدَّث ابنُ كثير عن وفاته ، فذكر: أنَّـه بَقي مصاباً بجرح ، وحُمَّى السّل نحو ثلاثة أشهر ، ثم اشتدَّ هذا المرض ، وكَثُر الإسهال حتى توفي يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى عام ٧٤٤ هـ قبل أذان العصر.

وقال ابنُ كثير: أخبرني والدهُ بالكلمات الأخيرة التي انطلق بها لسانه ، فكانت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، اللهم اجعلني من التَّوابين واجعلني من المتطهرين».

---

(١) [للإمام فخر الدين الرازي ، وقد طبع بتحقيق الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد في المكتبة الأزهرية بالقاهرة].

(٢) انظر حاشية صفحة (٣٠٤).

(٣) [بناها الحافظُ الفقيهُ ضياء الدين محمد أبو عبد الله المقدسي الحنبلي سنة ٦٢٠ هـ ، لكنها لم تَدُمْ طويلاً بسبب الكوارث التي حَلَّتْ بها من أهل البلد والغزاة على حدٍّ سواء ، وُجِد شرقي جامع الحنابلة أثرٌ واضحٌ لمدرسة وبداخله دارٌ للسكن ، ربَّما كانت هي الضيائية (خطط دمشق: ص ٢٣٠ ـ ٣٤٠ م)].

وصُلي عليه اليوم التالي في الجامع المظفَّري[1] حضر صلاته جميعُ أعيان البلد من القضاة ، والعلماء ، والحكام ، والتجار ، والعامة من الناس ، يقول ابن كثير :

«وكانت جنازَتهُ حافلة مليحَة عليها ضَوء ونور ، ودُفن في الروضة بجوار السيف ابن المجد» [2] .

مُؤلفاتـه:

خلَّف ابن عبد الهادي عَدداً وجيهاً من مؤلفاته بالرغم من قِصر عمره ، وهي تحتلُّ أهمية كُبرى لغزارة ، مَوادِّها ، وجودة تأليفها ، وعدد صفحاتها [3] ، ويحتوي عددٌ منها على عِدة مجلدات ، ونذكر أهم مؤلفاته من بين ما ذكره الحافظ ابن رجب في ذيل «طبقات الحنابلة» :

١ ـ الأحكام الكبرى (٧ مجلدات) .

٢ ـ المحرر في الأحكام[4] (مجلد واحد) .

٣ ـ كتاب العمدة في الحفاظ (مجلَّدان) .

٤ ـ تعليقة للثقات (مجلدان) .

٥ ـ أحاديث الصلاة على النبي ﷺ (مجلد واحد) .

٦ ـ الإعلام في ذكر مشايخ الأئمة الأعلام ، أصحاب الكتب الستة (أجزاء متعددة) .

٧ ـ كتاب ضخم في مولد النبي ﷺ .

---

(١) [يقع في حيِّ الصالحية ، ويعرف اليوم بجامع الحنابلة].

(٢) البداية والنهاية: ج ١٤ ص ٢١٠.

(٣) ويشبه في ذلك بعالم الهند الكبير الشيخ العلامة عبد الحي عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي ١٣٠٤ هـ الذي عاش ٣٩ سنة فقط، ولكن خلف ذخيرةً كبيرةً ومفيدةً جداً من مؤلفاته [والتي نشرها فيما بعد العلاَّمةُ المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة بتحقيقه النفيس وتعليقاته القيمة].

(٤) وهو مطبوع.

٨ ـ تعليقة على سنن البيهقي (مجلدان).
٩ ـ ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية (مجلد واحد).
١٠ ـ منتقى من تهذيب الكمال للمزي (٥ مجلدات).
١١ ـ منتخب من مسند الإمام أحمد (مجلدان).
١٢ ـ منتخب من البيهقي.
١٣ ـ منتخب من سنن أبي داود.
١٤ ـ شرح الألفية لابن مالك (مجلد واحد).
١٥ ـ نقده لمؤلفات الذهبي والتعقب عليه (في أجزاء متعددة).
١٦ ـ الردُّ على أبي حيان النحوي.

عدا ما له من رسائل مستقلة تطول قائمتها.

ولمَّا ألَّف العلامةُ تقيُّ الدين ابنُ السّبكي في الردِّ على مسألة الزيارة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» تناوله العلامة ابن عبد الهادي بالنقد والتحقيق في ضوء الحديث، وألف كتاباً باسم «الصارم المنكي في الرد على السبكي» وهو خيرُ دليلٍ على براعته العلمية، وسَعة اطِّلاعه على السنة، ورجال الحديث [١].

* * *

(١) طُبع هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٣١٩ في المطبعة الخيرية بمصر.

الفصل الثالث

الحافظ ابن كثير

اسمه ونسبه ومكانته العلمية:

هو عمادُ الدين إسماعيلُ بنُ عمر، يُكنى أبا الفداء، ويُعرف بابن كثير، كان قَيْسِيَّ الأصل.

وُلد في عام ٧٠١هـ بقرية «مجيد» في نواحي بُصرى الشام، حيث كان والده خطيباً، وانتقل إلى دمشق في عام ٧٠٦هـ مع والده، وقرأ الفقهَ على الشيخ بُرهان الدين الفِزَاري وغيره من الفقهاء، وسمع الحديثَ ورواه عن ابن السّويدي، والقاسم ابن عساكر، وغيرهما من شيوخ الحديث، وهو من أَخصِّ تلاميذ العلامة المِزِّي، وكان صهرَه أيضاً، وأكثرَ رواية عنه، اشتغل بالفتاوى، والتدريس، والمناظرة، وبرع في الفقه، والتفسير، والنحو، توسَّع في فن الرجال، وعلل الحديث، واشتهر فيها بدقة نظره، وسَعة اطلاعه، دَرَّس في مدرسة «أم الصالح» كما درس في «المدرسة التَّنْكِيْزِيَة»[1] بعد وفاة العلاَّمة الذهبي، وكان الذهبي يعترف بفضله وعلمه، يقول:

(١) [هي دار القرآن والحديث التنكيزيّة، بناها تنكز عام ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩ م، يقع في شرقي حمام النُزورية، وهي اليوم مدرسة خاصة للأطفال].

«هو فَقيه مُتقنٌ ، ومُحدِّث مُحقِّق ، ومُفَسِّر نَقَّاد ، وله تصانيفُ مفيدة».

وأمَّا الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ فكان معجَباً به ، يقول:

«كان كثيرَ الاستحضار ، وسارت تصانيفُه في البلاد في حياته ، وانتفع به الناسُ بعد وفاته».

وبالرَّغم من أنَّه شافعيُّ المذهب ، فإنه كان شديدَ الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، ومُعترفاً بإمامته وعظَمته ، وقد تَتلمذ عليه ، يقول عنهُ ابن حجر: «أخذَ عن ابن تيميَّة ، ففُتن بحبِّه ، وامتُحن بسببه» ، وقد اهتَّم بذكر سيرته بغاية من التفصيل ، والشغف ، ودافعَ عنه دفاعاً كاملاً في كتابه «البداية والنهاية» الذي استفدنا منه في أكثر المواضع من كتابنا هذا الذي يحتوي على حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومِن مُؤلَّفات ابن كثير(١):

١ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: في خمسة مجلدات.

٢ ـ الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن.

٣ ـ تخريج أدلة التنبيه.

٤ ـ مسند الشيخين.

٥ ـ علوم الحديث.

٦ ـ طبقات الشافعية.

وكان قد بدأ بتأليف كتاب مبسوط مُفصَّل في الأحكام ، ولكنه ما تمَّ ، وقد

---

(١) [وقد طبعت جميع هذه المؤلفات محقَّقةً].

دوَّن مُسند الإمام أحمد بترتيب الحروف ، وضمَّنه زوائد الطبراني ، وابن أبي يعلى .

إلَّا أن مأثرته التأليفية تتلخَّص في كتابين اثنين نالا حظوةً ، وقبولاً ، ولاتزال الأوساط العلمية تستفيد منهما إلى الآن .

١ ـ تفسير القرآن العظيم:

فله كتاب في تفسير القرآن أسَّسه على المنقولات والروايات ، يُعتبر أكثر قبولاً وثِقة بالنسبة إلى مؤلفاته الأخرى ، يقول عنه العلامة السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلَّف مثله؛ إذ أنَّ الكتب التي ألَّفها الناسُ في التفسير قبل ذلك كانت تَنْقصها الأمانة العلمية ، والاختيار الصحيح للأحاديث ، وكانت تزخر بالأحاديث الضعيفة ، والإسرائيليات ، ولكن الحافظ ابن كثير كان مُحدِّثاً ناضجاً ، فألَّف تفسيره على طريق المحدِّثين ، وإنْ لم يستطع أن يُراعي فيه المستوى الرفيع في إدراج الروايات كما كان يُرجى منه ، وتوسَّع في ذلك بعض الشيء ، وأورد فيه جزءاً من الإسرائيليات ، ولكنَّ الحق يقال: إنَّ تفسيره هذا ـ على رغم كلِّ ذلك ـ أكثرُ التفاسير ثِقةً ، وإفادةً من وُجهة نظر التحديث ، وقد أصدر منذ مدة أحدُ علماء مصر الأفاضل المعاصرين الأستاذ أحمد محمد شاكر مُلخَّصاً لتفسير ابن كثير باسم «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»[1] الذي حذف فيه الأحاديث الضعيفة ، والإسرائيليات غير الموثوق بها ، والأقوال المتكررة ، والأسانيد ، والمباحث الكلامية الطويلة والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، وكل ذلك مع الإبقاء على محاسن الكتاب ، ومواضع الجمال فيه .

---

(١) [وكان العلاَّمة محمد شاكر ينوي إخراجَ هذا الكتاب في صورته الأصلية محقَّقاً ، مهذَّباً ، منقَّحاً ومصَّححاً في طبعة علمية متقنة بعد فراغه من الاختصار ، ولكن وافاه الأجلُ ، فلم يُنشر من مختصره إلاَّ أقلُّ من نصف هذا التفسير الذي يساوي خمس مجلَّدات ، بلغ فيها العلامةُ إلى الآية الثامنة عن سورة الأنفال ، وهي توافق في طبعة الحلبي من التفسير ٢/ ٢٨٩].

٢ ـ البداية والنهاية:

وثاني كُتبه المهمَّة الذي نال قبولاً ، وإعجاباً لدى الأوساط العلمية كلِّها : «البداية والنهاية» الذي صدر من مصر عام ١٣٥١هـ في أربعة عشر مجلَّداً[١] وهو يحتوي ـ على عادة المؤرِّخين العرب ـ على التاريخ ، من أحداث بدء الخليقة إلى أحداث عام ٧٦٧ هـ.

والمعلومُ : أنَّ تاريخ العلامة ابن الأثير المعروف «بالكامل» ينتهي بأحداث عام ٦٢٨هـ فكان كتاب «البداية والنهاية» زيادةً عليه بأحداث وتاريخ قرن واحد وتسع وثلاثين سنة ، وإنَّ هذا العصر ذو أهمية بالغة من ناحية الأحداث التاريخية من جراء الهجوم التتاري ، وخطورة القرن الثامن الهجري ، فكان هذا الكتابُ لأجل ذلك ، ولِثقته ، وتفاصيله التاريخية مرجع أكثر المؤرِّخين.

تُوفِّي الحافظ ابن كثير في شعبان عام ٧٧٤هـ ودُفن بمقبرة الصوفية بدمشق [٢].

* * *

---

(١) [سيصدر من دار ابن كثير بدمشق طبعةٌ محقَّقةٌ لهذا الكتاب بغاية الدقة لأوَّل مرَّةٍ بإشراف العلاَّمة المحدِّث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط].

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ : للحافظ شمس الدين أبي المحاسن الحسيني و«ذيل طبقات الحفاظ» للسيوطي.

الفصل الرابع

الحافظُ ابنُ رَجب الحنبلي[١]

وترجَمتُه باختصار

هو عَبدُ الرحمن بن أحمدَ بن رجب، ونَسبُه هكذا: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود، وكان موطنه الأصيل في بغداد، حيث وُلد في ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ وفي عام ٧٤٤ هـ سافر إلى دمشق مع والده وهو صغيرٌ، وسمع الحديث عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز عن إبراهيم بن العطار وغيرهما من شيوخ الحديث، وروى الحديث في مصر عن أبي الفتح المَيْدُومي، وأبي الحرم القَلانسي، وغيرهما، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنه اشتغل بالحديث، وأكثرَ روايته، حتى بَرع في فَنِّ الحديث.

وقد تحدَّث عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين بن فهد المكِّي المتوفى سنة ٨٧١ هـ وقال في «لحظ الألحاظ» هامش «تذكرة الحفاظ»: «الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العُمدة، أحد العلماء الزُّهاد، والأئمة العباد، مفيد

(١) على أنَّ الحافظ ابن رجب ليس تلميذ شيخ الإسلام عن طريق مباشر، وقد وُلد بعد وفاته بثماني سنوات، ولكنه تلميذ تلميذه النابغة الحافظ ابن القيِّم ومعجب بهما جميعاً، وهو يعتبر من رجال شيخ الإسلام، ومقلِّداً له في كل شيء سوى عدة مسائل.

المحدثين، وَاعظُ المسلمين» [١] ، وهو يُشيدُ بِه عندما يذكر ترجمته ، ويقول: «كان إمامًا ورعاً زاهداً ، وضعَ الله حُبَّـه في القلوب ، أجمع الناسُ كلهم على صلاحه وفَضْلِه ، مجالسُ وعظِه عامةٌ ، وذات فائدة وتأثير كبيرين» [٢] .

ويقول الشِّهاب ابن الحجِّي عن فَضْلِه العلمي ، «كان مُحقِّقاً ذا بَصيرة فائقة في فن الحديث ، وكان أكثرَ معاصريه اطِّلاعاً على عِلل الحديث وطرقه ، وإنَّ أكثر علماء الحنابلة في عصرنا من تلاميذه».

تُوفِّي في رجب سنة ٧٩٥هـ ودفن في الباب الصغير بدمشق ، ويقال إنه جاء إلى حفَّارٍ فقال له: احفر لي هنا لَحْداً وأشار إلى بقعة ، قال الحفارُ: فحفرتُ له ، فنَزل فيه فأعجبه ، واضطجع ، وقال: هذا جيد ، فمات بعد أيام ، فدُفن فيه» [٣] .

مُولَّفاته:

ومِن مُؤلَّفاته:

شرح «لجامع الترمذي» في نحو عشرين مجلَّداً.

وشرح جزء من «صحيح البخاري» ، وكان قد سَمَّى شَرحه للبخاري «فتح الباري» ولكنه لم يكتمل وصل إلى كتاب الجنائز.

وذيل على «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى [٤] .

وكتاب باسم «اللطائف في وظائف الأيام» بأسلوب الوعظ ، ويشتمل على الفوائد ، والقواعد الفقهية.

وشرح «الأربعين» للإمام النووي وكان يضم ٤٢ حديثاً فزاد إليها ثمانية

---

(١) لحظ الألحاظ: ص١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨١.

(٣) الدرر الكامنة: ج ٢ ، ص ٣٢٢.

(٤) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب في مكتبة ندوة العلماء بالهند، وقد صدر مطبوعاً في دمشق منذ سنوات.

أحاديث ، وقد صَدر هذا الشرح باسم «جامع العلوم والحِكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم» في عام ١٣٤٦ هـ من مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

وشرْحٌ مستقل آخر لحديث «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم. . . إلخ»[١].

ورسالة «فضل علم السلف على الخلف» وقد طُبعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة ، ونالت رواجاً.

وتتجلى في مؤلفاته رُوح الحافظ ابن القيم الإصلاحية ، والدَّعوية ، وحَلاوةُ أسلوبه ، وطَلاوته.

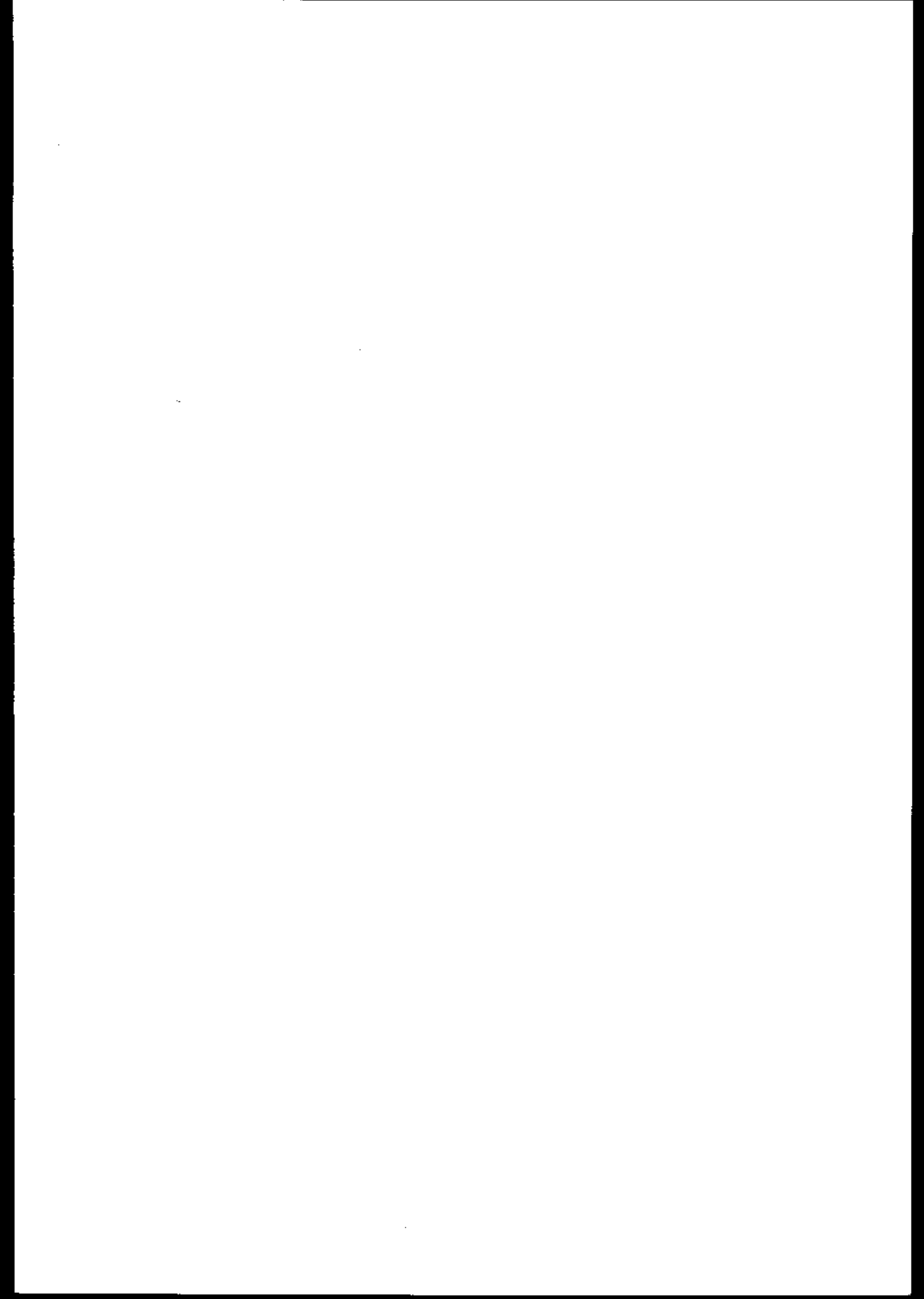
وهناك عددٌ وجيهٌ من العلماء في القرن الثامن والتاسع عدا تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلاميذِ تلاميذه المذكورين ممن لا يُصرِّح التاريخ بأنهم تلاميذ مدرسة شيخ الإسلام؛ إلا أن مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الإسلام ، وروحه ، وعلمه ، ودعوته ، وسواء استفاد هؤلاء العلماء من تلاميذ شيخ الإسلام ومؤلفاته ، أم لم يستفيدوا ، ولكنهم لاتحاد ذوقهم ، وفِكرهم جديرون بالاعتبار في وَصْف تلاميذه ، والمتخرجين من مدرسته.

وأَخصُّ بالذكر من بين هذه الشخصيات مؤلِّف كتاب «الموافقات» البارع العلامة أبا إسحاق الشَّاطِبي (المتوفى ٧٩٠ هـ) الذي يبدو كتابه «الاعتصام» حَلْقة من هذه السلسلة الإصلاحية التي كان قد بدأها شيخُ الإسلام في عصره ، وهو كتاب جَيِّد في موضوع السنة والبدعة ، ويمتاز بموادِّه الغزيرة ، وبحوثه الأصولية.

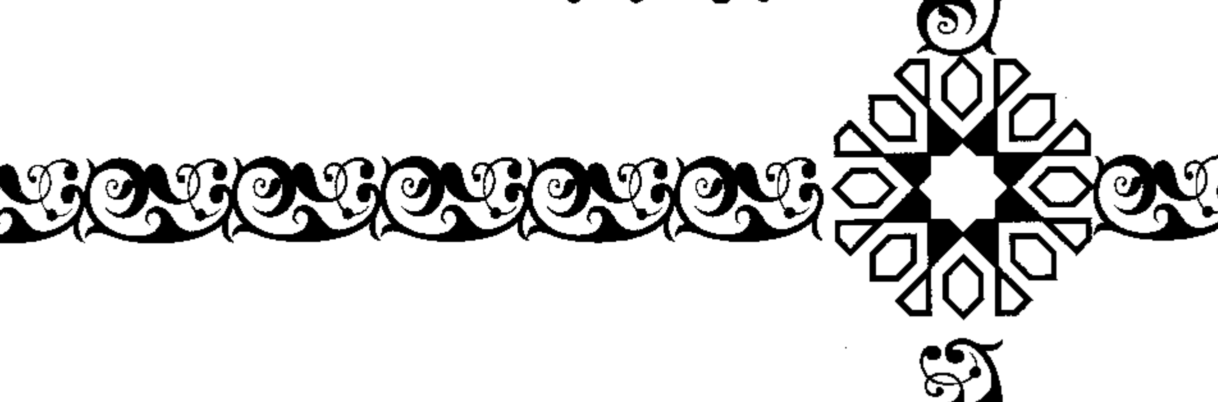
* * *

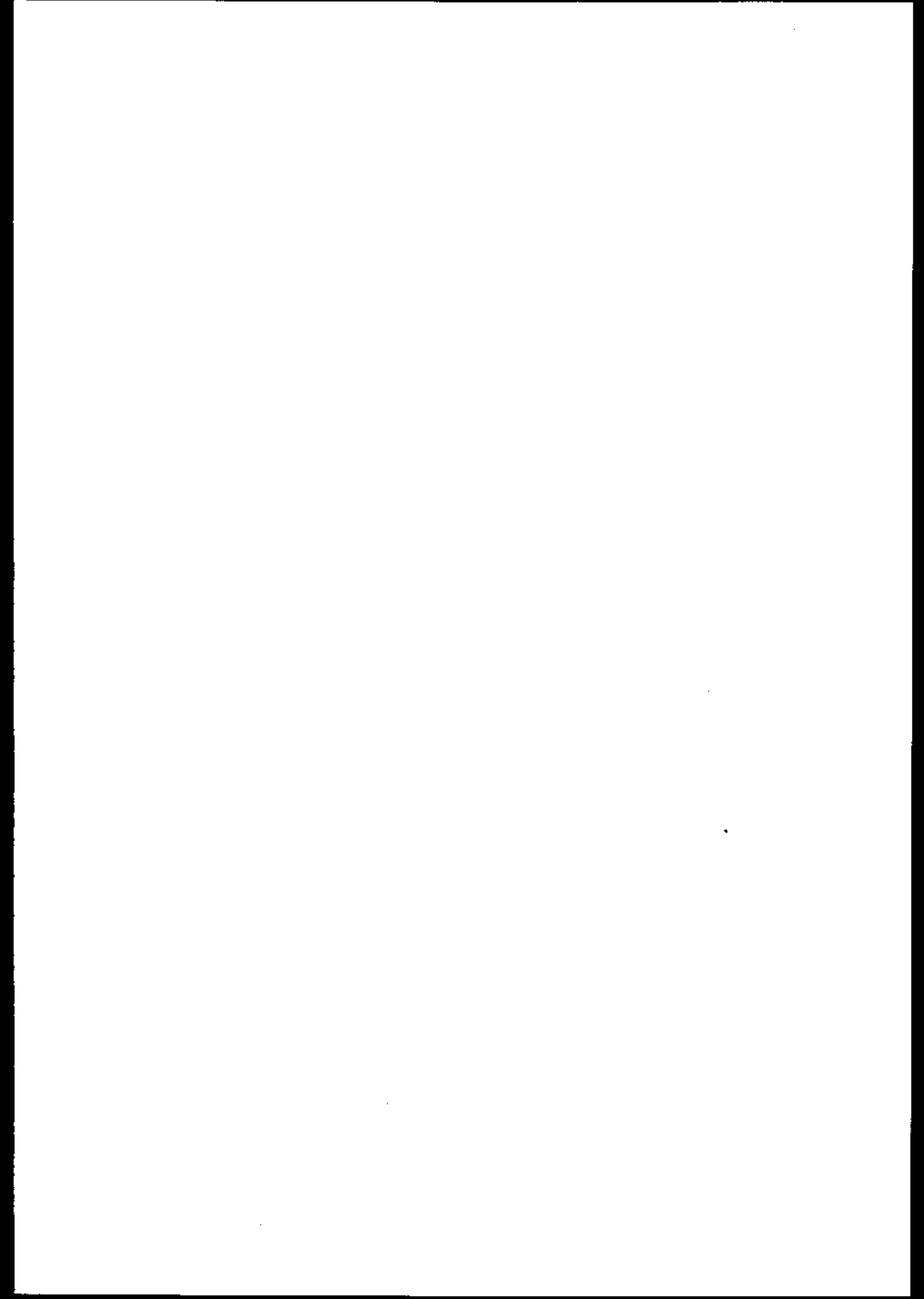
---

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الزهد ، باب حديث «ما ذئبان جائعان. . .» برقم (٢٣٧٦) ، وابن حبان في الصحيح (١/ ٢٤) برقم (٣٢٢٨) ، والدارمي في السنن ، في كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان ، برقم (٢٧٣٠) ، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٦) برقم (١٥٨٢٢) وغيرهم من حديث ابن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه].



الفهارس العلمية





فهرس الآيات القرآنيّة

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث رقم الصفحة

ـ أ ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- و -

- ي -

* * *

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

فهرس القوافي

* * *

فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

- ج -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

* * *

فهرس الأعلام

- غ -

- ف -

* * *

فهرس الأمكنة والبقاع والبلدان

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الإمام السرهنديّ
الإمام الدهلويّ

تقديم

الدكتور مصطفى السباعي الدكتور مصطفى الخن

الجزء الثالث - الجزء الرابع



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام السَّرْهَنْدِي

(٩٧١ـ١٠٣٤ هـ)

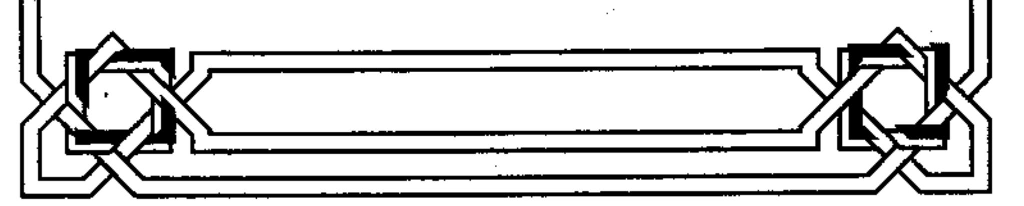
الجزء الثالث

تعريب

الأستاذ سلمان الحُسيني النّدْوي

أستاذ الحديث بكلية الشريعة وأصول الدين

في دار العلوم ـ ندوة العلماء (لكهنؤ)



هذا الكتاب

رأى المؤلِّف أنَّه إذا تمَّ هذا العملُ (الكتاب) بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة فإنَّه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدَّر الله تعالى ـ هديةً قيمةً أو رسالةً حيةً للقرن الخامس عشر الهجري ، ووثيقةً تاريخيةً لمنجزات عبدٍ صالحٍ من عباد الله المخلصين ، قام بها في دأبٍ وصمتٍ ، وتواضعٍ وخشوعٍ ، ولم يقتصر تأثيرُها على قرنٍ واحدٍ ، بل امتدَّ حتى شمل الألفَ الثاني كلَّه .

وهي تحملُ لهذا القرن الذي نفتتحه ـ والذي تغيَّرت فيه الأوضاعُ تغيُّراً كبيراً ـ درساً بالغَ العظة والاستفادة[1] .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

(١) من مقدِّمة الجزء الثالث لهذا الكتاب .

بين يدي الكتاب

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاةُ والسلام على سيد المرسلين وخاتَم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعدُ فإنَّ الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ (٣٥ أو ١٩٣٦ م) حين أوصاني أخي ومُربِّيَّ الدكتور السيد عبد العلي الحسني ـ رحمه الله ـ أمينُ ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بقراءة «رسائل الإمام الرَّباني مجدِّد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي» وقد كنتُ ـ إذ ذاك ـ في الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عُمري ، وكنتُ انخرطتُ ـ حديثاً ـ في سِلك المدرِّسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاهٌ كبيرٌ إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدينية ، وحقيقةِ الإحسان .

كما لم أكن على اطِّلاع على مُصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلبُ عليَّ الذوقُ الأدبيُّ ، وغَرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنُت وَلوعـاً بالكتب التي كانت تَصدُر من دُوْر النَّشر والمطابع الرئيسية في القاهرةِ وبيروتَ بطباعـة أنيقـة ، وفي مَظهر جميل جذّاب .

وقد كان أخي الأكبر ـ الذي كنتُ تَربَّيتُ في حِجره ، ونشأت في عَطفه وكَنَفه ، نشأة علمية وعقلية ـ يعرف هذه النَّزعة الموجودة عندي معرفةً جيدةً ، ولكن لعلَّه بإشارته عليَّ بقراءة تلك المجموعَة مِن الرسائل للإمام السَّرهندي

كان يُريد أن يذكِّرني بما امتازت به أُسرتي ، التي أنتمي إليها ، من أصالةٍ في الفكر ، وعُمق في البحث ، وتقديرٍ للقِيَم الروحية ، والمُثل الخُلقية .

وكانتْ أُسرتي منذ ثلاثةِ قرون ـ على أقلِّ تقدير ـ ذاتَ اتصالٍ وثيق ـ فكرياً ورُوحياً ـ مع أُسرةِ الإمام السَّرهندي ـ والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بوليِّ الله الدّهلوي .

وكانتْ عِندَنا في مكتبة والدي نُسخَةٌ عتيقةٌ من مجموعة «رسائل الإمام السَّرْهنديّ» صدَرتْ من إحدى المطابع الهندية ، وكانتْ هذه النُّسخة تشتمل على ثلاث مجلدات ، فبدأتُ بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبِدافع الطاعة له .

إلاَّ أنني لم أستطع المُضِيَّ في الطريق ، ولم أَصْبِر معها طويلاً ، حتى تركتُ الكتاب ، وقد كانت أكبَرُ مُعاناتي ، من الرسائل التي كتبها الإمامُ إلى شيخه ، ومُرَبّيه الروحي الشيخ الكبير عبد الباقي البَدْخَشِي الدِّهْلوي النقشبندي ، والتي شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية في مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكنَّ إلحاح أخي الأكبر وتوجيهه ـ باستمرار ـ إلى قراءة هـذه الرسائل ، وقراءة «إزالة الخفاء» للإمام ولي الله الدِّهلوي ، و«الصراط المستقيم» للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و«منصب الإمامة» للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دَفعني إلى اجتياز هذه العَقبة ، مهما كلَّف ذلك من مَشقةٍ وعَنَتٍ ، وهاجَتِ الغِيَر في نفسي ، وتحمَّسْتُ وقلـت: لا يتسنَّى لـي إهمال وَصيَّـة أخي الأكبـر ، وهو مَنْ هو في عَطفه وحنانه ، ثم يُسبِّب هذا الإهمالُ الحرمان من قـراءة كتاب مبارك ، عُـرِفَ كبارُ العلماء والمشـايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالَفني التوفيقُ فمضيتُ ، وكلما ازددْتُ قراءة لهذه الرسائل ازددْتُ رغبة فيها وتَذوُّقاً لها ، وبدأت أُسيغ الموضوع في حدود علمي وقُدرتي على الفهم ، حتى أَخذ الكتاب بمجامع قلبي وأصبحتُ له أسيراً ، أَشعُر فيه بلذَّة غريبة ، وطعم لذيذ ، لا أكاد أَجده في الكتب الأدبية الممتعة .

وكانتْ هذه الفترة الزمنية من أَدقّ فترات حياتي ، فقد كان الزمن زمَن المراهقة الفكرية وشَرْخ الشباب ، والصّراع النفسي والعقلي ، لأسباب يطول ذكرها ، اعتوَرتني فيها بعض الابتلاءات القاسية ، فكان الكتاب في كلِّ ذلك خيرَ مُرشِد وموجِّه ، فقد كنت أشعر أثناء قراءة الكتاب ، بِسَكينةٍ تَغشاني ، وتملأُ جوانحي ، وتَغْمرُ قلبي ، لعلَّها كانت جديدة عليَّ تماماً ، لم يَسْبِقْ لها في حياتي مثيلٌ.

وقد انتهى هذا السَّير الذي كنت أسير في الكتاب لمجرَّد طاعةِ أخي الأكبر ، والذي كان يَغلب عليه دافع الغيرة واتِّباع الأمر ، إلى سرور ونَشوة ، ومُتعة روحية.

ثم بعد مُدة يسيرةٍ من الزمن بدأتُ بقراءة هذا الكتاب مرةً ثانية ، أقصدُ فيها جمعَ ما تكرر وانتثر في مواضع مختلفة من الكتاب في موضوع واحد ، وفي مقصدٍ من المقاصد التي يتناولها الإمامُ ، ووضعَ العناوين لها ، وكانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لموادّ الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشِّرك ، وغير ذلك ، فتتبَّعتُ ما جاء في كلِّ موضوع من هذه المواضيع ، وأشرتُ إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات ، فبحثتُ ـ مثلاً ـ عن المواضع التي طرق فيها الإمامُ موضوعَ النبوة والرسائلَ التي جاء فيها الحديثُ عن السنة والبدعة ، أين تعرَّض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفي أيِّ الرسائل تناول البحث في «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وفي أيِّها وردت الأبحاث العميقة في موضوع «العقل المجرد» و«الكشف المجرد».

وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتَّتابع عدةَ أسابيع تَهيَّأ لديَّ كشفٌ جامع لجميع المواضيع التي تعرَّض لها الإمامُ ، ووضعتُ هذا الكشف في داخل هذه النُّسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المنثورة في الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أنَّ هذا الكتاب استُعير من المكتبة ولم يُعد إليها كما يَقعُ كثيراً ، وكان أَسفي على ذهاب الفهرس الذي أَجهدْتُ في وضعه

نفسي ، أكثرَ بكثير ـ بطبيعة الحال ـ من ذهاب تلك النسخة من الكتاب التي تُستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدَراً مقدوراً.

ثم خطرت فكرةٌ في بالي ، وذلك حوالي ٦٤ ـ ١٣٦٥ هـ (٤٥ ـ ١٩٤٦ م) وهي أن أُرتِّب هذه الرسائل ترتيباً جديداً ، مُراعياً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدِّمها بشرح وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنَّشء الجديد ، بحيث تكون أنفعَ وأشوق للقارىء الجديد ، وتُلقى فيه الأضواء على المآثر التجديدية للإمام السَّرهنديِّ ، وما كان يَتبوَّؤُه في تاريخ الإسلام من مكانةِ الإمامة والاجتهاد.

فشرعتُ في هذا العمل ، وأحبَبْتُ أن أُقدِّم لكل فصلٍ بكلمة تمهيدية تُلَخِّص الفكرة الأساسية ، ولُباب التحقيقات العلمية ، والأبحاثَ الدقيقة المبثوثة في مختلف رسائله ، في موضع واحد ،ثم أُقدِّم مقتبسات الرسائل في تنسيق علمي ، وترتيبٍ موضوعي مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متنَ الرسائل بالفارسية وعلى الجانب الآخر ترجَمتها الأُردية ، وأَذكر في الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية ، وأُخرِّج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدِّمون من كبار العلماء المحقِّقين ، مما يؤيِّد ماذهب إليه الإمام السرهندي ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عَبر القرون والأقطار.

وقد كان هذا العملُ واسعَ النطاق يتطلَّب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوفراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شابٍّ مثلي في مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدَّعوة الشعبية ، والجولات المتصلة.

ولأَجل ذلك لم أستطع أن أُنجزَ من هذا العمل إلاَّ أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ، ثم شغلتني الشواغلُ ، وصرفتني عن هذا العمل الصوارف ، إلاَّ أنَّ ما وفّقتُ إليه من العمل في هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ، ونشره

الصديق الفاضل الشيخ محمد منظور النُّعماني[١] في مجلَّته الإسلامية الشهيرة «الفرقان» في أربع حلقات ما بين ٦٦ ـ ١٣٦٧ هـ.

وبعد أن انقطعتُ عن هذا العمل بأعوام ، حين بدأت بتأليف سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» شعرتُ بضرورة الكتابة في ترجمة حياة الإمام السَّرْهندي بصورةٍ مستقلة ، بدلَ أن أقوم بترتيبٍ جديد لرسائله ، وعَمَل مُرهق في تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تَحتم عليَّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السَّرهندي ، وأصبح لزاماً أن يُحلَّى بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من «رجال الفكر والدعوة» ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفِتن والثورات ، أحوجُ إلى ذلك بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة ، وأن تَنوير منهج الإمام السَّرهندي وحِكمته العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية ، الذين يُسرعون في تحدّي الحكومات والقوى السياسية ، ويُعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتَريُّث ، ويَجرُّونها إلى جبهة معارضة في بداية المرحلة وأول الطريق ، وتَحدُث في طريق الدعوة ، والعمل البنّاء ، عقباتٌ من دون ضرورة شديدةٍ ومبرّرٍ قويٍّ .

إنَّ عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثال العلمي أكثر من كل عصر مضَى ، فكيف كان ـ يا ترى ـ ذاك المنهج الذي استطاع به إنسان أعزل لا يملك حَوْلاً ولا طَوْلاً ، وهو في زاوية من زواياه ، أن يُغيِّر مجرى التاريخ ويُحول وجهة الإمبراطورية المغولية؟ .

لقد استرعى انتباهي ـ أوَّلَ مرة ـ إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديثُ أخي الأكبر ومجالسُه العلمية ، ثم عندما قرأتُ ذلك المقال العلمي المثير الذي دبّجه

---

(١) [أحد أكابر العلماء والدعاة في الهند ، صاحب مؤلفات قيمة بالأردوية ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٩٩٦ م].

يراع العلامة السيد مَناظِر أحسن الكيلاني[1] في مجلة «الفرقان» الشهرية الغراء ، العدد الخاص بالإمام المجدِّد السَّرهندي ، قَوي إيماني بهذه الحقيقة. وأنا بنفسي في كثير من مقالاتي وخُطبي ومحاضراتي[2]، أوضحتُ هذه الحقيقة ، وأَشرتُ إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الرَّباني المؤثِّر ، هو المَنهج المُيسَّرَ الذي حقق من النجاح والتوفيق مالم يُحققه غيره ، وازددتُ ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث.

ولكنِّي كلما فكرتُ في إفرادِ كتابٍ لترجمة هذا الإمام اعترضتْني عقبتان :

أولاهما : أن أيَّ كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندي لا يمكن أن يخلو من إثارة قضية «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» وشرحهما وإفهامهما للنَّشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية «وحدة الشهود» مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لي هذه المهمة الضخمة تكِلُّ عنها قواي ، ويَنصرف عنها قلمي لأمور :

---

(١) [أحد كبار العلماء في الهند ، وأوسعهم ثقافةً وأغزرهم علماً ، كان يمتاز بالذكاء الباهر ، ودقة الاستنتاج ، وتوليد المعاني ، وسيلان القلم ، والاطلاع الواسع على العلوم الدينية ، والتاريخ ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦ م) ، وله مؤلفاتٌ قيمةٌ بالأردوية].

(٢) كالمحاضرة التي ألقاها المؤلف في حفلة تكريم وترحيب، عقدتها جمعية شبان المسلمين في ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ بالقاهرة، حضرها عدد من علماء مصر، وأساتذة الأزهر، وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات، بعنوان «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» [انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدَّعوة» (جمع وإعداد المعتني بهذا الكتاب) (١/ ٣٧٥) ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ]، أو المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان «منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء» [انظر هذه المحاضرة في كتاب «في رحاب الدعوة إلى الله» (إعداد المعتني بهذا الكتاب) ، طبع دار الفارابي بدمشق] في شعبان سنة ١٣٨٩هـ.

منها: أن هذا الموضوع قد تكوّنت فيه مكتبة واسعة لا يَتيسَّر الاختيار منها ، وتلخيصُها واختصارها.

ثم إن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنية التي كثر فيها النزاعُ ، وثار حولها الجدال ، ولا يُمكن دون ذلك الخوض في الموضوع.

أَضِفْ إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية ، أكثرَ منها نظرية وعلمية ، تعتمدُ على أحاسيس ومشاعرَ خاصة ، وتَجَارِب شخصية وليس المؤلِّف منها في عِير ولا نَفير ، كما أن كثيراً من قراء هذا الكتاب لا يَجهلون هذه العلوم فحسب ، بل يَنفُرون منها ، ويَستوحِشون من ذِكرها ، فما كنتُ أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها ، ومَن لي بالظَّفر في هذه المفازة الطويلة؟!.

وإذا تجرَّد الكتاب عن هذه الفصول المهمَّة ـ التي يَعتبرها بعض العلماء مجالاً حقيقياً لتجديده ، ويتركز عندهم فيها سرُّ عظمته ومأثرته التجديدية ـ كيف يُعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته ، وتعريفاً كاملاً بأعماله؟

كان يعترضني ، ويُمسك بعَنان قلمي عن الجريان ، في هذا المجال وجُود مكتبة ضخمة في هذا الموضوع ، وصُدور كُتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى ، لا يتيسَّر للمؤلف زيادةٌ ذاتُ قيمة فيها ، وقد غلبَ على ظنِّه أن كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً في المكتبة الإسلامية.

وبعد طول تفكير وتردُّد ونظر ، انحلَّتِ المُشكلة الأولى ، فقلت: ينبغي أن آخذ بمبدأ «ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جلُّه» وأُقدم على جُلِّ هذه المصطلحات وشرحها مُستعيناً في ذلك بما جاء في كُتب الشُّرَّاح المحقِّقين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ مُحيي الدين بن عربي ، وما جاء في هذه الرسائل نفسِها من إشارات وتفسيرات ، حتى يتيسَّر للقارىء الوُقوف على هذا العلم ـ بصورة إجمالية ـ ومَن أَحب أن يستزيد وساعده التوفيق يَرجعُ إلى المصادر الأساسية ، أو يُراجع العلماء المتخصِّصين في هذا الفن ، والغوَّاصين في

هذا البحر الزاخر ممن رسخوا في هذا العلم ، وتذوَّقوه وفقهوه ، «وقليلٌ ما هم».

أمَّا العقبة الثانية ، فهي النَّظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة التي تكوَّنت في سيرة الإمام السَّرهَندي ، والتعريفُ برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه الجمَّة ، وقد كنتُ أقف حائراً متهيِّباً أمامها ، أستصغر نفسي وأستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشيء جديد ، وقد هَداني لتذليل هذه العقبة المثلُ العربي العلمي «كم ترك الأولُ للآخر».

لقد تناول تجديد الإمام السرهندي وأعماله العظيمة ، الكثيرُ من الكُتَّاب والمؤلِّفين ، وكَتبوا في هذا الموضوعِ الشيءَ الكثير ، ولكن لاَ يزال هناك جوانبُ بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللِّثام ، ومِسك الختام ، ومغامرةٍ جديدة واقتحام.

ثم إنَّ تغيُّر الأساليب ، وطرائق البيان ، وتَغَيُّر الأوضاع والظروف ، والمُثُل والقِيَم ، والمناهج في الإفهام والتعبير ، يَجعل الكتبَ التي أُلِّفت قبل مدة من الزمن ـ في بعض الأحيان ـ في حاجة إلى نقل وتعبير جديد ، كأنَّها كانت مكتوبة بلُغة أخرى ، كما أن كل مؤلِّف له طريقته ومنهجُه في الاستنتاج من الوقائع والاستنباطِ من الأحداث ، ورَبط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة.

ورَأى المؤلِّف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود مُوفَّقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدَّر الله تعالى ـ هَديَّة قيمة ، ورسالة حَيَّة للقرن الخامس عشر الهجري ، ووَثيقة تاريخية لمنجزات عبدٍ صالح من عباد الله المُخلصِين ، قامَ بها في دأب وصمت ، وتواضُع وخُشوع ، ولم يقتصر تأثيرُها على قرن واحد ، بل امتَّد حتى شَمِل الألف الثاني كُلَّه ، وهي تحمل لهذا القَرن الذي نَفْتَتِحُه ، والذي تغيرت فيه الأوضاع تَغيُّراً كبيراً ، درساً للعظة ، والعِبرة ، والاستفادة.

وإنَّ قلبَ المؤلِّف وقلَمه يلهجان بشكر الله تعالى وبحمده ، والثناء عليه

إذ وفّقه بعد فترة طويلة دامت ربع قرن [١] ، لاستئناف سِلسلة «رجال الفكر والدعوة» ، وتأليفِ الجزء الثالث منها ، وقد طَالتْ هذه الفترة حتى خاف المؤلّف أن ينتهي الأجلُ دونَ استكمال هذه السّلسلة الطيبة التي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً.

وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشّخصية الفريدة التي حازت من القبول والعظَمة والصِّيت البعيد في جهوده الموفّقة لتجديد الدين ، ما لمْ يَحظَ به أي مصلح وداعٍ في تاريخ الإصلاح والتجديد في القرون الأخيرة ، حتى إن اشتهاره بـ «مجدِّد الألف الثاني» طَغى على اسمه ، وحلَّ محلَّه ، ولا يعرفه كثير من المثقَّفين إلاَّ بهذا اللقب.

هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كُتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق، ومن النّتائج الباهرة المستمرة، ما ينْدُر نظيرُه في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام، كان ذلك يَحُثُّني على وضع هذا الكتاب.

كما أنَّ إلحاح القُرَّاء لسلسلة «رجال الفكر والدعوة» والمقدِّرين لفضلها بلغ من الجد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إنَّ كثيراً من أصدقاء المؤلِّف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمُّق فيه ، كانوا يُشِيرون عليَّ بأن أتفرّغ لهذا الموضوع تفرغاً كاملاً وأقدّمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى.

ولكنَّ مُعالجة هذا الموضوع لم تَكُنْ بالأمر الميسورِ كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يُغني ـ نظراً إلى مُقتضيات العصر الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبَحثِ والدراسة والتحقيق ـ أن يَقتصر على عرضٍ وتلخيص واختيار ، مما جاء في كُتب التاريخ والتراجم القديمة.

(١) كان صدور المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وهو خاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، ودوره في الإصلاح والتجديد، سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧) وقد تأخر صدور ترجمته بالعربية إلى سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) فكان بين تأليف الجزء الثاني والثالث فترة ثلاث وعشرين سنة.

بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذي عاش فيه الإمام السَّرْهَندي وخلفياته ، والبيئة التي تربَّى فيها ، والأجواءُ التي قام فيها بدوره التجديدي ، عِلمياً وتاريخياً ، وسياسياً وخُلقياً ، واجتماعياً وعقائدياً ، دِراسة ناقدة دقيقة .

فما هي الحركاتُ التي كانت تعمل آنذاك ؟ .

وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقَلَق الديني سائداً في الهند ، وما يُجاوِرها من البلدان ؟ وكيف بَدتْ طلائعُ الثورة على الشريعة والسُّنة في الأوساط العِلمية والعقلية؟ .

وما هي تلك المُؤامرات والدَّسائس التي كانت تُحاك حول الإسلام، وما هي تلك الأماني اللذيذة، والأحلام المعسولة التي رَاودتْ كثيراً من المغامرين الطموحين ، لقُرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامي وغَرستْ شكاً وارتياباً في القلوب المريضة ، والنفوس القَلِقَة ، فكانتْ فتنةُ الفلسفة والعلومِ العقلية في جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولت النَّيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية ، وادَّعت أن العقل والفلسفَة ، والرِّياضيات الشاقة ، والمُجاهدات الرهبانية ، وقَمْعَ الشهوات النفسانية ، كفيلٌ بمعرفة الله معرفة صحيحة ، والوصول إليه ، ونَيل الحُظْوة عنده ، والنجاة من عذابه ، وما جَرَّتْهُ عقيدة «وحدة الوجود»المتطرفة من حُرِّية مطلقة وإلحاد وزندقة ؟ .

زِدْ إلى ذلك أنَّه لم تَعُد في هذا العصر للسنة النبوية ، والشريعة الإلٰهية أهميةٌ ومكانة إلاَّ عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البِدَعُ ـ بصورة عَلنيَّة ـ تارة ، ومُستترة بستار «البدعة الحسنة» أخرى ـ على المجتمع المسلم ، وسرت أدواؤُها في حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يَتشجَّع على مُقاومة فكرة «البدعة الحسنة» .

وأَدهى من كلٍّ ذلك وأَمَرُّ أن الإمبراطورية المغُولية العظيمة ـ التي كانت تلي

الإمبراطورية العثمانية في السَّعة والقوة [١] والمجتمع الكبير الذي كان يعيش تحت ظل هذه الإمبراطورية ـ بدأت وجهتُها تتحول ـ بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامي ، والتمسُّك بأهداب النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفَلسفة البَرْهَمِيَّة ، والحضارة الهندية ، ونظرية «وحدة الديانات» [٢] .

وكان في مُقدَّمة المخطِّطين لهذه السياسة والمدبّرين لهذه المؤامرة ، من يُعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلماً ، وعَبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم «قد أظلَّ العالَمَ الإنساني ـ بما فيه العالم الإسلامي ـ بدخول الألف الثاني ، عصرٌ جديدٌ ، يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقِيادة جديدة فَتية للمجتمع البشري والإسلامي» .

فكيف تغلَّب الإمامُ على هذا الوضع الشَّاذ ، وكيف غيَّر هذا التيار الجارف؟ وكيف كانت عملية «صناعة الرجال» وصُنع العبقريات ، في زاوية بعيدة عن صَخَب الحياة ، وما هي تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التي تخرَّج في مدرستها رجالٌ يتجمَّل بهم التاريخ ، والذين أَلْقوا رحالَهم في مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة لنشاطهم الدَّعَوي وعملهم التربوي ، وانتشر كثير منهم في أفغانستان وتركستان ، وامتدُّوا إلى العراق والشام ، ورحلوا إلى الحجاز وتركيا ، فقاموا بجهود جبّارة ، وحركة قوية مُنتجة لإعلاء كلمة الله ،

---

(١) كانت الإمبراطورية المغولية تلي الإمبراطورية العثمانية في الرقعة، والقوة العسكرية، والوسائل والذخيرة، وكانت حدودها تمتد في بنغال الشرقية إلى حدود أفغانستان الغربية .

(٢) يعني أن الأديان كلها سواء، وكلها طرق موصلة إلى الله، تتحد في الغاية والصحة، وتختلف في بعض المظاهر والشعارات، وتسمي الله بأسماء مختلفة تتفق في الحقيقة والجوهر، ولاتزال لها دعوة قائمة يدين بها ويدعو إليها بعض كبار المفكِّرين والزعماء السياسيين القوميين في الهند، ولعلَّ الزعيم غاندي كان من أصحاب هذه الفكرة .

وإحياء السُّنن المماتة ، والذَّبُّ عن الشريعة الغرَّاء ، ومُقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التي خَلَّفها دعاة «وحدة الوجود» المتطرِّفون ، والصوفية المتحرِّرون المنحرفون ؟ .

وخلاصةُ جُهودهم أَنَّهم نفخوا روحاً جديدة في المجتمع المسلم لعبادة الله وحدَه ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدَّرب ثلاثةَ قرون متوالية ، مُواصِلين جهادهم وجهودهم بقوةِ إرادة ، وعُلُوِّ همة ، وانصراف تامٍّ ، حتى شمل تأثيرهم العالَم الإسلامي كُلَّه ، فلا تجد بُقعة من بقاع العالم الإسلامي إلاَّ وتشهد فيها آثارُهم وثمرات جهودهم ، وحُقَّ لهم أن تُنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، وعندما يشهد المؤرِّخ المُنْصِف هذا التأثير العالمي العظيم ، يَمتلىء قلبه إعجاباً بهذه الشخصية الفريدة ، التي غيَّرت مجرَى التاريخ .

وقد كان ممَّا ينبغي ملاحظته بهذا الصدد والعناية به لمؤرِّخ حاذق ، أمران آخران :

أوَّلهما : أنه لا ينبغي الاقتصار في إلقاء الضوء على عصر الإمام السَّرْهنْدِي ، وتصوير الفترة التي تربع فيها الملك جلال الدين أكبر التَّيْمُوْرِي عرشَ المملكة الهندية العظيمة في كتاب «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البَدَايُوْنِي [١] ، وعلى تلك المراجع التاريخية التي وُصِفت في الأيام الأخيرة

---

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني (م ١٠٠٤) مؤرخاً أميناً، دقيق الملاحظة والنظر، مؤلفاً شجاعاً، لايحابي أحداً، (اقرأ ترجمته في الجزء الخامس من «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله) وقد انتقد الإمبراطور «أكبر» انتقاداً لاذعاً، وصوره تصويراً لا يرضي متملقيه ومطريه، من أنصار التسامح الديني المزعوم الذي اشتهر به «أكبر» والدعوة إلى الدين الإلهي (وبالأصح الأكبري) التي قادها، وتزعمها، من المؤرخين «العلمانيين» الأحرار في هذا العصر، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايوني وكتاباته، وقللوا من قيمة الكتب التي تعتمد على شهاداته ومعلوماته.

وقد رأى المؤلف من المصلحة أن لايعتمد هذا الكتاب الجديد على ماجاء في كتاب =

بأنّها أُلِّفتْ تحت ضغط عواطف دينية حادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبرَ تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كُتب أولئك المؤرِّخين المحايدين أو من تقريرات أولئك المحرِّرين وأصحاب الأقلام في البلاط الملكي ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدَافعون عنه ، ويَدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكانوا مُعْجَبين بدستور الدولة الذي وضعه ، كما أنهم يتغنون بفضله وعبقريته ، ومواهبه الفذَّة .

وينبغي أن نَدرس تلك التطورات والتغييرات ، التي بَدَأتْ من عَهد الملك جهانكير ، وتكامَلَتْ في عهد السلطان أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر ، دراسةً تاريخية ناقدة ، ويُستفاد في ذلك من كُتب مُؤرِّخي الهند المحايدين ، ونُبرهِن على هذه الدعوى في ضوء كتاباتهم ، لا في ضوء كتابات المؤلفين عن الأُسرة المجدِّدية والمؤرِّخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدراسة محايدة منصفة للفريقين .

وكان من اللاّزم أيضاً أن تُستعرض تلك الكُتب والمقالات التي ظهرت في الخمسينيات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السَّرهندي باللغتين الأُردية والإنجليزية في الهند وخارج الهند ، وفي بعض هذه الكتابات تحدَّى المؤلِّفون كثيراً من الحقائق المعروفة ، وأثاروا أسئلة جديدة ، وعَرضوا صورةً ـ لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على مَنهجهم الخاص ـ تختلفُ كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضّاءة النَّيِّرة التي دَأب أكثـرُ المؤرِّخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزمُ ذلك أن يُسمَّى كلّ واحد من هؤلاء المؤلِّفين والكتاب ، ويُردَّ على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إنَّ هذه السيرةَ المعروضة للإمام السَّرْهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدراسةَ لأعماله التجديدية ، وعصرِه

= «منتخب التواريخ» للبدايوني فحسب، لئلا يتخذ ذلك المغرضون وسيلة للحط من قيمة كتابه العلمية والتاريخية، فاستشهد في وصف «أكبر» وعرض عقائده واتجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له.

وبيئته ، سوف تكونُ رداً حاسماً على شُبهاتهم وتفنيداً لدعاويهم .

وإنّني ـ مع زَحمة الأشغال، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها، وقلة المُساعِدين في هذا العمل ـ حاولتُ جهدي أن يَظهر هذا الجزء من سلسلة «رجال الفكر والدعوة» الذي يشتمل على حياة الإمام السرهندي ومُنجزاته وأعماله، يحمل مواد جديدة ، لم تُعرض بعد ، ونتائج جديدة ، تدعو إلى التفكير والتأمل ، وتبعث على الأمل والتفاؤُل ، لعلّنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونُحقِّق بعض متطلباته ، ونَستقبل به القرن الخامس عشر الهجري .

وإلى القُرّاء هذا الكتاب ـ الذي أُلف في لغة أردو ـ مَنقولاً إلى اللغة العربية ، وقد قام بعملية الترجمة والتعريب ـ العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيَّتي اللغتين ومحيطهما ، ودِقة الموضوع ـ العزيزُ السيد سلمان الحُسيني الندوي ـ بارك الله في حياته ونفعه ونفع به ـ خيرَ قيام ، وقد أنجزَ العملَ وأتمَّه في مدة قريبة ، فله دُعاء المؤلِّف وشكر القُرّاء ، والأجرُ من الله الكريم . وما تَوفيقي إلا بالله عليه توكّلتُ وإليه أنيب .

٢٦/ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ
١٣/ أبريل ١٩٨٠م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دارة الشيخ علم الله الحسني ، رائي بريلي



البَابُ الأوّلُ

العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري

العَالمُ الإسلاميُّ في القَرن العاشر
أَهميَّةُ الدراسةِ التَّاريخية
للقَرن العاشرِ الهِجْري

وُلد الإمام السَّرْهِندي في شوال عام ٩٧١ هـ ، وتُوفي في صفر عام ١٠٣٤ هـ ، وهكذا يحتوي عصره على التّسع والعشرين سنةً الأخيرة من القرن العاشر ، وما يُقارب الثلاث والثلاثين سنةً الأولى من القرن الحادي عشر ، فالذي يُؤرِّخ عصره وحياته ، ينبغي أن يُعنى بهذه الثلاث والستين سنة إذ هي مُدة حياته ، وهي التي تمتدُّ من الثُّلث الأخير للقرن العاشر ، إلى الثُّلث الأوَّل من القرنِ الحادي عشر.

ولكنْ ليست وِلادةُ إنسان ـ مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثيرٍ في عهده وبيئته ـ بدايةً حتميةً لعهد جديد ، يَبرز من كَتم العَدم إلى حَيّز الوجود ، كما أنه ليس من المعقول ألاَّ تُؤثِّر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعواملُ التاريخية ، والخلفيّات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكُومات الموجودة التي كانت تعمل عملها قبل أن يُولد ، وكانتْ تَترك على البيئة والمجتمع آثاراً كبيرة.

ولذلك فإنه يُحتَّم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السَّرهندي ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يُواجِهه

في عمله التجديدي من صُعوبات وتسهيلات ، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن نَدرس العالَم الإسلاميَّ ـ كما كان في عصره ـ سياسياً ودينياً ، وعلمياً وخلقياً ، ذلك العالم الإسلامي الذي واجهه الإمامُ مُنذ عَقَلَ وبدأ يَعي ويشعر ، والذي كان عليه أن يقوم فيه بدوره التَّجديدي الإصلاحي الذي حوَّل تيار الحوادث ، وأَرْغَم التاريخ على أن يَنحو نحواً جديداً ، واستحقَّ به ـ عن جدارة كاملة ـ أن يُلقَّبَ بمُجدِّد الألفِ الثاني .

وينبغي ـ ونحنُ في هذه الدراسة ـ ألا نُغفِل حقيقةً ذات شأن ؛ وهي أنَّ العصر الذي يولد فيه الإنسانُ ، والعالَم الذي يُعاصِره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنَّهر الجاري ، تتَّصل كلُّ موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يَبقى بلدٌ ـ مهما كان بعيداً نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثَّورات العظيمة ، والقُوى المتحاربة ، والحركات المؤثِّرة القوية ، التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لا سيَّما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطوُّرات ، بلداً يُشارِكه في العقيدة والمذهب والمَشرب ، ويُجاوِره في المكان ، ولذلك لا يَجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يَلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيَّما البلدان المسلمة المجاورة ، التي كانت بينها وبين الهند أواصرُ علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرَّخِيَّة الناعمة ، على بُعْد الدار وطول المسافة .

* * *

أ ـ الوَضْعُ السِّياسي

١ ـ الدولة العثمانية:

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي ـ في أوائل القرن العاشر ـ بعدَ زمن طويل ـ (ولعلّه بعد السلطان صلاح الدين الأيُّوبي المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسي ، واجتمعتِ البُلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحتَ الراية التي كان رافعوها يعتزون بلقب «حامي الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين» وكانوا قد نفخوا في الخلافة الإسلامية ـ التي عادت في مصر كالبابوية النَّصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العبَّاسيين «المستعصم بالله» عام ٦٥٦ هـ ـ حياة جديدة ، ولوكان ذلك تحت مصالِحِهم السياسية ، فقد فتح ياوَزُ السلطان سليم الأولُ مؤسِّس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلادَ الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصرَ عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكمُ مصر ـ حين زحف إليها السلطانُ سليمٌ ـ قانصوه الغَوْري ، وأعلَن السلطانُ سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادَة الخلافة ، وأنه خادم الحرَمين الشريفين ، ووُصِّيَ أميناً عليهما من قبل المسلمين.

ودَخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في إفريقية الشمالية ـ عدا المغرب ـ تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانُوني ، (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) الذي يَذكره المؤرِّخون الغربيون باسم (Sulaiman The Magnificent) يعني سُليمان الكبير العظيم.

وقد كان عَهد سليمان ـ الذي وُلد الإمام السَّرْهَندي قبل وفاته بثلاث

سنوات ـ عهدُ ازدهار الإمبراطورية العثمانية ورُقيِّها ، إذ كانت تُرفرِف رايتُها على النِّمسا والمجر في أوربة ، وتزحَف جيوشها المنتصرة ـ في جانب آخر ـ إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكته الواسعة ، فكان حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض في عصره ، أما في عهد السلطان مُراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قُبرص وتونس ، وعددٍ من ولايات إيران ذات الخَصب والرَّيع الكثير ، واليمن.

وتـمَّ في عصره عام ٩٨٤ هـ بناءُ الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السَّرْهندي ـ إذ ذاك ـ قد بلغ سِنَّ الشعور ، وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعيٌ أن يكون المسلمون في ذلك العصر ـ ولو كانوا مسلمي الهند ـ يشعرون بفرح واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتِّساع رقعتها ، وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم في العقيدة السُّنِّية وتمسُّكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدين به أكثرية مسلمي الهند.

٢ ـ الدولة الصفوية:

وظَهرتْ في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرةُ الصفويةُ في إيران ، وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصَّفَوي ٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة ـ تدريجياً ـ استيلاءَها على هذه المنطقة كلها ، واستقلتْ استقلالاً تاماً ، وكانتْ حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررتِ المذهب الإماميَّ الجعفري ـ خلافاً للدولة العثمانية ـ مذهب الدولة الرسمي ، واستخدَم إسماعيل الصَّفوي كل الوسائل ، واستغلَّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوةِ إليه ، وحاز في سبيل ذلك نجاحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ الحكومات التي تُعنى بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية ، فأصبحتْ هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المذهبي ـ بِمَعزل عن أن تَذوب في دولة العثمانيين التي انتشر فيها من يُشارِكهم في المذهب السُّنِّي الحنفي ، من القسطنطينية إلى لاهُور ودِلْهي ، وكانتِ الأسرة الصفوية تحكم من بَغداد إلى هَرات.

وكان شاه عباس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، ويُعرف في التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يَستحق لأعماله البنائية أنْ يُدْعى شاهجهان [١] أسرتهِ ، مُعاصراً للإمام السرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجها ، وذُرْوة مجدها ، فحاربَ الأتراك ، واحتل نجفَ وكربلاء ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدِّين أكبر ، والملك نور الدين جِهَانْكِير ، وأُصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال.

٣ ـ تركستان:

وكانت البُقعة الثانية من بقَاع العالم الإسلامي الهامة بلادَ تركستان التي دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية الدينية ، وتُعرف في الكتب القديمة بـ «ما وراء النهر» وكانت لها مُساهمةٌ كبيرةٌ ـ بعد العراق ـ في تدوين الفقه الحنفي ، وخلَّفت عدداً من الكتب القيِّمة الخالدة [٢] ، التي لا تزال مُقرَّرة في منهاج الجامعات الإسلامية في الهند.

ونشأتْ فيها الطريقةُ النقشبنديةُ ـ التي يَنتسب إليها الإمام السَّرهنديّ وشيوخه ـ ونَمتْ وترعرعتْ وانتشرت منها في أجزاء العالم الإسلامي.

لقد دخلتْ هذه البلاد المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات في حكم الأسرة الشَّيبانية فرع الأُزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيتْ تحت سُلطانهم من تلك السَّنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ـ إلى ثورة روسيا البلشفية ـ إلا فترةً قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابَر التَّيمُوري بمساعدة الصَّفويين ، على ما وراء النهر ، وسيطرَ على سمرقند عاصمتِها ـ آنذاك ـ.

---

(١) هو الإمبراطور شهاب الدين شاهجهان بن جهانكير التيموري (م ١٠٧٥) باني التاج محل في أكره ، المسجد الجامع الكبير في دلهي.

(٢) كـ«هداية الفقه» للمرغيناني، و«شرح الوقاية»، وغيرهما لصدر الشريعة، وظلاّ مقررين في المنهج الدراسي طوال قرون.

ثم أصبحت «بُخارى» في القرن العاشر عاصمةَ الدولة الشيبانية في عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ ـ ٩٤٦ هـ ، والملك عبيد الله بن إسكندر ٩٦٤ ـ ١٠٠٦ هـ، وعادتْ بسببها بخارى ـ مرة ثانية ـ مركزاً للحياة السياسية والفكرية.

٤ ـ أفغانستان:

وأقربُ البلدان المجاورة للهند الذي يقع غربيّها ، هو أفغانستان ، تداول الحكمَ عليها في بداية القرن العاشر أزابِكةُ تركستان ، وصَفَوِيُّو إيران وغيرهما من الغُزاة الطامحين المحليين ، في فترات متخللة بين حكم الأسرتَين المتقدم ذكرهما ، وكان يحكم «كَابُل» و«قَنْدَهَار» المغول تارة ، والإيرانيون أخرى.

وأمّا هرات فلوُقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية.

وفي عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر «قَنْدَهَار» ، ثم لما أسَّس الدولة التيمورية في الهند ، جعل مقرَّه كذلك في الهند ، وكان يحكم من هناك ولايات «كابر» و«بَدَخْشَان» و«قندهار».

وافتتحت أفغانستان ـ في ذلك الوقت تحتَ تأثير دولتين عظيمتين قائمتين في الهند ، وإيران ـ عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن والتنظيم ، وكانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات وسِيْسَتَان في إيران ، وإن كانَ الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر ، وأصبحت «كابل» جزءاً من الدولة المغولية ، وكانت قندهار يتداول السلطة عليها المغول والإيرانيون ، وأنشأ الحاكم سليمان مِرْزا ابن أخي الملك بَابر ـ الذي ولاَّه بابر ولاية بدخشان ـ في شمال كَوْهَسْتَان حكومة شبه مستقلة.

أمّا ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانتْ تحت حكم الشَّيبانيِّين ، وفي عام ٩٦٥ هـ احتل طَهْمَاسَب ملك إيران ، ولاية «قندهار» واستمرتْ تحت احتلال الإيرانيين إلى عام ١٠٠٣ هـ ، ثم سلَّمها وليُّ العهد

مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثَمَّ كانت أفغانستان ولايةً من ولايات الدولة المغولية في الهند ، ودامَ الحال على ذلك إلى القرن الثاني عشر حتى زالت دولة آلَ بابَر التي استمرت مئتين وأربعين ٢٤٠ عاماً على أيدي نَادِر شَاه أَفْشَار عام ١١٥١ هـ.

٥ ـ الهند:

ولمَّا بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللُّودِهيَّة تحكم الهند ، وقد قُتل آخر ملوكها إبراهيم اللُّودهي عام ٩٣٢ هـ ، على يد مؤسِّس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بَابَر الكُوركاني (٨٨٨ ـ ٩٣٩ هـ) ، وتأسَّست على أنقاض الدولة اللودهية: المملكُة المغولية ، التي كانت من أكثر دُول الهند استحكاماً وتنظيماً ، وأوسعها رقعة ، وأطولها عمراً.

كانت الأسرة اللودهية ـ لتمسُّكها بالتقاليد الأفغانية ، والنَّسَب الأفغاني ـ متمسكة بالإسلام ، متقيِّدة بالمذهب السُّنِّي الحنفي ، لم تَعرف التجدد و«العلمانية» والسياسةَ اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تديُّناً ، وتقديراً للعلماء ، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك إسكَنْدَر اللُّودهي (م ٩٢٣ هـ).

وسَعدتِ الهندُ خمسَ سنوات من هذا القرن بحكم الملك شَيْرشَاه السُّوْرِي (٩٤٦ ـ ٩٥٢ هـ) ، الذي لم ينَهض في تاريخ الهند الإسلامي مَلِكٌ متدين عالم ، أحسنَ منه تنظيماً وتقنيناً ، وأكثر منه توفيقاً للأعمال الخيرية ، وتحقيقاً للمشاريع الهائلة في المصلحة العامة.

ولم يَحصل للهند بعد وفاة الملك شيرشاه السُّوري ، إلى تولي الملك أكبر للدولة ، الاستقرارُ السياسي ، والتنظيم السليم ، ولم يَقِرَّ للحكومة قرار ، ولم يَذُق سكانُ البلاد طعمَ الأمن والرخاء ، فقد كان الملك سليم شاه خليفةَ أبيه العبقري السلطان شيرشاه السُّوري لا يَمُتُّ إلى أبيه في تنظيمه ، وتدبيرِ مملكته بسبب ، ولم يستطعِ كذلك الملك نصير الدين هِمَايُون خليفة الملك بابر (٩٣٧ ـ ٩٦٣ هـ) أن يَحكُم الهند في أمن واستقرار ، فقد شرَّدته حملاتُ الملك

شيرشاه السوري الظاهرة ، وخذلان إخوته كلَّ مُشرَّد ، وكان شأنه هذا ، حتى اتصل بطَهْمَاسب الصَّفوي ملِك إيران ، وطلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ، واعتلى الملك (أكبر) عامَ ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام في الحكم نصف قرن ، بأُبّهته وعظمتِه وسلطانه غير مُنازَع.

وتولّى نور الدين جَهَانْكِير المُلك في عصر الإمام السرهندي نفسِه ، حينما كان ابنَ ثلاث وأربعين سنة ، وتُوفي الإمام السرهندي في عهده ، وكانت هناك ـ عدا هذه الدولة المركزية التي جُعلت عاصمتها دلهي ـ حكوماتٌ إقليمية في ولاية كُجْرَات ، وبِيْجَافُور ، وكَوْلَكُنْدَه ، وأحمد نَكَر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورةٍ مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرةُ الذِّكر من الحكومات التي كانت تعتنق المذهب الشِّيعي.

* * *

ب ـ الوَضْعُ الدِّينيُّ والرُّوحي وازدهار الطُّرق والسَّلاسل الصُّوفية

لقد كان التَّدَيُّن سِمةً سائدة ـ على العالم الإسلامي كُلّه ، فكان عامة الناس ـ رُغم انحطاطهم الخُلقيِّ والعلميِّ ـ راسخي الإيمان ، مُحبِّين للإسلام ، مُوالِين له ، وكانوا يمتازون بالحَميَّة الدينية ، والحماسَة الإسلامية ، على تصوُّرهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البِدَع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام ـ أحياناً ـ ولكن كانوا شديدي الكراهية للكفر والإلحاد ، يشمئزُّون منهما ويتبرؤون .

ولأجل هذا الذَّوق الديني العام ، والطبيعة الإيمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون ـ الذين لا يعبؤون بأيِّ قوة مناوئة كبيرة ـ وكانت أوربة ترتعدُ من قوتهم العسكرية ـ مُضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين ، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قُلوب العامَّة من الناس ، تَستشعرُ عظمتهم ، وتُحبُّهم ، حتى يَتظاهروا بهذه الناحية الدينية .

ولذلك لم تتوطَّد حكومةُ السلطان سليم الأول ، ولم تُثبِت جذروها ، حتى لَقَّب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرَمَين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحبَّ والتقديس للديار المقدسة ، والإجلالَ لها ، وأنفذ في شهر ذي الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلة للحُجَّاج من دمشق ، وبعثَ معهم ـ لأول مرة في الدولة العثمانية ـ بهَدِيَّة كسوة الكعبة .

ومِن ذلك اليوم تَسمَّى السلاطين الأتراك بـ «خادمي الحرمين الشريفين» ومُهِّد لهم طريقُ المجد ، وعَظُمتْ أقدارُهم في أعين الناس ، ونَجدُ أمثلة عديدة في حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ،

فقد انتسَخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة في المكتبة السليمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنه مُسلم راسخ العقيدة في الإسلام ، وأنه جدَّد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبي السّعود (م ٩٥٢ هـ) صاحب «تفسير أبي السّعود» ، وبنى جداول مخصَّصة مُجصَّصة في مكة المكرمة.

وأكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ وهو البناء الذي لا يزال إلى الآن ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين في القرن العاشر الهجري.

وكانَ الناسُ في الدولة الشِّيعيَّة بإيران كذلك متديِّنين ، عقليَّتُهم عقليةٌ دينيَّة ، ويغلب عليهم الطابع الديني ، وكان السلاطين الصَّفويُّون يغذُّون هذه الناحية الدينية ، ويُنَمُّون هذه العواطف ويتظاهرون بحب آل البيت وإجلالهم ، ويستغلون ذلك لقوَّتهم السياسية وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضعَ القبول في الناس ، فقد تجشَّم شاه عباس الأول ـ أعظمُ سلطان في الدولة الصفوية ـ مشقةَ السفر من أصفهان إلى «المَشْهَد» (مدفن عليٍّ الرضا) حوالي ثمانمئة ميل ، مشياً على الأقدام ، وحضرَ النجف ، وقام بخِدمة الكِناسة لضريح سيدنا علي ـ كرّم الله وجهه ـ.

وبلغ حُبُّ الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلُوهم في إجلاله إلى حدِّ الخرافات والسُّخف العقلي ، وشاعت في الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة.

أمّا سُكّان تركستان وأفغانستان ، فإنَّ رسوخهم في العقيدة وصلابتهم في التدين ، وتمسُّكهم بالسُّنية والمذهب الحنفي ، شيءٌ يُضرب به المثلُ ، فكان الحكام والأمراء والوزراء ، وأصحاب البلاط ـ كل حسب مستواه في المعيشة وحاله من الترف ـ يتَّفقون معهم ويُسايِرونهم في كل ذلك.

وكانَ تأسيسُ الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحُكّام من الأُسر الأفغانية أو التُّركية ، فكان ـ لأجل ذلك ـ تأثيرُ الدين عميقاً في قلوب أهل هذه

البلاد ، وإن كان هذا التأثير ساذَجاً بسيطاً ، شأنَ العقلية الأفغانية والتركية ،وذوقها الخاص ، وما زال الناس متمسِّكين بالسُّنية والمذهب الحنفي ـ باستثناء بعض المُدن الساحلية ، ومنطقة مالابار في جنوب الهند ـ وكان المذهب الحنفي هو الذي يُطبّق في الدولة ، ويتحكّم في المحاكم ، وألفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ «الفتاوى التَّتَارْخَانِيَّة» و«فتاوى قاضي خان» [١] .

ويمتاز عددٌ مِن السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة ، وكراهةِ الكفر والإلحاد ، ومُحاربة البدع والمنكرات ، والحميّة الدينية والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر «محمد تَغْلَق» و«فيروز تغلق» في القرن الثامن ، والسلطان إسكندر اللودهي في القرن العاشر ، فقد كان التديُّن ـ حسب ما يروي لنا مؤلِّفو «طبقات أكبري» و«تاريخ فَرِشْتَهْ» و«تاريخ داودي» ـ سائداً في عهد السلطان إسكندر ، وكان يبدو من تمسُّك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت في الحياة روحٌ جديدة ، وكان الدين أعزَّ وأحبَّ إلى السلطان من نفسه .

وكان السلطان من أول حياته ـ كما يصفه هؤلاء المؤلفون ـ متحمِّساً للدين ، يُحبُّ المذاكرة العلمية ،و بدأ الهَنادك في عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقَبِلتَ طائفة «كائِسْتَهْ» الهندية توجيهَ السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها وتولّوا وظائف الكتابة والديوان في المملكة ، ونهى السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي [٢] ، التي كانت تُحمل وفاء بالنَّذر ، واعتقاداً في البركة والنصر ، وكانتْ عادة سنوية

(١) وهذا قبل تدوين «الفتاوى العالمكيرية» بزمن طويل، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الإسلامي، ويعرف بـ«الفتاوى الهندية» في مصر والشام والعراق.

(٢) هو السيد سالار مسعود الغازي دفين مدينة بهرائج في الولاية الشمالية الغربية، وهو من أشهر الأعلام في الهند، مات شهيداً سنة ٥٨٨هـ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء، والناس يفدون إليه من بلاد شاسعة ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج، فيحتفلون لعرسه، وينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره.

مُقدَّسة ، كما أصدر أوامر مشدَّدة في منع النساء من زيارة الضريح والمشاهد ، ويقول بعض المؤرِّخين أنه نهى حمل «الضرائح» المصنوعة من القرطاس والقَصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن علي الشهيد وعبادة «سيتلا» ـ آلهة الجدري ـ نهياً قاطعاً [١].

ويقول مشتاقيُ: «إنه هَدم كثيراً من المشاهد المزوَّرة ، وسوّاها بالأرض ، وأجرى مكانها الأنهار» [٢] .

وكان السلطان سليم شاه السُّوري يَؤُمُّ الناس في الصلوات في المسجد، وكان يَجتنب المسكرات أشدَّ الاجتناب.

رُقي التصوُّف وازدهاره:

لقد كان هذا العصر عصرَ رُقي التصوُّف ، وازدهار السلاسل والطُّرق، حتى لم تبقَ بقعة من بقاع العالم الإسلامي خالية من طريقة من طرق الصوفية ، وكانت الطرق حديث المجالس والنوادي ، وكانت «بخارى» و«سمرقند» ـ المركزان العلميان ، والروحيان ، والمدينتان المعروفتان ـ في تركستان ، و«بَدَخْشَان» وهرات في أفغانستان ، و«طَنْطَا» و«الإسكندرية» في مصر ، و«تَعَزْ» و«صنعاء» في اليمن ، و«شحر» و«تريم» و«سيون» في حضرموت ، مراكزَ كبيرة للعلماء والصوفية ، ومشائخ الطرق.

وكانت أسرة باعلوي العيدروسية في حضرموت ذاتَ شهرة وقبول في الناس ومعروفة بالفضل والعلم ، وفي هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله ابن أبي بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يُعرف بقطب العالَم ، وكانت مدينة «تريم» مركز أشراف آل باعلوي.

ومِن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علي السويني بامَدحج

---

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء الله الدهلوي ج٢ ص ٣٧٤.

(٢) انظر «واقعات مشتاقي».

السعيد ، الذي ذكره الشيخ محيي الدين عبد القادر العيدروسي (٩٧٨ ـ ١٠٣٧ هـ) في كتابه الشهير «النور السافر في رجال القرن العاشر» ، وختم بترجمته ـ التي تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ ـ الكتاب [١].

وقد كان للطريقة القادِريّة ، وللطريقة الجِشْتِيَّة ـ بفرعيها النظامية والصابرية ـ رواجٌ وانتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة.

الطريقة الشطارية:

ولكنْ من الحقِّ أن يُقال هذا القرن قَرنُ الطريقة الشَّطَارِيّة العِشقية ، التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجِشْتِيَّة ، وسخَّرت الهند كلها.

أسَّس الطريقة الشطارية الشيخُ عبد الله شطار الخراساني الذي نزل الهند ، في أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن «مَانْدُو» عاصمة الولاية الخليجية في الهند الوسطى ، وتوفي سنة ٨٣٢ هـ ، ودُفن داخل القلعة في ماندو.

كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، انتفع به خَلق كثير ، وانتشرت طريقته في الهند بسرعة فائقة ، ولهذه الطريقة فرعان.

ينتمي فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، وبينَه وبين الشيخ الشَّطاري ثلاثُ وسائط ، وينتمي الفرع الثاني إلى الشيخ علي بن قوام الجُونْبُوْرِي ، ـ المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري [٢] ـ بينه وبين الشيخ عبد الله الشطاري واسطتان ، وقد مَزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم «يُوكا» [٣] بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأُولى بعض الرياضات

---

(١) ألف هذا الكتاب في أحمد آباد عام ١٠١٢هـ.

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، الجزء الرابع.

(٣) نظام الرياضات الروحية والبدنية في الهند القديمة.

والأوراد ، وحَبْس النفس ، ولقنت هذه التعاليم المُريدينَ والسَّالِكين ، كما ضمَّت إلى الطريقة «علم السيمياء» ، وقد جاءت تفاصيلُ هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة في الرسالة الشطارية التي ألَّفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصاريُّ القادري [١] ، وتُوجد قصيدة للشيخ محمد الشطاري في كتابه «كَلِيْدُ مخازن» ـ مفتاح الخزائن ـ تُفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعَة ، والمُسلم والبَرْهمي ، وعقيدة ظهور الإلٰه وتجلِّيه في هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشىءٌ من هذه الوحدة ، وهي ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء في آداب هذه الطريقة وشِعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذي هو «الحجاب الأكبر» ، ومن قِيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهي ، والسكر والتفاني فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا.

وكان أشهرَ رجال هذه الطريقة الشطَّارية وأكثرها تأثيراً ، الشيخُ محمد غوث الكَوَالِيَاري (م ٩٧٠ هـ) الذي حَصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تُضاهي أُبَّهتُه وفَخفَخَتُهُ أُبَّهة الملوك والأمراء وفخفختهم ، وتوازي دولتُه الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمئة ألف عملة فضية [٢] ، وكان له أربعون فيلاً ، وجنودٌ مجندة من الحاشية والخدم.

وكان عندما يخرج من سوق مدينة «آكرَهْ» تحتشد الحشود ، ويقف جموع

---

(١) وكان في هذا القرن من الطرق المنتشرة في الهند الطريقة المدارية، التي أسسها الشيخ بديع الدين المكن بوري (٨٤٤هـ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة «وحدة الوجود» والكشف عن معانيها ومحتوياتها، والتجرد الظاهري ـ حتى يقتصر على ستر العورة الغليظةـ والتوكل الصرف، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة إلى التحلل والانحطاط، حتى أطلق لفظ «مداري» على التكسب بالألعاب البهلوانية، وقد فقدت هذه الطريقة في القرن العاشر تأثيرها وقبولها في الخاصة، ولم نعثر بعد البحث والتنقيب في «نزهة الخواطر» ـ الجزء الرابع ـ الذي أحصى فيه مشايخ كل طريقة إحصاءً كاملاً تقريباً، إلا على رجلين كانا منخرطين في سلك الطريقة المدارية.

(٢) وفي بعض الروايات عشرة ملايين.

الناس فكان يُسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السُّرج ، ولا تعود فقار ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك (أكبر) كما جاء في تصريح العلامة عبد القادر البَدَايُوْنِي ـ وأدخله في حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة الأميرية ـ صِيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدَّثون به ، وكان عند تسليمه على الناس يَنحني كانحناءة الركوع ، ولو كان من يُسلِّمُ عليه مسلماً أو كافراً ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته «جواهر خمسة»، و«معراجية» [١]، و«كنز الوحدة»، و«بحر الحياة» [٢]، وكان له تأثيرٌ كبيرٌ على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية [٣] وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السرهندي بعد وفاته بعام .

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلَّة الشيخ علي بن قوام الجُونْبُوري المعروف بعلي عاشقان السرائي ميري (م٩٥٥ هـ) ، والشيخ شكر محمد البُرهَانْبُوري (م٩٩٣ هـ) ، والشيخ الله بَخش الكده مكتيسري (م ١٠٠٢ هـ) كانوا مَرْجِع خلقٍ كثير من عِباد الله .

وقد ذكر بعض المؤرِّخين عن الشيخ علي عاشقان السَّرائي ميري أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني ، مثل ما ظهرت على يديه [٤] ، وكان خليفة الشيخ محمد غَوث الكوالياري ، الشيخ ضياء الله

---

(١) كان ادعى لنفسه أنه عرج به إلى السماء مثل معراج الرسول ﷺ، وأحدث ذلك فوضى وشغباً في علماء كجرات.

(٢) هذا الكتاب ترجمة لكتاب «امرت كند»، يقول الأستاذ محمد إكرام عنه في كتابه «رود كوثر»: نقل فيه تفاصيل العادات والأعمال والأوراد التي يشتغل بها العباد الهنادكة. وأصحاب «اليوك» إلى اللغة الفارسية، وكان تعرض لهذه الأعمال في كتابه الذي ألفه من قبل «جواهر خمسة» تعرضاً قليلاً، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ «اليوك الهندي» (ص ٣٤ ـ ٣٦).

(٣) راجع للتفصيل في تاريخ المشايخ الشطارية، «نزهة الخواطر» ج ٤ .

(٤) راجع للتفصيل «العاشقية» تأليف عارف علي، و«نزهة الخواطر» ج٥ .

الأكبر آبادي (م ١٠٠٥ هـ) تلميذ العلاَّمة الشيخ وجيه الدين ، سكن في «أكبر آباد» ـ وكانت عاصمة الملك أكبر ـ ٣٥ عاماً ، وحَصل له القبول في الناس ، ودُعيَ إلىٰ بلاط الملك (أكبر) عدة مرات .

يقول العلاَّمة عبد القادر البَدَايُوني : «سَلَّمتُ عليه مرة فَثقُل عليه وساءه ، وشعر بأني أهنته» ، واستهزأ بهذا الشعار الإسلامي والسنة الطيبة ، وقد صوَّر البدايوني تصويراً سيِّئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الإسلامية [١] .

عدا هؤلاء المشائخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبد الله السَّنْدَيْلَوِي (٩٢٤ ـ ١٠١٠ هـ) والشيخ عيسىٰ بن قاسم السِّندي خليفة الشيخ شكر محمد عارف بالله ـ وكان معاصراً للإمام السرهندي ، ويُقارِبه في السن ـ من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية [٢] .

وكان هناك مشائخ كبار ـ غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطُرق أخرىٰ ، كان منهم الشيخ جائين لده السَّهنسوي [٣] (م ٩٩٨ هـ) كان يُدرِّس كتاب «الفصوص» و«نقد الفصوص» ، وكان الملك أكبر يعتقد فيه ويجلُّه ، وشاهده يوماً يصلِّي «الصَّلاة المعكوسة» فانصرف عنه .

وشيخ آخر يسمَّىٰ الشيخ عبد الرازق الجَهَنْجَهَانَوِي (٨٨٦ ـ ٩٤٩ هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية ، وكان ـ رغم كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس والتصنيف ـ يدعو إلى «وحدة الوجود» ، ويتحمَّس لمذهب الشيخ محيي الدين بن عربي وقد ألَّف في هذا الموضوع عدة رسائل .

وكان الشيخ عبد العزيز شَكَرْ بار (٨٥٨ ـ ٩٧٥) كذلك يقول «بوحدة

(١) راجع للتفصيل «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر ، و«نزهة الخواطر» ج٥ .
(٢) انظر «نزهة الخواطر» ج٥ .
(٣) سهنة : قرية في مديرية كركانوه ، في بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

الوجود» ، وكان صوفياً يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يُلقي دروساً في «فصوص الحكم» وشروحه ، وهو من أجداد الإمام وليِّ الله الدهلوي لأمِّه .

ونَبغ في هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكَنْكُوْهِي (م ٩٤٤ هـ) وعَلا صيته ، وطنَّت حصَاتهُ ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، وعادت غضة طرية ، مؤثِّرة قوية ، وكان يبوح بأسرار «وحدة الوجود» على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادي بها .

وكان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦ ـ ٩٢٥ هـ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين (م ٩٧١ هـ) في قرية (كيتهل) ـ بمديرية إنبالة ـ من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ، وقد استعادت بهما هاتان الطريقتان رَونَقهما ورُواءهما ، وذكر الإمام السرهندي عن الشيخ كمال المذكور ـ أعلاه ـ نقلاً عن الشيخ عبد الواحد ، أنه قال : «عندما ينظُر بنظر «الكشف» ، يتبين لنا أنه لم يوجد في السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشائخ الشيخ عبد القادر الجيلاني أفضلُ ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال» [١] .

وكان الشيخ نظام الدين الأَمِيْتَهَوِي (٩٠٠ ـ ٩٧٩ هـ) في ولاية «أَوَده» من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والاتِّباع للسنة النبوية ، وصلاح السيرة ، كان يعتمد على «إحياء العلوم» و«العوارف» و«الرسالة المكية» ، وقَع بصره على كتاب «الفصوص» في بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتاباً آخر للمطالعة والقراءة ، وكان «السماع» [٢] عادة متَّبعة في طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه [٣] .

هذه هي الأوضاع الرُّوحية والدينية السائدة في العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السّلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم

(١) انظر «زبدة المقامات» ، ص١٠٨ .
(٢) الغناء تارة بالمزامير ، وتارة بغيرها .
(٣) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر» ج٤ .

ومشاربهم ، وتَفاوُتِ مراتبهم ودرجاتهم ، الذين كانوا أسَّسوا في القرن العاشر الهجري ـ في الأماكن المختلِفة مراكز تربوية روحية ، وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتَّصِلون بهم وينتمون إليهم ، ويتمسَّكون بطريقتهم ، وقد شرحتُ هذه الأوضاعَ ، وتناولتُ هذا التاريخ بشيء من الإفاضة وإطالة النفَس ، ليتيسَّر للقارىء تقديرُ الجو الذي تنفس فيه الإمام السرهندي ، والعهدُ الذي عاصره ، وذوقه وميوله ، وما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحي التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خيرَ قيام .

* * *

ج ـ الـوَضـعُ العـلمـي

لم يَكن القرنُ العاشر الهجري قَرنَ الابتكار والاختراع في العلوم والفنون والأصالة العلمية ، والنَّظر الدقيق الذي يتَّسم «بالاجتهاد» والتدوين الجديد للعلوم ، والزياداتِ ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فإنَّ هذه الميِّزات إنما تتجلَّى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجري ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون في فنون كثيرة كشيخ الإسلام ابن تيميَّة الحرَّاني الدمشقي (م ٧٢٨ هـ) ، وشيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (م ٧٠٢ هـ) ، والعلامة علاء الدين الباجي (م ٧١٤ هـ) ، والعلامة الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المِزِّي (م ٧٤٢ هـ) ، والعلامة الحافظ شمس الدين الذَّهَبي (م ٧٤٨ هـ) ، والعلامة أبي حيَّان النحوي (م ٧٤٥ هـ) الذين خلَّفوا لنا في علوم الحديث ، والأصول ، والكلام ، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمة ، ومؤلفات ضخمة ثمينة .

وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) إمام العصر في الحديث ، وصاحب «فتح الباري» الذي وصفه بعض الناس بقولهم : «لاهجرة بعد الفتح» كذلك ولّى من غير رَجعة .

فكان القرن العاشر الهجري قرن الجَمع والترتيب ، والتسهيل والتلخيص لكتُب المتقدِّمين ، وإن كان يتجمَّل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السَّخاوي (م ٩٠٢ هـ) ، والعلامة الحافظ جلال الدين السُّيوطي (م ٩١١ هـ) من بُحور العلم الزاخرة ، وكبار المؤلِّفين في تاريخ الإسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السَّخاوي : إنه لم يُنجب التاريخ مثله في علم الحديث وفنِّ الرجال والتاريخ بعد الإمام الحافظ الذهبي ، وآذن علمُ الحديث

بعده بالانحطاط والتدهور ، ويُعدّ كتابه «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» في أصول الحديث ومصطلحه ، و«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» في التاريخ والرجال ، من الكتب التي لا يوجد لها نظير.

والعلامة السُّيوطي غني عن التعريف ، فإنه من نُبغاء الرجال المؤلفين، ومشاهيرهم في تاريخ الإسلام ، وتقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية في مواضيعها ، ولا يزال اسمُه حياً خالداً في الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقي مُقرَّراً ـ إلى يومنا هذا ـ في المناهج الدراسية في شبه القارة الهندية وبعض البلاد الإسلامية.

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال في مصر والشام والعراق ، وبازدهار العلوم العقلية ـ المنطق والفلسفة ـ في إيران ، وازدهار الفقه الحنفي في الهند ، وتركستان ، وكانت هذه العلوم المختلفة في البلدان المشار إليها ـ آنفاً ـ مقياس الفضل والنبوغ والكمال.

فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القَسْطلاَّني مؤلف «إرشاد الساري» شرح صحيح البخاري (م ٩٢٣ هـ) ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (م ٩٢٥ هـ) ، وكان في الحجاز العلامة ابنُ حجر المكي الهيثمي (م ٩٧٤ هـ) مؤلف «الصواعق المحرقة» وكُتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين علي المُتَّقي البُرْهَانْفُوْرِي المكي مؤلف «كنز العمَّال» (م ٩٧٥ هـ).

وكان رُوَّاد العلم يَردون مناهل علمهم فيروُونهم ، وطَبَّقت علومهم الآفاق وعمَّتْ إفادتهم الخلائقَ ، وكان العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهَرَوي المعروف بمُلاَّ علي القاري ـ العالم الحنفي المحقِّق الذي اتسمت كتبه بالإنصاف العلمي ـ رغم أنه ولد في «هرات» من أفغانستان إلاَّ أنه بتدبُّره بمكة المكرمة نشَر علمه في منتجعي العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامي ، وهو ـ وإن كانت وفاته في أوائل القرن الحادي عشر عام ١٠١٤ هـ ـ إلاَّ أن عَهد خدماته العلمية والتأليفية هو القرن العاشر.

وتُوفي في أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرِّخ الكبير الشيخ قطب

الدين النَّهْرَوَالي [١] ، صاحب «الإعلام في أخبار بيت الله الحرام» سنة ٩٩٠ هـ ، الذي يرجع في أصله إلى أرض الهند ، وخضع لِعلمه وفضله سلاطينُ تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه وبجَّلوه .

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدَّوَّاني (م ٩١٨ هـ) والعلاَّمة عماد بن محمود الطَّارمي (م ٩٤١ هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذين أفاضوا العلومَ ، وكانت تتفجَّر منهم يَنابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج عُلومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها .

وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن الصدِّيقي الشافعي الأشعري المصري ، الذي يُذكر في كُتب الرجال «بالأستاذ الأعظم» و«قطب العارفين» كان فريد عصره في بَيان دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار ونَسيج وحده في بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يُدرِّس في الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تَهافُت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذَوق الشعر والأدب [٢] ، توفي عام ٩٩٣ هـ.

وكذلك المحدِّث الهندي الشهير الشيخ رَحمةُ الله بن عبد الله السِّندي الحنفي (م ٩٩٤ هـ) الذي بَقي في ربوع الحجاز يُوزِّع تراث الحديث النبوي الشريف ، وأثبت براعته في فن الحديث وعبقريته فيه .

وكان مَلِكُ العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكُجْراتي ـ الذي استمر يُدرِّس طوال نصف قرن من الزمن في العلوم النقلية والعقلية ، وبقي تلامذته يملؤون الدنيا علماً وبحثاً ، ويُدرِّسون ويُفيدون أكثر من قرن ـ بركةَ النصف

---

(١) «نهر واله» في الأصل معرب «انهلواره» وهو اسم مدينة في ولاية كجرات قديماً ، فتحها السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٦ هـ ، وتسمى الآن بـ«بتن» وإليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» (م ٩٨٦هـ).

(٢) راجع للتفصيل «النور السافر» ص ٤١٤ ـ ٤٣٩ .

الأخير من هذا القرن ، وتُوفي في أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ.

وكانت بلاد اليمن الميمونة ـ إذ ذاك ـ مركزاً لرواية الحديث ، والاعتناءِ بالأسانيد ، وكان مُحَدِّث اليمن الشيخ طه بن حسين بن عبد الرحمن الأَهْدَل يُـزَيِّن كرسي التدريس للحديث ، وتوفي هو أيضاً في العام نفسه ٩٩٨ هـ [١].

بدأتْ في هذا العصر رحلاتُ العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدوَّاني ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمي ، والشيخ مير غياث الدين منصور من إيران إلى الهند.

وجاء في عهد الملك هِمَايُون بن بابر التَّيْمُوري ، الشيخُ زين الدين محمود كمان كربهدائي ـ تلميذُ مولانا عبد الرحمن الجامي ، ومولانا عبد الغفور اللَّاري ـ إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه وعظَّمه.

وتَوجَّه في عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلاني ، والطبيب همايون (المعروف بحكيم هُمَام) ، ونور الدين قراري ، الإخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لديه.

ثم جاء بعدَ فترة العلامة محمد اليَزدي من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازي ـ وقد مرَّ في طريقه بِبْيَجابُور ، ومكث فيها مدة يسيرة ـ ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذَ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولَّى منصب الرئاسة للعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذي جَلب مؤلَّفات علماء إيران ، وترك آثاراً بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوبَ التدريس في الهند ، حتى كانت نتيجةُ هذا التأثير أخيراً المنهج الدراسي النِّظامي [٢] ، الذي لا يزال هو المنهج المقرر ،

---

(١) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة «البدر الطالع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني.

(٢) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل والكمال في شبه القارة الهندية ، وأفغانستان وتركستان أخيراً ، وينسب إلى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوي (م ١١٦١هـ) الذي تناوله بالتهذيب والكمال ، ولا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً في مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم.

والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية ، ويسيطر عليها [١] .

ونقف في هذا العصر على أسماء لعددٍ وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى «نيسابور» و«اسْتَرْ آباد» و«جُرْجَان» و«مَازِنْدران» و«كيلان» كانوا في الهند ، ولاسيَّما في جنوب الهند ، وكان لهم تأثيرٌ على الأمراء ، ومكانةٌ محترمة في البلاط [٢] .

ولم تكن أفغانستان رُغم رُوح الجندية والعسكرية ، وحملِ السيف والسنان ، أقلَّ شأناً في العلم ، والتدريس ، والتقعير في المسائل العلمية ، فكان القاضي محمد أَسلم الهَروي ، (الذي توفي في الهند سنة ١٠٦١ هـ) ولد في هَرَات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البَدَخْشَانِيّ ، في أفغانستان وكان الشيخ محمد صادق الحُلوائي كذلك من جلَّة علماء عصره .

وكانت «هُرَات» لوقوعها على تخوم إيران مركزاً للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهَروي ، ونجلُه النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد ـ الذي يعرف في أوساط المدارس الدينية في الهند بـ«مِيْرزَاهِد» ـ في العلوم العقلية ، وطبَّق صيتُهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التي تعرف بالزَّواهد الثلاثة صَولَةٌ وقبُولٌ عند العلماء وأساتذة الفن، ويعتنون بها اعتناء كبيراً، ويَقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ .

ولم يَقتصر تَتلمذُ أبناء الهند ، واستفادتهم من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدِّثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داود الكُجْراتي (٩٠٤ هـ) من تلامذة العلامة السَّخاوي ، أخذَ عنه الحديث ، وأرشده العلاَّمة السَّخاوي إلى رأي الشيخ العلاء البخاري الحنفي في ابن عربي ، وموقفه منه ، ليحمل

(١) راجع للتفصيل «الثقافة الإسلامية في الهند» (طبع المجمع العلمي بدمشق) للعلامة عبد الحي الحسني ، ومقالاً له بعنوان «المنهج الدراسي في الهند».
(٢) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر» ج٤ .

هذا الرأي إلى علماء الهند ومشايخها ، ويُعلمهم بذلك ، حتى يُصحِّحوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه [١].

وقد ذكر العلاَّمة السَّخاوي ترجمة تلميذه الهندي في كتابه «الضوء اللامع» واعترف بفضله ونبوغه العلمي ، وكان الشيخ عليُّ بن حسام الدين المُتَّقي ـ إمام فنِّ الحديث في عصره ـ ومؤلِّف «كنز العمَّال» ـ الذي قيل عنه : «إنَّ للسُّيوطي مِنَّة على الدنيا ، وإن لعليٍّ المُتقي مِنَّة على السيوطي» ـ كان من التلامذة النجباء لأبي الحسن الشافعي البكري ، مدرس الحرم المكي ، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ، مُفتي مكة المكرمة ، ومُحدِّثها في عصره .

ظهر لنا مِمَّا تقدَّم أنَّ الهند ـ رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم تَبْقَ طريقٌ للعلاقة بينها وبين العالم الخارجي ، إلا ممرُّ (بَوْلاَن) في (بُلُوْجِسْتَان) وممرُّ (خَيْبَر) في الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل في الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتُعطي ، وتستفيد وتُفيد وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرةُ استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لأنَّ الدين والعلم لا يصلان إلى الهند إلا عن طريق إيران وتركستان .

* * *

(١) راجع «نزهة الخواطر» ج٤ .

د ـ الاضطراب في الأفكار ، والفَوضى في العقائد

إنَّ الدراسة العلمية ، والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى غير مُستكملة إذا لم نتعرض لذلك الاضطراب الفكري، والفوضى في العقائد، التي نَلمسُ آثارها في الهند ، وفيما يُجاورِها من البلدان في العصر الذي نُؤرِّخه حتى تتَّضح ملامحُ هذا القرن ، والأوضاعُ السائدة فيه ، وحتى لا يَقع القارىء في الخطأ ، ويظن أن بَحر الحياة الزاخر ـ الذي كان يَمتدُّ ويفيض على آلاف الأميال ـ كان في هُدوء تام ، وكان من السهل تجديفُ سفينة التعليم ، والتربية ، والتزكية ، والإصلاح والتجديد فيه ، وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان هذا البحر ، أو تورُّط السفينة في لُجَّته ، إذا كان هذا التصور صحيحاً لكان هذا العصر أحق بأن يُختار له عنوان «التعليم والتربية» و«النشر والتوزيع» بدلاً من أن يكون له عنوان «الإصلاح والتجديد».

ولقد تضافرتْ عوامل كثيرة ، من أهمِّها :

١ ـ بُعْدُ الهند عن مركز الإسلام الديني والثقافي ـ بلاد الحجاز ومصر والشام والعراق ـ.

٢ ـ ووصولُ الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان وإيران.

٣ ـ وقِلَّة شيوع اللغة العربية فيها.

٤ ـ وعدمُ الاعتناء بنشر علم الحديث ـ الذي لا يزال يَبث روح الدين الصحيح ، ويُميِّز السنة عن البدعة ، ويُقوي الشعور بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويُوجد ملكة الاحتساب الديني الصحيح ـ.

٥ ـ ومنها صعوبة السفر للحج ، والرحلة في طَلب العلم إلى البلدان الأخرى.

٦ ـ وبقاءُ أقلية المسلمين مغمورة في أكثرية غير المسلمين ـ الذين كانوا متشبِّثين بعقائدهم ، متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الإسلامية ، وغارقين في الخرافات والأوهام.

وتضافرت هذه العوامل كلُّها على تحويل المسلمين مرتعاً خَصْباً ، للدعوات المضطربة ، والفِرَق الضالة ، والمحترفين بالدين الذين خرجوا يُمثِّلون دورهم ، ويجرِّبون حظهم في إضلال المسلمين.

وكان في مقدِّمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيُّع المتطرف المهاجم الذي نشأ وترعرع بتأثير الإيرانيين في بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفي كشمير ، فقد اعتنق برهانُ نظام شاه ـ أمير ولاية أحمد نَـكَر ـ في أواسط القرن العاشر ، المذهبَ الشيعي بتأثير الشيخ طاهر بن رضا الإسماعيلي القزويني ـ الذي فرَّ من إيران خوفاً من الشاه إسماعيل الصَّفوي إلى (أحمد نكر) ، وسكن هنا ـ.

وغلا برهان نظام شاه في مذهبه الجديد ، وتطرَّف ، حتى أمر الناس بِسبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ـ علناً وجهراً ـ في المساجد والرِّباطات وعلى الشوارع ، وفي الأسواق ، وعيَّن رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه « الخدمة » ، وقتلَ كثيراً من أهل السنة والجماعة ، وأسَر كثيراً منهم ، وجاء بأمور شنيعة[1].

وانتشر المذهبُ الشيعي في (كشمير) بجهود مير شمس الدين العراقي ، الذي بذل مساعي كبيرة في نشر هذا المذهب ، وتحمَّس للدعوة إليه ، ويقال إنه أدخل ٣٤ ألفاً من الهنادك في المذهب الشيعي.

كما يُذكر أيضاً أنه اخترع ديناً جديداً سمَّاه «نور بَخْشِي» ، وألَّف كتاباً في الفقه ، يُخالِف فقهَ أهل السنة وفقه الإمامية كذلك ، ويقولون: إن فرقةً جديدة

---

(١) راجع للتفصيل «تاريخ فرشته» تأليف محمد قاسم البيجابوري (وكان محمد قاسم هذا من الفرقة الإمامية).

نشأت في كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش «مهديٌّ موعود» (١).

ولما توجَّه الملك همَايُون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الإيرانية ، كان شاه طهماسب يتولى الحكم فيها ، فعرضَ على الملك همايون مذهبَ الشيعة ، وراوده إلى أن يعتنق هذا المذهب ، فقال همايون: أرى أن تكتبوا لي جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنيةِ الإسماع (٢).

ولا توجَدُ لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيُّع ، ولكن لا يستبعد ـ بعد إقامته في إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب ، والمساعدة العسكرية السخية ، وما أنتج كل ذلك من عواطف تقدير وشكر ـ أن يكونَ قلبه قد مال إلى المذهب الإمامي ، الذي لم يكن مذهبَ سلفه التيموريِّين ، وكانوا مُتمسِّكين بالعقيدة السنية والمذهب الحنفي ، وكان بعضهم له ارتباط وثيقٌ بالمشايخ النقشبندية ، فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاطه ، أن يَقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم.

وصحب الملكَ همايُون إلى الهند: أمراءُ قُزلباش لمساعدته، وكان الملك همايون في نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقاً بأخلاق كريمة، وثقافة واسعة، يحـافظ على الوضوء ، وكان لا يسمِّي الرسول ﷺ إلا على طهارة تأدُّباً معه ، وتعظيماً لحرمته ، وكان نازلاً من درج مكتبته في يوم من الأيام إذ سمع الأذان ، فجلس تأدباً ، فزلَّت قدمه وسقط ، ثم توفي في ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ.

وكان من خاصَّة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بَيْرَم خَانْخَانَان الذي كان مُتفنِّناً في الفضائل العلمية والعملية ، وكان من خِيار القادة العسكريين والأمراء النابغين ، يَمتاز برقَّة القلب ، والمحافظة على الجمعة والجماعة ،

(١) راجع «تاريخ فرشته» لمحمد قاسم البيجابوري.
(٢) انظر «منتخب التواريخ» ج١، ص ٤٤٥.

يُكرِم العلماء والمشايخ ويحترمهم ، ولكنه يَعتقد تفضيل علي ـ رضي الله عنه ـ على غيره من الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ ، وله بيتٌ معروف ، يقول فيه :

«إنَّ الملك الكبير الذي يبلغ علمه عنان السَّماء ، إذا لم يكن من خدم علي فقد تربت يمينُه ، وَرَغم أنـفُـهُ» .

وكان لمير شريف الآمُلي اليدُ الطولى في العلومِ العقلية ، نزل الهند في عهد الملك الأكبر ، فاستقبلَه أكبر بحفاوة بالغة ، وعظَّم شأنه ، وولَّاه رئاسة كابل عام ٩٩٣هـ ، ثم رئاسة (بَـنْـكَالَـهْ) عام ٩٩٩هـ ، وأقطعه الأراضي في «أَجْمِيْر» و«مُوْهَان» ، يقول خافي خان مؤلف «مآثر الأمراء» :

«إنَّه كان مُلْحِداً زنديقاً ، خَلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ: العينية» .

وكانت ـ إذ ذاك ـ في الهند حركتان هدامتان تُشكِّلان الخطرَ على الإسلام ، وتُثيران الفوضى والاضطراب في العقائد والأفكار .

إحداهما : «حركة ذكرى» التي كانت مُؤسَّسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، وبدايةِ نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني ، نشأتْ هذه الحركة في بُلُوْجِسْتَان ، ونَمَتْ وقَوِيَتْ .

وقد ظهر مُلاَّ محمد الذي تزعم هذه الفرقة في قرية «أتك» عام ٩٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب «من هم ذكرى؟» ، الذي هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة ـ عن مؤسِّسها ملاَّ محمد :

«ظهر (مُلاَّ محمد) ليلة الإثنين عند السحر ، نازلاً من بلد «قطب» إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفي كسوة أهل الفقر والزهد ، في منطقة (أتكا) الجبلية ، بوضع قَدَمَيْه المباركَتين على جبل عالٍ عام ٩٩٧ هـ [١] .

(١) انظر كتاب «من هم ذكرى؟» ص١٣ .

وَيَعتبر أتباعُ حركة «ذكرى» أَنَّ مؤسِّسها محمد أفضَلُ الرسل، وخاتم النبيين ، ونُـور الأولين والآخرين. جـاء في «موسى نَامَهْ» النسخة الخطية :

«قـال الله تعالى: يا موسى لم أخلق نبياً بعد المهدي ، وهـذا هو نُور الأولين والآخرين، الذي سأخلقه بعد» [(١)].

وقد وردتْ في كُتب هذه الفرقةُ مثل «معراج نامه» و«ثناء مهدي» و«سفرنامه» «مهدي» و«ذكر إلهي» وغيرها من الكتب عباراتٌ صريحة تدلُّ على العقائد المتطرفة ، في تَنزيه ملا محمد مؤسِّس هذه الفرقة وتقديسه ، وترجيحه على جميع الأنبياء والمرسلين ، وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ .

وتتجلَّى فيها نماذج غريبة للكذب والافتراء والتدجيل، والتَّلبيس الباطل ، والجرأة الوقحة على الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهي «لا إله إلا الله نور باك محمد مهدي رسول الله» ، وكانوا يضحكون على المصلِّين ، ويستهزئون بهم ويُكفِّرونهم[(٢)]، ويُكفِّرون القائمين بالصوم والزكاة والحج من المسلمين، ويَرون حج جبل «مراد» واجباً بدل حج بيت الله [(٣)].

يقول مؤلِّف «تاريخ خَوَانين بُلُوج»: «إن هذه الديانة «الذكرية» المعارضة للإسلام كانت سائدة في بعض مناطق بُلُوْجِسْتَان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلمين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ومحافظتهم عليها ، فقام الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية وقتال «الذكريين» ومكافحة بِدَعهم وشِركهم وعداوتهم للإسلام ، حتى وَقعتْ معارك

---

(١) انظر كتاب «من هم ذكرى ؟» ص ١١٨ .

(٢) انظر «اعتقاد نامه» (النسخة الخطية).

(٣) راجع مؤلفات أصحاب الفرقة الذكرية «ذكر توحيد» (مطبوع) و«أناذكرى» و«تفسير ذكر الله» (مطبوع)، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع(baluchistan district Gazettier) التي جاءت فيه تصريحات أن عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد أهل السنة اختلافاً جذرياً (ص ١١٦ من المطبوعة).

دامية حاسمة استُؤصلت على أثرها شوكة هؤلاء المارقين وقُضي على بدعهم وخرافاتهم»[١].

والفِرقة الثانية: المشبوهة في الهند كانت «الفرقة الرَّوْشَنَائِيَّـة»، وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغاني السياسي والعسكري الذي آل إلى الانقراض، ومُقاومة السيطرة المغولية التي كانت تمتد شرقاً وغرباً، وما قامت به في هذا الصدد من دور كبير[٢]، يجعل كتابات المؤلِّفين في هذا العصر وتصريحاتهم، في حاجة إلى التأمل الكثير، والتحقيق الدقيق، ليُعلم إلى أي حد عملت فيه المصالح السياسية، وما هي حقيقتُها التاريخية الصحيحة؟ فإنه يُوجد هناك تعارض واسع المدى في تصريحات أتباع هذه الفرقة وحُماتها، وتصريحات مخالفيها وأعدائها، فيسمي أتباعُها مؤسس الفرقة بـ«بير رَوْشَن» (أي الشيخ المنوّر)، ويسمِّيه المعارضون بـ«بيرتاريك» (أي الشيخ المظلم)، وكان مؤسِّس هذه الفرقة «بايزيد الأنصاري»، وكان يقال له «بير رَوْشَان» (أو رَوْشَن).

وُلد بايَزِيْد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ في «جَالِنْدَهَر» قبل تولي الملك بابر بسنة واحدة، ولقد قضى طفولته ويَفاعته في صراع قائم في أسرته، وفي عدم اهتمام بشأنه وقلة مبالاة به، فشبَّ ولم يُكمل دراسته، واتفق أنه في بعض أسفاره التقى ـ كما تقول بعض الروايات ـ بسليمان الإسماعيلي، ويذكر أيضاً أنه

---

(١) انظر «تاريخ بلوج»، استفدت من موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر في مجلة «الحق» الصادرة من «أكوره ختك» مجلد ١٩٧٩ م، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربي بلوجستان، وراجع أيضاً مقالاً بعنوان «دراسة تفصيلية للديانة الذكرية» «مجلة الحق» عدد شهر يناير ١٩٨٠.

(٢) من الممكن ـ بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام في ذلك العصر ـ أن يكون بعض الطامحين البعيدي النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الأفغان، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية، لمحاربة الدولة المغولية الفتية، واستعادة سلطة الأفغان الذاهبة، وإقامة دولتهم من جديد.

صحب «اليُوْكِيِّن» [١]، ويقول المترجمون له: إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى، ويسمع أصواتاً تناديه من وراء الغيب ، فاشتغل بالذكر الخفي ، ثم استغرق في ورد «الاسم الأعظم».

فلمَّا بلغ الحادية والأربعين من عمره، هَتف به هاتف من السماء أنه لم يعد في حاجة إلى الطهارة الشرعية ، وينبغي له أن يصلِّي صلاة الأنبياء [٢] ، بدل صلاة المسلمين، ثم جعل يعتقد أن الناس كلهم منافقون ومشركون ، وانصرف إلى (الرياضة الأربعينية) ، ثم أمر بأن يصدع بدعوته ، ويبلغ دينه واهتم بدعوى المهدية ، والإلهامات الربانية [٣] وظلَّ مُرِيدوه يزدادون كل يوم ، وعَين بعضاً منهم خلفاء ليقوموا بالدعوة والتبليغ ، ويوسعوا نطاق حركته.

ولكنَّ تعاليمه التي وردت في كتابه «صراط التوحيد» يظهر عليها أثر التعاليم الصوفية الغالية ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذي ينشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مُرْشِدٍ روحيٍّ خبير ، ولايحملون العلم الصحيح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، كما ذكر فيها شيئاً من عقائده وأصوله، ولعلَّها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التي كان يحارب فيها المغول ، والقبائل الأفغانية المعارضة.

وبايَعتهُ عدةُ قبائل أفغانية بمنطقة (بِشَاوَر)، ودخلت في دائرة مريديه وأتباعه وبدأت قبيلة «مهمندزئي» بنشر هذه الدعوة ، وتأثر بذلك السِّنْدِيُّون والبَلُوْجِيُّون، وكُتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ومشايخ الطرق.

وبَعث الشيخ بايزيد دعاتهِ إلى حكام البلدان المجاورة ، وأمرائها

---

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة، والنسَّاك منهم.

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه في كتابه «مقصود المؤمنين»: «إن الشريعة مثل لحاء الشجر وإنه لا حياة للشجر بدون لحاء» (ص٤٤٤) النسخة الخطية، مكتبة جامعة بنجاب.

(٣) وقد رد الشيخ بايزيد نفسه على هذا الاتهام بأنه «مهدي» كما جاء في المناقشة التي جرت بينه وبين قاضي خان الكابلي (انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب).

وعلمائها ، فجاء حاكمٌ من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك (أكبر).

وقَضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة في حرب المغول، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة «كَالآبَانِي» ، ودُفن في «هِشْتَ نَـكَر» ، وبقيت من مؤلفاته ثلاثة كتب ، وهي «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» و«صراط التوحيد»، التي تناولَ فيها أصول فرقته وعقائدها بالإيضاح والتفصيل.

ويعتبر «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» كتابين شِبه مُقدَّسين عند أتباع هذه الفرقة.

وكان أكبرُ معارضيه أخوند درويزه، الذي كان مريداً للسيد علي الترمذي المعروف ب «بيربابا» (م ٩٩١ هـ)، ألَّف في الرد عليه كتاب «مخزن الإسلام».

وألَّف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم «حال نامه بير دَسْتكِيْر» (بالفارسية) ورتبه علي محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً.

وتفرَّق أتباعُ هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة في مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقص عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا، وانقرضت هذه الفرقة [١].

يتحدَّث مِرْزا نَصر الله خان فدائي مؤلف «داستان تركتازان هند» (قصة غزاة الهند) عن هذه الفِرقة ، فيقول:

«إنَّ الفرقة الرَّوشنائية هي تلك الفِرقة التي أسسها «بايزيد» أحدُ أبناء الهند ، أنه دخل في الأفغان وادعى النبوة، وتسمى بـ«النبي الروشنائي» وكسِب أتباعاً وأنصاراً ، فرفضوا الصُّحف السماوية ونبذوا عبادة الله، وتُفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود [٢]، ويعتقد أنه ليس هناك إلاّ «واجب الوجود»، وكان

---

(١) استفدت هذه المعلوماتُ من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الأردية) ج٤.

(٢) ولم يكن ذلك بدعاً في العصر ، فقد كان أكثر الصوفية والمشايخ (لاسيما في الهند) يبالغون في هذه العقيدة (المؤلف).

يُمجِّد الرسول العربي ﷺ وكان يُبشِّر الناس بقُرب اليوم الذي تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، ويتصرفُ فيها كما يشاء».

«ويُستفاد من كتاب بايزيد في ترجمة حياته أنه كان مخاطَباً بالإلهامات، وأن جبريل كان ينزل عليه ، وأنَّ الله شرَّفه بالنبوة ، وكان يستدل على مسلكه هذا بقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] ولم يكن يرى الغُسل بالماء واجباً ، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه»[١].

وذكر مِرزا نصر الله شيئاً من أقواله التي يغلب عليها طابع التصوف ، والمعاني الروحية ، إلاَّ أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية ، وأفكارٍ غير سليمة ، يقول:

«كان أهمَّ ما يعتني به ويحث عليه: معرفةُ الله ومعرفة الذات ، فإذا وجد هِنْدُوكياً يعرف نفسه ، يُرجِّحه على المسلم الذي لا يعرف نفسه ، ويأخذ الجِزية من المسلمين ، وكان يَضع الخُمس في بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق والفجور والظلم والعدوان ، له مؤلفات عديدة في العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب «خير البيان»، الذي أَلَّفه في أربع لغات، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلامُ الله المباشر إليه ، والصَّحيفة السماوية المنزلة عليه»[٢].

وتدلُّ كُتب التاريخ التي أُلِّفت في عصره، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، وكوَّن منهم قوة مهابة ، واستولى على ممَرِّ (خَيْبَر) بعد أن جعل مقرَّه في «كوة سليمان» وكان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر لمقاومته، وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلُّبَ عليه واستئصال شأفة هذه الحركة.

---

(١) انظر «داستان تركتازان هند» ص٣٠٤ ـ٣٠٥.

(٢) نقلاً عن «حال نامه بايزيد» المندرج في «ديستان مذاهب» للملاَّ حسن خان ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩.

واستمر أبناءُ بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته، على معارضة الحكومة المغولية، وخطراً دائماً لهذه الدولة، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية، كـرَاجَهْ مَانْ سِنْكه، وبَيْرَبَل، وزَيْن خان أن ينتصروا عليهم، بل إن «بيربل» لقي حتفه في معركة من المعارك معهم، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخُذلان عام ٩٩٥ هـ، في كرَّة على الروشنائيين، ولم يُقض على هذه الفتنة إلاَّ في عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨ هـ[1].

المَهْدَوِيّـة:

وكان من أنشط الحركات المتطرِّفة وأقواها في ذلك العصر، حركة المهدوية، التي هَزَّتِ المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية، وما جاورها من البلاد هزاً لم يَعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمن بعيد، مُنشِئها السيد محمد بن يوسف الجُونبُورِي الذي وُلد عام ٨٧٤ هـ، وتوفي في أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ، إلا أنَّ حركته القوية خلَّفت آثاراً تمتدُّ إلى أواخر القرن العاشر، ونستنتج مما كتبه المؤرِّخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلي:

١ ـ كان السيد محمد الجُونبُوري من نوابغ الرجال خُلقاً وديناً، وتأثيراً روحياً قوياً، لا تُنتج أمثالهم الدنيا، إلا بعد قرونٍ وعهود طويلة، كان شجاعاً جريئاً مُنذ ريعان شبابه قَلِقاً على أوضاع عصره، وظروفه، صادعاً بالحق، جاهراً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، زاجراً عن المناهي، مشدِّداً في الإنكار، ولُقِّب لأجل هذه الخصال في عصره بأسَد العلماء، أخذ عِلم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال، والتزم المجاهدات الشاقة، والرياضات الشديدة.

وقضى أعواماً في الأودية والجبال، مُعتزلاً عن الناس، وذلك ما يؤدِّي في الغالب ـ لا سيَّما إذا لم تكن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد

(١) ملخص من كتاب «داستان بركتازان هند».

خبير ، وإرشاداته وتعاليمه ـ إلى وقوع الإرشادات الغيبية، والواردات القلبية التي يُخاف منها زلة الأقدام، والخطأ في الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان ـ الذي لم ترسخ قدمه في العلم ، ولم يَبلغ درجة البحث والتحقيق ـ الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية في غير معانيها ، فكان منه أن ادَّعى في رحلة من رحلاته أنه «المهدي» وأعلن بعد ذلك ـ عدَّة مرَّات في أمكنة مختلفة ـ أنه المهدي الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به.

٢ ـ وكان ـ لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يَملك تأثيراً قوياً ، فكان يَسحر الناسَ بشخصيته ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والمُلوك والأمراء ويجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير ويستمعون إليه في دهشة وتأثُّر وانبهار ، ويَهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد في الدنيا وهجر الأوطان ، ومرافقته في السفر والحضر ، والتسليمُ له والانقياد لأمره ، حدَث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجي ، في عاصمة حكومته «مَانْدُو» ، وكان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكُجْراتي في جانبانير بكُجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحري العجيب في «أحمد نَـكَر» و«أحمد آباد» و«بِيْدَرْ» و«كُلْبَرْكَهْ» حيث تهافتَ عليه الناس ، وبايَعه خلق كثير ، وانضم إلى رَكبه آلافٌ من الناس ، وشهدت منطقة السِّند اجتماعاً حاشداً ، وجموعاً متدفقة كالسيل ، وكان لخطابه في «قَنْدَهَار» دوي عظيم حرَّك ساكن البلد وهز الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مِرْزَاشاه بَيْك وأكبرهُ.

٣ ـ وكانتْ حياتُه حياةَ زُهد وتجرد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله ـ تعالى ـ وكان الناس يشاهدون منه ـ سفراً كان أو حَضَراً ـ مظاهرَ الزُّهد والإيثار ، والذكر والعبادة ، يُوزِّع الطعام على الناس بالسَّوية من غير تمييز بينَ غَنيٍّ وفقير ، أهلُه وأفراد أُسرته لا يمتازون عن الناس في شيء ، فكان هذا

الجو الإيماني يؤثِّر على جميع الوافدين ، فلا يَرجعون من عنده إلاَّ معجبين به ، مأخوذين بتأثيره.

٤ ـ أنجبتْ هذه الحركةُ رجالاً أقوياء مُخلصين يستميتون في الدعوة ، ويُجاهِدون في سبيلها ، ولا يخافون سُلطة وسطوة ، ويقومون بواجب «كلمة حقٍّ عند سلطان جائر» بشجاعةٍ نادرة وجرأة خارقة ، يتحمَّلون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وَهبوا نفوسهم ومُهجهم في هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يَقفُ الإنسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب وإكبار وانفعال ، ويَضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجُونْبُوري وصحبته.

واقرأ ـ على سبيل المثال ـ ترجمةَ الشيخ علاء بن حسن البَيَانَوِي (الشيخ العلائي ـ م ٩٥٧ هـ) الذي قام بمسؤولية الدعوة ، والوعظ والتذكير في بلاط السلطان سليم بن شيرشاه السُّوري ، واقتصر على تحية الإسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة والانحناءِ والخضوع.

وضُرب بالسياط ـ ذات مرة ـ في حالِ إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضَّرب ومات ، ورُبِط جسمُه برجل الفيل وطِيفَ به في المعسكر [1].

٥ ـ كانت دعوتُهُ مؤسَّسة على خمسة أصول:

(١) الانصراف عن الدنيا.

(٢) العزلة عن الخلق.

(٣) الهجرة عن الوطن.

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي ، «نزهة الخواطر» ج٤ ، و«منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البدايوني.

(٤) مصاحبة الصدِّيقين.

(٥) دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس)، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل ـ سواء كان بالعين أو بالقلب، في اليَقظة أو في المنام ـ شرطاً لازماً لتحقق الإيمان.

وقد صدرت عنه في حال السُّكر أو بسبب خطئه في فهم المعنى والمراد كلماتٌ وأقوال صريحة ودعاوى واضحة ـ مرَّات عديدة ـ ادعى فيها لنفسه ما لا نجدُ له تأويلاً أو مَحْملاً سائغاً إلاَّ بتكلف شديد، والتي أدَّت بأتباعه ـ مهما كانت نيَّتهم في بداية الأمر، ومَهْما كانت عواطفهُم الدِّينية الطيبة ـ إلى استحالتهم فرقةً جديدة، تُخالِف ما عليه الجمهور، وتُعارض أهل السنة والجماعة، وتستند إلى هذه الأقوال الشاذة، وتُؤسِّس عليها عقائدَها وأصول ديانتها.

ثم أضاف فيها الغُلاة من أتباعهم ـ كما هو المعروف في تاريخ الفِرَق ـ وبالغوا في تعظيمه وتقديسه، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين، بل فضَّلوه عليهم أحياناً.

وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مَرتبة النبي الخاتم ﷺ، وإن كان السيد محمد في زعمهم واعتقادهم تابعاً لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ومتقيِّداً بالشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

وبلَغ ببعضهم الغلو المُفرط، والتطرُّف الجانح إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله، أو فعلاً من أفعاله، فكتابُ الله وسنَّةُ رسوله تبعٌ لأقواله وأفعاله.

وغلوا غُلواً عجيباً في عقيدة مشاهدة الله تعالى فمن لم يشاهد «الأنوار الإلٰهية» بعين الرَّأس أو عن طريق القلب أو في حال اليقظة أو المنام، فليس بمؤمن، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة ـ بعد ظهور هذه العقائد ـ يتَّسع ويعمقُ على مر الزمان حتى شذَّت هذه الفرقة المدعوة

بـ«المهدية» عن أهل السنة والجماعة، وانقطعت صِلتُها بهم بصورة كاملة، وضاعتْ تلك الأهداف التي أُنشئت لها هذه الحركة، وكان يستهدفها مُؤسِّسها ويرمي إليها.

واستمرَّت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دُول في ولاية (دَكَن)، ويُقدَّر عدد أتباع هذه الفرقة وقوّتها السياسية التي ظهرت في أواخر القرن العاشر بأنَّ جمال خان المهدوي ـ الذي كان من كبار أصحاب المناصب في البلاط ـ لما تولَّى زمام الشؤون الملكية بولاية «أحمد نَكَر»، في عهد السلطان إسماعيل نظام شاه ـ وكان صغير السن إذ ذاك ـ إلى نِحلته، ثم لم يمض على ذلك كثيرُ زمن حتى اجتمعتْ لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد، والتفَّ حول جمال خان من المهدويين حوالي عشرة آلاف شخص، وخضعت له ولايةُ أحمد نكر، واستولى عليها استيلاءً كاملاً.

ثم لما عاد بُرهان شاه ـ وكان قد خرج في رحلة من الرحلات ـ إلى أحمد نكر، ٩٩٨هـ، قضى على النِّحلة المهدوية التي كانت انتشرت انتشاراً واسعاً، ونَشر المذهبَ الإماميَّ الذي كان عليه من قبله، وأحياه من جديد [١].

وظهر في أواخر القرن العاشر إعياءٌ وضعفٌ شديدٌ في الحركة المهدوية، وقد كانت هذه الدعوة، وادعاءاتُ السيد محمد الجُوْنبُوري، وتشدُّد أتباعه الغلاة المتطرفين، تُحدثُ رَجَّة في معتقدات المجتمع المسلم، واضطراباً في الأفكار، وقلقاً في الأوضاع، وهال ذلك وأفزع العلماء الراسخين ـ في ذلك العصر ـ الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة، ومعرفةٍ تامة بالعلوم الدينية، وكانوا يتوجَّسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ويَرونها تمهيداً لضلال مستطير، وانحراف كبير.

---

(١) ملخَّص من «تاريخ هندوستان» ج٤، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي.

فنهض العلامة محمد طاهر الفَتْني مؤلِّف «مجمع بحار الأنوار» (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ)، وهو أكبر عالم ومحدِّث في عصره ، بتفنيد هذه الدعاوي والرد عليها ، وسَدّ هذه الثلمة في الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة ـ التي سادت في ولاية كجرات ، وقام لها دعاةٌ وأنصار ـ والقضاء عليها ، وأنه لا يَلُوث العمامة حتى يُزهق هذا الباطل وينتصر للحق .

ثم لما فتح الملك أكبر ولاية (كُجْرَات) عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفَتْنِي، لاثَ العمامة على رأسه بنفسه ، وقال له : «إنَّ ما عاهدتَ الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة ، عليَّ تنجيزهُ والقيام به» ، وولَّى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم «كجرات» الذي شدَّ أزر العلامة الفَتْني ، وساعده في عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقيل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، وولي مكانه عبدُ الرحيم خانخانان ،قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا في الميدان ، فحسَر العلامة الفَتْني رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، ولم يصل مدينة أجِّين حتى قتلوه غيلة [1] .

أسباب القلق والفوضى في الأفكار:

إنَّ دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدل على أن الأسباب الأصيلة والدوافع القَويَّة لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركاتِ الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدد ـ بصفة عامة ـ فيما يأتي :

١ ـ تعارض القول والفعل ، والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود في المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق

(١) راجع «نزهة الخواطر» ، ج٤.

والتوجُّع ، وهذا القلق ـ عندما يَبلغ مرحلةً خاصة من مراحل تطوره ـ يجدُ متنفَّساً في الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظُّ في إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة ، فإنهم يُصابون دائماً بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد والأفكار ، وتتحوَّل مثل هذه الحركات ـ بصفة عامة ـ إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبحُ أكثر فساداً وأعمق ضلالاً ، وأوسع خطراً واضطراباً للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده.

ويُخيَّل إلينا أن التَّرف وكثرة الأموال ، والطمعَ في المناصب والوظائف والتنافسَ في الحصول عليها ، جرَّ الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملي ، ووُجِدتْ طبقة كبيرة من عُبَّاد المادة وأبناء الدنيا ، الذين تخطَّوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ في حِلٍّ وغير حل ، غير مُبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية.

وتنشأ مثل هذه الطبقة ـ دائماً ـ في ظل حكوماتٍ واسعة قوية ، وفي عهود الأمن والاستقرار والرخاء.

ويبدو أن المجتمع الهندي في آخر عهد حكومة الأسرة السُّورية ، وبعد قيام الدولة المغُولية أصيب بهذا الداء العضال، واتَّجه هذا الاتجاه المتهور ، ونُفِّذت قوانين معارضة للإسلام ، وطبقت عاداتٌ وأعمال تُناوىء الدين ولا تمت إليه بأيِّ صلة [1].

وقد مُنيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة

(١) يستفاد من كتب التاريخ أنه في عهد السلطان سليم شاه (أو إسلام شاه) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار أصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسي في خيمة كبيرة ، فيحنون له رؤوسهم، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد آبادي، ج ٣، ص ٤٠).

المترفة ، وهي الطبقة التي يُسمِّيهم سيدنا حسن البصري ـ رضي الله عنه ـ (م ١١٠ هـ) بـ «المنافقين».

٢ـ استبدادُ الحكام والسلاطين، وسلطتهم المطلقة ، وظُلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعِبادتهم للنفس والأهواء مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات وحركات قوية تهزّ الدولة ، وتُلحق الأضرار بالمسلمين.

٣ ـ غَلبة الطقوس والتقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاطُ المجتمع الخلقي والعقلي ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرةُ التقليد الأعمى عليها [١]، وفُقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبُعدها عن الواقعية، وفَقْرها في إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المتشكِّكة، كل ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعواتٍ وحركات تَروي ظَمأَهم ويَجِدون فيها سلواهم ، وتَنهجُ لهم مسالك جديدة ـ خاطئة أو صحيحة ـ وتخرجُ بهم عن الدائرة الضَّيِّقة المحدودة.

٤ ـ كما أنَّ من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكري، غَفلةُ المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنَّة ، وقِلَّة العلم بالحديث الذي يُساعد على تكوين تصوُّر سَليمٍ وفهم صحيح للدين ، ويُعرف من خلال دراسته

(١) يصوِّر البروفسور خليق أحمد نظام رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكره الإسلامية ، هذا العهد ، ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فيقول:
«كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير ـ بسرعة ـ نحو التدني والانحطاط ، وإن ما جاء من القصص والروايات الغريبة في «افسانة شاهان» و«تاريخ داودي» تنم عن التسفل الخلقي المشين والاضطراب العقائدي العظيم ، إن حياة «الدراوشة» المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، في التمائم والحجب وأساطير السعالي والجن ، وروايات «مصباح سليمان» ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقي قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية ـ في حقيقة الأمر ـ محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلي ، والتزمت الفكري ، والجمود المذهبي (انظر «سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات ـ الميول الدينية لدى سلاطين دهلي ـ ص٤٥١»).

مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم ، وأُسوة الرسول ﷺ ،ومنهاج الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

٥ ـ عَدمُ وجود شخصية دينية قوية تَسْمُو على المستوى العام في مقدرته العقلية والروحية ، تملك التأثير القوي ، وتجذب النفوس ، وتأخـذُ بمجامـع القلوب ، وتُـزيل الرِّيبَ والشكـوك ، وتُـعالج الـروح القلقة ، والنفس المضطربة ، وتَنفُخ في جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، وتُعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام ، وصِدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأن أسباب الرقي والكمال موصولة بها ، راجعةٌ إليها.

وتدلُّنا دراسة تاريخ القرن العاشر ـ في ضوء كُتب السير والتراجم ، وسِجلاَّت الوقائع والحوادث ـ على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية للفوضى والاضطراب تضاعفت في الهند ـ على أقل تقدير ـ بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكري ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع في القرن العاشر.

* * *



البَابُ الثّاني

فتنة القرن العاشر الهجري الكبرى

فِتنة القرن العاشر الكُبرى

١ ـ الاعتقادُ ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألفِ الثاني من الهجرة:

مُغالطةٌ في قَضية الألفِ الثاني:

تَحمِلُ أواخر القرن العاشر الهجري أَهميَّةً كبيرة ، من حيثُ إن التقويم الإسلامي كاد يَطوي فيها مرحلة من مراحل عُمره ـ وهي مدَّة ألف سنة ـ ويستأنفُ مرحلة ثانية ، وهو الألف الثاني الذي يبتدىء من ١٠٠١ هجرية.

وليس هذا التحوُّل ـ في الأوضاع العادية ـ أمراً خطيراً ، أو شيئاً يسترعي الانتباه ، فالدنيا ـ في عُمرها الطويل ـ والحياة الإنسانية ـ في تقويمها المديد ـ تَقْلبُ ورقة من عُمرها عند إيذانِ كُلِّ قرن بالرحيل ، وولادةِ قرن جديد ، كذلك كان القرن العاشرُ على انصرام وارتحال ، والقرن الحادي عشر على وصول واستهلال ، لا أقلَّ ولا أكثر ، ولم يكن ذلك بِدعاً من الأمر ، ولا حادثاً لم يَسْبقْ له نظير.

ولكن لا يَعزبُ عن البال أنَّ الزمن كان زمنَ اضطراب شديد في الأذهان والعقول ، وتزلزل في العقائد والأصول ، وغفلة عن التعاليم الصحيحة للكتاب والسنَّة ، وجهل مُطبق ، ونُفورٍ من علوم الدين ، واستنكاف عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، واعتبارِ علوم اليونان غاية مدارك العقول الإنسانية ،

تُسمَّى بـ«الحكمة» و«مقياس النبوغ والذكاء» والأفق البعيد في آفاق العلوم الإنسانية ، والمدارك البشرية الواسعة ، وكان شَقُّ الشَّعرة ، وصنع القُبَّة من الحبَّة في البحوث المنطقية والفلسفية والكلامية ، هي السِّدرة المنتهى والغاية الكبرى من المناهج الدراسية ، وفي الأوساط العلمية ، وعمَّت فيها الاستهانة بقيمة العلوم النبوية ، والوحي والتنزيل ، والنصوص القرآنية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ويُعتبر الإيمان بها والإذعان لها جَهلاً وتقليداً أَعمى ، ومعاداة للعقل والتفكير.

هذا ، وكانت الثورة ضدَّ حكومات ذلك العصر ، ونُظمه السياسية التي كانت تَستَندُ ـ مُخلصةً أو غير مخلصة ـ إلى الدين، وتعتَمدُ للحفاظ على سلطتها عليه، «موضة» العصر وشِعار الأحرار.

كلُّ ذلك سبَّب وجودَ بعض المغامرين الطامحين الأذكياء المتسلِّحين بعلوم عصرهم ، فأصبَحوا يحلمون بالسلطة، ونَيل الجاه ، والرِّيادة والقيادة للعصر الجديد ، وتُدغدِغُ[1] قلوبَهم الأماني المعسولةُ باستغلال تقلُّب الليل والنهار ، وأن يَستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخَلاقهم، ويَستفيدوا من تداول الأيام بين الناس، كما استفاد مؤسِّسو الديانات ـ في زعمهم ـ في العصور التي كانوا فيها، وأن يبدأ بدعوتهم وحركتهم تقويمٌ جديد في تاريخ الشعوب والبلاد ، كما بدأ التقويم الإسلامي الهجري بدعوة نبينا محمد ﷺ ، وظهوره في جزيرة العرب، والذي كان بداية عهد جديد احتضنَ العالم كله.

واعتبروا انتهاء الألف الأول في تقويم العالم وتاريخ هذا الدين ، واستئناف الألف الثاني حَدَثاً كبيراً ، وفُرصة سانحة لا تأتي بسهولة ، وفي فترات قريبة ، فلو أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، كان لا بدَّ من انتظار ألفِ آخر ، ولا سبيل إليه ، فليس من الفِطنة والكياسة ـ كما ظنوا ـ تفويتُ هذه الفرصة ، وإلا فسوف يَندمون وَلاتَ ساعةَ مَندم.

---

(١) الدغدغة : تجميش في مواضع من البدن كأخمص القدم والإبط يهيج له الضحك.

إنَّنا لَنَشْهد ظِلال هذه الفكرة ، وآثار هذه الأماني الحالمة في مُختلف مناطق العالم الإسلامي في النِّصف الأخير من القرن العاشر ، ولا سيَّما في منطقة إيران ـ وهي جديرة بأن تسمَّى في ذلك العهد بيُونان الشرق ـ التي كانتْ أكثر مناطق العالم الإسلامي قلقاً واضطراباً ، وذكاء ، وشِدَّة حساسية ، وتوغُّلاً في العلوم العقلية اليونانية ، وافتتاناً بها ، وكان الألف الأول من التقويم الهجري على وشك الانتهاء ، وكان ذلك للمرة الأولى بعدَ ظهور الإسلام ، وكان الألف الثاني يَستعد ليبدأ دوره في التاريخ .

وقد ثَبَتَ في الأحاديثِ الصحيحة ظهورُ مجدِّدٍ على رأس كل مئة سنة [1] ، ويَشهدُ عليه التاريخ ، فكان بعض الأذكياء يَحلمون ـ عند بداية الألف الثاني ـ بنُهوض مؤسِّس للدِّين الجديد ، مكانَ مُجدِّد للدين القديم ، لما بين مئة سنة وألف سنة من الفرق الواسع ، والتفاوت العظيم ، وبدأ كثير من هؤلاء المغامرين الحالمين يُحاولون أن يُرشِّحوا نفُوسهم لهذا المنصب الجليل .

ولم يُكتب ـ مع الأسف ـ تاريخ مُرتَّب يُعنى بعَرض عقلية هذا العصر ، واستعراضِه فكرياً ونفسياً ، تتجلَّى فيه ظلال العواطف والخواطر المعتلجة في القلوب ، والأحلام والأماني السارية في النفوس ، والتصوراتِ والأخيلة المتحركة في الأذهان ، فإنَّ كُتبَ التاريخ القديمة والحديثة ، تدور كلُّها حول البلاط والملوك ، وتروي لنا قصصَ تداول الحكومات وانقلاب الدول ، والفتوح والهزائم ، وعطايا الملوك ، وعَزل الأمراء والولاة ونَصْبهم ، وأحوال الترف والبذخ ، وروايات الحرب والضرب ، فلو كان بين أيدينا تاريخٌ مُدوَّن لعقلية العالم الإسلامي وفكره في القرن العاشر لرأينا بوضُوح أنَّه عند قُرب طلوع الألف الثاني راود الأمل كثيراً من النفوس ، وداعبت الأماني والأحلام كثيراً من القلوب ، وأنهم بدؤوا يجمعون العدة والعتاد للتربع على عرش

(١) ممَّا رواه أصحاب السنن : «إنَّ الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لهذه الأمة أمرَ دينها» [أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة ، برقم (٤٢٩١) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

القيادة ، ويمدون أطناب سيادة جديدة لعصر جديد .

لقد طُوِي بساطُ دعاء الخلق إلى الله وتزكية النفوس (التي سُمِّيت في العهد الأخير بالتصوُّف) بعد قيام الدولة الصفوية التي جَعلتِ المذهب الشِّيعي مذهباً سائداً في إيران ، وبالرغم من أن الجدَّ الأول لمؤسسي هذه الدوله الشيخُ صفي الدين كان صُوفيَّ المشرب والمسلك ، ولكن لما أن التشيُّع يُعادي التصوُّف ، عادت إيران في عَهد هذه الدولة الصفوية ـ التي أنجبتْ أمثالَ الإمام الغزالي الطُّوسي، والشيخ فَريد الدين عَطَّار النيسابوري ، ومولانا جلال الدين الرُّومي [١] ، ومولانا عبد الرَّحمن الجامي من العارفين المحقِّقين ، والتي أتحفت بغداد ، و«دهلي» و«أَجْمِيْر» بسيدنا عبد القادر الجيلاني ، وشيخ الشيوخ شهاب الدين السَّهَرْوَرْدِي ، والشيخ مُعين الدين الجِشْتِي ، والشيخ قطب الدين بُخْتِيَار الكَعْكِي الأوشي ـ لا تَعرف إلا العلوم العقلية اليونانية ، أو «الحرفية» المذهبية الطائفية .

وعاد علمُ الحديث ـ الذي كانت إيران مركزاً كبيراً من مراكزه ، والتي أَسعدتِ التاريخ الإسلامي بأمثال الإمام مسلم بن الحجَّاج القُشيري النيسابوري ، وأبي عيسى الترمذي ، وأبي داود السّجستاني ، وابن ماجه القَزويني ، وأبي عبد الرحمن النَّسائي من أئمة الحديث وأصحاب الكتب الخمسة ـ لا يَعرفُ له أنيساً ولا جليساً .

واختفتْ معالم الكتاب والسنة ، واحتلت العلوم اليونانية من المنطق والفلسفة مكانَ الصدارة ، وأصبحت مقياس الفضل والكمال ، وإنَّ هذه الثورة على العلوم الإسلامية الأصيلة التي كانت قَطعتْ صلة هذه البلاد الخصبة ، الغنية بالعبقريات ، على صحابة الرسول ﷺ وسُنَّته وأحاديثه ، أضعفت صلة الطَّبقةِ المثقفة الذكية ـ في هذه البلاد ـ بالنبوة المحمدية ، وعقيدة ختم الرسالة وخلود الإسلام ، وصلُوحه للبقاء ، إن لم تقطعها بصورة كاملة ، وأنَّه لو لم

(١) كان من سكَّان بلخ الواقع في خراسان ـ وهو يقع الآن في أفغانستان.

يكن الانتماء إلى أهل بيت النبي ﷺ على أساس التشيُّع ـ والاعتقاد فيهم ، لكان يخيم على هذه البلاد خطر العودة إلى المجوسية، وحضارة ما قبل الإسلام، وعَهْد رستم ، واسفنديار أبطال «الشَّاهْنَامَهْ» (الملحمة الإيرانية للفِردوسي) وتحولها جاهليةً بعدما دخلت في الإسلام.

٢ ـ الحركة النقطوية:

ولا يُستبعَد ـ في مثل هذه الأوضاع المتردية بإيران ـ نشوءُ حركات هدامة ، ومؤامراتٍ عقلية وفكرية للقضاء على الإسلام وهَدم كيانه ، وقد بلغت هذه الفكرة أَوجَها في «الحركة النقطوية» التي ظهرت في أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر ، والتي تَدُلُّ على الروح القَلقة في إيران التي ظهرت في صورة «مَزدك» تارة ، وفي مسلاخ «ماني» تارة ، وفي لباس حسن بن الصباح أخرى ، وكانت حركة إلحاد وزندقة ، يقول إسكندر منشى:

«تَعتقدُ هذه الفرقة بِقدم العالم كاعتقاد الفلاسفة ، ولا تؤمن ببعث الأجسام الإنسانية ، وبالحشر إطلاقاً ، وتعتبر الراحة والذِّلة في الدنيا مكان الجَنة والنار ، عِقاباً أو ثواباً على الأعمال الحسنة أو السيئة» [1] .

ويقول شاه نَواز خان عنهم:

«عِلم نقطة» عبارةٌ عن الإلحاد والزندقة والإباحية ، واستحلال كل شيء ، إنهم يعتقدون كالفلاسفة المتقدِّمين بقِدم العالم ، ويُنكرون الحشر والنشور ، ويَرون ضِيْق الدنيا ورخاءها ثواباً أو عقاباً على حُسن الأعمال أو قبحها بدلَ الجنة والنار» [2] .

إنَّهم يقولون بنظرية النُّشوء والارتقاء ، ويزعمون أن النباتات والجمادات تطوَّرت إلى أن أصبحت إنساناً [3] ، وليس لقُدرة الله تعالى أيّ

---

(١) انظر «تاريخ عالم أرائي عباس» ج٢ ص٣٢٥.

(٢) مآثر الأمراء: ج٢، ص٦١٩.

(٣) دبستان مذاهب: ص آ ٣٠٠.

دخل في زعمهم في الإنبات ، بل هو نتيجةُ تأثير العناصر والكواكب [١].
ويَعتقدون أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن الأحكام الشرعية هي آراء الرِّجال ، ويستهزئون بالصلاة ، والحج ، والأُضحية [٢] ، ويسمون شهر رمضان «بشهر الجوع والظمأ» ، ويَسخرون من أحكام الطهارة والغسل [٣] ، ولا يؤمنون بحرمة النساء المُحرَّمات ، ويُنكرون الأمور المأثورة ، ويدعون إلى الأمور العقلية [٤].

ويُقال: إنَّ مؤسِّس هذه الفرقة رجل يدعى «محمود البَسِيْخوانيّ» [٥] ، وقد أَثَّرتْ هذه الفرقة ـ في القرن العاشر الهجري ـ على آلافٍ من أبناء الهند وإيران ، وبلغ عدد أتباعها في إيران وحدها إلى الألوف المؤلفة.

وكان النُّقطويُّون يعتقدون أن المُدَّة بين النشأة الأولى على الأرض إلى عهد

(١) انظر «مبلغ الرجال» ص: ٢٥ ـ النسخة الخطية الموجودة في جناح مولانا آزاد، بمكتبة جامعة عليكره الإسلامية.

(٢) مبلغ الرجال ص: ٢٥.

(٣) المصدر السابق: ص: ٢٥.

(٤) المصدر السابق ، استفدت في هذا الموضوع من كتاب «الدين الإلٰهي ، وخليفته» للبروفيسور محمد أسلم ، وكتاب «الدراسات التاريخية والأدبية» للدكتور نذير أحمد ـجامعة عليكره الإسلامية ، (وكلاهما في الأردوية) ، وراجع أيضاً إن شئت التفصيل والمعلومات الصحيحة «النقطويون أو البيساخانيون» للدكتور صادق كيا ، (بالفارسية).

(٥) أعلن محمد البسيخواني الكيلاني ظهور هذه الديانة الجديدة عام ٨٠٠ هـ في أستر آباد ، وتوفي عام ٨٣٢ هـ ، وتأسست هذه الفرقة في إيران في أول القرن التاسع ، وظلت تنمو وتقوى حتى كان أتباعه ـ في القرن العاشر والحادي عشر ـ بلغوا الآلاف المؤلفة في الهند وإيران ، ويذكر المؤرخون الإيرانيون ، والمؤلِّفون المسلمون هذه الفرقة باسم «الملاحدة التناسخية» وأهل الزندقة والإلحاد ، ولما أن محمود بسيخاني يعتقد خلق كل شيء من الطين ، ويسمي الطين «نقطة» ، أو استعان في بيان مفاهيم القرآن ـ في زعمه بعدد الحروف والنقط ـ سميت هذه الفرقة بـ«النقطوية أو أهل النقطة». من مقال«نظرة عابرة على الفرقة النقطوية» المذكور في «الدراسات التاريخية الأدبية» للدكتور نذير أحمد باختصار وتلخيص.

محمد البسيخواني تبلغ ثمانية آلاف سنة ، وكان هذا العهدُ الطويل عهدَ ازدهار العرب وسيادتهم؛ إذ أنَّ الأنبياء والمرسلين على مدى هذه الأزمانِ المتطاولة كانوا يُبعثون في العرب فحسب ، وأن ظهور محمود بسيخواني قضى على السيادة العربية [١] ، فلا يُبعث نبي أو رسول إلى ثمانية آلاف سنة أخرى ، إلا في الشعوب العجمية [٢].

إنَّ للعقيدة الأساسية التي نادى بها محمود البسيخواني ـ وهي «أن الدين الإسلامي أصبحَ منسوخاً ، فلا مناصَ من قَبول الدين الجديد الذي جاء به محمود» و«إنَّ الإسلام قد استنفدَ دوره ، وقَضى عمره ، فمسَّتِ الحاجة إلى دين جديد ـ صلةً خاصة بالعمل التَّجديدي الذي قام به الإمام السرهندي ، ويَدلُّ إعلانُ هذا الدين الجديد وظهورُه في القرن العاشر على وجود هذه «العقيدة الألفية» لديهم ، وأنهم ـ منذ طلوع الألف الثاني ـ يبدؤون بحركتهم ودعوتهم بجدٍّ واجتهاد.

عامَلَ شاه عباس الصَّفويّ في إيران أتباعَ هذهِ الديانة النّقطوية ، معاملةً شديدة ، فقتل الألوف منهم ، وكان شاه عباس أشدَّ من سابقيه في عقاب هؤلاء المارقين ، ولم تكن هناك فِرقة ـ في نظر الشاه ـ أعظمَ خطراً ، وأكبر ضرراً من هذه الفِرقة ، فقام سنة ١٠٠٢ هـ بعملية واسعةٍ للتنكيل والتقتيل والتشريد ، ففرَّ كثير منهم بسبب هذا التنكيل والتَّشريد إلى الهند ، وكان منهم الشيخ حياتي الكاشي ، الذي بقي في السِّجن عامين ، ثم أُفرج عنه ، فقصد (شِيْراز) ، ثم مكث في وطنه أياماً عام ٩٨٦ هـ ، توجَّه على إثرها إلى الهند ، وكان هو في (أحمد نَـكَر) عام ٩٩٣هـ وكان شريف الآملي ـ الذي يُعد من العلماء النابغين ـ ذا صلةٍ وثيقة بكبار أصحاب هذه الفرقة ، سافر إلى الهند بعد ما ضاقت عليه أرض إيران ، وضاق ذرعاً بأهلها ، وكان الملك أكبر يُعامله معاملةَ المُريد

---

(١) ولمحمود أو لبعض مريديه بيت يقول فيه: «لقد جاءت نوبة أتباع محمود ، وذهب ما كان يتعاظم به العرب على العجم».

(٢) داستان مذاهب: ص٣٠١.

لشيخه ، ويَرى بعض المحقِّقين أن شريف الآملي كان يستدلُّ بكتابات محمود البسيخواني على ظهُور الدين الجديد ويُرغِّب الملك فيه ، ويستميلُهُ إليه ، وأخبره بنبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠ هـ رجلٌ يمحو الباطل ويُقيم الدين الحق.

ويُجمع البَدَايُوْنيّ وخواجه كَلان[١] ، على أنَّ شريف الآمِلي فرَّ من إيران إلى (بَلخ) ، والتجأ إلى زاوية الشيخ محمد زاهد بن الشيخ حسين الخوارزمي ، وظل يعيش هناك في مَظهر المتصوفة ، ولما لم تكن طبيعتُه تُساير التَّنسُّك وتنسجم معه ، اتخذ شعارَهُ الدعاوي الفارغة ، والشطحاتِ الجوفاء ، والكذب والافتراء ، ولما اطَّلع الشيخ زاهد على عقائده ، طردَهُ من زاويته ، ففرَّ إلى دكَن (جنوبي الهند).

وكانت بلاد الدَّكن آنذاك ـ يُسيطِر عليها التشيُّع ، ويصول فيها ويجول ، فلما وصل إليها شريف الآملي ، استقبله أهلُها كعالم شيعي كبير ، وبالغوا في الحفاوة به ، ثُمَّ لما عرف الناس ما في عقائده من زيغ وضلال ، قصدوا لإيذائه وتعذيبه.

وكما يقول البَدَايُوني: «أَراد حُكام الدُّكن أن يقتلوه ، ثم قرروا بعدُ أن يُركبوه الحمار ، ويَطوفوا به ويُشهِّروه»[٢].

وأسنَد إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكوَّن من ألف جندي ، وجعله من المقرَّبين لديه[٣] ، ونصَّبه داعياً في بنكاله إلى «الدِّين الإلهي» ، وكانَ مِن أخصِّ أصحابِ الملك أكبر وأصدقائه الأربعة ، وكانَ ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومُريديه ، والمعتقدين فيه[٤].

---

(١) هو الشيخ خواجه عبيد الله (ابن الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي) مؤلف «مبلغ الرجال».

(٢) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٤٦.

(٣) انظر «مبلغ الرجال» ص ٣٢.

(٤) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.

وجاء في «مآثر الأمراء»: «اشتغل بالتَّصوف وبين الحقائق ، وخَلطَه بالزَّندقة والإلحاد ، وادَّعى نظرية «الوحدة» ، وقال عن كل شيء إنَّه الله»[١]، ويُفيد بعض كتب التاريخ المعاصرة أن أبا الفضل العلاَّمي [٢] كان متأثراً بالحركة النَّقطوية ، ولما قُتل شاه عباس الصَّفوي أكبر دعاة الحركة النقطوية وأعظمَ المسؤولين عنها الشيخ مير سيِّد أحمد الكاشي ، ووقَف على وثائقه والأوراق التي تركها ، فكانتْ فيها من بين مجموعة الرسائل رسالةٌ لأبي الفضل العلاَّمي وجهها إليه ، يقول مُعاصره المؤرِّخ إسكَنْدَرمنشي في كتابه «تاريخ عالم آرائي عباس» :

«أخبرنا بعضُ الوافدين من الهند أن أبا الفضل ابن الشيخ مبارك الذي هو من علماء الهند ، وله مكانة وحظوة عند السلطان ، يَعتنق هذه الديانة وأثَّر على الملك أكبَر ، ودعاه إلى التحرُّر من القيود وانحرف به عن جادة الشريعة ، وأن رسالته التي كتبها إلى مير أحمد الكاشي ، والتي عُثر عليها في وثائقه ، تَدُلُّ على أن أبا الفضل كان من أتباع الحركة النقطوية» [٣].

ويقول خواجه كَلان في كتابه «مبلغ الرجال» عند ذكره لمحمود البسيخواني :

«نَشر الشيخ أبو الفضل النَّاكُوْري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند»[٤].

ويُمكن أن يقدَّر من خلال هذه الشواهد التاريخية ما قام به دُعاة الحركة النقطوية ، وأنصارها في الهند ، من بَسط النفوذ وتجهيز عرش الدوله لدين

(١) مآثر الأمراء: ج٣، ص ٢٨٥.
(٢) هو من أخصِّ أصحاب السلطان جلال الدين أكبر ، والعقل المفكر الموجه في دينه الجديد وسياسته العلمانية الهندكية ، يشغل الحديث عنه حيزاً كبيراً في هذا الكتاب.
(٣) مستفاد من مقال «نظرة عابرة على الفرقة النقطوية» المنشورة في كتاب «الدراسات التاريخية والأدبية» للدكتور نذير أحمد ، ص ٢٦١.
(٤) مبلغ الرجال: ص ٢١ ، وانظر ص: ٣٢ ـ ٣٣ أيضاً.

جديد وعهد جديد على طُلوع الألف الثاني ، وقانون جديد ، وكانوا في حاجة بعد هذه الخُطوة التمهيدية إلى شَخصية قوية تملك السلطة وتتولى زمام البلاد ، ولم يكن هناك شخص أجدر وأحق بهذه المسؤولية ـ في نظرهم ـ من الملك الأكبر.

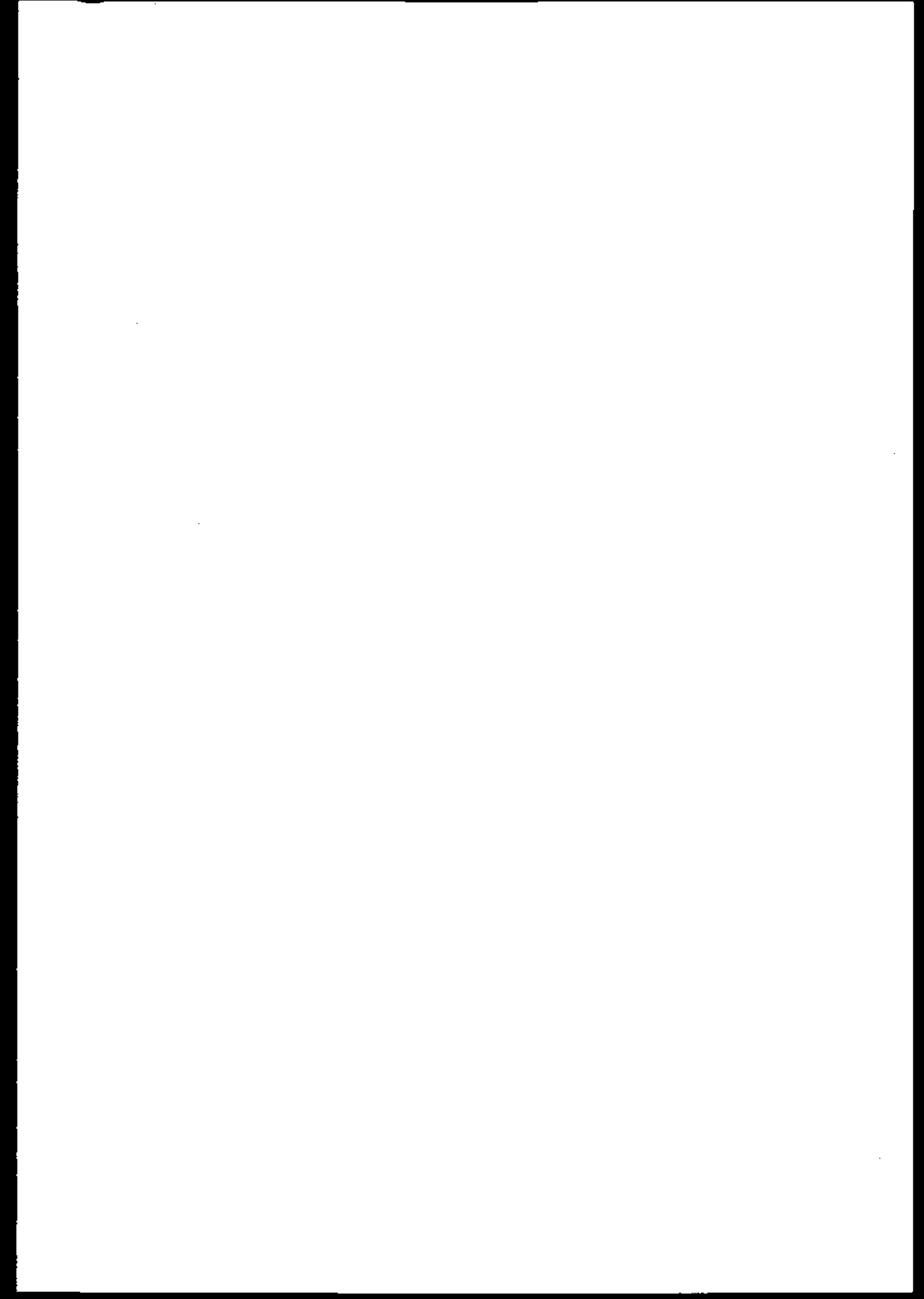
* * *



البَابُ الثَّالِثُ

عهد الملك أكبر

والفترتان المتعارضتان في حياته



عَهدُ الملكِ أَكبر
والفَتْرتَان المُتعارِضَتان في حَياته

١ ـ الفترة الأولى
ولاؤه للإسلام وتدوينه السَّاذج

حَياةُ الملكِ أكبر الدِّينية، وتَديُّنه:

يُجمِع المؤرِّخون لِلهند ولعهد الملك أكبر ـ بصفة خاصة ـ على أن «أكبر» بدأ حُكمه ومباشرته للإدارة، مُلِمّاً راسخ العقيدة، متنسِّكاً مع التقشف في الحياة والمُغالاة في العقائد، ونَقتطف للدلالة على ذلك من الكتاب الشهير «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البَدَايُوني (م ١٠٠٤ هـ) ـ الذي يُعَدُّ من مشاهير العلماء، وكبار مؤلِّفي البلاد في العهد الأكبري، ومُؤرِّخي عهده ـ وقائعَ متناثرة من تلك الفترة الأولى لعهد الملك أكبر، ونُبْذةً من أحواله وسيرته، حين كان مُسلماً ساذجاً على طريقة سَلفه الملوك من آل تَيْمُور.

وكان ـ لعدم تلقِّي الدراسة، وتأثير البيئة المحيطة، وتقاليد عصره ـ الذي عمَّت فيه البدع والمغالاة في تعظيم المشايخ، واعتقادِ مكانهم من الله، وشفاعتِهم للناس، وَزيارةِ الضرائح والمشاهد ـ يَشُدُّ الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور، وقِلَّة التديُّن، وضَعف الاعتقاد، وكان يُقدِّم النذور إلى ضرائح

الأولياء والصالحين ، ويَشتغل بالأذكار والأوراد في شَغفٍ واستغراق؛ ويُصاحِب العلماء والصالحين ، ويَحضُر مجالسَ «السماع».

ولا بأس بنقلِ تصريحات العلامة عبد القادر البَدَايُوني عن تديُّن الملك (أَكبر) ، ومُغالاته في العقيدة والدِّين ، إذ أنَّ ذلك مما اتَّفق عليه المؤرِّخون ، وهو جانبٌ مشرق من حياة «أكبر» فلا يُتَّهم الشيخ عبد القادر بالنَّيل منه ، والحط من شأنه ، وأنه كَتب ذلك تحت ضغط عاطفة الكُره والمُعاداة ، أو التعنُّت والعناد.

أمَّا الفَترة الثانية من حياة الملك (أكبر) ـ وهي الفترة التي قام فيها بنشر نظرية «الدين الإلٰهي» والدعوة إلى عقيدة وحدة الأديان ، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات ، والموقفِ المعادي المعاند من الدين الإسلامي ـ فإنَّا نأخذ بالحيطة في ذكر تفاصيلها والاقتباس مكانَ تصريحات الشيخ عبد القادر التي أثار بعض الأوساط ـ أخيراً ـ الغبار حولَ صحَّتها وثبوتها وحيادها التاريخي.

فقد ظَهرت حركةٌ تأليفية منظَّمة ـ تشبه خطة مدبرة ـ في الهند في الستِّينيات يَقودُها بعض الأساتذة في الجامعات ، والمؤلِّفون العلمانيون لتفنيد كتابات العلامة عبد القادر البَدَايُوني وتصريحاته فيما يتَّصل بالفترة الثانية من عهد الملك (أكبر) ، فيحمِلونها على التعصُّب الديني ، والمعارَضة الشخصية والتَّعنُّت ضد الملك أكبر ، ويُثِيرون الشكوك والشبهات حول كتابه «منتخب التواريخ» ويُقلِّلون من قيمته العلمية والتاريخية وذلك يقوم على أساس إيجابي علميٍّ وشواهد تاريخية أمينة.

إنَّ أساسَ هذه التُّهمة ينبني على العاطفية ، واعتقادِ عظمة الملك (أكبر) ، والنزوع إلى براءة ساحته من كل تهمة ، لأنه هو وحده ـ من بين مُلوك المسلمين ـ يَتَّفق مع الاتجاه العلماني الحديث ، والتحرُّر من ربقة الدين ويجدر لأن يُتخذ زعيماً ، أومثلاً كاملاً للسياسة اللادينية ، أو القوميَّة الهندية ، المجرَّدة من كلِّ دين أو عقيدة ، وذلك نتيجةَ الأغراض

السياسية، بعيدة النظر والمرامي، أو الأهداف الشخصية، من نَيل الجاه والشُّهرة والزلفى.

وكُلُّ من يراجع كتاب «منتخب التواريخ» بحياد وإنصاف، لا بدَّ أن يعترف بصدق المؤلِّف وإخلاصه وتوجُّعه للأوضاع، وجراءته، وصراحته بكلمة الحق، وإنَّ مَن له إلمام واسعٌ بكُتب التاريخ، ودراسةٌ طويلة لها تنشأ فيه مَلَكة التمييز بين الروايات التاريخية والأساطير الخرافية، ويَقدر على تقييم المؤلِّف، وتحديد مكانته ومنزلة كتابه، وَينقد الزيف والصحيح كالصَّيرَفيِّ الماهر، يقول المؤرِّخ الإنجليزي الشهير « Elliot» مُعلِّقاً على كتاب «منتخب التواريخ»: «ليسَ هناك إلاَّ القليل من المؤرِّخين الذين يُريدون أن يُبدوا عواطفهم كما يريد البَدَايُوني، لا سيما ما تكون ثقيلة على مسامع الملوك، أو الذين يُصرحون بأخطائهم وزلاتهم من غير مبالاة وفي غاية الوضوح» [١].

وأمَّا عند إبراز الجانب المعادي للإسلام في حياة أكبر، فلا نقتصر على شهادات الشيخ عبد القادر، بل قد نَسُوقها أحياناً تأييداً لتصريحات بطانةِ الملك (أكبر)، وأركانِ دولته المخلصين الأوفياء، وبيانات المؤرِّخين المحايدين لعَصره وبلاطه.

واقرأ ـ فيما يلي ـ التصريحات التي جاءت في «منتخب التواريخ» عن حياة المَلِك (أكبر) الدينية في الفترة الأولى:

«تَجشَّم الملكُ عناءَ السفر مَشياً على الأقدام إلى «أَجْمِيْر» [٢] شُكراً لله تعالى

---

(١) منتخب التواريخ: ج ٥، ص ٤٨٠.

(٢) مدينة مشهورة في الهند، فيها ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتي (م ٦٢٠هـ) الذي كان له فضل كبير في انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية ومن أكبر شيوخ الطريقة والأولياء شهرة في الهند.

على وِلادة ابنه سليم ، وعرَّج على (دهْلي) في الرجوع منه ، وزار قبورَ الأولياء والصالحين »[١].

توجَّه إلى «أَجَوْدهَن» وزار شيخ المشايخ فريد الدين كَنْج شكر ، وعاقب مِرزا مقيم الأصفهاني مع مير يعقوب الكشميري على تُهمة الرّفض و«التَّشيع» [٢].

«سافر إلى «أَجْمِيْر» في أوائل شعبان ، ومشى سبعةَ فراسخ على الأقدام ، حتى زار الضريح ، ونذَر الطبول ، وقضى وقتاً طيباً في مصاحبة العلماء والصالحين ، وحضور مجالس الغناء» [٣].

«وكان يَشتغِلُ ـ باستغراق ـ في ذكر «ياهو» و«ياهادي» في مُصلاَّه ، وجاء في حوادث عام ٩٨٠هـ حديثٌ ضاف لبناء ثلاث عمارات خاصة بعبادته» [٤].

«كان يَطلُب ـ كلَّ ليلة الجمعة ـ في مُصلاّه ، الأشراف والمشايخ والعلماء ويَحضُر الملك حلقة من العلماء ، ويُباحِثهم في المسائل والأحكام ، وصدَر الأمر في هذه الفترة إلى القاضي جلال وغيره من العلماء بتفسير القرآن الكريم» [٥].

ويَذكر في وقائع عام ٩٨٦هـ مُصاحبة العلماء والمشايخ ، ومجالستَهم ، وإحياء ليلة الجمعة ، في مصلاه بـ«فَتَحْ بُور سَيْكَرِي».

ولمَّا خرجَ خان زمان على الملك (أكبر) ، وأعلنَ الثورةَ ، قام الملك إلى قبور الأولياء والصالحين للدُّعاء عندها قبل أن يتَوجَّه لمقاومة خان زمان ومحاربته [٦].

---

(١) منتخب التواريخ: ج ٢ ، ص ١٢٣.
(٢) المصدر السابق: ج٢ ، ص ١٢٤.
(٣) المصدر السابق: ج٢ ، ص ١٨٥.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٥) المصدر السابق: ج٢ ، ص ٢١١.
(٦) المصدر السابق: ج ٢ ، ص ٢٥٢.

«وأطلق رجلٌ كان يُدعى فولاذاً سهماً على الملك بإشارة شرف الدين حسين عند مُروره بمدرسة «خير المنازل» التي أسَّسها وعمّرها «ماهم آنكه» وأصيب الملك بجُرح خفيف، بَرِىء منه ـ بعد معالجته لأيام قليلة ـ فكان يَعدُّ النجاة من هذه الحملة المباغتة ـ كما يقول البدايوني ـ كرامة أولياء دهلي، وتنبيهاً غيبيّاً له»[1].

وحَضَرَ ـ مرة ـ في طريقه إلى (أَجْمِيْر)، في خدمة الشيخ نظام النَّارنُولي، الذي كان من المشايخ الصالحين المعروفين، وذاعَ صيت زُهده وورعه في الآفاق[2].

«وزار سنة ٩٨٠هـ ضريح السيّد حسين خنك سوار في (أَجْمِير)، ثم زار ـ بعد سنوات ـ قبر الشيخ قطب جمال في اعتقاد وحُبٌّ وإكبار، وقرأ الفاتحة»[3].

«وكان يُعظِّم الشيخَ سليم الجِشْتّي ويعتقدُ فيه، وبَنى على قبره قُبَّةً فخمة باهتمام بالغ، ولأجل هذا الإجلال والتعظيم للشيخ سليم الجشتي سمَّى وليَّ عهده (جَهَانْكِير) الذي وُلد ـ كما يقال ـ بدعائه «سليم»، وكان الملك بَعث بعقيلتِه الملكة «جُوْدَها بَائِيّ» إلى بيتِ الشيخ قبل الولادة، حتى تكونَ موضع عناية الشيخ واهتمامه، وتَسعد بدعائه»[4].

ووُلد ابنُه مراد كذلك في بيت الشيخ سليم[5]، ولمَّا أصبح وليُّ عهده سليم (جَهَانْكِير) في سِن يبدأ فيها القراءة وأول ما يقرأ الطفل يكون «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي عادةٌ تسمى «باحتفال التَّسمية» في الهند ـ طلبَ من

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٦٢.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٥٢.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٣٢.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص ١٠٨.
(٥) المصدر السابق: ج٢، ص ١٢٣.

المحدِّث الشهير الشيخ مِيْركَلان الهَرَوِي أن يُشرف بهذه المناسبة فحضر وأقرأ «سليم» «التسمية» بحضُور الملك مع جمع من أعضاء الدولة وأركان المملكة [١].

وحينما بَدأ وليُّ العهد يَشْدو في القراءة والكتابة، أمَره أن يذهب إلى بيت الشيخ عبد النبي ويدرس عليه الحديث، فقرأ عليه الأربعين حديثاً من جمع الشيخ مولانا جامي [٢]، وكان الملك أكبر يُبالغ في تعظيم الشيخ عبد النبي ـ حفيد الشيخ عبد القدوس الكَنْكُوْهِي والمتبوّئ على منصب «صَدْرِجَهَان» في عهد الملك (أكبر) ـ حتى كان يقصد بيته، ويحضر درسه، وقام ـ مرتين ـ بوضع نعليه عند احتذاء الشيخ لهما» [٣].

«وأقطع الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَاري ـ الذي كان شيخ الطريقة الشطَّارية المعروف ـ أرضاً كان دَخلُها السَّنوي عشرةُ ملايين «دام» لينفقَه على نفسه، وكان يتلقى ابنَه الشيخ ضياء الله ـ بعد وفاة والده ـ بالإكرام والإجلال» [٤].

وقد كان الملك (أكبر) وَرِثَ هذا الإجلالَ للمشايخ والحفاوة بهم من آبائه وأجداده، فكان سَلَفه التيموريون يَعتقدون في الشيخ ناصر الدين عُبيد الله أحرارَ، ويُعظِّمونه، وكان جد الملك بابر، السلطان أبو سعيد، يذهب إليه ماشياً لا يركب، تأدُّباً معه واحتراماً له، ولم يكن يُقدم على عمل أو ينجز قراراً إلاَّ بعد أخذ رأيه، وكان والد الملك بَابَرْ عمر شيخ مِرزا كذلك، يُجلُّ الشيخ عبيد الله ويحترمه، ويذكره الملك بابر نفسه في كتابه «تزك بابر» بتقدير وإعظام، ولما قدم الشيخ يحيى ـ وهو من أعقاب الشيخ عبيد الله أحرار ـ إلى الهند، استقبله الملك أكبر بحفاوة بالغة، ورَفع قدره، ووهبه

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٠٤.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٣٧.

أرضاً لنفقته، وبعثه أميراً على قافلة الحُجَّاج إلى مكة المكرمة، ولما عاد من سفر الحج، جهَّز له الإقامة الدائمة في مدينة «آكْرَهْ» [١].

وكان المُلك (أكبرُ) عيَّن سبعة أئمة للأيام السَّبعة من الأسبوع يتناوبون الإمامة في الأيام المعيَّنة لَهم، وكانت الإمامة ـ يوم الأربعاء ـ مَوكولة إلى الشيخ عبد القادر البَدَايُوني [٢].

كان يَبعثُ ـ كلَّ عام ـ عدداً كبيراً من الحُجَّاج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة، ويَبعث مع أمير الحجاج الهدايا والتحف إلى والي مكة المكرمة ويَبعث النقود والغلال لأهل الحرمين الشريفين [٣]، وكان يُشيِّع الحجاج عند توديع قوافلهم مُحرماً كإحرام الحج، مُقصّراً للشعر، ملبياً، حاسر الرأس، حافي القدمين، وكان هذا المشهدُ المؤثِّر يُحدِث هزة في النفوس، تُلين القلوب، وتُدمع العيون [٤].

ولمَّا قدم شاه أبو تُراب إلى الهند بحَجَر عليه أثرُ قدمِ الرسول ﷺ ـ كما يقولون ـ ووصل قرب مدينة «آكْرَهْ»، خرج الملك مع حشد عظيم من العلماء والمشائخ، والأمراء والوزراء، ومَشى معهم أربعة فراسخ على الأقدام لاستقبال الشيخ أبي تُراب، وإجلال مقام الرسول ﷺ.

ونَختم الشواهد على تَديُّنه وتعبُّده بهذا التصريح، الذي جاء في «مآثر العلماء» لمؤرِّخ الدولة المغولية الشهير مِير عبد الرزاق خافي خان المعروف بصَمصام الدولة شاه نَوازْخان (١١١١ ـ ١١٧١ هـ)، يقول فيه:

«كان المَلِك أكبَر يبذُل جُهوداً كبيرة في تنفيذ الأحكام الشرعية، والتأكيد

(١) منتخب التواريخ: ج ٢، ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٥١.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٥١.
(٤) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٣٩.

على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان يُؤذِّن بنفسه، ويَؤُمُّ الناس في الصلاة، حتى إنه كان يَكْنس المسجد، احتساباً وطلباً لمرضاة الله»[1].

* * *

(١) مآثر العلماء: ج٢، ص ٥٦١.

٢ ـ الفترة الثانية
عداؤه للإسلام ونظرية الدِّين الإلهي الأكبريّ

تَحوُّلٌ في نَفسيّة الملك أكبر وطبيعتِه (١)

يَستطيع القارئُ ـ في ضوء ما سَبَق من التصريحات والشواهد على تَديُّن الملك (أكبر)، وتَنسُّكه ـ أن يُقدِّر أنَّ هذا التديُّن الساذج العامي الخرافي لم يكن مُؤَسَّساً على الفهم والعلم الصحيح للكتاب والسنَّة، والدراسة المباشرة لهما، بل كان أساسه بدلاً من أن يكون مديناً لتعلُّم العلماء الراسخين ومجالستهم والتربية الدينية الصحيحة على ذوق عصره، وطبيعته العسكرية، والتقليد الأعمى للحكام والأمراء الجهلة بالدين، الذين حكموا في أواسط آسيا، ومحاكاتهم، وشِدَّة الإيمان بالمظاهر، وسرعة الاعتقاد في الظواهر، فكان الركنُ الأساسي في هذا التديُّن زيارة القبور والضرائح، وتجشُّم مشاق السفر إليها من مسافاتٍ بعيدة مشياً على الأقدام، وإبداء عواطف الحب والإجلال للمتربِّعين على دست المشيخة ـ الذين كانوا من الجهلة العاطلين عن صفات آبائهم ومشائخهم، والفاقدين للربانية الصحيحة، والروح الإسلامية ـ

(١) يقال: إن ما سجله جهانكير في «توزك» الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته، يدل على أنه كان شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال، فجدد إيمانه بتلفظه بكلمة التوحيد، وأسلم روحه لبارئها في هالة من القراء الذين كانوا يقرؤون سورة يسٓ، ويدعون له، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطف الإلهي أم لا؟ وأنه على أي حال ودّع هذه الدنيا، إنما نحن بصدد إجراءاته وأعماله التي اتخذها لتنفيذ القانون الجديد والدين الجديد، والنتائج والآثار التي ترتبت من ذلك على الإسلام والمسلمين.

والشعور بالسعادة في خدمة الكناسة للتَّكايا والزَّوايا ، وحضور مجالس الذِّكر والغناء ، وتَبجيلِ عُلماء البلاط ومشايخه وتوقيرهم.

ويُستفاد من دراسة حياة «أكبر» أنه كان أُميَّاً خالصاً [١] ، وتمتاز الأسرة التَّيمورية في طبيعتها وعقليَّتها بالغُلو والتطرُّف ، والمبالغة في الاعتقاد ، ويُذكر عن «هِمَايُون» في كُتب التاريخ أنه كان إذا صمَّم على تحمُّل شدائد الحروب ومقاومةِ الأوضاع القاسية ، والظروف القاهرة ، فإذا به يتحوَّل إنساناً ليس من لحم ودم ، بل من حديد صُلب ، وكأنه ليس من الإنس ، بل من الجِنِّ الشداد ، وإذا استنام إلى الدَّعة والراحة ، نَسي كلَّ شيء وظنَّ به أنه لم يكن في يوم من الأيام فارسَ الميدان وجُندياً مُستميتاً في ساح القتال ، ويُشاهد هذا التعارض ، وقِلَّة الاتزان في حياة جَهَانْكِيْر أيضاً.

ثمَّ لا ينبغي أن ننسى ما قاساه الملكُ (أكبر) من المِحَن والأوضاع القاسية غير العادية في طفولته ، ورَيعان شبابه ، وما شاهده في أعمامه من تنكُّرٍ وخذلان ، وقِلَّة وفاء ، وما تجرَّع من المرارة ، والغَصص أيام هزيمة والده ، ورحلَتِهِ إلى إيران وما لاقى مع بيرم خان من العناء والمشاق ، كلُّ ذلك أنتج في نفسيته سوءَ الظن بالفطرة الإنسانية ، وأثارَ في نفسه الرّيبَ والشكوك ، في وفاء الناس ، وإخلاصهم وتجردهم ، فنشأت من جرَّاء ذلك طبيعةٌ متقلبة تتلوَّن ، ولا تستقر على حال.

---

(١) لمَّا بلغ «أكبر» أربعة أعوام وأربعة شهور ، وأربعة أيام من عمره احتفل ـ حسب العادة الجارية ـ بمناسبة إدخاله الكتّاب ، وعين ملا زاده عصام الدين مؤدباً له ، ولكن شعر ملا زاده بأن أكبر لا يرغب في التعليم ، فحمل هذا على إهمال ملا زاده وإخفاقه في التعليم ، وعين مكانه الشيخ بايزيد ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً اختار الملك لتعليمه الشيخ عبد القادر البدايوني ، ولكن لم يستطع هو أيضاً أن يستميل ولي العهد العظيم إلى التعليم ، وساعدت على ذلك الأوضاع السياسية ، والانتقال من مكان إلى مكان ، وعدم الاستقرار ، فشب أكبر أمّياً لم يتعلم شيئاً. (ملخَّص من كتب التاريخ المعاصرة لعهد الملك أكبر).

المُقارنة بين الدّيانات والبحثُ فيها ومَجالسُ المُناظرة وتأثيرُها:

كان أنسب طريق للملك (أكبر) لعلاج هذا الوضع الشَّاذِّ، وإصلاح الحال، والتغلُّب على مواطن الضَّعف في نفسه، وتأكيدِ الصِّلة بالإسلام، والارتباط بالدِّين، وصرف الهمة إلى حماية الإسلام والذَّبِّ عنه، والقيام بنصرته ككثير من السَّلاطين المسلمين ـ وقد كان عددٌ منهم أبناء هذه الأسرة التيمورية ـ أن يُركِّز المَلِكُ كُلَّ عنايته ـ مع الاعتراف بأُمِّيَّته وجهلِهِ بالدين ـ على مهامِّ الدولة، وتوسيع المملكة.

وكان اللائقُ به ألا يتدخل في القضايا الدينية، بل يَكِلُها ـ كمُسلم مُخلص ساذج وجندي وفيٍّ ـ إلى علماء الدين وأعضاء الدولة الباحثين ـ كما فعل الملك بَابَر والملك هِمَايُون، رغم ثقافتهما الواسعة، والذَّوق الأدبي والعلمي الرفيع ـ وألا يتقدَّم إلى البحث والتحقيق في المسائل الكلامية الدقيقة، والقضايا العقيدية العلمية، والحقائق الغيبية، وعلم ما وراء الطبيعة، والمقارنة بين الديانات والفرق، وهو المجال الذي تُؤدِّي فيه زَلة بسيطة، أو إهمالٌ طفيف إلى تخطي حدود الإيمان، والدُّخول في حظيرة الكفر والإلحاد، وضياع نعمة الدين وكان لا يعرفُ مبادىء هذه العلوم ومقدماتها.

ثم إنَّ الخوض في هذه القضايا لا يُفيد في الأغراض السياسية، ولم يكن في مصلحة السلطان، الذي تسلَّم زمام البلاد من الحكومات المسلمة التي دامت في السلطة أربعة قرون، أن يفقد ثقة شعبه المسلم المتحمِّس للإسلام، ويُثير حوله مشاكل كان في غنى عنها، إنَّ خطأ التدخل في هذه المباحث الكلامية الدقيقة، واستخدام النفوذ والسلطان، لفرض عقيدة أو وجهة نظرٍ أو مهمٍّ خاص أساء مِنْ قَبلُ إلى مِثل الخليفة العباسي مأمون الرشيد (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ) في عِلمه وذكائه، ولم يَستفد منه غير سُوء الأُحدوثة [١].

(١) راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» للمؤلف، مبحث «فتنة خلق القرآن» ج١.

ولكنَّ الملك (أكبر) رُزق الطبيعة القلقة والعَقليّة الباحثة ، وأوحتْ إليه فُتوحُه وانتصاراته المستمرة ، وسَعادةُ جَده ، وحُسنُ طالعه في الدولة ، بِخداع النفس والإعجاب بها ، وبدأ يظن بنفسِه أنه يقدر ـ وهو الفارس المقدام الذي يَفض مشاكل الدولة ، ويَحُلُّ عقد السياسة ـ على الحمَلات الظافرة في أودية الدين ، والعقيدة الشائكة.

زِدْ إلى ذلك أن بعض أركان الدَّولة ، ورجال البلاط الأذكياء الحاذقين أقاموا لإبراز تفوُّقهم العقلي ، والترويج عن السلطان ، وَتزيين مجلسه ، معاركَ كلامية حامية بين العلماء من مختلف الفرق والديانات ، بدلاً مما جرتْ به العادة في مجالس المُلوك المترفين ، من تَربية الدِّيَكة والحمام ، ليتفرَّج السُّلطان على تهارُشها ، ومن إقامة مصارعات بين الفيلة والسوائب من البقر ـ وكان ذلك نزهة السلاطين والأمراء الشرقيِّين ومُتعهم ـ.

ومن الحقائق البديهية ـ التي جرَّبها الناس في تاريخ العقائد والديانات مئات المرات ـ أنَّ من يشهد هذه المباحثات والمناظرات بين العلماء ، والأخذ والردّ بين المحامِين عن مختلف الفِرَق والديانات ممن لم تتَّسع ثقافته ، ويَرْسَخ عِلمه ، ويَدقّ فهمُه ، وتتنوَّر بصيرتُه ، ولم يساعده الحظ ويأخذ بيده توفيق الله ـ تعالى ـ فإنه لا محالة يقع في الريبة والشكِّ ، ويَتيهُ في أودية السوفسطائية واللاَّأدرية ، ويَهوي في هُوّة سحيقةٍ من الإلحاد والزندقة.

يقول جَهَانْكِير ـ وليست شهادةُ علي أكبر أقوى من شهادته ـ في كتابه «تُوْزَك»:

«كان والدي يُقابِل ـ في كثير من الأحيان ـ علماء كل مِلَّة ودين ، لا سيما فُضلاء الهند وعلماء الديانة الهندوكية ، ولم يكن يَشعُر جلساؤه ـ رغم أُميَّته ـ بأنه لم يقرأ ولم يكتب ، لِكثرة مجالسة العلماء ومُصاحبة الفضلاء ، والمُباحثةِ معهم ، وكان يَفهمُ دقائق الشِّعر والنثر ولطائفهما ، بما لا مزيد عليه»[1].

---

(١) تزك جهانكيري: ص ١٥.

ولم يَقتصِرْ في هذه المناظرات على عُلماء الإسلام والهندوكية ، وديانات الهند الأخرى ، وفِرقها المختلفة وممثِّليها ، بل أشرك فيها عُلماءُ الإنكليز ، ويَنصُّ أبو الفضل على بذل الاهتمام البالغ بترجمة التوراة والإنجيل ، والزبور ، وشرحها وتفسيرها للملك ، وعيَّن لهذه الخدمة السيد مظفر ، أحد أعيان البلاط وفضلائه ، وكتب إلى بعض المسيحيِّين :

«إنّنا نجتمع ـ في فراغ من الوقت ـ بعُلماء جميع الديانات ، ونَستفيد من أفكارهم السامية وكلماتهم الطيبة ، وتَقفُ أجنبيَّةُ اللغة عائقاً في الطريق ، فنودُّ أن تُدخلوا علينا السرور بإيفاد رجل فاضلٍ يُوضِّح لنا هذه المعاني بعبارة جيدة حسنة ، وقد بلغ مسامع السلطان أن الكُتب السماوية من التوراة والإنجيل والزبور ، تُرجمت إلى العربية والفارسية ، فلو كانت هذه الكُتب المترجمةُ في بلادنا ، لوزَّعناها للنفع العام ، وقد بعثنا إليكم ـ تجديداً لمعاني الحُب والوُد ، وترسيخاً لأساس الوحدة والاتفاق ـ بمعالي السيد مظفر ـ الذي أسعدناه برعايتنا واهتمامنا ـ للحصول على عدة نُسخ من هذه الكتب المترجمة وسيتحدث إليكم شِفاهاً فثقوا به ، وواصلوا المراسلة»[1] .

وكان ذلك فعلاً ، يقول البَدَايُوْني :

«كان في البلاط جماعةٌ من فضلاء الإفرنج من زُهَّادهم ونُسَّاكهم ، ويُقال لهؤلاء «القُسُس والأساقفة» ويُسمَّى مجتهدهم الأكبر بالبابا ، إنهم قدموا نسخة من الإنجيل ، وأظهروا دلائلهم وبراهينهم على التثليث ، وأثبتوا أن النصرانية دين حق»[2] .

وبلغ شغف (أكبر) بهذه المجالس للمناظرة أن كَتب رسالة إلى رئيس مجلس الأساقفة في ولاية «كُوا» (Goa) وهي تشتمل على ما يأتي :

«أرجو أنّكم فور وُصول رسالتي إلى سعادتكم سوف تبعثون إلى البلاط

(١) إنشائي أبو الفضل : ص ٣٩.
(٢) منتخب التواريخ : ج٢ ، ص ٢٦٠.

في طُمأنينة بالٍ وجمعية خاطر ـ بعضَ الأساقفة، حتى يُناظروا علماءنا، فأقدِّر من خلال المناظرة مبلغَ علمهم وخلقهم، وأرى تبريزَهم وتفوُّقهم على علمائنا الذين ندعوهم «بالقُضاة» فيعلِّموهم الحقَّ بهذا الطريق ويُفيدوهم»[1].

ومن التجارب القديمة في مجالس المناظرة، أنَّ قوة البراهين، والإقناع الجدليِّ، لا يكفي لإثبات صدق ديانة من الديانات، ولا يكون حاسماً في تفضيل واحدة منها على أخرى، فإنَّ أكبر الاعتماد في ذلك يكون على ذلاقة اللسان، وقوَّة البيان، وطلاقة العبارة، مما يتظاهر به ممثلو هذه الديانات والمحامون عنها، فقد يكونُ مُمثِّلو دينٍ هزيلٍ ضعيفٍ ووُكلاؤه أقدر على الحجة، وصناعة الكلام، وأجود بياناً، وأعرف بالنفسية الإنسانية، والطبيعةِ البشرية، وأكثر تَحيُّناً للفرص، فيُؤثِّرون في السامعين، ويَسحرون الألباب، ويستميلون الناس.

ويكون مُمثِّلو دينٍ قَويم غيرَ مُتحلِّين ـ لسبب من الأسباب ـ بهذه الخصائص والصفات ومجرَّدين من هذه الأسلحة الكلامية، فيَخْسرون الرهان، ويَسقطون في الميادين.

وممَّا يُشكُّ فيه أن العلماء ـ الذين كانوا يُمثِّلون الإسلام ويشرحونه في بلاط الملك أكبر، ويُناظرون علماء الإفرنج وفضلاءهم ـ كانوا على إلمام واسع بالتوراة والإنجيل، والمذاهب المسيحية، ومعرفةٍ كافية بمواضع الضَّعف فيها وكانوا أكفاء لعرض الإسلام، ـ علمياً وعقلياً ـ حتى يُقارعوا فضلاء المسيحيِّين ويُمثِّلوا الإسلام تمثيلاً صادقاً صحيحاً.

وقد كانتِ الديانة المسيحية جديدةً للهند، وكان أتباعُها قِلَّة قليلة، ومعظمُهم كانوا من الأجانب، فلم يهتمَّ بهم العلماء المسلمون، ولم يُبالوا بالديانة المسيحية أيَّ مبالاة، على حين أنَّ البُرْتُغَالِيِّين فتحوا مدرسة تبشيرية

---

(١) انظر «The Mughal Empire» ـ الدولة المغولية ـ للدكتور أشيوري برشاد Dr.Ishwari Parshad ص ٣٧٧٥، طبعة المآباد ١٩٧٤م.

مسيحية (Jesuit Mission) في ولاية «كُوا» حتى يقوموا بنشر هذه الديانة في الهند، وترسيخ جُذورها [١]، ولا يُستبعد في مثل هذا الوضع أن يكون العلماء المسيحيون الأجانب كسبوا المعركة، وأثبتوا تفوُّقهم وامتيازهم ـ علمياً وعقلياً ـ على علماء المسلمين الذين لم يكونوا ـ إذ ذاك ـ فرسان هذا الميدان فخسروا الصفقة وسقطوا في عينه، فكان من الطبيعي أن تظهر النتائج التالية، يقول الشيخ عبد القادر:

«ظهر أهلُ البِدَع والأهواء بآرائهم الخاطئة، وشُبهاتهم الباطلة من مكامنهم، وبدؤوا يعرضون الباطل في صورة الحق، والخَطأ في شكل الصواب، وأورثوا الشك والارتياب في نفس السلطان الذي كان يملك الذكاء والفطنة، ويبتغي الحق، إلا أنه كان أمِّياً محضاً، يأنس إلى الكفار، وزادوا في حيرته واضطرابه، وضاع المقصد الصحيح، وانحلَّ رباط الشريعة، ولم يَبْقَ بعدَ خمسة أعوام عينٌ ولا أثر للإسلام، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب» [٢].

ويقول في موضع آخر:

«بدؤوا يثيرون الشكوكَ والشبهات، ويضحكون ويستهزئون بكل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين، سواء كانت تتعلَّق بالأصول أو الفروع، كعقيدة النبوَّة والرسالة، ومسألة كلام الله ورؤيته، وتكليف الإنسان، وتكوين العالم، والحشر والنشر، وغير ذلك من المسائل العقيدية» [٣].

وكان ضِغْثاً على إبَّالة، أنَّهم بدؤوا يقرؤون كتب التفسير والتاريخ ـ وهي المواد العلمية غير المنقحة والمحررة، التي يَقدر أنصاف العلماء، ممن

---

(١) انظر «أكبر نامه» ج٣، ص ١٠٢٧، Mongolicea Legationos Commentqrius ج/١، ص ٣٤، By Fater A Muoserrate.

(٢) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٣٠٧.

لا يخشون الله ، على إثارة الاضطراب والفوضى الفكرية عن طريقها ـ في بلاط الملك الأمِّي الجاهل ، وفي جَوٍّ من الانطلاق والتحرر ، وقلّةِ الحشمة .

يَقولُ الشيخ عبد القادر البَدَايُونِيّ:

«وفي تِلك الأيام صدَر الأمر إلى القاضي جلال وغيره من العلماء أن يقرؤوا تفسير القرآن ، وكان هناك صراع بين العلماء في الموضوع ، وكان الماجن «ديب جندارجه منجهولة» يقول :

«لو لم تكن البقرة مقدَّسة عند الله ـ تعالى ـ لما جاء ذكرها في أوّل سُورة من القرآن ، وسُمِّيت بها هذه السورة ، ولما بدؤوا قراءةَ التاريخ ، وبدأ الناس يزدادون ـ كل يوم ـ في إساءة الظن بالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتعدّى الأمر إلى أن جعلوا يسمُّون الصلاة ، والصوم ، وجميع التعاليم النبوية بالأمور التقليدية ، أي أنها غيرُ معقولة ، وجعلوا يقولون: إن أساس الدين على العقل ، وليس على النقل ، وبدأت وفود الإنكليز تغدُو وتروحُ ، حتى قبل الملك بعض مُعتقداتهم كذلك» .

مسؤولية عُلماء البلاط وأعضاء الدولة في تحوُّل طبيعة «أكبر» وانحرافه:

لقد كان علماء البلاط ، وأعضاء الدولة يستطيعون أن يقوموا بدور أساسي فعَّال في مُلازمة الملك (أكبر) طريق الإسلام المستقيم ، وصيانتَه من الزيغ والانحراف ، وحمايته من التطرُّف وفقدان الاتزان ، ولكن هذا الدور الإيجابي كان في حاجة إلى عُلماء يمتازون بالتفقُّه والبصيرة في الدين ، ويتحلَّوْن بالحكمة والفهم الصحيح ، نَظرُهم في كليات الدين أعمقُ من نظرهم في جزئياته ، ويؤكِّدون على أهمية الغايات والمقاصد ، أكثر من الذرائع والوسائل ، ويرون ضرورة «الوصل» والتوفيق أكثر من ضرورة «الفصل» والتفريق ، مُتَّصفين بسُمُوِّ الأخلاق ، وموسومين بالإخلاص والإيثار ، بعيدين عن حُبِّ الجاه ، والطمع في الدنيا قدر المستطاع ، تلقوا التربية الصحيحة ،

واشتغلوا بتزكية النفس، يعرفون أهمية هذه الدولة الإسلامية الناهضة، ودقة موقفها ـ التي تحيط بها الأكثرية غير المسلمة ـ التي كانت تَشعر بِحرمانها من القوة والسلطة، ولا تقوم دولةٌ إلا بتأييدها ومساعدتها ـ معرفةً حقيقية ـ وأنَّ هذه المملكة التيمورية التي واتاهُم الحَظُّ لخدمتها، ونالوا الفرصة التاريخية الذهبية لقيادتها وإرشادها، كانت أكبرَ دولة إسلامية في ذلك العصر في سعة الرقعة، وكثرة الذخائر والوسائل، والقِوى البشرية، وقُوة العاطفة الدينية، وتَغلغُلها في الشعب وفي جمع النواحي، بعد الدولة العثمانية، في تركية، فكان ـ لأجل ذلك ـ الحفاظُ على هذه الدولة، ورَبْطُها بالإسلام، وأن يَجمع عاهلها ـ في هذه الظروف الحرجة الدقيقة ـ بين الزُّجاج والحديد، والقُطن والنار، أكبر عبادة في ذلك العصر، وأعظم خدمة للدين والبلاد.

وكانت الحاجةُ ماسّةً ـ في الجانب الآخر ـ إلى وجود خبراء مستشارين وأعضاء للدولة يحملون عقيدة راسخةً مُحكمة في ذلك الدين ـ الذي أسّس عليه (بَابَر) مملكته القوية ـ بعد توبته النَّصوح من المنكرات في ساحة القتال عند مواجهة «رَانَا سانكَا» عام ٩٣٣ هـ، وأخذ العهد والميثاق على نفسه بالعبودية الكاملة لله عزَّ وجلَّ، ويُحبِّبُونها للملك أيضاً، ويكونُون في مأمن عن كل نوع من الاضطراب الفكري، وفي مَعْزل عن الحركات الإلحادية الهدَّامة التي نشأتْ في إيران والهند في القرن العاشر، وكانت تُثير الفوضى الخُلقية والعقائدية، وتُضعف العلاقة بين الدولة والمجتمع، وأن يجمعوا بين تنظيم الدولة، وإدارة البلاد وقُدرة التقنين، وبين سُمو الأخلاق والاستقامة الدينية والتقيُّد بالشريعة.

فَلَئن كان الملك (أكبر) رُزق هذين العنصرين، وحَظيت دولته بهاتين الميزتين، لم يكن هناك مجالٌ للشك في أن تكون هذه الدولة تؤدي نفس الدور في خدمة الدين وحماية الإسلام والمسلمين في ناحية الشرق، والذي قامت به دولة آل عثمان في الغرب.

ولكنْ كان من سُوء الطالع أن رُزق الملك أكبر ـ رغم سعادة جده

وصلاحيته ـ ذلك العنصر من هذين الفريقين الذي لم يكن على المستوى اللائق فحسب، بل من المؤسِف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها، ونفَّروا «أكبر» من الدين بدل أن يشرحوا صَدْرَه له ويُحبِّبوه إليه، وساقُوه إلى اعتناق الدعوات والحركات المعارضة للإسلام وقيادتها، وأنْ يَظلَّ «أكبر» رَمزَها وعَلامتها، بدل أن يُنفِّروه عنها ويُحرِّضوه على استئصالها، والقضاءِ عليها.

عُلماء البَلاط:

ونتناولُ ـ هنا ـ العنصر الأول، وهم علماء البلاط الذين اعتقد فيهم الملك (أكبر) الخيرَ، وأحسنَ الظنَّ بهم، وخدَمهم، ووضع ثقته فيهم، وقرَّبهم لديه، وأدناهم إليه، وأنَّهم ـ كما يقول الإمام عبد الله بن المُبارك ـ رضي الله عنه ـ عنصر من العناصر الثلاثة للشر والفساد:

وهل أفسد الدينَ إلاَّ المُلوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها ؟

ونقتطف ـ في هذه المناسبة أيضاً ـ من تصريحات العلامة عبد القادر البَدَايُوني الذي كان من أركان البلاط، ولا يبدو فيما صرَّح به عن أصدقائه وزملائه وطبقتِه، من مصلحةٍ شخصية له، أو تعنُّت ومكابرة، فقد صوَّر علماء البلاط بريشته البارعة هذا التصوير المُثير:

«كان يدعو العلماء والمشايخ، والأشراف والأمراء كلّ ليلة جُمعة إلى مُصلاه، فكان العلماء والمشايخ يتَسابقون إلى المقاعد، ويتنافسون في الحصول على مكان أقرب إلى السلطان، فعالج السلطان هذه المشكلة، فأمر الأمراء بالجلوس في الجانب الشَّرقي، والأشراف في الجانب الغربي، والعلماء في الجانب الجُنوبي، والمشايخ في الجانب الشِّمالي، وكان السلطان يخرج عليهم في حَلْقةٍ من خاصته، فيبحثُ معهم المسائل ويُحقِّق فيها»[1].

ويقول البَدَايُوني: «إن العلماء ـ ذات ليلة ـ بدؤوا يرفعون أصواتهم في

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٠٢.

الجدال والمباحثة، فتكدَّر خاطر الملك، واعتبر منهم ذلك سوء أدب، وتنافساً في الدنيا»[١].

ويقول:

«كادوا يتقاتلون بأسنَّة اللِّسان، وبَلَغ التفرُّق والاختلاف بينهم حتى جعل بعضهم يُكفِّر بعضاً، ويُضلِّل بعضُهم بعضاً، وانتفخت أَوْدَاجهم وارتفعت أصواتهم، وكدَّر ذلك صَفوَ خاطر السلطان».

وخاطبَ الملك العلامة عبد القادر في غَضب وتألم وتكدُّر بال، وقال: «أيُّ عالِم يخالف آداب المجلس، أخرجوه من هناك».

وكان الشيخ عبد الله السُّلْطَانْفُورِي[٢] يحتلُّ مكانة كبيرة في كبار أصحاب المناصب الدينية، وكان لقبه ومنصبه «مخدوم الملك» فأصدرَ فتوى عدم فرضيَّة الحج على مسلمي الهند لحيلولة البحر، وعدم تحقق شرط «من استطاع إليه سبيلاً» حتى لا يتجشَّم هو مشاق السفر في الحجِّ، وكان يستخدم الحيل «الشرعية» في إسقاط فريضة الزكاة[٣]، ويتخلَّص من أدائها كلَّ عام، وقد اقتنى في عهد الملك (أكبر) وفي أوج وَجاهته وشُهرته أموالاً طائلة، حتى عُثر على عدد من الصناديق المملوءة ذهباً في المقبرة الخاصة بآبائه، وكان قد دفنها بحيلته وشطارته مع دفن الموتى[٤].

وكان يلي مخدوم الملك في المنزلة والوجاهة عند السلطان، ونفوذ الكلمة في البلاد «صَدر الصدور» الشيخُ عبد النَّبي[٥]، الذي كان يُعد أكبر عَالم في

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٠٣.

(٢) راجع ترجمته المفصلة «نزهة الخواطر» ج٥.

(٣) وهي أنه كان يعطي المال الذي يفرض فيه الزكاة زوجته أو بعض أقربائه قبل حولان الحول عليه، ثم يسترده فيما بعد، ويتخلص بذلك من فريضة الزكاة وهكذا يعيد كل عام هذه الحيلة إذ أن حولان الحول على المال شرط لوجوب الزكاة.

(٤) ويذكر أنه اكتشف في هذه القبور لبناتٌ من ذهب كانت قيمتها ثلاثين مليون روبية.

(٥) كان الشيخ عبد النبي بن الشيخ أحمد الكنكوهي، وحفيد الشيخ الكبير عبد القدوس =

الهند ، ومن أهل الاختصاص في فن الحديث ، ولكن تُفيد بعض التصريحات الواردة في «منتخب التواريخ» أنه لم يكن عاليَ الكعب ، راسخ القدم في العلم ، وكان يجهل بعض الألفاظ العربية ولا يعرف صحَّتها من خطئها ، ولم يقف على التحقيق فيها [١] ، سَلَّم إليه الملك (أكبر) منصب «صدر الصدور» ، ونال من الإجلال والاحترام ، وعظمة المكان والجاه والسلطان ، بحيث لم يكن لأيِّ رُكن من أركانِ الدولة أن يتقدَّم عليه ، ويتَفوَّه لديه ، وقد قدَّم إليه الملك نعليه أدباً وتواضُعاً عدة مرات ، وكان كبار العلماء والأعيان ينتظرون ساعات طويلة على بابه ليؤذَن لهم بالدخول عليه ، وكان بيده إجراء رواتب العلماء والمشايخ وشيوخ الطُرق ، وإعطاؤهم الأملاك ، وإقطاعهم الأراضي ، وضَربَ في ذلك أمثلة رائعة للأريحيَّة والسخاء ، والعطاء الكثير ، مما لا يوجد له في الحكومات السابقة نظير.

ولكنَّ العلامة عبد القادر ـ الذي كان صديقه ومعاصره وزميله في علماء البلاط ـ يُصَرِّح بأنه كان عاطلاً عن الأخلاق الرفيعة ، وتقاليد أُسرته وخصائصها الطيبة، بل عن الثقافة العامة، وتقدير الظروف والمناسبات ، ويمكن أن يكون هذا التَّغيُّر في سجاياه نتيجة هذا المنصب السامي ، فكان تأثير هذه الأخلاق المتجلية فيه على الملك وأركان البلاط تأثيراً سيئاً ، ويتَّهمه العلامة عبد القادر باستغلال سلطته ونفوذه ، واستخدام منصبه في الأغراض الشخصية ، يقول:

«إنَّه اضطرَّ الإقطاعيين الدينيين في طول الهند وعرضها أن يتردَّدوا إليه ،

= الكنكوهي من كبار مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية ، ولكنه ـ لأخذه علم الحديث عن علماء الحجاز وتتلمذه عليهم ـ خالف مذهب سلفه وأسرته في وحدة الوجود ، وسماع الغناء. وقد أسخط ذلك والده فتوترت العلاقة بينهما.

(١) يستبعد من الشيخ عبد النبي ـ بعد أن تلقى العلم على علماء الحجاز ، «راجع للتفصيل «نزهة الخواطر»ج٥ ، لا سيما أمثال العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الكثير من أساتذة الفن ، وألف وصنف ـ أن يخطىء في بعض الألفاظ البسيطة ، فكان يقرأ «حجراً» بتقديم الحاء بدل جحر بتقديم الجيم ، والله أعلم.

وينتظروا فتح الباب لهم حتى لم يجد الوافدون عليه من هؤلاء الإقطاعِيِّين بُدّاً من أن يُعطوا الرشوة لنواب الشيخ، وكنَّاسيه وحُجَّابه، وسُوَّاق أفياله ومُنظفي حماماته، فما كانت تُنجز الأعمال إلاَّ عن طريق هذه الرشوة»[(١)].

كان لا يُراعي الحال ولا يأخذ بالحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة الدينية، حتى كان يُواجِه الملك أحياناً ـ بما لا يليق بشأنه ويُعتبر من الخُرْق وإساءة الأدب ـ كما جاء في «مآثر الأمراء»:

«إنَّ العلماء والمشايخ والأمراء كانوا يهنئون المَلِك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده، وكان الملك لابساً ـ آنذاك ـ لِباساً مُعصْفراً مصبوغاً بلون الزَّعفران فاعترض عليه الشيخ، وأكَّد عليه بتغيير هذا اللباس، وشدّد في ذلك وتحمَّس حتى ارتفعتْ عصاه، ووقع طرفُها على ثوب الملك، وتحمَّل الملك منه ذلك، ولكنه شعر بإهانته، ودخل قصره، وشكا إلى والدته ما لقي من الشيخ، وكانت والدته سليلة أسرة طيبة معروفة بالفضل والصلاح، فأهدأتْ ثائرة الملك وقالت: إن احتماله هذه الشّدة من الشيخ سوف يُكتب في سِجل مناقبه في التاريخ. ويروى أن عالماً من العلماء من رعية السلطان ضربه بالعصا، فصبر على ذلك وتحمَّله إجلالاً للشريعة وتعظيماً لها»[(٢)].

وكانت رزيئةٌ أخرى ـ علاوة على ما تقدَّم ـ أنَّ «مخدوم الملك» والشيخ عبد النَّبي، أصبحا عدوين متنازعين، فكان «مخدوم الملك» يرميه بالجهل، فينقسم نتيجة ذلك أتباعهما وحُلفاؤهما في معسكرين متحاربين متنابذين، ويقفون وجهاً لوجه.

وبالجملة فإنَّا نَرى نقلاً في ضوء ما نُقل إلينا من سيرة «مخدوم الملك» والشيخ عبد النَّبي، إذا كان نقلاً صحيحاً في التاريخ ـ أنهما لم يكونا جديرين بتمثيل الدين الإسلامي تمثيلاً صحيحاً، وخلافة الأنبياء، وأداء رسالتهم في

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٠٥.

(٢) مآثر العلماء: ج٢، ص ٥٦١.

ذلك العصر الدقيق الحَرِج ـ عهد الملك (أكبر) ـ وفي تلك البيئة المعقَّدة الخطيرة ـ بلاطِ الملك (أكبر) ـ لا في العلم والثقافة، ولا في الفهم الصحيح للدين، ولا في عُزوف النفس وسُمُوّ الأخلاق، وأنه إن لم يتيسَّر لهذا البلاط أمثال رجاء بن حيوة [(١)] مستشار الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ووزيره الأمين، والإمام أبي يوسف [(٢)]، قاضي القضاة في الدولة العباسية والمستشار الديني للخليفة العباسي هارون الرشيد في عِلمهما ووَرعهما، وذكائِهما وتدبيرهما، فلا أقلَّ من أن يتوَّفر له أمثال عبد العزيز آصف خان، والقاضي شيخ الإسلام [(٣)]، من المستشارين للدولة النَّوابغ الأذكياء والزُّهاد الأتقياء.

وكان لابُدَّ لمهاجمة العلماء الأفذاذ المبرِّزين في العلوم العقلية، والنابغين في الفنون الأدبية، الذين تجمَّعوا في بلاط الملك (أكبر) من أبناء إيران والهند ـ كما سيأتي ذكرُهم قريباً ـ من وجود مُمثِّلين للدين والشريعة الإسلامية، ومستشارين دينيِّين للدولة، ومُحافِظين على السلطة، أدقَّ منهما علماً، وأعمق إدراكاً، وأعلى كفاءة واستعداداً، وأكثر تفطُّناً لحاجات العصر وضرورات الحياة.

ولمَّا اطَّلع (أكبر) ـ الذي كان يعتقد (كما يقول المؤرِّخ عبد القادر) رُجحان هؤلاء العلماء على الإمام الغزالي والمفسِّر الرَّازي وتفوُّقهم عليهما ـ على هذه التصرفات الساقطة السخيفة، جعل يقيس العلماء السالفين عليهم، وأساء الظن بهم جميعاً.

أركانُ الدَّولة ومستشارو البلاط:

ولم يكُن شقاءُ الملك (أكبر) في أركان الدولة أقلَّ من شقائه في علماء

(١) هو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز.

(٢) وهو الذي نظم القضاء في الدولة العباسية الكبيرة وصنف «كتاب الخراج».

(٣) راجع لتراجمهما «نزهة الخواطر» ج٤، لوالدنا العلامة مؤرِّخ الهند عبد الحي الحسيني رحمة الله عليه.

البلاط إذ كان يسحر عقله، ويسلب لُبه ـ لجهله وسذاجته ـ كلُّ لَسِن ذكي، فَطِن ألمعيّ، لا سيَّما إذا كان وافداً من «إيران» التي كان يعدُّها أبناء الهند وأفغانستان، بمنزلة اليونان.

وقصد لبلاط «أكبر» ـ في تلك الفترة الشَّقية التي أُصيب فيها أكبر بالتضعضع في الدين والعقيدة، الحكيمُ أبو الفتح الكيلاني، والحكيم هِمَايُون (الحكيم همام) ونور الدين قراري، الإخوة الثلاثة، ونالوا الحظوةَ والمكانة العالية في البلاط، وجاء بعد فترة يسيرة مُلاّ يَزْدِي، الذي أطال لسانه على صحابة الرسول ﷺ، وخطا حكيم أبو الفتح خُطوة أخرى قُدماً وأنكر ـ علناً وجهاراً ـ الحقائق الدينية كالوحي والنبوة والمعجزة [١]، ونزل شريف الآملي في هذه الفترة نفسها ـ كما سبق ـ قاصداً من إيران، وكان على مذهب «محمود بسيخواني» ويحملُ الأفكار الملحدة.

وعدا هؤلاء العلماء النوابغ القاصدين من إيران، اندسَّ في البلاط في هذه الفترة المصابة بالاضطراب الفكري والتضعضع العقائدي ـ رجلٌ هندوكيٌّ ـ يدعى «بَرْهَمْ دَاسْ» كان حاضر البديهة، مُبرِّزاً في المناظرة، فَكِهاً ظريفاً، لطيفَ المحاضرة، فتقرَّب إلى الملك، وتحكَّم في ذوقه وعقليَّته، وتصدَّر في البلاط، وما لبث أن لقَّبه الملك بـ«المصاحب» (النديم) الخاص، فعظم قدرُه، وعلا مكانه، وذاع صيته باسم «رَاجَهْ بَيْربَر». إنه اتَّخذ موقف السخرية والاستهزاء، والجراءة الوقحة إزاء العقائد الإسلامية، والمسائل الدقيقة، والشُّؤون الدينية، بعد أن عرف اتجاه الدولة، ورَغبة الملك، فساير البيئة حيث كانت هذه السُّخرية «العُملة السائدة» في ذلك العهد، فصفق له الناس من كل جانب، وقام بدور خطير في توجيه الملك توجيهاً هازلاً غير جاد في أمور الدِّين [٢].

---

(١) انظر «منتخب التواريخ» ج٢، ص ٢١١.

(٢) راجع للتفصيل «منتخب التواريخ» ج٢، ص ١٦١.

مُلاَّ مبارك وَولداه: فيضي وأبو الفَضل:

وزاد الطينَ بلةً تردُّدُ مُلاَّ مُبَارك النَّاكُوْرِي على البلاط ، وكثرةُ اختلافه إليه [1] ، وحصل لابنيه فيضي وأبي الفضل من الحظوة والتقدير ، عند السلطان ، والتبجيل والإكرام في البلاط ، ما لم يَحصُل لأحد من قبل.

وتُطالِعنا الدراسة المُنصفَة المحايدة لحياة مُلاَّ مبارك ، وفَيضي ، وأبي الفضل وسيرتهم على أنهم كانوا من نَوابغ الأذكياء ، وذَوي الباع الطويل في العلم والثقافة الغزيرة الواسعة ، والمتبحِّرين في العلوم العقلية والأدبية وأصحاب القريحة في الشعر والنَّثْر الفارسيَّين.

وخُلاصة القول أنهم كانوا أفضلَ وأعقلَ وأرقى نِتاج للمناهج الدّراسية المطبَّقة في ذلك العصر ، وأسلوبِ البحث والتحقيق ، والتدريس ، والعلوم والثقافات المفضَّلة السائدة في عصرهم ، ولو كانوا قد جمعوا إلى هذا الإدراك الدقيق، والعقلية النابغة، والقريحة الفياضة ، والقلم السيَّال ، واللِّسان الذَّرِبِ الطليق، استقامةً في الدين، ورسوخاً في الإيمان واليقين، وخشية ربِّ العالمين، والرغبةَ في الآخرة، والإخلاص في العمل ، والرَّبانية المشرقة، لكان لهم دورٌ أيُّ دور ، وقاموا بمآثر جليلة ، ووقاية كاملة لعصرهم من الفِتَن والويلات ، كان من العسير أن يوجد لهما نظير ، ولكنَّ دراسة سيرتهم وأحوالهم ومؤلفات أبي الفضل وفيضي أنفسهما تكشف لنا عن الجوانب التالية:

١ ـ لقد كان مُلاَّ مبارك ـ وهو الركن الأول من هذا الثالوث ـ مضطرب النَّفسية ، قلق التفكير ، مُوزَّع الهمِّ ، درس المذاهب الفقهية الأربعة ، واطَّلع على الخِلافات فيها ، فاتّجه إلى الكراهية لها والنفور منها ، وإنكار فضلها بدل أن ينحو نَحو الجمع والتطبيق ، والتوجيه الصحيح ، وأنكر هذا التراث الفقهي

---

(١) ذكر أبو الفضل في «أكبرنامه» وصول ملا مبارك إلى البلاط لأول مرة في حوادث العام الثاني عشر من تولي الملك.

العظيم ، وجُهود السلف الصالحين ، وسيطرتْ عليه الفلسفة لانضمامه ـ فيما بعد ـ إلى حلقة أبي الفضل الكَازَرُوْنِيّ من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء (شِيْرَاز) ، وبدأ يُطالع كتب التصوف و«الإشراق» مباشرة من غير مُراجعة أئمة هذا العلم ومشائخ الطرق ، ومن غير أن يستفيد منهم في علم التزكية والسُّلوك ، والاطلاع على مصايد الشيطان ، وأمراض النفس ، ومُعالجتها عن طريق المناهج المعروفة ، فوقع في الأخطاء ، ونشأتْ فيه طبيعةٌ متقلّبة متلوِّنة مضطربة بعد أن مرَّ بهذه الأودية والشعاب ، ووُجدت فيه ـ من جراء ذلك ـ ملكة التلوُّن بكل لون ، والتكيُّف مع كل حال ، والسَّير في مسار هذا المثل النفعي ، «دُرْ مع الدَّهر حيثُ دَار» .

يقول عنه الشيخ خواجه كَلان بن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقي النقشبندي ، الذي تربَّى في بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور [١] :

«كان يعتنق في كُلِّ دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التي يَرغبُ فيها الأمراء والملوك» [٢] .

ويقول المؤرِّخ (Sir Welzle Haig) : «لقد اعتنق مُلاَّ مبارك ـ في مختلف أدوار حياته ـ : السُّنية والشيعية والصوفية والمهدوية ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلاَّ الله» [٣] .

٢ ـ إنَّهم كانوا أصحاب طُموح وطلب للجاه والنفوذ ، فلم تكن طبيعتُهم القلقة الفياضة لِتَقْنَع بالعلم والتدريس ، وتنحصر في دائرتها الضيقة المحدودة فتاقت نفوسهم إلى إظهار نُبوغهم وذكائهم في البلاط والتأثير فيه ، فاستظلَّ

---

(١) تربى خواجه كلان في بيت الشيخ حسام الدين ، وكانت زوجة الشيخ حسام الدين بنت الملا مبارك ، (انظر «تاريخ هندوستان» ج٥ ، ص ٩٤٧).

(٢) مبلغ الرجال: ورقة ٣٣ ، ألف.

(٣) Cambridge History of India Vol.4.p.18.

بظل الملك أكبر ـ الذي كان يعتبر ظِلَّ «هُما» [١] ـ وحصل لابنيه النفوذ والسلطة وإن لم يحصل له.

٣ ـ يبدو أنَّ علماء ذلك العصر ـ ولا سيما مخدوم الملك، والشيخ عبد النَّبي اللذان كانت لهما السيطرة والنفوذ في البلاط ـ لم يُعطوه مكانه اللائق به الذي كان يستحقه لفضله وذكائه، وأنه عُورِض من قبل الأوساط الدينية لبعض معتقداته وآرائه المنحرفة، وتلوُّن طبيعته، وقُوبل بالإهمال وقلة الاهتمام بشأنه، وذلك ما جرح قلبه، وترك فيه آثاراً عميقة، وفي تعبير الأديب الكبير الشيخ محمد حسين آزاد: «كم من سِهام الظُّلم والحَيف أصابت فؤاد الشيخ مبارك، وأحدثت فيه ثقوباً لا تنحصر، وإن الجراح التي نالها الشَّيخ أبو الفضل ووالده الشيخ مبارك، من «مخدوم الملك» و«صدر الصدور» لم يكن لها من بُرء على مرِّ الأعوام وكرِّ السنين» [٢]، ويقولُ في موضع آخر: «إنَّ ما أصاب الشيخ مبارك من الرزايا على يد «مخدوم الملك» ما نَسيها أبناؤه، فبدؤوا ـ لتلافيه ـ يَسعون للوشاية عند الملك (أكبر)، ومن ثمَّ بدأ التحول في أفكاره وآرائه» [٣]، ويقول محمد حسين ـ رغم أنه من المتحرِّرين «المتنوِّرين» ـ: «كانت حالةُ فَيْضِي وأبي الفضل كحالة أبيهما غامضة مُبهمة».

وأورثَتْ مُعارضةُ العلماء وظُلم ذوي العصر عُقدة «مُركَّب النقص» في جميع أفراد هذه الأسرة، وعُقدة مركَّب النقص (Inferiority Complex) تَظهر في أشكال مختلفة، وفي صُورة «مُركَّب الاستعلاء» (Superiorty Complex) أحياناً، فعزموا على ألا تقوم قائمة لأيِّ عالمٍ أمام علمهم وذكائهم.

وذَهب ضحيةَ هذا الحقد على علماء البلاط والترة التي كان يحملها الثلاثةُ؛ الإسلامُ والنظام الديني بأسرِه، حتى إذا أفل نَجْمُهم وانطفأ سِراجهم أو كاد

(١) «هُما» طائر أسطوري في الأدب الفارسي، يعتقد فيه البركة، ويتفاءل به فيقال إنه إذا جلس على رأس إنسان أو وقع عليه في طيرانه آل إليه الملك.
(٢) دربار أكبري: ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٨٩.

ينطفىء إزاءَ نبوغ هذين الأخوين وذَكائهما النادر، وعلا في الدولة صيتُهما وطار في الآفاق ذِكرهما، كانتْ حديقة الإسلام الذابلة ـ بِفعلهم بين سَمْعِهِم وبصرهم ـ تلتهمُها النيران، ويَشبُّ فيها الحريق، وكان أبو الفضل ـ حسب ما يقول المؤرِّخ عبد القادر ـ يُردد هَذين البيتين، وهما لسان حاله وأصدق ترجمانه، يقول ما معناه:

«لقد أشعلتُ النيران بيدي في مِرْبدي[1]، وقتلتُ نفسي بنفسي، فكيف أشكو عَدوِّي، وليس هناك عَدُوٌّ إلا أنا نفسي، آه من نفسي ويدي وعَدوِّي».

وكان لمُلاَّ مبارك هذان الولدان النابغان أبو الفيض فَيْضِي الذي وُلد عام ٩٥٤ هـ، وأبو الفضل العلاَّمي المولود عام ٩٥٨ هـ.

وكان فَيْضِي نابغةً من نوابغ العلوم الأدبية، لا يختلفُ اثنان في رَوعة شعره الفارسي وإمامته فيه، وأصاب العلامةُ شِبلي النُّعماني حيث قال في «شعر العجم»: «لم يُنجِب الشعر الفارسي في الهند في عُمره الطويل الممتد على ستة قرون سوى شخصين، أذعَنَ لهما ـ طوعاً أو كرهاً ـ أصحاب هذا اللسان، هما خُسْرُو وفَيْضِي».

«تَـتَلْمَذ فَيْضِي على خواجه حسين المروي، وبَرزَ في كل عِلم وَفنٍّ، ودخل بلاط الملك عام ٩٧٤ هـ، ـ العام الثاني عشر مِن تربُّع السلطان، على عرش الدولة ـ ونالَ الشرف والتقدير، ولم يزَل يتقرَّب إلى السلطان إلا أنه لم ينسلك في وظيفة من الوظائف في البلاط، كان طبيباً نِطاسياً، وكان شاعراً مَجيداً، وكان مؤلِّفاً قديراً، يقضي وقته في هذه الأعمال العلمية.

وأُسند إليه تأديبُ أبناء الملك وتعليمُهم وتثقيفهم، ففي العام الثاني عشر من تولِّي السلطان عهد إليه بتعليم ولي العهد دانيال، وعلَّمه فيضي ـ في أيام قليلة ـ مبادىء العلوم، وألقى أكبر ـ هذا العام ـ خُطبة في المسجد ادَّعى فيها الاجتهاد والإمامة، وكان فيضي مؤلّف هذه الخطبة.

---

(١) [المِرْبَد: موقف الإبل ومَحْبِسُها، وبه سمَّى مِربَد البصرة، كان سوقاً للإبل].

وقلل (أكبر) من نفوذ الشيخ عبد النَّبي وحدَّ من سلطانه، وفرَّق الصدارة ـ الرئاسة ـ في عِدة شُعب، فأسند عام ٩٩٠ هـ رئاسة (آكْرَه) و(لكالنجر) و(كالبي) إلى فَيْضِي للقيام بهذه المهمة معهم.

وفي عام ٩٩٦ هـ وهو العام الثالث والثلاثون من تولِّي أكبر للحكم ـ لُقِّب فَيضي بملك الشعراء، وعُيِّن سفيراً في «خَانْدَيْس» عام ٩٩٩ هـ الموافق للعام السادس والثلاثين من حكمه ـ فقامَ بهذه الخدمة خيرَ قيام، ونَجح فيها نجاحاً كبيراً، وتُوفي في شهر صفر ١٠٠٤ هـ الموافق للعامِ الأربعين من ولاية السلطان»[١].

وله تفسيرٌ من أشهر ما ألَّفه وأَسماه «سواطع الإلهام»[٢] ـ عدا ما خلَّفه من مؤلَّفات أدبية، وكُتب مُترجمة من اللُّغة السَّنْسَكْرِيتية، وقصائدَ متفرقة وديوان شعر ـ وتفسيرُه هذا تحاشى فيه الحروف المُعجمة كلها، وأكملَ تأليفه في

---

(١) ملخَّص من «شعر العجم» للعلامة شبلي النعماني، ج ٣، ص ٢٨ ـ ٧٢.

(٢) ألف فيضي هذا التفسير ـ الذي التزم فيه بأن لا يستعمل أياً من الحروف المعجمة والذي طار صيته في عصره، وتحدث به القاصي والدَّاني ـ لإثبات فضله ونبوغه، والرد على اتهامه بالانصراف عن العلوم الدينية، ولكن هذا العمل ـ مهما أثبت له من قدرته على اللغة العربية، وامتلاك لناصية البيان فيها ـ لم يضف شيئاً علمياً مفيداً، وإنما مثله مثل بعض الكتبة البارعين في الخط، الذين كانوا يتظاهرون بدقة خطهم وجمال فنهم بكتابة سورة الإخلاص ـ كاملة ـ على حبة واحدة من الأرز، فجاءت ـ نتيجة ذلك ـ عبارة متكلفة لا لذة فيها ولا جمال ولا طراوة.

ولعل مأثرة عالم الشام الشيخ بدر الدين المعروف بابن الغَزِّي الدمشقي (م ٩٨٤هـ)، كانت أنفع وأحق بالتقدير والإجلال، إذ أنه فسر القرآن الكريم في مئة ألف وثمانين ألف بيت من الشعر، ثم لخصه في مجموعة أخرى من الشعر، وقدمها إلى السلطان سليمان القانوني، وعرضه السلطان على العلماء حتى يبينوا إذا كان فيه ما يخالف عقيدة الجمهور أو إن كان وقع فيه تحريف، واتفق العلماء على صحته واعترفوا بفضله، فأعطاه السلطان جائزة قيمة غالية. «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي، وراجع أيضاً «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني اليماني صاحب «نيل الأوطار» (م ـ ١٣٥٠هـ) ج٣، ترجمة محمد بن محمد الغزي ـ ص ٣٥٣.

عامين ، انتهى منه سنة ١٠٠٢ هـ ، وجازاه أكبر على هذه الخدمة بعشرة آلاف روبية [١] وكان فيضي يعتزُّ بهذا التأليف ، ويُقدَّر من خلال كتابه مدى قُدرته البيانية ، وملكته اللغوية ، ويَعترف الشيخ البَدَايُوني ـ رغم الاختلاف في العقيدة والمذهب ـ بعبقَريته العلمية وتبحُّره في اللغة ، فيقول :

«كان نسيجَ وحدِه في الفنون كالشعر والألغاز والعروض ، والقوافي ، والتاريخ واللغة ، والطب والإنشاء».

وكان شغوفاً بجمع الكتب ، أنشأ مكتبة قيِّمة ضخمة كانت تحتوي على أربعة آلاف كتاب ، أكثرها مما ألفه بنفسه ، أو أُلِّفَت في عصره .

ويجمع العلاَّمة عبد القادر البدايوني وجميع من في عصره ممن كانت تجيش في قلوبهم الحميَّة الإسلامية والغيرة على الدين ، ويَعصرهم الحزن والألم على ما يُشاهدون من الأوضاع والظروف السيئة في عهد الملك (أكبر) ، على أن فيضي كان كوالده فريسة الاضطراب والتبلبل في الأفكار ، والتَّزلزل في العقائد ، وأن له يداً فعالة في انحراف «أكبر» وإلحاده ، وأن صورة «فيضي» كما تتجلَّى في «منتخب التواريخ» للبَدَايُوني ، إذا أخذناها بالحيطة ، وبإبعاد عناصر المبالغة والإنشاء الأدبي الطليق ، لا تخلو من التحرُّر والانطلاق ، وعدم التقيُّد بالإسلام ، وذكر العلامة النُّعماني مقتبسات من مذكرته تدل على طابع السخرية والاستهزاء [٢] ، يقول العلامة النُّعماني :

«أقام فَيْضي وأبو الفضل مجالس علمية ظهر فيها لأصحاب البلاط بكل وُضوح أن هؤلاء المتعصِّبين (من العلماء المجتمعين في البلاط) لا يحملون سوى أدوات اللَّعن والتكفير» [٣] .

---

(١) مآثر العلماء : ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٢) انظر «شعر العجم» ج ٢ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) منتخب التواريخ : ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٥ ، وانظر الكلام على مذهب فيضي وآرائه في «دربار أكبري» بقلم الشيخ محمد حسين آزاد ، ص ٤٧١ .

ويبدو أنَّ أفكار فَيْضِي وآراءه الملحدة انتشرت في الآفاق ، وذاع صيتها في الأطراف في حياة فيضي نفسها ، فإن التواريخ التي استخرجت منظومة بمناسبة وفاته تدل على ذلك ، وقِصة وفاته تحمل في نفسها العبرة والدرس .

أمّا صِنْوُه أبو الفضل ـ فقد كان كما تقدَّم ـ من نوادر الرجال في الذكاء وسَيلان القريحة والتَّفنُّن في العلوم ، وكانت له اليد الطُّولى والقَدح المعلّى في الكتابة والإنشاء ، كما كان أخوه الأكبر صاحب الكعب العالي في الشعر يقول في كتابه «أكبرنامه» :

«إنَّه جُنَّ جُنونه في صغره ، ضد التقليد والظاهرية ، والصَّلَف ، والإعجاب بالرأي» [١] .

وسُعد بالمثول في البلاط الملكي عام ٩٨١هـ بمدينة (آكْره) ، وأهدى إلى الملك تفسير «آية الكُرسي» ثم أهدى إليه تفسير «سورة الفتح» عام ٩٨٢ هـ .

ومن ثم نال الزُّلفى عند الملك ، ولم يزل يتقرب إليه حتى سُلّمت إليه مقاليد «الوزارة العالية» و«النيابة المطلقة» ، وإن «آئِين أكبري» ـ دستور هذه الدولة وقوانينها ـ أعظم مآثره ، وإنها مرآة صادقة لوقائع الدولة التيمورية وأحوالها الدينية والعلمية ، والعائلية والمدنية والاجتماعية ، والاقتصادية والزراعية ، والصناعية والحربية ، والدولية .

ويَلي هذا الكتاب الثاني كتابُه «أكبر نَامَهْ» [٢] ، وهو يشتمل على سيرة السلاطين التيموريين في الهند ، وأحوالِهم .

وهناك ـ عدا هذين الكتابين العظيمين ـ مجموعةُ رسائل بعنوان «إنشائي

(١) أكبر نامه : ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) يقول العالم الفرنسي الشهير «Carradevaux» عن كتاب «أكبر نامه» : «إنه وثيقة تاريخية يحق للشرق أن يعتز بها، وإن العبقريات الإنسانية التي عرفت بنفسها عن طريق هذا الكتاب الضخم، يخيل إلينا أنهم سبقوا عصرهم في تدبير شؤون الدولة والتنظيم للبلاد»
(Carra De Vaux Les Penseurs De L' Islam - Paris 1992)

أبو الفضل» ، ومؤلَّفات أخرى ، وقد قام (نَرسَنْك دَيْو) ـ بإشارة الملك جَهَانكِير ـ باغتياله عام ١٠١١ هـ ، فحزن عليه «أكبر» حزناً عميقاً وبكى لموته ورثاه.

يقول الدكتور محمد بَاقر في مقاله بعنوان «أبوالفضل» الذي جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردية :

«كان لأبي الفضل التأثيرُ الكبير على عقائد الملك الأكبر ، ولما أنشأ (أكبر) عام ٩٨٢ هـ الموافق عام ١٥٧٥ م بناية خاصة للعبادة في فتح بورسيكري ، وجمع علماء الدين ليستمع إلى مناظرتهم ومباحثاتهم ، كان أبو الفضل ممَّن يحضر هذه المناظرات ، وكان يؤيِّد ـ دائماً ـ ما يذهب إليه أكبرُ في العقائد والآراء ، وينحاز إليه ، حتى أثبتَ لأكبر أن ما يذهبُ إليه من آراء ومعتقدات أرجحُ وأفضل جداً من آراء العلماء المعاصرين.

وأصدر عام ١٥٨٩ م قراراً من البلاط ينص على أن المرجع النهائي في الفصل بين خلافات العلماء الدِّينيين هو «جلالة الملك» أكبر ، وقد رَغِبتْ نفسُه أثناء هذه المناظرات التي كانت تُعقد في معبده في ابتداع دين جديد ، فوَضع أساس هذا الدين عام ١٥٨٢ م ، واختاره أبو الفضل أيضاً»[١] .

تختلف الآراءُ في أبي الفضل ، أنه كان إنساناً متحرِّراً ، طليقاً من القيود الدينية ، وبعيداً عن العصبية فحسب ، أم كان مُضَلِّلاً منافقاً كائداً للإسلام ، يظنُّ الناس ـ عادة ـ أنه كان رَحب الصدر ، متسامحاً مع الناس ، يُراعي الصدق والدقة في بيان الأحداث والوقائع ، ولا يُطري الناس ، ولا يُثني على أحد أكثر من حقه ، وكان يَكره تزمُّت المتزمِّتين ، وعصبيتَهم ، ويحسن بنا أن نذكر هنا حادثة نستطيع بها إدراك عقلية أبي الفضل ، وسَبر أعماقها والاطلاع على نواياه :

«حميت المناظرةُ ـ ذات مرة ـ في قصر الملك (أكبر) الذي بناه للعبادة ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ج١، ص ٨٨٩ ـ ٨٩٠.

حول فضائل القرآن، والإنجيل، إذ كان أتباع كلٍّ واحد من هذين الكتابين المقدَّسين يقولون إن كتابهم هو المنزل من السماء لا غير، فأرسل «أكبر» إلى رجل من المجاذيب يدعى الشيخ قطب الدين، فجاء الشيخ وتحدى المسيحيِّين، وقال: تعالوا نُوقد النار، وندخل فيها، ونُثْبتُ عن طريقها صحةَ دعوانا، يقول البَدَايُوْنِي: فأوقدت النِّيران، وتقدم الشيخ قطب الدين وجذب بأطراف معاطف البطارقة المسيحيين، وقال: تعالوا باسم الله، ندخل فيها، فلم يتجرأ أحدٌ منهم أن يقتحم النار»[١].

أمَّا أبو الفضل فيحكي هذه القصة في أسلوب يدل على نَفسيَّته الحاقدة على الإسلام، فيقول:

«أقام البطريق رادلف (Rudolf) ـ الذي كان نادرة عصره في العلم والذكاء ـ أدلة عقلية راجحة، ولكن هؤلاء الكذابين المتزمِّتين جعلوا يردون عليها في طَيش وسطحية، ولم تكن لدلائلهم أي قيمة، فخجل المعارضون لرادلف (المسيحي)، وبدؤوا يَسُبُّون الإنجيل بدلاً من الردِّ على الأدلة، فتحدَّاهم رادلف، ودعاهم إلى اقتحام النار، ليُثبت كل فريق دعواه بمُروره على النار سليماً؛ ولكنْ خاف هؤلاء الجُبناء أصحاب القلوب السوداء، وتظاهروا إزاء هذا التحدِّي بالتزمُّت والمِراء، وكان هذا الجُبن منهم صدمة لقلب السلطان أكبر»[٢].

وكان من الحاضرين في البلاط ـ آنذاك ـ مع البطريق الإيطالي رادلف أكويا (Rudolf Aqua Viva) ـ أحد المسيحيِّين الإسبان، أنطوني مانسريت (Antony Monserrate) وأحد الإيرانيِّين الذي اعتنق المسيحية، فرانسس هنري كيس (Francis Henri Wuez) وألَّف أنطوني مانسريت كتاباً باسم (Mongalicae Legations Commentarius) في اللغة اللاتينية، وتحدث فيه

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٩٩.

(٢) أكبر نامه: ص ٢٥٥.

عن انطباعاته ومشاعره حول بلاط السلطان (أكبر)، ويُلاحظ في الكتاب دفاعه عن جُبن البطريق رادلف وتَهيُّبه للدخول في النار، ويعترف بأن التحدِّي باقتحام النار كان من قبل عالم مُسلم، وتخلَّص منه «رادلف» قائلاً: «إن هذا اختبار الله، وذلك يُخالِف مبادىء الدين المسيحي»(١).

يكفي تناول أبي الفضل هذه الحادثة بالتحريف والتزوير، ودفاعُه عن «رادلف» وأسلوبه مع المعارضين له من العلماء المسلمين، للدلالة على كراهية أبي الفضل للإسلام والنفور منه، فلم يكن يتَعذر على مثله في الذكاء والدهاء أن يبذر في قلب السلطان بذور الشك والارتياب واللادينية التي تنحرف به عن الإسلام، وتنفِّره منه.

وجاء في «مآثر الأمراء» أن الملك (جَهَانْكِيْر) كان يقول: لقد لقَّن الشيخ أبو الفضل والدي أنَّ خاتم النبيين محمداً ـ ﷺ ـ كان أفصح الناس وأن القرآن من تأليفه، ولذلك أوعزتُ إلى (نَرْسِنْكه دَيْو) عند عودة أبي الفضل من الجنوب، أن يَقتله، وكان والدي ـ بعد ذلك ـ تاب من هذه العقيدة»(٢).

ولكنَّ أوثق شاهدٍ وأصدَقه على ذلك، تصريحٌ من أبي الفضل نفسه، يدل على أن ما قام به من دور باستعانة علمه وذكائه من صَبغ أهواء الملك ورغباته بالصِّبغة العلمية، وتقويتها بالأسلحة العلمية، ورفع مكانته من والي الدولة المسلمة إلى «إمام العصر» و«مرشد الأمَّة» لم يكن ضميرُه مقتنعاً به مرتاحاً إليه، وكان يَستيقظ فيه ـ أحياناً ـ هذا الضمير، ويثور هذا الشعور، فيقول في رسالة وجَّهها إلى الأمير عبد الرحيم «خَانخَانَان» فيها عن نفسه:

«إنَّ كاتب هذه السطور لتورُّطِه في جحيم الأشغال التي لا تعنيه، سقط من

---

(١) Father Antony Monserrate. Mongolicae- Legationis Commentarius. Transl J.S.Holland Oxford University Press. 1922 P.P.39 - 42.

(٢) مآثر الأمراء: ص ٦١٧.

مرتبة عبد من عباد الله إلى حضيض عبد النفس والهوى، وكاد أن ينادى يا عبد الدِّينار والدِّرهم، وأنه يبدي عن طريق هذه الكتابة ألمه وحزنه ويرى أنه بعد هذا السَّعي السفيه الحثيث، طوالَ ثلاث وأربعين سنة، ولا سيَّما هذا الصراع الذي دام اثنتي عشرة سنة مع أبناء هذا الزمان لم يبق فيه بقيةٌ من صبر، ولا قوة على الاجتناب والبعد»[١].

تأثيرُ زَوجات المَلِك الهِندُوكِيّات:

كان عاملاً قوياً من عوامل انحراف «أكبر» وتَحوُّل نفسيته، أنه بدأ يُقيم الصلات والقرابات ـ لتوطيد أركان الدولة، وإحكام السلطة ـ مع الرَّاجْوَات ـ الأمراء ـ الرَّاجْبُوْت، ويُعيِّنهم على المناصب الخطيرة العالية، وأقدم لكسب ثقتهم وإرضائهم ـ على أُمور وأعمال لم يسبق إليها أحد من سلفه من الملوك والسلاطين، كالنَّهي عن ذبح البقرة، والتجلِّي للناس من نافذة القصر مستقبلاً الشمس، وحلق اللحية... ووضع نقطة من الطين الملوَّن في وسط الجبين ـ وهو من شعار الهنادك ـ والزواج مع النساء الرَّاجْبُوْت، ومخالطة الأميرات الهِنْدُوْكِيَّات، والمشاركة في العادات والمظاهر الهندوكية، وقد كان لهؤلاء الزوجات الهندوكيات، ولإخوتها وذوي قُرباها ـ عن طريقها ـ أثرٌ كبير على «أكبر» وكان ذلك طبيعياً، وأن أول هَدَّة وقعت في بُنيان الدين، وزلزلت قواعده، ترجع إلى هذه الصلة والقرابة مع الهندوكيات.

وتفصيل هذا الإجمال أن الشيخ عبد الرحيم قاضي «مَتْهَرا» أعدَّ العُدة لبناء مسجد في المدينة، فأغار أحد البراهمة في جنح الليل، وحمل أدوات البناء وكل ما جُهِّز لأجله، وبنى معبداً هندوكياً، فلما أخذ المسلمون يناقشونه ويلومونه انفجر يسُبُّ الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ فرفع القاضي عبد الرحم أمره إلى «صدر الصدور» الشيخ عبد النبي، فأصدر الشيخ عبد النبي أمراً بطلبه

---

(١) إنشائي أبو الفضل: (مجموع رسائل لأبي الفضل) ج ٢، ص ٢١٠٢، طبعة لكهنئو ١٨٨٢م.

إلى مجلسه، وحقَّق معه في الأمر، حتى تبين أن الحادثة كما ذكرت، فحكم الشيخ بإعدامه، ولكنَّ هذا البرهمي كان مُرشد الملكة (جَـوْدَهْ بَـائِي)، والقائم بأعمال «بَرَوْهت» ـ وهو الذي يكون عالماً من علماء الديانة الهندوكية، ويقوم بالشؤون الدينية، وأداء تقاليد الأعراس والمآتم، وكفن الموتى وإحراقهم في الأسر الهندوكية ـ وكانت الملِكة تضغط على أكبر ليتدخل في الأمر، ويصدر العفو عن المجرم، ولكن لم يكن الملك يريد التدخل في الشؤون القضائية وإغضاب صدر الصدور، وبالفعل نفذ صدر الصدور حكم الإعدام، فثارت الفتنة وتطورت القضية بدل أن يُقضى عليها وتدفن، كما يقول البَدَايُوْنِيّ:

«أوغرَتْ أخواتُ رَاجْوَات الهند العظام صدرَ السلطان، وحرَّكنَ فيه النخوة حيث إنه أطلق الحرية لعلماء الدين حتى ركبوا رُؤوسهم، لا يبالون برضا السلطان وأمره، وأُثيرت في البلاط مسألة أن المذهب الحنفي لا ينص على القتل عقاباً لشاتم الرسول ﷺ، ولذلك فإن هذا الإجراء مخالف للمذهب الذي يسود قانونه في هذه البلاد».

وانتهز الشيخ مُبارك هذه الحادثة لتَنفير السلطان (أكبر) من علماء الدين وتخليصه من تأثيرهم، لأنه لما استفسر الشيخ مبارك عن رأيه في هذا الأمر، قال له:

«إنَّ جلالة السلطان إمام هذا الزمان، ومجتهد هذا العصر، فلا حاجة له في إصدار رسائله وأحكامه ـ سواءٌ كانت تتعلق بأمور الدين أو شؤون الدنيا ـ إلى الاستعانة بأي عالم من العلماء أو شيخ من المشايخ»[1].

مُذكِّرة الاجتهادِ والإمامة:

كانت هذه الفرصة السَّانحة التي أخذَ فيها الشيخ مبارك بيد الملك، وأعدَّ تلك المذكرة التاريخية الخطيرة التي تُعتَبر حجَر الأساس في توجيه «أكبر»

(١) منتخب التواريخ: ج ٣، ص ٨٣.

وحكومته نحو الانحراف والضلال، ويُمكن أن تسمَّى الباب الرئيسي لذلك القصر الفخم الذي قام على الردة العقلية والحضارية والعقائدية [١]، لقد جاء في هذه المذكرة بصراحة ووضوح:

«إنَّ منزلة السلطان العادلة أكرمُ عند الله من منزلة المجتهد، وإن جلالة السلطان، كهف الأنام، أمير المؤمنين، ظِلّ الله على العالمين، أبي الفتح جلال الدين محمد (أكبر) الملك الغازي، أعدلُ الناس وأعقلهم وأعلمهم، فإن كان هو- بناءً على ما تقدم - يرى رجحان رأي على رأي - تيسيراً على بني آدم - في المسائل التي اختلف فيها المجتهدون، بذهنه الثاقب ورأيه المصيب، ويُقرُّه حُكماً فاصلاً فإنه يعتبر هذا الحكم من الملك حكماً قاطعاً مُجمعاً عليه، ويتَحتَّم على جميع الرعية الأخذ به والخضوع له».

أُعِدَّت هذه المذكرة في رجب عام ٩٨٧هـ، ونُفذت في المملكة، ووقَّع عليها جميعُ العلماء بإشارة من الملك، ومن ثم أصبح الملك إماماً مجتهداً، ومستوجب الطاعة والانقياد، وخليفة الله في الأرض، وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب، بل إلى المعارضة، والعناد، والمكابرة.

ووقَّع الشيخ مبارك أيضاً على هذه المذكرة، وكتب بعد توقيعه:

«وكان هذا ما كُنت أبغيه، وأحِنُّ له من أعماق قلبي، وأترقَّبهُ من أعوام طوال» [٢].

---

(١) راجع النص الكامل لهذه المذكرة، في «منتخب التواريخ» ج ٢، ص ٢٧١ - ٢٧٢، و«طبقات أكبري» ص ٣٤٣ - ٣٤٤، وراجع ترجمتها العربية المفصلة في «نزهة الخواطر» ج٥.

(٢) انظر «(Cambridge History of India. Vol 4M.P.123)» يصرح البدايوني بأن عقلية الشيخ مبارك كانت تعمل وراء هذه المذكرة وهو الذي كتب مسودتها، ويستفاد من تصريحه أيضاً أن الشيخ مبارك كان ممن وقَّع على هذه المذكرة، ولكن الغريب أن أبا الفضل لم يذكر اسم والده الشيخ مبارك فيمن وقع على المذكرة، رغم أنه تحدث عنهم وذكر أسماءهم.

نَظرةٌ على هذه المذكّرة:

لا يخلو تاريخُ الحكومات المسلمة الطويل من أمثلة التأييد المطلق للسّلاطين وأصحاب السلطة والقوة ، والدفاع عنهم ، والتماس العذر لأخطائهم وزلاتهم وتأويل غلطاتهم وتدعيم أوامرهم الجائرة ـ التي تُلحق ـ أحياناً ـ الضرر البالغ بالإسلام وتُسيء إلى سمعته ـ وإجراءاتهم الخاطئة ، ومشروعاتهم المضلِّلة بالشواهد الفقهية والكلامية .

وقد حدث في التاريخ أن العلماء أخطؤوا وزَلُّوا مِراراً ، وأساؤوا إلى مكانتهم ومنصبهم ، ونزلوا عن مستواهم ـ لمصلحة اختيارية أو اضطرارية ـ إلا أنه يصعُب العُثور على نظير في التاريخ لهذه المذكرة ـ التي أعدَّها الشيخ مبارك وحده ـ لمساندة السلطان وتدْعيمه ، وتدبير المؤامرة ضدَّ الشريعة والدين ـ فقد خُوّل فيها الملكُ الشاب الفجّ [1] ، مكانةً أعلى من مكانة المجتهدين ، وحقَّ الترجيح والاختيار في المسائل التي اختلف فيها الأئمة المجتهدون واعتبره أعقلَ الناس وأعدلهم ، وهو الأميُّ المحض ، الذي كان من قبل ، مُطلَق الجماح ، متحرراً منطلقاً من كل القيود ، والذي فقد ثقته في علماء الإسلام وشُرّاح الدين ، وفقهاء الشريعة ، وتأثَّر بالبيئة الهندوكية المسيطرة على بيئته وبلاطه تأثراً عميقاً ، ووُجد فيه مَيلٌ شديد إلى اتخاذ العادات والتقاليد والأفكار الهندوكية ، وكان يَملك سلطةً مطلقة ، وحُكومة قوية جبارة .

ولم يكن يَستفيدُ من ذلك إلا أصحاب الأغراض والأهواء ، وأولئك العلماء في البلاط الذين كانوا يريدون باسم السلطان ، وتحت ستار أوامره ورسائله إطلاق الحرية ، وإيجاد جو من طرح القيود وتعدي الحدود ، وتحويل الشريعة الإسلامية إلى لُعبة بين الأطفال ، أو أنهم كانوا يحلمون بالثأر والانتقام من معارضيهم وأعدائهم .

---

(١) كان (أكبر) ـ إذ ذاك ـ في الثامنة والثلاثين من عمره.

وما كان الشيخ مبارك في مثل فِطنته وذكائه ممَّن تخفى عليه نتائج هذه الخطوة وعواقبها الخطيرة، ويَصعب لأجل ذلك تأويل تلك المؤامرة التي كانت تراد من هذه المذكرة، ويحق ـ لمؤرِّخ ناقدٍ بصيرٍ يعرف عواقب هذه الإجراءات ونتائجها الوخيمة ـ أن يُخاطب اليوم روح الشيخ مبارك ويقول:

فإن كُنتَ لا تدري فتلك مُصيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمُصيبة أعظمُ

سُقوط مَخدوم الملك وصَدر الصُّدور:

وبدأ أُفول نجم مخدوم الملك مُلاَّ عبد الله السُّلطانبوري، وصَدر الصدور الشيخ عبد النَّبي من يَوم صدور هذه المذكرة، ومساندة الشيخ مبارك العلمية، ووجود ابنيه النابغتين فيضي وأبي الفضل في البلاط، وجيء ذات يوم بمخدوم الملك والشيخ عبد النبي ـ اللذين نظرا إلى هذا التغيير الحادث في البلاط، وكانا قد اعتزلا في البيت، وتركا الخروج، ـ إلى البلاط وأجلسا في صف النعال [1]، ثم أُمر مخدوم الملك أن يغادر إلى الحجاز، فرحل إلى الحجاز عام ٩٨٧ هـ، واستقبله هناك العلماءُ الكبار بحفاوة بالغة، وأكرمه أستاذ العلماء العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي، وبَجَّله، فمكث في مكة المكرمة ثلاث سنين، ثم عاد إلى الهند، وما أن بلغ كجرات حتى سُقي السم، ووافَتْهُ المنيَّة هناك عام ٩٩٠ هـ أو ٩٩١ هـ، وتشهد كل القرائن على أن عَمليَّة السُّم كانت بإشارة من السلطان وقد صرح بذلك خافي خان في «مآثر الأمراء» [2].

وتوجَّه الشيخ عبد النَّبي ـ أيضاً ـ إلى الحجاز، وأقام هُناك مدةً يسيرة ولكنْ لعلَّه لم يَستطع أن يمحو من ذاكرته عهد عِزِّه وسُلطته، وجاهِه وشوكته، فرجع إلى الهند، والتَمس من الملك العفوَ والمسامحة، ويقول عبد القادر البَدَايُوْنِيّ

(١) منتخب التواريخ: ج ٣، ص ٧٩ ـ ٨٣.
(٢) نزهة الخواطر: ج ٤.

إن الملك أمر الراجه تودرمل أن يُحاسبه، فحبَسه الراجه وشدَّد عليه في الحساب والمناقشة، حتى نَفد صبره ولقي المنون، إلاَّ أن «مآثر الأمراء» يقول: «إن الملك وكَّل به أبا الفضل، فقتله خنقاً بيده»[١].

الإعداد للألف الثاني وتنفيذُ الدِّين الإلهي:

وكانتِ الخطوةُ الثانية بعد إحلال الملك منزلة المجتهد المطلق، والمطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة، ويَبدأ الألف الثاني، وإن الدنيا بطلوع هذا الألف الثاني تَستأنف عهداً جديداً، فلا بُدَّ لها من دين جديد، وقانون جديد، وشارع جديد، وحاكم جديد، وليس في العالم لهذا المنصب الجليل إلا (أكبر)، صاحبُ التاج والعرش، والإمامُ العادل العاقل، يقول المؤرخ عبد القادر:

«ولـمَّا أنَّه قد رَسخ في ذهن الملك أنَّ مُدة ألفِ سنة، بعد البعثة النبوية ـ وهي العُمر الطبيعي لهذا الدين ـ قد انقرضت، فلم يبقَ هناك ما يحول دون إبداءِ تلك الرغبات الكامنة في الصَّدر»[٢].

وبعدَ هذا القرار الحاسم عَمِلتْ تلك التغيُّراتُ التي تكفَّلتْ بنشر هذه الفكرة وتَرسيخ جذورها في أنحاء المملكة، ومن ثم كُتب التاريخ الألفي[٣] على العملة ـ التي تتداولها الأيدي، وليست وسيلةٌ أكثر منها ذيوعاً وانتشاراً، لإقامة الحد الفاصل في تاريخ العالم وتقسيمه إلى الفترتين المتميِّزتين، وأسند إلى لجنةٍ مكوَّنة من العلماء تدوين تاريخ جديد باسم «التاريخ الألفي»، وذكروا فيه كلمة الوفاة «الرحلة»، بدل الهجرة لبيان السِّنين، وبُذلت محاولات لإفهام الناس:

---

(١) نزهة الخواطر: ج ٤.
(٢) منتخب التواريخ: ص ٣٠١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٠١.

«إنَّـه قد أظلَّ زمانُ مُرشد هذا العصر الذي يُزيل الخلافات بين اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين والهنادك ، وأنَّه هو الملك صاحب الصِّفات القدسية» (١) .

وظهر من ذلك اليوم «الدِّينُ الإلَهيُ الأكبريُّ» الذي احتَوى على الشرك الصريح المتمثِّل في عبادة الشمس والكواكب ، بدل التوحيد ، وعلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور ، وكان أكبر يأخذ البيعة من الناس على هذا الدين الجديد ، وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين : «لا إله إلاَّ الله ، (أكبر) خليفةُ الله» وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق ، يقول فيه معتنق هذا الدين :

«إنَّني ـ عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي ـ أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعتُ عنه من آبائي ، وشهدتهم عليه ، وأرفضه ، وأدخُل في الدين الإلٰهي الأكبري ، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة في الدين ، من ترك المال والنفس ، وتَرك العرض والدين» (٢) .

وكان الربا والقمار ، والخمرُ والخنزير حلالاً طيباً في هذا الدين ، ونُهي فيه عن ذبح البقرة ، وأُجريت تعديلات في أحكام النكاح ، وكان النهي الباتُّ عن الحجاب والختان ، وقد نُظِّم فيه الزنى تنظيماً خاصاً ، وعُيِّن للمومسات مكانٌ خاص ، وأُصدر بصدده قانون ، فكان بغاءً رسمياً وعُدِّلت طريقةُ الدفن للمَوتىٰ .

وخُلاصة الأمر أنه دُوِّن دين هندي أكبري جديد ، أُوثر فيه أسلُوب الحياة الذي يوفر الغذاء للميول والرغبات الطبيعية ، وإشباع الشهوات النفسية ،

(١) منتخب التواريخ : ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٧٣ .

وكانت تدعو إليه الأغراض السياسية والقومية، والمصالح الخارجية، وتُرجح كفته»[١].

أوْجُ الانحراف الطَّبيعي والضَّلال الديني في «أكبر»:

ونَودُّ أن نُقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلاّمي ـ الذي كان العقل المدبِّر واليد الفعَّالة وراء أكبر ـ لنَرى مدى ذلك الضلال الديني، والانحراف الطبيعي، والزيغَ والجنون الذي بلغ بأكبر إلى ما بلغ، وإنْ هي إلا وقائع متناثرة جاءتْ في تصريحات أبي الفضل، تدلُّ على ذلك التحوُّل الشامل والانحراف المستطير، الذي ساد في ذلك العصر، ويمكن من خلالها تصور تلك السِّلسلة المُلتهبة التي طُوّقت بها عُنق الإسلام في هذه البلاد.

مظاهر الانحراف والضَّلال الأكبريّ:

١ـ عِبادةُ النَّار:

يقول أبو الفضل: «إنَّ جلالة السلطان ـ لتنوُّر بصيرته ـ شغوفٌ بالنور، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء عليه، وإنَّ الجهلة الذين أظلمت قُلوبهم يَعدُّون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله»[٢].

ويقول: «يُشعل الخدَم بعد غروب الشمس اثني عشر شمعاً ممزوجاً

(١) ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامي والديانة الهندوكية ـ في هذه المسامحة المطلقة، وحركة المصالحة التامة ـ متساوياً، بل رجحت ـ بطبيعة الحال ـ كفة ذلك الدين أو الفريق الذي كان له نفوذ وتأثير في البلاط، وميل إليه في نفس السلطان، وقد اعترف مؤلفو «مختصر تاريخ الهند» ديلبو، ايچ، مورلند واي، سي جترجي: بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاءً للهنادك، وعاقب من خالف هذا الأمر عقاباً صارماً شديداً، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأمسَّ رحماً بها منها بالدين الإسلامي، وقد نجحت هذه السياسة».

. Short Historyó66 of India ٥٢١

(٢) آئين أكبري: ص ٢٨، طبعة لكهنؤ ١٨٨٢م.

بالكافور، ويَضعون كُلَّ شمع من هذه الشموع في قصاع من الذهب والفضة، ويأتون بها إلى حضرة السلطان، ويتغنَّى أحد من هؤلاء الخدم، حُلوُ اللسان جيد النغم بأناشيد الثناء على الله في ألحانٍ جميلة جذَّابة متنوعة، وهو يَحمِلُ الشمعة، ثم يدعو في الختام ليمدَّ الله في عمر جلالة السلطان وثروته» [١].

٢ـ عِبادةُ الشَّمس:

كانتْ عبادة إلٰه النور في عمارة تسمَّى «دَوْآشِيَانَهْ مَنْزِل»، ومنها بدأ تعظيم الشمس، ويقول جلالة السلطان: إن للشَّمس اهتماماً خاصاً بحال السلاطين، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادةُ الله، إلاَّ أن قصار النظر يقعون في سوء الظن، لماذا يحترم العامة من الناس الأغنياء أصحاب القلوب السوداء بغَرض المنفعة الذاتية؟ ويُقصِّرون ـ لجهلهم وعماهم ـ في تعظيم منبع النور، ويَرمون العابد بما يرمون، أصيبت عقولهم بآفة! وإلاَّ فلماذا أصبحت سورة الشمس نَسياً منسياً» [٢].

٣ـ ماءُ نَهر «كَنكَا»:

يقول: «إنَّ السلطان يشرب ـ دائماً ـ من ماء نهر «كَنْكَا» [٣] (الكنج) سفراً وحَضَراً، وقد عُيِّن فريق من الموظَّفين الثقات على شاطىء النهر، يأتي إلى السلطان بمائه في أكواب مملوءة مختومة، وحينما ينزل جلالة السلطان في آكره، أو فتحبور، يُؤتى له بالماء من قرية «سَوْرُون» وفي هذا الوقت بالذات حيث نُصبت الخيمة الملكية في (لاهور) تَجدُ الخزَّان ريّان بالماء الجيد الصافي من «هَرِدْوَار» [٤]، ويُستعمل في المطبخ ماء نهر«جَمْنَا» أو نهر «جَنَاب» أو ماء

---

(١) آئين أكبري: ج ١، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ج ٣. ص ١٨٤.

(٣) النهر المقدس عند الهنادك، يعبدونه ويرمون فيه موتاهم، ويتقربون بالاغتسال فيه.

(٤) مدينة مقدسة على شاطئ نهر كنكا في الولاية الشمالية يحجون إليه.

المطر، إلاَّ أن هذا الماء يكون ممزوجاً بشيء من ماء نهر «كنكا» (١).

٤ ـ الرَّسْمُ والتَّصوير:

«تكلَّم ـ ذات يوم كعبةُ الدنيا جلالة السلطان في غُرفة خلوته حيث كان جَمْعٌ من المُرِيدين السعداء وليس غيرهم، فقال: إنَّ فريقاً من الناس يُعادون فن التصوير، ويُبيِّنون عَيبه وفساده، ولكنَّ القلب لا يقبل أقوالهم وأدلَّتهم، بل إنَّ ما يَدلُّ عليه العقل، وتشهد عليه القرائن أن المصوِّر يكون أقرب إلى معرفة الله ـ تعالى ـ من غيره من الطبقات البشرية المختلفة، لأنه عند تصويره لحيوان يأتي بشبيه لكلِّ عضو من أعضائه، ثم حين يكمل الصورة وينظر إليها يرى أنه رغم هذه الريشة المصوِّرة الساحرة، يَعجز تماماً عن أن ينفخ فيه الروح، فتتجلَّى له عند ذاك قُدرة الخالق المطلقة، ويَسجد أمام هذا الصانع العظيم» (٢).

٥ ـ مَواقيتُ العِبادة:

«عند الفجر، الذي به البداية لليوم السعيد، والإشعاع والتنوير، وعند الظُّهر حيث يُحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم، وينشط نشاطاً مضاعفاً، وعند العشي إذ تغيب الشمسُ منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين» (٣).

٦ ـ سَجدةُ التَّحية والتَّعظيم:

يقول: «يَسجُد له المريدون المعتقدون سَجدة التَّحية والتعظيم، ويرونها سُجوداً لإله النور».

---

(١) آئين أكبري: ج١، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص/٧٨.
(٣) المصدر السابق: ج١، ص ١٠٧.

٧ ـ البَيعة والسُّلوك:

«يأتي طَالبُ المَعرفة واليقين ، حاملاً عِمامته بيده ، ويَضع رأسه على قدمه الشريفة ، ويقول بلسان حاله : أوجِّه قلبي بإرشاد سعادة جدي وحسن حظي إلى طاعة السلطان والخُضوع لأمره»[(١)].

٨ ـ آدابُ المُقابلة:

وكان من آداب المقابلة : أن ينادي شخصٌ عند مقابلة شخص للسلطان بـ«الله أكبر» وينادي آخر «جلَّ جلالُه».

٩ ـ كَراهِية التَّاريخ الهجري والنُّفور منه:

«كان جلالة السلطان من مُدَّة مديدة يفكر في إجراء تقويم جديد للشهور والسِّنين في الهند ليدفع المُشكلات ويوفر التسهيلات ، ولا يُحب جلالة السلطان التاريخ الهجري لنَقْصه وعيوبه ، ولكنَّ طبيعة جلالة السلطان التي تجبر القلوب لا تتحمَّل أن تكسر خاطر الكثيرين من قليلي الإدراك والفهم ، والقاصري النظر الذين يُعدُّون إجراء تقويم جديد قضية دينية ، وكان هذا هو السَّبب في أن جلالة السلطان لم يستطع أن يُنفذ هذا التقويم فعلاً»[(٢)].

١٠ ـ الأعيادُ والمَهرجاناتُ غيرُ الإسلامية:

«يسمَّى المهرجان الأول مهرجان نُوْرُوْز ، فعندما تُكمل الشمس دورتَها السنوية وتدخل في برج الحمل ، وتُفيد أهل الدنيا ببركاتها ، يُعقدُ احتفالٌ لتسعةَ عشر يوماً كاملاً ، تُقضى في نشوة وسرور ، ولَذَّة وترف ، ويحتفل في نفس هذه الأيام بالعيد ليَومين ، وتُوزَّع على الناس أشياء لا حصر لها من النقود

---

(١) آئين أكبري: ج١، ص١١٠.

(٢) المصدر السابق: ص ١٩٣.

التي لا تُعد، وتوزَّع الصدقات والهدايا والتحف، وأن غرة «فروردين» وتسعة عشر «فروردين»، هما يوم الشرف والفخار، خاصَّان بالعيد.

ويعتقد المجوس أن اليوم الذي يكون سميّاً للشهر من أيامه مبارك جداً، ويحتفلون بذلك اليوم في الملاذِّ والمسرَّاتِ، ويُعطون المغنِّين والمغنِّيات، ويَعدُّون لقرى الناس، فاقتفى جلالة السلطان أثرَهم، وعيَّن كُلَّ شهر في التقويم الشمسي لمهرجان خاص، وفيما يلي كشف بهذه الأيام:

«١٩/ فروردين، و٣/ أردي بهشت، ٦/ خورداد، ١٣/ نير، ٧/ أمرداد، ٤/ شهربور، ١٦/ مهر، ١٠/آبان، ٨، ١٥، ٢٣/ دي، ٢/ بهمن، ٥/ اسفنديار».

هذه هي الأيام التي تُعقد فيها المهرجانات، وتُقام أنواع من الزينات، وتُنصب أقواس النصر، وتَرفل البلاد في حُلَّة من الجمال والبهاء، ويهتِف المحتفلون في نَشوة وطرب وسرور، هُتافات الفرح والحبور.

وتَحضُر عند كل فترة من فترات النهار الطبول، فيُغني المغنون، ويُطرب المُطربون، ويُشيعون بالألحان والنغمات الحلوة السرور في الحضور».

١١ـ فرَمَانٌ يَمنعُ الزَّكاة:

بدأ هذا العام في «التقويم الإلٰهي» من ٥/ صفر ٩٨٩ هـ[١]، فصدرالأمر السُّلطاني برفع «تَمْغَه»[٢] وإلغاء الزكاة[٣]، وأُصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر

---

(١) وهو العام السادس والعشرون من جلوس السلطان، وذكره البدايوني في حوادث عام ٢٥ من الجلوس.

(٢) لفظة «تمغه» تعني الختم، أو الوثيقة المختوم عليها، كما يقال للأرض والعقار الذي رفعت عنه الضريبة الرسمية، وتقطع لأي فرد من الأفراد على عمله الديني أو غيره مما ينفع البلاد، أو تستخدم في الأمور الخيرية.

(٣) يلاحظ في «أكبر نامة» أن أبا الفضل لا يتعرض لهذا الفرمان الذي يلغي الزكاة، إبقاءً على سمعة أكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام.

إلى جميع الجهات، «ليعلَم الموظَّفون في الحال والمستقبل، والعاملون في البلاد المحروسة أنَّه قد صدر فرمانٌ في هذا العهد السعيد الذي يبتدئ من سنِّ ولاية جلالة السلطان للدولة، وهو العام السابع من القرن الثاني - أي العام السابع والثلاثون [١]، لأن المراد بالقَرن هنا ثلاثون عاماً - وهو العهد الذي ظهر فيه صبح الجلال والجمال، وازدهرت الدولة ونعمت البلاد.

إنَّ سياسة البلاد تقتضي أن الحكومة والدولة التي هي عبارةٌ عن حماية مصالح المُواطِنين والمهاجرين والموظَّفين والتجار، والتي هي وسيلة لجباية الخراج، الذي يعتمدُ عليه نظام الجنود الحارسين للأنفس والأموال والعقائد، والذين يُراقِبون الأسواق، فإن اختل ميزان هؤلاء الأمناء الدينيين الذين ينقدون النقود والغلاَّت، لتحولت المصالح إلى المَضار، والحسنات إلى السيئات.

ونَحمد الله - تعالى - على أن جلالة السلطان لم يَزل مُراعياً للمصلحة العامة، ومُربِّياً للرعايا، الذين هم مثلُ أبنائه - معنى - والأمانة الإلٰهية في يده، وأن لله المنة علينا بأن جعل الهند والبلاد المحروسة الأخرى مَهد العدل والرخاء، ومُستقرَّ المسافرين والظاعنين».

«وقد صدر أخيراً فرمانٌ - لعطف جلالة السلطان وشفقته على الخلق - برفع الزكاة وجميع المكوس والضرائب الصغيرة والكبيرة على جميع أنواع الغلات والخضراوات والأغذية والأدوية، والملح، والمِسْك، وجميع العطور، والأقمشة والقطن، والصوف، والأشياء المصنوعة من الجلد، والنُّحاس، وأواني الخشب، والقصب والعشب، وأشياء وغلات أخرى - إذ أنها عماد المعيشة - سوى الفيل والخيل والإبل والشاة، والسلاح، والأشياء الضرورية - التي استُثنيت من قبل - في جميع البلاد المحروسة» [٢].

(١) وهذا خطأ، بل صدر هذا الفرمان عام: ٢٦ من جلوس السلطان أكبر، كما تقدم آنفاً.

(٢) طبقات أكبري: ص ٦٧ - ٦٨.

١٢ـ أكـلُ اللُّحـوم:

«يقول السلطان: لولا تفكيري في مصاعب الحياة على الناس لنهيتهم عن أكل اللُّحوم، ولا أُحبُّ ـ نظراً إلى هذه الناحية ـ أن أنفذ هذا الأمر في المرحلة الأولى، لأن كثيراً من الأعمال تبقى ـ عند هذا التنفيذ السريع ـ ناقصةً، ويبلغ الحزن الممضُّ بالناس إلى حد الجنون، ويقول: ينبغي إبعادُ بيوت الجزارين، والصيادين للأسماك، والمشتغلين بأمثال هذه المهن والأعمال، ممَّن تقتصر مهنتهم على القتل والإماتة، من بين عامة السكان، وتُؤخذ الغرامة من كل من يتصل بهم ويقابلهم» (١).

١٣ـ الخِنزيـر:

«يقول: إذا كان السببُ في تحريم الخنزير قلةَ الحياء فيه، لزم من ذلك أنْ يكون الأسد وأمثالُه من السِّباع حلالاً طيِّباً» (٢).

١٤ـ شُـرب الخَمـر:

«كان (جلالة السلطان) يتناول في مهرجان هذا الشهر، الرحيقَ المنبِّه للعقل والمنشِّط للفكر، وشَرب المفتي مِيْر صَدَرْ جَهَان، ومِيْر عَدَلْ، ومِيْر عبد الحي، كؤُوساً من الخمر كذلك، وجرى هذا البيت على لسان السلطان الذي يقول فيه:

«لقد أصبح القاضي والمفتي في عهد السلطان ذوي العفو والغفران يشربان الخمور ويحسوان من الكؤُوس»(٣).

---

(١) طبقات أكبري: ج ٣، ص ١٨٩.
(٢) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٨٦ (بالأردية).
(٣) المصدر السابق: ج١، ص ١٠١.

١٥ـ التّقاليدُ والطُّقوس الهندوكية:

«ماتت أمُّ خان أعظم مرزا على أثر المرض الشديد، فحزن عليها السلطان حزناً عميقاً حتى حلقَ رأسه وشاربه في المأتم، ورغم كلِّ المحاولات أن لا يحلق الشعر غيرُ أبناء الفقيدة الكبار، غير أنَّ العباد المخلصين ألحُّوا أن يحذوا حذو السلطان».

١٦ـ إنكارُ المُعجزات:

«يقول السلطان: السُّفهاء يؤمنون بالمعجزات، ولكنَّ العقلاء لا يعتقدون في شيء إلاَّ بعد تحققه وثبوتهِ بالدلائل»[١].

١٧ـ استنكار الختان وكَراهيته:

«من العجب أن تُصرُّوا على ختان الأطفال مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض والواجبات»[٢].

١٨ـ قوانين الزواج:

«يرى جلالة السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمرٌ مكروه، ويقول: ألا يستنكر أتباع محمد ﷺ المتعصبون المتزمتون الزواج ببنات الأخوال والأعمام، ويكره جلالة السلطان الزواجَ بأكثر من واحدة»[٣].

١٩ـ رُؤية السُّلطان هي العبادة:

«يقول جلالة السلطان: إن رُؤية وجوه السلاطين هي العبادة، إنَّهم يُسمَّون

(١) طبقات أكبري: ج ١، ص ٣٠٣.
(٢) آئين أكبري: ج٣ ص ٢٣٨.
(٣) المصدر السابق: ج١، ص ٢٤.

«ظل الله»، ولكن رؤيتهم تُذكّر في الحقيقة بالخالق، ويتبادر عندها الذهن إلى ظِل القادر المطلق»[١].

٢٠ ـ إعلان التّقويم الإلٰهي وتنفيذُه:

«في عام ٩٩٢ هـ، أضاءَ نور العقل والبصيرة الشاهنشاهية شَمعةَ العلم والفضل والكمال التي نَوَّرتْ ـ بضيائها المبارك الميمون ـ جميعَ العالم، وهبَّ فريق السعداء وطلاب الحق ورواد الخير من سُبات الخيبة والخسران، وغطَّى القائلون بالخنا، وضُعفاء العقل والبصيرة: وجوههم في زاوية الخمول، وتحققت إرادة جلالة السلطان الخيرة، وشمَّر بقيةُ الحكماء الشيخ العلامة مير فتح الله الشِّيرازي عن ساق الجِد لإنجاز هذه المهمة، فوضع العلامة الشِّيرازي أمامه الزِّيجة الكوركانية، وقرَّر بالنظر فيها، أن يكون العام الذي تربَّع فيه جلالة السلطان على عرش المملكة: بداية التقويم الإلٰهي»[٢].

ولا بأس ـ بعد الإلمام بهذه الحقائق الأساسية التي يتكون منها هيكلُ الفكر الديني عند أكبر ـ أن نُكمل صورة هذا الهيكل وشَكْله الحقيقي بذكر بعض التفاصيل والأمور الجزئية أوردها مُلاّ عبد القادر البدايوني في كتابه، حتى تتجلى الخطة الكاملة، والتصوُّر الصحيح لتلك الكراهية، والعناد والبُغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان نتيجة الانحراف عن دين الإسلام.

٢١ ـ الازدراءُ بالدِّين الإسلامي وإهانَتُه:

«لقد وصم تُراث الملة الإسلامية كلّه بالحُدوث، واعتبَره مجموعة من السفاهات، وأنَّ واضعيه ومؤسسيه أعرابٌ فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طُرق، واستدل على ذلك ببيتين من «شَاهْنَامَهْ

(١) آئين أكبري: ج٣، ص٢٤٣.
(٢) المصدر السابق: ج١، ص ٥٦٤.

فِرْدَوْسي» اللذين قالهما على طريق النقل والرواية:

«مِنْ شُرْب ألبان الإبل، وأكل الضِّباب، بلغ العرب إلى أن بدؤوا يحلمون ببلاد العجم، سُحقاً لدوائر الزمان سُحقاً»[1].

٢٢ ـ السُّخرية من الإسراء والمعراج:

«قال السُّلطان مرة: كيف يتُصور أن يقبل العقل أنَّ شخصاً يحمل جسماً ضخماً يبلغ ـ بغتةً ـ عنان السماء، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث، ذي شجون، ويبقى فراشه دافئاً، ثم يقبل الناس هذه الدعوى، كما أنهم يؤمنون بِشَق القمر وأمثالِه من الأمور المستبعَدة».

ثم وجَّه سؤالاً إلى الحاضرين ـ وقد رفع رِجله ـ قائلاً:

«لا يُمكن أن أقوم إلاَّ بأن تكون الرجل الثانية مُستندة على الأرض، فإيش هذه الخرافات؟»[2].

٢٣ ـ إهانةُ مَكانة النبوَّة:

واعْترَض على النبوة المحمَّدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ مرَّة وعاب عليها:

«بالإغارة على عيرٍ لقريش في أوائل أيام الهجرة، والزواج من أربع عشرة امرأة، وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات»[3].

٢٤ ـ النُّفورُ من أسماء النبي ﷺ والكراهيةُ لها:

«كانت الأسماء مثل أحمد، ومحمد، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان، مُراعاة للكفار خارج البيت، والنساء داخل البيت، وأخيراً ـ بعد

---

(١) منتخب التواريخ: ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٠٨.

أيام قليلة ـ غيَّر أسماء خاصَّة أصحابه، فكان ينادي «يَارمُحَمَّد» و«محمدخَان» باسم «رحمت»، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة» (١).

٢٥ ـ المَنعُ من الصَّلاة:

«لم يكن يستطيع أيٌّ واحد من الناس أن يُؤدِّي الصلاة جهاراً في القصر» (٢).

ويقول البَدَايُوْنِيُّ في مكان آخر: «إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من قبل» (٣).

٢٦ ـ الاستهزاءُ بأركان الإسلام وفرائضه:

ويقول العلامة البَدَايُوْنِيُّ:

«أَلَّفَ ابنٌ من أبناء مُلاَّ مبارك وكان تلميذ أبي الفضل عدة رسائل عن العبادات الإسلامية في أسلوب تَهكُّمي ساخر، وإيراد اعتراضات عليها، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله، وأصبحت واسطة له لدى السلطان في ولاية أمره، والحَدْب عليه» (٤).

مُفتَرَقٌ صَعْبٌ خطير في تاريخ الهند الإسلامي:

وبالجُملة فقد وقفت الهند ـ التي بُذلت فيها الجهود المتواصلة، وكُرست الطاقات البشرية الفاضلة، والكفاءات العقلية والمواهب الفكرية، وربَّانية الصالحين والصفوة الطيبين ـ على طريق ردَّة دينية عقلية، وحضارية شاملة،

---

(١) منتخب التواريخ: ص ٣١٤، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل في الجزء الأول من كتابه «آئين أكبري» لفظة «محمد» و«أحمد» من أسماء عدد من الأمراء فيسمي «محمد خان»، و«مرزا محمد عزيز» بـ «مرزا عزيز» و«شهاب الدين أحمد خان» بـ«شهاب خان» وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء، وحذف لفظة «محمد» أو «أحمد» منها.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٧٠.

كانت تُساندها أكبر دولة على وجه الأرض في ذلك العصر ـ بعد الدولة العثمانية ـ والقوة العسكرية الهائلة، وكان عددٌ من أذكياء ذلك العصر ونوابغه يَمدُّون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية، فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال، ولم تقِف في وجهها شخصيةٌ جبارة تُحول اتجاه السير، أو لم يحدث حادث يُغير الأوضاع، ويُحوِّل البلاد، لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامي العظيم في القرن الحادي عشر الهجري، كمصير الأندلس الإسلامية ـ الذي لايعرفه العالم المعاصر إلا باسم «إسبانيا» ـ في القرن التاسع الهجري، أو كمصير «تركستان» في القرن الرابع عشر الهجري (بعد الثورة الشيوعية)، ولكنْ أدرك الله البلاد والعباد، وقيَّض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال.

ونختمُ هذا الباب بالكلمة البليغة التي سطَّرها قلمُ مؤرِّخ الإسلام ومؤلِّف موسوعة «السيرة النبوية» العلامة السيد سليمان الندوي [1]، وهو يتحدث عن قصة الإسلام وغُربته في ديار الهند» يقول:

«لقد مضى على هذا السُّبات العميق أربعةُ قرون، وكاد أن يمضي على بداية رحلة الإسلام الغريب في هذه الديار ألفُ سنة، كانَ ذلك عهدَ الملك أكبر، إذ نَهضَ ساحرٌ من العجم ونَفَثَ في أذن الملك، أنَّ عُمر هذا الدين الممتدَّ على ألف سنة قد انقرضَ، ومسَّتِ الحاجة إلى أن يَظهر دينٌ إلٰهي جديد على يد ملك أمِّيٍّ ينسَخُ دين أُمِّيٍّ، فأوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقَّتِ النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزيَّنَتِ البراهمةُ أصنامهم، تَمالأ التَّصوفُ واليُوكَ وألحّا على أن يُشعلا شمعة واحدة في المعبد الهِنْدُوكيّ والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصوّر مدى ما تركت هذه الحركة

---

(١) [توفِّي ـ رحمه الله ـ بكراتشي عام (١٣٧٣ هـ، ١٩٥٢ م)، اقرأ للاطلاع على حياته كتاب «السيد سليمان الندوي: أمير علماء الهند في عصره، وشيخ الندويين» تأليف الدكتور محمد أكرم الندوي، طبع دار القلم بدمشق].

الخُماسية من آثار فليراجع «دِبِسْتَانِ مَذَاهِب» [١] ليرى كَمْ من أصحاب الزُّنَّار يُحرِّكون المسابح، وكم من أصحاب السُّبح يعلِّقون في أعناقهم «الزنانير»، كم من الأمراء يمرِّغون وجوههم على عتبة السلطان، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط، ويُسمع من منَابر المساجد نداء: «تعالى شأنه ـ الله أكبر».

كانوا في كلِّ هذا، وإذا بصوت يعلو من جهة «سَرْهِنْد»:

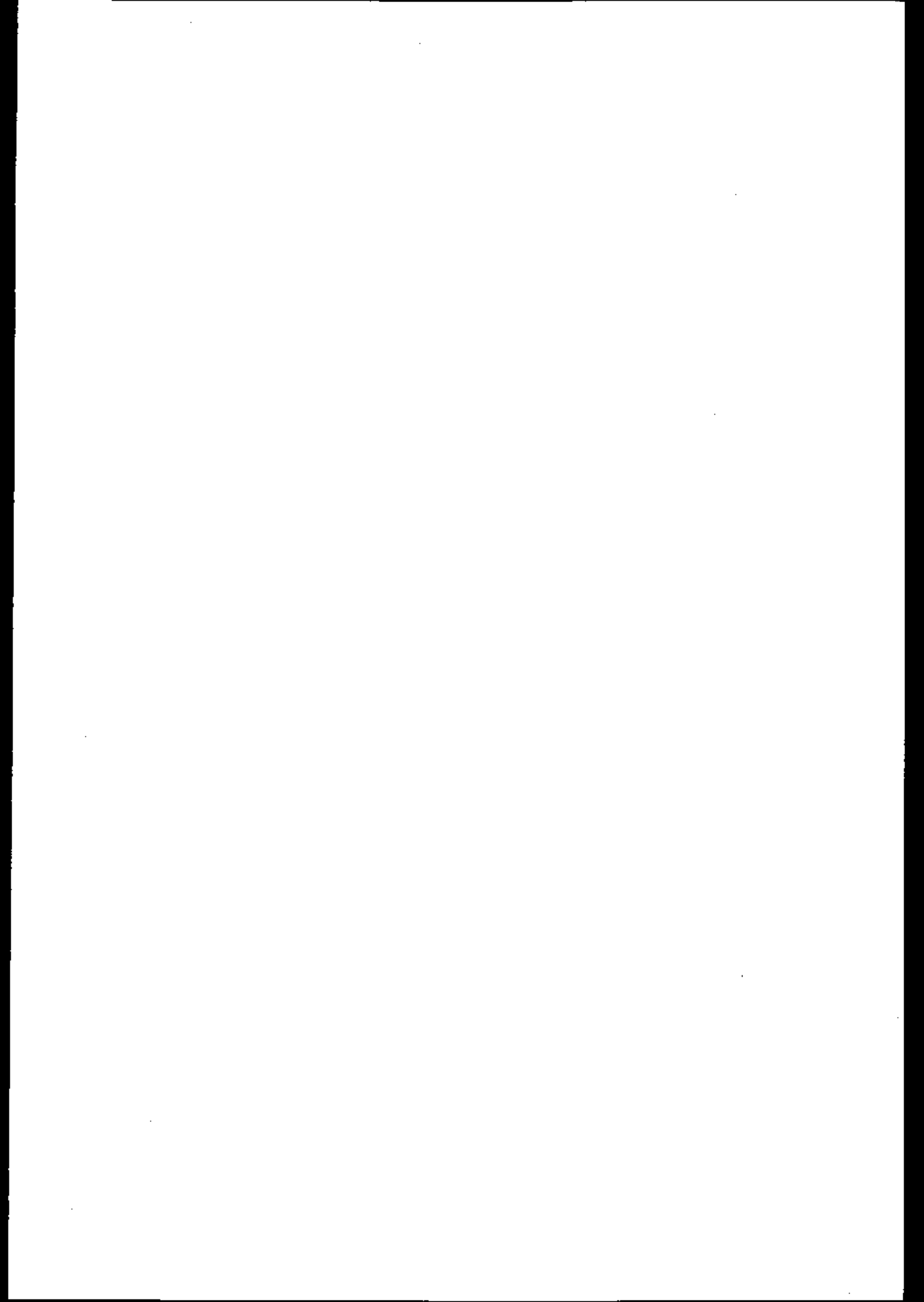
«أنْ خلُّوا الطريق، فقد جاء صاحب الطريق، ظهرَ مُجدِّد فاروقي [٢]، في الأبَّهة الفاروقية، كان ذلك أحمد السَّرْهنْدي» [٣].

* * *

(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

(٢) نسبةً إلى عمر الفاروق رضي الله عنه، فإن الإمام أحمد السرهندي من أعقابه.

(٣) تقديم كتاب «سيرة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» (للمؤلِّف [بالأردوية]) بقلم العلامة السيد سليمان الندوي، ص ٣٠ ـ ٣١.



البَابُ الرّابِعُ

قصة حياة مجدد الألف الثاني

الإمام السرهندي



قصة حياة مُجَدِّد الألف الثاني الإمام السَّرهندي

الأُسرة:

يَنتمي الإمامُ السَّرْهِندي إلى سَيِّدنا عمر بن [(١)] الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، فتنتهي سلسلة نَسبه [(٢)] بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ ونَسَبُه كما يلي :

الشيخ أحمد (الإمام السرهندي) بنُ عبدِ الأحد بن زين العابدين بن عبد الحيِّ بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيعِ الدين بن نصير الدين بن سليمان

---

(١) كان الإمام السرهندي يعتز بهذه الصلة النسبية بسيدنا عمر الفاروق، وكان يرى حميته الدينية من مقتضيات هذه النسبة وآثارها الطبيعية، ولم يتمالك عندما اطلع على رأي الشيخ عبد الكبير اليمني يخالف به العقائد الإسلامية، وجمهور أهل السنة والجماعة أن قال في حماس: «أيها الشيخ المكرم لا صبر لي على سماع مثل هذه الأقوال، فإنه ينبض فيّ العرق الفاروقي». (الرسالة رقم: ١٠٠، من مجموعة الرسائل الموجهة إلى ملا حسن كشميري)، ويقول في رسالة أخرى كتبها عند علمه بأن الخطيب في قرية «سامانة» لم يذكر الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة عمداً: «وقد أثار سماع هذا الخبر البغيض ثائرتي، وحرك العرق الفاروقي في، فكتبت لذلك هذه الكلمات» (الرسالة رقم: ١٥، الجزء السادس من المجموعة الثانية).

(٢) وقد اعتمدنا في بيان سلسلة نسبه على بحث علمي رصين كتبه أحد أبناء هذه الأسرة العظيمة المحقق الفاضل الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقي.

ابن يوسف بن إسحاق بن عبد الله بن شعيبَ بن أحمد بن يوسفَ بنِ شهاب الدين عليٍّ فرخ شاه بن نـورِ الدين بنِ نصرِ الدين بن محمُود بن سُليمان ابن مسعود بن عبد اللهِ الواعظ الأصغر بن عبدِ اللهِ الواعظِ الأكبر بن أبي الفتح بن إسحاق بن إبرَاهيم بن ناصر بن عبد اللهِ بنِ عمرَ بن حفص بن عاصم بنِ عبد الله بنِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه .

والشَّيخُ شهاب الدين علي فرخ شاه الكابُلي جدُّه الخامس عشر ، مؤسِّس هذه الأسرة الشهيرة.

وإن أكثر الفضلاء النوابغ ، والمُصلحين المعروفين وكبار المشايخ وأصحاب السَّلاسل والطرق الصوفية ؛ الذين يتصل نَسبهم بسيدنا عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ كالشيخ العارف فريد الدين كَنج شكر وغيره ، ينحدرون من هذه السلسلة .

وليسَت بين أيدينا تراجم مفصَّلة لعلماء أفغانستان ومشايخها ، لعدم وُجود كتب الطبقات التي تتناول تراجمهم ، وكل ما نعثُر عليه من سيرهم وأخبارهم نَرجعُ فيها إلى تلك المصادر التي ألفت في ترجمة الإمام السرهندي ، وأخبار أسرته [١] .

وكان الشيخ شهاب الدين علي فرخ شاه (ابن الشيخ نور الدين ، وحفيد الشيخ نصير الدين) والي كابل ، ولذلك تُنسب أسرته إلى «كابل» ، وكان متحلِّياً بالخصال الحميدة ، له شَغفٌ زائد بنشر الدعوة الإسلامية ، وتنكيس راية الكفر والشرك ، يمتازُ في ذلك على كثير من أقرانه .

تَولَّى المُلك بعد وفاة والده ، وبذَل جُهوداً مُوفَّقة مشكورة في رفع الخصومة ، والقضاء على الصراع بين الأفغان والمغول ، وكان له حظٌّ وافر من الربَّانية ، وصفاء الباطن وإشراقه ، مع الوجاهة والشرف ، وعظيمِ المنزلة ، انتفعَ به خَلْقٌ كثير وتربَّوا على يديه ، وسلَّم زمام الدولة ـ قبيل وفاته ـ إلى ابنه

---

(١) كـ «زبدة المقامات» و«حضرات القدس»، وغيرهما من الكتب.

العظيم الشيخ يوسف ، واختار لنفسه حياة العُزلة ، والانزواء في مَمَرّ يُسمَّى «مَمَرُّ فَرَخْ شاه» ـ نسبة إليه ـ تقع على ستين ميلاً من كابل في جانب الشمال ، ودُفن هناك .

ولما فرغ الشيخ يوسُف من تَحصيل العُلوم الدينية ، اشتغلَ بالتربية الباطنية والتَّزكية القلبية عند والده الشيخ سلطان فرخ شاه ، وخَلَفه في الحكومة بعد اعتزاله عنها ، كان مَعروفاً بالعدل والصلاح والاستقامة والديانة ، مُحبباً إلى الناس ، حَصل له القبول بين عامَّة الناس وخاصتهم ، وكانت تشتعل في قلبه تلك الجمرة من الحب الإلٰهي ، الذي كان يدفع سَلفه الميامين في عصور مُختلفة إلى أن يتمسَّكوا بقول الشاعر (وقد تمثَّل به الإمام السَّرهندي في رسائله مرارا) :

هنيئــاً لأربــابِ النَّعيــمِ نَعيمُهُــمْ وللْعــاشِـقِ المسكِيــنِ مــا يتَجَــرَّعُ

واعتزلَ السُّلطة والحكومة في آخر عمره كأبيه ، ولجأ إلى زاويته ، وآثر الخلوة والعُزلة ، فأخذَ ابنُه الشيخ أحمدُ بزمام البلاد ، وتولَّى شؤون الدولة وكان ـ كوالده ـ عالماً تقياً ورعاً ، وعارفاً ربانياً في كسوة مُلك وسلطان ، وقد غَلَبته الجَذْبة الإلٰهية والشَّوقُ إلى الله ، حتى فارق السلطة ، ونَفَضَ يدَه منها ، وأوصى أبناءَه بالبُعد عنها ، وقطع الرجاء منها ، واحتفظ عنده بمال قليل يكفيه وعياله ، ووزع الباقي من الثروة الكبيرة على الفُقراء والمساكين ، وكان قد تلقَّى التربية الروحية ـ بعد والده ـ على شيخ الشيوخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي ـ قدَّس الله سره ـ ونال منه الإجازة والخلافة .

وكان غيرهما من أفراد الأسرة الكبار أيضاً من الصالحين الرَّبانيين الذين آثروا الفقر والخمول ، واشتغلوا بالتربية والإرشاد ، وكانوا يستفيدون من مشايخ عصرهم ، وصالحي زمنهم في التربية والسلوك ، ويأخذُون عنهم الطريق ، بغضّ النظر عن اختلافهم في السَّلاسل والطُّرق .

وكان الإمام رفيعُ الدين الذي يكون الجدَّ السادس للإمام السّرهندي

والعَقب التاسع للشيخ شهاب الدين فرخ شاه ـ كما يقول صاحب «زبدة المقامات» جامعاً بين علمي الظاهر والباطن ، أخذَ الطريقة عن الشيخ الكبير السيد جلال الدين البخاري [(١)](ت ٧٨٥ هـ) وتلقى لديه التربية الروحية والسلوك ، ويدل ذلك على أنه كان من مشايخ أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع ، وهو أول شخص من أفراد هذه الأسرة غادر «كَابُل» إلى الهند ، وتدير في «سَرْهِنْد» التي كانت تسمَّى قديماً بـ«سهرند» ، وقد كان هذا المكانُ قفراً موحشاً ، ومأوى للسباع والوحوش ، ولم يكُن بينه وبين قرية «سامانه» التي كانت تُحمل إليها الخزائنُ الملكية ؛ أي مدينة أو قرية .

فعيَّن الملك الصالح فيروز شاه خواجه فتحُ الله ، الأخَ الأكبر للإمام رفيع الدين ، ومن المُقرَّبين لدى السلطان على الإسكان والعُمران في هذه الناحية ، وبنَى قلعة وأمر الشيخ مخدوم جهانيان الإمام رفيع الدين ـ الذي كان خليفته ، وإمامه في الصلاة ، وكان مُقيماً في قرية «سُنَّام» ـ أن يضع حجر الأساس لهذه القلعة ، ويسكن في هذه المدينة الجديدة ، ولم تزل هذه الأسرة ـ من ذلك العهد ـ ساكنة في هذه المدينة ، ويُقال : إن تأسيس القلعة وبداية العمران في (سرهند) كانا عام ٧٦٠هـ [(٢)].

وهكذا كانت مدينةُ «سَرْهند» آهلةً عامرة منذ قرنين من الزمان قبل ولادة الإمام السَّرهندي ، وتُفيد كتب السير والتراجم أنه استوطَنتْ هناك أسر كريمة ،

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء الثاني من «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني .

(٢) قد ذكرها الرحالة الصيني الشهير هيون سانك (Hiuin Song) الذي زار الهند في القرن السابع الميلادي ، وقال: «إنه يستخرج الذهب من نواحي هذه المدينة ، وكانت هذه المدينة في فترة من فترات التاريخ حداً فاصلاً بين الهنادك والغزنويين، وكانت أرض الهند وراء هذا الحد، فسميت لأجل ذلك بـ«سرهند» ـ أي: رأس الهند ـ، وقد فتح السلطان محمود الغزنوي مدينة سرهند عام ٥٨٧هـ الموافق ١٥١١م، ولم يهتم سلاطين دهلي ـ إلى زمن فيروز شاه تغلق ـ بسرهند أي اهتمام، ولما بدأ عهد السلطان فيروز شاه تغلق بدأت العناية بهذه المدينة .

عامرة بالعلماء والمشايخ ، وأنَّ هذه الأرض أنجبَتْ عدداً من نوابغ الرجال وكبار العلماء، ويَبدو أنها بَلغت ذُروة التقدم ، وتوطَّدت صِلتُها بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر ، ولا نجد في كتب التاريخ والتراجم في القرنين الثامن والتاسع إلا أسماء معدودة ، لأفرادٍ من أسرة الإمام السرهندي نَبغوا في العلم وتنبَّلوا ، ولكننا نرى من بداية القرن العاشر يقظةً دينية وعلمية ، وحركة قوية نشيطة للإفادة والتدريس والإفادة ، والتربية والإرشاد ، ومن ثَمَّ كان كبار الأمراء في الدولة يُولون مدينتي (سرهند) وفيروزبور العناية ، وزادتْ أهميَّتهما الاستراتيجية .

وزار الملك بَابَرْ مدينة سَرْهند مراراً وتكراراً ، ودخل الملك همايون كذلك في سرهند ، ومن هناك توجَّه إلى (دهلي) ، واستعاد العرش والتَّاج للمرة الثانية ، وقد بلغتْ هذه المدينة في الرخاء والبهاء أوْجها في العهد المَغولي حتى كان فيها ٣٦٠ مسجداً ورباطاً ، وبئراً ومقبرة [١] .

العارف الشيخ عبدُ الأحَد السَّرهنديُّ:

تناول الشيخُ محمد هاشم الكشمي في «زُبدة المقامات» ترجمةَ الشيخ عبد الأحد (المعروف بالمخدوم لجلالة شأنه) بشيء من الاستيعاب والتفصيل ، وأن الشيخ الكشمي مكث في صُحبة الإمام السرهندي ثلاث سنوات متواصلة ، ومرجعه في حكاية الأحداث والوقائع في غالب الأحيان ـ أقوالُ الإمام وأحاديثه ، التي سمعها منه حيناً بعد حين ، وإذا كانت فيه زيادةٌ فهي مُعتمدة على المعلومات التي أخذها من أبنائه العظام ، فتصريحاتُه ـ نظراً إلى ذلك ـ يُوثَقُ بها كل الثقة ، وأذكر فيما يلي خلاصة ما جاء في كتابه :

«استولى على الشيخ عبد الأحد ـ من ريعان شبابه وفي أثناء دراسته ـ الشوقُ الدافع إلى تحصيل «علم اليقين» والوصول إلى رب العالمين ، حتى لم يَصبر ليتمَّ دراسته ، وسافر إلى الشيخ الكبير عبد القدوس الكَنْكُوْهِي ـ الذي انتهتْ

(١) ملخَّص من «دائرة المعارف الإسلامية» مقال بعنوان «سرهند شريف».

إليه رئاسة الطريقة الجَشتية الصابرية ، وطبَّق صيتُه الآفاق ـ فأخذ عنه الأذكار والأوراد ، وتلقَّى علمَ التربية الروحية والسلوك .

ثم لمَّا أبدى للشيخ عزيمته على أن يُلقي رحله هنا إلى أن يلقى الله ـ عز وجل ـ نَهاه الشيخ الخبيرُ البصير عن هذا القصد ، وأرشده ـ بتأكيد بالغ ـ إلى إتمام دراسته للعلوم الدينية ، والشريعة الإسلامية ، وقال له : «إنَّ الطريقة التي لا يرافقها العلم ، ليس فيها نُور ورُواء» .

فقال الشيخ عبد الأحد نظراً إلى كبر سنّ الشيخ وضعفه : أخاف أنني إذا قصدت تحقيق هذا الغرض بعد إكمال دراستي للعلوم الدينية ألاَّ ألقاك .

فقال الشيخ : إن لم تجدني ، فستنال هذا التراث عند ابني ركن الدين .

فخضع المخدوم لأمره ، وانصرف إلى العلم والدراسة .

وكان من قدر الله أن حدث ما تخوف منه الشيخ عبد الأحد ، فلقي الشيخُ ربَّه ، قبل فراغ المخدوم من دراسته ، فأكملَ المخدومُ دراسة العلوم السائدة في عصره ، ثم بدأ يسيح ويجول في الأماكن المختلفة ، ويستفيدُ من شيوخها وصالحي أهلها حتى جاء إلى الشيخ ركن الدين ، وبدأ يرتقي درجات السلوك والإحسان ، إلى أن أجازه الشيخ في الطريقة القادريّة الجِشْتِيَّة ، واستخلفه في التربية والتسليك والإرشاد [١] .

وقد كانتْ تُسيطِر على هذين الشيخين الجليلين الشيخِ عبد القدُّوس ، والشيخ ركن الدين فكرة وحدة الوجود ، والسُّكر والاضطراب ، والفناء والاستغراق ، وكانا من أصحابِ السَّماع والمواجيد ، وكانَ الشيخ عبد القدوس من الدُّعاة المتحمسين إليها ، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ كان راسخ القدم في اتِّباع السنة والعملِ بالعزيمة ، يغلبُ عليه هضم النفس وإنكار الذات ،

(١) شهادة الخلافة والإجازة التي أعطاها الشيخ للمخدوم مذكورة بنصها في «زبدة المقامات» وأغلبها في العربية، راجع ص ٢٩ ـ ٩٦ .

وكان رقيق القلب كثير التعبد ، يذكر الموت والبلى دائماً ، ويُفكر في الآخرة ، وحُسن الخاتمة في كل الأحوال [١] .

وكان للشَّيخ عبد الأحد ـ عدا أُستاذيه في التربية والسلوك الشيخ عبد القدوس والشيخ ركن الدين ـ علاقةٌ خاصة بالشيخ كمال الكَيْتَهَلِيّ ، أحد المشايخ المعروفين في السلسلة القادرية ، وكان الشيخُ كمال من نوابغ الرجال وأصحاب الأحوال والمقامات السنية [٢] .

وقد مَضى ـ فيما تقدَّم ـ قول الشيخ عبد الأحد : «تُفيد البصيرة الكشفية أن الشيخ كمال لا يُدانيه في السلسلة القادرية العلية بعد مؤسِّسها الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني ، أحدٌ من المشايخ «الربَّانيين» وكان حفيده الشيخ إسكندر كذلك من المشايخ الكبار ، وقد استفاد منه الشيخُ عبد الأحد أيضاً ، ولما فرغ الشيخ عبد الأحد من دراسة العلوم الدينية ، خرج يجوب البلادَ ، بحثاً عن رجال الله والرَّبانيِّين الصادقين ، وعزم على نفسه عند السفر أنَّه إذا رأى آثار البدعة عند شيخ من المشايخ، فسوف ينأى بنفسه عن مُصاحبته فضلاً عن مبايعته ، فدار في البلاد ، ودرس واستفاد.

وعاد من هذه الرحلة الطويلة ، إلى (سَرْهِنْد) ، فأقام فيها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ولم يُغادرها إلى أيِّ مكان ، كان يدرس في الكتب العقلية والنقلية المُتداولة في تلك الأيام بتحقيق وتدقيق.

وكان الإمام السرهندي يقول : حَصَلَتْ له الملكة الراسخة في جميع العلوم السائدة إلا أنه لم يكن له مثيل في عِلمي الفقه وأصوله ، وحينما كان يلقي درسه في «أصول البزدوي» تتجلى للحاضرين جلالة شأن الإمام أبي حنيفة وإمامته وعبقريَّته ، وكان يدرس كتب التصوف أيضاً مع رُسوخ قدمه وعُلو كعبه في حل

(١) راجع للاطلاع على فضائله ومحاسنه وأذواقه «نزهة الخواطر» ج ٤ .
(٢) راجع لأخباره المفصلة «نزهة الخواطر»، ج ٤ .

مشكلات «التَّعرُّف» و«عوارف المعارف» و«فُصوص الحكم» (للشيخ محيي الدين بن عربي) ودقائقها الفنية.

وكان على مسلك الشيخ محيي الدين بن عربي عِلماً وذوقاً، إلا أنه لمواهبه في علو الشأن وضبط النفس، وتعظيم الشريعة لا تصدُر من لسانه الشَّطحات والشوارد، كان يغلب عليه التواضع وهضم النفس والتجريد، لا يطلبُ من أحدٍ خدمته ـ رغم كثرة تلامذَتِه ـ وكان يَشتري حاجيّات البيت بنفسه ويحملها إلى البيت، يعتني أشدَّ الاعتناء باتباع السنة، فلا تفوته سُنة، ولا يترك شيئاً منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً، حتى كان له اهتمامٌ كبيرٌ بالسُّنن العادية النقشبندية، ويشتاق إليها، ويذكرها بالخير ويُثني عليها، فكان يقول: أدعو الله تعالى أن يشرف هذه البلاد بهذه الطريقة العالية، أو أن يُبلغنا إلى مركزها حتى نستفيد منها، وكان يُؤلف ويصنف، ومن مؤلفاته: «كنوز الحقائق» و«أسرار التَّشهُّد»، وكان محباً لأهل بيت رسول الله ﷺ، كما كان مُعظماً لأصحابه، عارِفاً لهم فضلهم وحَقهم، يقول: «إنَّ لهذا الحُبِّ تأثيراً في حُسن الخاتمة»[(١)].

ولمَّا بلغ في رحلته إلى «سكندره»[(٢)]، ومَكث هناك أياماً قليلة، تقدَّمت إليه أُسرة كريمة لما توسَّمتْ فيه من شرف وكَرم مَحْتدٍ، ورأتْ صلاحه وتورُّعه، وجمعه بين العلم والعمل، وخطبت إليه فتاة طيبة صالحة من بناتها، فحصل الزواج، وكان جميع أبناء الشيخ عبد الأحد من هذه الزوجة الكريمة الصالحة، وقد رُزق الشيخ عبد الأحد سبعةَ أبناء، وقد كان الإمام السَّرهندي واسطة العقد وبيت القصيد من بين إخوته، إلا أنَّ بقية إخوته كانوا ـ أيضاً ـ أصحاب علم وصلاح، واستعداد قوي، وأخذوا العلوم المتداولة، وتلقَّوا التربية الروحية على يد والدهم، أو غيره من المشايخ المعاصرين.

---

(١) زبدة المقامات: ص ١٢٣.
(٢) مدينة في الولاية الشمالية.

وكانت وفاة الشيخ عبد الأحد في «سرهند» في ١٧ رجب عام ١٠٠٧هـ ، ويُمكن أن يقال إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلّى في الدوران مع الحق والدليل الشرعي ، والخضوع له ، والإنصاف من نفسه وتَعظيم الشريعة الإسلامية ، والسنَّة النبوية وإجلالهما ، والسعي لاتباعهما ، والعناية بتطبيقهما ، والحميةِ الدينية ، وعُلوُّ الهمة والطموح في ارتقاء درجات الإحسان ، والتقدُّم في مراتب الإيمان ، وقد ورث منه هذه الخصِّيصة ، والميزَة الباهرة ابنُه العظيم ـ الذي قدر له أن يُعيد الدين في البلاد الغربية غضاً طرياً ، ويحفظ تُراث الأمة الإسلامية من عوادي الزمن ـ وزادتها العنايةُ الربانية نوراً وصفاءً ، ووهبته من المحاسن والفضائل والعبقرية الإسلامية ما حَوَّلته شمساً وهَّاجة تَشعُّ بالنور وتُبدِّد الظلمات.

ولادة الإمام السّرهندي وتعلّمه:

وُلد الإمام السَّرهندي ليلة الجمعة ١٤ شوال عام ٩٧١هـ ، الموافق ١٥٦٣م ، بمدينة سرهند ، وسُمِّي «شيخ أحمد» ، كانتْ تبدو عليه ـ من صغره ـ مَخايلُ السعادة والخير ، وسيما الرُّشد والصلاح ، وكانَ المَشايخ الربَّانيون والعلماء الصالحون لا سيما الشيخ كمال الكَيْتَهَلْوِيّ الذي كان والدُ الإمام وثيقَ الصلة به ـ يُحبُّونه ويحدبون عليه ، ويُعاملونه معاملةً خاصَّة ، ويؤُثرونه على أترابِه وزملائهِ.

بدأ تَعلُّمَه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير زمن حتى حفِظه كُلَّه عن ظهر الغيب ، ثم بدأ يتعلَّم مبادىء العلم عند والده ، وبعد مُدَّةٍ يسيرة برزت مواهِبهُ وصلاحيته ، وظهرت مَزِيَّته في سُرعة إدراك الموادِّ الدقيقة ، والتَّعبير عنها في عبارة واضحة مُفصحة عن الموضوع ، وأخذَ أكثر العلوم المتداولةِ عن والده ، وبَعضها عن غيره من علماء عصره الكبار .

ثم سافر إلى سِيَالْكُوت ـ التي كانت آنذاك ـ مركزاً علمياً ودراسياً كبيراً وقرأ

بعض الكُتب النهائية العالية المقررة في ذلك المنهج الدراسي (كالعضدي مثلاً) على الشيخ كمال الكشميري الذي كانت له اليد الطُولى في المنطق والفلسفة ، والكلام وأصول الفقه ، وكان صيتُ ذكائه وقوةُ حفظه وكثرةُ قراءته ودراسته وسعة معلوماته ، وبراعته في التدريس ، مُنتشراً في الآفاق [١] ، وكان من تلامذته أمثالُ العلاَّمة عبد الحكيم السِّيالوكوتي من نوابغ العلماء ، وكِبارِ الفضلاء ، وحُذَّاقِ المُدرِّسين ، وقَرأ بعضَ كُتب الحديث على الشيخ يعقوب الصَّرفي الكشميري الذي كان تلميذاً لمحدِّث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكِّي ، وترك في مُؤلَّفاته شرحاً مُستفيضاً لصحيح البخاري [٢] .

وقد كان الشيخ يعقوب يحمل الإجازة من كبار المحدِّثين والمؤلِّفين في الحديث والتفسير ، وفي مؤلَّفاتهم ومجاميعهم ، وروى الحديث عن العالم الرباني الشهير القاضي بهلول البَدَخْشَانِيّ ، الذي كان عالي الكعب في علم التفسير والحديث ، وتلميذ عالِم عصره الشيخ عبد الرحمن بن فهد ، وقرأ عليه «صحيح البخاري» ، و«مشكاة المصابيح» ، و«شمائل الترمذي» ، وكُتباً أخرى في الحديث.

كما أسند عنه «ثُلاثيَّات البُخاري ، والأحاديثَ المُسلسلة» ، وروى كُتب

---

(١) كان الشيخ كمال الدين بن موسى الكشميري المذكور، انتقل من كشمير عام ١٧٩هـ إلى سيالكوت، واشتغل بالتدريس والإفادة نصف قرن من الزمن وتوفي عام ١٠١٧هـ بلاهور، ودفن هناك (انظر «نزهة الخواطر» ج ٥، ص ٣١٦).

(٢) ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري عام ٩٨٠هـ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحبه مدة طويلة، ثم سافر إلى الحجاز ودرس على علمائها الحديث وحمل من هناك كتباً غالية في الفقه والحديث و التفسير، توفي في ١٢ ذي القعدة عام ١٠٠٣هـ، (انظر نزهة الخواطر» ج ٥، ص ٤٣٩) وهكذا استطاع الإمام السرهندي أن يتعرف عن طريق أستاذه الشيخ يعقوب على الكتب الستة وغيرها من أمهات كتب الحديث.

التفسير أيضاً على طريقة المُتقدِّمين بالأسانيد المتصلة ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو في السابعة عشرة من سنه [١] .

ولما فَرغ من تَحصيل العُلوم العقلية والنقلية ، ومَعرفة الأصول والفروع ، تَوجَّه إلى التَّدريس والإفادة ، وألَّفَ عدة رسائل في اللُّغتين العربية والفارسية ، منها«الرِّسالةُ التَّهليليَّةُ» و«رسالة في الرّدِّ على مَذهب الإمامية» ، وزار «آكْرَهْ» (المعروفة بأكبر آباد ، عاصمة الإمبراطور «أكبر») عاصمة البلاد ـ آنذاك ـ وجالس بها أبا الفضل وفَيْضِي ، ولكن لم يَنسجم معهما لاختلاف الاتِّجاه والمَشْرَب ، وكان بينه وبينَهما ـ في بعض الأحيان ـ أخذٌ ورَدٌّ ، وشدٌّ وجَذب ، وأبدى استياءه من بعض الكلمات الجريئة الساخرة التي تفوَّه بها أبو الفضل ، وهَجَره لأجل ذلك ، فأرسل إليه أبو الفضل ، ودَعاه واعتذَر إليه مما صدَر منه ، وساعدَ الإمام ـ مرة ـ أبا الفيض فيضي الذي كان مُنصرفاً في تلك الفترة إلى تأليف التَّفسير غير المُعجم باسم «سواطع الإلهام» إذ وقَف قَلَمُهُ في موضعٍ من المواضع لصعُوبة التوصُّل إلى لفظةٍ غير معجمة ملائمةٍ للكلام الذي هو بصَدَده، واستعصى عليه التعبيرُ عن المعنى الذي يريده ، فأفضىٰ بهذه المشكلة إلى الإمام السَّرهندي ، فحلَّ العُقدة ودلَّه على الكلمة، واعترف فيضي لأجل ذلك بغزارة عِلمه، وسيلان طبعه، وحُضور بديهته .

أقام في «آكره» مُدّة طويلةً حتى اشتاق والدُه إلى لقائه ، فسافرَ ـ رُغم كبر السِّن وبُعدِ المسافة ـ إلى آكره ، وعاد الإمام السَّرْهندي مع الوالد إلى الوطن .

ولمَّا مرّا بين دهلي وسَرْهند بمدينة تهانيسر ، استقبلهما الشيخُ سلطان ـ الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها ، ومن علماء عصره ومشايخه ، وكانت له الحظوة والزُّلفى لدى السلطان ، كما كان والياً على منطقة تهانيسر ـ بحفاوة بالغة ، وأكرمهما غاية الإكرام ، وأنزَلهما عنده ضيفين مُبجَّلين ،

---

(١) ذكرت أسانيد الحديث المسلسل، والأسانيد الأخرى في «زبدة المقامات».

وأبدى رغبتَه ـ لسابق إشارة غيبية ـ في تزويج ابنته من الإمام السَّرْهندي فقَبِلَ والده هذه المصاهرة ، وخَطب خُطبة النّكاح ، وتم الزواج ، وسارتِ الزوجة مع القافلة إلى سَرْهند.

استكمالُ التَّربية والسُّلوك، ومبايعة الشيخ الكبير عبد الباقي البَذَخشِيّ النَّقشبندي والاستفادةُ منه:

لَسْنا ـ بهذه المناسبة ـ في حاجة إلى بيان الأدلَّة الشَّرعية والعلمية على ضرورة السُّلوك والتربية الربانية الصافية ، إذ أنَّ قرَّاء سِلسلة «رجال الفكر والدعوة»(١) ـ التي نَحن في الجزء الثالث منها ـ قد ألمُّوا بهذا الموضوع من خلال مُطالعتِهم لحياة الإمام الحَسن البصري ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، ومولانا جلال الدين الرُّومي ، فإذا كانت هناك بقيةٌ من حاجة ، وتطلُّع إلى مزيد من الإقناع والبرهنة فليراجعوا كتاب المؤلف «ربانية لا رهبانية»(٢).

ولكن لا بُدَّ ـ في هذا الصَّدد ـ من أن نُشير إلى أن ذلك الوسط والعهد الذي قام فيهما الإمام السَّرهندي بدوره التجديدي ، ومُهمته الإصلاحية العظيمة ، كان التصوفُ فيهما قد تَغلغل في أحشاء المجتمع الإسلامي ، وامتزَج بلحمه ودمه ، حتى أصبحَ التَّصوفُ لهُ طبيعة وذَوقاً ، وسمة وشعاراً ، ولم يكن الأمر مقتصراً على طبقةٍ خاصَّة من الناس ، بل كانت العامة لا تعبأ بعالمٍ أو مُربٍّ ، أو مُصلِح ، ولا تُقيم له وَزْناً ، ولا تَعتقدُ فيه الخير والصلاح ، ولا تَنتفعُ بمواعِظه وكتاباته ، ما لم يكن له إلمامٌ بالتصوُّف والسلوك ، ويكونُ قد صحب بعض المشايخ المعروفين ، وانخرط في سلْك بعض الطرق السائدة المقبولة في الناس.

ثم إنَّه لا تقومُ ثورة حقيقية على أساس الخَطابة الساحرة ، وغزارة العلم ، وسَعة الثقافة إذا لم تكن وراءها النفسُ الزكية الخاشعة ، والقلبُ العامر الفائض

(١) [في الجزء الأوَّل انظر المحاضرة الرابعة عشرة وما بعدها من المحاضرات].
(٢) وقد صدر من دار ابن كثير بدمشق.

بالإخلاص واليقين ، والتوجُّع لحال المسلمين ، والتألُّم مما أصاب الدين ، وهي صفات لا تنشأ غالباً إلاَّ مع كثرة الذكر والعبادة ، ومُجالسة الصالحين ، وترسُّم خطى المتقين.

وكان من يُمنِّي نفسه بقلب الأوضاع التي استحكمت ورسَخت ، وإصلاح المجتمع الذي استشرى فيه الفساد ، وتضافرتْ عليه عوامل الهدم والإفساد ، والتأثيرُ في بيئة زَخرت بكبار العلماء ، وحُذَّاق الأساتذة ، ونَوابغ الأدباء والشعراء ، ثم لا يزيد على أن يشاركهم في بِضاعتهم وقد يتَفوَّقون عليه في بعض العلوم والفضائل ، ولا يكونُ عنده ما يَحتاجون إليه ويُقرُّون بتخلُّفهم فيه ، من صلةٍ قوية بالله ، ومعرفة مصايد الشيطان ، ومَكايد النفس ، ووُصولٍ إلى درجة «الإحسان» وأعلى مراتب الإيمان ، واستقامة على اتباع الشريعة والسنة النبوية ، وعُزوف عن الشهوات ، وزُهد في الدنيا ، واستهانة بأربابها ، وإقبال على الآخرة ، كان من هذا شأنُه كَمثل من يَخوض في ساحة القتال من دُون تجنيدٍ وتدريب وتمرين ، ويُقاتل جيشاً مُدرباً مُدعَّماً بالأسلحة والوسائل ، أعزَل لا يحمل سلاحاً ، أو يحمل ما يحملونه ، أو كمثل الأخرس الذي يُحاول البيان والتعليم والإفهام.

لقد كان من حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتدبيره أن أرشَد الإمام السَّرهندي إلى أن يأخذ عُدَّته قبل الخوض في المعركة ، وأنْ يأخذَ هذا العلم من أهله ، ويُجاهد في سبيله فحسب ، بل يَصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد ، لِصُحبة المَشايخ الكاملين ، وتَربية الأئمة الرَّبانيين ، وبسبب المواهب الإلٰهية وما أراد الله به وقيَّضه له من إصلاح جذري ، وانقلاب شامل ، حتى ينهض بهذه المُهمة العظيمة بكامل العدة والعتاد ، والثقة والاعتماد ، وأن تَظلَّ آثارُ دَعوته وحركتِه خالدةً مع القرون والأجيال ، وتمتدَّ إلى الآفاق في بُلدان العالم البعيدة النائية.

ولمَّا دخل «سرهند» ألقى فيها عصا الترحال ، وبَقي يَخدُم والده إلى أن أدرَكه الموتُ ، واستفاضَ مِنه كثيراً من الفيُوض الروحانية ، ودَرج في مسالك

الإحسان ، مُقتفياً آثار المنهج الجِشْتِيِّ والقادري ، واستمرَّ مع ذلك يُدرس في العلوم الدينية ويُفيد.

وهاجَ الحنين في قلبه إلى حَجِّ بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد الرسول ﷺ ، فأرَّق جُفونَه ، واستولى عليه الشوق والاضطراب ، ولكن ـ نظراً إلى كبر سن الوالد ودُنو أجله في الظاهر ـ رأىٰ من غير اللائق أن يُفارقه على هذه الحال ، فلما وافاه الأجل سنة ١٠٠٧هـ لم يبقَ هُناك عائقٌ يَحُول دونَ السفر ، فأعدَّ عُدة السفر لزيارة الحرمين الشريفين وحَج بيت الله الحرام عام ١٠٠٨هـ ، وغادر سَرْهند إلى دهلي ، فجاء إليه علماؤُها وفضلاؤها ممن كانوا يَسْمعون بفضله ونبوغه ، ليُقابلوه ويُسلِّموا عليه ، وكان فيهم الشيخ حسن الكشميري الذي كانت للإمام معرفةٌ قديمة به ، فتطرَّق الحديث بينهما إلى ذكر الشيخ الكبير عبد الباقي ، وعُلوِّ مكانته وجلالة شأنه ، وقُوة باطنه ، وكان الشيخ قد مرّ ـ قبل بضعة أيام ـ بدهلي.

وكان الإمام السَّرهندي سمع والده ـ أحياناً ـ يَذكر الطَّريقة النقشبندية ، ويُبدي شوقَه إليها ، فرغِبَتْ نفسُه في مقابلة الشيخ ، ورأى أنَّ هذه الصُّحبة تُوفِّر له زاد الطريق إلى الحرمين الشريفين ، وأنها نِعمةٌ ينبغي ألاَّ تفوت ، فرافق الشيخ حسن [١] الكشميري إلى الشيخ عبد الباقي ، وكأنَّ لسان حاله يقول: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ .

وقَبل أن نَتناول هذا القران السعيد ، وما دار في هذا اللقاء العجيب ، وما تَلته من الأحداث والوقائع ، نَودُّ أن نعرِّف بالشيخ عبد الباقي [٢] ، ويَحسُن بنا

---

(١) لقد كان الإمام السرهندي طوال عمره يذكر هذه المنة للشيخ حسن الكشميري، ويشكره على هذه اليد البيضاء، إذ أنه كان الواسطة للحصول على هذه الثروة الغالية، (انظر الرسالة رقم ٢٧٩، المجموعة الأولى).

(٢) وللاطلاع على تراجم كبار أصحاب الطريقة النقشبندية، ومشايخها الأجلة لاسيما مؤسسها الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند، وخصائص هذه الطريقة وميزاتها البارزة، ينبغي مراجعة مؤلفات رأس هذه الطريقة في عصره حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي ، =

أن ننقلُ هنا ما كتبه مؤلف «نزهـة الخواطر» ـ المجلد الخامس ـ في ترجمته؛ فإنه يصدق عليه وصفُ «ما قلّ ودلّ» وقد جاء فيه لُباب كتب التراجم وعُصارة ما كُتب عنه:

الشيخ عبد الباقي النقشبندي الدهلوي المعروف بخواجه باقي بالله:

«الشيخ عبد الباقي النَّقشبندي الدِّهْلوي (المعروف بخواجه باقي بالله) هو الشيخ الهمام، حُجة الله بين الأنام، قدوة الأمة، وإمام الأئمة، رضي الدين أبو المؤيد عبدُ الباقي بن عبد السلام البَدْخَشيّ الكَابُلِيّ ثم الدِّهلوي، بركةُ الدنيا وسر الوجود (١)، ولسان الحضرة، ولُب لباب العرفان، كان من العِلم والمعرفة آيةً من آيات الله تعالى، ومن الولاية غاية من الغايات.

وُلد في حدود سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمئة بكَابُل، واشتغل بالعلم على مولانا محمد صادق الحُلْوَائي، وسار معه إلى ما وراء النهر ولا زمهُ مُدة، ثم بدا له داعيةُ الدخول في طريق الصوفية، فترك تحصيل العلوم الرسمية، وطاف حول مجلس كثير من كبار مشايخ وقته في بلاد ما وراء النهر فأوّلُ من تاب على يده الشيخ خواجه عبيد خليفة مولانا لطف الله، خَليفة المخدوم الأعظم الدهبيدي، ولمّا لمْ تظهر عليه آثار الاستقامة تاب ثانياً على يد الشيخ افتخار حسين عند قُدومه بسمرقند، وكان من مشايخ سلسلة الشيخ أحمد اليسوي، ثم طرأت على عزيمته هذه الفترة، وظهر فيه ما يُنافي طريق الاستقامة، فجدَّد التوبة ثالثاً من غير صُنع واختيار على يد الأمير عبد الله البَلْخِيّ، فكان في مقام حِفظ الحدود أياماً، ثم هَدم سَدَّ تلك التوبة أخيراً، ثم تشرف في المنام بزيارة خواجه بهاء الدين نقشبند، وظهرَ فيه ميل إلى طريقة أهل الله، فصار يتوجه إلى كل طرف يسير حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا

= لا سيما كتابه: «الانتباه في سلاسل أولياء الله» و«همعات».

(١) أي أنه كان الصورة الجلية، والتفسير العلمي للآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولي الكبروي في بلدة كشمير ، فلازَمه وأخذ عنه ، وهبّت عليه في ملازمته النفحاتُ الربانية ، وظهرت فيه الغيبة المعهودة عند هذه الطائفة .

ولمّا مات الشيخ المذكور صار يدور في البلاد ، ومَضى عليه زمن من السياحة والأخذ حتى حضَرت له روح الشيخ عبيد الله الأحرار ، فعلّمه الطريقة النقشبندية ، وتمَّ أمرُه ، ثم ذهب إلى ما وراء النهر فأدرك بها الشيخ محمد الأمكنكي ، فأجازه الشيخ بعد ثلاثة أيام ، ورخَّصه ، فرجع إلى الهند وأقام سنةً ببلدة لاهور ، واغتنم صحبتَه فيها كثيرٌ من العلماء ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة الهند دهلي ، واختارَ للإقامة القَلْعة الفيروزية التي كانت مشتملة على نهرٍ كبير ، ومسجدٍ عظيم ، فأقام هناك إلى وفاته .

وكانَ صاحبَ الأذواق والمواجيد ، كثير التواضع والانكسار ، وكان يجتهدُ في سَتر أحواله وسيرته عن نَظرِ الأغيار ، ويرى نفسَه أهلاً لمقام الإرشاد ، فإذا جاءه شخص يَطلُب الطريقة كان يقول : ليس عندي شيءٌ من ذلك ، يَنبغي لك أن تَطلُبه من غيري ، فإذا لقيتَ أحداً من هذه الطائفة فنبّهني عليه .

وكان بمَعْزل عن الدَّعوى يشتغلُ بخِدمة الزوار ، واستمالةِ قلوبهم ولا يتكلَّم إلاَّ عن ضرورة ، إلاَّ في مسألة مُشكلة من الحقائق ، فكان يُوضحها حق الإيضاح لئلا يميل صاحبُها عن النَّهج القويم ، وكان يَمنعُ أصحابه عن القيام تعظيماً له ، ويَعدُّ نفسه كأحدٍ منهم ، ويُحبُّ المساواةَ معهم في سائر حالاته ، وكان يَقعد فوق التراب من غير حائلٍ تواضعاً ومَسكَنةً .

وكان ذا كيفية عجيبة ، وتَصرُّفات غريبة ؛ بحيث إذا وقع نظرهُ على شخص كان يَتغيَّر حالهُ ، وكان يحصل الذوق والشوق ، والكيفيةُ المعهودة عند هذه الطائفة في أول صحبته ، ويُجري لطائف الطالبين بالذكر في أول التلقين ، وكان ذلك على سبيل التَّعميم ، وكانت شفقته على الخلق غاية ، حتى إنَّه قام ليلة في أيام البرد عَنْ فراشه ، فلما عاد رأى في لِحافه هِرَّة نائمة ، فلم يرض بإيقاظها وتحريكه إياها ، وقَعد إلى الصُّبح متحملاً لذلك البرد .

وصادفت إقامته في لاهور مجاعةٌ ، فلم يأكل في تلك المدة شيئاً ، فإذا أُحضر عنده طعام فَرَّقه وقَسمه على الجائعين.

ولمَّا خرج من (لاهور) مُتوجهاً إلى دهلي رأى عاجزاً في الطريق ، فنزل عن دابته وأركَبَهُ إياها ، وصار يمشي مُتقنِّعاً لئلا يعرفه أحد، ولما قرُب إلى المنزل ، أنزله وركب بنفسه ، لئلا يطَّلع عليه أحد.

وكان غايةً في رُؤية قصور الأحوال واتهام النفس ، لا يُميِّز نفسه عن العامة ، فضلاً عن أصحابه ، قيل: كان في جواره شاب يرتكب كل شيء من الفسق ، فكان يتحمَّله مع اطلاعه عليه ، فسعى خواجه حسام الدين الدِّهلوي أحدُ أصحابه في دفعه وتأديبه إلى الحكام ، فأخذوه وحبسوه ، فلما اطَّلع عليه غضب على صاحبه وقال: لم فعلتَ كذا؟!

قال: ياسيِّدي إنَّه فاسق لا يبالي ، يرتكب كل شيء.

فقال: أواه لمّا كُنتم من أهل الصلاحِ والتقوى رأيتم فسقه ، وإلاَّ فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه ، فكيف نَترك أنفسنا ونسعى به إلى الحكام؟ ثم سعى في تخليصه وإخراجه من الحبس ، فأخرجوه ، فتابَ وصار من الصُّلحاء.

وكان رحمه الله ـ إذا صدرت زلةٌ من أصحابه ـ يقول: إن هذه من زَلاَّتنا ، ظهرت منهم بطريق الانعكاس.

وكان يَختار الأحوط في العبادات والمعاملات ، ولذلك كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة في ابتداءِ حاله لكثرة الأحاديث الواردة في قراءتها وقُوة دليلها.

وهذه المذكوراتُ نبذةٌ من شمائله ، وقَطرة من بحر خصائصه ، ولذلك ترى أنَّ الناس انتفعوا به في مدة قليلة ، وما انتشرت هذه السلسلة المباركة في الهند إلاَّ منه ، ـ رضي الله عنه ـ وما كانَ أحدٌ يَعرِفها قَبلَه.

وكان الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري يقول: إنه كان مَعدوم النظير في قُوة الإرشاد ، فإنه أرشد ثلاث سنين أو أربع ، وفي تلك المدة القليلة أنار

الآفاق بلوامع إفادته كما في «زُبدة المقامات» للكَشْمِي ، وذلك لأنه عاش أربعين سنة ، وبعد قدومه الهند لم يعش إلاَّ أربع سنوات ، وفي تلك المدة القليلة بلَغَ أصحابهُ إلى أعلى مدارج الكمال؛ حتى إنهم مَحوا آثار الطُرق السالفة ، وغَلبَت الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى.

قال محمد بن فضل الله المُحبي في «خلاصة الأثر»: «إنَّه ـ قدَّس الله روحه ، ونَوَّر ضريحه ـ آيةٌ من آيات الله سبحانه ، ونُور من أنواره ، وسِر من أسراره ، صاحب علم ظاهر وباطن ، وتصرُّفات ، كثيرُ الصمت والتواضع والانكسار ، ذا خُلُق حسن لا يتميز عن الناس بشيء ، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه ، وألاَّ يعاملوه إلا كما يُعامل بعضُهم بعضاً.

ثم قال: وظهرتْ له التصرفاتُ العظيمةُ ، فصارَ كُلٌّ من يقع نظره عليه ، أو يدخل في حَلْقته يَصل إلى الغيبة والفناء ، ولو لم يكن له مُناسبة ، وكان الناس مَطروحين على بابه كالسُّكارى ، وبعضهم كان ينكَشف له في أول الصحبة عن عالم المُلك والملكوت ، وكلٌّ هذا كان من غلبة الجذبات الإلٰهية» انتهى.

وممَّن أخذَ عنه الشيخ الإمام أحمدُ بن عبد الأحد السَّرهندي إمامُ الطريقة المُجدِّدية ، والشيخ العارف تاج الدين بن سلطان العُثماني السَّنْبَهلِيّ ، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البَدْخَشِيّ ، والشيخُ الهداد الدهلوي وخلق آخرون.

ومِن مُصنفاته الرسائل البديعية ، والمكاتيب العَلية ، والأشعار الرائقة ، ومنها «سلسلة الأحرار» شرحَ فيه رُباعيَّاته في الحقائق والمعارف بالفارسي.

توفِّي يوم الأربعاء رابع عشر من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف بمدينة (دهلي) ، وله أربعون سنة ، وأربعة أشهر ، وقبرهُ بها على غربيها عند أثرِ قدم الرسول ﷺ»[١].

---

(١) نزهة الخواطر: ج ٥، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.

البَيعة والتَّكميلُ الباطنـي:

ودَخل الإمام السَّرهندي على الشيخ عبد الباقي ، فكأنَّه كان منه على ميعاد ، أكرمه وبالغ في الحفاوة به ، والعطف عليه ، وكان الشيخ أَبيَّ النفس غيوراً ، لا يتَعجل في المعرفة والصداقة ، ولا يَستلفتُ نَظرَ إنسان إليه ، إلا أنه مع الإمام السَّرهندي أصبح طالباً مكان مطلوب ، وقدَّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُكمل الإمام في صحبة هذا الشيخ مسيرةَ التكميل الباطني ، ويَستفيد تلك النِّسبة الخاصة التي كانت الطريقة النقشبندية تمتاز بها في ذلك العهد ، والتَّربية الروحية التي كانت الحاجةُ تشتد إليها في الوسط الروحي السائدِ في الهند ، وأن يستعد ـ عن طريق هذه التربية والسلوك ـ للقيام بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد ، فيُعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيِّعة للشريعة ، ويُربي الناس ويَسمُو بهم إلى المقامات الرفيعة ، ومراتب الإحسان العالية وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات نُقلة بعيدة عظيمة ، خاطبه الشيخ وقال له على غير ما عُهد من عادته وطَبعه : «امكُثْ عندنا ضيفاً ، شهراً أو أسبوعاً على الأقل» .

ولـمَّا كان الشيخ أراد السَّفر إلى الهند ، استخار الله تعالى ، ورأى بعد صلاة الاستخارة كأنَّ ببَّغاء جميلة تنطق بالحديث الحُلو اللذيذ نزلت وجلست على يده ، وهو يَسقيها ريقَهُ ، فتُطعمه بمنقارها السُّكرَ ، فذكر الشيخ هذه الرؤيا لمرشده وشيخه في الطريقة الشيخ خواجه الأمكنكي ، فعبَّرها قائلاً : إن الببغاء من طيور الهند ، فسوف يقوم بفضل تربيتك وإرشادك في الهند شخصٌ يضيء العالم، ويكون لك أيضاً منه نصيب[1] .

ولـم يكن للإمام ـ بَعدَ هذا الأمر ـ مَندوحةٌ في الإباء والاعتذار ، فقد كان هو نفسه يبحث عن الخرّيت والدليل ، وماء الحياة والسلسبيل ، فقَبل هذه الإشارة ، ومكثَ هناك ، وطالت الإقامة ـ بصورة تدريجية ـ إلى شهر

(١) زبدة المقامات: ص ١٤٠ ـ ١٤١، و«حضرات القدس» ص ٢٦ ـ ٢٧ .

وأسبوعين ، وغلبه الشوق إلى تحصيل الطريقة النقشبندية ، والتَّمتُّع بفوائدها وفيوضها ، وبلغت هذه الرغبة الأكيدة إلى أن طلب من الشيخ أن يُبايعه ، فلبى الشيخ هذه الطُّلبة من غير لأيٍ وانتظار ، وذهب به إلى خلوته حيث لقَّنه الذِّكر القلبي .

وجرى قلبُ الإمام ـ في نفس الساعة ـ بالذكر ، وشعرَ بلذة غريبة ، وبشاشة ظاهرة تزداد كل يوم ، وتُحلِّق به في أجواء الروح وتعلو ، فتفطَّن الشيخ عند رؤية هذه الأحوال ، وسرعة السير إلى الله ، أنه هُو الببَّغاء الصادحة المترنِّمة ، التي رآها في المنام ، وأنَّ نغمتها العلوية الرخيمة ، وفِطرتها الجميلة السليمة ، ستأتي بربيع زاهر جديد في حديقة الهند ، بل في حديقة الإسلام ، وما وصل إليه الإمام في مدة شهرين ونصف ـ تقريباً ـ من مدارج الرقي والكمال ، وما ظهرتْ فيه من آثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة ، لا يُمكن تجليتها بالعبارات والألفاظ ولا يُمكن فهمها وإفهامها ، بقوالب من التعبيرات [١] .

ثم سافر الإمام السَّرهندي ، وكان شيخهُ ـ في هذه المرة الأولى ـ قد بَشَّره بالحصول على النِّسبة النقشبندية ـ بصورة كاملة وأن الأمل قويّ في التقدم السريع، والرُّقيِّ المتواصل، فلما وَرد دهلي مرة ثانية، ألبسه خِرقة الخلافة والإجازة ، لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين ، وتَربية المريدين ، ووَكل إليه بَعض خواص أصحابه ومريديه لتعليمهم الطريقة وتسليكهم .

وجاء الإمام السَّرهندي ـ بعد ذلك ـ للمرة الثالثة والأخيرة إلى شيخه ، فخرج الشيخُ ومشى طويلاً لاستقباله ، وبشَّره بنعم كثيرة ، وجعله رأس الحلقة للتوجُّه والإرشاد وقال لأصحابه : ينبغي في حضرته ألاَّ تلتفتوا إلاَّ إليه ، وقال له

---

(١) وإذا أراد القارىء الاطلاع على بعض تفاصيلها فليرجع إلى رسالة رقم: ٢٩٦، الجزء الرابع من المجموعة الأولى، وهي موجهة إلى الشيخ خواجه عبيد الله والشيخ خواجه عبد الله ابني خواجه باقي بالله، والرسالة رقم: ٢٩٠، الجزء الخامس من المجموعة الأولى، وهي موجهة إلى الشيخ محمد هاشم الكشمي.

عند الوداع: أشعر بضعف شديد، والأمل في الحياة قليل، ثم طلب منه اللفتات الروحية إلى ابنيه الشيخ خواجه عبيد الله، والشيخ خواجه عبد الله ـ وكانا طفلين رضيعين ـ وإلى أمهما أيضاً من وراء الحِجاب، فتفضل بها حَسب أمر الشيخ، وظهرت علائمُها وآثارها عليهم في نفس الوقت»[(١)].

شَهادةُ الشيخ المُرشد على جلالةِ شأن الإمام:

وكَتب الشيخُ عبد الباقي ـ بعد هذه الصِّلة الروحية مع الإمام السَّرهندي ـ إلى بعض المخلصين من أصحابه:

«إنَّ الشيخ أحمد الذي هو من سُكَّان (سرهند)، والعَالِمَ الربَّاني الوافر العلم، القوي العمل، صحب هذا الفقير مُدة يَسيرةً فشاهدَ الفقيرُ عجائب أحواله، وعَظيمَ صِفاته، وباهر مقاماته، وأرجو أن يكون سِراجاً يُضيء العالم، وإنني على ثقة ويقين من أحواله الكاملة».

وقد كان الإمام السَّرهندي نفسُه بعد حضور مجلس الشيخ لأول مرة، ولفتات الشيخ إليه، وتَلقينهِ إياه على يَقين من أنه سوف يرتقي في هذه الدرجات العالية، ومع ذلك كان دأبُه التواضع وَهضمُ النفس، ويُردد ـ كذلك ـ هذا البيت الذي يقول فيه:

«إنِّي على يقين ـ لهذا النُّور الذي تَسْكُبه على قلبي ـ بأنّي لا بُدَّ واصلٌ إلى غايتي ورغبتي»[(٢)].

وكان الإمام السَّرهندي ـ رَغم هذه الفضائل العلمية والمحاسن العملية، وبلوغ المدارج الروحية العالية ـ يتأدَّبُ مع شيخه غاية التأدُّب ويَحترمه أشد الاحترام، وكلما طلبه الشيخ، يَتغيَّرُ لونه، ويَقشَعِرُّ جلده[(٣)].

أمَّا الشيخ فكانت مُعامَلَتُه معه تختلف عن معاملة المرشدين للمسترشدين

---

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٥.
(٢) المصدر السابق: ص ١٤٥.
(٣) المصدر السابق: ص ١٤٩.

والمشايخ للطالبين والمريدين، وقال عنه يوماً: «إنَّ أحمدَ شَمسٌ، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي»[(١)].

الإقامة بسَرْهِند:

وعَكف الإمامُ ـ بعد هذه الاستفادة، والتربية الروحية، والتكميل الباطني، في سَرْهند، وبقي مُدَّة غيرَ قصيرة لا يُمارِس التربية والإرشاد للطالبينَ والسالكين، يَشعر في نفسه بالنقص والتَّقصير شعوراً قوياً، وكان يَترقّى، بسرعة مدهشة ـ مدارجَ الكمال، وتَطمَحُ رُوحه إلى بلوغ الذروة والغاية، فكان يَصعُب عليه في غلبة هذا الحال أن يُقبل إلى تربية السالكين وتعليم الطالبين، الذي يُشترط فيه النزول، إلى مستوى المريدين، ولم يكن هذا الشرط قد تحقَّق بعد، يقولُ في رسالةٍ له:

«لقد ظَهر لي ـ في هذه الحالة ـ تَقصيري ونَقصي، وجمعتُ الطالبين الوافدين، وذكرتُ لهم هذا النَّقص الذي أشعر به، ثم ودَّعتهم ولكن الطالبين والمريدين حملوا ذلك على التواضع وهَضْم النفس، ولم يُغيِّروا رأيهم فيَّ، حتى منَّ الله تعالى عليَّ ـ لما يُريده مني من خدمة هذا الدين، والعناية بشأن المسلمين ـ بالأحوالِ المرجوَّةِ»[(٢)].

وآنَ الأوانُ لعملهِ التربوي والإصلاحي، فبدأ يشتغل بإرشاد الطالبين، وتَسليك المريدين، وتكميل السالكين، وكان الإمام يكتبُ أحواله وأخباره وأحوالَ مسترشديه، وإخوته في الطريقة، وما اجتاز من العقبات، وما صعدوا من الدرجات إلى مُربِّيه الشيخ عبد الباقي، وظهرتْ له في هذه المدة مُبشِّرات، ورؤىً وآثارٌ أثلَجتْ قَلبَه، ودلَّت على أنَّ الله ـ عز وجل ـ يُعدُّه لأمر عظيم، وأنه سَيقوم بخِدمةٍ جليلة لهذا الدين[(٣)]، ولم يَحظَ بعدَ

(١) زبدة المقامات: ص ٣٣٠.

(٢) مجموعة الرسائل الأولى: رقم: ٢٩٠.

(٣) انظر الرسالة رقم: ٧٤، من المجموعة الثانية.

الرحلة الثالثة ، بزيارة الشيخ ، وصُحبته ومجالسته ، فقد تُوفي قبل أن يَلقاه المرة الرابعة .

رِحلَتُهُ إلى لاَهُوْر:

وَتوجَّه إلى (لاهور) ـ بعد إقامةٍ يسيرة في (سرهند) ـ بإشارة من شيخه ، وكانت مدينة لاهور ـ إذ ذاك ـ تُعتبر المركز الديني والعلمي التي تَلي مدينة (دِهْلي) ، وكان فيها عددٌ كبير من العلماء والمشايخ ، فلما سمِعوا بمجيء الإمام ، خرجوا يستقبلونه واحْتَفوا به [١] ، وبايَعه الشيخ طاهر اللاَّهُوري ـ الذي أصبح فيما بعدُ من أجلَّة خُلفاء الإمام ـ والشيخ حاجي محمد ، والشيخ جَمال الدين التلوي ، وانخَرطوا في سِلك مريديه ، فكانت تُقام هناك حَلقات الذكر ، ومَجالسُ المُذاكرة ، والوعظ والإرشاد [٢] .

كَان الإمام في (لاهور) إذ سَمع بنبأ وفاة الشيخ ، فتأثَّر بذلك تأثُّراً شديداً ، ويمَّم شطر دهلي في حالة اضطرارية وفي توجُّع واضطراب ، وكانت «سرهند» تقع في الطريق ، ولكن لم يُعرِّج عليها ولم يَدخل البيت ، ووَصل إلى دهلي ، وزار ضريح الشيخ ، وذهب إلى أبناء الشيخ وزملائه في الطريقة فعزَّاهم ، ودعا لهم بالصبر الجميل ، وعزَم على الإقامة ـ لأيام ـ نزولاً على رغبتهم وتَسلية لخواطرهم ، فعادت الحياة والنشاط إلى تلك المجالس التربوية التي أقفَرت وأوحشت من بعد وفاة الشيخ ، وانشرحتِ الصُّدور الكئيبة ، وانتعشتِ القلوب الجريحة [٣] .

ورَجع إلى (سَرهند) بعد أن مكث في (دهلي) أياماً قليلة ، ثم لم يَتَّفق له السفر إلى دهلي إلاَّ مرة ، وإلى آكره مرتين ، ومرَّ في آخر عُمره بعدد من المدن والقرى حينما رافق العسكر الملكيَّ لثلاث سنين ـ كما سيأتي ذكره قريباً ـ فتلقَّاه

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق: ص١٥٨ .
(٣) المصدر السابق: ص١٥٨ .

أهلُها بالحب والتكريم ، واستفاد من صُحبته الطالبون والسالكون (١) .

التَّنظيماتُ الواسعة للدَّعوة والتبليغ، والتربية والإرشاد وتَهافتُ الطالبين عليه من كل مكان:

بَعث الإمام السَّرهندي عام ١٠٢٦هـ عدداً كبيراً من خُلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد ، فبَعث سبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى تركستان ، وأربعينَ شخصاً في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز ، واليمن ، والروم ، والشام ، وعَشرة أشخاص من كبار المسؤولين وأرقى السالكين تحت قيادة الشيخ أحمد البركي إلى تُوران ، وبَدَخْشَان ، وخُراسان ، ولقي هؤلاء الخلفاء في المناطق التي وُكِّلت إليهم نجاحاً كبيراً ، واهتدى على أيديهم خَلقٌ كثير ، وعَمَّت الناسَ الإفادةُ والتذكير (٢) .

وضَرب كثيرٌ من العلماء والمشايخ المحترمين المبجَّلين في مناطقهم وأوطانهم؛ أكبادَ الإبل ، وتحمَّلوا وعورة الطريق ، وعوائقَ السفر في الوصول إلى سرهند ، حيث بايعوا الإمام واستفادوا من تربيته وصُحبته ، نخُصُّ بالذكر منهم الشيخ طاهر البدخشي ـ معتمد سلطان بدخشان ، وكاتبه الخاص ، وأمين سره ـ والعالمَ الفاضل الشيخ عبد الحق شَاذْمَانِيٌ ، والشيخ صالح الكُوْلَابِيّ ، والشيخ أحمد البرسي ، والشيخ يار محمد ، والشيخ يوسف من طالقان ، وقد شَرَّف الإمام معظم هؤلاء العلماء بالخلافة والإجازة ، وأمَرهم بالعودة إلى مناطقهم والاشتغالِ بالدعوة والإرشاد .

ونَصب في مُختلف أنحاءِ الهند كذلكَ تلامذتَه وخلفاءه ، فَبعث الشيخ مِير محمد نعمان بعد استخلافه وإجازته إلى (دَكَن) ، وكان يَحضُر في زاويته مئات من المشاة والركبان ، للذِّكر والمراقبة ، واستخلفَ الشيخ بديع الدين

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٩ .

(٢) الروضة القيومية: ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

السَّهَارَنْبُوْرِيّ ، ووَجَّهه ـ أولاً ـ إلى (سَهَارَنْبُوْر) ، ثم أَمره بالإقامة في المعسكر الملكي بآكْرَهْ حيث تم له القبول ، وألهَم الناس حُبَّه وإجلاله ، فدخل كثيرٌ من أعضاء الدولة في حلقة مسترشديه ومريديه؛ وتابَ على يديه آلاف من العسكريين ، وكان الزِّحام يبلغ كل يوم إلى حد يتعسَّر فيه على الأمراء والأعيان زيارة الشيخ .

وجدَّد بيعة الشيخ مير محمد نعمان الكشمي ـ الذي كان من خلفاء الشيخ عبد الباقي ـ وأجازَه ، وأَنفذه إلى برهان بور ، حيث أَصبحَ مرجع الطالبين المسترشدين ، وصَلُحت أحوال كثير من الناس ، وعمَّت التوبة والإقلاع عن المعاصي .

ويَعث الشيخ طاهر اللاهوري لإرشاد طلاب المعرفة ، وإرواء ظمأى اليقين في مدينة لاهور ـ التي كانت مركزاً سياسياً وعلمياً بعد دهلي ـ وعم النفع والإفادة في تلك البقعة .

وأجاز الشيخ نور محمد البتني وبعثه إلى مدينة «بَتْنَهْ» حيث بدأت بجهوده سلسلة التربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة والإرشاد ، والدعوة ، وبَعثه إلى بِنْغَالَه .

ويعث الشيخ طاهر البدخشي بعد استكماله للدورة التربوية؛ وأجازه في التدريس وتعليم الطريقة إلى (جَوْنبُوْر) ، ووجَّه الشيخ أحمد البَركي بعد إجازته في التعليم والتربية إلى «بَرك» حيث عكف على الدرس والإفادة والإرشاد والتربية ، وداوم على إعلام الشيخ ـ عن طريق المراسلة ـ بأحوالِ مُريديه وطالبيه .

وكان الشيخُ عبد الحي من سكان «حصار شادمان» (في منطقة أصفهان) ، وهو الذي قام بجَمع وترتيب المجموعة الثانية من الرسائل؛ أجازه الشيخ في التربية والتعليم ، ووجَّهه إلى مدينة «بَتْنَهْ» ، فكان الشيخ عبد الحي يروي الظمآن ويُصدره ريَّان في وسط المدينة .

وكان الشيخ نور محمد على شاطىء نهر كنكا يُفجِّر عيونَ الهداية والتربية والإفادة.

وكان الشيخ حسن البركي يتولَّى في وطنه بأمر الشيخ نَشرَ السنة وتعليم الطريقة المَرْضِيَّة.

واستخلف السيدَ مُحبَّ الله المانكْبُوْرِي ، وبعثه إلى (مَانكْبُوْر) ، ثم أذن له بالإقامة في آباد.

وتشرَّف الشيخ كريم بابا حسن الأبدالي بعطفٍ خاص ولفتَات نافعة ، ثم عاد إلى الوطن.

وما انتهى عام ١٠٢٧هـ حتى تجاوز صيتُ الإمام في جلالة الشأن ، وتأثير التربية ، وقوة التوجيه والإرشاد ، إلى خارج البلاد ، وسُمع صداه فيما وراء الهند من بلاد بعيدة نائية ، وقَصده الناس من أقاصي العالم فُرادى وجماعات ، وزاروه وصحبوه ، واستفادوا من علمه وتربيته ، وكان كثيرٌ من خلفائه فيما وراء النهر ، وبدخشان ، وكَابُل ، والبلدان العجميَّة الأخرى ، وبَلغَ صِيتُه إلى البلدان العربية كذلك ، أما في الهند فلم تَبْقَ بُقعة من بقاعها إلاَّ وفيها خُلفاؤه وتلامذته ومُسترشدوه يدعون إلى الله ، ويُرشدون الحيارىٰ ، ويُربُّون الطالبين.

مَوقِفُ السُّلطان جَهَانكِير مع الإمام:

مَات جلال الدين (أكبر) سنة ١٠١٤هـ ، وخَلَفه على عرش المملكة ابنُه (نور الدين جَهَانْكِيْر) ، وقد كان ما أُصيب به الإسلام والمسلمون في عهد الملك (أكبر) من تَضييق الخناق ، وسَلبِ الحرية الإسلامية ، ومحاولةِ اجتثاث جُرثومة الإسلام ، وهَدم أساسه في قُوة وحماس تحتَ مؤامرة دقيقة مَحبوكة في هذه البلاد العظيمة ـ التي رُويت أرضها الطيبة وازدهرت بدماء الغزاة والفاتحين المسلمين ، وعَرق الدعاة والمصلحين ، ودموع الأولياء والصالحين ، ودعوات الضارعين المبتهلين ـ لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يجرح قلب الإمام المتوجِّع الحزين ، ويُثير غَيرته الإسلامية ، وحميَّته الدينية ، ويَقض مَضجعه ،

ولكنَّه لانصرافه أولاً إلى التربية والتهذيب ، والتكميل الباطني ، ثم إدراكهُ ثانياً أن الفِتنة في عنفوانها وسَوْرَتها ، وأنه لم يتوصل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السُّلطة ، وسياسة الدولة ، فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين وتوجيه الميول والنزعات إلى الإسلام ، لم ينهض بعمله التجديدي الإصلاحي بقوة ونشاط ، أو أنه بدأ هذا العمل ، ولكن لم يَنقلْ إلينا التاريخ شيئاً من تفاصيله ، وكلٌّ ما نعلم عنه في هذه الفترة أنه وجَّه رسائل موعظة وتذكير ، إلى كل من (خَانِ خَانَان) ، والسيد «صَدَرْ جَهَان» و«مرتضى خَان» ، وكان هؤلاء من المقرَّبين لدى السلطان والحائزين لثقته واهتمامه ، وكانتْ قلوبهم عامرة بحب الإمام وتقديره وإجلاله .

ولم يكن السلطان (جَهَانْكِيْر) موغَرَ الصدر يحمل تِرةً على الإسلام فحسب ، بل كان فيه نوعٌ من سلامة القلب ، وحُسن السيرة ورسوخ العقيدة ، ولم يكن يفكر إطلاقاً في تَنفيذ دين جديد ، وقانون جديد ، إنما كان منصرفاً مثل جَدِّه إلى الترف والبذخ ، وحَياة اللهو والأفراح ، واللَّيالي الملاح .

فلما رأى الإمام السَّرهندي سذاجَةَ السُّلطان في قضايا فِكرية وعقائدية صمَّمَ على أن يَنتهز هذه الفرصة ، ويَسعى لإزالة تِلك الآثار التي خلَّفَتْها في الهند حكومةُ «أكبر» السابقة ، وسوف نَتعرَّض لتفصيلها في باب مستقل .

ولكن صادفتْ قبل أن يَبدأ الإمام هذا العملَ الثوري العظيم ـ حادثةُ اعتقاله في «كَوَالِيَار» التي تُعتبر ـ لجوانبها العديدة ـ حادثة تاريخية مُهمةً لحياة الإمام وعهدِ الإصلاح والتجديد .

تَقول بَعضُ كُتب السِّير والتراجم أنه عُرضتْ على السلطان جهانكير محتويات تلك الرسائل التي كانت تتعلَّقُ بموضوعات التصوفِ الدقيقة ومصطلحاته الفنية ، التي لا تُفهم إلاَّ في ضوء غَرض الكاتب ومراميه ، والتي كانت من تلك المكاشفات والواردات القلبية التي تَعرِضُ للسالك في الطريق ،

وَيَجبُ عليه إعلام الشيخ المربِّي بها ، وإطلاعُه عليها [١] ، حتى يُدلي فيها برأيه ، ويوضِّح له ما أُبهم ، ويُرشده إلى سواء الطريق ، وحتى يعرف مدى تَقدُّمه واستعداده الباطني .

وكان السلطان (جهانكير) لا يعدو أن يكون مُسلماً ساذجاً سنِّي العقيدة لا يعرف شيئاً من مصطلحات «الكشف» و«العبور» و«الواقعة» و«الاستقرار» ، وتعلو على فهمه هذه الموضوعات ، فأبدى دهشته واستغرابه ، وظن أنَّها تُخالِف عقائد جمهور الأمة وجميعَ المسلمين من أهل السنَّة ، وحَملها على الدعاوي الباطلة ، والإعجاب بالنفس ، يتجلَّى هذا الاستغراب والدهشة بوضوح حيث ذكر هذه الحادثة في كتابه «توزك» وقد تناولَ فيه الإمامَ بأسلوب غير لائق متهكم ساخر؛ [٢] يدلُّ على أنه لا يعرف الإمام ومنزلته في الإسلام ، وأنه يَكتب بقلم السلطان ، المُغولي التُّوراني ـ الذي لا يعرف سوى عامة عقائد المسلمين ، ويَرى نفسه مسؤولاً عن حمايتها والحفاظ عليها ـ في غير تكلُّف وصناعة .

---

(١) انظر الرسالة رقم: ١١ من المجموعة الأولى إلى مرشده الشيخ عبد الباقي وقد وقع بعض العلماء الراسخين ـ أيضاً ـ عدا جهانكير، عند قراءة هذا المباحث في الاضطراب في أمرها، نخص منهم بالذكر محدث عصره وناشر علم الحديث في الهند، جامع الشريعة والطريقة، العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي، فقد بقي مدة طويلة متشككاً في أمر الإمام، وراسله أيضاً، ولكنه اقتنع ـ أخيراً ـ وانشرح صدره في ذلك، وأشار إليه في رسالة من رسائله، ويقول ابنه نور الحق: إنه قد ثبت لدينا ثبوتاً لايقبل الشك أن شخصاً يدعى حسن خان الذي كان من مريدي الإمام السرهندي، وجد عليه في شيء وذهب من عنده وتصرف في نسخة خطية لرسائل الإمام ـ كانت عنده ـ وحرف فيها تحريفات كثيرة ونشرها محرفة بين الناس في كل مكان، (مناقب العارفين) تأليف شاه محمد الفتحبوري الجشتي، ص ١٢٦ ويمكن أن تكون هذه الرسائل المحرفة سبب الخطأ في الفهم، والفتنة التي أثيرت حوله.

(٢) راجع «تورنك جهانكيري» ص٢٧٢ـ٢٧٣، حوادث عام ١٠٢٨هـ الموافق لسنة ١٤ من بداية الحكم، ويرجح بعض النقاد أن هذه السطور بقلم كاتبه الشيعي الذي يسجل بعض خواطره وانطباعاته واللفظ له.

وتكلَّم الناس في شأن الشيخ بديع الدين السَّهَارَنْبُوْرِيّ الذي حصل له النفوذ والقبول في عسكر السلطان ، وكثر تردُّده إلى أعيان الدولة ، فتحدَّث الناس في ذلك وبالغوا فيه ، وتوجَّسوا منه الخطر ، وذكروا للسلطان أن الإمام السَّرهندي يريد ـ عن طريق الشيخ بديع الدين ـ توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ، وإعداد خطة للثورة والخروج على السلطان ، ولم يأخذ الشيخُ بديع الدين في مواجهة هذه الإشاعاتِ بالحزم والحذر ، بل تحدَّث أمام الناس في سَورة حبه للإمام عن الكشوف ، والوقائع الغريبة ، التي لا تُسيغها عقول الخاصة الذين هم كالعامة؛ فكيف تدركها عقول العوامّ الذين هم كالأنعام ، والتي كانت ـ بطبيعتها ـ موضعَ بَحث وجدال وقيل وقال ، ولم يَعمل في مُخاطبتهم بهذه الوصية الذهبية «كلِّموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله»[(١)] ، ووقع الإمام بهذا السبب في المشكلة ، إذ كان السلطان (جهانكير) ليس مِن هذا العلم في عِير ولا نفير ، وكان الوُشاة في البلاط كثيرين ، ثم إن الإمام كان يُقاوم تأثيرِ التشيُّع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كلّه بعد دخول العنصر الإيراني في الهند ، وسيطرتهِ على البلاط ، وكان يدعو ـ علناً وجهاراً ـ إلى عقائد أهل السُّنة والجماعة ، فلا يُستغرب أن يكون الإيرانيون أصحاب الجاه والنفوذ في البلاط أرادوا أن ينتَهزوا الفرصة للإيقاع بالإمام ، وزَادت خُطورة هذه القضية بعد أن صُبغت بالصِّبغة السياسية ، وعَزم السلطان (جهانكير) إلى اتخاذ إجراء في هذا الموضوع.

لقد كان الإمام ـ في هذا العهد ـ بتربيته وإرشاده كالشمس في رابعة النهار ، وقد طبَّقَ صيتهُ الآفاق ، وبلغ اشتغاله بحركة الإصلاح والتجديد أَوْجَهُ ، ووُضع له القبول في القلوب ، ولعل وراء هذا الابتلاء والمحنة في ذروة المجد وعز الشياخة والإرشاد ، كانت حِكمة الله ـ عز وجل ـ تُريد له السلوك في مقامات العُبودية الضارعة ، لِيصل إلى تلك المعارج الروحية ، ومَراتب

---

(١) الجملة مأثورة عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

الربانية ، التي لا يمكن إدراكُها من غَير هذه الابتلاءات والمحن ، ومجاهدة الهوى والنفس.

أسبابُ اعتِقاله في كَوَالِيَار:

هذا ما ذُكر في عامة كتب التاريخ والتراجم من سَبب اعتقال الإمام ، وَفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة «كواليار» ، وأنه يرجع إلى المحتويات الدقيقة ، ومضامين المكاشفات والمشاهدات ، والطريقة والسلوك العميقة التي تدلُّ على عظمته وجلالة شأنه ، وتَفوُّقه على كثير من ربَّانيي هذه الأمة ، ومَشايخها المصلحين ، واشتملت عليها رسالته الموجَّهة إلى شيخه خواجه عبد الباقي.

ولكنَّ المؤلِّف يَشكُّ في أن هذه المحنة وقعتْ بسبب سوء فَهمٍ لبعض المعاني ، وخطأ في توجيه بعض العبارات ، وأن السبب العامل وراءَها يرجع إلى حمية السلطان (جهانكير) الدينية ، وغيرتِه على الإسلام ، وذَبِّه عن عقائد أهل السنة ، وصيانتها من التحريف ، أو أنه اتخَّذ هذا الإجراء تحتَ ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ ـ في عهده ـ ذوي الوجاهة والنفوذ في بلاطه ، ولِشدَّة إلحاحهم عليه.

ولكن (جهانكير) لم يكن في يوم من الأيام صاحبَ هذه النفسية الدينية ، ولم يكن له مِن ذكاء الحسِّ ، ودِقة الشعور في هذه المسألة التي تعلو على مداركه ، ولا تتعلق بأمور دولته وسُلطته وسياسته في البلاد ، ما يُثيره على شَخصية دينية مُحترمة ظلت مرجعَ الناس ومركَز حُبِّهم وإعجابِهم وإجلالهم ، ويتَّخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير.

فقد كان الشيخ محمد غـوث الكَوَالِيَـارِي ـ في عَهـد جدِّه ووالـده ـ ادَّعى أنه عُرِج بـه إلى السماء كمعراج الرسول ﷺ وأحدثَ هذا الادعاءُ اضطراباً

واستنكـاراً في العلماء [١]، وصدرت الفتاوى ببدعتـه وتكفيره ، ولكن لم يحرك ذلك من الملك (هِمَايُـون) والملك (أكبر) ساكناً، ولـم يَتَّخذ أيّما إجراء.

وقد ادَّعى في نفس عهد السلطان (جهانكير) عددٌ من المشائخ وصولَهم إلى آخر حدود «وحدة الوجود» من «العينية» و«المساواة» ، وأعلنوا هذه الدعاوي على مشـاهد النـاس ، وألَّف الشيـخ مُحِبُّ الله الإله آبادي (م١٠٥٨هـ) في عهد هذا السلطان نفسه كتابه «التسوية» بالعربية ، وشرَحها بالفارسيـة ، ولكن لم يعرهـا السلطان أي اهتمام ، ولم يَقِفْ منها موقف المتَّهم المعـاقب ، ثم لاينبغـي أن يَغيب عن البـال أن الرسالـة رقم: ١١ ، التي تدور حولها القصةُ ، وتتنازع فيها الآراء ، كتبها الإمام إلى شيخه عام ١٠١٢هـ وأن حادث الاعتقال وقع بعدَ ستة عشر عاماً من كتابة الرسالة سنة ١٠٢٨هـ.

ويرى المؤلِّف أن السَّبب الحقيقيَّ للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة وأمراءِ البلاط من علاقات خاصة ، وصِلات وثيقة ، وما كان من حبهم وإجلالهم له ، الأمر الذي يُوغر الصدور ، ويَكفي لاستثارةِ مثل هذا السلطان المُرهفِ الحِسِّ الذي خَرج على والده ، وأقام ضِدَّه ثورة قوية ، ونازل أبناءه ، واعتقلَ بعضهم حتى تمكن من عرش الدولة ، وتولى زمام البلاد ، ويُمكن إضافةً إلى ما تقدم أن يكون السُّلطان قد اطَّلع على تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التي كان يكتبها الإمامُ إلى أركان الدولة ، وأعضاء البلاط ، لإصلاح الحال ، وتوجيه الحكومة إلى حماية بَيضة الإسلام ، وإيقاظ الحَميَّة الدينية في قلوبهم.

ومنَ الأُمراء وأركانِ الدولة الذين وَجَّه إليهم الإمام رسائلَه : خان أعظم مِرْزا عزيز الدين ، وخَانِ جَهَان خـان الـلُّودِهي ، وخَانِ خَانَـان مِرْزا عبـد الرحيم قائـد قـواد الجيـش ، ومِرزا داراب ، وقليج خـان وغيرهم [٢].

---

(١) راجع للتفصيل المجلد الرابع من «نزهة الخواطر».

(٢) يؤيِّد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه في كتابه «توزك» إن خلفاء الشيخ (الإمام السرهندي) =

وما زال السَّلاطين المُغُول يتوجَّسون خِيفة من مغالاة الناس في اعتقادهم وحُبِّهم وإجلالهم للمشايخ ، والتفافِهم حولَهم ، وتَهافُتهم عليهم تَهافُتَ الفراش على النور ، حدثَ ذلك مع الشيخ الكبير السيد آدم البَنُّوري من كبار خلفاء الإمام السَّرهندي ، لما سافر إلى (لاهور) عام ١٠٥٢هـ ، كان يُرافقه في هذا السفر عشرة آلاف رجل من الأشراف والمشايخ والمسترشدين المحبين من مختلف الفئات والطبقات ، وكان الملك (شَاهْجَهَان) ـ آنذاك ـ في لاهور ، فأحسَّ بالخطر منه ، وعمِل في الخفاء من الأسباب والحيل التي أدت به إلى مُغادرة الهند ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين.

ولعلَّ (جهانكير) ـ لأجل ذلك ـ بعد رفع الإقامة الجبرية في قلعة كواليار ، أمره بمرافقته في عسكره لثلاث سنين ، في الظعن والإقامة ، حتى يتعرَّف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان المملكة ، ويطمئن إلى أنه لا خطر منه على السلطة والدولة ، وأنه لا يَستغلُّه أي عنصر معارض للدولة ، أو مغامر طامع للاستيلاء ، فلما اطمأنَّ خاطرهُ بما رأى من سيرة الإمام وسلوكه ، وشاهد إخلاصه ، وربانيته وإيثاره ، وبعده عن الطمع ، وسُموه في مكانته ، رأى بأم عينيه أن الإمام لا يُقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجَاهِها وسُلطانها أيَّ وَزنٍ ، ولاَ يلتفتُ إليها أيَّما التفاتة ، أذن له بالإقامة في سرهند كما يشاء.

الإقامة الجَبرية في قلعة (كَوَالِيَار):

وعلى كُل فقد طلب السلطانُ الإمامَ السَّرْهندي إلى مقرِّه وأكد على حاكم سَرهند أن يوجِّهه إليه كيفما استطاع ، فتوجَّه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطانُ مجيءَ الإمام، بعَث الأمراء والأعيان ليتقبلوه في الطريق، ونَصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبَه في البلاط

= يوجدون في كل مدينة وقرية (انظر ص ٢٧٢)، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال الشيخ «أن تهدأ ثائرة الناس» (انظر ص ٢٧٣).

للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأتِ من الآداب والتقاليد التي كان يَلتزِمُ بها الوافدون على السلطان ، فلفتَ بعض أبناء الدنيا ممن لا يخافُ الله ، نظرَ السلطان إلى أنَّ الإمام لم يُراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك [١] ، فسأله السلطان عن السبب، فقال: إنَّني لم أزل متقيِّداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله ﷺ، ولا أعرف غيرَ هذه الآداب ، فغَضب السلطان ، وقال: اسْجد لي [٢] ، فقال الإمام: ما سَجدتُ لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً ، فتغيَّظ السلطان وزاد غضبه ، وأمر بفرض الجبرية عليه في قلعة (كواليار)[٣] .

وكان (شَاهْجَهَان) ـ الذي كان يُكِنُّ للإمام الحبَّ والاحترام ـ بعث ـ قبل هذه الحادثة ـ العلامة أفضل خان ، والمفتي خواجه عبد الرحمن بالكتب الفقهية ، وبهذه الرسالة إلى الإمام ، أن الانحناء للسلاطين مُرخَّصٌ فيه في بعض الكتب الفقهية ، فلو فعلتَ ذلك أضمنُ لك بأنه لا يصيبك أي ضرر ، فقال الإمام: إنه مَحضُ رُخصة ، والعزيمة ألاَّ ينحني المسلم لغيرِ الله ، تَعظيماً وتقديساً [٤] .

وَقعت هذه الحادثةُ الأليمةُ في شهر ربيع الآخر عام ١٠٢٨هـ ، لأنَّ جهانكير ذكرها في حوادث هذا الشهر المذكور ، وقد صُودرت ـ بعد اعتقاله ـ كتبه وبستانه وبئره، ورباطه، وبيته الواسع الفسيح، ونقل أهله إلى مكان آخر.

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر، وكانت تعد من التأدب بالآداب الملوكية، وكانت على ثلاثة أصناف، أولها الكورنش، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطىء رأسه إلى الصدر، وثانيها التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس، وثالثها السجدة، كما يسجد في الصلاة («الهند في العهد الاسلامي» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، ص ٢٧٣).

(٢) حضرات القدس: ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٦.

(٤) توزك جهانكيري: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ورسالة الإمام رقم: ٢ من المجموعة الثالثة.

إحيـاء سُنَّة سيدنـا يوسف ـ عليه السلام ـ في سجن (كَوَاليَار):

لقد كانت هذه الإقامةُ الجبريةُ في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة، تسبب له الحب والقبول في الناس، وتزيده زكاء نفس، وسُموَّ روح، وإشراق باطن، فشمَّر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد في الدعوة والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]، مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران، وسُمع صداه في الخارج.

يذكر بعضُ المؤرِّخين أن آلافاً من السُّجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده، ودَعوته في الإسلام، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه، وبايعوه، وتمتَّعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان، يقول الدكتور آرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» (Preaching of Islam):

«كان في عهد السلطان (جهانكير) ـ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٨م ـ عالِمٌ سنيٌّ يدعى الشيخ أحمد المجدِّد، اشتُهر في عصره بالرَّد على العقائد الشيعية، وكان الشيعة ذوي نُفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سبَّبوا له الاعتقال فبَقي في المعتقل عامَين، واستمال في هذه المدة مئاتٍ من رفقته السُّجناء من غير المسلمين إلى الإسلام، فاعتنقوه» [١].

وجاء في دائرة معارف الأخلاق والديانات: (Encyclopedia of Religion and Ithics)

«يُحكى عن عالمٍ من علماء المسلمين يُسمَّى الشيخ أحمد المجدِّد ـ كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند، واعتُقل ظلماً ـ أنه أدخل مئاتٍ من غير

(١) ص ٤١٢. الطبعة الثالثة.

المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن ، في دين الإسلام»[١] .

لذائذ ومَواهب وَراء الأسلاك:

أمطر اللهُ شآبيبَ نِعمه ـ شأنه مع المخلصين الممتحَنين ـ على الإمام السجين ، وقد تحدَّثث نفسُه عما ناله من الرُّقي الباطني ، وانكسار النفس ، ولذَّة الحب والهيمان ، ومَشهد الخلوة في الجلوة ، في الرسائل التي كتبها إلى خواص أصحابه في لَذَّة ونشوة وسرور ، تحديثاً بالنعمة ، وذكراً لآلاء الله سبحانه .

يقول في رسالة طويلة وجَّهها من قلعة كواليار إلى الشيخ مِيْر محمد نعمان :

«أحمدُ الله الذي رزقني العافية في البلاء ، ورَفعني في الظُّلم والجفاء ، ولَطف بي في المشقة والعناء ، ووفَّقني للشكر في السَّراء والضَّراء ، وأدخلني في زُمرة المقتدين بالرُّسل والأنبياء ، والمُقتفين لآثار الأولياء والمُحبِّين للعلماء الأتقياء ، فرحَمة الله وبركاته على رُسله وأنبيائه أولاً ، وعلى أصحابهم وأتباعهم ثانياً»[٢] .

ويبدو أنه لمَّا ذاع خَبرُ اعتقال الإمام بأمر السلطان ، وانتشر في الناس بدؤوا يُعلِّقون على الحادث ويخوضون فيه ، ويُبالغون ويتزيَّدون ويخرصون ، فتألم من هذا الوضع المُحبُّون المريدون ، فيقول الإمام في رسالة كتبها إلى أحد المخلصين المُحبِّين الشيخ بديع الدين من السجن ، مع الإشارة إلى انتقاد الناس وملامهم :

«لمَّا وَصل هذا الفقير إلى القلعة بدأ يشعر من أوائل الأيام بأنَّ أنوار ملام الناس ، ونقدهم وشماتتهم ، تساق إليَّ في صورة السحب النورانية من المُدن والقرى ، بِشكل مستمر وترفع شأني من الضَّعة والهوان إلى السُّمو والعزَّة . ولقد قطعت مسافات بالتربية المتسمة باللطف و«الجمال» أعواماً وسِنين ، ويُسار بي

(١) ص ٧٤٨، المجلد الثامن.
(٢) الرسالة رقم: ٥، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة.

الآن في طريق التربية المتَّسمة بالشدة و«الجلال»، فينبغي أن تتمسَّك بمقام الصبر بل بمقام الشكر والرضا ، وتعرف أن «الجلال والجمال» إلفان لا يختلفان»[١].

وكان يُحرِّض أبناءه البررة من داخل السجن أيضاً على الصبر والشكر والرضا ، والسلوان ، والاشتغال بالدعاء والابتهال ، والذكر والتلاوة ، ونفي ما سوى الله ، والاهتمام بالدراسة ، وتزكية النفس ، والحِرص على الوصول إلى الكمال[٢].

وتُفيد بعض الروايات أنَّ اعتقال الإمام بغير حق شرعي كان له رَدُّ فعل على أصحاب العقيدة السُّنية الصحيحة من أمراء البلاط وأركان الدولة ، وكان عبد الرحيم خَانِ خَانَان ، وخان أعظم ، والسيد صدر جهان ، وخان جهان اللُّودهي ، وغيرهم متألِّمين من هذا الإجراء الذي أقدم عليه (جهانكير) ، وليست بين أيدينا وثائقُ من الكتب التاريخية التي ألفت في ذلك العهد تدلُّ على هذه الفوضى والاضطرابات ، كما يصعب علينا الجزم بأنه إلى أي مدى كانت صلتها بحادث اعتقال الإمام.

وعلى كل فإن السلطان ـ لسبب من الأسباب[٣] ـ نَدم على ما فرط منه ، أو رأى هذه المدَّة للحبس تكفي لتأديبه ، وأبدى رغبته في اللقاء ، فوجَّه إليه الدعوة للحضور في البلاط ، وبقي الإمام السَّرهندي في قلعة كواليار عاماً كاملاً، فلعلَّ الإفراج عنه كان في جمادى الآخرة عام ١٠٢٩هـ الموافق لمايو عام ١٦٢٠م.

---

(١) الرسالة رقم: ٦، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة.

(٢) الرسالة رقم: ٢، الجزء الثامن، المجموعة الثالثة، كتبها إلى الشيخ خواجه محمد سعيد، والشيخ خواجه محمد معصوم.

(٣) يقال إن الملك رأى النبيﷺ في المنام، يعض بأصبعه في أسف ويقول: «حبست هذا الإنسان العظيم يا جهانكير؟!».

الإمام في عَسكر السُّلطان ومَعيَّته ، وتأثيرُه الديني:

خَرج الإمامُ من القلعة في عزٍّ وإجلال واحترام ، وأقام بسَرْهِنْد لثلاثة أيام ، ثم توجَّه إلى عسكر السلطان ، حيث استقبله وليُّ عهده خُرَّم شَاهْ هَجَان بن جَهَانكِير الذي تولَّى المُلك بعده ، ورئيس الوزراء ، وأمره السلطان بأن يمكث في العسكر لعدة أيام ، فقبل هذه الدعوة ، وقد أفادت هذه المرافقة وأثَّرت في السلطان وأفراد العسكر ، يقول جهانكير في «توزك» :

«أعطيتُه الخلعة وألف روبية لنفقته ، وخيَّرته بين أن يذهب أو يبقى معنا ، فاختار مُرافقتنا والبقاء معنا» .

وقد كتب الإمامُ عن مرافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه ، يقول: أرى البقاء في العسكر ـ مع عدم الخيرة وقلة الرغبة ـ فُرصة طيبة ، وأفضِّل ساعةً واحدةً معهم على كثير من الساعات في أماكن أُخرى» [(١)] .

ويقول في رسالة أخرى :

«الحمدُ لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، إنّ الأوضاع والظروف التي أنا فيها تستوجب الحمد ، فنقضي ساعات طيبات في مجالس رائقة عجيبة ، ومذاكرة مفيدة ، ولا يجد الكسلُ والمداهنة ـ بفضل الله ورعايته ـ سبيلاً إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية» .

فمن توفيق الله سبحانه أنني أتكلَّم في هذه المجالس بنفس الأحاديث التي أتكلَّم بها في الخلوات الخاصة ، والمجالس المحدودة ، ويَحتاج ذكر مجلس واحد إلى كتاب مستقل» [(٢)] .

ويقول في رسالة أخرى عن مجلس مَلَكيٍّ عُقد في تلك الفترة :

«وصلت الرسالةُ الكريمة من الأبناء الأعزاء ، أحمد الله تعالى على الصحة

---

(١) الرسالة رقم: ٤٣ المجموعة الثالثة.
(٢) المصدر السابق: ١٠٦ ، المجموعة الثالثة.

والعافية ، أتحدَّث إليكم عن شيء جديد حصل اليوم ، فأصغوا إليه السمع ، حَضرتُ اليوم ليلة السبت في المجلس السلطاني ، ورَجعت بعد ساعة ، وسمعت ثلاثة أجزاء من القرآن ، وبعد ساعتين غلبني النوم» (١).

ويقول في رسالة كتبها إلى الشيخ خواجه حُسام الدين :

كلُّ من معي من الأصحاب والإخوان الأعزاء في سرور وطمأنينة ، لا تزال أحوالهم في رُقي وصُعود ، وكأن هذا المعسكر تحول بسببهم إلى رباط» (٢).

وبلغ الإمام السَّرهندي (لاَهُور) مع العسكر ، وارتحل من هُناك إلى (سرهند) ، وأقام في سرهند ضيافة كريمة على شرف السلطان ، وكان الإمام يرغب في الإقامة بسَرهند ، ولكن السلطان شَقَّ عليه مُفارقتُه ، فصحِبه إلى (دِهْلِي) ، ومنها إلى (بَنَارَس) ، ثم إلى أجمير حيث أقام بُرهة من الزمن.

التَّأثيرُ على جَهانكير:

ذكر بعضُ الكتب التي أُلفت ـ حديثاً ـ في حياة الإمام السرهندي أنَّ جهانكير كان يُحبُّ الإمام ويُجلُّه إجلالاً كبيراً ، وأنه بايَعه ، ودَخل في حلقة مريديه وطالبيه ، إلاَّ أنه لا توجد شواهد تاريخية على ذلك ، ثم إن الأسلوب الذي استخدمه جهانكير في ذكر الإمام والتعرُّض له في مواضع عديدة لا يُفيد ذلك ، ولا يدل عليه ، فإنه مهما كان في نشوة السلطة والقوة ، ومهما كان أسلوبه سُلطانياً عالياً ، يُستبعد جداً أن يَذكر الإمام بهذا الأسلوب.

ولكن لا يُمكننا أن نَجحدَ ما تَركتْ هذه المُرافقة من الأثر العميق في نفس جهانكير ، والفوائد التي اقتبسها منها ، فقد كان لمُرافقته دخلٌ كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه ، وعِنايتهِ بتعمير المساجد المُنهدمة من جديد ، وشغَفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة (كَانْكَرَه) من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر

(١) المصدر السابق : ٧٨ ، المجموعة الثالثة.

(٢) الرسالة رقم : ٧٢ المجموعة الثانية.

الإسلام فيها [1] يدلُّ على حدوث التحوّل ، والتقدُّم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غَيْضاً من فيضِ مُرافقةِ الإمام السرهندي وصحبته.

دُنُوُّ الأجل والاستعدادُ له:

يقول الشيخ خواجه محمد الكشمي: «كان عام ١٠٣٢هـ ، والإمام السَّرهندي مقيمٌ في (أَجْمِيْر) إذ قال يوماً: لقد قرُبت أيام السفر إلى الآخرة ، وكتب إلى أبنائه الكرام الذين كانوا في سرهند: «أيام انقراض العُمر قريبة والأبناء بعيدون» ، وما أن وصلت الرسالة إلى الأبناء البررة حتى قاموا وحضروا إلى أجمير ، فقال الإمام ـ ذات يوم ـ مخاطباً لابنيه الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد معصوم ، ولم يكن ثَمة أحد: ليست لي الآن أيُّ رغبة في الدنيا ، ولا التفات إليها ، ويَستولي على مشاعري التفكير في الدار الآخرة ، ويَبدو أنَّ السفر إليها قريبٌ» [2].

ولما رَجع الإمام من العسكر إلى سرهند أقام فيها عشرة أشهر وثمانية أو تسعة أيام ، ثم لما عاد من أجمير إلى سرهند ، ترك العلائق كلَّها ، وانقطع عن جميع الناس ، واختار العُزلة والخلوة ، فلم يكن يُؤذن بالدخول عليه إلاَّ لأبنائه ، واثنين من خواص خدمه وأصحابه ، وكان يخرج للصَّلوات الخمس والجُمعة فحسب ، ويَصرف جُلَّ أوقاته في الذكر والاستغفار ، والاشتغال بخاصة النفس ، فكان تفسيراً عملياً لقوله تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] .

واشتدَّ مرض ضيق النَّفس من مُنتصف شهر ذي الحجة ، وكان يَغلِبه البكاء وعندما يبلغ الضعف شدته ، يَلْهَج لسانه بقوله: اللهم الرفيق الأعلى.

ومَضت ـ أثناء هذا المرض ـ أيام بلَّ فيها قليلاً من مرضه ، فوجدتِ القلوب الجريحة الحزينة قليلاً من الراحة والسلوى ، وكان الإمام يقول في هذا الحال:

---

(١) انظر «توزك جهانكيري»، ص ٣٤٠، وراجع للتفصيل الباب السابع منه.

(٢) زبدة المقامات: ص ٢٨٢.

«إنَّ اللَّذة والبشاشة التي كنتُ أشعرُ بها في شدة المرض لا أشعر بها في هذا البرء لأيام قليلة» ، وأكثر عند ذلك من التصدُّق والإنفاق ، ثم قال اليوم الثاني عشر من شهر محرم: «نُبئت بأنه يُرحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة في ظرف خمسة وأربعين يوماً ، وأُريت مكان القبر».

ورأى أبناؤه ـ ذات يوم ـ أن الإمام في حال رقَّة وبكاء ، فاستفسروه عن السبب ، فقال: «شوق اللقاء» فقال الأبناءُ البررة: ما سبب انصرافكم عنا ، وعدمُ حُبِّكم لنا (على غير العادة الكريمة) قال: «اللهُ أحبُّ إليَّ منكُم».

ولمَّا كان ٢٢ من شهر صفر، قال للخدم والأقرباء: لقد تمَّ ـ هذه الليلة ـ أربعون يوماً فننتظر ماذا سيحدث في هذه الأيام السبعة أو الثمانية القادمة ، ثم جعل يتحدَّث عن نِعَم الله التي لا تُحصى ، وألطافه التي لا تُستقصى، وقسَّم جميع أثوابه وملابسه يوم ٢٣ صفر في الأصحاب والخدم ، ولم يكن على جسمه ثوب محشو بالقطن ، فأصيب بالبرد ، وعادت الحمى مرة ثانية [1] ، وكأنه أدَّى سُنة الرسول ﷺ في مَرضه الأخير أيضاً ، إذ أنه ﷺ مَرض مرة ثانية بعد بُرء قليل.

لقد كانت العلوم والمعارف الإلهية في هذا الضعف والوهن الشديد تنهمر عليه وتفيض ، قال له ابنه الشيخ محمد سعيد: تَشقُّ على حضرتكم في هذا الضعف البالغ الغاية هذه الأحاديث ، فلو أجَّلت بيان هذه الحقائق والمعارف السنيّة ، فقال: «يابني العزيز من يَضمن لي بالوقت حتى أُؤجّل بيان هذه المعاني؟»

والتزم الصلوات بالجماعات أثناء هذا الضعف المرهِق إلاَّ الأيام الأربعة أو الخمسة من أواخر أيام حياته ، صلَّى منفرداً بعد إلحاح شديد ، ولم يكن للكسل والتواني ـ رغم الوهن المضني ـ سبيلٌ إلى الاشتغال بالأدعية والأوراد

(١) لعلَّ ذلك كان شهر نوفمبر إذ أن الوفاة كانت في شهر ديسمبر، وهذا الشهر من فصل الشتاء في هذه المناطق.

المأثورة ، والذِّكر والمراقبة ، وكان يُراعي جميع آداب الشريعة والطريقة ، مراعاة تامة دقيقة ، قام ـ ذات ليلة ـ في الثلث الأخير وتوضأ ، ثم قام يتهجَّد ، وقال: «هذه آخر نافلة الليل» ، وهكذا كان.

وغلَبه الاستغراق والفناء قبل الوفاة بيسيرٍ ، وسأله الأبناء البررة: هل هذه الغيبة والاستغراق ناشىء من الضعف والوهن ، أو ناشىء من الاستغراق والانقطاع ؟ فقال: «ناشىء من الاستغراق ، وبين يدي حقائق وأمور» وكان يوصي في هذا الحال من الإرهاق والإعياء باتباع السنة ، واجتناب البدعة ، والمداومة على الذكر والمراقبة ، وكان يقول: يجب العضُّ على السُّنة بالنواجذ.

وقال أيضاً: إن صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدَّخر وُسعاً في النصيحة ، وإبلاغ الخير والدعوة إليه ، عملاً بقوله: «الدِّين النصيحة»[1] ، فيَجب اقتباس طريق المتابعة التامة ، والطاعة الكاملة للرسول ﷺ من الكتب الدينية المعتبرة ، والعضُّ عليها بالنواجذ.

وقال لزوجته: اتبعوا السنَّة في تكفيني ودفني ، ولا تتركوا شيئاً من السنة ، واشتري ثوب الكفن من مال صداقك ، وقال أيضاً: يجب أن تدفنوني في مكان مجهول ، فقال له أبناؤه: كُنتم أوصيتم ـ قبلُ ـ أن يكون قبر حضرتكم بجوار قبر أخينا الأكبر خواجه محمد صادق [2] ، وتُوصون الآن بغير ذلك ، فقال أجل إنني أجد فيَّ الآن الرغبة الشديدة إلى ذلك ، ولما رأى سكوتَ أبنائه عند سماع هذا القول منه ، وأنهم مُتردِّدون لا يُعجبهم ذلك ، قال لهم: إن لم تستطيعوا ذلك فادفنوني خارج المدينة بجوار الوالد الكريم ، أو في أيِّ مكان من البُستان ، وليَكن قبري غير مجصَّص ، حتى لا يبقى بعد مضي أيام عينٌ

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، برقم (٥٥)، والنَّسائي في كتاب البيعة ، باب النصيحة للإمام برقم (٤٢٠٢) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في النصيحة برقم (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري رضي الله عنه].

(٢) وهو ابن الإمام السرهندي الأكبر، مات ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ.

ولا أثر ، ثم نظر إلى الأبناء الذين غلبهم الهمُّ والتفكير ، وتبسَّم في وجوههم ، ثم قال: لكم الخيار ادفنوني حيث شئتم.

كان ليلة الثلاثاء ، اليوم التاسع والعشرون من صفر ، وكان اليوم المقبل يوم رحلته إلى دار القرار ، توجَّه إلى أصحابه وخَدَمه الذين سهروا على تمريضه وخدمته ، وقال: إنَّكُم تحمَّلتم مشاقَّ كثيرة ، وبقيت مَشقَّةُ ليلةٍ واحدة ، ثم الراحة والاستجمام ، ونَطَق في آخر الليل:

«أصبح ليلاً»: فلما أسفر الفجر دعا بالطِّست للبول ، ولم يكن في الطست رملٌ ، فردَّه خوفاً من إصابة رشاشاته ، وقال بعض الحاضرين: ينبغي أن يفحص الطبيب البول ، قال: لا أريد أن أنقض الوضوء ، أضجعوني على الفراش وكأنه بدا له ـ عند ذاك ـ أنَّ الرحيل قريب ، ولا يتَّسع الوقت لوضوء جديد ، فلما أضجعوه على الفراش ، وضع يده اليُمنى تحت خده الأيمن على طريق السُّنة واشتغل بالذكر ، فلما شاهد أبناؤه السرعة في التنفس ، سألوه: كيف حالكم؟ قال: نحن بخير ، وأنَّ الركعتين اللتين صليتُهما تكفيان ، ثم لم يتكلَّم بشيء ، سوى ذكر «اسم الذات» ، ولم يلبث أن فاضت روحه ، كان هذا الحادث ضحىً يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر عام ١٠٣٤هـ [١] ، وكان شهر صفر تسعة وعشرين يوماً ، وكان اليوم المقبل غُرة ربيع الأول إذ طارت النفس المطمئنة ، وأوت إلى ربها وخالقها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] ومات وله ثلاث وستون سنة [٢].

ولمَّا أرادوا غسله لاحظوا أنه قابض يده اليسرى بيده اليمنى ، وممسك بالإبهام والخنصر على المعصم كهيئة القيام في الصلاة ، وفرَّج الأبناء يديه بعد الوفاة ، ولكنْ شهد الناس أنهما عادتا مكانهما كهيئة الصلاة ، ودامت هذه

(١) الموافق ١٠ ديسمبر عام ١٦٢٤م.

(٢) وتوصَّل الشيخ أبو الحسن زيد في تحقيقه إلى أن عمره بحساب التقويم الهلالي، اثنان وستون عاماً وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وبحساب التقويم الشمسي ستون عاماً وستة أشهر وخمسة أيام (انظر «الإمام المجدِّد وناقدوه» ص ٢٢).

الهيئة إلى ما بعد التَّكفين والدفن ، وكانت تبدو على شفتيه بسمة حانية وكان كما قال الشاعر:

وَلَـدَتْـكَ أمُّـكَ يَـابْـنَ آدم بَـاكيـاً والنَّـاسُ حـولَـك يَضحَكـون سُـرورا
فـاجْهَـد لِنفْسـك أنْ تكـون إذا بَكَـوْا في يَـوْم مَوْتِـكَ ، ضَاحِكـاً مَسـرورا

وكُلَّما حاولوا أن يَفكُّوا يديه ، ويُفرجوا بينهما ، عادتا إلى مكانهما من الصلاة ، وكُفن على طريقة السنة ، وصلَّى عليه ابنهُ الكبير الشيخ محمد سعيد ، وحُمل النعش إلى مَرْقَده الدائم [١].

عاداتُه وشَمائِلُه:

سَجَّل الشيخ محمد الكشمي ـ الذي رافق الإمام وقام بخدمته في السَّفر والحَضر في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته ـ تفاصيل عن عاداته وبرامجه [٢] ، أقدِّم خلاصتها فيما يلي مع بعض الزيادات من «حضرات القدس» للشيخ بدر الدين السَّرهندي:

«سمعتُ الشيخ غير مرة ـ يقول: ما قيمة عملنا وجهودنا؟ كلّ ذلك من فضل الله ـ سبحانه ـ وإذا كان هناك ما يعتمد عليه ، فهي طاعة سيِّد الأولين والآخرين ، ومتابعتُه ﷺ هي القُطب الذي تدور حوله الأعمال ، وكل ما أعطى الله ورزق عباده ، فمن طريق اتِّباعه والاهتداء بهديه ، وكل ما حرمناه ، جزءاً أو كلاًّ ، فسببه التقصير وفتور الهمة في الاتباع بحكم البشرية.

وقال يوماً: دَخلت المرحاض يوماً فبدأت برجلي اليمنى سهواً ، فحُرمت كثيراً من الأحوال والمقامات ذلك اليوم.

وقال يوماً لصالح الختلاني: هات عدداً من القُرنفل من كيسي ، فذهب وجاء بِست حبّاتٍ من القرنفل ، فأبدى استياءه وغضبه ، وقال: لا يَعرف هذا

---

(١) من «زبدة المقامات» ص ٢٥٦ ـ ٣٠٠ بتلخيص.
(٢) انظر المصدر السابق: ص ١٩٢ ـ ٢١٥.

الصُّوفي أنه جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى وِتْرٌ يحبُّ الوترَ»[1][2]، فتُستَحبُّ مراعاة الوتر، ماذا يعتقد الناس في «المستحبات» لو وهبت الدنيا والآخرة لإنسان كِفاء عمل يستحبُّه الله ويرضاه، لما كان لهما قيمة.

يقول بعض خَدَمه: سألتُ الشيخ محمَّد بن فضل الله، ماذا شاهدت في سرهند؟ حدثنا عنها قليلاً، فقال: ماذا يشاهد مثلي قاصر النظر، عديم البصيرة! إلاَّ أنني رأيت شدة تمسُّك بالسنة، وعظيمَ اهتمام بها، فكان لا يترك سُنَّة مأثورة من السُّنن في صغير وكبير، ودقيقٍ وجليل، ولا أظنُّه بالأمر الميسور لكل أحد.

ويقولُ بعض أصحابه جالسوه طويلاً: إنَّ أحوال هؤلاء وكيفياتهم القلبية تعلو على مداركنا، إلاَّ أنني أستطيع أن أقول: لقد توثَّق إيماني وتصديقي بمُشاهدة أحوالهم ومجاهداتهم بما حكي عن الأولياء المتقدِّمين والربَّانيين السابقين، وعلمت أنها خالية من المبالغة والمغالاة، بل شعرتُ بأن المؤلِّفين قصَّروا ولم يكتبُوا كل ما رأوا، وهكذا كنا نقضي طول النهار في مُشاهدة الأحوال العجيبة.

ويقول خادمه الخاص ـ الذي كان صاحب أدواته ـ: ما كنتُ أجِد فسحة من الوقت إلاَّ عند قيلولته، وفي الثلث الثاني من الليل، وكان كثيراً ما يأمر أصحابه بدوام الذكر، والاستحضار والمراقبة، ويقول: هذه الدنيا دار العمل، ومزرعة للآخرة، فينبغي الجمعُ بين استحضار القلب وذكره، وبين الأعمال الظاهرة والآداب الشرعية، وكانت تتورَّم قدما الرسول ﷺ في

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى...، برقم (٢٦٧٧)، وأبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الوتر، برقم (١٤١٦)، والترمذي في أبواب الوتر، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم، برقم (٤٥٣)، وابن ماجه في إقامة الصلوات، باب ما جاء في الوتر، برقم (١١٦٩) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) [الوتر: بكسر الواو والفتح: الفرد. «يحبُّ الوترَ» أي يُثيب عليه، ويَقْبَله مِن عامله].

الصلاة ، مع كونه حبيب رب العالمين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين.

ورغم أن الإمام كان مُستحضراً للمتون والمسائل الفقهية ، صاحب ملكة راسخة في أصول الفقه ، إلا أنه كان ـ لاحتياطه وورعه في الدين ـ يراجع الكتب المعتبرة في الفتاوى ، ويصطحبُها معه في السفر والحضر ، ويعمل بما أفتى به كبار الفقهاء ورجحوه ، وكان يؤمُّ بنفسه ـ غالب الأحيان ـ في الصلاة ، وقد أشار ـ ذات يوم ـ إلى الحكمة في تقدُّمه وإمامته :

«إنَّه لا تصحُّ الصلاة عند السادة الشافعية والمالكية بدون قراءة الفاتحة، فيقرؤونها خلف الإمام، وتدلُّ على ذلك أحاديث كثيرة صريحة، ولكن لا تجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام عند إمامنا أبي حنيفة ، والمذهب على ذلك عند جمهور الفقهاء الحنفية ، ولما كنت أُحاوِل التطبيق والجمع بين هذه المذاهب ، فأرى من المُستحسن أن أؤُمَّ الناس في الصلاة»[1].

كان مِن عادة الإمام أن يقوم ـ سواء كان في السفر أو في الحضر ـ أو الشتاء أو الصيف ـ في النصف الأخير من الليل ، وأحياناً في الثلث الأخير منه ، فيذكر الله تعالى ، ويدعو بالدَّعوات المأثورة في هذا الوقت ، ثم يتوضَّأ بنفسه ويُسبغ الوضوء ، ولا يسمح لأحد أن يُهريق عليه الماء ، ويستقبل القبلة عند الوضوء ، إلا أنه حين يغسل الرجل يُوجهها شمالاً أو جنوباً ، وكان يُحافظ على السواك ، ثم يقرأ الأذكار والدعوات الواردة في الحديث ، ويُطيل القراءة والقيام في النوافل بحضور قلب وجمعية خاطر.

وحين ينصرف من التطوع ، يتوجَّه إلى المراقبة في خشوع واستغراق ، ويضطجع قليلاً قبل الفجر في البيت ، ويقرأ بين صلاتي السنة والفريضة سراً «سبحان الله وبحمده ، سُبحان الله العظيم».

وكان يصلِّي الفجر في آخر وقت الغلس وأول وقت الإسفار حتى يجمع بين

---

(١) وقد ذكر الشيخ محمد الكشمي في موضع آخر من هذا الفصل: «إن الإمام كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام، ويستحب ذلك» ص ٢٠٩.

المذهبين في ترجيح الغلس أو الإسفار ، ويَؤمُّ بنفسه في هذه الصلاة ، ويقرأ الطِّوال [١] ، كما ثبت في الحديث [٢] .

ثم يجلس من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس في الحلقة ، ثم يتطوّع عند الإشراق يُطيل فيها القراءة ، ويشتغل بالأوراد والأذكار حتى ينتهي منها فيأتي البيت ويتعهَّد الأهل والعيال ، ويُعطي تعليماته وإرشاداته في الأمور البيتية اليومية ، ثم يذهب إلى الخلوة ، وينهمك في تلاوة القرآن انهماكاً تاماً .

ويَطلب بعد الفراغ من التلاوة المُريدين والمسترشدين ، ويسألهم عن أحوالهم وشؤونهم ، ويُرشدهم فيها ، ويَطلبُ في نفس الوقت خواصَّ أصحابه وتلامذته ويُفيدهم بالعلوم والحقائق والمعارف العالية ، ويتَوجَّه بقلبه إليهم ، ويُخبرونه بأحوالهم وكيفياتهم فيؤكِّد عليهم بدوام الاستحضار ، وستر الحال ، واتِّباع السنة ، وعُلوِّ الهمة .

قال ـ مرة ـ في سياق الحديث عن عظمة كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجلالها : «الكون كلُّه إزاء هذه الكلمة أقل شأناً من قطرة إزاء بحر محيط» .

وكان يُحرض المريدين والأصحاب على مُطالعة كُتب الفقه ودراستها ، ويُرغبهم في الرجوع إلى العلماء ، وسؤالهم عن الأحكام الشرعية .

وكان يقول : «يتجلَّى في الكشف أنَّ العالم بأسره غريق في لُجَّة البِدَع والخُرافات المظلمة ، وأن نور السنَّة ـ في وسط هذه الظلمة ـ يتلألأ تلألؤ اليراعة في الليلة الظلماء» .

وكان شديد الكراهية والمُجانبة للغيبة وعيبِ المسلمين ، ولم يكن الخدم والمسترشدون يتجرَّؤون لوقاره ومَهابته على أن يغتابوا أحداً في مجلسه .

وكان يَسترُ أحواله وكيفياته الباطنية غاية الستر ، ما رأيتُه في مدة عامين إلا ثلاث أو أربع مرات ، دمعت عيناه وفاضت العبرات ، وانحدَرت على الوجه

---

(١) وهي من سورة الحجرات إلى سورة البروج .
(٢) حضرات القدس : ص ٨٢ .

المنوَّر ، كما رأيته ثلاث أو أربع مرات احمرَّت وَجنتاه وعيناه أثناء التذكر ، وبيانِ المعارف الجليلة.

وكان يَدخل البيت بعد صلاة الضحى ، والضَّحوة الكبرى ، ويتناول الغداء مع الأهل والعِيال ، وإذا أعد أحد من أبنائه أو أصدقائه ومعارفه شيئاً يأتي به إليه، وإذا غاب بعض أبنائه أو خدمه في ذلك الوقت ، يَحفظ له نصيبه ، وكان اهتمامه بالإطعام أثناء الطعام أكثر من عنايته بأكله ، فيتعهَّد غيره ، ويُكرمه ، ويُقدم إليه ما يرغب فيه ، ويتناول أحياناً ما يسدُّ الرمق ، ويُقيم الصُّلب ، حتى ليُخيل إلى الناظرين أنه لا حاجة له إلى الطعام ولكنَّه يُريد اتِّباع السنَّة [١] .

وفي الأيام الأخيرة من حياته لما اعتزل الناس وعكف على العبادة ، وأكثر من الصيام ، كان يتناول الطعام في الخلوة ، ولم يكن يقرأ الفاتحة بعد الطعام ـ كما هو التقليد المتَّبع عند بعض المشايخ وكثير من العوام ـ لأنه لم ترِدْ به أحاديث صالحة للاحتجاج ، كما لم يكن يقرأ الفاتحة بعد الصلوات المكتوبات ـ كما هي العادة السائدة عند بعض المشايخ.

ويَقيل بعد تناول الغداء عملاً بالسنَّة ، ويُؤذن المؤذِّن في أول وقت الظهر ، فيقوم ويتوضأ ، ثم يتطوع ، ويسمع بعد صلاة الظهر جزءاً من القرآن الحكيم ، أو أقل أو أكثر من حافظ للقرآن ، وإذا كان يوم درس يدرس ، ويصلي العصر إذا كان ظلُّ كل شيء مثليه ، ثم يبقى من بعد العصر إلى المغرب مع أصحابه ومريديه في صمت ومراقبة ، ويتوجَّه إلى كيفيات المريدين وأحوالهم الباطنية ، ويُصلي بعد صلاة المغرب ركعتي السنة ، وصلاة الأوابين ، أربع ركعات حيناً ، وست ركعات حيناً آخر ، ويُصلي العشاء بعد زوال الشَّفق الأبيض مباشرة ، وكان يجمع في صلاة الوتر بين قُنوت الحنفية وقنوت الشافعية ، ويُصلِّي بعد الوتر ركعتين تارة جلوساً وأخرى قياماً ، ولم يُصلِّ هاتين الركعتين في أواخر أيامه إلاَّ قليلاً نادراً ، وما عهدت عنه سجدتان بعد الوتر ، كما هي عادةٌ معروفة بين الناس.

---

(١) حضرات القدس: ص ٨٧.

وكان يَعْتَكِفُ في العشر الأواخر من رمضان ، ولا يتأخَّر بعد العشاء والوتر في النوم ، فيأوي إلى الفراش ، ويدعو بالدعوات المأثورة ، وكان يُكثر من الصلاة على النبي ﷺ وبخاصة ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة الإثنين ويوم الإثنين .

وكان يُخيل للناظر إليه ـ عند تلاوته للقرآن الكريم من قسمات وجهه ، وأسلوب ترتيله ـ أنَّ الأسرار القرآنية تنكشف عليه ، وبركات الآيات تنزَّل عليه ، وسكينتَها تغشاه ، وكان إذا مرَّ بآية عذاب في الصلاة أو خارج الصلاة ، يتغيَّر لونه ، وإذا مرَّ بآية فيها تعجيبٌ واستفهام يظهر عليه أثره في لحنه وصوته ، يُراعي جميع السُّنن والآداب والمستحبات في الصلاة .

ويَهتمُّ بالتطوع بعد الوضوء ، وعند دخول المسجد ، ولم يكن يؤدِّي نوافل الصلوات بالجماعة غير صلاة التراويح ، وكان ينهى الناس عن الاجتماع للصلاة النافلة الليلة العاشرة من محرم ، أو ليلة القدر .

كان يَخرُج لعيادة المرضى ، يدعو لهم بالدعوات المأثورة في مثل ذلك ، ويخرجُ لزيارة القبور ، وكان يُلقي دروساً في بعض الكتب الدينية العالية مثل «تفسير البيضاوي» ، و«صحيح البخاري» و«مشكاة المصابيح» ، ويدرِّس في علم الفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، و«هداية الفقه» للمرغيناني ، و«أصول البزدوي» و«المواقف» ، ويدرس في التصوُّف : «عوارف المعارف» ، ولكن لم يكن في هذه الدروس نقاش وجدال ، وقيل وقال .

وقلَّ اشتغاله بالتدريس في الأيام الأخيرة ، وكان يُوجِّه الطلاب إلى تحصيل العلوم الدينية بتأكيد بالغ ، ويقدمها على تحصيل علم الطريقة والسلوك ، وكان يكثر من التحميد والاستغفار ، ويلهج بالشكر والثناء ويكثر منه ، على قليل من النعمة والفضل .

كانت له عنايةٌ شديدةٌ بشهر رمضان ، يختم فيه القرآن ـ على الأقل ـ ثلاث مرات ، وكان يحفظُ القرآن عن ظهر غَيبه ، فكان يتلوه من غير نظر في غير

رمضان أيضاً ، كما يحضُر لسماعه في الحلقات والمجالس [١] ، وكان يُعجل الفطور ويؤخر السحور ـ عملاً بما جاء في السنة ـ ويَهتم بذلك اهتماماً كبيراً» [٢].

وكان شأنه في الزكاة أنه إذا جاءته هدية أو تحفة ، فلا يترقَّب حَولان الحول عليه ، بل يُؤدِّي الزكاة المفروضة في قيمة هذه الهدايا والنعم ، وكان يفضِّل عند توزيع الزكاة أهل الصلاح من الرجال ، والصالحات من الأيامىٰ وذوي قرباه.

وعَزم على الحج مراراً ، ولكن لم يتفق له تحقيق هذا العزم لموانع ، ودام له هذا الشوق والحنين ، ورحل من هذه الدار الفانية في هذا الشوق والحنين.

وكان غاية في التواضع ، ولين الجانب ، ودَماثة الخلق ، وحُسن العشرة والشفقة على الخلق ، مُتسنّماً ذروة الرضا ، والتوكل والتفويض ، أُوذي من أقربائه وأصدقائه وأحبابه ومن الحكام الجائرين ، إيذاءً شديداً ، ولكنَّه التزم جانب الرضا والتفويض ، وما تكلَّم لسانه بشيء ينم عن التبرُّم والشكوى ، وكان إذا زاره أحدٌ قام احتراماً وتكريماً له ، ويُجلسه في مكان بارز ، ويتحدَّث معه بما يناسب ذَوقه ونفسيَّته ، ولكنه لم يكن يَحترم غير المسلمين ويعظِّمهم وإن كانوا ولاة وأمراء ، وأصحاب السلطة والجاه ، وكان يبدأ بالسلام ، لا أذكر أحداً سبقه في البدء بالسلام ، وكان يراعي من له عليه حقٌّ غاية المراعاة ، وإذا نُعي إليه إنسان يتأثر ويحزن ويسترجع ، ويحضر جنازته ، ويدعو له ويُثيبه بالطاعات والقربات [٣].

كان لِباسه ثوباً يكون على كتفيه جيبان ، وعَباءةٌ فوقه ، ولكن يقتصر على الثوب وحده أيام الصيف ، وعمامة ينوطها على رأسه موافقة للسنة ، تقع

---

(١) زبدة المقامات: ص ١٩٢ ـ ٢١٥، باختصار وتلخيص، وما جاء في هذا الفصل من غيره، أحيل إليه في الهامش وهو قليل.
(٢) حضرات القدس: ص ٩١.
(٣) المصدر السابق: ص ٩١ ـ ٩٢، تأليف الشيخ بدر الدين السرهندي.

ذؤابتها على الظَّهر بين الكتفين ، وكان سِرْواله دائماً ـ إلاَّ في حالة قضاء الحاجة ـ فوق الكعبين ، وكان يلبس يوم الجمعة والعيدين لباساً فاخراً ، وإذا لبس ثوباً جديداً ، أعطى القديم لخادم ، أو قريب ، أو ضيف ، وكان يُقيم عنده ـ بصفةٍ دائمة ـ خمسون وستون بل زهاء مئة شخص من العلماء والعارفين والمشايخ وحفظة القرآن والأشراف ، وكان طعامهم ـ جميعاً ـ من مطبخه الخاص [١].

حِلْيَته وَصفتُه:

وَصَفه الشَّيخ بدرُ الدين السَّرهندي ـ الذي صحِبه سبعة عشر عاماً ، وكان من خلفائه ، في «حضرات القدس» بالوصف التالي:

«كان أسمر اللون ، ضارباً إلى البياض ، يَلمع على جَبينه وخدَّيه نُور يَخلُب الأبصار ، أزجُّ الحاجبين ، وكان حاجِبه مثلَ القوس مع طول ، أسود ، دقيقاً ، أنجل العينين ، موضع سوادهما غاية في السواد ، وموضع بياضهما غاية في البياض ، دقيق الأنف ، رقيق الشفتين في حمرة ، معتدل الفم ، متراصَّ الأسنان تفترُّ عن مثل اللؤلؤ المنظوم ، كَثَّ اللحية مع وقار ورزانة ، لحيته طويلة مربعة ، ولم تتجاوز شعراتها على خدَّيه أكثر من الحد الطبيعي ، متوسِّط القامة ، ناعم الجسم» [٢].

أبناؤه الأماثل:

رُزق الإمام السَّرهندي سبعة أبناء ، تُوفي اثنان منهما في الصغر في حياة الإمام ، وهما الشيخ محمد فرخ ، والشيخ محمد عيسى ، وكان الشيخ محمد أشرف مات في أيام الرضاعة ، وتُوفي ابنه الأكبر الشيخ محمد صادق بعد الفراغ من تحصيل العلوم الدينية والسلوك عام ١٠٢٥هـ ، وهو في الخامسة

---

(١) حضرات القدس: ص ٩٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٥.

والعشرين من عمره ، وبقي الثلاثة من أبنائه الأماثل الشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى أحياء ، تتجمَّل بهم هذه الأسرة العظيمة ، ويَحقُّ أن يسمَّى هؤلاء الأربعة السلسلة الذهبية ، والشُّموس المضيئة .

وكان الشيخ عبدُ الباقي أثنى عليهم ، ووصَفهم بصفاتٍ عالية ، ولقَّبهم بـ«الجواهر العلوية» وبـ«الشجرة الطيبة» ، وقال أيضاً فيهم : هؤلاء فُقراء على عتبة الله ، يحملون بين ضلوعهم قلوباً عجيبة .

وكان ابنُه الأول الشيخ محمد صادق قد بلغ الكمالَ ، وذُروة الإحسان في حياة والده ، وقد وصفه والده بصفات عظيمة ، تَدلُّ على عُلو استعداده الباطني ، وكماله الروحي ، وقال في رسالة له : «ابني العزيز جماعُ حقائق هذا العبد الضعيف ومعارفه ، وصحيفةُ مقامات الجذب والسلوك»[1] .

ووُلد الابن الثاني الشيخ محمد سعيد عام ١٠٠٥هـ ، وتوفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٠٧٠هـ ، وقد ساهم في نشر طريقة الإمام ، وتعليم الطالبين وإرشاد السالكين مُساهمة كبيرة[2] .

وكان الابن الثالث الشيخ محمد معصوم حامل علوم الوالد العظيم وشارح معارفه وحقائقه ، وخليفته وأمين سره ، وانتشرت على يديه الطريقة المجدِّدية انتشاراً عظيماً ، وأصبح تأثيرُها بفضله تأثيراً عالمياً شاملاً ، وعَمَّ نفعُها وخيرها ، حتى قال قائلٌ ، وأصاب فيما قال:

«الشَّيخ معصوم سراج الأقطار والبلدان ، أضاءت بفضله وبَركته الأرض من الهند إلى الرُّوم» .

فقد كانت زاوية (دِهْلِي) الشهيرة في العالم ، والتي كانت مأوى العرب والعجم ـ وتصدَّر فيها للتربية والإرشاد جُلة المشايخ الأفذاذ كالشيخ خواجه

(١) الرسالة رقم: ٢٧٧، وانظر للاطلاع على مناقبه وفضائله «زبدة المقامات» ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٢) راجع للاطلاع على حياته ومناقبه «زبدة المقامات» ص ٣٠٨ ـ ٣١٥.

سيف الدين ، والشيخ مِرْزَا مَظْهَر جَان جَانَان ، والشيخ غُلام علي ، والشيخ أحمد سعيد في عصورهم وأدوارهم ـ حلقةً من هذه السلسلة المجدِّدية ، ومن هناك حمل الشيخ خالد الرومي الكردي [١] هذه الطريقة بعد أن تلقَّنها وأخذها من الشيخ غلام علي إلى بلاد الشام وتركيا ، وانبثَّت منه عُروقها في العراق والشام ، وكردستان وتركيا ، وانتشرت في المُدن والقُرى ، والأسر والبيوت .

وإنَّ رسائل الشيخ محمد معصوم تَقوم بمثابة شرح وتفصيل لرسائل الإمام المجموعة في ثلاثة مجلَّدات ، وهي خزانة العلوم والمعارف ، والأسرار والدقائق ، وتحتاج سيرته ومناقبه إلى كتاب مستقل .

كانت ولادته ١١ شوال عام ١٠٠٧هـ ، وتوفي ٩ ربيع الأول عام ١٠٧٩هـ [٢] .

وكان الابن الرابع الشيخ محمد يحيى ، كان ابن تسع سنوات عند وفاة الإمام السَّرهندي ، أخذ العلوم على إخوته وتربى على أيديهم ، وتلقَّن الطريقة منهم ، وكانت وفاته عام ١٠٩٦هـ [٣] .

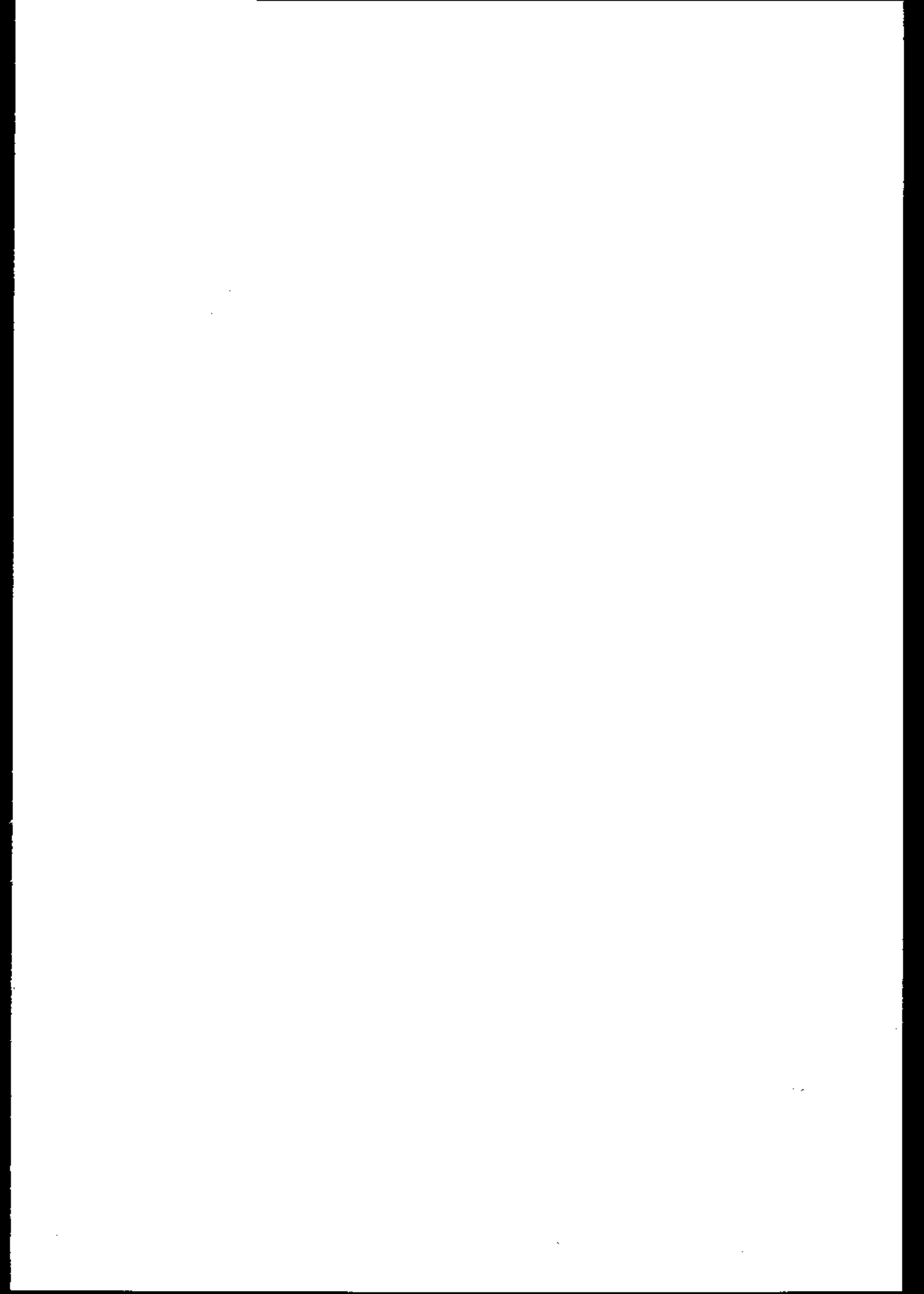
* * *

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً في الباب السابع .
(٢) تأتي ترجمته في آخر هذا الكتاب مقتبسة من كتاب «نزهة الخواطر» .
(٣) وكان الشيخ رؤوف أحمد ، وحفيده الشيخ أبو أحمد وابنه الشيخ محمد يعقوب ، مشايخ مدينة «بوفال» المعروفين ، من أعقاب الإمام السرهندي .

الباب الخامس

تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية نقطة تجديد الإمام السرهندي وإصلاحاته الأساسية



تجديد الإيمان وإعادة الثِّقة بالنبوّة المحمَّدية
نُقطة تجديد الإمام السَّرهندي
وإصلاحاته الأساسية

ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي؟

اتَّفق جميعُ العلماء المتبصِّرين والمؤرِّخين المنصفين ـ الذين لهم اطلاع واسع على التاريخ الإسلامي بصفة عامة والتاريخ الإسلامي في الهند بصفة خاصة [١] ـ على أنَّ الإمام السَّرهندي قام بالدور الرائع في الدفاع عن الدين الإسلامي ، وتقويته ، ونُصرته ، الذي صنع تاريخاً جديداً ، وبدأ عهداً جديداً ، والذي يسمَّىٰ في مصطلح الحديث المعروف البسيط «التجديد» [٢] ، الذي عرف به الإمام واشتهر اشتهاراً عظيماً حتىٰ غلب عليه لقب «المجدِّد» ، وظلَّ ينوب عن اسمه ، ولا نجد له مثالاً من قبل .

---

(١) وقد تناولناه بصورة إجمالية في البابين الأولين من هذا الكتاب .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المئة ، برقم (٤٢٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يُجدد لها دينها». راجع للتفصيل شروح كتب السنن. واقرأ في حكمة هذا الحديث، والحاجة إلى التجديد في أزمنة وأمكنة مختلفة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، المشتمل على فوائد كثيرة، في المجلَّد الثامن عشر من مجموع فتاواه، ص ٢٩٧ـ ٣٠٥.

فما هو هذا العمل التجديدي؟.

إنه تجلية الفكر الإسلامي ، وإنعاش الرُّوح الدينية ، ومقاومة الفِتَن الخطيرة المحدقة ، واستئصالها من جذورها ، وكسر طلاسم المحاولات الضالة ـ المؤسسة على الرياضات والمجاهدات ، والإشراق وصفاء الباطن ، والتجارب الروحية ـ لمعرفة الله تعالىٰ والوصول إليه ، التي كانت تعتمد على وسائلها وطُرقها الخاصة ، وتَستنكفُ عن اقتفاءِ سيدنا محمدﷺ واتِّباع سنته وهَدْيه ، ولا ترىٰ لزوماً لذلك.

وكَشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبِّسة بالوَحدة والاتحاد ، وقد بلَغا أَوْجَ التطرُّف والمغالاة ، وانتشرا في كثير من الأوساط وتلقَّاهما كثيرٌ من الناس بالقَبول ، وأحدثا رَجَّةً في المُعتقدات الدينية ، وهزَّة في المجتمعات الإسلامية ، وفوضىٰ في الخُلُق والدين.

وعَرضُ نظرية «وَحْدة الشهود» بدلاً من «وحدة الوجود» وتدعيمُها علمياً وعقلياً ، والتدليلُ عليها وتقديمها بصورة مُنظَّمة دقيقة ، والتشديدُ في الإنكار علىٰ البدع والخرافات ـ التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع ـ وتفنيدُها ، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة» وتثبيتُ أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند ، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال ، التي خلَّفها عهد (أكبر) المظلم.

والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية ، وتغييرٍ جذري عظيم ، كان من نتاجهما السلطان (محيي الدين أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر) سلطان الهند ، وصاحب الأمر والنهي فيها ، سياسياً وإدارياً ، وحكيم الإسلام ولي الله الدِّهلوي وخلفاؤه وتلامذته[1] الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية ـ رُوحياً وفكرياً ، وكان كل ذلك امتداد هذه الصحوة والحركة ، وهم

(١) [انظر: سيرته وجهوده في التجديد ونبذة عن خلفائه وتلامذته في الجزء الرابع من هذه السلسلة].

الذين بذلوا جهوداً جبّارة في نشر تعاليم الكتاب والسنَّة ، والدعوة إليهما بِعُلُوِّ هِمة ، وشرحهما وتبيينهما للناس.

وكانتْ جهودهم في الإفادة والتدريس ، وإنشاءِ المدارس الدينية ، والتزكية الروحية ، والتربية الباطنية ، وإصلاح العقائد ، والردِّ على البدع والتقاليد ، ثم جهادُهم ، واستماتتهم في سبيل الله وسَعيُهم لإعلاء كلمة الله ، وبفَضْلِ هذه الجهود بقيتْ شجرة الإسلام في الهند ، قائمة على ساقها ، ناضرة مخضرَّة ، بل حوَّلوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية (لا سيَّما علم الحديث الشريف) والفِكر الإسلامي ، والدعوة والإرشاد.

هذا كله صحيح ومقرَّر تاريخياً وعلمياً ولكن ما هي النقطة المركزية ، والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية ، والأعمال الإصلاحية العظيمة؟ وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة ، التي تحتضن هذه الجوانب كلها، وتُغذِّيها للناس ـ حسب ميولهم وأذواقهم ـ؟

إجابات مختلفة عن هذا السؤال الخطير:وللنّاس فيما يعشقون مذاهب:

وَتفرَّق الناس في الإجابة فِرقاً وأحزاباً ، نَخُصُّ ثلاث فِرَقٍ منها بالذكر فيما يلي:

١ ـ يقُول فريقٌ من هذه الفِرق: إن الإمام السَّرهندي يستحق وصفه بمجدِّد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام ، وحفِظَها من الارتماء في حضن البَرهمية ، وفلسفة «وحدة الأديان» ، ووجَّهها إلى لواء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسلَّمها لوصاية الإسلام وحمايته ، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السادس عشر الميلادي ـ ذلك المصير الذي صارت إليه في القرن الثالث عشر الهجري ـ القرن التاسع عشر الميلادي ـ.

بل الواقعُ أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خَطرِ الرّدة العَقائدية والفكرية والحضارية الشاملة ، التي ظهرتْ ـ بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة

النافذة والإرادة الحديدية كالملك (أكبر) ، ودَهاء مستشاريه النوابغ الأفذاذ كمُلاَّ مبارك ، وفيضي وأبي الفضل ـ واقعاً ملموساً يُحَسُّ بالبنان.

وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر وأدق ، وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة ، والانهيار السياسي ، الذي وقعت كارثته في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بقيام القِوىٰ غير الإسلامية الناهضة في الهند ، وسيطرة الإنكليز وتسلُّطهم في البلاد ، ولعلَّ الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة ، إذ قال في بيت من شعره ، يُشير إلى الإمام السَّرهندي:

«ذلك الحامي لِذمار الأمة الإسلامية في الهند ، الذي قيَّضه الله ـ في الحين المناسب ـ ونَصَّبه حارساً للدين القويم».

٢ ـ ويقول الفريق الثاني: إن عمله التجديدي يتركَّز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة ، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة ، في قوّة وإيضاح ، وثقة وبصيرة في ضَوء تجارب شخصية ، لم يُسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتىٰ تجلّىٰ لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة.

وأوقف بذلك تلك الفتنة الخَطيرة الناجمة في أوساط «السلوك والطريقة» التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحياناً ـ والانحراف عنها ـ أحياناً أخرىٰ ، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات ، والحواس الباطنة ، والتي كانت تستهدفُ أول ما تستهدف الهند ـ كونها مركزاً لليُوك والتنسُّكِ المُتطرِّف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بـ«أن الشريعة في واد ، والطريقة في واد ، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة».

٣ ـ ويرىٰ الفَريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية ، هي ضَرْبَتُه القاصمة على عقيدة «وحدة الوجود» ، وهَدْمُ فلسفتها من أساسِها بطريق لم يُسبَقْ إليه ، فسدَّ ذلك السيلَ العرم الذي كان يَجرف بالعقائد الصحيحة ، وحول تياره العنيف الذي اكتسحَ جميعَ الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة ، والذي كانتْ مُعارضتُه من عالمٍ مُثقَّف دليلاً على جهله ،

وإنكاراً لضوء الشمس في رائعة النهار ، ولقد أصاب العلاَّمة مناظر أحسن الكيلاني حيث قال في مقاله العظيم المثير بعنوان «المأثرة التجديدية للألف الثاني» :

«إنَّ مآثر السَّرْهندي الإصلاحية ، وأعماله التجديدية اختلطت بتدقيقات «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وبُحوثهما الفَلسَفيَّة الدقيقة والحروب الكلامية بين المشايخ والمتصوِّفة على الشريعة والطريقة ، وتحلَّلَت في هذه الضجَّة والغَوغاء بحيث لم يَعُدْ وصفُه بمجدِّد الألف الثاني إلاَّ تقليداً متَّبعاً للإجلال والتَّبجيل ، لا أن يكون مؤسساً على أمرٍ مهم خطير» (١) .

إعادةُ الثّقة والإيمان بحتميَّة النبوَّة المحمَّدية وخلود الرسالة الأخيرة:

ولكنَّ الواقع أنَّ عمله التجديدي الأساسيّ الذي تَدُورُ حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومَنبعه الأصيل الذي تتفجَّر من ينابيعه جميعُ مآثره الإصلاحية وجُهوده الثَّورية ،وتتحوّل إلى نهرٍ يجري في العالم الإسلامي كُلّه ، هو ذلك العمل الإصلاحي العظيم الذي تجلَّىٰ في إعادة الثِّقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية ، بخلود الرسالة المحمدية وحاجةِ الناس إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخُ جذور هذه العقيدة المهمة .

ولا أعلمُ أحداً من المجدِّدين في التاريخ الإسلامي ، قَامَ بهذا العمل على هذا النِّطاق الواسع ، وبهذه القوّة والصراحة كما قام به الإمام السَّرهندي ، ولعلَّ السَّبب في ذلك عدمُ مَسيس الحاجة إليها في عهودهم ، وأنه لم تَبْرُز على

---

(١) انظر ترجمة «الإمام الرّباني مجدِّد الألف الثاني» جمع وترتيب الشيخ محمد منظور النُّعماني، ص ٢٧ .

المسرح في عصُورهـم فلسفَـة أو حركـةٌ منظَّمـة دقيقـةٌ كتـلك التي ظهـرت في عهده [١].

لقد كانتْ هذه الخُطوةُ التجديديةُ سداً منيعاً في وجه تلك الفِتَن التي كانت تَمُوج في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتَقِفُ فاغِرةً أفواهها لِتبتَلِع شجرة الإسلام الطيبة ، ونظامه العقائدي والفكريِّ والروحي بأسره ، تندرجُ تحتها تلك الحركة النقطوية وأتباعها الذين رَفعوا علم الثورة والخُرُوج على النبوَّة المحمدية وخلودها وبقائها، بطريقة علنية سافرة، ونادوا بأن عهد النبوَّة المحمدية الممتدَّ على ألف عام قد انقضىٰ ، وسَيَبْدأ عهد القيادة الدينية الجديدة ، وصياغةُ الحياة الجديدة ، والتَّقنين الجديد ، الذي يعتمدُ على العقلِ والفلسفة وحدَهما ، ويقودُ حركتَهما محمود البَسِيْخَانِيّ وأتباعه وأنصارُه ، ويكون مركزُهما الهند وإيران [٢].

ومِن هذه الفِتَن المدلهمَّة «دينُ أكبر الجديد» و«قانونه الجديد» ، وكان كلٌّ منهما يدَّعي أنه يحل في الهند محلَّ النبوَّة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، ويُؤدِّي دورهما .

ومنها تلك البِدع والمحدَثات في الدِّين التي سيطرت على الحياة الدينية ، وجميعِ الأعمال والعبادات ، واندسَّت في الاجتماع والمدنية ، وكانتْ شريعة إزاء شريعة ، يُدوَّن لها «فِقْهٌ» مُستقِلٌ ، وكان تَحَدِّياً صارخاً ـ في حقيقتها ـ لختم الرسالة المُحمَّدية ، وتدَّعي التَّبوُّء على منصب التشريع والتقنين .

وتُذكر في هذا الصدد فلسفة «وحدة الوجود» التي كانت تعتمد ـ حسب أقوال دُعاتها وكِبار رجالها ـ على الحقائقِ الكشفية ، والتي لا يَدَّعي غُلاة

---

(١) ونجد في هذا الصَّدد شيئاً من التفصيل والوضوح عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لا سيما في كتبه الجليلة القيِّمة، «النبوات» و«نقض المنطق» و«الردُّ على المنطقيين» ولكنه كذلك لا يعدو إشارات وبحثاً مجملاً، ولكل مقام مقال.

(٢) انظر الباب الأول من هذا الكتاب موضوع «الفتنة الكبرىٰ في القرن العاشر».

أصحابها أيضاً أن النبي ﷺ دعا إليها ـ جِهاراً ـ صحابته الكرام ، ودعا صَحابتُه مَن بعدهم من التابعين وهكذا. . . إلخ ، وكانت هذه الفلسفة والدَّعوة ـ تَقِفُ ـ على مرور الأيام ـ عَن شعور أو غير شعور ـ مُعَارِضةً للدعوة التي جاءتْ بها النبوَّة المحمدية، وتعاليمُها الواضحة ، ومقاصدُها وأهدافُها، وكُلَّما أحرزت هذه الدعوة شيئاً من النجاح والانتصار ، وترسَّخت جُذُورها في العقول والقلوب، والمجتمع الإسلامي، نتجَ عنها ضَعْفٌ في تطبيق الشريعة والاهتمام بها ، وفي الاعتقاد بأن الإسلام وحده هو الدين الحق ، ووسيلةُ النجاة في الآخرة ، وتَنْفَتِحُ أبواب الإلحاد والزندقة ، والحُرِّيةِ المطلقة ، والإباحية والتعطُّل والبِطالة على مصراعيها ، وإن كان القائلون بها من المشايخ والصوفية والأتقياء المتورعين ، متقيدين بالشريعة ، معظِّمين لشعائرها ، مُعارِضين للفساد بشدة وإخلاص.

ومنها الفِرقة الإمامية التي تُعتبر من عقائدها الأساسية عقيدةُ الإمامة ، والتي تَصِف الإمام ، وتُبيِّن خصائصه ومزاياه بطريق يَجعله قريناً للنبي ومُساوياً له في الدَّرجة والمكانة (١) ، وتَعتقِدُ في طائفةٍ كبيرةٍ من صحابة الرسول ﷺ

---

(١) يستفاد من كتاب «الشافي» للشريف المرتضى و«تلخيص الشافي» للطوسي، و«أصل الشيعة وأصولها» للعلاَّمة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، أن الإمام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصي ظاهراً وباطناً، وطاهر مطهر، تفرض طاعته وتظهر المعجزات على يديه، وعلمه محيط بما يتعلَّق بالشريعة لا يندّ عنه شيء، وذلك يحصل له تلقائياً بطريق العلم اللَّدنِّي، ويظهر كحجة لله تعالىٰ في كل زمن إلى قيام يوم القيامة. ويقول العلاَّمة محمد أبو زهرة في كتاب «تاريخ المذاهب الإسلامية» الجزء الأول بعدما استعرض عقائد الفرقة الإمامية، وما قال علماؤهم الكبار في الإمام والإمامة: هذه إشارات موجزة إلى منزلة الإمام عند الإمامية والاثني عشرية، ويظهر أن الإمامية جميعاً على رأيهم في هذا النظر، وليس مقام الإمام ومقاربته لمقام النبي عندهم موضع خلاف، فإنَّهم يصرِّحون تصريحاً قاطعاً؛ بأن الوصي لا يفرقه عن النبي إلاَّ شيء واحد، وهو أنه لا يوحىٰ إليه» (ص ٥٩).
وقد جاء في رسالة «خطاب الإمام الخميني حول: ١ ـ مسألة تحرير القدس ، ٢ ـ مسألة المهدي المنتظر ـ «التي نشرها مركز الإعلام العالمي للثورة الإسلامية في إيران، طهران=

ما يُشَكِّك في تأثير صُحْبَة الرسول وتَغْييره للنُّفوس ، ويتَّهِمُ تَربيته المؤثِّرة المُنجبة بالنقص والتقصير ، ويُنافي معنىٰ هذه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢] . وكانت آثار هذه الفرقة ـ لأسباب سياسية وعلمية مختلفة ـ تنتشر ـ بسُرعة ـ في الهند انتشاراً واسعاً، ويتأثر المجتمعُ المسلِم ـ الذي كانت أكثريَّته سُنيَّة المُعتقَد والمَذْهَبِ ـ بعقائِدها وتصوُّراتِها ، وأفكارها وآرائها ، وتقاليدها وعاداتها ، تأثُّراً كبيراً.

وهكذا فتح الإمامُ السَّرْهنديُّ بمفتاح تجديد الإيمان بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإعادة الثِّقة برسالته ، جميعَ الأقفال المعقَّدةِ الثَّقيلة التي اخترعتها الفلسفة الإيرانية واليونانية ، والإشراقية المِصريّة[1] ، والهندية ، وأصاب مقتل هذه الفتن كلها التي تَهدُف الطبقة المثقَّفة من المسلمين ، بِسَهمٍ واحدٍ مُسَدَّد ، ورميةٍ مُصيبة قاتلة.

عَجْزُ العقل والكَشفِ وإخفاقُهما في إدراك حَقَائِق ما وراء الطبيعة:

إنَّ العملِ التجديدي الذي قام به الإمام السَّرهندي هو أنه أثبتَ عجْزَ العقل والكشف وقُصُورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلومِ التي هي وراء طور

= ص ب. ٣٩٣١ ـ ٢١، بمناسبة الحديث عن نقد مفتي مصر، ومسألة الإمام المهدي ـ: عندما نتحدَّث حول هذا الموضوع ونقول بأن الأنبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم، وأن الله سبحانه وتعالىٰ يبعث في آخر الزمان شخصاً يقوم بتنفيذ مسائل الأنبياء، فإن هؤلاء المساكين يقومون عن غير فهم بتأويل كلامنا خدمة للأجانب» ص ٢٢. وبذلك اعترف الخميني بصحَّة نسبة ما شاع عنه من قول أن الأنبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم، وأن الإمام المهدي سيوفَّق بذلك، وبذلك يفهم اعتقاد الشيعة في الأئمة وفي الإمام المهدي.

(١) التي تسمَّىٰ «الأفلاطونية الحديثة» (Neo Platonism) وكان مركزها الإسكندرية، وكانت مصر مركزاً للأفلاطونية الحديثة (Neo Platonism) نشأ فيها فلاطينس (Platonus) وبارفري (Porpgyer) وبراكلس (Proclus) وأسست مدرسة جديدة للأفلاطونية الحديثة.

العقل ، والمعرفةِ الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يَشوبُه شَكٌّ ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تُخالجُها شبهة ـ بحتميَّة ويقين ـ وإن النتائج المكتسَبة بهما لا تخلو من الشك والرِّيبة ، والخطأ والزَّلَّة ، وسُوء الفهم والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذاتِ الله ـ سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وَرَاء طور الحِسّ ، فإنَّ النبوَّة وراء طور العقل ، ولا سبيلَ إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده ، وتمجيده إلا النبوَّة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم .

وقد وقع حُكماءُ اليُونان بهذا الصَّدد في زَلاَّت خطيرة ، وأخطاء فاحشة ، فكما أنَّ العقل الخالص والعقل المجرد ليسَ له وُجود ، كذلك الكشف الخالص والكشف المجرد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية ـ صعبُ الوُجود ، بل عديم الوجود ، وقد زَلَّتْ أقدام الإشراقيِّين ، وأصحاب صفاء النَّفس وسموِّ الروح ، ووَقعوا فريسة الأوهام والجهالات كما زَلَّ زُعماء العقل والفَلْسَفة .

فالعَقْلُ والإشراق لا يُغنِيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمدية ، والرسالةُ النبويَّة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالىٰ شأنه ـ وصفاتِه وأحكامه .

وأعلن أنَّ مِن المستحيل تَجرُّد العقل وخُلوصه ، وأنَّ العقل ـ كالحواس الأخرىٰ ـ يتأثَّر بالعقائدِ والمسلَّمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية ، وأن كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلوَّن بالألوان الخارجية ، التي يكون وُجُودها في داخله وباطنه ، وتَمتَزِج بها .

وأثبتَ أنَّ العقل قاصرٌ عن أن يكون حُجَّة وبرهاناً ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحجَّة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

وأقام حدّاً فاصلاً ، وفارقاً واضحاً بين صفاء النفس ، وصفاء القلب ، وبيَّنَ هذا الفارق بينهما ، وأثبتَ أن المصدِّق لرسالة الأنبياء ، والمُؤمنَ بها من

أصحاب الاستدلال والبرهان ، وأنَّ إخضاع أخبار الأنبياء للعقل إنكارٌ للنبوَّة ، وبيَّن هذه النقطة بإيضاح : أن التعارض مع العقل شيء ، وأن يكون الأمر فوق مدارك العقل ووراء طوره شيءٌ آخر .

إنَّ التحقيقات الدقيقة المبنيَّة على العقل والكشف ، والتي ساعدها التأييد الإلٰهي ، والنُّور المقْتبس من مِشكاة النبوَّة ، هي تلك العلوم والمعارف الدقيقة التي أحدثت ضَجَّةً في الأوساط العلمية والروحية ، وفتحتْ باباً جديداً للتأمُّل والتفكير ، وزَيَّفت كثيراً من الحقائق السائدة في الأوساط العلمية والعقلية ، ونادت بعظمة النبوَّات والشرائع السَّماوية ، وصِدقها وجلالها ، وأعادت الثِّقة إليها من جديد ، وهي المأثرة التجديدية الثوريَّة ، والعلمية الدقيقة التي لم تكُن وليد المناهج الدراسية السائدة في ذلك العصر ، ونتاج البيئة العلمية والجهود العقلية وحدها ، إذ أنه عالج فيها أموراً لم تتوصَّل إليها الأوساط العقلانية والفلسفية ، إلا بعد قرون ، وشهِدت على صدقها وثُبُوتها التجارب العلمية والروحية .

لقد كان ذلك نتيجة التأييد الرَّباني ، والهِداية الإلٰهية التي اختارته عند بداية الألف الثاني لتجديد هذا الدين ، والدفاع عن النبوَّة المحمدية والذَّبِّ عن الشريعة الإسلامية ، وكان جائزة ذلك الإخلاص ، والحميَّة الدينية والمتابعة الكاملة لخاتم النبيين ﷺ التي تمسَّك بها من أول الطريق وعضَّ عليها بالنواجذ .

وينبغي ـ لتفصيل هذا الإجمال ، وشرح هذه الإشارات ـ التأمُّل في تلك الخَلفيات والأوضاع التي تتجلَّىٰ فيها قيمة هذه التحقيقات العلمية ، وإدراكُها بأبعادها وعلى حقيقتها .

التَّساؤلات الأساسية ، والمُحاولات المختلفة لِلإجابة عليها ، ونقدها ودراستها:

إنَّ التساؤُلات الأساسية الأولية عن الدين وهذا الكون ، التي تعتمد عليها

استقامة هذه الحياة وتنظيمُها تنظيماً سليماً ، وتدور عليها سعادة الآخرة والنجاة من عذابها ، وهي :

مَنْ صانعُ هذا الكون؟

وما هيَ صِفاته وخصائصه؟

وما هي علاقته بنا؟

وكيف يَنبغي أن تكون صِلتنا به؟

وما هي وَضْعِيَّة هذه الصلة؟

وما هي الأمور التي يُحِبُّها ويرضاها؟ وأخرىٰ يُبْغضها ويَسْخَط عليها؟

وهل بَعْدَ هذه الحياة الرَّاهنة حياة أخرىٰ؟

وإن كانت؛ فما هي طبيعتُها وحقيقتها؟

وما هي التَّعاليم والإرشادات المتعلِّقة بها؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات بتفصيل ودقَّة ، لابدَّ أن يتعرَّض المُجيب للبَحْثِ في ذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصفاته ، وأفعالِه ، وحدوثِ العالم أو قِدَمه ، ووجود الجنَّة والنار ، والوحي والملائكة ، ومباحث أخرىٰ تتعلَّق بما وراء الطبيعة، وهي تحتلُّ مكانة العقائد الأساسية ، وأصول الديانة الأوَّليَّة.

وقد نَحَىٰ المَعنيُّون بهذه المباحث للإجابة عن هذه الأسئلة، وحلِّ هذه المشاكل نحو تجربتين اثنتين بصفة عامة، تجربة العقل والإدراك، وتجربة الروحانية والإشراق ، وكان من نتيجة التجربة الأولىٰ ظُهور الفلسفة ، ونتيجة التجربة الثانية نشأة التصوُّف الإشراقي.

ولكنَّ هاتين التجربتين والمحاولتين الأُوليتين ـ بالنظر إلى أصول النقد والموضوعية العلمية ـ مبنيتان ـ أساساً ـ على الخطأ والمغالطات ، ويتسنَّى لنا قبل أن ننقل مقتبسات من رسائل الإمام السَّرهندي ، أن نتناول هذا الموضوع ـ توطئة وتمهيداً ـ بشيء من الشرح والإيضاح.

الخُطوَةُ التجديدية في نقدِ العقل المجرَّد ، والكشفِ الخالص:

ينبغي - قبل كلِّ شيء - ألاَّ ننسىٰ أنَّ العقل ليسَ حراً طليقاً في أداء مسؤوليته الطبيعية ، من الاكتشاف والتحقيق والاستدلال ، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأناً ، وأتفهَ منه قيمة ، وأنَّ دوره الأصيل هو التوصُّل من المحسوسات والمَعلومات والتجاربِ السابقة ، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة ، وأن يَصل بترتيبها عِلمياً بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات والمبادىء والمقدِّمات ، إلى نتائج لم تكن حاصلةً له من قبل ، وما كان يُمكنه الحصول عليها ، بالاعتمادِ على الحواس والتجارب ، فإننا إذا نقدنا جميعَ المعقولات وحلَّلناها تحليلاً علمياً ، يتضح لنا أن العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة ، والمعلومات البدائية البسيطة ، التي لم تكن تُؤدِّي بنفسها - من غير مساعدةِ الترتيب العقلي والعلمي - إلى هذه النتائج الخطيرة ذاتِ القيمة العظيمة.

فمِنَ الظاهر البديهي أن المجالات التي لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها ، ولا تملكُ أيَّ ركيزة لمعلوماتها الأساسية ، ولا تَعرِف مباديها وأولياتها ، ولا يُمكن أن يكون لديها أيُّ تقدير وتجربة لحقيقتها ، ولا دخلَ للقياس فيها ، فأنَّىٰ للعقل والذكاء والقياس والتَّخمين أن يصول فيها ويجول؟!

إنَّ العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجةٍ ما من النتائج ، ويَقِفُ مَقْصُوص الجناح ، مثلما يعجز الإنسان عن أن يَعْبُر البحر بغير سفينة ، أو يطير في الجو على غير طائرة ، وليس في إمكان أي فَطِن ذكيٍّ أن يَحلَّ مسألة في علم الرياضيات من دون أن يكون له علم بالأعداد والحِساب ، كما أن مَن لم يَعْرفِ الخَطَّ المستعمل في لغة من اللغات ، ولا يَعْرف حُرُوفها الهجائية (Alphabet) لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً من هذه اللغة مهما كان ذكاؤُه وعبقريته ، ومهما استخدم العقل والقياس ، ومهما كدَّ وجدَّ ، كذلك يستحيل أن يستقِلَّ العقل في الإجابة عن هذه الأسئلة الخطيرة لأن الإنسان لا يعرف مباديها وأوَّلياتها ، وهي لا تقبل القياس والتَّقدير.

والحقيقة الثانية أنَّ قوَّة العقل ، ودائرةَ عمله ضيِّقة محدودة ، فلهُ نطاقٌ لا يتعدَّاه ، وكما أن القِوىٰ الحِسِّيَّة في الإنسان لها دوائرُ ومجالاتٌ لا تتجاوزها ، فحاسَّةُ البصر تلتقِطُ آلافاً من المُبْصرات ، ولكنَّها لا تستطيع أن تسمعَ ولا صوتاً واحداً ، وكذا الحواس الأخرىٰ ، ثم إن قوَّة هذه الحواس وعَمَلَها في دوائرها الخالصة ، وفي محسوساتٍ خاصَّة ، ليست مُطلَقة غيرَ محدودة .

كذلك العقلُ بالرغم من أنَّ مجاله أفسح ، ودائرته أوسع من هذه الحواس الظاهرة إلاَّ أنَّه محدود ، لا يتعدَّىٰ طورَه ، وفي تعبير ابن خلدون العلمي الدقيق :

«العقلُ ميزانٌ صحيحٌ ، فأحكامه يَقينيَّة لا كذب فيها ، غير أنَّك لا تطمح أن تَزِن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصِّفات الإلٰهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طَمَعٌ في محال ، ومثال ذلك رجل رأىٰ الميزان الذي يُوزن به الذَّهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدُلُّ على أنَّ الميزان في أحكامه غيرُ صادق ، لكنَّ العقل قد يَقِفُ عنده . ولا يتعدَّىٰ طوره حتىٰ يكون له أن يُحيط بالله وبصفاته ، فإنَّه ذرَّة من ذرات الوجود الحاصل منه» [١] .

والحقيقةُ الثالثة أنَّ العقلَ يستعصي عليه التجرُّد الكامل من الشوائب الخارجية ، والحياد التام في الأحكام والنتائج ، ويَعرف العلماء المطَّلعون على حقيقته ، أنه ليس هناك شيء أندر في الوجود من «العقل الخالص» و«العقل المجرد» ، فإنه يَصعب عليه التحرر والانطلاق من تأثير العواطف والرغبات ، والمُيول والنزعات ، وتأثير البيئة ، والتربية الخاصة ، والدراسة الخاصة ، والعقائد والنَّظريات الخاصة ، وتأثير الوهم والخيال ، والسَّهو والنِّسيان ، ولأجل ذلك فإنه من المُستبعد أن تكون أحكامه صادقة ـ دائماً ـ ونتائجه حتمية يقينية .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، طبعة دار الفكر ـ بيروت .

ولكنَّ الذي يُستغرَب ويُتعجَّب منه أن الفلاسفة ـ بِصَرفِ النَّظر عن هذه الحقائق البيِّنة كلها ـ أخطؤوا في تحديد موضوعهم ، وبحثوا في ذات الله وصفاته ، وما يتعلَّق بها من أمور غيبية من غير أن تكون لديهم موادُّ هذا الموضوع وعُدَّته ، ومن غير أن يكونوا على علمٍ وبصيرة ، في تفصيل وتدقيق ، وثِقةٍ واعتماد لا يليق إلا بالخبير الكيمياوي الذي يقوم بالتحليل والتجزئة ، والفحصِ والدِّراسة في المعامل الكيمياوية ، فكانتْ بحوثهم وتدقيقاتهم هذه عِبارة عن الظنِّ والتَّخمين ، ومجموعة طلاسم خيالية ، وبناءً واهياً على أساس القياس المجرَّد ، وهي في علم الإلٰهيات بمثابة «حكايات ألف ليلة وليلة» و«قصة عنترة»[1] مما سَنَقِفُ على نماذج منها في السطور الآتية.

وبإزاء هذه المحاولة العقلية والفلسفية ، محاولةٌ أخرىٰ ، وهي «الإشراق» ومن مبادئه الأساسية أن العقل ، والعلم والبرهان ، والاستدلال ، لا تنفعُ في البحث عن اليقين والوصول إلى الحقِّ شيئاً ، بل ضررُها أكبر من نفعها ، وأن الشرط الأساسي لمعرفة الصِّدق والحقيقة هو الشُّهود أو المشاهدة ، ولاتتيسر هذه المشاهد إلاَّ بنُور الباطن ، وصفاء النَّفس، وتنبيه حاسَّة داخلية تُدْرك الحقائق الروحية، وما وراء الطبيعيات، كما تُدرك هذه العيون الظاهرة الأشياء المبصرة الظاهرة ، ولا تتولَّد هذه الحاسة إلا بالقضاء على المادية ، وإماتة الحواسّ الظاهرة إماتة كاملة ، فهذه الحِكمة الإشراقية، والنُّور الباطني الذي ينشأ بالرياضات والمجاهدات ، والتأمُّلات والمراقبات ، ويكون مُجَرداً خالصاً عن كلِّ شائبة من شوائب العالم الخارجي ، هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقيقة.

إنَّ وجود هذه الحاسَّة الزائدة أمرٌ لا شكَّ فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواسّ أخرىٰ كهذه ، ولكن على كلِّ حالٍ فإنها حاسَّة إنسانية ضعيفة محدودة ،

---

(١) مجموع حكايات وأساطير.

مثل الحواس الأخرىٰ ، قابلة للخطأ والتأثر بالعوامل الخارجية ، شأنَ سائر القوىٰ الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للأخطاء ولا تتعرَّض محسوساتها ومشاهداتها للغلط ، والانخداع ، والغرور بالنَّفس؟ ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارضٌ ولا تناقضٌ ، ولم يخالجها اضطرابٌ أو إمكانٌ للخطأ ، ولم تتورَّط في مزالق وأغاليط في القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع [1] .

وعلى كلٍّ فإنَّ هذه «الحكمة الخاصَّة» يصعُبُ عليها كالعقل أن تتجرَّد تجرُّداً كاملاً ، فإنها كذلك تتأثَّرُ بالعوامل الخارجية ، والأشياء الظاهرة والباطنة وتنعكس عليها ظِلالها وأشباحُها ، ولا تُصوِّر هذه المرآة كذلك الحقائِقَ تصويراً صحيحاً ، وتَنطبع عليها آثار البيئة الإشراقية ، وعقائدها ومُسلَّماتُها ، وتأثَّر مشاهداتُها هذا التأثر الخفيَّ الدقيق ، ولأجل ذلك كان كثيرٌ من الإشراقيين يَرَون في كشوفهم ومُشاهداتهم تأييداً لكثيرٍ من الأساطير والخرافات اليونانية والمصرية ، التي لا يُسيغُها العقل ، ولا تقوم إلاَّ علىٰ أساس الوهم والخيال ، وتَتشَكَّل كثيرٌ من الفَرَضِيَّات والتخمينات ، بِشكلِ الحقائقِ الثابتة ، والمُسلَّمات البديهية ، وليس لها في العالم الخارجي وُجود [2] .

ثم إنَّ هذه التساؤلات المذكورة ـ أعلاه ـ كما هي خارجةٌ عن نطاق الفلسفة وحُدُودِها ، كذلك هي خارجة عن نطاق الإشراق وحدوده ، إنه قد يُساعد في اكتشاف أسرار عالم الأرواح وعجائبه ، ويَرىٰ صُوراً وألواناً ، ويَسمع أصداءً

---

(١) راجع للأمثلة والتفاصيل كتاب المؤلف «بين الدين والمدنيَّة»، ص ٢٨ ـ ٢٩ الباب الأول خاص ببحث «الإشراق». [هذه محاضرة ألقاها العلامة المؤلِّف في الجامعة الملِّية الإسلامية بدهلي (الهند) عام ١٩٤٢ بعنوان «بين الدين والمدنيَّة» اقرأها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدَّعوة للعلامة الندوي» ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

(٢) انظر «بين الدين والمدنية» للمؤلف، ص ٣٦ ـ ٣٧.

وأصواتاً ، لكنَّه على جَهْلٍ تام بالعلم التفصيلي لمشيئة الله ، وقوانينِه وأحكام شريعته ، وأحوالِ الدار الآخرة وحقائقها ، كما يَجْهلُها الإنسان العادي الذي لم يعرف مبادىء الإشراق (١).

والحقيقةُ أنَّ كُلاً من الفلسفة والإشراق يتَّجهان اتجاهاً واحداً ، وتُسيطرُ عليهما رُوحٌ واحدة ، وكلاهما يُحاولان التوصل إلى الحقيقة بطَرح وساطة الأنبياء والمرسلين ، وأن غاية الفريقين واحدة ، وإن تعدَّدت الطرق ، فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التَّحليق في الجو ، أو عن طريق خفيٍّ من سردابٍ (الطريق الروحي الإشراقي) (٢).

ولكنَّ الحقيقة ، ولُبَّ لُباب العلمِ والعِرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلاَّ طريق الأنبياء الذين شرَّفهم الله ـ تعالىٰ ـ بمَنصب النبوّة والرِّسالة ، ورزَقهم أكبرَ قِسطٍ من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوتِ السَّموات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما يَرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهىٰ عنه ، وجَعَلَهم وسائط بينه وبين خلقه، وأنَّ نبوَّتهم ورسالتهم مِنَّة عظيمة على هذه الدنيا ، ونعمة ظاهرة ، وما يُعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنىٰ ـ من غير مشقَّة ، وبدون مُقابل ـ لا يمكن إحراز ذَرَّةٍ من ذرَّاته بالتأمُّلات الفلسفية، والبحث والاستدلال على مدىٰ آلاف السنوات ، وبالمجاهدات الشاقَّة ، وتصفية النَّفس ، والمراقبة والتَّفكير لأعوام وسِنين.

﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨].

وما أصدق ما قال القرآن : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، نَعَمْ إن الفلاسفة والإشراقيِّين لا يُقدِّرون هذه النعمة ، ولا يشكرون هذه اليد

(١) انظر «بين الدين والمدنية» للمؤلف: ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٧ ـ ٢٨.

المعطاءة ، ويُريدون أن يصلوا إلى الحقائق بمجادلاتهم الكُلِّيَّة التي قد أغناهم الله عنها ، وليْست نتيجةُ هذه الجهود والمحاولات عَبرَ الآلاف المؤلَّفة من القرون إلاَّ أقوالاً يَنْقُض بعضها بعضاً ، وتحقيقاتٌ تتصادم وتتعارض ويضحك عليها صبيان الكتاتيب.

وهي كُلُّ تُراثهم ومتاعهم في علم «الإلٰهيّات» ، وأنَّهم بدل أن يُقرِّبوا أتباعهم وتلامذتهم إلى ربهم، أبعدوهم عنه، وأوقعوهم في الجهل المُشين بذات الله وصفاته ، وقلَّة اليقين ، والاستغناء عن الرجوع إليه ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] .

إنَّ الإمام السَّرهندي على علمٍ عميق ، ودِرايةٍ كاملةٍ بكلتا الناحيتين ، «الفلسفة» و«الروحانية» وهو ـ على جانبٍ آخر ـ من وَرثة علوم الأنبياء والمُرسَلين ، والعارفين البصيرين بمكانة الوحي والرسالة ، فكان نَقْدُه للفلاسفة والإشراقيين نَقْداً عِلمياً موضوعياً ، يَدلُّ على جامعيَّته ورُسوخه في العلم ، وأن هذا المبحث المهم هو النُّقطة الرئيسية والمِحْوَر الأساسيّ لعَمَلِه التجديدي العظيم.

لأنَّ أساس الشريعة الإلٰهيَّة ، والنظام الديني بأسره يقوم على البَتِّ في هذه القضية ، والحكمِ الحاسم فيها ، وهي أنه ما هو المنبع الأصلي، والمصدر الأساسي للحصول على العِلمِ القطعي، واليقين الذي لا يداخله شك ، والمعرفة الضرورية للذات الإلٰهيَّة وصفاتها ، وبَدء الكائن الإنساني ونهايته ، ونجاحه وسعادته؟ هل يكون مَصدرها التأمُّلات الفلسفية ، والبحثُ العلمي والاستدلال المنطقي ـ الجوانب التي تمثِّلها الفلسفة ـ أو النُّور الباطني ، ومجاهدة النفس وتصفية القلب ، وتزكية الباطن ، والمشاهداتُ والكشوفات التي تحصل من الحواسِّ الباطنة ، والقوىٰ الروحية ـ الجوانبُ التي يُمثِّلها «الإشراق» ـ؟ أو أن مصدرها اتِّباع الأنبياء والإيمانُ بهم والتَّسليم لهم؟

هذه هي نُقطة البداية التي تتفرَّق منها السُّبُل ، وتتَّجه هذه الجهات الثلاثة ، فلا تلتقي ولا تتصافح أبداً ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وما صدر في هذا الصَّدد بقلم الإمام السَّرهندي ، من تحقيقات نادرة، وعلوم دقيقةٌ ومعارف عالية متناثرة في المجاميع الضخمة لرسائله العلمية القوية ، أُقدِّم ترجمةَ شيءٍ منها بعناوين مختلفة معبرة :

قُصور العقل وعَجْزه في إثبات صانع الكون ومعرفة صفاته الكاملة:

«نحمدُ الله ـ عزَّ وجل ـ الذي أنعم علينا بالهداية إلى الإسلام ، وجعلنا في أمة محمد ﷺ وأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصَّلوات والتسليم ـ رحمة للعالمين ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ـ أخبرنا نَحن أصحاب العقول القاصرة ، والأذهان الكليلة العاجزة ـ عن طريقهم ـ بذاته العلية وصفاته العظيمة ، وخاطبنا في بيان صفاته الكاملة ، وذاته الجليلة على قدر عقولنا المحدودة ومداركنا الضعيفة ، وميَّز بين ما يرضاه تمييزاً تاماً ، وأوضح لنا المنافع والمضارَّ في الدنيا والآخرة .

فلو لم تكنْ بيننا وبينه وساطةُ هؤلاء المُصْطَفَينَ لَعَييتِ العقُول البشرية ، وعَجزت عن إثبات صانع هذا الكون ، وباءت بالخيبة والكلال في معرفة كماله وعظمته .

لقد كان الفلاسفة القدماء الذين كانوا يَعتبرون ـ أنفسهم حُكماء أذكياء ، أنكروا صانع الكون ، ونسبوا الأشياء ـ لقصور أفهامهم وضَعف مداركهم ـ إلى الدَّهر ، وأن مناقشة نمرود مع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خالقِ الأرض والسموات ، معروفة مذكورة في القرآن الكريم ، فكان فرعون الشقي يقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨] ، وقال مخاطباً لموسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩] ، وهو ذلك الشقيُّ المحروم الذي وجَّه خطابه إلى هامان: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ، فخُلاصة الأمر أن العقل كليلٌ عاجزٌ كلَّ العجز عن الوصول إلى هذه الثروة العظيمة ، وأن لا سبيل إلا هُدىٰ الأنبياء وتعاليمهم»[1] .

سفَاهاتُ حُكماء اليونان في المعرِفة الإلٰهية:

إنَّ خالقَ هذا الكون ومُنَظِّمه وحاكمَه الذي يُسمِّيه فلاسفة اليونان «المبدأ الأول» ، الذي بَحث في كيفية خلقه ، ونشأة الكون من أمره هؤلاء الفلاسفة ، لو شَقُّوا الشعرة ، وتخيَّلوا أموراً ، وافترضوا افتراضات ، ثم بنوا على هذا الأساس الخِيالِيِّ المنهار عمارات شاهقة ، ناطحةً للسَّحاب ، يتكفَّل بشرحها وتفصيلها كتب الفلسفة ، وتعلق عليها وتنقُدها كُتب العقائد وعلم الكلام ، فيمكن أن يراجعها القارىء للوقوف على تفاصيلها ، وليس هنا مجال لإثارتها ومناقشتها.

ولكن ينبغي ، لإدراك أفكار الإمام السَّرهندي وآرائه ، ومعارفه العالية ، وللاطِّلاع على ذلك العامل الذي يُفجِّر قلم الإمام كالشَّلال الهادر ، ويَدفعه في قوة وحماس للردِّ على تلك الأخيلة والافتراضات التي اخترعَتْها الفلسفةُ بقوَّتها المتخيِّلة ، وَبنتْ على أساسها كُل ما بنتْ ، أن نُقدِّم هنا «شجرة نسب» العَقْل الفعَّال الذي هو المؤثِّر الأصيل ، والمدبِّر الحقيقي لهذا الكون عند فلاسفة اليونان ، فصوَّروها ، ووضعوا عليها أساس الخَلْق والأمر ، وهناك آلافٌ من الأدلَّة والبراهين مؤيِّدة لها أو معارضة ، ولكننا هنا نقتصر على ذكر هذه الشجرة فحسب:

«المبدأ الأول واحدٌ من كل وَجه ، ومن المُسلَّم أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد ، والعالَم مُركَّب من أشياء مختلفة ، فلا يُتصوَّر أن يكون فعلاً لله. والمبدأ الأول فاض من وُجوده العقل الأول ، وهو موجودٌ قائمٌ بنفسه ، ليس بجسم ولا مُنطَبع في جسم ، يَعرف نفسه ويعرف مَبدأه ، وقد سمَّيناه العقل

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣ المجموعة الثالثة كتبها إلى خواجة إبراهيم قياداني.

الأوَّل ولا مشاحَّةَ في الأسامي ، سُمِّي ملكاً أو عقلاً أو ما أُرِيدَ ، ويَلزم عن وجوده ثلاثة أمور: عقل ، ونَفس الفَلك الأقصىٰ وهو السماء التاسعة ، وجُرم الفلك الأقصىٰ ، ثم لزم من العقل الثاني عقلٌ ثالث ، ونَفس فَلك الكواكب وجُرمه ، ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ، ونَفس فلك زُحَل وجرمه ، ولزم من العقل الرابع عقلٌ خامس ، ونَفس فلَك المُشتري وجرمِه ، وهكذا حتىٰ انتهىٰ إلى العقل الذي لزم منه عقلُ نفس فلَك القَمر وجُرمه ، والعقل الأخير وهو الذي يسمَّىٰ العَقل الفعَّال ، لزم منه حشو فَلَك القمر ، وهي المادة الكاملة للكون والفساد ، من العقل الفعَّال ، وطبائع الأفلاك.

ثم إنَّ المواد تمتزج بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة ، يحصل منها المعادن والنبات ، والحيوان ، . . . الخ. فخرج منه أن العقول عشرة والأفلاك تسعة» [١].

هذا هو عِلم الأصنام لدىٰ حُكماء اليونان ، الذي سمَّوه الفلسفة وعلم الإلٰهيات ، وبدأ الناس يتأمَّلون فيه ، ويتناقشون بجد وإخلاص ، أو أنها الأساطير الخيالية ، والافتراضات الوهمية ، وروايات ألف ليلة وليلة ، يتذكَّر الإنسان تلقائياً عند الوقوف عليها، قول الله تعالىٰ: ﴿ ۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف: ٥١] .

وما أصدق ما قال الإمام الغزالي بعدَ نقل هذه الشجرة الوهمية الباسقة:

«ما ذَكرتُموه تَحكُّمات ، وهي على التَّحقيق ظُلُماتٌ فوق ظُلُماتٍ ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه ، لاستُدِلَّ به على سوء مِزاجه» [٢].

وقال في موضع آخر: «فَلَسْتُ أدري كيف يَقْنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشُقُّون الشَّعْرةَ بزعمهم في المعقولات» [٣].

---

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٢٩ـ ٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٣١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٤.

إنَّ هؤلاء الفلاسفة سَلَبُوا من ذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كُلَّ صفات الجلال والكمال ، ونَفَوا خَلْقَه وإبداعه لجميع المخلوقات ، ونَفَوا عنه القُدرة والاختيار ، وأثبتوه جامداً لا يتحرَّك ولا يعمل ، وفعلوا كل ذلك ـ بزعمهم ـ لتنزيه «واجب الوجود» ، وتقديسه وتعظيمه ، ولا يتمالك الإمام الغزالي بهذه المناسبة إلاَّ أن يقول :

«ومَن قَنع أن يكون قولهُ في الله ـ تعالىٰ ـ راجعاً إلى هذه الرُّتبة ، فقد جعله أحقرَ من كُلِّ موجود يَعْقلُ نفسه ، ولا يعقل غيره ، فإنَّ من يَعقله ويَعقلُ نفسه أشرف منه ، إذا كان هو لا يَعقلُ إلاَّ نفسه ، فقد انتهىٰ بهمُ التَّعمُّق في التعظيم إلى أن أبطلوا كلَّ ما يُفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله من حال الميِّت الذي لا خبرَ له بما يجري في العالم إلاَّ أنه فارقَ الميت في شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يَفعل الله بالزائغين عن سبيله والنَّاكبين عن طريق الهدىٰ ، المنكرين لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١] . الظَّانِّين بالله ظنَّ السوء ، المعتقدين أن أمور الربوبية يستولي على كُنهها القِوىٰ البشرية ، المغرورين بعقولهم ، زاعمين أنَّ فيها مندوحة عن تقليد الرُّسل واتباعهم ، فلا جَرَم اضطروا إلى الاعتراف بأنَّ لُباب معقولاتهم رجعتْ إلى ما لو حُكيَ في منام لتُعُجِّبَ منه» (١) .

وتنبعث في الإنسان عواطف الشكر والتَّقدير عندما يرىٰ للفلسفة وتأملاتها هذا المصير ، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] . وأن هذا الإخفاق الذَّريع في القضايا الإلٰهيّة الذي مُنيَ به فلاسفةُ اليونان وحُكماؤها ـ الذين أحرزوا النجاح بعقلهم وذكائهم في العلوم الرِّياضية ، والعلوم التطبيقية ـ وهذا العجز والقصور الذي أُصيب به العقل في هذا المجال موضعُ عبرة ودرس ، حيث إنَّهم نسبوا إلى الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ما يستنكفون عن نسبته إلى أنفسهم وإلى أحقر المخلوقات في العالم ، وقرَّروا أنه فاقدُ القُدرة

---

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٣٢.

والعلم والاختيار ، ليس له دَخْلٌ في إحداث العالم ، وظنُّوا ذلك غاية التنزيه والتَّقديس : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] .

ولْنُلْقِ نظرةً على أقوال الإمام السَّرهندي وتحقيقاته التي اقتطفناها من رسائله يقول :

«إذا كان العقلُ يكفي للمعرفة الإلٰهيـة ، لِمَا كان فلاسفةُ اليونان ـ الذين جعلوا العقلَ إمامهم وقائدهم ـ حيارىٰ تائهين في بَيْداء الضَّلال ، ولكانوا أعلم بالله ، وأعرف به من غيرهم ، والحالُ أنهم أجهل الناس لذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصفاته وأسمائه ، إذ أنَّهم ظنُّوا لله ـ تعالىٰ شأنه ـ وُجوداً يتَّسم بالتعطُّل والبِطالة ، ولا يعتقدون أنه خلق شيئاً سوىٰ شيء واحد ، هو «العقل الفعَّال» ، وقد كان صدوره من الله ـ تعالىٰ ـ اضطراراً لا عن قدرة واختيار .

إنَّهم هم الذين اخترعوا ـ بعقولهم ـ العقل الفعَّال ، فينسبون الحوادث إليه ، بدلاً من أن ينسبوها إلى خالق الأرض والسموات ، ويفتَرون أنَّ الأثر ليس بالمؤثِّر الحقيقي ، بل بما زوَّروه من العقل الفعَّال ، لأنَّ المعلول عندهم نتيجةٌ للعلَّة القريبة ، ولا دَخل في حصول المعلول للعلَّة البعيدة ، ويَظنُّون ـ بجهلهم وقلَّة فهمهم ـ أنَّ عدم نِسبة هذه الأمور إلى الله ـ تعالىٰ ـ من صميم تنزيهه ، وعظيم كماله ، ويَرون بطالته وتعطُّله عن أيِّ عمل ، من تعظيمه وتقديسه ، والحقيقةُ أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يصف نفسه بأنه خالق السموات والأرض، ويعرف بذاته بأنه ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] .

إنَّ هؤلاء السُّفهاء يعتقدون ـ في زعمهم ـ أنَّهم في غِنىً عن الله ، وعن الخضوع والإنابة إليه ، فليُنيبوا ـ إذاً ـ إلى «عقلهم الفعَّال» لطلب الحاجات وتلبية الضرورات ، لأنه هوَ ـ في نظرهم ـ صاحبُ السلطة الحقَّة ، والقُدرة الكاملة .

بل إنَّ «العقل الفعَّال» أيضاً ـ كما يزعمون ـ مَقهُورٌ غيرُ قادر على أداء أعماله ؛ فطَلَبُ الحاجات منه كذلك أمرٌ غير معقول ومُستساغ .

والحقُّ أن هؤلاء كما وصفهم القرآن الكريم لا وكيل لهم ولا نصير: ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١] ، لا ربُّ السموات والأرض ينصُرهم ، ولا «العقل الفعَّال» يُسْعِفُهم.

وما هو هذا العقل الذي يُدبِّر الأمور ، ويُنسب إليه خلق الحوادث ، وإبرازها إلى هذا الوجود؟ .

إنَّ هناك آلافاً من الاعتراضات على ثُبوت هذا العقل ووجوده ، إذ أنَّ ثُبوته ووجوده قائمان على مقدِّمات فلسفية مفترَضة ، ناقِصة مخدجة في ضوء أصول الإسلام الصحيحة وقواعِده الثابتة.

وليس من يصرف الأشياء عن الإلٰه القادر المُريد والمُختار ، ويَنسبها إلى الأشياء المُتوهَّمة المفترضة ، إلاَّ سفيهاً يستحقُّ الحَجْرَ ، بل إن هذه الأشياء نفسها تُشعر بالذُّلِّ والعار في نِسبة خَلقِها وإيجادها إلى شيء اختلقته الفلسفة ، ولا نصيبَ له من الواقع ، وإنها لترضىٰ بالفناء ، وتحمد الموت والبِلىٰ ، ولا ترغب في الحياة والبقاء مُقابل أن تُنسب إلى شيء فرَضي وهمي لا أصل له في الواقع ، وتُحرَم السَّعادة العظيمة في نسبتها إلى القادر القوي المختار ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] .

إنَّ الكفرة المشركين في دار الحرب ـ رُغم عبادتهم للأصنام والأوثان ـ خيرٌ من هؤلاء الفلاسفة ، إذ أنهم يتضرَّعون إلى الله عند الشَّدائد والكُرُبات ، ويتوسَّلون بأوثانهم وأصنامهم إليه.

وأَغربُ مِن ذلك أن فريقاً من الناس يدعو هؤلاء السُّفهاء (فلاسفة اليونان) بالحُكماء ، ويَنسبهم إلى الحكمة ، إنَّ معظم تحقيقاتهم في القضايا الإلٰهية ـ التي هي المبحث الأسنى ـ خاطئةٌ ، مُعارضة للكتاب والسُّنَّة ، فما هو وجه تلقيبهم ـ وجُلُّ مباحثهم جَهْلٌ وسفاهة ـ بالحكماء ، اللَّهم إلا أن يكون سُخرية منهم ، وضحكة عليهم ، أو كما يُدعىٰ الأعمىٰ بالبصير»[1] .

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى خواجه إبراهيم قياديانى.

لا كفاية لَدَىٰ العقل في إدراك الحقائق الدينية:

«﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، بأيِّ لِسان نشكر الله ـ تعالىٰ ـ ونحمده على إنعامه علينا ببعثه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والتسليم ، وبأي قلب نؤمن بذلك المنعم الجليل ، وأين الجوارح التي تُكافىء بالأعمال الحسنة هذه النعمة العظيمة؟ ، فلولا وجود هؤلاء ذوي الخيرات والبركات من كان يهدينا ـ نحن القاصري العقول ـ إلى الإيمان بوجود خالق السموات والأرض وتوحيده ، فإن فلاسفة اليونان المتقدِّمين ـ رغم ذكائهم وألمعيَّتهم ـ لم يَهتدوا إلى خلق السموات والأرض ، ونسبوا خلقَ الكون إلى الدَّهر.

ثم لمَّا ظهرت دعوةُ الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم وتجلَّت ـ على مرِّ الأيام ـ للعَيان ، نَهَض الفلاسفة المتأخرون ـ بتأثير هذا النور وبركته ـ للردِّ على مذهب الفلاسفة المتقدِّمين واعتقدوا بوجود صانع الكون ، وأقرُّوا بتوحيده ، فعقولنا ـ بدون نور النبوَّة ـ عاجزةٌ قاصرة ، وإدراكنا من غير وساطة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كَلِيلٌ حَسير»[(١)].

طَوْرُ النُبُوَّة وراء طَوْر العقل:

«إنَّ طور النبوَّة وراءَ طور العقل والتَّفكير ، فالحقائقُ التي يَعجز العقل عن إدراكها ، تأتي النبوة لتُثبِّتها وتُحقِّقها ، ولو كان العقل كافياً وحده ، لما بُعث الأنبياء ـ صلوات الله تعالىٰ وتسليماته عليهم أجمعين ـ ولما رُبط عذاب الآخرة ببعثتهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، والعقل حجة ، ولكنه ليس بحجَّة بالغة ، وليس في حُجَّته بكامل ، وقد تحقَّقتِ الحجة البالغة ببعثة الأنبياء والرُّسل ، ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ فَقطعت ألسنةَ المُكلَّفين ،

---

(١) الرسالة رقم: ٢٥٩، المجموعة الأولىٰ، وهي مكتوبة إلى ابن الإمام السَّرهندي الشيخ محمد سعيد.

وقَضت على معاذيرهم ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] .

ولمَّا ثبت عجزُ العقل وقصُوره في بعض القضايا ، فليس من المستحسن أن تُوزن الأحكام الشرعية في ميزان العقل ، وإن محاولة التَّطبيق بين العقل وبين الأحكام الشرعية ـ بصفة دائمة ـ والتزامُ ذلك والتقيُّد به ، حُكم بكفاية العقل وغناه ، وإنكارٌ للنبوة ، أعاذنا الله تعالىٰ منه» (١) .

لا يُمكِن حِياد العقل وتجرُّده ، ولا غناء عنده في معرفة الحقائق الإلٰهيّة ، وإن أمدَّه الإشراق وصَفاءُ النَّفس:

إنَّ ممَّا يبعث على العَجَب ـ ولا يُمكن تأويلُه وتوجيهه إلاَّ أنه قَبس من التأييد الإلٰهي ، وإصابة الفكر ، وسَداد الرأي ـ أنه في هذا القرن العاشر ـ القرن السادس عشر المسيحي ـ الذي كانت تسود فيه العَقلانيةُ ، وكانتِ العلوم العقلية ـ بتأثير مُقررات الفلسفة والمنطق تُسيطر على جميع العالم ـ بصفة عامة ـ وعلى الهند وإيران ـ بصفة خاصَّة ـ التي كانت تقتصر على تدريس الفلسفة اليونانية ، والتي رَفعت أفلاطون وأرسْطو ، إلى مقام العصمة والقُدسيَّة ، حتىٰ كان الاستنتاج العقلي من المُقدِّمات العقلية ، على الطريقة المنطقية ، والتصريح بما صرَّح به فلاسفة اليونان ، وقَرَّرُوه من القطعيات البديهيات ، يُخرِس الألسنة الذَّلقة ، ويُغشي العُيون المُبصرة ، بل كان عُبَّاد الفلسفة والمنطق يَسجدون عن طوعٍ وخضوعٍ أمام هذه الحقائق «المزعومة» .

في مِثل هذا الجوِّ رفع الإمام السَّرهندي صوته ـ لأوَّل مرة ـ في حدود علمي ، بين علماء الإسلام ـ : إن تجرُّد العقل عن صِلة الجسم المادي ، وعن الأوهام والتصورات ، والعقائد ، والمسلَّمات السائدة في بيئته ومحيطه ، وتحرُّره عن الميول النفسية ، والرَّغبات الداخلية ، والأخلاق المتمكِّنة ، والعادات الرَّاسخة شِبْه مستحيل ، حتىٰ ولو كان الإشراق وصفاء النفس يرافقانه

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الثالثة كتبها إلى الشيخ مير محمد نعمان.

في الطريق ، ويمدانه بالمعونة ، فإن وصوله ـ متحرراً متجرِّداً عنِ التأثيرات الخارجية والداخلية ، والدراسة والتربية ، والمجتمع والبيئة ، ومما رسَّخت جذورها فيهما من عادات وتقاليد ، وأصبحت بمنزلة المسلَّمات والبديهيات ـ إلى حقيقة الأمر الواقع الصحيح وإصدار الحكم المنصف الحاسم ، ليس إلاَّ شُذوذاً ، و«الشَّاذ» كالمعدوم لا احتجاج به ولا اعتماد عليه.

إنَّ هذا التَّحقيق الدَّقيق الذي كشف الإمام عن سِرِّه ، وضغط في رسائله ـ عليه مرَّات وكَرَّات ، ليس كشفاً جديداً لعَصْره وبيئته ، بل إنما هو اكتشافٌ خطير في عالم الأفكار والدِّراسات العلمية ، وإعلانٌ تجديدي جريء ، لم يُقدَّر حَقَّ قَدْره ، ولم تُعرف قيمتُه وأهميَّتُه حتى الآن ، بيد أنه كان يستحقُّ أن يُجعل موضوعاً مستقلاً للبحث والتَّحقيق ، والشَّرح والتَّفصيل.

ومِن عجيب المصادفة ، وتوارُد الخاطر ، أنَّ الفيلسوف الألماني الشَّهير عمانويل كانت (Emanuel Kant.1724-1804) بدأ ـ بعد قُرابة قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتَّحقيق العلميَّ في صلاحية العقل لتجرُّده وتحرره عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنه عَيَّن حُدود العقل ودوائره في شجاعة ووضوح ، ونشر كتابه الخطير «نقد العقل الخالص» Critique of Pure Reason عام ١٧٨١م ، الذي أحدث هزَّة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور إقبال: «إنه هدم أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تُـراب»(١).

وقد أشاد الغَرْبُ بهذا العمـل ، واعتـرفَ بقيمتـه وخطورتـه في مجالِ الدِّراسات اعترافاً لائقاً بمكانة الكتاب ، حتَّىٰ قال القائلون: «إنه كان مِنحةً ربَّـانيَّـة عظيمة للشَّعب الألماني» ويقول مؤلِّف «تـاريخ الفلسفة الحديثة» الدكتور هيرالد هوفيدنك ، في تعليقه على هذا الكتاب: «إنَّ هذا الكتاب قطعةٌ

(١) (The reconstruction of religion Thought in Islam)

حيَّـةٌ خالدة تدلُّ على عظمة الفلسفة وكمالها ، أضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرَته»[١] .

يقول «عمانويل كانت» : «إنَّ الفكر يبدأ بمهمَّته بالدعاوي ، ويعتمد ـ عن غير شعور وفي معظم الحالات لسَذاجته ـ على صِحَّة مُقدِّماته ، ومفروضاته ، وطاقاته ، ويكون على ثقة ويَقين بأنه يَحلُّ جميع المسائل ، ويصل إلى كُنْه الكون ، ثم يأتي عليه زمان يتجلَّىٰ فيه أنَّ هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب ، ولا تسمو إلى الأفلاك ، ولا يمكن الاتفاق عليها على خِطَّة مبنية على الأعداد ، وهذه فترة الارتياب والتَّشكيك ، وقد رأىٰ أنَّ هناك أمراً متروكاً صَرَفَ النَّظر عنه كُلٌّ من الادِّعائيين ، والمُتشكِّكين ، وهو أنه من الواجب علينا البحث في عقلنا ، وإدراكنا ، وماهيَّة علمنا ونوعيَّته ، ونكشف عن نوع الصُّور والقِوىٰ التي نتمتَّع بها لفهم الأشياء وإدراكها ، وإلى أي مدىٰ نستطيع أن نسيرَ في ضوئها[٢] .

ونَوَدُّ أن نقرأ ـ بعد هذا التَّمهيد البسيط ـ التصريحات الواضحة التي صدرت من عالمٍ ومفكِّر مُسلم ـ عاش في الأوساط العلمية والمدرسية المحدودة في الهند ، وجعلَ غاية حياته ، وهدفها الأساسي ، علوم النبوَّة والمعرفة الإلٰهية ؛ ومرضاة الله ، بدلاً من أن يَنصرف كليّاً نحو الفلسفة والمنطق ـ في نقد «العقل الخالص» بعيداً عن ملتوياتها الفلسفية وتَعقيداتها في أسلوب سهل مُبين .

يقول الإمام السَّرهندي ردّاً على سؤال : إنَّ العقلَ رغم كونه بنفسه عاجزاً مشلولاً في الأحكام الإلٰهيَّة ، ولكن إذا نشأتْ ـ بِحُكمِ صفاء النَّفس وإشراق الروح ـ بينه وبين ذات الله تعالىٰ مناسبة خاصَّة ، واتصال خاص غير متكيِّف ، بحيث يُقدر باستعانته على الأخذ المباشر من حَضرة القُدُس ، ولا يحتاج إلى البعثة التي تتحقَّق بواسطة الأنبياء ، فما هو الرأي عندئذ؟ .

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : ج٢ ، ص ٣٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٠ ـ ٣١ .

«الإجابة هي أن العقلَ اتصل ، وحصل له من المناسبة مع الله ما حصل ، إلا أنه لا تزول علاقته بالجسم العُنصري بتاتاً ، ولا يَجد إلى التجرد الكامل ، والتحرُّر المطلق سبيلاً .

فالقُوَّة الوهمية تُمسك بزمامه ، والقوة المتخيّلة تأخذُ بلجامه ، وقُوَّة الغضب والشهوة كالظِّل المرافق ، وخِصال الحِرص والطمع الذميمة شعارُه ودثارُه ، والسَّهو والنِّسيان ـ وهما من لوازم الإنسان ـ لا يَبرحان ، والخطأ والغلط ـ وهما من خصائص البشر ـ لا يَزولان ، فليسَ العقل إذاً جديراً بالثقة والاعتماد، وليستْ أحكامه ونتائجه متحرِّرة من قُيود الوهم ، والتصرُّف والخيال ، وليست مَصُونة من اختلاط السهو والنسيان ، وشبه الخطأ والغلط .

بعكس الملك المنزَّه عن هذه الخصال ، والبريء من هذه العيوب والتقصيرات ، فهو ـ لا محالة ـ جدير بالاعتماد ، وأحكامُه ونتائجه محفوظة عن اقتراح الوهم والخيال وشبه السَّهو والغلط والنسيان .

ويُخيَّل ـ في بعض الأحيان ـ أنَّ العلوم التي اكتسبها الإنسان عن الطريقة الروحية تختلِط معها ـ عن غير إرادة وشعور ـ في أدائها إلى القُوى والحواس ـ مُقدِّمات هي عنده قطعيات ، ولكنها غير حقيقية ، بل جاءت عن طريق الوهم والخيال ، حتى يتعسَّرَ بينهما التمييز ، وقد يهتدي الإنسان ـ في حين آخر ـ إلى النقد والتمييز ، وقد لا يهتدي .

فلا جرَمَ أنَّ هذه العلوم ـ لاختلاطها بهذه المقدمات ـ تبقى مَوضع شَكٍّ ، ولا يتحقَّق فيها الصدق ، فلا يمكن الثِّقة بها والركون إليها» (١) .

أصحابُ الإشراق وصَفاءِ النفس:

قُـرِّر من قديم الزمان أن الإشراق وصفاءَ النفس والروحانية ، من الوسائل

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولىٰ، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله، والشيخ خواجه عبيد الله.

البريئة المعصومة عن الخطأ والنسيان للوصول إلى اليقين ، والعلم الصحيح ، وتهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس وطهارة الباطن ، وإقامة المجتمع الإنساني ، وبناء المدينة الصالحة على أساسها.

وكانت مصر والهند ـ في العصور القديمة ـ مركزاً كبيراً لهذه الحركة ، وقد ساعد على نشر هذه الحركة وتقويتها وقبولها في الناس ، رَدُّ فعل عنيف نشأ في رُوما ويُونان لمقاومة التطرُّف والمغالاة في تقديس العقل ـ في جانب ـ والعبودية المجنونة للحواس في جانب آخر ، وتمركزت ـ أخيراً ـ في الإسكندرية التي كانت ملتقى العَقليات والديانات الشرقية والغربية.

ويقول دعاة الفلسفة والحركة وأتباعها: إنَّ أكبر وسيلة لتحصيل اليقين والعلم الصحيح ، هو المشاهدة ، التي لا تحصل إلاَّ بصفاء النفس ، ونُور الباطن ، وتَنبيه حاسَّة باطنية ، وأنه ليس في الإمكان التوصل إلى الحقائق إلا بهذا العقل الخالص المجرد (وهوحكمة الإشراق) ، وبالنور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولَّد بالرياضة ، ومجاهدة النفس والهوى ، والفِكر والمراقبة.

وإذا سلَّمنا هذه الدعوى ، فمُحَصّلها أن هناك حاسة سادسة (باطنية) تعمل عملها في الإنسان عدا الحواس الخمس المعروفة ، وأَنَّ نتائجها (المشاهدات) تتجلَّى للإنسان أنواراً غير مرئية ، وأصواتاً غير مسموعة ، وحقائق لم تكن معلومة من قبل ، ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسَّة ليست محدودة ، ولا قابلةً للخطأ والمغالطات كالحواسِّ الأخرى؟.

فلو كان الأمر كذلك لما تطرَّق إلى نتائجها الشك والاحتمال ، وما وُجد فيها التناقض والتعارض ، ولكنَّ تاريخ هذه الإشراقية يدلنا على أَنَّ محسوسات هذه الحاسة الباطنة، وما تُؤدي إليها من نتائج ومعتقدات، تكون مُعَرَّضة للتعارض والاختلاف ، كما يُوجد هذا التعارض والاختلاف في استنتاجات فلاسفة اليونان ، وحُكماء الشرق وعُقلائه.

دَعُوا الإشراقيةَ القديمةَ ـ التي لم يُحفظ تاريخُها ، ولم يُنقل إلينا ، وانظُروا إلى الإشراقية الجديدة (Neo Platonism) تَجدون في الأعمال المترتبة على

عقائد أَئِمَّتها ورُوادها الدينية تَعارضاً بيِّناً ، واختلافاً ظاهراً ، ففلاطينس (Platonus) لا يَعترف بالنِّظام الديني ، والعبادات السائدة في عصره ، وهو فيلسوف حُرٌّ طليقٌ ، يُركِّز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل، ولكنَّ تلميذه النجيب بارفري (Parphyre) صُوفيٌّ زاهدٌ متقشِّفٌ، ويقول فلاطينس (Platonus) بتناسخ الأرواح ، وتحوُّل الأرواح الإنسانية إلى الظهور في نفوس حيوانية، ولكن بارفري (Parphyre) لا يُؤمن بذلك.

والرائد الثالث الشَّهير ـ من روَّاد هذه المدرسة الثلاثة ـ براكلس (Proclus) كان متقيِّداً بجميع التَّقاليد والعادات، والطُّقوس المصريَّة، وكان يعبدُ الشَّمس ثلاث مرَّات في النَّهار، وكان مذهبه خليطاً من شتَّى العقائد والدِّيانات، وكان هؤلاء ـ جميعاً من أصحاب المشاهدة واليقين [١].

وقد عارَضَ بارفري (Parphyre) المسيحيَّة ، وأيَّد قيصر الرُّوم في حركته ، لإحياء الوثنيَّـة والجاهليَّة (Paganism) الرُّوميَّة من جديد ، ولم يمنعه نُور باطنه وصفاء نفسه من ربط مصيره بسفينة الوثنيَّـة ، والجاهليَّة الغارقة.

وإنَّ أهل الكشف والإشراق من المسلمين أيضاً، الذين كانوا يعتمدون على هاتين القوَّتين ، تجد في كشوفهم ومحسوساتهم الباطنة كذلك اختلافاً كبيراً ، وتعارضاً كثيراً ، فإنَّ واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أنَّ كشفَه بعيدٌ عن الحقيقة ، غيرُ مطابق للواقع ، ويَحمله ـ أحياناً ـ على السُّكر وغَلَبَة الحال ، وتجدهم يصافحون «العقول» ـ التي ليس لها وجود ، إلاَّ في مطاوي الذِّهن ، وبطون الكتب ـ ويُثبتون أنَّهم اجتمعوا بها وقابلوها ، إلى آخر ما هناك ، وإنَّ تاريخ التصوُّف مَليءٌ بهذه الأمثلة والوقائع.

شَيخُ الإشراق شهاب الدِّين السَّهرَوَرْدِيُّ المَقتول:

اشتهر من هؤلاء الإشراقيين المُسلمين في القرن السَّادس الهجري ـ القرن

---

(١) راجع للتفصيل موسوعة الديانات والأخلاق. (Encyclopedia of بعنوان: Neo . PlatonimReligion and Ethics

الثاني عشر الميلادي ـ الحكيمُ الإشراقيُّ الشيخ شهاب الدِّين السّهرورديّ (٥٤٩ـ٥٨٧ هـ) المعروف بالمقتول ، اشتهاراً عظيماً ، وقد قُتل لآرائه وعقائده المُبَلْبَلة ، والمعارضة للإسلام ، بأمر الملك الظاهر عام ٥٨٧هـ ، وكان يُلقِّب نفسه بالمشّائيّ والصُّوفي ، وهو يحمل إضافة إلى التصوُّرات المشّائية ، كما يقول «S.V.Denbergh» : «تلك الفلسفة الصوفية بحذافيرها ، التي اقتبسها المسلمون من النَّظرية التطبيقية عند اليونان ، ومعتقداتهم ، ووحدة المذاهب والديانات» ، وكما يقول كاتب هذا المقال في «دائرة المعارف الإسلامية» ـ المتقدِّم ذكره ـ :

«إنَّها في الواقع نَظرية النور عند الأفلاطونية الحديثة ، الذي يعتقد فيه أنه الحقيقة الأساسية لجميع الأشياء» (١) .

ويقول الشَّهْرَزَوْرِيّ : «إنه كان جامعاً بين الفلسفة الذوقية (الإشراقية) والفلسفة البحثية (المشائية) وأَهمُّ كتبه «حكمة الإشراق» الذي شرحه العلامة قُطب الدين الشِّيرازي ، وعُرف في الأوساط العلمية الدراسية «بشرح حكمة الإشراق» .

ويرى شيخ الإشراق أنَّ عدد العقُول ليس محصوراً في العشرة ، بل إن لكلِّ نوع من أنواع الموجودات ، عَقلاً خاصاً به ، يَحفظُه ويَكلَؤُه ، ويُسمِّيها شيخ الإشراق بـ «الأنوار المجرَّدة» .

ويرى أن السماء مخلوق حيٌّ تحمل النفسَ المجرَّدة التي تحركها ، وأنها مَصونة من الفساد والعدم ، وأن في السماء نَفساً ناطقة ، ولذلك فإنها تَملك الحواس أيضاً .

ويرى أنَّ جميع السموات مخلوق حيٌّ واحد ، تؤثـر عليه الأنوار العالية يَعني عالم المجردات عن طريق الكواكب والنجوم ، وبها تتحرَّك القِوى والأجسام ، وأن أكبر الكواكب هو الشمس ، يَجب في مذهب الإشراقيين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

تعظيمها واحترامها، وأنَّ النور هو صاحب الأمر والنهي ـ مباشرة ، وبوسائط ـ في عالَم الأكوان.

ومِن النُّور تَتولَّد الحركة والحرارة ، وهما عُنصران أكثر توفراً في النار ، فكما أنَّ النفس تُنوِّر عالَم الأرواح ، كذلك النار تُنوِّر عالَم الأجسام ، وقد نصَب الله في كل عالم من هذه العوالم خليفة من خلفائه ، فالعقل الأول في عالم العقول ، والكواكب والنجوم في عالم الأفلاك ، ونفوسُها الناطقة ، والنفوس البشرية في عالم العناصر ، وأشعة النجوم والنار لا سيَّما في ظلمة الليل ، كل هؤلاء من خُلفائه ، أي أنهم يُدبِّرون شؤونها ويُصلحون أمورها ، وأن الخلافة الكُبرى تحصل لنفوس الأنبياء الكاملة ، والخلافة الصُّغرى تتعلَّق بالنار ، لأنها تقوم مقام أشعة النجوم والأنوار العلوية في الليالي المظلمة ، وتُنضج المواد الغذائية ، والمواد الخام.

والعالم ـ عند شيخ الإشراق ـ قديمٌ ، والزَّمان أزليٌّ أبدي ، ولا يقول بتناسخ الأرواح، ولا ينكره «إذ أن أدلَّة الفريقين في هذه القضية غير مقنعة» [١].

وهكذا لم تستطع الإشراقية ، وصفاءُ النفس أن يَمنع الحكيمَ الإشراقي النابغة ـ في عصره ـ الذي حاز في الشرق لقب «شيخ الإشراق» ، واعترف معاصِروه بذكائه وتبحُّره في العلم ، وزُهده وتجرده ـ عن أن يقع في التزويرات المَجوسية الإيرانية ، والمفروضات والتحكُّمات اليونانية ، وظل محروماً من المعرفة الصحيحة ونِعمة البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والهداية المترتبة عليها ، والنجاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وعاشَ حياة متناقضة مضطربة ، مَليئةً بالفوضى والخَيبة والخسران ، وفارق هذه الدنيا ، ولم يُخلِّف من نِظامه الفكري الفلسفي ما يَنفع الخلق ويَهدي الناس.

---

(١) استفيدَ في هذا الفصل من كتاب «حكماء الإسلام» تأليف المرحوم الأستاذ عبد السلام النَّدوي، ج٢، طبع دار المصنِّفين بأعظم كره (الهند).

العَقلُ والكَشف راكبا سفينةٍ واحدة:

لقد أَثار كانت (Kant) شُكوكاً كثيرة في تَجرُّد العقل وتَخلُّصه ، وقرَّر أن صفاءه ، وعدم اختلاطه ، وتحرُّره من التأثيرات الخارجية والداخلية شِبه مستحيل ، ولكنه رجلُ فلسفة لا شأن له بالكشوف والعِلم الباطني ، فلم يستطع أن يتقدمَ خطوة أخرى .

ولكنَّ الإمام السرهندي الذي كان من الغوَّاصين في هذا البحر الخضم ، تقحَّم خُطوة أخرى ، وتناوَل موضوع «الكشف الخالص» و«الإلهام الخالص» ، وأنهما صعبا المَنال ، يَندُر أن يُحصل عليهما ، بشرح وتفصيل ، وقرَّر أن الإشراق ، وصفاءَ النفس ليسا كفِيلين بالوُصول إلى الحقائق الغيبية ، والعلوم التي لا يُخالجها شكٌّ وريبة ، والتي لا يَقِفُ عليها العامة والخاصة ، إلاَّ عن طريق الأنبياء ورسالتهم ، كما أنه لا يُمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ولا الحصول على النجاة من النار ، ولا التزكية الحقيقية ، إلاَّ بالإيمان ببعثتهم ، واتِّباع رسالتهم ، اقرأ ـ فيما يلي ـ بعض رسائله في هذا الصدد :

«اختار هؤلاء السُّفهاء (الفلاسفة) طريقَ الرياضات والمجاهدات اتّباعاً للصوفية الربانيين ـ الذين كانوا في كل عصر يتبعون الأنبياء والمرسلين ـ ونبذاً لطريق الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وانخدعوا بصفاء أوقاتهم ، واعتمدوا على تصوراتهم ورُؤاهم ، وائتمُّوا بكُشوفهم ومشاهداتهم ، فضلّوا وأضلّوا .

إنَّهم يجهلون أن ما يعملونه هو «تصفية النفس» التي تُضلهم وتُغويهم، وليس صفاءَ القلب الذي هو المَنفذ إلى الهدى والنور ، فإنَّ صفاء القلب مرتبط باتباع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وإن تزكية النفس مرتبطٌ بصفاء القلب، بشرط أن يُربي النفس ويصلحها ، فإنَّ تصفية النفس مع ظلمة القلب ـ الذي هو مظهر أنوار الله ـ تعالى ـ وتجلياته ، مثل السِّراج الذي أشعل ليقوم العدو المُستَتِر إبليس اللَّعين (في ضوئه) ويَهدم البيت من أساسه ، ويُحوِّله نهباً خراباً .

وحاصِلُ هذا التحقيق أنَّ طريقة المُجاهدات والرياضات في صِبغتها الاستدلالية النظرية لا تُورِث اليقين والطمأنينة ، ما لم يُرافِقْها الإيمان بالأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والتسليم ـ الذي يُبلِّغون عن الله سبحانه ، ويَنزِلُ عليهم نصره وتأييده، وأن نظام هؤلاء ـ نزول الملائكة ، المعصومين عن الغلط والإثم عليهم ـ في مَأمن من مَكر العدو اللعين ، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ، وليس ذلك لغيرهم ، ولا يُتوقَّع الإفراج عنهم من سجن هذا الشقي اللعين ، إلاَّ من اتَّبع هُداهم ، واقتفى آثارهم ، ولقد صدق الشيخ سعدي الشِّيرازي ، إذ قال ما معناه:

«مُحال يا سعيد أن تسلك طريق الصَّلاح والصفاء إلا باتِّباع شريعة المصطفى ﷺ ».

فصَلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين»[(١)].

الخَلْطُ في الكَشفِ:

«ينَبغي أن نعلم أنَّ الخطأ في الكشف لا ينشأ ـ دائماً ـ بإلهام الشيطان ووَسوسته ، بل كثيراً ما ترسُب أحكام وحوادث ، لا نصيب لها من الصحة والواقعية ، في المُخيِّلة حيث لا دخل للشيطان ، ثم تتمثَّل هذه الأخيلة والتصوُّرات في الخارج ، ومن هذا ما يقع لبعض الناس في المنام من رؤية الرسول ﷺ وتلقي أحكام عنه تُخالف أحكام الشريعة الثابتة بالنص ، وتُعارِض الأحاديث الصحيحة ، فلا يتصور هنا ، إلقاء الشيطان ووسوسته ، لأن الشيطان لا يتمَثَّل بصورة الرسول ﷺ إذاً فهي القوة المتخيّلة التي تتخيَّل وتتصوَّر غير الواقع واقعاً»[(٢)].

ويقول في رسالة أخرى:

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣ ، المجموعة الثالثة ؛ كتبها إلى الشيخ خواجه إبراهيم قيادياني.

(٢) الرسالة رقم: ١٠٧، وهي موجَّهة إلى الشيخ محمد صادق الكشميري.

«إنَّ النفس ـ مهما أصبحت بالتزكية والتصفية نفساً مطمئنة ـ لا تستطيع أن تتجرد ـ بتاتاً ـ من صِفاتها وخَصائصها ، ولذلك يحتمل أن يتسرَّب الخطأ إليها وتَقعَ في الغلط» [١].

التَّعارُض بين تَعاليم الفلاسفة ، وهَدْي الأنبياء:

ويقول الإمام ـ بعد ذلك ـ مُشِيراً إلى التعارض الصريح الواقع بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم الأنبياء الذي لم يزل قائماً عَبر مئات القرون ، ولا يمكن التطبيق بينها ، وأنَّ تعاليم الفلاسفة وبُحوثهم العقلية ، وتحليقهم في أجواء التأمُّلات الفلسفية لا يعني إلاَّ ما قيل: «تمخَّضَ الجبلَ فوَلَدَ فَأراً».

كأنَّ عقل الفلاسفة القاصر المحدود ، على الضِّد ـ تماماً ـ من النبوَّة ، وعلى طرف النقيض منها ، فبُحوثهم وتحقيقاتهم في بَدء الكون ونهايته ، وفي الدار الآخرة تُعارض تعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مُعارضة كاملة ، فلم يُصحّحوا إيمانهم بالله ، ولا إيمانَهم بالآخرة ، ويقولون بِقدَم العالم ، رغم أنَّ جميع الديانات ، وأهل جميع المِلل والنِّحل مُجمعون على حدوث العالم بجميع أجزائه.

ولا يؤمنون بانفطار السموات ، وانتثار الكواكب ، وَنسف الجبال ، وتفجير البحار ، كما جاء الوعد بذلك ليوم القيامة.

ولا يُؤمنون ـ كذلك ـ ببَعث الأجساد وإحيائها من جديد ، ويكفرون بتصريحات القرآن الحكيم ونصوصه.

والمتأخِّرون منهم الذين يَعدُّون أنفسهم من جماعة المسلمين ، متشبّثون ـ مثلهم ـ بأصولهم الفلسفية ، ويقولون بقدم الأفلاك ، والكواكب وغيرها من الأشياء ، ويدَّعون أنها لا تفنى ، ولا يلحقها الهلاك ، إنما رِزقُهم تكذيب التصريحات القرآنية ، وغذاؤُهم إنكارُ ضروريات الدين ، عجباً من هؤلاء

---

(١) الرسالة رقم: ٤١، وهي موجَّهة إلى الشيخ درويش.

المؤمنين ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤمنون بما صرَّح به الله ورسوله! فهل هناك سَفَهٌ أكبر من هذا السفه؟ ولله درُّ القائل:

«إذا كان مُعظم الفلسفة جَهْلاً وسفاهة ، فكلُّ الفلسفةِ جَهلٌ وسفاهة ، لأن للأكثر حكم الكُلِّ».

إنَّ هذه الجماعة صرفت جُلَّ عمرها وعِنايتها لتحصيلِ آلة (المنطق) التي تَعصِمُ من الخطأ الفكري ، والزَّلل العقلي ، وتجشَّموا في سبيل هذا العلم المشاقَّ وتكبدوا جهد البحث والتنقيب ، فلما وصلوا إلى البحث عن ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته ، الذي هو أَخْطَر مَبحَثٍ وأعظمُه ـ خارتْ قُواهم ، وطرحوا هذه الآلة ، التي كانت لتعصمَهم من الخطأ في الفكر ، وبدؤوا يتعثَّرون ويُسَفْسِطون ، ويَضلون ويَتيهون في مَهامِهِ الجهل والضلال ، كَمثل من يُعدُّ آلاتِ الحرب وعُدَّته ـ على مدى أعوام وسنين ـ فإذا جدَّ الجدُّ ، وكَشَّرت الحرب عن أنيابها ، سرَى الوهن إلى أعضائه ، وخَارتْ قُواه ، وسُقط في يديه.

يَظُنُّ الناس أنَّ الفلسفة مبنيَّة على أصول حكيمة ، وتنظيم دقيق ، ويعتقدون أنها بمَنجاة عن الخطأ والغلط ، فإذا سُلِّم ، وُجِّه هذا الحكمُ إلى تلك العلوم التي يُجدي فيها العقل ويُغني غناه ، وليس ذلك من موضوعنا الآن ، ولا يَعنينا ـ أصلاً ـ ولا علاقة ـ لهذه العلوم بالآخرة ـ التي هي خَالدةٌ دائمة ـ كما لا علاقة لها بالسعادة الأبدية ، وحديثنا في تلك العلوم التي يَعجز العقلِ عن تحصيلها وإدراكها ، وهي مرتبطةٌ بطريق النبوَّة ، وتَرتبط بها السَّعادة الأُخروية والنجاة الأبدية».

ثم يقول:

«ولا يُجدِيهم عِلْمُ المنطق ـ الذي هو كالآلة للعلوم العاليـة ـ والذي قال عنه الناس، إنَّه يُجنب عن الخطأ ـ ولا يُغنيهم من جـوع ـ ولا يُخرِجهم من وَرطة الأخطاء والغلطات في هذا البحث العظيم ، فإذا لـم يأخذ هذا العِلم بيدهـم ، ولم يُسْعِفهُم أنفسهم، فكيف يُسعفُ غيرهـم ، ويُخرجهم من الخطأ والغلط»؟.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

وإنَّ بعض الناس الذين لهم إلمام بعلوم الفلسفة ، وواقعون في خداعه وتزويره الفلسفي ، يَعتقدون أن الفلاسفة يُضاهون الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل يكادون يُفضِّلون علومَهم المُزوَّرة المكذوبة ـ بتصديقها والإيمان بها ـ على شرائع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أعاذنا الله من عقيدة السوء ، نعم ، فإنَّهم إذ يعتقدون أنهم حكماء ، ويُسَمُّون علومهم بالحكمة ، يَقعون فريسة مشاكل وتعقيدات ، لأنَّ الحكمة عبارة عن العِلم بشيء كما هو في الواقع ، فالعُلوم التي تُخالِف علوم الحكمة هذه (كشرائع الأنبياء) فإنها ـ في ظن هؤلاء الحكماء ـ تُخالِف الواقع والحقيقة .

وخُلاصة القول: أنَّ تصديق هؤلاء ، وتصديقَ علومهم ، تكذيبٌ للأنبياء ، عليهم الصلوات والتسليمات ـ وتكذيبٌ لعلومِهم ، لأن هذين العِلمين ـ علم الحكماء وعلم الأنبياء ـ على طَرَفَي نقيضٍ ، يستلزمُ تصديقُ أحدهما تكذيب الآخر ، فمن شاء فليتبع دين الأنبياء ويَكُنْ من حزب الله ، وأصحاب السعادة والنجاة ، ومن شاء فَلْيَكُن فيلسوفاً ، ويدخل في حِزب الشيطان ، ويَحقُّ له الإخفاق والخسران ، يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] ، وسلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من اتبع الهدى واقتفى الرسولَ المصطفى ﷺ ، وعلى إخوته الأنبياء الكرام والملائكة العظام أتَمَّ الصلوات وأكمل التسليمات»[1] .

لا تُمكِنُ التَّزكية الحَقيقية بغير البعثة النبوية:

«إنَّا نقول: إنَّ التزكية والتصفية مرتبطتان بالأعمال الحسنة الصالحة التي

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياديانى.

يرضاها الله ـ تعالى شأنه ـ ويتقبّلها ، ولا يُعلم ذلك إلاّ عن طريق البعثة ، فلا صفاء ولا تزكية بغير البعثة»[١].

الحَاجَـةُ إلى بِعثة الأنبياء ، وعَـدمُ كفايـة العقـل:

يَتحدَّث الإمام السَّرهندي عن الحاجة إلى بعثة الأنبياء والرُّسل ، والضرورةِ إليها للهداية ، وعَدم كفاية العقل وحده؛ لذلك ـ مهما كان يَملِك من سُمُوِّ الفكر وبُعْد الغور ـ فيقول في رسالة من رسائله :

«إنَّ بعثةَ الأنبياء والرسل ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ رحمةٌ لأهل الأرض قاطبة ، فلولا وجود هؤلاء ووساطتهم ، لما وُجِد من يهدينا إلى معرفة ذات الله ـ وهو واجب الوجود ـ وصفاتِه ، ويُميِّز بين مأموراته ومنهياته .

إنَّ عقولنا المحدودة القاصِرَة من غير استعانةٍ بضوء دعوة هؤلاء الأنبياء والرُّسل عاجزةٌ عن الوصول إلى هذا المَطلب العظيم ، وإنَّ مداركنا الناقصة ، من غير تقليدهم واتباعهم كليلةٌ حائرةٌ .

نعم العقلُ حُجَّة ، ولكنَّ حُجِّيته غيرُ كاملة ، لا تبلُغ درجة التأثير والتكميل ، وإنَّ الحجَّة البالغة هي بِعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ التي يرتبط بها العذاب والثواب الخالدان الدائمان»[٢].

البِعْثَـةُ هـي الوَسيلـةُ الوحيـدة لِمَعرفـةِ ذاتِ الله وصفاتـه وأحكامـه:

«إنَّ البعثةَ رحمةٌ ، إذ إنَّها سببٌ لمعرفة ذات الله وصفاته التي تتضمَّن جميعَ السعـادات الدنيوية والأخرويـة ، وإنَّ بنعمـة هذه البعثـة ، يَحصلُ العلم والتميز بين ما يليق بجلال الله وعظمته ، وما لا يليق ، لأنَّ عُقولنا العاجزة المظلمة ـ التي وُصِمَ جبينها بوَصمة الإمكان والحدوث ـ أنَّى لها أن تُدرِك

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولى، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله، والشيخ خواجه عبيد الله.
(٢) المصدر السابق ، رقم: ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

ما يليق من الأسماء ، والأفعال ، والصفات ، بذات الله ـ تعالى ـ الذي هو قديم لم يَـزل ولا يزال ، فتنسِب إليه ، ما لا يليق من ذلك ، فيُجتنب منه ، بل طالما يَـظُنُّ عقلنا القاصر النقصَ كمالاً والكمال نقصاً ، وأن التمييز الصحيح ـ الذي تُنشئه النُّبوَّة وتُربيه ـ وهو نعمة أعظم وأجل ـ عند هذا العبد الضَّعيف ـ من كُلِّ نعمة ظاهرة أو باطنة ، وإن مِنْ أشقىٰ الناس مَنْ يَنسبُ إلى الله عزَّ وجلَّ ما لا يليق بعظمته وجلاله ، وما يُستكرَه في حقِّه .

والبِعثةُ هي التي فرَّقت بين الحق والباطل ، وميَّزت بين من يستحقُّ العبادة ، ومن لا يستحق ، وبوساطة هذه البعثة يدعو هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله عزَّ وجلَّ ويُشرِّفون عباد الله بالتقرُّب إليه والاتصال به ، وبهذه البعثة تُعْلَمُ مرضيَّاتُ الله وأوامره ، كما تقدَّم ذلك ، ويُميَّز بين ما يجوز فيه التصرُّف من ملكوته ، وما لا يجوز التصرُّف فيه .

وللبِعثة كثيرٌ من مثل هذه الفوائد والمصالح ، فَثَبَتَ أنَّ البِعثة رحمة ، فمن يَكفر بالبعثة اتِّباعاً للنَّفس الأمَّارة بالسوء ، وخضوعاً للشَّيطان الرَّجيم ، ولا يعمل حَسْب مُقتضياتها ، فماذا في ذلك من ذَنْب للبِعثة ، ولماذا لا تكون البِعثة رحمة» [1]؟ .

لا طَريـق إلى معـرفـةِ الله ـ تعالـى ـ إلاَّ الأنبيـاء:

«وبِسَببِ ما عُرِف به الأنبياء والمرسلون من الدَّعوة إلى الله ـ خالق السموات والأرض ، عـزَّ وجـلَّ ـ لاستمـرارِ بعثتـهـم، وتَـواتُـر رسـالتهـم، وتسلسـلُ ظهورهم، وبسبب انتشـار دعوتهـم ونفاذِ كلمتهم ، رجعَ سُفهاء كل عصر ومصر ـ الذين كانوا في شكٍّ مريبٍ من وجود صانع الكون ـ إلى الاعتقاد بوجوده ـ عَنْ غير إرادة منهم وقصد ـ فنَسبوا الأشياء كلها ، والمخلوقات بأسرها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ .

(١) الرسالة: رقم ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

فهذا النور الذي استناروا به قَبَسٌ من أنوار الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وفُتات مائدتهم ، فصلوات الله تعالىٰ وسلامه عليهم دائماً أبداً إلى يوم القيامة .

كذلك جميع الأمور المنقولة التي لم نَعْلَمْ خَبَرَها ، تنتهي إلى تبليغ الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ كصِفات الله الكاملة ، وبعثة الأنبياء ، وعِصمةِ الملائكة ـ عليهم الصلوات والتسليمات والبركات ـ والبعث ، والحَشرِ ، والنُّشور ، والجنَّة ، والنَّار ، ونعيم الجنَّة المقيم ، وعذاب النَّار الأليم ، وأمورٍ أخرىٰ تُخبرنا بها الشريعة المطهَّرة ، ويَعجز العقل عن إدراكها ، ويَقْصُر دون إثباتها بغير سماعها من الأنبياء ـ عليهم الصلوات التسليمات ـ وروايتها عنهم»[1] .

الوَضْعُ الصَّحيح في التَّرتيب والتَّدريج:

«ينبغي ـ قبل كل شيء ـ الإيمان بالرسول ـ ﷺ ، وتصديقُ رسالته ، حتى يُصدّقه الإنسان في كل أوامره وأحكامه ، وينجو بذلك من ظلمات الرَّيب والشكوك ، يَجبُ العلم بالأصل وتعقُّله وفهمه أولاً ، حتى يتيسَّر علم الفروع والجزئيات ـ بكل سهولة ـ وتفهُّمها وإدراكه ، وأن إدراك كل فرع من الفروع على حِدة من غير إثبات الأصل وإدراكه ، أمرٌ متعسِّر .

وأَقربُ طَريقٍ إلى هذا التصديق الكامل ، وطُمأنينة القلب ، هو ذكر الله ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد: ٢٨ ـ ٢٩] ، ويُستبعدُ الوصُول إلى هذا الهدف الأعلى عن طريق النظر والتأمل والاستدلال ، يقول الشاعر[2] ما معناه :

«إنَّ أَرْجُلَ أصحاب الاستدلال ـ أي الفلاسفة والمنطقيين ـ أرجلٌ خشبية ،

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، كتبها إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياديانى.

(٢) [هو مولانا جلال الدِّين الرُّومي ، قد سبق الحديثُ عنه في الجزء الأول من هذه السلسلة].

والأرجلُ الخشبية جِدٌّ واهيةٍ ضعيفة»[1].

المُصدِّق برسالة الأنبياء مِن أصحاب الاستدلال:

«اعْلم أَنَّ منَ يقلِّد الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ ويَقتفي آثارهم، بعد الإيمان بِثبوت نُبوَّتهم، وتصديقِ رسالتهم، يُعدُّ من أصحاب الاستدلال، فإنَّ تصديقَه بأحكامهم ـ من غير دليل ـ بعدَ الإيمان بنبوتهم عن دليل ـ عَين الدليل.

وعلى سبيل المثال، إذا كان شخص قد أَثبت بعض الأصول بالدليل والبرهان، فكل ما يَنتج عنها من فروع، تكون ـ بالطبع ـ بالدليل والبرهان، ويكون هذا الشخص ـ عند ذاك، من أصحاب الاستدلال في إثبات هذه الفروع كُلها، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، «والسَّلامُ على من اتبع الهدى»[2].

إخضاعُ أخبار الأنبياء للعُقول إنكارٌ للنبوة:

«إنَّ الصراط والميزان، والحساب حَقٌّ، لأنَّ المخبر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخبر بها، وإن استبعاد بعض الجهلة الذين لا يعرفون طريق النبوَّة، لهذه الحقائق الثابتة، سَاقِط مَرذُول، لأنَّ طريق النبوَّة وراء طريق العقل، وإن إخضاع أَخبار الأنبياء الصادقة للطريقة العقلية للبحث والتأمُّل، والتحقيق، والتوفيق بينهما، إنكارٌ ـ في الحقيقة ـ للنبوة، فالاعتماد في هذه القضايا التي هي وراء طور العقل، على الاتِّباع الكامل، والإيمان الصادق بالأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ من غير طلب الدليل والبرهان»[3].

---

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ مير محمد نعمان.

(٢) الرسالة السابقة نفسها.

(٣) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولى.

فَرْق كبير بين ما يعارض العقل وما يكون وَراء طوره:

«لا يظنُّ ظانٌّ أن طريق النبوَّة يُعارِض طريق العقل ، لا ! بل إن طريق العقل ـ وهو النظر والاستدلال ـ لا يؤدي بدون تقليد الأنبياء واتباعهم إلى هذا المقصد الرفيع ، المعارضة شيء ، والعَجز والقُصور شيء آخر ، لأن المعارضة لا تُتصوَّر إلاَّ بعد القُدرة والتَّمَكُّن» (١) .

مَعرفةُ طريق تعظيم الله ـ تعالى ـ وتقديسه محصورةٌ في النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم:

«فلا مناصَ من وجود الأنبياء ، حتى يُبصِّرونا بطريق الشكر للمنعم الحقيقي والثناء عليه ـ الذي ثَبت وجوده بالعقل لُزوماً وضرورة ـ ويبيِّنوا لنا طريق التعظيم والتكبير ـ علمياً وعملياً ـ لواهب هذه النِّعَم ، لأن التعظيم الذي ليس مَصدر علمه هو نفسه ، تعالى شأنه ـ لا يَجدر بجلاله ، ولا يليق بكماله ، لأنَّ القوة البشرية قاصرةٌ على إدراكه ، بل كثيراً ما يعتقد الإنسان تعظيماً وتسبيحاً ما ليسَ بتعظيم ولا تسبيح ، ويتحوَّل من الحمد والشكر إلى الذَّم والعيب ، ولا يُعلمُ طريق تعظيمه وتكبيره ، إلا بالنبوة وتعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأخبارِهم ، وما يَتلقَّى أولياءُ الله ـ تعالى ـ من الإلهامات لا تعدو قَبَساً من قَبَسات الأنوار النبويَّة ، وفيضاً من فُيوض أتباعهم ، والاقتداء بهم وبركة من بركاتهم» (٢) .

مكانةُ النُّبوَّة وراءَ العقل كما أَنَّ مكانة العقل وَراء درجةِ الحوَاسّ:

«وكما أَنَّ مكانة العقل ومَنزِلَتَهُ وراء مَنزلة الحواس ، حيث لا تُدرِك الحواسُّ ما يُدركه العقلُ ، كذلك مكانة النبوَّة وراءَ طَور العقل ودرجتِه ، فما

(١) الرسالة السابقة نفسها.

(٢) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياداني

لا يدركه العقل ، يُدرَك عن طريق النبوة ، فمن لا يَعترف بطريقةٍ لتحصيل العلم غير طريقة العقل ، فإنه ـ في الواقع ـ مُنْكِرٌ لطريقة النبوَّة ، معارِضٌ للهداية والنور»[1].

مَكانَةُ النُّبوَّة:

لقد نَشأ في الفلاسفة وبعضِ الإشراقيين المسلمين جَهْلٌ بِمكانة النبوة ، واستهانةٌ بقيمتها ـ لاشتغالهم ليل نهارَ بعلوم اليونان ، وحِكمتها ، وفَلسفتها ، التي ازدهرتْ وأثمرتْ عبر القرون والأجيال بمعزل عن دعوة الأنبياء وهُداها ـ ولاعتقادهم بأنَّها غايةُ العِلم وسِدْرة المنتهى، وانصرافِهم عن دراسة الحديثِ النبوي والسيرة النبوية ، واهتمام بهما ، وبعدمِ اهتدائهم بهَدْي الكتاب والسنة وتأمُّل في نصوصهما ـ وانقطاعهم كُلّياً إلى الرياضات البدنية والمجاهدات النفسية ، والاعتكاف لمدد خاصة ، ومواقيتَ معينة في القرون الأخيرة ـ ورافقَ هذا الجهل بمكانة النبوَّة نوعٌ من التَّنفُّر والاستغراب ، والاستبعاد.

وقد قوَّى هذا الاتجاه أنَّ هؤلاء الحكماء والإشراقيِّين يقرؤون في سير الأنبياء وأخبارهم ، وفي سيرة سيِّد المرسلين ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ أنهم كانوا يعيشون كما يعيش الناس ، يَتزوَّجون ، ويتناسلون ويعولون أهلهم وأولادهم ، ويَمشُون في الأسواق ، ويبيعون ويشترون ، ويرعون المواشي ، ويُشارِكون في الحروب ، ويتأثَّرون بالأحداث ، ويُسَرُّون بما يُسَرُّ به الناس ، ويَحزنون لما يحزنون له ، وليست عندهم هذه العبادات الـمُجهِدة المُضْنِية ، فلا صَوم الوصال، ولا هذا الاعتكاف، والاعتزال الذي يُسمَّى بـ «الأربعينية» وغيرها مما نشهدها عند أوساط الصوفية ، والأولياء ، والزهاد.

ثم إنهم كانوا لتبليغ رسالتهم ، وأداء دعوتهم مختلطين بالناس معنيين

(١) الرسالة السابقة نفسها.

بشؤونهم ، إذ لا تتأدّى هذه المسؤولية ، إلا بالاتصال بهم ، والعناية بحالهم ، ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤] . فالتفاتٌ إلى شيء يصرف عن الالتفات إلى شيء آخر ، ولم تكن لهذه الجماعات والأوساط المنصرفة إلى الفلسفة والرياضات ، أيُّ عناية بالعلوم الدينية ، لا سيَّما علم الحديث الشريف ، وكانت تُردِّد صباحاً ومساء وَقائع الكُشوف والكرامات ، وتَتحدَّث في معارض الأولياء المتقدِّمين والإشراقيِّين المتأخِّرين، وكمالاتِهم الباطنية ، وتجرِيدهم ، وتفرِيدهم ، وفَنائهم ، وسُكرهم وغير ذلك.

«لهذه الأسباب سَوّلت للفلاسفة والإشراقيين أنفسُهم أَنَّ مَقام الولاية فَوق مقام النبوّة ، وأنَّ الولاية عبارة عن كمال الانصراف إلى الله ، والانقطاع عن الخلق ، وأنَّ مهمة النبوة هي التبليغ والدعوة ، التي تتعلَّق بالخلق فالوَلِي «متوجِّه إلى الحق» والنبيُّ «مُتوجِّه إلى الخلق» ، والتوجُّه إلى الحق ـ طبعاً ـ أفضل وأعلى شَأناً من التوجه إلى الخلق ، وتَورَّع بعضهم قليلاً فقال: ليست الولاية فوق النبوة على سبيل الإطلاق ، ومُراد من قال ذلك: أن ولاية النبي ـ نفسه ـ أفضلُ من نبوته ـ وأن النبي عند اشتغاله بالحق أرفعُ شأناً من حال اشتغاله بالخلق ، ودعوتِهم وتبليغِ الرسالة إليهم.

وعلى كُلٍّ فإنَّ الأسلوب للتَّفكير يدلُّ ـ حتماً على أنَّ كثيراً من الأوساط الدِّينيَّة أيضاً ـ آنذاك ـ كانَتْ مُصابة بدهشة عظيمة للولاية ، ومَدارجها وكمالاتها ، التي كانت تترك آثاراً بعيدة المدىٰ على ارتباط الأمَّة الإسلامية بِمَنْبَعِها الأصيل: النبوَّة المحمَّديّة والشريعة الإسلامية ، وكان ذلكَ خطراً عظيماً يُـحَتِّم على المجدِّدين ، وورثة الأنبياء والمُرسلين أن يُقاوِموه ، ويَـرُدُّوه على أعقابه.

وإنَّ أوَّل من رَفع صوته بهذا الصَّدد ـ في حُدود عِلمِنا ـ صارخاً مُدوِّياً ، قويّاً مُوثِّراً ، مُدعَّماً بالأدلَّة ، والحُجج الناهضة ، وفي أسلوب يَجذب النُّفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، هو العالم الرَّباني المحقِّق ، والعارف البصير الشَّهير الإمام شرف الدِّين أحمدُ بنُ يَحيَىٰ المُنيري (٦٦١ـ ٧٨٦ هـ) في

أواسط القرن الثامن الهجري ، وردَّ على هذا الخطر ـ المشار إليه ـ رُدوداً قويّة مُفْحَمَةً في رسائله العلميّة .

ونبَغ بعد الإمام المُنيري الإمامُ السَّرْهندي ، الذي كان مُجدِّد هذا العلم العظيم ، والطريق المستقيم ، وخاتمة المحقِّقين ، فقد أثبت في رسائله : أنَّ الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هم المَثَلُ الكامل ـ خُلقيّاً وعقلياً ، وروحياً ، وعقيدياً ـ لصَنعة الله الخلاق العظيم ، وَصِفَة جُوده الكريم ، وأنَّ صلتهم مع الله وتوجههم إليه ، لا يصرفُه صارفٌ من شُغل أو عمل ، وذلك نتيجة شرح صدورهم الذي يَخُصُّهم الله به من دون العالمين ، وأنَّ من مُقتضيات عُلوِّ همَّتهم وقوة صبرهم واحتمالهم ، وسعَة صدورهم ، ومن مُقتضيات دعوتهم ، ورسالتهم ومهمَّتهم ـ التي نِيطت بهم ـ أن يكونوا في «صحوٍ دائم» ويَقَظة مستمرَّة ، وحُضورٍ بديهة ، وسرعة إدراك ، وهي تلك الخصائص التي لا يَتمتَّع بها أهل الوِلاية والسكر والغياب ، وأنَّهم يبدؤون من حيث ينتهي الأولياء ، ويحصل باتباعهم التقرُّب بالفرائض الذي لا يسمو إليه التَّقرُّب بالنَّوافل ، وأنَّ مثل كمالات الوِلاية ومقاماتها إزاء كمالات النبوَّة ودرجاتها ، مثل القَطرة في البحر ، ولْنَدع القُرَّاء الآن ليستمعوا من الإمام السَّرْهندي حديثَ هذه الحقائق الرَّفيعة والعلوم العالية :

الأنبياءُ أفضلُ موجود ، ومواهبُهم أعظمُ مَوهُوب:

«إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أفضل من جميع الموجودات ، ووُهبوا أفضل المواهب والثَّروات ، وإنَّ الوِلاية جُزء من النبوَّة ، والنبوة كلٌّ ، فالنبوَّة ـ لا محالة ـ أفضلُ من الوِلاية ، سواءٌ كانت ولاية النبيِّ ، أو ولاية الوليِّ ، والصَّحوُ أفضل من السُّكرِ ، لأنَّ السُّكرَ يَنطوي في الصحو ، كالولاية تنطوي في النبوَّة .

أمَّا ما يكون عند عامَّة النَّاس من يَقظة وتعقُّل ، فليس من مَبحثنا إذ لا اعتبار لتفضيل السُّكر على هذا الصَّحو العامي ، ولكنَّ الصحو الذي يحتوي على السُّكر ، أفضل حتماً من السُّكر ، وأنَّ علوم الشريعة التي مصدرها ومنبعها

النبوَّة ، كُلها صحو في صحو ، وكُلُّ ما يخالفها سُكر في سُكر ، وصاحب السُّكر معذور ، والجديرة بالاتباع والتَّقليد هي علوم «الصحو» لا علوم «السُّكر» [(١)].

لا يَحـول تَوجُّـه الأنبيـاء إلـى الخَلـق دون تـوجُّههـم إلـى الحـق ، لانشِـراح صدورهـم:

«قال بعضُ المشائخ في حال الغَيبوبة والسُّكر : «إنَّ الوِلاية أفضلُ من النبوَّة» وقال آخرون : «إنَّ المُراد بهذه الوِلاية ولايَةُ النبيِّ ، حتىٰ لا يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّ الوليَّ أفضل من النبيِّ» ، ولكن الواقع بالعكس ، لأن نبوَّة النبيِّ أفضل من ولايته نفسه ، إذ لا يتيسَّر الالتفات التَّام إلى الخلق في الوِلاية ، لضِيق الصَّدر وحرجه ، أمَّا في النُّبوَّة فلسَعة الصَّدر وانشراحه ، لا يحول الالتفات إلى الخلق ، دون الالتفات إلى الحقِّ ، ولا الالتفات إلى الحق دون الالتفات إلى الخلق ، ولا يكون الالتفات في النبوَّة إلى الخلق وحدهم ، حتىٰ تَرجح عليها الوِلاية التي تتوجَّه دائماً إلى الحقِّ ، والعياذ بالله سبحانه .

الالتفاتُ الكامل إلى الخلق منزلةُ العوام الذين هم كالأنعام ، ومكانةُ النبوَّة جليلة عظيمة ، ولا يَفقه هذه الحقيقة أهلُ السُّكر إلاَّ قليلاً ، فإنَّ هذه المعرفة حظٌّ من حظوظ أصحاب الصحو والاستقامة ـ «هنيئاً لأرباب النَّعيم نعيمهم» [(٢)].

بَاطنُ النَّبـيِّ مع الحـقِّ ، وظاهـرُه مع الخلـق:

«يُفضِّل بعضُ أصحاب السُّكر عِلم الوِلاية ـ الذي يُقبل على السُّكر ـ على عِلْم النبوَّة ـ الذي صُبغ بالصحو ، ومما صدرَ عنهم في حالة السُّكر قولُهم : «الوِلاية أفضل من النبوَّة» على أساس أن الوِلاية وجهها إلى الحق ، والنبوَّة

(١) الرسالة رقم: ٩٥، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى السيد أحمد بجواره.

(٢) الرسالة رقم: ١٠٨، المجموعة الأولى كتبها إلى السيد أحمد بجواره.

وجهها إلى الخلق ، ولا شكَّ في أنَّ التوجُّه إلى الحق أفضل من التوجُّه إلى الخلق ، ويُؤوِّل بعضهم قائلاً : «إنَّ وِلاية النبيِّ أفضل من نبوَّته».

ويرىٰ هذا الفقير أنَّ هذه الأقاويل تَشَدُّقٌ وتَقعير ، فليس في النبوَّة التفات إلى الخلق فحسب ، بل يُرافقه الالتفات إلى الحق كذلك ، وأنَّ باطن المتبوِّىء مكانةَ النبوَّة مع الحق ، وظاهرَه مع الخلق ، ومن كان كلُّ التفاته إلى الخلق فهو ممَّن لا يُؤبه بهم ، ولا خلاقَ لهم»[١].

الرَّدُّ على من يقول: «بدايات الأولياء نِهاياتُ الأنبياء»:

«إنَّ القول المحكيَّ عن بعض النَّاس: إن بداية الأولياء هي نهاية الأنبياء ، قول مرذولٌ ، والمُراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبياء عندهم «الشَّريعة» ، نعم لم يكن يدري ذلك المِسكين حقيقة الأمر ، فَتفوَّه بما يُخالِف الظاهر الصَّريح ، ولم يتصدَّ أحد لبيان هذه الحقائق ، بل صرَّح معظم النَّاس بعكسِها من الأقوال والآراء ، ويَستبعدون هذه الحقائق الواضحة ، ولكنَّ المُقْسِطَ العادل الذي ينظر إلى عَظَمَةِ الأنبياء ، ومكانتهم الرَّفيعة ، وتُسيطِر على قلبه ومشاعره عَظمة الشَّريعة وحرمته ، يتقبَّل هذه الأسرار الدقيقة ، ويَجعلها وسيلة لزيادة الإيمان وترقِيَتِه»[٢].

اقتصارُ دَعوة الأنبياء على عَالَمِ الخَلْق وبحثُهم عن القلب:

«استمع إليَّ يا بنيَّ ، إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ قَصروا دعوتهم على «عالم الخلق» وجاء في الحديث الشَّريف: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس ، شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وحجِّ البيت ، وصومِ رمضان»[٣].

---

(١) الرسالة رقم: ٩٥، المجموعة الأولى، وهي موجَّهة إلى السيد أحمد بجواره.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٠، المجموعة الأولىٰ كتبها إلى ابنه الشيخ محمد صادق.

(٣) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» =

ودَعَوا إلى تصديق القلب أيضاً لأنَّ للقلب صلة أكثر بعالم الخلق ، ولم يتعرَّضوا لما وراء القلب ، ولم يبحثوا ويخوضوا فيه ، ولم يَعُدُّوه من المَقاصد والغايات ، تأمَّل في نعيم الجنَّة ، وآلام النَّار ، ونِعمة رؤية الرَّب تعالىٰ ، ونِقمة الحرمان منها ، كل ذلك مُتَّصِل بعالم الخلق ، ولا علاقة له «بعالم الأمر» (١).

في اتِّباع النبوّة تحقيقُ التَّقرُّبِ بالفَرائض:

«كذلك أداءُ الفرض والواجب والسنَّة من الأعمال ، كُلُّها متَّصلة بالقلب الذي هو من عالم الخلق ، ويتَّصل بالأعمال النَّافلة ما يتعلَّق بعالم الأمر ، والتَّقرُّب الذي يحصل بسبب هذه الأعمال ، يكونُ على قدر هذه الأعمال ، فثبت من ذلك أنَّ التَّقرُّب الذي هو نتيجة أداء الفرائض ، يَرجع إلى عالم الخلق ، والتَّقرُّب الذي هو ثمرةُ أداء النَّوافل ، يرجع إلى عالم الأمر ، وما من شكٍّ في أنَّ النَّفل لا يُعدُّ شيئاً في جنب الفرض ، وليستْ نسبة النَّفل إلى الفرض ، كنسبة القَطرة إلى البحر ، بل النَّفل بالنسبة إلى السنَّة ، مَثله كذلك مَثل القطرة في البحر ، وإن كانت النسبة بين السنَّة والفرض ، كتلك النِّسبة بين القطرة والبحر ، ومن هنا ينبغي أن يُقاس تفاوت ما بين التقرُّبين ، وأن يُدركَ ما لعالم الخَلق من رُجحان وفضلٍ على عالم الأمر» (٢).

مَقاماتُ الوِلايةِ لا شيءَ إزاءَ مَقاماتِ النُّبوّة:

«لقد شرح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صَدري لمعرفة أنَّ مقامات الوِلاية ودرجاتِها ليست بشيء إزاء مقامات النُّبوّة ودرجاتها ، حتىٰ إنَّها لا تُوجد بينهما تلك

= برقم (٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أركان الإسلام ، برقم (١٦). وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، واللفظ لمسلم].

(١) الرسالة السابقة نفسها.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٠ ، المجموعة الأولى.

النسبة التي تُوجد بين القَطرة واليَمِّ ، فما يُنال عن طريق النُّبوَّة من خير وفضل وامتياز يكون أضعاف ما يُنال عن طريق الوِلاية ، فالأفضليَّة المُطلقة للأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ والأفضليَّة الجزئيَّة للملائكة ، ومن ثَمَّ فإنَّ قول جمهور العلماء هو المصيب .

وتجلَّىٰ من هذا التَّحقيق أنَّ أيَّ وليٍّ من الأولياء لا يستطيع أن يسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ بل إنَّ رأس ذلك الولي تحتَ قدم النبيِّ ﷺ »[1] .

وَجهُ إصابةِ عُلوم العلماء وتحقيقاتهم ، ورُجحانها وأفضليَّتُها:

«إذا تأمَّلتَ في المسائل التي اختلفتْ فيها أقوالُ الصُّوفيَّة والعلماء ، تجدُ الحق مع العلماء ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ نظر العلماء ـ لاتِّباعهم الأنبياء ـ يَنفُذ إلى علوم النبوَّة وكمالها ، وأنَّ نظر الصُّوفيَّة يَنْحَصِرُ في كمالات الوِلاية وعلومِها ومعارفها ، فالعِلم الذي يُقتبس من مِشكاة النُّبوَّة ، لا جرم أن يكون أصحَّ وأحقَّ ، وأصوبَ من العِلم الذي يُؤخذ من مراتب الوِلاية»[2] .

«وقد ذَكر الفقير في كتبه ورسائله ، وحقَّقه تحقيقاً: أن معارج النبوَّة بمثابة البحر الخِضَمِّ ، وكمالاتُ الوِلاية إزاءها كقَطرةٍ حقيرة ، ولكن عَجباً من جماعة قالت : ـ لعَدم وصولها إلى إدراك معارج النبوَّة ـ «إنَّ الوِلاية أفضلُ من النبوَّة» وأوَّلَ ذلك فريق آخر ، فقال : «إنَّ وِلاية النبيِّ أفضل من نبوَّته» ، وكلا الفريقين بجهلهما بحقيقة النبوَّة أَصْدروا حكمهم على الغائب ، ويقرُب منه تفضيلهم السُّكر على الصحو ، فلو كانوا يَدرون حقيقة الصَّحو لما رَضوا للسُّكر بأن يُعدَل بالصحو ، «أين الثَّرىٰ من الثُّريَّـا»؟

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

(٢) الرسالة السابقة نفسها.

ولعلَّهم قاسوا «صحوَ» الخاصَّة على صحو العامَّة ويَقظتِهم ، ففضَّلوا السُّكر عليه ، فكان عليهم أن يَحكموا سُكر الخاصَّة بذلك ، قياساً لسكر الخاصَّة على سكرة العامَّة ، لأنَّ الحكماء مُتَّفقون على أنَّ الصَّحو أفضل من السُّكر ، وهذا الحكم نافذ في كلا الحالتين ، سواء كان الصحو والسُّكر مجازيِّين أو حقيقيِّين»[1] .

عَظمةُ الأنبياء ورِفعَتُهُم بنُبوَّتهم:

«ينبغي أن يُعلَم ـ حتماً ـ أنَّ كُلَّ ما ناله الأنبياء من عظمة وعلو مكانة ، نالوه عن طريق النبوَّة ، لا عن طريق الوِلاية ، وليست الوِلاية بإزاء النبوَّة إلاَّ خادماً من خَدمِها ، ولو كانت الوِلاية أفضل من النبوَّة لكان ملائكة الملأ الأعلىٰ ـ الذين وِلايتهم أكملُ الوِلايات وأجلُّها ـ أفضلَ من الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ.

ولمَّا كان فريقٌ منهم يعتقد أنَّ الوِلاية أفضل من النبوَّة ، أدَّاه ذلك إلى الاعتقاد بأنَّ وِلاية ملائكة الملأ الأعلىٰ أكمل من ولاية الأنبياء ، وفضل ملائكة الملأ الأعلىٰ ـ تبعاً لذلك ـ أفضلُ من الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فشذَّ عن جمهور أهل السُّـنَّـة .

وإنَّ كل ذلك نتيجةُ الجهل بحقيقة النبوَّة ، ومكانتها العظيمة ، ولما أن النَّاس ـ لبُعد عهدِهم بالنبوَّة ، يَحقرون فضائل النبوَّة ومَدارجها إزاء مدارج الوِلاية وكمالها ، ويستهينون بها ، رأيتُ أن أتحدَّث عن هذا الموضوع بِشَرح وإسهاب ، وذكرت درَّة من الحقائق وواقع الحال»[2] .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

---

(١) الرسالة: رقم ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٨، المجموعة الأولىٰ كتبها إلى خانخانان.

الإيمان بالغيب نعمةٌ خُصّ بها الأنبياء وصحابتهم والعلماء ، وعامَّة المؤمنين:

«بَعد الحمد لله ، والصلاة والسّلام على النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلَّم ـ ليعلم أخي وعزيزي مُحِبُّ الله أنَّ الإيمان بواجب الوجود ـ تعالىٰ شأنه ـ والإيمان بجميع صفاته بالغيب ، مما خُصَّ به الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وصحابتهم ـ رضي الله عنهم ـ والأولياء الذين ينزلون نزولاً تاماً كاملاً لدعوة الخلق إلى الخالق ـ جلَّ ذكره ـ ونِسبتهم إلى الأنبياء كنِسبة الصَّحابة إليهم ، بَيْدَ أنَّهم أقلُّ منهم شأناً ودُونهم مكاناً ـ كما خصَّ له العلماء وعامة المؤمنين.

أمَّا الإيمان بالشهود فنصيب الصُّوفيَّة ، سواء كانوا من أصحاب العُزلة (المُنقطعين عن الخلق) أو أصحاب العِشرة (المُتَّصلين بالخلق) لأنَّ أصحاب العشرة وإن كانوا يَنزلون إلى النَّاس بعد الانقطاع إلى الحق ، ولكن لا يكونُ نزولهم كاملاً تاماً ، إذ أنَّ باطنهم يبقىٰ معلَّقاً بالعُلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود دائماً.

أمَّا الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتَّسليمات ـ فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، ويصرفون كل عنايتهم ـ ظاهراً وباطناً ـ بالدعوة إلى الحق ـ جلَّ اسمه ـ فيكون الإيمان بالغيب نصيبهم ، ويُخَصُّون به دون الصُّوفيَّة»[١].

نُزول الأنبياء دليلٌ على بُلوغهم نِهاية النِّهايات:

«لقد أثبت هذا الفقيرُ إلى الله ، في بعض رسائله أنَّ التَّعلُّق بالعلوِّ بعد النُّزول ، والحنينَ إليه ، دليلٌ على النقص والقصور ، وعلامةٌ على عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، وأنَّ النزول التام الكامل دليلٌ على بلوغ نهاية النِّهايات وغاية الغايات ، وقد ظنَّ الصُّوفيَّة الجمعَ بينهما (أي التوجُّه إلى

(١) الرسالة رقم: ٢٨٢، المجموعة الأولى وهي موجَّهة إلى السيد محب الله المانكبوري.

الحقِّ، والتوجُّه إلى الخلق) كمالاً، وعَدُّوا الموفِّقين بين التَّشبيه والتنزيه، والجامعينَ بينهما من الكاملين فأين نحنُ من هؤلاء!»[١].

نشأة التصوُّف:

إنَّ منهج العلاقة مع الله ـ تعالىٰ ـ وتَقوية الصِّلة به، وتقويمها والصِّيانة عن الغفلة والماديَّة، ومُعالجة الأدواء النَّفسيَّة، والأمراض الرُّوحيَّة، الذي سُمِّي ـ على مرِّ الأيام ـ لعوامل وأسباب عديدة ـ بالتَّصوُّف، هو الذي يدعىٰ في المصطلح القرآني بـ «التَّزكية» وفي التَّعبير الحديثي بـ «الإحسان»، وقد اعتُبرت هذه الشعبةُ من شُعب الدِّين من مَقاصد البعثة المحمديَّة الأربعة التي صرَّح بها القرآن الحكيم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد كانت هذه المهمَّة العظيمة لإقامة الدِّين قَلباً وقالبَاً، وجسماً وروحاً، وقانوناً وعاطفة، مَنُوطة بخاتم النَّبيِّين ـ عليه الصلاة والتَّسليم ـ ثم بخُلفائه الرَّاشدين، والوَارثين لميراثهم بحق وجدارة، وقد قام هؤلاء بتجديد هذا «الطِّب النَّبويِّ» والحِفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال تلو الأجيال، مثل حفاظهم على الشَّريعة الغرَّاء، واستمرُّوا يَبْذُلون الجهود في نشر «فِقه الباطن» والدَّعوة إليه، مع نشر «فِقه الظَّاهر» وأدائه وتبليغه، وقد كان عملهم هذا بإجمال أكثر منه بالتَّفصيل، وعلى أساس الاهتمام بالأصول أكثر منه بالفروع.

ولكن لمَّا توسَّعت الرُّقعة الإسلامية، واندَاحتْ دائرة الفتوح والانتصارات، ودخلتْ بلادٌ جديدةٌ في الإسلام، وانتشرت الدَّعوة الإسلامية في الآفاق، وانهالتِ الأموال والثَّروات، وتيسَّرت سُبُلُ العيش، وتوفَّرت وسائل التَّرف والبَذخ، وبَعُد عهدهم بالنُّبوَّة، وصدقَ عليهم قولُ

(١) الرسالة السابقة نفسها.

ربّك : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] . ومُدَّت حبائل الشَّيطان ، ونَجمت فِتَن الماديَّة ، والأمراض الرُّوحيَّة ، والأدواء النَّفسيَّة في صور وألوان ، وفي ثياب النَّظريَّات الجديدة ، والفلسفات الوليدة ، قامَ العلماء بتدوين علم التَّزكية والإحسان باصطلاح حادث جديد ، ألا وهو «التَّصوُّف» .

كما أنَّ اختلاط الشُّعوب العَجميَّة حول قواعد اللغة (النَّحو والصَّرف) وفنَّ المعاني والبيان ـ الذي كان أهل اللِّسان يعرفون أصوله ومباديه بِسَليقتهم وفطرتهم ـ إلى علم واسع دقيق ، وهو ما يُسمَّىٰ بعلم النَّحو والبلاغة ، ظهر فيهما نوابغ العلماء البارعين الذين أنشؤوا «مدارس» مستقلَّة ، و«جامعات» شهيرة ، ووُضعت لها المناهج الدِّراسيَّة ، وقصدها هُواة العِلم والطُّلاَّب من كلِّ حدب وصوب .

لقد كانت عمدةُ هذه الطَّريقة لمعالجة الأمراض الرُّوحيَّة (أي التَّصوُّف والتَّزكية) على تَـتَـبُّع الكتاب والسُّنَّة ، وسيرة الرَّسول ـ ﷺ ـ وأخلاقه وعاداته وشمائله .

البِدَعُ والخُرافات تغزو التصوُّف:

ثم بدأت تغزو التَّصوُّفَ ـ نتيجة عوامل الزَّمن ، والاختلاط بالشُّعوب العجميَّة ، والتي دخلت حديثاً في الإسلام ، وصحبة النُّسَّاك والزُّهَّاد ، وإجلالهم والعقيدة فيهم ـ البِدعُ والخُرافات ، والمُغالاة في التَّنسُّك والزُّهد ، وتسرَّبت إليه جراثيم الرَّهْبَنة ، والتَّجرُّد، والاعتزال ، والتَّعظيم المفرِط المُتطرِّف لأشخاص ورجال يُعتقد فيهم الصَّلاح والوِلاية ، وكثير من العادات والتَّقاليد المختلفة المُفتراة ، حتَّىٰ دبَّت على مرِّ الأيَّام إلى بعض الأوساط الرُّوحيَّة عقيدةٌ أجنبيَّة دخيلة على الإسلام ، وهي أنَّ السَّالك بعد الاستغراق في العبادات بإخلاص ودقَّة ، واستيعاب ، والتزام الفرائض ، والسُّنن لمدَّة خاصَّة ، وبعد حصول المعرفة الكاملة يَرتقي إلى مقام يُرفع عنه فيه التَّكليف،

وتَسْقُط عن ذمّته الفرائض الشَّرعيَّة، والعِبادات المكتوبات ، يُستثنىٰ من التزام كل ذلك والتَّقيُّد به ، وهذا ما يُسمَّىٰ بـ «سقوط التَّكاليف» ، ويَستدلُّ أصحاب هذه العقيدة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] ، إنَّها كانت فتنة عمياء ، صَمَّاء تجمِّد نِظام الشَّريعة بأسره ، وتُحرِّر السَّالك من كلِّ القيود والحدود ، وتُطلق رقبته من نير العبادات والقُرُبات.

ويبدو أنَّ هذه المُحْدَثات والتَّحريفات في الإسلام بدأت من أوائل القرن الرابع حين كانتِ الخِلافة العبَّاسيَّة في أَوجِ زَهرتِها ، وعُنفُوان شَبابها ، وكانت المدينة الإسلامية العظيمة (بغداد) في ذُروة الرُّقيِّ والمدنيَّة ، فإنَّ أقدم ما أُلِّف في التَّصوُّف ومما طُبع ونُشِر هو تأليف الشيخ أبي النَّصر السرَّاج (م٣٧٨هـ) «كتاب اللُّمع» وفيه فصل بعنوان «كِتاب الأسوة والاقتداء برسول الله ـ صلَّىٰ الله عليه وعلى آله وسلَّم ـ» [١] ، ولعلَّه لأجل ذلك وردت بعده في كتاب «كشف المحجوب» للسيِّد علي الهِجْوَيْرِيّ (م٤٦٥هـ) [٢] ، مثل هذه العبارات المُنذِرة المذكِّرة: «إنَّ إقامة الحقيقة من غير الحِفاظ على الشَّريعة محال ، والحقيقة بغير الشَّريعة نِفاق».

وأقدَمُ كتابٍ يَضمُّ منهجاً كاملاً للتَّصوُّف هو «الرِّسالة القشيريَّة» تأليف الإمام أبي القاسم القُشَيْرِيّ (م٤٦٥هـ) ، وقد بلَغ التَّصوُّف في عصره من التَّردي والانحطاط حتىٰ قال القُشيري في كتابه:

«وارتحل عن القلوب حُرمة الشَّريعة ، فَعدُّوا قِلَّة المُبالاة بالدِّين أوثق ذريعة . . . واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصَّوم والصَّلاة» [٣].

والبابُ الأوَّل في كتابه يتعلَّق بتعظيم حُرمة الشَّريعة ، وقد ذكر فيه نُبذةً من أحوال المشايخ والصُّوفيَّة ، وأخبارِهم في تعظيم حُرمة الشَّريعة ، واتِّباع السُّنَّة

---

(١) كتاب «اللمع»، ص ٩٣ ـ ١٠٤، طبعة لندن ١٩١٤م.

(٢) هو الإمام أبو الحسن علي بن عثمان أبي علي الجلابي، وقبره بلاهور.

(٣) الرسالة القُشيريَّة: ص١، طبعة مصر.

النَّبويّة ، ويقول في الباب الأخير ـ رقم ٥٤ ـ بعنوان «وَصيَّة المُريدين» :

«بناءُ هذا الأمر ومَلاكُه على حِفظ آداب الشَّريعة» ، والكتاب كلُّه يحتوي على الحقائقِ الشَّرعيَّة والعلوم الصَّحيحة النَّافعة ، وقد اهتمَّ به الصُّوفيَّة المُحققّون ككِتابٍ دراسيٍّ يُوثَق به ويُعْتَمَدُ عليه .

والإمام عبد القادر الجيلاني البغدادي أَجلُّ مشايخ الطَّريقة ، وأئمة الحقيقة شأناً ، وأشدُّهم تحمُّساً للشَّريعة ، وحماية لها والدَّعوة إليها ، فقد كان أكبرُ تركيز في تعاليمه وإرشاداته على التَّمسُّك بالسُّنَّة واتِّباع الشَّريعة ، وكانت حياتُه كلها ترجمةً حيَّة لهذه الدَّعوة وصُورةً جليَّة لهذا المنهج ، وقد رَبط بتأليف كتابه العظيم «غُنية الطَّالبين» ناصية الطريقة بأذيال الشَّريعة ، وتَختصُّ الموعظة الثَّانية من كتابه «فتوح الغيب» المُشتملُ على خطبه ، ومواعظه؛ باتِّباع السُّنَّة ونبذ البِدعة ، ويبدؤها بقوله: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا».

إنَّـه يتبـوَّأُ مَكَانة المُجدِّد في إخضاع الطَّريقة للشَّريعة ، واستخدامها لزيادة التَّمسُّك بالشَّريعة ، ويُرشِد إلى الاشتغال بالفرائض أوَّلاً ، ثم بِالسُّنن ثانياً ، ثم بالتَّطـوُّع ثالثاً ، ويُـصرِّح بأنَّ الاشتغال بالثانـي يكون بتَـرك الأوَّل ، سَفاهَةٌ ورُعُونَة .

وإنَّ أكثر كُتب التصوُّف قَبولاً ورواجاً ، وأوثقها عند الصُّوفيَّة وأفضلَها هو كتاب «عوارف المعارف» للشيخ شِهاب الدِّين السَّهْرَوَرْدي (م ٦٣٢هـ) الذي تمسَّك به الصُّوفيَّة ، وردَّدوه في كل عصر ومصر ، وكان يُدرَّس في كثير من الزوايا والرباطات ، ويتعلَّق الجزء الثَّاني من هذا الكتاب ببيان أسرار أركان الشَّريعة الإسلاميَّة وآدابها ، وتوصَّل الشَّيخ فيه إلى هذه النَّتيجة : «إنَّ التَّصوُّف عبارةٌ عن الاقتداء بِالرَّسول ﷺ قولاً وعملاً وحالاً ، وبالمُواظبة عليه تتقدَّس نفوسُ الصُّوفيَّة ، وتَرتَفع الحُجب ، ويتحقَّق الاتِّباع للرَّسول ﷺ في كُلِّ شيء»[1] .

---

(١) عوارف المعارف: ص١ .

تحـوُّل التصوُّف إلـى فلسفـة:

وتَحوَّلَ التَّصوُّفُ في القرن التَّاسع الهجري بتأثير الشيخ محيي الدِّين بن عربي الأَندلسيِّ الطَّائي (م٦٣٨هـ) وتلامذته ـ وكان تأثيراً قوياً انتشر في العالم الإسلامي كالتَّيَّار المُندفع السَّريع ـ إلى فلسفة انطوت على كثيرٍ من مصطلحات الفلسفة الإلٰهيَّة اليونانيَّة، وقضاياها المُتشعِّبة، وأصبحتْ نظريَّة «وحدة الوجود» شعَار الصُّوفيَّة، يَعْتَزُّون بها ويَفتخرون، وتحمَّست لها الزَّوايا والتَّكايا، والمدارس، وحلقات العلم، وظلَّتِ الرِّباطات والزَّوايا الصُّوفيَّة ـ لقلَّة الاشتغال بالكتاب والسُّنَّة، والجهل بعلم الحديث الشَّريف، وقِلَّة وجود الصِّحاح والكتب المعتمد عليها عند أهل الصِّناعة ـ مرتَعَ العقائد والأفكار التي لا دليل عليها، ولا سندَ لها، في مصادر الدِّين الأصليَّة، ولم يكن يَعْرِفُها مسلمو القرون الأولىٰ على الإطلاق.

التصـوُّف فـي الهنـد:

وهنا في الهند ـ التي كانت منذ آلاف السِّنين مركزَ اليُوك، والتَّنسُّك والرَّهبانيَّة ـ واجَه الصُّوفيَّة الواردينَ من الخارج اليَوكِيِّين المُحنَّكين المُرتاضين الذين كانوا ضاعَفوا قوَّة نفوسهم، ومخيَّلتهم عن طريق حَبْس الأنفاس، والتَّأملات اليوكيَّة المعروفة لديهم، فتعلَّم بعض المتصوِّفة المسلمين منهم هذا الفنّ [١].

(١) هذا في جانب، وفي الجانب الآخر كانت هذه البلاد لا تعرف شيئاً عن الصِّحاح الستة، ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه، وميَّزوا بين صحيحها وسقيمها، وقاوموا البدع والمُحدثات، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ونستثني من ذلك ولاية كجرات، التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة الرحلات منها إلى الحرمين الشَّريفين، ونبغ فيها العلامة علي المتقي البرهان بوري، وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني.

ويمكن الاطِّلاعُ على هذا التَّأثير الذي خَلَّفَتْهُ الفلسفات والتَّجارب المحليَّة في الهند على التَّصوُّف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، الذي ذَاع صِيته في عصره ، وحَصل له القبول العظيم عند النَّاس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصُّوفيَّة ، وتجارب الشَّيخ الكواليارى الشَّخصيَّة ويُخيَّل إلينا أنَّهم لم يروا حاجةً إلى ثُبوت هذه الأمور بالأحاديث الصَّحيحة ، واقتباسِها من كتب السِّيرة النَّبويَّة المُعتبرة ، فَتَجِدُ في هذا الكتاب المذكور آنفاً «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» ، والصلوات المخصوصة للأشهر المختلفة والأدعية الخاصَّة بها ، التي لا أصل لها في السُّنَّـة ، ولا أَثَر لها في الحديث.

وقد جمع المؤلِّفُ (الشَّيخ الكواليارى) في «الجوهر الثاني» ـ حَسب تقسيمه للكتاب ـ «الأسماءَ الأكبريَّة» التي تحتوي على أسماء المَلائكة باللُّغتين العِبرانيَّة والسِّريانيَّة ، وقُدِّمت بِحروف النِّداء ، وهذا يدلُّ على الاستعانة بغير الله ، وذُكِرَ فيها دعاء باسم «دعاء بَشمخ» الذي ذُكرت فيه الأسماء السِّريانيَّة والعِبرانيَّة مُقدَّمة بحروف النِّـداء.

والكِتابُ كُلُّه مؤسَّس على الدَّعوة إلى الأسماء ، ويُعتقد أنَّ لهذه الأسماء حَفَظَةً مُوَكَّلين يَعرفون حقيقتها وماهيَّتها ، وذُكرت حروف الهِجاء ، وأسماء الموكَّلين بها أيضاً ، وفيه دعاءٌ بهذه الصِّيغة «نادِ عليّاً مُظهرَ العجائب» !.

لقد بدأ عملُ الإمام السَّرْهندي التَّجديديُّ في هذا العصر الذي امتاز بهذا الخليط الغَريب من السُّنَّة والبدعة ، والشَّريعة والفلسفة ، والتَّصوُّف الإسلامي واليُوك ، ويقول هو نفسُه في رسالةٍ وجَّهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يُصوِّر هذا الوضع المُكْفَهِرّ:

«لقد كَثُرت البِدَعُ والمُحدَثات في هذه الأيام كثرةً فاحشة ، حتىٰ لَـيُخيَّل للنَّاظر ، أنَّ بحراً من الظُّلُمات تتَلاطم أمواجه ، وأنَّ نور السُّنَّـة في هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يَراعاتٍ منتشرة في ظُلمة الليل البَهيم».

رفع الإمامُ السَّرْهنديُّ صَوتَهُ مُجلجِلاً مُدَوِّياً ـ في هذه الفترةِ الخطيرة الحرجة في الهند ، إذ كانت شَأفَةُ الإسلام تُستأصَل بأيدي الدَّولة التي تَتسمَّىٰ بالإسلام ، ويُستهان في الزَّوايا الصُّوفيَّة بالسُّنَّة النَّبويَّة ، ويُقال علناً وجهاراً: إنَّ الطَّريقة في واد ، والشَّريعة في واد ، لِكُلٍ منها طريقه وتقاليده وأصوله.

أمَّا طالب الحق الذي يريد معرفة الحقِّ ، فَيَسأل المشايخ عن الدَّليل الشَّرعي ، فكان جوابه «هذا وادٍ ليس زاد المسافر فيه إلاَّ التَّقليد والانقيادُ المُطلق للشَّيخ الحكيم ، ولو أَمَرَه بِإتيان مُحَرَّمٍ ومحظورٍ في الشَّرع».

حماية الشريعة الإسلامية والدِّفاع عنها، وإصلاح العقائد، ودحض الشِّرك وتقاليد الجاهلية:

في هذا الجوِّ القاتم أعلن الإمام السَّرْهندي في قُوَّة وجَراءَة ، «أنَّ الطَّريقة من خَدَم الشَّريعة ، خاضعةٌ لأمرها ، وأنَّ محاسن الشَّريعة أعلىٰ وأرفع من «المقامات ، والأحوال ، والمُشاهدات» وأنَّ العمل بحكُمٍ شرعيٍّ واحدٍ أنفعُ من مُجاهدة آلاف السِّنين ، وأنَّ القيلولة اتباعاً للسُّنَّة ، أفضلُ من إحياء الليل من غير اتِّباعِ السُّنَّة ، ولا اعتدادَ بأعمال الصُّوفيَّة في الحِلِّ والحُرمة ، بل الحاجة إلى دليلٍ من الكتاب والسُّنَّة ، وكُتب الفِقه ، وأنَّ رياضات أهل الضَّلال ، ومجاهداتهم لا تستوجب القرب ، بل تستحِقُّ البُعد والطَّرد ، وأنَّ الأشكال والصُّور الغيبيَّة من قبيل اللهو واللعب ، ولا يَسقط التَّكليف الشَّرعي أبداً.

واقرأْ ـ بعد هذا التَّمهيد ـ مُقتبساتٍ من رسائل الإمام التي تشتمل على بيان هذه الحقائق :

«إنَّ الشَّريعة مُتكفِّلةٌ بجميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة ، وليس هناك مَقْصدٌ نحتاج في تحقيقه وإنجازه إلى شيء غير الشَّريعة ، وأنَّ ما يمتازُ به الصُّوفيَّة من «الطَّريقة والحقيقة» كلتاهما خادمتان للشَّريعة تُساعدان في تحصيل الإخلاص وصَفاء النيَّة ، وهكذا فإنَّ الهَدف من وراء تَحصيل الطَّريقة

والحقيقة ، ليس إلاَّ تطبيقَ الشَّريعة ، بِرُوحها وحقيقتها ، لا ما هو خارج عن نِطاق الشَّريعة .

أمَّا الأحوال والمواجيد ، والعلوم ، والمعارِف التي تَقَع في طريق السَّالك لا علاقة لها بالمقاصد ، بل إنَّها أشكال وألوان وأخيلة و«لُعب تربَّىٰ بها أطفالُ الطَّريقة» وينبغي الوصول مروراً بهذه الأشياء إلى مقام الرِّضا ، الذي هو نهاية السُّلوك والمواجيد والمقامات»[(١)] .

وَيقول في هذه الرِّسالة أيضاً :

«يَظُنُّ قِصار النَّظر أنَّ الأحوالَ والمواجيد من المقاصد والغايات ، وأنَّ المشاهدات والتَّجليات من المطلوبات ، ويَستلزم ذلك حَبْسهم في سِجْنِ الوهم والخيال ، والحِرمان من فضائل الشَّريعة ومدارِجها العظيمة :

﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[(٢)] [الشورىٰ: ١٣] .

ويقول في رسالة أخرىٰ ، مُبيِّناً تقديم الفرائض على النَّوافل ، وترجيحاً عليها :

«إنَّ ما يُتقرَّب به إلى الله من الأعمال ، هي إما فرائض وإمَّا تطوُّعات ، وليس للتَّطوُّعات أيُّ قيمة إزاء الفرائض ، وإنَّ أداء فريضة في وقتها أفضلُ من تطوُّعِ ألفِ سنة ، ولو كان بِنيَّةٍ خالصة»[(٣)] .

ويقول في رسالة لبيان أنَّ العمل بأحكام الشَّريعة بغية إصلاح النَّفس وإزالة الأمراض الباطنيَّة أنفعُ من آلاف الرِّياضات والمُجاهدات :

«إنَّ العمل بالأحكام الشَّرعيَّة بُغية إزالة الأهواء النَّفسانيَّة أعظمُ نفعاً وتأثيراً من رياضاتِ ألف سنة ، ومُجاهداتها التي يَضعها السَّالك من تلقاء نفسه ، بل

---

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى الشيخ حاجي محمد اللاهوري.

(٢) الرسالة السابقة نفسها.

(٣) الرسالة رقم: ٢٩ ، المجموعة الأولىٰ ، وهي موجَّهة إلى الشيخ نظام التهانيسري.

هذه الرِّياضات والمُجاهدات التي لا تُوافق مُقتضيات الشَّريعة الغرَّاء ، تَزيدُ في شدَّة الأهواء والأمراض النَّفسانيَّة صرامتها ، فإنَّ البراهمة واليُوكيِّين لم يَدَّخروا وسعاً في الرِّياضات والمُجاهدات الشَّاقَّة ، ولم تُجدهما فتيلاً ، ولم تَزِدهُما إلاَّ عُتواً وضلالاً».

ويقول في رسالة أخرىٰ مُبيِّناً أهميَّة محاسن الشَّريعة وفضلها :

«إنَّ أكثر الناس ـ في هذه الدُّنيا ـ فرِحون بتخيُّلاتهم ورُؤاهم ، ومُقتصرون على اللَّوز والجوز ، ما يُدريهم بمحاسن الشَّريعة وفضائلها ، وحقيقة الطَّريقة وأصلها؟! إنَّهم يَرون الشَّريعة قِشرة ، والطَّريقةَ لُباباً ، ولا يدرون الحقيقة ، مخدوعين بشطحات الصُّوفيَّة، وأقوالهم السَّطحيَّة ، مَفتونين بأحوالهم ومقاماتهم» [١].

ويقول في رسالة لبيان فضيلة العمل بسُنَّة واحدة وأهميَّته :

«الفضيلةُ مُرتبطة باتِّباع السُّنَّة السَّنيَّة ، والشَّرفُ قائم على العمل بالشَّريعة ، فالقيلولة ـ مثلاً ـ بِنيَّة اتِّباع السُّنَّة أفضل من إحياء اللَّيل مئات الآلاف من المرات ، وأداءُ فِلس واحد من الزَّكاة أفضلُ من إنفاق جبالِ الذَّهب تطوُّعاً وتصدُّقاً» [٢].

ويقول في رسالة أخرىٰ :

«يعتقدُ الصُّوفيَّة النَّاقصون أنَّ الذِّكر والفِكر أهمُّ المهمَّات ، ويتكاسلون عن أداء السُّنن والفرائض ، ويُفضِّلون الرِّياضات والأربعينيات على الجمعة والجماعات ، ولا يَدرون أنَّ أداء صلاة واحدة مع الجماعة أفضلُ من آلاف الأربعينيَّات التي يعتكفون فيها ، أمَّا إذا كان الذِّكر والفِكر مع مراعاة الآداب الشَّرعيَّة فهما من أفضل الأعمال والقربات ، وكذلك العلماء النَّاقصون

---

(١) الرسالة رقم: ٤٠، المجموعة الأولىٰ كتبها إلى الشيخ محمد الجتري.

(٢) الرسالة رقم: ١١٤، المجموعة الأولىٰ، وهي موجَّهة إلى الصوفي قربان.

يجتهدون في نَشر النَّوافل والتطُّوعات والدَّعوة إليها ، ويُضيِّعون الفرائض ويُفسِدونها»(١).

ويكتب إلى الشيخ مِير مُحمَّد نُعمان ، فيقول :

«هناك فريق من هؤلاء الصُّوفيَّة لم يُقدَّر له أن يعرف حقيقة الصَّلاة وفضائلها الخاصَّة ، فَيَبحثُ عن علاجِ أمراضه الرُّوحيَّة في أشياء أخرىٰ ، ويَظُنُّ أن أهدافه ومقاصِدَه مرتبطة بأمور أخرىٰ .

بل إنَّ منهم فريقاً لا يرىٰ فائدة في الصَّلاة ، ويحملها على «الغيريَّة» والأجنبيَّة ، ويُفضِّل عليها الصَّوم ، إذ تتجلَّىٰ فيه صِفة «الصَّمَدِيَّة» .

والكثرةُ الكاثرةُ من هؤلاء الصُّوفيَّة تَجِدُ طُمأنينتها وسلواها في الأغاني والنَّغمات ، والوَجْد والتَّواجد ، وتحسَب الرَّقص مَنْقَبَةً وكمالاً ، ألم يسمعوا قول الرَّسول ﷺ : «ما جعل الله في الحرام شفاءً»(٢) ، لو انكشفتْ عليهم ذَرَّةٌ من مكانة الصَّلاة وحقيقتِها ما سرَّتْهُم الأغاني ، ولا أطربَتْهُمُ الألحان ، ونَسَوا المواجيد والأذواق ، فلمَّا لم يُبصرُوا الحقيقة كما هي ، هاموا على وجوههم في الأساطير والخُرافات»(٣) .

ويُشِيرُ في موضع إلى ذلك الصَّفاء الذي يحصل لنفوس المُشركين والكُفَّار والمُنهمِكين في أعمال الفسق والفجور من الرِّياضيين اليوكيِّين ، فيقول :

«تَـنْحَصرُ التَّزكية الحقيقيَّة في الأعمال الصَّالحة التي يرضاها الله تعالىٰ ويتوقَّف ذلك على البِعثة ـ كما تقدَّم ـ فلا تصفية ولا تزكيَة إلا بالبعثة ، وما يجده الكفَّار وأهلُ الفِسق من الصَّفاء ، إنما هو صفاء النَّفس ، وليس صفاء

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٠ ، المجموعة الأولىٰ ، وهي موجَّهة إلى ابنه الشيخ محمد صادق.

(٢) [لم أجده بهذا اللفظ]. أخرجه الطبراني بسند صحيح في المعجم الكبير (٢٣/٣٢٦) برقم (٧٤٩) عن أم سلمة مرفوعاً «إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم» ، وفي لفظ [كما ذكره الذهبي في «الكبائر» (١/٨٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها نفسها] «إنَّ الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرَّم عليها».

(٣) الرسالة رقم: ٢٦١ ، المجموعة الأولىٰ ، وهي موجَّهة إلى الشيخ مير نعمان.

القَلب ، ولا يزيدُها صفاءُ النَّفس إلاَّ زيغاً وضلالاً ، ولا يَهدي إلاَّ إلى طريق الخَيبة والخُسْران ، وما يحصُل لبعض الكُفَّار والفَسَقة عند صفاء النَّفس من كشفِ بعض الأمور الغيبيَّة ، فذلك استدراجٌ ، وليس في حقِّهم إلا ضرراً وضياعاً ، وخُسراناً مبيناً» (١).

ويقول ردّاً وتفنيداً لعقيدة سُقوط التَّكاليف الشَّرعيَّة عن ذمَّة السَّالك والعارف ، وتحرُّره من رِبقة الفرائض والأحكام الشَّرعيَّة ـ التي هي بمثابة مُتفجِّرات وألغام ، وضعت لِنسف الشَّريعة الإسلاميَّة بأسرها والقضاء عليها ـ:

«يُفكِّر المتصوِّفةُ المُخدجون النَّاقصون والمُلحدون الضَّائعون في تحرير رِقابهم من طوق الخضوع للشَّريعة الإسلاميَّة ، وقَصر الأحكام الشَّرعيَّة على العوام من النَّاس ، ويعتقدون أنَّ الخواصَّ ليسوا بمكلَّفين إلاَّ بالمعرفة ، كما أن الأمراء والسلاطين مكلَّفون بالعدل والقِسطِ بين الناس فحسب ، ويقولون: إنَّ الغرض من العمل بالشَّريعة ليس إلاَّ تحصيل المعرفة ، فإذا تحقَّقتِ المعرفة سقطت التَّكاليف الشَّرعيَّة ، ويستدلُّون بهذه الآية: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] (٢).

ويُثبِت في رسالة أنَّ عمل الصُّوفيَّة ليس بِحُجَّة في إباحةِ شيء أو حرمته ، فيقول:

«ليس عَمَلُ الصُّوفيَّة حُجَّة في الحرمة والإباحة ، ألا يكفي أن نَعذُرهم ونَتْرُكَ مَلامهم ، ونكِل أمرهم على الله ، والحُجَّة في مثل ذلك قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف ، والإمام محمد مثلاً ، لا قول أبي بكر الشِّبلي ، وأبي الحسن النُّوري؟! إنَّ صُوفيَّة هذا العصر التَّافهين يتعلَّلون ويستدلون بأعمال مشايخهم في الرَّقص والغِناء ، ويتَّخذونها ديناً مُتَّبعاً ،

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولى وهي موجَّهة إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله.

(٢) الرسالة رقم: ٢٧٦، المجموعة الأولى، وهي موجَّهة إلى الشيخ بديع الدين.

وسُنَّة مطاعة ، وظنُّوها طاعة وعبادة ، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١)[الأعراف: ٥١] .

وتحوَّلت حمايةُ الإمام السّرهندي هذه للشَّريعة الإسلاميَّة إلى حَمِيَّة جيَّاشة ، فإذا سَمِع شيئاً من تَحقيقات الصُّوفيَّة وأحوالهم ، مما يُخالِف الكتاب والسُّنَّة ، وعقيدةَ جمهور الأمَّة ، أو يَرىٰ الاستدلال والاحتجاج بأحوال الصُّوفيَّة أو أقوالهم ، أو أيَّ كتاب من كُتب التصوُّف ؛ تَتحرَّك هذه الحَميَّة في صدره ، ويَغلي مِرجلُهُ ، ويَنبضُ عِرْقُه العُمَرِيُّ (٢) ، ويَنْبَجِسُ من قَلَمِه السيَّال سيلٌ عرم من الغيرة على السُّنَّة ، والذَّب عن الشَّريعة ، والرَّدّ على البِدعة ، ذكر له بعض تلاميذه قولاً شاذاً موحشاً من أقوال الشَّيخ عبد الكبير اليَمني ، فلم يتمالك الإمامُ زمامه ، وصدرت من قلمه ـ عفو الخاطر ـ هذه الكلمات :

«يا سيِّدي إنَّ الفقير لا يستطيع أن يَصْبِرَ على هذه الأقوال ، إنه يتحرَّك عِرقي الفَاروقيُّ ولا يترك مجالاً للتَّوجيه والتأويل ، سواء كان قائله الشيخ الكبير اليمني ، أو الشيخ الأكبر الشَّاميّ (٣) ، نحن في حاجة إلى كلام محمد العربي ـ عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام ـ لا كلام محيي الدِّين ابن عربي ، ولا صَدر الدِّين القونوي ، ولا الشيخ عبد الرَّزاق الكاشي ، نحن نُريد النَّص لا الفَص (٤) ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنيَّة عن الفتوحات المكيَّة» (٥) .

ويَقُولُ مُصرِّحاً بأنَّ كل عمل يؤدَّىٰ وفق الشَّريعة الغرَّاء ، يندرجُ في الذِّكر :

«يَنبغي صرفُ الأوقات كُلِّها في ذكر الله ، وكُلُّ عمل وفق الشَّريعة الغرَّاء

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة، وقد تقدَّمت.
(٢) [نسبة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه].
(٣) أي الشيخ محيي الدين ابن عربي الذي توفي بدمشق، ودفن فيها.
(٤) المراد بالنص، النص الشرعي، والمراد بالفص، كتاب ابن عربي «فصوص الحكم».
(٥) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي، الرسالة رقم: ١٠٠، المجموعة الثانية، كتبها إلى الشيخ ملا حسن الكشميري.

داخل في الذِّكر ، وأمَّا البيع والشِّراء فيجب الاهتمام في جميع الحركات والسَّكنات بالأحكام الشَّرعيَّة ، حتىٰ تصبح كلها ذكراً ، لأنَّ الذِّكر عِبارة عن إزالة الغفلة ، فإذا روعيت الأوامر والنَّواهي الشَّرعيَّة في جميع الأعمال يتخلَّص العالم بذلك من الغفلة والنِّسيان لمن أمر بهذه الأعمال ، وهو الله الواحد الآمر والنَّاهي ، وتَحصُل له نِعمةُ المُداوَمة على الذِّكر»[1].

محارَبةُ العقائد والتَّقاليد وشعائر أهل الجاهليّة ، والدَّعوة إلى الدِّين الخالص:

لقد كان مَعِينُ الإسلام الصَّافي في الهند ـ التي لم يَزل أساسُ الإسلام فيها ضعيفاً ، لأسبابٍ وعواملَ تاريخيَّة مختلفة ، وكانتْ موطن شعوبٍ مُشركةٍ ودِيانات وثنيَّة ـ تتسرَّب إليه المخلَّفات والرَّواسب من الدِّيانات السَّائدة ، وكان يَخشىٰ أن يغيب هذا الينبوع في الظُّلُمات المُتراكمة حتىٰ يَضِلَّ الخِرِّيتُ ويحار الدَّليلُ.

ولذلك لمَّا بدأ الإمام السَّرْهندي رِحلَته التجديدية ، وكانت أوَّلَ خطوة خطاها على طريق الأنبياء ، وعلى نَفس المنهج الذي سار عليه الرُّسل ، هي الخُطوةُ نحو إصلاح العقائد ، وتصحيح الاتِّجاه ، فقد كان إباؤُه عن سَجدةِ التَّحيَّة أمام السُّلطان (جَهَانكِيْر) ، ورفضُه لهذه البِدعة الشَّنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده.

وقد تناول في رسائله التي وجَّهها إلى مُختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التَّوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعِبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدَّم الدَّلائل والبراهين على وحدانيَّة الله ـ تعالىٰ ـ وأنه هو المُستحقُّ للعِبادة وحده ، بأسلوب يدلُّ على رسُوخه وعُلوِّ كَعْبه في هذا العلم.

وقام بدحضِ الشِّرك ومظاهره وتقاليده ونهىٰ أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشِّركيَّة ، والعادات الجاهليَّة ، وتقليد الكُفَّار ، من اليهود والنصارىٰ

(١) الرسالة رقم: ٢٥ للمجموعة الثانية وهي موجَّهة إلى الشخ خواجه محمد شرف الدين.

والمُشرِكين ، إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتَّجديد إلاَّ به فضلاً عن نِهايته وكماله .

وهنا مُقتطفاتٌ من رسالة مُسْهَبَة كتبها إلى امرأة صالحة بايَعَتْهُ وتابَتْ على يده ، وقد تضمَّنتْ هذه الرِّسالة الرَّدَّ على عامَّة ما يُبْتلىٰ به الجُهلاء من المُشركين خُصوصاً النِّساء منهم ، يقول فيها :

تَعظيمُ مَظاهرِ الشِّرك والوثنيّة:

«إنَّ تعظيم مظاهرِ الشِّرك ، وأعياد الجاهليّة من أعظم أنواعِ الإشراك بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّ من يَعتقد بِصحَّة دينين وصلاحيتهما في وقتٍ واحدٍ، فهو مشرِك، وإنَّ من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكُفر والشِّرك، فهو مُشرِك ، ولا يتم الإسلام إلاَّ بالبراءة من الشِّرك ، ومُحادَّته ومُعاداته ، وإنَّ التَّوحيد هو الاشمئزازُ والنُّفور من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشِّرك» .

الاستعانةُ بغَيرِ الله:

ويقول رحمه الله : «إنَّ الاستعانة بالطَّواغيت والأصنام في دفع الأمراض وشِفاء الأسقام ـ التي راجت في المسلمين وعمَّت في دَهْمائِهم ـ عينُ الشِّرك والضَّلال ، وإنَّ طَلَبَ قضاء الحاجات من الأحجار المَنحوتة جُحُود صريح بالله ـ تعالىٰ ـ وعينُ الكُفر ، يقول الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ مُبيِّناً حال بعض الغُواة الضَّالِّين :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النِّساء: ٦٠] .

وإنَّ كثيراً من النِّساء ـ لِغايةِ جَهْلِهنَّ وضَلالهنَّ ـ يَطْلُبنَ قضاء حوائجهنَّ من غيرِ الله ، ويسألن بأسماء ما أنـزل بها الله من سُلطان ، دفعَ البَـليَّـات وكَشْف الكُربات ، إنَّهنَّ لأسيراتٌ في أغلال الشِّرك وطقوسِه وتقاليده .

سِيتلـه:

«وتَتجلَّىٰ هذه العقائد الشِّركيَّة وتُشاهد هذه الأعمال والتَّقاليد الجاهليَّة ـ بصفة خاصَّة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يُعرف في أوساط النِّساء في الهند باسم «سِيتله») [(١)] حيث تقع جميع النِّساء في الجهل المُطبق ، والكُفر الصَّريـح ، ويأتين بأعمال شِركيَّة ، وقلَّما تجد امرأة تتَّـقي دقائـق هذا الشِّرك ، ولا تُـقدم على أيِّ نوعٍ من أنـواع الشِّرك بهذه المناسبة ، اللَّهم إلاَّ مَنْ عَصمَ رَبُّكَ» .

تعظيـم أعيَاد الكفّـار والمُشركيـن وتقيلدُ عاداتهـم وطقوسِهـم:

«كذلك فإنَّ تعظيم أعيَاد الهنادك ، والاحتفال بالأيَّام التي يقوم فيها الهنادك بتقاليدهم وطقُوسهم ، يَستلزم الشِّرك ويستوجب الكُفر ، وإنَّ الجهلة من المسلمين في أيَّام «دِيْوَالِيَ» ـ هو عيدٌ من أعياد الهنادك ، يُوقدون فيه المصابيح ويُقامرون ، ويَتبادلون الهدايا والتَّهاني ـ لا سيَّما نساءهم يُـقلِّـدنَ الهنـادك في عاداتهـم وطقوسهـم ، ويَـحتفِلْنَ بعيدهـم ، ويَـتهادين فيما بينهن ، فيَبْعَثْنَ بالتُّحف والهدايا إلىٰ أخواتهنَّ وبناتهنَّ مثلما يفعلُ المُشركون والمُشركات ويُلوِّنَّ أوانيهنَّ بنفس الألوان التي تُلَوِّنُ بها الكافرات ، ويملأنها «بالفِيْرِنِيِّ» الأحمر [(٢)] ، ثم يَبْعثْنَها هدايا ، ويحتفلنَ بهذه الأيام وهذا العيد احتفالاً كبيراً ، وكُلُّ ذلك شرك وكفر بدين الإسلام وجحودٌ به» .

النُّذُورُ وذَبـح القَرابيـن للأوليـاء وللصَّالحيـن:

ويقـول فـي هـذه الـرِّسـالـة : «وكـذلـك يَـنـذرون الحيـوانـات للمشـايـخ

---

(١) اسم آلهة من الإلٰهات المفروضة المتخيّلة عند وثنيي الهند، يعتقدون أنها تسبب الجدري، ولا يرتفع هذا الوباء، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الإلهة بالنذور والقرابين.

(٢) طبيخ الرز واللبن، وهو مثل المهلَّبيَّة.

والصَّالحين ، فَيسوقونها إلى قبورهم ، ثمَّ يذبحونها هناك ، وقد وَرد في كتب الفِقه ما يدلُّ على أنَّ هذا كذلك من الشِّرك ، وجاء فيه تشديد وتأكيد ، واعْتُبرتْ هذه الحيوانات التي تُذبح على قبورهم كالذَّبائح التي تُذبح باسم الجن التي كان المُشركون يذبحونها خوفاً منهم وطمعاً في نوالهم ، مما هو مَنهيٌّ عنه شرعاً ، وداخلٌ في الشِّرك ، فلا بدَّ من اجتناب هذا العمل الذي تُشم منه رائحة الشِّرك ، وإنَّ للنَّذرِ طُرُقاً كثيرة وأشكالاً مُتعدِّدة فما الذي يُلزمهم بنذر الحيوانات؟ حتَّىٰ يتشبَّهوا بِعَمَلِهم هذا بِعُبَّاد الجنّ لمشابهة ذبائحهم وقرابينِهم ذبائحَ المُشركين للجِنّ».

نَذرُ الصِّيام للأولياء والصَّالحات:

«ويَدخُل في ذلك أيامُ الصِّيام التي تَصومُها النِّساء باسم المشايخ والأولياء والصَّالحات الزَّاهدات من النِّساء ، فكثيراً ما يَنتحلْنَ أسماءَ ما أنزل اللهُ بها من سلطان فَيَنْذُرْنَ الصِّيامَ لها ، وَيَختَرنَ طريقة خاصَّة لكل صوم من هذا الصِّيام عند الإفطار ، ويُحدِّدْنَ لها أيَّاماً خاصَّة ، ويَربِطْنَ قضَاء حوائجهنَّ وبلوغ مقاصدهنَّ بهذا الصِّيام ، ويسألنَ باسم هذا الصِّيام الأولياءَ الصَّالحين والنِّساءَ الصَّالحاتِ أن تقضى حَوائجُهنَّ ، ويعتقدن بأنهم يقضون حاجاتهن ، ويُلبُّون مَطالبهنَّ، وذلك من الإشراك في العِبادة، والاستعانةِ بغير الله تعالىٰ عن طريق العبادة لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فينبغي أن يُعلم قبح هذه الأعمال وشناعتها ، وقد جاء في حديث قدسي: يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «الصَّوم لي وأنا أَجزِي به»[1] ، ومعنىٰ ذلك أنَّ عِبادة الصَّوم لي خاصَّةً ، لا يشركني فيها أحد ، ومَعلوم أنه لا يجوز الإشراك إطلاقاً في أيِّ نوع من أنواع العبادات إلاَّ أنَّ تخصيص الصَّوم هنا بذلك لأهميَّة هذه

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، برقم (٧٤٩٢) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب فضل الصيام ، برقم (١١٥١) ، وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما].

العِبادة ، ولذلكَ جاء النَّفي للإشراك في هذه العبادة بتأكيدٍ بليغ .

وإنَّ مِن الحِيَل وخِداع الشَّيطان أنَّ بعض النِّساء (عندما يُكْشَفُ لهنَّ عن قُبْح هذه الأعمال الشَّنيعة) يَقُلْنَ : إنَّما نصوم هذا الصِّيام لله تعالىٰ ، ونُهدي ثوابها إلى الأولياء ، فلو كُنَّ صادقات في قولهنَّ ، لمَا التزمْنَ من أنفسهنَّ أياماً معيَّنة ، وأطعمةً خاصَّة ، ولما انْتَحَلْنَ العاداتِ القبيحة ، والآدابِ المُخْتَرَعَة المُحدَّدة عند إفطارهنَّ ، فإنَّهُنَّ كثيراً ما يَرتكبْنَ عِندَ الإفطار أموراً من المُحرَّمات ، فيُفطرن على حرامٍ ، ويتكفَّفْن بدون ضرورة ، ويسألنَ عن غيرِ حاجةٍ ، فيُفطرنَ بما يَحْصُلْنَ عليه عن طريق التَّكفُّف ، ويَعتقدْنَ بأنَّهُنَّ ـ بهذه الأعمال المُحرَّمة ـ يَقْضينَ حوائجهنَّ ، ويُكملْنَ مَطالبهنَّ ، وذلك عَيْنُ الضَّلال وخِداعُ إبليس اللَّعين ، ولا عاصمَ إلاَّ الله» [1] .

النَّهي عن سَجدةِ التَّحيَّة:

وهناك عَدد من رسائل الإمام القويَّة الواضحة في النَّهي عن سَجْدةِ التَّحيَّة ، نذكر بعض مُقتطفاتها فيما يلي :

«إنَّه لا يليق بالسَّلاطين العظام إلاَّ التَّواضعُ أمام ربِّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ والنَّظرُ إلى عَجزهم وضعفهم ، وأن لا يسمحوا ـ أبداً ـ بهذا الذُّل وغايةِ الخضوع إلاَّ لله تعالى؛ وقد سخر الله لهم البلاد وأحوَج إليهمُ العباد ، فعليهم أن يشكروا هذه النِّعمة الجسيمة ، ويَخُصُّوا هذا النَّوع من الخضوع والذُّلِّ والاستكانة لحضرةِ ذي الجلال والجبروت ، ولا يجوز الإشراك بـه في ذلك ، وإن كانتْ طائفة من الفقهاء رأتْ جوازَ ذلك [2] ، ولكن ينبغي لهؤلاء السَّلاطين ـ بِتَحَلِّيهم بالتَّواضع والأدب ـ أن لا يُبيحوا ذلك لأحد ، وذلك لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠] .

---

(١) الرسالة رقم: ٤١، ج٣، كتبها إلى إحدىٰ الصَّالحات.

(٢) لم نطلع على من أباح ذلك، ولو ثبت حمل على الشذوذ والمنكر من القول.

وَيَقولُ في رِسالة إلى الشَّيخ نظام التَّهانيسِري:

«ذكر لي النَّاس أنَّ أصحاب بعض خُلفائك يسجدون له سَجدةَ التَّحيَّة، ولا يَكتفون بالانحناءة المُعتادة للتَّحيَّة (عند المُبتدعين) ألا إنَّ قبح هذا العمل وشناعته أظهَر من الشَّمس، فانْهَهم عن ذلك، وأكِّد عليهمُ النَّهي، وشدِّد النَّكير، إنَّ الاجتناب عن هذه الأفعال مطلوب من جميع النَّاس لا سيما من شخص قد نصَّب نفسه ليكون قُدوةً لغيره، فاجتنابُه مثل هذه الأفعال القبيحة من أشدِّ ضروريات الدِّين، إذ أنَّ أتباعه يَقتدون به، ويَقتفون أثره، فَيَقعون في هذه الأحابيل والوَيلات»[1].

وكان هذا هو العملَ التَّجديديَّ العظيمَ لإصلاح العقائد الفاسدة، والردِّ على الشِّرك والبِدعة، والدَّعوة إلى الدِّين الخالص، الذي بدأه الإمام السَّرْهندي على أرض الهند ـ التي كانت الأقليَّة المسلمة فيها تواجه خطرَ الجاهليَّة المُشركة بصفة دائمة، لإحاطة الأكثريَّة المشرِكة بها، وقُربِ عهد البلاد بالإسلام ـ ووسَّعه وأكمله ـ فيما بعد ـ مَشايخُ سِلسلته الكبار، مثلَ حكيم الإسلام ولي الله الدِّهْلوي، وأفراد أُسرته[2]، إلى الإمام أحمد بن عرفان الشَّهيد، وكان ذلك عن طريق الخطابة والكتابة، والرَّسائل والمؤلَّفات، وتَرجَمَة معاني القرآن، والأحاديث النَّبويَّة والجولات الدَّعَويَّة الواسعة، والحركةِ الجِهاديَّة العظيمة[3].

نَشرُ السُّنَّة والرَّدُّ على «البِدْعَةِ الحَسنة»:

تُعَرَّف البِدعة بأنها إدخالُ شيءٍ في الدِّين لم يُدْخِلْهُ الله ورسولُه فيه، ولم

(١) الرسالة رقم ٢٩، ج٢. كتبها إلى الشيخ نظام التهانيسري.

(٢) على رأسهم وفي مقدمتهم حفيده الشهير العلامة محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦).

(٣) راجع للتفصيل كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريح الإيمان» [طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م] ورسالته «الإمام الذي لم يُوفَّ حقُّه من الإنصاف والاعتراف» [رَاجِعْهَا في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص١٢٢، طُبع في سلسلة «تراث العلامة الندوي» في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م)].

يأمروا به ، واعتقادُ أنه جزء من الدِّين ، يُعملُ به احتساباً ، والتزام آدابه ، وشروطه المزعومة ، كالتزامِ الحُكم الشَّرعيِّ.

والبِدعة شريعةٌ وضعيَّـةٌ إزاءَ شريعة إلٰهيَّة ، ولها فِقهُها المستقل ، وفَرائضها وواجباتها وسُننها ومندوباتها التي تقف نِدّاً للشَّريعة الإلٰهيَّة حيناً ، وتَفُوقُها أهميَّةً وعظَمَةً حيناً آخر.

وتَغُضُّ البِدعة طَرْفَها عن حقيقةٍ ناصعةٍ ، وهي أنَّ الدِّين قد أُكمِل ، وأنَّ الشَّريعة قد خُتم عليها ، فما كان ينبغي أن يتقرَّر ، تَقَرَّرَ، وما كان ليتعيَّن فرضاً أو واجباً ، تَعيَّن فرضاً أو واجباً ، وأُغلقت «دَار الضَّرب» للدِّين ، فأيُّ عُملةٍ جديدةٍ تُنسب إليه ، لا تكون إلاَّ مُزوَّرة مُزيَّفة ، وما أحسنَ ما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ:

«مَن ابتدعَ في الإسلام بِدعةً يَراها حسنةً فقد زعمَ أنَّ محمداً ﷺ خان الرِّسالةَ ، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] . فما لم يكُن يومئذ ديناً ، فلا يكونُ اليوم ديناً».

وإنَّ من خصائص الشَّريعة المنزَّلة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكونَ سَمحةً سَهلةً ، صالحة للعمل والتَّطبيق في كل عصر ومِصر ، لأنَّ من شرَّع هذا الدِّين هو الذي خلق النَّاس ، فهو الذي يعرف ضروراتهم وحاجاتهم وطبائعهم ، وطاقاتهم ومواضع ضعفهم وعجزهم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] .

ولأجل ذلك لُوحِظَتْ مُراعاة هذه الأمور كُلِّها في التَّشريع الإلٰهي ، ولكن إذا اتَّخذ الإنسان نفسَه شارعاً فلا سبيلَ إلى مُراعاة هذه الجوانب المتعدِّدة ، وكُلَّما تختلط البِدَع والمُحدثات بالدِّين ، وتَجري تعديلاتٌ وإضافات بشريَّة فيه ، يَزدادُ الدِّين عُسراً وضِيقاً وتَعقُّداً ، حتَّى يُضطرَّ النَّاس إلى أن يخلعوا رِبقة الدِّين من رقابهم ويُحرَمُوا هذه النِّعمة المُحقَّقة في رفع الحرج ، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] ، ويُمكن أن تلاحظ أمثلةً ما نَقولُ في تلك

الفهارس الطَّويلة للطُّقوس والعبادات ، والفرائضِ والسُّنن المُحدثة التي عَمِلَتْ فيها البِدع عَملها بكُلِّ حُريَّة وانطلاق.

ومن خصائص الدِّين والشَّريعة الإسلاميَّة الانسجامُ التَّامُّ ، والوحدة العالميَّة، فلا يتغيَّران في عصر وزمان ، فلو سافرَ مُسلم من بقعة في العالم الإنساني إلى بُقعة أخرىٰ ، لا يَلقىٰ أي صعوبة وحَرَج في العمل بالدِّين ، وتطبيقِ الشَّريعة ، ولا يَحتاج إلى منهج مُخصَّص ، أو دليل محلِّي.

أمَّا البِدع فلا تَوافُقَ فيها ولا انسجام ، فهيَ تُصهرُ في بوتقةٍ محليَّة في كل مكان ، وتُضربُ في دارِ الضَّرب لمدينةٍ ما من المُدن ، أو بلدٍ من البلدان ، وتكون نِتاج العوامل التَّاريخيَّة المحليَّة الخاصَّة ، والمصالح الشَّخصيَّة ، والأغراضِ الفرديَّة الخاصَّة ، فَتَخْتصُّ بِدَعُ كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بِدع كَلِّ وِلاية ، وكلِّ مدينة وخرافاتُها ، بل بِدع كلّ حيٍّ من الأحياء ، وكلِّ بيتٍ من البيوت ، وأباطيلُها وخرافتُها ، تختصُّ بها نفسها ، يَنتج من كلِّ ذلك دين متعارض يَصطدم بعضُه ببعض في كل قرية وبلد ، وكلِّ حيٍّ ومنزل.

لهذه المصالح الشَّاملة الخالدة التي نعلم بعضها ولا نُحيط بها ، نهىٰ الرَّسول ﷺ عن اقتراب البِدع، وأمرهم باجتناب كل المُحدثات في الدِّين ، والحفاظ على السُّنَّة ، والتمسُّك بها ، يقـول ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ:

«مَن أَحْـدَثَ في أَمْرنـا هذا ما ليسَ منـه فهوَ رَدٌّ» [1] ، «إيَّـاكُم ومُحْدَثَـاتِ الأُمور ، فإنَّ كُلَّ مُحْدثَـةٍ بِدعـةٌ ، وكُلَّ بِدعةٍ ضلالـةٌ» [2].

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، برقم (٢٦٩٧) ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور ، برقم (١٧١٨) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنهما].

(٢) [أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، برقم (٤٦٠٧) ، وأحمد في المسند (٤/١٢٦) ، وابن حبان في الصحيح (١/١٧٩) ، برقم (٦) ، وغيرهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه].

وتنبَّأ بهذه النبوءة الحكيمة: «ما أحدَثَ قومٌ بِدعة إلا رُفع بها مثلُها مِن السُّنَّة»(١).

وقد عارضَ الصَّحابةُ ـ رضيَ الله عنهم ـ وأئمَّةُ الدِّين، وفُقهاءُ المُسلمين، وجميعُ المجدِّدين والمُصلِحين، والعلماء الرَّبانيِّين في عصورهم، محدثاتِ زمانهم والبدعَ النَّاشئة فيه مُعارضةً عنيفة قويَّة، وبذلوا جهد طاقتهم في الحيلولة دون رَواج هذه البِدع والمُحدثات، وتأثيرها في المجتمعات الإسلاميَّة، والأوساط الدِّينيَّة.

وقد صوَّر القرآن الحكيم ما يُوجد في هذه البِدع والمُحدثات ـ في كل عصر ـ من جاذبيَّةٍ مغناطيسيَّة، وما يرتبطُ بها من أغراض أبناء الدُّنيا، والمُحترفين بالدِّين، ومَصالحِ الفِرَق الدِّينيَّة المُغْرِضة الشَّخصيَّة، ومنافعها الذَّاتيَّة، في أسلوب المُعجز الحكيم:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولقيَ هؤلاء الدُّعاة والمُصلحون والمُجدِّدون في سبيل ذلك من الأذىٰ والاضطهاد ما لقوا، ولكنَّهم لم يُبالوا بما أُوذوا به في سبيل الله، واعتقدوا أنَّ عملهم هذا جهادُ السَّاعة، والمُهمَّة الدِّينيَّة المُقدَّسة لصِيانة الشَّريعة الغرَّاء والدِّين الخالص من التَّحريف والتَّزوير، وقد لَقَّب هؤلاء المُعارضين للبِدع والمُحدثات، والحاملين لراية السُّنَّة والشَّريعة المُطهَّرة، مُخالِفوهم من العامَّة أو الخاصَّة الَّذين لا يمتازون عن العامَّة بألقابٍ تُشبِه ألقاب الكُفَّار من قُريش للمسلمين، كالصَّابئة والمارقة(٢) وأعداء الدِّين، فلم يُعيروها أيَّ اهتمام

---

(١) [أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨): رواه أحمد والبزار، وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكر الحديث].

(٢) مثل «الوهابية» والجامدين والمحافظين، والقشوريين، والحرفيين، وغيرهما في عصرنا هذا [وأمَّا «الوهابيَّة» فيُلَقِّبُ بها البَريلَوِيُّون ـ أصحابُ البِدَع والخرافات في الهند =

فقَضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللِّسان ، وإثباتِ الحق ، وإبطالِ الباطلِ على كثير من البِدَع ومُحدثات الأمور ، التي لا نجد لها الآن ذِكراً إلاَّ في بعض كُتب التَّاريخ ، وما بقي منها لم يزل يُكافحها العلماء الرَّبانيُّون ، ولا يزالون يُحاربونها ، ويقضُون عليها:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

وقد كانت أكبرُ مُغالطة في هذا الصَّدد مُغالطة البِدعة الحسنة ، فكأنَّ النَّاس قسَّموا البِدعة قِسمين: البِدعة السيِّئة ، والبِدعة الحسنة ، وكانوا يقولون: إنَّه ليس كُلُّ بِدعة سيِّئة ، فكثيرٌ من البِدَع حسنة ، استُثنيت من إطلاق حديث: «كُلُّ بِدعةٍ ضلالة» [١] .

إنَّ ما قام به الإمام السَّرْهندي من مُعارضة شديدة ، واستنكار قوي ، لهذا التَّقسيم المُحدث للبِدعة الحسنة والبِدعة السيِّئة ، في ثِقة وقوة اعتماد ، وبأسلوب علمي ، واستدلال موضوعي ، لا يُوجد له نظير في كثير من

= وباكستان ـ علماءَ «دار العلوم دِيُوْبَنْد» ، الذين هم أصحاب العقيدة السنية الصحيحة في التوحيد واتباع السنَّة والاجتناب عن البدع.
والبريلويُّون: هم أتباع الشيخ أحمد رضا خان البَرِيلَوِيّ (ت ١٣٤٠) حاملُ لواء التكفير في شبه القارة الهندية ، وأشهر داعٍ إلى التمسُّك بالتقاليد البدعية والخرافية المنتشرة في الهند حول الأعراس والضرائح والأعياد والمواسم ، وإثبات علم الغيب للنبي ﷺ ، والتصرُّف العام للأولياء والمشائخ ، وهو الذي أذاع لقبَ «الوهابي» في القارة الهندية تقرأ للاطلاع على هذه الجماعة البدعيةِ والخرافيةِ كتابَ «البريلوية: عقائد وتاريخ» للشيخ إحسان إلٰهي ظهير].

(١) وأكبر دليلٍ للناس في هذه القضية قول عمر ـ رضي الله عنه ـ حين رأىٰ الناس مجتمعين لصلاة التراويح: «نعمت البدعة هذه»، مع أن العلماء متفقون على أن إطلاق لفظ «البدعة» هنا بمعناه اللغوي، لأن صلاة التراويح ثابتة بالأحاديث الصحيحة، وبالتواتر العملي، وينبغي للاطلاع على تعريف البدعة، والتفصيل فيها مراجعة كتاب «الاعتصام بالسنة» للإمام الشاطبي، وكتاب «إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضريح» للإمام محمد إسماعيل الشهيد، وهما من أجود الكتب في هذا الموضوع.

الأقطار ، فاقرأ ـ فيما يلي ـ مُقتبساتٍ من رسائله في هذا الصَّدد :

يقول في رسالة ـ مُحرِّضاً على نشر السُّنن النَّبويّة، وترويجها ، ومُرغِّباً في ردِّ المُحدثات ، والقضاء عليها ـ موجَّهةً إلى ابن شيخه ومرشده الشَّيخ محمد عبد الله :

«هذا هو العصر الذي مَضتْ ببدايته ألفُ سنة على البِعثة المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وبدأتْ أماراتُ السَّاعة تظهر ، فأصبحتِ السُّنَّة لبُعْد عهدِ النُّبوَّة محجوبةً متروكةً ، والزَّمانُ زمانُ الكذبِ والاختلاق ، فَتُروَّج البِدَع وتَنْتَشِرُ المُحدثات ، ويَرنو العالم إلى بطلٍ يَحمي حَوزة السُّنَّة ويَنصُرها ، ويَدْحَرُ البِدعة ويَغلِبُها ، فإنَّ نشر البِدعة إماتةُ السُّنَّة ، وإنَّ تعظيم المُبتدع وإكرامَه بِمثابة هدْمٍ لقصر الإسلام وتخريبه ، وقد جاء في الحديث: «مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فقَدْ أعانَ على هَدْمِ الإسلام»[1] .

فينبغي الاهتمام بالهمَّة العالية ، والعزيمة الصَّارمة ، بِنَشْر سُنة من السُّنن ، وإزالة بِدعة من البِدع ، لقد كان هذا العَمل فريضةً في كل عصر ، لكنَّ وجوبه في هذا العصر الذي ضَعُف فيه الإسلام ، وارتبطتْ إقامةُ معالمه وتعظيم شعائره بنشر السُّنَّة ، وَهدم البِدعة ، أقوىٰ وأشدُّ».

ثُمَّ يقول في نفس هذه الرِّسالة مفنِّداً لاصطلاح البِدعة الحسنة ، ومُنكراً لوجود نَوع من الحُسن والخَير فيها :

«رأىٰ بعضُ النَّاس في العصر الماضي شيئاً من الحُسن في البِدعة فاستحسنوا بعضَ أنواعِ البِدع والمُحدثات ، ولكنَّ الفقير لا يوافقهم في ذلك ،

---

(١) [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦١) برقم (٩٤٦٤) من حديث إبراهيم بن ميسرة مرسلاً ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ٣٥) برقم (٦٧٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها].

فإنه لا يرىٰ أي بِدعة حسنة ، ولا يَشعُرُ فيها إلاَّ بالظُّلمة والكَدَر ، وقد قال ﷺ : «كُلُّ بدعة ضلالة» [(١)].

ويقول في رسالة أخرى باللغة العربيَّة ، كتبها إلى الشيخ مِيْر مُحبِّ الله :

«النَّصيحةُ هي الدِّين ، ومُتابعة سيد المُرسلِين عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام ، وإتيانُ السُّنة السَّنيَّة ، والاجتنابُ عن البِدعة غير المرضية ، وإن كانت البِدعة تُرىٰ مثل فَلَقِ الصُّبح ، لأنه في الحقيقة لا نُور فيها ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ، ولا للدَّاء منها دواء ، كيف والبِدعة إما رافعةٌ للسُّنَّة ، أو ساكتةٌ عنها ، والسَّكتةُ لا بُدَّ أن تكون زائدة على السُّنَّة ، فتكون نَسَّاخة لها في الحقيقة أيضاً ، لأنَّ الزِّيادة على النَّصِّ نسخٌ له ، فالبِدعة كيف كانت ، تكونُ رافعة للسُّنَّة نقيضة لها ، فلا خيرَ فيها ولا حُسْنَ فيها .

ولَيت شِعري من أين حكموا بحُسن البِدعة المُحدثة في الدين الكامل والإسلام المرضي بعد إتمام النِّعمة ، ولم يَعلموا أنَّ الإحداث بعد الإكمال والإتمام وحصول الرِّضا بمعزِل عن الحُسن ، فماذا بعد الحقِّ إلاَّ الضَّلال؛ ولو علموا أنَّ الحُكم بحُسْن المُحْدَث في الدِّين الكامل مُستلزِمٌ لعدم كماله ، ومُنْبِىءٌ عن عدم تمام النِّعمة ، لما اجْترؤوا عليه ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، والسَّلام عليكم وعلى مَن لديكم» [(٢)].

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يتحدَّث عن هذا الاستثناء المذكور ـ آنفاً ـ :

«لمَّا كان كلُّ مُحْدَثٍ في الدين بِدعة ، وكلُّ بِدعة ضلالة ، فلا معنىٰ للحُسن في بِدعة من البِدع .

ولمَّا كانتِ الأحاديث الصَّريحةُ تُفيد بأنَّ كُلَّ بِدعة تَرفعُ سُنَّة ، من غير

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثانية، وهي موجَّهة إلى ابن شيخه الشيخ محمد عبد الله .

(٢) الرسالة رقم: ١٩ ، المجموعة الثانية .

تَخصيص وتقييد ، فلا معنىٰ لذلك ، ولا بُدَّ أن تكون كُلُّ بِدعةٍ سيّئة ، ورد في الحديث :

«ما أحدَثَ قومٌ بِدعةً إلا رُفع مثلُها من السُّنَّة ، فتمسُّكٌ بسُنَّةٍ خيرٌ من إحداث بِدعةٍ» (١) .

ورُوي عن حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : «ما ابتدَعَ قومٌ بِدعة في دينهم إلاَّ نزع الله من سُنَّتِهم مثلها ، ثم لا يُعيدُها إليهم إلى يوم القيامة» .

واعلم أنَّ بعض البِدَع التي استحسنها بعض العلماء والمشايخِ ، يتجلَّىٰ عند التَّأمُّل الدَّقيق فيها أنها كذلك تَرفع السُّنَّة وتَمحوها (٢) .

ويقولُ في هذه الرِّسالة ، مُستنكراً لوجود البِدعة الحسنة :

«يقولُ النَّاس : إنَّ البِدعة قِسمان : البِدعة الحسنة ، والبِدعة السيِّئة ، فيُسَمُّون العملَ المُحدث بعد عهد النُّبوَّة وعهدِ الخلفاء الرَّاشدين بِدعة حسنة ، وهي لا تَرفعُ ـ عندهم ـ سُنَّة من السُّنن ، والبِدعة السيِّئة هي التي تَرفع السُّنَّة .

أمَّا هذا الفقير فلا يَرىٰ في شيء من البِدعة أيَّ حُسنٍ ونُور ، ولا يجد فيها إلاَّ ظُلمةً وكَدراً ، ولو فرضنا أن إنساناً يرى في العمل المبتَدع ـ لضعف بصره ـ نُضرة وصفاء ، فإنه عندما يكون غداً حديدَ البصر ، بَعيدَ النظر ، سوف لا يجد إلاَّ الحَسْرة والنَّدم ، ولاتَ ساعة مَنْدَم ، وكان كما قال الشَّاعر :

سَوفَ تَرىٰ إذا انْجَلى الغُبارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أمْ حِمارُ؟

يقُول سيِّد البشر ﷺ : «مَنْ أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهوَ ردٌّ» (٣) .

كان مِن ضمن هذه «البِدَع الحسنة» التي كانتْ قد انتشرتْ في ذلك العصر

(١) [قد سبق تخريجه] .

(٢) الرسالة رقم : ١٨٦ ، المجموعة الأولىٰ، كتبها إلى الشيخ المفتي عبد الرحمن الكابلي .

(٣) نفس الرسالة السابقة، والحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها [قد سبق تخريجه] .

مجلسُ مولد النَّبيِّ ﷺ والاحتفالُ له ، وكان من العسير الإنكارُ عليه لعزوه إلى ذات الرَّسول ﷺ ولمَّا كان يُقصدُ منه ذِكر مَناقبه ﷺ وما خصَّه الله به من فَضْل ومكانة ، وكان موضوعُ نَقْدِ هذه المجالس في ضوء الشَّريعة والسُّنَّة موضوعاً مثيراً للجماهير ، ومَظنَّة حملهم ذلك على قلَّة الحُبِّ للرَّسول ﷺ وإساءةِ الأدب معه ، ولكنَّ الإمام السَّرْهندي قد شرحَ الله صدره في كل ما لم يُؤْثَر عن خير القرون ، فكان مُقْتَنِعاً بأنَّه ليس فيه فلاحٌ للأمَّة ، وليسَ في صالح هذا الدِّين ، وكان يَخشىٰ أنَّ كل ذلك يجرُّ على مدىٰ الأيام إلى مفاسد مختلفة .

وقد سُئل عن رأيه في هذا المجلس إذا تجرَّد عن محظورات شرعيَّة ، واقتصر على مُجرَّد الاجتماع والاستماع إلى قِصَّة المولد في يومٍ مُعيَّن ، واهتمامٍ خاصٍّ ، فأجاب عن ذلك بقوله :

«سيِّدي يَجول في خاطر هذا الفقير أنَّه ما لم يُسدَّ هذا البابُ على مصراعيه ، لم يزل لأهلِ الأهواء مجالٌ في هذا الشأن ، فلو وُسِّع في الأمر ، وأُطلق شيء من العَنان ، انجرَّ الأمر إلى ما لا تُحمدُ عاقبته ، «قَليله يُفضي إلى كثيره» [1] .

وهكذا كان موقفه الجريء الحاسم إزاءَ البِدع ، وإنكارُه لوجود «بِدعة حسنة» سدَّاً للذَّريعة ، وقضاءً على فوضىٰ دينيَّة قد بدت طلائعها بتأييد العُلماء غَير المُحقِّقين الذين لا يَنفون عن هذا الدين تَحريفَ الغالين وانْتِحال المُبْطلين ، وتأويل الجاهلين ، واحتضان المشايخ الذين لم يكن لهم رُسوخٌ في العلم ، وإلمامٌ بمقاصد الشَّريعة وعلوم الحديث والسُّنَّة ، ودافَع عنها وتحمَّس لها أمراء ومُلوكٌ لم يكن لهم نَصيبٌ من العلم ، فجزاه الله عنِ الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

* * *

(١) الرسالة رقم : ٧٢ ، ٣ ، إلى الشيخ حسام الدين الدهلوي .

البَابُ السَّادِس

وحـــدة الوجود

أو وحـــدة الشهود؟





وَحدَةُ الوُجود أو وَحدةُ الشُّهود

الشَيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي ، وتدوينُ نظرية «وحدة الوجود» وشرحها وتفصيلها:

لقد صَدَرتْ مِن لسان بعض الصُّوفِية المتقدِّمين ممَّن غَلب عليهم السُّكْرُ والحال ، أقوالٌ هي شِبه نظرية الاتحاد ، وتَدُلُّ على «وحدة الوجود» ، وقد اشتُهر من بين هذه الأقوال قَولُ العارِف الشهير الشيخ أبي يزيدَ البَسْطامي ـ الذي هو من كبار المشايخ الذين تَنتمي إليهم معظم السَّلاسل والطُرق الصوفية: «سُبحاني ما أعظم شأني» ، وقوله: «ليس في جُبَّتي إلاَّ الله» ، وما اشتهر عن الحُسين بن منصور الحلاَّج من هتافه: «أنا الحق».

ولكنَّ الشيخ محيي الدين ابن عربي (م٦٣٨هـ) ـ الذي عُرف واشتهر باسم «الشيخ الأكبر» ـ كان مؤسِّساً لهذه النزعة ، والمذهب ـ من الناحية العلمية ـ ورائداً له ، ومُجدِّداً ، وخاتمةَ المحقِّقين لهذه النظرية ، ومنذ ذلك العصر الذي عاش فيه ابن عربي ، بلغتْ هذه النظرية من الذُّيوع والانتشار والقبول والرَّواج ، حتى سرت في أوصال التصوف ، وجَرتْ منه مجرى الدم كالوباء الذي لا يستطيع أقوى الناس طبعاً وجسماً أن يقاومه ولا يتأثرَ بمفعوله ، حتى ظلَّت شعارَ أصحاب الذوق والتحقيق ، وكلمَتَهم الجامعة ، وكان إنكارُها دليلاً على جَهل صاحبه وتطفُّلِه على مائدة الصوفية ، وغفلته عن دقائقهم وأسرارهم ، وكما يقول الإمام السرهندي:

«إنَّه وَضع لها أبواباً وفُصولاً كما هو الشأن في علم النَّحو والصرف» [١].

وبعد ، فما هي حقيقة «وَحدة الوجود» عن الشيخ محيي الدين ، وكيف يَعرِضها وَيُبيِّنها ، وما هي الأدلة والحُجَج التي يسوقها لإثباتها؟ وكيف يُحوِّل هذه النَّظرية إلى عملية كشفية ومشاهدةٍ ، وتجربة علمية تطبيقية ، بل إلى حقيقة بديهية؟ ثم كيف اتخذتْ شكلَ فَلسفة مستقلَّة ، وتحولَتْ إلى مدرسة فكرية إشراقية ، وتكوَّنتْ حولها تِلك المكتبةُ الضخمة التي يَحتاج استعراضُها إلى كتاب ضخم مستقل؟ كلُّ ذلك لا يمكن أن يَسعه هذا الكتاب.

ولمَّا أنَّ القضية من القضايا الدقيقة العويصة في الفلسفة والتصوُّف ، التي يَحتاج الإنسان لإدراك مبادئها إلى مراجعة المصطلحات الدقيقة للفلسفة والتصوف ، كما أن لها صلة وَثيقة بالتجارب الباطنية ، والسلوك العلمي ، فليسَ من السهل ـ لذلك ـ استيعابُها وإلقاء الضوء الكامل عليها في هذا الباب الوجيز ، فمَنْ كان عندَه تَذوقٌ لهذه المعاني ، ورغبةٌ في دراستها العلمية فليُراجع كتب الشيخ محيي الدين ابن عربي كـ «الفتوحات المكيَّة» و«فصوص الحكم» [٢].

وقد كَتب الإمام السَّرهندي في إثبات «وحدة الشهود» رسائل مفصلة طَويلة ، يُتوصل منها ـ في ضوء عَرض الإمام السرهندي لمذهب ابن عربي وتلخيصه وشرحه ـ إلى فَهم هذا المذهب وإدراكِ أبعاده وغاياته ومقاصده ، وسوف تَرِد مقتطفاتُها المهمة في خلال هذا الباب ، في مواضعها المناسبة.

ونُورِد هنا مقتبسات من رسالة «وحدة الوجود» للعلامة عبد العلي بحر العلوم اللَّكْنوي (م ١٢٢٥ هـ) إذ أنـه مع تَبحُّـره في علوم الحكمة وأصول

---

(١) الرسالة رقم: ٨٩ المجموعة الثالثة: كتبها إلى القاضي الشيخ إسماعيل الفريد آبادي.

(٢) ويفيد في هذا الصدد الاطلاع على كتاب «أصل الأصول في بيان مطابقة الكشف بالمعقول والمنقول»، للسيد شاه عبد القادر مهربان فخري الميلابوري (م١٢٠٤هـ) طبعة جامعة مدراس ١٩٥٩م ، فهو كتاب جامع في هذا الموضوع.

الفقه ، يُعتبر شارحاً وترجماناً لنظرية الشيخ محيي الدين في «وحدة الوجود» ، وغواصاً ماهراً في بحر مؤلَّفاته ، لا سيما «الفُتوحات المكية» و«فُصوص الحِكَم» ، وسوف تُعِين القارىءَ هذه المقتبساتُ في فَهْم مرادِ الشيخ الأكبر ومقاصده، وإن كانت وردتْ فيها أيضاً مُصطلحاتٌ وتعبيراتٌ لا يَعرف معانيها إلا أصحابُ المعرفة والذوق في هذا الشأن ، المُلمِّين بهذا الأسلوب وهذه التعبيرات ، ولم نَقِفْ على شرحٍ لهذه النظرية في وضوح وإيجازٍ أخصَر من هذا الشرح ، فرأيتُ أن أورده فيما يلي :

«جَميعُ ما سوى الله ـ تعالى ـ عالَم الشؤون والتعينات ، وجميع الشؤون والتعينات مَظاهرُه ، هو ظاهرٌ فيها وسارٍ ، ليس هذا السريان هو ما يقول به أصحاب «الحلول» أو يعتقده أهل «الاتحاد» بل إنَّ هذا السريان كسَريان عددِ الواحد في الأعداد ، وجميعُ الأعداد ليست إلاَّ وحدات ، فلا يَظهر في العالم إلاَّ عينٌ واحدة أو ذات واحدة ، وهي التي ظَهرتْ من ذاتِ الله القدوس ، فتتجلى ذاتُ الله ـ تعالى ـ في هذه الكَثرة ، فاللهُ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، تَعالى عن الشركاء والأنداد.

ولا تَظهرُ أسماءُ الله ـ تعالى ـ في غير مَظهر ، سواءٌ هذه الأسماء المباركة تَنزيهيةٌ أو تشبيهيةٌ ، ولما كانت الأسماء بالمظاهر ، ولا يُتصوَّر كمالها بدون مظاهِرها ، أَوْجَد الله سبحانه وتعالى أَعيانَ العالم ، لتكونَ مظَاهرَه وتجلي كمالُ أسمائِه بأجلى مظاهرِه ، وأن الله تعالىغنيٌ ـ في كماله الذاتي ، ولكنه لا يَستغني في مرتبة الكمال الاسميِّ عن الوُجود الخارجي للعالم ، يقول الحافظ الشيرازي ما معناه :

«لو استظلَّ العاشق بِظلِّ المعشوق فماذا فيه؟ فنحنُ في حاجةٍ إليه ، وهو في شَوْقٍ إلينا».

وأُشير إلى ذلك في هذا الحديث القدسي: «كُنتُ كَنْزاً مخفياً، فأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الخلقَ»[1].

والذي يَعتقد في وُجودين اثنين، وجود الله ـ واجبِ الوجود ـ ووجودِ الممكن، فإنه يُشرك، وشِركه هذا شِركٌ خفيٌّ.

أمّا من يَعتقدُ في وجودٍ واحد ويقول إنه لا وجود إلاّ لله، وكلُّ ما سواه فمظَاهِرُه، وكَثرة المَظاهر لا تُنافي وَحدته، فهو إنسانٌ موحِّد».

«ولَسْتَ عينَ الحق، لأنه هو الموجود المطلق، وأَنْتَ المقيَّد المتعين، ولا يُمكن أبداً أن يكون المقيَّد عَيْن المُطلَق، ولكنك في حقيقتك عينُ الحق، لأن الحق تَعيَّن فيك، فتجِد الحق ـ جل شأنه ـ مُطْلَقاً من قيد التَّعيُّن في عين الموجودات، ومُقيَّداً بقَيْد التعيُّن فيها، أي أنك ترى الحق ظاهراً في المتعين لا موجود ولا إله إلاّ الله»[2].

وقد كان لهذه النظريةِ من التّأثير العالميِّ الشامل ـ بعد عصر الشيخ محيي

(١) هذا الحديث أو ما معناه قد كثر وروده في كلام الصوفية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سندٌ صحيحٌ ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلى، والسيوطي وغيرهم. (مستفاد من «كشف الخفا ومزيل الإلباس» للعجلوني [٢/١٧٣، برقم ٢٠١٦]، المؤلف).

[ذكر الإمامُ المفسِّر الآلوسي هذا الحديثَ في «روح المعاني» عند تفسير قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وقال: «... من يرويه من الصوفية يعترفُ بعدم ثبوته نقلاً، لكن يقول: إنه ثابتٌ كشفاً، وقد نصَّ على ذلك الشيخُ الأكبر ـ ابن العربي ـ في الباب المذكور، والتصحيح الكشفي شِنْشِنةٌ لهم!».

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة ـ رحمه الله ـ: يُشير الإمام الآلوسي رحمه الله تعالى بهذا إلى أنه لا عبرة بالتصحيح الكشفي عند المحدِّثين، وهو كذلك (انظر: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع». للإمام علي القاري الهروي، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، طبع مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب)].

(٢) رسالة «وحدة الوجود» (بالفارسية) للعلامة بحر العلوم عبد العلي الأنصاري اللكنوي، انظر ص ٢٩ ـ ٥٦.

الدين ـ حتى يمكن أن يُقال إن تسعةً وتسعين في المئة من الصوفية والفلاسفة ، والشعراء ، تَهيباً وإجلالاً للنظرية أو لقائلها ، أيّدوها واعتنقوها ، ومُعظم من يُعارِض الشيخ محيي الدين في هذه المسألة هم المُحدِّثون والفقهاء وكبار العلماء ، منهمُ الحافظ ابن حجر العَسْقلاني ، والعلامة السَّخاوي ، والمفسِّر أبو حيَّان ، وشيخ الإسلام عِزُّ الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبو زُرْعة ، وشيخُ الإسلام سِراج الدين البَلْقيني ، والعَلاَّمة نور الدين علي بن سلطان محمد الهَرَوي (المعروف بمُلاَّ علي القاري) والعَلاَّمة سعد الدين التَّفْتَازَانِيّ ، العُلماءُ النَّوابغ ، وأئمةُ الفن ورجالُ الإسلام.

وإنَّ هؤلاء العلماء ـ رغم تفوقِهم على الناس في التبحُّر ، والتعمُّق في العلوم الدينية ، ودراستِهِمُ الواسعة العميقة للكتاب والسنة ، وفضلِهم وصلاحِهم وتورُّعِهم ـ لا يَعتَرِفُ المتصوِّفة وأصحاب «الحقائق» بمعرفتهم. باستثناء شخص منهم أو شخصين ـ للعلوم الباطنية ، والحقائق الروحية الغامضة ، ولذلك حَملوا مُعارضتهم على المَثل الشائع: «النَّاس أعداءُ ما جهلوا».

شَيخ الإسلام ابن تَيميَّة ، ونَقْد عَقيدة «وحدة الوجود» ، ومُعارضتُها والرَّدُّ عليها:

إنَّ أكبرَ قادةِ حركة المعارضة لنظرية «وحدة الوجود» الذي قام بنَقْدِها وتحليلها تحليلاً علمياً ، والتعليق عليها ، وإبداء رأيه الحرِّ عنها على أساس الكتاب والسنة ، وفي ضَوء تلك النتائج والآثار التي ظهرتْ لاعتناق هذه النظرية ، خلاَل مدة قليلة في أوساط التصوف وعامة الناس ، هو شيخُ الإسلام تقي الدين الحافظ أحمد ابن تيميَّة (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) الذي اسمه في صفّ المعارضة لهذه النظرية ، وكان قد وُلد بعد وفاة الشيخ محيي الدين (عام ٦٣٨ هـ) بثلاث وعشرين سنة ، ونَشأ في نفس المدينة (دمشق) ـ التي تُوفي فيها الشيخ محيي الدين ودُفِنَ فيها ـ وتعلَّم ، وتربَّى ، وبلغ المكانة الفريدة في المجالات العلمية والفكرية ، فلما بلغتْ مداركُه النُّضج الفكري ، وتهيَّـأ

لدراسة بيئتِه ومحيطِه دراسةً ناقدة ، لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابن عربي أكثرُ من أربعين أو خمس وأربعين سنةً .

وكان لِتَحقيقاتِه العِلْميَّة النادرة دَوِيٌّ في أجواء مصر والشام ، وكانتِ الأوساط الصوفية سكرى بمَشْرَبه في التوحيد ، وكان الشيخ أبو الفتح نصر المَنْبَجِيُّ في مصر ، من غُلاة محبِّيه ومريديه .

كما كان ركن الدين بيبرس الجاشنكير صاحبَ السلطة المطلقة في مصر والشام (بعد ما اعتزل السلطان ناصر بك قلاوون السلطنة سنة ٧٠٨هـ) مُعجَباً بالشيخ نصر المَنبَجِي ومُريداً له .

وكانت كُتب الشيخ ابن عربي لا سيما «الفُتوحات المكية» و«فصوص الحِكم» مُتداولةً في أيدي الناس بالشام ومعظم البلدان العربية آنذاك ، قد نالتِ القبول والإعجاب ، يقرؤها الناس في نَشوة وانفعال ، حتى الإمام ابن تيمية اعترف بأنَّ في «الفتوحات المكية» و«كُنه الحكم المربوط» و«الدرَّة الفاخرة» و«مطالع النجوم» بعضَ الفوائد العِلمية ، والتحقيقات الجيدة [١] ، وكان من أشهر المعتنقين لمذهب ابن عربي ، ابنُ سبعين ، وصَدْر الدين القَوْنَوِيّ ـ الذي كان تلميذاً مباشراً للشيخ ابن عربي ، والبَلياني والتَّلمساني ، وقد فضَّل ابنُ تيمية الشيخَ الأكبر على جماعتِه وأصحابه كلهم ، مما يَدُل على إنصافه وتحقيقه وموضوعيته ، وعَمله بقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨] .

يَقـولُ ابـنُ تيميَّـة :

«لكنَّ ابن عربي أَقرَبُهم إلى الإسلام ، وأحسنُ كلاماً في مواضع كثيرة ، فإنه يُفرِّق بين المَظاهر والظَّاهر ، فيُقرُّ الأمرَ والنهي والشرائع على ما هي عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمرَ به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثيرٌ

(١) انظر جلاء العينين: ص ٥٨ ، للعلامة نعمان الآلوسي.

من العُبّاد يأخذون من كلامه سُلوكهم ، فينتفعون بذلك ، وإن كانوا لا يفقهون حَقائقه ، ومن فَهمها منهم ووافقه فقد تبيَّن قوله»[١] .

ويَقول في موضع آخر في إحساسٍ مَشُوب بالحرج في الحُكم الفاصل ، والشُّعور بدِقَّة الموقف ، وإحسانِ الظن بمُسْلِمٍ له مكانته ، ومنزلَتُه عند كثير من المسلمين :

«والله تعالى أعلمُ بما مات الرجلُ عليه ، واللهُ يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات» ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] [الحشر: ١٠] .

غُلاة الدُّعاة لعقيدة «وَحدة الوجود» وآثارُهم ونتائجهم:

ولكنْ يبدو أنه ـ للحماس الزائد ، وقِلَّة الحَذَر والحيطة في تعليم هذه النظرية وتلقينها للناس ، ونشرِها والدعوة إليها دعوةً عامة شاملة ، وللأذواق والنفسيات الخاصة ـ ظهرت هناك في الشام ـ التي كانت مركزاً كبيراً للعلوم الدينية ، وولايةً ذاتَ شأن من ولاياتِ دولة يحكُمها حُكّام من سلالة تركية ـ فوضى خُلقيةٌ وفكرية ظلت تَعمُّ وتَسود ، ويبدأ الناس يَتعدَّون حدود العقل والشريعة ، والأخلاق ، ووَقعَت مِحنة خطيرة في المجتمع الإسلامي ، وحَسْبَ ما يقول بعض الحكماء «أن الشجرة بثَمرتِها لا بأصلها» ، كان ما تأتي به عقيدة «وحدة الوجود» من ثِمار مُرّة ، ونتائج خطيرة ، يدفع الغيارى على الإسلام وحُماةَ الشريعة والدعاة إلى الله إلى أن يَقلقوا لهذا الوضع ويَثوروا عليه ، ويَنتقدوه ، وكانت تستحق الرد والتفنيد.

يحكي ابنُ تيميَّة ـ وهو ثِقة في حكايته وروايته ، أن «التِّلِمساني» ـ وهو من حُذّاقهم علماً ومعرفة ـ كان يُطبّق المذهب الوجودي عَمَلياً فيستحلُّ

---

(١) جلاء العينين: ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

جميع المحرَّمات (لأنه إذا كان الموجود واحداً فلِمَ التفريق بين الحلال والحرام)[١]؟

وَيقـول ابـنُ تيميَّـة :

«وحدَّثني الثقة أنه قرأ عليه «فُصوص الحِكَم» لابن عربي ، وكان يَظُنّه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يُخالِف القرآن ، فقلتُ له : هذا الكلام يُخالف القرآن، فقال: القُرآن كله شِركٌ، وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول: ثَبت عندنا في الكَشف ما يخالف صَريح المعقول»[٢] .

ويمضي قائلاً :

«وحدَّثني من كان معه آخرُ نظيرٌ له ، فمرَّ على كَلبٍ أجرَب ميِّتٍ بالطريق ، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟ فقال: وهل ثَمَّ شيءٌ خارج عنها؟ نَعَمْ الجميع في ذاته»[٣] .

ويَقولُ في كتابه «الردُّ الأقوم على فصوص الحكم» :

«وقيل لبعضهم: إذا كان الوجود واحداً ، فلِم كانت الزوجة حلالاً والأمُّ حراماً؟ فقال: الكُلُّ عندنا واحد ، ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا حرامٌ ، فقلنا حرامٌ عليكم» [٤] .

ولا يُمكن أن يُقال: إن مسؤولية هذه الجراءة على اللهِ، والإباحية والفوضى الخلقية تقعُ على الشيخ محيي الدين ابن عربي وحدَه ، الذي كان يجتهد في اتّباع السنَّة [٥]، وكان عابداً زاهداً متنسِّكاً ، صاحبَ رياضات ومجاهدات ،

(١) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥ .
(٢) المصدر السابق: ص ١٤٥ .
(٣) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥ .
(٤) الردُّ الأقوم على فصوص الحكم: ص ٤٢ .
(٥) كان الشيخ ابن عربي متبعاً لمذهب داود الظاهري الذي ينكر القياس ، ويأخذ بظاهر الحديث !!!.

ومحاسبة شديدة للنفس ومعرفةٍ دقيقة واسعة بمصايد الشيطان ونزغاته ، وغوائلِ النفس وآفاتها [(١)] ، ولكنْ مع ذلك توجد عندَه أقوالٌ شاذَّة غريبة ، تكون مادةً لمن يُريدُ أن يجعل من الحَبَّة قُبَّة ، مثل قوله : إن عُبّاد العجل ـ في عهد موسى عليه السلام ـ ما عَبدوا إلاَّ الله ، وأن موسى أنكر على هارون ، لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل (لأنها في الحقيقة : عِبادة الله ، إذ الموجود واحد) وأن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يَرون الحقَّ في كل شيء ، بل يرونه عين كل شيء ، وأن فرعون كان صادقاً في قوله : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] . بل هو عين الحق ، ولما كان فرعون في منصب الحكم صاحبَ الوقت ، جاز له أن يقول : «أنا ربُّكم الأعلى» أي وإنْ كان الكُلُّ أرباباً بنسبةٍ ما ، فأنا الأعلى منهم بما أُعطيته في الظاهر من مقاليد الحكم فيكم ، قال : ولما عَلِمتِ السحرةُ صِدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقرُّوا له بذلك وقالوا له : ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه : ٧٢] ، فصلح قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» .

ولهذا عابَ نوحاً ، وعظَّم قومَه الكفارَ؛ الذين عبدوا الأصنام ، وقال : إنهم ما عبدوا إلاَّ اللهَ ، وإن طوفان نوح كان طُغيان المعرفة الإلٰهية ، وهيَجان بحرها الذي غَرِقوا فيه [(٢)] .

ولأجل ذلك كان كثيرٌ من المشايخ العارفين ـ الذين كانوا يعترفون بمكانة الشيخ ابن عربي وعُلُوِّ كعبه في العلوم ويرونه من الأولياء المقبولين ـ يَنْـهَون أصحابهم وتلامِذتَهم عن مُطالعة كتبه .

يحكي الشيخ محيي الدين عبد القادر العِيْدروس مؤلف «النور السافر» عن شيخه العلامة بحرق أنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول :

---

(١) راجع كمثال على ذلك كتابه «روح القدس» .

(٢) هذه الأقوال كلها مقتبسة من «الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم» وينبغي الإشارة هنا إلى أن فريقاً من المهتمين بعلوم الشيخ ابن عربي وكتاباته يقول بأن هناك إلحاقات وزيادات دُست في كتبه ، لا سيما في كتابه «فصوص الحكم» .

«لا أذكُر أنَّ والدي ضربني ولا انتهرَني إلاَّ مرة واحدَة بسبب أنه رأى بيدي جُزءاً من كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي ، فَغضِبَ غضباً شديداً ، فهَجرتُها من يومئذٍ. قال: كان والدي ينهى عن مُطالعة كتابي «الفتوح» و«الفصوص» لابن عربي ، ويأمُر بحُسن الظن فيه ، وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين» [١].

عَقيدةُ وَحدة الوُجود في الهند:

ولمَّا وصَلتْ هذه العقيدة في القرن الثامن إلى الهند ، كانَ لها ـ بسبب ما كانت الهندُ نفسُها مركزاً قديماً للدَّعوة المتحمّسة إلى هذا المذهب ، والذوق الإشراقي الخاص ، والإيمانِ به إيماناً منبعِثاً دافعاً ، وكما يقولُ بعض مؤرِّخي التصوُّف: إن المتصوفة المسلمين الذين ولدوا في إيران والعراق والمغرب ، ونشؤوا فيها ، إنما كانوا تعلَّموا نظرية «وحدة الوجود» من الهند.

ولم تَزل هذه البلاد حتى بعد الفتوح الإسلامية ـ باستمرار ومن غيرانقطاع ـ حاملةً لواء هذه العقيدة والمتمسِّكة بها ، وطبيعةُ النسل الآريِّ تتجه دائماً إلى حبِّ «الإطلاق» والتهرُّب من القيود والتَّعيُّنات ، بعكس الديانات الناشئة في مواطن الشعوب السامية ، وَمَسقط رأس الأنبياء والمرسلين ، فكانتْ سِمة هذه البلاد ـ الخاضعة لتأثير السُّلالة الآرِيّة حُكماً وعَقلية وثقافة ـ التَّمسُّك بعقيدة وحدة الوجود ، ووَحدة الديانات من آلاف السنوات.

لذلك كله ، كان لعقيدة وَحدة الوجود في الهند من التأثير والقوة والقبول ، ما لم يكنْ لها في بلدٍ آخر ، وقد انسجمتْ طبيعةُ هذه الفلسفة بطبيعة البلاد ، وائتلَفتْ أرواحُهما ، واحتضَنتْ إحداهُما الأخرى ، فكان من هذا الوِئام حَماسٌ جديد ، وحرارة جديدة ، وتشكَّلتْ مدرسة إشراقيَة جديدة ، فنَجِد عَدداً كبيراً من أبناء هذه البلاد ومشايِخها يتحمَّس لهذه العقيدة ، ويُدافع عنها ويدعو إليها ، فَمِن أَخصِّهم وأشهرهم في هذا الباب شيخ السلسلة الجِشْتِيَّة

(١) النور السافر: ص ٣٤٦.

الصَّابرية الشهير الشيخُ عبدُ القدوس الكَنْكُوْهِي (م٩٤٤هـ) ، والشيخ عبدُ الرزاق الجَهَنْجانوي (٩٤٩هـ) والشيخُ عبدُ العزيز الدِّهْلَوي المعروف بشكربار (م٩٧٥هـ) ، والشيخُ محمدُ بنُ فضلِ الله البُرهَانبوري (م١٠٢٩هـ) ، والشيخ مُحِبُّ الله الإله آبادي (م ١٠٥٨)[1] ، وكان كل واحد من هؤلاء ابنَ عربي عصرِه ، وابن فارِض مِصرِه ، وتصدَّر مُعظم هؤلاء قبل الإمام السَّرْهندي ، بزمن قليل أو بعده بقليل ، أو في عهده نفسِه ، للتربية والإرشاد ، والدعوة والإفادة.

الشيخ علاء الدولة السِّمْناني ومُعارضَةُ نظرية «وحدة الوجود»:

قُلنا فيما تقدَّم: إن من تَصدَّى للردّ على مذهب «وحدة الوجود» وانتقادِ الشيخ محيي الدين ابن عربي ومعارضته كان معظمهم من العلماء المتبحِّرين في العلوم الدينية ، غير المتذوِّقين للمعارف والحقائق ، لم يُقاسوا الرياضات والمجاهدات، ولم يُلمُّوا بالتجارب العملية الشخصية ، ولا سَلكوا أودية الكشوف والمشاهدات ، فكان أصحابُ المعرفة والذوق من هذه المدرسة الإشراقية لا يُلقون لهذه الانتقادات والاعتراضات بالاً ، ويَرونها لا تستحقُّ أي اهتمام ، ويقولون استصغاراً لشأنهم:

«لا تَستطيع أن تَعرف لَذَّةَ الخمر ما دُمْتَ لم تَذُقْها».

ويخاطبونهم بقول الشاعر:

وإذا لـم تَـر الهِـلالَ فَصـدِّقْ ... لأُنـاسٍ رَأَوْهُ بـالأبصَـارِ

وإنَّ أول مسلمٍ صوفيٍّ ، ومحققٍ عارفٍ تصدى للردِّ على هذه العقيدة وتفنيدها بعناية بالغة واهتمام كبير ، هو الشيخُ رُكن الدين أبو المكارم علاءُ الدولة السِّمناني[2].

---

(١) يمكن الاطلاع على تراجمهم واتجاهاتهم وأذواقهم في الجزء الرابع والجزء الخامس من كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني.

(٢) انظر «رسائل الإمام الرباني» الرسالة رقم: ٨٩ ، المجموعة الثالثة.

وُلد علاء الدولة السِّمْناني (٦٥٩ ـ ٧٣٦ هـ) في أسرة شهيرة ، كان أفرادها يتبوَّؤون مناصبَ عالية في الحكومة والوزارة ، بقرية سِمْنان من ولاية خُراسان ، واستفادَ المعارف الباطنية من الشيخ نور الدين عبد الرَّحمن الكسرقي الإسْفَرايِيني في الطريقة الكُبروية ، ونال الإجازة والخلافة ، واستمرّ في مناظراته ضد نظرية الشيخ الأكبر في «وحدة الوجود» ، وتعرَّض لها في مواضع كثيرة من رسائله ، فإنَّه يرى أن غاية السالك هي العبودية لا التوحيد الوجودي ، جَمع رسائله ورتَّبها أحدُ مريديه الشيخ إقبال بن سابق السَّجِسْتاني ، تُوجد عدة نسخ ، منها باسم «جهل مجلس» ـ أربعون مجلساً ـ أو «أقوال الشيخ علاء الدولة السِّمناني» وغيرهما في المكتبات ، وتشتمل أكثر أجزاء «نفحات الأنس» [١] ، للجامي على أقواله ومواعظه» [٢].

وَحدةُ الشُّهود:

لا نَعلم ـ في حُدودِ دراسَتِنا واطلاعنا إلاَّ شخصيتين شهيرتين ، نجدُ عندَهما فِكرة وَحدة الشهود إزاء نَظرية وحدة الوجود ، وإشاراتٍ متفرِّقة إليها ، رغم ما بينهما من اختلاف في الذوق والمشرب ، وَبون كبير في المنهج وأساليب الدعوة ، إلاَّ أن بينهما وَحدة الإخلاص وصَفاء النية ، وسَلامة الذوق ، واستقامة الفطرة ، التي تُفتح لها أبوابُ الهداية الربانية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] أحدهما شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميَّة الذي كان مُحدِّثاً ومتكلِّماً وفقيهاً ، والآخر الإمام شرف الدين يحيى المُنِيري الذي كان عارفاً محققاً وإماماً من أئمة

---

(١) انظر «نفحات الأنس» ص ٥٠٤ ـ ٥١٥ ، وللشيخ علاء الدولة رسالة خطية أسماها «العروة لأهل الخلوة» مكتبة خدابخش خان بتنه ـ مخطوطة رقم: ٩٠٥ ، اقرأ ورق ٨٣ ـ ٨٤ (ألف) ورق ٨٦ (الف).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مقال F. Meier

التصوف والإحسان يتجلّى من كتابه (١) المتقدِّم الذكر «العبودية» ، أنه من المُطَّلعين على فكرة وَحدة الشهود ، ويُعرِّف هذه الحقيقة أنّها مَقامٌ يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه ، وأنها منزلةٌ لا تسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم بإحسان من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم ، ولكنها على كل حال منزلة فوق منزلة «وحدة الوجود» وأفضلُ منها حالاً وأرفع مكاناً (٢) ، ولكنه ـ لِعَدمِ خوضه في هذا المجال ـ يكتفي بإيماءات وإشارات .

وأمَّا الشيخ المُنيري (م٧٨٢هـ) فقد قَدَّم هذه الفكرة في رسائله بتفصيل أكثر ، فيقول في ضَوء تجاربه الشخصية ، وتحقيقهِ العلمي لهذا المقام الخاص :

«إنَّ ما يظن وَحدة الوجود ، وفناء كل موجود سوى واجب الوجود ، وعَدَمِه عدماً كاملاً ، هو ـ في واقع الأمر ـ ليس إلاَّ أُفول الموجودات إزاءَ الوجود الحقيقي ، وغروبَها وانقهارها ، كما يخبو ضوء النجوم وينطمس إزاء ضوء الشَّمس الوهَّاج ، وتُصبح الذَّرات كأنها لا حقيقة لها ولا وجود» .

إنّه يُلخِّص النظريّتين في كلمتين خفيفتين ، فيقول : «عَدم الأشياء وفناؤُها شيءٌ ، وعدم رُؤيتها شيء آخر» ، ويقول : «إنه مقام دقيق خطير تتعثَّر فيه أقدام الكبار من المشايخ ، وتتعسَّر الاستقامة إلا بتوفيق الله ، ثم بتربية المرشد المحنَّك الخبير» (٣) .

الحاجـة إلـى شَخصيـة تجديديّة جديـدة:

ولكنْ كانتِ الحاجةُ ماسّة ـ لتنقيح هذه الفكرة وإيضاحها ، وإقامة الحجة

---

(١) الضمير هنا يعود إلى ابن تيمية .

(٢) انظر «رسالة العبودية» ص ٨٥ ـ ٨٨ ، وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوى . . الخ (المكتب الإسلامي ، دمشق) .

(٣) راجع الرسالة الأولى من مكتوبات «سه صدى» .

على الناس في بيانها - إلى شَخصية جديدة، خاضَتْ في أودية السُلوك والإشراق الشائكة ، ومرَّت برِباعها ومنازلها ، وعرَّجت على مَقاماتها العالية ، وسَبحتْ في بحور المعارف الإلٰهية، والحقائق الربانية ، وعَبرتِ البحر الطاغي المتلاطم بالتجارب التطبيقية العملية إلى شاطيء الحقيقة ، فلا يُستدل بعدم العلم على عدم الوجود ، بل يقول كشاهد العيان والمُسافر المغامر الطموح في ثقة وقوة ، وبصيرة واعتماد ، «أَعْرِفُ كلَّ ربع من هذه الرباع(وحدة الوجود) بل كلَّ ذَرَّة من ذرات هذه الدار ، فقَدِ استمرَّ بها عهدي ، ودامتْ بها صلتي ، ولكنْ يَردُفه بهذا القول: «إنَّ وراء هذه الكواكب والنجوم عوالمَ أخرى، ومجالاتٍ أفسح».

لقد كانتْ هناك ثلاثةُ مذاهب بين المُثبِتين والنُّفاة لنظرية «وحدة الوجود» ، وهي:

١- التَّأييدُ الكامل لنظرية وَحدة الوجود ، وأنها حقيقة بَدهية ، وغايةُ المعرفة والتحقيق.

٢ - المُعارضة الكُلِّية لنظرية وحدة الوجود ، وأنها ليست إلاَّ نتائجَ القُوَّة الوَهْمِية والمُتخَيِّلة ، والمشاهداتِ الباطنية ليس غير.

٣ - عَرض نظرية «وحدة الشهود» بدلاً من وحدة الوجود ، وأنَّ ما يراه السالك ، والذي هو واقع الحال ليسَ أن الوجود واحد وما سوى واجب الوجود معدومٌ لا حقيقة له ، بل الواقع أنَّ الموجودات قائمةٌ في مكانها ، ولكنَّ نور الوجود الحقيقي لواجب الوجود حَجَب وُجودها عن الأبصار حتى كأنها فانيةٌ معدومةٌ ، وكما أنَّ النجوم تنكدر وتأفُل إزاء ضوء الشمس بعد طلوعها ، حتى لو قال قائل: إن النَّجم غيرُ موجود لما كان كاذباً ، كذلك هذه الموجوداتُ إزاءَ الوجود الكامل الحقيقي ، تتضَاءل أمامها ، وتَهون وتَصغرُ حتى كأنها معدومةٌ لا وجودَ لها.

مَركز الإمام السَّرهندي الاجتهاديُّ والتَّجديديُّ:

اختار الإمام السَّرهندي مَذهباً رابعاً إزاء هذه المذاهب الثلاثة ، وهو أَنَّ

«وَحدة الوجود» مقامٌ يعرض للسالك خلال السلوك ، فيُشاهِد ـ عند ذاك ـ عَياناً وجَهاراً ـ أنه لا وجود هناك إلاَّ لواجب الوجود ، وكلُّ ما يَراه الإنسان من وجود ، فهو وجُودٌ واحد ، وما سواه فليس إلاَّ «تنوُّعاتُه وتلويناتُه» وفي تعبير الشيخ محيي الدين ابن عربي ، والعارفين المتذوِّقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي «تَنزُّلاتـه».

ولكن لو حالفَ التوفيقُ الرَّبانيُّ ، ورافق الهَدْيُ النَّبويُّ ، وكان السالك صاحبَ طموح وعُلُوِّ هِمة ، فإنه يفوز بمقامٍ آخر ، وهو مقام «وَحدة الشُّهود».

وهكذا يُضيف الإمام السرهندي ـ مع نَقْضه لنظرية وحدة الوجود ـ الذي كان مذهب غالب المتصوِّفين والحكماءِ المُدقِّقين ، والإشراقيِّينَ المتعمِّقين ، واعترافِه بعلو كعبِ مؤسِّس هذه النظرية ـ علمياً ـ ورائدها الأكبر ، الشيخ محيي الدين ابن عربي ـ في كثير من العلوم والتحقيقات ـ إضافةً جديدة ، وَيكتشفُ عالَماً جديداً يُوافق عقيدة جمهور المسلمين ، ويَتفق مع الكتاب والسنَّة والشريعة الإسلامية ، في جانب ، ويضُيف شيئاً ـ بدون أن يرجع بالعلوم القهقرى ، ويُلغي تحقيقاتِ جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها ـ يَنْسَجِمُ مع التحقيقاتِ والكشوف الأخيرة في الأَنفُس والآفاق ، ويتلاءمَ مع النُّصوص الشرعية ، والأُصول القطعية ، ويُطابق بينها جميعاً.

التَّجربةُ والمُشاهدة الشَّخصية:

واقرأ معي ـ بعد هذا التمهيد البسيط ـ مُقتبساتٍ من رَسائلِ الإمام العالية ـ التي هي أقرب إلى الفهم ، وأوضحُ في العبارة ، وأسهل للإدراك.

يتحدَّث عن تَقدُّمه ورُقيِّه في الروحانية ، وانتقاله من مذهب «وحدة الوجود» إلى «وحدة الشهود» وما شاهدَ أثناء ذلك ، فيكتُب إلى بعض أصحابِه المتَّصلين به من المشايخ الصوفية :

«سيِّدي العزيز كان هذا الفقير ـ من الصِّغر ـ يَعتقدُ اعتقاد أهل التوحيد (أصحاب وحدة الوجود) وكانَ والدُ الفقير ـ قُدِّس سِرُّه ـ على هذا المذهب ،

ويَشتغل بهذه الطريقة ، فنالَ هذا الفقير حسب ما يقال: «ابن الفقيه نصف الفقيه» قِسْطاً عِلْمياً وافراً من هذه الطريقة ، فكان يَجِدُ فيها لَذَّة ومُتعة كبيرة ، حتى ساقَني سائِقُ التوفيق الرَّبانيُّ إلى الإمام العارف بالحقائقِ والمعارف ، مُؤيِّد الدين ، الشيخُ الراشد المُرشِد إلى صراطِ الله المستقيم ، محمد الباقي ـ قُدِّس سِرُّه ـ فعلَّمه الشيخُ المرشد الطريقة النقشبندية العَليَّة ، واهتمَّ بأمره غاية الاهتمام ، حتى انكشف عليه ـ بعدَ مُمارساتٍ وتطبيقاتٍ لهذه الطريقة لمدة قليلة ـ «التوحيدُ الوجودي» ، وكان في هذا الاكتشاف شيءٌ من التطرُّف والمُغالاة ، وفاضتْ عليه في هذا المقامِ علومٌ ومعارفُ كثيرة ، حتى لم يَبْقَ شيءٌ من دقيق وجليل يتعلق بهذا المقام إلاَّ انكشف عليه وظهر له جليّاً.

وتَجلَّتْ له علوم الشيخ محيي الدين بن عربي الدقيقة الخطيرة ، كما ينبغي أن تتجلَّى ، وفازَ بمعارج التجلّي الذاتي الذي ذكر صاحب «الفصوصِ» ، والمقام الأعلى فيه الذي يقول عنه: «ما بَعدَ هذا إلاّ العدمُ المحض» ووقفَ على عُلوم هذا التَّجلي ومعارفه التي يَظُنُّ الشيخُ اختصاصَها بخاتم الولاية ، بإفاضة وتَفْصيل ، وبلغ منه السُّكر في هذا المقام وغَلبة الحال حتى كَتب في بعض رسائله ـ التي بعث بها إلى الشيخ المرشد ـ أبياتاً من الشعر في السُّكر.

وطالَ هذا الحال مُدةً طويلةً ، ودام شهوراً بل أعواماً ، إذ فاجَأتْـهُ العنايةُ الربانيةُ ، وتطلَّعتْ من نافِذة الغيب ، وتجلَّتْ وجلّت ذلك الغطاء الذي كان مُسدلاً على «لا كيفَ ولا كَمَّ» ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، ومَالَتْ تلك العلوم والمعارف السابقة التي كانت تُنبىء عن الاتحاد والوحدة إلى الزَّوال والانقراض ، وتَستَّرتْ تِلك الإحاطة ، والسَّريَان ، والقُرب والمعيّة الذاتية التي كان انكشافها في ذلك المقام واختفت، وظهرَ العلم الذي هو يَقين اليقين، إنَّه ليست لهذا العالم الصانِع للكون ، أيُّ نسبة من تلك النِّسب التي تُعزَى إليه ، وإن إحاطَته ومَعِيَّته عِلمية ، وليست بذاتيَّة ، كما هي عقيدة أهل الحق ـ شكرَ اللهُ سعيهم ـ.

إنَّ الله الأحد القدوس لا يَتَّحد بشيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]

والعالَم مُتَّسِمٌ بالحدوث والنقص والمحدودية ، فكيف يمكن أن يكون ما لا يُوصف بالكَيف والكمِّ عينُ أو مِثلُ ما يوصف بالكَيف والكَم ؟! ، وكيف يقال للواجب إنَّه عينُ المُمْكِن؟ ولن يكون القديمُ عينَ الحادث ، ولا ممتَنِعُ العَدم عينَ جائز العدم ، وانقلابُ الحقائق مستحيل ـ عقلاً وشرعاً ـ ولا يَصحُّ ـ أبداً ـ أن يُحمل شيء على شيءٍ آخر أصلاً ورأساً.

والعَجب من الشيخ محيي الدين وأتباعه إذْ يصفون واجب الوجود بالمجهول المُطلَق ، ولا يَرونه محكوماً عليه بحُكم ، ورغم ذلك يُثبتون الإحاطة الذاتية والقُرب، والمعيَّة الذاتية، والصحيح في هذا الباب ما قالَه علماء أهل السنة: إنَّ الأمر كله راجع إلى القُرب العِلميِّ، والإحاطة العلمية.

وفي أيام فَيضان هذه العلوم والمعارف المخالِفة لوحدة الوجود ، قاسى هذا الفقيرُ فترةً صعبةً قَلِقة ، لأنه ما كان يظن أن وراء هذا التوحيد توحيداً آخر ، فكان يَدعو متضرِّعاً مبتهلاً ، ألاَّ يُسلبَ هذه المعرفة ، حتى انقشعت تلك الحجب كلها التي كانت مُلقاة على وجه هذه الحقيقة ، وتجلَّتِ الحقيقة الواقعة ، وعلم أَنَّ العالَم وإن كان بمثابة مرآةٍ لصفات الله الكاملة ، ولكنَّ العكس الذي تراه على وجه المرآة ليس هُو ذلك الوجود نفسَه الذي يَنعكس مَظهرُه عليها ، وأنّ الظِّل لا يمكن أن يكون عينَ صاحبِ الظل ، كما يَعتقد أصحاب وحدة الوجود.

وَلْنَضْرِبْ لشرح ذلك أكثر من ذي قبل مثالاً ، أراد عالمٌ بارعٌ يجمع بين جميع العلوم والفنون أن يُظهر كماله وكفاءاته المتنوعة الكثيرة ، ويُعلِن فضائله ومحاسنه الخفية على مشاهد الناس ، فأَبدَع حرُوفاً وأصواتاً ليُظهر كمالاته المخفيَّة في مرآةِ هذه الحروف والأصوات ، فلا يُمكن ـ في هذه الحال ـ أن يقال: إن هذه الحروف والأصوات التي هي مَظهر هذه المحاسن المستورة ، ومرآةُ الكمال المكنون ، إنما هَي عَينُ هذه المحاسن والكمال ، أو أنَّها محيطةٌ بها إحاطة كاملة ، أو أنّها قريبةٌ منها أو معها معيَّة ذاتية ، وقُرب ذاتي ، بل إنَّ بينهما من النِّسبة ما بين الدالّ والمدلول عليه ، فليستْ هذه الحروف

والأصوات إلاَّ دليلاً على هذا الكمال ، وما نشأتْ من النِّسبة بينهما ، إنما هي بفعل الوَهْم والخيال .

والحقُّ أنه لا تتحقَّق نسبة من نسب : العينية ، والاتحاد ، وإحاطة القُرب ، والمعيَّة الذاتية هناك .

ولكن لمَّا أنَّ نسبة الظاهر، و المظهر، والدال، والمدلول عليه مُتحقِّقة بين هذه الأصوات والحروف ، والمدلول والمحاسنُ والكمال لذلك تحصل ـ بتأثير بعض العوامل والعوارض ـ لبعض الناس ، هذه النِّسَب الوَهْمِيّة المتخيَّلة .

ولكنْ هذه المحاسن ـ في حقيقة الأمر ـ خاليةٌ بعيدة من جميع هذه النِّسب ولا صِلة بين الحق والخلق ، إلاَّ ما يُتصوَّر من صِلةٍ بين الدال والمدلول عليه ، والظاهر والمظهر ، وتؤدِّي كثرةُ مراقبةِ التوحيد ببعض السالكين إلى إصدار هذه الأحكام الوهمية ، لأنَّ صورة هذه المراقبات تُنْقَش في القوة المتخيَّلة ، وتَتثبّتُ فيها ، ويَحصُل لبعض الناس ـ للإمعان في دراسة علم الوحدة ومذاكرتها وإجالة النظر فيها ـ ذوقٌ خاص في هذه الأحكام .

ويَدفع بعضُ الناس إلى هذه النزعة الوجودية ، والاعتقادِ بالوحدة ، غَلبةُ الحب عليهم ، لأن استيلاء حُبِّ المحبوب على القلب يَطرد غير المحبوب ، فلا يَرى في العالم إلاَّ المحبوب ، وليسَ الواقعُ أنَّ غير المحبوب مَعدومٌ ، إذ أنه مُعارِض للعقل والحِسّ والشرع ، وتَدفَعُ هذه المحبّة نَفسَها أحياناً إلى الحُكم بالقرب الذاتي والإحاطة الذاتية .

وإنَّ هذا النوع من التوحيد أرفعُ وأفضلُ من النوعين السابقين ، وداخلٌ في دائرة «الأحوال» وإن كان لا يُطابِقُ الواقع ولا يتفق مع العقل ، وتَطبيقُها مع الشريعة والواقع ، تَنطُّعٌ وتكلُّفٌ خالص .

وغاية ما في الباب أنه خَطأ كشفيٌ ، وهو في حكم الخطأ الاجتهادي يَرتفع

عنه العتاب واللومُ ، بل يُصوَّب أحياناً لغلبة الحال واستيلاء السُّكْر» [١] .

التَّوحيدُ الشُّهودي أو (وَحدة الشهود):

ويقول الإمام في رسالة أخرى ، كَتبها إلى الشيخ فريدِ البخاري :

«إنَّ التوحيد الذي يَحصُل للصوفية في أثناء سُلوكهم ينقسم قسمين: التوحيدُ الشهودي ، والتوحيد الوجُودي .

والتوحيد الشهودي: عبارةٌ عن رؤيةٍ واحد ، أي أن لا يكون شهود السالك إلاَّ فرداً واحداً .

والتوحيدُ الوجودي: عبارةٌ عن اعتقادِ وجود واحد ، وَفناء كلّ ما سِواه وعدمه» .

ثم يقول :

«مثل أن يطمئنَّ قلبُ إنسان على وجود الشمس ، فلا يستلزم استيلاءُ هذا اليقين أن يعتقدَ عدم النُّجوم وفَناءَها ، ولكنَّه عندما يرى الشمسَ ولا يَرى النجوم ، فإن مَشهوده ـ حينئذٍ ـ ليس إلاَّ الشمس ، ولكنَّه رُغْم ذلك لا يعتقد أن النجوم فانيةٌ معدومة ، بل يكونُ على يقينٍ من أنها مُختفية ، ومَغلوبة بضوءِ الشمس وشُعاعِه» .

ويُضيف قائلاً :

«كان شيخنا المُرشِد الشيخ الكبير عبد الباقي ـ لمدَّة يسيرة ـ على مَذْهبِ التوحيدِ الوُجودي ، وقد أبدى ذلك في رسائله ، ولكنَّ العناية الربانية تقدمتْ به من هذا المقام إلى مقام أعلى ، وهَدَتْهُ إلى ذلك الصراط السوي ، والطريقة الفسيحة التي نجا بها من ضِيق هذه المعرفة» [٢] .

ويقول في رسالة أخرى ، مُبيِّناً مذهب الشيخ ابنِ عربي وأتباعه :

---

(١) الرسالة رقم: ٣١ ، المجموعة الأولى كتبها إلى شيخ صوفي.

(٢) الرسالة رقم: ٤٣ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة إلى الشيخ فريد البخاري.

«إنه يقول بـ «وحدة الوجود» ، ويَرى أنه لا موجود في الخارج إلاَّ موجودٌ واحدٌ ليس غير ، وهو الحقُّ سبحانه ، ولا وجود للعالم في الخارج بتاتاً ، إلاَّ أنه يَعتقِد بتحقُّقِه العلمي ، ويقول: «الأعيان ما شمَّتْ رائحة الوجود» ، ويعتقد أن العالم ظلُّ الله سبحانه ، ولكنَّ هذا الوجود الظِّليَّ ـ بزَعمه ـ في مَرتبة الحِسّ ، أما في نفس الأمر وفي الخارج فعَدَمٌ مَحْضٌ.

ويَحكي الإمام السَّرهندي في نفس هذهِ الرسالة قصةَ انتقالهِ من مقام «وحدة الوجود» إلى «وحدة الشهود» ، فيقول:

«لقد كانَ كاتبُ السطور يَعتقدُ أولاً في التوحيد الوجودي ، وكان على عِلْمٍ بهذا التوحيد من صغره ، وقَد رَسخ يقينُه في قلبه ، إلاَّ أنه لم يكن ـ عند ذلك ـ صاحبَ الحال في هذا المقام ، فلمَّا شدا في طريق السلوك ، انكشفَ له طريق توحيد الوُجود ، فجال في هذا المقام ومراتِبه وصال ، لمدَّةٍ طويلة من الزمن ، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام ، وانحلَّت عقد تلك الواردات والخواطر المشكلة التي تَعرض لسالكي طريق الوحدة بهذه المكاشفات ، والعلوم المُفاضة الموهوبة.

ثم استولتْ على هذا الفقير بعد مُدة غير قليلة نسبةٌ أخرى ، فتردَّد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة.

ولكنَّ هذا التردُّد كان يُرافِقه حُسن الظن ، لا الإنكار والجحود ، وبَقي متوقفاً متردّداً مدة طويلة من الزمن ، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار ، وكُشِف له أنَّ هذه المنزلة أدنى وأَحطُّ ، ووصل إلى مقام الظِّلية الذي يفوقها ويَفضُل عليها ، وكان هذا الإنكار اضطراراً وعن اندفاع ، فإنه لم يَكن يحبُّ الخروج من هذا المقام ، لأنَّ كبار المشايخ والعارفين ألقَوا به عصا التِّرحال ، ولكنه لما بَلغ مقام الظِّلية ، ورأى نفسَه والعالَم كله ظِلاًّ ، تمنى ألاَّ يُفارق هذا المقام ، لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود ، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة ، ولكنْ كان مِن مقادير الله ، ولطفه، وكمال شَفقتِه عليه ، أنْ رَقَّاه وصَعد به إلى مقام أسمى وأرفع ، هو مقام العبدية ، فتجلى له ـ عند ذاك ـ كمالُ هذا المقام

وعظمته ، وجعل يتوب إلى الله ويستغفره من المقاماتِ السابقة ، فلو لم يَكن لُطْف الله أرشدَ هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة، ولم يَكشف له تَفوُّق مَقامٍ على مقام ، لكان يَعتقدُ انحطاطَه وسُقوطه في ذلك المقام ، لأنه كان يرى أن لا مقامَ أفضلَ وأعلى من مقام «وحدة الوجود» ، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (١) .

الرَّأيُ الوَسطُ العَادل عَنِ الشّيخ الأكبر:

يقول الإمام ـ رغم ما بينَه وبينَ الشيخ ابن عربي من اختلاف ، مُبّيناً مذهَبه ومنهجه :

«يرى هذا الفقير أنَّ الشيخ محيي الدين بنَ عربي من الرجال المقبولين، ولكنه يرى معارفه وعلومه التي يُخالِف فيها عقائد جمهور الأمة وظاهر الكتاب والسنة ، خطأً وضرراً على قارئيها. وقد سَلك الناسُ في أمره مَسلك الإفراط والتفريط، وابتعدوا عن التوسُّطِ والاعتدال.

ففريقٌ من الناس يَطعَنُ في الشيخ ويَجرحه ، ويُخطئُه في علومه ومعارفه.

وفريقٌ قلَّده تقليداً كاملاً ، واعتقد جميع معارفه وعلومه حقّاً وصواباً ، يُثبِتُ صِحتها وحقيقَتها بالحُجَجِ والبراهين.

وما مِن شكٌ أنَّ كلا الفريقين وَقع في الإفراط والتفريط ، وجانَبَ الاعتدالَ.

وممَّا يُعْجَب له أن الشيخ ابن عربي يَبدو من المقبولين ، وتَبدو أكثرُ معارفه وتحقيقاته التي جانبَ فيها أهلَ الحقِّ خاطئةً بعيدةً عن الصواب» (٢) .

---

(١) الرسالة رقم: ١٦٠ ، المجموعة الأولى ، كتبها إلى الشيخ يار محمد الجديد البدخشي الطالقاني.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

ويذكر ـ في موضع من رسائله ـ الفارقَ الحقيقيَّ بينه وبين عامّة المُثبِتين أو النافين «لوحدة الوجود» ، فيقول:

«إنَّ اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوَحدة الوجود ، عن طريق الكشف والشهود.

والعلماءُ يستقبحون هذه الأمور كوحدة الوجود ، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود.

أمّا الفقير فلا يَتردَّد في الاعتراف بحُسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود ، إذا أدّت بصاحبها إلى العبور ، (أي أن يَعبُر السالك هذا المقام إلى مقامٍ أرفع) [1].

الحَاجَةُ إلى مُعارضة وَحدة الوُجود والردُّ عليها:

وهنا يَثورُ سؤالٌ ، وهو أنه ما دامت «وحدة الوجود» مقاماً من مقامات السلوك ، ومرحلةً انتقالية ، مرّ بها ـ في كل عصر ـ جَم غفير من السالكين والعارفين ، فتوقفَ فَريقٌ كبير منهم عند هذه المرحلة وثَبت عليها ، وقاد بعضَهم التوفيقُ الإلهي والسعادةُ الربانية من هذه المرحلة ، إلى مقام «وحدة الشهود» ، فما وَجْهُ الاستنكار والاعتراض؟! ولماذا يكرُّ عليها الإمام السرهندي بالرَّدّ والتفنيد ، ويَستخدم قَلمَه السَّيّال ـ في قُوة وحماس ـ لتقرير وَحدة الشهود وتفضيلِها على «وحدة الوجود»؟.

وللإجابة على ذلك نقول: إنَّه نشأ هُناك بين القائلين بنظرية «وحدة الوجود» والحاملين لِلوائها ، والدُّعاة المتحمّسين إليها ـ في عصر الإمام السرهندي ، وقَبل عصره ـ عدد كبير من الصوفية المتزعِّمين ، الذين تحرَّروا من كل القيود والحدود الشرعية ، وخَلعوا رِبقة الفرائض والواجبات الإسلامية ، واعتقدوا أنَّ كل شيء من عند الحق ، بل كُله عين الحق ، فلماذا هذا التفريق والتمييز بين

(١) وهو مقام العبدية والتوحيد ، الذي جاء به الأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه) ، الرسالة رقم: ٤٢ ، المجموعة الثانية ، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين.

الحَق والباطل ، والكُفرِ والإيمان ، والحلال والحرام؟ ، وأنَّ غاية أنفسِهم مقامٌ أسمى وأرفعُ لا يحظى بها إلا الكاملون الواصلونَ إلى حضرات القدس ، وهو مقامُ (وحدة الوجود).

وقد كانتْ هذه الصبغة الوجودية ـ في القرن العاشر ، العصر الذي وُلد فيه الإمام السرهندي ، وعَقَل ووَعىٰ ونَضج روحياً وفكرياً ـ هي السائدةُ في الهند ، حتى كان الشعراءُ المتذوِّقون لهذه المعاني يتغنَّون بهذه العقيدة ، ويُساوون بين الكفر والإيمان ، بل قد يتعدَّون حدودَ ذلك إلى ترجيح الكفر على الإيمان ، وكان الناس يُـردِّدون أبياتـاً معنـاهـا : «الكفرُ والإيمان قرينان ، فمَنْ لم يَتمتَّع بالكُفر لم يَتمتَّـعْ بالإيمان».

ثم قيل في بعض الكتب شرحاً لهذا البيت ، وإيضاحاً لمعناه :

«ثَـبت من ذلك أن الإسلام في الكُفر ، والكفرَ في الإسلام ، يعني : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران : ٢٧] فالمراد بالليل هو الكفر ، والمراد بالنهار الإسلام».

ويَنقُل في موضع آخر ، البيتَ الذي معناه : «للعِشقِ مع الكُفر صِلةٌ وقَرابة ، الكُفر يتجلَّى في نفس الإشراق والتَّصوُّف».

ثم يقول : «أَصبح العِلْمُ حِجاباً أكبر ، ـ والمُراد بهذا العلم هو العبودية التي هي حِجابٌ أكبر ـ فإذا ارتفع هذا الحجاب ، اختلط الكُفر بالإيمان ، والإيمانُ بالكفر ، وارتفعتِ العبادة والعبودية» [1].

هـذه هي الخَلْفِيَّـاتُ الخطيرة التي بَعثتِ الإمام السَّرْهنـدي على المُحاسبة الدينية العِلمية لهذه العقيدة ، وقد وهَبه الله قِسطاً كبيراً من الحميَّة الدينية الثائرة ، والغيرة «العُمَرية» الشديدة ، والذي كانتْ تتحقَّق به تلك النبوءة العظيمة في الحديث المشهور ، التي قيل فيها :

(١) انظر «رسالة عشقية» ، ص ٧٣.

«يَحْمِلُ هذا العلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُه، يَنفُون عنه تحريفَ الغَالين وانْتِحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهلين»[1].

وقد قام بالنَّقد العلميِّ الموضوعي لهذه الفكرة التي تَستخدِم لنَشرها وتعميمِها كلَّ وسائل النشر والإذاعة في ذلك العصر، وفي بلاد الهند ـ بصفة خاصة ـ في حماسٍ بالغ، ونشاطٍ زائد، وبكُلِّ حُرّية وانطلاق، وكان الإمام السَّرْهندي يَشهدُ بأم عينيه أنَّ التمسُّك بالشريعة وتعظيم حُرماتها وشعائرِها نحو الزوال، وأنَّ التفكُّك والانحلال يتَسرَّبان إلى صفوف الأمة الإسلامية، يقول في رسالة من رسائله:

«إنَّ مُعظم أبناء هذا العصر ـ اعتماداً على التقليد أو على قُوَّة العِلم المحض، أو اعتماداً على العلم الذي يَختلط معه الذوق ولو في قَدَر محدود ـ أو بسبب الزندقة والإلحاد ـ تمسَّكوا بفلسفة «وحدة الوجود» فيعتقدون أنَّ كل شيء من الحق، بل هو عَيْن الحق، وَيَخْلَعون ـ بحيلة أو أخرى ـ عَنْ رِقابهم رِبْقة التكاليف الشرعية، ويَتساهلون في العمل بالأحكام الشرعية، ويُداهِنون، وهم فَرِحون بسلوكهم هذا ومُطمئنُّون، وأنهم إذا اعترفوا بضرورة العمل بالأوامر والنواهي الشرعية، اعترفوا به كعَمل ثانَوي فَرْعِي، وَيرَون الغاية المُبتغاة وراء طور الشريعة، حاشا لله، ثمَّ حاشا لله، أعاذَنا من هذه العقائد الفاسِدة السَّيئة».

ويقول في نفس هذه الرسالة:

«إنَّ كثيراً من الناس، الذين تلبَّسوا بلباس الصُّوفية في عصرنا هذا، يُعلنون عقيدة وَحدة الوجود على ملأٍ من الناس، ولا يَعتقدون الكمال والرُّقيَّ إلاَّ فيها، فقد جانَبوا بعَملهم هذا وجَه الحقيقة والصواب، وحملوا أقوالَ المشائخ على ما يَخطر في عقولهم من معان وأفكار، ثم قلَّدوها، واعتَنقوها،

---

(١) «مشكاة المصابيح» كتاب العلم [أخرجه البيهقي في السنن (١٠/ ٢٠٩) برقم (٢٠٧٠٠) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، والقُضاعي في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤) برقم (٥٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

وهكذا جعلوا سُوق أوهامهم وتخيُّلاتهم الكاسدة نافقة مُتحرِّكة»[١].

مِيزَةُ الإمام السَّرْهندي وَعبقريتُه:

لَيستْ مأثرةُ الإمام التجديديَّةُ في إثباته بالدليل والبُرهان أنَّ نظرية «وحدة الوجود» التي كان لها القبولُ العام ، وكانتِ كالعُملة السائدة ، لا تجدُر بأن تكون مِقياساً صحيحاً ، وغايةً أخيرة في طريق السلوك والمعرفة ، بل إنَّ ميزته وعَبْقرِيَّته في هذا الباب ، أنَّه تناولَ هذه النظرية بالنَّقد في ضَوْء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية ، وأثبتَ للناس أنه سبرَ أعماقَ هذا البحرِ الزاخر وأبعادَه ، ونزل إلى قَعْرِه ثم خَرج ، وقد ساقه التوفيق إلى أن يُجدِّف سفينةَ المعرفة والتحقيق إلى بَرِّ الأمان ، وشاطىءِ السلامة ، وأنه يتعذَّر ـ في هذا المجال ـ أن يكون له زميلٌ أو مثيلٌ ، وقد أصاب المؤلِّف الغربي بيتر هاردي (Peter Hardy) رغم أنه ليس حُجَّةً في هذا الباب :

«إنَّ سرَّ النجاح العظيم الذي أَحرزه الشيخ السَّرهِندي يَكْمُن في أنه قد خلَّص الإسلامَ الهنديَّ عن طريق التصوف من التطرُّف الصوفي ، ولعلَّ السبَب وراء ذلك : أن النظرية التي ردَّ إليها وعارضها ، كان على إدراكٍ شخصي عميقٍ لمعانيها ومقاصدِها ، وأهمِّيتها وخطورتها»[٢].

مَوقفُ العُلماء والمشايخ السّلمي بَعد الإمام السَّرهندي تجاه نظرية وَحدة الوجود:

وقبل أَن ننتهي من هذا الباب لا بُدَّ من إعلان هذه الحقيقة التاريخية كمؤرِّخ محايد ، إنه لم تَبْقَ هناك بعد وفاة الإمام السَّرهندي ـ باستثناء سِلسلته وطريقته الخاصة التي انتشرت على أيدي ابنه الشيخ محمد معصوم في الهند وخارج الهند ـ نزعةٌ واضحةٌ حاسمةٌ فيما يتعلَّق بنظرية وحدة الوجود ، ولم يَبقَ ذلك

(١) الرسالة رقم: ٤٣ ، المجموعة الأولى ، بعث بها إلى الشيخ فريد البخاري.

(٢) Sources of Indian Tradition.n.y.p-449 .

اليقين والإيمان بصحَّة نظرية «وحدة الشهود» التي رَفع الإمام السَّرهندي لواءَها ، وكان يقول بها على بينة ويدعو إليها على بصيرة.

ونشأتْ بعد وفاته نَزعةٌ جديدة في أوساط التصوُّف والطُّرق الصوفية ، والأوساطِ التي كانت تنتمي إليها هي: نزعةُ التوفيق والتطبيق بين النظرتين ، حتى قال بعض كبار العلماء المحققين: «إن هذا النزاع كان نزاعاً لَفْظياً صرفاً» ، وقال بعضهم: «إن الإمام السَّرْهندي أخطأه التوفيق في هذا المجال، وأنه لم يطَّلع على جميع مؤلَّفات الشيخ الأكبر ابن عربي».

ولأجلِ ذلك ألَّف الشيخ غلام يحيى البهاري (م ١١٨٠ هـ) أحدُ مريدي الشيخ الأجل مرزا مَظْهَر جَانِ جَانَان (أحد المشايخ الكبار في السلسلة المجدِّدية) بأمرٍ منه ، كتاباً بعنوان «كلمة الحق» صرَّح فيه بتحقيق الإمام السَّرهندي ، وبيَّنه بياناً شافياً ، وردَّ على تلك النَّزعة التطبيقية التي كان بعضُ أوساط السِّلسلة المجددية أيضاً يحاول على أساسها التوفيقَ بين وَحدة الوجود ، ووَحْدة الشهود.

الإمامُ أحمدُ بنُ عِرفانَ الشَّهيد على أثر الإمام السَّرهندي:

وإذا كان هناك في هذه السِّلسلة المجدِّدية العالية ـ بعد وفاة الإمام ـ شيخٌ من المشايخ العارفين المحقِّقين ، يدعو إلى نظرية «وحدة الشهود» الواضحة النَّيرة ، ويسير على آثار الإمام السرهندي ، فهو شيخ السِّلسلة المجدِّدية الأحسَنِيَّة[1] المعروف ، الداعي إلى الله ، والمجاهد في سبيل الله الإمامُ أحمدُ بنُ عِرفان الشهيد الرَّائِي بَرِيْلَوِيّ[2] (ت ١٢٤٦ هـ).

* * *

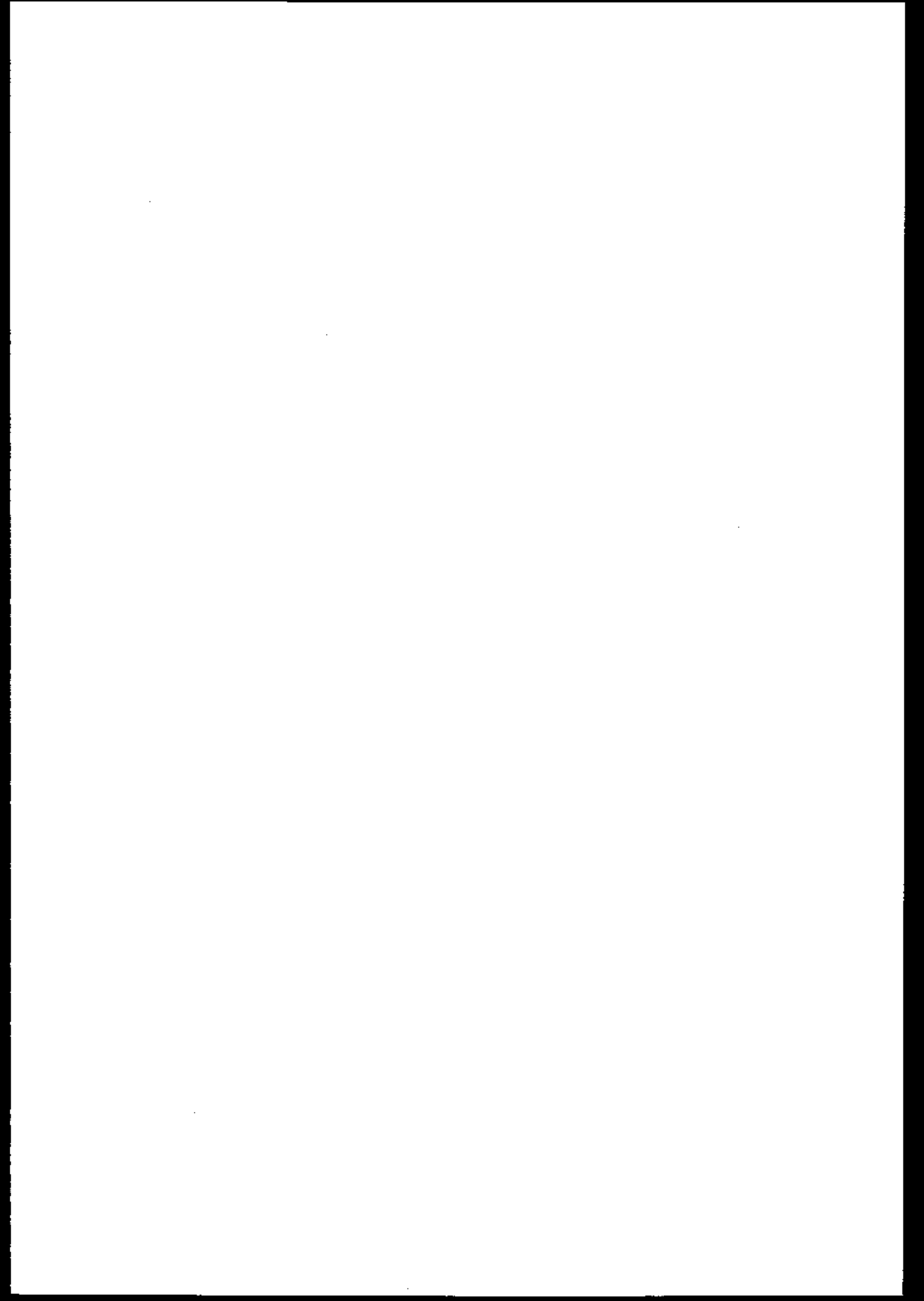
(١) وهي سلسلة الشيخ السيد آدم البَنُّوري ، خليفة الإمام السرهندي ، التي تسمَّى السلسلة الآدمية ، والسلسلة الأحسنية.

(٢) ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الميول التي ورثها عن آبائه ، لأن جده الرابع الشيخ الأجل السيد عبد الله الحسني ، كان خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، كما يمكن أن يكون نتيجة بحثه وتحقيقه ، واجتهاده الذي كان جديراً به.

الباب السابع

جهود الإمام الدؤوبة الصامتة في توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد





جُهود الإمام الدَّؤُوبةُ الصَّامتة في تَوجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

العُلماء والمشايخ الشُّجعان الصُّرَحاء في عَهد «أكبر» و«جهانكير»:

ونرى من الواجب ـ قبلَ أن نَذْكُرَ تلك الجهودَ الموفَّقة التي بذلها الإمام السَّرهندي ، والتي غيَّرت مجرى الدولة وحوَّلت تيارها العنيف ـ أن نُصرِّح بحقيقةٍ مهمة ، وهي أنه لا يَصحُّ التصور عن عهد الملك (أكبر) ، أنه كان يسود الهند ، خلال هذا الاضطراب ـ الذي يُشبِه الاضطهاد ـ صَمْت كامل ، ويُخيم عليهم من أقصاها إلى أقصاها ، هدوء تام في صفوف العلماء ، ولم يكن هناك من ينتقد «أكبر» ، ويَعترض عليه ، ويعملُ بالحديث المُثير ولو بأدنى درجة من درجاته :

«مَنْ رأى منكُم مُنْكَراً فلْيُغيِّره بيدِه ، فإن لم يَستطِعْ فَبلسانه ، فإنْ لَمْ يَستطِعْ فبقَلبه ، وذلك أضعَفُ الإيمان» [1] .

---

(١) متفق عليه. [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (٤٩) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب الخطبة يوم العيد برقم (١١٤٠) ، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٣٢) برقم (١١٧٣٩) ، وابن ماجه في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في صلاة العيدين برقم (١٢٧٥). وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

فنذكرُ ـ فيما يلي ـ رجالاً تشهدُ كُتب التاريخ والتراجم بأنَّهم بذلوا جهودهم ، وأبدَوا استنكارهم لهذه الأوضاع في نطاق عملهم وقَدْر مستطاعهم ، وجاهَروا بعواطفهم الدينية وحَميَّتهم الإسلامية .

ذَهبَ الشيخ إبراهيم المحدِّث الأكبر آبادي (م١٠٠١هـ) ـ ذات مرَّة ـ إلى مَعبد الملِك (الأكبر) على دَعوته ، فلم يأتِ بالآداب والتَّحيات التقليدية للملك ، التي كانتْ مُخالفةً للشريعة ، ثم خَطب عِنده ، فرغَّبه ورهَّبه ، وذكَّره بالله ، ولم يَتهيَّبِ الشوكةَ والحِشمة المُلوكية [1] .

وغادر الشيخُ حسين الأَجْمِيْرِيّ ، الذي تُوفِّي بعد عام (١٠٠٩هـ) ، مدينة أجمير استنكاراً لمجيء الملِك أكبر هناك ، وساخطاً عليه ، فعَزله الملك أكبر عن نَظارة زاوية جَده الشيخ الكبير مُعين الدين الجِشْتِيّ وضريحه ، وأمر بجلائه إلى الحجاز ، فلما رجع إلى الهند ، لم يُباشِر سجدَة التحية له ، فغضب عليه السلطان ، وأَمر بحَبسه في قلعة (بهكّر) ، فلَبِثَ بها بضعَ سنين ، ثم أطلقه ، فلما مَثُل بين يديه أبى أن يُحيِّيه على الوجه المرسوم ، ولم يَقْبلْ هدية السلطان [2] .

وغَضِب السلطان ـ مرةً ـ على الشيخ سُلطان التَّهَانَيْسَرِيّ ـ الذي كان من أصحاب الحظوة والتقرُّبِ لديه ، وكان السلطانُ أمرَه بترجمة «مَهَابَهارَات» ـ الكتاب المقدَّس عند الهنادك ، في اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفارسية ، وكان سَبب هذا الغضب اتهامُ الهنادك إياه بذَبْح بقرة ـ وكان ذبْحُها محظوراً في القانون «الإلٰهي» الجديد ـ وأمر بجَلائه إلى بهَكّر ، من أرض السند ، وولّاه على كَرَوْرِكيْرِيّ ، أي جَعله مُحصِّلاً للخراج بها ، ثم بَلغ السلطانَ عنه بعض الشكاوي ، التي كانت تتعلَّق بموقفه الإسلامي الخالص ، فأمرَ السلطان بإعدامه ، ونُـفِّذ فيه الحكم عام ١٠٠٧ هـ [3] .

---

(١) انظر «نزهة الخواطر» ج٥ .
(٢) انظر «نزهة الخواطر» ج٥ ، ترجمة الشيخ حسين الأجميري .
(٣) منتخب التواريخ: وكان الشيخ التهانيسري والد زوجة الإمام السرهندي .

وأكبر خُطوة جريئة ومُغامرة قامَ بها الشيخ (شَهْبَاز كنبوه) (م١٠٠٨هـ) الذي كانَ من كبار الأُمراء في بلاد السلطان أكبر ، وتولَّى ـ أخيراً ـ منصب «مِيْربَخْشِيّ» [١] ، وكان ذا جُرأة وَنجدةٍ لا يقصُر عن قول الحق عند السلطان ، ولا يخافه ، ولا يبالي برِضاه أو سَخطِه في الأمور الشرعية ، فلم يُقصر اللحية ، ولم يشربِ الخمر ، ولم يُرغَّبْ في الدين الإلٰهي المختَرَع قَطُّ».

وقال شاه نَوازْخان في «مآثر الأمراء»: «إنَّ (أَكْبر) شاه السُّلطان كان يتفرَّج يوماً بين العصر والمغرب ، على بُركة ماءٍ بـ(فَتَحْغُوْر) ، وكان (شَهباز) خان بينَ يديه ، فأخذَ بيدِه والتفتَ إليه ، وكان يَمشي ويتكلَّم معه ، والناسُ كانوا يَزعمون أنَّ (شهباز) لا يستطيع أن يَنزع يَدَه عن يَدِ السلطان ، فتَفُوته الصلاةُ ، وكان من عادته ألا يتكلَّم بعد العصر إلى المغرب ، فلما رأى شهبازُ أَن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذنَ السلطان للصلاة ، فقال السلطان: تَدارَكْهَا بالقَضاء ، ولا تتركني خَليّاً ، فنزع شهباز يدَه، وَبسط مئزَره على الأرض واشتغلَ بالصلاة ، ثم بالأوراد الرَّاتبة ، والسُّلطان واقفٌ على رأسهُ يشدِّد عليه ، وتواجَد مير أبو الفتح ، والحكيمُ علي الكيلاني أيضاً في تلك الساعة فشَعرا بدقَّة الموقف ، فتقدما وقالا ـ لصرف نظر السلطان وغضبه عنه ـ نَحن نَستحقُّ أيضاً أن يلتفتَ إلينا السلطان ، فسَكن غَضبُه ، وانصرفَ عن شهباز خان ، والتفتَ إليهما [٢].

وكان الشيخ عبد القادر الأجّي كذلك من أصحاب النَّجدة والجراءة ، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة ، قدَّم إليه أكبر ـ ذات يوم ـ الأفيون ، على جَري عادته ، فامتَنع عَنْ بَلْعه ، فأنكر عليه السلطان ، فبينما هو قد فرغ من

---

(١) الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعيّنة في تلك الولاية. وأمر «الداغ» أي وسم الخيل ، والتصحيح ، وغير ذلك من المهمات العسكرية ، وهو من أمراء الألوف (الهند في العهد الإسلامي).

(٢) «نزهة الخواطر» ج٥ ، ترجمة شهبازخان.

الصلاة المكتوبة يوماً في «عِبادت خَانَـهْ» ـ القصر الذي بَناه (أكبر) للعبادة ـ واشتغلَ بالنوافل ، إذْ خرج عليه (أكبر) ، وقال : يَنْبغي لك أن تَتَنَفَّلَ في بيتك ، فقال عبد القادر: يا مولانا ، هذا ليس بملْكِكَ فيكونَ تحت سلطانك ، فغضبَ عليه السلطان وقال: إذا لم تكن تَرضى عن مُلكي ، فاخرجْ عنه ، فخرج الشيخ من ساعته ، ورحل إلى مدينة «أَج» ، وعكف على الإفادة والعبادة [١] ، وكذلك سَميُّه عبد القادر اللَّاهوري (م١٠٢٢هـ) الذي كانَ السُّلطان ساخطاً عليه لتصلُّبه في الدين ، وشِدة تمسُّكه بالشريعة ، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة .

ومنهم (مِرْزا عزيز الدين الدِّهلوي كَوْكَهْ) (م١٠٣٣هـ) الذي كان تِرْباً لأكبر وأخاه من الرضَاعة ، يُحبه «أكبر» حُبّاً مفرطاً ، ويُقدِّمه في كل باب ، وكان عزيزُ الدين ـ مع ذلك ـ يُغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه ، لا سيَّما فيما يُخالِف الشرع ، فعَزله عن ولاية كُجْرات ، ثم ولَّاه على (بنكاله وبِهار) ، ولقَّبه بالخان أعظم ، وكان رغم ذلك لا يَستحسَن بعضَ ما اخترعه من السَّجدة بحضرته ، وحَلْقِ اللحية وغيرها.

ومنهم الشيخ مُنوَّر بن عبد الحميد اللَّاهوري (م١٠١٥م) وَلَّاه أكبرُ الصدارة عام ٩٨٥هـ بأرض مالوه ، ولكنْ لم يَدُم له هذا الحال ، لِصَلابتِه في الدين ، واستقامتِه في السلوك ، وضَيَّق عليه في السجن حتى مات [٢] .

العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء في عهد (جَهَانْكِير):

واستمرَّتْ ـ بعد جلوس السلطان (جَهَانْكِيْر) على عرش الدولة ـ القوانينُ والطُّقوسُ التي اختَرعها أكبر ، وكانتْ نافذةً في عصره إلى مدَة غير يسيرة ، فكانت تَسودُ الدولة نفسُ الأساليب ـ والأعمال ـ عدا المعارضة الصريحة

---

(١) نزهة الخواطر: ج ٥ ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين.

(٢) المصدر السابق نفسه ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين.

للإسلام ـ التي كانت من قبل ، إلى أن مال السلطان جهانكير إلى تَعظيم الشريعة الإسلامية ، واحترامِ شعائرها.

وقد تصدَّى عددٌ من العلماء والمشايخ أثناء تلك الفترة من عهد (جهانكير) ـ للإنكار على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطَروا بأنفسهم في رفض تلك التقاليدِ والآداب الملوكية ، التي كانت تُعارض الدِّينَ والشريعة الإسلامية البيضاء ، ولم يَرضَوْا لأنفسهم بأن يَتجاوزوا حُدودَ الله ، ولم يَتَلعْثَموا في الجهر بكلمة الحق ، فكان الشيخ(أحمدُ بن محمد بن إلياس الحسيني الغرغشتي) أحدُ مشايخ الطريقة في الحدود الشمالية الغربية للهند ، طَلبه جهانكير بين يديه ، فلم يَرض أن يُحيِّيه بالآداب المرسومة ، فحبسَه في قلعة كواليار ، فلبِثَ بها ثلاث سنين ، ثم أُطلِق سراحه عام ١٠٢٠ هـ ، واستصحَبه إلى (آكره).

مِيزةُ الإمام السَّرْهندي مِنْ بين هؤلاء:

ولكنَّ الفضل الأكبر مُقاومة انحرافِ الدولة وضَلالِها ، ومعارضتِها بقوة وتنظيم ، والجهود الموفَّقة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يَرجع إلى الإمام السَّرْهندي الذي قَيَّضه الله ـ عز وجل ـ لصيانة الدين ، ونَصْرِ الإسلام والمسلمين ، وقُدِّر أن يُناط به هذا العملُ التجديدي العظيم ، الذي واصل ليلَه بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية ، وإحداثِ تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تُهرق فيها الدماء وغيَّرت مجرى التاريخ ، ولا يُوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى.

وكانَ نتيجةَ هذه الجهود أَنْ تَولَّى الدولة ـ بعد وفاة السلطان (أكبر) ـ مَنْ كان خيراً منه وأفضل ، يَمتاز بحَميَّته للإسلام ، وتعظيمِه لحُرمات الدين ، وسلامته من الجراثيم المناوئة للإسلام ، والكراهية له ، وانتهتْ هذه السلسلة الذهبية ، وبلغتِ الأوج والكمال على يد السلطان (محيي الدين أَوْرَنْكَ زيب) الذي كان مَثَلَه الأعلى حياةُ الخلفاء الراشدين ، وخِدْمتهم للإسلام والمسلمين.

جُلُوس السلطان جهانكير على عَرْش الدولة واستئنافُ الإمام السَّرهندي عَمَله التَّجديدي لإصلاح الدولة والسلطان:

مَات السُّلطان (جلال الدين أكبر) عام ١٠١٤هـ ، وكان الإمام السَّرْهندي ـ إذ ذاك ـ في الثالثة والأربعين من سِنّه ، لقد كانتِ الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر ـ التي أحدقتْ فيها الفتنُ والأخطار بالهند ، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض ـ هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السَّرهندي كماله الروحي، ونُضجه الفكري وذَروة الصفاء والربانية ، ولم تكن له أيُّ صلة بأركان الدولة وأمرائها ، كما أنه لم يَحِن الوقت الذي يطَّلع فيه أهلُ البلاط على جلالة شأنه ، وعِظَم منزلته ، وإخلاصِه ، وربانيته ، وكمالِه الباطني ، ولأجل ذلك كان الإمام السَّرْهندي لا يجد الطريق لبداية عمله ، وإزجاءِ مشاعره وانطباعاته ، وتَسريب خواطره وأحاسيسِه إلى البلاط المَلكيِّ ، وتأثيره على سياسة الدولة العامة ، فيما يتعلّق بالدين والقانون.

وكانَ يستولي على البلاط وعقلية السلطان ونفسيته وعلى التنظيم والإدارة ـ عند ذاك ـ الأشخاصُ الذين كانوا يَحُوْلُون بين السلطان وبين كل رجل مُتديِّن مُخلِص ، وقد أَقاموا سُوراً حديدياً حول البلاط ، حتى لا تَصِلَ إليه نَفْحَةٌ طَيِّبة مُنعِشة ، ونَسْمةٌ خالصة نَقيَّةٌ من الخارج ، ولا يعرفُ السلطان وحاشيته ما يدور في البلاد وما يَختلِجُ في نفوس الرعايا من كُره أو حُب ، أو سَخط أو رضا ، وكان الإسلام والمسلمون في هذه البلاد الواسعة ـ التي قامتْ فيها حكومات مُسلمة قوية في اتصال واستمرار ـ يُعانون ما صوره القرآن الحكيم في تَعبيره البَليغ المُعجِز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة: ١١٨] .

ولكنْ لم يبقَ الوضع على ذلك بعد أن أخذَ السُّلطان (جَهَانْكِيْر) زمامَ هذه البلاد بيده عام ١٠١٤ هـ ، ولئنْ كان جهانكير ـ لعواملَ خاصة من التعليم والتربية في إشراف والده السلطان أكبر ـ لا يمتازُ بصلاح ونزعة دينية

ملحوظة ، وتَقيُّدٍ بالشريعة الإسلامية ، والتزام للفرائض والواجبات الدينية ، فإنَّه لم يكن ـ كذلك ـ يحمل في صَدره البُغض والاستيحاش من الإسلام ، أو الشَّغفَ والتأثُّر بحضارة قومية ، أو فَلسفة من الفلسفات الدينية، والرَّغبةَ في إعلان دين جديد، وقانون جديد وتنفيذهما، وبتعبير آخر: إنه إنْ لم يكن حامياً لبيضَة الإسلام ، ذاباً عن حماه ، لم يكن كذلك راغباً في مَحْو آثاره ، وطمس معالمه ، فإنَّ السلاطين المغرَمين باللهو والمُجون ، والمعيشة الفارهة الباذخة ، لا يُعنَون ـ بصفة خاصة ـ بإزالة النُّظم السائدة ، وإحلال النظم الجديدة مكانها ، بل إنما كلُّ همِّهم في حياة الأفراح والليالي الملاح ، وعز السلطان ، وفَخْفَخةِ الدولة.

وقد شُوهد فيهم في مطاوي النفس إعجاب وإكبار لأولئك الرجال الذين يتسَامَوْن بأنفسهم عن هذا المستوى المادي ، ولا يَلتفتون إلى بَهرج الدنيا وزينَتها ، ويَستغْنُون عن الجاه والمنصب ويكون لديهم استعداد أكثر لقبول الحقِّ منهم ، والخضوع له ، من أولئك الذين يَدعُون إلى حركة ويتبنون فلسفة جديدة ، أو يَطْمحون إلى أن يكونَ لهم ذِكر في التاريخ أو شهرة في الناس كمخترعِ طريقةٍ ، أو مُبتكِر مذهبٍ خاصٍّ.

المَنهَجُ الصَّحيح:

كانتْ في هذه الفترة أمام الإمام السَّرْهندي وجميع العلماء الغيارى على الإسلام ـ الذين كانوا يتحلَّون بالعلم الديني ، والصَّلاح الباطني ، وكانوا مشغولين بخواص أنفسهم ، ويقطعون فَيافي السلوكِ إلى الله ، وتَملكُ قُلوبَهم ومشاعرهم الحميَّة الدينية الثائرة ، والغيرة الإسلامية المتأجِّجة لمواجَهة هذه الأوضاع التي كانت تظل الدولة وتحيط بها؛ ثلاثُ طرق:

١ ـ الطَّريقة الأولى: أنْ يعتزلوا الدولة والبلاد ، ويَتركوا حَبْلها على غَاربها ، ويلجؤوا إلى زاوية ، يشتغلون فيها بذكر الله ـ في سَكينة وطُمأنينة ـ وتربية الطالبين وإرشاد السالكين ، والانهماك في الطاعات والعبادات.

كان هذا هو الطريقَ الذي اختاره ـ في عهد الإمام السَّرهندي ـ عشراتٌ بل مئاتٌ من العلماء والمشايخ ، وكانتْ لهم رباطات وزوايا في كل بُقعة من البقاع ، حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد في هُدوء وصمت وانهماك ، وكانَ الطالبون والمسترشدون من عِباد الله يَشُدُّون إليهم الرحال ، ويستفيدون منهم فوائد روحية وإيمانية كبيرة .

٢ ـ الطريقة الثانية : أن يقطعوا الرجاء ـ بصورة حاسمة ـ من إصلاح السلطان ـ الذي كان انتماؤه إلى الأسرة الإسلامية اسمياً ـ ويَعتبروه مُعارضاً عنيداً للإسلام تَشهد بذلك كثيرٌ من القوانين والمراسيم الملكية ، وسيرتُه وسلوكه ، ويَيْئَسوا من إصلاح الدولة ، فَيلجؤُوا إلى إقامة جَبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان وإلى محاربته ، والنضالِ المستمرِّ معه نظراً إلى أنه عَـدُوٌّ لدودٌ للإسلام ، ومُعارِض دائم للدين ، وأَن يجمعوا حولهم رِجالاً تَغلي فيهم الحميَّةُ الدينيةُ ، وتَستولي على مشاعرهم عواطفُ الجهادِ والاستماتة في سبيل الله ، ويتميَّزون غيظاً من الأوضاع الراهنة ، من الأمراء والأتباع والمريدين ، والمُحبين والمعجَبين بهم ، ويُحدِثوا ـ بعد ذلك ثورةً في الدولة ، بالإجراءات السياسية والعسكرية ، ويُحاولوا أن يُولُّوا السلطة رجلاً صالحاً ديِّناً ـ ولو كان من الأسرة المغولية ، ومن أبناء «بابر» ـ يُغيِّر وُجهة الدولة، فتتغير الأوضاع ، وتتحسن الظروف .

٣ ـ الطريقةُ الثالثة : أن يتَّصلوا بأعضاء الدولة وأمرائها ، ويُثيروا الحمية الإسلامية ، والعواطفَ الدينية ، فيمَن عَرفوهم واتصلوا بهم من قبل ، ويعتقدون في إخلاصهم ، وسُمو شخصيتهم ، وتوجُّعهم للأوضاع ، وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة في قلوبهم ، ويُشعلوها وَينفخوا فيها ، ويُحرضوهم على النصيحة للسلطان ، وأنْ يُحركُوا تلك العروق الإسلامية التي وَرِثها عن آبائه وأجداده المؤمنين ، ويَحملوه على حماية حَوزة الإسلام ، وتَضْميدِ القلوب الجريحة للمسلمين وتَدارُكِ العهود الماضية .

وأَن يَسمُوا بأنفسهمْ ويترَفَّعوا على الجاه والمناصب ، ويُثبتوا للناس زُهدَهُم

وتقشُّفهم في الحياة واستغناءَهم عما في أيدي الناس ، ويَكلوا الدَّولة إلى أهل الدولة ، والمناصبَ إلى أهلها ، والمُتبوِّئين عليها ، ويتظاهروا بإخلاصٍ ونزاهة ، وسُمُوِّ نفسٍ لا ترقى إليه شبهة ، ولا يَقْدر أشدُّ الناس معارضةً لهم ، وأكثَرهم كيداً وحسداً ، أن يتَّهمهم بالحِرص والطمع في الجاه والسلطان ، ولا تنجح أيُّ مؤامرة لإسقاط شأنهم وحطِّ منزلتهم .

أمَّا الطريق الأول : فما كان يلائم طبيعة الإمام وعُلُوَّ همَّته وشِدة عزيمته ، وعظيم مكانته التي بوأه الله ـ تعالى ـ إياها ، ولا يَنسجمُ معها أيُّما انسجام .

فقد كان الإمام السَّرْهندي ـ بعد أن فاز بالتَّكميل الباطني ، والتربيةِ الروحية العالية، على ثِقة ويقين تام ، بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيأه لأمر عظيم ، وأنه لم يُخلق للعبادات الفردية المكتوبة ، والتقدُّم في المراحل الروحية ، فحسب ، أو بِشياخة الطرق وإرشاد السالكين فحسب ، وقد أباح سرّه وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قولٍ من أقوال الشيخ الكبير الشيخ عُبيد الله أَحْرَار (م٨٩٥هـ) الذي كان شيخاً رفيعَ المكانة من مَشايخ سلسلة الإمام السَّرْهندي ، بل يُعتبر إمام هذه السلسلة يقول : كَان الشَّيخ عُبيد الله أحرار يقول :

«لو تَصدَّيْتُ للشياخة والإرشاد ، وأخذِ البيعة من الناس ، لما وَجَد أيُّ شيخ من مشـايخ الطرق من يُبـايعه ، ويَنخرط في سلك مُريديـه ، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ أراد بي أمراً آخر ، وهو نَشْرُ الشريعة السمحة ، وتَأييد المِلَّة الحنيفية» .

ثم يقول الإمام تَعليقاً على ذلك : «كان (الشيخ الكبير عبيد الله) يَدخُل على السلاطين ويحضر في مجالسهم، ويُؤثِّـر فيهم بقُوّتـه الباطنيـة ، وَمَلَكتِه الروحية ، فينقادون له ، ويُطيعونه ، ثم يَستعينُ بهم في نشر الشريعة» .

أمَّا الطريق الثاني : فإنَّه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحبُ عقلية سياسية ، قاصرُ النظر ، محدودُ التفكير الذي يبدأ عمله من الشكِّ وسوء الظن ، ويَجعلُ الحكومة ـ بتسرُّعِه وترجيح إقامةِ الجبهة المعارضة على حِكمة

الدعوة ، وعاطفةِ الإصلاح والنصيحة ـ تَقِفُ إزاءَه وجهاً لوجه ، وتُعارِضه من أول الطريق ، وهو بذلك يُضيّق عليه الأرضَ بما رَحُبت ويُقلّل إمكانيات انتصار الدين وهَيْمنَةِ الشريعة .

وليس هذا طريق الداعي الموفَّق إلى الله الذي لا يُريد لنفسه ولحِزبه علواً في الأرض ، وسيطرةً على الحكم ، بل كُلُّ هَمِّه أن يَظهر الدين وتُنفذَ أحكامُ الشريعة ، وتَصْلُح الدولة ، كائناً من كان المنفِّذ لهذه الأحكام المُسَيطِر على البلاد .

وكانَ القيامُ بتكوين جَبهة مُعارضة للدولة ، وإعلان الحرب عليها محفوفاً بالصُّعوبات والأخطار ، وكانتْ هذه الخُطوة ـ في الأوضاع السياسية السائدة في البلاد ـ نَوعاً من الانتحار في حَق الإسلام ، لأن الدولة المغولية ، التي وَطّد أركانَها السلطانُ (بَابَر) وثبّت جذورها بيديه ، وتجشَّم لها الملك همايون مشاقَّ الرحلة الخطيرة إلى إيران ، وأحكمها وقوّاها السلطان أكبر بفتُوحه وانتصاراته المتتالية ، وتسخيرِ البلاد ـ كانت شابّة فَتيّة ، لم تَبْدُ فيها آثار الضَّعْف والهرم ، ولم يَستطع السُّلطان (سليم شاه) خليفةُ الملك العصَامي السلطان (شَيْرشاه السُّوْرِي) أن يَقضي عليها .

وأخفقتْ كل المحاولات ـ في فتراتٍ مختلفـة ـ للثورة وقلب نظام الحكم .

ثم إذا نجحتِ الجهـود لخـلع السلطان المغُولي ، كـان من المتوقع جداً ، أن يستولي الراجبوت ـ الذين تولوا في عهد السلطان مناصبَ عالية خطيرة في الدولة ، وكانت قُوتهم العسكرية هي الوحيدَة التي كان السلطان يَثِقُ بها ويَعتمد عليها ـ على الحُكم ، فيكونُ ذلك ضَربةً قاصمةً للسُّلطة المسلمة في هذه البلاد إلى الأبد .

ثم إنَّ هذه التجربة لقيت إخفاقاً ذريعاً من قبل ، فقد قامتْ ـ في عهد السلطان (أكبر) ـ حركةٌ دينية ، منظَّمة كبيرة تحت قيادة الشيخ بايزيد ـ باسم الفرقة الروشنائية ـ وقد تقدم ذكر شيءٍ من تاريخها وعقائدها ـ وحاربتْ هذه الفِرقة جيوش الدولة المغولية الجرّارة ، طِوال أعوام وسنين ، واستولت على

مَـمَـرٍّ (خَيْـبَر) ، بعد أن جَعلت مقرها «جبل سليمان» ، وشنَّت غارات على المناطق المجاورة ، بعث السلطان أكبر لمقاومتها «رَاجَهْ مَانْ سِنْكه» و«رَاجَهْ بِيْرَبَلْ» وزين خان ، وكُلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة ، وقُتل بيربل في معركة من المعارك ، واستولتِ الفرقة الروشنائية بجيشها اللجب على (غزنين) .

ولم يُمكن التغلب على هذه الفِتنة الداهية إلا في عهد السلطان (جهانكير) ، ثم قضي عليها قضاءً باتاً في عهد السلطان (شَاهْجَهَان) ، ورغم كل ذلك ، لم تُنتج هذه الثورة إلاّ فوضى واضطراباً ، واستسلمتْ ـ أخيراً ـ للدولة المغولية ، وبقي اسمها يُذكر في التاريخ .

إنَّ مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة ، تُستهدَف للظُّنون السيئة ، والشكوكِ المريبة عند أصحاب السُّلطة والحكومات فيُشمِّرون عن ساق الجد ـ لظنِّهم أن الدِّين هو المعارضُ المناوىء لسلطتهم ـ لاستئصالِه والقضاء عليه ، ويَتَّبعون أَتباعه والمتحَمِّسين له ، فيُصفُّونَهم ويُبيدونهم إبادة كاملة .

ولعلَّ الإمام السرهندي لأجل ذلك ـ بعد خروجه من مُعتقل كواليار ، ومرافقة العسكر الإجبارية أربَع أو خمس سنين ، أشار على الوزير الشهير في بلاط السلطان (جهانكير) الأمير (مَهابَتْ خان) عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥هـ على الدولة أن يَكُفَّ عنها ، ولا يُثير الاضطراب ، فكان دليلاً واضحاً على فِراسته الإيمانية ، والتوفيق الرباني الذي كان حليفه ، إنه ما اختار ـ لإحداث تغيير جذري في الأوضاع ـ هذا الطريقَ المشبوهَ المحفوف بالأخطار ، بل سلك طريق البناء بدلَ الهدْم ، والإيجابَ بدل السلب ، والإمالةَ بدل الإزالة ، الطريق الذي كان بمأمن من كل خطر وضرر .

ولم يَبق بين يدي الإمام إلا طريق واحد ، وهو أن يَبدأ باتصالات خاصة ، مع أركان الدولة وأعيانها ـ الذين كانوا مسلمين ـ وكان الإمام السَّرهندي يعرف بذكائه الموهوب ـ معرفَته العميقة للنفوس ، أنه لم يكنْ لهم في هذه المؤامرة والكيد على الإسلام في عهد السلطان (أكبر) ، ناقةٌ ولا جمل ، بل كانوا

يستنكرون كثيراً من إجراءاته ، ولكنَّ السُّلطة لم تكن بأيديهم حتى يَعملوا شيئاً وكان عددٌ منهم يتَّصف بالحب العميق للإسلام ، والحَمِيَّة الدينية ، وعددٌ آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقي ، ويُحبُّونه ويعتقدون في علو مكانته ، وإن لم يكونوا من مريديه ، والمبايعين على يديه ، وكانوا يعرفون إخلاصَ الإمام السَّرهندي ، وتحرُّقه للإسلام وتوجُّعَه للدين ، وزُهده وعفافه.

وكان أشهرُ هؤلاء الأعيان ، وأجلهم شأناً النَّواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (م ١٠٢٥ هـ) وخان أعظم مِرْزَا كَوْكَه (م ١٠٣٣ هـ) وخان جهان اللُّودهي (م ١٠٤٠ هـ) وصدر جهان البَهَانْوِيّ (م ١٠٢٧ هـ) والإلٰه بَيْك جهانكير.

ما صَدر مِن القلب نَفذَ إلى القَلْب:

وَجَّه الإمامُ السّرهندي خطابَه إلى أركان الدولة وكِبار الأمراء والوزراء ، واسْتأنَف المراسلة معهم ، ونَثر قِطع قلبه ، ومُزَعَ نَفْسِه على صفحات الرسائل ، التي تمتاز ـ بين مجاميع الرسائل التي كُتبت في لغةٍ من لغات العالم وفي تاريخ أيّ حركة دينية إصلاحية ـ ببلاغَتها ، ونَصاعة أُسلوبها ، وَرَوْعة تأثيرها ، وتدفُّق معانيها ، وقد تجلَّى فيها تألم مُنشِئها للوَضع والواقع ، وإخلاصُه واستحواذ الفكرة عليه في أروع مظاهره.

ولا تزال ـ رُغم مضي مئات السنين عليها ـ تَحملُ ذلك التأثير والروعة والجمال ، يقدر بملاحظتها القارىء ما كان لها من فِعل وتأثير في نفوس مَن وُجِّهتْ إليهم ، والواقعُ أنَّ هذه الرسائل هي رسولُ الإمام السَّرهندي ، وسفيره في الدعوة والتبليغ ، وتُرجمانه الصحيح لقلبه المَكلوم الجريح ، وهي قَطرات دموعه ، وفَلَذات أكباده ، وقد كانتْ لها مساهمةٌ أساسية فعَّالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظَهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند.

الرّسائلُ الدّعويـة المحرّضـة إلـى أُمـراء الدولـة:

إنَّ عدداً كبيراً من هذه الرسائل بَعث بها الإمام السَّرهندي إلى الأمير السيد فريد[١] ، الذي كان يَتمتَّع بمكانة مرموقة في أركان الدولة ، وأمراء الولايات ، وكان مُستشاراً خاصاً ، وصاحب حَظْوة وزُلفى في الدولة ، من عهد السلطان (أكبر) ، وكان مُعجَباً بالشيخ عبد الباقي ، مُحِباً له مع الإجلال والاحترام.

وانتهز الإمامُ هذه الحَمِيَّة الدينية فيه وَشَرَفَ نَسَبه ، وحرَّضه ـ مذكراً إياه بما خصَّه الله به من صفات النُّبل وكرم المحتدِ ـ على أداء مسؤوليته الدينية ، وما يَفرضُ عليه كونه من أهل بيت النبوَّة من واجبات إسلامية ، وأن يَنصح السلطان جهانكير ، ويُشير عليه بما يُغيِّر مجرى الدولة من سيرها على خطة الملك (أكبر) ، وَغْفلَتها من مقتضيات الإسلام ، وقِلة الاهتمام بشأن الدين ، وما يُعاني الإسلام والمسلمون من غُربة ووَحشة ، ويُوجِّهها إلى تعظيم شعائر الدين الحنيف ، وحِماية بيضة الإسلام ، واحترامِ الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية.

---

(١) هو الأمير الكبير مرتضى بن أحمد أبي بكر البخاري المعروف بنواب فريد الدين ، أحد أجواد الدنيا ، لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ، والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور؛ أدرك أكبر بن همايون في صغر سنه ، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال «المير بخشي كري» (وهو الذي يرفع إليه أمر العساكر ويعين لها الرواتب) ثم لما ولي المملكة ولده جهانكير أضاف في منصبه ، ولقبه بصاحب السيف والقلم ، وولاه على كجرات أولاً ، ثم على بنجاب ، فأقام بها مدة حياته ، وكان أجود الناس ، وأنفعهم خيراً ، لم يخيب سائله قط حتى كان يبذل عليهم قباءه ، ودثاره ، ورداءه ، وما كان عليه ، وكان قد وظف الأيامى والمتوكلين ، وأهل الحاجة ، من يومية وسنوية ، وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس ، ويجهز لهن ، وكان يأكل على سفرته قرابة ألف وخمسمئة نفس كل يوم ، وسميت مدينة «فريد آباد» (بقرب دهلي) نسبة إليه ، توفي في عام ١٠٢٥هـ. (ملخص من ترجمته في «نزهة الخواطر» ج٥).

ولا تَحمل هذه الرسائل ـ للأسف ـ تاريخَ كتابتها ، وإلاَّ تعرفنا على جوانب كثيرة ، من حِكمة الدعوة ، والتقدُّم التدريجي فيها ، ووقَفْنا على سلسلة هذه المراسلة ، وكيف وجَّه الإمام السَّرهندي مَنْ خاطبه في رسائله توجيهاً تربوياً ، وماذا عَملوا هم للتأثير على السلطان؟ ، ثم كيف قام السلطان بتغيير وُجهة الدولة إلى صيانة الإسلام وحمايته ، وكيف بدأت مخلَّفات الحكومات السابقة ورواسبها تضمحِلُّ وتتلاشى ـ تدريجياً ـ ويحلُّ محلَّها احترام الإسلام ومعرفةُ قَدْره وأهميتِه ، والميل إليه؟.

ونحن نُحاوِل ـ حسب تقديرنا ـ أن نُقدِّم هذه الرسائل مُرتبة ترتيباً تدريجياً ، إلى حد ممكن.

يقول الإمام السرهندي في رسالة بَعث بها إلى الأمير السيد فريد البخاري فورَ جلوس السلطان (جهانكير) على عرش المملكة ، كما يبدو: يَدعو له باستقامتِه على جادَّة آبائه الميامين وبخاصَّة جدِّه سيدِ المرسلين ﷺ ثم يقول:

«إنَّ السلطان في الدنيا كالقَلْب في البدن ، فإذا صَلح القَلب صلح الجَسد ، وإذا فَسد القَلْبُ فَسَد الجسدُ ، وإنَّ صلاح السلطان صلاحُ الدنيا ، وفسادَ السلطان فَسادُ الدنيا.

وأنتم تعرفون جيداً ما مُني به الإسلام في القرن الماضي ـ في عهد السلطان أكبر ـ من رَزيئة ونكبة ، ولم يكن الإسلام ـ رَغم غُربته في القرون التي مضت قبله ـ ذليلاً مهاناً ، مثلما كان في هذا القرن ، فقد كان في الزمن الذي مضى قبله ، يتمسَّك الكافر بكُفره ، والمُسلِم بإسلامه ، ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] ولكن ظهر أهل الكُفر في القرن الماضي وغَلبوا أهل الإسلام ، وبدؤوا ينفِّذون أحكام الكُفر بصورة سافرة ـ في دار الإسلام ، وكان المسلمون لا يَقدرون على إظهار أحكام دينهم ، ومَنْ تَجاسر على إظهار دينه لقِيَ العقاب ، وحُكم عليه بالإعدام.

وَاويلاه ، وامصيبتاه ، واحُزناه ، واحَسرتاه! أتباعُ محمد ﷺ الذي هو

حبيبُ رب العالمين ـ أَذِلة ضُعفاء مهانون ، والجاحدون بنُبوَّته أعزةٌ أقوياء مُكرَّمون ، كان المسلمونَ بقلوبهم الجريحة المكلومة يَنْدبون الإسلام ، ويَرثُونه ويَنوحون عليه ، وكان المكابِرون الجاحدون يسخرون ويستهزئون ويَنكَؤون جُروح المسلمين الدامية ، غابتْ شمس الهداية في ظلام الضلال ، واختفى نُور الحقّ في حُجُبِ الباطل وسُحبه الداكنة.

واليوم بعد أَن زال ما كان يحول بين الإسلام وتقدُّمه وانتصاره ، وتشنفتِ الآذان ببشرى تُمكِّن سلطانَ الإسلام من عرش الحكومة ، ورأى أهل الإسلام مِن الواجب عليهم أن يُساعدوا السلطان ويناصروه، ويُبصّروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية ، وتأييدِ الملة الحنيفية ، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليدِ أو باللسان».

ويقول بعد بضعة سطور ، وقد وَضع الأصبع على الدّاء الذي أصيبت به الدولة في العهد الماضي:

«كُلُّ رَزيئة رُزِىء بها الإسلامُ في القرن الماضي ، كان من شُؤم عُلماءِ السوء ، فهمُ الذين أضلُّوا السلطان وأَغْوَوْهُ ، وعندما تفرقتِ الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فرقة واتخذَت طريق الزَّيغ والضلال ، كان علماءُ السوء رؤوسَ هذه الفِتَن ، وقادةَ هذا الانحراف ، وقليلٌ من ضلَّ من العلماء وانحرف ، ولم يُؤثِّر ضلالُه على الناس ، وإنَّ مُعظم جهلة هذا العصر ، المتزعّمين للتصوف يُمثِّلون دور علماء السوء ، ففسادهم ـ كذلك ـ فسادٌ مُتَعدٌّ مُعْدٍ.

فإذا كان هناك من يستطيع أن يُناصر في هذا العمل (نَصْرَ الدين الحنيف) ثم يُقصّر ويتكاسل ولا يُؤدِّي دوره ، فإنه مسؤولٌ عن الإسلام ، يَستحِقُّ المَلام.

نظراً إلى ذلك يُحب هذا الفقير ـ الذي بضاعته مُزجاة ـ أن يَنضمَّ إلى معسكر المناصرين للإسلام ، وللدولة المسلمة ، ويُحاول جُهده في نُصرة الدين ، فإن «مَنْ كَثَّر سَوادَ قوم فهو منهم» ، ومن يدري ، لعلَّ الله يَجعلُ هذا الفقير من هذه الجماعة الكريمة ، وهو يَرى أن مثله مِثلَ تلك العجوزِ المسكينة ، التي فَتلتْ

عدداً من الحبائل ، لِتَنْسَلِكَ في سلك المُساوِمين في يُوسفَ الكريم [(١)] ، ويأملُ هذا الفقير أن يتشرّف بالحضور لديكم في وقت قريب ، أرجو منكم ـ لتقرُّبكم إلى السلطان وتَهيُّؤ الفُرص في الحديث معه ـ أن تَبذُلوا جُهودَكم في تمكين الشريعة المُحمَّدية ونشرِها ، وتُخرجوا المسلمين من غُربتهم ومَسكنَتِهم ومَهانتهم» [(٢)].

ويقول في رسالة أخرى إلى السيد فريد :

«إنَّ المسلمين الغرباء الذين هم في هذه الوَرطة الهائلة ـ في هذه الأيام ـ إنما يَتوقَّعون خلاصَهم منها بسفينة أهلِ البيت ، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ : «مَثَل أَهْلِ بيتي كمَثَلِ سفينةِ نُوحٍ مَن ركبَها نَجا ، ومَن تخَلّف عنها هلَكَ» [(٣)].

فَركِّزوا هِمَّتكم القَعْساء على هذا الهَدف العظيم ، لِتَنالُوا هذه السعادة العُظمى ، وقد وَهَبكُمُ اللهُ ـ عز وجل ـ كُلَّ أنواع الحِشمَةِ والجاهِ والسلطان ، فَلو جَمعْتُم بين شَرَفِكُم في النسب ، وبينَ هذه السَعادة الجليلة ، لبذَّتْ سعادَتُكم جَميع السعادات ، ويَنوي هذا الفقير ـ للتحدُّث معكم في هذه الأمور التي يَقصد من ورائها تَأييدَ الشريعة الإسلامية وتَرويجَها ـ أَنْ يَتَشَرَّفَ بالحضور لديكم» [(٤)].

ويقول في رسالة ثالثةٍ إليه :

---

(١) قصة يحكيها بعض القصاص ، وأوردها بعض المفسرين في كتب التفسير ، وقد أصبحت مثلاً لمن يلقي دلوه في الدلاء ، ويريد أن يخرط في سلك الأغنياء والعظماء ، على قلة البضاعة.

(٢) الرسالة رقم: ٤٧ ، المجموعة الأولى.

(٣) [أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٣) برقم (٣٣١٢) و(٣/ ١٦٣) برقم (٤٧٢٠) ، والطبراني في الكبير (٣/ ٤٥) برقم (٢٦٣٧) ، وفي الأوسط (٤/ ١٠) برقم (٣٤٧٨) ، وفي الصغير (١/ ٢٤٠) برقم (٣٩١) من حديث] أبي ذر رضي الله عنه ، والحديث روي أيضاً عن ابن عباس ، وابن الزبير ، وأبي سعيد. قال في مجمع الزوائد (٩/ ١٦٨): فيه ابن لُهيعة وهو لينٌ، وقال الهيثمي فيه جماعة لم أعرفهم].

(٤) الرسالة رقم: ٥١ ، المجموعة الأولى.

«سَيدي الشريف إن الإسلامَ ـ اليوم ـ مسكينٌ غريب ، وإنَّ فلساً واحداً يُنفَقُ ـ الآن ـ لتقوية الإسلام وتأييده ، يُعادل الملايين ، فلْنَنظرْ مَنْ يكون ذلك الصقرُ الجريء الذي يُنعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة.

إنَّ العمل الذي يقوم به الإنسان لنَشر الدين وتأييدِ المِلَّة ـ في أي عصر من العصور ـ جميلٌ محبوب ، ولكنه اليوم حيثُ الإسلام غريبٌ أجملُ وأحبُّ ، فجديرٌ بكم ـ أنتم الأشراف ـ إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم ، وهُو لَكُم مباشرة ، ولِغَيركم بواسطة ، وإن وِراثَتكم لجَدِّكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نَيل هذه السعادة ، فإنَّ هذه الساعة هي التي ورد عنها ذلك الحديث: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّكم في زمانٍ مَنْ تَرك مِنكُم عُشْرَ ما أُمِر به هَلَك ، ثم يأتي زمانٌ مَن عَمل مِنهم بعُشْر ما أُمِر به نَجا» [1].

وإنَّ هذه الجماعة من الناس ، هي تِلك الجماعة ، ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦] .

والشَّخصيةُ الثانية التي وَقع اختيار الإمام السَّرهندي عليها بعد الأمير السيد فريد ، هو رُكن الدَّولة المغولية المكين (خَان أَعْظَم [2]) الذي كانتْ له مع الأُسرة الملوكية صِلَةٌ وقَرابةٌ ماسَّةٌ ، وكان (جهانكير) مُعترفاً بعُلوِّ مكانته وأَهميَّته ، وكان في قلبه إجلال وإكبار لمشايخ الطريقة النقشبندية ، ولعل

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الفتن برقم (٢٢٦٧) ، وقال: حديث غريب].

(٢) هو الأمير الكبير مرزا عزيز الدين ، كان يلقب بكوكه لكونه أخا السلطان أكبر من الرضاعة ، استوطن غزنين ، ثم مدينة دهلي ، كان والياً على كجرات عام ٩٨٠ ولما خالفه محمد حسين مرزا وحاصره ، سار إليه أكبر وجاب ١٤٠٠ ميل في تسعة أيام ، وولي على بكاله وبهار بعد ولاية كجرات ، ولقب بالخان الأعظم ، وولي على كجرات مرة ثانية عام ٩٩٧هـ ومع هذا التقرب والزلفى لدى السلطان ، كان يغلظ القول عليه ، فيما يأمره وينهاه ، ورغم ذلك سلم إليه السلطان خاتمه «مهراوزك» وجعله وكيلاً مطلقاً في مهمات الأمور وأسند إليه السلطان جهانكير أيضاً مناصب خطيرة ، وولاه على كجرات وتوفي عام ١٠٣٣هـ ، (ملخص من ترجمته في «نزهة الخواطر» ج٥).

الإمام بَعثَ بهذه الرسالة التالية إليه بَعد تَولِّي السلطان (جهانكير) للدولة ـ يقولُ فيها:

«أيدكُم الله ـ سبحانه ـ ونَصرَكم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «بَدأ الإسلامُ غَريباً، وسَيَعُود غريباً كما بدأ، فطُوبىٰ للغُرباء»[1].

فَقدْ بلغتْ غُربة الإسلامِ في هذه الديار أن أَطال الكفارُ ألسنَتَهُم على الإسلام، ويَعيبُون المسلمينَ، ولا يَستحيُون من إظهار أَحكام الكُفر، ومَدْحِه والثناءِ عليه في المشاهدِ والأسواق، والمُسلمون إزاءَهم لا يَقدِرون على إظهار أحكام الإسلام ويُعابون إذا عمِلوا بها ويُذَمُّون».

وقد قال الشاعرُ ما معناه:

«ما بَالُ الحُور العِين مُصفرةَ الوجوه، شاحبةَ الألوان، والسَّعالى في الجَمال والدَّلال، يا لَلْحَيرة القاتِلة، ويا لَلْعَجب العُجاب».

ثم يقول:

«نَرى وجودَكُم الكريم ـ اليوم ـ نِعمةً سابغة، ولا نَرى فارساً غيرَكم في الساحة لإدالةِ الإسلام من مُنافسيه وخُصومه وإقالةِ عَثاره، أيَّدكَ الله ونَصركَ بحُرمة النبي وآلهِ الأمجاد عليه وعليهمُ الصلوات والتسليمات والبركات، ورَد في الحديث الشريف ما معناه: «لَنْ يُؤمِنَ أَحَدُكم حتى يُقال إنَّه مُجنونٌ»[2]، وإنَّ ذاكَ الجنون الذي يَكونُ دافعُه الغَيرة المُفرِطة على الإسلام، لا نُحسُّ به

---

(١) [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريباً . . .] برقم (١٤٥)].

(٢) ولفظ الحديث كما أخرجه الحاكم في «المستدرك» [(١/ ٦٧٧) برقم (١٨٣٩)]: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون». قال الذهبي في التلخيص: صحيح . ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧١) وابن حبان في «الصحيح» [٣/ ٩٩ ،برقم (٨١٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢١) برقم (١٣٧٦)] كما جاء في «الجامع الصغير» للسيوطي كلُّهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الآن إلاَّ في طبيعتكم الفيَّاضة ، فالحَمد لله سُبحانه عَلى ذلك ، اليوم يومُ الجزاء الجزيل الجليل على العملِ الحقير القليل ، لم يَظهر مِنْ أصحابِ الكَهف من الأعمال البارزة إلا الهجرةُ العَملية ، فكانتْ لها هَذه الأهميةُ الكبيرة ، وإذا أبدى الجُنديُّ عندَ غَلب الأعداء وانتصارهم شجاعتَه ونَجدَته ، يَلقى من التَّبجيل والإكرام ما لا يلقاه في حالِ الأمن والسلام ، إذِ الأعداءُ في بلادهم.

إنَّ هذه الفُرصة للجهاد بكَلِمة الحقِّ ، التي أتاحها اللهُ لكمُ اليوم ، هي الجهاد الأكبر ، فانتهزوا هذه الفُرصة وقولوا: هل مِن مَزيد ؟ واعتَبِروا هذا الجهاد باللسان ـ في هذا الوقت بالذات ـ أفضلَ من الجهاد بالسَّيف والسِّنان ، ونَحنُ الفُقراء العَجزةُ حُرمنا هذهِ النعمةَ العظيمةَ :

هَنيئــاً لأربــابِ النَّعيــمِ نَعيمُهُــم وللعــاشِــقِ المسكِيــن مــا يَتجَــرَّعُ

هَدينـاكَ إلى مَكان الكَنـز الدفيـن ، فـإنْ كُنتُ لـم أظفر بـه لعلَّـك أنتَ تَظفَرُ به».

ثُمَّ يقولُ بعدَ بِضعة سطور: «إنَّ ما كان يُشاهَدُ من المعارضة العنيفة للدين الحنيف في الدولة السابقة لا نَجِدُها في هذه الدَّولة اللاحقة ، وإن كان هناك شيءٌ من ذلك فسببُه الجهل ، ويُخاف أن يصل الأمر ـ بتدريج ـ إلى نَفس تلك المعارضة والمعاندة ، ويُضيِّق الخناق على المُسلمين» [١].

* * *

ويَـكتُب إلى شخـصٍ آخـر من أصحـاب المنـاصبِ العاليـة فـي بـلاد السلطان (جهانكير) ، وهو (خان جهان) [٢] ، في نَـفْسِ الموضوع :

---

(١) الرسالة رقم: ٦٥ ، المجموعة الأولى.

(٢) الأمير الكبير خان جهان بن دولت خان اللودهي، كان جهانكير يعتمد عليه، ويحبه حباً مفرطاً لا يتصور فوقه ، وكان من خيار الأمراء ، يحب العلم والعلماء ، ويحسن إلى الناس كافة ، قام في عهد السلطان شاهجهان بالثورة ضده ، وقتل ١٠٤٠هـ («نزهة الخواطر» ، ج٥ باختصار).

«لو جَمعتُم بين ما تتبوَّؤون من مَنصب كبير وبين العَمل على الشريعة الإسلامية ، لأَدَّيتُم أمَانةَ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأَوضحتُم الدِّينَ المتين وأَضَأتمُوه ، وعمَّمْتمُوه ، ولو جَهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسَنا أعواماً طوالاً ، لما لَحِقْنا بغُبار أمثالكم من صُقور الإسلام.

ألا نُفُوسٌ أَبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ أَما على الخَيرِ أَنْصارٌ وأَعوانُ؟»

ويقول في رِسالةٍ مُشْهَبةٍ:

«لا يعرفُ الناسُ قيمةَ تِلك النعمة الجسيمة التي شرَّفكم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بها ، وأخاف أنكم كذلك لا تَعرفونها حقَّ معرفتها ، ذلك أن السلاطين في هذه البلاد من سَبعة أجيال مسلمون ، ومِن أهل السنَّة والجماعة ، مُتمسِّكون بالمذهبِ الحنفي ، وإن كان في الزمن الأخير مُنذ بضعة أعوام ـ إذ الزمان زَمان دُنُوِّ السَّاعة ، وبُعد العَهد بالنُّبوَّة ـ تَقرَّبَ بعضُ الأذكياء بشُؤم طمَعهم وحِرصهم ـ الذي هو وَليدُ فَساد باطنهم ـ إلى الحُكَّام والسلاطين ، تملَّقوهم ببَذرِ الشُّبَه والشكوك في الدين ، وأضلُّوا السُّذَّج من الناس عنِ الصراط المستقيم.

ولمَّا كَان السلطان العظيم (جهانكير) يستمعُ إلى حديثِكم بإصغاءٍ واهتمام ، ويَقدرُه قَدْرَه ، فما أجملَ هذه الفُرصة لتُبَلِّغوا إلى السلطان ـ بصريح العبارة أو الإشارة ـ كلمةَ الحقِّ التي يَعتقدها أهلُ السنة والجماعة ، شكرَ اللهُ سعيهم ، وتتقدَّموا بكلام أهلِ الحق ما اتَّسَع لهُ المقام ، واقتضَى الحال ، بل انظروا والتَمِسُوا دائماً مناسبةً من المناسبات يَتطرَّق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية ، حتى تَنتهزوا الفُرصة لإظهار أنَّ الإسلام حقٌّ ، والكُفرَ باطلٌ شَنيعٌ» (١).

وقد كتب الإمام السَّرْهندي ـ عدا ما كتبه هؤلاء الأُمراء الكِبار وأعيان الدولة ـ رسائلَ عديدةً تُثِير نفسَ المواضيع إلى (الإله بَيْك) ، الذي كان يَحتَلُّ منصب

(١) الرسالة رقم: ٦٧ ، المجموعة الثانية.

«بَخْشِي» للسُّلطان مراد ، ابن السلطان أكبر ، وكان والياً على (بِهَار) ، يقول:

«زَادنا اللهُ ـ سبحانه ـ وإياك حَمِيَّة الإسلام ، لقد مضى على غُربة الإسلام وَمسكَنَتِه قَرنٌ كامل ، وبَلغ الحالُ بهذه البلاد إلى أنَّ أهل الكفر لا يَرضَون بالعمل على أحكام الكُفر فحسب ، بل يُريدون أن تَزولَ الأحكام الإسلامية ـ بتاتاً ـ ولا يَبقَى أيُّ فَرْق بين الكفر والإسلام ، لقد تَجاوز الأمرُ إلى أن مُسلماً لو أراد إظهارَ شَعيرةٍ من شعائر دينه (كذَبْح البقرة) يُعاقب بالقَتل والإعدام».

ويَزيدُ قائلاً: «فلو تمكَّن الإسلام في بداية هذه الدولة ، وارتفعتْ رُؤوسُ المسلمين ، ونالوا العزة والكرامة ، فَبِها ونِعْمَتْ ، وإذا حال تَوقُّفٌ وتَردُّدٌ في هذا الأمر دون ذلك ، والعِياذُ بالله ، فسَوف يَزدادَ حال المسلمين سُوءاً وتعقّداً ورَزيئة ، فالغياثَ الغياثَ ، ثم الغياثَ الغياثَ ، فلْنَنظُر مَنِ المُقبل المَنْصور الذي يُشرِّفه الله بهذه السعادة ، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[1] [الحديد: ٢١] ».

يقول في رسالة إلى «صدر جهان» [2]أَحدِ أُمراء الدولة في عهد (جهانكير):

«أَنا على يَقين من أَنَّ قادةَ الإسلام الأشرافَ العظام ، العلماءَ الكرام مُنصرِفون إلى تأييد الدِّين المتين وتَقويته ونَصْره ، وبناءِ الصراط المستقيم

(١) الرسالة رقم: ٨١ ، المجموعة الأولى.

(٢) هو الشيخ العالم المفتي صدر جهان الحسيني البهانوي (مديرية هَرْدُوئي حاليا) كان من العلماء المبرزين في العلوم العربية ، ولي الإفتاء في العسكر ثم ولي الصدارة ، وتتلمذ عليه جهانكير ، أخذ عنه أربعين حديثاً ، ولاه على منصب أربعة آلاف ، وأقطعه أراضي واسعة عاش مئة وعشرين سنة ، مع صحة حواسه وسلامة أفعاله ، توفي سنة ١٠٢٧هـ («نزهة الخواطر» ج٥ ملخص).

وتكميلـه ـ سِرّاً وعَلانيـة ـ فلا داعي لهـذا الفقير العاجز إلى إطالـة الـنفس ، والإفاضة في الحديث»[1].

يَنبغي ألاَّ يُعاد الخَطأ مرّة أُخرى:

وحان ـ أخيراً ـ ذلك العَهْدُ السَّعيد الذي شَعر فيه السُّلطان (جهانكير) بخَطَئِه ، وأراد ـ حَسْب القوانين العامة للحكومة والإدارة ـ أن يُكوِّن لجنةً من العلَماء للاستشارة في الأمور الدينية ، وتَجْنيب الدَّولة من الأخطاء والمشاكلِ التي تَقعُ في هذا الصَّدد ، فطلبَ من أعيانِ الدولَة المتديّنين أن يَبحثوا عن العلماء الصالحين ، ويَدعوهم إلى البلاط ، ويحثّوهم على أن يُقيموا في البلاط ـ بصفة دائمـة ـ ليُبَيِّنوا المسائل الشرعيـة ، ويُستَفْتَـوا في القضـايا الدينيـة ، ويُهتدى بهم.

ولمَّا اطَّلع الإمام السَّرْهندي ـ الذي آتاهُ اللهُ الحكمةَ والفِراسةَ الإيمانيةَ، والبَصيرةَ في الدين ، وكان يعرف خَطَّ الانحراف في الدولةِ السابقة وتاريخَه، وعَوامِله وخَلفِيَّاته معرفةً عميقة ـ ارتاعَ لذلك ، بدل أنِ يَفرح بهذا النبأ السار ـ في الظاهر ـ وكَتب رسالةً إلى الأمير السيد فريد ، وأُخرى إلى الأمير صدر جهان ، وقال فيهما ما يلي:

«أُناشِدكم بالله ـ سبحانه ـ ألاَّ تُقدموا على هذا الخطأ ، واختاروا عالماً واحداً ، ربَّانياً مُخْلِصاً ، بدلَ أن تَختاروا عدداً من علماء الظاهر».

ويَقول في الرِّسالة التي وجَّهها إلى السيد فريد:

«ثَبَّـتَـكُم الله ـ سُبحانه ـ على جَادَّة آبائِكم الكرام ، سمعنا أَنَّ سُلطان الإسلام بما جُبِلَ عليه من سَلامة الفطرة ، وحُبِّه للإسلام ـ أوصاكم بأن تَختاروا أربعةً من العلماء ، ليُقيموا في البلاط ، ويُبيِّنوا المسائل الشرعية ، حتى لايقعَ عملٌ من السلطان ، أو لا يُصدِرَ حُكماً من الأحكام خِلافَ الشريعة الإسلامية ،

(١) الرسالة رقم: ١٩٤ ، المجموعة الأولى.

الحمدُ لله ـ سبحانه ـ على ذلك ، فَليستْ هناكَ بُشرى للمسلمين أعظمُ من هذه البشرى ، ولا خبرَ يدخل السرور على المفجوعين والثّكالى أعظمُ من هذا الخبر ، ولكن الفقير مُضطرٌّ إلى أن يتحدَّث معكم قليلاً ، رجاءَ المعذرة ، فإنَّ صاحبَ الحاجة أرعن.

فالّذي أُريد أن أَقولَه ، هو أَنَّ مِثلَ هؤلاء العلماء المُتديِّنين الذين يَتَسامَوْن بِأَنفُسهم عن حُبِّ الجاه والسلطان ، ولا هَمَّ لهم إلاَّ تأييدُ الإسلام ونَصْرُ الدِّين ، وَنشْرُ الشَّريعة الحنيفية ، هم أقل القليل ، فإنْ كان واحدٌ من هؤلاء العلماء يَميلُ إلى الجاه ، وَيتظاهرُ بفضله وتَفوُّقه وَبراعته ، ويُثير مسائل خلافية ، ويُحاوِل عن طريق ذلك الزُّلفى لدى السطان والحفاوةِ والإكرام ، فإن ذلك يُسيء إلى الدين ويُعرِّضه للخطر ، فقد كانتْ هذه الخلافياتُ الجُزئية بينَ العُلماء في القرن الماضي ، هي التي سَبَّبتِ الكارثةَ ، وأصابتِ الدنيا بِدَاهيةٍ ، ويَعودُ نَفْسُ ذاك الخطر ، الذي يكون سبباً لِتَلفِ الدِّين وضَياعه ، فَضلاً عن تَمكين الدِّين وتأييدِه ، والعياذ بالله ـ سبحانه ـ مِن ذلك ، ومنِ فتنةِ العلماء السُّوءِ.

فلو اخْتِير ـ بدلَ العُلماء الأربعة ـ عالِمٌ واحد ، لكان أصلحَ وأحسَن ، لأنَّه إن كان من عُلماء الآخرةِ فما أحسَن ذلك ، ومُجالسَتُه كالكِبريت الأحمر ، وإنْ لم يكن مِنْ عُلماء الآخرة؛ فَينبغي أن يُختار من طبقة العلماء من هو أحسَنُهم حالاً ، وأفضَلُهم شأناً «فما لا يُدْرَكُ كُلُّه لا يُتْرَك جلُّه».

ثُمَّ يَقـول: «لا أَدري ماذا أَكتُب ، إنَّ نَجاة الخَلْق وخَلاصَهم كما هو مُرتبِطٌ بالعلماء ، كذلك خُسرانهم وضياعُهم مرتبطٌ بالعلماء ، فأَفضلُ النَّاس في العلماء أَفضَلُهم في الدنيا ، وشَرُّ الناس من العلماء أَسوؤهم وأَفْسَدهم في الدنيا ، فقدِ ارتبطَ بهمُ الهداية والإضلال.

رأى بَعْضَ الصالحينَ إبليسَ اللَّعينَ قاعداً في تَعطُّل وبِطالة ، فسأَله عن سَببِ ذلك ، فقال: إنَّ علماء هذا العصر يَكفُوننا همَّنا ، ويُؤدُّون دَورَنا في الإغواء والإضلال ، ويَقولُ الشَّاعر مُخاطِباً للعُلماء:

يـا أَيُّهـا القُـرّاء يـا مِلْـحَ البَلَـد ما يُصْلِحُ المِلْحَ إذا المِلْح فَسَدَ؟

والغَرضُ من كُلِّ ذلك ، أنْ لا تتَّخِذوا أيَّ إجراءٍ في هذا الصدد إلاّ بعد تَروٍّ كثيرٍ وتفكير عميق ، لأنَّه إذا انقضى الأمرُ فلا تَدارُك ولا عِلاج ، وأنا خَجِلٌ من مِثل هذا الحديث مع أصحاب الفِطنة والألمعية ، ـ مثلَ شخصكم الكريم ـ ولكنْ لاعتقادي أنَّ هذا سبَب سعادتي وَجَدْتُ في نفسي اندِفاعاً إلى هذا الحديث»[1].

المُعجَبُـون بـالإمـام السَّـرْهنـدي مِـن أعيـان الـدولـة وأمـرائهـا ، ومُراسَلتـه مَعهـم:

عدا هؤلاء الأمراء ـ الذين تَقدَّم ذِكرُهم ممَّنْ رَاسَلَهُم الإمام السَّرْهندي ، وبَكى في رسائله دُموعاً غزيرةً من الدَّم على غُربة الإسلام ، ومَهانَتِه ، وقِلَّةِ حيلته وانتهاكِ حُرمات الشعائر الإسلامية ، والأحكامِ الدينية ، وهَوانِ المسلمين وإلجامِ ألسنتهم أن تَنْطِق بالحق ، ووجَّهَهُم ـ باستخدامِ مناصبهم الكبيرة ، ومكانَتِهم الخطيرة ، وخَدماتِهم العظيمة للدولة ـ إلى أن يُلفتوا نظرَ السلطان إلى الأوضاع المتردِّية ، وما يُعاني الإسلام من غُربة ، وأن يُثيروا فيه عِرْقَه الإسلامي الذي وَرِثه عن آبائه ، ويُوقِظوا الحميَّةَ الدينيةَ من سُباتها.

عدا ذلك هناك رسائل إصلاحية تَربويةٌ أخرى ـ في عدد كبير ـ كتَبها إلى عدد من كبار الأمراء وأركان الدولة ، وعالجَ فيها مواضيعَ التربية والسلوك وحلَّ فيها مُشكلات الطريق ، وغوامِضَ الفَنِّ ، وأَرشدَهُم فيها إلى الزُّهد في الدنيا والرَّغبة عنها ، والشَّوقِ إلى نعيم الجنَّة ، والاهتمام بتَنوير الباطن ، وتزكية النفس ، وهذه الرسائلُ مُوجَّهة إلى (عبد الرحيم خَانِ خَـانَـان) (المتوفى ١٠٣٦ هـ) ، و(قليج خان الأندَجاني الأكبري المتوفى سنة ١٠٢٣ هـ) ، (وخواجه جهان (المتوفى سنة ١٠٢٩ هـ) ، ومرزا داراب بن خان خانان

(١) الرسالة رقم ٥٣ ، المجموعة الأولى ، وعالج نفس هذا الموضوع في رسالة أخرى رقم: ١٩٤ ، المجموعة الأولى ، التي بعث بها إلى الأمير صدر جهان.

الجهانكيري (م ١٠٣٤ هـ) ، و(شرف الدين حسين البَدخشي).

ويُقدَّر من هذه الرسائلِ: أنَّ هؤلاء الأمراء الكبار كانوا يُحبُّون الإمام ، ويُجلُّونه إجلالاً كبيراً، وهي مثل ما يَكتب الشيخُ المرشِد إلى مريديه ومُسترشديه يُنبِّههم على أخطائهم ، ويُذكِّرهم وَينْصَحُهم ، ويُبدي سروره وارتياحه على تَقدُّمهم في الدين، ورُقيِّهم في الاستعداد الروحي ، وصفاءِ الباطن وقُوة النسبة.

ويستطيعُ الإنسان أن يُقدِّر من خلالها أيضاً أَنَّ هؤلاءِ الأمراء الكبار لم يكونوا قد قصَّروا في النصيحة للإسلام والعَطْفِ عليه ، والجَهْر بكَلِمة الحق عند السلطان ـ حَسْبَ ما أراد الإمام السَّرْهندي منهم لإصلاح الدولة والبلاد ـ وتحقيق آمال شيخهم ومُرشدهم التي كان يُعلِّقها بهم ، والتعاضدَ مع الأمراء الآخرين وتأييدهم في إنجاز ذلك الهدف العظيم الذي وجَّههم إليه الإمام السَّرْهندي في رسائله.

تأثيرُ الإمام السَّرْهندي الشخصيُّ وأثره الباطني في إصلاح الأوضاع:

ما ذكرنا ـ فيما تقدَّم ـ يَتَّصل بِتلْك المُحاولاتِ والجُهود التي بَذلها الإمام عن طَريق الأمراء ، فإنَّ هذه الرسائل التي كانت تَتْرى على الأمراء وأعيان الدولة مِن قِبل الإمام السَّرْهندي ، والتي كان يُحرِّضهم فيها على نَصْر الإسلام وحماية الدين ، وتوجيهِ السلطان إلى احترامِ شعائرِ الإسلام وتَنفيذِ الشريعة الإسلامية ، وإصلاحِ الأوضاع الفاسدة ، الرسائل التي تَبرُق وتَرْعُد حَماساً وحَميَّة ، وتَتدفَّق قُوة وغَيرة ، وتكادُ تَسيل رِقَّة وعُذوبة ، لم تذهبْ هذه الجهود عن طريق الرسائل سُدىً في تكميل خِطَّته ، وأداء دَوره.

وقد لَعِب من وُجِّهتْ إليهم هذه الرسائل دورَهم ، لا سيَّما الأمير السَّيد فَريد الذي قام بمهمَّةٍ موفّقةٍ أساسية في تَغيير تيار الدولة ، وتحويلِ اتجاهها إلى الإسلام من جديد.

ولكنْ لم يحدث ـ إلى ذلك الوقت ـ في نَفْسِية السلطان (جهانكير) ذلكَ التغيير الجذري الذي كان يَحتاج إليه هذا العمل الجذري الذي كان يَحتاج إليه هذا العمل العسير العظيم ، ومعلومٌ أن شخصية السلطان في الحكومات الملوكية تَحتلُّ مكان النُّقطة المركزي والقُطبَ الذي تدور حوله جميعُ أنظمة الدولة ، فلو قصد أمراً ، أو اعتنقَ فِكرة ، أو أحبَّ شخصاً ، أو اعتقد في رجلٍ ربَّانيٍّ مُخلِص وأكنَّ له الإجلال والإكبار ، واعتمدَ على صلاحه وَوَثِق بإخلاصه ، فإنَّه يَقطع مسافة آلاف الأميال في ساعاتٍ ودقائق ، وقد يَجعلُ المستحيل مُمكناً بل أمراً واقعاً.

وكان (جهانكير) ـ إلى تلك الساعة ـ يَجهلُ مكَانة الإمام السَّرْهندي ومَنزلَته في العِلم والربانية، لأنه لم يكن من العلماء والمشايخ الذين يتردَّدون إلى البلاط ، ويَختلفون إليه ، إذاً فما هو الطريق للاتصالِ به مباشرة ، حتى يَعرِف عُلُوَّ مكانته ، وعِظمَ مَنزلَتِه ـ في حُدود استعداده وكفاءَتِه ـ؟ .

هنالـك دبَّرتْ مقاديرُ الله ـ تعالى ـ في ذلك تدبيراً ، وكان تَفسيراً عملياً لقوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

تـأثُّر السلطان جهانكير:

قَرأنا في الباب الثالث قصَّةَ اعتقال الإمام في قلعة (كَوَالِيَار) ، والإقامةَ الجبرية في المعسكر ، وكان الإمام السَّرْهندي مَكث في المعسكر ثلاثَ سنين وستة أشهر [1] صَحِب فيها السلطان وجالسه ، وذاكَره في المسائل الدينية ، وشَهِد السلطان شدة شكيمَته وصلابَته ، واستقامَتهُ في الدين في مظهر إبائه الصَّريح عن سَجْدة التَّحية ، والآدابِ الرسمية ، وإقامَته في قلعة كواليار سجيناً في عِزة نفس واعتدادٍ وكرامة ، وعدمِ خضوع لطلب العفو ، كما شهدَ تأثيرَ صُحبته ومجالسته ، وتأثيراته الباطنية ، وقُوته الرُّوحية ، في دخولِ المئات من

---

(١) أطلق سراحه من قلعة كواليار في شهر جمادى الآخرة عام ١٠٢٩هـ ، وودع المعسكر في شهر ذي الحجة عام ١٠٣٢هـ ، وهكذا تكون هذه المدة ثلاث سنين وستة أشهر.

الكفار في حظيرة الإسلام ، واطَّلع ـ أثناء إقامته في المعسكر ـ ومُرافقته الطويلة ـ على زُهده وتقشُّفه ، واستغنائه ، وانهماكه في العبادات ، واهتمامه بالأوراد والأذكار ، ورأى تبحُّره ورسوخه في العلم أثناء مجالسته ، وفي الحديثِ معه.

وكان (جهانكير) حاكمَ دولةٍ عظيمة ، يَمتازُ بسَلامة الفِطرة ، والذكاء والنبوغ ، وسَنَحتْ له فُرصة الخِبرة بكثير من الأمراء والعلماء والمشايخ ، وأبناءِ الدنيا وعُبّاد المادة ، والصَّالحين المتديِّنين من عهد والده (أكبر) ، إلى عَهْد حُكمه، نشأتْ فيه مَلَكةُ التعرُّفِ على طبائع الناس وخصائصهم ، التي لا يَتمتَّع بها من لم تَحصُل له هذه الفرصة الكثيرة ، للخِبرة والنقد ، وتَمييزِ الزَّيف من الصحيح ، فلا شك أَنه أدرك أن الإمام السَّرْهندي طِراز آخر من الرجال ، يَختلف اختلافاً كبيراً عَمَّنْ كانوا يَحتلُّون المناصب في الدولة ، ويتجمَّل بهمُ البَلاط ، ويزدان بهم دُست العِلم والشياخة.

يتجلَّى هذا التأثيرُ لصُحبة الإمام وخواطِره وعواطفه ، في الحادثة التالية التي سجَّلها السلطانُ جهانكير نفسه في شيءٍ من الفَخر والاعتزاز ، وتزدادُ أهميَّة هذه الخُطوة التي اتخذها جهانكير ، إذا أخذنا بعَين الاعتبار أنَّ هذه القَلعة فُتحت بأيدي (الرَّاجَهْ بَكَرْ مَاجِيْت) الهِنْدُوكيّ ، لا بأيدي قادةِ الجيش المُسلمين المحنَّكين.

يَقولُ جَهانكير: «خرجنا يوم ٢٤ من شهر «دي»[١] المذكور للتَّفَرُّج والنُّزهة في قلعة (كَانْكَرَه) ، فأَمرنا أن يُرافقنا القاضي ومير عدل وغيرُهما من العلماء ، ليُظهروا في هذه القلعة شعائرَ الدين الإسلامي ، وأحكامَ الشريعة المحمدية ، على سبيل الإيجاز ، ووصَلْنا بعد سَيرِ فَرْسخ واحد إلى ذُروةِ القلعة ، فأَمرتُ ـ بتوفيق الله تعالى ـ بالأذان ، فأُذِّن ، ثم ألقيتُ خطبة ، وأَمرتُ بذَبح البقرة ـ ولم يتفق ذلك قطُّ منذُ بِناء هذه القلعة ـ ثم خَررْتُ للهِ

(١) الموافق غرة ربيع الأول ١٠٣١هـ.

ساجداً على أن وفَّقني إلى ما لم يُوفَّق إليه أيَّ سُلطان قَبل ، وأَمرتُ ببناء مسجدٍ واسعٍ عالٍ في داخل القلعة»[١].

وهكذا تحوَّل اتجاه الدولة ـ بالجُهود المباشرة أو غير المباشرة ـ من إهمالِ الإسلام ، والغفلة عنه ، بل من مُعارضتهِ ومُشادَّته ، إلى تعظيم الشعائر الإسلامية وإعلاءِ كلمةِ الله ، واحترامِ الدين ، وشَغَفِ السلطان المُسلم بالإسلام ، وقد بدا هذا التحول الكبير من أواخر عهد السلطان (جهانكير) ، وامتدتْ ظِلاله الوارفة إلى عهد السطان (شَاهْجَهَان).

عَهْد السُّلطان شَاهْجَهَان:

لقد كان عَهْد السلطان الغازي شاهجهان (١٠٠٠ ـ ١٠٧٥ هـ) الملقَّب «بصاحب القرن الثاني»[٢] عهدَ الخير والإصلاح التدريجي ، وقد بدأ من عام ١٠٣٦ هـ واستمر بأُبَّهته وعظمته ٣١ سنة ، وكان قد تولَّى زِمام البلاد بعد وفاة الإمام السَّرْهندي بعامين ، وليستْ لدينا وثيقة تاريخية مَوثوقٌ بها ، تُـقيِّد اتصال السلطان شاهجهان بالإمام السَّرْهندي أو بابنهِ الجليل الشيخ محمد معصوم اتصالَ بَيعةٍ واسترشاد خاص ، ولكنَّ الذي لا يُشك فيه أنه كان دائم الإجلال والتعظيم للإمام السَّرهندي ، ولأجل ذلك لما قصَد الإمام السَّرْهندي زيارة السلطان على طَلَبٍ منه ، وكان يَعرف أن الإمام لا يُباشر الآداب الرسمية ، ويَرفُض سَجدة التحية ، بعث بالشيخ أفضل خان والمفتي عبد الرحمن ـ اللَّذين كانا من المصاحبَين لوليِّ العهد والمقرَّبين لديه ـ ببعض الكتب الفقهية وأَمرَهما أن يقولا له: إن سجدة التَّحية تَجوزُ للسَّلاطين ، وقد أَجازها بعضُ الفقهاء في ظُروف خاصّة[٣] «فلو باشرتَ هذه الآدابَ الرسمية

(١) توزك جهانكيري: ص ٣٤.
(٢) سمِّي بذلك لأن الألف الثاني يلتقي بالألف الأول في عهده.
(٣) لم نطَّلع على هذه النصوص الفقهية ، وفتاوى الفقهاء التي تبيح السجدة لغير الله ، والذي نعرف أنها محرمة إطلاقاً ، إلا أن يكون ذلك كأكل الميتة وتناول المحرمات ، وقاية للحياة وعصمة من القتل ، مع فضل من عمل بالعزيمة ، وتجنب الرخصة.

عند مُقابلة السلطان ، فأنا ضامنٌ لك بأنه لا يَصِلُك أيُّ ضررٍ» ، فأبى الإمام السَّرْهندي ورفضَ هذا العرض ، وقال: «إنها رُخصة ، والعزيمة ألاَّ يُسجد لغير الله ، مهما كانتِ الأوضاع والظروف» (١).

واتَّفق المؤرِّخون على أن السلطان (شَاهْجَهَان) كان طيِّب النفس ، مُعظِّماً للشريعة الإسلامية ، شَغوفاً ببناء المساجد ، مُلْتَزِماً ـ في ذات نفسه ـ بالفرائض الشرعية ، يُدني إليه العلماءَ والصالحين ، ويُقرِّبُهم ، ويعتمدُ عليهم ، وكان وزيرُه المدبّر الحصيف جُملة المُلك سَعد اللهِ خان العلاَّمي (م١٠٦٦هـ) من نوابغ العلماء والمدرِّسين في عصره (٢).

ورَفع السلطان (شَاهْجَهَان) بعضَ التقاليد والآداب الرسمية التي كانت اختُرِعتْ في العهود السابقة واستمرتْ إلى عهده ، يقول الأستاذ المؤرخ ذَكاء الله الدِّهْلوي ، على أساس ما جاء في الكتبِ التاريخية العاصرة بالفارسية كـ «بَادِشَاهْ نَامَه» وغيره.

«لمَّا تربَّع السُّلطان على أَريكة الدولة ، كانَ له من الاهتمام والاحترام لشعائر الملَّة الحنيفية ، والشريعة المحمدية ـ التي كان تسرَّب إليها الإهمالُ والغفلةُ من قبل ـ أَن أَمرَ بأنه لا يَستحِقُّ السُّجود إلاَّ المعبودُ بحقٍّ ، فلا يُعفِّرَنَّ أحد جبهته في الأرض لأحدٍ من بعد ، وأشار عليه (مَهَابَتْ خَان) بتحية «زَمِيْن بَوْس » ـ التي يلمس فيها الأرضَ باليَدِ عند التحية ـ فأمرَ بها ، ولكن رأى أن فيها كذلك شَبَهاً بالسجدة ، فنهى عنها ، وأمر بـ «التَّسليم الرابع» (٣).

وَيقول سِير ريتشارد برن: (Sir Richard Burn):

كان السُّلطان (شَاهجهان) يُريد إحياءَ العقائد الإسلامية وإعادَتها بقُوة وشدة ، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ لم يَكُنْ يُحب التعرض لأصحاب الدِّيانات

---

(١) راجع للتفصيل الباب الثالث من هذا الكتاب.
(٢) راجع لترجمته الحافلة «نزهة الخواطر» ج٥.
(٣) تاريخ هندوستان: ج٧ ، ص ٥٥ ـ ٦٦ ملخصاً.

الأخرى ، ورفعَ بعد اعتلائه على سَرير المُلك بيسير سجدة التحية الرسمية ، وانتهى استخدامُ التقويم الإلٰهي الذي بدأه (أكبر) وروَّجه في الناس ، منَ الأوراق والوثائق الرسمية ، والعُملاتِ السائدة بعد ولاية شاهجهان ببضعة أعوام ، وأصدر أمراً عام ١٦٣٤ م بمنع الزَّواج بين المُسلمين والهندوكيين ، الذي كان سائداً مُنتشِراً في (بنجاب) و(كشمير)» [١].

ويَقولُ المؤرِّخ ذكاءُ الله: «وُظِّفَ القُضاة والمعلِّمون من قِبل السلطان ، ليُعلِّموا الناسَ أحكام الشريعة ، وآدابَ العبادة ، وعُيِّن الشيخ محمود ليَفُكَّ النساء المسلمات ـ بعد التحقيق والإثبات ـ من حبال الرِّجال الهندوكيِّين ، ويُميِّز عمارات المسلمين ومساجدَهم عن أَبْنيةِ الهنادك ومَعابدِهم ، فنفَّذ هذا الأمر ، واستعاد كثيراً من المساجِد التي كانتْ تَحت تصرُّف الهنادك ، وفرضَ عليهم غرامات ، ثم بناها من جديد ، وعاقَب من الهنادك من ثَبتَ عليه إهانةُ القرآن الكريم عِقاباً رادعاً ، ثم أمر السلطان أن يحقّق جميع الموظفين للمهمَّات الشرعية في مثل هـذه الأمور ـ إن كانت وقعت ـ في سائر ولاية (بنجاب)» [٢].

ولكنْ ـ رَغم كلِّ هذه الحميَّة الدينية واحترام الشعائر الإسلامية ـ لا نشكُّ في أن السلطان (شاهجهان) كان يفضِّل ابنه (دارا شكوه) على ابنه (أَوْرَنْكَ زَيْب) العالم المتديِّن ، وصاحبِ الكفاءة والمقدرة ، ويُحِبُّ أن يتولى دارا شكوه أمر هذه الدولة ، ويخلُفه في الملك وهذه خِصِّيصة الحكّام والسلاطين المتمَسِّكين بمبدأ الحكومات الشخصية الوراثية ، والفَصلِ بين الدين والسياسة ، حيث لا يكون لتدينهم الذاتي أيُّ تأثير على شؤون الدولة ، ولا يَحول بينهم وبين أن يختاروا خليفة غير كفؤ يُلحق الأضرار بما بَنوه وأنشؤوه ويُخِلُّ بالنظام.

---

(١) Cambridge History of india Vog.Ivp.217 باختصار.

(٢) تاريخ هندوستان: ج٧ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، باختصار.

وَلِيُّ العَهد (دارا شِكُوَهْ):

تُفيدنا تصريحاتُ المؤَرِّخين من غير المسلمين أن (دارا شكوه) ، كان أقربَ إلى مذهبِ جدِّه السلطان (أكبر) ومشربِه ، وكان مُعجَباً بفلسفة وحدة الديانات ، ويُحاول التوفيق والتطبيق بين الشريعة الإسلامية ، و«الويدانت» ـ شريعةِ الهنادكة ـ يقول الدكتور الفرنسي برنير: «كان دارا شكوه يُصغي إلى مواعظ البطريق فِليم الدِّينية ، ويستمعُ إليها بشَوقٍ ورغبة زائدة ، وكان يحاول الجمع بين الديانة الإسلامية ، والديانة الهندوكية».

وجَاء في «دائرة المعارف الإسلامية»: «كان دارا شكوه وَلُوعاً بالتصوف، مُعجَباً بالفلسفة الهندوكية، أقامَ علاقاتٍ وطيدةً مع الصُّوفية المسلمين ، والنُّسَّاك الهندوكِيِّين ، كان منهم من العلماء والصوفية المسلمين «سَرمد» المعروف بعقيدته في وَحدة الوجود ، و(باباﻻلْ دَاسْ بِيْرَاكِي) تلميذُ «كبير» ومريده.

«تَنِمُّ بعض مؤلَّفات دار شكوه الأخيرة عن عَقيدته وتمسُّكه بنظرية وحدة الوجود ، وكأنَّه كان متأثراً بالفلسفة الهندوكية ، مُعْجَباً بالوثنية ، ولأجلِ ذلك نزع إلى عددٍ من الآراء المُلحدة التي تُوجَد نظائرُها الصريحة في الفلسفة الهندوكية ، ولا مَجال لها في الإسلام.

وقد توصَّلَ (دارا شكوه إلى أنَّ التصوف، والويدانت ـ اللَّذان يُستعان بهما في إدراك «الحق» ـ لا يتعارضان ، وأنَّ الفارق بينهما لفظي ، وحاول (دارا شكوه) في ترجمته لـ «أوبنيشد» ـ التي كان يَعتبرها منبَع «الوحدة» ـ التوفيقَ والتطبيقَ بين نَظرياتٍ وآراءِ أتباعِ الديانتين الكبيرتين ـ الإسلام ، والهندوكية ـ المشتَركة ، وأراد أيضاً أن يعرِف المسلمين عن طريق الترجمة بمُعتقدات الهنادك»[١].

(١) راجع «دائرة المعارف الإسلامية» (أردو) المقال بعنوان «دارا شكوه» ج٩ ، وكاتب المقال هو ستيش جندر الباحث الهندوكي ، وراجع أيضاً (Aurangzeb) تأليف ظهير الدين الفاروقي ، ص ٣٨ ـ ٤٧.

وليس محلٌّ استغراب ـ بسبب هذه الآراء والنظريات ، والمُيول والنَّزعات التي كان يحملها (دارا شكوه) ، ولم تكن لِتخْفى على المُجتمع المسلم ـ آنذاك ـ في الهند والتي يُمكن أن يكون وليُّ العهد (أورنك زيب) انتفعَ بها في صالحه ، أن تكونَ الأوساط الدّينية من عُلماء الدين ، ومشايخ الطريقة المُتمسِّكين بالشريعة ، وأتباعهم ـ الذين شَهدوا بأمِّ أعينهم غربة الإسلام ، وذِلَّته في عهد السلطان (أكبر) ، أو سمعوا قصصها وحكاياتها من آبائهم ـ في صَفّ وليِّ العهد (أورنك زيب) ـ أعظمِ حماة الإسلام في الهند المتمسك بالشريعة والدين ـ في هذه الحرب الداخلية بين الأخوين ، وأن يُساعِدوه ويناصروه باستمالة الناس إليه ، وحثّهم على تأييده ، والدعاء له»[1] .

ويَعرِف جميع المطَّلعين نتيجَة هذه الحرب ، فقد انتصر السلطانُ (أورنك زيب) على (دارا شكوه) ، وتربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨هـ ، وحكم نصف قرن من الزمان؛ بالشَّوْكة والقوة والسلطان.

السُّلطان (محيي الدِّين أَوْرَنكَ زَيب عَالَمْكِير) وحَميتُه الدينية ، وحمايته للإسلام:

اتَّصل السلطان (أورَنك زِيب) الذي كان يُجِلُّ أُسرة الإمام السرهندي ورجالَها ويعظِّمهم ، ويَنسجم مع دعوتهم ومذهبهم ، بالشيخ محمد معصوم ابن الإمام السَّرْهندي ، اتصالَ بَيعة وسُلوك[2] ، وتَشهدُ قرائن كثيرة على أن صِلةَ السلطان بالشيخ محمد معصوم لم تكن صِلة إجلالٍ واحترامٍ عادية فحسب ، بل كانت صلة التربية والاسترشاد ، وتحصيلَ علمِ السلوكِ على يديه .

---

(١) راجع للتفصيل مقال البروفيسور محمد أسلم بعنوان «دور العلماء والمشايخ في تولية السلطان أورنك زيب» في كتابه «المحاضرات التاريخية» ص ٢٢٦ ـ ٢٤٣ .

(٢) «المكتوبات السيفية» الرسالة رقم: ٨٣ ، وهي موجهة إلى الشيخ الصوفي سعد الله الأفغاني.

وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أَنْ كان السلطان وليَّ العهد ، يَعتني به اعتناءً خاصاً ، ويُلقّبه بوليِّ العهد الحامي لذمار الإسلام ـ الذي كان إرهاصاً لمستقبله العظيم ، وتَفاؤلاً نافعاً ـ يقول الشيخ سيفُ الدين في رسالةٍ بعثَ بها إلى والده الشيخ محمد معصوم :

«إنَّ إخلاص السلطان الحامي لذمار الإسلام لسيدي الشيخ من طِراز آخر ، وقد مرَّ بمقام ذِكر اللطائف الستة ، وسُلطان الأذكار ، إلى مقام ذِكر النفي والإثبات وهو يقول : إنه لا تُدغدغه الوساوس ـ بإطلاق ـ وإذا طَرأتْ وَسوسةٌ من الوساوسِ ، لا يكونُ لها قرارٌ ، فهو في مأمن من خطرها ، ويقول : إنه كان ـ قَبْلَ ذلك ـ يَقْلَق ويَضطرب لزَحمة الوسَاوس والخَطَرات ، ويَشكُر هذه النعمة» .

وأثنى الشيخُ (محمد معصوم) على اللهِ ـ سبحانه وتعالى ـ وحمَده كثيراً في تلك الرسالة التي بَعَث بها رداً على رسالة الشيخ سيفِ الدين ، وشكر اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن وَهَب السلطان هذه المقامات الروحية العالية ، ويُستفاد من هذه الرسالة أيضاً ، أن السلطان بلغ مرتبة «الفَناء القلبي» الذي هو من أعلى «المقامات وأرفعها في السلوك» [(١)] .

يَقولُ أبُو الفتح في «آداب عَالَمكيري» :

جاء الشيخُ (محمد معصوم) وأخوه الأكبر الشيخ محمد سعيد فورَ جلوس السلطان (أورَنك زِيب) على عرشِ الدولة إلى البلاط ، وأَهدىٰ إليهما (أورنك زِيب) ـ بهذه المناسبة ـ ثلاثمئة خاتمٍ ذَهبي» [(٢)] .

ونَقل البروفيسور محمد أسلم في مقاله بعنوان «دورُ العلماء والمشايخ في

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .
(٢) «آداب عالمكيري» «لأبي الفتح ، النسخة الخطية في India Office Library London ٣١٧ ، ق ب ٤٣١ ، محمد كاظم «عالمكيرنامه» طبعه كلكته ١٨٦٨م ، ص/ ٢٩٣ ، مقتبس من «المحاضرات التاريخية» للبروفيسور محمد أسلم .

تـوليـةِ السلطـان أورَنـك زيـب» حـوادثَ مـن «مـرآة العـالـم» و«فُتـوحـات عالمكيري»[1] ، تَدُلُّ على الصلات العميقة بين السلطان ، وبين أُسرة الإمام السَّرْهندي ، وأبنائه الكرام ، فكانوا يُقابِلون السلطان ، ويُقدِّم السُّلطان إليهم هَدايا فاخرةً ثمينة ، وقابَل الشيخَ (محمد معصوم) وغيرَه من أفراد الأسرة المجدِّدية عِدَّة مرات في سَرْهند ، ذاهباً من (دهلي) إلى (لاهور) ، أو آيِباً في طريقه إلى دهلي .

تُفيد دراسة رسائل الشيخ سيف الدين ـ التي بعثَ بها إلى السلطان (أورنك زيب) وطُبعتْ باسم «المكتوبات السيفية» دراسةً عميقة ، أنَّ صلة السلطان (أورنك زيب) بالشيخ سيف الدين ـ بصفةٍ خاصة ـ وبأسرة الإمام السرهندي ـ بصفة عامة ـ لم تكُن صلة حب وإجلال فحسب ، كما توجد لدى السلاطين المتديِّنين مع علماء ومشايخ بلادِهم وعهودهم ، بل كانتْ هذه الصلة عمليةً أكثر منها عاطفية ، وتربوية إصلاحية أكثر منها حُباً وإجلالاً محضاً .

يقول الشيخ سيف الدين في رسالة كَتبها إلى والده ، وهي الرسالة الثالثة في الترتيب :

«سيدي الوالد نَعيشُ هذه الأيام مجالساتٍ ومذاكرات طويلة ، ونُذاكِر في بعضِ الرسائل الدقيقة ، ويَستَمِعُ السلطان بغايةِ الإخلاص والإصغاء» .

ويقول في رسالة رقم : ١٤٢ ، بَعثها إلى الشيخ محمد باقر اللاَّهُوري :

«شَرَّفَنا السُّلطانُ في البيت ليلَة السبت التي كانتِ الليلَّة الثالثة من هذا الشهر ، وتَناولَ ما حَضر من الطعام من غير كُلفةٍ ، وطالتِ الصحبة ، ووَقع في أثنائه السكوتُ والصمت ، وبالجملة فإني آملُ ظُهور الطريقة العالية أيضاً كما يُحِبُّ ويتمنَّاه المخلصون» . (ص ١٦٨ ـ ١٦٩) .

واستمرَّتْ هذه الصلاتُ والعلاقاتُ وذلك التأثيرُ إلى وفاة السلطان أوْرَنْك

---

(١) يوجد الكتابان في مكتبة المكتب الهندي India Office Library ومكتبة المتحف البريطاني British Museum .

زَيب ، وقد ورَدتْ إشاراتٌ وتنبيهاتٌ في الرسائل التي كَتبها شيخ الطريقة الجِشْتِيَّة النظامية الشهيرة الشيخُ (كليمُ الله الجَهَانْ آبادي) (المتوفى سنة ١١٤٣ هـ) إلى خليفته الخاص الشيخ (نظام الدين الأَوْرَنْكَ آبادي) أنه يُرافِق السلطانَ ـ في هذه الأيام ـ أبناءُ الإمام السرهندي ، فينبغي أن تأخذوا بالحِيطة والحذر في عَقْد حفلات الغناء والأناشيد لئلا يتكدَّر صفو خاطرهم ، ويُسيء إليهم ، تَدُلُّ هذه الشواهد دلالةً واضحة على أن أفراد هذه الأسرة ذوي المكانة العالية كانوا يُرافقون السلطان ـ من حين لآخر ـ في غَزواته ورحلاته إلى (الدَّكَن) ، وإقامته الطويلة فيها ، ويُساهِمون معه بتفكيرِهم ودُعائِهم كذلك.

وقد طَلبَ السُّلطان ـ مراراً ـ كما يحكي المُفتي (غُلام سَرْوَر) مؤلِّف «خزينة الأصفياء» ـ من الشيخ (محمد معصوم) أن يرافِقَه في سفره وإقامته ، ولكنه ما اختار مرافقَة السلطان ـ حسب وصية والده ـ ، وبَعثَ مكانه ابنه الشيخ سيفَ الدين إلى دهلي ، وتُفيد رسالتان رقم: ٢٢١ ، و٢٣٧ من «المكتوبات المعصومية» وُجِّهتا إلى السلطان أنَّ علاقة السلطان بالشيخ علاقةُ مريدٍ مسترشِد مع شيخه.

وسوف يأتي ذِكر صلاتِه بالسلطان ، وتأثُّر السلطان به ، والعمل وفق إشارته وإرشاداته في الباب الثامن ، في تَرجمة الشيخ سيف الدين.

وقد واصل الشيخُ سيف الدين جهودَه مع السلطان في إحياء السنة ، وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، ولم يدَّخر في ذلك وسعاً ، وتُوجد في مجموعة رسائله «المكتوبات السيفية» ثماني عشرةَ رسالة [١] كتبها إلى السلطان ، لَفتَ فيها انتباهه إلى إزالة البِدع والمنكرات ، وإحياءِ السنة ، وإعلاء كلمة الله ، وتَمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد.

ويَصعُبُ الحُكم على جميع أعمال أيِّ حاكم أو سلطان لدولة ما من

---

(١) وأرقام هذه الرسائل كما يلي: ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، انظر «المكتوبات السيفية».

الدول ، وجميعِ عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته وإجراءاته ، بأنها موافقة ـ مئةً في المئة ـ للتعاليم الإسلامية ، والأحكامِ الشرعية ، ولا يُمكن أن يقال ذلك إلاَّ في الخلفاء الراشدين المهديِّين ، وبعضِ الوُلاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عُمر بن عبد العزيز في إقامة الخلافة على مِنهاج النبوة ، كما يتعذَّر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتُّخذتْ في ضوئها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآراء ، وأنه ما مَدى واقعيةِ تلك الصُّورة التي تتجلَّى لهذه الأعمال والإجراءات في ضَوء بياناتِ المؤرِّخين وتصريحاتهم ، وإلى أي حَدٍّ تقومُ على الصِّدق والواقع ، فِمن الصعب جداً ـ بعد مُضي مدة طويلة ، وعَدم توفُّر الشواهدِ والوثائق التاريخية المعتَبرة ـ أن نَحكم عليها حُكماً قطعياً حاسماً.

ورَغم كُلِّ ذلك ما يُوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان (أورنك زيب) يدلُّنا بكل وضوح ، ويُورِث فينا الاعتماد على أنَّ السلطان كان متأثراً بالغ التأثر بحركة الإمام السَّرْهندي الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاتِه المتواصلة الصامتة لإحداث تغييرٍ أساسيٍّ في الدولة وتَحويلِ اتِّجاهها من هَدْم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعميرٍ وتمكين له ، كما كان متأثِّراً مُعجَباً غاية الإعجاب بربّانية أبنائه الكرام وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصَفاء نُفوسهم وشخصياتِهم المؤثِّرة الآخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انْسَجم مع دعوة الإمام وحَركته ، وأهدافه كُلَّ الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويُحْدِثَ تغييراتٍ عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ونفَّذ ـ لأول مرة ـ بعضَ الإصلاحات التي كانت تُؤثِّر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الأحكام الصَّريحة في الشريعة الإسلامية.

وبِغَضِّ النظر عن حياته الشَّخصية التي اتَّفق المؤرِّخون على أنه كان فيها متديِّناً متورِّعاً ، يتمسَّك بالشريعة ، ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعضِ الأمثلة التي تُلقي الضوءَ على نُبذة من حياته الدينية :

يَقولُ مُؤرِّخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدِّهْلوي:

«كانَ شهر رمضان وكانتْ تَهُب السُّموم اللاَّفحة ، وكان النهار طويلاً ، ولكنَّ السلطان يَصوم النهار ، ويَقرأُ الأورَاد ، ويَتلو القرآن ، ويحفظُه غيباً ، يَكْتُبُ ويؤلِّف ، ويُدير دَفة شؤون الدولة ، ويَقومُ بأعمالِ المحكمة والقضاء والسُّلطة ، وبعد أن يدخل «مسجد غُسل خَانَه» «مسجد الدرَّة» المعروف في داخل القلعة الحمراء فيُصلي المكتوباتِ ، والتراويح ، والنوافل حتى يَنتصف الليل ، فَيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يَهجع ويَنام ، ويُحيي بَقيَّة الليل بالقيام ويُحيي بعضَ الليالي ذاتِ الخيرات والبركات كُلّها ، وهكذا يقضي شهر رمضان» [١].

ويقـول المـؤرِّخ وهـو يَصِفُ حالَه عنـد احتضاره:

«غَلَبَتْهُ الحُمَّى في العام الواحد والخمسين من جُلوسه ، الموافق ١١١٨هـ ، والتزمَ الصلاة بالجماعة ـ رغم شدة المرض ـ أربعةَ أيام ، لِكمال تَورُّعه وتقواه ، وكان قد كَتب وَصيَّة من قبل ، أوصى فيها بأن يُنفق أربع روبيات ونصف روبية ـ وهي ما بَقي مما اكتسبَه بيده بخياطة القلانس ـ فيشتري بها ما يحتاج إليه في التكفين والتدفين ، وتوزِّع ثمانمئة وخمس روبيات ، وهي ما حصلت لي من أُجرة كتابة المصاحف على الفقراء والمساكين ، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس ، الموافق ١١١٨هـ ، صلَّى السلطان صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تَعالى النهار ، ورَحل للأبد إلى دار القرار» [٢].

ونقتصر ـ فيما يلي ـ على تِلك الأحكام والفرامين السلطانية التي تتعلَّق بتعظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذِ الأحكام الشرعية:

---

(١) تاريخ هندوستان: ج٨ ، ص ٢١٤ ، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي. (نقلاً عن «مآثر عالمكيري» وغيره).

(٢) المصدر السابق: ص ٤٦٥.

يقول المؤرِّخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ:

«أَسَّس التقويم المتَّبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على غرة «فروردي» التي تدخُل فيها الشمس برجَ الحَمل ، ويَزدهر الربيع ، وكان تاريخُ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوَضع التقويم بدءاً من شهر «فروردي» إلى شهر «إسْفَنْدَيَار»[1]، وسمَّى الشهور «شُهوراً إلْهية» ، ولما كان هذا الأمر يُشبه طريقة السلاطين عُبّادِ النار ، بدأَ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمرَ بتقديم التَّقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمرَ بإلغاء الاحتفال بمهرجان (نُوروز).

وَيعلَمُ جميعُ الناس أنَّ الشهور الهلالية تتغيَّر دائماً ، وتَحدُث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكنَّ هذا السلطان المتديّن لم يُبال بمشاكل هذا التقويم ، ونهى عن الاحتفال بمهرجان «نوروز» لتشبُّهها بطريقة عبّاد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بدايةَ تاريخ الجلوس الثاني بغُرَّة شهر رمضان وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عِيد الفطر[2].

ويذكر المؤرِّخُ وَقْفَ السلطان للدَّخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غيرِ شرعي ، فيقول:

«أمرَ السلطان بإلغاء «رَاهِدَارِي» ـ ضَريبة الطريق ـ الذي كان يُؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتُوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دَخْلُها ودخل خراج «بانداري» الذي يسمَّى «تِـهْ بَازَارِي» . . . يزيدُ على مئات الآلاف ويدخل الخِزانة السلطانية ، كما ألغى السلطانُ جميعَ الواردات التي كان دخلُها

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم.
(٢) تاريخ هندوستان: ص ٨٣ ـ ٨٤.

من الحانات والخمارات والغرامات وما يقدَّم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك ، ممَّا يبلغ الملايين من الرُّوبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة»[١].

كانتِ الحسبة مَنصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشِعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألَّف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمة ونَوعية العمل فيها كتباً بعنوان «الحسبة في الإسلام» وكانت هذه المهمة الخطيرة مهجورةً معطَّلة في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السُّنة أيضاً.

يقول المؤرِّخ: «عَيَّن السلطان الشيخ (عَوض وجيه) مُحتَسِباً ، وأمره بأن يَنهى الناس عن جميع المحرَّمات ، خاصة عن شُرب الخمور ، وتناول الحشيش وجَميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعَهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المُسيئات والمُنكرات»[٢].

ويَقول المؤرِّخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨هـ:

«كان السُّلطان يزدادُ ـ كل يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذِها ، ومُراعاةِ الأوامر الإلٰهية ، فكان يُصدر فَرامين مُفصّلة لإلغاء دخل «راهداري» و«بانداري» الذي كان يَبلُغ مِئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يَدخُل في الخِزانة السلطانية ، وكان يأمرُ بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامِن الرِّيبة والفساد»[٣].

ويَزيدُ قائلاً: «أمرَ السُّلطان بإلغاء الرَّقص والغناء ، ونَهى عن اجتماع

---

(١) تاريخ هندوستان: ٩٠، وذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب» التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية.

(٢) المصدر السابق: ص ٩٢.

(٣) المصدر السابق: ٢٧٥ ـ ٢٧٦ باختصار.

الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورُؤية طلعتِه من نافذةٍ في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المُختَرعة ، ويسمَّى «جهروكه دَرْشَن» ، وترك الجلوسَ على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية» .

كان السلاطينُ المسلمون في الهند ـ حَسْب مُعتقداتِ الهنادك وعادتِهم القديمة ـ يَثقون كثيراً بالتَّنجيم والمنجِّمين ، ويُعيِّنون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يُقرِّر المنجِّمون في ضوء عِلم التنجيم ، فقضى السلطان (عالمكير) على هذه العقيدة والعادة المتَّبعةِ ، وأهمُّ من ذلك أَن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحُكَّام والأمراء وأحكامها المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية. فعيَّن السلطان (عالمكير) قُضاةً شرعيين وأعطاهُم السلطةَ .

«الشُّعراء والمنجِّمون الذين كان لهم مكانةٌ واعتبار في الدولة ، مُنعوا من ممارسة أعمالهم خاصة في عهد السلطان (شاهجهان) ، وعُيِّن القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعثَ الأمراء وأعيان الدولة على الغِبطة والحسَد» [1] .

وتكفَّل السلطان ـ لتنفيذ القوانين الشرعية في سائر البلاد ، وتَوفير التسهيلات للقُضاة ـ بترتيبِ المسائل الفقهية ، وتَدوينها من جديد ، وكوَّن لأجل ذلك لجنـة من العلماء البارعين ليُرتِّبوا المسائل في عِبارة سهلة واضحة ترتيباً جيداً ، ويقتصروا في المسائـل على ظاهر الروايـة ، ولا يَلتفتوا إلى «النوادر» إلا عند الضرورة ، ويُحيلوا على المراجع التي يَقْتبسون منها ، وعيَّن لذلك ـ في أوائل حكمه ـ الشيخ (نظام الدين البُرهانبوري) رئيسَ هذه اللجنة ، الذي استعان بكِبار العلماء البارعين في الفقه الحنفي [2] ، وتمَّ هذا العمل

---

(١) تاريخ هندوستان: ص٢٧٧، وراجع كذلك كتاب (Aurandzeb and His) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي «أورانك زيب وعصره» الباب بعنوان (A Reformer).

(٢) راجع ترجمة«أورنك زيب عالمكير» في «نزهة الخواطر» ج٦ ، و«الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني طبع المجمع العلمي بدمشق ، وقد سرد فيه أسماء =

الضخم في ستة مجلَّدات ، وأَنفق عليه من الخزانة السلطانية مئتا ألفِ رُوبية ـ وهي تساوي الآن ملايين الرُّوبيات ـ ويُعرف هذا العمل الفقهي العظيم في الهند بـ «الفتاوى العَالَمْكِيْرِيَّة» وفي بلاد مصر والشام وتركيا بـ «الفتاوى الهندية» ، ويحتلُّ لبعض خصائصه وميِّزاته أهميةً كبيرة في كُتب الفقه والفتاوى ، وكانتِ الخُطوة الأخرى أكثرَ جَراءة وشجاعة ، فقد أذِنَ السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضدَّ السلطان ، ويُطالِبوا بالحكم طِبق الشريعة الإسلامية ، وعيَّن لذلك مُحامين شرعيين ، يقول مؤرِّخ الهند:

«أَمر السلطان عام ١٠٨٢ هـ ، بأن يُنادى في البلاد والمُدن والقُرى: من كانتْ له دعوى شرعيةٌ على السلطان ، فليحضر وليراجع وكيل السلطان ، وليأخذ حقَّه إذا ثَبتتْ دعواه ، وأمر بتَعيين المحامين والوكلاء في البلاط ، وفي المُدن القريبة والبعيدة حتى يَرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمرَه إليهم ، ويُثبِتوا عن طريقهم دعواهُم ، وَيطلبوا حقَّهم»[1].

كانتِ الآدابُ والتقاليدُ الجاهليةُ للتحية ـ التي كانت مُناقضَة صريحة للشريعة الإسلامية ، والتعظيمُ المتطرف المفرِط ـ الذي لا يَصحُّ لغير الله ـ سائداً في البلاط المغولي للسلاطين المغولية ، أمَّا التسليم فلم يكن سائداً في أوساط كثيرٍ من المشايخ والعلماء فضلاً عن الأعيان والأمراء ، وفي مُحيط البلاط الملكي ، فتناولَ السلطان هذه العادة بالإصلاح ، وأمرَ بالاقتصار على التسليم.

يَقول المؤرِّخ نفسه: «وصدر الأمر ـ في تلك الأيام ـ بأنَّ المسلمين عند

= أعضاء هذا المجمع الفقهي ، وهم من كبار علماء الهند ، فبلغ عددهم إلى عشرين عالماً.

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء الله ، وللاطلاع على تفاصيل أخرى تلقي الضوء على اتجاه عالمكير الديني يحسن مطالعة كتاب (History of Aurangzeb) للمؤرخ الهندكي الفاضل جادو ناتهركار ، وكتاب (Aurangzeb) للمؤرخ الإنجليزي المشهور استانلي لين بول.

مُقابلة السلطان ، ينبغي أن يقتَصروا على أن يَقولوا السلام عليك ، ولا يَضعوا أيديهم على رُؤوسهم مثل الكُفَّار ، ويَجب على الحُكَّام والأمراء أن يتَّبعوا ذلك مع الخاصة والعامة».

ولَقَّبتِ الأوساطُ الدينية السلطان (أَورنك زِيب) ـ بناءً على هذه الإجراءات والعواطف الإسلامية ـ «بمُحيي الدين» وكان الدكتور إقبال ـ كذلك ـ الذي يَعرف فلسفات الهند ونزعاتها ، والحرب القائمة فيها بين الشريعة و«الويدانت» والصراعَ الشديد بينهما في صيانة المستقبل للهند ، معرفة عميقة دقيقة ـ يَعدّ السلطان (أَورنك زيب) من تلك الشخصيات العديدة البارزة التي يرجعُ إليها الفضل في صيانة الدين وحماية المسلمين عن الذَّوبان في الحضارة الهندية.

وقد كان كاتبُ هذه السطور ذكر في مقالة بعنوان «ساعات مع العارِف الهندي» الذي كتبه كمذكرة لمقابلته مع الدكتور محمد إقبال يوم٢٢ نوفمبر عام ١٩٣٧م بلاهور ، والاجتماع به لمدة ساعات ، ما يلي:

«وتَطرَّق الحديثُ إلى حركة الإصلاح والتجديد في الهند ، فأَثنى الدكتور على مُجدِّد الألف الثاني الإمام السَّرهندي ، والإمام وليِّ الله الدَّهلوي ، والسلطان (محيي الدين عالمكير) ـ رحمهم الله ـ ثَناءً كثيراً ، وقال: إنَّني أقولُ دائماً إنه لولا وجود هؤلاء ، وجهودَهم الموفَّقة لَذَابَ الإسلامُ في الديانة الهندوكيَّة وحضارتِها»[1].

وقال فيـه ـ لأَجل هذا اليقين والإيمان بعَظمة شخصيته ودَوْرِه في تاريخ الهند الإسلامي ـ هذه القصيدةَ المُثيرة المؤثِّرة الرائعة ، التي أُحاوِل ترجمتها فيما يلي:

«ذاك السلطان أَورَنك زيب ذو المجد السَّامق الذُّرى الذي تتباهى به الأسرة

---

(١) [انظر الحديث الذي جرى بينهما ، ذكره العلاّمةُ الندوي في كتابـه «روائع إقبال» بعنـوان «صلتي بمحمد إقبال وشعره» ص: ١٧ـ١٨ ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م].

الكُوركانية ، وتَعتزُّ به ، علا بهِ نَجْم المسلمين ، وارتفعتْ مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عِزَّها وكرامتها ، كان السَّهم الأخير في كِنانة الإسلام للحرب الحامية بين الكفر والإيمان. تعرَّضتِ الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة ، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة التي بذَرها (أكبر) ، وسقاها ونماها ، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فِطرة دارا شكوه ، وكانتْ شموع القلوب في الصدور خامدَةً مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

هناكَ قَيَّض اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان (عالمكير) ، ذلكَ الزاهد الغيور والفارس الجسور ، الذي اجتباه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرَقَتْ صواعقُ سيُوفه المهنَّدة بيادر الكفر والزندقة ، وأضاءت شموعُ الدين في محافل المسلمين ، وتخرَّص المتخرِّصون من قِصار النظر ، وضعاف النفوس ، فحَكموا عليه بأحكام قاسية ، وقاسُوه بمقاييسهُم الزائفة [1] ، ولم يعرفوا عُمقَ مداركهِ ، وأبعاد تفكيره ، لقد كان فَراشةً مُتهافتةً على شُعل التوحيد ، وكان في بلاد الشِّرك والوثنية كإبراهيمَ في نار نمرود ، نَسيجَ وَحده في صَفِّ الملوك والسلاطين ، ومِثالاً فريداً في زُمرة الزُّهاد والناسكين» [2].

وأخيراً أَثمرتْ جُهود خليفتي الإمام السَّرْهندي الكبيرين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البَنُّوري ، وخلفائِهما الربَّانيين المخلصين العِظام ، وأصبحتْ هذه البلاد ـ تدريجياً ـ مركزاً رُوحياً وعلمياً للعالم الإسلامي الذي كانت تَغشاهُ سحب الضعف والانحطاط الفكري والعلمي في القرنين الحادي

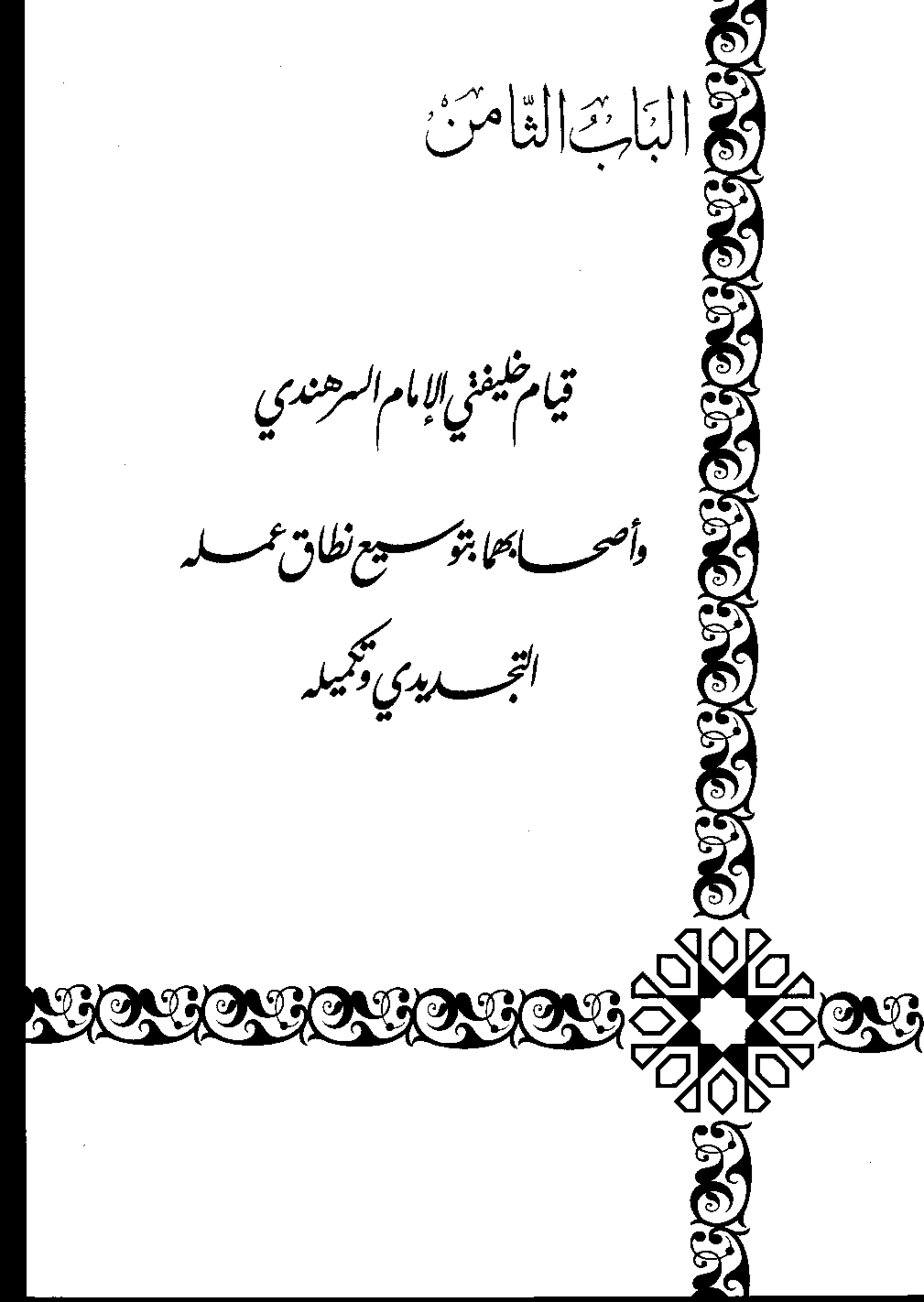
---

(١) إشارة إلى كتابات المؤرخين المغرضين من غير المسلمين ، والشائعات التي شاعت عنه في أوساط غير المحققين من المسلمين.

(٢) رموز بيخودي: الديوان الفارسي ، ص ٩٨ [انظر ترجمة هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً بعنوان «قصة السُّلطان عالمكير والأسد». في «ديوان محمد إقبال» (في الديوان الثاني المعنوَن بـ«الأسرار والرُّموز»). ج١ ، ص ٢٠٠ـ٢٠١ ، المعتني بهذا الكتاب ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

عشر والثاني عشر ، وبدأتِ الوفودُ من أقاصي العالم الإسلامي ، تتوجَّه إلى الهند لينهَلوا من مَعينها العلمي والروحي ، ويتلقَّوا التربية الدينية ، ويَقْطَعوا مَفاوز السلوك على مَشايخها الربَّانيين ، ويأخذوا الحديث الشريف على مُحدِّثيها البارعين ، وقامتْ في كل بقعة من بقاع هذه البلاد ، زَوايا روحيةٌ للطريقة المجدّدية ، ومراكزُ علمية لتعليم الكِتاب والسنَّة ، واستفاد بها القاصي والداني .

* * *



البَابُ الثّامِنُ

قيام خليفتي الإمام السرهندي وأصحابهما بتوسيع نطاق عمله التجديدي وتكميله

قيامُ خَليفتي الإمام السَّرْهندي وأصحابهما بتوسيعِ نِطاق عمله التجديدي وتكميلِه

مَشاهيرُ خُلفائه:

إنَّ استيعابَ أسماء خلفاءِ الإمامِ السَّرْهندي العظام ، وإحصاءَ مآثرهم الجليلة ، ليس أمراً ميسوراً ، فقد بلَغ عددهم الآلاف ، وتفرَّقوا في أقطار العالم يَحملون هذه الدعوةَ ، ويَنشرون هذه الحركةَ ، وقد مرَّت بنا ـ في الصفحات المتقدِّمة ـ أسماءُ عدد من كبار خُلفائه الذي بعثهم الإمام إلى بعض البلدان الخارجية ، للتَّربية والدعوة والإرشاد ، وعيَّن بعضَهم في المناطق الرئيسية الحساسة في الهند ، للقيام بهذه الخدمة العظيمة .

ونذكرُ هنا ثَبَتاً بالمشاهير من خُلفائه مرتباً على الحروف الهجائية ، ثم نَذكُر خليفتَيه الجليلين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البَنُّوري ـ بشيء من التفصيل ، ونُقَدِّم ـ بصورة إجمالية ـ نُبذة من أخبار خلفائهما الكبار ، وانتشارِ سلاسلهم ، وما قاموا به في مجال التربية والإصلاح ، وأسَّسوا من المراكز الروحية التربوية ، وما استفادَه العامة والعلماء مِنهم من فوائد العلم والتزكية والتربية .

نَستطيع أن نقدّر به ذلك القبول العظيم والانتشار الواسع الذي أحرَزَته طريقة

الإمام السَّرْهندي ، وكيف أَثمرتْ جُهوده الإصلاحية والتجديدية ، وآتت أُكلها يانعاً شهياً ، ولا يُمكن كل ذلك إلاَّ بالتأييد الربَّاني ، والإرادة الإلٰهية ، والقبولِ عند الله ـ سبحانه ـ وغايةِ الإخلاص والصفاء ، واتِّباع السنَّة النبوية والشريعة الغرَّاء.

وفيما يلي ثَبَتُ الخُلفاء المشاهير ، ويُعرَفُ منه تَنوُّع أوطانهم وأُصولِهم ويُفهم منه انتشار سلسلة الإمام في بلاد الإسلام :

١ ـ الشيخ السيد آدم البَنُّوْري .
٢ ـ الشيخ أحمد البركي .
٣ ـ الشيخ أحمد الدِّيبني .
٤ ـ الشيخ أمان الله اللاَّهُوري .
٥ ـ الشيخ بدر الدين السَّرهندي .
٦ ـ الشيخ بديع الدين السَّهَارَنْبُوري .
٧ ـ الشيخ حَسن البركي .
٨ ـ الشيخ حميد البَنْغالي .
٩ ـ الحاج خضر خان الأفغاني .
١٠ ـ الشيخ مِير صغير أحمد الرُّومي .
١١ ـ الشيخ طاهر البَدْخَشِي .
١٢ ـ الشيخ طاهر اللاَّهُوري .
١٣ ـ الشيخ خواجه عُبيد الله المعروف بخَوَاجه كَلاَن .
١٤ ـ الشيخ خواجه عبد الله المعروف بخواجه خُوْرَد .
١٥ ـ الشيخ عبد الحيّ الحصاري .
١٦ ـ الشيخ عبد الواحد اللاَّهُوري .
١٧ ـ الشيخ عبد الهادي الفَاروقي البَدَايُونِي .
١٨ ـ الشيخ فرّخ حسين الهَرَوِي .
١٩ ـ الشيخ قاسم علي .

٢٠ ـ الشيخ كريم الدين بابا حسن الأَبْدَالِي .
٢١ ـ الشيخ السيد محب الله المَانكْبُوري .
٢٢ ـ الشيخ محمد صادق الكابُلِي .
٢٣ ـ الشيخ محمدصالح الكَوْلابي .
٢٤ ـ الشيخ محمد صدّيق الكشمري .
٢٥ ـ الشيخ مزمّل .
٢٦ ـ الشيخ الحافظ محمود اللاَّهُوري .
٢٧ ـ الشيخ نور محمد الفَتَّني .
٢٨ ـ الشيخ يار محمد الجديد البَدْخَشي الطَّالِقاني .
٢٩ ـ الشيخ يار محمد القديم .
٣٠ ـ الشيخ يوسف البركي .
٣١ ـ الشيخ يُوسف السَّمرقندي .

الشيخ محمد مَعصوم السَّرْهندي [(١)]

الشيخُ الإمامُ العالم الكبير معصومُ بنُ أحمدَ بنِ عبد الأحد العدوي العُمري الشيخ محمد معصوم النقشبنديّ السَّرهندي ، كان أحبَّ أولاد أبيه ، وأشبَهَهم سَمْتاً به ، وأَقربَهم منزلةً إليه ، وأتبَعهم لسِيرته ، وأخصَّهم بمعارفه ، وأبعَدَهم صِيتاً بين الناس ، وأنفَعَهُم لهم .

وُلد لإحدى عشرةَ خلونَ من شوال سنة سبعٍ أو تسع بعد الألف ، وقرأ بعض الكتب الدراسية على صِنوه الكبير محمد صادق ، وأكثرَها على والده ، وعلى الشيخ محمد طاهر اللاَّهوري ، ولازم أباه ، وأخذ عنه الطريقة ، وحفظ القرآن في ثلاثة أشهر .

وحالُه في تحصيل نسبة والده كحال صدر الشريعة صاحب «شرح الوقاية»

---

(١) هذه الترجمةُ للشيخ محمد معصوم ، التي جاءت فيها معظم الجوانب المهمة من حياته ، مقتبسة من «نزهة الخواطر» ج٥ ، بتعديل يسير .

حيث كان يَحفَظُ ما يؤلِّفه جَدُّه بلا تأخير ، ولذلك بلَغ رُتبة لم يصلْ إليها أحد من أصحاب والده ، فبشَّرهُ والدُه بمقامات عالية .

ولما تُوفِّي أبوه ، جلس على مسند الإرشاد وسافرَ إلى الحرمين الشريفين فحجَّ وزار ، وأقام بالمدينة المنورة زماناً صالحاً ، ثم رَجع إلى الهند وصَرف عُمره في الدرس والإفادة ، وكان أكثرُ اشتغاله تدريساً بـ «تفسير البيضاوي» ، و«المشكاة» ، و«الهداية» ، و«العضدي» ، و«التلويح» .

قال الشيخ مُراد بن عبد الله القزَّاني في «ذي الرشحات» «إنه كان آيةً من آياتِ الله مثلَ والده الماجد ، قد نَوَّر العالم ، وبَدَّد ظلماتِ الجهل والبِدَع بيُمن توجُّهاته العليّة ، وأحواله السَّنيَّة ، محرماً للأسرار الخفية .

وصاحبه ألوفٌ من الرجال وتحقَّقوا بالحالات السَّنية بشرف صُحبته العلية ، حتى قيل : إن جميع من بايعه في الطريقة تسعُمئة ألفٍ ، وعدد خلفائه سبعةُ آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخاري كان أعظَم مشائخ خراسان وما وراء النهر في زمانه ، وقد نُوِّرت بخارى بنور السُّنَّة بعد ما غَشِيتها ظُلمة البدعة ، وشَرّف بالخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال» ، انتهى .

وللشيخ معصوم مكاتيبُ في ثلاثةِ مجلَّدات مثلَ مكاتيب والده متضمنةٌ لغوامض الأسرار واللطائف ، أكثرُها يحل مُغلَقات معارِف والده المرحوم .

تُوفِّي في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألفٍ بمدينة سَرْهند ، فدُفن بها .

الشَّيخ آدم البَنُّوري [1]

الشيخ العارف الولي الكبير آدمُ بنُ إسماعيلَ بن بهوه بن يوسف بن يعقوب ابنِ الحسين الحسيني الكاظمي البَنُّوري ، أحدُ كبار المشائخ النقشبندية بُشِّر به

(١) مقتبس من «نزهة الخواطر» ج٥ ، بتعديل يسير .

والده في رؤيا صالحة ، بشَّره بذلك النبي ﷺ ، وُلد ونشأ بقرية «بَـنُّور» بفتح الموحدة وتشديد النون من أعمال سَرْهند ، وأخذ الطريقةَ عن الحاج خضر الرُّوغاني أحد أصحاب الشيخ أحمدَ بن عبد الأحد العُمري السَّرْهندي، بمدينة (مُلْتَان)، ولازَمه شهرين كاملين ، ثم قَدِم سَرْهند بأمره ، ولازم الشيخ أحمدَ المذكورَ مُـدَّة من الزمان ، وأخذ عنه .

وقد ذُكر في «خلاصة المعارف» أنَّه حصلت له نفحةُ الجذَبات الربانية عن الشيخ محمد طاهر اللاَّهوري بحقٍّ ما وصل إليه عن الشيخ (إسكندر) عن (جَده كمال الدين الكيتَهلي) ، وبالجُملة فإنَّه بلغ رُتبة لم يصلْ إليها كثير ممن عاصره من المشائخ ، وكانتْ طريقتُه اتباعَ الشريعة المحمدية واقتفاءَ آثار السنَّة السَّنيّة لا ينصرف عنها قَدْر شعرة في الأقوال ، ولا في الأفعال .

أخذَ عَنه خَلْقٌ كثير حتى قيل إن أربعمئة ألف مسلم بايعوه ، ثم ألفَ رجلٍ منهم نالوا عنه حظاً وافراً من العِلم والمعرفة ، وقيل إنَّ زاويته قلَّما كانت تخلو عن ألف رجلٍ كل يوم ، وكُلُّهم كانوا يأكلون الطعام من مَطبخه ويستفيدون منه .

وفي «التَّذكرة الآدمية» أنَّه سار إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف ، وكـان معـه عشـرةُ آلاف مـن السَّادة والمشـائـخ ، ومِـن كُـلِّ طبقـة ، وكـان (شاهجهان بن جهانكير) سلطانُ الهند بلاهورُ في ذلك الزمان ، فاستعظَمه وأمرَ سعد الله خان أن يَذهب إليه ، فجاء سعدُ الله خان ، وتكدَّرت صُحبته بالشيخ ، فسعى إلى السلطان بالوِشاية ، فأمرَ السُّلطان أن يُسافِر الشيخ إلى الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً ، فسافرَ معه أصحابُه وعشيرته فحجَّ وسكَن بالمدينة المنوَّرة حتى ماتَ بها» انتهى .

وللشيخ آدمَ رسائلُ في الحقائق والمعارف ، منها «خُلاصة المعارف» في مجلدين بالفارسية ، أوله : «الحمدُ لله رب العالمين حمداً كثيراً بقَدر كمالات أسمائه وآلائه . . . الخ» ومنها «نُكات الأسرار» .

وكان الشيخُ آدم أُمِّياً ما قرأ شيئاً من الكُتب على أهل العلم .

مات لِسَبْعٍ بَقِين من شوال سنة ثلاثٍ وخمسين وألفٍ بالمدينة المنوَّرة ، فدُفن ببقيع الغَرْقد عند قُبة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

السِّلسِلةُ المجدّدية المَعصومية ومشايخها الكبار:

نذكر ـ أولاً وبصورة إجمالية ـ نُبذة من حياة المشايخ الكبار في سلسلة الشيخ محمد معصوم ، لعلَّنا نستطيع أن نُدرك بها ما أحرزوا من القبول والإعجاب ، وتَهافُت الناسِ عليهم تَهافُتَ الفَراشِ على النور ، وسَعةَ حَلقتهم للتدريس والإفادة والتربية والإفاضة ، وكثرةَ وفُود الطالبين والمسترشدين ، وتأثيرهم الواسع العميق في المجتمع الإسلامي المعاصر وحياةِ المسلمين ـ بصفة عامة ـ وينبغي للاطلاع على تراجمهم المفصَّلة الرجوعُ إلى الكتب التي أُلِّفت في حياتهم ـ بصفة مستقلة ـ أو كُتب السِّير والتراجِم العامَّة التي تقدم ذكرها إجمالاً .

أمَّا ما يتعلق بالهند ، فيكفي إلقاءُ نَظْرة على الأجزاء: الخامس ، والسادس ، والسابع ، من كتاب العلامة السيد عبدِ الحي الحسني الشهير «نزهة الخواطر» .

الشَّيخ سَيفُ الدِّين السَّرهندي:

انتشرتْ طريقةُ الشيخ محمد معصوم ، وحقَّقتْ أهدافَ الإمام السرهندي ـ مؤسس هذه الطريقة ـ ومقاصدَه التي تشتملُ على تجديد الصلة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وَالدَّعوة إلى اتباع السنة ، ونَبْذِ البِدع والمنكرات ، وبلغتْ ذُروة الرُّقي والكمال على يد الشيخ (سيف الدين بن الشيخ محمد معصوم) وخليفتِه الراشد (١٠٤٩ ـ ١٠٩٦هـ) الذي اختار بَلْدة دهلي للإقامة بأمر والدِه فصار مرجعاً للطالبين ، ومجمعاً للسالكين ، وتأسَّستْ على يديه تلك الزاوية العامرة التي أصبحت في عهد الشيخ المرزا مظهر (جَانِ جَانَان) ، والشيخ غلام علي مركزاً عالمياً رُوحياً للتربية والإفاضة ، واستنارتْ بها أرجاء أفغانستان

وتُركستان في جانب ، وأضاءتِ العراقَ والشامَ في جانب آخر ، وصدقَ قَولُ الشاعر الذي وصف الشيخ محمد معصوم بما معناه :

«الشيخُ محمد معصوم سِراجٌ يُضيء الممالك والبلاد ، استنارتْ به الآفاقُ من الهند إلى الروم» .

وتَلَقَّى السلطان (أورنك زيب) التربيَة الرُّوحيَة على يد الشيخ (سيف الدين) ، ويُذكر في كُتب التاريخ دخولُ الشيخ سيف الدين في قصر السلطان ، وإنكارُه على الصُّوَرِ المنحوتة في الجدران ، وانقيادُ السلطان له ، وأمرُه ـ مباشرةً ـ بإزالة هذه الصُّوَر [1] ، وأخبر الشيخُ سيفُ الدين والدَه بهذه الحادثة في رسالة إليه ، فوجَّه والدُه الشيخ محمد معصوم رسالةً إلى السلطان ، وأبدى فيها سروره ، يقول فيها :

«إنَّها لنِعمةٌ عظيمةٌ أن يَسمع السلطان ـ رُغْمَ أُبَّهته وشوكتِه وحِشمته ـ كلمةَ الحق ويَنصاع لها ، ويُـؤثِّر فيه قولُ مِسكين فقير» [2] .

كما أخبر الشيخُ سيف الدين والدَه بظهور آثار الذِّكر على السلطان ، وقَطْعِه المسافاتِ الطويلة في «السلوك» ، فكتَب إليه والدُه الشيخ محمد معصوم في سرور وارتياح وغِبطة ، يقول :

«ما ذكرتَه من أحوال السلطان الحامي لذِمار الإسلام ، مثلُ سَرَيان الذكر في اللطائِف ، وحصولُه على «سلطان الأذكار» و«الرابطة القلبية» وقِلة الوساوس والخطَرات ، وتقبُّله الحسنُ لكلمَة الحق ، وإزالةُ بعض المنكرات وزوال «لوازم الطلب» انكشفَ لي كل ذلك برسالتكَ غاية الانكشاف ، فيَجبُ علينا أن

---

(١) ذيل الرشحات : للشيخ محمد مراد القزاني ، ص ٤٨ ، المطبعة الميرية بمكة المحمية ١٣٠٠ هـ.

(٢) رسائل الشيخ محمد معصوم ج٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٧ .

نحمد الله ـ عز وجل ـ على ذلك ، فإنَّ هذه الصفات شاذَّةٌ نادرة في طبقة السلاطين» (١) .

وداومَ السلطانُ على الاتصال به روحياً وتربوياً ، فقد ذكر مؤلف «مآثر عالمكيري» محمد ساقي مستعد خان في وقائع يوم ١٣ محرم العام الثاني عشر للجُلوس الموافق لعام ١٠٨٠هـ ، أنَّ السلطان ذهب بعد ما مضى هزيعٌ من الليل إلى بيت الشيخ سيف الدين من البُستان الذي كان فيه ، وجلس عنده ساعة ، يَستفيدُ بصُحبته المباركة وكلماته الطيبة النافعة ، وأبدَى له إجلاله واحترامه ، ورَفع شأنَه ، ثم رجع إلى قصره (٢) .

قال الشَّيخُ مُراد بن عبدِ الله القزاني في «ذيل الرشحات» :

«كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رُتبةٍ لم يكن عليها شيخٌ من المشايخ مثله ، حتى كادتِ البدع ترتفع عن بِلاد الهند في زَمنه وتُستأصل ، ولذلك لقَّبه والده بمُحتَسِب الأمة ، وكان صاحبَ جذْب قويٍّ ، وتصرُّف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوَّة تَوجُّهاته ، ويَبقون بلا اختيارٍ في يده» .

وكانتْ له شوكةٌ ظاهرة حتى كان السلاطين والأمراء يقومون على أَرْجُلِهم بالأَدبِ التام بين يديه ، ولا يَتجاسرون على القُعود أمامه ، وكان يأكُل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمئة رجل مرَّتين مما يُوافِق طَبعه ، وترغب فيه نفسه» (٣) .

وخَلَف الشيخَ سيفَ الدين السيدُ نُور محمد البَدَايُوْني (المتوفى سنة ١١٣٥ هـ) الذي عَمَّر هذه الزاوية ، ونوَّرها بنور الشريعة المحمدية ، ثم خَلفه الشيخُ (مِرزا مَظهر جَان جَانَان) ، الذي ازدادتْ به هذه الزاوية بَهاءً ونُوراً.

---

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم: ج٣ ، الرسالة رقم: ٢٢٠ .

(٢) مآثر عالمكيري: قام بنشره مجمع بنغال الآسيوي» (Bengal Asiatic Society).

(٣) انظر «نزهة الخواطر» ج٦ ، نقلاً من «ذيل الرشحات» ص ٤٨ ـ ٤٩ .

مِن الشيخ مُحمَّد زُبير إلى الشيخ فضل رحمن الكَنج مُراد آبادي:

وكان الابنُ الثاني للشيخ محمد معصوم هو الشَّيخُ محمد نقشبند (م ١٠٣٤ ـ ١١١٤ هـ) الذي اشتُهر بحُجَّة الله نقشبند ، استخلفه الشيخ محمد معصوم وأجازه ، فانصرفَ ـ بعد وفاته ـ إلى التربية والإرشاد ، انصرافاً كلياً.

وكان من خُلفائه الشيخ محمد زُبير بن أبي العلاء بنِ الشيخ محمد معصوم (م ١١٥١ هـ) حصل له مِنْ رجوع الناس إليه ، وتَقاطرهم عليه من كل حَدْب وصَوْب ما لم يحصل لغيره في عَصْره إلا نادراً ، وإذا خرج يعود مريضاً أو يُلَبِّي دعوة ، تَبِعَهُ الملوك والأمراء فيُظَنُّ أنه موكب السلطان [١].

خَلَفه في الدعوة والإرشاد الأعلامُ من الرجال ، اشتُهر منهم ثلاثة: الشيخ (ضياء الله) ، الذي خلَفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخُ (محمد ناصر عندليب) ، الذي خلَفه ابنُه الشاعر العارف (مِيْرَدْرد الدِّهلوي) ، والشيخ (عبد العدل) ، الذي كان من خُلفائه الشيخ عبد القادر الدِّهلوي ، أول مُترجم لمعاني القرآن الكريم بالأردية لسانِ مُسلمي الهند ، وابنُ الإمام حكيمِ الإسلام (وليِّ الله الدِّهلوي).

وكان الشيخُ (ضياء الله) من أَجِلَّة المشايخ ، وصاحب الصلة القوية مع الله ، حتى كان الشيخ غلام علي يقول: مَنْ لَمْ يشهدِ النسبة المجدِّدية فلينظر إلى الشيخ ضياءِ الله [٢].

ورُزِق خليفتُه الشيخ محمد آفاق (١١٠٦ ـ ١١٥١ هـ) قَبولاً عظيماً ، وطبَّق صيته الآفاق ، فاستفاض به الناس من دهلي إلى كابُل ، ولما سافر إلى أفغانستان بايعه زَمان (شاهْ مَلِك) (كابُل) وَخلْقٌ كثير [٣].

---

(١) در المعارف: مجموعة أقوال الشيخ غلام علي ، وانظر «نزهة الخواطر» ج٦.

(٢) المصدر السابق: ص ١٦.

(٣) انظر «نزهة الخواطر»: ج٧.

وكان خليفة الشيخ محمد آفاق: الشيخ فضل رحمن الكَنج مراد آبادي ، الذي عمَّر الهند وأضاءها ـ لا سيما المنطقة الشمالية منها ـ برُوحانيته وطَهارةِ أنفاسه ، وحَرارة حُبِّه ولوعته ، وزُهده في زخارف الدنيا ، واتِّباعه للشريعة الغرَّاء ، واشتغالِه بتدريس الحديث الشريف ، وتمسُّكه بالسُّنة في دقيق وجليل ، أكثرَ من نصف قرن من الزمان ، وبتعبيرٍ دقيق «قامتْ سُوق الحبّ الإلهي ونَفقت نَفاقاً عظيماً».

ويقول مُؤرِّخ الهند ومُترجِم رجالها ، المعروفُ بأمانته العلمية ، وَسَعة نظره وتحرِّيه للدقة وعدم المبالغة ، العلامةُ السيد عبد الحي الحسني مؤلِّف «نزهة الخواطر» في ترجمته الحافلة الجميلة في كتاب «نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر»(١):

«الشيخُ العلاَّمة المحدِّث المُسنِد المعمَّر صاحبُ المقامات العلية ، والكراماتِ المشرقة الجليَّة شرفُ الإسلام فضل رحمن بن أهل اللهِ بن محمد فياض بن بركةِ الله بنِ عبد القادر بن سعد الله بنِ نور اللهِ المعروف بنور محمد بنِ عبد اللطيف بن عبد الرحيم بن محمد الصِّديقي الملانوي ثم المُراد آبادي ، كان من العلماء الرَّبانيين.

وُلد سنة ثمان ومئتين وألف ، بملاَّ نوان ـ بتشديد اللام ـ وقرأ العلم على مولانا نُور بن أنوار الأنصاري اللَّكهنوي وعلى غيره من العلماء ، ثم سافر إلى دهلي بصحبة الشيخ حسن علي اللكهنوي المحدث ، فأدركَ بها الشيخ عبد العزيز بنَ ولي الله والشيخ غُلام علي ، والشيخ محمد آفاق وغيرهم من كبار المشايخ ، وأخذ الحديث المُسَلسل بالمحبة عن الشيخ عبدِ العزيز المذكور ، وسمع منه شَطراً من صحيح البخاري ، ثم رجع إلى بلدته ولَبثَ

---

(١) [قد طُبع هذا الكتاب النفيس ـ كما ذكرنا في ترجمة المؤلِّف في الجزء الأول ـ منقَّحاً ومصحَّحاً في ثلاث مجلَّداتٍ ، في دار ابن حزم ببيروت ، بعنوان «الإعلام بمَن في تاريخ الهند من الأعلام»].

بُرهة من الزمان ، ثم سافر إلى دهلي بعد ما توفي الشيخ عبد العزيز ، فلازم سِبطَه الشيخَ إسحاق بن محمد أفضل العُمري ، وقرأ عليه الصِّحاح الستة.

وأخذ الطريقَة عن الشيخ محمد آفاق النقشبندي الدِّهلوي ، صَحِبه مُدة ، حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بلدتِه وأقام بها زماناً.

ولمَّا تُوفِّيت أمُّ عياله انتقل إلى (مُرَاد آباد) على أربعة أميال من (ملاّنوان) ، وتزوَّج بها وسكن ، ولكنّه كان في ذلك الزمان يؤثر السفر على الإقامة ، فربما يسير إلى (لكهنؤ) و(كَانْبُور) و(بَنَارَس وقَنُّوْج) وغيرِها من البلاد ، وربما يَشتغل بتصحيح المصاحف في دُور الطباعة ، ويَشتغل بتدريس الحديث الشريف.

ثم لمَّا كَبِرَ سنُّـه ترك السفر واعتزل بمراد آباد ، فتَهافتَ عليه الناس تهافُتَ الظمآن على الماء ، وتواترتْ عليه التحف والهدايا ، وخَضع له الوجهاء وسُراة الناس يأتون إليه من كل فج عميق ومَرمىً سحيق ، حتى صار عَلَماً مفرَداً في الديار الهندية ، ورُزق من حسن القبول ما لم يُرزق أحدٌ من المشائخ في عصره.

وكان أكبرَ منْ رأيتُ وأعلَمهم بهدي النبيﷺ ، ودَلّه وسَمْته ، لا يتجاوز عنه في أمر من الأمور مع العَفاف والقناعة ، والاستغناء والسخاوة ، والكَرم والزُّهد ، لا يَدّخر مالاً ، ولا يخاف عوزاً ، تَحصُل له الألوف من النقود فيفرِّقها على الناس في ذلك اليوم ، حتى كانَ لا يبيتُ ليلة وفي بيتِه درهمٌ أو دينارٌ، وكان لا يُحسِنُ الملبس والمأكل ، ولا يَلبس لبس المتفقِّهة من العمامة والطَّيلسان فَضلاً عن تكبير العمامة وتَطويل الأكمام ، ولا يَهابُ أحداً في قول الحق ، وكلمةِ الصدق ، ولو كان جبَّاراً عَنيداً ، قد انتهتْ إليه الإمامة في العلم والعَملِ والزُّهد والورع ، والشجاعة والكرم ، والجلالة والمهابة ، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع حُسن القصد والإخلاص ، والابتهالِ إلى الله تعالى ، ودَوامِ المراقبة له والدعاء إليه ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق ، والإحسانِ إليهم ، فإن حَلفْتُ بين الركن والمقام أني ما رأيت في العَالم أكرَم منـه ، ولا أفـرغَ منه عن الدينـار والدرهـم ، ولا أطـوَع منه للكتاب والسنَّـة

ما حَنَثْتُ ، وأنّي ما رأيتُ أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منه .

وكان رَبْع القامة ، نَقيَّ اللون ، عظيمَ الهامةِ ، مُرسل اللحية قصيرها، يُصلّي بالناسِ في المسجد ، يسكُنُ في حُجرة بفنائه ، ويسعى مع أصحابه في مصالحهم ، وَملبُوسه كآحاد الناس ، يُدرِّس القرآن الحكيم والحديث الشريف قبل الظهيرة ، وبعدَ الظهر وبعد العصر في أغلب الأوقات ، سمعتُ منه المُسلسل بالأولية والمُسَلسَل بالمحبَّة ، وشطراً من «صحيح البخاري» ، كان يقرأ رضي الله عنه ويتكلَّم في أثناء القراءة على الأحاديث .

وأمَّا كُشوفه وكراماته فلا تسأل عن ذلك ، فإنَّها بلغت حدَّ التواتر ، وإني ما وَجدتُ في الأولياء السالفين من يكونُ مِثله غير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه .

تُوفِّي لثمانٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة وألفٍ بمراد آباد فدفن بمقبرة مراد خان» [1] .

الشّيخ مِرزا مَظهر جان جانان والشيخُ غُلام علي:

كان الشيخ مرزا جان جانان ، الشهيد (١١١ ـ ١١٩٥هـ) خليفة السيد نور محمد البدايوني الذي بقي ٣٥ سنة يُشعل بحرارة أنفاسه مجامرَ القلوب ، وينوّر بإشراقه الأرواحَ والنفوس ، وأقام سُوق الحبِّ لله بدهلي العاصمة ، يَقولُ عنه العالِم الكبير ، ومعاصره الناقد البصير الإمام (وليُّ الله الدَّهلوي) :

«لا تَخفى عليّ أخبارُ رجال الهند وسِيَرُهم، فقد وُلدتُ هنا، وعِشت، وزُرتُ البلدان العربية ، وقُمتُ فيها برحلات وجولات ، وسَمِعْتُ أحوال رجال أفغانستان وإيران من أهلها الثقات ، وتوصَّلت بعد كل ذلك إلى أنه لا يوجد في أي بلد من هذه البلدان مُربٌّ روحيٌّ يُضاهِيه في اتباعه للكتاب والسنَّة، وتمسُّكه بهما، واستقامته على جادة الشريعة والطريقة ، ويُساويه في

(١) نزهة الخواطر: ج٨ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

علوِّ كعبه في إرشاد الطالبين وتربية السالكين ، وفي قُوةِ تأثيره ، في عصرنا هذا ، يمكن ـ من غير شكٍّ ـ أن يكونَ أمثاله في القرون الماضية ، وفي الأولياء المتقدِّمين ، بل الواقع أنه لا يوجد أمثاله في كل عَصرٍ ، إلاَّ في عَدد قليل ، فضلاً عن هذا العَصْر الذي عمَّ فيه الفسادُ وشَمِل البلاد والعباد» [١] .

* * *

وخَلفَه ـ في تربيته وإرشاده ـ نَوابغُ العلماء وأَعلام المشايخ [٢] ، كالشيخ نَعيم الله البَهْرَائِجِي (١١٥٣ ـ ١٢١٨هـ) والشيخِ القاضي ثَناءِ الله الباني بَتّي (م١٢٢٥هـ) بيهقيُّ عصرِه (كما لقبه بذلك مُسنِد الهند الشيخ عبد العزيز الدِّهلوي) ومؤلِّف «التفسير المظهري» و«ما لا بدَّ منه» ، والشيخُ غلام يحيى البِهاري (١١٨٠هـ) .

ولكن قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنَشر طريقته ، بل الطَّريقة المجدّدية وتبليغِها على النطاق العالمي الواسع خليفَته الشيخ (غلام علي البتالوي) [٣] (١١٥٦ ـ ١٢٤٠هـ) الذي يَستَحِقّ أن يُدعى بمجدِّد الطريقة المجددية ، بل مجدِّدِ علم السلوك والإحسان والتزكية ـ الذي يُعرف بعلم التصوف ـ في القَرنِ الثالث عشر الهجري ، الذي قَصده الطالبون من البلاد العربية والعَجمية ، وتهافتوا عليه تهافُت الفراش على النور ، ولم تبق مدينة من مُدن الهند ، إلا وتَشرَّفت بخليفةٍ من خلفائه ، وكان في مدينة «أَنْبَالَة» وحدها خمسونَ شيخاً مُرشداً من خلفائه ، يقول السر السَّيد أحمد خان الدِّهلوي مُؤسِّس جامعة عَلِيْكَرَة الإسلامية [٤]، وقد أدرك آخر أيام حياته في كتابه «آثار الصناديد» :

---

(١) كلمات طيبات : ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) وقد جاء في كتاب «مقامات مظهري» ص ٦٤ أسماء ٤٣ شخصاً من خلفائه .

(٣) كان اسمه عبد الله ، ولكنه اشتهر باسم الشيخ غلام علي .

(٤) [وهي منسوبة إلى مدينة «عليّ كَرَة» لا إلى سيِّدنا علي بن أبي طالب ـرضي الله عنهـ اختصاراً لـ«عليّ كرَّم الله وجهه» كما اشتهر ، ومعنى «كَرَة» في اللغة : السنسكريتية : القلعة ، أو الحصار] .

«شاهدتُ بأُم عيني في زاويته رجالاً من الروم والشام، وبغداد ومصر، والصين والحبشة ، وفَدُوا عليه وبَايعوه ، ورأَوا خدمة هذه الزاوية سعادَة العُمر وحَسنَة الدَّهر ، أما البُلدان والمدن القريبة مثل الهند وبنجاب وأفغانستان ، فلا تسألْ عن أهلها ، الذين قَصدوه كالجراد المنتشر ، وكان يَسكُن في زاويته زهاء خمسمئةٍ من الطالبين المُنقطعين إلى التربيةِ والتزكية ، وكان الشيخ مُتكفِّلاً بطعامهم وملابسهم» [١] .

ويَذكر الشيخ رؤوف أحمد المجدِّدي في كتابه «در المعارف» فهرسَ القُرى والمدنِ والبُلدان التي يَنتمي إليها المُحتشِدون من أنحاء مختلفة في هذه الزاوية ، وذلك في يوم ٢٨ جمادى الأولى عام ١٢٣١هـ ، واقرأ ـ فيما يلي ـ هذا الفهرس :

«سَمرقند، بُخارى، غَزنين، حَصار ، قَندهار ، كَابُل ، بَشَاوَر ، كشمير ، مُلْتان ، لاَهور ، سَرْهند ، أمْرَوْهَهْ ، سَنْبَهل ، رامْبور ، بَرِيلي ، لكهنؤ ، جَائِس ، بَهْرَائِج ، كوكخبور ، عَظيم آباد ، دَهاكه ، حَيدَر آبادَ ، بُونا ، وغيرها من المدنَ والقرى» [٢] .

الشَّيخ خَالد الرُّومي [٣]

وقدَّر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تنتشرَ سلسلة الشيخ غلام علي وطريقته ، ويمتد رواقها على العراق والشام وتركيا ، بالشيخ (خالد الرُّومي الشَّهرزوري) ، أحدِ الفضلاء الأكراد ، الذي بَلغه صِيتُ الشيخ غُلام علي وإرشادُه وتربيته في بلاده ، فشدَّ رَحله في شوقٍ وحنين واضطراب ، وقَطع المفاوز والمسافاتِ الشاسعة ، حتى وَصل في مُدة عامٍ كامل إلى دهلي ، فألقى رَحْله في زاويته

(١) آثار الصناديد: الباب الرابع.
(٢) در المعارف: ص ١٠٦ .
(٣) [وهو يُعرف في البلاد الشامية بالشيخ خالد النقشبندي ، وقبره معروفٌ في جبل قاسيون].

ولزمها إلى أن أكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعدَ التربية والسلوك ، بالإجازة والخلافة ، وقد كانَ من انقطاعه الكامل إلى الاشتغالِ بتزكية نفسِه أثناء إقامته ، أنَّ العلماء والمشايخ من أهل دهلي الذين كانوا يَسمعون ـ من أعوام وسنين ـ أخبارَ فضْله ونبوغه ، وسُمو منزلته ، يأتون لزيارته ، ويقول لهم :

«لا يَستطيعُ الفقيرُ أن يَلتفتَ إلى شيء آخر غيرَ هَدفِه المنشود الذي جاء لأجله» .

ولمَّا رجع إلى بلاده تهافتَ عليه الناس من كل صَوب وحَدب ، وقصدوه زُرافاتٍ ووُحداناً ، ورُزق من القبول ورُجوع الطالبين ما يَندُر نظيره ، يقول الشيخ رؤوف أحمد المجدِّدي في «در المعارف» في مذكرة يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٢٣١ هـ :

«حضر شَيخٌ مغربي متجَشِّماً عناء السفر الطويل في هذه المسافة الشاسعة البعيدة عندما سَمِعَ بذكر شيخنا الجليل ، ولقي في الطريق ببغداد الشيخ خالد الرومي ، فذكر من حال قبولِه العظيم ورجوع الناس إليه ، وقال إنه بايعه ، وتاب على يديه زهاء مئة ألف شخص ، وانخرطوا في سِلك مريديه ، كما بايعه ألفٌ من العلماء المُتبحِّرين ، الذين يَمثلُون لدى الشيخ في إجلال واحترام» [(١)] .

ويقول الشيخُ خالد الروميُّ نفسُه في رسالة كتبها إلى الشيخ أبي سعيد ـ تحدثاً بالنعمة وشكراً على آلاء الله ـ :

«جميعُ بلاد الروم والعرب والحجاز والعراق ، وبعض بلاد العجم وجميعُ كردستان متأثرةٌ تأثُّراً عميقاً بالطريقة النَّقشبندية العالية، وبركاتِها ، ويتذاكر الناسُ ـ صغارُهم وكبارهم ـ في مجالسهم ومحافلهم ، ومساجدِهم ومدارسهم ـ صباح ومساء ـ محاسن الإمام الرَّباني مجدِّد الألف الثاني ومنوره ، ومآثِرَه وفضائله، فهو حديثُ المجالس والنوادي ، وما كنا نتوقع ـ في أي بلد وفي أي

---

(١) در المعارف: ص ١٧٠ .

عصر ـ أن تُشَنَّف سمعَ الزمان هذه الألحان ، أو تشهد السماءُ هذه الرغبة ، والشوق والاجتماع ، وإنْ كان الحديث عن هذه الأمور يحمل نوعاً من الجَراءة والإعجاب بالنفس ، والفقيرُ خجلان ، ولكنه أقدم على بيان ذلك ، مُراعاةً لحقِّ الأحباب والأصدقاء».

كان العلاَّمة ابن عابدين المعروف بالعلامة الشامي مؤلِّف «رَد المحتار شرح الدُّر المختار» تلميذَ الشيخ خالد الرومي ، تربَّى على يديه ، وألَّف رسالة مستقلة عنه بعنوان «سلّ الحُسام الهندي لِنُصرة مولانا خالد النقشبندي» وهي في الحقيقة ردٌّ على كتاب ألَّفه بعض الحاسدين الكائدين ، في معارضة الشيخ خالد الرومي وتضلِيلِه ، وتناولَ في آخر الرسالة ترجمةَ حياته ـ بإيجاز ـ.

الشَّيخُ أَحمد سعيد وخُلفاؤه:

كان خليفةُ الشيخ غلام علي الحقيقيُّ ـ الذي نشر طريقته في الآفاق ـ الشيخ أحمد سعيد بن الشيخ أبي سعيد (١٢١٧ ـ ١٢٧٧هـ) [١] ، الذي كان سَليل الأسرة المجدّدية الذي تلقى التربية في أحضان الشيخ (غلام علي) وازدانت به ـ بعد وفاة والده عام ١٢٥٠هـ ـ زاويةُ الشيخ (غلام علي) ، والشيخ مرزا مظهر (جان جانان) ، وقضى ٢٣ سنة كاملة ـ من ١٢٥٠ إلى ١٢٧٣هـ ـ في الجُهود المتواصلة لنَشر الطريقة المجدّدية ، واضطر في هذا العام نفسه ـ الموافق ١٨٥٧م أن يُغادر الهند ويودِّع زاوية آبائه الميامين ، فغادر (دهلي) في شهر محرم الحرام عام ١٢٧٤هـ ، ووَصل (مكة المكرمة) في شهر شوال ١٢٧٤هـ ، ثم اختار السُّكنى الدائمة بالمدينة المنورةَ ، وعاش عامين ، حتى وافاه الأجلُ المحتوم ، فدُفن بها ، وتهافَت المِئات من العرب والأتراك عليه ـ في هذه المدة القليلة ـ للبَيعة والتوبة على يديه ، حتى قال أحد شاهدي العيان : «لو مُدَّ

(١) راجع لترجمته المفصلة «نزهة الخواطر» ، ج٧.

في أجله واستمرتْ هذه السلسلة للبَيعة لبلغ عدد تلامذته ومريديه مئات الألوف من الناس» [١].

ويتعذَّر استقصاءُ خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، فقد ذكر عددهم في «المناقب الأحمدية» [٢] ثمانين.

وانتشرتْ طريقتُه في الهند لجهود الشيخ (دوست محمد القَنْدَهاري) ، الذي تصدَّى خليفته الأكبر الشيخ عثمان الداماني (المتوفى سنة ١٣١٤هـ) في قرية «موسى زئي» من قرى «دَيْرَهْ إسماعيل خان» في المنطقة الشمالية الغربية مِن الهند [٣] ، للإفادة والإفاضة ، وملأ الجو بحَيوية الحب الدافق وحرارةِ العشق الطاهر ، وغَشَّاها بسكينة النّسبة النقشبندية ، ثم قام خليفتُه الأكبر الشيخ (سراج الدين) (المتوفى سنة ١٣٣٣هـ) بنَشر هذه الطريقة في الآفاق ، وقد كَساه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثَوْبَ المهابة والوقار ، فعمَّر زاوية سَلَفه الكرام بالتربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة ، والاشتغالِ بعلم الحديث الشريف.

وخلَفه الشيخ (حسين علي) (١٢٨٣ ـ ١٣٦٣هـ) من «وَانْ بجهران» [٤] الذي كان له أُسلوب خاصٌ في تفسير القرآن الكريم يُعنَى فيه بشرح آيات التوحيد عِناية خاصة ، وكان دَاعياً متحمِّساً إلى التوحيد الخالص ، قامَ بإصلاح العقائد الفاسدة ، ودَحض البدع الباطلة ، ورَفع راية التوحيد الخالص في بُنجاب ، وفي مَناطقَ عمَّت فيها الأعمال الشركية ، وانتشرتْ فيها البدع ، واتخذ فيه الناس الضرائحَ مساجد ومعابد ، والأولياءَ والصالحين أرباباً من دون الله ، لا يَهابُ في ذلك أحداً ، ولا يخافُ لومة لائم [٥].

وكان في هذا العصر بالذات ، الشيخ (إمام علي المكانوي) (١٢١٢ ـ

---

(١) رسالة الشيخ محمد عمر بن الشيخ أحمد سعيد إلى الشيخ السيد عبد السلام الهنسوي.
(٢) تأليف الشيخ محمد مظهر.
(٣) تقع الآن في باكستان الغربي.
(٤) تقع هذه القرية في مديرية «ميانوالي» في البنجاب الغربية في باكستان.
(٥) اقرأ ترجمته في نزهة الخواطر : ج٨.

١٢٨٢ هـ) أحدُ المشائخ الكبار في السلسلة المجدِّدية ، كان لِكثرة وفود الناس وتهافتهم عليه وقبولِه العام فيهم ، يُذبح في مطبخه ـ كل يوم ـ ثلاثمئة طَليٍّ لِقِرَىٰ الضُّيوف [١].

وكان مِن أَجِلَّة خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، الشيخُ (عبد السلام الواسطي الهنسوي) [٢] (١٢٣٤ ـ ١٢٩٩هـ) الذي كان صَاحب نِسبة عالية ، واستقامةٍ وورع . وانتشرت به هذه الطريقة في الولايات المتحدة بالهند .

وكان الشيخ عبد الرشيد ـ أحد أبناء الشيخ أحمد سعيد الذي تلقَّى التربية على يديه الأمير (كلب علي خان) أمير ولاية رامبور ـ خليفَة أبيه بعد وفاته في المدينة المنورة ، وسكن في (مكة المكرمة) آخر أيام حياته ، وبَقيَ مشتغلاً بتربية السالكين وإرشاد الطالبين ، إلى أن لَبَّى داعي الأجل ، ودفن في (المعلَّاة) .

وأسَّس ابنُه الشيخ محمد معصوم (١٢٦٣ ـ ١٣٤١هـ) الزاويةَ المعصومية برامفور ، وأقام بها ٣٢ سنة ، وتُوفي في مكة المكرمة عام ١٣٤١هـ.

والابنُ الثاني للشيخ أحمد سعيد هو الشيخ محمد مظهر (١٢٤٨ ـ ١٣٠١هـ) كان صاحب نِسبة قوية ، وشيخاً كثيرَ الاشتغال بالتربية والإرشاد ، واستفاد منه مئاتٌ من الطالبين الوافدين من سَمرقند وبخارى وقزان ، وأرض الروم ، وأفغانستان ، وإيران ، وجزيرة العرب ، والشام ، وبنى عام ١٢٩٠هـ عمارةً فخمة ذات ثلاثة طوابق لزاويته في المدينة المنورة ، تُعرف بالرباط المظهري وتقع بين باب النساء والبقيع .

وكان ابنه الثالث الشيخ محمد عمر (١٢٤٤ ـ ١٢٩٨هـ) الذي أَنجب الشيخ أبا الخير المُجدِّدي .

---

(١) نزهة الخواطر : نقلاً عن «تذكره بي مثل راجكان راجور» لمرزا ظفر الله خان ، ص ٥٠٨ ـ ٥٢١ .

(٢) راجع لترجمته المفصلة ، «نزهة الخواطر» ج٧ .

الشيخ عبد الغني:

هو أخو الشيخ أحمد سعيد الصَّغير ، ولكنه الكبيرُ مَنزلةً ، وهو المُحدِّث الجليل الشيخ (عبد الغني بن أبي سعيد) وُلد في سنة ١٢٣٥هـ ، جمَع بين تدريس الحديث الشريف ، والتَّربية والتَّسليك بحيث يَتعذَّر نظيرُه باستثناءِ الشيخ (عبد العزيز الدهلوي) .

كان ـ مع تَحليه بِنعمة الصفاء الباطني والنِّسبة المجدِّدية وشِياخة الطرق ـ انتهتْ إليه رئاسة التدريس في الحديث الشريف في الهند والحجاز وتخرَّج على يديه أعلام العلماء ، كالشَّيخ الأجل الإمام محمد قاسم النَّانُوْتَوِي ، ـ مؤسِّس دارِ العلوم دِيُوبَنْد ـ والشَّيخ المحدِّث الكبير العلامة رشيد أحمد الكَنْكُوْهِي ، وانتشَر به عِلْمُ الحديث ، وأصبحتْ مدرستا دار العلوم بديوبَند ، ومظاهر العلوم بسَهَارَنْفُور ، العظيمتان مركزاً لتدريس الحديث الشريف .

ولمَّا وقعتْ كارثةُ عام ١٨٥٧م هاجرَ من الهند مع أخيه الأكبر إلى المدينة المنوَّرة وأقام فيها ، وأَحيا سُنَّةَ العلامة الشيخ (علي المُتَّقي) مؤلِّف «كنز العمَّال» فاشتغل ـ طوال عمره ـ بخِدمة الحديث الشريف في الحرمين الشريفين ، وأفاد الطلاب ـ عرباً وعجماً ـ حتى تُوفي سنة ١٢٩٦هـ ، ودُفن في البقيع [١] ، له ذَيل نفيس على «سنن ابن ماجه» سمَّاه «إنجاح الحاجة على سنن ابن ماجه» .

ومِن مَشاهير خلفاء الشيخ عبد الغني الشيخ (عبد الحق الإله آبادي)

---

(١) ألَّف تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى التِّرهَتي في سيرته وسير مشايخه كتاباً مستقلاً بالعربية ، أسماء «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» ، وترجم له العلامة عبد الحي الحسني الإدريسي الكَتاني الفاسي في الجزء الثاني من كتاب «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات» ، فجاءت ترجمته في أربع صفحات من القطع الكبير (طبع المطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة ١٣٤٧هـ) قال فيها: أخذ عن الشيخ عبد الغني الناس بالحجاز والهند والمغرب ، طبقة بعد طبقة.

المهاجر إلى مكة المكرمة المعروف بـ «صاحبِ الدلائل» (المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ) والشيخ أبو أحمد المُجدِّدي البُوفالي (م ١٣٤٢ هـ) ، والشيخ رفيعُ الدين الدِّيوبَندي ـ العميد الأول لدار العلوم ديوبند ـ (المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ) الذي نال منه المفتي عزيزُ الرحمن الدِّيوبَندي (المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ) الإجازَة والخلافة .

وأقفرتْ هذه الزاوية ـ العامرة من نصف قرن ـ بعد هِجرة الشيخ أحمد سعيد والشيخ عبد الغني إلى مكة المكرمة ، وأخيراً عَمرها وأعاد إليها الحياة سليلُ هذه الأسرة العظيمة وأحد المشايخ الأجلاء الشيخ (أبو الخير المجدِّدي) (١٢٧٢ ـ ١٣٤١ هـ) الذي كان حَفيداً للشيخ أحمد سعيد ، فأمَّ هذه الزاوية ـ في مدة قريبة ـ القاصي والداني ، وأصبحتْ مرجعاً للطالبين المسترشدين .

* * *

وتَفرَّقتْ أُسرة الإمام السَّرهندي العالية في جِيلها الرابع والخامس في مختلف أقطار العالم وأنحائه ، وكان في ذلك مصالحُ كبيرة ، من اجتنابِ مجاورة قبور الآباءِ الكرام ـ التي أصبحتْ عادةً عند كثير من خلفاء المشايخ الصوفية ، وظهرتْ مفاسدها وعُيوبها الكثيرة ـ ونَشْرِ الطريقة المجدِّدية ، والقيام بالدعوة والتربية في البلاد النائية ، فأقامَ فرعٌ من فروع هذه الأسرة في عِزٍّ ووقار ، وإفادة وإرشاد ، بكابُل ـ وكان مركزه الأخير (قلعة جواد) [1] ، وكان الشيخ نور المشائخ فضل عمر المجدِّدي المعروف بـ «شَيْر آغا» يَنتمي إلى

(١) وممَّا يؤسف له أن هذا المركز ـ بغزو الجنود السوفيتية والحكومات الأفغانية الاشتراكية ـ عاد خراباً بلقعاً ، واعتقل علماؤه ، ومشائخه ، وطردوا من بلادهم ، وكان المؤلف قد سعد بزيارة هذا المركز عام ١٩٧٣م وكان عامراً ناضراً ، راجع كتاب المؤلف «من نهر كابل إلى نهر اليرموك» ، ص ٤٢ ـ ٤٣ [ورحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ محاضراته ـ لقاءاته ـ انطباعاته» . جمع وإعداد المعتني بهذا الكتاب ، ص ٢٣٤ ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م)].

هذا الفرع ، وقد تجاوز عددُ مريديه المئات ، وكانوا منتشرين في الهند وباكستان [١] .

وكان أَخوه الأصغر الشيخ (محمد صادق المجدِّدي) ـ سفيرُ أفغانستان في الشرق الأوسط سابقاً ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ـ يمتازُ بالمكانة المَرموقة في البلدان العربية ، وقد كان لهذين الأخوين مُساهمة فعَّالة رائدة في الحركة التي اضطرت الأمير (أمان الله خان) إلى الاعتزال عن الدَّولة ، وتولية نادر شاه مَكانه .

وكان أحدُ فروع هذه الأسرة الكريمة يَسكُن في قرية (تنده سائين داد) ، بحيدر آباد السِّند ، نَبغ فيه واشتهر الشيخ (محمد حسَن المجدِّدي) وابنه الشيخ الحافظ (محمد هاشم جان المُجَدِّدي) .

وتُوجد بعضُ فروع هذه الأسرة في المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وهي معروفة بتمسُّكها بتقاليد هذه الأسرة الموقرة مع الاشتغال بالوظائف والمهَن الكريمة ، محتفظةً بحُسن الصيت وجميل الذكر .

السِّلسلة الأحسنية ومشايخُها الكبار:

وبالرَّغم من أَنَّ الشيخ السيد آدم البَنُّوري من المنتمين إلى طريقة الإمام السَّرْهندي ، وتَلَقَّى التربية في أحضانه ، كان مُؤسس طريقةٍ جانبية ، تُسمى لكثير من خصائصها الاجتهادية بالطَّريقة الأَحسنية ، وكان من مظاهر حِكمة الله ـ عز وجل ـ وقُدرتِه أن حَظِيتْ هذه الطريقةُ العالية التي أُسِّست بيدِ رَجُلٍ أميٍّ ، بكثير من العلماء النابغين ، والمحدِّثين البارعين ، وأساتذة عصرهم ، والقائمين بنشر الكتاب والسنَّة والدعاة والمصلحين ، ومؤسسي المدارس الدينية الكبيرة ، والمؤلِّفين والباحثين المحقِّقين ، وهو في ذلك على أَثر جَدّه سيد المرسلين ﷺ والسائر على سنته ، والوارث لميراثه ، فقد كان حكيمُ الإسلام (وليُّ الله الدِّهلوي) ، وسراجُ الهند الشيخ (عبد العزيز الدِّهلوي) ،

---

(١) توفي في ٢٥ محرم الحرام ١٣٧٦هـ ، زاره المؤلف بمكة المكرمة ولاهور .

والدّاعي إلى الله المجاهد في سبيل الله الإمام (أحمد بن عرفان الشهيد) ، والعلامة (محمد إسماعيل الشهيد) ، ومُسنِد الهند الشيخ (إسحاق الدهلوي) ، ومُؤسِّس دار العلوم ديُوبَند الشيخ (محمد قاسم النَّانَوْتَوِي) ، والعالم الرَّباني الشيخ (رشيد أحمد الكنكوهي) ، والمجاهد الكبير الشيخ (ولاية علي العظيم آبادي) ، والمُربِّي الكبير الداعي إلى الله الشيخ (عبد الله الغَزنوي الأَمْرَتْسَرِي) ، ونجله الشيخ (عبد الجبّار الغزنوي الأمرتسري) ، كُلُّهم يَنتمون إلى الطريقة المجدِّدية النَّقشبندية، بوساطة المشايخ الكبار للطريقة الأحسنية ، وكانوا أصحَاب الإجازة والخلافة فيها.

وكان خُلفاء الشيخ آدم البَنُّوري في عددٍ كبير يتعذَّر إحصاؤُهم في هذا الباب ، وقد ورَدت هذه الأسماء التالية في «نزهة الخواطر» لأصحاب الشيخ آدم البَنُّوري من مريديه ومسترشديه ، وحامِلي نسبته ، وبعضُهم ممن نال منه الإجازة والخلافة وهم:

ديوان خَواجه أحمد النَّصير آبادي (المتوفى سنة ١٠٨٨هـ) ، والشيخ بايزيد القَصوري (المتوفى سنة ١٠٩٠هـ) ، والشيخ فتح الله السَّهَارَنْفُورِي (المتوفى سنة ١١٠٠هـ) ، والشيخ سعدُ الله البَلْخَاري اللاَّهوري (المتوفى سنة ١١٠٨هـ).

ولكن انتشرتْ هذه الطريقة بهؤلاء الأعلام الأربعة الذين كانوا مِثالاً كاملاً لتربيته واجتهاده وتعليمه ، وصورةً حية لتأثيره وإفادته ، وهم: الشيخ السيد علمُ الله الحسني (١٠٢٣ ـ ١٠٩٦هـ) ، والشيخ سُلطان البَلْيَاوِي ، والشيخ الحافظ السيد عبدُ الله الأكبر آبادي ، والشيخ محمد شريف الشاه آبادي.

الشَّيخُ السيد عَلَمُ الله الحَسني وأسرته:

قال الشيخ آدم البَنُّوريُّ للشيخ عَلم الله الحسني عند توديعه «سِرْ على بركة الله ، وتَصدَّ للتربية والإرشاد بجَمعِيَّةِ القلب وطُمأنينة البال ، فإنَّك سَتكون بين

مشايخ ولاية «أَوَدْه» كالشَّمس بين النجوم» [(١)].

ويقول عنه الشيخ: محمد أمين البَدْخَشي ـ خليفةُ الشيخ آدم البَنُّوري ومن خواص أصحابه ـ: «لا يسمحُ لرائحةِ الدنيا أن تَمُرَّ ببابه ، وقد طبَّق صيتُه لِوَرعه واستقامته الهندَ والبلدان العربية. . . وأكثرُ الناس الذين يرونه يقولون: لعلَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا هكذا» [(٢)].

ويقُول مؤلِّف «البَحر الزخَّار» في ترجمته:

«إنَّ المجاهداتِ الشاقة التي ظهرت من هذا النابغة الفريد في النُّفور من الدنيا ، واتباعِ السنة النبوية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ يندُر مثلها بعد الصحابة الكرامَ ـ رضي الله عنهم ـ في الأولياء والمشايخ المتأخرين» ، ويقول: «إنه لما سافر إلى (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) للحج والزيارة ، كان الناس عندما يشاهدون جِده واجتهاده وقُوَّته على الطاعات ، وكمالَ اتباعه للسنَّة ، والأخذ بالعزيمة ، يقولون: «هذا كأبي ذرٍّ» حتى سارتْ هذه الكلمة مسيرَ الأمثال على ألسنةِ الناس».

وكانتْ نتيجة هذا التمسك الشديد بالسنَّة النبوية ، أن رَأى السلطانُ (عالمكير) في المنام ليلة وفاته ، أن الرسول ﷺ تُوفي ، فاضطربَ ، وأهمّه هذا الأمر ، فعَرض على العلماء والمشايخ ، وسألهم تأويلَه ، فأولوه بأنه تُوفي في تلك الليلة من كانت له نِسبة صحيحة بالنبي ـ ﷺ ـ وقَدَمٌ راسخة في اتِّباعه ، ثم أُخبر بأن السَّيِّد علمَ اللهِ تُوفيَ في تلك الليلة ، فأجمع العلماء على أنه هو المعبَّر عنه بذلك المنام» [(٣)].

---

(١) راجع لترجمته المفصلة «سيد أحمد الشهيد» (بالأردوية) للشيخ غلام رسول مهر ، ج١ ، و«سيرة سيد أحمد شهيد» ج/١ ، للمؤلف ، و«تذكرة شاه علم الله» للأستاذ محمد الحسيني ، وراجع أيضاً «أنفاس العارفين» للإمام ولي الله الدهلوي.

(٢) نتائج الحرمين: رواية الشيخ عبد الحكيم.

(٣) انظر «نزهة الخواطر» ، ج٥ ، و«البحر الزخار» للشيخ وجيه الدين أشرف وقد جاء فيه =

واستمرَّتْ هذه الطريقةُ الأَحسنيةُ في أُسرته ، والتي نَبَغ فيها من العلماء والمشايخ الكبار كابنِهِ الرابعِ الشيخ السيد محمد (١١٥٦هـ) وابنه الشيخ السيد محمد عَدل المعروف بشاه لَعَلْ (المتوفى سنة ١١٩٢هـ) ، والشيخ السيد محمد صابر بنِ الشيخ علم الله (المتوفى سنة ١١٦٣هـ) ، والشيخ أبي سعيد بن السيد محمد ضياء بن السيد آية الله بن السيد علم الله (١١٩٣هـ) والسَّيد محمد واضح [١] بن السيد محمد صابر ، والسيد محمد ظاهر الحسني (المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ) ، والسيد خواجه أحمد بن السيد ياسين النصير آبادي ، والشيخ السيد ضياء النبي الحسني (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) الذي نَفع الله بهم خلائقَ لا يحصون، وتاب على أيديهم الألوف المؤلفة، وفازوا بنِعمة الإيمان والإحسان، والتمسُّك بالشريعة الإسلامية، واتباع السنَّة النبوية، ونبذِ البِدَع والمحدثات [٢].

الشَّيخ سُلطان البَلْيَاوِي:

كان الخليفةُ الثاني للشيخ آدم البَنُّوري الشيخ سلطان البلياوي ، ويُستفاد من «نتائج الحرمين» أنه كان من أَجلَّة خُلفاء الشيخ البَنُّوري ، وكبار أصحابه ، ويُذكر اسمُه قريناً باسم الشيخ علم الله الحسني .

الشَّيخُ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي والطريقة الولي اللهية:

وكان الخليفة الأجلُّ الثالث للشيخ آدم البنوري ، الذي انتشرت به هذه الطريقة في أوسع نطاق، هو الشيخُ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي [٣].

وكان والدُ الإمام وليّ الله الدِّهلوي، الشيخ عبد الرحيم

= المنام مفصلاً ، و«در المعارف» للشيخ رؤوف أحمد المجددي ، ص ٤٦ ، وذكرت فيه هذه الرؤيا الصادقة إجمالاً.

(١) توفي في بداية القرن الثالث عشر الهجري.

(٢) راجع لتراجمهم «نزهة الخواطر» ج ٦ ـ ٧.

(٣) راجع للاطلاع على ترجمته ومناقبه الجليلة «أنفاس العارفين» ، ص ٦ ـ ١٥ ، ألفه ولي الله الدهلوي في ترجمة والده ، وتناول فيه حياته وأعماله وتراجم أسرته بتفصيل ، وطبع عام ١٣٣٥هـ بمطبعة مجتبائي ، انظر ١٥ ـ ٨٧.

الفاروقي (م١١٣١ هـ) خليفتَه ، تلقَّى عنه التربية الروحية ، يَنتمي إلى هذه الطريقة الأحسنية المجددية في سلسلة الإمام ولي الله الدِّهلوي ، وسراج الهند الإمام عبد العزيز الدِّهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وعن طريقة الشيخ الحاج عبد الرحيم الولايتي الشهيد ، والشيخ نور محمد الجهنجانوي ، وعن طريقِه شيخ العرب والعجم الشيخ الأجل إمداد الله التَّهانَوِي المهاجر إلى مكة المكرمة ، وخُلفاؤه الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والمُصلح الكبير الشيخ أشرف علي التَّهانوي ، ثم عن طريق الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، شيخُ الهند الشيخ محمود حسن الدِّيُوبَنْدِي ، والشيخ عبد الرحيم الرَّائي بُوري ، والشيخ خليلُ أحمد السَّهارنبوري ، والمجاهدُ الكبير السيد حسين أحمد المدني .

ومَن خلفاء الشيخ عبد الرحيم الرَّائي بُوري : الشيخُ عبد القادر الرَّائي بوري ، ومن خلفاء الشيخ خليل أحمد السهارنبوري : الداعيةُ الكبير محمد إلياس الكَانْدهلوي ، مُؤسِّس «جماعة التبليغ» ، والعلاَّمة المحدِّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» ، و«حَجَّات النبي ﷺ وعُمراته» ، وكُتبٌ كثيرة ، وكُلُّهم من أصحاب الإجازة والخلافة في هذه الطريقة .

ونَقل الشيخ غلام علي وصفَ الشيخ (مرزا مظهر جان جانان) للإمام الدَّهلوي في كتابه «مقامات مظهري» ، فقال :

«إنَّ الشيخَ (وليَّ الله) قد بيَّن طريقةً جديدة ، وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف ، وغوامِض العلوم ، وإنه ربَّاني من العلماء ، ولعلَّه لم يوجد مثله في الصوفية المحقِّقين ، الذين جمعوا بين عِلمي الظاهر والباطن، وتكلَّموا بعلوم عديدة ، إلاَّ رجالٌ معدودون»[1] .

---

(١) نزهة الخواطر : ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، نقلاً عن «مقامات مظهري» طبعة المطبع الأحمدي ص ٦٠ ـ ٦١ .

ولمَّا وَقف إمامُ العلوم العقلية العلامةُ فضل حق الخير آبادي على كتابه «إزالة الخفاء» قال بمَحضر من تلامذته: «إنَّ الذي صنف هذا الكتاب لَبَحْرٌ زَخَّار لا يُرى له ساحل».

أمَّا سِراجُ الهِند الإمامُ عبد العزيز الدِّهلوي فإنَّه نادرةُ عصره في نبوغه وبراعته في العلوم العقلية والعلوم النقلية، والفُنون الأدبية ـ في حين واحد ـ وانهماكه في التدريسِ والإفادة، ونَشر علم الحديث، والإفاضة الباطنية، والتربية الربانية، وسَيلان قَلمه في التأليف، وحَلاوة منطقه ومَلاحةِ كلامه، ورحابة صدره، وجميل عِشْرته، وتوجُّعه للأمة الإسلامية الهندية واهتمامِه بها، وعموم إفادته، وكثرة فيوضه، ويَندُر نَظيره في أنحاء العالم الفسيحة، والأقطارِ النائية[1].

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته:

أمَّا الإمام (أحمدُ بن عرفان الشهيد) الذي كانتْ له صِلَةٌ خاصَّةٌ بالطريقة الأحسنيَّة المُجدِّدية، فقد أُلِّفت حوله كُتبٌ ضخمة، يكفي الاطلاع منها على كتاب «سيد أحمد شهيد» للمؤرِّخ الباكستاني الشهير الأستاذ غلام رسول مَهَرْ في أربعةِ أجزاء، و«سيرة سيد أحمد شهيد» للمؤلف في جزءين [2]، ونَكتفي هُنا للإشارة إلى تأثيرِه العميق في عَصْره وفي تاريخ الهند، وما أَنجز الله ـ تعالى ـ على يديه من هِدايةٍ عامة شاملة، ونَشْرٍ للدعوة الإسلامية وحفاظٍ على خصائص الإسلام ومَيِّزاته، ببعض الشهادات.

---

(١) راجع للاطلاع على أحواله ومناقبه العظيمة بتفصيل وإفاضة «نزهة الخواطر» ج٧.

(٢) وكلاهما بالأردوية، وللمؤلِّف كتاب بالعربية بعنوان «إذا هبت ريح الإيمان» يتحدث عن دوره العظيم، وجهوده الموفقة في إقامة الدولة الإسلامية في أسلوب قصصي مشرق [طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م]، وكتيب آخر بعنوان «الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف» [انظر هذا الكُتيب في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص١٢٢، طبع دار ابن كثير بدمشق]. ردَّ فيه على الشبه المثارة حوله، وصدر لها أكثر من طبعة في الهند ومصر.

يقولُ معاصِرُه العالِمُ الجليل الشيخُ (عبد الأحد) الذي له خِبرةٌ واسعة بأحوال الهند وأخبارها :

«أَسلمَ على يديه أكثرُ من أربعين ألف شخص من الهَنادك والكُفار ، وبايعه ثَلاثَة ملايينَ من المسلمين ، ولو وَضعنا في الاعتبارِ سلسلة البَيعة والإرشاد التي لا تَزال مُتصلة الحلقات ، وتجري حتى اليوم على أرضِ الله عن طريق أتباعهِ وأتباع أتباعِه ، ليكون قد دخلَ في بَيعته مَلايين الملايين من الناس» .

ويَقول مؤلِّف الهند الشهير العلامة السيِّد صِدّيق حسن خان القَنُّوْجِي أميرِ بوفال (م١٣٠٧هـ) ـ الذي شاهدَ آثار تربيته وإرشاده ، واطَّلع عليها عن كَثب ، وعاصَر كثيراً ممن شاهدوه وصحبوه ـ في كتابه«تقصار جيود الأحرار» :

«إنَّه كان آية من آيات الله تعالى في هِداية عباده ، وإصلاح حالهم ، والرُّجوع بهم إلى الله وعبادته ، وبلغ خَلْقٌ كثير وعالم بأسرِه إلى درجة الربانية و«الإحسان» بتعليمِه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطَهَّرتِ الهند من أدناس الشرك والبِدع والخرافات والأوهام ، بفَضْلِ مواعظ أصحابه وخُلفائه ، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تَزال مواعِظُه وتعاليمه تفعل فِعلها وتُؤتي أُكُلَها» ، إلى أن قال :

«وقُصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يُدانيه في جلالة شأنه وفضله في أيِّ جُزء من أجزاء العالم المعاصر ، وما جَناه الخَلْق من المنافع الإيمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحقة ، لم يَنالوا مِعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين» .

وإنَّ أعلام مشايخ دِيُوْبَنْـدَ ، وصادِقْپُـور [١] ، ـ كما تقدَّم من قبل ـ يَنتمون

(١) «صَادِقْپُور» : حيٌّ من أحياء مدينة (بَـتْـنَـهْ) ، كان مركزاً مهماً لدعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجهوده الإصلاحية ، وواصل أهله مهمة هذه الحركة إلى أن قضت عليها الحكومة الإنجليزية قضاءً كاملاً ، وصبت عليها كأس غضبها وحقدها ، كان من أشهرهم وأرفعهم مكاناً الشيخ ولايت علي العظيم آبادي ، والشيخ يحيى علي ، =

إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، وحَصلوا على الإجازة والخلافة فيها عن طريق الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، ولا يَستطيع أنْ ينكر فضلهم وجهادَهم في نشر العلوم الدينية، وتأسيسِ المدارس الإسلامية، وجُهودِهم العظيمة في سبيل الدعوة والتربية والإرشاد ، وأعمالهم الإصلاحية الواسعة النطاق في شِبه القارة الهندية ، إلاّ جاحدٌ مُكابِر.

* * *

وكلٌّ ذلك من نتائج العمل الإصلاحي التَّجديدي الذي قام به الإمام السَّرْهندي وثِمارِه اليانعة الجنية ، لأنّه هو الذي شق الطريق أمام الناس في فترة القرن الحادي عشر الهجري الحَرِجة الشائِكة المليئة بالفِتَن والأخطار، وهيأ الجوَّ المُلائم وغيَّر مجرى الأحداث للعَمل الإسلاميِّ العظيم ، وأيقظ النائمين ونبَّه الخاملين ، ونفخ في جسم الأمة الإسلامية الهامدة رُوحاً جديدَة ، وعاطِفة فياضة ، وربَّى أُمة سهرت على الدين والحفاظ عليه ، وحَفظت بلوعَةِ قلبها ، وحرارةِ نَفْسِها ، ونُورِ باطنها شُعلَةَ الإيمان واليقين مُضيئةً مُلتهبةً.

واستمرَّتْ هذه الشعلة تَنتقِلُ من جيل إلى جيل ، تُلهب النفوس وتُضيء القلوب ، ولم تَعُدِ الجاهلية والكفر ، والشرك والوثنية ، والمنكرات والبدع ، تَنشرُ جناحها الأسود المظلم ، وظِلَّها الكثيف الثقيل على المجتمع الإسلامي الهندي ، كما نُشرت في القرن العاشر الهَجري ، وحُقَّ لمن انتمى إليه ـ مبَاشرة ـ أو بواسطة ـ أن يقول في ثِقة واعتزاز:

أَولئـكَ آبـائِـي فجِئْنـي بمِثْلِهـم   إذا جَمَعتْنَـا يـا جَـريـرُ المَجـامِـعُ

= والشيخ أحمد الله ، والشيخ عنايت علي الغازي ، والشيخ عبد الله ، أمير جماعة المجاهدين (جمرقند) والشيخ عبد الرحيم الصادقبوري ، وكان شعارهم الجمع بين عقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بالحديث الشريف ، والاشتغال بالذكر ، والتزكية والجهاد في سبيل الله.

مُؤلَّفات الإمام السّرْهندي ورَسائله:

وللإمام السَّرْهندي مؤلفاتٌ ورسائل أكثرها بالفارسية ، وأشهرُها وأنفعها مجموع رسائله التي تسمَّى «مكتوبات إمام الربَّاني» ، وهي مِنْ أَعظم مآثِره العلمية والإصلاحية والتجديدية ، وتصويرٌ حيٌّ لعواطفه ، ومشاعِره ، وبها تُعرف مكانته في التجديد والإصلاح ، وبُلوغه درجَة الاجتهاد والإمامة في المَعارف الإلٰهية والعلوم الدقيقة ، والانتصارِ للكتاب والسنة ، وهي مَليئةٌ بالتحقيقات العالية ، والنُّكتِ البديعة التي لا يُوَفَّقُ لها ولا يُخَصُّ بها إلا الأفذاذ من العدول ، الذين يَنفُون عن هذا الدين تَحريف الغالين ، وتَأويل الجاهلين ، وانتحالَ المُبطلين ، عَبر القرون والأجيال ، ويَحتاج الحديث عن مكانتها العلمية ، وتَعيين درجتها في الأدب الفارسي إلى كتاب مُستقل ، قلَّما حظي مجموعٌ من الرسائلِ في الآداب واللغات التي نَعرفها بالقبول والانتشار وعُني بالدراسة والتأمُّل مثلما حَظِي هذا المجموع ، وقد تُرجم إلى العربية والتركية ، وَقُرِّر ككتاب دراسي في المراكز العلمية والروحية ، وعَكف عليه العلماءُ والسالكون واشتغلوا به وردَّدوه ، ولا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ غَضّاً طَرِيّاً ، كأنّ الرسائل كُتبت اليوم .

وَيقع هذا المجموع في ثلاثة أجزاء ، وعَددُ هذه الرسائل يبلغ ٥٣٦ رسالة ، وطُبعتْ مجاميع هذه الرسائل عدةَ طَبعات في مختلف السنوات ، ولا يزال يُعاد طَبْعُها .

ومِنْ رَسائله:

١ ـ «إثبـاتُ النُّبوة» .

٢ ـ «رد الروافض» ، وهو رد على بعض علماء الشيعة الإيرانيين ، أُلفت حوالي سنة ١٠٠١هـ ، وقد شرح الإمام ولي الله الدهلوي هذه الرسالة ولم تطبع بعد .

٣ ـ «الرسالة التهليلية» (بالعربية) فرغ من تأليفها في عام ١٠[illegible]١هـ ، وهي مطبوعة مع الترجمة الأردوية .

٤ ـ «شرح رباعيات» وللإمام ولي الله الدهلوي شرحٌ له ، باسم «كشف العين في شرح رباعيتين» وكلاهما مطبوع .

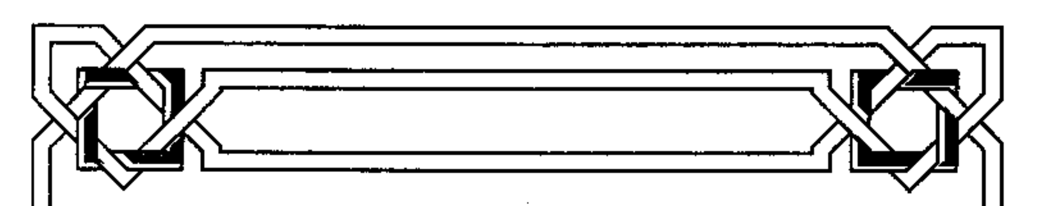
٥ ـ «معارف لدنية» بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وتحقيقاته الخاصة في علم السلوك والطريقة ، ألفه عام ١٠١٥هـ. ويبلغ عدد هذه المعارف ٤١ معرفة ، والكتاب مطبوع عدة طبعات .

٦ ـ «المبدأ والمعاد» بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وعلومه ، وتبلغ هذه الفصول ٦١ فصلاً ، والكتاب مطبوع ، وقد تَرجم الشيخ مراد المكي هذه الرسالة إلى العربية ، ونُشرت هذه الترجمة مع مجموعة رسائله المترجمة إلى العربية في الحاشية .

٧ ـ «مكاشفات عينية» بالفارسية ، والكتاب مطبوع .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وأصحابه وأهلِ بيته ، ومَن تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *



الإمامُ الدِّهْلَوِيُّ

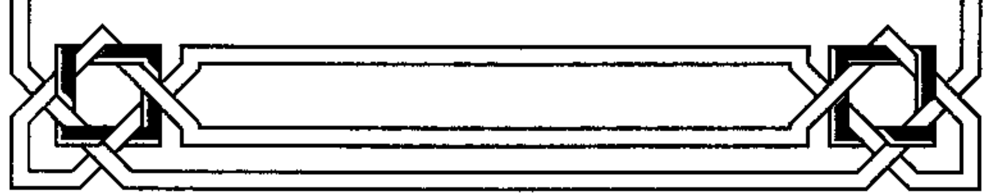
(١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ)

حياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم
المعروف بالشيخ وليّ الله الدّهْلَوي
والتعريف بالدّور الإصلاحي التجديدي، القيادي الاجتهادي
الذي قام به في مجال العِلْم والعمل والتفكير والتأليف

الجزء الرابع

تعريب

الأستاذ سلمان الحُسَيْنِي الندوي
أستاذ الحديث بكلية الشّريعة وأصول الدين
في دار العلوم ـ ندوة العلماء (لكهنؤ)



كلمة المؤلِّف

الحمدُ لله رب العالمين ، والصَّلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيِّين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أمَّا بعد ، فَيسرُّ المؤلِّف ويُسعده أن يقدِّم للقرَّاء العرب الجزءَ الرابع من كتابه : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو الجزءُ الخاص بحياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدِّهْلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦) والتعريف بدوره الإصلاحي التجديدي ، التربوي القيادي ، الذي قام به ووُفِّق له في شبه القارة الهندية ، التي كانت الجزءَ الحاسم الحسّاس من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر وما بعده ، وبدوره في إحياء الفهم للدين ، وإعادة الحياة والنشاط والحيوية والنموِّ إلى الفكر الإسلامي ، وعرض الشريعة الإسلامية في صورة مُتناسقة شاملة ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها ، والتطبيق بين العقل والنقل ، وبين الفقه والحديث ، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الرئيسية ، وذلك في مجال العالم الإسلامي كلِّه ، والأجيال الآتية كلها .

فهو بذلك استحقَّ دراسة اختصاصية من الباحثين في تاريخ الإصلاح الديني والفكر الإسلامي ، ومن المعنيِّين بالصحوة الإسلامية وربطِ المجتمع الإسلامي

بالأصول الإسلامية السليمة ، والتعاليم الشرعية القويمة ، في كل بلد من بلاد الإسلام ، وفي كل طبقة من طبقات المثقَّفين الإسلاميين ، والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين.

إنَّ العمل الضخم المتنوِّع الواسع ، الذي قام به الإمام الدِّهلوي اشتمل على إصلاح العقائد ، ونشر الكتابِ والسنَّة ، والردِّ على المذاهب الدخيلة على الإسلام ، النابتة الطُّفيلية في حَقْلِهِ ، وعلى المحاولة الحكيمة القائمة على الدراسات العميقة ، لجمع شَمل الأمة المحمدية ، بتقصير الفجوة بين المذاهب الفقهية السائدة ، وبين الفقه والحديث ، ورَفع الفجوة بين المنتمين إليها ، وعرض الشريعة الإسلامية وشُعَبها وأبوابها في ترابط ونظام ، وفي تناسق واتِّزان ، يُخيل إلى القارىء كأنَّها لآلىءُ العقد المنظوم ، أو حلقاتُ سلسلةٍ مترابطة ، وعلى رفع القناع عن فوائد الشريعة العملية والاجتماعية والمدنية ، وشرح التعاليم الدينية والهداية السماوية في محيط الحياة الواسع ، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس ، وصلة الأسباب بالنتائج.

هذا هو الدور القيادي الذي قام به في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة الإسلامية في الهند ، وبذل الجهود لإقامة مملكة قوية موطَّدةِ الأركان ، الدور القيادي الحكيم الذي يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة ، مع عَدم إهمال المجتمع المسلم الذي هو مصدر كل انقلاب صالح وغير صالح ، والحاضنة للقادة والحكَّام ، والأرضية التي تقوم عليها الحكومات والمنظَّمات ، وقد وُفِّق لوضع الأصابع على أمراض طبقاته المختلفة ومواضع ضعفها ، وضرب على الوَتَر الحسّاس ، ودل على مكامن الضعف والانحراف وأنواع الغرور والخداع ، مع توجيه النصائح والملاحظات ، إلى كل طبقة من هذه الطبقات.

ولم يكن كُلُّ ذلك نظرياً وعلمياً فحسب ، ومقصوراً على شخصه الخاص ، فقد ضم إلى كل ذلك تربية الخلفاء والرجال الأكفاء ، الذين قاموا بإكمال مُهمته ، حسب مقتضيات الزمن ، ومُتطلَّبات الدين ، ومدّ دوره

الإصلاحي إلى مَساحةٍ مكانية وزمنية من أوسع المساحات التي قُيِّضت لمصلح ديني ، وعالم مؤلِّف ، مُدرِّس مربٍّ ، مضافاً إلى ذلك كله : إحياء الجهاد في سبيل الله ، ومقاومةُ الخطر على حُرية المسلمين وسُلطتهم .

وبهذا الشمول العجيب ، والتنوّع النادر ، والفكر الإسلامي الأصيل ، والعلم الديني الراسخ ، وفَهْم روح العصر ، والتنبّه للأخطار والتحديات التي كان يتمخّض بها المستقبل ، ولاتزال في ضمير الزمان ، والتّنبيه عليها ، والدعوة إلى إعداد العدّة لها ، أصبح نموذجاً كاملاً للمصلح الديني ، والمجدِّد الإسلامي في كل بيئة من بيئات العالم الإسلامي ، وفي أوضاع دينية واجتماعية وسياسية ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، وأصبح مدرسة علمية فكرية ، واسعة جامعة ، يتخرج فيها علماء مصلحون ، ومُفكِّرون إسلاميون ، على اختلافِ مستوياتهم ، وتَـنوُّع اتجاهاتهم .

وفي الحقيقة إنَّ هذا العصر هو عصرُ (شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيميَّة الحرّاني) (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) ، وحكيم الإسلام أحمد بن (الشيخ عبد الرحيم وليِّ الله الدِّهلويّ) (المتوفى سنة ١١٧٦هـ)، وذلك لاعتمادهما على الكتاب والسنة ـ اللذين كُتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يُكتب لنتاج علمي ومدرسةٍ فكرية ـ واعتبارهما الأصل والأساس ، والقائد والنبراس في حل المعضلات والمشاكل ، في العبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة ، وتربيةِ النفوس وتزكيتها ، وبما كانا يَدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر ، وتجديد الفكر الإسلامي ، وبما كانا يتصفان به من مُقاومة الجمود والتحجّر العلمي والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية ، ويمتازان به من دراسة الديانات غير الإسلامية ، والمذاهب المترعِّمة للإسلام .

هذا مع ما لا بدَّ منه من اختلاف في المنهج والذوق ، وفي العناصر التي تركبت بها شخصية كل واحد منهما ، وتكوّن بها مزاج خاص ، اختلاف يقتضيه اختلافُ البيئات ، وأساليب التربية ، وطبيعةُ الزمان والمكان ، واتجاهُ الأسر

والآباء ، لذلك كان نشرُ مؤلفات كل واحد منهما وتحقيقاته وتاريخ كفاحه ، ودوره الإصلاحي ، في مكانه وأوانه.

وقد سَبق للمؤلِّف وَضْعُ كتاب خاص بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيميَّة ، كوّن الحلقة الثانية من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»[(١)] ، وأَتبعَ ذلك بإصدار كتاب خاص بالإمام السَّرهندي الشيخ أحمد بن عبد الأحد (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) يُكوِّن الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وقد صدر في سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م)، وهو إمام من كبار أئمة الإصلاح والتجديد في تاريخ الإسلام الطويل ، وقد كُتب له من النجاح في أهدافه الإصلاحية والتجديدية ما قل لمصلح آخر في الماضي ، فقد قضى على بعض الفتن التي كادت تقضي على الإسلام ـ لولا قضاءُ الله ببقائه وكفالته بحفظه ـ وجلّىٰ بعضَ الحقائق الدينية الرئيسية ، والحاجةَ إلى النبوة ، وفضل الأنبياء ، وإعادةَ الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية ، تجليةً لم تُؤْثَر عن مصلح آخر ، وغيَّر مجرى التاريخ في شبه القارة الهندية ، وحوَّل وُجهة الإمبراطورية المغولية ، من الفكر والإلحاد والبَرهمية ووحدة الأديان ، إلى الدين الحنيف والشريعة الإسلامية السَّمحة ، ذلك كله بطُرق حكيمة سلميّة ، وأساليب دعوية تربوية ، وربَّانية صادقة خالصة.

وها هي الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية ، يَسنُدُ بعضها بعضاً ، وكلها مترابطة متناسقة ، تَدلُّ على أن شجرة هذا الدين تُؤتي أُكُلها كلَّ حين ، وعلى أن خليته لا تنقطع عن التَّعسيل ، وكنانته لا تنفد ولا تخطىءُ سِهامها..

وقد وضعَ المؤلِّف هذا الكتاب أصالة في الأردو ، لغة شبه القارة الهندية ، العلمية والتأليفية ، التي يَفهمها أكثر من مئتي مليون إنسان في شبه القارة

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم (الكويت) سنة ١٣٩٥ هـ والثالثة سنة (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م).

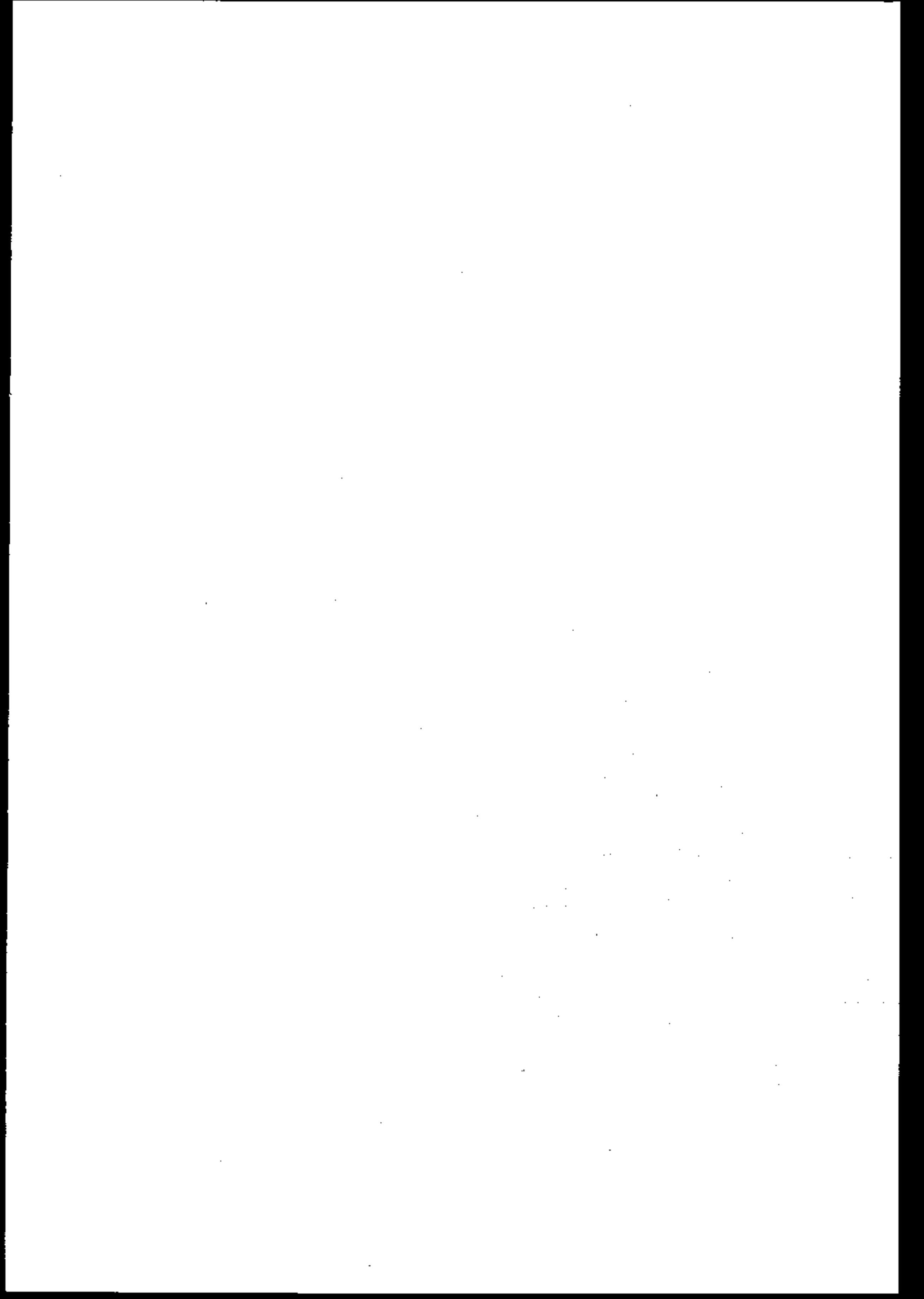
وخارجها ، والتي ابتدأ المؤلِّف وَضع هذه السلسلة التاريخية فيها ، وقد قامَ بنقل الجزءين الثالث والرابع من هذه السلسلة[1] العزيزُ الأستاذ السيد سلمان الحُسيني النَّدوي من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء خيرَ قيام ، استحق به دعوات المؤلف بطول حياته وحسنِ توفيقه ، وشكرَ القرَّاء ، وفوق كل ذلك ، رضا من الله وحسنَ ثوابه .

أرجو أن يَنال هذا الكتاب مكانهُ اللائق في المكتبة الإسلامية الحديثة ، وفي أوساط الدارسين والباحثين ، والمعنيين باليقظة الإسلامية والإصلاح الديني ، وعلى الله قصدُ السَّبيل .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

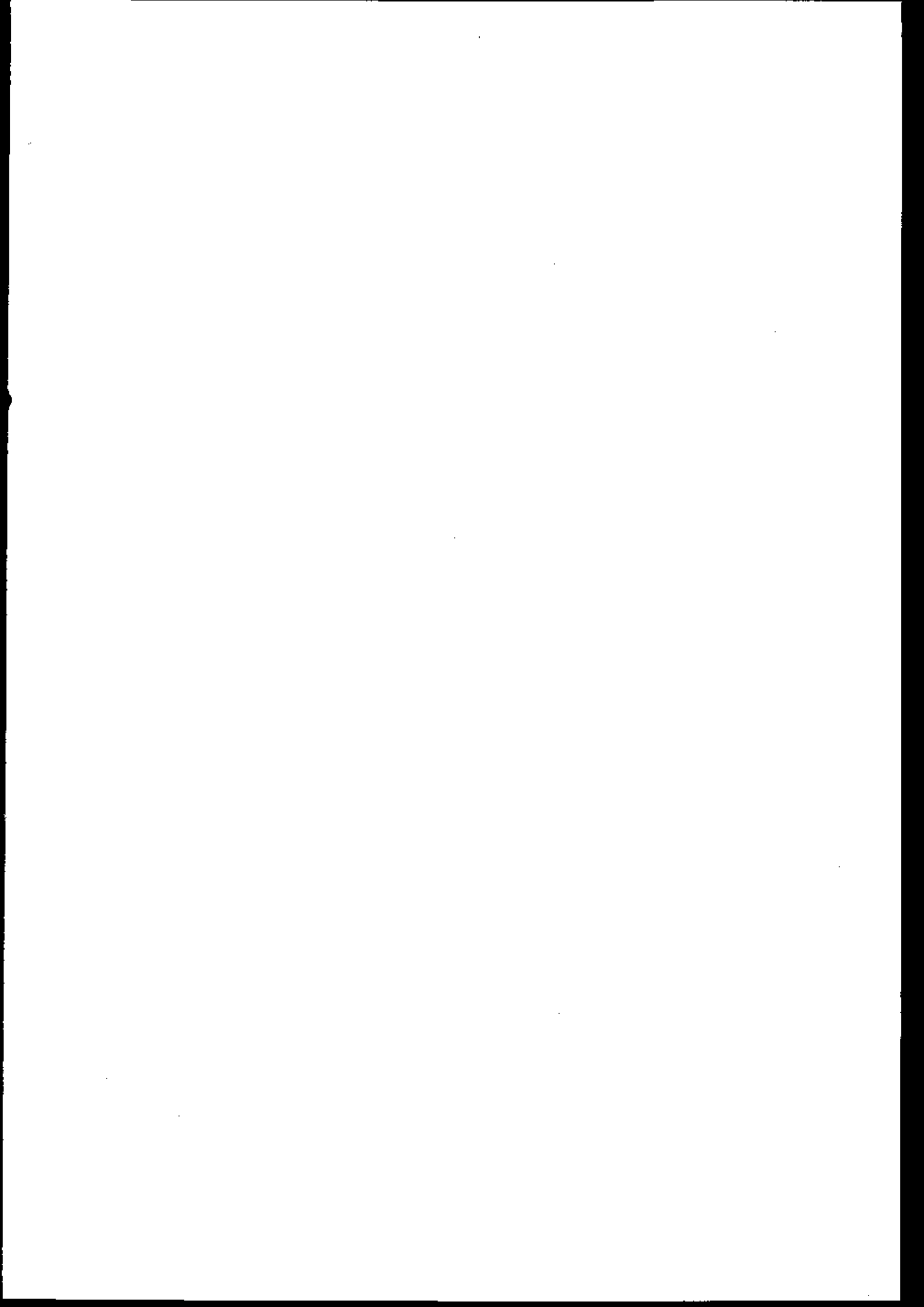
دارة الشيخ علم الله الحسني
رائي بريلي ، ١٣ من جمادى الآخرة
سنة ١٤٠٥ هـ

(١) قام بنقل الجزء الثاني من هذه السلسلة وهو الجزء الخاص بشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيمية، الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي، أحد أساتذة دار العلوم الكبار، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» وجزاه الله خيراً.



البَابُ الأوَّلُ

العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري



العالمُ الإسلاميُّ في القَرن الثاني عَشرَ الهِجري

أَهمية دِراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثِها في القرن الثاني عشر الهجري:

لقد صرَّح مؤلِّف هذا الكتاب في بداية الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة» الذي يختصُّ بحياة الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) وتاريخ عصره ومآثره الإصلاحية والتجديدية العظيمة ، وهو يُشير إلى أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري (الذي وُلد فيه الإمام السَّرهندي ، ونشأ نشأته العقلية والعلمية) بما يلي :

«ويَنبغي ـ ونحن في هذه الدراسة ـ ألاَّ نغفل حقيقةً ذات شأن ، وهي أن العصر الذي يُولد فيه الإنسان ، والعالَم الذي يُعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتصلُ كلُّ موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتَّسق معها ، فلا يمكن لأجلِ ذلك أن يبقى بلد ـ مهما كان نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثِّر بالأحداث الخطيرة والثوراتِ العظيمة والقُوى المتحاربة ، والحركات المؤثِّرة القوية التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلداً يشاركهُ في العقيدة والمذهب والمشرب ، ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند

فحسب ، بل يَلزمه أن يُلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كُلِّه في القرن العاشر ، لاسيَّما البلدان المسلمة المجاورة التي كانت بينها وبين الهند أواصرُ علمية ودينيّة وحضارية ، وكانت تصل إليها لَفحاتُها الشديدة اللاذعة ، ونَفحاتها الرَّخيَّة الناعمة على بعد الدار وطول المسافة»[1].

إنَّ الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية ، وتطبيق هذا الأصل المهم في دراسة حياة الدهلوي ، وإلقاءَ الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرةِ أشدُّ وأكثر ، إذ إنَّ تربيته الفكرية والعلمية تَدين لبلاد الحرمين الشريفين ، وأن لهما الدورَ الأساسيَّ في تكوين عَقليته وثقافته ، حيث أقام الإمام الدِّهلوي أكثر من عام واحد في الفترة الواقعة بين ١١٤٣ ـ ١١٤٤ هـ[2] ، ودَرَسَ علم الحديث الشريف على المحدِّث الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكُردي المدني ، أحد أئمة الفنِّ وعُلماء الحديث الكبار في عصره ، الذي كان يؤُمُّه طلاب الحديث من مختلف الأقطار والأمصار ، وتخرَّج على يديه وأسندَ عنه جميع مروياته ، وجالس علماء الحرمين الشريفين (الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية والعربية) وصَحِبه مدة من الزمن.

وقد كان الحجاز آنذاك في ولاية الدولة العثمانية وإدارتها ، وكان أشرافُ مكة يتبوؤون منصبَ الإمارة كنُوّابٍ عن السلاطين العثمانيين ، وقد كان الحَرَمان الشريفان ـ لاسيما المدينة المنوَّرة عل صاحبها الصلاة والسلام ـ اللذان يجمعان في أيام الحج في رحابهما كلَّ عام صفوة أصحاب العقول النَّيرة والقلوبِ الصافية ، يتهافتون عليهما تَهافُت الفراش على النور؛ مركزاً دائماً لعلم الحديث الشريف ، حيث يلتقي طلاب هذا العلم وهُواته من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الجزء الخاص بـ«الإمام السرهندي ـ حياته وأعماله».

(٢) لقد كان الإمام الدهلوي وصل إلى الحجاز في أواخر عام ١١٤٣هـ وعاد منها إلى الهند في أوائل عام ١١٤٥هـ، وحج حجتين.

وكان من الميسور لمن يُقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامي كُلَّه ويدرسه روحياً وعلمياً ، وخُلقياً واجتماعياً ، ومَدنياً وسياسياً ، وأن يُقدِّر ـ بسهولة ـ رُقيَّ البلدان الإسلامية والعربية ، وازدهارها ، أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحي كلِّها ، ويطَّلع على مُختلف رجالها وشخصياتها ونوابغها، وحركاتها ودعواتها الإصلاحية، وما يُبذل فيها من جهود بناءة ومثمرة ، وما تحاك فيها وتُبيَّتُ من مؤامرات مُفسدة مُدمِّرة .

بل كان من الممكن أن يجسَّ نبضَ العالم الإسلامي ويُقدر سيره ويسمعَ خفقات قلبه ، ومن اللازم أن إماماً نابغة كالإمام الدهلوي في ألمعيَّته وتوقُّد ذكائه ، ولَوعة قلبه وتوجُّعه ، يكون قد استفاد من كل ذلك ، وتأثَّر به ، واستخدمه في توسيع نطاق فِكره وبُعدِ نظره ، وآفاقية دعوتهِ وفلسفته ومنهجه .

زِدْ على ذلك أنَّ الهند كانت ـ عبر قرون وأجيال ـ مجالاً للغزاة والفاتحين من الأسر الأفغانية والتركية بآسيا الوسطى ، ولم تزلْ هذه البلاد تحت وصايتهم سياسياً وإدارياً ، وهم الذين كانوا يُزوِّدون حكوماتها الضعيفة النحيلة ، وهيكلها التنظيمي والإداري بدماء جديدة حارة ، ويَهبون إدارتها المفكَّكة المُهلهلة ، وقُوَّتها العسكريةَ المتخاذلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة ، وإذا أشرفت أسرةٌ حاكمة ـ طال عَهْدُ حكمها ـ على مرحلة الشيخوخة والهرم ، أقبلت من ممرِّ «خيبر» أو ممرِّ «بولان» قوةٌ عسكرية جديدة دافقة بالحيوية والحرارة إلى الهند ، وطعَّمت سلسلة الحكومات التي كانت تدين بدين واحد «الإسلام»، وعقيدة واحدة «عقيدة أهل السنة والجماعة»، وقانون واحد «الشريعة الإسلامية» ولغة واحدة «التركية أو الفارسية»، وحضارة واحدة (وهي الحضارة التي كانت مزيجاً من الحضارات العربية والإيرانية والتركية والهندية) بالقوة والنشاط ، ووهبتها قِسطاً جديداً من الحياة .

ثم إنَّه لاينبغي أن ننسى حقيقة تاريخية ، وهي أن أفغانستان وولايتها الكبيرة المهمة «كابُل» و«قَنْدَهَار» لم تزل منذ عهد استيلاء الملك (بَابَر) وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية ، وقلعةً خارجية لها ، وسوراً

منيعاً ، وقد كان دُخول الملك (نَادِر شاه) مَلك إيران في الهند ، وزَحفه إلى دلهي في عهد الإمام الدِّهلوي نفسه ، كما غزا الهند في عهده أحمد (شاه الأَبْدَالِي) عدة مرات حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ الموافق عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة في ساحة «باني بَتْ» التي هزم فيها المرهته هزيمة نكراء وغيّر وجهة التاريخ وتيار الأحداث ، وأعطى الدولة المغولية فُرصة صالحة تستدرك ما فات ، وتعود إلى الحياة والمجتمع المُسلم وطبقة الأمراء والولاة فُرصةٌ سانحةٌ للقيام بدور جديد لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم وسُوء تصرفاتهم .

لقد كانت هذه الأحداث كُلُّها في عهد الإمام الدِّهلوي ، بل كان الحدثُ الأخير منها بإشارة منه وإرشاد ، وكان صاحبا هاتين الغزوتين ينتميان إلى إيران وأفغانستان ، ولأجل ذلك لا يمكن في دراسة عهد الإمام الدِّهلوي واستعراض القرن الثاني عشر الهجري التغاضي عن أوضاعِهما وانقلاباتِ الدول بجرَّاء كل ذلك .

تأثيرُ إيرانَ الحَضاريُّ والثقافيُّ على الهند:

ثُم إنَّ الهندَ كما كانت من القرنِ الخامس الهجري تحتَ تأثير تركستان وأفغانستان من النَّواحي السياسية والعسكرية ، كذلك كانت في قليل أو كثير تحت تأثير إيران، من النواحي العلمية والأدبية والثقافية والحضارية والفكرية ، وتجد على فكرتها وعَقليتها ظلال أدبها وشعرها ، وطُرق تصوُّفها ، وأخيراً ظلال مناهجها الدراسية ونظمها التعليمية ، ومُؤلَّفات علمائها ونوابغها ، لاسيما منذ دخول الملك (هِمَايُون) إلى إيران واستعادةِ الدولة الهندية بمناصرتها وتأييدها .

ثم منذُ مَقدم الأمير (فتح الله الشِّيرازي) والحكيم (علي الكيلاني) في عهد الملك (أكبر) ، أصبحتِ الهند ـ كلياً ـ عالةً على إيران في مناهجها الدراسية وطُرق التعليم ، وتحديد مقاييس الفضل والنبوغ ، وفي مجال العلوم العقلية

والحكمية تُقلدها وتَدين لها وتمشي في أثرها ، وتَمت بذلك السُّلطة العليا لإيران على الهند في هذا الصدد ، فلا يمكننا ـ نظراً إلى هذه الحقيقة التاريخية ـ أن نُغفل الأحداث الجارية فيها في هذه الدراسة التاريخية.

أهميّة الدّولة العُثمانية وعَظَمتُها:

كذلك لايمكننا التغاضي ـ عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة ـ عن الدولة العثمانية (التي كانت تتولى من القرن العاشر الهجري منصب الخلافة ، وهي وإن كان موقعُها الجغرافي على مسافة شاسعة من الهند في أوربة وآسيا الصغرى ، ولكنها كانت تحتضن جميعَ البلدان العربية تقريباً (مصر ، الشام ، العراق ، اليمن ، نجد ، الحجاز ، والجزء الكبير من إفريقية الشمالية).

وقد كان المسلمون كُلُّهم ينظرون إليها ـ من حيث كونها حاميةً للديار المقدَّسة ، وحاملةً عِبء الخلافة الإسلامية ، ولأنها كانت قُوةً ومملكة كبرى ، ورمزاً للجبهة الإسلامية في نظر الغرب والقُوى المعادية للإسلام ، ومحافظةً على كثير من المصالح الإسلامية ـ نظرة تقدير واحترام ، ولم يكونوا يهتَمون بما يجري فيها من وقائع وأحداث فحسب ، بل كانوا يتأثَّرون بها ويتكيَّفون معها ، فلم يكن يُمكن مثل الإمام الدِّهلوي في سعةِ أفقه وعالمية تفكيره ، والذي كان اطلاعه على التاريخ الإسلامي اطلاعاً واسعاً عميقاً أن يَغُضَّ النظر عن الدولة العثمانية ، وقد كان خبيراً بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة ، وأهميَّتها السياسية والاجتماعية.

وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحةِ والمجتمع الصالح والمدنيَّة الصحيحةِ والحياة الإسلامية من حُكومة مُستقلَّة حُرَّة ، وقوة سياسية صالحة.

وكان يتمنَّى أن يرى المسلمين قوة مؤثِّرة آمرة ناهية لا في بلادهم فحسب ، بل في العالم كله.

وكيف كان من المُمكن أن يتغاضى عن رُقي أعظم مملكة للمسلمين وسقوطها ، وصعودها وهبوطها ، وهدوئها الداخلي واضطرابها ، لاسيما وقد

عاش في أحبِّ البقاع وأكرمها في نطاق دولتها وهي الحِجاز بعين مفتوحة ، وذِهن وقّاد ، وعقل حاضر ، وقلب شاعر؟!

وكان قد درس تلك التأثيرات وسَمع أخبارها عن طريق الوافدين من مُمتلكاتها وولاياتها والبلدان التي كانت تَحت وصايتها كمصر والشام والعراق التي كانت تترُك على أوساط هذه البلدان العلمية والدينية بَصماتها ، نتيجةً لميول سلاطينها العثمانيين ووزرائها و«شيوخ الإسلام» والعلماء الأتراك فيها وعَقْليَّتهم ونزَعاتهم ، فلا بد إذاً من إلقاءِ نظرة إجمالية على المملكة العثمانية في القرن الثاني عشرَ الهجري (القرن الثامن عشر المسيحي) وعلاقاتها بالبلدان الغربية المسيحية المجاورة ، وتفكُّكها وانحلالها ، وتماسُكها واستحكامها ، ودورات المدِّ والجَزْر في قُوَّتها السياسية .

* * *

الفصل الأوّل
الوَضعُ السِّياسيُّ في العَالَمِ الإسلاميّ

سننظر ـ أولاً ـ: في حالة العالم الإسلامي السياسية ، وانقلابِ الدول والحكومات وأهم الوقائع والأحداث ، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلامي العلميةَ والدينيةَ والخلقية .

الدَّولةُ العثمانية في القرن الثاني عَشر:

وُلد (الإمام الدِّهلوي) عام ١١١٤ هـ وتوفي عام ١١٧٦ هـ وقد توالىٰ في هذه الفترة ـ (٦٢) عاماً ـ على عرش الدولة العثمانية خَمسةُ سلاطين ، وهم: (مصطفى الثاني) (ت ١١١٥ هـ) أحمد الثالث (ت ١١٤٣ هـ) محمود الأول (ت ١١٦٧ هـ) عثمان الثالث (ت ١١٧١ هـ) ومصطفى الثالث (م ١١٧١ ـ ١١٨٧ هـ).

وتولّى أربعة من هؤلاء السلاطين ـ أحمد الثالث ، محمد الأول ، عثمان الثالث ، ومصطفى الثالث ـ زمامَ الأمور في عهدٍ بلغَ فيه الإمام الدِّهلوي أشده ، واكتمل وعيُه ، وبدأ عمله وتفكيره ، إلا أنَّ أهم الفترات الزمنية من حياته (وهي السنوات الخمس الأخيرة) قضاها في عهد مصطفى الثالث.

حكم مصطفى الثالث (١٦) عاماً ، و(٨) أشهر ، واندلعت في عهده نارُ الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩ م ولكن لم يكن لروسيا فيها أي مفخرة ومكرمة ، بل كانت هذه الهزيمة

بسببِ بعض الأحداث والخَللِ في بعض التدابير والإجراءات [١].

وأراد الجنرال الرُّوسي «الفنتن» أن يَحمل على القُسطنطينية أيضاً ، إلا أنه مُنع من ذلك.

واتخذ مصطفى خان إجراءات لتعزيز جنوده ، واهتم بالإصلاحات العسكرية ، وأحرز مكاسب عسكرية ، وتقدَّمت روسيا بشروطٍ للمهادنة ، كانت تشتمل على الإهانة لتركيا وجَرْح كرامتها ، وعقد في «بخارست» في ١٣/ شعبان عام ١١٨٦ هـ (أي بعد وفاة الإمام الدِّهلوي بعشرة أعوام) الموافق ٩ نوفمبر عام ١٧٧٢ م مؤتمرٌ قُدمت فيه بعضُ الشروط ، ولكن رَفضتها الدولةُ العثمانية ، وأصدرت أوامرها للجيش التركي بإعلان الحرب ضد رُوسيا ، فلقيت فيها روسيا هزيمةً منكرة ودخل في قلوبهم الرعب ، حتى عندما مرَّ الجيش التركي بسوق «جق» (التي تدعى اليوم Tobulkhin) خلَّى سُكان هذه المدينة الروسُ المدينةَ بأكملها ، يقول المؤرخ هيمر (Hemer): «إنَّ العثمانيين وَجدوا قُدوراً موضوعةً على المراجل والأثافي كان يُطبخ فيها اللحم».

تُوفِّي السلطان مصطفى الثالث في ٨ ذي القعدة عام ١١٨٧ هـ (الموافق ٢١ يناير عام ١٧٧٤ م) ، ويُثني المؤرِّخون على عدلهِ ورَغبته وجهوده في أمور الخير ، وكان قد أقام في عهده كثيراً من المدارس والرِّباطات.

وقد انتشرت المطابعُ في الدولة العثمانية حين كان الإمام الدِّهلوي شاباً ، وقامتِ المطبعة الأولى في القُسطنطينية وظهرت في هذا العهد نفسِه حَركةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ)[٢].

واستولى (علي بك الكبير) الذي كان يُدعى «بشيخ البلد» في عهد عثمان الثالث على حكومةِ مصر وإدارتها ، وتآمر مع الجنرال الرُّوسي الذي كان قد عُيِّن لبحر الروم ، واشترطَ عليه مساعدته بالسلاح والذخيرة حتى تستقل

---

(١) انظر للتفصيل «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي، ط بيروت.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠.

مصر ، ونجح علي بك بمساعدته في سيطرته على غزة ونابلس والقدس ويافا ودمشق.

وكان يُريد التوجه إلى أناطوليا إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعو بمحمد بك المعروف بأبي الذهب الذي اضطر (علي بك) للعودة إلى مصر ، ولقي هزيمة على يديه ، كان من نتيجة هذه الحروب الداخلية والفوضى أن أطلقتِ الأساطيلُ الروسيةُ النيرانَ على بيروت ، وانهدمَ بسببها حوالي ثلاثمئة بيتٍ ، ثم وقعت الحرب بين جيوش (علي بك) وجيوشِ (محمد بك) في شهر محرم عام ١١٨٧ هـ ، انتصر فيها (محمد بك) ، وأُسر علي بك ، ومات بجروحه ، وفصل رأسه عن جسده ، وبُعث به مع أربعة ضُباط روسٍ إلى الوالي العثماني (خليل باشا) الذي أرسله إلى القُسطنطينية ، وعادت مصر مرة ثانية إلى حكم الدولة العثمانية.

الوَضـعُ السياسـي في الحجـاز:

عندما سافر الإمام الدَّهلويُّ إلى الحجاز ، وأقام في الحرمين الشريفين مدة عام ، كان ذلك في خلافة السلطان محمود الأول (١١٤٣ ـ ١١٦٧ هـ) وكان يُمثِّل السلطانَ العثماني وينوب عنه في الحجاز محمدُ بن عبد الله [١] بن سعيد بن زيد بن محسنٍ الحسني [٢] (م ١١٦٩ هـ) واليه على الحجاز بعد وفاة والده عام ١١٤٣ هـ [٣]، وقد كان عهده عهد الحرب الداخلية والصراع بين

---

(١) ذكر اسمه في بعض الكتب محمد عبد الإله ولعل ذلك لأجل تجنب المماثلة اللفظية لاسم محمد بن عبد الله تأدباً واحتراماً.

(٢) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز (١١٦٢ـ ١٢٢٩هـ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكري، وحماسه للجهاد وبهذه الدعوة على الجزء الأكبر وجزيرة العرب عام ١٢١٨هـ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوي محمد علي والي مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٢٣٤هـ، ونفي الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى قسطنطينية وقتل بها.

(٣) لم يزل أشراف مكة (الذين كانوا يُختارون من السادة الحسنيين نسبة إلى الحسن بن علي=

أفراد الأسرة على الإمارة ، فقد عزله عمه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥ هـ وتسلَّط على الإمارة ، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦ هـ ، ثم عزله عمُّه ، وبقي والياً عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥ هـ ، وساد في عهده الأمن والسلام في الحجاز ، ويَصِفه المؤرِّخون بأنه كان ذكياً متيقظاً وسياسياً محنكاً[١] .

وإنَّنا نجد كُتبَ التاريخ والرحلات ومذكرات الحج التي أُلِّفت في منتصف القرن الثاني الهجري أو تؤرخ ذلك العهد ، إنها تشكو قِلة الأمن في الطُرق وغاراتِ البدو وفسادَ النظام وسوء الإدارة ، الذي كان نتيجة بُعدِ مركز الدولة العثمانية(القسطنطينية) ، وسياسة عدم التدخُّل من جانب الأتراك إلى حد المستطاع في الأمور الداخلية للحجاز ، والتَّسامح الزائد مع أشراف مكة(الذين كانوا من الأسرة الحَسنية وكان نَسبهم صحيحاً معلوماً) والإجلال الزائد للعرب ، واحترامهم ، وسياسة التغاضي عن تجاوزاتهم وسوء تصرفاتهم ، وعلاوة على ذلك نظام الوراثة في إمارة الحجاز ، وانحصارها في أسرة واحدة .

ومن المُمكن أن يُقطع بأن الإمام الدِّهلوي كان قد نظر في هذه الأوضاع القَلقة المُضطربة ، والصراع الداخلي على منصب الإمارة وقلةِ النظام وضعف الإدارة بعين بَصيرته ، وشَعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحميَّة الدينية ، ولعلَّ

= رضي الله عنه ، ولذلك كانوا يُدعون بالأشراف يتولون شؤون الحجاز من الثلث الأول للقرن الرابع الهجري، فقد عين الشريف الأول بمكة في عهد الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤هـ ٣٦٣هـ) ثم كانت تولية الأشراف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة المماليك في مصر، فلما استولى السلطان سليم أقر شريف مكة في عهده السيد بركات وابنه السيد أبانمي على منصبهما، وكانا شريفي مكة، واستمرت هذه الإمارة في الأشراف إلى الشريف حسين، الذي خرج على العثمانيين في يونيو عام ١٩١٦ م الموافق شعبان عام ١٣٣٤، بعد استيلاء السلطان ابن سعود على الحجاز.

(١) الأعلام: جـ ٨ ، ص: ١١١ ـ ١١٢، نقلاً عن «حاجة الكلام»، و«عنوان المجد» و«تذييل شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام» جـ ـ٢، ص: ٣٠٩ ـ ٣١٠ باب ولاة مكة.

الصراع بين العمِّ وابن أخيه على الإمارة الذي كان عام ١١٤٥ هـ ، قد يكون وقع في مُدة إقامته بالحجاز ، ولعله توصل بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المَدى ، وأخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقي الذي أُصيبت به هذه البلادُ.

الوضع السياسي في اليَمن:

وكان يسود في اليمن أيضاً مثلُ هذا النظام السياسي ، فكانتِ اليمن تحتَ السُّلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفةٍ عامة ، والسياسة الخارجية بصفة خاصة فكان يُوجد بها حاكمٌ من الحُكَّام العثمانيين يُعَيَّن من قِبل الدولة العثمانية ، ولكنها رغم ذلك يسودُ فيها نظام الإمامة كذلك ، الذي كان يستمر فيها من القرن الثالث الهجري ، وكان يتولاَّها الأشرافُ الزَّيدِيُّون[1] .

فكانَ أهلُ اليَمن يُبايِعونهم بَيعة الخلافة ويَدعونهم «الإمام»، وكان مَن يتولى هذا المنصب يُعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهاد والإمامة في المذهب ، وأنَّه عالم متبحِّر فيه ، مُسلَّمٌ له الزعامة والقيادة.

دَخلتِ اليمنُ في حَوزةِ الدولة العثمانية في عَهْد السُّلطان (سليمانَ القانُوني) بن يَاور سليم ، وكان يَحكُمها ـ آنذاك ـ «إمامُها» وخليفةُ الأئمة

(١) يرى العلامة محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» أن:
«هذه الفرقة هي أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثر اعتدالاً، وهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة، بل لم ترفعهم إلى مرتبة تقاربهم بل اعتبروهم كسائر الناس، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، ولم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ .
و«الزيدية» لا يؤمنون بأن الإمام الذي أوصى به النبي ﷺ ،قد عينه بالاسم والشخص، بل عرفه بالوصف، وأن الأوصاف التي عرفت تجعل الإمام علياً ـ رضي الله عنه ـ هو الإمام من بعده».
«... وعلى ذلك الأصل أقرَّ الإمام زيد إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ولم يكفر أحداً من الصحابة...».
«... وعلى ذلك نقول: إنَّ الزيدية قسمان: المتقدمون منهم وهم لا يعدون رافضة ويعترفون بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر».

الأشراف فيها السيد المطهر ابن الإمام شرف الدين(م ٩٨٠ هـ)، فكانت بينه وبين القائد التركي سِنان باشا حربٌ أسفرتْ عن خُضوع اليمن للدولة العثمانية[١].

إلاّ أنَّ الأتراك العثمانيين أبقوا هنا كالحجاز على نظام الإمارة ، وأعطوا الإمام الحرية في الشؤون الداخلية .

ولمَّا كان الإمام الدِّهلويُّ في الحجاز، كان الإمام (المنصور بالله الحسين بن المتوكّل على الله قاسمُ بن حسين) إمامُ اليمن ، الذي استمر عهدُ إمامته وإمارته من ١١٣٩ هـ إلى ١١٦١ هـ ، وكان أكثرُ سكان اليمن ـ رغم سُلطة المذهب الزَّيدي ورعايته الحكومية ـ من أهل السُّنة في العقائد ، والشافعية في المذهب .

وقد كانتِ اليمن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حيث وُلد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير (م ١١٤٢ هـ) صاحب «سُبل السلام» في القَرن الثاني عشر ، والعلامة محمد بن علي الشَّوكاني (م ١٢٥٥ هـ) صاحب «نيل الأوطار» في القَرن الثالث عشر ،ولعل الإمام الدهلوي أثناء إقامته بالحجاز يكون ـ لقرب المسافة والعلاقات العلمية ـ قد استفاد من مؤلَّفات علماء اليمن ، وخدَماتهم الجليلة في الحديث الشريف .

الوضع السياسي في إيــران:

كان قد مضى في إيران على الأُسرة الصَّفوية الحاكمةِ قَرنان من الزمن وجرىٰ عليها حسب سنة الله ـ تعالى ـ منَ الضَّعف والهرم ما يقول عنه المؤرِّخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون: «إن الهَرم إذا نزل بدولة لا يرتفع»[٢]، وقد استغلَّ هذا الوضع في إيران البلدُ المجاور أفغانستان ، وحملَ عليها في قيادة

---

(١) راجع للتفصيل «البرق اليماني في الفتح العثماني» للعلامة قطب الدين النهروالي الفتني الحنفي .

(٢) مقدمة ابن خلدون .

حاكمها الطموح الشجاع (محمود خان الغَزْنَويّ) عام ١١٣٤ هـ وفتح أصفهان ، فأَسر (حُسين شاه).

ثم أراد الأفغانيون فتحَ ما بقيَ من المُدن والأمصار ، ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفي للاستيلاء على مناطق أخرى والبقاء فيها ، ومات (محمود خان) بعد أن حكم ثلاثة أعوام ، عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م وانتشرتِ الفوضى في البلاد في عهد خَلَفِه (أشرف خان) ، فزحَف حاكم الروس (البطرس الأعظم) على المديريات الشمالية في إيران ، واضْطُرَّ ملك إيران إلى الصلح ، وخسرتْ إيران بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمة ، وكان (شاه إيران) في الأسر ، إذ رزق خَلَفه ووليُّ عهده طهماز قائداً محنكاً صاحب عزيمة وتدبير وسياسة ، وهو رغم كونه ينتسب إلى أسرة خاملة ، وكونه رجلاً من عامة الناس ـ استطاع بكفاءاته الممتازة ، وصلاحيته للقيادة أن يَنخرط في سِلك أولئك العصاميين الذين يُؤسسون الدولَ والحكومات ، كان ذلك نادر شاه.

نَادِرْ شاه أَفْشار:

أَجلس (نادر شاه) ، وليَّ العهد طهماسب على عَرش آبائه ، وكانت الدولة الصفوية تعاني السقوط والانهيار ، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط وكانت الفوضىٰ تسود البلاد ، وفُقدت الثقة بين الناس.

فأحسنَ (نادر شاه) استغلالَ هذا الوضع ونظَّم قوةً عسكرية جديدة ، ونَفخت رُجولته وطموحهُ وشجاعته روحاً جديدة في الإيرانيين ، فهبَّ كالعاصفة العاتية ، واستولى على البلاد وطرد الأفغانيين كُلِّياً من إيران عام ١١٤٣ هـ الموافق عام ١٧٣٠ م، ووقفتِ الجيوش الروسية عام ١١٤٦ هـ الموافق ١٧٣٣ م على بُحيرة الخزر (Caspiansea) وصالحهم مُصالحةً عزيزة مع إباء وشَمَمٍ ، ولم يدع العَربَ يتجاوزون الحدود الغربية ، واضطرَّ سُلطان الروم إلى الانسحاب من الشمال ، واستعادَ ولايات المملكة الإيرانية القديمة من المستولينَ عليها ، وتوسَّعت إيرانُ نتيجةً لكل ذلك حتى عادت عام

١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م إلى حدودها وثغورها القديمة ، وانتهتِ الأُسرة الصَّفوية عام ١١٥٠ هـ الموافق ١٧٣٧ م ، وسَيطر (نادر شاه) على إيران كلِّها فكان مَلكها الوحيد غيرَ مُنازع[(١)].

كان نادر شاه ـ حَسب تصريح مؤلِّف «موسوعة تاريخ العالم» ـ قَبِلَ عَرش المملكة على شَرط أن يتخلَّى الإيرانيون عن التشيُّع ويتبرؤوا منه ، وكان نادر شاه سُنياً عقيدة ، تركياً نسبة ـ والأتراك معروفون بشدة تمسُّكهم بالسنية ـ ولكن نادر شاه لم ينجح في استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السُّني ، لقد استولى قُوَّاده عام ١٧٣٧م على بلوجستان ، وبلخ ، وتم استيلاؤهُم عام ١٧٣٨ م على قندهار ، ثم توجَّه للاستيلاء على الهند إلى كابل ، وبشاور ، ولاهور.

واستولى عليها وهزمَ عام ١٧٣٩ م جيشَ الملك المغولي الجرَّار قرب دهلي ، واستولى على دهلي وَوَضع في رقاب أهلها السيفَ ، فأقام مَجزرة رهيبة[(٢)]، ولم يَسلب نادر شاه عرشَ المَغول بل أخذَ منهم جباية خمسمئة مليون دولار ، كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نَهر السِّند في مملكته ، وتمَّ استيلاؤه على بخارى وخوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠ م ، وكان هذا نهايةَ حملاتهِ التوسعية وسيطرتهِ ، ومن هنا بدأ التحوُّل في حياته.

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً ، ولكنه لم يكن يَملك من التدبير السياسي وصلاحية الإدارة والتنظيم شيئاً ، وكان من نتيجة محاولاته القضاء على التشيُّع[(٣)] أن اضطربت الأمور وعمت الفوضى ، وتعوَّد نادرشاه لقمعِ هذه

---

(١) ملخص من كتب «تاريخ إيران والهند».

(٢) انظر تفاصيل هذه الوقائع في الصفحات التالية.

(٣) يمكن أن تثار شبهة في تصريحات المؤرخين الغربيين وبعض المؤلفين المسلمين أن نادر شاه أراد استئصال مذهب التشيع من إيران بجد وإصرار، وأنه كان سنياً متعصباً، هل كان ذلك محاولة لتغيير العقائد نفسها والمذهب نفسه أم كانت سياسة اتخذها لأغراض أخرى؟ فإنه لايتضح لنا من حملاته على دهلي وإقامته بها وبأيِّ شيء في حياته أنه كان سني المُعتَقد، وأنه كان يريد سَوق إيران إلى راية السنية وتحت حكمها.

الاضطرابات والقضاء عليها الجورَ والظُّلم والعدوان ، وأرهقَ بلاده بجباياتهِ الباهظة ومُكوسهِ الظالمة ، وقُتِل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧ م.

حالةُ إيران بعدَ مَقتل نادر شاه:

لقد أدَّى مَقتلُ (نادر شاه) في إيران إلى فَساد الأمن واضطراب الأوضاع وطَوائف الملوك ، وبدأ يَحلمُ قادة جيشه بحكوماتهم المستقلَّةِ ، وتربَّع على عرشه بعد قتله ابن أخيه (عادل شاه) (١٧٤٧ م) الذي أعملَ السيف في أسرته ، وقتل جميع أفرادها ، ولم يَنجُ من بطشه إلا (شاه رخ) أحدُ أبناء الملك المقتول الذي كان حينئذٍ ابن أربعَ عشرة سنة ، وعُزل عادل شاه في ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم وسُملت عيناه.

أعقب ذلك ثورة في جيش إبراهيم ، فأَسرهُ ضُبَّاط جيشه ، ثم قتلوه ، ثم قُتل عادل شاه كذلك.

ثم استولت على إيران أسرة «زَنْد»، وحكم كريم خان زند (١١٦٤هـ ـ ١١٩٣هـ) الموافق (١٧٥٠ م ـ ١٧٧٩ م) على إيران تسعة عشر عاماً ، وجعل مدينة «شيراز» عاصمة مملكته ، وكان معروفاً بعدله ورأفته ، وأعاد إلى إيران بعد الحروب والمعارك الدَّامية الأمن والطمأنينة والسلام ، ولذلك حزنَ الناس على موته ورَثوه.

وخلفه عدد من الملوك الضعاف ، حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة في عهد لطف علي انقراضاً كلياً ، فقتل لطف علي عام ١٢٠٩هـ الموافق عام ١٧٩٤ م ، وخلا عرش إيران لأسرة قاجار ، ولا نريد أن نتعرَّض لهذا العهد وما يليه ، لأنه لا علاقة له بعهد الإمام الدِّهلوي.

أفغانستان وأحمد شَاه الأَبْدَالِي:

لقد كان بعضُ الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادي تحتَ سلطة إيران ، والجزءُ الآخر تحت سُلطة الهند ، وكان يحكم الجزءَ الثالث خوانينُ بخارىٰ ، واستقلت قندهار عام ١٧٠٦ م ، ثم استولى نادر شاه

على قندهار عام ١٧٣٧ م، وأخذ الحكم من أيدي الأفغانيين.

ثم استولى على أفغانستان كلِّها والجانبِ الغربي من الهند.

وجيء إلى (نادر شاه) في تلك الأيام بشخص كان يعرف بأحمد خان كأسير من أسرى الحرب، وأُعجب نادر شاه به، وجَعله في حاشيته وخدمه، فصار أحمد خان يتدرَّج في مراتب الرُّقي، ويَحوز على ثقة الملك، ويتمكَّن من نفسه، فلما قُتل نادر شاه، انتدب هو نفسَه وتولَّى زمام الولايات الأفغانية، وكان ينتمي إلى الفرع الدرَّاني (سدوزئي) من القبيلة الأبدالية، ولقب: «دردوران»، وسُمِّيت أسرته لأجل ذلك بالدُّرَّانية.

لقد أرسى أحمد شاه قواعد الحكومة للأسرة الدرانية، بل أَسَّس المملكة الدُّرَّانية، وكانت المملكةُ الأفغانية حين وفاته تحتوي على شرق إيران (مشهد)، وبلاد أفغانستان كلها، وبلوجستان كلها، وعلى كشمير وبنجاب في الناحية الشرقية، وهو يَستحق أن يُعدَّ من كبار المؤسِّسين للدول والحكومات، والقادة المحنكين العصاميين، والحكام العادلين الطيبين الذين يخشون الله، ويَستحق من حيث مجموع صفاتِهِ وخصائصه (إذا نظرنا إلى بيئته وحياته البدائية وفقره وقلة وسائله) أن يُعدَّ من الشخصيات العبقرية (Genius) النابغة، إنه جعلَ الهند كالسلطان محمود الغزنوي ساحة لحروبه وغزواته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م.

وقد اعترف عددٌ من معاصريه المعروفين الكبار بحنكته وذكائه وصلاحيته العسكرية، وتديُّنه، وحبه للعلم والعلماء، وطِيبِ نفسه وكرم طبعه، إنه وحَّد أفغانستان التي كانت تشتمل على وحدات متعددة منتشرة بعد مدة طويلة من الزمن، وضمَّ هذه الوحدات بعضها إلى بعض في صورةٍ وحدة قوية محكمةٍ ثابتة[1].

---

(١) وسيأتي عنه تفصيل أكثر في الباب التاسع في ذكر أحمد شاه الأبدالي.

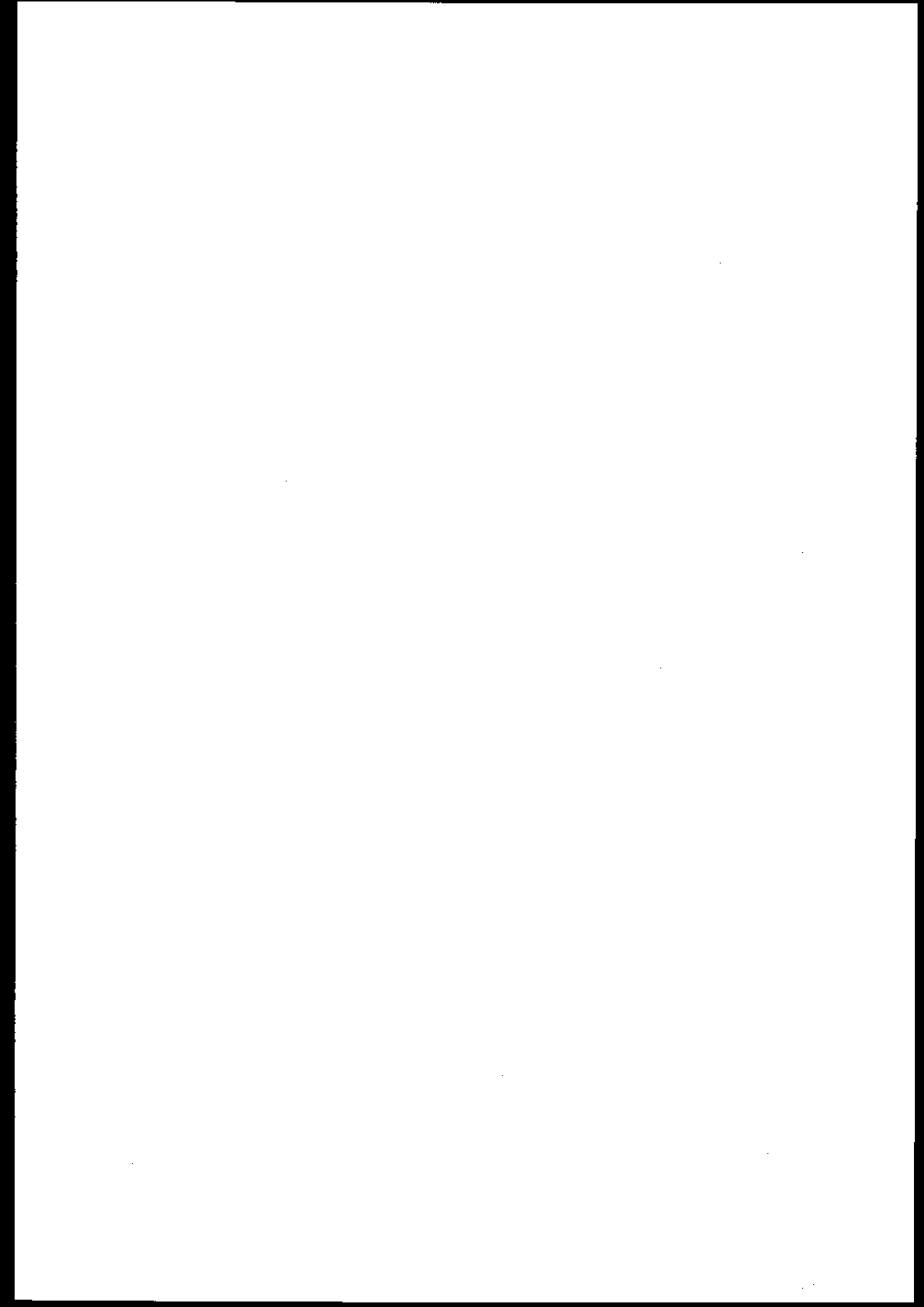
أفغانستانُ بعدَ أحمد شاه الأبدالي:

تُوفِّي أحمد شاه الأبدالي عام ١١٨٦هـ الموافق ٢٣/ أكتوبر عام ١٧٧٢ م بقندهار ، ومن المُؤسف أن خلفاءَه كخُلفاء السلطان العادل أُورنك زيب عالمكير ، كانوا ضُعفاء غيرَ أكفاء (وقد وقعت هذه المأساة مع أكثر مؤَسِّسي الدول والحكومات والفاتحين المظفَّرين والحكام الأقوياء)، فكان تيمور شاه الذي خلفه في السلطان ووَرث عنه هذه المملكةَ العظيمة الناشئة ، لا يمتُّ إلى والده العظيم العبقريِّ الطموح بأيِّ صلة في خصائصه ومزاياه ، فقد حكم عشرين سنة في ضعف واختلال كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علاماتُ السقوط والانهيار ومات عام ١٧٩٣ م ، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمود إلى أسرة «بازك زئي»[١]، التي لم تزل تَحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥ م[٢].

* * *

(١) انظر للتفصيل «سيرة سيد أحمد شهيد» بالأردوية، الجزء الأول «سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه»، ص: ٤٢٠ ـ ٤٢٣.

(٢) كانت هذه هي الأسرة التي واجهها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥.



الفصل الثاني
وضْعُ العالم الإسلامي العِلميُّ والدِّينيُّ

ستعرَّض ـ بعد أن استعرضنا العالم الإسلامي سياسياً وإدارياً ـ لدراسته علمياً ودينياً إذ إنَّ لها صلة قريبة بحياة الإمام الدَّهلوي وموضوعهِ وتخصصه وذوقهِ وعمله الإصلاحي والتجديدي.

نوابغُ القَرن الثاني عَشرَ الهجريُّ:

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمي والفكري وقصةُ نشاطاتهم العلمية التحقيقية والتأليفية أنَّ حياتهم العلمية والفكرية ونشاطاتِهم في مجالات العلم والبحث والتصنيف والتأليف لم تكن مُرتبطة بالتقدُّم السياسي ورُقيِّ الدُّول وازدهارها وفتوحها وانتصاراتها مثلما نجد في تاريخ الشعوب والمِلَل غير الإسلامية، فإنها تُعاني من الانحطاط العلمي وأزمةِ الرجال مع الانحطاط السياسي وانقلابِ الحكومات وسوءِ الإدارة والفوضى في البلاد. وإذا فَقدت تَشجيعَ الحكومات وإشرافها واحتضانها، وفَقدتِ الثقة بالنفس والشعورَ بالاستعلاء، فإنها تَجفُّ منابع فكرها وذكائها، وتموت فيها عواطفُ المسابقة والمنافسة وحب التقدم، وتَضعف دوافع العمل وأسبابُ الإنتاج.

أمَّا المسلمون فإنَّ شأنهم يختلف في ذلك عن غيرهم، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً ـ رغم انحطاطهم السياسي والفوضى الداخلية واضطراب الأوضاع ـ عباقرةٌ ونوابغ لا يبدو أنهم وليدو عهد السقوط والانهيار، ففي آخر القرن

السابع الهجري بعد سقوط بغداد ـ عاصمة المسلمين ودار خلافتهم ـ على أثر هجمات التَّتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ الذي حطَّم شرق العالم الإسلامي وأهلك الحرثَ والنسلَ ، وخرَّب الديار والبلدان التي كانت مراكز العلم والمعرفة مُنذ عدة قرون ، بعد كُلِّ هذا الدَّمار والسقوط والانهيار نَجدُ في أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابغ العلماء كشيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (م ٧٠٢ هـ) مُحدِّثاً ، والعلامة علاء الدين الباجي(٧١٤هـ) أصولياً ومتكلِّماً ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحرَّاني (م ٧٢٨هـ) إماماً ومجتهداً ، والعلامة شمس الدين الذَّهَبي (م٧٤٨هـ) محدِّثاً ومؤرِّخاً ، والعلامة أبي حيَّان النحوي (م ٧٤٥ هـ) نحوياً ومفسِّراً ، وأمثالهم من نوابغ العلماء وعباقرة الفنون .

والسِّرُّ في ذلك أن دوافعَ النُّبوغ في العلوم الدينية والبواعث على خدماتها ونَشرها والحفاظ عليها مما تستقرُّ في داخل هذه الأمة وباطنها ، لا في الخارج من إشراف الحكومات وتقديرها وتشجيعها ، وهذه الدوافع الخفية الباطنة هي الرغبة في الحصول على رضا الله ـ تعالى ـ والقيام بواجبِ نيابة الأنبياء والمرسلين والشعور القوي بالحفاظ على الدين ونقلهِ مصوناً من جيل إلى جيل .

فبالرَّغم من أنَّ هذا العهد الذي نؤرِّخه هو عهد الاضطرابات الداخلية في البلاد ـ وقد بدت في الأفق علامات سقوط الدول والحكومات المسلمة حتى المملكة العثمانية العظيمةُ ظهرت عليها أمارات الهَرم والسقوط ، وكانتِ البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تَشهدُ صراعاتٍ وحروباً داخلية للتوصل إلى الإمارة والسلطان ـ كان العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند وغيرها من بلدان العالم الإسلامي منصرفين إلى التَّدريس والإفادة ، وكان الباحثون والمحقِّقون والمفكِّرون مُقبلين على التأليف والتصنيف والبحث والتحقيق .

وكان المشايخ والصوفية الربَّانيون متَّجهين إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب ، متصفين بالفضائل الروحية من صفاء القلب وإشراق الروح ، وقد بلغ

بعضُهم من علو المكانة وجلالة الشأن ما لا يوجد له نظير في الأقطار المترامية والبلاد القاصية والدانية في الماضي القريب.

خُذْ مثلاً علم الحديث الشريف، تجد فيه المحدِّثين الكبار كالعلاَّمة أبي الحسن السِّندي الكبير (م ١١٣٨ هـ) الذي درّس مدة طويلة في الحرم الشَريف، وتعليقاتهُ على الكتب الستة معروفة بالهوامش الستة، والشيخ محمد حياة السِّندي (ت ١١٦٣ هـ) الذي يزدان به كذلك هذا العهد، والشيخ إسماعيل العَجْلُوني المشهور بالجرَّاحي (ت ١١٦٢ هـ) الذي كان من المحدِّثين الكبار في الشام وكتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»[1] من أنفعِ الكتب وأجمعها في هذا الموضوع، ولعلَّه أكبر مجموعة من مجاميع الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ويتَّضح من دراسة الكتاب ما يملكه المؤلِّف من سَعة النظر والإحاطة بالموضوع والأخذِ بالإنصاف والاحتياط، وتشتملُ هذه المجموعة عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المُشتهرة بين الناس التي لا يُعرف تخريجها بصفة عامة، فعرَّف بها المؤلِّف وخرَّجها.

وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف حيث كان الشيخ أبو طاهر الكوراني الكُردي، والشيخ حَسن العجيمي يُلقيان الدروس.

وكان في اليمن الشيخ سليمان بنُ يحيىٰ الأهدل (ت ١١٩٧ هـ) مُحدِّث اليمن الجليل، ومن أكبر المحدِّثين وأجلِّهم في عصره خدمةً للحديث ونشراً لعلوم السنَّة المطهرة، وكان الشيخ محمد بن أحمد الإسفراييني (ت ١١٨٨ هـ) من كبار عُلماء الحديث والأصول، وهو صاحب «الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات»، وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسني الصَّنعاني (ت ١١٤٢ هـ) محدِّثاً جليلاً، ومحقِّقاً كبيراً، ومن مؤلَّفاته الجليلة «سبل

---

(١) نشرته «مكتبة التراث الإسلامي» بحلب ـ سورية، [ومؤسسة الرسالة ببيروت بتحقيق الشيخ أحمد قَلاَّش].

السلام» شرح «بلوغ المرام»، و«توضيح الأفكار» شرح «تنقيح الأنظار».

ويلمع في نوابغ هذا القَرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السُّنبل (ت ١١٧٥ هـ) الذي يَعتمد أكثر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث[١]، في رواياتهم وإجازاتهم، ومن كبار المحدِّثين كذلك العلامةُ محمد بن عبد الباقي الزَّرْقاني (ت ١١٢٢ هـ) الذي وَصفه المؤرِّخون بقولهم: «خاتمةُ المحدِّثين بالديار المصرية»[٢].

ومِن العلماء البارزين في هذا العهد في تَبحُّرهم العلمي، وكثرةِ التدريس والإفادة، والتصنيف والتأليف، الشيخ عبد الغني النَّابلسي (ت ١١٤٣ هـ) الذي كثر تلامذته والآخذون عنه، وَيصفونه: «بالأستاذ الأعظم»، ويقال: إنَّ مؤلَّفاته تبلغ مئتين وثلاثة وعشرين.

وقد كان العلامة إسماعيل حقِّي (ت ١١٢٧ هـ) أيضاً من علماء هذا العصر الذي ألف كتابه «روح البيان في تفسير القرآن» ويعرف بالتفسير الحقِّي كذلك.

وكان الشيخ عبد الله بن حسين السُّوَيدي (ت ١١٧٤ هـ) من علماء بغداد، صاحب مؤلَّفات كثيرة[٣].

وتوجد في هذا العصر عدا المدارسِ والجامعات القديمة كالجامع الأزهر وجامع الزَّيتونَة بتُونس، وجامعة القرويين بفاس ـ المغرب ـ أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية، والمدرسة الشبلية، والمدرسة العذراوية[٤].

ويتكرَّر من بين الطُّرق الصوفية ذكر الطرق النقشبندية، والخلوتية،

---

(١) وهو المعروف بالأوائل السُّنبلية في أوائل كتب الحديث.

(٢) انظر للتفصيل «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار» و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي.

(٣) انظر «سلك الدرر» و«البدر الطالع».

(٤) انظر «سلك الدرر».

والشاذلية ، والقادرية ، والرفاعية ، ويظهرُ أنَّ مشايخها وأصحابها مُنتشرون من تركيا إلى أندونيسيا .

نَظرةٌ على الذّوق العلمي والأدبي والرُّوحي في العالم الإسلامي:

يَغلب على أصحاب العلم والمثقَّفين في هذا العصر ذَوقُ الأدب والشعر وثقافةُ المجالس والنوادي ، واللطائف والطرائف ، والألغاز والأحاجي ، ولا يبدو أنهم حازوا فيها الفضلَ والسبق ، أو ابتكروا نوعاً جديداً ، بل يطَّرد فيه السَّجع وتكثرُ القوافي ويَغلبُ التكلُّف والتعمل ويتجلَّى تأثيرُ الحكومة التركية على[1] الأوساطِ العلمية والأدبية ، فلا يُعثر على باحِثٍ محقِّق ومُفكِّر كبير إلا بعدَ بَحثٍ كبير ، وتزخرُ المجلَّدات الأربعة لـ«سِلك الدُّرر» للمرادي بالقصائد والغزليات والأبياتِ والمقطوعات الشعرية ، ويكثُر فيها ذكر المكاشفاتِ والكرامات ، والأوهامِ والخرافات .

ويتوجَّـه علماء البلدان التي هي تحت السُّلطـة العثمانيـة ونوابغها وأصحاب الفضل والكمال فيها إلى دار الخلافة «القسطنطينية»، ويتولَّون مناصب الحكومة ، والعلوم العقلية والحساب والهندسة وعلوم البلاغة والفقه وشيء من الحديث هي الأجزاءُ الأساسية للمناهج الدراسية .

وتنتشرُ الرُّقى والتمائم ، وقد نظم بعض العلماء متن «القُدوري»، والمُتون الفقهية الأخرى .

وكان عددٌ من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية ، وكان الناس لاسيما في الشام يألفونَ اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية ، وكان عددٌ كبير من علماء تركيا نازلين بسورية ، ويتكلَّمون بالعربية الفصحى ، وكان التدريس في الجامع الأموي بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز ، وكان بعض العلماء

---

(١) طبيعة الأتراك في طبيعة السياسة والإدارة والعسكرية (Martial Race) ولانجد فيهم في عهد حكمهم الطويل كبار العلماء المحققين والمؤلفين البارزين أمثال العلامة أبي السعود وطاش كبري زاده وخليفة جلبي إلا قليلاً جداً.

والمشايخ يُلقون الدروس في «الفتوحات المكية» وآخر يُدرِّس «فصوص الحكم» وكان يدرس «شرح الجامي» و«مختصر المعاني» في الشام أيضاً، وكان التَّصوفُ هو السِّمة الغالبة حتى على العلماء والمحدِّثين، وكان الشيخ عبد الغني النَّابلسي وعددٌ من العلماء والمشايخ يقولون بوحدة الوجود[١].

سَيطَرةُ العُلوم العَقليّة في إيرانَ وتأثيرها على البُلدان المجاورة:

لقد أَسَّس إسماعيلُ الصَّفَويُّ (٩٠٥ ـ ٩٣٠هـ) في بداية القرن العاشر الهجري، الحكومةَ الصفوية في إيران، وجعلَ المذهبَ الشيعيَّ هو المذهبَ الرسميَّ في البلاد، وقضى على المذهب السُّني، ومحا آثاره إلى حدٍّ كبيرٍ، وبذلك انقطعت صلة إيران ـ تلك البلاد الخصبة التي أنتجت في جانب أئمَّة فنِّ الحديث والأساطينَ الأربعة لبنيان الحديث الشامخ، وهم الإمام مسلم[٢]، والإمام أبو داود، والإمام النَّسائي، والإمام ابن ماجه، الذين خضع الناس لإمامتهم وجلالة شأنهم وأنتجت في جانب آخر، كبارَ الفقهاء النابغين، والعلماء المتبحرين كالإمام أبي إسحاق الشِّيرازي، وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجُويني، وحجَّة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي ـ وأمثالهم من نوادر الزمن ونوابغ العلوم، لقد انقطعت صلة إيران في عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذي يمتد على قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف والفِقه والعلوم النافعة المفيدة.

فقد كان الملوكُ الإيرانيون يميلون إلى الحكمة والفلسفة، لأنَّ الشيعة لم تزل مُتعلقةً بالفلسفة والاعتزال، وقد كان الفيلسوف والرياضي المعروف خواجه نصير الدين الطُّوسي (ت ٦٧٢ هـ) مؤلِّف «شرح إشارات ابن سينا» ـ الذي كان

---

(١) انظر: «سلك الدرر»، الأجزاء: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤.

(٢) [الإمام مسلم عربيٌّ خالصُ النسب من قبيلة «قُشَيْر» المعروفة، التي سمِّيت باسم جدِّها: قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة].

شِيعياً ومعتزلياً ـ مستشاراً خاصاً لهولاكو خان وأميناً لديه[١].

وكانت هذه الثِّقة والزُّلفى عند الملك التَّاري سبباً كبيراً في نشر علوم الفلسفة والرياضيات في المملكة التتارية؛ التي كانت تحتوي على تركستان وإيران والعراق ، فقويت فيها الميول إلى العلوم العقلية.

وفي عهد الحاكم الثاني الملك طهماسب (ت ٩٨٤ هـ) للمملكة الصَّفوية نفسِها ، لمع نجمُ مِيرغياث الدين منصور (ت ٩٤٨ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً ومؤسِّساً للمدرسة المنصورية بشيراز ، وتولَّى منصب الرئاسة فيها في عهد الملك طهماسب مدة طويلة ، وانتشرَ تلامذتُه إلى الهند ، فكان الأمير فتحُ الله الشيرازي (ت ٩٩٧هـ) من تلامذته الذي قصدَ الهند في أواخر القرن العاشر الهجري ، وولَّاه الملك (أكبر) منصبَ الصدارة ، وهو الذي طَبع المناهج والمقررات الدراسية والطرائقَ التعليمية في الهند بالطابع العقلي ، وترك تأثيراً عميقاً استمر مفعولهُ إلى القرن الثالث عشر الهجري ، وهو الذي جاء حسب تصريح العلامة آزاد البَلْكَرَامِيّ ـ بمؤلَّفات صدر الدين الشيرازي والمير غياث الدين منصور ، والفاضل (مِرزا جان) (ت ٩٩٤ هـ) إلى الهند ، وقرَّرها في المدارس الإسلامية.

وطلعت شخصية المِيْر باقَرْ دَامَاد (ت ١٠٤١ هـ) في منتصف القرن الحادي عشر الهجري الذي سيطر بذكائه وعقليته وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند ، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوة في بلاد السلطان عباس الصَّفوي (ت ١٠٣٧ هـ) وظلَّ كتابه «الأفق المبين» غاية ما يُحلِّق في أجوائه المعلِّمون ، والكتابَ النهائيَّ في الأوساط الدراسية.

ثم برزت شخصيةُ العلامة صدر الدين الشِّيرازي (ت ١٠٥٠ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً طليقاً ، حُرَّ التفكير ، ومؤلَّفاه «الأسفار الأربعة»

---

(١) انظر «تاريخ أخبار وآثار خواجة نصير الدين الطوسي» نشر جامعة طهران، إيران.

و«شرح هداية الحكمة» المعروف بـ«صدرا»[١] يحملان صيتاً ذائعاً وشهرةً عالمية.

لقد تعاون الذَّوق الإيراني ـ الذي تعود منذ قرون على صُنع القُبة من الحبة وتشقيق الشعرة ـ مع هذه النزعة العقلية الفلسفية، وبثٌّ شبكة التقعير في الألفاظ وتوليد الطرائف والنُّكات وتعقيداتِ الدعاوى والمفروضات من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند، التي لم يكن مَثَلُها إلا كما يقال «تمخَّض الجبلُ فوَلد فأراً».

لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تُسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عَجَم القرن العاشر إلى عرب القرن الثاني عشر، ولم تكن هناك وسيلةٌ للعلماء لإظهار فَضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حلُّ عبارات المؤلِّفين السابقين، وشرحها والتحشية عليها، ومحاولات فهمها وإفهامها، وكان أدنى مقال وانتقادٍ لفائدتها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباوة وسوءِ الفهم.

لقد تركت إيرانُ تأثيرها ـ بطبيعة الحال ـ على أفغانستان، ولاسيما على «هرات» المدينة الغربية لأفغانستان، فكانَ القاضي محمد إمام الهَرَوي الكابُلي (ت ١٠٦١ هـ) كسفير لأساتذة إيران، ونوابغها في المنطق والفلسفة، ورفع ابنه القاضي محمد زاهد، المعروف بمير زاهد (ت ١١٠١هـ) منارَ هذه العلوم وزاد في قدرها ومكانتها، وقد أمضى مُعظمَ حياته في الهند، ونالت حواشيه الثلاثة على «شرح المواقف» و«شرح التهذيب» و«الرسالة القُطبية» التي تعرف بـ«الزواهد الثلاثة» قبولاً كبيراً ورواجاً عظيماً في الأوساط الدِّراسية في الهند.

ولم يكن هو بجانب فضلهِ ونبوغه في العلوم العقلية عالي الكَعب في الفقه

---

(١) كتاب «صدرا» مقرراً في المناهج الدراسية في الهند من القرن الحادي عشر الهجري، ولم يكن الطالب يعد قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لأي مدرسة من مدارس الهند.

والحديث والعلوم الشرعية ، حتى إنه لم يكن يَثق بنفسه في تدريس كتاب متوسِّط مُتداول في الفقه كـ«شرح الوقاية» ، فقد جاء في «ملفوظات الشيخ عبد العزيز الدِّهلوي» وهي مجموعة كلماته التي دوَّنها بعض أصحابه : كان أحدُ الأمراء يقرأ على (مير زاهد) كتاب «شرح الوقاية»، ولكنه ـ لعدم ثقته بنفسه في تدريس هذا الكتاب ـ لم يكن يُدرِّس إلا بعد أن يحضر الجد[١] ، (وهو الشيخ عبد الرحيم ، الذي كان أحد تلامذته نفسه في العلوم العقلية) .

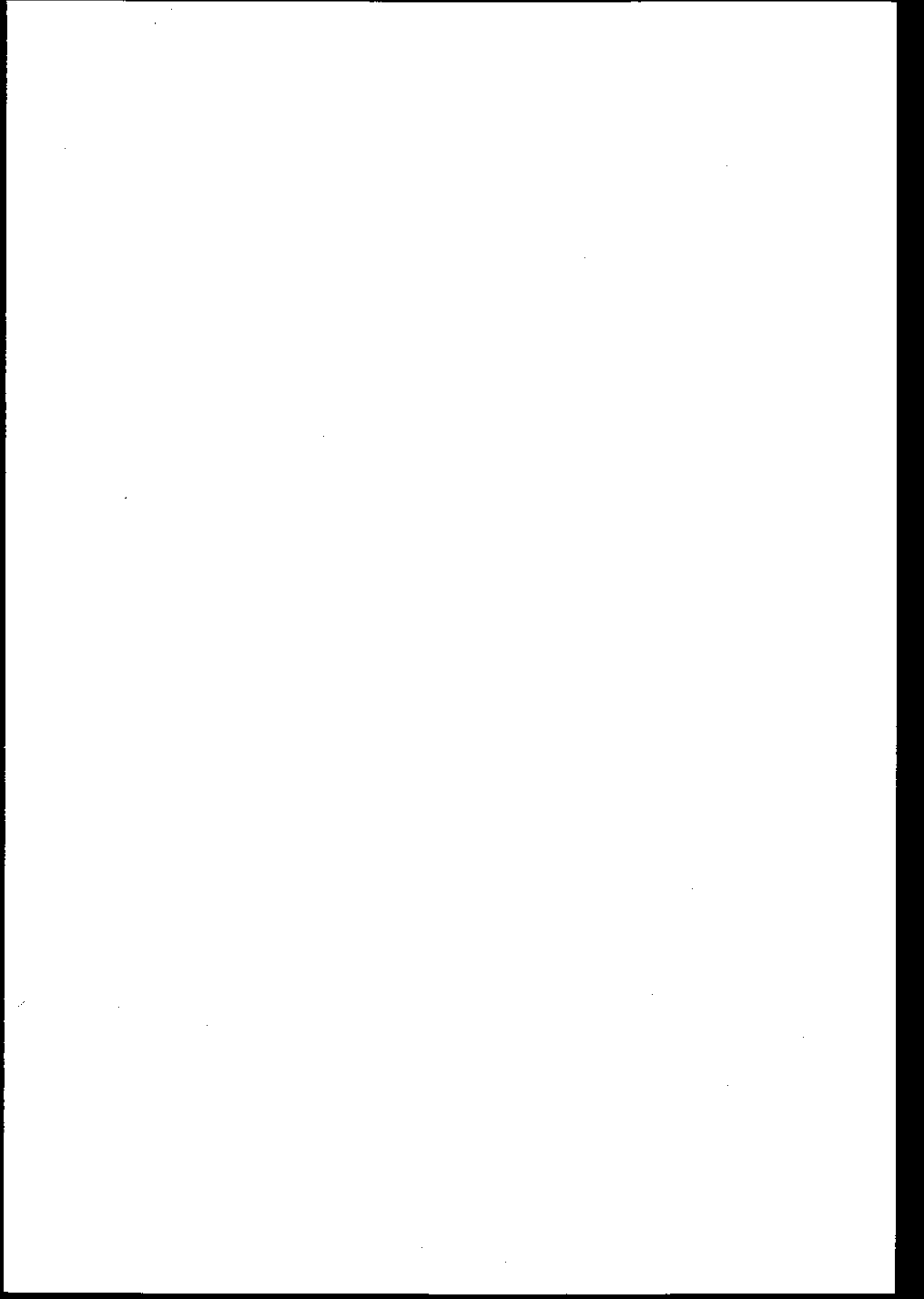
وكان خَوضهُ ـ بجانب ذلك ـ في العلوم العقلية إلى حدٍّ أن كان يقول : «كلام المرزا جان هو رُوحي ، وكلام أخوند هو رُوحُ روحي»[٢] .

ولم يكن هذا التأثيرُ لإيران على الهند وأفغانستان فحسب ، بل كانت إيران تترك تأثيرها على العراق والشام أيضاً ، فكان يُنظر هناك كذلك إلى علماء المعقولات بعين التقدير و الاحترام ، وكانت لهذه العلوم مهابةٌ في القلوب وجلالةٌ في النفوس ، وكانت كُتبها مقررةً في المناهج الدراسية .

* * *

(١) ملفوظات شاه عبد العزيز .

(٢) المصدر السابق: ص: ٨٣.



الفصل الثالث
الوَضْعُ الخُلُقي والاجتماعيُّ والعقائديُّ العام

لقد كان العالم الإسلامي ـ رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث ووُجودِ عددٍ كبير من النوابغ وأصحابِ الفضل والكمال وانتشارِ السَّلاسل والطُّرقِ الصوفية في الناس ، والعنايةِ بالحديث النبوي الشريف ، وتَديُّنِ كثيرٍ من الملوك والحكام ، ورُغم وجود تلك الحكومات المسلمة التي كانت تدين بالإسلام وتَدين بالشريعة الإسلامية في كثير من نواحي الحياة العملية وقوانين الأحوال الشخصية ، ووُجود المدارس آهلة والمساجد معمورة ، وكون الجمهور وعامة المسلمين يحبون الإسلام ويَدينون به ، ويعتقدون في المشايخ والصالحين ، ويُحافِظون على أركان الدين وفرائضه ، ولا تخلو قلوبهم من الحمية الإسلامية ـ كان العالم الإسلامي رَغم كل ذلك يعاني من الجمود والانحطاط ، وقد تسرَّبتِ الأدواء إلى الأخلاق والاجتماع ، وقَبل المسلمون كثيراً من العادات والشعائر والتَّقاليد العجمية غير الإسلامية ، وكان الحكّام والأمراء أنانيين قد رَكبوا رؤوسَهم وعملوا بأهوائهم ، وكانتِ الفوضى في الدول والحكومات.

وقد ألّهت طبقةَ الأمراء والأثرياء أموالهم وثَرواتهم ، وتسربتْ إليهم أخلاق المُترفين ونزعاتهم ، وسيطرتْ على كثير من طبقات المجتمع عادةُ الكسل والتواكل والبطالة ، والتعلُّق بحواشي السلطان ، والتقرُّب في البلاد ،

والإطراءُ والتملّق ، وكانت طبقاتٌ أخرى تهيم في الأوهام والخرافات ، وكانت تَتراءى نماذج عبادة القبور وتقديس الأولياء وتعظيمهم إلى حَدّ التأليه وتعدّي حدود التوحيد ، حتى ظهرتْ مظاهر الشِّرك الجلي في بعض المواضع .

وقد صوَّر المؤلف الأمريكي الدكتور لوثروب استودر (Stoddard Lothrop) في كتابه الشهير«New World of Islam» العالَمَ الإسلامي في القرن الثامن عشر المسيحي ، وهو إن كان يُوجد فيه إفراط وغلوٌّ في بعض المواضع ، ولكنه بمجموعه ليس تصويراً خطأً [١] للعالم الإسلامي حينذاك ، وقد جاءتْ فيه جوانبُ كثيرة لا يَنتبهُ لها من يعيشون داخله ، والشاهدون له كلَّ حين ، وتَسترعي انتباه الزائرين الجُدد والمشاهدين لأول مرة ، وسوفَ لا يكون خطأً ولا غير لائق بالمكان أن ننقُل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نَتحمَّل مسؤولية صحته مئة في المئة ، يقول المؤلف الأمريكي :

«في القَرن الثامن عشر كان العالَم الإسلاميُّ قد بلـغ من التضعضع أعظـمَ مَبلغ ، ومن التدني والانحطاط أعمَق دَركه ، فارْبدَّ جَوُّه ، وطبَّقت الظُّـلمـة كل صَقع من أصقاعه ورجا من أرجائه ، وانتشَر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي» .

«واستغرقت الأممُ الإسلامية في اتِّباع الأهواء والشهوات وماتتِ الفضيلة في الناس ، وساد الجهلُ ، وانطفأتْ قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبتِ الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يُرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المُستبدِّين الغاشمين كسُكَّان تركية وأواخر ملوك المغول

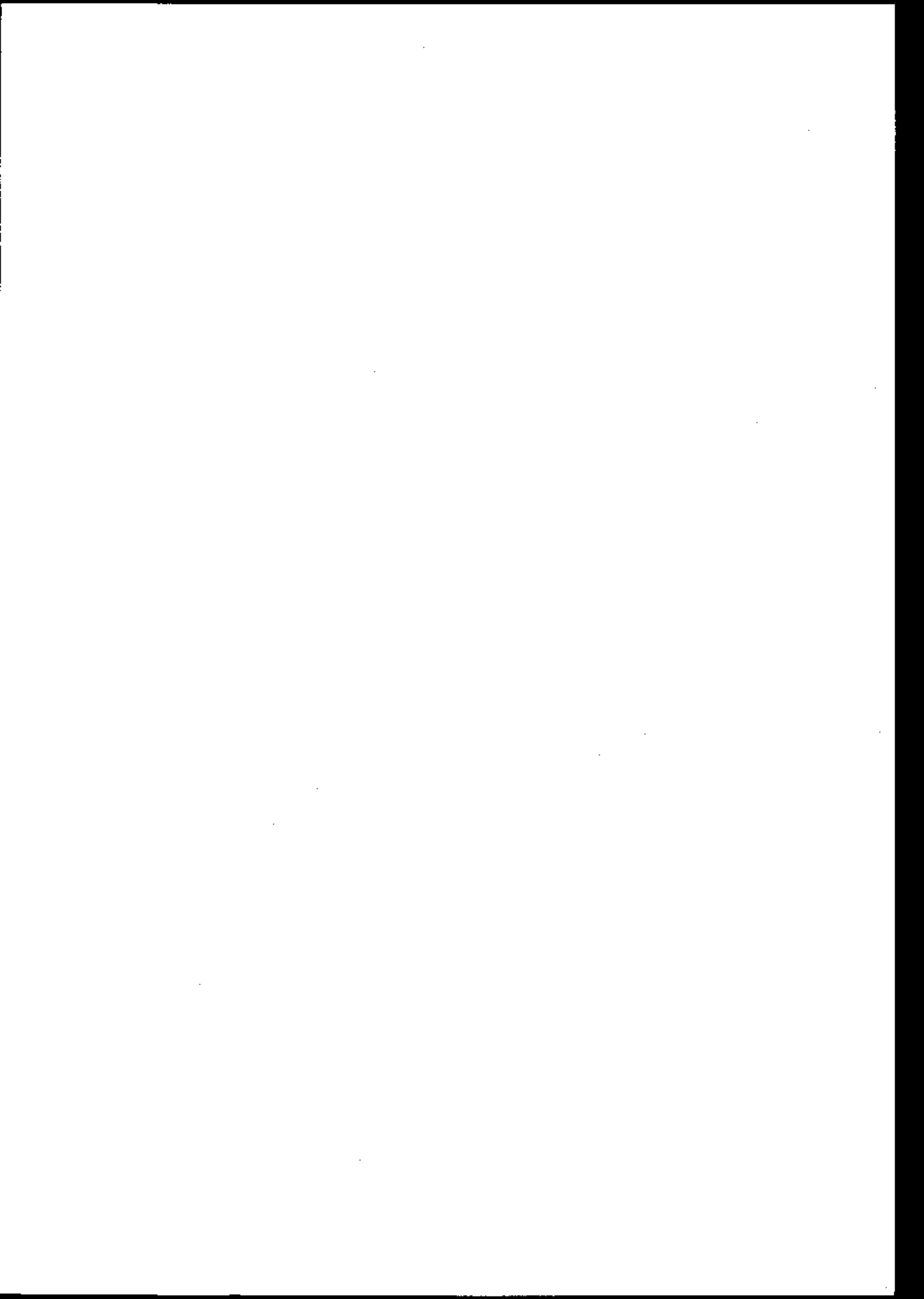
(١) لقد صدَّق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامي واستحسنه ورآه أمسَّ بالحقيقة والواقع أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في حواشيه الشهيرة علىترجمة هذا الكتاب للعربية التي نشرت باسم «حاضر العالم الإسلامي» فقال معلقاً على هذا الوصف «لو أن فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي ستوارد» (ش).

في الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشيَّ القوة مُتلاشي الصِّبغة ، وقام كثيرٌ من الولاة والأمراء يَخرجون على الدولة التي هم في حكمها ويُنشئون حكومات مستقلَّة ولكن مستبدَّة ، كحكومة الدولة التي خَرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع مَن في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثُر السَّلب والنَّهب ، وفُقد الأمن ، وصارت السَّماء تُمطِر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجالُ الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق إرهاق ، فغُلَّت الأيدي وقُعد عن طلب الرزق ، وكان العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، وبارتِ التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيما إهمال».

«وأمَّا الدِّين فقد غشيته غاشية سوداء ، فأُلبست الوحدانية التي علمها صاحب «الرسالة» الناسَ سُجفاً من الخُرافات وقُشور الصوفية ، وخَلتِ المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عديد الأدعياء الجهلاء ، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسُّبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحجِّ إلى قبور الأولياء ، ويُزيِّنون للناس التماسَ الشفاعة من دُفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان ، وانتشرتِ الرذائل ، وهُتكت سِتر الحُرمات على غير خَشيةٍ ولا استحياء»[1].

* * *

(١) حاضر العالم الإسلامي (تعريب الأستاذ عجاج نويهض): جـ ١ص : ٢٥٩ ـ ٢٩٠.



الفصل الرابع
الهند

١ـ الوَضع السّياسي:

وُلد الإمام وليُّ الله الدِّهلوي قَبل وفاة السلطان أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر (ت ١١١٨ هـ) بأربع سنين ، عام ١١١٤هـ ، وقد كان السلطان عَالمكير في ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ ، أكبرَ سلاطين شبه القارة الهندية بعدَ الملك أَشَوْكا (إذا كانت البيانات والتصريحات عن سعة مملكته وعظمَتها صحيحةً معتمدة) وكانتْ مملكتُه وحكومته أوسَع الحكومات التي قامت في الهند ، يقول مؤلِّفو «تاريخ الهند» Cambridge History of India :

«كانتْ حُكومة أورنك زيب من غَزْنَة إلى شَتَّا غَوْنغ ، ومن كشمير إلى كَرْنَاتَك»[1].

ويقولُ المؤرِّخون الآخرون: «لم تَقُم في الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنجليز وغلَبتهم مثلُ هذه الحكومة (حكومة أورنك زيب) الواسعةُ الأرجاء ، الطويلةُ الأبعاد»[2].

وقد فتح (مِير جُمله) في عهده وبإيعاز منه ولاية «آسام» لأول مرة (التي

---

(١) Cambridge History of India,VOL. 4P.316.

(٢) Muslim Rule in India,D.P Mahajan. Delhi,1917 Cambridge History of World.P.175 Delhi 1970.

كانت ولا تزال منطقة مستقلة عن الهند[1] في لغتها وثقافتها ومدنيتها، وديانتها وسلالتها) وضمَّها إلى الهند.

وبالرغم من تعليقات وانتقادات من المؤرِّخين الغربيين والمؤرخين الهندوس التي ليس الدافعُ إليها إلاّ حميَّة أورنك زيب وحمايته للإسلام[2]، فإنَّ قوة إرادته التي لا يوجد لها نظير، ورَباطة جأشه، ومقدرته الإدارية والتنظيمية، وحياته البسيطة الزاهدة وبطولته وشجاعته؛ من الحقائق التاريخية التي لا يَختلف فها اثنان، ويَعترفُ بها جميع المؤرِّخين[3].

أَوْرَنك زَيْب عَالَمْكِير:

وجَّه السلطان أورنك زيب بعدما تولَّى زمام الأمور كُلَّ همِّه إلى القضاء على آثار العهد الأكبري المخالفة للإسلام، والحدِّ من تأثير التشيُّع (الذي كان أكبرُ مراكزه في جنوب الهند.

ولذلك صرف عالمكير الجزءَ الأكبر من حياته وطاقاتِه للسيطرة عليه) واستئصال التأثيرات الحضارية لإيران المختلطة بالنزعات المجوسيَّة التي دخلت في عهد الملك (أكبر)، وكانت تُوجد في أشكال التقويم الإيراني، وعيد النيروز.

وعَيَّنَ المَنصب الشَّرعي للمُحتسِب، ليردعَ الناس عن ارتكاب المحرَّمات والمنهيات، وعطل كثيراً من أنواع الدَّخْل المحرَّمة التي كانت تحصل بها

---

(١) انظر للتفصيل «مآثر عالمكير» لمحمد ساقي مستعد خان، ص: ٩٣-٤٠ طبع كلكتة عام ١٨٧١م، و«وقائع سيرو سياحت» (مذكرات السياحة) للدكتور برنير Dr.berner ص٢٩٤.

(٢) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» للمؤلف الجزء الثالث (الإمام السرهندي).

(٣) انظر كتاب استينلي لين بول بعنوان «أورنك زيب» وكتاب ظهير الدين الفاروقي، بعنوان Aurangzeb And His Age وكتاب جاونات History of Aurangzeb ومقالات العلامة شبلي النعماني «عالمكير».

للحكومة ثرواتٌ طائلة ، ووقفَ الرقص والغناء ، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان التي كانت تُشم منها رائحة التقديس .

وعيَّنَ القُضاة الشرعيين ، وخوَّل لهم حقوقاً وسُلطة كبيرة وتولَّى ـ تيسيراً للقضاة وتطبيقاً للقوانين الشرعية وتنفيذاً لها في سائر مملكته ـ تدوين المسائل الفقهية ، وترتيبَها من جديد ، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة باسم «الفتاوى العالمكيرية» التي اعتبرت في مصر والشام أيضاً حيث تعرف باسم «الفتاوى الهندية» مصدراً مُعتمداً كبيراً من مصادر القانون الإسلامي .

وألغى عاداتِ تقبيل العَتبة والأرجل غير الإسلامية عند التحية والتسليم ، وكلَّ ما يخالف التوحيد ، وأعادَ العمل بسُنة التحية الإسلامية ، وبالجُملة فقد كان كما يقول الدكتور إقبال في بيتٍ من شعره :

«كان فَراشةً لشمعةِ التوحيد ، وكان في بَيت الأصنام والأوثان كإبراهيم عليه السلام»[1] .

وعلاوةً على هذه المآثر الإصلاحية الثورية ـ التي تَحملُ قيمة دينية كبيرة ـ كانتْ من أكبر مزاياه وأبرزها ، يَقظتُه وذكاؤه ، وجدُّه ونَشاطه ، واهتمامه بالمسؤولية ، ومعرِفتُه الدقيقة بكل صغير وكبير في أمور دولته ، ومحاولتُه الهيمنة الكلية على إدارة البلاد ونظامِها ، الأمر الذي يُعتبر من الشروط الأولية لأيّ حاكمٍ من حُكام هذه المملكة الواسعة العريضة ، إنه كان قد كتب إلى والده السلطان شاهْجَهَان ـ وتَشهدُ عليه حَياته وتُؤيِّده ـ :

«إنِّني لا يمكن أن أتَّهم بالكسل والفتور»[2] ، وقال مرة وهو يردُّ على كلامِ أحد الأمراء الذي أشار عليه بألا يتحمَّل المجهودات الشاقة المُضنية في أمورَ

---

(١) [ترجمته العربية شعراً:

كان إبراهيمُ بيت الصنم ... في لظى الحقّ فراشاً يرتمي

«ديوان إقبال» (١/ ٢٠٠)، طبع دار ابن كثير بدمشق].

(٢) انظر «ظفرنامه شاهجهان».

الدولة (فإنَّه يخاف منها الإضرار بصحة الملك) فقال: إنَّ ربي ابتعثني لأن أجتهدَ وأكدَح للناس، وأنشد بيتاً من شعر السَّعدي ما معناه:

«لا تنَمْ غافلاً فإنَّ النوم حرامٌ على قائد القوم» [١].

إنَّ هذا الاطلاع الواسع والمعرفةَ الدقيقة الشاملة بإدارة البلاد، وشؤونها ـ رغم سعة الدولة وانتشار أطرافها ـ ليس إلا عمل ذلك الرجل العصامي الذي يحمل إرادة حديدية، وجسداً حديدياً، وشعوراً بالغ الغاية بالمسؤولية وخشية الله تعالى في السر والعلن.

ومِن المُدهش الغريب أنَّ معرفته بالكليات ومهام الدولة وشؤونها الكبيرة، لم تكن تحول دون معرفته بالجزئيات، بل كانت معرفته بالكليات لا تقل عن اطّلاعه على جزئيات الدولة، إنه كان في دكن (الجنوب)، ولكنه كان في الوقت نفسه خبيراً بما يجري في شمال الغرب والشرق، وكان لأجل اطلاعه الشخصي، وبالاستعانة بكتّابه يفحص بنفسه تفاصيلَ الأمور الإدارية ويختبرُها، وكان عُماله لذلك دائماً في حالة حَذَرٍ وتَهيؤ، وهو الذي يُعيِّن الكتّاب والمحرِّرين بنفسه [٢]، ويُعبر هذا البيت من شعره عن قلبه وشعوره بالمسؤولية، ويُصوِّر ما يواجهه ـ نتيجة هذا الشعور الزائد ـ من مشاكل ومعضلات، فقد كان يُنشد هذا البيت كثيراً الذي معناه:

«إنَّ هموم العالم وأحزانه كثيرة، ولا أحملُ إلا قلباً واحداً، فكيف أَحمِلُ رمَال هذه الصحراء في زُجاجةٍ ساعةً واحدة» [٣].

وكان يُنشِد أحياناً هذا البيت ويأخذ به في العَملِ والتطبيق، ومعناه: «لا أقول لك ضيع أو فكر في المنفعة، أيها الغافل عن الفُرص المتاحة لك كُن أسرعَ ما تكون فيما تُحب أن تكون».

---

(١) انظر «أورنك زيب» لاستينلي لين بول ص: ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٧٩.
(٣) تاريخ هندوستان: ص: ٤٧٥، ج: ٨.

خلفاء عَالمكير الضّعفاءُ:

وخَلف أورنك زيب على عرشه العظيم المهيب (الذي كان قد أصبح حامياً للدّين وحارساً له وخادماً للشعب المسلم بدل أن يكون ماحياً للدين وهادماً له ومستغلاً للشعب) من أولاده أولئك الأشخاص الضعاف الذين كأنهم حَلفوا أن يتداركوا ما وقع فيه عالمكير من«خطأ» الحفاظ على الدين والذبّ عنه ، وإحياء الشريعة الإسلامية ، وإجراء السنَّة النبوية سيُكفِّرون ـ دائماً ـ عن تلك «الجريمة» التي ارتكبها السلطان عالمكير بتوسيعه لحدود المملكة ، وتنظيمِه لإدارة البلاد ، وتوطيد دعائم الحكم بيقظته وحنكته ، وجدِّه ومثابرته ، وشعوره بالمسؤولية ، وما أدخل من الرعب والهيبة في قلوب العامة والأشرارِ والمفسدين ، بترفهم وبذخهم وكَسلهم وعدم كفاءتهم ، وصراعهم الداخلي ومنازعتهم ، واعتمادهم ـ كلياً ـ على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان ، وغَفلتهم عن شؤون الدولة وإدارة البلاد .

فكان من سُوء حظ الدولة المغولية ، بل الأمة الإسلامية ، بل الهند كلها أن توالى على عرش مملكتها ملوكٌ ضعفاء غير أكفاء ، وكان من عجائب التاريخ ومن الأدلة على أنَّ الله ـ تعالى ـ غنيٌ عن العالَمين ، أنْ كان خليفة أورنك زيب الأول (شاه عالم بهادرشاه الأول) نفسُه على الضِّدِّ من والدِه العظيم .

لقد توالى على عرش الدولة المغولية في عهد الإمام ولي الله الدِّهلوي (١١١٤ـ ١١٧٦هـ) بعد السلطان أورنك زيب أحدَ عشر ملكاً ،وها هي أسماؤهم :

١ ـ محمد معظم بَهَادُرْشَاه (الملقب بشاه عالم بهادرشاه الأول) .
٢ ـ معز الدين جَهَانْدَارْشاه .
٣ ـ فَرُّخ سير ابن عظيم الشان .
٤ ـ نيكو سير .
٥ ـ رفيع الدرجات بن رفيع القدر .
٦ ـ رفيع الدولة بن رفيع القدر .

٧ ـ محمد شاه بن جهان شاه.

٨ ـ أحمد شاه بن محمد شاه.

٩ ـ عزيز الدين عالمكير بن جهاندارشاه.

١٠ ـ محيي السنَّة بن كام بخش بن عالمكير.

١١ ـ شاه عالم بن عزيز الدين.

أي أنَّه تعاقب أحد عشر ملكاً في مُدة نصف قرن من الزمن، وكان منهم من لم تمتد حكومته إلا عشْرة شهور[١]، ومنهم من حكم أقل من أربعة شهور[٢]، ومنهم من حكم لأيام[٣]، أو مدة يسيرة جداً[٤]، وسوف نتحدث في السطور التالية عن أهمِّ الوقائع والأحداث في عهد خَلَفِهِ الأول شاه عالم بهادرشاه، والملك فرُّخ سير ابن عظيم الشان، والملك محمد شاه، والملك شاه عالم الثاني، الذين أسهموا بدورهم في تاريخ الهند، ومَصير المسلمين الهنود.

شَاه عَالمْ بهادر شاه الأول:

كان هذا أكبرُ أبناء عالمكير الذي هَزم أحَد إخوته محمد أعظم وتربَّع على عرش الدولة، وأكبر دليل وأوله على اختلافِ ميوله وطبيعته عن مُيول عالمكير وطبيعتِهِ أنه تبنَّى المذهب الشيعيَّ الذي لم يكن مُخالفاً لعقائد السلطان عالمكير وطبيعته وذوقِهِ فحسب، بل كان مخالفاً لعقائد جميع الملوك التَّيموريين المغول ومذهبهم ومنهجهم في الحياة، وكان مُعاكساً لمصالح هذه الدولة أيضاً (التي كان تسعون إلى خمسة وتسعين في المئة من سكانها من حدودها

(١) وهو معز الدين جهاندرشاه.
(٢) رفيع الدولة بن رفيع القدر وكانت مدة حكومته ثلاثة شهور وعشرة أيام.
(٣) محيي السنة بن كام بخش بن عالمكير.
(٤) رفيع الدولة بن رفيع القدر.

الشرقية بنغاله إلى حدودها الغربية بكابُل وقندهار سُنيينَ عقيدةً ، حَنفيينَ مذهَباً).

ولم تكن هناك إمكانياتٌ في الهند لقبول هذا المذهب ونجاحه على مستوى الجماهير.

وحسب تصريح غلام حسين طباطبائي مؤلِّف «سير المتأخِّرين» (الذي ينتمي إلى الفرقة الاثني عشرية ، وتتجلَّى شيعيته في تاريخه للوقائع والأحداث) لمَّا أمر بهادرشاه باعتناق المذهب الشيعي ، وعقدَ المباحثات والمناظرات مع علماء أهل السنة في هذه القضية ، وأمر بإدخال هذه الكلمات: «عليٌّ وليُّ الله ، وصيُّ رسول الله» في الخطبة حدث اضطراب في لاهور حيث كان الملك مقيماً ، ووقعت اشتباكات ، وصرّح المؤلف بأن ذلك لم ينل قبولاً ورواجاً ، يقول:

«لم يزل بهادرشاه يصرُّ على هذا ، ويسعى جاهداً في نشر المذهب الشيعي وتقويته ، ولم يزل باب المناقشة والمناظرة مع العلماء مفتوحاً لمدة طويلة من الزمن ، ولكن ذلك لم يُـجْدِ شيئاً»[١].

وكان من نتيجة هذا التَّغيير أن استاءت الجماهير والجيشُ كذلك ، ولم يَبْق في الجيش ذلك الحماسُ الدينيِ الذي كان في عهد المغول الماضي قُوةً دافعة كبيرة ، وقد تفطَّن لذلك بعضُ المؤرِّخين من غير المسلمين أيضاً ، يقول الدكتور سَتِيْش جَنْدَر Dr. Satiesh Chander: «لقد ضَعُفَ تأثير الدِّين على سياسةِ الحكومة»[٢].

ويقول الشيخُ ذكاء الله في «تاريخ الهند»:

«لقد حدثت انقلاباتٌ وتطورات كبيرة ، بعد عالِمكير في أمور الدولة ،

---

(١) سير المتأخرين: جـ:٢، ص: ٣٨١.

(٢) DR.Stish Chandra. Partes and Politice in The Muchal Court, 1707- 40 Aligarh 1959,P- 40.

وتغيرت أشكال العلاقات كُلها ، وانقلبتِ العلاقات التي كانت بين الدولة التيمورية والمَرْهَتَهْ رأساً على عقب ، وكانتِ الدولة المغولية قد بلغت من الضَّعف والهُزال حد الاحتضار ، ولكنه رُغم احتضارها وإشرافها على الموت لم تنسَ كبرياءها وغطرستها»[١] .

كان عالمكير إذا كان في أَوْرَنْكَ آباد[٢] ، خافَه أركانُ الدولة وكبار الأمراء في بِهَارْ وبَنْغَالَهْ فضلاً عن دهلي وهابُوه ، فقد كان متفقداً للأحوال ، مُطلعاً على الأمور الجليلة والحقيرة من شؤون الدولة ، ولم يكن يتأخرَّ لحظة في إصدار أوامره في الحين المناسب ، أما خَلَفُه (بهادرشاه) فكان حاله كما يقول مؤرِّخ الهند:

«كانتْ أوامره غير منتظمة، ولم يعد أيُّ اعتبار لتوقيع السلطان ، وكان السلطان يقول لخدمه وحواشيه: لقد تحالف كل الموظَّفين وتوافقوا فيما بينهم فما يرونه أفضل عندهم ينفذونه، وليس لي إلا الاسم، ولم يَعُد لي عمل سوى أن ألبِّي حاجات الخلقِ وأُحقِّق مطالبهم»[٣] .

ويقول: «لقد أرَّخ بعضُ الظرفاء المتندرين جلوسَه على عرش الدولة بـ«الملك الغافل» ، إنه يَسهرُ الليالي ، وينام إلى الضحى ، وهذا يُسبب المصاعب للناس في أيام أسفارهم. . »[٤] .

ويقول: «إن الأمر الثالث الذي أقدم عليه مخالفاً لدستوره وقانونه ، أنه عاتب العلماء وغَضب عليهم ، وأودعهم في السجون ، ثم غلب عليه الخفقان

---

(١) تاريخ هندوستان: للمولوي ذكاء الله الدهلوي، جـ - ٩، ص: ٣٣.
(٢) مدينة في الجنوب، كانت في إمارة حيدر آباد سابقاً وتقع الآن في مهاراشتر وقد أقام فيها أورنك زيب فترة للقضاء على الإمارات النابتة (وأكثرها شيعية) التي انفصلت عن المركز في فترات مختلفة.
(٣) تاريخ هندوستان: ص: ٣٨.
(٤) المصدر السابق.

حتى وَدَّع هذه الدنيا الراحلة في عاصمته لاهور في ١٩/ محرم عام ١١٢٤هـ»[١].

ويُشِير الطباطبائي أيضاً إلى ما حصل له في آخر عُمره «من اختلاط سفهٍ، وإصدار أمر بقتل الكلاب، وأنه كان يظن به السِّحر»[٢].

وهكذا تضعضعتِ الدولة المغولية العظيمة في عهد الخليفة الأول لعالمكير، وفي مُدة ست سنوات فحسب، وزالت تلك المهابة والسطوة، والعظمةُ التي كانت من عهد الملك (بَابَر) تُخيف القوى المخالفة، وتُرعب قلوب الغوغائيين وأصحابَ الفِتن والثورات، وتُسيطر على قلوب الخاصة والعامة.

فَرُّخ سير:

لقد استولى في عهد فَرُّخ سير (١١٢٥هـ ـ ١١٣١هـ) حُسين علي خان وعبد الله خان (اللذين كان يلقب الأول منهما: بأمير الأمراء، والثاني بقطب الملك) على المُلك وعلى المملكة كُلِّها، فكان فَرُّخ سير أُلعوبة في أيديهما، وقد حبَساه أخيراً ثم أطلقاه من قيد الحياة، يقول مؤلِّف «تاريخ الهند»:

«لقد كان فَرُّخ سير طَيِّبَ الأخلاق، رَحب الصدر، يُقدر الناس، وكان يُحاول مقابل خِدمة كُل أحد واهتمامه به، أن يوليه منصباً لائقاً وخدمات جيدة، ويُبرزه في الأقران، ولكنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً، ولم يكن مُحنكاً، فقد نشأ وتربَّى في ولاية بنغاله بعيداً عن آبائه وأجداده، وفي غفلة عن أمور المملكة وشؤون الدولة، وكان يَفقد الثبات والاستقامة والرأي السديد، ويَقتدي بآراء غيره، قد أتاه الجَد والحَظُّ بالعرش والتاج، وقد كانت الأسرة التيمورية تمتاز بالبطولة والشجاعة، أما هو فكان خِلواً من ذلك جباناً ضعيفاً،

---

(١) تاريخ هندوستان.
(٢) سير المتأخرين: ص: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

ولم يكن يَسبُر غَور الكلام ، ولا يتَوصَّل إلى فهم غَرض المُغرض ، فأَصبح بنفسه من بداية حكمه مِعْول هَدْمٍ لدولته[١] .

وكان رَاجَهْ رَتَنْ سِنكَه (ديوان السيد عبد الله خان) يتدخَّلُ في أمور جميع الوُلاة والأمراء ، فلم يكن عنده لأيّ واحد من الناس تقدير ولا اعتبار ، ولا سيما في الشؤون المالية ، وقد زاد ترف الملك وخلوتُه وسفهه ، وكانت ضرورات الناس مُعَطلة»[٢] .

وأخيراً سَمَلَ الأخوانِ (قُطب الملك وأمير الأمراء) عَيني الملك فَرُّخ سير ، وحبَساه في السجن داخل القلعة التي كانت كحُفرة القبر ، ومَات المَلِك بعد أن حَكم سِتَّ سنوات وأربعةَ أشهر ، وقد قضتْ هذه الوقائع والأحداث على ما كان لخلفاء العرش المغولي من تقدير واحترام ، وما كان للدولة المغولية من قوة واعتبار .

مُحمّد شاه بادشاه (ت ١١٦١ هـ):

حكم محمد شاه تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وعَهْدُه مليءٌ بالحوادث والوقائع الهائلة ، ففي عهده كانتْ حملة نَادِرْشاه التاريخية على دلهي ، ولكنَّ هذين الأخوين من الشيعة الأشراف المعروفين بـ«سادات بارهه» قطب الملك عبد الله خان وأمير الأمراء حسين علي خان ، كانا مُسيطرين على الدولة ـ كلّياً ـ وكان أهل البلاط يَرون أن الملك لم يَبق له ـ لأجل سيطرة هذين الأخوين ـ شيءٌ من الحكم وإصدارِ الأوامر إلا صلاةُ الجمعة . . . وكأن هذين الأخوين قد شمَّرا عن ساق الجد على أن يُلحقا العار بالأسرة التركية والمغولية ، ولا نجاة في الخَلوة والعزلة عن المناصب .

وقُلوب الوارثين للعرش والتاج وأبنائِهم وأحفادهم وحشَمهم وخدَمهم البعيدين والقريبين الذين يَفْدُونهم بالأرواح في حُزنٍ عميقٍ وأسىً بالغ إذ يرون

(١) سير المتأخرين: ص: ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٠ .

وارث العرش والتاج لا سُلطة له ولا اختيار ، ولا قدرة على إجراء أحكام الشرع ولا صلاةِ الجمعة ، والهنادكُ من قُرب مدينة أكره إلى ساحل البحر يَبنون المعابد ، ويَمنعون مِن ذَبح البقر[١].

«وكان الناسُ كلُّهم صغيرُهم وكبيرُهم يَحنقون على رتَن جند سُلطته وتدخله في الأمور الدولية والشؤون المالية الذي لم يراعي إلا أشراف «بارهه» وقبيلة البقالين ، وكانت البيوتات الكريمة في كل مكان تَعيش بالذل والمهانة»[٢].

ويقول الطباطبائي مؤلِّف «سير المتأخِّرين»:

«لِما أنَّ الملك كان شاباً فاقداً العزيمة ، قليلَ الجراءة ، يَنهمك في اللذات وحياة الترف والبذخ ، ولا يلتفت إلى شيء من أمور الحكم إلا إذا كان أمراً ضرورياً جداً ، وهكذا زال الخوف والمهابة ـ تدريجياً ـ من قلوب الأمراء والأعيان والوجهاء ، بل من قُلوب عامة الناس ، فكان كُلُّ أحد منهم يفكِّر في مَحلّه أن يُعلِن حريتَه واستقلالَه ، ويَنفُض يده من الطاعة والانقياد[٣].

ولم يكن حينذاك في البلاط وأركان الدولة إلا شخصيةُ (نظام الملك آصف جاه) الذي كان مع مَضاء عزيمته وعُلوِّ همته ، وفياً لصاحب العرش والتاج ، مخلصاً ناصحاً، ولكنَّ الأشراف والعناصر الإيرانية كانت تتغلَّب عليه، ولا تدع له أي مجالٍ ولا تَسمعُ له كلمة ، ولذلك لما رأى آصف جَاه أنه لا يُقدَّر وفاؤه وإخلاصُه، وأن إقامته هنا إضاعة للوقت ، وتعريضُ النفس للخطر في كل حينِ اتجه إلى دكَن (الجنوب)، وخلا الجَوُّ في دلهي للمُغرضين وأصحاب المطامع.

ثم غَلب على محمد شاه ترفٌ بالغ حتى خلَّف وراءه المُترفين السابقين وأنسى الناس قصصهم وروایاتهم ، وضربَ رقماً قياسياً في البَذخ والعيشة الرغيدة الناعمة ، يقول مؤرِّخو الهند:

---

(١) تاريخ هندوستان: جـ ٩، ص:١٦٦.
(٢) المصدر السابق: ج ٩، ص: ١٨٢.
(٣) سير المتأخرين: جـ:٢، ص: ٤٥٨.

«إنَّ محمد شاه لم يُغيِّر ديانته ، ولكنه غيَّر مذهبه ، فأصبح السحابُ الداكن من محبُوبيه ، وصدر الأمر العام بأنه إذا هاجتِ السُّحبُ من سفوح جبال هملايا ، ورَعدتْ وبَرقت ، فلتُنصَبْ له الخيام في الصحراء ، ثم لا يُسمع إلا صوتُ الملِك الهائم السكران :

الصَّبُوحَ الصَّبوحَ يَا أصحاب المُدامَ المُدامَ يا أحبَاب

وانتهت أخيراً سُلطةُ أمير الأمراء السيد حسين خان وقُطب الملك النَّواب عبد الله خان(حسن علي خان) من أشراف «بارهه» ، وطفحتْ كأس حياتهما ، ولكن الدولة المغولية ـ رغم ذلك ـ لم تتغير ، لأن المَلِك كان يفقد كل صلاحية للحكم وأدنى بصيرةٍ وتفرُّسٍ للأخطار المحدِقة .

يَقول السيد هاشمي الفريد آبادي في تاريخه للهند :

«لقد احتُفل في البلاد كلها بمناسبة انتهاء الأشراف «صانعي الملوك» وعودة القوة والسلطة إلى محمد شاه ، واستقبل الناس ذلك ـ بصفة عامة ـ بفرَح وسرور ، ولكن هذا السرور لم يكن نتيجة عاطفة الحُبّ للسلاطين والملوك ، بل كان مؤسَّساً على أماني الإصلاح في المستقبل للإدارة والنظام ، وتحقيق مصالح البلاد ورفاهية الناس ، فلم يكن عاقبتها إلا الحُزن والبأس والآس ، لأن هذا الخليفة الجديد للملك (أكبر) والسلطان (أورنك زيب) كان عرياً عن صفاتِ آبائه الغُرِّ المُلوكية ، وأنه لم يكن له في حياته المُترفة والباذخة والاشتغال بالمتع والمَلاهي فرصةٌ للنظر في شؤون البلاد ، وأنه كان أكثر غفلة وجهلاً بأحوال الدولة وأقل تفكيراً في فساد الدولة وخرابها من نساء القصر الملكي ، حتى إننا نقرأ كثيراً عن جدَّته (مهربرور زوجة شاه عالم بهادرشاه) أنها كانت تُنبّه حفيدَها الغافل النائم من سُباته العميق ، وكانتِ النتيجة الواضحة لكل ذلك الانحطاط والسقوط»[١] .

ويَنبغي في هذا الموضوع ألا نُغفل رأي جَادُوْنَاته سَرْكَار ، الذي أبداه وهو

---

(١) تاريخ الهند: للفريد آبادي، ج٣، ص: ٢٦١.

يُعلِّق على مواضع الضعف في محمد شاه ، يقول :

«لئن كان محمد شاه لا يَستحق التقدير والاحترام ، فإنه يستحق الرحمة والعطف ، لقد كانتِ الظروف والأوضاع أدتْ به إلى موقف كان في حاجة إلى شَخصية عبقرية (Genius) ، ولكنّه كان إنساناً عادياً ، وأنَّ المؤرِّخين يعيبونه على أنه قَضى عُمره في البذخ والترف ، بدلاً من أن يهتم بأمور الدولة ، ولكن المأساة هي أن مثلَه لو صرف همته إلى شؤون الحكم والإدارة ، ما كان بوُسعه أن يُغير تيار الأوضاع .

لقد كان أمثال «رفيع الدرجات» و«رفيع الدولة» ألعوبةً في أيدي غيرهم ، ولم يكن لَديهم شعور بِذُلهم ومَهانتهم ، أما محمد شاه فكان يشعر بفَداحة الخطب وسُوء الأوضاع ، وضَعفِه وعَجزه عن الإصلاح»[1] .

وبالجملة ، فإنَّ المملكة العظيمة التي قامتْ بعزيمة بابَر وبطولته النادرة ، وجِدّه وجهاده ، وقُوته وثباته ، والتي حفظها وأبقى عليها أخلافُه إلى السلطان أورنك زيب بشجاعتهم وقوة شكيمتهم وغَيرتهم التيمورية ، بلغتْ إلى غاية من الترف واللهو والغفلة والإهمال الذي أصبح حَظَّ الحكومات الوراثية الجابرة الجائرة ، وما أصحَّ ما قال الدكتور إقبال :

«أنا أُنبئك أيّها الإنسان بحظُوظ الشعوب وجُدودهم ، إنَّ بدايَتها بالسيوف والرِّماح ، ونهايتَها بالطَّواويس والطبول» .

وكانتِ النتيجة ـ أخيراً ـ هي تلك التي عبر عنها محمد شاه نفسه في شَطر من شعره ، ومعناه :

«إنَّ شُؤمَ أعمالنا ظَهر في صورةِ نادر» .

توجَّه نَادِرْشاه إلى دلهي عام ١١٥١هـ ، وكان قد كَتب ـ قبل ذلك ـ عدَّة رسائل إلى محمد شاه ، ولكنْ حسب تصريح المؤرِّخ :

«كانت هنا ـ إذ ذاك ـ أيامُ الأفراح والليالي الملاح ، وكان مُحمد شاه بَهَادُر

---

(1) Fall of The Mughal Empire P.373-74.

صاحبَ العرش والتاج ، ولم يكن له من العمل إلا الراحة واللذة ، فلا تفارق الكأسَ يديه ، ولا تفارق الغادة ذِراعيه ، فمن يكون له التفكير في الرد على الرسائل والاهتمامُ بالبريد؟»[(١)].

وينبغي أن تقرأ تفاصيل حملة نادر شاه في كُتب تاريخ الهند ، وما وصلتْ إليه حال دلهي بعد حملته (ولا يَغيبنَّ عن البال أن الإمام الدِّهلوي كان حينذاك ابن ٣٧ سنة ، وكان قد رجع من زيارة الحرمين الشريفين) ، نستمع لوصفه إلى مؤلِّف «تاريخ الهند» :

«لقد كانتِ المدينة (دلهي) بعدَ رجوع نادرشاه مليئةً بالجُثث والأشلاء، فارغة من الأحياء ، وكانتِ البيوت خراباً مُهدّمة يُخيِّم عليها السكون المُهيب ، وكانت الأحياء والحارات بأسرها مَحرقةً تحوَّلت إلى رماد.

وكانتِ العفونة الصاعدة من الجثث ، والرياحُ الكريهةُ المنتنة تكاد تَشقُّ الدماغ وتَفْطره ، ولم يكن هناك من يُكفِّن أحداً ، أو يَدفن في القبر أحداً ، وقد اختلطت جُثثُ المسلمين والهندوس ، واحترقتْ في ركام إلى رماد.

هذا حال المدينة ، أما حال البلاد ، فكان نادر شاه يَغط في النوم أياماً فلما هبَّ من نومه ، كانت القذارة تُغطي عينيه حتى يتقزَّز منَ النظر إليه ، ولم يكن في الخزانة فلس واحد ، ولا يُعرف أين الخراج والمحاصيل ، وكان الجيش محطماً منهوكاً هالكاً.

وعلاوة على كل ذلك كان الخوف من المرهتة لا يزال مُسيطراً ، وقد خَربت تلك الولايات التي كانوا استولوا عليها ورَغم كل هذه المصائب والمحن كان النزاع قائماً بين أهل البلاط والحاشية ، فكان فريق من الأمراء التورانيين الذين كان على رأسهم آصف جاه وقمر الدين خان الوزير ، وفريقٌ آخر للأمراء الآخرين الذين كانوا يحاولون عَزلهم وإبعادهم عن البلاط ، وكان الملك أيضاً يُعدُّ منهم ، ولو لم تقع قضية المرهتة ولم تواجههم مُشكلتهم لكان هؤلاء

(١) تاريخ هندوستان: ج ٩، ص: ٢٥١.

الأمراء قد توزَّعوا المملكة كلها فيما بينهم من زمان ، وتركوا الأسرة التيمورية اسماً بلا رسم»[١] .

ولما رجع نادرشاه من الهند كان من أولى نتائج رجوعه أن انفصلتْ ثلاث ولايات مُخصبة: بنغاله ، بهار ، وأريسه ، من حكومة دلهي ، وقامت فيها حكومة مستقلةٌ لعلي وردي خان[٢] .

وأصيبَ محمد شاه أخيراً بمرض الإسهال ، ومات في هذا المرض في ٢٦/ ربيع الآخر عام ١١٦١هـ الموافق أبريل عام ١٧٤٨م ، وحَسب ما يقول مؤلف «تاريخ الهند» : «إنه حكم ثلاثين سنة ، وقد أدّى فيها بالأسرة التيمورية إلى شفا الهلاك والدمار»[٣] .

شَاه عالِم الثّاني:

لئنْ كانتِ الدولة المغولية مُنِيتْ في عهد محمد شاه بالانحطاط الخُلقي والإداري ، ومالَ المجتمعُ الهنديُّ ، وطبقة الأمراء والأغنياء ـ بصفة خاصة ـ لقانون «الناسُ على دينِ مُلوكهم» إلى حياة المتع واللذائذ والتَّرف والبذخ ، والدَّعة والراحة ، فإنها أُصيبت في عَهد شاه عالم الثاني الذي تولى زِمام الحكم عام ١١٧٣هـ الموافق عام ١٧٥٩م بالانحِطاط السياسي الشائن الذي بلَغ الغاية .

إنَّه لم يزل في عهد حكومته الممتد على ٤٧ عاماً ألعوبة في يد غيره ، وقد خضع للإنكليز وقَبِل طاعتهم عام ١٧٦٤م بعد أن لقي أميرُ أَوَدْه وزير شجاع الدولة ومير قاسم هزيمةً على أيدي الإنكليز في معركة «بكسر» ، ووقَّع الوزير شجاعُ الدولة على معاهدةٍ ظلَّ بسببها موظَّفاً يتقاضى راتبه من الإنكليز ، ثم كانت له اتفاقيةٌ أخرى مع الإنكليز عام ١٧٦٥م أدَّت إلى تولِّي الشركة الشرقية

(١) تاريخ هندوستان: ج ٩، ص: ٢٧٢.
(٢) المصدر السابق: ج: ٢٩ ص: ٢٦٢.
(٣) المصدر السابق: ج: ٢٩ ص: ٢٨٤.

الهندية جِباية المحاصيل والسلطة على المحاكم في ولايات بنغاله وبِهَار وأُرَيْسَهْ ، ودخل شاه عَالِم نفسُه في جوار المرهته ، ووَهَبهم مديريات إلٰه آباد وآكْرَه.

لقد كانتِ البلاد كلُّها قبل عهد الشاه عالم الثاني بزمنٍ ، تحتَ رحمة السِّيخ والمَرْهَتَة ، وكانت مناطق دلهي وآكره وراجبوتانه تحت رحمة الزط ، الذين كانوا يعيثون فيها فساداً ، ويخرجون كالطوفان ويُهلكون الحرثَ والنسلَ ، ولم تكن في البلاد قُوة تملك أن تَبسُط الأمن وتفرض القانون [١].

وقد حفظ أحمد شاه الأبدالي هذه البلاد من خطر المُرهتة بعد أن هَزمهم في ساحة باني بت في ١٤/ يناير عام ١٧٦١م هزيمةً ساحقة نكراء ، وقد حاول جُهده في طلبه شاه عالم إلى دلهي ، وأرسل إليه سفيرَه لذلك ، حتى اضطر إلى أن استكتبَ والدته النَّواب زِينت محل رسالة إليه ، ولو كان في الدولة المغولية أيٌّ رمق من الحياة ، وفي شاه عالِم أيٌّ كفاءة وصلاحية للحكم ، لكانَ قد استفاد من نتائج حرب «بِاني بَتْ» واستعادَ قوته وسُلطته ، ولكنَّ الدولة كانت جسداً بلا روح ، وكان المِلك فاقداً الهمة والعزيمة ، خالياً من الغيرة والحمية ، وكما يقول محمد إقبال:

«إنَّ ما يُقال لها الحميَّـة ذَهبتْ من أُسرة تيمور وولَّتْ من غير رجعة».

وعاد الملك من إلٰه آباد إلى دلهي عام ١٧٧١م بعد عشر سنوات كاملة وقد فات الأوان ، فلم يُقدَّر له أن يستفيد من الفتح العظيم في ساحة«باني بت» والهزيمة الساحقة التي لحقت بالمرهتة ، بل واجه هُنا فتناً جديدة ، صراعاً بين الأمراء وتحايلهم وتنازعهم ، وقُوة «رُوْهَيْلَهْ» الجديدَة ، وحَملاتِ السِّيخ ، وأخيرا استولى غُلام قادر روهيله حفيد نجيب الدولة على دلهي عام ١٧٨٨م ونَهب القصر الملكي ، وأمر بضَرب الأميرات بالسياط ، وأخرج عيني الملك المغولي وَوارثِ العرش التيموري بظُبةِ الخِنجر ، ولم يكن قد سَبق أن عُومل

---

(١) انظر التفصيل في الباب الثالث ، الفصل الخامس من هذا الكتاب ، ص.....

وارِث العرش المغولي بهذه المهانة والفضيحة والعار.

وَقتل سندهيه غلام قادر عام ١٧٨٩م بقَسوة فظيعة، وأجلس شاه عالِم على العرش مرة ثانية، وعَيَّن تسعمئة ألف روبية سنوياً لمصروفاته، ودخل عام ١٨٠٣م اللورد لِيك بجيشه الإنكليزي في دلهي بعد حُروب عديدة، وأجلىٰ المَرهتة، وقرَّر لِلملك المتقاعد راتب مئة ألف روبية سنوياً![1]

ولقيَ شاه عالم أجله عام ١٨٠٦م، بعد أن حكم ٤٥ عاماً، وقضى ١٨ عاماً في العمى مخلوعاً مهاناً.

٢ـ الوَضعُ العِلميُّ والرُّوحي:

لقد كان هذا العهد رغم الاضطراب السياسي، والفوضى الاجتماعية، والانحطاطِ العام، عَهْدَ النُّبوغ العلمي، والاشتغال بالتدريس والتأليف، والعزلة الروحية، والرقي الباطني، وتزكية النفوس وإصلاح القلوب، من الناحية الفردية، وقد ظهرَ فيه عددٌ من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال، وممن لا يمتُّون إلى هذا العهد من الانحطاط والفوضى بصلة، ولا يوجد عليهم أيُّ تأثير لليأس من الأوضاع والخوف منها.

يقولُ بعضُ المطَّلعين إن كثيراً من المآثر والروائع العلمية والأدبية تَدين لجهود أولئك الأفراد الأفذاذ الذين كانوا يُعانون من الأمراض المزمنة أو شيئاً من العِلل والصَّدمات الداخلية، ويُعلِّل ذلك علماءُ النفس بأنَّ قوة الدفاع والمقاومة تندفع في مثل هذه الحالة وتُقوِّي الشعورَ بتدارك ما لَحِقَ بذلك المرض، ويدفعُ ذلك الشخص إلى إنجاز ما لا يَقدر على إنجازه لو كان في الأحوال العاديـة.

إنَّ هذه الناحيـة العِلميـة والروحيـة في الهنـد، وظهورَ هؤلاء الأفـذاذ

---

(١) انظر «تاريخ هندوستان»، ج٩، ص: ٣٤٣، وقد جاء في بعض كتب التاريخ بالإنكليزية أنه قرر تسعين ألف روبية.

النوابغ في عهد الانحطاط إثباتٌ لقوة المقاومة الداخلية في مُجتمع مريض مُنحطٍّ مُشرف على السقوط ، ودليلٌ على أنَّ خَلِيَّة الإسلام لم تزل تَعْسل ، وأنه لم يزل يَصنع الرجال ويُنتِج العبقريات.

فإنَّنا نجد في هذا العهد في سَعة العلم والذكاء الباهر ، وقُوة التدريس وحسن التأليف والتصنيف أمثالَ الشيخ أحمد بن أبي سعيد الأميتهوي (١٠٤٧ ـ ١١٣٠ هـ) صاحبَ «نور الأنوار» و«التفسيرات الأحمدية» ، والشيخ حمد الله السنديلوي (ت ١١٦٠ هـ) صاحب «شرح سلم العلوم» المعروف بـ «حمد الله» ، والشيخ محمد حسن المعروف بمُلاَّ حسن الفِرَنكي مَحِلِّي صاحب «شرح السلم » ، المعروف بـ«مُلاَّ حسن» (ت ١١٩٩ هـ) ، والشيخ رستم علي القَنُّوجي (ت ١١٧٨ هـ) والشيخ صفة الله الخير آبادي (ت ١١٥٧ هـ) والشيخ علي أصغر القنوجي (ت ١١٤٠ هـ) والشيخ غلام علي آزاد البَلْكَرَامي (١١١٠ هـ ـ ١٢٢٠ هـ) والشيخ غلام نقشبند اللكنوي (ت ١١٢٦ هـ) والقاضي محب الله البِهاري (ت ١١١٩ هـ) مؤلِّف «سلم العلوم» و«مُسلَّم الثبوت» (الذي شغل علماء الهند ومُدَرسيها في شرح هذين الكتابين وتحشيتِهما قُرابة قرن من الزمان ، وكانت كُتبه مرجع العلماء الكبار ، وأساتذةَ الأزهر في مصر) والقاضي مبارك الكوباموي (ت ١١٦٢هـ) مؤلِّف «شرح السلم» المعروف بـ«قاضي» ، والشيخ محمد أعلى التَّهانْوِي مؤلِّف «كشاف اصطلاحات الفنون» (وهو كتاب فريد في بابه)[1] ، ومُلاَّ نظام الدين اللكنوي (ت ١١٦١ هـ) الذي كان يُسيطر منهجه الدراسي المعروف بالمنهج النظامي على الأوساط العلمية من الهند إلى بخارى وسمرقند ، والذي وصفه مؤلف «نزهة الخواطر» بـ«غيث الإفادة الهتون ، العالم بالرَّبع المسكون ، أستاذ الأساتذة وإمام الجهابذة» ، وأمثالُ هؤلاء من العلماء النابغين والمدرسين والمؤلِّفين والمؤسِّسين للحركات العلمية ومناهج التعليم والتربية ، الذين يتجمَّل بهم التاريخ وتعتزُّ بهم البلادُ

---

(١) [وقد طُبع محقَّقاً ومنقَّحاً مع تراجم اللغات الأجنبية في مكتبة لبنان ببيروت].

والأمصار ، لقد كان هؤلاء من رجال هذا القرن وأعيانه[١] .

وإذا نَظرنا إلى الطريقة والسلوك ، فقد كان في هذا القرن الشيخُ الربَّاني مِرْزا مَظْهَر جَانِ جَانَان (١١١١ ـ ١١٩٥ هـ) من كبار أصحاب التربية والتزكية في السِّلسلة النقشبندية المجدِّدية ، الذي قال فيه الإمام وليُّ الله الدهلوي نفسه : «إن أمثال هؤلاء المشائخ لا يوجدون في عدد كبير في كل عصر ، فكيف في هذا العصر المليء بالفتن والفساد؟»[٢] .

ونَجدُ في هذا العهد شيخَ السلسلة القادرية المعروف، والمرشد الروحي للعلاَّمة نظام الدين اللكنوي مؤسِّس المنهج النظامي ، السيدَ عبد الرزاق البانسوي (ت ١١٣٦ هـ) ، ومجدِّد السلسلة الجِشْتِيَّة النظامية الشيخ كليم الله الجهان آبادي (ت ١١٤٠ هـ) ، وإمام هذه السلسلة وناشرها الشيخ فخر الدين الدهلوي (ت ١١٩٩ هـ) ، وشيخَ السلسلة المعروف الشيخ محمد غوث القادري اللاهوري (ت ١١٥٤ هـ) ، وشيوخ السلسلة النقشبندية الربانيين الكاملين كالشيخ محمد عابد السُّنَّامي (ت ١١٦٠ هـ)[٣] ، والشيخ محمد ناصر عندليب (والد الشاعر العارف الكبير خواجه مِيْردَرْد الدهلوي) (ت ١١٧٢ هـ)، والشيخ منيب الله البالابوري، والشيخ نور محمد البَدَايُوْنِي (ت ١١٣٥هـ)، يُزينون مجالس الطريقة والسلوك ، ويُرشدون إلى طرائق الحق ، ويُصلحون القلوب .

وبالجملَة فقد كان هذا العهد عَهد انتشار هذه الطرق الثلاثة : القادرية والجشتية والنقشبندية ، وقبولها وشيوعها ، وكان شيوخُ هذه الطُّرق الثلاث الكبار بقَيد الحياة وعلى نشاطٍ ، قال الشيخ عبد العزيز الدهلوي :

---

(١) مقتبس من «نزهة الخواطر» جـ ٩ .
(٢) انظر «كلمات طيبات» ، ص: ٦٥ .
(٣) استفدنا هذه الأسماء ووفياتهم وخصائصهم المميزة من «نزهة الخواطر» ، جـ ٦ للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله تعالى.

«كان في دهلي في عهد محمد شاه اثنان وعشرون من المشايخ الربَّانيين المرشـديـن المُنتمين إلى مختلف الطرق ، ولا يَـتَّـفِقُ وجود مثـلِ هذا إلا قليلاً»؟[١].

٣ـ الانحِطـاطُ الخُلُقـيُّ والاجْتماعـيُّ:

ولكنْ من الواقع ـ رَغم وجود هؤلاء النوابغ وأصحاب الفضل المعروفين والشيوخ الكاملين والمرشدين الربَّانيين ـ أنَّ المجتمع المسلم في الهند ـ ولا سيما طبقة الأمراء ـ قد وصل ذُروة التردي الخُلقي والإسفاف الاجتماعي بتأثير الدولة والانحطاط السياسي ، وتدفُّق الأموال والثروات الطائلة وبتأثير الحضارة الإيرانية ، ولأجْل ذلك كانت هذه الطبقة عاجزة ـ تماماً ـ عن أداء الدور الذي لَعِبَتهُ هذه الطبقة في كل عَصْر عند انقلاب الدُّول وتحوُّل الحكومات ، فقد برزَ من هذه الطبقة (التي كانت خطاً ثانياً (Second Line) في مُختلف العصور أولئك الأفراد الذين ملؤوا الفراغ الحادث في المجال السياسي والإداري ، ولقد أصاب المؤرِّخ الفاضل السَّيد هاشمي الفريد آبادي إذ قال :

«إنَّ ثروات الهند وأموالها الطائلة كانت قد مالت بهذه الطبقة من الأمراء إلى الترف والبذخ والدعة والاسترخاء. . . فإننا نرى أنَّ جهود هؤلاء الأمراء وكفاءتهم كلَّها تُبذل في الاحتيال والمؤامرات للأغراض الخسيسة التافهة ، فلم يكن أحدٌ من هؤلاء الأمراء يَجسُر على إعلان استقلاله في محلِّه ، دعْ عنك قَلْبهم للنظام والاستيلاءَ على الملك والسلطان ، فإذا كان الفساد الداخلي في الإدارة والنظام يسود في جانب في هذه الفترة ، ففي جانب آخر كانت تُفقد ـ تدريجياً ـ من أفراد الطبقة الحاكمة أيُّ صلاحية لإدارة الحكومة ، والإيهام في العمل والمسؤولية»[٢].

---

(١) انظر «ملفوظات عزيزية»، ص: ١٠٦.
(٢) تاريخ الهند: جـ ٣، للسيد هاشمي الفريد آبادي، ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، طبع حيدر آباد، ١٩٢١م.

يقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي:

«كانتِ النساء في بيت النَّواب قمر الدين، يَغتسلن الغسل الأخير بماء الوَرد، وكان يُصرَف في بيوت النَّوابين (الأمراء) الآخرين ثلاثمئة روبية على ورقة التنبول والوُرود»[1].

ويقول الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي في «مآثر الكرام»:

«يقول سكَّان (أَوْرَنْكَ آباد) بإجماع منهم إن معظم الناس لم يكونوا يَطْبُخون الطعام في بيوتهم في عهد أمير الأمراء حسين علي خان، فكان طبَّاخ قصر أمير الأمراء يبيع حِصته من الطعام، وكان الناس يشترون طبق «بَلاؤ» الممتاز (وهو كالكبسة الممتازة عند السعوديِّين) بفلوس معدودة»[2].

٤ ـ فَسادُ العَقيدة واستيلاءُ الإشراك والبِدَع:

وأفزعُ من هذا الانحطاط الخلقي والإسفافِ الاجتماعي، وأَدعىٰ للحرمان من نصر الله ـ تعالى ـ وتأييدِهِ، والتجريدِ من القوة الحقيقية، هُو الفساد العقيدي، فقد كانتِ البِدع والمحدثات، وكثيرٌ من تقاليد الهنادك والشِّيعةِ وعاداتهم تسيطر على المجتمع المسلم، وقد تسرَّبت في حياة العامة من الناس وتَغلغلت في أحشائها مخالفةً للإعلان القرآني الصريح: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] وكانت تُوجد للشرك الجَلي في كثير من المواضع والأوساط صُور وأشكال، لا يمكن أن تُعلَّل تَعليلاً عِلمياً، فمِن عبادة القبور، وسَجدة التحية للمشائخ، وتَقديسِ الأماكن الخاصة للزيارة كتقديس الحرم، ووَضع الكسوة على القبور والنذور والقرابين، والذَّبح بأسماء الأولياء والمشائخ، والطواف بالقبور والأماكن المقدَّسة المزوَّرة، والاحتفال وإقامة الأعياد بها، والأغاني والمزامير، وإشعال الشموع، وباختصار اعتقاد هذه الأماكن هي المرجع والمصير، والملجأ والمجير، وأمثال هذه من الأحوال والمَشاهد التي

---

(١) انظر «ملفوظات عزيزية».

(٢) مآثر الكرام: جـ ١، ص: ١٧٠.

لا تحتاج لزيارتها أن تتجشَّم السفر البعيد والانتظار الطويل ، بل كانت مُنتشرة في كل مكان.

كذلك الكبش المنذور للشيخ سِدُّو ، وبَقرة السيد أحمد الكبير ، وأعلام غازي مِيَان ، وتَعزيةُ محرَّم (وهي القباب والمقابر المصنوعة من القِرطاس يحملها الشيعة أيام المحرم) ، والاحتفال الرائع بالأعياد غير الإسلامية ، والالتجاء إلى الأرواح الخبيثة في رفع الأمراض ، واسترضَاء الآلهة والإلهات والخوف منهم ، وتقديس «سِيْتلا»[1] لدفع مرض الجدري ، والنذر والذبح للأولياء والصالحين ، والصوم باسم الأولياء والصالحات ، وتَعليق الحاجات بهم ، والسؤال منهم.

وتَعيين الأطعمة الخاصة في الأيام الخاصة ، والالتزام فيها بآداب خاصة ، هذه وغيرها من العناوين الكبيرة التي تَضم تحتها سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات والعقائد الفاسدة المنحرفة ، وتقاليد الجاهلية ، وعاداتها والتزامِها وقيودها ، كما أنه كانت الأسماء مثل علي بَخْش (أي عطاء علي) حسين بخش ، بير بخش ، (أي عطاء الشيخ) مدار بخش وسالار بخش ، عامة شائعة.

وكانتْ عقيدة التوحيد في دائرة كبيرة قد انحصرت في هذا المفهوم ، وهو أن الله ـ تعالى ـ هو الخالق الحقيقي للأرض والسموات والصانع للكون ، وهو المعبود حقيقة ، وهو الذي يُدبِّر الأمور العظام ، ولكنه كسلاطين الدنيا قد ولّى كثيراً من مصالح مملكته وشعبها عباده المقبولين المقرَّبين ، الذين قد مَلكوها وخُيِّروا في التصرف فيها ، فهم يتصرَّفون حسب ما يشاؤون ، فلا يُمكن الآن إحراز أي نجاح أو قَضاءُ أي حاجة إلا باسترضائهم وإقامة الصلة القوية بهم ، وأن الشرك ليس إلا أن يُعتقد لهذا العالم صانعٌ وخالقٌ غيرُ الله ، ويُظنُّ أنه

(١) إلٰهة من إلٰهات الهندوس يعتقدون أن مرض الجدري في تأثيرها.

يستحق العبودية والسُّجودَ مباشرة ، مِنْ دُون اعتقادٍ بالوسيلة والشفاعة[١] .

وبالجملة فإنَّ الهند في القرن الثاني عشر الهجري كانت قد تردَّت من الناحية السياسية والإدارية ، والخُلقية ، والاجتماعية ، والاعتقادية إلى حدٍّ كبيرٍ في الحضيض ، ووصلتْ إلى آخر نُقطة من الانحطاط والانهيار ، وهي التي تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسُقوط البلدان الإسلامية ، وانحطاطِ المجتمع المسلم ، وقد صوَّر العلاَّمة السيد سليمان الندوي هذه الأوضاع بمجموعها في إحدى مقالاته تصويراً بليغاً موجزاً ، يقول :

«لقد كانتْ شمسُ الدولة المغولية في أُفول ، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية في المسلمين صولة وجولة ، فكان الدَّراويش والمشايخ الكاذبون المتصنِّعون مُتربِّعينَ على دستِ مشائخهم في رباطهم ، جالسين يُوقِدون الشموع على مقابرهم ، وكانت جنبات المدارس ترتجُّ بأصداء الفلسفة والمنطق ، وكان التقيد بالنصوص الفقهية والالتزامُ الحرفي في الفقه والفتاوى شعارَ كلِّ مُفت وفقيه ، وكان التحقيق والبحث في المسائل الفقهية جريمة كبرى في جانب الدين ، وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلةً بمعاني القرآن الحكيم ومطالِبه ، وأحكامِ الأحاديث النبوية وإرشاداتها ، وأسرار الفقه ومَصالحه»[٢] .

* * *

---

(١) سيأتي تفصيل هذا التصور للتوحيد في الفصل الأول «إصلاح الإمام الدهلوي وتجديده للعقائد» من الباب الثالث من هذا الكتاب فلينظر هناك.

(٢) مقالات سُليماني: ص: ٤٤.



البَابُ الثّانِي

سيرة الإمام الدهلوي



الفصل الأول
أجـداد الإمام الدِّهْلوي وَوَالِدهُ

أجداد الإمام الدِّهلوي:

إنَّ عهد الأجداد الأوَّلين للإمام الدهلوي(الذين استوطنوا مدينة «رَهْتَك» من عهد الشيخ شمس الدين المفتي) هو ذلك العهد للتاريخ العلمي والتأليف في الهند الذي لم يبدأ فيه تأليفُ كتب التراجم بصفة عامة ، وأكثر ما يوجد من كتب التراجم فهي تراجمُ فرديةٌ لبعض مشائخ الطُّرق المعروفين.

ويحتل فيها ما كُتب في حياة العَارف الكبير الشيخ نظام الدين الدهلوي باسم «سير الأولياء» الذي ألَّفه أمير خورد ، مكانة ممتازة ، أو كانت هناك كُتب تشتمل على تراجم عدة من المشائخ والصالحين ، يَجدر منها كتابان بالذكر ، أولهما «كُلْزَارِ أَبْرار» للشيخ محمد بن حسن الغوشي المندوي (الذي يحتوي معظمه على تراجم مشائخ ماندوومالوه) والثاني «أخبار الأخيار» للشيخ عبد الحق المحدِّث الدِّهلوي.

وكانتِ الكتب المؤلَّفة في تراجم أصحاب الفضل والنبوغ والشخصيات العلمية المعروفة ، التي تشتمل على تراجم رجال مختلف الطرق الصالحين ، أو على تراجم الشخصيات البارزة في مختلف المناطق والأصقاع (التي لم تكن مؤسسة لإحدى السَّلاسل والطرق ، أو حَلْقة مهمة من حلقاتها) وعلى تفاصيل

حياتهم ، قليلةً نادرة ، وإن كانت فهي تلك التي تدور حول شخصيات العاصمة المركزية ، أو عاصمة الولايات وأعمالها ونواحيها ، أو رجال المُدنِ المركزية ذات الشهرة التاريخية ، الذين كان يتيسَّر للمؤلف التوصُّل إلى وسائل الاطلاع على أحوالهم وفضلِهم وأعمالهم.

وقد كانت أسرة الإمام الدهلوي نازلةً في «رَهْتَك» من عهد الشيخ شمس الدين المفتي إلى عهد جدِّه الشيخ وجيه الدين ، ولم تكنْ هذه المدينة تحمل تلك الأهميَّة والمكانة الكبيرة ، ولذلك فإننا لا نعثر في عامَّة كتب التراجم على أحوالهم ووقائعهم.

وكان يُخشى أن تبقىٰ أخبارُ هذه الأسرة الكريمة مطمورةً مغمورةً ، ويُواجه المؤلفُ لترجمة حياة الإمام الدهلوي أو لتاريخ أُسرته صعوبَة شديدة ، لو لم يكنِ الإمام الدهلوي نفسُه ألَّف رسالة باسم «الإمداد في مآثر الأجداد»[1] في تراجم أجداده وأحوالهم ، وهذه الرسالة نفسُها تشتمل على تراجم مختصرة مُجملة لأجداده الأوَّلين ، وترجمةً مفصَّلة ـ إلى حد ما ـ لجدِّه الشيخ وجيه الدين لقرب العصر ، وقِلة الوسائط ، ولذلك فإننا نعتمد على «مآثر الأجداد» ونكتفي به ، فإنَّ صاحب البيت أدرى بما فيه.

سِياقُ النَّسَب:

لقد ذكر الإمام الدهلوي الذي ينتمي ـ نسباً ـ إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه ساق نسبه في بداية هذه الرسالة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه وقد كان في أعقاب الشيخ سالار حسام الدين أحد إخوة الشيخ شمس الدين المفتي الذي كان أول من قدم إلى «رهتك» من هذه الأسرة ، وألقىٰ بها عصا

(١) هذه الرسالة تشتمل على ١٠ صفحات بالقطع المتوسط، وقد نشر في مجموعة رسائله الخمسة، والرسالة الأولى منها، بعنوان «إنسان العين في مشايخ الحرمين»، طبع مطبعة الأحمدي بدلهي، وهي مضمومة مع الرسائل السبعة أيضاً التي نشرت مع «أنفاس العارفين».

التِّرحال ، أحدُ المشائخ الصالحين الذي يدعى «شاه أرزاني البدايوني» وأن أنساب أسرته أيضاً تصدق هذه السلسلة من النَّسب ، وتؤكد صِحَّتها ، وتَصلُ هذه السلسلة النسبية بثلاثين واسطة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه[1] .

ويَرِدُ في هذه السلسلة لقب «ملك» مع عدد من الأسماء، يقول عنه الإمام الدهلوي: «إنه كان يُستعمل للتَّبجيل والتعظيم كلقب «خان» في عصرنا».

دُخولُ أُسرة الإمام الدّهلوي في الهند:

إنَّ أولَ مَنْ نزل مدينة رَهْتَك من أُسرة الإمام الدهلوي حسب تصريحه وروايته ، (ولعلَّه هو أول من دَخل الهند من أُسرته أيضاً) هو الشيخ شمس الدين المفتي ، ويُقدَّر من حساب عددِ الوسائط والأعقاب ، وأعمارِهم الطبيعية التقريبية أن الشيخَ شمس الدين المفتي يكون قد قَدم الهند في أواخر القَرن السابع ، أو أوائل القرن الثامن الهجري ، حين كانت حَملات التتار تُدمِّر العالم الإسلامي ، وتَنْتَهك حُرمات الأسر والبُيوتات الإسلامية ، وتُبدِّد خَزائنهم العلمية ، وتُحوِّل المُدن الشهيرة الراقية من إيران وتركستان إلى خَرابٍ يباب .

ويُفيد «تاريخ فيروز شاهي» وكُتب التاريخ الأخرى أنَّ كثيراً من البُيوتات الكريمة والأسر الشريفة ذاتِ الفضل والنبوغ توجَّهت في تلك الآونة إلى الهند؛ التي كانت تحكمها الأسَر المُسلمة التركية الأصل؛ التي ردَّت حملاتِ التتار على أعقابها ، واضطرَّتها للانسحاب ، وبذلك فإنها لم تحفظ هذه البلاد من غاراتهم الوحشية فحسب ، بل حَوَّلت هذه البلاد لرعايتها للدِّين وحُبِّها لِلعلم والمعرفة دارَ علم وفضل ، ومدرسةً واسعة تَستقبلُ أصحابَ الفَضل والنبوغ وتُوجَد فيها في كل مكان حلقاتٌ للدروس، ومراكز للذِّكر والعبادة وتزكية النفوس ومجامعُ لأصحاب الأقلام وأهلِ البحث والتحقيق، حيث كانت

---

(١) راجع «الإمداد في مآثر الأجداد» في مجموعة الرسائل الخمسة للإمام الدهلوي ـ طبع مطبعة الأحمدي ـ دلهي.

الفرص مُهيّأة ومواتية لأن يُنجز كل واحد منهم عمله في سَكينة وطمأنينة وسلام[1].

الإقامة بـ «رهتك»:

يُخيَّل إلينا ، ويَبدو من تَصريح الإمام الدهلوي أيضاً ، أنَّ مدينة «رهتك» كانتْ إذ ذاك مدينة ذات أهمية وخطورةٍ للدولة الإسلامية الناشئة ، وكانتْ أوَّل منزل وأهمَّه قبل دلهي للجيوش الإسلامية والمجاهدين المسلمين ، ودُعاةِ الإسلام والمبلِّغين والعلماء والمشائخ الربَّانيين الذين يتوجَّهون إلى دلهي من غرب الهند.

ويُفيد الإمام الدهلوي أنَّ أقدم المشائخ الصالحين من القرشيين الذي قدم هذه المدينة ، وظهرت بها بسَببه شعائرُ الإسلام وانتكست أعلامُ الكفر والجاهلية ، وانطمست معالمها ، هو الشيخ شمس الدين المفتي ، وقد ذكر الإمام الدهلوي بعضَ كراماته ، التي لا تُستغرب نظراً إلى صلاحه وتقواه ، وظروف ذلك العصر وتلك البيئة ، وكان يُولىٰ كل من ينزل بتلك المدينة من كبار العلماء والمشائخ منصبَ القضاء والحسبة ، ويُولى أحياناً إدارة المدينة أيضاً ، ولكنه لم يكن يُدعى في ذلك العصر بالقاضي أو المحتَسب.

مِن الشّيخ شَمس الدين المفتي إلى الشّيخ وَجيه الدين:

وقد تولَّى بعد وفاة الشيخ شمس الدين المفتي أكبَر أبنائه منزلةَ الشيخ كمال الدين المفتي ، ثم ابنهُ الشيخ قطب الدين ، ثم ابنه الشيخ عبد الملك هذه المناصب ، وقاموا بهذه المسؤوليات.

ثم بدأ تعيين القضاة بعد هؤلاء المشائخ الكرام بصورة رسمية محددة ، وقد أبقى الشيخ قاضي بده ابن الشيخ عبد الملك على هذه التقاليد للأسرة ، وعلى الحياة والمكانة ، وقد استمر نَسله من ابنيه ، وحدثتْ مُصاهرة بين هذه الأسرة

(١) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» ج: ٣.

وبين الصدِّيقيين (المنتمين نسباً إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه) في رهتك ، والأشراف في «سُوْنِي بَت» ، فكان زواج الشيخ محمود (الذي هو الجد الخامس للإمام الدهلوي) والذي ترك منصب القضاء وتولى مناصب الحكومة والإدارة في أشراف «سوني بَت» ، ووُلد له ابن أسماه أحمد.

وقد ودَّع أحمد ـ في صغره ـ مدينة «رهتك» وأقام مع الشيخ عبد الغني ابن الشيخ عبد الحكيم في «سوني بت» واستوطَنها ، وزوَّجه الشيخ عبد الغني بنته ، وقام على تربيته.

ثم قدم الشيخُ أحمد مدينة رهتك ، وبنى عمارةً خارج القلعة ، وجَمع أحبابه وأقرباءه ، وكان ابنه الشيخ منصور جامعاً للفضائل من جاه وشجاعة وحكم ، وقد تزوَّج أولاً ببنت الشيخ عبد الله ابن الشيخ عبد الغني.

وكان ابنه الشيخ معظماً كاسمه وجيهاً مهيباً وقوراً ، يملك شجاعة نادرة ، وقد صدرت منه حوادث عجيبة ، ينقل الإمام الدهلوي عن والده الشيخ عبد الرحيم أن الشيخ منصور اشتبك في حرب مع أحد الرَّاجَوَات (الأمراء) الهنادك ، وكان مُعيّناً على مَيمنة الجيش ولم يتجاوز سِنه الثانية عشرة من عمره ، وكانت الحرب شديدة حامية ، وقد قُتل من الفريقين عدد كبير ، وفي أثناء المعركة ، خاطب أحد الناسِ الشيخ مُعظم وقال له: إن والدك الشيخ منصور تناول كأسَ الشهادة ، وانهزم الجيش الاسلامي ، فلم يملك أن ثارت غيرته الإسلامية ، ونبض عرقه الفاروقي ، وخاض مُجاهداً باسلاً في صفوف الأعداء ، يشقُّها ويُفرِّقها حتى وصل بعد محاولات شديدة إلى فيل الأمير الهندوسي ، وانبرى له أحد القادة الكبار من العدو ، فضربه الشيخ معظَّم بالسيف وصيَّره فلقتين ، فهجَم عليه أصحابُه وأنزلوه من فرسه ، وازدحم عليه الناس ، ولكن الأمير زجرهم ونهاهم من التعرض له بسوء ، وقال إن هذا الناشىء اليافع ، وهذه البسالة والجراءة إنه ـ فعلاً ـ من عجائب الزمن ، وأخذه الأمير وقبل يديه ، وأكرمه وأكبره ، وسأله: لماذا هذا الغضب الفائر؟

فقال الشيخ مُعظم: نُبِّئْتُ أن والدي قد استُشهد ، فعزمتُ على أن أحمل

بنفسي ولا يقر لي قرار حتى أقتُلَ قائد العدو وأُلحقه بمقره ، وكنتُ قد قررت في نفسي أنني إما سأموت وأقتلَ أو أَقتُل.

فقال الأمير: إن من أخبرك بخبر والدك كاذب ، إنَّ والدك حي ، وانظر تتراءى أعلامُه تلك ، وأرسل الأمير ـ في الوقت نفسه ـ سفيرَه إلى الشيخ منصور أننا قد صالحنا لأجل هذا الناشىء ، وقَبِل كل ما قيل له ، ورَجع أدراجه.

ويحكي الإمامُ الدهلوي عن والده أيضاً قصة أحد المُلَّاك المعمرين للأراضي في قرية شكوه بور(التي كانت تحت ولاية الشيخ معظم) أنَّ ثلاثين من قُطاع الطُّرق استاقوا ـ ذات مرة ـ مواشي هذه القرية وفَرُّوا بها ، وكان الشيخ معظم إذ ذاك بها وحيداً ، ولم يكن هناك أحد من أقربائه أو أبنائه ، فنمىٰ إليه هذا الخبر ، وكانت سُفرة الطعام قد وضعت ، فلم يتظاهر بأي عجلة أو فزع ، بل تناول الطعام كعادته بكل طمأنينة حتى فرغ منه ، وغسل يده ، ثم قال عليّ بسلاحي وفرسي ، فلما ركب وسار ، رافقه بعض ملاك الأراضي مزوّدين بالأسلحة ، ولكن الشيخ معظَّم أمرهم بالعودة ، وقال إنني سوف أغذُّ السير وأطِير بفرسي حتى لا يُمكنكم أن تلحقوا غبار فرسي ، إلا أنه أخذ معه راوي هذه القصة الذي كان سريعاً في سيره حتى يُخبر الناس بما يجري ، ثم ركض فرسه حتى أدرك جماعَة قُطاع الطرق الذين كانوا قد قطعوا عِدَّة منازل ، واستثار غيرتهم ودَعاهم إلى النِّضال ، وبدأ يرمي بالنُّشاب ، فلما رأى قطَّاع الطرق بَراعته هذه في الرمي ، أخذهم الرُّعب ودُهشوا ، واستغاثوا به وقالوا نتوب مما اقترفنا ، فليصفح عنا.

فقال لهم الشيخ : إنَّ توبتكم أن تجرِّدوا أنفسكم من أسلحتكم ، ويَربط كل واحد منك يدي الآخر ، ثم ساقَهم في هذه الحالة المهينة مع الأسلحة والمواشي إلى القرية ، وحَلَّفهم حسب ما في ديانتهم أنهم سوف لا يفكِّرون في العودة إلى هذه القرية ولا ينظرون إليها ، فقبِلوا ذلك.

وأعقَب الشيخُ معظَّم من زوجته بنتِ السيد نور الجبار السُّوني بَنِي ثلاثَة

أبناء ، الشيخَ جمال ، والشيخ فيروز ، والشيخ وجيه الدين ، وهذا الأخير هو جدُّ الإمام الدهلوي ووالد والده.

جدُّ الإمام الدّهلوي الشيخُ وَجيهُ الدّين:

لقد ذكر الإمامُ الدهلويُّ تَرجمة حياة جدّه الشيخ وجيه الدين بشيء من التفصيل بالنظر إلى غيره ، يقول: «إنه كان يجمع بين صفتي الصلاح والتقوى والشجاعة والفتوة ، كان الوالد (أي الشيخ عبد الرحيم) يقول: كان والدي (الشيخ وجيه الدين) جَعل حزبه أن يقرأ يومياً جزءين من القرآن الكريم ، ولم يكن يترك ذلك سفراً وحضراً وفي حالة المنشط والضعف والكسل ، فلما كَبُر وضَعُف بصره ، فكان يحمل معه مصحفاً مكتوباً بالحروف الكبيرة ، ولم يكن يفارقه في السفر أبداً.

وكان يقول: إنه لم يكن يَدعُ فَرَسه يرعى حقل غيره ، ولو كان الجيش كُلُّه يَركضون أفراسهم وخيولهم في الحقول المزروعة ، ولذلك كان أحياناً يتجشم الطريق الأبعد غير المعروف المسلوك.

وكان يقول أيضاً إنه إذا قَلَّت التموينات في إحدى الحروب ، ولم يتهيَّأ من المطعومات ، فكان أصحابه وزملاؤه من الجنود يَسطون على مواشي القرى ويأكلونها ، أما هو فكان يتورَّع من ذلك ، فإذا طالتْ ساعاتُ الجوع ولم يجد شيئاً يوماً أو يومين وخارت قواه ، فيُهيِّىء الله تعالى له رزقه من حيث لا يحتسب.

وكان أحياناً يُمعِن في التفكير ، ويَضرب سَوطه على الأرض ، فتخرج منها الحمص قدْر ما يُغذِّيه أو يُعَشِّيه فكان يَغسلها ويُطهِّرها ، ويَغْمسُها في الماء ثَم يتناولها.

وكان يقول: إنَّ سُلوك والدي مع باعة التِّبن وأصحاب الحرف الوضيعة (كما يظنُّون) كان في غاية اللطف واللين والعدل والنَّصَفة مما يَندر نظيرُه في أصحاب التقوى والورع أيضاً.

وكان يقول أيضاً: إنه شاهد ـ في أحد أسفاره ـ بعض علائم الولاية، فبايَع، واشتغلَ بالأشغال الصوفية، واتخذ قلة الكلام وقلة الاختلاط بالأنام (الذي هو عادة الصوفية النقية) شعارَه، والتزم به التزاماً يكاد لا يُوجد في صُوفية هذا العصر.

ويقول الإمام الدهلوي: إنَّ الوالد كان يذكر جراءته وشَجاعته كثيراً، وقد ذكر الإمام الدهلوي في هذا الموضوع عدداً من وقائع شجاعته النادرة نقلاً عن والده، فقد واجَه ـ بعض المرات ـ جماعات وفرقاً من الأعداء، وبارزهم وقاتَلهم وحدَه، وكان يخرج في المعسكر الملكي إلى (مَالْوَهْ)، وكان قد بارز كبار الشجعان والأبطالِ المغاوير في عصره، وأنقذَ ـ بعض الأحيان ـ أصحابه أو ضُباط جيشه الذين كانوا تعرَّضوا لخطر العدو منهم في اللحظة الحرجة.

وصرع ـ ذات مرة ـ ثلاثة من المصارعين المبارزين كانوا لا يبالون بأحد ولا يعيرون لأحد أيَّ اهتمام، وكان فريداً في فن الفروسية[1].

وكان هو مع (عَالَمْكِيْر) في حربه مع إخوته، ولما خرج شاه شُجاع ضدَّه في بنغاله، كان هو في عسكر عالمكير، وقد قام بدور كبير، وأدى حقَّ الوفاء بولي نعمته، وأثبتَ صدقه واستقامته[2]، وقد كتب النصر لعالمكير في تلك المعركة برجولته وشجاعته، وأراد المَلك بعد الفتح أن يُرقي منصبه، فلم يقبل ذلك لزُهده فيه، وقد أدَّى ـ أحياناً ـ حقَّ الصداقة والود لأحبابه وأصدقائه، وخاطر لأجلهم بنفسه وأنقذهم في المواقع الصعبة.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحيم عدداً من وقائع مغامراته وبُطولاته ورباطةِ جأشه، وقُوة شكيمته وعُلُوِّ همته، كما ذكر وقائع أخرى لِمُواساته ومُطايبته وشفقته على الفقراء والمساكين.

وقد تزوَّج وجيه الدين ببنت الشيخ رفيع الدين محمد، وكان الشيخ رفيع

(١) انظر للتفصيل «مآثر الأجداد» ص: ٦ ـ ٧.
(٢) المصدر السابق: ص: ٨ ـ ٩.

الدين ابن الشيخ قطب العالم، وهو ابن الشيخ عبد العزيز شَكَرْبَار[١].

وولد للشيخ وجيه الدين من هذه الزوجة ثلاثة أبناء، وهم: الشيخ أبو الرضا محمد، والشيخ عبد الرحيم، والشيخ عبد الحكيم.

يقول الشيخ عبد الرحيم: كان والدي ذَات مرة يُصلي التهجد، فأطال إحدى السجدات حتى ظُنَّ أنه فارق الحياة، فلما رفع رأسه، قيل له: لماذا أطلتَ السجودَ إلى هذا الحدِّ؟ قال: اعترتْني حالةُ الغيبوبة، وانكشفَ لي فيها درجة الشهيد وما أُعد له من ثواب، فتمنيتُ على الله تعالى أن يرزقني الشهادة، وألححْتُ وبالغتُ في الدعاء حتى انكشف لي قبول الدعاء، ووقعتِ الإشارة إلى جهة «دَكَن» (جنوب الهند) أنَّ محل الشهادة هو ذاك.

يقول الوالد: إنه بعد هذا الحادث ـ رغم أنه كان ترك وظيفة الجيش، وكان قد كرهها ونَفر منها، ولكنه هيأ أسباب السفر من جديد، واشترى الخيل وتَوجه إلى دكن، وكان يُخيل إليه أن حادث شهادته يقع في «سيوارا» الذي كان واقعاً خارج حدود الدولة الإسلامية، وكان حاكمه قد تعرض للقاضي المسلم بالإهانة والازدراء، إلا أنه لما وصل إلى «بُرْهَانْبور» انكشف عليه أنه تخطى محل الشهادة، فرجع القهقرى، ورافق في الطريق بعض التجار ممن كانت تلوح عليهم آثار الرشد والصلاح، وكان يريد العودة من قرية «هنديا» إلى الهند، إذا به عَرض له رجل مُسنٌّ ضعيف كان يعدو وهو لاغبٌ مَكدود، فأشفق عليه، وسأله عن حاله، فقال: أريد الذهاب إلى دلهي، فقال له: ابقَ عندنا وأعطيك ثلاث بيسات من راتبي كلَّ يوم.

وكان ذلك العجوز أحدَ جواسيس الكفار، فلما وصلت القافلة إلى رباط «نويزيا» أخبر الجاسوسُ أصحابه بخبر هذه القافلة للتجار، وأنها نازلة في الرباط، فهجم عدد كبيرٌ من قطاع الطرق على هذا الرباط، وكان الشيخ وجيه الدين إذ ذاك يتلو القرآن الكريم، فتقدم إليه منهم اثنان أو ثلاثة، وقالوا: من

(١) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» ج: ٤.

هو وجيه الدين ؟ فقال: ها أنا ، فقالوا: ما لنا بك من حاجة ، فنحن نعلم أنك لا تحمل شيئاً من الفلوس ، وأن لك على أحد منا حقَّ الضيافة ، ولكننا لا نترك هؤلاء التجار الذين يحملون أمتعةً كثيرة ، ولما أن الشيخ وجيه الدين كان أصلُ غرضه من رحلته هذه الشهادةُ ، فلم يَرض بمفارقتهم والتخلية بينهم وبينهم ، فتصدَّى للمهاجمين ، وانبرى يقاتلهم ، وقد وقع في جسمه اثنان وعشرون جَرحة وطعنة ، وكانت الطعنة الأخيرة فصلت رأسه من جسده ، ولم يَزل لسانُه في هذه الحال أيضاً رطباً بالتكبير ، حتى سقط أخيراً في مكانه ودفن به ، وقد أشهدَ اللهُ ـ تعالى ـ الشيخَ عبد الرحيم هذا الحادث ، فرأى أنه يُريه جروحه ، وأراد الشيخ عبد الرحيم أن يَنقل جثَّته ، ولكن إشارة غيبية منَعته من ذلك.

جَدّ الإمام الدهلوي مِن أُمّه الشيخُ مُحمّد الفلتي :

كان الشيخ محمد الفلتي جدَّ الإمام الدهلوي لأمه[١] وموطن أسرته الأول «سدْهور»[٢] ونزحت هذه الأسرة في عهد السلطان سكندر اللُّودهي إلى «فُلَتْ» ، كان والده يسمى الشيخ محمد عاقل الذي كان من صغره ذكياً ألمعياً ، ومُقرَّباً لدى العلماء الصالحين والمشائخ الربانيين.

وكان الشيخ جلال خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، بُشّر عند ولادته بمراتبه العالية.

قرأ أولاً على عم الإمامِ الدهلوي الشيخ أبي الرضا محمد ، ثم على الشيخ عبد الرحيم ، وكانت له به مناسبَةٌ تامة.

وقصدَ بعد الفراغ من تحصيل العلوم إلى فلت ، وكان صاحبَ قدم راسخة في الجود والعطاء وإنكار الذات وفناء النفس ، وكان قويَّ التأثير ، صاحب التزكية والإرشاد.

---

(١) للإمام الدهلوي رسالة في ترجمة حياته بعنوان «العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية»، وهي مضمومة إلى مجموعة الرسائل الخمسة.

(٢) مديرية بارة بَنْكِي ـ حالياً ـ.

وقد ذكر الإمام الدهلوي وقائع من طاعته وخضوعه وتسليمه وانقياده لأستاذه ومربيه الشيخ عبد الرحيم[١]، وقد حَصلت له الإجازة من الشيخ عبد الرحيم.

وكان ابنُه الشيخ عبيد الله الذي كان خَال الإمام الدهلوي ووالد زوجته، وخليفته الأجل الشيخ محمد عاشق الفُلَتِي[٢].

وقد ذكر الإمام الدهلوي عدداً من وقائع قوة التأثير التي كان يمتاز بها الشيخ محمد الفلتي وإفادته وإفاضته[٣]، توفي الشيخ محمد في ٨/ جمادى الآخرة، عام ١١٢٥ هـ[٤].

عمُّ الإمام الدّهلوي الشيخُ أبو الرضا محمد:

كانَ الشيخ أبو الرضا محمد الابنَ الأكبر للشيخ وجيه الدين، والعمَّ الأكبر للإمام الدهلوي، وقد أثبت الإمام الدهلوي في «أنفاس العارفين» ترجمةً مستقلة له، بعد تَرجمة والده، ووصفه بـ«إمام الطريقة والحقيقة»، وكانت مُعظم علومه(وإن كان هو قد قرأ على أساتذة عصره) وَهبيَّةً في نظر الإمام الدهلوي، بدأ ـ بإذن والده وإشارته ـ يتردَّد إلى أحد الأمراء، ثم إذا به قد جَذبته جاذِبة التوفيق الإلٰهي، ومَنعته منه، واتَّخذ التوكل الكامل، والتجريد التام، والعملَ بالسنة ديدنه وشعاره، وقد خَيَّر زوجته أيضاً مُستناً بقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، بين أن تختار الفَقر والمسْغبة إذا اختارت مُرافقته والبقاء معه، وإلا فلتذهب إلى بيتها، وقد اختارت هي أيضاً مُقتدية لسنَّة الأزواج المطهرات، الفقرَ والمسغبة، ولم تَرض بمفارقته.

---

(١) العطية الصمدية: ص: ٢٠.
(٢) انظر لترجمة الشيخ محمد عاشق الفلتي «نزهة الخواطر» جـ: ٤.
(٣) العطية الصمدية ص: ٢٢ ـ ٢٥.
(٤) المصدر السابق: ص: ٢٥.

وكان يتوالى عليه يومان أو ثلاثةُ أيام لا يجد طعاماً فيَبيتَ على الطَّوى ، وكانت له نسبة خاصة بالشيخ عبد القادر الجيلاني ، كما كان له حبٌّ خاص ومناسبة خاصة بسيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه [١] .

وقد أراد السلطان (عالمكير) زيارته مراراً ، ولكنه لم يرض بذلك ، وذلك لأنه كان لا يُقبل على الأمراء والحكام ، أما الخصَّافون وأصحاب الطواحين ، وأصحابُ أمثال هذه الحرف ، فكان يُقبل عليهم ويحبهم ، وإذا قدموا له ثلاثة أو أربعة فلوس كهدية يقبل منهم بكل رضا وسرور .

وقد نَعَتهُ الإمام الدهلوي بـ«قوي العلم ، فصيح اللسان ، عظيم الورع ، واسع المعرفة ، كان جميل المحيا ، طويل القامة ، أبيضَ اللون ، خَفيف اللحية ، لطيفَ الكلام ، وكان يَعظ ويذكِّر بعد صلاة الجمعة ، ويُسمع الناس من حفظه ثلاثة أحاديث ثم يُترجمها إلى الفارسية ثم إلى الهندية ، وكان يلقي الضوء على معاني هذه الأحاديث وفوائدها ، إلا أنَّ كل ذلك بإيجاز واختصار .

وكان أولاً يدرِّس كتاباً في كل فنٍّ ، ويَزدحم عليه الناس إعجاباً بحُسن بيانه وحلاوة منطقه ، ثم اكتفى أخيراً بدرسين ، أحدهما في «تفسير البيضاوي» ، والثاني في «مشكاة المصابيح» .

وكان يَشرح كلمات الصوفية شرحاً عجيباً ، وكان مستجاب الدعوات .

وقد ذكر الإمام الدهلوي كثيراً من الوقائع التي تدل على حبِّ الناس له ، وأنَّه من المصطفين الأخيار [٢] .

كان له اهتمامٌ بالغٌ بأداء السُّنن ، وكان يُنشد أحياناً الدوبيت في الهندية من شعر الحقائق والمعاني ، وقد ذكر الإمام الدهلوي عدداً من وقائع كُشوفه وكراماته [٣] ، ونَقل بتفصيلٍ كثير أقواله وكلماته التي يصعب فهمها والاستفادة

---

(١) أنفاس العارفين: ص ٨٦ ـ ٨٨.
(٢) المصدر السابق: ص: ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) المصدر السابق: ص: ٩٠ـ٩٤.

منها في هذا العصر ، ولذلك نُفضل الإعراض عن ذكرها[١] كان عمره بين الخمسين والستين إذ وافاه الأجل المحتوم في ١٧/ محرم الحرام عام ١١٠١هـ بعد صلاة العصر ، وأُرخت وفاته بكلمة «آفتاب» (أي الشمس)[٢] .

وَالدُ الإمام الدهلوي الشيخُ عبد الرحيم:

لقد ألف الإمام الدهلوي نفسُه في حياة والده ومناقِبه وكراماته وفضائله ، كتاباً مستَقلاً مفصَّلاً ، أسماه «بوارق الولاية» ويعرف بـ«أنفاس العارفين» [٣] ، وإنه لا تتوفَّر لدينا أمثلة ونماذج في تاريخ الإسلام العلمي لتأليف كتب مستقلة بأقلام الأبناء النوابغ في تراجم آبائهم النوابغ الفضلاء بالدِّقة العلمية والمسؤولية التاريخية ، ويمكن أن يمثل في هذا الصدد بترجمة العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير «طبقات الشافعية» لوالده العلامة الشيخ تقي الدين السبكي ترجمة مفصلة مسهبة [٤]، وتأليف العلامة الشيخ أبي الحسنات عبد الحي اللكنوي الفِرَنْجِي مَحَلِّي رسالة مستقلة بعنوان «حسرة العالم بوفاة مرجع العالم» في حياة والده الشيخ عبد الحليم اللكنوي.

وسوف نختار من هذا الكتاب تلك الجوانب والوقائع التي تُلقي الضوءَ على شخصيته ، والتي يُمكن أن تقدَّر بها مكانتُه العلمية والدينية والروحية ، ويستعان به في تحديد ذلك الدور الأساسي الذي قام به والده في تكوين شخصية الإمام الدهلوي ومُيوله وذوقه والتأثير في حياته ، ولا نُكثر من ذكر الكرامات والكشوف والتجارب الروحية والمدارج الباطنية (التي كانت الشغلَ الشاغل في ذلك العهد ، وكانت للمُترجم بها مناسبةٌ خاصة) لأنَّ فهمها

(١) أنفاس العارفين: ١١٩.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٥٥.
(٣) طبع أولاً في المطبع الأحمدي، ثم طبع في المطبع المجتبائي، والإحالات إلى الطبعة الأولى.
(٤) وهي تشتمل على (٨١) صفحة بحروف صغيرة.

وإدراكها يتعسر على أصحاب هذا العصر ، وينبغي لمن يريد هذه التفاصيل أن يرجع إلى أصل الكتاب.

ولا بدَّ من أن نقول ـ إجمالاً ـ إن هذه الأحوال والوقائع تدل على استعداد روحي بالغ ونُبوغ باطني طبيعي ، تُذكر بأحوال الأولياء المتقدمين الذين كانت استعداداتهم ومداركهم قوية بالغة ، وكان الزمن مواتياً صالحاً والبيئة متجاوبة مساعدة ، بل باعثة ومرغبة ، وكانت قدرة الله وتربيته بموجب قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] تتجلَّى في هذا المجال ، وكان ذلك تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

لا يوجد التصريح في كُتب التراجم بسَنة ولادة الشيخ عبد الرحيم ، ولكن لما أنه توفي عام ١١٣١هـ ، وعمره ٧٧ عاماً؛ لذلك نستطيع أن نحدد سنة ولادته وهي ١٠٥٤ هـ[١].

وكان للشيخ عبد الرحيم ثلاثة إخوة: الشيخ أبو الرضا محمد ، والشيخ عبد الحكيم ، والشيخ عبد الرحيم.

يقول الشيخ عبد الرحيم: «كنتُ في صغري ألوث على رأسي العمامة وأجلس جِلسة الصلاة ، وكنت أسبغ الوضوء ، وأهتم بسننه وآدابه ، وكان خالي الشيخ عبد الحي (الذي كان أيضاً من المشائخ الربانيين) يَراني فيُسرُّ بي ، ويقول: يَطمئن قلبي عند رؤيته ، على أنَّ هذه الثروة المعنوية لسَلفنا ستستمرُّ في أعقابنا ، فلو لم يظفر بها أحفادنا فلا بأس ، فإن أسباطنا سيكونون حملةَ أمناء لهذا التراث»[٢].

لقد كان الشيخ عبد الرحيم من صِغره ميَّالاً إلى الدين ، نَفوراً من الدنيا ،

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٨٥.

(٢) المصدر السابق: ص: ٤.

ومالِها وجاهها ، فكان لا يلتفت إلى شيخ يريد أن يعلمه دعاءً يحقق حاجات الدنيا ويقول: لا حاجة لي به ، فلما رأى ذلك منه أحد المشائخ النقشبنديِّين الذي كان اسمُه خواجه هاشم ، وكان قد قدم من بُخارى ، ونزل في الحي الذي كان يسكنه الشيخ عبد الرحيم ، لقَّنه «طريقة الاستكتاب» [(١)] ، يقول الشيخ عبد الرحيم : «وقد غَلبتْ عليَّ هذه الطريقة واستحوذتْ على نفسي حتى أنني انتسختُ مرة حاشية ملاّ عبد الحكيم (وهي حاشيته على شرح العقائد) فبدأتُ أكتب اسم الذات حتى تم جزءٌ واحد ولم أشعر به» [(٢)] .

وكان الشيخ يَحضُر عند الشيخ عبد الله المعروف بخواجه خورد ابن الشيخ الربَّاني خواجه باقي بالله ، وكان من كبار العارفين ، وقد تقدم إليه الشيخ لبعض الإشارات الغيبية والبشارات الروحية بطلَب البيعة على يديه ، فأشار عليه ناصحاً أن يبايع أحد خلفاء السيد آدم البَنُّوري ممَّن تكون له قدم راسخة في العمل بالشريعة ، والزُّهد في الدنيا وتهذيب النفس ، فقال له: إن الشيخ الحافظ السيد عبد الله ، من خلفاء السيد آدم يسكن بجوارنا ، فقال: اغتنم وجوده ، فلا تتأخر في بيعته ، يقول الشيخ: فجئت إلى حضرة السيد عبد الله [(٣)] ، وكان يَغلب عليه إخفاء حاله ويعيش في الخمول ، ولكنه أجابني على طلبي الأول وقبلني للبيعة ، فكنتُ أحضر لدى الشيخين الشيخ خواجه خورد ، والشيخ السيد عبد الله واستفيد منهما .

وكانت عناية السيِّد عبد الله متوجِّهةً إلى الشيخ عبد الرحيم ، فقال له يوماً: كنتَ صغيراً ، تلعب مع الولدان ، فوجدتُ في نفسي انجذاباً إليك ، فدعوت الله تعالى أن يجعل هذا الولد من الأولياء والصالحين ، وأن يُظهر نبوغه على

---

(١) كان المشايخ لغرض نقش اسم الله تعالى على لوح قلب الطالب يستكتبونه اسم الله تعالى بكثرة على الورق حتى ينقش في القلب، وكان هذا إحدى الطرق لعلاج القلوب وإحيائها بذكر الله تعالى.

(٢) أنفاس العارفين: ص: ٥.

(٣) انظر لترجمته «أنفاس العارفين» ص: ٦ ـ ١٥.

يدي ، فأحمد الله تعالى على أن ثمرة هذا الدعاء قد ظهرت[١].

دِراسَتُـه:

قَرأ الشيخ عبد الرحيم من الرسائل الصغيرة إلى «شرح العقائد» و«حاشية الخيالي» على أخيه الأكبر أبي الرضا محمد ، وقرأ سائر الكتب على ميرزا زاهد (المعروف بمير زاهد) وكان يقول: لقد قرأت «شرح المواقف» وسائرَ كتب الأصول على ميرزا زاهد ، وكانت له بي عناية خاصة ، حتى لو قلت له يوماً: لم أطالع الكتاب الليلة ، فكان يقول: اقرأ سطراً أو سطرين حتى لا يذهب اليومُ خالياً من الدرس.

وراجع الشيخُ خواجه خورد أيضاً في حل بعض المواضع من «حاشية الخيالي» واطمئنَّ بحلوله ، وكان يقرأ ـ أحياناً ـ شيئاً من بداية الكتاب ، ثم يَدرُسه إلى نهايته بنفسه.

وكان الشيخ خواجه خورد تلميذ الشيخ رفيع الدين جَد الشيخ عبد الرحيم لأمِّه ، وكان الشيخ خواجه خورد استفاد من أستاذه علمياً وروحياً ، ولذلك كان يُعامل الشيخ عبد الرحيم معاملةً خاصة.

وراجع الشيخ عبد الرحيم بعد وفاة السيد عبد الله الشيخ أبا القاسم الأكبر آبادي[٢] أحد كبار المشائخ في السلسلة أبي العلائية الأحرارية ، واستفاد من الأمير نور العلاء أيضاً ، وأجازه كذلك الشيخ أبو القاسم ، وكان الشيخ يُكرمه ويُقدره ويعتني به اعتناءً خاصاً ، لأجل أنه كان يتصل بالشيخ عبد العزيز

(١) أنفاس العارفين: ص: ١١.

(٢) كان الشيخ أبو القاسم خليفة الشيخ ولي محمد النارنولي ، وهو خليفة الأمير أبي العلاء الحسيني الأكبر آبادي ، وقد عاصر الشيخ أبو القاسم الشيخ أبا العلاء وصحبه ، ولكنه حصل على الإجازة من الشيخ محمد النارنولي ، توفي عام ١٠٨٩هـ ، وينبغي أن يعلم أن الطريقة أبا العلائية الأحرارية هي مزيجة من الطريقتين الجشتية والنقشبندية ، وسلسلة كالبي الشهيرة التي كان فيها الشيخ السيد محمد الترمذي ، تنتمي إلى هذه السلسلة (انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» جـ: ٥ ، ص: ٢٢).

شكربار ، أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم من أمه اتصالاً خاصاً.

وقد ذَكر الإمام الدهلوي في كتابه «أنفاس العارفين» حوادث ووقائع كثيرة للقاءات الشيخ عبد الرحيم مع مشائخ وأولياء عصره ومجاذيبه ، وعناياتهم الخاصة به ، فقد كان عصرَ الازدهار للسلوك والتصوف والشوق إلى الله ، ومعرفته الوصول إليه والزهد ، وكان أمثالُ هؤلاء المشائخ الذين يتذوَّقون هذه الأشياء ، ويتحلَّون بالفضائل الروحية الباطنية موجودين بكثرة(١) ، وقد كان لهم إقبالٌ كبير على الشيخ عبد الرحيم وعنايةٌ خاصة به ، وكانتْ للشيخ معهم لقاءات طيبة.

وذكر الإمام الدهلوي وقائع من كشفه للأرواح مما يدل على قوته الباطنية وتأثيره الروحي الكبير(٢) ، كما ذكر أيضاً كراماته وإشراقاته(٣) ، ثم ذكر أقواله وكلماته بتفصيل كبير(٤) ، ويَظهر من أقواله وكلماته دقةُ نظره وثقوبة ذكائه ، وصَلاحيته العلمية الفائقة.

يقول الإمام الدهلوي: كان عمل والدي في أكثر المسائل على المذهب الحنفي ، وكان في بعض المسائل يأخذ بالحديث ، أو يرجِّح أحد المذاهب بما يُملي عليه وجدانُه ، فكان من اختياراته قراءةُ الفاتحة خلف الإمام ، وقراءةُ الفاتحة في صلاة الجنازة.

وقد كانَ الشيخُ عبد الرحيم في تلك اللجنة من العلماء التي عُهِد إليها بترتيب «الفتاوى الهندية» المعروف في الهند بـ «فتاوى عالمكيري» ، والتي كانت تَشمل على كبار العلماء البارزين والمدرسين والفقهاء البصيرين في الفقه الحنفي في هذه البلاد ، وكان رئيسَ هذه اللجنة والمشرفَ عليها الشيخُ نظام

---

(١) انظر «أنفاس العارفين» ص: ٢٩ ـ ٣٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥ ـ ٥٠.

(٣) المصدر السابق: ص: ٥٠ ـ ٦٥.

(٤) المصدر السابق: ص: ٦٦ ـ ٨٥.

الدين البُرهانبوري ، وقد أنفق السُّلطان عالمكير على هذه الخدمة الجليلة مئتي ألف روبية[١] ، وقد ذكر مؤلِّف «الثقافة الإسلامية في الهند» أسماء هؤلاء العلماء المؤلِّفين بعد تتبُّع وفحص كبير، فبلَغ عددُهم اثنين وعشرين ، وكان الشيخ عبد الرحيم أحد أعضاء هذه اللجنة[٢].

يقول الإمام الدهلوي: لقد كان السُّلطان عالمكير في هذه الفترة من الزمن على غاية الاهتمام بهذا الترتيب والتدوين ، وكان الشيخ مُلاَّ نظام الدين (أحد المشرفين على عَمل اللجنة) يَقرأ كلَّ يوم صَفحةً من الكتاب على السلطان ، فقرأ ـ ذات يوم ـ ذلك الجزء الذي كان عهد بترتيبه إلى الشيخ مُلاّ حامد ، وكان قد خَلَط بين عبارتين مُتفرِّقتين من كتابين تتعلَّقان بمسألة واحدة ، فنشأ غُموضٌ وإبهام ، فلمَّا وقَع بَصرُ الشيخ عبد الرحيم (الذي كان أحد أصدقائه) على هذا الموضع ، قام بالبَحث والتحقيق ، فظهر له أنه جمع بين عبارتين مختلفتين فكتَب على حاشية المسوّدة هذه العبارة: «من لم يتفقَّه في الدين قد خلط فيه ، هذا غلط ، وصوابُه كذا ، فقرأ مُلاَّ نظام مع عبارة المتن هذه الحاشية كذلك ، ولم يَتنبَّه في سُرعة قراءته للحقيقة ، أما السلطان الفاضل الذي كان يسمعُ بإصغاء واهتمام ، فقد التفتَ وتفطَّن ، وقال: ما هذه العبارة؟ فاضطرب مُلاَّ نظام بعضَ الاضطراب ، إذ أنه لم يكن قد طالعه من قبل ، ثُم تمالك نفسَه ، وقال: إني لم أكن قد طالعتُ هذا الجزء ، وسوف أشرح ذلك غداً بتفصيل ، فلما جاء منزله ، شكا إلى مُلاّ حامد توريطه ، وقال: كنتُ تركت مطالعة هذا الجزء ثقةً بك واعتماداً عليك ، وقد افتضحتُ بسببك لدى السلطان ، فلم ينبس مُلاّ حامد حينئذ ببنْتِ شَفة ، بل شكا ذلك إلى الشيخ عبد الرحيم ، ففتحَ الشيخ أمامه الكتاب وأراه مَوضع الغلط ، وأن العبارة نشأ فيها غموض واضطراب ، وكان ذلك مثارَ الحسد عند بعض الزملاء ، حتى اضطر الشيخ

---

(١) ولا يقل ذلك اليوم عن خمسة ملايين روبية.

(٢) انظر: «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني المرحوم ص: ١١١ ، طبع المجمع العلمي بدمشق.

عبد الرحيم إلى أن يَعتزل هذا العمل بعد الانتظام في سلكه لمدةٍ من الزمن.

أَخلاقُه وشَمائِله وعَاداتُه وأورادُه:

يقول الإمام الدِّهلوي عنه: إنه كان مَجمعاً للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة، وقد كان مُتصفاً بغاية الشجاعة والجراءة، والغيرة والفراسة، وكان له مع «عقل المعاد» والتفكير في الآخرة النصيبُ الأوفر من «عقل المعاش» والحزمُ في الشؤون الدنيوية.

وكان يُحب التوسُّطَ والاعتدال في جميع أحواله وأموره، فلم يكن له في الزُّهد والعبادة من الإفراط والغلو ما يَصلُ إلى حدود الرهبانية، ولا من الرُّخصة والسهولة ما يبلغُ حدَّ التساهل وقِلة الاهتمام، ولم يكن يتكلَّف في اللباس، فما تيسر له من اللباس الخشن أو الناعم لبسه من غير كُلفة، إلا أن الله تعالى هيَّأ له دائماً من اللباس ما نعم وطاب، وكان اللهُ تعالى يكفيه جميعَ حاجاته، فكان قليلاً ما يخرجُ إلى السوق لشراء الحاجيات، ولا كان يذهب إلى قصور الأمراء والأغنياء، فقد أغلَق على نفسه الباب، أما إذا زاره أحدٌ من الأمراء أو الأثرياء فكان يستقبلُه طليقَ الوجه، ببشْرٍ وطيبِ خُلقٍ، وكان يُكرم الكريم منهم، وإذا طلب أحدٌ منهم موعظة، وَعظه برِفق ولين، وأدّى مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان يُعظم العلم والعلماء، ويَنْفُر من الجهل والجهلة، وتَتبع ـ دائماً وفي كل حال ـ سُنن المصطفى ﷺ، ومن استقامته والتزامه بالعبادات أنه لم تَفته الجماعة بغير عذر في عمره كله، ولم يمل طبعُه ـ في صباه كذلك ـ إلى المحرَّمات والمنهيات، ولم يكن يتحاشى البيع والشراء في الأمور الحاجية، ولا يلتزم هيئة العلماء وآدابهم المتكلفة، ولا ملابس الفقراء والدراويش المطلقة، بل كان يعيش بعيداً عن التَّصنُّع والتكلف، وكان يكره الاستدانة بدون ضرورة، ويَكره من يَستدين للتفكُّه ورغد العيش ويَعيبه، وكان له إدراك وذكاء بالغ في علم الطب.

وكان من التزاماته وأوراده اليومية أن يصلي على النبي ﷺ ألف مرة ، ويُهلِّل ألف مرة ، بعضُها جهراً ، وبعضُها خفية ، ويردد اسم الله تعالى اثني عشر ألف مرة ، وكان بعد وفاة أخيه الشيخ أبي الرضا محمد ، يُدرِّس في «مشكاة المصابيح» و«تنبيه الغافلين» ، و«غُنية الطالبين» ، ثم بدأ ـ أخيراً ـ إلقاء الدروس في التفسير ، وكان قد فرغ من تفسير الزهراوين (سورتي البقرة وآل عمران) إذِ اعتراه الضعف ، وانقطعَ هذا الدرس.

حمِيَّتُه الإسلامية:

لقد كان الشَّيخ عبد الرحيم حَسْبَ تقليد سَلفِه وارث والدِه الشهيد الشيخ وجيه الدين يتَّصفُ ببالغ الحَمِية الإسلامية ، ويَحمل مَشبوبَ العواطف الجهادية ، ومن المعلوم أن الجهاد والأخذ بالعزيمة تَسلْسَلا في أُسرته جيلاً بعد جيل من دون انقطاع ، فكان قد وَرِث الشجاعة والفتوة والغيرة ، وإن لم نَعثُر على حادث اشتراكه في معركة من معارك الجهاد ، ولكن الوقائع المذكورة في «أنفاس العارفين» تكفي للدلالة على ما يمتاز به من علو همة ، وعزيمة ، وغيرة دينية ، وهذا هو التراث الجليل الذي انتقل إلى أعقابه أيضاً.

زواجه وأولاده:

كان زَواج الشيخ عبد الرحيم الأول في حياة والده ، وقد وُلد له من زَوجته الأولى ابن سُمي «صلاح الدين» الذي لم يلبث أن مات[1] ، وبقيت هذه الزوجة على قيد الحياة مدة طويلة ، وتُوفيت بعد زواج الإمام الدِّهلوي عام ١١٢٨هـ أو ١١٢٩هـ[2].

---

(١) يستفاد من «القول الجلي» أن هذا الأخ العلاتي للإمام الدهلوي المدعو بصلاح الدين كان قد بلغ سن الشباب ، (انظر القول الجلي المخطوط في مكتبة كاكوري).

(٢) يقول الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف»: إن والدي زوَّجني وكنت في ١٤ سنة ، وقد أسرع في أمر زواجي ، وقال لمن كان يريد التأجيل: إن في هذا مصلحة مرعية ، ثم وقعت بعد الزواج عدة مصائب في الأسرة لو كانت وقعت منها=

وكان الزواج الثاني في الكبر لبعض البشارات والإشارات الغيبية بكريمة الشيخ محمد الفلتي الصدِّيقي ، وقد ولد منها ابنان: الإمام الدهلوي ، والشيخ أهل الله .

وَفاتُه:

لقد صَام الشيخ عبد الرحيم آخرَ صيام حياتِه في شهر رمضان حين بلغ ٧٧ عاماً من عمره ، ثم مرض في شوال ، وانقطع الرجاء في الحياة ، ثم عادت إليه الصحة ، ثم رجع المَرَض في أوائل صفر واشتد ، وبدَت علائم الموت قبل الفجر الصادق ، وكان جُلُّ اهتمامه ـ حينذاك ـ بأن لا تفوته صلاة الفجر ، فسأل في هذه الحالة من الضَّعف: هل أصبحنا ؟ هل طلع الفجر؟ فقال الحضور: لا لم يطلع بعدُ ، فلمَّا دنا الوقت جداً ، اشتد على هؤلاء وردَّ عليهم بغضب ، وقال: إن كان وقتُ صلاتكم لم يَحنْ بعدُ ، فقد حان وقت صلاتي ، وقال: وجهوني إلى القِبلة ، ثم صلى يُومىء إيماءً ، وقد كان في الطُّلوع شك ، ثم اشتغلَ بحركة شفوية بذكر «اسم الذات» ، وأسلم رُوحه لبارئها.

وقعَ هذا الحادث يوم الأربعاء ١٢/ صفر عام ١١٣١هـ ، وكان هذا آخرَ عهد الملك فَرُّخ سير ، ودام فَرُّخ سير بعد وفاته خمسين يوماً في الحبس، ووقع في المدينة اضطراب كبير ، وكان عمره عند وفاته ٧٧ سنة[1] .

الشَّيخُ عبد الرحيم في نَظر الإمام الدهلوي:

رَغم أنه لا يوجد أيُّ مؤلَّف (سوى رسالة واحدة) للشيخ عبد الرحيم يُحدِّد مكانته العلمية ، وأنَّ صِيته إنما يدين لولده النابغة العظيم ، وهو الذي عَرف به وترجمه في كتابه «أنفاس العارفين» ، وليس هناك أي كتاب لأحد من تلامذته ومُسترشديه في حياته ، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوي ، ولا سيما كتابه

= مصيبة قبل الزواج لتأجل الزواج ، وذكر الحادثة الأخيرة من هذه الحوادث وفاة والدة أخيه الكبير صلاح الدين (انظر الجزء اللطيف ص: ٢).

(١) أنفاس العارفين: ص: ٨٣ ـ ٨٥.

«أنفاس العارفين» يدل على أن الإمام الدهلوي كبيرُ الإعجاب والاقتناع ـ على بصيرة وهدى ـ بسمو مكانته وقوته الروحية ، وقَبولِه عند الله تعالى ومنزِلته الرفيعة في العلم والسلوك مما يكون من تأثر الابن البارِّ بفضائل والده ومآثره ، واعترافه بمنَّته العظيمة وثنائه عليه.

ويَظهر أن الإمام الدهلوي على علم اليقين والوجدان الصحيح فيما يَتعلق بفضائله وكمالاته الروحية والعلمية ، ويستشعر القارىء في ترجمته له بأنه مُعجب به غاية الإعجاب ، يجد اللَّذة والحلاوة في ذكره.

ويبدو أن في تعليم الإمام الدهلوي وتربيته وفضائله العلمية والروحية والحصول على المدارج الباطنية ، ووصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والسلوك حظاً كبيراً ونصيباً وافراً لقوة تأثير والده ونسبته الروحية ، وشفقتِه وأدعيته وابتهالاتِه.

الأُسَرُ العربيةُ الأصلِ في الهند وخصائصُها وتقاليدُها:

تُفيد التراجمُ المختصرة لأجداد الإمام الدهلوي وسلفِه (التي قدَّمنا خُلاصتها في الصفحات الماضية) أن هناك ثلاث خِلالٍ مشتركة تُتوارث فيهم بصفة عامة:

١ ـ صلةٌ عامة بالعلم والدين والتقوى والوَرع والقضاء والإفتاء[١] ، الذي لا يُستَبعد تسلسله واستمرارُه على أساس هذه المناسبة والانسجام السُّلالي الموروث بالعلم والدين والعزيمة وعلو الهمة (التي كان يُغذيها تعليم المربين والمشرفين من أصحاب الإخلاص والعزيمة والهمَّة العالية ، وتربيتهم ، والقَصص والوقائع التي يتناقلها أفراد الأسرة كابراً عن كابر) وقد حفظ الله تعالى كثيراً من الأسر والبيوتات لأجل مآثر الأسلاف ومكارِمهم وصلاحهم

(١) وظاهر أن هذا ليس كلية من الكليات التي لا مجال فيها للاستثناء ، بل هي قاعدة أغلبية كعامة البيوتات وأسر الأشراف وأهل الفضل والكمال.

وتقواهم ، واستخدامها للحفاظ على ثروة الدين وتراثه العظيم ، كما حَفِظ جدار اليتيمين ، الذي كان يُريد أن ينقضَّ ، بيد أحد عبادِه المخلصين المقبولين ، وشيَّد به بُنيانه ، وقد كان أبوهما صالحاً[1].

ويشهد تاريخ عشراتٍ من الأسر في الهند التي استمر فيها العلم والدين والقضاء والإفتاء والتدريس والتأليف والدعوة والإرشاد على هذا التسلسل في كثير من الصفات الوراثية ، وحِفظ الله تعالى لهم وعنايته بهم.

٢ ـ حفظُ الأنساب ، وتعهُّد سلسلة النَّسب للأسرة وتربيتها والحفاظ عليها ، والاهتمام بـ«الكفاءة» بالمقياس والحد الذي لم يكن يوجد في البلاد العربية ، والبلدان الإسلامية القديمة ، ولعلَّ الدافع إلى ذلك كان عاطفة الحفاظ على النسب العربي (الذي حَملتْه هذه الأسر من البلدان العربية) في هذه البلاد الأعجمية ، وقد كان للتأثر بالنظام الطبقي في الهند أيضاً نصيب ، فقد عُرِف بالتفاخر بالنسب والاعتزاز به من قديم الزمان ، بالرغم من أن الشريعة لم تكلف الناس بهذا الاهتمام البالغ والرعاية الدقيقة ، وقد نشأ فيها إفراط وغلو في القرون المتأخرة وفي البلاد الأعجمية ، ولكن ينبغي أن يلاحظ ـ مع كل ذلك ـ أنَّ من نتائج هذا الحفاظ على النَّسب كان استمرار الخصائص الأسرية فيهم عبر قرون وأجيال ، وأنهم لم يذوبوا في مجتمع البلاد غير الإسلامية وحضارتها.

٣ ـ والصفةُ الثالثة هي صفةُ الشجاعة والجَلادة والفُتوة والفروسية التي هي كذلك من الخصائص السُّلالية الوراثية للنسل العربي ، ولا سيما قبيلة قريش ، والتي مرت بنا أمثلتها في وقائع الشيخ مُعظم والشيخ وجيه الدين وقصصهما البطولية ، ويُشاهد نموذجها الرائع في حياة حفيد الإمام الدهلوي نفسه ، الشيخ محمد إسماعيل الشهيد.

---

(١) قصة الخضرَّ مع جدار اليتيمين الذين كان أبوهما صالحاً في «سورة الكهف» ، الآية: ٨٢.

وهناك عواملُ ودوافعُ نفسيةٌ وعقلية أخرى لتوارُث هذه الخصائص وتسلسلها ، منها أن الأسر العربية الأصل التي نزحت إلى الحجاز والعراق وإيران وتركستان والهند في مختلف فترات التاريخ ، وعهوده ، إنما كان العامل الأساسي في هجرة أكثرهم واستيطانهم الهند مثلاً إما الحفاظ على دينهم وعقيدتهم ، أو عاطفة الحماية لمكانتهم وأعراضهم ، فقد كانوا تَعرَّضوا لخطر الحملات التتارية ، وقد حفظتِ الأجيال بعد الأجيال هذا الغرض الأساسي ، ولم يُمحَ من ذاكرتها ، وكانوا يحافظون عليه ويهتمون به فبارك الله تعالى لذلك في تديُّنهم وتقواهم ، فقد كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، أو كانت عاطفة الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله ، التي كانت الهند لها (في عالم القرن السادس والسابع) مجالاً واسعاً وميداناً فسيحاً ، فكانت كثير من مناطق هذه البلاد الواسعة الأطراف (التي يصح أن تُدعى شبه القارة) لم تخضعْ لدولة المسلمين ، ولم تدخل في طاعتهم ، وكان يحكمها أمراءُ وحكام وثنيون ، وكانوا ـ أحياناً ـ يُعرقلون إقامة شعائر الإسلام وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وكان كثير منهم يخرج ـ بينَ فينة وأخرى ـ ضدَّ الدولة الإسلامية ، ويُقيم فتنةً وثورة ، ولم يكن من الميسور وُصول الجيش الإسلامي إلى كل مكان ، فكان قيام هذه الأسر العربية الأصل ، الشريفةِ النجيبة ذات الطموح والهمة العالية ، والراغبة في الجهاد والغزوات ، وهؤلاء الأعيان والوجهاء ، بفتح هذه المناطق وتسليمها إلى السلطة المركزية وإخضاعها لدولة الإسلام إرواءً لغليل طموحهم وعزائمهم ، وإشباعاً لعواطفهم الدينية الجهادية ، وسبباً من أسباب الجاه والإمارة ، فكانوا يُقطعون أراضيَ واسعة ، ويُولَّون مناصبَ القضاء والإفتاء والنيابة عن الأمراء ، ولذلك تكثُر في هذه الأسر العربية والإيرانية ـ الأصل أيضاً ـ وقائع فتحهم لمناطق بعيدة شاسعة مجهولة ، غير ذات شأن كبير ، لم تكنْ قد دخلت في الدولة الإسلامية[١] .

---

(١) ومن أمثلته الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدني (م ٦٧٧هـ) الذي هو مؤسس =

كانت هذه الأُسر تَشعر في نفسها بأنها لم تأتِ الهند إلا لغرضٍ سامٍ كبير ، وأنَّ المنبع الأصيل لديننا وحضارتنا وسعادتنا هو مركز الإسلام ومهبطُ الوحي جزيرةُ العرب ، بل الحجاز المقدس ، فلا يجوز لنا أن ننقطع عن أصلنا هذا كُلياً ، ولا بد لنا من الحِفاظ مهما كان الأمر ، على خصائصنا وميزاتنا الأسرية والحضارية والخُلقية والاجتماعية ، وحينئذ نستطيع أن نبقى ـ في هذا الجزء البعيد من العالَم وفي هذه الحضارة والبيئة الأجنبية التي تحمل في نفسها تلك القُوة من الصَّهْر والإذابة التي أذابت الشعوب والسُّلالات الوافدة من الخارج ، وصبَّتْها وقضتْ على خصائصها وميزاتها وأحرقتها ـ أعزةً محفوظين من التأثيرات الخارجية ، وقد أنتج فيهم هذا الشعورُ غيرة دينية وسُلاليّة ، وقُوةَ مقاومةٍ خارقة ضدَّ كلِّ التأثيرات الخارجية ، استطاعت أن تُبقي على شخصيتهم المميزة إلى حد كبير ، وأن تنقل خصائصها عبر القرون إلى الأجيال بعد الأجيال.

وقد جاءت هذه الحقيقةُ واضحةً جلية في وصية من وصايا الإمام الدهلوي التي كتبها في رسالة باسم «المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة» التي خاطب فيها أولاً أسرته وعشيرته الأقربين ، ثم سائر أصحابه ، والأمة الإسلامية الهندية كُلِّها ، يقول الإمام الدهلوي:

«إنَّه لا ينبغي لنا أن ننسى أننا غرباء (في هذه البلاد) لقد هاجر آباؤنا إلى الهند ، وأن عربية نسبنا ولغتنا مفخرتان لنا عظيمتان ، فهما تقربانا مِن سَيِّد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرةِ الكون والخلق

= الأسرة القطبية الحسنية في ولاية أودهي ، والجد الأعلى للإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قدم من طريق غزنين مع جماعة من أقربائه والأشراف وأعيان غزنين ووجهائها ومجاهديها في أوائل القرن السابع إلى دلهي ، ثم توجه من دلهي إلى الشرق وحمل أولاً على مدينة قنوج ، ثم على «مانك بور» و«كره» (التي كانت مركزاً لحكومة مستقلة في ذلك العصر) وفتح هذه المناطق كلها وضمها إلى دولة المسلمين (انظر «سيرة سيد أحمد شهيد» ج: ١ ص: ٧٩).

أجمعين محمد عليه الصلاة والتسليم ، وإنَّ من واجب الشكر على هذه النعمة الجليلة ألَّا تنقطع صلتُنا ـ كلياً ـ بعادات أولئك العرب الأولين وتقاليدهم ، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ ، ولا ندعُ تقاليد العجم وعاداتِ أهل الهند الوثنيين وطقوسهم تَنتشر وتَشيع فينا».

ثم يقول: «إنَّ السعيد منَّا مَنْ له مشاركة في اللغة العربية ، وإلمام بالصرف والنحو والأدب ، واطلاعٌ على القرآن والحديث ، ويلزمنا أن نتشرَّف بزيارة الحرمين الشريفين ـ بين فِينة وأخرى ـ وتكون لنا بهما صلةٌ قلبيةٌ، ففي ذلك سرُّ سعادتنا، وفي الإعراض عنه سِرُّ شقائنا وحرماننا»[١].

وقد كانت هذه الأسرة علاوة على أنها كانت عربية الأصل ، جليلةَ النسب ، حائزةً على شرف الانتساب إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه .

وقد وفَّق الله تعالى الأسر العُمرية الفاروقية في الهند ـ مراراً وتكراراً ـ للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين ، وإعلاء شعائِر الإسلام ، ومقاومةِ الحركات المعادية للإسلام ، التي كانت تنطوي فيها الغيرة الفاروقية ، ولعل الصِّلة النَّسبية والروحية بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أيضاً كانت تدفع إليها ، وهي من أكبر الدوافع النفسية وأقواها ، فقد قاوم أحدُ أفراد هذه السلالة في القرن العاشر فتنة الملك أكبر ، واجتث ـ بحول الله تعالى ـ جرثومتها ، وحفظ ـ بإذن الله تعالى ـ الهند من تعرضها لمؤامرة خطيرة من فِتنة وحدة الأديان ، ودعاوى «العهد الجديد» و«القانون الجديد» و«الألف الجديد» و«الإمامة الجديدة» ، والكفر والإلحاد[٢] ، وكان الشيخ أحمد السَّرهندي يعتز بهذه النسبة ، ويرى هذه الحمية الدينية نتيجة طبيعية لها وإحدى مقتضياتها ، وقد صدرت من قلمه على سماع بعضِ التحقيقات المخالفة للعقائد الإسلامية ومَسلكِ جمهور أهل السنة والجماعة مَنسوبة إلى شيخ وعارف شهير ، هذه الكلماتُ القَوية :

---

(١) «المقالة الوضيئة في النصيحة والوصيّة» (بالفارسية) طبع دلهي عام ١٢٦٧هـ.
(٢) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» ج: ٣.

«يا سيِّدي ، إن هذا الفقير لا يستطيع أن يَصبر على هذه الأقوال ، إنه ينبض فِيَّ عرقي الفَاروقي»[١] .

وكذلك لمَّا سمع أنَّ خطيب الجمعة في قرية «سامانه» ترك ذِكر الخلفاء الراشدين عمداً في خطبته ، قال :

«لمَّا أورث هذا الخبر الموحش المقلق اضطراباً في نفسي ، وحرَّكَ عِرقي الفاروقي وأثاره ، صَدرتْ مِن قلمي هذه الكلمات المعدودة»[٢] .

ومِن المقطوع به أنه يكون لهذه النِّسبة والنَّسَب والشعور بشرفِه ومسؤوليته تأثير ودخلٌ في ذلك العلم الضخم المتنوع الواسع ، الذي قام به الإمام الدهلوي لتجديد الدين وإحيائه (والذي اشتمل على إصلاح العقائد ، والرد على الإشراك والبدع ، ونشرِ الكتاب والسنة ، وترويج الحديث الشريف ، والرد على الرَّفض والتشيُّع ، وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وغير ذلك) وهو أمر يتفق وعلمَ النفسِ وعلم الحياة، والتجارب والأصول النسلية (التي توجد أمثلتها والشواهد عليها في تاريخ الأسر والأجيال بكثرة) ويُؤيده العقل والقياس ، وقد جاء في الحديث الصحيح :

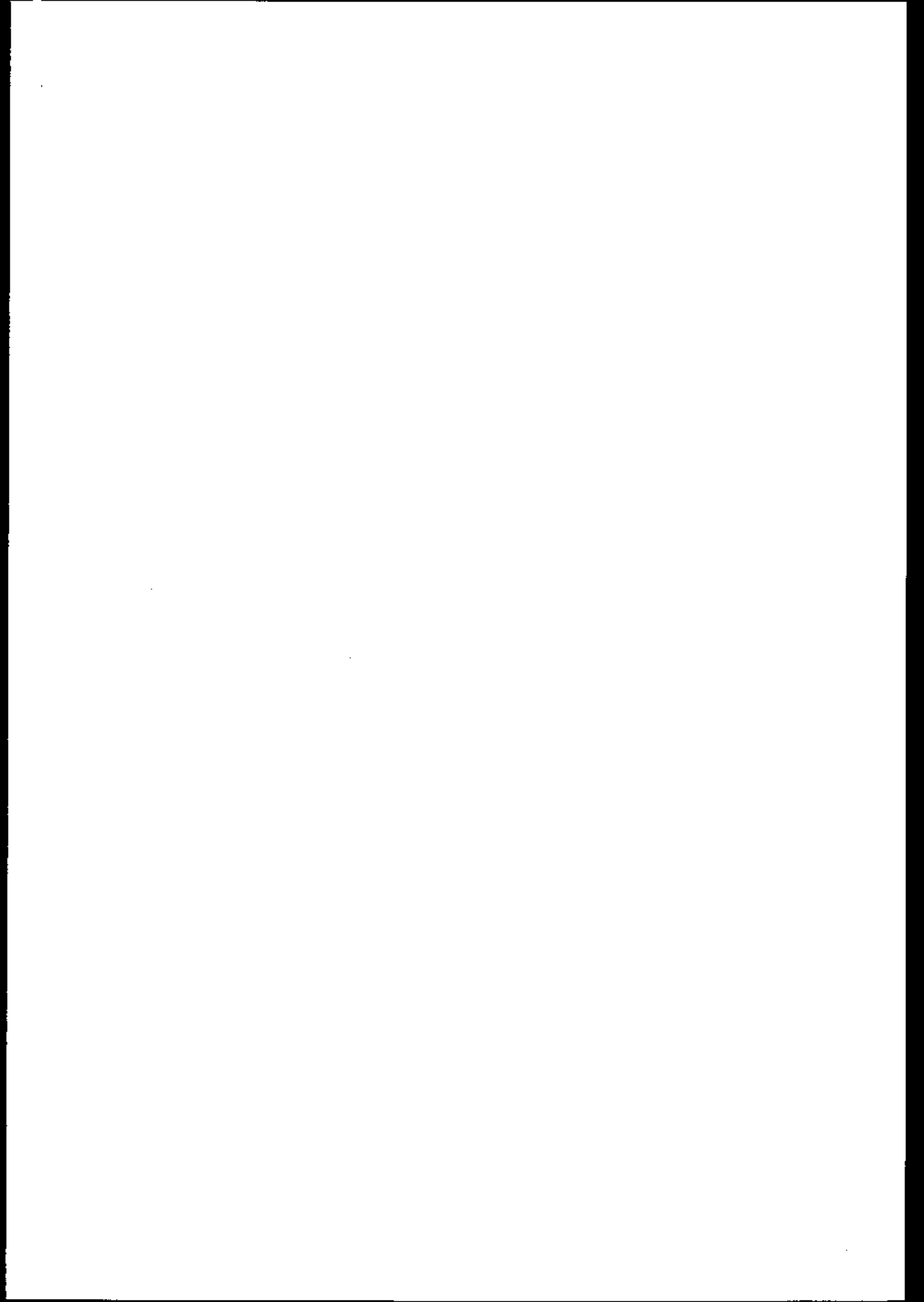
«الناسُ مَعادِنٌ كمعادن الذَّهب والفضَّة ، خِيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا»[٣] .

* * *

(١) الرسالة رقم ١٠٠ ، وهي موجهة إلى الشيخ حسن الكشميري.

(٢) الرسالة رقم ١٥ ، الجزء السادس ، المجلد الثاني.

(٣) [أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب الأرواح جنود مجنَّدة ، برقم (٢٦٣٨) ، وأحمد في المسند (٢/ ٥٣٩) برقم (١٠٩٦٩) ، والقُضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٥) برقم (١٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



الفصل الثاني
حَياةُ الإمام الدِّهلويِّ بإيجاز(١)

وِلادتُه:

وُلِد الإمام الدهلوي صباح يومِ الأربعاء عند طلوع الشمس في ٤/ شوال عام ١١١٤هـ في بيت أخواله بقرية «فُلَتْ» في مديرية (مُظَفَّر نكَر) ، وأرِّخت ولادته بـ «عظيم الدين»(٢).

وقد كان والدُه الشيخَ عبد الرحيم عند ولادته في الستين من سِنه ، وقد سبقتْ وِلادة هذا الابن المبارك كثيرٌ من المبشرات ، ولما كان الشيخ عبد الرحيم أراد أن يتزوج زواجاً ثانياً وكان قد بلغ الستين ، وزوجتُه الأولى والدة الشيخ صلاح الدين في حِبالته ، كان في هذه الإرادة دخل للإشارات الغيبية

---

(١) لقد نُقِلت إلينا ـ من حُسن الحظ ـ ترجمة الإمام الدهلوي ، وما قرأ من مُقررات دراسية وشيء من منهج والده في التربية والتعليم ، وبَيعته وإجازته ، ورحلته إلى الحجاز ، واستفادته من مشائخه ، والتعريف بهم وتراجمهم ، وأهم وقائع حياتهم بقلم الإمام الدهلوي نفسه ، فهناك مصدران أساسيان لهذه المواد والمعلومات ، أولهما «الجزء اللطيف» والثاني «إنسان العين في مشائخ الحرمين» ، وقد اقتبسنا ما يتعلق بحياة الإمام الدهلوي من هذين الكتابين ، واستفدنا في بعض المواضع من «أنفاس العارفين» و«القول الجلي».

(٢) الجزء اللطيف: ص ٢ ، طبع لاهور.

والبِشارات الكثيرة ، ولمَّا علم بذلك الشيخ محمد الفُلَتِي قرر أن يُنكحه ابنته[١] ، وتم هذا الزواج السعيد في أوائل عام ١١١٤هـ.

ويُفيد «القول الجلي» أن اسم هذه الزوجة كان (فَخر النساء) ، وكانت تمتاز ببراعة فائقة في العلوم الدينية ، قلَّما يتيسر مثلُها للنساء ، يقول مؤلِّف هذا الكتاب الشيخ محمد عاشق الفلتي الذي كان ابنَ أخيها الشقيق ، وصاحبُ البيت أدرى بما فيه :

«كانت أمُّه الكريمةُ عالمةً بالعلوم الشرعية كالتفسير والحديث ، مُتحلية بآداب الطريقة ، عارفة بأسرار الحقيقة ، وكانت لجمعها هذه الفضائل مَفخرة للنساء ، واسماً على مسماه».

وقد رأى الشيخ عبد الرحيم قبلَ ولادته ، الشيخَ خواجه قُطب الدين بَخْتِيَار الكَعْكِيّ فيما يراه النائم ، فبشَّره بالولد ، وقال: اجعل اسمه على اسمي «قطب الدين أحمد» يقول الإمام الدهلوي: لما وُلدت كان الوالد قد نسي هذا المنام ، وسمَّاني بوليِّ الله ثم تذكر بعد بُرهة ، فسماني ثانياً قطب الدين أحمد.

كان الإمام الدهلوي في السابعة من عمره إذ شارك والديه في قيام الليل وَوضع يديه عند الدعاء في أيديهما ، وهكذا جاء تأويل تلك الرؤيا التي كان رآها والده قبل ولادته[٢].

دِراسَتُـه:

ولـمّا بلغ الإمام الدهلوي الخامسةَ من عمره أُدخل الكُتَّاب[٣] ، واختَتن في السابعة من عمره ، وعُوِّد من هذه السن على الصلاة ، وفرغَ في أواخر هذه السَّنةِ من حفظ القرآن الكريم ، وبدأ قراءةَ الكتب الفارسية والكتب الابتدائية

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٦٣.
(٣) الجزء اللطيف: ص: ٢.

المختصَرة في العربية[١] ، وفرغ من «الكافية» وبدأ قراءة «شرح الجامي للكافية» وهو ابنُ عشر سنوات ، يقول: «وحصل لي استعدادُ المطالعة في الجملة»[٢] ، ولما كان في السنة الرابعة عشرة من عمره قرأ شيئاً من «البيضاوي» ، وفرغ من العلوم المتداولة في هذه البلاد ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، يقول: ونظم سيدي الوالد بهذه المناسبة السارة مأدبة فخمة للخاص والعام ، وأطعم طعاماً وافراً[٣] .

ويقول: (وهو في الخامسة عشرة من عمره) وسمعتُ من سيدي الوالد بقراءة بعض أصحابي «المشكاة» إلا طرفاً يسيراً ، أعني من كتاب البيوع إلى الآداب ، ولكن تداركت ما فات عني بالإجازة ، وقرأتُ من «الصحيح» للبخاري إلى كتاب الطهارة تقريباً و«الشمائل» للترمذي كلّه .

وقرأت في التفسير طرفاً من «المدارك» و«البيضاوي»[٤] ويقول: ومن منَنِ الله العظمى عليَّ أني حضرتُ مراراً عند والدي لدراسة معاني القرآن والبحث عن أسباب النزول والنظر في التفاسير ، فكان هذا سبب فتح أبواب معاني القرآن العظيم والحمدُ لله [٥] .

المُقرّرات التي دَرسها الإمامُ الدِّهلوي:

لقد ذكر الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف» تلكَ المقررات الدراسية ـ التي درسها بتفصيل ـ وهي كما يلي :

يقول: وقرأتُ من الفقه «شرح الوقاية» و«الهداية» إلا طرفاً منهما ، ومن أصول الفقه «الحسامي» ، وطرفاً صالحاً من «التوضيح والتلويح» .

---

(١) الجزء اللطيف: ص: ٢ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

ومن المنطق «شرح الشمسية» كلّه ، وقسطاً من «شرح المطالع» ، ومن الكلام «شرح العقائد» كلّه ، مع جُملة من حاشية الخيالي ، وشيئاً من «شرح المواقف» ، ومن السُّلوك قطعة من «العوارف» ، وبعضاً من «الرسائل النقشبندية» وغيرها ، ومن الحقائق «شرع الرباعيات» لمولانا الجامي و«اللوائح» و«مقدمة شرح اللمعات» ومقدمة «نقد النصوص» ، ومن خواص الأسماء والآيات «المجموع الخاص لذاته» ، و«الفوائد المئة» وغيرها ، وأجازني بها مرة بعد أخرى.

ومن الطب «الموجز» ، ومن الحكمة «شرح هداية الحكمة» وغيره ، ومن النحو«الكافية» وشرحه للجامي ، ومن المعاني «المطوّل» أكثره و«المختصر» قدر ما عليه حاشية لملا زاده ، وبعض الرسائل المختصرة من الهندسة والحساب.

لقد كان في هذه المقرَّرات التي درسها الإمام الدهلوي دخلٌ ما لاجتهاد والده وأستاذه الأول الحقيقي الشيخ عبد الرحيم ، واختياره وانتقائه ، فإنَّ المقررات الدراسية التي كانت متداولة في القرن السابع الهجري في الهند والتي أُضيف إليها في القرن التاسع الهجري بعد مَقدم الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من مُلْتان إلى دلهي ، وبقيتْ مستمرة سائرة في الأوساط الدراسية إلى القرن الثاني عشر الهجري عددٌ من الكتب في علم الكلام والبلاغة والمعقولات ، ثم أُدخلت فيها في القرن العاشر بعد مقدم الأمير فتح الله الشِّيرازي والمير غياث الدين منصور وميرزا جان.

ولعلَّ الشيخ عبد الرحيم لواقعيته واعتماده على ذكاء ابنه حذف منها عدداً من الكتب (التي كانت تشتمل على مواضيعَ ومعلومات مُتكررة) فقد درَّسه في النحو ـ على سبيل المثال ـ «الكافية» و«شرح الجامي» مكان «المصباح» و«لب الألباب» تأليف القاضي ناصر الدين البيضاوي ، و«الإرشاد» تأليف القاضي شهاب الدين الدولة آبادي ، وفي أصول الفقه طرفاً صالحاً من «الحسامي» و«التوضيح والتلويح» بدل «المنار» و«شروحه» و«أصول البزدوي» ، وحذف

«الكشاف» في التفسير ، كما لا يوجد «مشارق الأنوار» في مقررات الحديث.

وقد كان لـ «مقامات الحريري» في الأدب رواج وسيادة حتى يُذكر أنَّ بعض المشائخ كانوا يَحفظونه عن ظهر قلوبهم ، ولكننا لا نجده في المقررات الدراسية عند الإمام الدهلوي ، ومن المُمكن أن كثيراً من هذه الكتب أصبحت مهجورة في كثير من الأوساط الدراسية إلى أوائل القرن الثاني عشر.

ولْيَكُن معلوماً أنَّه في القرن الثاني عشر الهجري نفسه كان أستاذ العلماء مُلاَّ نظام الدين السَّهالْوي الفرنكي محلي (الذي كان مُعاصراً للإمام الدهلوي وأكبرَ منه في عمره ، والذي توفي قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ١٥ سنة عام ١١٦١هـ) قد زاد زيادات كثيرة في هذه المقررات الدراسية ، لا سيما في علم الصرف والنحو والمنطق والفلسفة والرياضيات والبلاغة وعلم الكلام ، فقد أضاف فيها كثيراً من الكتب والتي ظهرت بعد زيادات وإضافات أخرى (وهي التي تمت في عهد تلامذته وتلامذة تلامذته بدون تصميم وتخطيط) في صورة المنهج النظامي أو المقرَّرات الدراسية النظامية التي لا تزال سائدة في المدارس القديمة أو القائمة على الطراز القديم[١].

ولا نجدُ ضِمن المقررات التي ذكرها الإمام الدهلوي أيَّ كتاب في الأدب العربي مع أن مؤلفات الإمام الدهلوي ، لا سيما «حجة الله البالغة» تشهد على أنه ليس قادراً على اللغة العربية والتحرير والإنشاء فحسب ،بل إذا نظرنا إلى كتابه «حجة الله البالغة» فهو مؤسِّس لطراز أسلوب جديد هو أليقَ ما يكون من الأساليب بشرح المواضيع والمطالب العلمية وتحريرها ،ولا نجد له فيه بعدَ العلامة ابن خلدون نظيراً ولا قريناً.

---

(١) انظر للاطلاع على التطورات الحادثة في المقررات الدراسية في الهند ، والتغير في مقاييس الفضل والنبوغ في مختلف العهود ، وزيادة عدد من الشروح والحواشي لكتاب واحد في المقررات وعواملها وأسبابها ، كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني ، مجمع اللغة العربية بدمشق.

ويبدو أن الإمام الدهلوي كان قد طالع بنفسه كُتب الأدب العربي وكتب النَّثْر والنَّظْمِ القديمة ذات المستوى الرفيع التي كانت مثالاً لسلامة البيان وحلاوة العبارات ، وكانت مصونَة من التأثيرات الأعجمية ، وأنه قد أعدَّ نَفسه أثناء إقامته بالحجاز لذلك العلم التأليفي العظيم في اللغة العربية ـ بصفة خاصة ـ الذي كان قد اختصه به التدبير الإلٰهي [١].

وإذا كان لم يُهمل ذكر «مقامات الحريري» سهواً ونسياناً فكان عدم إدخالها في مقرراته الدراسية خيراً له ومفيداً بدلاً من أن يَنقصه ويَضره ، فإن أكثر المتأخِّرين من صرعىٰ هذا الكتاب، الذين قيدوا أنفسَهم بالعبارات المُسَجعة والجمل المُقفَّاة حتى لم يعودوا قادرين على أداء المطالب العالية ، والتعبير عمّا في نفوسهم بعبارة سهلة سلسة غير متكلفة.

وكلٌّ من جاء بعد الحريري وألف في موضوع من المواضيع ألَّف بقلم الحريري الذي كان قد بَليَ ومضى عليه الدهر ، حتى لا نجد الرسائل والمكاتبات ، وتقريظات الكتُب والمقدمات إلى عبارات الفتاوى الطويلة حُرة طليقة من هذا التأثير للحريري.

يقول الإمام الدهلوي: «وكان يَخطر ببالي في أيام الطلب المطالبُ العالية تَزداد بالجد والاجتهاد. . . وبعد وفاة (سيدي الوالد) وَاظبتُ على تدريس الكتب الدينية والعلوم العقلية نحواً من اثنتي عشرة سنة ، ووقع الخوض في كل علم» [٢].

تربيةُ الوالد وعطفه وإجازتُه واستخلافُه:

يقول الإمام الدهلوي: «كان (والدي) يَعطف على الفقير ، ويُراعي حقوق البنوَّةِ بكل لطفٍ ودقةٍ، لا يَعدِله عطف أي أب على الابن، ولاضِنة أي أستاذ

---

(١) يقول مؤلِّف «اليانع الجني»: «وقد أقام بالحجاز سنتين وزاحم العرب وسمع من أهل البادية وهم يومئذ أحسن حالاً منهم في زماننا» ، ص: ٨٣.

(٢) الجزء اللطيف: ص: ٣.

بتلميذه، ولا رأفة أيِّ مرشد لمريده»[١].

وكان منهج الشيخ عبد الرحيم في التربية منهجاً تربوياً حكيماً، يقول الإمام الدهلوي: خرجتُ ذات مرة ـ في صغري ـ مع جماعة من أصدقائي وأقربائي إلى بستان ، فلما عُدت من هناك ، قال لي والدي: ولِيّ الله ما الذي أحرزته في هذا اليوم والليلة مما يَبقى؟ أما أنا فقد صلَّيت على النبي ﷺ كذا مرة.

يقول الإمام الدهلوي: لقد انصرف قلبي عند سماع هذا كلياً عن زيارة البساتين والتفرج فيها ، ثم لم تعد لي رغبة إليها [٢].

ويقول: كان والدي يعلمني ـ كثيراً ـ الحكمة العلمية ، وآداب المجالس والمحافل وكثيراً من أمور الحكمة والأدب ومكارم الأخلاق ، وكان كثيراً ما يُنشد هذا البيت الفارسي الذي معناه:

«راحةُ العالَمين (عالَم الدنيا وعالم الآخرة) تفسيرٌ لهاتين اللفظتين ، المُلاطفة مع الأصدقاء ، والمُداراة مع الأعداء» [٣].

ويقول: وكان يَنصحني بأن أبدأ ـ دائماً ـ مَنْ هُم أقلُّ شأناً ومرتبةً بالسلام ، وأن أبُشَّ في وجوههم وأستقبلَهم ببشر ، وأتعهَّدهم وأتفقَّدَ أحوالهم ولا أرى ذلك أمراً هيناً أو شيئاً تافهاً ، يقول أحد شعراء الفارسية ما معناه:

«تَستطيع بأدنى لحظتك أن تشتري مئات مملكة القلوب ، ولكنَّ أصحاب الحُسن والجمال يُقصِّرون في هذا ولا يُبالون».

وكان يقول: إنَّ بعض الناس يلتزمون لباساً خاصاً ، أو يتقيدون بعادة خاصة ، أو يتعوَّدون على كلمة يكررونها ، أو يكرهون بعض الأطعمة إلى حد أنهم يعافون ذِكره ، ويغضبون عند سماع اسمه ، فينبغي الاحترازُ من هذه

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٣.
(٣) المصدر السابق: ص ٦٣.

الأشياء كلها ، ولا يكون الغرض في تحقيق بعض مطالب النفس أو رغباتها محضَ الحصول على المتعة واللذة ، بل يَنبغي أن يكون الغرضُ تحقيقَ مطلب أو قضاء حاجة من الحاجات ، أو الحصول على فضيلة من الفضائل ، أو أداء سنة من السنن ، ولا يظهر منك الكسل أو الضعف في المشي والسير والقيام والقعود وفي أيِّ شيء.

وكان الشيخ عبد الرحيم ـ حسب تصريح الإمام الدهلوي ـ متصفاً بصفات الرجولة والشهامة من شجاعة وفِراسة وحسن إدارة وغيرة ، وكان يملك «عقل المعاش» كاملاً موفوراً كـ «عقل المعاد» ، وكان يُحب التوسُّط في كل شيء ، وقد كانت سيرة الإمام الدهلوي وأخلاقه عكساً من عكوس سيرة والده وأخلاقه [١].

يقول الإمام الدهلوي: ثم بايعتُ (وكان في الرابعة عشرة من سنه) سيدي الوالد ، ثم اشتغلتُ بأشغال الصوفية سيما المشائخ النقشبندية ، وحصَّلت التوجه والتلقين وطرفاً صالحاً من تعليم آداب الطريقة وألبست الخرقة ، ثم حين بلغتُ السابعة عشرة من عمري ، مَرض سيدي الوالد ، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى ، وفي المرض الذي مات فيه أجازني للبيعة والإرشاد ، وكرَّر «يدُه كيَدي» [٢].

زَواجُـه الأوّل:

يقول الإمام الدهلوي: وفي السنة الرابعة عشرة تزوجتُ (كان زواجه هذا ببنت خاله الشيخ عبد الله الصديقي الفلتي) ، وأسرع فضيلة الوالد في التزويج حتى إنه لما اعتذر أصهاري عن تحمل أعباء هذا الأمر واستمهلوه ، كتب إليهم سيدي الوالد: إن في هذا التعجيل سراً ، ثم أثبتت الوقائع والفجائع المتتالية

---

(١) أنفاس العارفين: ص ٨٣.
(٢) الجزء اللطيف: ص ٢.

فيما بعد أن التزويج إن لم يكن في ذلك الحين ، لم يكن إلى سنين [(١)] .

وقد وُلد له من هذه الزوجة ابنه الأكبر الشيخ محمد ، الذي تخرج عليه ، وألَّف الإمام الدهلوي له رسالة ابتدائية ، وكان هو من الحاضرين مع الشيخ عبد العزيز في درس «شمائل الترمذي» وقارئَه [(٢)] ، وانتقلَ بعد وفاة الإمام الدهلوي إلى قرية «بدهانه» ولبث بها إلى أن توفي عام ١٢٠٨هـ ـ ودُفن في فناء الجامع بالقرية [(٣)] ، وكان الإمام الدهلوي يُكنىٰ به «أبا محمد» [(٤)] .

ويرد ذكر ابنين للشيخ محمد دُفنا جَنبيه في كتاب «مقالات طريقت» ، ولكن الكتب الأخرى تَصفه بأنه لا عَقِبَ له ، وقد وجَّه الشيخ عبد العزيز في ثلاث من رسائله إلى الشيخ أبي سعيد الحسني الرائي بريلوي تحيات أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولي الله وتسليماته إليه ، ووصفه في رسالة: «الأخ الأكبر الشيخ محمد» وفي أخرى: «الشيخ الكبير محمد» ، ويُقدَّر من هذه الرسائل ما كان بين الإخوة من حُب ومودَّة [(٥)] .

الزَّواجُ الثَّاني:

لقد تَمَّ زواج الإمام الدهلوي الثاني بعد وفاة زوجته الأولى بكريمة السيد ثناء الله من سكان سوني بت ومن أعقاب السيد ناصر الدين السُّوني بَتِي الشهيد.

وقد وُلد للإمام الدهلوي من هذه الزوجة الكريمة أبناؤه الأربعة المعروفون (الشيخ عبد العزيز ، الشيخ رفيع الدين ، الشيخ عبد القادر ،

(١) يقول الإمام الدهلوي: إنه قد ماتت أم زوجتي بعد أيام ، ثم بعد قليل توفيت جدتها من قبل الأم ، ثم مات الشيخ فخر العالم ابن فضيلة عمي الشيخ أبي الرضا محمد ـ قدس سره ـ ثم ماتت أم أخي الكبير الشيخ صلاح الدين.

(٢) نزهة الخواطر: ج: ٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الإرشاد في مهمات الإسناد.

(٥) مكتوب المعارف: (مخطوط) ص: ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.

والشيخ عبد الغني) الذين هم الأركان الأربعة للنهضة الدينية العظيمة في الهند ـ رحمهم الله تعالى ـ.

كما وُلدت له كذلك بنتٌ سمِّيت بـ«أمة العزيز» ، وكان زواجها بالشيخ محمد فائق ابن الشيخ محمد عاشق الفلتي ، وكان لها أولاد ، تناسلوا وتعاقبوا.

رحلَتهُ للحَجِّ:

إنَّ رحلة الإمام الدهلوي إلى الحجاز وإقامتَه به تحتلُّ في حياته العلمية والفكرية والدعوية والتجديدية مكانةً تاريخية كبيرة ، وتُعتبر باباً جديداً ، وخطاً فاصلاً بين عهدين.

إنَّ ملكاتِه العلمية والعقلية في أثناء هذه الإقامة الطويلة التي تمتد على أكثر من عام ، قد تدرَّجت في مدارج الرقي التي لم تكن لتتيسَّر له ـ في ظاهر الحال ـ لو بقي في الهند ، وكان لا بد لذلك من مكان مركزي عالَمي كالحرمين الشريفين ، ففي هذه الرحلة كانت دراستُه الواسعة العميقة لِعلم الحديث الشريف ، وأكمل هذا الفنَّ على أيدي الأساتذة الكبار والشيوخ الكاملين ، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من مختلف الأقطار والأمصار ، وذلك ما يَحتل مكانة «حجر الزاوية» في إيوان إصلاحه وتجديده العظيم ، والذي قد وصل به إلى تلك المنزلة من التحقيق والاجتهاد التي قل من يصل إليها في هذه القرون المتأخرة.

(وأمَّا اكتناهُه لأسرار الشريعة ومقاصدها وغاياتها وتطبيقُه بين الفقه والحديث) فلم يصلْ إليها أحدٌ منذ عدة قرون.

كان الإمام الدهلوي عندَ رحلته للحج في الثلاثين من عمره[1] ، وقد كانت

---

(١) يستفاد من «القول الجلي» أن الإمام الدهلوي قبل هذه الرحلة للحج التي وفق فيها كان قد عزم فجأة على السفر للحج ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين في حين كان عمره عشرين سنة ، وخرج من الوطن خفية بدون زاد وراحلة ، فلما وصل إلى المرفأ علم أن=

هذه الرحلةُ دليلاً ساطعاً على علو همَّته وحُبه للعلم ، وصِلته القلبية القوية بالحرمين الشريفين نظراً إلى أوضاع ذلك العهد السياسية ، وحالةِ الأمن المضطربة في الطرق وسيطرة بعض القوى الأجنبية ، والأخطار البرية والبحرية ، والقَرصنة وقطع الطريق.

كما يدلُّ ذلك على حَميَّته الإسلامية وبُعد نظره وسُموِّ فِكره ، إذ أنه لم يكن منحصراً في مهمة الحفاظ على الدين في الهند ، وتقدُّم الأمة الإسلامية الهندية ، وازدهارها واستقلالها في دراسة أوضاع الهند ، والاطلاع على ظروفها وأحوالها فحسب ، والتفكير في علاجها وإصلاحها ، بل إنه كان يريد أن يستفيد تطبيقاً لهذه الإشارة القرآنية البليغة : ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٨] ، من قلب العالم الإسلامي ومركزه ، ومن علوم الوافدين من أقطار الأرض وأرجاء المعمورة من وفود الإسلام وضُيوف الرحمن ومعارفهم ، وعقولهم وأذهانهم ، وأفكارهم وآرائهم ، وجُهودهم وتجاربهم.

وقد كانت «سُوْرَت» ـ حينذاك ـ ميناءَ الهند وباب مكة المشرفة ، وكانتِ المناطق الواقعة في الطريق لا سيما مناطق مالوه وكجرات مُعرضةً لغارات المرهتة وحملاتِهم وعمليات سلبهم ونهبهم ، وكان من العسير الشاق قطعُ هذا الطريق من شمال الهند إلى جنوبه بالمراكب القديمة وعجلات الإبل والثيران[1].

وكانت جميع سواحل بحر الهند والبحر الأحمر مُهدَّدة بهجَمات القراصنة البرتغاليين والهولنديين وحملات الفرنسيين والإنكليز المستعمرين ، ويمكن

= السفن تحركت ولم تبق أي سفينة ، فاضطر للإقامة في مدينة «كهبايت» ثم غلبت عليه في إحدى مراقباته وخلواته كيفية صرفته عن هذه الإرادة ، فمال طبعه عن السفر وعزم على الرجوع وكانت في ذلك إشارة من حضرة النبي ﷺ أيضاً. (القول الجلي).

(١) تفيد مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلوي (ملفوظات عزيزية) أن الإمام الدهلوي كان قد مرَّ في هذه الرحلة بولاية «راجبوتانه» أيضاً ، انظر ص: ٧٣.

أن تقرأ تفاصيل مصائب الحجاج وحوادثَهم والأخطار التي كانت تُحدق بسفر الحج ، في مذكرات الرحلات لذلك العهد (التي لم يُرتَّب منها ولم يحفظ إلا القليل) وقد كان هذا الحال في الهند نفسها أن شخصاً إذا تُرك وحده في الليل في قرية أو عمران فكان يُخشى عليه ، ويدعو الإمام الدهلوي نفسه متضرِّعاً: يا بديع العجائب ، يا بديع العجائب ، (وكان ذلك ورداً يُقرأ عند غياب شخص والخوف عليه).

وَصل الإمام الدهلوي من «سورت» إلى جدة في ٤٥ يوماً ، ودخل مكة المكرمة يوم ١٥ من ذي القعدة ، وبدأ ـ بناء على طلب العلماء والطلاب ـ درسَه في المسجد الحرام عند المصلَّى الحنفي ، الذي كثر فيه الناسُ وتهافتوا عليه [١].

يقول الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف»: في سنة ١١٤٣ هـ تُقْتُ إلى زيارة الحَرمين الشريفين ، وتَشرفتُ بالحج في آخرها ، ثم جاورتُ في سنة ١١٤٤ هـ بيتَ الله الحرام ، وزُرت المدينة المنوَّرة ، أروي الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني وغيره ، وجالستُ علماء الحرمين وغيرَهم مجالسات طويلة واسعة ، ولَبستُ الخرقة الصوفية من الشيخ أبي طاهر المدني رحمه الله ولعلها حاوية لخرق الصوفية كُلها.

وعلى تمام هذا العام ، أي عام ١١٤٥ هـ وانتهيتُ إلى الوطن المألوف في يوم الجمعة العاشر من رجب سنة ١١٤٥ هـ في كنف الصحة والسلامة.

مشايخُ الإمام الدهلوي وأساتذتُه في الحَرمين الشّريفين:

لقد ألّفَ الإمام الدهلوي في تراجم مشائخه وأساتذته في الحرمين الشريفين رسالة سماها «إنسان العين في مشائخ الحرمين» وقد ذكر فيها شيخه الخاص وأستاذَه المُحسن إليه المحبوب الشيخ أبا طاهر محمد بن إبراهيم الكردي

---

(١) القول الجلي: (مخطوط).

المدَني بشيء من التفصيل ، ولما كان الأساتذة والمشايخ المُرَبُّون يطبعون تلامذتهم الأذكياء ذوي الاستعداد العالي بطابَعهم العميق ، ويكون لميولهم ونزعاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تأثيرٌ كبير مثيرٌ على الطلاب النجباء ، فمنَ المناسب هنا أن نذكُرَ تراجمهم بشيءٍ من التفصيل .

الشّيخُ أبـو طاهـر المَدنـي:

يقول الإمام الدهلوي : لقد قرأ الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الحديث على والده الشيخ إبراهيم الكردي ، ثم كانتْ أكثر استفادته من الشيخ حسن العُجيمي[١] ، ثم قرأ على الشيخ أحمد النَّخلي والشيخ عبد الله البصري «شمائل الترمذي» و«مسند الإمام أحمد» في أقل من شهرين ، وكان يستفيدُ من العلماء الوافدين إلى الحرمين الشريفين ، وقد نال من الشيخ عبد الله اللاهوري إجازة رواية الكتُب للشيخ عبد الحق المحدِّث الدهلوي ، والشيخ عبد الحكيم السِّيالكوتي ، وقرأ على الشيخ سعيد الكوكني بعض الكتب العربية والربع من «فتح الباري»[٢] .

وذكر العلاَّمة محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني»: أن الشيخ أبا طاهر كان يقول: كان الشيخ ولي الله يُسند عني اللفظ وكنت أصحِّح منه المعنىٰ وكتب ذلك في إجازته له أيضاً[٣] .

وقد كان الشيخ أبو طاهر (رغم كونه محدثاً جليلاً) حسَن الظن بالصوفية محترزاً عن انتقادهم والزراية عليهم ، ويقول الإمام الدهلوي : إنني لما ذهبت إلى الشيخ أبي طاهر للتوديع والمغادرة إلى الوطن ، أنشدني هذا البيت :

---

(١) ذكر الإمام الدهلوي في «إنسان العين» نسبته «العجمي» ولعله خطأ مطبعي ، فإنه ذكر في عامة كتب التراجم «العجيمي» (بالتصغير) (انظر «الأعلام» للزركلي ، ج: ٢ ، ص: ٢٢٣).

(٢) إنسان العين: ص: ١٣ .

(٣) اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني: نقلاً عن «كشف الأستار عن رجال معاني الآثار» طبع دار الإشاعة والتدريس (ديوبند الهند).

نَسيتُ كُلَّ طريقٍ كُنتُ أعرِفهُ   إلاَّ طريقاً يُؤدّيني لِربْعِكُمُ

وكان ردُّ الإمام الدهلوي كذلك ، ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي: لما أراد والدي العودة من المدينة المنورة ، قال لشيخه (أبي طاهر) ـ وقد سُرَّ الشيخ بهذا القول ـ: إنني قد نسيت كل ما قرأتُه سابقاً إلا علوم الدين وعلم الحديث الشريف بصفة خاصة[١].

وقد صَدَّقَتْ ذلك حياةُ الإمام الدهلوي وأشغالُه وأعمالُه (التي سيأتي تفصيلها في الصفحات القادمة) فيما بعد ، وقد حقَّق ما نطقَ به لسانه وأثبتَ القولَ بالعمل: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

تُوفِّي الشيخ أبو طاهر في شهر رمضان عام ١١٤٥هـ ، أي بعد مغادرة الإمام الدهلوي المدينة المنوَّرة والوصول إلى دلهي بشهر ونصف أو شهرين[٢] ، فلم تُمهله الفُرصة بعد مقدم الإمام الدهلوي إلى الهند للإفادة والتربية والتدريس إلا قليلاً ، «وذلك تَقديرُ العزيز العليم».

وممَّا يجدُر بالذكر في ترجمته أن والده الشيخ إبراهيم الكوراني[٣] كان يدافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، يقول العلامة السيد نعمان خير الدين الآلوسي البغدادي في كتابه الشهير «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»:

«وكان سَلفيَّ العقيدة ، ذاباً عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وكذا يذُبُّ عما وقع في كلمات الصوفية ما ظاهِرُه الحلول أو الاتحاد أو العينية»[٤].

ويُستنتج مِنْ ذلك أن ما جاء في كتابات الإمام الدهلوي من تعريف وإشادة بكتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، والانتصار له والدفاع عنه ، ونَزعتِه التطبيقية التي ورثها عن آبائه ، كان لأحاديث الشيخ أبي طاهر فيها أيضا نَصيب وتأثير ،

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٩٣.

(٢) إنسان العين: ص: ١٤.

(٣) وُلد سنة ١٠٢٥ هـ وتوفي سنة ١١٠١هـ ، له أكثر من ثمانين مؤلفاً.

(٤) جلاء العينين: طبع مطبعة المدني ، مصر ، ص: ٤١.

ولعله وَرِث هذه النزعة مِن والده الشيخ إبراهيم الكوراني.

الشَّيخُ تَاجُ الدِّين القَلعي الحنفي:

وكان الأستاذُ الثاني للإمام الدهلوي الذي أجازه برواياته هو الشيخُ تاج الدين القلعي الحنفي مُفتي مكة المكرمة، وقد كانت أكثرُ دراسته للحديث الشريف تمَّت على يدي الشيخ عبد الله بن سالم المصري، وقرأ «الصحيحين» على الشيخ العُجيمي، ونال منه الإجازة العامة المطلقة، وله إجازةٌ أيضاً عن الشيخ أحمد النخلي وغيره، وقد حضر الإمام الدهلوي دروسَه لـ «صحيح البخاري»، ثلاثة أيام، وسمع منه أطرافَ الكتب الستة، وطرفاً من «الموطأ»، و«مسنَد الدارمي»، و«كتاب الآثار» للإمام محمد و«الموطأ» له، وأجاز الشيخُ جميعَ الحاضرين، وكان منهم الإمام الدهلوي، وسمع منه الحديث المُسلسَل بالأولية[1].

الشَّيخ مُحمد وَفْدُ اللهِ المالكي:

وأخذ الإمام الدهلوي إجازة الشيخ محمد وفد الله المالكي لجميع مروياته عن والده حافظ الحديث ومَجمع الفضائل الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي (الذي كان يملك النسخة اليُونينية، جاء بها من إستانبول إلى الحرمين الشريفين وكان شيخَ جُمهور أهل الحرمين وأستاذهم) وَقرأ عليه ـ زيادة على ما تقدم ـ جميعَ «الموطأ» برواية يحيى بن يحيى المصمودي، وأجازَه الشيخ برواياته[2].

وكان الإمام الدهلوي ـ أيامَ طلبه في الهند ـ حضر دروسَ إمام الحديث الشيخ محمد أفضل السِّيالكوتي[3]، الذي كان يروي الحديث عن الشيخ سالم

---

(١) إنسان العين: ص: ١٥ ـ ١٦.

(٢) المصدر السابق: ص: ٧.

(٣) القول الجلي (مخطوط).

ابن عبد الله البصري ، وكان هو تلميذ عبد الأحد ابن الشيخ محمد سعيد السرهندي أيضاً ، الذي كان يُدرِّس في مدرسة غازي الدين خان بدلهي ، وكان الشيخ ميرزا مظهر جان جانان استفاد منه في الحديث والسلوك(١) .

وقد كان يُرافق الإمام الدهلوي في رحلته هذه خالُه الشيخ عُبيد الله البارهوي وابنُ خاله الشيخ محمد عاشق الفُلَتي (مؤلِّف القولِ الجلي) ، وقد سمع الإمام الدهلوي نبأ وفاة والدته في العودة من هذه الرحلة بمكةَ المكَرمة(٢) .

لقد كانتْ هناك للإمام الدهلوي فُرصٌ طيبة مُواتية في الحرمين الشريفين لتَذوُّق الحديث الشريف والتوسُّع فيه ، وتدريسه وخِدمته ونشره ، وكانت إمكانيات الإفادة للعلماء وطلبةِ العلم والوافدين من مختلف البلدان والأقطار متوفرة ميسَّرة ، ثم كانتْ مجاورة بيت الله الحرام، وبركات جوار النبي ﷺ والأوضاعُ المضطربة في الهند واضطراب الدولة الإسلامية فيها ، والاطلاعُ على سيطرة القوى الأجنبية وإحكامِ استيلائها يوماً فيوماً ، كلٌّ ذلك كان من الأسباب والدوافع القوية إلى نِية الهجرة والإقامة في الحجاز ، ولم تكن تُهيىءُ له الأدلة على جوازها فحسب بل تُؤيدها المصالح الدينية والعلمية ، ولكنَّه عزم على العودة إلى الهند ، تلكَ العزيمة التي كانت تنطوي على خير كبير قدَّره الله تعالى ، وتجلى في أروع مظهر في عمله التجديدي والاجتهادي العظيم ، وكان فيها تحقيقُ تلك البشارة النبوية التي تلقاها في المدينة المنورة ، وهي :

«إنَّ مُراد الحقِّ فيك أن يَجمع شملاً من شَمل الأمة المرحومةِ بك»(٣) .

ولم يَكُنِ الإمام الدهلوي يرى ذلك لنفسِه بل كان يَرى لخواصِّ أصحابه أيضاً أن يتخذوا الهند مركزَ نشاطاتهم وخدَماتِهم العلمية والدينية ، تِلكَ البلاد

---

(١) نزهة الخواطر: جـ ٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فيوض الحرمين: ص: ٦٢ ، طبع المطبع الأحمدي دلهي.

التي أنفق عليها أسلافُهم الميامين ما كانوا يملكون من كفاءات علمية ودينية فاضلة ، وقِوىً وطاقات كبيرة ، والتي أنتجت المحقِّقين والعلماءَ الربَّانيين في كل عصر ، وكانتْ تتهيأ لتكونَ في المستقبل مركزاً لعلم الحديث الشريف وللعلوم الدينية الأخرى ، ولما سافر أحدُ خَواصٍّ تلامذته الشيخُ معين الدين السِّندي إلى الحجاز وأبدىٰ عزمه على البقاء والإقامة هناك ، كتبَ إليه الإمام الدهلوي ينهاه عن ذلك ، يقول:

«أمَّا عَزْمُ تركِ الرجوع إلى الوطن ، فَلا تَستبدّوا به حتى يَشرح الله صدركم أو صدر رَجُلٍ لأجلكم»[1] .

تَدريسُ الإمام الدِّهلوي للحديث الشريف:

بدأ الإمام الدهلوي بعد عَودته من الحجاز تدريسَه للحديث الشريف في المدرسة الرحيمية لوالده التي كانت واقعةً في دلهي القديمة في ذلك الحي الذي يسمَّى الآن «حيّ مَهِنْدِيَان» ، ولم يلبث أن تواردت إليه جماعاتُ الطلاب وضَربتْ إليه أكبَاد الإبل من مُختلف الأنحاء والأصقاع ، وضاقَ بهم المكان ، وكان الله تعالى قد قدَّر للملك محمد شاه (رُغم كثير من سَقطاته ومواضع ضعفه) هذه السعادة أن وهبَ لمدرسة الإمام الدهلوي في المدينة بيتاً فخماً كبيراً ، ودعاه إلى المدينة ، فبدأ إلقاء دروسه هناك[2] ، يقول الشيخ بشير الدين:

«كانت هذه المدرسة ـ في فترة من الفترات ـ كبيرةً فخمة زاهية ، وكانت تُعتبر « «دار العلوم الكبرى» ، ولم تزل على حالها الأولى إلى ثورة (١٨٥٧م) ، ثم نُهِبتِ البُيوت أيام الثورة ، وحمل الناس حتى الألواح والعُرا والحَلقات» .

---

(١) حياتِ ولي: (مكتوبات الإمام الدهلوي ، المكتوب العاشر ، ص: ٥٣٦ ، طبع مطبع السلفية ـ لاهور).

(٢) انظر «دار الحكومت دلهي» ج: ٢ ص: ٢٨٦ ، للشيخ بشير الدين.

ويَزيد الشيخُ قائلاً: «وقد بُنيت الآن بيوتُ عددٍ من الناس في هذا المكان، إلا أن الحي لا يزال يدعى باسم مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوي».

وجاء ذِكر مسجدِ هذه المدرسة في أحد المواضع في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات الشيخ عبد العزيز)، يقول فيها:

«كان ـ في العهد الذي وُلدت فيه ـ كثيرٌ من الأولياء الصالحين الذين كانوا من خواص أصحاب السيد الوالد وأحبابه، كالشيخ محمد عاشق والشيخ محمد نور، يَعتكفون في هذا المسجد»[١].

وقد كان العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤلِّف «نزهة الخواطر» سافر إلى دلهي وما يُجاوِرها من المدن والقرى عام ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٤م وقَيَّد مذكرات هذه الرحلة، يقول في مذكرات يوم ٢٦/ من رجب:

«أَردتُ بعد عودتي من دَرس الشيخ المحدِّث السيد نذير حسين أن أزور مدرسة الشيخ الجليل قدوة العلماء والفضلاء التي استفاد فيها سَلفُنا جيلاً بعد جيل، ورأوا من الفخر والسعادة خِدمة الكناسة فيها[٢]، مَشيتُ من هنا إلى المسجد الجامع، ومن ثَم قُدَّامه إلى «كَلاَن محل»، وفي «كلان محل» توجد مدرسة شيخ مشايخنا مولانا ومقتدانا، فتذكَّرتُ على رؤيتها الآية الكريمة: ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] سبحان الله، إنها لَعجائبُ قُدرةِ الله، لقد كان يوم يُقيم فيه الطلاب العرب والعجم في هذه المدرسة ويستفيدون، وقد آلتِ اليوم إلى هذه الحال من الخراب والدمار، ما بها مِن أنيسٍ ولا جليس»[٣].

ثم حكى عَن بقية هذه الأسرة العليّة الشيخ السيد ظهير الدين أحمد، أن في

---

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ١٠٩، طبع المطبع المجتبائي، ميرته.

(٢) ذكر العلامة هنا أسماء عدد من أسلاف أسرته الذين لم يزالوا من عهد الإمام إلى عهد الشيخ عبد العزيز يردون إلى هذه المدرسة ويستفيدون بها ويتعلمون.

(٣) دهلي اوراُس كي أطراف: طبع انجمن ترقي أردو، ص: ٦٣ ـ ٦٤.

حي «مهنديان» حيث توجد قبور هؤلاء الأعلام ، كانت توجد مدرسة أيضاً ، وقدِم الإمام الدهلوي ـ بعد وفاة والده الشيخ عبد الرحيم ـ إلى المدينة (دلهي) الجديدة ، وعُهد إليه بهذه المدرسة ، وأقام بها[١].

بَعضُ عادات الإمام الدهلوي وخصائِصه كما ذكرها الشيخُ عبدُ العزيز الدهلوي:

مِن المُؤسف أنه لا يوجد لدينا ترجمةٌ معاصرة أو رحلة أو مذكرة تُطلِعنا بتفصيل على خصائص الإمام الدهلوي وعاداتِهِ وأحوال مواعيدِ أعماله وقيامِهِ وقعوده ، وقد تَرِدُ إشارات إلى شيء من ذلك في مجموعةِ كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلوي.

يقول: لم أر مثلَ السيد الوالد في قوة ذاكرته ، لا أقول إنني لم أسمع بمثله ، ولكنني لم أشاهد[٢] ، وكان ـ علاوة على علومه وفضائله ـ عديمَ النظير في ضبط مواعيده وتَنظيم أوقاته ، وكان إذا جَلس مجلسَه بعد الإشراق لم يُغير جِلسته ، ولا يَحُك جسده ، ولا يَبصق إلى الظُّهر[٣] ، وكان قد هيَّأ في كل فن وعلم رجلاً من أصحابه ، وكان يَعهد بطالب ذلك الفن إليه ، ويَنصرف نفسُه إلى بيان المعارف والحقائق ، وتحريرها وتدوينها ، وكان يَدرس الحديث الشريف ويدرسه ، وكان إذا انكشف عليه شيءٌ سجله ، وكان قليلاً ما يمرض[٤] ، وقد كان جدي وعمي (اللذين كانا طبيبين أيضا) يُعالجان الناس ، أما الوالد فقد انصرف عن هذا الشغل ، إلا أنه كان يُطالِع كتب الطب[٥] ، وكان ـ من صِباه ـ لطيف الطبع يُحب النظافة ، وقلَّما كان يُنشد

---

(١) دهلي أورأس كي أطراف: طبع أنجمن ترقي أردو ، ص: ٦٧.
(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ١١.
(٣) المصدر السابق: ص: ٤٣.
(٤) المصدر السابق: ص: ٤٠.
(٥) المصدر السابق: ص: ٢٢.

الأبيات الصوفية ، إلاّ أنه ـ أحياناً ـ كان يُنشد بيتاً أو بيتين[١] .

وَفاة الإمام الدِّهلوي:

وأخيراً آن وقتُ الرحيل لتلك الحياة الغنية المباركة التي كانت كلُّ لحظة منها كبيرَة القيمة ، مَصروفة إلى إعلاء كلمة الله تعالى واللَّهج بذكره ، ونفع الإسلام والمسلمين ، وإحياء السُّنن ونَشر الكتاب والسنَّة ، والتعليم والتربية ، الرحيل الذي لا يُستثنى منه لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، أيُّ نبي ولا ولي ولا مجدد ولا مجاهد ، كانت بداية عام ١١٧٦هـ وكان آخر تاريخ شهر المحرم الحرام أن وافاه الأجل المحتوم ، فودَّع الإمام الدهلوي حين بلغ من عمره اثنين وستين عاماً[٢] ، هذه الدُّنيا الفانية ، وأسلم رُوحَه لبارئها الكريم ، ومن أحبَّ لقاء الله ، أحبَّ اللهُ لقاءه ، وصدق الله العظيم: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٢٨] .

ولا تَتوفَّر تفاصيلُ المَرضِ وحادثِ الوفاة في أي كتاب من كتب التراجم ، ومما يَسُرُّ المؤلف ويشرفه أنَّ كلَ ما يوجد من معلومات وتفاصيل بهذا الصدد فمَصدرُها الوحيد هو رسالةٌ من أحد أفراد أُسرته الحسنية القُطبية الكبار الشيخ السيد محمد نعمان الحسني[٣] ، كان قد وجَّهَا إلى شخصية معروفة كبيرة

---

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٤٣ .

(٢) جاء في «ملفوظات الشيخ عبد العزيز» (الترجمة الأردية) أنه قال: كان عمره (الإمام الدهلوي) إحدى وستين سنة وأربعة أشهر ، ولد في الرابع من شوال عام ١١١٤هـ وتوفي في ٢٩ محرم الحرام عام ١١٧٦هـ ، وكان تاريخ وفاته بـ «إمام أعظم دين» (انظر «ملفوظات الشيخ عبد العزيز» ص: ٥٦).

(٣) السيد محمد نعمان هو ابن حفيد الشيخ علم الله الرائي بريلوي ، ونسبه هكذا نعمان بن نورين هدى بن علم الله الحسني الحسيني ، ولد في موطن الأسرة القديم «نصير آباد» بمديرية «رائي بريلي» ، اشتغل بالعلم زماناً في بلدته ، ثم سافر إلى «الكهنؤ» وقرأ على الشيخ عبد الله الأمتيهوي ، ثم رجع إلى «رائي بريلي» ، وبايع السيد محمد بن علم الله =

من شخصيـات هـذه الأسرة كـذلكَ الشيخ السيد أبي سعيد بعد وفاة الإمام الدهلوي فوراً من دلهي ، وأنَّ كاتب هذه الرسالةَ السيد محمد نعمان هو عمُّ المجاهد الكبير الإمام أحمد بن عرفانَ الشهيد ، والمُرسَلُ إليه السيدُ أبو سعيد من مسترشدي الإمام الدهلوي وخواصِّ أصحابه ، ويُوجد عدد من رسائل الإمام الدهلوي الموجهة إليه ، وننقُل بعض محتويات هذه الرسالة ـ فيما يلي ـ كما جاء في مجموعة رسائل الأسرة «مكتوب المعارف» (مخطوط) :

«الحمدُ لله على النَّعماء، والرضا على القضاء، والصبر على المصيبة والبلاء، والصلاة والسلام على سيد الشاكرين وزبدة الراضين وقدوة الصابرين ، شفيع المذنبين ورحمة للعالمين ، محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى ورثته العلماء الراسخين ، والأولياء المرشدين إلى يوم الدين .

وبعد ، فإنَّ حادث وفاة إمامِ أهل السنَّة والجماعة. . . وقع ولهُ من العمر اثنان وستون عاماً ، وأدخل السرور على أهل البِدَع والضلالات ، وأُصيب أهلُ الدين والصلاح بالحُزن والأسى ، وقد كان ذلك سَلخ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ يوم السبت وقت الظهر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

إنَّ المجالس الأخيرة من حياته كانت مجالسَ عجيبة ، زاخرةً بالفيوض ، فكُنا نشعر ـ بصفة مستمرة ـ بنزُول الملائكة والأرواح الطيبة ، وكانت تَهبُّ نَفحات الأنس والرحمة ، وتَنزل رشحاتُ القدس والبركة كالمطر ، وكان أكثرُ أصحاب الصلة الروحية يُحسُّون بذلك بوُجدانهم الصحيح .

= البريلوي ولازمه زماناً ، ولما توفي السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساح البلاد وأدرك المشائخ الكبار ، منهم محمود رسن تاب الخورجوي أحد أصحاب السيد علم الله المذكور ، ومنهم الشيخ يوسف بن فتح محمد الأنبالوي ، ومنهم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وخلقاً آخرين من المشائخ ، فاستفاض منهم فيوضاً كثيرة ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وراح إلى «القدس» و«الخليل» وتوفي في أثناء السفر ، ودفن في «بيت المقدس» أرض الأنبياء الكرام ، وكان ذلك عام ١١٩٣هـ (نزهة الخواطر جـ: ٦).

وأحمدُ الله تعالى على أنني وَجدتُ رضا الشيخ المرشد ـ قُدس سره ـ عنكم وعناياته البالغة بحالِكم إلى حدٍّ لا أقدر على وصفه ، فكان يسأل كثيراً عن أحوالكم ، وكان يذكر بلسانه الناطق بالجواهر والدرر معركة الأبداليين ومفاجأتكم بالوصول إلى مكان المعركة ، وانطفاء لهيب الفتنة بقدُومكم[١] ، ولعل الشيخ المرشد كان يَتمنَّى آخر لقاء بكم ، لأنه قال ـ ذات مرة ـ: يَنوي السيد أبو سعيد القدوم ، فلو عجَّل بالقدوم كان خيراً.

يا سيِّدي ، لقد حُرمنا الآن صحبَة الشيخ الظاهرة ، ولكنَّ عدد مؤلفاته تِسعونَ بل أكثَر ، ففي علم الدين ـ أي التفسير والأصول والفقه والكلام والحديث ـ «حُجة الله البالغة» ، «أسرار الفقه»[٢] ، «منصور»[٣]، و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» ، وترجمته للقرآن ، وكل واحد من هذه الكتب يشتمل على ثمانين أو تسعين جزءاً.

وفي الحقائق والمعارف رسائل أخرى كـ«ألطاف القدس» و«همعات» ، و«فيوض الحرمين» ، و«أنفاس العارفين» ، وغيرها ، وهي بديلُ صُحبة الشيخ المرشد والممثلُ عنها ، فلْتهتمُّوا بهذه الكتب وتعزموا على كتابتها ونشرها ، وأن هذا العمل سيتمُّ بأدنى عناية ، يَعلمُ الله هل أُلِّفَتْ أمثالُ هذه الكتب سابقاً أولا ، كما يعترفُ بمكانتها أصحابُ البصيرة ، وكل ما كتبه الشيخ المربِّي في أي موضوع من المواضيع يحتل مكانة الأصول والأساس.

والشيء الثاني أنَّ الشيخ محمد عاشق بعد أن بلَّغ تحياته إليك قال: أكتب إلى مير أبي سعيد أن يُرسل إليك نسخ جميع الرسائل التي وجَّهها الشيخ المرشد إليه حتى نَضُمَّها إلى مجموعة رسائله»[٤] (انتهى).

---

(١) لم نطلع على هذا الحادث الذي وقعت الإشارة إليه هنا.

(٢) ولم يتضح لنا ما هو مراده بهذا الكتاب.

(٣) ولم يتضح لنا ما هو مراده بهذا الكتاب.

(٤) مكتوبات المعارف الفارسية: (مخطوط) ص: ١٩ ـ ٣٠.

كانتْ وفَاة الإمام الدهلوي في ٢٩/ محرم الحرام ١١٧٩ هـ يوم السبت ظهراً (الموافق ٢١/ أغسطس عام ١٧٦٢ م) كما عَلِمنا من الرسالة المذكورة أعلاه[١].

وجاء في مجموعة «كلمات الشيخ عبد العزيز» رحمه الله:

«تُوفي في ٢٩ من محرم الحرام ظُهراً»[٢].

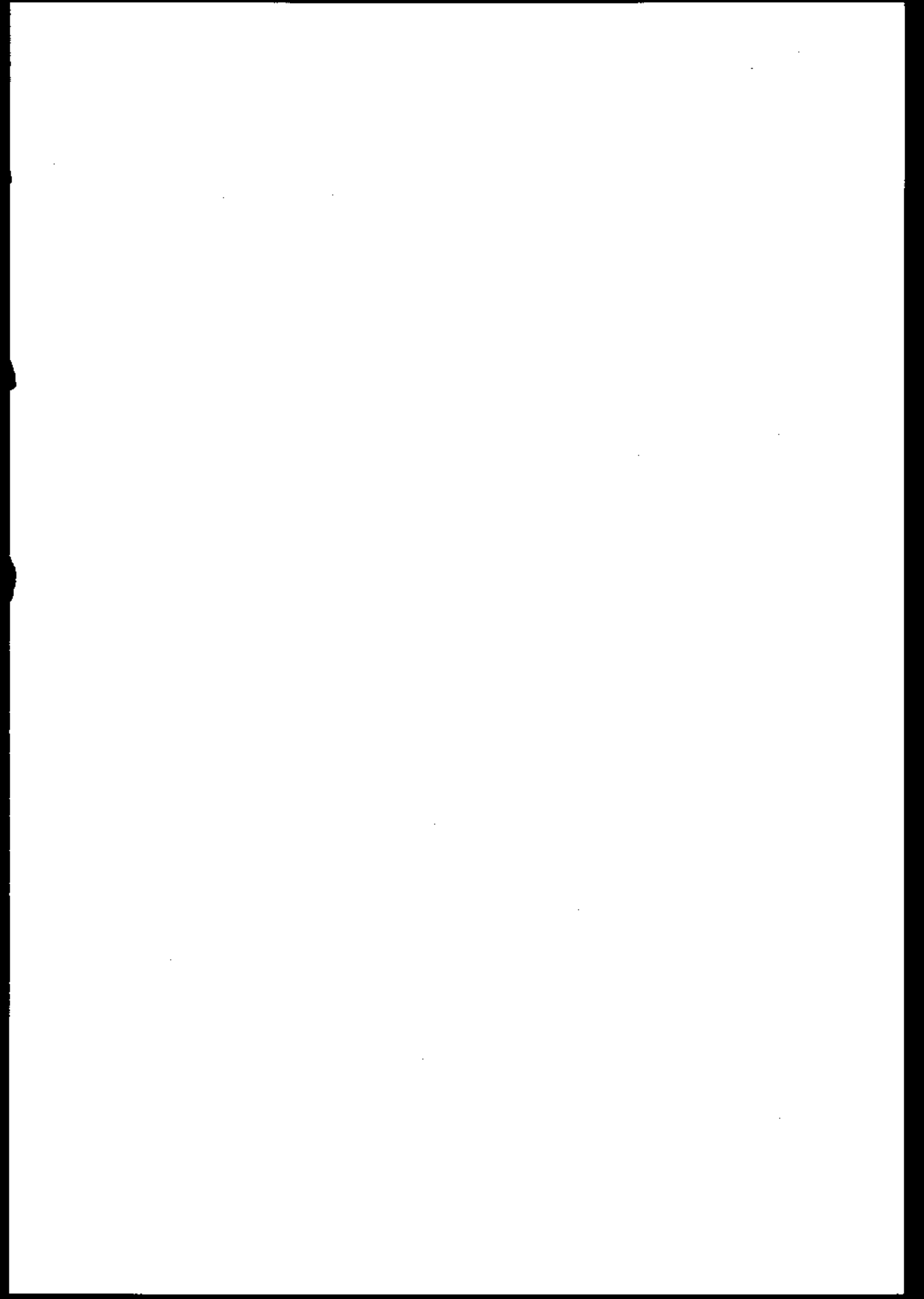
مَدفَنُـه:

لقد دُفن الإمام الدهلوي في جانب اليسار من «دِلّي دَرْوَازَه» (باب دلهي) بالحيّ الذي يسمى «مِهنْدِيَان»، ولقد كان مكان هذه المقبرة ـ يوماً ـ رباط الشيخ عبد العزيز شكربار أحدِ أجداد الشيخ عبد الرحيم لأمه، ولا يزال قبرُه هناك على مسافة قليلة، ثم كانتْ إقامة الشيخ رفيع الدين بهذا المكان، كما كانت بيوت أسرة الإمام الدهلوي أيضاً به، وكان الإمام الدهلوي ترك الإقامة هنا واختار الإقامة داخل شاهجهان آباد، وتُوجد في هذه المقبرة قبور أبناء الإمام الدهلوي الأربعة، وقبرُ والده الشيخ عبد الرحيم أيضاً، وقد عُلّقت عليها اللوحات التي كتبت فيها أسماؤهم وتواريخ وفياتهم، كما تُوجد بها كذلك قُبور أفراد الأسرة الآخرين رجالاً ونساءً، ويَقوم بجنبها مسجدٌ تنتشر حواليه قبُور كثير من العلماء والصالحين، والمحبِّين للإمام الدهلوي ومُسترشديه، ولا تزال المقبرة تتَّسع وتستقْبل مزيداً من الموتى، غفر لهم الله ورحمهم أجمعين.

* * *

(١) مكتوبات المعارف الفارسية: (مخطوط) ص: ١٩ ـ ٣٠.

(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٤٠.



الفصل الثالث
مُؤلّفات الإمامِ الدّهلوي

الكُتب والرسائل:

نذكرُ ـ فيما يلي ـ قائمةَ مؤلَّفات الإمام الدهلوي الصغيرة والكبيرة، والفارسية والعربية حسب تَرتيب حُروف المعجم:

(أ)

١ ـ الأربعين (بالعربية).
٢ ـ الإرشادُ إلى مهمات علم الإسناد (بالعربية).
٣ ـ إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية).
٤ ـ أطيب النغَم في مدح سيد العرب والعجم (بالعربية)[١].
٥ ـ ألطاف القدس (بالفارسية).
٦ ـ الإمداد في مآثر الأجداد (بالفارسية).
٧ ـ الانتباه في سلاسل أولياء الله (بالفارسية).
٨ ـ إنسان العين في مشايخ الحرمين (بالفارسية).
٩ ـ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف (بالعربية)[٢].

(١) [قد طُبع بعناية الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة في دار النفائس ببيروت].
(٢) [طُبع أخيراً في دمشق بدراسة وشرح الدكتور مراد مولوي والدكتور خلدون صبح، لكنه حافلٌ بالأخطاء الطباعية].

١٠ ـ أنفاس العارفين (بالفارسية).

(ب)

١١ ـ البدور البازغة (بالعربية).

١٢ ـ بوارق الولاية (بالفارسية).

(ت)

١٣ ـ تأويل الأحاديث (بالعربية).

١٤ ـ تحفة الموحدين (بالفارسية).

١٥ ـ تراجم أبواب البخاري (بالعربية).

١٦ ـ التفهيمات الإلٰهية (بالعربية والفارسية)[1].

(ج)

١٧ ـ الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف (بالفارسية).

(ح)

١٨ ـ حجَّة الله البالغة (بالعربية).

١٩ ـ حسن العقيدة (بالعربية).

(خ)

٢٠ ـ الخير الكثير (بالعربية).

(د)

٢١ ـ الدُّرُّ الثمين في مبشِّرات النبي الأمين (بالعربية).

٢٢ ـ ديوان الشعر (العربي).

---

(١) [طبع في إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بكراتشي].

(ر)

٢٣ ـ [الرسائل الثلاث (بالعربية)[١]].

٢٤ ـ رسالة في الرد على رسالة الشيخ خواجه خورد عبد الله بن عبد الباقي.

٢٥ ـ رسالة الحكمة (بالفارسية).

(ز)

٢٦ ـ الزهراوين.

(س)

٢٧ ـ سطعات (بالفارسية).

٢٨ ـ سرور المحزون (بالفارسية).

(ش)

٢٩ ـ شَرح تراجمِ أبواب صحيح البخاري[٢] (بالعربية).

٣٠ ـ شفاء القلوب (بالفارسية).

٣١ ـ شوارق المعرفة (بالفارسية).

(ع)

٣٢ ـ العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية (بالفارسية).

٣٣ ـ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد (بالعربية)،

٣٤ ـ العقيدة الحسنة انظر: (حسن العقيدة).

(ف)

٣٥ ـ فتح الرحمن (بالفارسية).

---

(١) [طبع في إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بكراتشي].

(٢) [قد طبع في دار الفكر ببيروت].

٣٦ ـ فتح الخبير (بالعربية)[١].

٣٧ ـ فتح الودود لمعرفة الجنود (بالعربية).

٣٨ ـ الفضل المبين في المسلسل مِن حديث النبيّ الأمين ﷺ (بالعربية).

٣٩ ـ الفوز الكبير (بالفارسية)[٢].

٤٠ ـ فيوض الحرمين (بالعربية).

(ق)

٤١ ـ قُرة العينين في تفضيل الشيخين (بالفارسية).

٤٢ ـ القول الجميل في بيان سواء السبيل (بالعربية).

(ك)

٤٣ ـ كشف الغَين عن شرح الرباعيتين (بالفارسية).

(ل)

٤٤ ـ لمعات (بالفارسية).

(م)

٤٥ ـ المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة (بالفارسية).

٤٦ ـ المقدمة السنية في الانتصار للفرقة السنّية (بالعربية).

٤٧ ـ المقدمة في قوانين الترجمة (بالفارسية).

٤٨ ـ المُسوّى من أحاديث الموطأ (بالعربية)[٣].

٤٩ ـ المصفى (بالفارسية).

٥٠ ـ المكتوب المدني (بالعربية).

---

(١) [نشرته مكتبةُ التوبة بالرياض بعنوان «فتح الخبير بما لا بدّ من حفظه في علم التفسير»].

(٢) [نقله إلى العربية الشيخ سلمان الحسيني الندوي (مترجم هذا الجزء) ونشرته دارُ الفارابي بدمشق].

(٣) [طُبع في دار الكُتب العلمية ببيروت].

٥١ ـ مجموعة رسائل في مناقب الإمام البخاري وفضل ابن تيمية (بالفارسية والعربية).

(ن)

٥٢ ـ النُّبذة الإبريزية في اللطيفة العزيزية (بالفارسية).

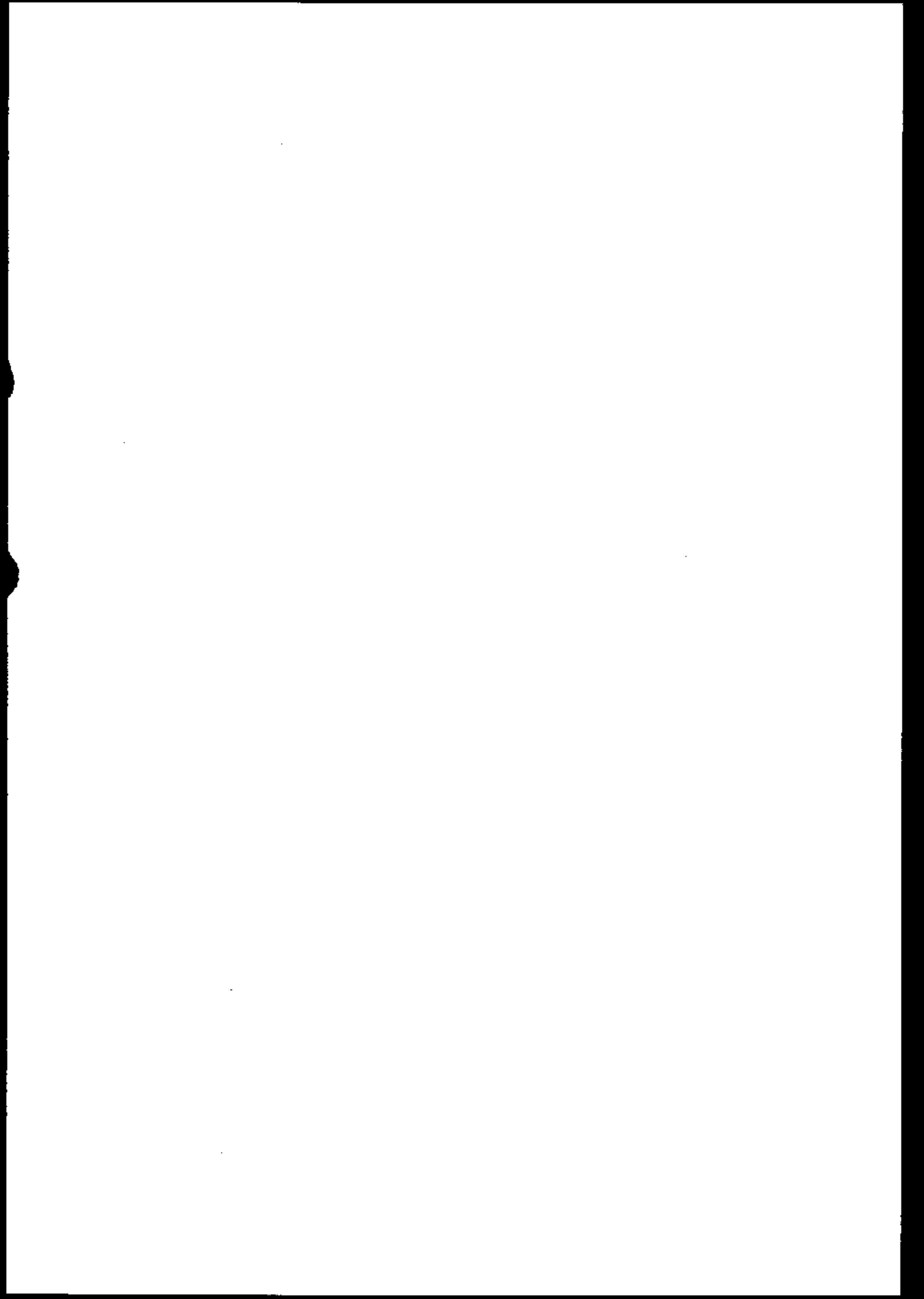
٥٣ ـ النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر (بالعربية).

٥٤ ـ همعات (بالفارسية).

٥٥ ـ هوامع شرح حزب البحر (بالفارسية)[1].

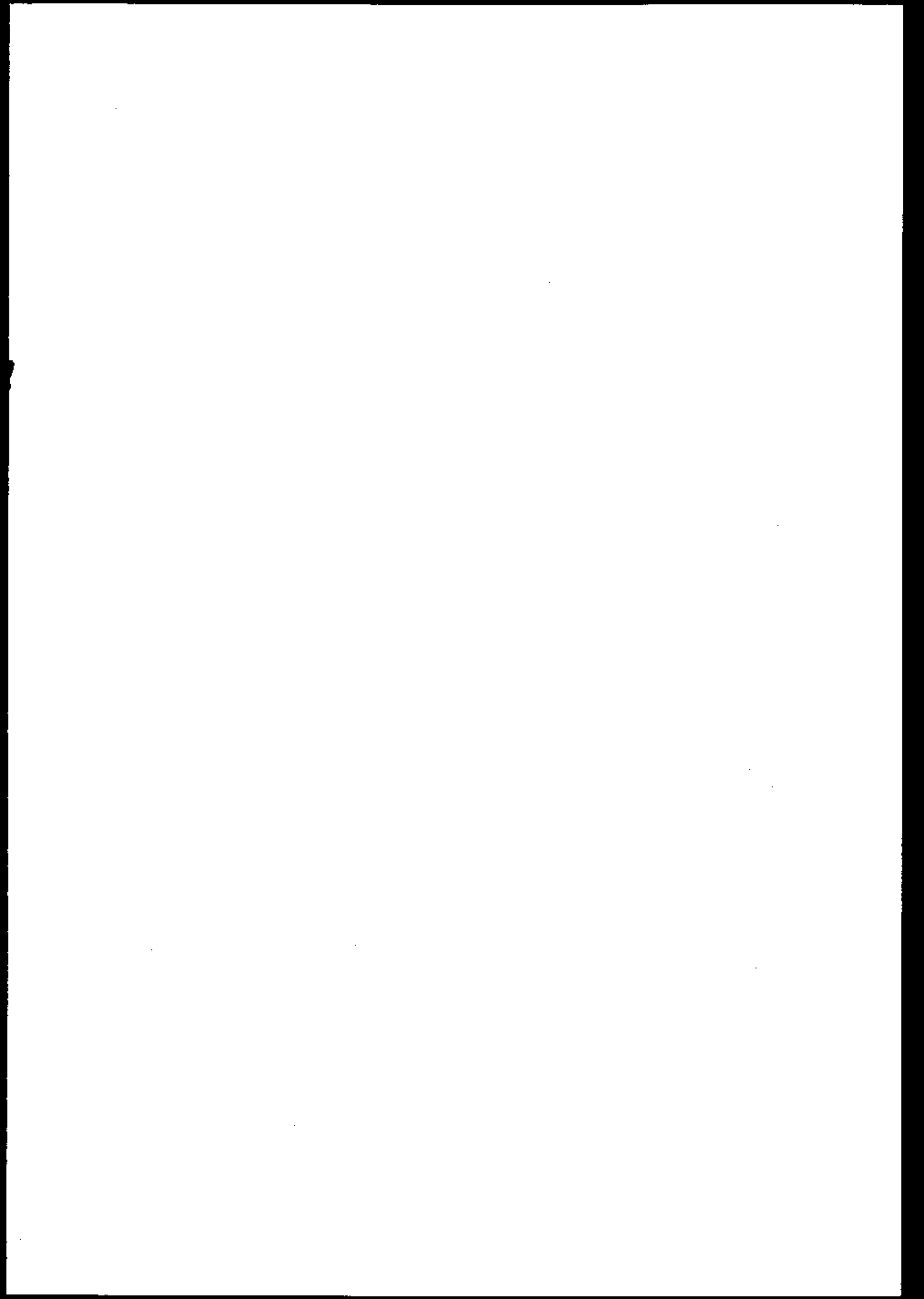
* * *

(١) لا يخفى على القارىء أن بعضاً من المؤلفات بالفارسية، قد تمت ترجمتها إلى العربية كما سيمرُّ في غضون الكتاب.



البَابُ الثَالِثُ

مآثر الإمام الدهلوي التجديدية



مآثرُ الإمام الدهلوي التَّجديديَّةُ تمهيد إصلاح العقائِد والدعوةُ إلى القُرآن

سَعَةُ دائرةِ التَّجديد الذي قام بهِ الإمام الدهلوي وتنوُّعه:

إنَّ الأعمالَ والمآثر الجليلة التي وفَّق اللهُ تعالى الإمام الدهلوي لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمة ، وإحياء الفهم الصحيح للدين ، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمةِ الإسلامية وعملها وجهودها ، تتّسع دائرتها وتتنوع شُعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب ، بل في عامة العلماء والمؤلِّفين في العهود السابقة أيضاً ، ويمكن أن يكون سبب ذلك ـ عدا التوفيق والتقدير الإلهيين ـ يرجعُ إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه ، وإلى ذلك الاحتواءِ والشمول وعُلُوِّ الهمة ، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصَّه الله وقدَّره له .

وقد كان نتيجة كل ذلك أنَّ الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل ، حتى إنَّ المترجم له والكاتب في «تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لَيُواجِه الصعوبة في استيعابها ودراستِها التحليلية والتفصيلية ، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب

والمجالات كلها فإن لسانه يُنشد ويَشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي معناه:

«إنَّ ذيلَ النَّظَرِ ضيق ، ووُرُودُ حُسْنكَ كثيرة ، وإن مُقْتَطِفَ ربيعك يَشكو من ذَيله الضَّيِّق».

وإذا أردنا أن نفرّقها في مواضيع مستقلة ، فهي تأتي بهذه العناوين البارزة:

١ ـ إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.

٢ ـ القيام بنَشر الحديث الشريف وترويجه ، والجهود الموفَّقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعَّمة بالأدلة والبراهين ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدِها وحكمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام ، وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة ، والرد على الروافض.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي ، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحسبة على مختلف طبقات الأمة ، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

* * *

الفصل الأول
إصلاح العقائد والدَّعوة إلى القرآن

ونتناول ـ أولاً ـ عنوان إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن ، إذ أنه يحتل الدرجة الأولى ويأتي في مقدمة الصف إذا بدأ إصلاح الأمة وتجديد الدين في أي عصر أو مصر ، وكل جهد يُبذل لإحياء الدين وإنعاش الأمة بغَضِّ النظر عن ذلك ، فإنه لا يعدو خطّاً على الماء ومبنيّ بغير أساس ، وقد أثبتَ القرآن الكريم بقصصِ الأنبياء والمرسلين ووقائعِهم وحوارهم لشعوبهم ، وأثبتَ التاريخ الموثوق به من عمل العلماء الربانيين وورَثة الأنبياء والمرسلين ومَنهجهم في الدعوة وتدرجهم فيها هذه الحقيقة الأساسية ، وسوف يبقى هذا منهج كُل إصلاح وتجديد إلى أن يَرِث اللهُ الأرض ومَنْ عليها ، إذا كانا قائمين على الطبيعة النّبوية والنظام القرآني.

أَهميّةُ العَقائد:

يَكتفي المؤلِّف هنا بإيراد بعض كتاباته السابقة التي تشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ، يقول:

«إنَّ سِمَةَ هذا الدين الأُولى وشعارَه المميَّز الأول: التركيزُ على العقيدة أولاً وقبل كل شيءٍ ، فما زال الأنبياء من لَدُن آدم إلى خاتم الرُّسل محمدﷺ يَدعُون إلى عقيدة معينة يُوحى بها إليهم، يَدعون إليها ويُطالبون بها ، لا يَقبلون عنه

صرفاً ولا عدلاً ، ولا يَبغُون بها عوضاً ولا بَدلاً .

وإنَّ أفضل حياة خُلقاً وسلوكاً ورحمةً وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة أو إنشاء مجتمع أو إحداث انقلاب ، لا قيمَة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها ودَعَوْا إليها ، ولم يُقم كلَّ هذه الجهودِ على أساسها ، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دَعوة الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثَّوريِّين والنفعيِّين والماديين ، وكلُّ من كان مَصدر تفكيره غيرَ تعاليم الأنبياء وسيرِهم لسبب من الأسباب الأصيلة أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رَدٌّ من ردود الفعل ، أو الحبُّ الزائد لتحقيق النتيجة المطلوبة أو قلب نظامٍ أو انتصار وانتقام»[١] .

إنَّ أجلَّ علم أُخذ عن الأنبياء ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ معرفةُ الله وعِلْمُ ذاته وصفَاته وأفعاله ، وذلك عِلمٌ يختصُّ بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إذ هو عِلمٌ ليستْ له وسائل وآلاتٌ ومعلوماتٌ أولية وتجارب عند البشر ، ولا يتناوله القياس ولا يُفيد فيه الذكاء والفطنة لفقدان أساس القياس ، وتعالى الله ـ تعالى ـ عن الأشباه والنظائر ، وسُموِّه وتقدُّسِه وتنزهِه عن التشبه والتمثل ولبُعده عن كل ما عرفه البشر وألِفه وجرَّبه في عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حَلْبة تجري فيها جياد العقول ، وتتسابق فيها عِتاق العلم والتجربة .

وكان أجلَّ علم تتوقَّف عليه سعادةُ البشر إذ هو الأَساس للعقائد والأعمال والأخلاقِ والمدنية ، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه ، ويَفُك لُغز الكون ، ويكشف عَنْ سرِّ الحياة ، وبه يُعيّن الإنسانُ مركَزه في هذا العالم وينظم علاقاته واتصالاته ببني جنسه ، ويَضع منهاج حياته ، ويُحدد غاياته في ثقة وبصيرة ، ووضوحٍ ويقين[٢] .

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك: للمؤلِّف، ص: ٢٤ ـ ٢٥، طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٢) المرجع السابق: ص: ٦٧ ـ ٦٨.

وإنَّ عناية الله ـ تعالى ـ الخاصة بهذه الأمة ووعدَه المؤكَّد لها بالنصر والتأييد والرضا والعزة والغلبة ، إنما هو ـ بصفة خاصة ـ على أساس العقائد الصحيحةِ والخصائص والصفات الإيمانية ، وعقيدةِ التوحيد الخالصة المبرَّأة من كل الشوائب ، يقول الله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

ويقول في صراحة ووضوح: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

إنَّ ورثة الأنبياء بحقّ ، والعلماء الربانيين الذي يَعرفون طبيعة هذا الدين وفِطرته الصحيحة ، يُهيِّئون الأرض ـ قبل إقامته في مكان ـ ويُصلحونها وينظفونها ويمهدونها ، ويستأصلون جذور الشرك والجاهلية وعروقها (سواء كانت من بقايا الوَثنيات القديمة أو نتائج التأثيرات القومية والمحلية) ويستخرجون جميع بذورها ويَقْلبون الأرضَ ظهراً لبطن ، مهما اقتضى هذا العمل منهم من مدة طويلة ومشقة كبيرة ، فإنهم لا يستعجلون النتيجة ، ولا يَفقدون الصبر.

«إنَّ هذه الوثنية والشرك في مختلف أشكالها وصُورها ، هي الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسَقطته ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياتهم وتَطَوراتها ، وهي التي تُثير غَضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدُّمه الرُّوحي والخلقي والمدني ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب ، وتقضي على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تُحد

وخزائنه التي لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجِز الحقير الذي لا يَملك شيئاً»[١].

الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد:

لقد قال المؤلِّف في الجزء الثاني من «رجال الفكر والدعوة» الذي هو خاص بحياة الإمام ابن تيمية وأعماله تحت عنوان «العقائد والتقاليد الشركية في عهد الإمام ابن تيميّة» ما يلي:

«كانت العقائدُ والتقاليدُ نالتْ رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعَجم ، ونُفوذ الحكومة الباطنية وتأثيرِها ، وانتشار تعليمات الجهلة والضُّلاَّل من الصوفية وأعمالهم ، فقد وجد عدد وَجيه من المسلمين في ذلك الحين يَعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم مِن الاعتقادات الفاسدة ويحملون منَ الأفكار المشركة ما كان يَعتقده اليهود والنصارى في عُزَير والمسيح عليهما السلام وأحبارِهم ورهبانِهم ، وكلُّ ما كان يدور حول قبور الأولياء والمَشائخ إنما كان تقليداً نَاجحاً للأعمال والتقاليد التي كانت تُنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدَّسين عندهم ، فالاستغاثةُ منهم والاستعانة بهم ، ومدُّ يد الطلب والضراعة إليهم ، كلٌّ ذلك كان عامّاً شائعاً بينهم.

كما عمَّت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلِها مساجد وعقدِ المهرجانات عليها عاماً فعاماً ، وقطعِ المسافات الطويلة للوصول إليها ، وقد كانت عبادةُ القبور ـ بجراءة ووقاحة ـ وعدمُ الخشية من الله تعالى ، والخوفُ من أصحاب القبور والخشيةُ منهم ، والاستهزاء بذات العلي القدير والاستهانةُ بشعائره ، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حدِّ التّأليه ، والحجُّ إلى

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن: للمؤلف ، ص: ٥٦ـ٥٧ (طبع دار القلم الطبعة الرابعة) و«محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» ج٣ طبع دار ابن كثير بدمشق.

المشاهد والقبور وترجيحُه ـ بعض الأحيان ـ على الحجّ إلى بيت الله العتيق ، وخَراب المساجد وضياعها ، ورَوعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها مكان كلِّ ذلك من قَسَمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة؛ التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير[1] .

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم المباركة ، ثم هي أقربُ البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبِط الوحي وموطن الرسول ﷺ .

وكانت لغتُها العربية التي نزل فيها القرآن ، ولم تتوقَّف فيها ـ ليوم واحد ـ سلسلةُ دروس الكتاب والسنَّة ، وأُلفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يَـبْـعُد إذاً أن نُقدِّر الوضع بإزاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحَيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرَّفوا بصحبة النبي ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة ـ مباشرة من مصدر النبوة الفياض ، والذين كان كثيرٌ منهم لم يتحرروا ـ كلياً ـ من تأثيرات شعبهم وسُلالاتهم.

ثم إنَّ الهند كانت تُسيطر عليها ـ من آلاف السنين ـ الديانـةُ والفلسفة والحضارةُ التي عُجنتْ طينتها بالشرك والوثنية وجَرَيـا فيها مجرى الدم ، والتي كانت أكبر ممثِّل ـ في هذه القرون الأخيرة ـ للوثنية ، والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة ، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام.

ثم لا يَـغْـزُبَـنَّ عن البال أنَّ هذه البلاد لم تكنْ لها من الصلة المباشِرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة ، ما كانت لها ـ لتأثير إيران ـ بالعُلوم الحُكمية العقلية والفَلسفة اليونانية ، وإذا كانتْ لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم

(١) انظر «رجال الفكر والدعوة» الجزء الثاني.

الدينية ، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام ، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا وَالجزئيَات الفقهية القانونية ، وأصولِ استنباطها ، والبحوث الفلسفية في العقائد ، لا بإصلاح العقائد ، والدعوةِ الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويُمكن أن يُقدَّر ما خلَّفته دِياناتُ الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مُسترشداته ، ويُقدَّر منها ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك ، والاستعانةِ بغير الله ، وطلب الحاجات من غير الله ، وتعظيمِ أعياد الكفار والمشركين ، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين ، والصّيام بأسماء المشائخ والصالحات ، والخوف من ستيلا (التي كانتُ تعتبر إلٰهة الجُدري) وإجلالها ، وأمثال هذه الأشياء التي تدلُّ على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات ، التي غزَت عقرَ دار المسلمين.

ولا يتعسَّرُ تقدير ما وقع بعد مضي قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفُقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية ، بل المعارضة المنافية للإسلام ، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويُمكن أن يقدَّر أيضاً ما أنتجَ تأثيرُ غير المسلمين على المجتمع المسلم ، والجهلُ بالكتاب والسنة ، والبعدُ عنهما ، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة (بغضّ النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رَضوا ، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) في الهند من وضع سيِّىء ، وما قام من نظام للعقائد ، إزاء الدين الحنيف (الذي لم يكن فيه أي مجال لظلٍّ من ظلال الشرك والوثنية) وما نَبتتْ في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية ، يمكن أن يُقدَّر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه ، يقول في «التفهيمات الإلٰهية»:

«قال رسول الله ﷺ : «لَتَتَّبِعُنَّ سُنن من كان قبلكم شبراً بِشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لتَبِعتمُوهم».

قلنا: يا رسول الله ، اليهودَ والنصارى؟قال: «فمن؟»[١] صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتّخذون الصلحاء أرباباً من دون الله ، ويجعلون قبورهم مساجد ، كما كان اليهود والنصارى يفعلون.

كذلك وقد رأينا رجالاً منهم يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ، ويعمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزو إلى النبي ﷺ «الصالحون لله ، والطالحون لي» كما قال الذين من قبلهم: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠] . وإن سألتَ الحق ، فقد فَشا التحريفُ في كل طائفة.

فالصُّوفيـةُ أظهرتْ أقاويلَ لا يُـدرى لها توقيفٌ بـ «الكتاب والسنة» ، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) فظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة[٢].

ويقول في كتابه الشهير «الفوز الكبير»:

«وإذا كنتَ تتوقفُ في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم[٣] فانظر إلى المحرِّفين المنحرفين في هذا العصر ، لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام ، ما هي تصوُّراتهم عن «الولاية» ، ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المقدمين ، يرون وجود الأولياء في عصرنا من

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل ، برقم (٣٤٥٦) ، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ : «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم....» برقم (٧٣٢٠) ، وأحمد في المسند (٥١١/٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

(٢) التفهيمات الإلهية: ج ١: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) وقد ذكر الإمام الدهلوي قبل ذلك حقيقة إشراك المشركين في الجاهلية وأنواعها ومظاهرها.

المستحيلات ، ويؤمّون القبور والعتبات ، وقد ابتلُوا بأنواع من الشرك والبدع والخرافات.

وتمكّن منهم التحريف والتشبيه ، وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبق ـ بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم. . . إلخ» ـ بَليةٌ من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين تخوض فيها وتَعلقُ بها ، عافانا الله سبحانه عن ذلك»[1].

الطّريقُ المُؤثّر لعلاج هذه الأدواء وإصلاحِ الأوضاع: نشرُ القرآن الكريمِ والدعوة إلى فَهمه:

لقد رأى الإمام الدّهلوي أنَّ دراسة القرآن الكريم وفهمَه وتدبره هو أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء ، بل الفتنة العمياء ، ولم يكن تفطُّنه لهذه الحقيقة مبنيّاً على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب ، بل كانت حقيقةً بديهية ، يَشهد عليها القرآن نفسُه ، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب ، بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيدٌ عليه ، ولا يُتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلةٌ أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً في النفوس وجذباً للقلوب منه.

وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبد القادر (ابن الإمام الدهلوي) في مقدمة «موضح القرآن» وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه ، يقول:

«لِيَقُلِ القائلون ما شاؤوا ولكنْ ليس أحدٌ يستطيع أن يقولَ كما قال الله ، ولا يُوجد في كلام أحدٍ من التأثير والنفوذ ما يُوجد في كلام الله»[2].

ولعلَّ شعور الإمام الدهلوي بهذا الوضع الديني في الهند ، وبُعدها عن

---

(١) الفوز الكبير: ص: ٨ ـ ٩ (المكتبة المحمدية).

(٢) مقدمة «موضح القرآن» للشيخ عبد القادر الدهلوي.

تعاليم القرآن الكريم الحكيم وتعاليم الإسلام ـ بصفة عامة ـ ومنافاتها لها ، قد قَوِيَ واشتدّ أثناء إقامته بالحجاز ، وانبعث في قلبه الدافع القوي ، في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني ـ الذي علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان ـ إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند ، بوضُوح وقوة يمكن أن يُعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي ترد ـ في كل عصر ـ على النفوس الزكية لتحقيق مُهمة دينية ضرورية ، ويكاد يستحيلُ دفعها والتغلب عليها ، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوي بدأ بعمل ترجمةِ القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحققت باسم: «فتح الرحمن» بعد عودته من الحجاز[1].

وقد كان من «الحقائق» المسلَّم بها ليس في الهند فحسب بل في جميع البلدان العجمية ـ تقريباً ـ بما فيها تركستان ، وإيران ، وأفغانستان ، والبلدان المجاورة للهند ـ وكانتْ ميولها ونزعاتها ، وأعمالها وأذواقها وحقائقها

---

(١) لقد ذكر مؤلف «حياة ولي» نقلاً عن أحد المعاصرين قصة مؤثرة شجية لتشغيب علماء السوء على الإمام الدهلوي لارتكابه «جريمة» ترجمة القرآن الكريم ، وإثارتهم الأوغاد المفسدين للحملة القاتلة عليه ، ثم استنتج من ذلك أن الإمام الدهلوي اختار السفر إلى الحجاز تخلصاً من هذه الفتنة والشغب (انظر ص: ٤١٨ ـ ٤٢٣).
ولكن ذلك لا يؤيده أي مصدر تاريخي آخر ، بل يوجد في مقدمة «فتح الرحمن» نفسه تصريح بأن الإمام الدهلوي بدأ الترجمة في ١٠ ذي الحجة عام ١١٥٠هـ وأكملها عام ١١٥١هـ ، ويتضح من ذلك أنه شرع في هذا العمل المبارك بعد عودته من الحجاز بأربعة أو خمسة أعوام ، وتوجد في خزانة أسرتنا للكتب نسخة مخطوطة لـ «فتح الرحمن» في مجلدين ، وقد كان الإمام الدهلوي نفسه أهداها إلى الشيخ محمد أعظم العثماني النصير آبادي ، وكان الشيخ محمد أعظم تلميذ الشيخ محمد نعمان (عم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وخريجه) وهو الذي نشأه ورباه ، وانتقلت هذه النسخة إلى ملك الشيخ قطب الهدى المحدث تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، ولم تزل تنتقل من يد إلى يد حتى وصلت إلى والدي العلامة عبد الحي الحسني ، وقد كتبت هذه النسخة عام ١١٦٥هـ أي قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ١١عاماً ، وهذا أيضاً دليل على أن مأثرة «فتح الرحمن» تحققت بعد عودة الإمام من الحجاز ، وأما قبل السفر إلى الحجاز فكان قد أنجز ترجمة سورتي البقرة والنساء.

المعترف بها عندها تُظلّل على الأوساط العملية والدينية في الهند وتؤثر عليها ـ أنَّ القرآن الحكيم إنما هو كتابُ خاصَّةِ الخاصة ، ليُطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه ، وأنَّ فهمه يَتوقَّفُ على معرفة أكثر من اثني عشر علماً ، وأنَّ نشره في العامة ، وتوعيتَهم ـ مباشرة ـ بمعانيه ومطالبه ، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرةً خطرٌ شديد ، وضلال كبير ، وفتحٌ لباب فتنةٍ مسيطرة ، وأنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة ، والقول بالرأي ، والاستغناء عن العلماء ، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان ، وقد صرَّح الإمام الدهلوي بهذا الطراز من التفكير وهذا النوع من الدليل في رسالته الوجيزة «تحفة الموحدين»[1] في أسلوب مؤثر جميل:

«يُطلق بعض الناس القول بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يَفهمهما إلا من دَرس العلوم الكثيرة ، وقرأ الكتب التي لا تُحصى ، ويكون«علامةَ عصره».

ويَردُّ الله عليهم ، فيقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

فقد كان النبي ﷺ أميّاً وأصحابُه أميين ، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تزكّت بها قلوبهم وصَفَتْ بها نفوسهم ، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة ، ولا يملك صلاحيةً لفهمه وإدراكه ، فكيفَ أمكَن للصحابة أن يتزكوا بها ويتطهَّروا من الشرور والمفاسد ، ويا أسفي على قومٍ يدعون فهم «صدرا»[2] ، وعلم

(١) نشرت هذه الرسالة باسم الإمام الدهلوي ومنسوبة إليه ، ولكن لما أنها لا تذكر في مجموعة مؤلفاته ورسائله في الكتب التي ترجمت له ولا يرد ذكرها في فهرسة تأليفاته بصفة عامة ـ فلا سبيل لنا إلى القطع واليقين بأنها من مؤلفات الإمام الدهلوي ، إلا أن الموضوع الذي اقتطفناه هنا ، يعرض تلك الفكرة الخاطئة التي كانت سائدة عرضاً واضحاً صحيحاً ، ثم يَردُّ عليها ردّاً مُقنعاً شافياً.

(٢) المراد به «شرح هداية الحكمة» للعلامة صدر الدين الشيرازي (م١٠٥٠هـ) ويعرف =

«القاموس»[(١)] ، ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جَهلةٍ فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث.

ويقول بعضهم: نحن المتأخِّرون زمناً ، فأنّى لنا بركاتُ عهد النبي ﷺ وسلامةُ قلوب عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى نُدرك مغزى القرآن والحديث ؟!

ويَردُّ الله تعالى على ذلك: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣] ، أي أن المتأخرين سواء كانوا مثقفين أو أميين ، إذا كانوا مسلمين وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين ، وأصغوا بآذانِهم إلى الكتاب والسنة ، فإنهما كفيلان لهم أيضاً بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٢] ، فكيف يتسنى لدارسي «الكفاية»[(٢)] وعلماء «الشافية»[(٣)] أن يتظاهروا بعجزهم عن فهم معنى هذا الكتاب الذي كان يفهمه العرب البدو ويُدركون حقيقته ومغزاه.

ويقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ، فلو لم يكن القرآن ميسراً كيف يتمكَّن من التدبر فيه: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ورغم أنه ليست على قلوبهم أقفالها ، فلماذا لا يُعملون عقولهم في تدبره ولا يتفكَّرون؟»[(٤)].

لقد قرّر الإمام الدهلوي نظراً إلى فَساد الذوق وانحرافِ الفكر وقلة التوفيق وسوء الفهم الذي كاد يصل إلى حدود «ويصدون عن سبيل الله» ، أن يقوم بنقلِ معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السَّهلة التي كانت ـ منذ قيام الحكومة

= «بصدرا» في الأوساط الدراسية الحكمية ويعتبر كتاباً نهائياً مثالياً في العلوم الحكمية.

(١) [المراد به «القاموس المحيط» لمجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧)].

(٢) [هو كتاب في النحو للعلامة ابن الحاجب (ت ٦٤٦)].

(٣) [هو كتاب في الصرف للعلامة ابن الحاجب نفسه].

(٤) انظر «جائزة تراجم قرآني» (استعراض الترجمات للقرآن الكريم) طبع مجلس معارف القرآن ، دار العلوم ديوبند ، ص: ١٣ ـ ١٤.

الإسلامية في الهند ـ لغةَ البلاد الإدارية والعلمية والتأليفية ولغة المكاتبات والمراسلات ، وكلُّ مسلم مثقَّف إن لم يكن يستطيع أن ينطِق بها ، فلا أقل من أن يفهمها ، ولو كانت هناك عشراتٌ من تراجم القرآن الكريم باللغة الفارسية في عهد سيادتها الذي يمتدُّ على سبعة قرون لم يكن ذلك مما يثير العجب ، ولكنَّ الغريب أننا لا نعثر على أي محاولة لنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية قبل ترجمة الشيخ حسن بن محمد القمي المعروف بالنظام النِّيسابوري ثم الدولة آبادي ـ الذي كان من علماء القرن الثامن ـ وهذه الترجمة للنيسابوري مضمومة مع تفسيره للقرآن الكريم بالعربية المعروف بـ «غرائب القرآن».

وكانت هناك ترجمةٌ معروفة بترجمة الشيخ سعدي ، وهي وإن لم تكن سائدةً مُتداولة كمؤلفاته الشهيرة المتداولة «كُلِسْتَان» و«بُوسْتَان»[١] ، ولكنها كانت توجد في بعض المواضع ، إلا أن نسبتها إلى الشيخ سعدي غير صحيحة ، والحقيقة أنها ترجمة السيد شريف علي الجُرجاني (ت ٨١٦ هـ) ، فقد صرّح الشيخ عبد الحق حقاني مؤلف «التفسير الحقاني» عن مشاهدة وعيان:

«التَّرجمة التي ينسبها الجهلة إلى الشيخ سعدي هي في الحقيقة ترجمة السيد شريف ، وقد نسبَها صاحبُ الطبعة أمامي إلى الشيخ سعدي لنَشرِها وترويجها»[٢].

وعلى كلٍّ فإن الإمام الدهلوي قد اطمأن بعد عودته من الحجاز بخمسة أعوام (ولعل ذلك بعد ما شاهد من نتائج الجهود المبذولة لإصلاح العقائد عن طريق التدريس للخاصة ، وإلقاء الدروس العامة ، والوعظ والإرشاد إلى أنَّه لا طريق أبلغُ وأقوى تأثيراً للإرشاد العام وإصلاح العقائد ، وتقويةِ الصلة بالله

(١) كتابان نالا من القبول في تعليم اللغة الفارسية وأدبها ما لم ينله أي كتاب في شبه القارة الهندية. «تحفة الموحدين» طبع المكتبة السلفية ، شيش محل روده لاهور.
(٢) البيان في علوم القرآن: (مقدمة التفسير الحقاني) للعلامة عبد الحق حقَّاني، ص: ٥٠٧.

تعالى من نشر تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته ودعوته وتبليغها إلى الناس بطريقة مباشرة ، وليس هناك لذلك إلا وسيلةٌ واحدة ، وهو نقل معاني القرآن الكريم باللغة الفارسية (لغة البلاد الرسمية السائدة) ونشرها ، وهو الذي شاع التعبير عنه بـ «الترجمة» ، واسمعْ عن تاريخ هذه الخطوة الجريئة والأسبابِ والدوافع إليها من الإمام الدهلوي نفسِه ، يقول في مقدمة تفسير «فتح الرحمن» :

«إنَّ هذا العصر الذي نعيشه ، وهذه البلاد التي نَسكنُها تقتضي فيها مصلحةُ المسلمين ونصيحتُهم أن يُنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السَّلِسَة (من دون تَنميق وتحبير وتظاهُرٍ بالفضل وذِكر للقصص المتعلقة بوجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء ، ويُدرك الصغار والكبار جميعاً معاني القرآن الكريم ومطالبَه ، وقد أُلقي الدافع إلى هذا العمل في رَوعي ، واضطررتُ إليه اضطراراً.

وقد ألقيتُ نظرةً فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق المطلوب أكتفي بنشرها وترويجها ، ولا بد أن تكون هذه الترجمة مُنسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع ، ولكنَّ هذه الترجمات إما طويلة مُمِلة ، أو قصيرةٌ مُخِلّة.

وقد تحقَّقَ لي أثناء ذلك ترجمةُ الزهراوين (سورتي البقرة وآل عمران) ثم صادفني السفر إلى الحرمين الشريفين ، وانقطع ذلك العمل. ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبَّة يقرأ عليَّ ترجمة القرآن ، فأصبح هذا الدرسُ باعثاً على العزيمة الأولى ، وتَقرَّر أن تُقيد الترجمةُ قدرَ الدرس اليومي ، فلما تمتْ ترجمة الثلث من القرآن الكريم ، وقعَ لهذا العزيز سَفَر ، وتوقَّف عملُ الترجمة ، ثم جاءت مناسبةٌ أخرى بعد مدة من الزمن ، وعادتِ الإرادة القديمة من جديد ، وتمتِ الترجمة إلى الثُّلثين.

وعَهد إلى بعض الأصدقاء بتبييضِ المسوّدة ، وأن يكتُبوا معها متنَ القرآن الكريم أيضاً حتى تتهيأ نسخةٌ مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) ، فبدأ هذا

الصديق السعيد تبييض المسوّدة مِن عيد الأضحى عام ١١٥٠هـ ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكمُلت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم ، ووقعَ الفراغ من التسويد في أوائل شعبان ، وبُيضتِ المسوّدة عام ١١٥١هـ ، ونُشرت عام ١١٥٦هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين ـ أكرمه الله تعالى بشهوده ـ وبُدىء بتدريسها ، وتهيأتْ لها عدد من النسخ واسترعتِ انتباه المعاصرين ، والحمد لله تعالى على أنَّ ذلك النَّقشَ الذي نُقش في قلبي ، قد ظهر ـ أخيراً ـ من وراء ستار التقدير»[١].

وقد كتب الإمام الدهلوي عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ «فتح الرحمن» مُقدمةً في أصول الترجمة كذلك ، وهي ـ رغم وَجازتها وقِصرها ـ مقدمةٌ فاضلةٌ تحتوي على فوائد جمة ، يقول في بدايتها :

«يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ، ولي الله بن عبد الرحيم : إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ «المقدمة في قوانين الترجمة» ، وقد جرى بضبطها القلمُ أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم»[٢].

ويُخيَّل إلينا أنَّ الصخرة الصَّلْدة التي كانت تَحولُ في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشرِه بين الناس أُزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصيةٌ جليلة كالإمام الدهلوي (التي كانت طبقَة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مُجمعة ـ تقريباً ـ على تبحُّره في العلم وجمعِه للفضائل والمحاسن ، ومنزلتِه الروحية العالية وإخلاصِه وتجرده) وفتحِ الطريق ، ولم يزل يحدث ويتسلسل في التاريخ الإسلامي أن شخصيةً كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الرّيب والظنون ، تنقشع عنه بسببه سُحب الرَّيب والظنون وسوءُ الفهم وينفتح الطريق العام ، وإنَّ مشاركة الإمام أبي الحسن الأشعري في البحوث الكلامية واستخدامِ الاستدلال العقلي ، ودراسةَ الإمام

---

(١) مقدمة «فتح الرحمن» طبع دلهي ١٢٩٤هـ.

(٢) توجد مخطوطتها في مكتبة ندوة العلماء ، وتشتمل على ست صفحات بالقطع الكبير.

الغزالي للفلسفة وتنقيحها والرد عليها ، وكثير من مثل هذه الأعمال والخطوات التي قام بها كبار العلماء والمخلصين حسب مقتضيات عهدهم للحفاظ على الإسلام أو الدفاع ، كلُّها أمثلة رائعة في هذا الصدد.

التَّرجماتُ الأردية للقرآنِ الكريم بعد الإمام الدّهلوي:

وقد أمستِ الحاجة ـ سريعاً ـ بعد ترجمة الإمام الدهلوي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية ، إذ أنها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحلُّ محل اللغة الفارسية ، وبُدىء فيها بعمل الكتابة والتأليف ، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتَغيُّر الوضع أول ما شعر الشيخ عبد القادر الدهلوي (ت١٢٣٠هـ) ابن الإمام الدهلوي نفسه ، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ١٢٠٤هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التي يمكن أن يُقال عنها : إنه ليس في علمنا محاولةٌ لنَقلِ معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغتْ من النجاح والسهولة والجمال وتناولت رُوح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير ، ما بلغتْه هذه الترجمة ، يقول الشيخ عبد القادر في مقدمة ترجمته هذه :

«لقد جالَ في خاطرِ هذا الفقير عبدِ القادر أنَّ والدنا الجليل الشيخ وليُّ الله ابن الشيخ الكبير الشيخ عبد الرحيم العالمَ بالحديث ومن أبناء الهند كما ألَّف تَرجمة القرآن الكريم بالفارسية بتسهيل وتيسير (كذلك يعمل هذا العبد الفقير بالأردية) وأحمد الله تعالى على أنَّ هذه الأمنية تحققت عام ١٢٠٥هـ (الموافق ١٧٩٠)»[1].

ثم قام الشيخُ رفيع الدين (ت١٢٣٣هـ) أخُ الشيخ عبد القادر الأكبر بترجمة القرآن الكريم ـ مع مراعاة تَرجمة كل لفظةٍ بلفظةٍ وحرفٍ بحرف ـ التي نالت بجوانب حِيطتها البارزة وتَبحُّر مؤلِّفها في العلم وإخلاصِه ، قبولاً ورواجاً كبيراً ، فنالتْ ترجمةُ الشيخ عبد القادر ، السَّلِسَةُ المترابطة ، القبولَ

(١) موضح القرآن: ج ١ ، ص ٢.

والرواج في بعض الأوساط وترجمةُ الشيخ رفيع الدين القبولَ والرُّجحان في أوساط أخرى.

وقد انتشرتْ وعمَّت هاتان الترجمتان في بيوت المسلمين، وعمَّت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له في أي كتاب ديني آخر.

أمَّا فيما يتعلق بتصحيح العقائد وتبليغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشرها، فلا يُحصى كم من مُستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين، فإنَّ عددهم يتجاوز مئات الألوف، والحقُّ أن أيةَ حكومة إسلامية بوسائِلها وأسبابها لا تَستطيع أن تقوم بما قامت به هذه التَّرجماتُ الثلاث في مجال الدعوة والإصلاح، وهي كلُّها أغصان دوحةٍ واحدة وفروع شجرة الطوبى، «وذلك فَضلُ الله يؤتيه من يشاء».

ثم سال سَيلُ الترجمات الأردية التي يَصعبُ إحصاؤُها واستقصاؤها، ويتطلَّب بحوثاً تحقيقية علمية مستقلة[1].

دُروسُ القُرآنِ الكَريم:

وعَلاوةً على هذه التراجم الأردية للقرآن الكريم التي قام بها شيخان جليلان من أفراد هذه الأسرة الكريمة الشيخ عبد القادر الدهلوي والشيخ رفيع الدين الدهلوي، والتي ظلَّت تُقرأ وتَدرس في البيوت حيث كانت اللغة الأردية لُغةَ النطق والكتابة في الهند، كان هناك الجَهد الطويل الجاد، المؤثّر العميق البليغ لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العامة، وشرحِه وتفسيره شفوياً، وقد تحقَّق ذلك على يدي أكبر أبناء الإمام الدهلوي، والمضطلع بأعباء أعماله التجديدية والإصلاحية وتوسيع نطاقها وتكميلها بعدَه الشيخ عبد العزيز الدهلوي (١٢٣٩هـ) الذي استمر اثنتين وستين، أو ثلاثاً وستين سنة، يُلقي دروسه المؤثّرة في القرآن في مدينة مركزية

(١) بين أيدينا الآن كتاب «جائزة تراجم قرآني» (استعراض الترجمات القرآنية) فقد بلغت فيه عدد الترجمات (بعد هاتين الترجمتين للشيخ عبد القادر والشيخ رفيع الدين) التي استعرضها المؤلف وعرف بها بإيجاز إلى خمس وخمسين ترجمة.

كالعاصمة دلهي ، وفي عهدٍ خطير كالقرن الثالث عشر الهجري ، وما كسبتْ هذه الدروس من نجاح وقبول ، وما تحقَّق بها من إنجازاتٍ كبيرة في تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجَد له في علمنا أيُّ نظير ولا مثيل.

الفَوزُ الكَبير في أصول التفسير:

إنَّ كتاب الإمام الدهلوي «الفوز الكبير في أصول التفسير» مَأثرةٌ تجديدية ثورية في صدد الدعوة إلى القرآن ، وإنشاء مَلكة الفهم والتدبُّر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفينَ ، وإيقاظِ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية ، وإنه لكتاب فريد (في المكتبة الإسلامية العامرة حسب علمنا) في بابه.

لا يُوجد في أصول التفسير شيء مستقل ـ بصفة عامة ـ وما هي إلا بعض القواعد والضوابط وشيء من الأصول يذكُرها بعض المفسرين في مقدمة تفاسيرهم أو لِبيان منهجهم في التفسير والتأويل في بضعة سطور ، وإن كان كتاب الإمام الدهلوي «الفوز الكبير في أصول التفسير» أيضاً وجيزاً مختصراً ، ولكنه كله نُقاط أساسية وكُلِّيات جامعة ، وهو ـ في الحقيقة ـ مذكّرة نادرة قيّمةٌ لعالمٍ جليل عانى مشكلات القرآن ، ومارسها مُمارسةَ المجرِّب الخبير.

ولا يقدره حقَّ قَدْره إلاّ من وَاجه هذه المشكلات والمسائل العويصة وإنّ بعض الأصول والكُليات التي سجلها الإمام الدهلوي بناء على ذوقه ووجدانه وإدراكه لمغزى القرآن ، لا يمكن الحصول عليها بمطالعة مئات الصفحات في الكتب الأخرى ، وإن تصريح الإمام الدهلوي في مقدمة هذا الكتاب بما يلي ، صحيح مئة في المئة:

«يقول الفقير إلى الله ، وليُّ الله بن عبد الرحيم ـ عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم ـ: إنه لما فتح الله عليَّ باباً من كتابه الحكيم ، خطر لي أن أُقيد الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبر كلام الله عز وجل ، وأرجو أنَّ مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاب طريقاً واسعاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى ، وأنهم لو قضوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسِّرين ـ على أنهم

أقلُّ قليل في هذا الزمان ـ لا يَظفرون بهذه القواعد الضابطة والمَضامين المترابطة»[١].

إنَّ ما كتَبه الإمام الدهلوي في مقاصد القرآن الكريم وموضوعاته وخصائصِ أسلوبه ومنهجه ، واختلافِه وتميُّزه عن المؤلفات البشرية لا سيما كُتب المتأخرين الدراسية، وأسبابِ النزول في كلمات قليلة معدودة، يمكن ألاَّ يُشعر فيه ـ اليوم ـ بالجِدة والابتكار ، ولكنها كانت في القرن الثاني عشر آراءً ونظراتٍ جديدة ، ولا تزال هذه الآراء غريبة مجهولة في كثير من الأوساط.

لقد وقع هناك نَقصٌ كبير وفرق هائل ـ نتيجَة كثرة الروايات المتعلقة بأسباب النزول والتأكيد على أهميتها والتركيز عليها؛ الذي كان أصبح شعار القرون المتأخرة ـ في الاستفادة من مَضامين القرآن العظيم وقَصصه والانتفاعِ بعظاته وعِبره في كل عَصر ودَور من أَدوار التاريخ ، وتطبيقها على ظروفَ العصر وأوضاعه وقضاياه.

فقد أزاح الإمام الدهلوي بهذا التحقيق والتنقيح ذلكَ الستار الكثيف ، وكَشف عن جَمال القرآن الكريم وبهائِه ورونقِه.

يقول الإمام الدهلوي في الباب الأول من كتابه: «الفوز الكبير»:

«وقد رَبط عامةُ المفسِّرين كلَّ آية من آيات الأحكام وآياتِ المخاصمة بِقصَّة تُروى في سبب نزوله ، وظنُّوا أنها هي سبب النزول.

والحقُّ أن نزول القرآن الكريم ، إنما كان لتهذيبِ النفوس البشرية ، وإزالةِ العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة.

فالسببُ الحقيقي ـ إذاً ـ في نزول آيات المخاصمة هو وجُود العقائد الباطلة في نفوس المخاطبين.

وسَبَبُ نزولِ آيات الأحكام ، إنما هو شيوع المظالم ووجُود الأعمال الفاسدة فيهم.

---

(١) الفوز الكبير.

وسببُ نزول آيات التذكير (بآلاء الله وأيامه وبالموت) إنَّما هو عَدمُ تيقظهم وتَنبُّههم بما يرون ويمرُّون عليه من آلاء الله وأيامهِ وحوادث الموت، وما سَيكون بعده من وقائع هائلة.

أمَّا الأسبابُ الخاصة والقَصص الجزئية التي تجشَّم بيانها المفسرون، فليس لها دَخلٌ في ذلك إلا في بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على تعريض بحادث من الحوادث في عهد النبي ﷺ أو قبله، بحيث يقع القارىء بعد هذا التعريض في ترقب وانتظار لما كانَ وراءه من قصة أو حادث أو سبب، ولا يزول ترقُّبه إلا ببسط القصة وبيان سبب النزول»[١].

وإنَّ بيان مواضع الضَّعف في الفِرَق التي تكفل القرآن الكريم بالرد عليها والتصريح بعقائدها وأفكارها وآرائها الصحيحة الأصيلة، وأسبابِ ضلالها وانحرافها وسوء فهمها للحقيقة، وتاريخ هذه الأسباب، وبيان اتفاق وتطبيق هذه الأمور على بعض طَبقات المسلمين، هو الأساسُ الأول لفَهم القرآن الكريم الذي لا يوجد ـ رغم الاختصار والإيجاز ـ بهذا الوضوح في أي من التفاسير الكبيرة كما يوجد في هذا الكتاب.

وكذلك شَرْح الفَرْق بين اصطلاحات المتقدمين والمتأخرين في النَّسخ والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة، وحَلُّ الخلافات التفسيرية بين الصحابة والتابعين، من بحوث الإمام الدهلوي الجيدة النادرة.

وإنَّ ما ذكره الإمام الدهلوي من توجيهٍ لعدم مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتِها لها، يَعرِفُ قَدْره وأهميته من درسَ تاريخ تدوين النحو، وكان له اطِّلاع واسع على الخلافات النحوية بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وإنَّ من أكبر ميزات هذا الكتاب أن القارىء يطلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقية في الديانات السابقة والفِرق الضالة والشعوب والمِلَل

(١) الفوز الكبير: الباب الأول، ص: ٣ ـ ٤.

وأمراضِها القديمة وعِللها الموروثةِ ، ويُوفق أجيال المسلمين ، والمجتمع المسلم في كل عصر ، وطبقات الأمة المختلفة أَن ترى وَجهها في مرآة القرآن الكريم ، وتحاسب نفسها ، وتُفكر في ألاَّ تتسربَ أمراضُ الديانات والفرق القديمة ومواطنُ ضَعفها المتوارثةُ إليهم ، ولا تدخل بخطئ صامتة عليهم.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

التَّحقيقُ والتَّنقيحُ العلمي لمسألة التَّوحيد:

لم يقتصرِ الإمام الدهلوي في سبيل تصحيح العقائد والمفاهيم والدعوة إلى التوحيد الخالص على ترجمة القرآن الكريم وإلقاء الدروس فيه ، بل دَرس هذا الموضوع كعالم وباحث محقِّق دراسة واقعية موضوعية.

لقد كانت عقيدة التوحيد شعارَ الأمة الإبراهيمية الأكبر ، والمقصدَ الأعظم لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وجهده ، وأساسَ دعوة خاتم النبيين ﷺ ومبدأه ومنتهاه ، يشهد عليه القرآن الكريم كله ، ومجاميعُ السنة والسيرة النبوية ، لقد أقام بين التوحيد والشرك خطّاً فاصلاً ، وبين حقيقة التوحيد بياناً واضحاً ، وجاهد ضدَّ أي شائبة من شوائب الشرك وأي ظل خفيف من ظلاله ، وسدَّ باب كل ذريعة إلى تسرب الشرك في عقائد الأمة الإسلامية ، ووقُوع الضعف فيها ، بما لا يُتصور المزيد عليه ، وهذه الحقائق كلها بديهية متواترة لا تحتاج إلى إيراد الشواهد والأدلة ، وكلُّ من له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة يضطر إلى الاعتراف بها والإذعان لها.

ثم كَيف تسرَّبتْ هذه الأعمالُ والمعتقدات الشركية بعد مُضي القرون المشهود لها بالخير ، وفتح بلاد جديدَة ، وإقبالِ أهلها على الإسلام ، والاختلاط بالشعوب غير الإسلامية ومجاورتها ، ومُضيّ الدهور والأعصار ، إلى طبقة كبيرة من العامة ، وكيف تمكنتْ من الحصول على مكانها مع كثير من شعائر التوحيد وعلاماتِه في المجتمع المسلم.

وكيف تجاسرَ كثيـرٌ من أدعياء العلم على احتمالها ، وتوجيهها وتأويلها

وتحليلها ، وكيف وقعَ كثيرٌ من المسلمين المثقفين أسرى هذه المغالطات ، والتأويلات؟

إنَّ السبب في ذلك عند الإمام الدهلوي يَرجع إلى عدم الإدراك والفهم لحقيقة الشرك وحقيقة مُعتقدات المشركين ، لا سيَّما المشركين العرب في الجاهلية عن كون الله تعالى خالق الكون ، ومدبِّر الأمور العظام ، وقد فَهمتِ الطبقة الكبيرة من العامة حقيقةَ الشرك على أنه إشراكُ كائنٍ (سواء كان حيّاً أو ميتاً) مع ذات الله تعالى على قَدَم سواء ، وأن يُجعل له نِدٌّ ومثيل ، تُنسب إليه جميع صفات الله تعالى وأفعاله ، ويُعتقد بأنه هو الخالق ، الرازق ، والمُحيي والمُميت ، حقيقةً وأصلاً.

أما نِسبة بعض صفات الله تعالى إلى بعض عباده المقرَّبين عنده، واعتقادُ صدور بعض الأفعال (التي هي خاصة بالله تعالى) منهم، وتوليتُهم بعضَ أمور القدرة المطلقة ، وتخويلهم بعض حقوقه بإذنه ورضاه، كل ذلك لا يُنافي عندهم التوحيد ولا يُرادف الشرك ، كذلك كانوا يعتقدون أنَّ تقديس أحدٍ لمحضِ التزلف إلى الله تعالى تقديساً بالغاً ، ومعاملته بأعمالٍ وهيئات تدخلُ في حدود العبادة والتأليه ، لا علاقةَ له بالشرك إذ أنه مجرَّد وسيلةٍ من الوسائل للحصول على رضا الله تعالى وطريق نافع مؤثر للوصول إلى حضرة الجلالة (التي لا يصل إليها أي بشر عادي) وكان الكفار العرب يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] .

كانتْ هذه هي المغالطةَ والتلبيس الذي جرّ كثيراً من أفراد هذه الأمة إلى حِمى الشِّرك المُحرَّمة ، وقد تخطّوا ذلك الخط الأخير الذي هو الحد الفاصل (Line of Demarcation) بين الشرك والتوحيـد ، ولذلك فإنَّ أول وأهمَّ حاجة في هذا الصدد أن يُعلم ما هي تلك العقيدة التي كان يَدينُ بها المشركون العرب والجاهليون حقيقةً ، وماذا كانوا يعتقدون في ذات الله تعالى وصفاته ، ولماذا اعتبرهم رسول الله ﷺ مُشركين رغم كونهم يعتقدون أن الله تعالى خلق الكون ،

وخلق الأرض والسموات ، وأنه صاحبُ القدرة المطلقة ، وأعلن القرآن الكريم أنهم مشركون؟ .

يقول الإمام الدهلوي في كتابه العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير» :

«والشِّركُ هو إثبات الصفات الخاصة بالله تعالى لغيره مثلَ إثبات التصرف المطلق في الكون ، بالإرادة المطلقة ، التي يعبر عنها بـ «كن فيكون» أو إثباتُ العلم الذاتي الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواسّ والدليل العقلي والمنام والإلهام ، وأمثالُ هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المَريض إو إثباتُ اللَّعنة على شخص أو السَّخط عليه بحيث ينقلب نتيجَة هذا اللَّعن والسخط معدماً فقيراً ، أو مريضاً ، أو شقياً ، أو الرحمةَ لشخص والرضا عنه ، بحيث يَنقلبُ هو بسبب هذه الرحمة والرضا غنيّاً صحيحاً معافىً سعيداً.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع الله تعالى شريكاً في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدبير الأمور العظام ، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله تعالى شيئاً وقضى ، أن يُمانعه ويقف دونه ، إنما كان إشراكهم في أمور خاصَّة ببعض العباد ، إذ أنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كما يُرسل عبيده وأصحاب الزُّلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشؤون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه ، بل يَكِلُ ذلك إلى الولاة والحكام ، ويَقبل منهم شفاعتهم ، وتَزْكِيتهم للموظَّفين الذين يَعملون تحت إشرافهم ، والمتَّصلين بهم والمتزلفين لديهم ، كَذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق ـ تعالى شأنه ـ على بعضِ عباده المقربين ، خِلعة الألوهية وجَعل سخَطهم أو رِضاهم مؤثراً في عبادِه الآخرين.

فكانوا ـ لأجل ذلك ـ يَرون من الضرورة التزلُّف إلى أولئك العباد المقرَّبين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي ، وتَنال

شفاعتهم في حقهم ـ عند الجزاء على الأعمال والحساب ـ الحظْوةَ والقبول عند الله سبحانه.

ونَظراً لهذه الملاحظة والتَّصوُّر الذي رسخ في نفوسهم، حدَّثتهم أنفسهم بالسجود أمامَهم والذَّبح لهم والحَلِف بأسمائهم، والاستعانةِ بقُدرتهم المطلقة، ونَحْتِ صورهم وتماثيلِهم من حجر وصُفر ونحاس وغير ذلك، وجعلها قِبلة للتوجه إلى أرواحهم، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدؤوا يعبدون هذه الصور والتماثيل، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط وفسادٌ عظيم»[١].

ويقول أيضاً في «حجة الله البالغة»:

«حقيقةُ الشرك أن يعتقد إنسانٌ في بعض المعظَّمين من الناس أن الآثار العجيبةَ الصادرة منه إنما صدرتْ لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال مما لم يُعهد في جنس الإنسان بل يختص بالواجب ـ جَلَّ مَجْدُه ـ ولا يوجَد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يُفني غيره في ذاته، ويبقى بذاته، أو نحو ذلك ما يَظنه هذا المعتقِد من أنواع الخرافات كما ورد في الحديث: «إنَّ المشركين كانوا يُلَبُّون بهذه الصيغة: لبّيكَ لَبَّيكَ لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تَمْلِكه وما مَلك»[٢] فيتذلَّل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى»[٣].

ويقول كذلك ـ وهو يُبين حقيقة إشراك المشركين، ويُصرِّح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين، فقد كان المشركون العرب

---

(١) الفوز الكبير: ص: ٧ ـ ٨.

(٢) [أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب التلبية وصفة وقتها، برقم (١١٨٥)، والبيهقي في السنن: (٥/٤٥) برقم (٨٨١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في المجمع (٣/٢٢٣): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه حماد بن شعيب، وهو ضعيف].

(٣) حجة الله البالغة: جـ: ١ ص: ٦١، باب أقسام الشرك.

لا ينكرون وجود الله تعالى ومكانَته المتفردة وقدرتَه المطلقة ، وكانوا يرون أن المقرَّبين لديه والمحبوبين عنده يُشاركونه في بعض الصفات والحقوق ـ وذلك أيضاً بإذنه ورضاه ـ ولأجلِ ذلك كانوا يُعاملونهم معاملة العبودية والخضوع. يقول تحت «باب التوحيد»:

«والمُشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العِظام وفيما أَبرم وجَزم ، ولم يَترك لغيره خِيرة ، ولم يُوافقوهم في سائر الأمور ، ذهبوا إلى أنَّ الصالحين من قَبلهم عبدوا الله تعالى وتقربوا إليه ، فأعطاهم اللهُ الألوهية ، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله ، كما أن مَلِك الملوك يخدمه عَبدُه فيحسنُ خِدمته فيعطيه خِلعة الملك ، ويفوض إليه تدبيرَ بلد من بلاده ، فيستحقّ السمع والطاعة من أهل ذلك البلد ، وقالوا: لا تقبل عبادة الله تعالى إلا مضمومةً بعبادتهم ، بل الحق في غاية التعالي ، فلا تُفيد عبادته تقرباً منه ، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليُقرِّبوا إلى الله زُلفى ، وقالوا: هؤلاء يسمعون ويبصرون وَيشفعون لعبادهم ، ويُدبِّرون أمورهم وينصرونهم ، فنحتوا على أسمائهم أحجاراً ، وجعلوه قِبلة عند توجههم إلى هؤلاء فخَلف من بعدهم خلف ، فلم يفطنوا للفَرق بين الأصنام وبين مَن هي على صُورته فظنّوها معبوداتٍ بأعيانها»[1].

ويقول في موضع آخر:

لقد كان المشركون يعتقدون «بأنّه لا شريك لله تعالى في خلق السموات والأرض ، وما فيهما من الجواهر ، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا رادَّ لحكمه ولا مانع لقضائه ، إذا أبرم وجزم ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وقوله تعالى ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١] ، وقوله تعالى: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧] ، لكن كان من زندقتهم قولهم: «إن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تُدبِّرُ أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابدِ

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ٥٩ ، باب التوحيد.

فيما يرجع إلى خُويصة نفسه وأولادِه وأمواله ، وشَبَّهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملكِ الملوك ، وبحالِ الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرِّف بالجبروت ، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع منْ تفويض الأمور إلى الملائكة ، واستجابةِ دعاء المقربين من الناس فظنُّوا ذلك تصرفاً منهم كتصرُّف الملوك قياساً للغائب على الشاهد ، وهو الفساد»[١] .

وهكذا توصَّل الإمام الدهلوي إلى جُذور الأعمال والعقائدِ الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة ، وكَشف عن المغالطة التي جرَّت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شراك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك ، والنَّذر والذبح لغير الله ، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين ، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم ، والخوف والرجاء منهم ، والاستمداد والاستعانة بهم ، وتعظيمِ قبورهم ، وكل ما يمتُّ إليهم بصلة كتعظيم بيت الله تعالى والحَرَم المُحرَّم ، والالتزام بآدابه ، واعتقاد تصرفهم ـ ولو جزئياً ـ في الكون ، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه ، وسَعته وإقْتاره ، وكانوا قد حُرموا من العمل لقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] . وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على الله تعالى والانقطاع إليه ، وإذا سمعَ الإنسانُ بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكَّر الآية الكريمة : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩] .

ولو لم تكن للإمام الدهلوي وأخلافِه مأثرةٌ غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها ، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة ، لكفى ذلك في عدِّه من المجددين في هذه

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٢٥ ، باب «ما كان عليه أهل الجاهلية فأصلحه النبي ﷺ».

الأمـة ، ولكن له مع ذلك أعمالٌ ومآثـر ، سيأتي تفصيلها في الصفحات التالية .

بَيانُ العَقائد وشَرحُها في ضَوء الكتاب والسنة وعلى منهج الصَّحابة والسلفِ الصالح:

لقد كان للإمام الدهلوي ـ علاوة على هذه المآثرِ التجديديةِ الأساسية التي كانت تتعلق بالمسلمين ـ عامة ـ والمجتمع الإسلامي كله ، والتي يُشك بدونها في الهداية والنجاة ، وتَستحيل نُصرة الله تعالى وتأييدُه ، مأثرة علمية وإصلاحية جزئية ، وهي أنه قام ببيان العقائد الإسلامية وشرحِها في ضوء الكتاب والسنة ، ودعا في هذا المجال إلى تطبيق منهج الصحابة والسلف الصالحين رضي الله عنهم وذوقِهم ومشربِهم ، وقد بدأ بهذا العمل وقدّم مثالاً علمياً .

لقد كان العالم الإسلامي في حاجة إلى أولئك النوابغ من المفكِّرين والمتقيّدين بالنصوص من المجتهدين الذين يستطيعون أن يواجهوا آراء الفلسفة والفلاسفة ونظرياتهم(التي كان لها تأثير كليٌّ على علم الكلام نفسِه) مواجهةَ النِّدِّ للنِّدِّ ، يُؤمنون بالقرآن كما نزل ، ويَعتقدون في صفات الله تعالى وأفعاله بما يقوله هو عن نفسه من دون تأويل أو تحريفٍ وتعطيل ، ويُفسِّرون هذه الحقائق تفسيراً يؤيده العلم الصحيح والأدلةُ الشرعية في جانب ، ويَعترفُ به العقل الصريحُ والمنطق الصحيحُ في جانب آخر ، ولم يكن لذلك إلا العلماء الربانيون الذين تَربَّوا وتخرجوا في مدرسة القرآن الكريم مباشرة ، واقتبَسوا النور من مشكاة النبوّة الصافية وكانوا ـ مع معرفتهم الواسعة وإحاطتِهم بعلوم الفلسفة والبحوث والتدقيقات الكلامية ـ مُلتزمين في مجال العقائد بكتاب الله تعالى وسنَّـة نبيه ﷺ المتواترة ، ويؤمنون بالله تعالى وبصفاته وأسمائه الحسنى التي تكفَّل هو ببَيانِها في كتابه الحكيم ، وكان يَصدق عليه ـ كلياً ـ تعريفُ العلماء الربَّانيين الذي ورد في الحديث الشريف :

«يَنْفُون عن هذا الدين تَحريفَ الغَالين ، وانْتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين»[١].

ولم يخلُ أي عصر من عصور التاريخ الإسلامي من أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ، ومن أبرزهم شيخُ الإسلام الحافظ ابن تيميَّة الحرَّاني (ت٧٢٨هـ) في القرن الثامن الهجري ، وتلميذُه النابغة العلامة ابن قيّم الجوزيَّة صاحبُ «زاد المعاد» (م٧٩١هـ) وآخرون من العُلماء الأجلَّة الذين ساروا على هذا الدرب ، وليستْ قائمة أسمائهم طويلة.

وإنْ كان بعدَ الإمام ابن تيمية من يمكن أن يُصرَّح باسمه في هذا المجال بكل ثِقة واعتماد ، وأعمالُه ظاهرة معروفة في أوساط العلماء ، فهو الإمام ولي الله الدهلوي ، فقد كان يَملك المقدرة الكافية لبيان العقائد وشرحِها وعرضها وفق منهج السلف الأولين ، لأنه كان درس الفلسفة اليونانية دراسةً واسعة عميقةً في جانب ، وكانتِ الثروة العلمية لعلمِ الكلام بين يديه بل في متناوله ، وكان مفسراً دقيق النظر للقرآن الكريم ، وعالماً بارعاً في علوم الحديث الشريف ، وعارفاً بِأسرار الشريعة وحِكَمها ومقاصدها في جانب ، ولذلك فهو يقوم على الجادة المتوسطة بين «التأويل» و«اللفظية» وكتابه «العقيدة الحسنة»[٢]

---

(١) أخرجه البيهقي [في السنن الكبرى (١٠/٢٠٩) برقم (٢٠٧٠٠) من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري] ، ولفظ الحديث: «يرث هذا العلم من كلِّ خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين... الخ».

(٢) طُبع هذا الكتاب باسم «العقيدة الحسنة» (بالفارسية) في مطبع «مفيد عام» بآكره ، وقام الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أويس الندوي ـ عليه رحمة الله ـ أستاذ التفسير بدار العلوم ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بترتيبه مع تعليقاته وحواشيه (التي اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرى للإمام الدهلوي) باسم «العقيدة السنية» وطبع المقدمة مؤلف هذا الكتاب في مطبع دار العلوم ندوة العلماء عام ١٣٨٢هـ الموافق عام ١٩٦٢م وقد جاءت خلاصة هذا الكتاب في كتاب المؤلف «العقيدة والعبادة والسلوك» ، ويوجد بحث العقيدة الحسنة كله في «التفهيمات» للإمام الدهلوي ، ولعله أفرد منه ونشر في رسالة مستقلة (انظر «التفهيمات الإلهية» ، جـ: ١ ، ص: ١٤٤ ـ ١٤٨).

يجمع بين عمق الدّراسة وسُهولة العبارة وطلاقتها ، وإنه لمن المتون الجامعة المحررة لعلم التوحيد (الذي يُسمَّى الآن بعلم الكلام بصفة عامة) التي احتوتْ على خلاصة عقائد أهل السنة والجماعة ولبابها الذي يجب أن يطَّلع عليه كل مسلم مُثقَّف يَعدُّ نفسه ويَعتبرها في أهل السنة ، ويريد أن يجعل عقائد أهل السنة شعارَه ومسلكه.

يقول الإمام في رسالة «وصاياه»[1] ، (وهي باللغة الفارسية):

«وَصيَّةُ هذا الفقير الأولى أن يتمسَّك المسلمُ في العقائد والعمل بالكتاب والسنَّة ويَعضَّ عليهما بالنواجذ ، ويعمل بهما ـ دائماً ـ ويختار في العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة ، ويُعرض في باب الصفات والآيات المتشابهات التي لم يَخض السلف في تفصيلها والبحث فيها عنه ، ولا الالتفات إلى تشكيكات العقلانيين المتكايسين».

ويُقدَّر منهج الإمام الدهلوي في باب الأسماء والصفات ومسلكه فيها بهذه القِطعة التي نقدمها فيما يلي:

«اعْلم أنَّ الحق ـ تعالى ـ أجلُّ من أن يُقاس بمعقول أو محسوس ، أو يَحل فيه صفاتٌ كحلول الأعراض في محالها ، أو تعالجَه العقول العامية ، أو تتناوله الألفاظ العُرفية ، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكمِّلوا كمالَهم الممكِنَ لهم ، فوجَب أن تُستعمل الصفات بمعنى وجُود غاياتها لا بمعنى وجود مَباديها ، فمعنى الرحمة إفاضَة النعم لا انعطافُ القلب والرقة ، وأن تُستعار ألفاظ تدل على تسخير الملِك لمدينته ، لتسخيره لجميع الموجودات إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصحُ من هذه ، وأن تستعمل تَشبيهاتٌ بشرط ألا يُقصد إلى أنفسها بل إلى معانٍ مناسبة لها في العُرف. . .

وقد أجمعتِ المللُ السماوية قاطبةً على بيان الصفات على هذا الوجه ،

---

(١) كان الإمام الدهلوي أسمى هذه الرسالة بـ«المرآة الوضيئة في النصيحة والوصية» وقد نشرت ضمن مجموعة رسائله الأخرى.

وعلى أن تُستعمل تلكَ العبارات على وجهها ولا يُبحث عنها أكثر من استعمالها ، وعلى هذا مضت القرونُ المشهود لها بالخير.

ثم خاضَ طائفة من المسلمين في البحث عنه ، وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع»[١].

لقد كان العالم الإسلامي ـ منذ قرون ـ لا سيَّما تلك البلدان التي كانت تحت تأثير إيران علمياً وعقلياً ودراسياً ، يسودُ فيها تلك التدقيقات الكلامية وشَقُّ الشعرة والتأويلاتُ البعيدة ـ التي تنجرُّ إلى أن تُصبح الذاتُ الإلهية مُعطَّلة وبدون معنى ووصف ـ والاندهاشُ والتهيُّب بالفلسفة اليونانية الذي بَلغ حد العبودية العقلية ، وحدَّ الاستخفاف والاستهانة فيما يتعلَّق بمسلك السلف و منهجهم ، فكان من أنصفَ منهم ـ في زعمه ـ وأخذ بالاحتياط ، قال: «مذهبُ السلف أسلم ، ومذهبُ الخَلف أحكم».

لقد كانتْ هذه الخدمة العِلمية والجراءة من الإمام الدهلوي نظراً إلى هذه الخلفية العلمية والتاريخية ، إحدى مآثرِه وأعماله التجديدية الاجتهادية.

وقد كان هذا التأييدُ والانتصار لمنهج السلف في باب الأسماء والصفات وعدم الانسجام مع الفلاسفة المتكلمين (الذين أَبعدوا النُّجعة في التأويلات ، ويخيل ـ بعض الأحيان ـ أنَّ أقوالهم تَصِلُ إلى حدود التعطيل في الصفات) وحُبُّه وإجلالُه للحديث والسنة المشرفة ، حافزاً للإمام الدهلوي على الدفاع عن الإمام ابن تيمية والاعترافِ بجلالة شأنه وعُلوِّ مكانه ، فقد كانت شخصيته في القرون الأخيرة تدور حولها مناقشات وخِلافات حادة ، بل كانت تُستهدف للشبهات والمطاعن ، لقد أثنى عليه الإمام الدهلوي ثناءً عاطراً ودافع عنه في حماس ، يقول في «التفهيمات الإلٰهية»:

---

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ٦٣. باب الإيمان بصفات الله.

«وليس شيءٌ منها إلا ومعه دليلُه من الكتاب والسنَّة ، وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيزُ الوجود في العالم ، من يُطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ ، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى»[١].

* * *

(١) جلاء العينين: ص: ٤٦ ، نقلاً عن «التفهيمات الإلٰهية» وللإمام الدهلوي رسالة مطبوعة مستقلة باسم «مناقب الإمام ابن تيمية» وهي رسالة وجهها إلى أحد أصحابه.

الفصل الثاني

القيامُ بنَشر الحديثِ الشريف والسُّنة المشرَّفة والدعوةُ إلى التوفيق بينَ الحديث والفِقه والجهود في سبيله

أَهميّةُ الحديث الشريف والحاجةُ إليه في كل عصر ومِصر:

لقد قام الإمام الدِّهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير ـ حقيقةً ـ (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمأثَرة عظيمة ، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفنّ الجليل ، ومؤلَّفاتُه في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق ، وتعتبر فَصلاً مُضيئاً مُهماً في صحيفة تجديده وكتاب حياته ، والتي غَلبتْ على فضائله ومجالاته العلمية وخدَماته الدينية الأخرى ، حتى غدا «المحدِّث الدِّهلوي» جزءاً من اسمه ، وعنواناً لتعريفه ووَصْفه ، وجرى على ألسنة الناس وأقلامِهم «الإمام وليُّ الله المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك عَلمه المعرّف الكامل.

ولكنْ قبل أَن نتعرَّض لتاريخ هذ المأثرة الجليلة وبيانِها ـ بتفصيل ـ يلزمُنا لإدراك جلالة هذا العمل وخطورتِه أن نعلمَ مكانة الحديث الشريف في نظام الدين وإطار الشريعة الإسلامية ، والجهودَ المبذولة للحفاظ على الإسلام في

صورته الصحيحة ، وتكوينَ المناخ والبيئة الإسلامية والحفاظ عليها ، ولماذا يجب القيام بنَشره وصِيانته في كل عصر وكل بلد (يعيش فيه المسلمون) ، وما يحمل الغفلةُ عنه والجهلُ به أو إنكارُه من أخطار ، وما يحتوي عليه من مَضار ، وما هو الفراغ الهائل الذي يُحدثه انقراضُ هذا العلم أو تجاهله والتغافل عنه في أي بلد أو في أي عصر ، والذي يُملأ بشيءٍ آخر؟

سوف يقدم المؤلف ـ لتوضيح هذه النقاط ـ مقتبساتٍ من رسالةٍ له نفسه ، حاول فيها عرض هذه الحقيقةِ وإثباتها بوضوحٍ وبشيء من التفصيل[1] :

«إنَّ الحديثَ ميزانٌ عادل يَستطيع المُصلحون في كل عصر أن يَزِنُوا فيه أعمالَ هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي هو يملأ هذا الفراغَ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوةُ لابُدَّ منها في السُّنن الإلٰهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] .

«فلولا الحديث الذي يُمثل هذه الحياة المعتدلَة الكاملة المتَّزنة ، ولولا التوجيهاتُ النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول

---

(١) نشرت هذه الرسالة باسم «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» وهو في الحقيقة مقال كان المؤلف قد أعده لافتتاح دورة المحاضرات لرابطة العالم الإسلامي في موسمها الثقافي بمكة المكرمة عام ١٤٠١هـ وقد قرىء هذا البحث في ١٦ من ذي القعدة عام ١٤٠١هـ (الموافق ١٣ سبتمبر عام ١٩٨١م) بمكة المكرمة أمام لفيف من العلماء والمثقفين ، ونُشرت هي وترجمتها بالأردية والإنكليزية من «المجمع الإسلامي العلمي» ـ لكهنؤ ـ الهند ، [انظر هذه الرسالة في ضمن مقالات ومحاضرات العلامة الندوي في الحديث ، جمعها الشيخ بلال عبد الحي الحسني الندوي في كتابٍ بعنوان «نظرات في الحديث ، وفي الصحاح الستة ونبذة من تاريخ تدوين الحديث» طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٠ هـ و١٩٩٩ م].

المجتمعَ الإسلامي ، لوقعتْ هذه الأمة في إفراط وتفريط ، واختلَّ الاتزان ، وفُقد المثال العملي الذي حث اللهُ على الاقتداء به قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وهو الذي يحتاج إليه الإنسان ، ويستمدّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع.

«ثُم إنَّ الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذي لم يزل يَبعثُ على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربةِ الفساد والبِدَع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يَظهر بتأثيره في كل عصر وبلد ، مَن رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحاربَ البدع والخرافات ، والعاداتِ الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كُلّه كان الحديث مِن حاجاتِ هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بد من تقييدِه ، وتسجيلهِ وحفظه ونشره.

وقد ظلَّت كُتب السنَّة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلْمَ الديني الصحيح ، والفِكْر الإسلامِي النقي ، واحتجُّوا بأحاديثه ، واستندُوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كلٌّ من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويُريد أن يُوجد صِلةً بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكلٌّ من تُلجئه الحاجة وتطوراتُ العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.

شَهادةُ التاريخ لتأثيرِ الحديث وكُتب السُنةِ في الإصلاحِ والتجديدِ:

ويَشهد بهذه الحقيقة تاريخُ الإسلام والمسلمينَ نفسه ، فكلَّما ضَعُفَتْ صِلتُهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتُهم بها ، على كثرةِ وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلينِ بتزكية النفوس و تهذيبِ الأخلاق ، والزهد في الدنيا والعملِ بالسنة ، وطالتْ هذه الفترة ، غزتِ المجتمعَ الإسلامي ـ الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الحكمية والأدبية ، وفي عهد غلبَة الإسلام وحكم

المسلمين ـ بِدَعٌ طريفةٌ ، وتقاليدُ عَجمية ، وأعرافٌ دخيلة ، حتى يكاد يكونُ نسخة من مجتمع جاهلي ، وصدَقتِ النبوَّة المحمدية والحديث الصحيح: «لتَركَبُنَّ سنَنَ مَنْ كان قبلكم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بذراعٍ»[1] ، وَخفَتَ صوت الإصلاح ، وخبا مصباحُ العلم.

ومَن شاء فليستعرضِ الوضع الديني وواقعَ حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند ، القَرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة الهندي تنقطعُ عن علم الحديث الشريف ومصادرِ السنة الصحيحة ، وكانتْ تعيشُ في عُزلة عن مراكز العلم الديني ، وتدريسِ الحديث الشريف (كالحجاز واليمن ، ومصر والشام) وأصبحتْ مُقتصرةً على كتب المذهب وشروحِها وتدقيقاتها وكُتب الأصول والحكمة ، كيف فَشَتْ فيها البِدع وعمَّت المنكرات ، واستُحدثتْ أشكالٌ متنوعة للعبادات والقربات»[2] .

وقد قال مُؤلِّف هذه السطور في الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو يتحدَّث عن كتاب «جواهر خمسة» لأحد المشائخ المعروفين في القرن العاشر الهجري ، الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، ما يلي:

«لقد كانتِ الهند لا تعرف شِيئاً عن الصِّحاح الستة ومُؤلِّفيها ، وأئمةِ هذا الفن ، الذين نَقدوا علمَ الحديث ونَخلوه ، وميَّزوا بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البِدع والمحدثات ، وأثبتوا أنَّ حياة المسلمين يجبُ أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ، ونَستثني من ذلك ولاية كجرات التي انتشر فيها علمُ الحديث لِنُزول العلماء العرب بها ، وكَثْرةِ الرحالة فيها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغَ فيها العلامة علي المتقي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٠٢)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٧/ ٤٧٩) برقم (٣٧٣٧٥)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤) برقم (٣٢٩١)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦١): رواه أحمد والطبراني، وفي إسناد أحمد: ابن لهيعة، وفيه ضعف ، وفي إسناد الطبراني يحيى بن عثمان.

(٢) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته: للمؤلف، ص: ٢٦ ـ ٣٠.

البرهان بوري ، وتلميذُه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلَّفته الفلسفات ، والتجاربُ المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكواليارى الذي ذاع صيتُه في عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتابُ يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية.

ويخيَّل إلينا أنهم لم يَروا حاجةً إلى ثُبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسِها من كتب السيرة النبوية المعتَبرة ، فتَجدُ في هذا الكتاب المذكور ـ آنفاً ـ «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» والصلواتَ المخصوصة بالأشهر المختلفة ، والأدعيةَ الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة ، ولا أثر لها في الحديث»[١].

ولم تكن هذه خِصِّيصة «جواهر خمسة» فَحسب ، بل تَتوفَّر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة ، فقد كانت سَجدةُ التحية للمشائخ شائعةً ، واتخذتِ القبورُ مساجد علناً وجهاراً ، فكانت تُوقد عليها السُّرج ، وتُفرش عليها الأردية ، وتُعظَّم أطرافها وحواليها كتعظيم الحَرم ، ويُحتفل بها باسم «العرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة» وتكثر فيها النساء ، وكانت «الصلاة الغوثية» و«الصلاة المعكوسة» والنَّذرُ لغير الله تعالى باسم الأولياء الصلحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم ، والصوم باسم غير الله ، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس يُقبل عليها الخاصة منهم والعامة ، وكانت تُعقد احتفالاتُ إحياء أيامِ الولادة والوفاة للأولياء والصالحين ، ويُحتفل بمهرجاناتٍ وأعياد.

ولو لم تكنْ كُتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين ، ولم تتيسَّر

(١) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ج: ٣.

لهم هذه الوسيلةُ المعتبرَة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسُّنن ، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيميّة (ت ٧٢٨ هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (ت ١١٧٦ هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص ، ولم يَظهر المصلحون والمجدِّدون حَمَلةُ رايةِ التجديد والإصلاح وتصحيحِ العقائد ، وإزالةِ التقاليد الجاهلية.

اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابُل وهَرَات وغَزْنَين) في القرنين العاشر والحادي عشر ، وألقِ نظرةً على كُتبهم ومؤلفاتهم ، قلّما تجدُ عليها مَسحة الدفاع عن السنة والرد على البِدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل ، وإذا بشَخصيَّة العلامة علي بن سلطان بن محمد الهَرَوِي (ت ١٠١٤ هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري ، تظهر على الساحة ، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلّة كتبَ الحديث ونَبغ فيها ، وتتجلّى هذه المَسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث، وترجيحهِ للمسائل، وردِّه ـ بِصراحة ووضوح ـ على بِدَع عصره ومُحدثاته، وقد أدتْ به دراستُه وبحثه وقولُه بالحق و إنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة[١].

وقد كانتْ هذه الحال في عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتُونس والجزائر ومراكش[٢].

علمُ الحَديثِ والعَرب:

إنَّ من حقائقِ فلسفةِ التاريخ الإسلامي أنَّ البلاد التي كان العرب حَمَلةَ الإسلام إليها ، وإليهم يَرجعُ الفضل في انتشاره فيها ، انتشرَ فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهرَ ، إذ أنه كانتْ هنالك صِلةٌ قوية ، ومناسَبة خاصة بين هذا العلم وطَبيعة العرب وقُوّةِ حفظهم وحياتهم العملية وواقعيتهم

---

(١) انظر «المرقاة شرح المشكاة» ، ج: ٤ ، ص: ٢٧.

(٢) انظر رسالة المؤلف (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته).

وصلتهم العميقة بذات النبي ﷺ ، فحيثما حَلُّوا وساروا حَملوا معهم علم الحديث ، وظهرتِ العناية به في عَهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم في قوة ووضوح ، وكانت حَركةُ تَدريسه والتَّصنيف والتأليف في مختلف جوانبه قائمةً على قدمٍ وساق.

لقد كان هذا حال اليَمنِ وحضرموت ومِصر والشامِ والعراق ، وشمالِ إفريقية والأندلس ، وولاية كجرات في الهند نفسِها ، وهو مثال ودليلٌ على ما ذكرناه في صلة العرب بالحديث ، فقد أنتجت كجرات أمثالَ الشيخ علي المتقي البُرْهَانْبُوْرِي مؤلّف «كنز العمال» (ت ٩٧٥ هـ) والعلامة محمد طاهر الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» (ت ٩٨٦ هـ) من المحدثين الأجلَّة الكبار ، وذلك كما سبق لأنَّ صلة كُجرات بالحجاز كانت أقوى وأكثر بالنسبة إلى سائر الولايات الهندية ، وكان العلماء العرب ـ دائماً ـ يَؤُمُّونها ويتردَّدون إليها.

أمَّا البلادُ التي انتشرَ فيها الإسلام بأيدي العجم ، فليسَ شأنُها في هذا الأمر كذلك ، فقد حكمت في الهند أسرٌ تركية الأصل أو أفغانيةُ الأصل ، وقام فيها بنَشر الإسلام وتبليغهِ والدعوةِ إليه أولئك المشائخ والعلماء الدُّعاة الذين كان معظمُهم من أصول عجمية أو من أبناء البلاد العجمية ، لا سيما إيران وتركستان ، ثم لما جاء عهد التَّدريس وإنشاء المدارس وتَرتيب المناهج الدراسية في الهند ، كانت هي قد تأثرت ـ كلياً ـ بالفضلاء العجم و«حكماء إيران» وطُبعتْ بطابعهم ، وقد قدَّمنا في الباب الأول أن إيران التي أنجبتْ أساطين الحديث لما قامت فيها الحكومة الصفوية ، أعلنتِ المذهب الشِّيعي مذهَبها الرسمي فيها (وقد وقَع ذلك في بداية القرن العاشر الهجري) انقطعتْ صلتُها بالحديث الشريف لذلك لم يكن في الهند ـ بعد النفوذ الإيراني الثقافي ـ مجالٌ للشعور بأهمية الحديث وجَلالة خطره وعظمته ، والمسابقة في القيام بنشره ، بل بالعكس من ذلك ، كلما كان تأثيرُ إيران يتضاعف على الأوساط العلمية في الهند ، تزداد معها قِلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف ، وقد بَلغ ذلك في عهد الإمام الدهلوي أَوجَه وقِمّته.

ازدهارُ عِلْم الحديثِ وانحِطاطُه في الهند:

نُقدِّم هنا ـ لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاطِ الذي مرَّ به علمُ الحديث في الهند باختصار ـ مقتطفاتٍ من كتاب العلامة عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ «الثقافةُ الإسلامية في الهند» ، وقد جاءت فيها عُصارة الدراسةِ لمئات الصفحاتِ وخلاصة هذا الموضوع، يقول المؤلِّف:

«ولمَّا انقرضت دولة العرب مِن بلاد السِّند ، وتغلبت عليها الملوك الغَزنوية والغَورية ، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر ، صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعَنقاء المغرب ، وغلبَ على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية ، وفي العلوم الدينية الفِقهُ والأصول.

ومضَتْ على ذلك قرون متطاولة ، حتى صارت صناعةُ أهل الهند حكمةَ اليونان ، والإضرابَ عن علوم السنة والقرآن ، إلاّ ما يُذكر في الفقه على القلة.

وكان قُصارى نَظرهم في الحديث في «مشارق الأنوار» للصغاني ، فإن ترفّع أحد إلى «مصابيح السنة» للبغوي أو إلى «مشكاة المصابيح» ظنَّ أنه وصل إلى درجة المحدِّثين ، وما ذلك إلاّ لجهلِهم بالحديث ، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم ، ولا يقرؤونه ولا يحثُّون عليه ، ولا يَجذبون إليه ، ولا يعرفون كُتبه ، ولا يعلمون أهله ، والقليلُ منهم كانوا يقرؤون «المشكاة» لا غير ، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به ، والفهمِ له ، وعُمدة بضاعته من الفقه على طريقةِ التقليد دون التحقيق إلا ما شاء الله تعالى في أفرادٍ منهم ، ولذلك كَثُرتْ فيهمُ الفتاوى والروايات وتُركت النُّصوصُ المُحكَمات ، ورُفض عرضُ الفِقه على الحديث ، وتَطبيق المجتَهدات بالسُّنن المأثورة عن النبي المعصوم المأمون ﷺ.

حتى مَنَّ الله تعالى على الهند بإفاضة هذا العلم ، فورَدَ به بعضُ العلماء في القرن العاشر ، كالشيخ عبد المعطي بن الحسن بن عبد الله باكثير المكي

المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩هـ والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الحنبلي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي ، والشيخ ضياء الدين المدني المدفون بكاكوري ، والشيخ بهلول البدخشي ، والخواجه مير كلان الهروي المتوفى بأكبر أباد سنة ٩٨١هـ ، وخلق آخرون.

ثم وَفَّق اللهُ سبحانه وتعالى بعضَ العلماء من أهل الهند أَن رحلوا إلى الحَرَمين الشريفين ، وأخذوا الحديث وجاؤوا به في الهند ، وانتفعَ بهم خَلقٌ كثير ، كالشيخ عبد الله بن سعد الله السِّندي ، والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن إبراهيم السِّندي المهاجرين إلى الحجاز ، فإنهما قَدِما الهند ، ودرسا بكُجرات مدة طويلة ، ثم رجعا إلى الحجاز ، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفى سنة ١٠٠٣هـ والشيخ جوهر الكشميري المتوفى سنة ١٠٢٦هـ ، والشيخ عبد النبي بنُ أحمد الكَنْكُوْهِي ، والشيخ عبد الله بن شمس الدين السُّلْطَانْبُوري ، والشيخ قطب الدين العباسي الكُجْراتي ، والشيخ أحمد بن إسماعيل المَنْدَوِي، والشيخ راجح بن داود الكجراتي، والشيخ عليم الدين المندوي، والشيخ المعمر إبراهيم بن داود المنكوري المدفون بأكبر آباد ، والشيخ محمد بن طاهر بن علي الفتني صاحب «مجمع البحار» ، والسيد عبد الأول بن علي بن العلاء الحسيني وغيرهم»[١].

ويزيد مؤلِّف «الثقافة الإسلامية في الهند» قائلاً :

مَأثرةُ الشّيخ عبد الحق الدّهلوي:

«ثُمَّ جاء اللهُ سبحانَه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري

---

(١) الثقافة الإسلامية في الهند: ص: ١٣٥ ـ ١٣٧ (الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية ـ دمشق).

الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ ، وهو أَوَّلُ من أفاضه على سُكان الهند ، وتصدّى للدَّرس والإفادة بدار المَلك دهلي ، وقصر هِمَّته على ذلك ، وصنَّف وخرّج ، ونشر هذا العلم على ساق الجِد ، فنفعَ الله به وبعلومهِ كثيراً من عباده المؤمنين ، حتى قيل: إنه أول مَن جاء بالحديث بالهند ، وذلك غَلطٌ كما علمت.

ثم تصدَّى له ولدُه الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعضُ تلامذتِه وأولاده كشيخ الإسلام شارح «البخاري» وولدِه سلام الله صاحب «المحلى» و«الكمالين»[١].

وقد أصاب البروفيسور خَليق أحمد نظامي في قوله:

«وعلى كُلّ فإنَّ العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي درُوسَه في الحديث الشريف ، كان قد طُوي ـ إذ ذاك ـ بِساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند ، وإنه قد أشعَل في هذا الوسط المُظلم الضيِّق شمعةً جَذبتْ إليه الناسَ من أنحاء نائية بعيدة ، فالتفُّوا حولها وتهافتوا عليها تَهافُتَ الفَراش على النور وبدأ نشاطٌ جديد لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند ، وانتقلَ بذلك مركزُ العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كُجْرات إلى دِلْهي»[٢].

الحَاجَـةُ إلـى مُجـدِّد:

لقد صرفت العنايةُ إلى الحديث الشريف إخلاصَ الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي وصدقه وجهوده المباركة ، وقد أثارَ رغبةً قَوية وحركةً جديدةً إلى مُطالعته ودِراسته وتدريسِه ، وشَرْحِه وتحشِيَته ، وكان من المتوقَّع أنَّ أخلافَه وأفراد أُسرته الذين كانوا بدَورهم مُحَدِّثين ومدَرسين ومؤلِّفين ـ يَستمرون بهذه الجهود حتى يأخُذَ هذا الفن الشريفُ مَكانه اللائق في الأنظمة

(١) الثقافة الإسلامية في الهند: ص: ١٣٧.
(٢) حياة الشيخ عبد الحق المحدِّث الدهلوي: ص: ٤٣.

التعليمية ، والمناهجِ والمقرراتِ الدراسية ، والنشاطاتِ العلمية والتأليفية .

وقد كان ابنُه الفاضل العلامة المفتي نور الحق الدهلوي (ت١٠٧٣هـ) الذي شرح «صحيح البخاري» في ستة مجلدات ، وله شرحٌ أيضاً على «شمائل الترمذي» ، يَستطيع أن يقوم بتكميل تلك الجهود والأعمال التي بدأ بها والدُه ، ولكن لعلَّه لم يتمكن كثيراً بسبب تولِّيه منصبَ القضاء في مدينة مركزية كأكبر آباد (آكْرَهْ حالياً) مِنَ القيام بتدريس الحديث الشريف ونَشرِه ، وكان ابنُه الشيخ شيخ الإسلام الدهلوي أيضاً من كبار المحدِّثين وله شرح مَبسوط «لصحيح البخاري» بالفارسية .

والحقيقةُ أنَّه لأسباب معلومة وأَسباب أخرى غيرِ معلومة ، لم تستطعْ جُهود هؤلاء المشائخ الفردية أن تُحدِث ما كان متوقعاً من الإقبالِ العام على الحديث الشريف والاهتمامِ اللائق به ، والنَّشاط والحيوية في نَشره وتدريسِه وتعميمه ، ولعلَّ مِن بعض العَوامل لذلك أنَّ هؤلاء كانتْ تَغلب عليهم نَزعةُ تأييد المذهب الحنفي بالحديث الشريف ، والسببُ الثاني أنَّ مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثاني عشر نفسِه بدأ ينتقل من دلهي إلى لكهنؤ ، وبدأ منهجٌ دراسي جديد (على أيدي أستاذ العلماء الشيخ نظام الدين السِّهالَوِي (ت١١٦١هـ) المباركة القوية) في التكوين ، ولم تكن قد قامتْ صلة هؤلاء الواضعين والمكوِّنين لهذا المنهج الدراسي الجديد العلميةُ والثقافية بالحرَمين الشريفين ، والأماكنِ التي كانت مركزاً لدراسة الحديث الشريف وتدريسهِ وخِدمته ونَشره ، وكانت تَغلب عليهم (كما يتضح ذلك من تاريخ «المنهج النظامي» وكتب التراجم والطبقات) العلومُ الحكمية ، ومن العلوم الدينية عِلْمُ أصول الفقه .

وعلى كُلٍّ فإنَّ الأوساطَ العلمية والدينية في الهند كانتْ في حاجةٍ وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتُها بالحديث صلةَ الحب والغرام ، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمَه أول أهدافها ومقاصدِها في الحياة ، لقد وَجدت الهندُ هذه الشخصيةَ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في شخص الإمام ولي الله الدهلوي الذي طبَّق بمعنى اللفظِ هذا الشعرَ الفارسي الذي معناه :

«لَقد نَسينا كلَّ ما قرأنا وتركناه إلا حديثَ الحبيب الذي لا نملُّ من تَرداده وتكرارِه».

لقد ذكر مُؤلِّف «الثقافةِ الإسلامية في الهند» بعد ذكره لأولئك الذين أَسهموا في أوائل القرن الحادي عشر في خدمة الحديث ونشره في الهند، خدمة الإمام الدهلوي للحديث، التي تمتاز ليس في هذه البلاد فحسب بل في هذا العهد الأخير بمكانتِها التجديدية والاجتهادية وصبغتها في الإصلاح والإحياء، والتي أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره في هذه البلاد، فأصبحَ جزءاً ضرورياً من المقرَّرات الدراسية، ومقياساً للفضيلة والكمال، وقامتْ حلقاتٌ مستقلة لدروس الحديث الشريف، وعمَّ تدريس الصِّحاح الستة لا سيما الكتب الأربعة منها: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود» و«سنن الترمذي»، بالبحثِ والتحقيق في المدارس (الأمر الذي لا يوجد الآن في البلدان العربية نفسها).

وبدأ عهدٌ جديدٌ لشروح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تَلبث أن تكونت منها مكتبةٌ ضخمة كبيرة لا يُوجد مثيلُها في البلاد العربية نفسها[1]، وتُرجمتْ كتب الحديث، التي استفاد منها عامَة المسلمين والذين لا يعرفون العربية وكذلك السيِّداتُ المسلمات استفادةً عظيمة، وكان ذلك دافعاً إلى الجد والعمل، شائقاً لاتباع السنة والاهتمام بها ومرغِّباً في الأسانيد وإجازات الحديث، وأصبحتِ الهند مركزاً لهذا العلم الشريف حتى صدرت من قلم عالم

(١) إنَّ الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التي ظهرت في الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوي وحركته وتعليمه وتربيته، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة في الحديث وعلومه، يلزم لتقدير سعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحي الحسني «الثقافة الإسلامية في الهند» الفصل الرابع من الباب الثاني بعنوان «مصنفات أهل الهند في الحديث»، ص: ١٤٢ ـ ١٦٠، [انظر كذلك الباب الثاني «آثار علماء الهند في الحديث وعلومه» في كتاب «أعلام المحدِّثين في الهند في القرن الرابع عشر الهجري» للمعتني بهذا الكتاب، طبع دار ابن كثير بدمشق].

مصري جليل كالعلامة السّيد رشيد رضا مُنشىء مجلة «المنار» الغرّاء ، هذه الكلمات التالية :

«ولولا عِنايةُ إخواننا علماءِ الهندِ بعلُوم الحديث في هذا العصر ، لقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضَعُفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة ، حتى بَلغت مُنتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر [(١)]» .

مَشاعرُ الإمام الدهلوي وآراؤه في الحديث:

ما هي تلكَ العاطفة القوية التي دفعت الإمام الدهلوي إلى الاشتغال بالحديث ثم بالنشاط في نشره والدعوةِ إليه ، ونذر حياته وصلاحياته له ، ينبغي لِمعرفتِها وإدراكها الرجوعُ إلى كتابات الإمام الدهلوي نفسه إذ إنها المرآة الصحيحة الوضيئة لآرائه وخواطره ، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته لـ «حجة الله البالغة» :

«إنَّ عُمدة العلوم اليقينية ورأسها ، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يُذكر فيه ما صَدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابهِ أجمعين ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى ، وبمنزل البدرِ المنير ، مَن انْقادَ لها ووَعى ؛ فقد رَشد وانهدى وأُوتي الخير الكثير ، ومن أعرضَ وتولّى ، فقد غَوى وهوى ، وما زاد نفسَه إلا التَّخسير ، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشَّر ، وضرب الأمثال وذكّر ، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»[(٢)] .

ويقول في موضعٍ من بعض كتاباته :

«إنَّ أوَّل شيءٍ يوجبه العقل على نفسه ، هو تتبُّع أحوالِ النبي ﷺ وأقواله ، ماذا قال فيما يَتعلَّق بِالأحكام الإلٰهية وكيف عمل بها ، ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقَالب ، فإن حَديثنا عن شخص قد سلَّم بأن الله تعالى قد

(١) مقدمة «مفتاح كنوز السنة» .
(٢) مقدمة حجة الله البالغة: ص: ٢ .

كلَّف عباده بأحكامه ، وقد عَزم هو على أداء مسؤوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»[١].

شكوى قِلة العناية بالحَديثِ الشريف في الهند:

لقد كان الدافعُ الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونَشره وترويجه في الهند ، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدَّم الحديث عنه في الباب الثاني من الكتاب ، لقد كان يَغشى الأوساطَ الدينية حينذاك ضَبابٌ كثيف من البِدع وتقاليد الجاهلية ، وطقوسِ غير المسلمين وتقليدِهم فيها والشعائرِ غير الإسلامية ، التي كان من العسير من خلالها رُؤية طلعة الإسلام البَهيَّة ، وكانت تَسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العُلوم المستوردةُ من اليونان التي كانوا يُسمّونها «فنون الحكمة» والعلومَ الآلية ، وفنونَ البلاغة وعلم الكلام ، ولم يكن للعلوم الشرعية لا سيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية ، وإذا صُرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يَكُنِ الأمر يتعدى حُدود الفِقه وأصول الفقه ودقائِقها وشقَّ الشعرة فيهما ، يقول الإمام الدهلوي ـ وهو يُشاهد هذا الوضع ـ في أسفٍ شديدٍ وحُزنٍ بالغٍ :

«أَقولُ لطَلبةِ العلم ، أيُّها السفهاء المسمّون أنفسَكم بالعلماء ، اشتغلتُم بعلومِ اليونانيين وبالصَّرف والنحو والمعاني ، وظننتُم أنَّ هذا هو العلم ، إنما العلمَ آيةٌ مُحكَمةٌ من كتاب الله ، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل مُعضِلها ، أو سنةٌ قائمةٌ من رسول الله ﷺ أن تَحفظوا كيف صلَّى النبي ﷺ وكيف توضَّأ ، وكيف كان يَذهب لحاجته وكيف يصوم ، وكيف يَحُجُّ وكيف يجاهد ، وكيف كان كلامُه وحِفظه للسانه ، وكيف كانت أخلاقُه؟

فاتَّبعوا هَديه واعملوا بسنته على أنه هُدى وسنة ، لا على أنه فَرضٌ ومكتوبٌ عليكم ، أو فريضةٌ عادلة ، أن تتعلَّموا ما هي أركان الوضوء، وما هي أركان الصلاة ، وما نصاب الزكاة ، وما قَدر الواجب ، وما سِهام فرائض الميت ،

---

(١) كلمات طيبات: ص: ١٧٣.

أما السِّير وما يُرغِّب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فَضلٌ؟

إنَّ ما اشتغلتم به و ما يُهتم به ، فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا ، خُضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء مِن قبلكم وتفريعاتهم ، أما تَعرفون أنَّ الحُكم ما حَكَمهُ اللهُ ورسولُه ، ورُبَّ إنسانٍ منكم يَبْلُغه حديثٌ من أحاديث نَبيِّكم فلا يَعملُ به ، ويقول إنما علمي على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم تخيَّلَ بأن فَهم الحديث والقضاءَ به من شأن الكُمَّل المهرة ، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجهٍ ظهر لهم في الدين من نَسخ أو مرجوحية.

اعْلموا أنَّه ليس هذا من الدين في شيء ، إن آمنتُم بنبيكم فاتّبعوه ، خالفَ مذهَبنا أو وافَقه ، كان مُرضي الحق أن تشتغلوا بكتابِ الله وسنة رسوله ابتداء ، فإن سَهُل عليكم العمل بهما ، فبهَا ونعمت ، وإن قَصرتْ أفهامكم ، فاستعينوا برأي من مضى من العلماء ، ما تروه أحقَّ وأصرح وأوفقَ بالسنة ، وألاَّ تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلةٌ لا بأنها أمور مستقلة ، أما أوجبَ اللهُ عليكم أن تُشِيعوا العلمَ حتى تظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين ، فلم تُظهروا الشعائر ، وأَمرتُم الناس أن يَشتغلوا بالزوائد ، واستكثرتُم في أعينهم طلبَ الحق والدين ، أما ترون البلاد العظام تخلو من العلماء، وإن كانوا، فهُم دون ظهور الشعائر»[1].

وإنَّ حال الإمام الدهلوي عند اللَّهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة ، وحُبٍّ وإجلال لأئمة الحديث ، يُمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مُسترشديه في مناقب الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ[2].

نَشاطُ الإمام الدهلوي في خِدمة الحديث الشريف ونشرِه:

تقدم ـ فيما سبق ـ أن الإمام الدهلوي لما ذهب يُودع أستاذه الشيخ أبا طاهر

(١) التفهيمات الإلٰهية: جـ: ١ ، ص: ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) كلمات طيبات: ص ١٦٨ ـ ١٧١.

المدني ، أنشَده شيخُه هذا البيت من الشعر :

نسيتُ كلَّ طريقٍ كنتُ أَعرِفه إلا طريقاً يُؤدّيني لِرَبْعِكُمُ

فقال الإمام الدهلوي كذلك : «نسيتُ كلَّ ما قرأتُ سوى عِلم الحديث الشريف» .

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كُلّها على أنه كان منصرفاً انصرافاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف ، شرحِه وتفهيمه ، وتدريسِه وتعليمه ، ونشرِه وتعميمه ، ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وقد شمَّر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونَشرِه ، ولم تلبثْ «مدرستُه الرحيمية» أن أصبحتْ أكبرَ مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضِها ، تهافتَ عليها طلاب علمِ الحديث من أنحاء الهند وأصقاعها تهافتَ الفراش على النور ، وقد كان في هذه الأصقاع مثل «السِّند»[1] و«كشمير»[2] من المناطق البعيدة ، أما دلهي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه .

وقد كان من المستفِيدينَ من هذه الدروس سوى مُسنِد الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (الذي كان ابنَه الأكبر الفاضل والقائمَ بتكميل أَعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرةُ الهند العلامةِ السيد مرتضى البَلْكَرامِي المعروف بالزَّبَيْدِي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس»

---

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي ، ودرس الحدث على الإمام الدهلوي واستفاد منه ، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب» معروف ، ينجلي فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه ، توفي عام ١١٦١هـ (انظر «نزهة الخواطر» ، جـ: ٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والجملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته ، وهو معروف بمحمد أمين الولي إلٰهي ، وقد كان الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله (انظر «نزهة الخواطر» ج٦).

و«إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوّى صيتُ تَبحُّره في العلم وتحديثه في العالم العربي ، وكان مجلسُه بالقاهرة يضاهي مجالس الملوك والسلاطين.

وكان من خريجي هذه المدرسة بيهقيُّ عصره القاضي الشيخ ثناء الله البَانِي بَتِي (ت ١٢٢٥هـ) خليفةُ الشيخ الجليل مِرْزا مظهر جان جانان ، ومؤلِّف «التفسير المظهري» و«ما لابد منه»[١].

وهكذا أصبح عِلمُ الحديثِ في الهند ـ بعد قرون ، ولعله لأول مرة ـ قد نَفقتْ سوقُه وقامت دولته ، وأقبلَ عليه الناس إقبالاً عظيماً حتى ظلَّتِ الهند تباهي اليمنَ الميمون ، وبدأت نفحاتُها الرَّخية المنعِشة تصلُ إلى أرض الحجاز نفسِها[٢] ، وقد أنشد النَّواب العلامة السَّيد صدِّيق حَسن خان [القَنُّوجِي] في ذكر الإمام الدّهلوي وخدمته للحديث الشريف ، ونشاطاتِه في القيام بنشره ، بيتين من الشعر البليغ ، يُصوِّرانه تصويراً حقيقياً:

مــن زارَ بَـــابَـــك لـــم تبـــرحْ جَـــوارحُـــه
تَـــروي أحـــاديـــثَ مـــا أوْليْـــتَ مـــن مِنَـــنِ
فـــالعيـــنُ عَـــنْ قُـــرَّةٍ، والكَـــفُّ عَـــن صِلـــةٍ والـ
ـقَلْـــبُ عـــن جـــابـــرٍ والسَّمْـــعُ عَـــنْ حَســـنِ

ومِن الطريف أنَّ المِنن التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادتْ بها ، والأسماءَ التي أشارتْ إليها في هَذا الصدد ، كلُّها أسماءُ رواة الحديث والشيوخ المحدثين ، مثل قُرة بن خالد السَّدوسي ، وصِلة بن أشيم العدوي ، وسيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، والحسن البصري رحمهم الله أجمعين.

---

(١) نزهة الخواطر: جـ: ٧.

(٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبد الغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين ، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم. (انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» جـ: ٧).

خَدماتُ الإمام الدهلوي التأليفيةُ في علوم الحديث:

إنَّ المؤلَّفات التي خلّفها الإمام الدهلوي في الحديث وعلوم الحديث، نُورِد أسماءها فيما يلي:

١ ـ «المصفَّى» (شرح موطأ الإمام مالك بالفارسية).

٢ ـ «المسوَّى» (شرح الموطأ المختصر بالعربية).

إنَّ المنهج الذي كان الإمام الدهلوي يُريد ترويجه في فقه الحديث ودروسه يُمثِّله هذان الكتابان خيرَ تمثيل، وتتجلَّى فيهما مكانةُ الإمام الدهلوي الاجتهادية وطولُ باعه في فقه الحديث وعلومه، أنه كان يضع «الموطأ» على الدرجة الأولى من الكتب الستة، وكان مُعجباً بـ«الموطأ» غاية الإعجاب، وكان يدعو ـ بحماس وقوة ـ إلى العناية اللائقة به وتقديمه في البدء بتدريس الحديث[1].

يَقول الإمام الدهلوي في «وصاياه»:

«عندما يَحصُل التمكُّن من العربية، فليَدرُس الموطأ برواية يحيى بن يحيى المصمودي، ولا يعرضنَّ عنه أبداً، فإنه أصلُ علم الحديث وتدريسُه يحمل فوائد جمة، وقد حصلَ لنا سماع الموطأ كلِّه بالرواية المتصلة»[2].

٣ ـ «شَرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري»: هذه رسالة في شرح تراجم أبواب البخاري التي اعتُبرت ـ دائماً ـ أدقَّ شيءٍ وألطفه في دروس البخاري، وقدَّم شُرَّاح صحيح البخاري ومدرّسوه ـ في كل عصر ـ أمثلةً لذكائهم ودقتهم وتعمقهم فيه، وهذه الرسالةُ بالعربية، كانتْ طُبعت أولاً عام ١٣٢٣هـ بـ «دائرة المعارف العثمانية» حيدر آباد ثم ضمت ـ كمقدمة ـ إلى نسخة «صحيح

---

(١) انظر مقدمة «المصفى»، ومقدمة «أوجز المسالك»، «الفائدة الثانية في درجة الموطأ من بين كتب الحديث»، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ص: ٣٢ـ٣٣، طبع مطبعة السعادة بمصر (١٣٩٣هـ).

(٢) الوصايا: (بالفارسية) ص: ١١.

البخاري» التي طُبعت بأصح المطابع بدلهي[1].

مجموعة الرسائل الأربعة: تَشتمل على:

٤ ـ «الإرشاد إلى مهمات الإسناد».

٥ ـ «تراجم البخاري» وهي غير «شرح تراجم الأبواب للبخاري» وجاءت في ورقةٍ واحدة.

٦ ـ «الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين».

٧ ـ و«النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر».

٨ ـ و«الأربعين»، وقد ألَّف الإمام الدهلوي هذه الأربعين لما وَرد في فضل حِفظها وتبليغِها إلى الناس من أحاديث، وعمل بها العلماءُ في مختلف العصور، والأحاديثُ التي اختارها الإمام يَنطبق عليها أنها «قليلةُ المبنى كثيرةُ المعنى»، وهي جديرة بأن تُحفظ عن ظهر قلب، وتُقَرَّر دراستها في المدارس.

٩ ـ المُسَلْسَلات.

* * *

وأمّا الكُتب التي ليست في فنِّ الحديث رأساً وأساساً، ولكنْ لها علاقةٌ بعلم الحديث، وينبغي أن تُدرس كمقدمة لفن الحديث، ويقدِّر منها ما كان يمتاز به الإمام الدهلوي منَ نظرة عميقة فاحصة في علم الحديث، وتوفيق بين الحديث والفِقه وإنصاف درجاته، صدر في المقارنة بين المذاهب، وسعةِ نظر في طبقات المحدثين وطبقاتِ كتب الحديث، واتزانٍ وتوسُّط واعتدال في عامة الأحوال، الصفاتِ التي وهبها الله إياه، فهذه الكتب حسب ما يلي:

١ ـ «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف»: جاءت محتويات هذا الكتاب

---

(١) وهي موجودة في رسالة «تراجم أبواب البخاري» أيضاً للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوي (ت١٤٠٢هـ).

في عدة مباحث بعنوان التتمة الثانية في «حجة الله البالغة» وتمتد من صفحة ١٤٠ إلى صفحة ١٦٢[١] ، وتشتمل التتمة على أربعةِ أبواب ، وقد حقَّق ناشر الكتاب أن هذه التتمة لم تُوجد إلاّ في نسخة واحدة من نسخ «حجة الله البالغة» ، ويقول الإمام الدهلوي في آخر هذه الأبواب:

«. . . فَعزمتُ على تأليف كتاب أُسمِّيه «غايةَ الإنصافِ في بيان أسباب الاختلاف» ، وأبيِّن فيه هذه المطالب بياناً شافياً وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعاتِ مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتَّفريط في كلِّ مقام والإحاطة بجوانب الكلام وأصولِ المقصود والمَرام ثم لم أتفرَّغ له إلى هذا الحين ، فلما انجرَّ الكلام إلى مأخذ اختلاف حملني ما أجد على أن أُبين بعضَ ما تيسر من ذلك» [٢].

وَيبدو أنَّ الإمام الدهلوي وَجد الفرصة بعد ذلك ، فأَفرد هذا الموضوع في رِسالة مُستقلة باسم «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» ، ولذلك يُوجد بين هذه الرسالة و«حجة الله البالغة» اختلافٌ يسير ، وحذْفٌ وتغيير في بعض المواضع.

وقد طُبعتْ هذه الرسَالة في الهند وخارجها عدةَ مرات ، وتوجدُ بين هذه النسخ بعضُ الخلافات في بعض الألفاظ ، فكانتْ طبعتُها الأولى في الخارج صادرة من «شركة المطبوعات العلمية» عام ١٣٢٧هـ ، ثم نشرته «مكتبة المنصورة» ثانياً ، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع «دار النفائس» ببيروت ، وقد جاءت في مئة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير ، وقد قام المحدِّث الجليل في عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة بمقابلتِه وتصحيحه والتعليقاتِ عليه.

٢ ـ «عَقْد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد».

---

(١) انظر نسخة المكتبة السلفية ـ لاهور.

(٢) حجة الله البالغة: ص: ١٦١.

٣ ـ «المبحث السابع[١] من حجة الله البالغة».

والحقيقةُ أنه من القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلاً في الجزء الأول من «حُجة الله البالغة»، إلى نهاية الجزء الثاني منه ليس إلا شرحاً كلامياً حكيماً للحديث الشريف ومحاولةً اجتهاديةً موفقةً للكشفِ عن أسراره وحِكمه، وتطبيقهِ العملي الذي لم يكن إلا نصيبَ الإمام الدهلوي، وقد حاز فيها قَصَب السَّبق ونال القَدح المعلَّى، ومن المؤسف أنَّ الدارسين لـ«حجة الله البالغة»، والمدرِّسين له (على أنهم أقلُّ من قليل) يُغفلون هذه المباحث ولا يتفطَّنون لأهميتها وشأنها.

التّوفيقُ بين الفِقه والحَديث:

لقد كان الفقهُ والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين، وكان كلُّ واحد منهما في محله (من حين ظُهوره واشتداد ساعدِه) يقطع طريقه في غنىً وانصراف عن الآخر، وكانا بعدَ هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط، ولم يكن يُبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانتْ مسألةٌ فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث أو كانتْ لها حاجةٌ إلى دفعِ اعتراض من اعتراضاتِ علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأنَّ هذه المسألة مخالفةٌ للحديث أو إذا كان القصدُ ترجيح مذهب على مذهب.

وكانوا في دروس الصِّحاح الست إما أن يَتأولوا تلك الأحاديث التي تُخالف مذهبهم، أو يُقدِّموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المُهتمة بالأحاديث، فإنَّ العلماء الذين قاموا ـ ممَّن لهم اطلاعٌ واسع على علوم الحديث، ويملكون ذَوق المحدثين ـ بمحاولةِ تخريج هذه الأحاديث والكلامِ

(١) حجة الله البالغة: ص: ١٢٨ ـ ١٥٤.

عليها كالمحدِّثين النقاد[١] ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانتْ إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصارِ له، وإثباتِ أنَّه موافق للأحاديث وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكنْ مُحاولةً لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكوَّنتْ للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديدٍ ، كان من المُمكن كسرُها[٢] ، ومن المستحيل مدها وبَسطُها ، وكان أتباعُ كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أَن صحَّة مذهبهم مئة في المئة ، وهي الحقيقة الأصيلة ، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمَل ، وقد عبَّر بعضُهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مَذهبُنا صوابٌ يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأٌ يحتمل الصواب».

وقد كان من نتيجة هذه الوجهة للنظرِ أن المذاهب الأربعة (الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي) التي أجمعتْ على قَبولها الأمة ، وسُلم ـ أصولياً ـ بين أهل الحق وأهلِ العلم من أولِ عُهودها فيما يتعلَّق بها بأن الحق دائرٌ فيها وأن أئمتها ومؤسِّسيها إنما هم أئمة الهدى وقادةُ الأمة وأنَّ هذه المذاهب حق ، يتَّسع بينها الخليج ويعمُق ، ويَنجرُّ الخلاف بين أتباعها إلى التباغض ، والبحثُ والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة ، وكان أدهى من ذلك وأمرُّ مُعاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدؤون العمل بالحديث ـ كلياً أو جزئياً ـ في العبادات.

---

(١) من أمثلته الرائعة كتاب العلامة الزَّيلعي: «نَصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(٢) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس ، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر ، أما العدول عن بعض المسائل جزئياً مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده ، واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر ، أو العمل بالحديث ، فأمثلته قليلة جداً ، وذلك لأن كثيراً من العلماء يرون «تجزيء التقليد» غير جائز ، أي إذا علم إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل بأخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول ، وذلك عندهم غير صحيح.

ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر ، العالم السلفي المحدّث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ ـ ١١٦٤هـ) الذي تعرض (حسب رواية بعض المؤلِّفين) لسَخطِ العامة وغَضبِهم لِسَلفيَّتهِ واتِّباعه للحديث[١].

لقد كانتْ هذه مأثرةٌ من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية ، وحلقةً ذهبية رائعةً في سلسلة خِدمته للحديث الشريف وانتصارِه للسنة السنية أنْ قام بمحاولة التوفيق بين الفقه والحديث ، ثُم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة ، وهذا يدلُّ على صِدق تلك البِشارة التي تلقاها الإمام الدهلوي ، وقيل فيها :

«إنَّ مراد الحقِّ فيك أن يجمع شملاً من شَمل الأمةِ المرحومةِ بك»[٢].

أمَّا فيما يَتعلَّق بشِبه القارة الهندية ، فإننا لا نعثر قبل الإمام الدهلوي على مُحاولة خدمةِ الجمع والتوفيق بين الفقه والحديث ، والجمعِ بين المذاهب على أساس الحديث، ويرجعُ ذلك إلى أسباب تاريخية وعلمية.

إنَّ شبه القارة الهندية دامتْ من أول عهودها الإسلامية تحتَ سلطة أولئك الفاتحين والمؤسِّسين للحكومات والدول الذين كانوا تركيي الأصلِ أو أفغانيي الأصل ، وكلا الشعبين من عهد اعتناقِهما للإسلام ـ تقريباً ـ يحتَضنانِ المذهب الحنفي ويتحمَّسان وينشَطان للدفاع عنه ونشره ، وأنه لم يُقدَّر هنا للمَذهب المالكي والمَذهب الحنبلي في التاريخ الإسلامي الممتد على ثمانية قرون أن يَدخلا في هذه البلاد ، أما المذهب الشافعي فكان لا يعدو بعضَ المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ «مَدْرَاس» أو طرفه الشمالي (كَرْنَاتَك حالياً) ببعض أجزائه كـ «بَهتَكَلْ» وغيرها ، و«كَيْرَالا» ، ولم يَنبُغ فيهم ـ في حدود علمنا ـ باستثناء «مَالاَبَار» (بلاد المعبر قديماً) التي وفد إليهم دعاة الإسلام من التجار والمشائخ والعلماء والفقهاء الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعي فقهاء

---

(١) انظر لترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي «نزهة الخواطر» جـ: ٦.
(٢) فيوض الحرمين: ص: ٦٢.

ومحدِّثون شافعيون مرموقون ، عدا الشيخ المخدوم الفقيه علي المهائمي (ت ٨٣٥هـ) مؤلف تفسير «تبصير الرحمن وتيسير المنان» وشيخ «مالابار» المخدوم إسماعيل الفقيه السكري الصديقي (٩٤٩هـ) كذلك المخدوم الشيخ زين الدين المليباري (ت ٩٢٨ هـ) مؤلف «فتح العين»[1] ، الذين يَتركون تأثيرهم على الأوساط العلمية في الهند (لا سيما شمالي الهند) ويَحمِلون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعي العميقةَ والاستفادةَ منه .

وأمَّا العلماءُ وطُلاَّبُ علوم الحديث والفقه الذين كانوا يَرحلون من الهند إلى الحجاز؛ الذي كان تحت إدارة الدولة التركية (والأتراك لم يزالوا ـ في كل عصر ـ سُنّيين وحنفيِّين مئة في مئة) فكانوا أيضاً يتَّصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم وخاصَّة بأساتذة الفقه والحديث من مواطني بلادهم الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان ، وكان تلامذتهم عدداً كبيراً[2] .

لقد كان الإمام الدهلوي أول شخصٍ تتلمذَ في الحرمين الشريفين على محدِّث شافعي جليل كالشيخ أبي طاهر الكردي المدني ، واستفاد منه استفادة كبيرة ، وكان مُعجَباً بعلمه وشخصيته ، وكماله الباطني ، وسعة نظره ، ورحابة صدره وتأثَّر به في هذه النواحي ، وإنَّ شيوخ الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين الذين تَرجمَ لهم في كتاب «إنسان العين» لم يكن فيهم من العلماء المحدِّثين الحنفيةِ إلا الشيخ تاج الدين القلعي ، وكان من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد وفدُ الله بن الشيخ محمد بنِ محمد بنِ سليمان من المالكية .

وإنَّ العهد الذي عاشه الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين كانتْ فيه القيادة العلمية والسيادة والريادة في مجال التعليم والتدريس (لاسيَّما في

---

(١) انظر للتفصيل كتاب «عرب وديار هند» للشيخ خواجه بهاء الدين الأكرمي الندوي البهتكلي ، والكتاب في باللغة الأردوية.

(٢) أمثال العلامة الشيخ علي المتقي البرهان بوري صاحب «كنز العمال» ، والعلامة قطب الدين النهروالي ، ومُلا علي القاري الهروي المكي ، والشيخ عبد الوهاب المتقي ، والشيخ محمد حياة السندي ، وغيرهم.

تدريس فن الحديث الشريف) بأيدي العلماء والمُحدثين اليمنيين أو المحدثين الكُرديين ، وكانوا ـ بصفة عامة ـ شافعيةً ، لأجلِ هذه العوامل كلها ، تهيأتِ الفرصة السانحةُ للإمام الدهلوي للاطلاع على أصول الفقه الشافعي وقواعدِه ، وخصائصه ومميزاته ، كما قُيّض له أن يتعرف على الفقه المالكي والفقه الحنبلي من عُلمائهما ، الأمرُ الذي لم يتيسّر لعلماء الهند ـ منذ مدة طويلة ـ (لأسبابٍ تاريخية وسياسيةٍ وجغرافية ومدنية) كما أمكنَ له الدراسةُ المقارنةُ للمذاهبِ الأربعة التي لم تكن تتيسر لأولئك العلماء الذين لم تُواتهم هذه الفُرص السانحة.

لقد رَحل الإمامُ الدهلويُّ إلى الحجاز عام ١١٤٣ هـ وهو في الثلاثين من عمره ، وكان قد دَرس في الهند اثني عشر عاماً ، ولكن لِما أودع الله تعالى في طبعه من جامعية واتّزان وسعةٍ في الأفق ورحابةٍ في الصدر ، ونزعة تطبيقية توفيقيةٍ موهوبة، وَميل طبعي إلى الجمْع والوصل، لا الفَرق والفصل ، لذلكَ فإنه قبلَ رحلته إلى الحجاز أيضاً كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفِقه والحديث ، وكان قد عَزم على ترجيح مَسلك المحدّثين الفُقهاء، واختيارِه مسلَكه وطريقَه في الحياة، يقول في «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» :

«وبعدما طالعتُ كُتبَ المذاهب الأربعة وأصولَها ، ونظرتُ في الأحاديث التي يتمسَّكون بها ، اعتزمتُ على طريق الفقهاء المحدِّثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»[(١)].

وقد انتقدَ الإمام الدهلوي طريقَ الفقهاء الغُلاة في مذهبهم (الذين لا يستطيعون أن يَنحرفوا عن مذهبهم قيدَ شعرة) ، والفرقةَ الظاهرية (التي تُنكر الفقه المذهبي ـ رأساً ـ ويُطلق لسانه في أولئك الفقهاء الأجلّة الذين هم رأس العلماء وأئمةُ أهل الهدى وقادةُ أهل الدين) انتقاداً شديداً ، وأبدى سَخَطه

(١) الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف: ص: ٤.

ونُفورَه من مغالاة الطَّبقتين وشِدَّتهم وتطرفهم ، وصرَّح بكل وضوح «بأن الحق أمر بَين بَين» لا الفريقُ الأول على الحق الصَّرف ، ولا الثاني على المُبين.

يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»:

«إنَّ التخريج على كلام الفقهاء وتَـتَبُّع لفظِ الحديث لكلٍّ منهما أصلٌ أصيلٌ في الدين ، ولم يزلِ المحقّقون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما ، فمِنهم من يُقلّ من ذا ويُكثر من ذاك ، ومِنهم من يُكثر من ذا ويُقلّ من ذاك ، فلا يَنبغي أن يُهمل أمرٌ واحد منهما بالمرة كما يفعله عامَّة الفريقين ، وإنما الحقُّ البَحْتُ أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يُجبر خَللُ كُلٍّ بالآخر ، وذلك قولُ الحسن البصري»[1].

ويقول في «وصاياه»:

«يَنبغي في المسائل الفرعية اتّباعُ أولئك العلماء المحدّثين الذين يَجمعون بين الفِقه والحديث ، ولابُدَّ من عرض المسائل الفقهية على كلام الله تعالى وحديثِ رسول الله ﷺ».

ويزيد قائلاً: «ولا غِنى للأُمة في أي عصر من العصور ، عن عَرْض المسائلِ الاجتهادية على الكتاب والسنة»[2].

لقد كانتْ نشأةُ الإمام الدهلوي وتَربيته في بيئةٍ يسودُ فيها الفِقهُ وأصولُ الفقه الحنفي ، وكان مُطلعاً على خصائصِ المذهب الحنفي ، ومُعترفاً بها كأيِّ عالم حنفي كبير ، وكان يَعرف هذه الحقيقة ، ويُصرِّح بها في كثير من المواضيع أن الخدمة التي قام بها العلماء للمذهب الحنفي (كذلك للمذهب الشافعي) ـ لأسبابٍ وعوامل تاريخية وعلمية وسياسية ومدنية متعددة ـ وما بذلوه من

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٦ ، وانظر للتفصيل مبحث «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها».

(٢) الوصايا (بالفارسية): ص: ٢ ـ ٣.

جهودٍ في تهذيبه وتنقيحه وشرح مُتونه ، والتفريع على أصولِه لم يتيسَّر لمذهبٍ آخر .

يَقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى :

«كانَ عظيمَ الشأن في التخريج على مذهب إبراهيم وأقرانِه ، دقيقَ النظر في وُجوه التخريجات ، مُقبِلاً على الفروع ، أتمَّ إقبال»[(١)] .

ولكنَّه مع ذلك يَعترف بعظمة الإمام مالك وجَلالة شأنِه ، وبِصحَّة كتابه «الموطأ» ، ومنزلتِه الرفيعة العالية وفوائِده الغالية ، ويَدعو إلى الاعتراف بها ، ويَرى أنه من الكُتب الأساسية الأولى في الحديث[(٢)] ، كما يَصف ـ في جانب آخر ـ المذهبَ الشافعي بأنه مُصفى ومُنقح وأقربُ إلى الحديث في ثَناء وإطراء ، ويَعترفُ بدِقَّة نظر الإمام الشافعي أيما اعتراف[(٣)] ، ثم يذكر الإمام أحمدَ بن حنبل فيقول في «حُجة الله البالغة» :

«وكان أعظَمهم شأناً وأوسعَهم روايـة ، وأعرَفهم للحديث مرتبةً ، وأعمقَهم فقهاً ، أحمدُ بن حنبل ، ثم إسحاق بن رَاهُوَيه»[(٤)] .

لقد كان الإمامِ الدهلوي ، لاطِّلاعهِ المباشر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعة ، وجلالةِ شأنهم وسَعةِ علمهم ودِقَّة نظرهم ، ومنَّتهم الجليلة على الأمة (عن طَريق كُتبهم وكُتب التاريخ والتراجم) وحُبِّهم وإجلالهم من أعماق القلب ، من الجامعية والتَّبحُّر والاتزان والتوسط في الدراسة المقارنة للفقه والحديث ، ما لا يُتوقع ـ بطبيعة الحال ـ من أولئك العلماء والمؤلِّفين الذين انحصرتْ دراستهم وصِلتهم العقلية والفكرية في تطابقِ مذهب فقهي واحد ، وبواضِعه ومؤسسه الأول ، ولا تتيسَّرُ لهم أي فرصة للخروج ـ لأسبابٍ طبيعية وشخصية كثيرة ـ من هذه الدائرة المحدَّدة .

---

(١) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف: طبع دار النفائس بيروت ، ص: ٣٩.

(٢) انظر مقدمة «المصفى».

(٣) انظر «الخير الكثير» ص: ١٢٤ ، و«قرة العين» ص: ٢٤٢ ، للإمام الدهلوي.

(٤) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٠.

نُقطةُ التّوسطِ والاعتدالِ بينَ التّقليدِ والاجتهادِ:

إنَّ من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاتِه التجديدية التي خصه الله تعالى بها ، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط ، وَتِلك النقطة المتَوسطة التي اختارَها بين الاجتهاد والتقليد ، والتي هي دليلٌ ساطع رائعٌ على طبيعته السليمة المتزنة وذَوقهِ الصحيح وواقعيته . فقد كانَ هناك فريقٌ يكلِّف كلَّ مسلم ـ سواء كان عامياً أو عالماً ـ بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة ، ويُحرِّم التقليدَ تحريماً مطلقاً ، وهُم وإنْ كان كلامُهم لا يُصرِّح بهذا الموقف ، فإنَّ منهجهم في العمل وكتاباتِهم تؤدي ـ طبعاً ـ إلى هذه النتيجة ، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتَحمِّسين لهذا الموقف العلامةُ ابنُ حزم ، ولكنَّ هذا الموقف غيرُ عملي وغيرُ واقعي ، وإن تكليفَ كل مسلم بذلك تكليفٌ بما لا يُطاق .

وكان ـ في جانب آخر ـ فريقٌ يوُجب على جميع المسلمينِ التقليدَ ويَصف من يَخلع رِبقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة بـ «الفَاسق» و«الضَّال» ، كما يَصفُ الفريقُ الأول بذلك جماعةَ المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاصٍّ ، وكان هذا الفريقُ يَتناسى أن التقليد إنَّما هو طريقةٌ تنظيمية إدارية لصيانةِ العامة من الناس من اتباع النفس والهوى ، والقولِ بالرأي ، وحمايةِ المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية ، وتَيسير العمل بالأحكام الشرعية ، ولكنَّهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي ، وألحُّوا عليه بشدة وتأكيدٍ غليظ ، نقلَه من كونه مذهباً فقهياً ومسألةَ اجتهادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً ، وعملاً قطعياً وأمراً دينياً مستقلاً .

إنَّ المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبَّر به عن ذلك ، هو أقربُ إلى روح الشريعة ، وأكثرُ انسجاماً مع منهج القرن الأول وأوفقُ بالفطرة البشرية ، وأمسُّ بالحياة العملية .

ويذكُر الإمامُ الدّهلوي ـ في هذا الصدد ـ طريقةَ العملِ السائدة قبلَ القرن الرابع الهجري ، ويَشرح كيف كان الناس يَحلُّون مسائلَهم الجديدة الطريفةَ ومشاكلهم العارضة في حياتهم الدينية وعباداتهم ومعاملاتهم ، وما هو الطريقَ الذي كانوا يختارونه ويسلكونه ، يقول في باب «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها» من «حجة الله البالغة» :

مَنهجُ المُسلمين في القُرون الأولى:

«اعْلم أنَّ الناس كانوا قبل المئة الرابعة غير مُجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكِّي في «قوت القلوب» : إنَّ الكُتب والمجموعات محدَثة ، والقولُ بمقالات الناس والفُتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذُ قوله والحكايةُ له من كُل شيء ، والتفقُّه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني» .

أقول : وبعد القرنين حدثَ فيهم شيءٌ من التخريج غير أن أهل المئة الرابعة لم يكونوا مُجتمعين على التقليد الخالص على مذهبٍ واحد والتفقُّه له والحكايةِ لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خَبر العامة أنَّهم كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جُمهور المجتهدين لا يُقلِّدون إلا صاحبَ الشرع ، وكانوا يتعلَّمون صفة الوضوء والغَسل والصلاة والزكاة ، ونحو ذلك من آبائهم أو معلمي بُلدانهم ، فيمشون حَسب ذلك ، وإذا وقعتْ لهم واقعة استفتَوا فيها أيَّ مُفْتٍ وَجدوا ، من غير تَعيينِ مذهبٍ .

وكان من خَبر الخاصّة أنَّ أهل الحديث منهم يَشتغلون بالحديث فَيخلُصَ إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثارِ الصحابة ما لا يَحتاجون معه إلى شيءٍ آخر في المسألة من حديث مُستفيض أو صحيح قد عَمِل به بعضُ الفقهاء ، ولا عُذر لتاركِ العمل به ، أو أقوالٍ متظاهرة لجمهور الصحَابة والتابعين مما لا يَحسُن مخالفتها ، فإن لمْ يَجد في المسألة ما يَطمئنُّ به قلبُه لتعارض النقل وعَدمِ

وضُوح الترجيح ونحو ذلك رجعَ إلى كلام بعض مَن مضى من الفقهاء ، فإنْ وجَد قولين اختار أوثقهُما سواءٌ كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة.

وكان أهل التخريج منهم يُخرّجون فيما لا يجدونه مصرَّحاً ويجتهدون في المذهب ، وكان هؤلاء يُنسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال: فلان شافعي ، وفلان حنفي ، وكان صاحبُ الحديث أيضاً قد يُنسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائي والبَيهقي يُنسبان إلى الشافعي ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهدٌ ، ولا يُسمى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعدَ هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً.

الصُّورة الطبيعيةُ المشروعةُ للتّقليد:

ويَرى الإمام الدهلوي ـ لغاية إنصافه وواقعيته ـ أَنَّ الشخص الذي يُقلِّد مذهباً فقهياً خاصاً ، أو إماماً معيناً ، ولكنه لا ينوي إلا اتباع صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ والاقتداءَ به ، إلا أنه لا يجدُ في نفسه من القُدرة ما يُتوصَّل بها إلى الحكم الشرعي وما ثَبت بالكتاب والسُّنة مباشرة ، فله العُذر في التقليد ، ويكونُ لعدم توصله إلى الحكم ـ مباشرةً ـ عدَّةُ أسباب مثل أن يكون عامياً ، أو لا تتيسَّر له الفُرص للبحث والتحقيق ـ مباشرةً ـ أو لا تتوفَّر له وَسائلُ العلم والبَحث والتحقيق التي يستطيع أن يضطَّلع بها على النصوص أو يَستنبطَ من النصوص المسائل.

ويقول الإمام الدهلوي بعدَ إيراد قول ابنِ حزم أنَّ التقليد حرامٌ ، ولا يَجوز لأي مسلم أن يَقبل أحداً دون رسول الله ﷺ من غير دليلٍ ولا برهان:

«وليس مَحلُّ (قول ابن حزم) فيمَن لا يَدين إلا بقول النبي ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحلَّه اللهُ ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، ولكن لمَّا لم يكن له عِلمٌ بما قالَه النبيُّ ﷺ ولا بَطريقِ الجمع بين المختلفاتِ من كلامِه ولا بطريقِ الاستنباط مِنْ كِلامه ، اتَّبع عالماً راشداً على أنَّه مُصيب فيما يقول ويُفتي ظاهراً ، متبعَ سنةِ رسول الله ﷺ ، فإنْ خالف ما يَظُنه أقلعَ من ساعته من

غير جِدال ولا إصرار ، فهذا كيف يُنكره أحد ، مع أن الاستفتاءَ والإفتاءَ لم يَزلْ بين المسلمين من عهد النبي ﷺ . ولا فَرقَ بين أن يَستفتي هذا دائماً أو يَستفتي هذا حيناً ، وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفقيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفِقه وفرضَ علينا طاعَته وأنه معصوم ، فإن اِقتدينا بواحدٍ منهم فذلك لِعلمنا بأنه عالِمٌ بكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا يخلُو قوله من أَن يكون من صريح الكتاب والسُّنة أو مستنبَطاً عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عَرف بالقرائن أنَّ الحُكم في صورةٍ ما منوط بعلة كذا ، واطمأنَّ قلبُه بتلك ، فقاسَ غير المَنْصوص على المَنْصوص فكأنَّه يقول: ظننتُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: كُلَّما وُجدتْ هذه العِلة فالحُكْم ثمةَ هكذا .

والمَقيسُ مندرجٌ في هذا العُموم ، فهذا أيضاً معزِيٌّ إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقه ظُنون ، ولولا ذلك لما قَلَّد مؤمنٌ مجتهداً ، فإنْ بلغَنا حديث من الرسول المعصوم فرض اللهَ علينا طاعَته بِسنَد صالح يدلُّ على خلافِ مذهبِه وتركْنا حديثَه واتَّبعنا ذلك التخمين ، فمَن أظلَم منا وما عُذرنا يوم يقوم النَاس لرب العالمين»[1] .

ميزاتُ المَذاهبِ الأَربعة:

يقول الإمام الدهلوي بعدَ هذا التحليل المنصِف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة التي يُعمل بها في العالم الإسلامي ـ بصفة عامة ـ في رسالته «عَقدُ الجيد في أحكام الاجتهادِ والتقليد» (التي هي رَغم صِغر حَجْمِها ووَجازتها كبيرة القيمة) مايلي:

«اعْلم أَنَّ في الأَخذ بهذه المذاهب الأربعة مَصلحةٌ عَظيمة وفي الإعراض عنها كُلها مفسدةٌ كبيرة ، ونحن نُبيِّن ذلك بوجوه:

أحدها: أنَّ الأُمة اجتمعتْ على أن يَعتمدوا على السَّلف في معرفة الشريعة ، فالتَّابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة ، وتَبعُ التابعين اعتمدوا

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٥ ـ ١٥٦ .

على التابعين ، وهكذا في كل طبقة اعتمدَ العلماء على مَنْ قبلهم .

والعقلُ يدل على حُسن ذلِك ، لأن الشَّريعة لا تُعرف إلا بالنقل والاستنباط ، والنَّقلُ لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عمن قبلها بالاتصال .

ولا بدَّ في الاستنباط أن تُعرف مذاهبُ المتقدمين لئلا تخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع ، ويَبني عليها ، ويستعينُ في ذلك كلٌّ بمَن سَبقه ، لأنَّ جميع الصناعاتِ كالصرف والنحو والطب والشعر ، والحِدادة والنجارة والصياغةِ لم تتيسَّر لأحد إلا بمُلازمة أهلها ، وغيرُ ذلك نادر بعيد لم يَقع ، وإنْ كان جائزاً في العقل .

وإذا تعيَّن الاعتماد على أقاويل السلف ، فلا بُد من أن تكون أقوالُهم التي يعتمد عليها مرويةً بالإسناد الصحيح ، أو مُدونةً في كتب مشهورة ، وأن تكون مَخدومةً بأن يُبين الراجح من محتمَلاتها ، ويُخصَّص عمومُها في بعض المواضع ، ويُقيَّد مُطلقها في بعض المواضع ، ويَجمعَ المختلف ويُبين علل أحكامها ، وإلا لم يَصحَّ الاعتماد عليها ، وليس مذهبٌ في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهبُ الأربعة»[١] .

وهكذا اختار الإمام الدهلوي ذلك الموقفَ المعتدلَ المُتزن بين الاجتهاد والتقليدِ الذي يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق وينسجمُ معها انسجاماً كلياً ، وأنه قد اشترط في التقليد أن يكون الغرض منه ـ مع العقلية الواضحة والنية الصالحة ـ اتباع صاحب الشرع ـ ﷺ ـ والالتزامُ بالكتاب والسنة ، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأنَّ من نَجعله وساطة بيننا وبينَ الكتاب والسنَّة هو عالِمٌ بهذين الأصلين ، وليس إلا مُمثِّلاً عنهما وتُرجماناً لهما ، ثم لا بد أن يكون فيه استعداد كلَّ حين (ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة) بأنه إذا وثق واطمأن بأنَّ الشأن غيرُ ذلك ، وأنَّ الحكم الشرعي الثابت بالكتاب والسنة ليس ما قَرره ذلك الإمام ، فلا يتردَّدُ المؤمن في قبولِه والخضوع له .

---

(١) عقد الجيد: ص: ٣٦ ـ ٣٨.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

الحاجةُ إلى الاجتهادِ في كلِّ عصر:

يَرى الإمام الدهلوي ـ مع الاعتراف بخصائصِ المذاهب الأربعة وميزاتِها وخدماتِ الفقهاء المحدّثين الجليلة وعُلو منزلتهم والاعترافِ بأنَّ هذهِ الثروة الفقهية والحديثية ثروةٌ عظيمة قيمة ، يُستفاد منها ويُنتفع بها ، وأن الاستغناء والإعراض عنها مِن أسباب الخُسران والحرمان ـ أنَّ الاجتهاد ـ مع شروطه وتحفظاته الضرورية ـ حاجةُ كل عصر ، ومقتضى طبعيٌّ للتطوراتِ الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحيةِ النشوء والارتقاء ، والحاجات البَشرية ، وتَسلسلِ الحوادث والوقائع إثباتٌ لسَعة الشريعة الإسلامية ، وأنَّها من الله الحكيم وأنا تملِكُ صلاحيَّة قضاء جميع المتطلَّبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادِهم الأمرُ الذي لاَ بدَّ من إثباته والتظاهر به في كل عصر ، وهو واجب من واجبات حَملة الشريعة الأمناء ، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصفى» :

«إنَّ الاجتهاد فرضُ كفاية في كل عصر ، وليس المرادُ بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهادِ الإمام الشافعي ـ مثلاً ـ الذي لم يكن في الجرح والتعديل والعربية وغيرها في حاجة إلى غيره ، كما لم يكن تابعاً لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المرادُ الاجتهاد المنتسِب ، وهو عبارةٌ عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلَّتها التفصيلية ، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقةِ المجتهدين ولو كان ذلكَ بإرشادِ من إمامٍ من الأئمة .

والذي نَقوله إن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحقِّقين) فوجْهُه أن المسائلَ كثيرةُ الوقوع ، ولا يُمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم الله تعالى فيها ، والذي دخل في حيِّز التحرير والتدوين لا يكفي ، والخلافاتُ فيه كثيرة ، ولايُمكن حلُّها إلا بالرجوع إلى

الدلائل ، والرواياتُ المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاعٌ ، بحيث لا يَثِقُ بها القلبُ بطمأنينة ، ولذلكَ فلا مناص مِن عرضها على قواعدِ الاجتهاد وأصوله والبحثِ فيها»[١].

* * *

(١) مقدمة «المصفى» (بالفارسية) ص: ١٢ ، طبع المطبع الفاروقي ، بدلهي.

الفصل الثالث
عَرضُ الشَّريعة الإسلاميَّة عرضاً مُبرْهناً مُتَّسِقاً والكشفُ عن مقاصدِ الحديث وأسرارهِ في ضوء «حُجَّة اللهِ البالغة»

مِيزةُ «حُجَّة الله البالغة» وتفرُّده:

إنَّ كتاب «حُجَّة الله البالغة» للإمام الدَّهلوي يُعدُّ من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلميَّة الكبرىٰ ، التي عُرضت فيها الشَّريعة الإسلاميَّة والدِّينُ الحنيف في صورة جامعة متناسقة مُدعَّمة بالحُجج والدَّلائلِ النَّاصعة القويَّة ، وقدَّمت فيها أبوابُ الإيمان والعبادات والمُعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنيَّة والسِّياسيَّة والإحسان بترتيبٍ وترابط ونظام ، وفي تناسق واتِّزان ، بحيث يُخيَّلُ إليك كأنَّها لآلىءُ العِقد المنظوم ، أو حلقات سلسلة مترابطة ، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصدِ والغايات والوسائلِ والآلات ، وبين الحقائق الدَّائمة المُستقلَّة والأمور العارضة المؤقَّتة ، بحيث لا يغيب ذلك ـ لحظة ـ عن الأنظار ، وكثيراً ما يختلطُ الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلَّفات ، بل هي علَّة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلَّفات ـ بصفة خاصَّة ـ التي أُلِّفت نتيجةَ ردِّ فعلٍ لتعسُّفٍ أو مُغالاةٍ أو في فورةِ عاطفة وحماس.

ويرجع السَّببُ في هذا التَّرابط والتَّناسق ـ عدا ما وُهب الإمام الدّهلوي من

اتِّزان وتوسُّط وسلامة فطرة ـ إلى دراستهِ العميقة الواسعة لعلم الحديث الشَّريف ، وتِلك الطبيعة الخاصَّة التي تتكوَّن عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسِّيرة النَّبويَّة والحديث النَّبويّ ، أو عن طريق صحبة من العلماء الرَّبانيين وتربيتهم الذين تَربوا في المدرسة النَّبويَّة ، وقطرت عليهم رشحاتٌ من السِّيرة العطرة على صاحبها الصَّلاة والسَّلام.

إنَّ هذا العرضَ الجامع المتَّسق المُترابط الذي نُشاهِده في صفحات «حُجَّة الله البالغة» يندُر نظيره في المؤلَّفات الدِّينيَّة ، وبذلك ظلَّ كتاب «حُجَّة الله البالغة»[1] علمَ الكلام الجديد الذي يَجد فيه أي إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطِيب القصد (وقد أُوتيَ شيئاً من الكفاءة العلميَّة ودقَّة النَّظر وعُمق التَّفكير) إرواءً كاملاً لغليله وزاداً كافياً لقناعته ، وطُمأنينته ، ولم يُؤلَّف كتابٌ ـ في حدود علم المؤلِّف ، وفي اللغات التي يعرفها ـ في تأييد أي ديانة من الديانات وتفسيرها اللَّبق الحكيم ، وفلسفتها الجامعة المُتناسقة كهذا الكتاب في منزلته ومكانته ، وإن كان قد أُلِّف ، فإنَّه ليس بين ظهراني العلماء والباحثين في الدُّنيا العِلميَّة المعاصرة.

إنَّ عهدَ «العقلانيَّة» الخاصَّة الذي كان بعد القرن الثَّاني عشر الهجري بقليل ، قد أَوشك ـ لأسبابٍ تعليميَّة وتربويَّة ، ومدنيَّة وعقليَّة وعلميَّة وفكريَّة ـ على الظُّهور في الهند وفي العالم الإسلاميِّ كلِّه ، فَنزعَةُ البحث والتَّفتيش عن مصالح الشَّريعة الإسلاميَّة وحِكمها وأسرارها التي كادت تَعمُّ وتسود ، والتي كانت تتهيَّأ بِسببها عقولٌ كثيرة للضَّلال والانحراف وأقلامٌ كثيرةٌ للزَّيغ

(١) لقد وجد كاتبُ هذه السطور زعيمَ المغرب العلامة علَّال الفاسي المغربي مؤلِّف «مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ومكارمها»، ومعالي الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ من بين العلماء والباحثين المعاصرين العرب، يُشيدون بكتاب «حجة الله البالغة» أيما إشادة ويلهجون بالثناء عليه، وقد كانا معجبين بهذه النَّاحية ـ بصفة خاصَّة ـ أن هذا الكتاب يجمع بين شعب الدين كلها حتَّىٰ إنه يمثل تهذيب الأخلاق وتزكية النَّفس والإحسان أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً.

والانطلاق ، وكان الحديث والسُّنَّة النَّبويَّةُ ـ بصفةٍ خاصَّة ولأسبابٍ خاصَّة ـ مُستهدفةً للشُّبهات والاعتراضات[١] ، إنَّه لم يكُن يستطيعُ أن يُواجه هذه التَّحدِّيات ويُلبِّي هذه المُقتضيات إلاَّ مَنْ يكون على علم واطِّلاع واسع على الكتاب والسُّنَّة ، وعُلوم الحكمة ، وعِلم الكلام ، وعِلم الأخلاق ، وعِلم النَّفس ، وعِلم الاقتصاد ، وعِلم السِّياسة (في حدود عصره على الأقلِّ) ، ثم يَكون عارفاً بلُباب فَنِّ التَّزكية والإحسان وجوهره وحقيقته ، بل يتمكَّن من درجة الاجتهاد فيه .

لقد كان كُلُّ ذلك يتطلَّب أن يصدرَ من قلم إمام القرنِ الثاني عَشَر كتابٌ يَفي بهذه الحاجات والمُقتضيات ، ولا يمكن أن يَصدرَ مثل هذا إلاَّ من قلم إنسان ، هو إنسان ـ على كل حال ـ وليس معصوماً ، وليس له علمٌ يُحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات، ولا يَخلو ـ وإن كان أقل قليلٍ ـ عن طابع عصره وتأثير منهج التَّعليم والتَّربية عليه ـ الذي نشأ وتربَّىٰ فيه ، ولكنَّه رغم كلِّ ذلك تلميذ المدرسة القرآنيَّة وخِرِّيج معهد الحديث والسُّنَّة ، وترجمانها المُبين .

يقولُ الإمام الدّهلوي وهو يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب وعوامله :

«إنَّ أدقَّ الفنون الحديثيَّة بأسرِها عندي وأعمقَها مَحتداً ، وأرفعِها مناراً ، وأولىٰ العلوم الشَّرعيَّة عن آخرها فيما أرىٰ ، وأعلاها منزلةً وأعظمها مقداراً ، هو علم أسرارِ الدِّين الباحثُ عن حِكم الأحكام وخفياتها وأسرار خواص الأعمال ونُكاتها . . . إذ به يصيرُ الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشَّرع»[٢] .

دقَّةُ الموضوع وخُطورته:

ولكنَّ الموضوعَ الذي يُعالِجُ حِكم الأحكام الدِّينيَّة ، ويتعرَّضُ لمصالحها وأسبابها وعللها موضوعٌ جِدُّ دقيق وخطير ، فإنَّ أدنىٰ ميلٍ أو إفراطٍ وتفريطٍ فيه ، أو سيطرةِ نزعة خاصَّة ، أو تأثير عصر خاص ينأىٰ بذهن القارىء وعقليَّته

(١) يراجع للتفصيل رسالة المؤلِّف «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته».
(٢) حجة الله البالغة: ص: ٣.

بعيداً عن جادَّة التَّعاليم النَّبويَّة ، والشَّرائع السَّماويَّة ، التي يَقصد بها أصلاً وبالذَّات رضا الله تعالىٰ والتَّقرُّب إلى جنابه الأعلىٰ ، والنَّجاة في الآخرة ، ويَنتقل به إلى طريق المصالح الماديَّة ، وتَنظيم الحياة تنظيماً فاضلاً ، والمنافع المدنيَّة والأغراض والغايات السِّياسيَّة ، وتخرج روح الإيمان والاحتساب[1] ، من هيكل الجهود والمساعي المبذولة كُلِّياً ، أو تضعف وتنكمش وتبقىٰ من غير تأثيرٍ ملحوظ .

فعلىٰ سبيل المثال يمكن أن يُقال: إنَّ الحكمة في مشروعيَّة الصَّلاة أنَّها تربية عسكريَّة جيِّدة ، وأنَّها تُساعد على التَّنظيم والطَّاعة للأمير وإقامة الحكومة الإسلاميَّة ، وأنَّ الصَّوم من أنجح الوسائل للصِّحَّة البدنيَّة ، وأنَّ الزَّكاة ضريبةٌ واجبة في أموال أهل الثَّراء للفقراء ولها القيمةُ الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة فقط ، وأنَّ الحج مؤتمر سنوي عالميٌّ يُنظر فيه إلى المسائل والمشاكل التي يُواجِهها المسلمون والتَّوصُّل إلى حلِّها فحسب .

نظراً إلى هذه الأخطار والأخطاء (التي تجاوزت حُدُودَ المُمكنات والمُحتملات إلى وقائع وأمثلة حيَّة عمليَّة) لم يكن يستطيعُ أن يقوم بهذه المُهمَّة الدَّقيقة الخطيرة إلاَّ من يُمسِك بيده أصول الدين الحنيف والشَّريعة الإسلاميَّة ، ويكون عالماً بغاية نزول الشَّرائع الإلٰهيَّة وبعثة الأنبياء والمُرسلين ، عليهم الصَّلوات والتَّسليم ، وقد تَغلغلتْ في أحشائه روحُ الإيمان والاحتساب ، وجَرتْ في عُروقه ودمائه ، وتكوَّنت عقليَّته وتربيته العلميَّة في بيئة الكتاب والسُّنَّة والإيمان والاحتساب وفي ظلالها الفَيحاء ، ولقد كان الإمام الدِّهلويُّ ـ كما علمنا ممَّا مضىٰ في ترجمة حياته ـ أجدرَ

---

(١) الإيمان هو اليقين الكامل على موعود الله تعالىٰ، والاحتساب هو نيَّة الحصول على رضا الله تعالىٰ وثوابه، وهما مصطلحان دينيان وردا في أحاديث كثيرة، منهما قوله ﷺ : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب صوم رمضان. . . ، برقم (٣٨)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء. . . ، برقم (٧٦٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

شخصيَّةٍ وأقدرَها على الكتابة في هذا الموضوع الدَّقيق الخطير.

الحاجَـةُ إلىٰ كتابٍ مُستقِلٍّ وجهودُ العلماءِ المُتقدِّمين:

يذكرُ الإمام الدِّهلوي ما بذلهُ العُلماء المُتقدِّمون من جهود في هذا الموضوع، فيقول:

«وانتهىٰ إمعان المُجتهدين إلى تَبيين المصالح المرعيَّة في كُلِّ بابٍ من الأبواب الشَّرعيَّة، وأبرز المُحقِّقون من أتباعهم نُكتاً جليلة، وأظهر المُدققون من أشياعهم جُملاً جزيلةً، وخرج بحمد الله تعالىٰ من أن يكون التَّكلُّم فيه خَرْقاً لإجماع الأمَّة، أو رتَّب منه الأصولَ والفروع»[١].

وقد أشار الإمام الدِّهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ إلى الإمام الغزالي، والعلاَّمة الخطَّابي، وشيخ الإسلام عز الدِّين بن عبد السَّلام ـ الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلَّفاتهم في مُختلف المواضع على هذه المُحتويات والإشارات[٢]، وقد استدلَّ الإمام الدِّهلويُّ في الرَّدِّ على دعوىٰ أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة لا تَشتملُ على المصالح، وأنَّه ليس بين الأعمال وما جعلَ الله تعالىٰ جزاءً لها مناسبةٌ بتلك الآيات والأحاديثِ النَّبويَّة التي تدلُّ على الصِّلة والمُناسبة بين الأعمال ونتائجها وتُشير إلى عِلل بعض الأحكام ومصالحها، كما ذَكر أيضاً تلك الأحاديث التي تتضمَّنُ بيان الأسباب لمشروعيَّة قُربةٍ من القُرب أو عملٍ من الأعمال، أو تكشفُ عن أسرارِ تَعيينها وتَحديدها، كما قدَّم أمثلةً لأسباب بعض المُحرَّمات والمحظورات، وحِكمها التي أُثرت عن عُمر رضي الله عنه وغيره من الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين[٣].

وفنَّد تلك المزاعم والظُّنون الخاطئة وردَّ على المزاعم التي تَصفُ تدوينَ هذا العلم الدَّقيق وأداءَ المهمَّة الجليلة إمَّا مُستحيلاً، أو غيرَ نافعٍ أو صنعاً

---

(١) حجة الله البالغة ص: ٣.

(٢) المصدر السابق: ص: ٦.

(٣) المصدر السابق: ص: ٥ ـ ٦.

جديداً لم يُسبق إليه ، وبيَّن ـ بكل وضوح ـ ما هي تلك الأسباب والعوامل التي حَالتْ دُون العِناية اللائقة بهٰذا الموضوع في تلك الآونة»[1] .

وقد صرَّح الإمام الدِّهلويُّ وهو يُبيِّن الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصلحته ، بأنَّ جماعةً من الفقهاء زَعموا أنَّه يجوزُ ردُّ حديثٍ يخالف القياس من كُلِّ وَجه ، فَلَزِم بيان أنَّ الأحاديث الصَّحيحة كلها تُوافق العقل والقياس[2] . وأنَّ المناهج المُتعارضة في مختلف طبقات الأمَّة . فتغاضي بعضهم عن العقل والقياس كُلِّياً ، وتجاسُر بعضِهم على التأويل والصَّرف عن الظَّاهر حيث خالفتِ الأصول العقليَّة ، وعدم التَّوسُّط والاتِّزان عند كثيرٍ من الجماعات والطَّبقات في هذا الصَّدد لا يجعل التَّدوين الجديد لهذا الفن الدَّقيق مشروعاً ونافعاً فحسب ، بل يُقرِّره خدمةً جليلة للدِّين ، وحاجةً ماسَّة من حاجات العصر .

وَعَدا هذا الشُّعور بالحاجة ، والتَّجارب العلميَّة ومُقتضيات العصر كان الإمام الدِّهلويُّ تَلقَّىٰ بشارات غيبيَّة لإنجاز هذا العمل وإشارة من حضرةِ صاحب الرِّسالة صلَّىٰ الله على صاحبها وسلَّم «إلى نوع بيان للدِّين» ، يَقول الإمام الدِّهلويُّ :

«ووجدتُ عند ذلك في صدري نوراً لم يَزل يَنفسِحُ كُلَّ حين . . . ثم رأيتُ الإمامين الحَسَن والحُسَين رضي الله عنهما في منام وأنا يومئذٍ بمكَّة كأنَّهما أعطياني قلماً ، وقالا : «هذا قَلَمُ جَدِّنا رسول الله ﷺ »[3] .

---

(١) حجة الله البالغة : ص: ٧.
(٢) المصدر السابق: ص: ٩.
(٣) طبع كتاب «حجة الله البالغة» أوّلاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التَّقي «مدار المهام» الشيخ جمال الدين (ت١٢٩٩هـ) وعلى نفقته وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقي (ت١٣١٢هـ) في المطبع الصديقي ببريلي عام ١٢٨٦هـ، ثم طبع ثانياً بأمر النواب أمير الملك العلاّمة السيد صديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ) في مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦هـ، وصدرت له من مصر طبعتان أخريان، ثم صدرت طبعة مصوَّرة عن الطبعة المصرية بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٨م، وقد صدرت أخيراً في مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل =

وقد كان ابنُ خال الإمام الدِّهلويِّ ، وأخو زوجته ، ومُرافقه في السَّفر والحَضر وأَخصُّ تلامذته الشيخ محمد عاشق الفلتي الذي كان أعرفَ النَّاس بعلوم الإمام الدِّهلويِّ ومعارفِه وفضائله يُلح ـ من بين أصحابه وتلامذته ـ على الإمام الدِّهلويِّ ، ويُصر عليه لإنجاز هذا العمل وتحقيقه[1] .

وبالجُملة فإنَّ الله تبارك وتعالىٰ وفَّق الإمام الدِّهلويَّ للقيام بهذه المهمَّة العظيمة ، وصدر من قلمه هذا الكتاب الجليل ، ووصل إلى أيدي العلماء والمُحقِّقين .

المَوضُوعات الأساسيَّة التَّمهيديَّةُ : التَّكليف والمُجازاة:

لقد تناول الإمامُ الدِّهلويُّ في بداية الكتاب تلك البحوثَ والمواضيعَ التَّمهيديَّة الأساسيَّة التي تُثبِتُ الحاجة إلى الهداية الرَّبانيَّة والتَّعاليم السَّماويَّة وبِعثة الأنبياء والمُرسلين ، وتعليمِهم وتربيتِهم وتزكيتهم .

والمبحثُ الأساسيُّ والأصولي الأكبر فيه ، هو المبحث الذي ذكره بعنوان «باب سرِّ التَّكليف» الذي أثبت فيه أنَّ «التَّكليف»[2] إنَّما هو إحدىٰ المُقتضيات الطَّبيعيَّة للنَّوع البشريِّ ، فإنَّ الإنسان يُسألُ بلسان استعداده وصلاحيَّته أن يُفرض عليه ما يُناسب قوَّته الخاصَّة ثم يُثابُ عليه ، ويحرمُ عليه الاستغراق في القوَّة البهيميَّة (التي أُودعت فيه) ويُعاقب عليه[3] .

وتتجلَّىٰ في هذا الصَّدد دراسة الإمام الدَّهلويِّ الدَّقيقة الواسعة للنَّوع

= المصري المعروف السيد سابق ومراجعته، ومقدمته، وترجمة المؤلف الدهلوي من دار الكتب الحديثية بالقاهرة ومكتبة المثنَّىٰ ببغداد، ولكن لم يحظَ الكتاب في التَّصحيح والتَّعليق، وتخريج الأحاديث، وبيان الإشارات حتَّى الآن ما يستحقُّه من خدمة علمية.

(١) حجة الله البالغة: ص ٤ .

(٢) أي تكليف الله تعالىٰ عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرماته ونواهيه، وقد عبَّر عنه في القرآن الكريم بالأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] . وانظر تفسيرها في «حجة الله البالغة» ص: ١٩ .

(٣) حجة الله البالغة: ص: ٢٠ .

الإنسانيّ والحيوانات والنَّباتات ، كما تتجلّىٰ معرفتُه بعلوم الطَّبيعة والطِّبِّ وعِلم النَّباتات وما أُودع فيه من الاستعدادات والصَّلاحيَّات والمُقتضيات الفطريَّة ، كلها تَطلُب ـ بلسان حالها ـ «التَّكليف الشَّرعي» والهداية الرَّبانيَّة ، ويُعبِّر الإمام الدَّهلويُّ عن ذلك بألفاظ «التكفُّف الحالي» البليغة ويزيد عليها «التكفُّف العلمي» .

إنَّه يرىٰ أنَّ الإنسان يملك ـ عدا قوَّتي العقل والنُّطق ـ شَيئين آخرين وهما : «زيادة القوَّة العقليَّة» ، و«براعة القوَّة العمليَّة» ، فليس الإنسان يمتاز عن غيرِه بوجود القُوَّة العقليَّة والقوَّة العمليَّة فيه ، بل إنَّ طبيعته تتطلَّب ـ كذلك ـ التَّقدُّم والرُّقي وعُلو الهِمَّة وتسعىٰ نحو الكمال ، ولا تشبع من شَيءٍ .

ويرىٰ الإمام الدِّهلويُّ أنَّ خَلْق الملائكة ووقوعَ الحوادث العظيمة وإرسالَ الرُّسل نتيجةٌ لهذه المطالب الفطريَّة ، وهي مَظهرٌ رائعٌ للعناية بهذا النَّوع والاهتمام به ، الذي يشمل نوعَ البشر كلّهم ، وهي من تجلِّيات الرُّبوبيَّة والرَّحمة الإلٰهيَّة ، إنَّه يرىٰ أنَّ العِبادات كأكل السِّباع للحوم ، ورعي البهائم للحشيش ، واتِّباع النَّحل لليَعسُوب، إلاَّ أنَّ الحيوانات استَوجبتْ تلقِّي عُلومها إلهاماً جبِلِّياً، واستوجبَ الإنسان كَسْب عُلومه كَسْباً ونظراً، أو وَحياً وتقليداً[1] .

ثم يُصرِّح الإمام الدِّهلويُّ بأنَّ المُجازاة على الأعمال ، كذلك من مُقتضيات التَّكليف ، ويرىٰ لذلك أربعة أسباب :

١ ـ مُقتضىٰ الصُّورة النَّوعيَّة .

٢ ـ جهة الملأ الأعلىٰ[2] .

٣ ـ مقتضىٰ الشَّريعة المكتوبة عليهم .

---

(١) حجة الله البالغة: باب انشقاق التكليف من التقدير، ص: ٢٠ ـ ٢٤ .

(٢) لقد تحدث الإمام الدهلوي في مبدأ الكتاب عن عالم المثال والملأ الأعلى، إذ أنه تكرر الإحالة والإشارة إليهما في كلامه كثيراً، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث بدون التعرف عليها، انظر ص: ١٣ ـ ١٥ .

٤ ـ مقتضىٰ بِعثة الأنبياء ونتيجتها ، ولازمُ قضاء الله تعالىٰ بالنَّصر والتَّأييد[١] .

ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجِبلَّة والطَّبائع في بني البشر اختلافٌ وتفاوتٌ في الأعمال والأخلاق ودرجات الفضلِ والكمال ، وقد ذكر الإمام الدَّهلويُّ في هذه المناسبة ثمانيةَ صُور لاجتماع «الملكيَّة» و«البهيمية» ونِسبتها في الغَلبة والضَّعف ، ونوعيَّة العلاقة بينها. وذكر ما يَرجح منها ، وإنَّ هذا البحث والتَّفريع من أمثلة ذكاء الإمام البالغ وقُوَّة استقرائه ودِقَّته ، ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته[٢] ، وتتجلَّىٰ فيه الدِّراسة الممعِنة الدَّقيقة للفِطرة الإنسانيَّة وأوضاعها وأحوالها.

أَهمِّيَّةُ الأعمال وآثارُها:

يتناول الإمام الدِّهلويُّ مبحث أهمِّيَّة الأعمال[٣] وتأثيرها على المَلكات الإنسانيَّة والأشكال التي ترتّب آثارها فيها في الدُّنيا والآخرة ، يقول: «وبالجملة فتؤثِّر الأعمال حينئذٍ تأثير العزائم والرُّقىٰ المأثورة عن السَّلف بهيئتها وصِفتها ، والله أعلم»[٤] .

وهكذا تُعِدُّ هذه المباحثُ الأوليَّة التَّمهيديَّة ذهنَ القارىء للنَّظر في المباحث التَّالية التي تُقوم على أساس إدراك المُقتضيات النَّوعيَّة وأسباب التَّكاليف الشَّرعيَّة ، وما يترتَّبُ عليها من مُجازاة ونتائج ، ومُقتضيات الرُّبوبيَّة والرَّحمة وأهمِّيَّة الأعمال وصِلتها بهيئة النَّاس الاجتماعيَّة وعلاقتِها بالحياة البشريَّة ، والاعتراف بهذه الحقائق الغيبيَّة والعوالمِ والأشياء غيرِ المرئيَّة.

الارتفاقَاتُ:

يُخيَّلُ إلينا من دراسة «حُجَّة الله البالغة» أنَّ أنظار الإمام الدَّهلويِّ البعيدة

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٢٥.
(٢) المصدر السابق: ص: ٢٥.
(٣) المصدر السابق: ص: ٢٩ ـ ٣٢.
(٤) المصدر السابق: ص: ٣٠.

الغَور ، ودراسته العميقة الموضوعيّة للأوضاع المُتطوِّرة والظُّروف المُتغيِّرة تفَطَّنت (بفضل التأييد الإلٰهيّ) إلى أنَّـه قد أظلَّ ذلك العهد الذي سوف يُحاولُ فيه النَّاس الكشف عن أسرار الأحكام الشَّرعيَّة لا سيَّما تعاليم السُّنَّة النَّبويَّة وإرشاداتها وحِكمها ومصالحها ، ويستطلعون فوائدها العمليَّة والاجتماعيَّة والمدنية ، ويَبغون ـ في الجانب الآخر ـ التَّعرُّف على الصِّلة الحقيقيَّة بين الدِّين والحياة، ويُحاولون فهمَ التَّعاليم الدِّينيَّة والهداية السَّماويَّة في المُحيط الواسع للحياة ، وفي سِياق العلاقات المُشتركة بين الناس وصِلةِ الأسباب بالنَّتائج ، والاطِّلاعِ على منافعها وفوائدها .

لذلك بدأ الإمام الدِّهلويُّ كتابه «حُجَّة الله البالغة» الذي أُلِّف أصلاً وبالذَّات في بيان حكم الشَّريعـة الإسلاميَّـة وأسرارِها وشرح الحديث والسُّنَّـة شرحاً عقليـاً علميّاً ، ـ قبل بدئـه بالحديث عن النِّظام التَّشريعي الـذي يَشتمل على تلك الأوامر والنَّواهي التي تتعلَّق ـ أصلاً ـ بالثَّواب والعقاب والنَّجاة والفلاح في الآخرة ، والتي عَبَّر عنها الإمام الدِّهلويُّ في اصطلاحه بـ«مبحث البرِّ والإثم» .

بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيع التي تتعلَّق بالنِّظام التَّكويني في العالم والحياة البشريَّة ، والتي تتكوَّن بالالتزام بها هيئةٌ اجتماعيَّةٌ صحيحةٌ ومدنيَّة صالحة .

وقد استخدم الإمام الدِّهلويُّ لذلك مصطلح «الارتفاقات»[1] ، الذي لم يَستخدِمْه قَبْلَه ـ في حدود علمي ـ المُتكلِّمون والفلاسفةُ وعُلماء الاجتماع المُسلمون (بهذا الوُضوح والتَّسلسُل والاستمرار على الأقل) .

---

(١) جاء في «لسان العرب» تحت أصل «رفق»: يقال للمتطبِّب مترفق ورفيق ، والرفق والمرفق: ما استعين بـه ، وقد ترفق بـه وارتفق، وفي التنزيل: ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦]، وهو ما ارتفقت وانتفعت به، وقد ترفق عليه وارتفق: توكأ، قال عزَّ وجل: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣١]. وترافق القوم وارتفقوا: صاروا رفقاء، (انظر «لسان العرب» «رفق»).

أهمّيّة الارتفاق:

يُراد بالارتفاق ـ عند الإمام الدِّهلويِّ ـ: اشتراكُ أفرادِ الناس في الانتفاع بعضِهم من بعض، والتَّعاوُن فيما بينهم، والمُشاركة في العمل، والتَّدابير النَّافعة لإنشاء حياة مدنيَّة مُعتدلة مُتَّزنة.

وهكذا عالج الإمام الدِّهلويُّ ناحيتي السَّعادة البشريَّة الفرديَّة والاجتماعيَّة، والحياتين الدنيويَّة والأخرويَّة.

ويَرىٰ الإمام الدِّهلويُّ أنَّ هذا النِّظام التَّكويني لا يلزم أن يُوافق النِّظام التشريعي الذي بُعث به الأنبياء فحسب، بل يَلزم أن يُمده ويتعاون معه، ويَخدم أغراضه ومقاصده، وهو أوَّل من أثبت ـ مِنْ بين عُلماء الأخلاق والمُتخصِّصين في عِلم الاقتصاد ـ صِلة عميقة قويَّة بين عِلم الأخلاق والاقتصاد، وأنَّه عِندما تنقطعُ هذه الصِّلة فإنَّ الاقتصاد والأخلاق يُعاني كلٌّ منهما أزمة شديدة تتركُ آثارها على الدِّين والأخلاق، والحياة المُطمئنَّة الآمنة، والعلاقات الطَّيِّبة القائمة بين أفراد الناس والمدنيَّة والحضارة.

ويرىٰ أنَّ أخلاق الناس الاجتماعيَّة تُعاني من الهبوط والفساد عندما يُؤدِّي بهم الجَور والعَسف إلى ضائقةٍ اقتصاديَّة أو أزمة اقتصاديَّة، وعندئذٍ يظلُّ الإنسان ـ الذي أودع الله فيه المَلكات الرُّوحيَّة السَّامية وإمكانيَّات الرُّقيِّ الكثيرة ـ في حَيرة واضطرابٍ للحصول على لُقمة عيش شأن الثَّور والحمار، ويُحرَم من جميع السَّعادات ومدارج الرُّقيِّ والكمال.

أهَمِّيَّةُ الحياة المدنيَّة والاجتماعيَّة وأشكالُها:

يُعَرِّف الإمام الدِّهلويُّ بالحياة المدنيَّة والاجتماعيَّة (التي يَصف مركزها بـ«المدنية») تعريفاً علميّاً لم يُسبق إلى أفضل وأجمع منه (لدىٰ الحُكماء والمؤلِّفين) إلى هذا العصر، يقول في باب «سياسة المدنية»:

«وأعني بالمدنية جماعةً مُتقاربة تجري بينهم المعاملات ، ويكونون أهلَ منازلَ شتَّىٰ»[١].

ويُعَرِّف بسياسة المدنيَّة بما يلي:

«هي الحكمة الباحثة عن كيفيَّة حِفظ الرَّبط الواقعِ بين أهل المدينة»[٢].

ثم يَزيد تعريف هذه الحياة المدنيَّة أو «المدينة» بياناً ، فيقول: «المدينة شخصٌ واحدٌ من جهة ذلك الربط ، مركَّبٌ من أجزاءَ وهيئةٍ اجتماعيَّة»[٣].

ويَنقسمُ «الارتفاق» عنده إلى قسمين:

١ ـ الارتفاقُ البدائي الضروريُّ الذي يتمكَّن منه أهل البادية أيضاً.

٢ ـ الارتفاق الاجتماعيّ أو الرَّاقي الذي يَحصلُ لأهل المصر (أهل المدينة).

ويأتي بعد هذين القسمين القسمُ الثالث ، وهو قِسم السِّياسة والإدارة ، ثم ينتج عن ذلك قسم رابع وهو قِسم الخلافة العامَّة ، ويُؤكِّد الإمام الدهلويُّ في «الارتفاق الرابع» على حفظ العلاقات المُشتركة بين أهل «الأقاليم» (أي مناطق البلاد النَّائية البعيدة) والحاجة إلىٰ هذه العلاقة (بين مُختلف المناطق) كحاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة في حالتها البِدائيَّة المحدودة[٤].

صُورُ المَكاسب ووجُوه المعاشِ المحمودةُ والمذمومةُ:

ولا يُغفل الإمام الدهلويُّ أثناء تعرُّضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المُختلفة ذِكر الوسائل المنافية للأخلاق والفطرة السَّليمة ، يقول:

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٤.

(٢) المصدر السابق: ص: ٤٤.

(٣) المصدر السابق: ٤٤.

(٤) المصدر السابق: ص: ٤٧.

«وَبقيت نُفوسٌ أعيثَ بهم المذاهب الصالحة ، فانحدروا إلى أكسابٍ ضارَّةٍ بالمدنيَّة كالسَّرقة والقِمار والتَّكدِّي»[١] .

وقد صدرتْ من قلم الإمام الدهلويِّ في صدد موضوع الارتفاقات حقائقُ تُشير إلى عُمق تفكيره ، وبُعد نظره في تاريخ البشريَّة والاجتماع والمدنيَّة ، وازدهارها وهبوطها وانحطاطها ، يقول :

«كُلَّما رقَّتِ النفوس وأَمْعَنت في حُبِّ اللَّذة والرَّفاهيَّة تفرَّعت حواشي المكاسب ، واختصَّ كلُّ رجلٍ بكسب»[٢] .

ويذكر الإمام الدهلويُّ فيما يضرُّ بالحياة أنْ يتَّفِق أهل المدينة على وَسيلة واحدةٍ للكسب ، مثل أنْ يشتغل كلهم بالتِّجارة وَيَدعوا الزِّراعة ، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات ، إنَّ الزِّراعة ـ عنده ـ كالطَّعام ، والصِّناعة والتِّجارة والنِّظام والإدارة كُلُّها كالمِلح ، وقد صرَّح في هذا الصَّدد بحقيقةٍ لطيفةٍ دقيقةٍ ، يقول :

«وغالبُ سببِ خراب البلدان في هذا الزَّمان شيئان :

١ ـ أحدهما : تضييقُهم على بيت المال .

٢ ـ والثَّاني : ضَرْب الضَّرائب الثَّقيلة على الزُّرَّاع والتُّجَّار والمتحرّفة والتَّشديدُ عليهم .

---

(١) حجة الله البالغة : ص : ٤٣ .

(٢) وقد ذكر الإمام الدهلوي في هؤلاء المضيقين الذين يصبحون كلاً على بيت المال ويتعودون التكسب بالأخذ منه ويملكون الإقطاعات ويعتادون الجوائز والصلات والكسب المجاني بدون أي خدمة للدولة في البلاد، الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدَّعون حقوقهم في بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد، وقد دخل في ذلك النظام الإقطاعي الذي كان قد أجحف بمالية البلاد، وأوجد جنداً من الطاعمين الكاسين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد، ويقدر من ذلك بصيرة الإمام الدهلوي السياسية ومعرفته العميقة لأسباب سقوط الدولة المغولية.

ثم يقول في آخر هذا المبحث: «فَلْيُنَبَّه أهلُ الزَّمان لهذه النُكتة»[١].

ويذكر الإمام الدهلويُّ في ضمن العوامل التي تُؤدِّي إلى الفساد في المُجتمع والمدنية، كثرَة أسباب اللَّهو والتَّسلية، التي تجرُّ إلى الغفلة عن المعاش والمعاد كليهما، ومن أمثلة ذلك الانصرافُ إلى لعب الشَّطرنج، والإكثار من القَنص والصَّيد، واقتناء الحَمام وغيرِ ذلك[٢]، كذلك الغفلةُ عن الجرائم الخلقيَّة والتَّغاضي عنها، واحتمالُ تلك الأفعال التي لا يتحمَّلها أصحابُ الفِطرة السَّليمة لأنفسهم، تُلحقُ الأضرار البالغة بالمدنية، وتكون سبباً من أسباب سقوط الدُّول والحُكومات[٣].

السَّعادة وأصولُها الأربعة:

والمبحث الرابع في الكتاب هو «مبحث السَّعادة»، وقد شرح فيه أنَّ الحصول على السَّعادة من أهمِّ حاجات البشر، بل هي أهمُّها على الإطلاق، وأنَّها لا تحصل إلاَّ بتهذيب النَّفس وإخضاع القُوَّة البهيميَّة للقوَّة الملكيَّة[٤].

وللسَّعادة ـ عند الإمام الدِّهلويِّ ـ أربعةُ أُصول، وقد بُعث لها الأنبياء والرُّسل، وتفصيلها وبيانها هي الشَّرائع السَّماويَّة، وأنَّها ـ في الحقيقة ـ عناوينُ جامعةٌ لشُعبِ الأديان والشَّرائع الأساسيَّة ومباحثِها الأوليَّة، ووسائل مؤثِّرة قويَّة لتحقيق مقاصد البِعثة وتكميل غاياتها، وهذه الأصول الأربعة كما يلي:

١ ـ الطَّهارة (وهي الطَّهارة البدنيَّة التي تُعِدُّ الإنسان للتوجُّه إلى الله تعالىٰ والعلاقة به).

٢ ـ الإخباتُ إلى الله تعالىٰ.

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٥.
(٢) المصدر السابق: ص: ٤٩.
(٣) المصدر السابق: ص: ٥٠.
(٤) المصدر السابق: ص: ٥١.

٣ ـ السَّماحةُ (وهي مكارم الأخلاق ومعالي الأمور).
٤ ـ العدالة[١] (وهي مَلَكة في النَّفس تصدر عنها الأفعال التي يُقام بها نظام المدينة والحي بسهولة).

وهكذا ألقىٰ الإمام الدهلويُّ ضوءاً كافياً على أُسَس كمال الشخصيَّة الإنسانيَّة وعلاقتها مع الله تعالىٰ، وتكوين مجتمعٍ صالحٍ مُتضامن، وهي مِن مقاصد الشَّرائع السَّماويَّة وبِعثة الأنبياء والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم شَرح كيفيَّة الحصول على هذه الخِصال الأربعة، وطريق التَّحَلِّي بها[٢]، ثم تناول بيان الحُجُب التي تَمنع وتَحُول دون ظهور الفِطرة الأصيلة، وقسَّمها ثلاثة أقسام:
١ ـ حجابُ الطَّبع (أي غلبة الأهواء والمُتطلباتِ البشريَّة النَّفسانيَّة).
٢ ـ حِجابُ الرَّسم: (تأثير البيئة والظُّروف الخارجيَّة الضَّارَّة).
٣ ـ حجابُ سُوء المعرفة[٣]: (تأثير التَّعليمِ والتَّربيةِ والعقائد الفاسدة).

ثمَّ بيَّن كيفيَّة معالجة هذه الحُجُب ورفعِها وإزالتها[٤].

العقائدُ والعِبادات:

يبدأ الموضوع الحقيقي للكتاب، وهو «المبحث الخامس» منه بـ«مبحث البرِّ والإثم»، وهو ـ في حقيقة الأمر ـ موضوعُ الكتاب الأصيل وغايته التي أُلِّف لها[٥].

وقد تناول الإمام الدِّهلويُّ ـ أوَّلاً ـ التَّوحيدَ من «أُصول البرِّ»، لأنَّه أصل

---

(١) يراجع تعريف هذه الأصول في ص: ٥٤ من الكتاب.
(٢) حجة الله البالغة: ص: ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) انظر للتفصيل: ص: ٥٦، من المصدر السابق.
(٤) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها في ص: ٥٧ ـ ٥٨.
(٥) المصدر السابق: ص: ٥٨.

الإخبات والإنابة التي هي أكبر وسيلةٍ للحصول على السَّعادة ، وقد ذكر الإمام الدهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ أربعَ مراتبَ للتَّوحيد ، وبيَّن حقيقة إشراك المُشركين العرب[(١)] .

وينتقلُ بعد الحديث عن التَّوحيد إلى الإيمان بِصفات الله تعالىٰ والإيمان بالقَدر وتعظيمِ شعائرِ الله ، وأهمُّ هذه الشَّعائر وأَبيَنُها ـ عند الإمام الدهلويِّ ـ القُرآنُ الحكيم ، والكَعبة المُشرَّفة ، والنَّبيُّ الكريم عليه الصَّلاة والتَّسليم ، والصَّلاة ، ثم يتحدَّث عن العبادات ، والفرائض ، والأركان ، ويَبحثُ عن أسرار الوضوء والغُسل ، وأسرار الصَّلاة ، وأسرار الزَّكاة ، وأسرار الصَّوم ، وأسرار الحج بصورة إجماليَّة[(٢)] ، وهذه المباحث ـ رغم أنَّها كُلِّيَّـة إجماليَّة ـ تحتوي على نُـكاتٍ ولطائفَ لا تظفرُ بها في أيِّ كتاب آخر .

وعلى سبيل المثال يقول في أسرار الصَّلاة : وأحسن الصلاة :

ما كان جامعاً بين الأوضاع الثَّلاثة (القيام ، والرُّكوع ، والسُّجود) مترقياً من الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، ليحصـل التَّـرقِّي في استشعارِ الخضوع والتذلُّل ، وهو ينسجم مع العقل والفِطرة .

ثمَّ ذكر الإمام الدهلويُّ وجهَ عدم الاقتصار في العبادة على التَّفكير في عظمة الله ، والمُراقبةِ لجلاله ، ودوام ذِكره(الذي هو طريق الحُكماء والرُّهبان الهنادك ، وجرىٰ عليه بعضُ الصُّوفيَّة المُنحرفين) ، وبيَّن أنَّ هذا التَّفكير والمُراقبة كانت تتيسَّر للذين يتَّفق ذلك وطبيعتَهم الخاصَّة وتنفعُهم ، وكان بإمكانهم أن يتقدَّموا ويترقَّوا عَنْ طريقها .

أمَّا الصَّلاةُ فهي المعجون المُركَّب من الفكر المصروف تلقاءَ عظمة الله بِالقصدِ ، وهي نافعةٌ لعامَّة النَّاس وخاصَّتهم ، تِرياقاً قويَّ الأثر ، ولا شيء أنفعُ

---

(١) مر هذا البحث في الباب الخامس من هذا الكتاب .

(٢) وقد جاء تفصيل هذه الحكم والأسرار في الجزء الثاني من الكتاب ، حيث بحث فيها في ضوء الأحاديث الواردة في هذه الأبواب .

علاجاً لغوائل الرسوم (تأثيراتِ البيئة الفاسدة) منها ، ولا شيء في تمرينِ النَّفس على انقيادِ الطَّبيعة للعقلِ وجَرَيانها في حكمةٍ مثلَ الصَّلاة[1].

أمَّا الصَّوم والحجُّ ، فقد جاءت عنهما إشاراتٌ في هذا المبحث ، ولكنَّ ما سجَّله الإمام الدَّهلويُّ في الجزء الثاني من الكتاب من مقاصده وأسراره وحِكَمِه ، لم أقف على مثيله قَبل ذلك في أيِّ كتاب ، وسيأتي ذكرها في موضعها في الصَّفحات القادمة .

السِّياسات المِلِّيّة والحاجةُ إلى هُداة السُّبل ومُقيمي المِلل:

عَنْوَنَ الإمام الدِّهلويُّ المبحثَ السَّادس بـ«مبحث السِّياسات المِلِّيَّة» ، وهو من أهمِّ المباحث في الكتاب[2] ، وقد صرَّح الإمام الدهلويُّ في الباب الأوَّل منه ـ في بلاغةٍ ودِقَّةٍ وواقعيَّة ـ بوجوه حاجةِ الناس وأسبابها إلى هُداة السُّبل ومُقيمي المِلل (الأنبياء والرُّسل) ، ولماذا لا تكفيهم في هذا الصَّدد عقولُهم العامَّة وفِطرتهم السَّليمة؟

ثم بحث في صفاتِ هؤلاء الهُداة المُرسلين والشُّروط التي لابُدَّ من تَوافرها فيهم ، وأنَّهم كيف ومتىٰ يستطيعون أن يُحقِّقوا مقاصدهم ، وينجحوا فيها .

ويمتازُ هذا الباب عن عامَّة البحوث والكتابات في كتب عِلم الكلام حول إثبات النُّبوَّة ، ويَشتمل على الزَّاد الكافي لإقناع العُقول السَّليمة ، الذي لا يتوفَّر في عامَّة كُتب العقائد وعِلم الكلام .

والبابُ الذي يبحث في مكانة النُّبوَّة ودورها وخصائصها في هذا المبحث ، يدلُّ ـ دِلالة واضحة ـ على معرفة الإمام الدَّهلويِّ برُوح الشَّريعة وحقيقة طبيعة النُّبوَّة ، ودِراستِه العميقة للنَّفس البشريَّة واطِّلاعه الدقيق على منابع الأخلاق

---

(١) حجة الله البالغة : ص : ٧٣ .
(٢) المصدر السابق : ص : ٨٣ ـ ٨٤ .

الباطنة، وقد جاء في هذا الكتاب بحثٌ مُفصَّل عن أسباب بِعثة الأنبياء والرُّسل أيضاً.

البِعْثَةُ المَقرونة:

يقول الإمام الدِّهلويُّ: «وأعظمُ الأنبياء شأناً من له نوعٌ آخر من البِعثة، فتكون بِعثَتُه مقرونةً ببعثةٍ أخرىٰ، أي أنَّ شعباً بل أمَّةً بأَسرها تُبعث مع بِعثته، ويُناط بها واجب الدَّعوة والتَّبليغ، وتتلقَّىٰ منه، وتستعدُّ بين يديه لتكون واسطةً ووسيلةً لتعليم الآخرين من الناس وتربيتهم وتزكيتهم، فتكونُ بِعثة النبيِّ بالأصالةِ، وهي التي تُسمَّىٰ (النُّبوَّة)، وتكون بِعثة الأمَّة وتولِّيها لِخدمة الدَّعوة بالنِّيابة والوساطة، وقد كانت بِعثةُ سيدنا محمد ﷺ هذه البِعثة الجامعة المقرونة، التي أقامت أمَّة بأسرها لتكون آلةً وجارحة تشتغلُ في خدمة مسؤوليَّة النُّبوَّة ونشرِ دعوتها ورسالتها، وقد استعملَ لذلك ألفاظَ البِعثة أو ما في معناها من التَّعبيرات، يقول الله تعالىٰ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجاء لفظُ البِعثة ـ صريحاً ـ في الأحاديث النَّبويَّة، فقد خاطب ﷺ أصحابَه الكرام بقوله:

«فإنَّما بُعِثتم مُيَسِّرين، ولم تُبعَثُوا مُعسِّرِين»(١)(٢).

وأَخصُّ مباحث هذا الباب هو المبحث الذي تناول فيه الإمام الدهلويُّ سيرةَ

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، برقم (٢٢١)، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا...» برقم (٦١٢٨)، وأبو داود في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، برقم (٣٨٠) والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرضَ، برقم (١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٧٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) حجة الله البالغة: ص: ٨٤.

الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلوات والتَّسليمات وذوقهم وطبيعتهم ، ومنهج دعوتهم ، وأسلوب تَبيينهم وخِطابهم ، ويُقدَّر منه دِقَّة نظر الإمام الدهلويِّ ، ودراستُه العميقة لخصائصِ النُّبوة والأنبياء وتدبُّره الغائص العميق للقرآن الحكيم[١].

إهدارُ القِيَم الخُلقيَّة والإيمانيَّة وبُؤس الإنسانيَّة في المدنيتين الرُّوميَّة والإيرانيَّة:

لم يكن عَهْدُ الجاهليَّة مُختصّاً بالعرب الجاهليين ، بل كانت هي أزمةً اعتقاديَّة وخُلقية واجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة عالميَّة شديدة ، أحدقت بالدُّنيا كلِّها ، وشملت بسيط الأرض ، ولكنَّ الإيرانيين والرُّومَ كانوا قادة هذه الأمَّة والمسؤولين الأولين عنها ، لأنَّ مدنيتهم كانت المدنيَّة الرَّاقية التي تُعتبر المِقياس في عالمهم المُعاصر ، وكان النَّاس يَحذون حذوها ، ويُقلِّدونها في كل مكان ، وكانت بلادهم ومُدنهم الرَّئيسيَّة الكبيرة ، ومُجتمعهم أنفسُهم أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ عُرضةً لهذه الأزمة والفساد.

إنَّ تصوير الإمام الدهلويِّ لهذا الوضع الجاهلي ، وأسبابَه التي أشار إليها لم نجد تصويراً أصدقَ منه وأدقَّ في أي كتاب من كُتب التاريخ والسِّيرة ، ولم نجدْ أيَّ ريشةٍ بارعة لأي عالمٍ من عُلماء فلسفة التَّاريخ والعُلوم العمرانيَّة ترسُم مثل هذا التَّصوير الصَّادق الدَّقيق ، وهنا يُسطِّر قلم الإمام الدهلوي من روائع البيان ، ما يدلُّ على أنه بلغ الذُّروةَ العُليا في جَزالة التَّعبير وقُوَّة الأداء وحُسن الإنشاء[٢].

ونتقل فيما يلي ما قاله الإمام الدهلويُّ في هذا الصَّدد إذ أنَّه يقدّر منه

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٨٦.

(٢) هذه القطعة نموذج رائع لقوة البيان وسلاسة التعبير وجمال الأداء، ولذلك اختارها المؤلف «لمختاراته في الأدب العربي» وضمها كنموذج رائع إلى مجموعة القطع الأدبية [انظرالجزء الثاني، صفحة: ١٢٤، طبع دار ابن كثير بدمشق].

ما امتاز به من نظرة عميقة في التاريخ وصلاحيَّة التَّوصُّل إلى لُبِّ الحقيقة والاستعداد الموهوب للتَّحليل الصَّحيح الدَّقيق للأوضاع والظُّروف ، يقول الإمام الدهلويُّ :

«اعْلم أنَّ العجمَ والرُّومَ لما تَوارثوا الخلافة قُروناً كثيرةً ، وخاضوا في لذَّة الدُّنيا ونسوا الدَّار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشَّيطان ، تعمَّقوا في مرافق المعيشة ، وتباهَوا بها ، ووَرد عليهم حُكماء الآفاق يَستنبطون لهم دقائقَ المعاش ومرافِقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ، ويتباهون بها ، حتَّى قيل: إنَّهم كانوا يُعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم مِنطقة أو تاجاً قيمتُها دون مئة ألف درهم ، أولا يكونُ له قصرٌ شامخٌ وآبزن وحمَّام وبساتين ، ولا يكون له دوابٌ فارهة ، وغِلمانٌ حسان ، ولا يكون له توسُّعٌ في المطاعم ، وتجمُّلٌ في الملابس ، وذِكرُ ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يُغنيك عن حِكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلاَّ أن تُمزَّع .

وتولَّد من ذلك دَاءٌ عُضالٌ، دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفةٌ عظيمةٌ لم يبقَ منهم أحدٌ من أسواقهم ورُستاقهم، وغَنيهم وفقيرهم إلاَّ وقد استولتْ عليه، وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه، وأهاجتْ عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أنَّ تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلاَّ ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلاَّ بتضعيف الضَّرائب على الفلاَّحين والتُّجَّار وأشباهِهم ، والتَّضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذَّبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبَقر يُستعمل في النَّضح والدِّياس والحصاد ، ولا تُقتنىٰ إلاَّ ليُستعان بها في الحاجات ، ثم لا تترك ساعةً من العناء ، حتَّىٰ صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السَّعادة الأخرويَّة أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربَّما كان إقليمٌ واسعٌ ليس فيه أحدٌ يَهمُّه دينه»[1] .

---

(١) حجة الله البالغة: باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم، جـ: ١، ص: ١٠٤ ـ ١٠٧ .

مَباحثُ نافعةٌ أخرىٰ:

ثم يأتي مبحثُ أنَّ أصلَ الدين واحد ، وأنَّ اختلاف المناهج والشَّرائع إنَّما هو مراعاةٌ لعصرٍ خاص وقومٍ بعينهم ، ثم يَشرحُ أسباب المُؤاخذة على المناهج رغم أنَّ أصل الدين واحد.

وبعد مباحثَ جانبيَّة في أسرار التَّيسير والتَّرغيب والتَّرهيب وغيرهما ، يُثبت الإمام الدهلويُّ الحاجةَ إلى دين ينسخ جميع الأديان والشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه كيف يُمكن حفظ هذا الدِّين من التَّحريف ، وما هي المنافذ والأبواب التي يَدخل منها التَّحريف ، وما هي الصُّور والأشكال التي يتجلَّىٰ فيها ، وما هي القوالب التي تتقمَّصها ، وما هي الطُّرق التي اختارتها الشَّريعة لسدِّ ذرائعه والحيلولةِ دونه ، وما هي التَّدابير والأحكام التي أَصدرتْها لأجل ذلك ، ثم بيَّن ـ في تفصيل ووضوح ـ ما كانتْ عليه الجاهليَّة في عهد البِعثة التي قام نبينا لإصلاحها وإقامة اعوِجاجها.

مَكانـةُ الحديث والسُّـنّة وَمَوقـفُ الأمّـة منهما:

يأتي المبحثُ السَّابعُ في الكتاب بعنوان: «مبحث الشَّرائع من حديث النبيِّ ﷺ» وتَرد فيه أبحاث تتعلَّق ـ مباشرة ـ بفَهم الحديث الشَّريف والسُّنَّة النَّبويَّة المشرَّفة ، واستنباطِ المسائل منها ، وأقسام العلوم النَّبويَّة ، وكيفيَّة تلقِّي الشَّريعة من النَّبيِّ ﷺ وطرقها وطبقات كتب الأحاديث المُختلفة جمعاً وتطبيقاً وترجيحاً وغير ذلك.

ويَبحث الإمام الدِّهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ في غاية من الدِّقَّة والإتقان في اختلاف الصَّحابة والتَّابعين في المسائل والفروع ، ويذكر أمثلة لذلك ، ثم يتعرَّض لاختلاف المذاهبِ الفِقهيَّة ، واختلاف أهل الحديث وأصحاب الرأي والفرقِ بينهما ، ثم يَشرحُ موقفَ الناس خاصَّتهم وعامَّتهم ـ قبل القرن الرابع وبعده ـ من الاستفتاء في المسائل ، وسؤال العلماء والعملِ بالأحكام الشَّرعيَّة ، ويَفيض في هذا المبحث ، ويُوضِّحه في تفصيل ، وهو يشتمل على

أبحاثٍ دقيقة عميقة ، يَصعبُ العثور عليها في أيِّ كتابٍ آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام.

أسرارُ الفرائضِ والأركان وحِكمُها:

لقد بحث الإمامُ الدِّهلويُّ في الأحاديث الواردة في أبواب العقائد ، والعبادات والمُعاملات ، والإحسان والتَّزكية ، والمقامات والأحوال ، وطُرق كسب المعاش ، والتَّبرُّع والتَّعاوُن ، وتدبير المنزل ، والخلافة والقضاء والجهاد ، والأطعمة والأشربة ، واللِّباس والزِّينة ، وآداب الصُّحبة والاجتماع.

وبَحث أخيراً في الفِتن والملاحم وأشراطِ السَّاعة ، وقد عَرَض ـ في هذا الصَّدد ـ خُلاصةً طيِّبةً للسِّيرة النَّبويَّة ـ صلَّىٰ الله على صاحبها وسلَّم ـ وقد شرح أسرار هذه الأبواب المُختلفة بأسلوبٍ لا تنقطع فيه صلة هذه المسائل والأحكام بالحياة والمدنيَّة وعِلم الأخلاق ، وهذا هو ـ في الحقيقة ـ الموضوعُ الأساسيُّ المحوري للكتاب.

وقد كان الإمام الدهلويُّ يهدف إلى أن تُدرس الأحاديث الشَّريفة في ضوء هذه الأسرار والحِكم مع رَبْطِها وإحكام صِلتها بالأعمال والأخلاق والمدنيَّة والاجتماع ، والسَّعادةِ الإنسانيَّة والعلاقات المُشتركة بين بني البشر حتَّىٰ يكون لها تأثيرٌ مطلوبٌ على الحياة والعمل والأخلاق والمدنيَّة والاجتماع ، ويُثبت موافقة العقل الصَّريح للنَّقل الصَّحيح ، وحتىٰ لا تتهيَّأ أيّ فرصة للمعترضين المنتقِصين في اعتراضهم على الأحاديث ، والحطِّ من شأنها وتقليلِ قيمتها وفائدتها ، وانتقاصِ أهمِّيَّتها والحاجة إليها (وهو الذي كانت تَفرَّسَتْهُ بصيرة الإمام الدهلويِّ ، وتفطَّنَ إليه بُعد نظره وتفكيره الواقعي) وإيجاد الاضطراب العقلي والفِكري فيما يتعلَّق بها ، وأنَّ ما سطَّره الإمام الدهلويُّ في موضوع الأركان الأربعة لا يُجاريه فيه أحد من المؤلِّفين ، وهو مِن خصائص «حُجَّة الله البالغة» ومزاياه.

ونُورِد فيما يلي شيئاً ممَّا قاله الإمام الدَّهلويُّ فيما يتعلَّق بمقاصد الصَّوم والحج وأسرارهما وأشكالهما الشَّرعيَّة الإسلاميَّة وحِكَمِها ولطائفها.

يقول وهو يتحدَّث عن الصَّوم وحكمة المِقدار المُحدَّد له وتحديدِ أعداد الصيام (وهو ما يختص بالشريعة الإسلامية) وأحكامه ومسائله الشَّرعية:

لم يُخبر الناس في عَدد الصومِ ومقداره «لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتَّسلُّل، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات الإسلام»[1].

ثم يقول وهو يذكر مِقداره وعَدده:

«ثم وَجب تعيينُ مِقداره لئلا يُفرِّط أحد فيستعمل منه ما يُوهن أركانه ويُذهب نشاطه ويُنفِّه[2] نفسه ويُزيره القبور، وإنما الصوم تِرياق يُستعمل لدفع السُّموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطيَّة اللطيفة الإنسانية ومنصتها، فلا بد من أن يتَقدر بقَدر الضرورة»[3].

ثم يُقارِن بين قسمين من الصوم (قسم يمسك فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما يُنافي الصوم اجتناباً كليّاً، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء) ويُرجِّح القسم الأول منه، ويُبيِّن فضله في ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمي وعلم النفس يقول:

«إنَّ تقليلَ الأكل والشرب له طريقان:

١ ـ أحدهما: ألاَّ يتناول منهما إلاَّ قدراً يسيراً.

٢ ـ والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدةً على القدر المعتاد.

والمُعتبرُ في الشرائع هو الثاني لأنه يُخفف ويُنفِّه ويُذيق بالفعل مذاق الجوع

---

(١) حجة الله البالغة: ج: ٢، ص: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) التنفيه: الإتعاب.

(٣) المصدر السابق: ص: ٤٩.

والعطش، ويلحق البهيمية حيرة ودهشة، ويأتي عليها إتياناً محسوساً، والأول إنما يُضعف ضعفاً يمر به ولا يجد بالاً حتىٰ يدنفه، وأيضاً فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلاَّ بجهد، فإن الناس على منازل مختلفة جداً يأكلُ الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين، والذي يحصل به وَفاء الأول هو إجحاف الثاني»[١].

إنَّه يُصرِّح بأنَّه لابُدَّ في هذا التعيين وتحديد المواعيد من التَّوسُّط والاعتدال، يقول:

«ثمَّ يَجِبُ أن تكون تلك المدَّة المُتخلِّلة غيرُ مُجحفة ولا مستأصلة كثلاثة أيام بلياليها، لأنَّ ذلك خلافُ موضوع الشَّرع ولا يَعمل به جمهور المُكلَّفين»[٢].

وما قاله الإمام الدهلويُّ عنِ الحج يُعتبر بحثاً ممتازاً فريداً، يقول:

«ومنها (أي من مقاصد الحج وغاياته) موافقة ما تَوارث الناس عن سيدنا إبراهيم، وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ فإنهما إماما الملَّة الحنيفيَّة ومُشرِّعاها للعرب، والنبي ﷺ بُعث لتظهر به الملَّة الحنيفيَّة وتَعلُو به كلمتُها، وهو قوله تعالىٰ:

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامَيها كخِصال الفِطرة[٣]، ومناسكِ الحج، وهو قوله ﷺ:

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر، وهي قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، أخرجه أبو داود [في كتاب الطهارة، باب السواك من الفطرة، برقم (٥٣)] برواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال الراوي: ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وقد صرح القاضي عياض والإمام النووي أنها الختان

«قِفوا على مشاعركم فإنّكم على إرثٍ من إرثِ أبيكم إبراهيمَ»[(١)(٢)].

ويَذكُر لها حِكمةً أخرىٰ، فيقول:

«كما أنَّ الدَّولة تحتاجُ إلى عَرْضَةٍ بعد كل مُدة ليتميز الناصح من الغاش والمُنقادُ من المُتمرِّد، ولِيرتفع وتَعلو الكلمة، ويتعَارفُ أهلُها فيما بينهم، فكذلك المِلَّة تحتاج إلى حجٍّ ليتميَّز الموفَّق مِن المُنافق وليَظهر دُخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرىٰ بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما لَيس عنده، إذ الرَّغائب إنما تكتسب بالمُصاحبة والتَّرائي»[(٣)].

ويقول:

«وإذا جُعل الحج رسماً مشهوراً نفعَ عن غوائل الرُّسوم ولا شيء مثلُه في تذكر الحالة التي كان فيها أئمَّة المِلَّة والتَّخصيص على الأخذِ بها»[(٤)].

ويقول في موضع آخر:

«ومنها (أي من مقاصد الحج) تحقيقُ معنىٰ العَرْضَةِ، فإنَّ لكل دولة أو ملَّةٍ اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني ليَعرف فيه بعضُهم بعضاً، ويستفيدوا أحكام المِلَّة، ويُعظِّموا شعائرها، والحجُّ عَرضةُ المسلمين وظُهور شوكتِهم واجتماعُ جنودهم وتَنويهُ مِلَّتهم، وهو قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥] ».

شُمولُ الكتاب وإحاطتُه:

إنَّ مِن مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل ـ عدا المباحث المُتعلِّقة

---

(١) [أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب موضع الوقوف بعرفة، برقم (١٩١٩)، والنَّسائي في الكبرى (٢/ ٤٢٤) برقم (٤٠١٠)، والشافعي في مسنده (١/ ٢٤١) من حديث يزيد بن شيبان].

(٢) حجة الله البالغة: جـ: ٢، ص: ٥٦.

(٣) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ٧٦.

(٤) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ٧٦.

بالفقه والحديث والعبادات والمُعاملات ـ على أبواب تدبير المنزل والخِلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصُّحبة التي تتعلّق بالأخلاق والاجتماع والمدنيّة والاقتصاد، ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامّة الكتب الفقهيّة والكلاميّة.

الإحسَانُ والتَّزكية:

زِدْ على ذلك أن الإمام الدِّهلويَّ قدَّم فيه نِظاماً مرتباً مُنقحاً للإحسان والتَّزكية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه، والعملِ به أن يَبْلُغ أعلىٰ مدارج الرُّقيِّ والكمالِ، ومراتب الوِلاية وغاية الأحوال والمقامات.

وقد امتدَّ هذا الباب من الكتاب على الصَّفحات من (٦٦ إلىٰ ص ١٠١)، وقد بَحثَ فيه الإمام الدهلويُّ عن تلك الطُّرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصَّحيحة، واكتفىٰ بمجرد التَّأكيد على روح الاحتساب والاستحضار، والنيَّة والعزيمة والكيفيات الباطنيَّة القلبية والاهتمام بها، واقترح علاج الأمراض والعلل الرُّوحيَّة بتلك الطُّرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صحَّ نقلها، كما بيَّن طرق العِلاج للأخلاق المذمومة الرَّذيلة وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنُّصوص الثابتة في الكتاب والسُّنَّة.

وقد أَورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية المأثورة، وشرح طريق الدُّعاء المقبول وكيفيته وشروطه وآدابه، وقد أكَّد فيه على القيام بتلبية المُقتضيات الطبعيَّة وحاجات الحياة الإنسانيَّة والأعمال الدينيَّة بالاحتساب، وبيَّن ذلك مع الغفلة عن الاحتساب يقول:

«اعلمْ أنَّ النيَّة روحٌ والعبادة جسد ولا حياة للجسَد بدون الرُّوح، والروح لها حياةٌ بعد مُفارقة البدن، ولكن لا تَظهرُ آثارُ الحياة كاملةً بدونه، ولذلك قَال الله تعالىٰ:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] . وقال رسول الله ﷺ : «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات»[١].

ثُمَّ يُعرِّف النيَّة بهذه الألفاظ الجامعة:

«وأَعني بالنيَّة المعنىٰ الباعثَ على العمل من التَّصديق بما أخبر به الله تعالىٰ على ألسنة الرسل من ثواب المُطيع وعقاب العاصي، أو حُبِّ امتثال حكم الله فيما أمر ونهىٰ»[٢].

وقد أوردَ الإمام الدهلويُّ في آخر هذا الباب أحاديثَ مُنتقاةً تتعلَّق بالتَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة وأداءِ حقوق العِباد وحُسن الصُّحبة والجِوار، التي يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يَصل إلى أقصىٰ درجاتِ التَّزكية والإحسان.

ثم تناولَ بيانَ تلك الأحوال والمقامات التي تحصُل للسَّالك نتيجةَ التَّزكية والإحسان، كما أنها تكون نتيجة النور في الباطن، وصَحوة القلب وصلاحه، وزكاء النفس وطهارتها، ومرضاة الله تعالىٰ، وتأييد الملأ الأعلىٰ واستبشارهم.

الجِهـادُ:

ويَشتمل هذا الكتاب على باب مُستقل حول الجهاد[٣]، وقد بدأه الإمام الدهلوي بهذه الكلمات المُثيرة المُنبِّهة، التي لا يقولها إلاَّ عارفٌ خبير يَملك بَصيرةً نافذةً، ونظرةً ثَاقِبة في تاريخ الديانات والمِلل، وأهدافِ خلق الكائن الإنساني وغاياتِه، والنظام المطلوب لدىٰ خالق الكون، يقول:

«اعلمْ أنَّ أتمَّ الشرائع وأكملَ النَّواميس هو الشَّرعُ الذي يُؤمر فيه بالجهاد».

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي...، برقم (١)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب النية، برقم (٤٢٢٧) وغيرهم باختلاف ألفاظ يسيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

(٢) حجة الله البالغة: جـ: ٢، ص: ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) المصدر السابق: جـ: ٢، ص: ١٧٠ ـ ١٧٨.

ثم شَرح ذلك وبيّنه وأثبته بالعقل والنَّقل، ثم ذكر أسباب فَضلِ الجهاد، وأصوله وضوابطه[١].

وبالجملة فإنَّ هذا الكتاب بشُموله وعُمقه، وتمثيلِه الواسع المُتَّسق المُترابط للدين والشَّريعة، ولِمئات من النكتات واللطائف والتَّحقيقات النادرة ـ التي تَنبثُّ على مواضع متفرِّقة من الكتاب ـ يحتلُّ مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلاميَّة الزَّاخرة، ويُصدِّق ما قيل: «كم ترك الأوَّلُ للآخر!».

وقد صدقَ العلاَّمة شِبْلِي النُّعماني إذ قال في كتابه: «علم الكلام»:

«إنَّ الانحطاط العقلي الذي أُصيبَ به المُسلمون بعد ابن تيميَّة وابنِ رُشد بل في عهدهما كذلك، لم يكن قد بَقي أملٌ ـ نظراً إلى الانحطاط العام ـ في ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذَّكي، ولكن أبتِ القُدرة الإلٰهيَّة إلاَّ أن تتجلَّىٰ، فإذا بالإمام وليِّ الله الدِّهلوي يُولد في العهد الأخير الذي كان الإسلام فيه في مِحنة وأزمة عقليَّة علميَّة، وقد تضاءلت أمامَ دقائقه ونُكاته مآثر الغزالي والرَّازي وابنِ رُشد».

ويَزيد قائلاً:

«لم يُؤلِّف الإمامِ الدهلوي في علم الكلام كتاباً مستقلاً، ولذلك فلا يناسب عَدُّه في زمرة المُتكلِّمين، ولكنَّ كتابه «حُجَّة الله البالغة» الذي كشَفَ عن أسرار الشَّريعة وحقائقها ـ هو رُوح عِلم الكلام ومِحورُه»[٢].

ويقول المُحقِّق الفاضل الشيخ عبد الحق الحَقَّاني في مقدِّمة ترجمته لـ«حُجَّة الله البالغة» المسمَّاة بـ«نعمة الله السَّابغة»:

«إنَّ الفنَّ الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب، لم يُؤلَّف فيه قبله شيءٌ، ولم يُدوَّن في

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ١٧٠.

(٢) علم الكلام: ص: ١٠٩ ـ ١١١.

مكان، فموضوع هذا الفنِّ هو النظام التَّشريعي المحمَّدي من حيث المصلحة المُفيدة، وغايتُه أن يعلم الإنسان أن أحكام الله تعالىٰ ورسوله ﷺ لا عُسر فيها ولا ضِيق، ولا تُخالف الفِطرة السَّليمة حتَّىٰ يطمئن بها الإنسان، وينجذبَ إليها قلبه ثقةً منه بأنَّها أحكامٌ تُوافق الفِطرة وتُبتنىٰ عليها، ولا يقع بتشكيك المُشكِّكين في الشبهات، وحدُّه أنه العِلم الذي تُعرف به حكم الأصول الدينيَّة والأحكام الشَّرعيَّة، ومبادئه جميع العلوم (المُتعلِّقة بالحياة البشريَّة)»[1].

* * *

(١) مقدمة «نعمة الله السابغة».

الفصل الرابع
الحاجةُ إلى نظام الخِلافة وفوائده وإثباتُ خلافة الخُلفاء الرّاشدين، وعظيم مِنّتهم علىٰ الأمّة في ضوء كتاب «إزالة الخفاء عن خِلافة الخُلفاء»

أهمّيّة كتاب «إزالة الخفاء» وامتيازُه وتفرُّده:

إنَّ الكتاب الذي يلي كتاب «حجة الله البالغة» في القيمة والأهميَّة، والذي هو مأثرة الإمام الدِّهلوي الفريدة هو كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء».

وإنَّه لِكثيرٍ من خصائصه ومزاياه كتابٌ فريدٌ في موضوعه، ويزخر هذا الكتاب كُلّه بالنُّكات العلميَّة المُثيرة والإشارات النَّادرة اللَّطيفة، وتتوفَّر فيه نماذجُ كثيرةٌ تدلُّ على تدبُّر الإمام الدهلوي الطَّويل وتفكيرِه العميق في كتاب الله تعالىٰ وتجاوبِه الموهوب معه وفَهمه الغائص الدَّقيق، وسُرعة البديهة، والتَّفطُّن لمكنونات الآيات وإشاراتها الدَّقيقة، وعُمقِ الاستنباط ودِقَّته، ووفرةِ الذَّكاء وتوقد الذهن؛ بحيث يتوصَّل به كل مُنْصِف سليمِ الفكر إلى أنَّ هذا العلم ليس كسبياً وكتابياً صرفاً، وأنَّ مؤلِّف هذا الكتاب ليس صَنيع المناهج الدِّراسيَّة المُتداولة، وكُتب التَّفسير وأصول الفقه وعِلم الكلام الشَّائعة في عصره،

يَقتطف منها، ويجمعُ فُتات مائدتها فحسب، بل إنَّ علمه نابع من الموهبة الرَّبانيَّة والفُيوض الإلٰهيَّة الخاصَّة.

وقد صَدرتْ من قلم الإمام الدهلوي نفسِه عفواً، هذه الكلمات التالية في مبدأ الكتاب:

«والواقع أَنَّ نور التَّوفيق الإلٰهي ألقىٰ في رَوع هذا العبد الضعيف عِلماً مُستقلاً بكل وضوح وتفصيل، حتَّىٰ عَلِمَ علْمَ اليقين أن إثبات خلافة (الخلفاء الرَّاشدين) أصلٌ من أصول الدين عظيم، وما لم يتمسَّكِ الإنسان بهذا الأصل تمسُّكاً قويّاً ولم يَعُضَّ عليه بالنَّواجذ بقيتْ كل مسألة من مسائل الشَّريعة مُعرَّضة للشَّك والضعف»[١].

حتَّىٰ إنَّ العلماء الكبار الذين كانت لهم خلافاتٌ مع الإمام الدهلوي، وكانوا مُوغِلين في العلوم العقليَّة ومنهمكين فيها، بل كانوا يحتلون مكانة الإمامة فيها، لما وقع بصرهم على هذا الكتاب لم يتمالكوا أن أثنوا على مُؤلفه، واعترفوا بتبحُّر عِلمه وسَعة معرفته ودِقَّة نظره، يقول الشيخ محسن بن يحيىٰ التِّرْهَتِي صاحب «اليانع الجني»:

«إنَّ العلاَّمة فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي[٢] وقعتْ في يده نسخة من كتاب «إزالة الخفاء»، فكان أُولع بِها ويُكثر النظر فيها أوانَ فراغه من دروسه وسائرِ ما يشغله من شأنه، فلمَّا وَقف على كثيرٍ منها قال لمَحضرٍ من الناس: إنَّ الذي صنَّف هذا الكتاب لَبَحْرٌ زخَّار لا يُرىٰ له ساحل»[٣].

وقد وَصف العلاَّمة فخرُ المُتأخِّرين أبو الحسنات عبد الحي اللكهنوي

---

(١) إزالة الخفاء: ص: ١، طبع أكاديمية سهيل، لاهور.

(٢) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» ج: ٧، وقد وقعت بينه وبين أبناء الإمام الدهلوي والذين كانوا على طريقه مطارحات علمية، ومناقشات دينية، لذلك كانت لشهادته قيمة كبيرة.

(٣) انظر «اليانع الجني» ص: ٩٣، المطبوع مع رجال الطحاوي، و«نزهة الخواطر» جـ: ٦، ترجمة الإمام الدهلوي، ص: ٤٠٦.

(ت ١٣٠٤هـ) ـ الذي يعترف بتبحُّر عِلمه ونبوغِه وسَعة نظره القاصي والدَّاني ـ في كتابه «التَّعليق الممجَّد على موطأ الإمام أحمد» كتاب «إزالة الخفاء» بأنه «كتابٌ عديم النَّظير في بابه»[١].

الصِّلةُ بين «حُجَّة الله البالغة» و«إزالة الخفاء»:

لقدْ كانتِ الحاجةُ بعد تأليف كتاب «حجة الله البالغة» الذي عُرض فيه نِظامُ الإسلام الجامع الشَّامل المُتناسق بطريقٍ يُثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنيَّة، ويُوضِّح أنَّه بدون تنفيذ الأحكام الإسلاميَّة المتعلِّقة بالعقائد والعبادات والحياة الاجتماعيَّة، لا يَبقىٰ أيُّ أملٍ في قيام مجتمع صالحٍ رشيدٍ، ومدنيَّةٍ صالحةٍ، وحياة اجتماعيَّة متَّزنة عادية، كانتِ الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلِها والقيام بهذه المرحلة بطريقةٍ علميَّة تحقيقيَّة (تَروي غليلَ الأذهان والطَّبائع العقلانيَّة لعهد الثَّورة العقليَّة التي كان قد أظلَّ زمانها إلى الكتابة في خصائص النِّظام الاجتماعي في الإسلام وطبيعتِه، وأهدافه وغاياته ونِطاق عمله، وعن «الخلافة» (الهيئة الإداريَّة العالميَّة الدَّائمة، الصَّريحة المنصوصة لهذا النِّظام) بهذا البسط والتَّفصيل، والأدلَّة من العقل والنَّقل، وشواهد التاريخ، وفوق كل ذلك في ضوء الكتاب والسُّنَّة الواضحة، وتَفْضَحُ الضَّلالات والظُّنون الخاطئة التي ظَهرتْ في هذا الصَّدد منذ زمنٍ قديمٍ، والتي نشأت بناءً عليها فرقةٌ جديدة[٢]، كانت قد أحدثت لسيطرةِ العناصر الإيرانيَّة في عهد الإمام الدهلوي نفسِه ـ بصفة خاصَّة ـ من الاضطرابِ الفكريِّ والبَلبلةِ العقليَّة ما تخطَّىٰ حدودَ المُعتقداتِ والأعمال، إلى نظام الحكومة وسُلطَة المُسلمين العُليا في الهند، وجعلتْ مستقبل المسلمين في الهِند في خَطر تحوم حوله الشُّكوكُ والشُّبهات.

إنَّ شأنَ هذه الفرقة (في نظر أولئك الذين يَعرفون تاريخ مذهَبِها ومُعتقداتِها

(١) التعليق الممجَّد: ص: ٢٥، طبع المطبع اليوسفي.

(٢) المراد بها الفرقة الإمامية الشيعية.

الأساسيَّة وفَهْمِها وتصوُّرها للدين، والذين دَرسوا كُتُبَها المُعتبرة ومصادرها المُعتمدة لدىٰ أهلها دراسةً مباشرةً) ليس شأنَ خلافٍ في الاجتهاد والقياس، أو فِرقةٍ جانبيَّة لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلاميَّة، بل إنَّها تحملُ إزاءَ التَّصوُّر الصَّحيح للدِّين الذي يَنبني أساسه على الكتاب والسُّنَّة، وعظَمَةِ مكانةِ النبوَّة، وعَقيدة ختم النبوَّة، تفكيراً مُستقلاً وتَصوُّراً دينيّاً مُقابلاً، ويُمكن أن يُقدر ذلك ـ إلى حدٍّ ما ـ مِن عقيدة «الإمامة» لدىٰ الفِرقة الاثني عَشريَّة، التي تَعْتَقدُ أنَّ الإمامة نَظيرُ النبوَّة، بل تَفضُلها وتَفُوقُها في جوانبَ كثيرة[1].

يقول الإمام الدهلوي وهو يُبيِّن الغرض الأساسي مِن هذا الكتاب وغايتَه الأولىٰ:

«يقول الفقير وليُّ الله ـ عفا الله عنه ـ إنَّ بِدعة التَّشيُّع راجَتْ في هذا العهد وانتشرت، وتأثَّرتْ طبائعُ العامَّة بشُبهاتهم التي أوردوها، ونشأتْ في قلوب مُعظم أهل هذه المنطقة شكوك وشُبُهاتٌ كثيرةٌ في موضوع ثُبوتِ خلافةِ الخُلفاء الرَّاشدين»[2].

لم يكن نظر الإمام الدهلوي إلى السَّطح الظَّاهر من هذه الفتنة التَّشكيكيَّة المُدبَّرةِ، بل كان يَنظرُ ـ ببصيرته الثَّاقبة ـ إلى أعماقِ تلك المُؤامرة الخطيرة التي كانت تَرسُب في داخله والتي كانت لتَظْهرَ نتائجها البعيدةُ الخطيرة (مثل خَيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأوَّل الزَّاهر، وأنَّ صُحبة

(١) وقع لدينا أخيراً كتاب «الحكومة الإسلامية» لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخميني الذي يعرف بآية الله العظمى الإمام الخميني، فقد جاء فيه في: ص ٥٢ بعنوان «الولاية التكوينية» بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون، ما يلي:
«وإنَّ من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يقربه ملك مقرب، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنواراً، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله». («الحكومة الإسلامية» طبع كتبخانه بزرك إسلامي ـ إيران).

(٢) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١.

النبيِّ ﷺ لم تُثمر ولم تفعلْ فِعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يُوثَقُ به، ومن نتائج هذا النَّوع من التفكير والاعتقادِ الطَّبعيَّة وجود عدم الثِّقة بِصيانة القُرآن الكريم، وبقائِهِ على أصالته وصحَّته، عن طريق الصَّحابة الذين شهدوا نُزوله وتلقَّوه عن النبيِّ المَعصوم ﷺ مباشرة، وذلك في خير القُرون، وكذلك الاضطراب في صحَّة الأحاديث ونَقْلِ السُّنَّة النَّبويَّة، وجميعِ الأمور التي اتَّفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوي:

«كُلُّ مَن يُحاول هَدم هذا الأصل (ثُبوت الخِلافة الرَّاشدة وصحَّتها) ويُنكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنَّما يُحاول هَدْمَ جميع الشعب الدينيَّة»[١].

ويَزيد قائلاً:

«إنَّ الخُلفاء الرَّاشدين هم الواسطةُ بين رسولِ الله وبين أُمَّته في أخذ القرآن الكريم وتَلقِّيه»[٢].

ثم يُدرج الإمام الدهلوي في هذه الدَّائرة تلك الشُّعبَ والعلومَ التي حصلت ثَروتُها للأمَّة عن طريق الخُلفاء الرَّاشدين، كعِلم الحديث وعِلم الفِقه والإجماع على المسائل المُجتهد فيها، والقضاءِ على اختلاف الأمَّة، وعِلم الإحسان (الذي سُمِّيَ ـ أخيراً ـ بعِلم السُّلوك) وتَوضيح الفَرق بَين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتَدبير المنزل، وسياسة المدنيَّة، كلُّ هذه العلوم والفنون والشُّعب الدينيَّة انتقلت إلى الأمَّة عن طريق الخُلفاء الرَّاشدين وبتعليمهم ومَنهج عملهم، وتَدينُ لها الأُمم كُلُّها في ذلك»[٣].

ولذلك كان من المناسب ـ جداً ـ أن يَشرح ـ بعد تأليف «حجة الله البالغة» الذي هو تفسيرٌ علميٌّ ونظريٌّ للإسلام ـ كيف طُبِّقتْ هذه الأصول والتَّعاليمُ الإسلاميَّة بعدَ عهدِ النُّبوَّة ـ مباشرة ـ في عالم الواقع بنجاحٍ منقطع النَّظير،

---

(١) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١.

(٢) المصدر السابق: ج: ٢، ص: ٤.

(٣) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء» جـ: ٢، ص: ٦.

وكيف ظَهَرَتْ في صورة عَمليَّةٍ، وطُبِّقَتْ على الحياة بطريقةٍ رائعةٍ، وما هي الآثارُ التي عادت بها على المجتمع البشري، وكيف قَضتْ على مدنيَّتين عتيقتين جبَّارتين تملِكان أزمة السُّلطة والسَّيطرة حتىٰ اقتسَمتا العالم المُتمدِّن كُلَّه، ويرجعُ تاريخها إلى قرونٍ عريقةٍ في القِدم وكانتا تزدهران وتتقدَّمان تحت ظلِّ الحكومات (الساسانيَّة والرُّوميَّة) وفي قيادتها، وتؤثِّران على الحياة الإنسانيَّة وتطبعانها بطابِعها، كيف انتهىٰ دورهما، وذهَبَتا أدراج الرِّياح!؟[1].

مُؤلَّفات قديمةٌ أخرىٰ في الموضوع:

لم نَعْثُر في مجموعةِ الكتب القديمة في موضوع النِّظام الاجتماعي والسُّلطة الحاكمة ودائرةِ نُفُوذها وعَملها إلا على كتبٍ معدودةٍ (بغضِّ النَّظر عن درجتها وكيفيتها، بل في عددها وكمِّيتها كذلك)، ويحتلُّ كتاب الإمام أبي يوسف (١١٣ ـ ١٨٢هـ) تلميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) وقاضي القُضاة في الخِلافة العبَّاسيَّة المعروف بـ«كتاب الخراج» مكانةً أوَّليَّةً وأساسيَّةً في هذا الموضوع، إلاَّ أنَّ نطاق البحث فيه لا يَخرج عن وسائل الدَّخل للدَّولة الإسلاميَّة ومالِيَّتها ونِظامِ المحاصيل والخَراج فيها.

وأوَّلُ كتاب بَسيطٍ يجدر بالذِّكر في هذا الموضوع هو كتاب «الأحكام السُّلطانيَّة والوِلايات الدِّينيَّة» لقاضي القضاة العلاَّمة أبي الحسن عليِّ بْنِ محمد بنِ حبيبٍ الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) وقد جاء في ٢٥٩ صفحةً من القطع المُتوسِّط، ويدور الكتاب حول موضوع الإمامة وحُكمها الشَّرعيِّ وشروطها وكيفيَّة انعقادها، والمناصب التي تتولَّىٰ تَفويضَها وتَعيين المسؤولين عليها، وواجباتِ الإمام ومسؤولياته، وأحكام تعيين القُضاة والأئمَّة، ووِلايةِ الصَّدقات، والجِزية والخَراج وغيرِ ذلك من الأحكام وكذلك إقامةِ الحدود،

---

(١) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء» جـ:٢، ص: ٥٤ عنوان «تحطيم الدولة الساسانية» وجـ: ٢، ص: ٥٩ ـ ٦٣ عنوان «تحطيم الدولة الرومية».

والحسبة، وغيرها، ولم يَرد فيه أيُّ بحثٍ في ثُبوت خِلافة الخُلفاء الرَّاشدين وصِحَّتها ومآثرهم ومناقبهم ومكانتِهم في الدين.

ومِن أَضخمِ الكُتب في هذا الموضوع «الغياثي» واسمه الكامل «غياث الأمم في الْتِياث الظُّلَم»[1]، وهو تأليف شيخ الإمام الغزالي المعروف، وأستاذ الأساتذة في عصره، إمام الحَرمين أبي المعالي عبد الملك الجُويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) وقد أَلَّف هذا الكتاب بإشارةٍ من وزير الدولة السَّلْجُوقيَّة الفاضل المعروف نظام المُلْك الطُّوسي (٤٠٨ ـ ٤٨٥هـ) (مؤسس المدرسة النِّظاميَّة ببغداد ونيسابور) لمطالعته ومراجعته، وقد كان هو في الحقيقة وزيرَ المَلك أَلْب أرسلان، وملك شاه السَّلجوقي ومُعتمده، ولكنَّه كان في الوقت نفسه رجل هذه الدولة العظيمة بل الإمبراطوريَّةِ الكبيرة الوحيد، وشخصيَّتها المركزيَّة[2].

وهذا الكتاب يدور حول الأحكام الشَّرعيَّة للإمامة وصفاتها وواجباتها، فقد ذكر في القِسم الأوَّل منه صفات الأئمَّة والولاة والقضاة، كما جاء فيه البحث في أنه إذا لم يوجد للمسلمين إمام فماذا يجبُ عليهم عند ذاك، كما ذكر فيه صفات المُفتين والأمراء وفضلَهم، وما هي الواجبات العائدةُ على الأمَّة عند غَيْبَتِهم، وماذا يجبُ على المسلمين إذا تسلَّط عليهم حاكم فاقِد الأهليَّة بالسَّيف والقُوَّة، وإذا خلا عصرٌ من العصور من أصحاب الإفتاء فكيفَ تَعملُ الأمَّة وما هي مسؤوليتها؟ وما هي الأسباب التي تُوجب خَلْعَ الإمام وَعَزْله؟

ثم جاء في تفصيل ذكر الأحكام الفقهيَّة التي يُفرض على الأمة معرفتها والعمل بها عند فُقدان المُفتين.

ومن هنا يتحوَّل الكتاب إلى كتاب في الفقه الشَّافعي، وليس في الكتاب أيُّ

---

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب وبعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري على نفقة الشؤون الدينية لحكومة قطر عام ١٤٠٠هـ، ويشتمل الكتاب على ٦١١ صفحة من القطع الكبير.

(٢) انظر لترجمته «وفيان الأعيان» لابن خلكان، و«طبقات الشافعية».

مبحثٍ في موضوع ثُبوت خلافة الخلفاء الرَّاشدين وأهمِّيَّتها، إذ أنَّ الكتاب يُعالج ـ في الحقيقة ـ موضوعَ الأحكام الشَّرعيَّة للإمامة وصِفاتِها وواجباتها، وتَرِد في الكتاب في مواضعَ كثيرة تعريضات بكتاب «الأحكام السُّلطانيَّة» للماوردي وانتقاداتٌ على مؤلِّفه.

والكتابُ الثالث الجديرُ بالذكر في هذا الموضوع هو «السياسةُ الشَّرعيَّة في إصلاح الرَّاعي والرَّعيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) وقد صرَّح المُؤلِّف العلاَّمة في مقدِّمة كتابه هذا بأنه رِسالةٌ مختصرةٌ اشتملتْ على أُصول السياسة الإلٰهيَّة والنِّيابة وأحكامِها التي لا يستغني عنها الرَّاعي ولا الرَّعيَّة، والكتاب ـ في الأصل ـ تفسيرٌ وتفصيلٌ للآيةِ الكريمة:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ ـ إلى قوله تعالىٰ ـ ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩] .

فعُنوان الباب الأوَّل من القِسم الأوَّل «الوِلايات»، وعُنوان الباب الثاني «الأموال»، وجاء البَحثُ في القِسم الثاني أوَّلاً عن حدود الله تعالىٰ وحقوقه، ثم حقوق العِباد، واشتمل الكتاب على ١٦٨ صفحة من القطع المتوسِّط[1].

ولم يتعرَّضِ المُؤلِّف في هذا الكتاب للمباحِثِ التاريخيَّة والأصوليَّة والكلاميَّة المتعلِّقة بالخلافةِ الرَّاشدة، والخلفاء الرَّاشدين، التي يَحتلُّ فيها مُؤلِّف الكتاب الجليل مكانةَ الثِّقة والإمامة والاجتهاد، ولو اعتنىٰ بهٰذه الناحيةِ لكانت زِيادة قَيِّمَةً في المكتبة الإسلاميَّة العِلميَّة والبحوثِ الموضوعيَّة، ولكنَّه بقلَمه السَّيَّال وعِلمه الزَّاخر في هذا الموضوع على صفات «مِنهاج السُّنَّة» الذي يتجلَّىٰ فيه نموذج بَحره العِلمي الزَّاخر، وجَوَلاَن قَلَمِه القويِّ السَّلسال[2].

مَكانَة الخِلافَة ومَنزلتُها في الإسلام:

يتجلَّى في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة تَصوُّر اعتناق الدعوة

---

(١) بين أيدينا طبعة رابعة للكتاب صدرت من دار الكتاب العربي بمصر عام ١٩٦٩.

(٢) راجع «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج: ٢ .

الإسلامية والدين الحنيف والمؤمنين به في صورة جماعة منظمةٍ مُتضامنة متَراصَّةٍ، وكلماتُ «الأمة» و«الملة» و«الجماعة» التي استُخدمتْ لهم كلُّها تَدلُّ على هذه الحقيقة دلالةً واضحة، ويَعرف أصحابُ العلم والبصيرة أنَّ هذه الكلمات المستخدمَة في لغة الكتاب والسنَّة، واصطلاحهما، لم تُستخدم ـ إطلاقاً ـ لمحض التَّصور السطحي للكثرةِ العددية والتجمع البشري العام الذي لايملك أي وزنٍ أو تأثير في تاريخ الأديان والمِلَلِ ولا في مقادير الشعوب والحضارات، بل لقد زخر القرآن الكريم كُلُّه في صَدد بيان وقائع الأمم السابقة حيناً، وفي التعرُّضِ لبيان أسباب القوة والضعف والهزيمة والغلبة حيناً ـ آخر ـ بعدَم تأثيرِ الكَثرة العددية، وخِفَّة الجموع البشرية، وفُقدانها لأي وزنٍ واعتبار، وغَلَبَةِ الشر والفساد رُغم وُجود الأفراد الصالحين الأخيار، وشقاءِ الإنسانية وبؤسها وضَعفِ الحق وخُذلانه، كلّ ذلك مما يؤكِّد على أن الأفراد المتفرِّقين ـ مهما كان عددهُم ـ لا يحملون ـ في ميزان العقل والعدالة ـ أهمية كبيرة وفائدة مرجوة عامةً.

إنَّ الأهداف التي يرمي إليها الإسلام تَشتملُ على إصلاح العلاقة وتنظيمِها وتَقويتِها بين العبد والمعبود، ثم توسيع نطاقها وتعميمها، ومحاولةِ سبكِ الحياة الإنسانية في قالبها، وتَصحيح العَلاقاتِ وتطبيقها بين أفراد الجماعة وأعضائها، وتهيئةِ الجوّ والمناخ الصالح لحياةٍ آمنة وادعةٍ مُطمئنة، مُهذبةٍ جميلة زاهية، تتوفَّر فيها الفُرص الكاملة لأداء حقوقِ العباد وربِّ العباد، والبلوغ إلى غايات الكمالِ ومدارج الرُّقي والفضل التي أودعت صلاحيتُها في فطرة الإنسان.

لقد حاول الإسلام ألاَّ تضيع العبقريةُ البشرية وقُوتها العلمية في مقاومة تلك الأخطار، والتوقي من تلك الخسائر والأضرار، وإزالة تلك المفاسد والأمراض التي تنجُم ـ تارةً ـ نتيجة الحياة المُمزَّقة غيرِ المنظمة ومنَ القوانين الوضعية تارةً أخرى، ولا بـد لذلك من خلافـةٍ وإمـارة تَبني على الاعتقـاد بقـانونٍ نازل من

السماء وشريعةٍ ربانية، وحاكميةِ الإله الواحد وألوهيته ورُبوبيته.

أمَّا الشريعةُ الإلٰهية فإنه يَلزمُ الاعتقاد فيها بأنها مُنزَّلة من الله العليم الحكيم، وإنها بريئةٌ عن الأخطار والمصالح الشخصية والأغراض، وإنها فوق العصبيات، والمحسوبيات، والعلاقات.

وأمَّا الخلافة والإمارة فإنه يجب عليها أن تكون تُرجماناً صالحاً وممثلةً صادقة للشريعة الربانية، بعيدة ـ إلى حد المُستطاع البشري والإرادةِ الإنسانية ـ عن التميز والعصبية بغيرِ حق، بريئةً عن عدم المساواة بين الناس، والمُحاباة والمداهنة في الدين.

وقد أصدرَ الشارعُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتكميلِ هذه الأهداف وتحقيقِها وظهور نتائجها وثمارِها ـ من أول الأمر ـ تعاليمَ وإرشاداتٍ يضطر المسلمون ـ بناء عليها ـ أن يتكوَّنوا جماعةً مُنظَّمة مترابطة تخضع لأحكام ولي الأمر وإدارته الذي يمتازُ عنهم ـ بصفةٍ عامة ـ بكثير من الخصائص، ويحافظ على مصالحهم ومنافعهم وحاجاتهم، وقد اختارُوه في ضوء أصول الشريعة السَّمْحةِ المَرِنة العادلة، فإذا كان ذلك يتولى «الإمامة الكبرى» فإنَّه يُدعى بـ«خليفةِ المسلمين» و«أمير المؤمنين» أو «الإمام» أما إذا كان نائباً عنه أو مُرشّحاً منه أو اختاره المسلمونَ لتنفيذ أحكام الشريعة وفصلِ الخصومات وتنظيمِ الحياة الدينية الاجتماعية ـ بشكل جُزئي محلي ـ فهو «الأمير».

لقد كان اختيارُ الخليفة وترشيحُه من تلك الواجبات الأساسية على المسلمين، فكان أن قَدَّم أكبرُ المحبين للرسول ﷺ وصاحبهُ الصادق الوفي المستميتُ دونه، سيدُنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وجماعة صحابتِه الكرام الذين كانوا يَفْدُونه بالمُهَجِ والأرواح ويُفضّلونه على الأنفس والأبناء والآباء ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ مع أهل البيت الطيبين الأطهار ـ فصْل هذه القضية، وترشيحَ خليفة المسلمين وتعيينَه على دفنِ الجسد الطاهر ﷺ ولا يزال هذا ـ تقريباً ـ دين المسلمين وطريقَهم عند وفاة أي خليفة واختيار خليفة آخر.

ولم يُحرم العالم الإسلامي من يوم اختيار سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خليفةَ المسلمين عام ١١هـ إلى عهد الخليفة المستعصم بالله العباسي (ت ٦٥٦هـ) من الخليفةِ المسلم ، وبقي العالم الإسلامي ـ في أثناء ذلك ـ بدون خليفةٍ أيام غياب الخليفة المسترشد بالله ووقوعه في الأسر ، الذي اعتقله السلطان مسعود السلجوقي في العاشر من رمضان عام ٥٢٩هـ وذلك لمدة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وسبع ليال ، وقد كان هذا حادثاً أليماً وتجربة جديدة قاسية غَشَّىٰ بسببها على العالم الإسلامي السوادُ وعَلاه الحزن والكآبة ، وقامتْ لها بغداد وقعدت ، وفي تعبير المؤرِّخ ابن كثير :

«انزعجَ الناس لذلك ، وزُلزِلوا زلزالاً شديداً صورةً ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكَسروها وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرَج النساء في البلد حاسرات يَنُحْنَ على الخليفة ، وما جَرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد في ذلك خلقٌ كثير من أهل البلاد ، وتمَّت فتنة كبيرة وانتشرت في الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذي القعدة والشناعةُ في الأقاليم منتشرةٌ ، فكَتب الملك سَنْجَر إلى ابن أخيه يُحذِّره غِبَّ ذلك وعاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمرُه أن يُعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته ، فامتثلَ الملك مسعود ذلك»[1] .

وإنَّ القصيدة المأساوية الحزينة المفطِّرة للقلوب والأكباد التي قالها الشيخ سعدي ـ الذي كان بعيداً عن مركز الخلافة في شِيراز ـ على حادثِ شهادة الخليفة المستعصم بالله ، التي يقول في مطلعها ما ترجمته بالعربية :

«لقد حُقَّ للسَّماء أن تُمطر على الأرض الدماءَ على سُقوط المستعصم أميرِ المؤمنين» .

تُصرِّح بنظرة المسلمين إلى الخليفة والخلافة ، ما هُو تَصوُّرهم لها ، وما

(١) البداية والنهاية : لابن كثير ، جـ : ١٢ ، ص: ٢٠٨ .

هي عَواطِفُهم التي لا يملكون حبسها وكَبْتَها على حرمان العالم الإسلامي منها؟.

التّعريفُ الجامعُ المانعُ للخلافة:

لقد عرَّف الإمام الدِّهلوي ـ الذي كان يَملكُ بصيرةً نافذة ودراسةً عميقة واسعةً للكتاب والسنة والفقه، والعقائد والكلام والسيرة والتاريخ، وكان عارفاً بأسرار الشريعة وحقائقها ـ الخلافة تعريفاً جامعاً مانعاً يَصعُب أن يُعرَّف بأفضل وأدقّ منه، وإنَّ كل لفظةٍ من ألفاظ هذا التعريف تحملُ في طيَّاتها سِجلاً من المعاني والحقائق والأمثلة، يقول:

«الخلافة هي الرئاسة العامة في التصدّي لإقامة الدين بإحياء العُلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفَرض للمُقاتلة وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود، ورفع المظالم، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، نيابةً عن النبي ﷺ»[1].

ثم يقول مُبيناً معنى «إقامة الدين» وزيادةَ إيضاحٍ له:

«عندما نَنظرُ إلى الأمور نظرةَ استقراءٍ، وننتقلُ من الجزئيات إلى الكلّيات، ومن الكُليات إلى الكُلِّية الواحدةِ الشاملة للجميع، نصل إلى نتيجةٍ أنَّ الجنس الأعلى لهذه الأمور مِنَ الجُزئيات المتشتّتة والكليات المنتشرة الكثيرة (وكأنَّها كُلِّيةُ الكليات) هي تلك الحقيقة (الكلية الجامعة) التي عُنوانُها «إقامة الدين» والتي تَندرج تحتها أنواعٌ أخرى، منها: إحياء العلوم الدينية التي تشتمل على تعليم الكتاب والسنَّة والتذكير والموعظة، يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢][2].

---

(١) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ٢.
(٢) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ٢ ـ ٣.

الاستدلالُ بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين:

إنَّ أَروعَ ما يحتوي عليه هذا الكتاب وأشوقَه للمتذوِّقين لمعاني القرآن الكريم، هو ما استدلَّ فيه الإمام الدهلوي على انعقاد خلافة الخلفاء الراشدين، وأنهم أصحاب الخلافة الراشدة الحقَّة وأنه تَحقَّق بهم الأمر التكويني الرباني والمشيئة الإلٰهية، بآياتٍ كريمات من القرآن الحكيم، ولَفت الأنظار إلى تلك الإشارات بل التَّصريحات في الآيات البينات التي تُثبت بداهة ـ بل في صورة نتائج رياضية قطعيةٍ في بعض المواضع ـ أنَّ هذه الآيات لا تصدق ولا تنطبق إلا عليهم، ولا يمكن أن يُراد بها غيرهم، وأن هذه النبوءات الواردة في الآيات لا تَرجع إلى غير أشخاصهم، وأن الوعود التي انطوت عليها تلك الآيات لم تتحقَّق في عهدٍ غير عهد خلافتهم، فلو سحبنا ـ من الوسط ـ شخصياتهم وعهودَهم لظلتْ هذه الأوصاف بدون ما تَصدُق عليه، ولباتتْ هذه الوعود تنتظر التَّحققَ والوقوع.

نختارَ من بين الآيات التي أَوردها الإمام الدهلوي آيتين اثنتين كنموذج، منها آيةٌ من سورة النور، يقول الرب عز وجل:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

يَقولُ الإمام الدهلوي: إنَّ هذا الوعد (بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والأمن بعد الخوف) إنما كان مع أولئك الذين كانوا مَوجودين وقتَ نزول سورة النور، وقد تشرَّفوا بالإسلام وصحبة النبي عليه الصلاة والسلام، وشاركوا في تأييد الدين الحنيفِ ونصرِه، يقول الإمام الدهلوي ـ بصراحة ووضوح ـ: إنَّ هذا الوعدَ لم يكن مع سيِّدنا مُعاوية رضي الله عنه، ولا معَ بني أمية وبني العباس الذين لم يكونوا ـ حينذاك ـ قد دخلوا في الإسلام، ولا كانوا موجودين في المدينة المنورة.

ثم يقول: إنه ليسَ من الممكن ولا منِ المعقول أن تُولّى جماعةُ المسلمين كُلُّها الخلافةَ في الأرض ، ويتبوؤون كلُّهم في وقت واحد منصبَ الخلافة ، فلا يُمكن أن يراد بذلك إلا بعضُ الأفراد المعدودين.

يقول:

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ أي: لَيستخلفنَّ جمعاً منهم ، والطاعةُ والانقيادُ من لوازم ذلك ، ثم عندما يَتحقَّق هذا الوعد يظهرُ الدين كُلُّه ، وتحصل له السلطة والسيطرة الكاملة ، وليسَ كما يقول الاثنا عشريون: إنَّ الدِّين المرضي عند الله يبقى ـ دوماً ـ مستتراً مخفيّاً ، ولذلك اتخذ أئمةُ أهل البيت التّقية شعارَهم ، ولم يُقدَّر لهم أن يُعلنوا دينهم ويُظهروه ـ جهاراً وعلانية ـ.

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أفادت هذه الآية أنَّ ذلك الدينَ الذي لا يُقدر على إظهاره في زمن هذه الخلافة الموعودة؛ ليس ديناً مَرضيّاً مختاراً عند الله تعالى(١).

كذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾: أي أن الله ـ تعالى ـ يخلق في عهد هذه الخلافة (الموعودة) جواً من الأمن والطمأنينة والسلام بدلاً من جَو الخوف والفزع ، و يُثبت ذلك أن هؤلاء المستخلَفين وسائر المسلمين يعيشون وقتَ تحقُّقِ هذا الوعد في أمنٍ وسلام ، لا يُرهبهم الكفار ذوو الدياناتِ المختلفة ، ولا تُخيفهم جماعةٌ أو قوة.

وبالعكس من ذلك يقول الإماميون: إن أئمة أهل البيت ما زالوا في خوفٍ ومطاردة وفزع ، وأنهم استخدموا «التقية» وأنهم واجهتهم ـ دائماً ـ منِ قبل المسلمين أنفسِهم محنٌ وبلايا ، وعانوا من الذِّلة والإهانة ، ولم يعيشوا يوماً مُؤيَّدين منصورين(٢).

---

(١) إزالة الخفاء: ج: ١ ، ص: ٢٠.
(٢) المصدر السابق: ج: ١ ص ، ٢٠.

وقد تحقَّق وعدُ الاستخلاف والتمكين في الأرض على أيدي هؤلاء المهاجرين الأولين والحاضرين وقتَ نزول آية الاستخلاف ، فإذا لم يكن هؤلاء خلفاء ، فقد بقيَ هذا الوعد غيرَ محقق ، ولن يتحقق إلى قيام الساعة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ[1] .

والآية الثانية هي آية سورة الفتح رقم : ١٧ ، يقول تعالى : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ، وقد بحثَ الإمام الدهلوي في هذه الآية بحثاً مُفصّلاً ، وخُلاصته أن نبي الله ﷺ خرج عام ٦ هـ مع جماعة كبيرة من أصحابه بناء على رؤيا رآها ، إلى مكةَ المكرمة ، قاصدين أداءَ العمرة ، وقد خرج معه ﷺ عددٌ كبير من أصحابه لخُطورة الحادث ، وظروفِ مكة المكرمة ، وخَطَرِ قيام قريشٍ بالمعارضة والمعاداة ، ولكن لم يخرُج معه الأعراب (سكان البوادي) لخَوفِهم ونفاقهم ، وقد وقع في الحديبية ذلك الحادث التاريخي لفَسخ العزيمة ومعاهدةِ الصلح مع قريش الذي ذُكر في كتب السيرة والحديث بتفصيل ، ووقعتْ هناك بيعةُ الرضوان التي أعلن الله تعالى للمشاركين فيها بنِعمة رضاه ، وبشرهم بالفتح القريب .

ثم أعلن في سورة الفتح هذه أن الأعراب ـ الذين لم يكونوا حاضرين وَقْت صُلح الحديبية والذين انصرفوا عن الزمالة والمشاركةِ في هذه المهمة العسيرة الخطيرة ـ لا يُصحَبون ولا يُشَاركون في هذا الفتح القريب (فتحِ خيبر) (الذي وقع في شهر محرم الحرام عام ٧ هـ) ، يقولُ الله تعالى :

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح : ١٥] .

ثمَّ قيل بعد ذلك لهؤلاء المخلفين أنه لا يُؤذن لكم بالمشاركة في الفتح القريب (فتح خيبر) والاستمتاع بمغانمه ، ولكنكم ستدعون إلى حرب مع

---

(١) إزالة الخفاء : ج : ١ ، ص : ٢٣ .

أناس أولي بأس شديد ، من صفاتهم أنّهم أصحاب قوةٍ وشجاعة وبأس ، ومن خصائصهم أنهم إما أن يُقاتلوا أو يدخلوا في الإسلام وليس هنالك حلٌّ وسط (كالجِزية مثلاً) ، وأن هذه الدعوة والنداء إلى هذه الحرب والقتال يكونُ لها من الحُب والقبول عند الله تعالى، وأنَّ الداعي إليها يكون له مِن الوزن والاعتبار ، ويكونُ له من وُجوب طاعته على الناس أنّكم إذا قبلتم دَعوته ، وأطعتموه يُؤتكمُ الله أجراً حسناً ، وإن توليتم وانصرفتُم كما توليتم من قبلُ يُعذبكمُ الله عذاباً أليماً ، يقول الله تعالى :

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] .

يقول الإمام الدهلوي: «يَثبتُ من قوله تعالى (ستدعون) بالاقتضاء أنّه يكون في المستقبل داعٍ يُوجِّه الدعوة للأعراب (سكان البادية الذين لم يخرجوا مع الجيوش الإسلامية بمناسبة صلح الحديبية) إلى حرب مع قوم ليس لها إلا صورتان اثنتان: إما القتال أو الإسلام ، (ولا يصدُق ذلك إلا على المرتدين مِن قبائل العرب الذين لم يكن يَحِلُّ أخذ الجِزية منهم ، فهم إما أن يُقاتِلوا فيُقتلوا في الحرب ، أو يُسلِموا ويعودوا إلى حظيرة الدين) .

ولم يتحقَّقْ هذا إلا في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ الذي قاتل المرتدين من العرب ، وكان حكمهم الشرعي ذلكَ لا غير ، وليس من المُمكن أن يُراد به الروم ولا الإيرانيون الذين كانتْ لهم ثلاث صور ، إما القتال أو الجزية أو الإسلام ، ويَثبُت بذلك ـ بداهةً ـ خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ الذي بَعث جيوشه تحت قِيادةِ سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، لمقاتلة هؤلاء المرتدين ، ووجَّه الدعوة إلى الأعراب ، ثم إنَّ الوعد بالأجر الحسن على قبول هذه الدعوة ، والوعيدَ بالعذاب الأليم على الإعراض عنها ،

ليسَ إلا حقَّ الخليفة الراشد ومنصبه ومكانَته[١].

مُحتويات قَيِّمَة أُخرى في الكتاب:

ويَشتمل هذا الكتاب ـ علاوةً على الأدلة والبراهين على إثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وذِكرِ مناقبهم ومآثرهم وإنجازاتِ عهودهم، ومجموعةٍ قيمة صالحةٍ من كلماتهم وتوجيهاتهم ـ على فوائدَ غالية وتحقيقاتٍ نادرة، ونُكات لطيفةٍ، ومواد قيمة، لا تتوفر في كتب القرون الثلاثة[٢]، وبيان الفَرق بين الخلافة والمُلْك، وتفاصيلهما[٣] وشرح «المُلك العَضوض»، والتصريح بأنَّ دولة بني أمية وسلطتهم المُطلقة لم تكنْ خلافة، وهو وإن كان يرى أن الخلافة الراشدة انقَضَتْ مع سيدنا عليّ رضي الله عنه لكنه يتجنَّب الطَّعن والوقيعة وإساءةَ الظن بسيدنا معاوية رضي الله عنه وينصح به، بناءً على ما ورد في فضله ومناقبه من أحاديث وآثار[٤]، أما خُلفاء بني أمية بعده فيقول في حقهم ـ بكل صراحة ـ:

«لمَّا تسلَّط عبدُ الملك (بن مروان) على الحكومة زالتِ الفوضى والاضطراب، وظهرتْ أمور الخلافة الجائرة ـ التي بيَّنها الرسول ـ ﷺ في

---

(١) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء»: ج: ١، ص: ٣٨ ـ ٣٩، وقد جاء تأييد هذا الاستدلال في تفسير العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي (م ١٢٧٠هـ) المعروف بـ«روح المعاني»، يقول الآلوسي:
«المراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري: بنو حنيفة، ومسيلمة، وقومه أهل اليمامة، وعن رافع بن خديج: إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم أريدوا بها، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبي بكر رضي الله عنه (روح المعاني ص: ١٠١ ـ ١٠٤).

(٢) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ١٢٦.

(٤) المصدر السابق: ص: ١٤٦ جـ: ١.

أحاديثَ متعددة ـ على مَسرحِ الوجود»[١].

ومِن خصائص هذا الكتاب احتواؤُه على مادةٍ زاخرة في المنهج الفقهي لسيدنا عُمرَ الفاروق رضي الله عنه ، ولفتاواه وأحكامِه وأقضيته ، وقد تكوَّن منها ظهورُ «فقه الفاروق» رضي الله عنه[٢].

ولعلَّ هذه الخُطوة نحو عرض «فقه الفاروق» رضي الله عنه بصورةٍ متميِّزة فريدة ، وجمعِ اجتهاداتِه وأقيستِه وفتاواه كانت الخطوة المباركة الأولى التي أنجزها الإمام الدهلوي مع أوليّاته وسوابقه العديدة ، ولم يؤلَّف ـ إلى الآن ـ في هذا الموضوع أيُّ كتاب مستقلٌّ جامع ، إلاَّ أنَّ الدكتور محمد رَوَّاس قلعه جي رتَّب كتاباً ضخماً كبيراً باسم «موسوعة [فقه] عمر بن الخطاب [عصره وحياته]» رضي الله عنه ، قامتْ بنشرها مكتبة الفلاح بالكويت ويشتمل الكتاب على ٦٨٧ صفحة من القطع الكبير[٣].

ومع إثبات خلافةِ الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وذِكر فضلهم ومناقبهم ومآثِرهم وخدماتهم العظيمة بإسهاب وتفصيل يتجلَّى فيه تذوُّق الإمام الدهلوي للموضوع ، وحماسُه واندفاعُه نحو الإشادة بجليل أثرِهم ، والذي كان تلبيةً لحاجة ماسَّةٍ كانت من مقتضيات عصره ومن العوامل والدوافع القوية إلى تأليف هذا الكتاب ، لم يتحفَّظِ الإمام الدهلوي في ذكر مناقب سيدنا علي بن أبي طالب وجلائل أعماله ومآثره ، ولم يضنَّ في ذلك بشيءٍ ، بل ذكر سيدنا عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه بكُل حُبٍّ وإجلال ، واعترافٍ بحقوقه ومكانتِه الجلية وعواطف الحبِّ والشوق نحو أهل البيت

(١) إزالة الخفاء: ص: ١٤٣ ، جـ: ١ ، ويقول المؤلف عن يزيد بكل صراحة «دعاة الضلال يزيد بالشام ، ومختار بالعراق» (حجة الله البالغة» جـ: ٢ ، ص: ٢١٣ وكذلك وصفه في بحث المناقب بقوله «كان منافقاً أو فاسقاً» ص: ٢١٥).

(٢) راجع «إزالة الخفاء» ، جـ: ٢ ، ص: ٨٥ ـ ١٤٢.

(٣) [وقد طُبع أخيراً في دار النفائس ببيروت في سلسلة الموسوعة عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م].

الكرام ، بتفصيلٍ وإفاضةٍ ، وقد بدأ مناقبَ سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومآثرَه بقوله :

«مآثرُ أميرِ المؤمنين وإمام الأشجعين أسدِ الله الغالب عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه» .

كذلك يُذكر السَّيدين الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما بحبٍّ وإجلال وإكبار ، ويَعُدُّ في الوقائع الهائلة العظيمة بعد وفاة النبي ﷺ شهادةَ سيدنا عثمان رضي الله عنه الفتنةَ الأولى التي وقعت في الإسلام[١] ، وشهادةَ بِضعة الرسول ـ سيدنا الحسين ـ رضي الله عنه الفتنة الثانية ، وأوردَ حديثاً من «مشكاة المصابيح» برواية البيهقي ، يُفيد أن نسبة سيدنا الحسين رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ كنسبة مُضغة اللَّحم إلى الجِسم ، وأنَّ نبيَّ الله ﷺ قد تنبَّأ باستشهاد سيدنا الحسين رضي الله عنه على أيدي أفرادٍ من أمته[٢] .

وقد عَدَّ من هذه الفِتَن واقعةَ الحَرَّة العظيمة ، التي انتُهكتْ فيها حُرمة المدينة المنورة في عهد يزيد ، ووقَع من القتل والنهب والسلب ما يَندى له الجبين ، وتعرضتِ المدينة وأهلُها للامتهان والذّلة وانتهاك الحرمات[٣] ، وقد انتقد الإمامُ الدهلوي بني أمية في مواضع كثيرة من الكتاب[٤] ، وهكذا جاء الكتاب ميزاناً عادلاً وسَطاً ، لا يميل نحو الإفراط ولا التفريط ، وهذا هو شعارُ أهل السنة والجماعة ، وموقِفُهم المتَّزِنُ الصَّحيح .

الدَّلالةُ على الفِتن والتَّغيُّرات الحادثة بعد وفاة النبي ﷺ:

إنَّ مِن أكبر خصائص هذا الكتاب أنه تتجلَّى فيه صورةٌ بارزةٌ مجسَّدةٌ لتاريخ الإسلام الديني ، و التغيُّرات الدينية والعقلية والفكرية التي طرأتْ عليه ، إنَّ

(١) انظر إزالة الخفاء جـ: ١ ، ص: ١٥٤ .
(٢) المصدر السابق: جـ: ١ ، ص: ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق: ١٥٤ .
(٤) المصدر السابق: ص: ١٥٤ ـ ١٥٥ .

كُتب التاريخ العلمي والسياسي للإسلام كثيرةٌ لا تحصى ، ولكننا لا نعثر على كتاب يُشير إلى معالم التغيرات الخلقية والعلمية والعقلية في أثناء تسلسل التاريخ المدني والسياسي للإسلام (مهما كانت هذه التغيُّرات الحادثة خفيفةً قليلةً باهتة اللون لا تُكشف إلا بمجهرِ المعرفة الدقيقة للطبيعة الإسلامية)، وكل ما يُوجد في عامة الكتب بهذا الصدد لا يعدو مادة متفرقة مُنتشرة ، ولم يختَرْ أحدٌ من المؤلِّفين هذا الموضوع عنواناً لبحثه المستقل، أمَّا الإمام الدهلوي فإنه يَذكر الفتن الحادثة في القرون المشهود لها بالخير ، والفِتن التي حدثتْ بعده[1] ، واختلافَ الأحكام بين خَير القرون وشَرِّ القرونِ[2] ، والتَّغيراتِ الفكريةِ والمعنوية التي طرأتْ ضمن التغيرات الكلية ، والتي وَقعت في عهد الرسالة ، وبعدَ خير القرون ، وقد جاءتْ عناوينُ هذه المباحث كما يلي :

ظهورُ الكذب ، التَّقعُّر والمُغالاة فيما يتعلق بقراءةِ القرآن الكريم وتجويدهِ ، والاكتفاءُ بقراءة القرآن الكريم وتلاوته ، وقِلةُ التدبر والتفقُّهِ فيه ، والتَّقعير وشقّ الشعرة في المسائل الفقهية ، البحثُ والجدال في المسائل الفرضيّة التي لم تقع أصلاً ، تأويلُ متشابهاتِ القرآن وإبعادُ النُّجْعَةِ فيه ، توليدُ الأسئلة الطريفة في العقائد والإلٰهيات ، إحداث الأوراد والأحزاب بنيَّة التقرب إلى الله تعالى التي لا تُوجد في السنَّة المأثورة ، الالتزامُ بالمستحبَّات كالالتزام بالواجبات ، انقراضُ الشورى الاجتماعية ، ومراجعةُ العلماء الصالحينَ في الإفتاء ، نُشوء فِرَقٍ جديدةٍ كالقَدرية والمُرجئة وغيرهما ، رفعُ الثقة المتبادلة بين المسلمين وعَدم أَمْنِ بعضهِم بعضاً ، سيطرةُ أولئك على الدولة الذين لا يتأهلون لها أصلاً ، أو هم من رجال الدرجة الثانية أو الثالثة ، الكَسلُ والتواني في إقامةِ أركان الإسلام[3] .

(١) إزالة الخفاء: ص: ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٦ .
(٣) المصدر السابق: ص: ١٣٣ ، جـ: ١ .

ظُهور الكتاب ونَشره:

طُبع هذه الكتاب ـ لأول مرة ـ بإشارةٍ من الشيخ جمال الدين خان وزير بَوْفَال ، وبعِناية الشيخ محمد أحسن الصديقي عام ١٢٨٦هـ بالمطبَع الصديقي ببَرِيْلِي ، وكانت عنده ثلاثُ نُسخٍ من الكتاب ، قام بالمقابلة بينها وتَصحيحها ، نسخةِ الشيخ جمال الدين ببوفال ، ونسخةٍ ثانية للشيخ أحمد حسن الأَمْرُوْهي ، ونسخةٍ ثالثة للشيخ نور الحسن ، وهناك من القرائن ما يدل على أن المؤلِّف الإمام لم يُعد النظر في الكتاب.

وصدرتِ الطبعة الثانية للكتاب من أكاديمية سهيل ، لاهور ، باكستان ، عام ١٣٩٦هـ الموافق ١٩٧٦م ، وهي صورة للطبعة الأولى[١] ، ونُقل الكتاب إلى العربية بعناية المجلس العلمي بدابهيل ، ولكنَّه لم يُنشر في العالم العربي كما ينبغي ، ونَقلَ إمامُ السنة الشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكنوي هذا الكتاب إلى الأردية ، ولكنَّ هذه الترجمة تنتهي إلى الفصل الخامس ، وأسماها بـ «كشف الغطاء عن السنة البيضاء» ويشتمل ما طُبع منها على ٣٣٦ صفحة ، وتم طبعُها في عمدة المطابع بلكهنؤ عام ١٣٢٩هـ.

* * *

---

(١) وكانت هذه الطبعة بين أيدينا عند كتابة هذا الباب ، وقد أحلنا فيه إلى صفحاتها.

الفصل الخامس

دَورُ الإمامِ الدهلوي القيادي في عهد الفوضى السياسة واحتضار الدولة المغولية

ثلاث قوى مُقاتلة ناشئةٌ:

لقد تقدَّم في الباب الثاني من الكتاب أنَّ الهند ـ في القرن الثاني عشر الهجري ـ كانت قد بلغت من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي ، وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصحُّ أن يُعبَّر عنه بحالةِ احتضارٍ لأي مجتمع ونظام ، لقد أصبحتِ الدولة المغولية رمزاً للسلطة الطويلة القوية لأسرةٍ مسلمة حاكمة ، ولم تَعُد وراءهَا قوةٌ مساندة ولا إدارة حازمة ولا هِمة عالية .

وكانتْ هناك عندئذ ـ في ظاهر الأمر ـ ثلاثُ قوىً مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب بل في مصير البلاد كُلّها ، وهي كما يلي : المَرْهَتَة ، السِّيْخ ، والجَات (الزط) .

المرهتة:

لقد تحوَّلت المَرْهَتَة ـ الذين كانت تَنحصرُ نشاطاتهم وتحركاتهم في

الجنوب (دَكَن) وكان شأنهم شأن فريق المحتجِّين المتظاهرين (Agitators)، وشأنَ قوةٍ حربية تَشُنُّ حرب العصابات (Guerrilla) ضد الحكومة المنظمة الشرعية ـ بسَببِ ضَعْف الحكومة المركزية الذي يَزداد كُلَّ يوم ، ومنازعات القادة الطامِحين الذين كانوا يُجرِّبون حظوظهم ، وقِصر نظر الأمراء والولاة (الذين كانوا يستنجدون بالمرَهتة لإلحاق الهزيمة بأعدائهم ، ومُناوئيهم أو إخضاعهم؛ إلى قوةٍ بارزة شاملةٍ للهند كُلِّها ، وظلت تحلم بالسيطرة على عرض دلهي ، وملأ ذلك الفراغ الذي أحدثه ضَعف القوة العسكرية المغولية ، وسُوءُ إدارتهم وعَدم جَدارتهم.

وقد عزم «مَلْهَـارْ رَاؤ هَوْلَكَر» و«رَكُوْنَـاتـه رَاؤ» عام ١١٧٠هـ الموافق ١٧٥٦م[١] على السيطرة على شمال الهنـد ، وحملاَ بمعونة الرّط على دلهي عام ١١٧١هـ الموافق ١٧٥٧هـ ، واضطرَّ نجيبُ الدولة إلى المصالحة ، ثم توجَّها إلى بُنجاب ، التي كانت باباً لتلك المنطقة الحربية الخطيرة التي لم تزل يَدخلُ منها الفاتحون إلى الهند ، ولم تكن قد خضعت من قبلِ لأي قُوة غير إسلامية ، واستوليا في أبريل عام ١٧٥٨م على لاهور ، وعيَّنا «آذَيْنَـه بَـيْغ» من قِبلهما حاكماً لبُنجاب ، ثم وَلّيا ـ بعد وفاة آذينه بيغ ـ «سَبَاجِي سِنْدِهِيَا» حكم بُنجاب.

وقد دخل المَرْهَتة بإشارة من صَفْدَرجَنْك (الوزير الشيعي) ومناصرته إلى «دوآبه»[٢] ـ التي كانت مركزاً لأولئك العلماء والمشايخ الذين كانت تتجمل بهم دلهي نفسها ـ ثم قرر داتاجي سندهيا عام ١١٧١هـ بعد مَقدمِه من دكن أن يَفتح الهند كُلَّها ، وتوجَّه أولاً إلى «رُوْهِيْلكَهَنْد» و«أَوَده» عام ١٧٥٨م ، وعبر نهر «جَمْنَا» بهذه النية ، وفي عام ١١٧٢هـ الموافق ١٧٥٩م عندما كان النهر يمكن العبور منه ، أمر «كُوْبِنْد رَائي بَنْدَيْلَيْه» بعبُور النهر مع عشرين ألفاً من الجنود إلى «روهيلكهند» الذي قام بعد نُزوله من «رَامْ كَنْكَا» بالنَّهب والسَّلْب في البلاد إلى

---

(١) قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ٥ ـ ٦ سنين.

(٢) وهي المناطق الواقعة بين نهري كنكا وجمنا.

مدينة «أمروهه» ـ التي ليست على مسافة طويلة من دلهي ـ.

ودخل المَرْهَتة ٢٤/يونيو عام ١٧٦٠م (الموافق ٩/ذي الحجة عام ١١٧٣هـ) في دلهي عاصمة البلاد ، وأسلمَ إليهم يعقوب علي خان حارس القلعة ، وفوض «بَهاؤ» حراسة القلعة إلى «شَنْكَرْرَاؤ» الذي خلع السَّقف الفضيّ للديوان الخاص (البلاط الخاص للملك) وأرسلَ به إلى دار الضرب ، وأخذ كلَّ ما كان من آثاثِ الذهب والفضة في «قدم شريف» ورباط الشيخ نظام الدين أولياء ، وعزل شَاهْجَهَان الثاني في ١٠/ نوفمبر عام ١٧٦٠م الموافق ٢٩/ صفر عام ١١٧٤هـ وأجلس مرزا جوان بخت ابن الشاه عالم على العرش ، وكان يُريد أن يتربَّع على العرش التَّيموري ، وكان ذلك بوسعه إلا أن عقلاء جيشه أشاروا عليه بالكَفِّ عن هذه العزيمة لأنها تُثير فتنةً وفوضى في البلاد ، ولا تتحمل الرعية جلوس أي قائد من قادة المَرهتة على العرش التيموري ـ بيُسر وسهولة ـ وقد اتسعت حكومة المَرهتة ـ حينئذٍ ـ ما لم تَتَّسعْ منِ قبل ولا من بُعد ، فقدْ كانت حُدودُها الشمالية تَصل إلى «أتك» وجبال هملايا ، وفي الجنوب كانتْ تمتد هذه الحكومة إلى الطَّرف الأخير من شِبه جزيرة دكن أي إلى حدود سواحل البحر ، والمناطقُ التي كانت حُرَّةً مستقلة داخلَ هذه الحكومة ، كانت تُودي إليها الخراج ، وقد كان لديها قادة عسكريون مُحنَّكون كما كان عندها جيشٌ أفرنجي مدرَّب مُكوَّن من عشرة آلاف نَسمة ، وكان جيشُها في حرب «بَانِي بَتْ» مكوناً من خمسين ألفاً من الركبان ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة ، وكان فيه مئة مدفعية (عدا المدافع المحطِّمة للقلاع) ، وقد صَحبهم وتعاوَن معهم جيش الراجبوت كذلك ، وهكذا كان مجموع عدد الجيش الذي كان يُقاتل تحت لوائهم وفي قيادتهم ثلاثمئة ألف مقاتل.

ولكن رَغم ذلك لم تكن طبيعة المَرهتة طبيعة ملُوكية تَشعرُ بمسؤولياتها، وفي تعبير أحد المؤرخين الهنود «لقد كانوا أنصاف مُلوك وأنصاف قُطَّاع الطرق»[1]،

(١) «تاريخ هندوستان» (تاريخ الهند) للشيخ ذكاء الله الدهلوي جـ: ٩، ص: ٤٠٣.

وقد كان فُقدان الشَّفقة منهم على الرعايا ، والاهتمام بهم ومواساتهم والتقاليد الوراثية القديمة للحفاظ على الأنفس والأرواح والأموال والأعراض (التي كانت تحمي السلاطين والملوك الجبابرة ـ إلى حد ما ـ رُغم كبريائهم وأنانيتهم وكانت تأخذ بزمامهم) وكذلك فقدان الخَلفية (Back Ground) التاريخيَّة الرائعة ، والأهداف السياسية البنَّاءة الواضحة ، وفَوق كل ذلك عواطفُهم الجامحة نحو إحياء الديانة الهندوسية وحضارتها (Hindu Revivalism) أحدثَ فيهم عُنفاً وإرهاباً ، وتسرُّعاً في الأحكام ، وقلَّة مُسامحة ومُراعاة ، فكانتْ أموالُ النَّهب والسَّلْبِ والحِرْصُ عليها والشَّغَفُ بها من أدوائهم ومواضِع ضَعفهم القومية.

وقد تأثَّر المسلمون والهنادك جميعاً بفَوضى المَرهتة وغاراتهم ، فكانتِ الغاراتُ الوحشيَّة على القُرى ، وأعمالُ النهب والسَّلب بقَسْوة وعُنف ، وقطعُ أيدي الناس وأرجلهم وأُنوفهم أمراً عادياً ، وكانت النساء ـ بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن ـ تتعرضُ لوَحشيَّتهم ونزواتِهم الشهوانية ، وكانوا يتجاوزون في ذلك الحدود ويتظاهرون بأعمال وَحشية بهيمية ، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف «كنكا رام» مثلَ هذه الانطباعات ، وهو يُعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال[١].

وقد أبدى المُؤلِّفون البرُتغاليون حِيرتهم وعَجبهم على أفاعيل المرهتة التي يتندَّى لها جبين الحياء[٢] ، وقد كان لسيطرة المَرهتة وسُلطتهم آثارٌ اقتصادية سيئة على الناس ، وحَسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البَلْكَرَامِي: أنهم يَنوون ـ في حدود قُدرتهم واستطاعتهم ـ أن يَسدُّوا أبوابَ الرزق على الناس ويُحكمون قبضتهم على جميع وسائل المعيشة ، وكان المَرهتة يجبُون من تلك

---

(١) انظر للتفصيل كتاب: «Fall of The Moghal Emoghag Empire p.87» تأليف جادوناته سركار.

(٢) Pissurlen: Portugueses,II,P.49.

المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حُكمهم وسُلطاتهم رُبع حاصلاتهم وغلاتهم[١].

ولم تَقِفْ غاراتُ المرهتة عند الحدود العسكرية واستغلالِ الجماهير ، بل لقد كانتْ مؤَسَّسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامةِ حضارتها من جديد ، يقول ماوت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباي) في تاريخه للهند عن «شِيْوَاجِي» القائد الأول لهذه الحركة :

«لقد اختمرتْ طبيعتهُ وتربَّت على العصبية الهندوكية. . . ولأجلِ هذه الطبيعة المستحكِمة فيه كان يَكره المسلمين وتقاليدَهم وطُقوسهم كراهيةً شديدة ، ويُحب الهندوس ويَرغُب في رُسومهم وتقاليدهم رغبةً شديدة ، وكان هذا الموقف منه يَزداد ـ كل يوم ـ شدةً ، وقد وافقتْ هذه الطبيعةُ فيه تدبيرَ الشؤون الملكية حتى تَصوَّر بصورة الرُّهبان والمشايخ الهنادك ، وادَّعى كراماتِ المؤلَّهين وأنصاف الآلهة المعبودين[٢].

لقد حاولَ المَرهتةُ قبل المعركة الحاسمة في ساحة «باني بت» واستشعاراً منهم لدِقة الأوضاع وخطورتِها عن طريق النَّواب شُجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئاً من التعاطف مع المرهتة من قبل ذلك) أن تُوقِّع الهدنة مع الشاه الأبدالي ، وما ردَّ به شجاع الدولة ـ بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة ـ عليْهم يُلقي ضوءاً كاشفاً عن طبيعة المَرهتة القومية وتأثيرِ فتوحهم وانتصاراتهم ونتائِجها ، لقد كان رد النَّواب شُجاع الدولة أنْ قال :

«إنَّ بَراهمة الدَّكَن يُسيطرون على الهند منذ مُدة طويلة ، وقد نزلتْ على رؤوسهم ـ بسبب شِدة حرصهم وطمعهم وغَدرهم ونكثهم للعهود ـ هذه البلية

---

(١) كان أول من جبئ ربع الحاصلات شيواجي، وكانوا يأخذون ذلك من الولايات الأخرى مقابل حمايتهم وعدم الغارة عليهم، على حين كانوا يأخذون من الفلاحين في مملكتهم ٣٠٪ من حاصلاتهم وقد زاد ذلك أخيراً إلى ٤٠٪ من حاصلاتهم.

(٢) انظر «تاريخ هند» ص: ١٠٤٠ (طبع عام ١٨٦٧ م عليكراه).

من الشاه الدراني ، فكيف يُصالح مع هؤلاء الذين لا يرعون إلاًّ ولا ذِمّة ، ولا يُحافظون على عرض ولا عافية ، ويرون أن جميع الأشياء مِلكٌ لهم ولِقومِهم ، وقد قَلق الناس وضجِروا على ما لقُوا منهم حتى ألحُوا ـ لِحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنِهم ـ على الشاه الأبدالي ، ودَعَوْهُ من بلاده ، ورأوا حَملاتِه ونِكاياته أهونَ عليهم وأسهل من إيذاءات المرهتة ونِكاياتهم»[١].

وأخيراً لقيتِ المَرهتة هزيمةً نكراء بتاريخ ١٤/ يناير عام ١٧٦١م الموافق ٦/ جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة باني بت على أيدي القُوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية ، وجنود النَّواب نجيب الدولة الرُّوهِيله وجيش النَّواب شجاع الدولة ، وكان يقول أحد المؤرّخين: «لقد طارتْ قُوة المَرهتة في لمحةِ البصر كالكافور» ، وسوف تأتي التفاصيلُ الأخرى لهذه الحرب الحاسمة وعواملُ مقدم أحمد شاه الأبدالي وخليفتِه ، والتي غيرت مجرى التاريخ ، في صَدَدِ ذِكر مآثر الإمام الدهلوي القيادية في الصفحات التالية.

السّيـخ:

لقد كان السِّيخ فِرقةً دينية في بَنجاب ، وُضعَ أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي «كُروبابانَانَك» (١٤٦٩ ـ ١٥٣٩) الذي كان يقوم بنَشر تعاليمه الخُلقيـة ويَحثُّ على الصـدق وتهذيب النفس ، وكان قد قرأ ـ حسب تصريح «سير المتأخِّرين» ـ اللغة الفارسية والمبادىء الدينية على الشيخ السيد حسن ، وكانت له بـه عنايـةٌ خاصة[٢] ، وقد قام القائـدُ الثالث للسيخ

---

(١) تاريخ هندوستان: (تاريخ الهند)، جـ: ٩، ص: ٣٠٥.

(٢) تفيد بعض الروايات التاريخية أن كروبابانانك جالس عدداً من الدراويش والصوفية المسلمين وصحبهم مدة من الزمن، نخص بالذكر منهم: بير جلال، وميان متها، والشيخ شرف الدين، والشيخ فريد الثاني، والشيخ إبراهيم، كما تفيد الروايات الأخرىٰ أن بابانانك زار بغداد والحرمين الشريفين، وكانت له صلة خاصة بـ«باك بتن» مدفن الشيخ الكبير فريد الدين الأجودهني.

«أَمَرْدَاس» بالخطوة الأولى في صدد التَّنظيم الديني والاجتماعي للسيخ ، وزاره الملك أكبر في بيته ، وأقطعه أرضاً واسعة كبيرة ، وقد حافظ على روح تعاليم «كروبابانانك» الخُلقية ، وعارض أوهام الهنادك وخُرافاتِهم ولا سيما تقليدهم المعروف بـ «سِتِّي» ـ وهو انتحار الزوجة على موت زوجها ـ وأصدَر أوامره بزَواج الأيامى ، وأقطعه الملك أكبر عام ١٥٧٧م أراضيَ واسعة ، وفي عهده قام مركزُهم الديني في «أمْرِتْسَر» وهكذا تكوَّنَ مركز روحيٌّ دينيٌّ لحياة السِّيخ الاجتماعية.

وخلفَ كَرْوَارْجِن والده عام ١٥١٨م ، وقد بذل مزيداً من الجهود والمحاولات لتنظيم السِّيخ كفِرقة مستقلة ، ودون «كرنته» ـ الكتابَ المقدَّس لديهم ـ ولقَّب كروارجن نفسَه بالملِك الصادق ، الذي يُشير إلى حرصه على السلطة السياسية ، وقد اعتُقل كروارجن بأمر الملك جهَانْكِير بلاهور ، لأنه كان قد تعاونَ مع ابنه الأمير خسرو الذي كان خرج عليه ، وأهدى إليه الأموال ، وقُتل في الحبس[1] ، واختار خلفه «هوكووند» طريقَ الدفاع والمقاومة العملية.

وبذلك بدأتْ حياةُ السيخ العسكريةُ . ولم يلبث أن تبوّأ المنصب الملوكي ، وقد كان يحملُ عواطف العِداء والكراهية ضد الملك جهانكير ، ويُلقي عليه تَبعةَ قتلِ والده ، وقد بنى قلعةً حصينة في «هركووندبور» ، وكانوا يُغيرون على المناطقَ السهلية ، وحَبَسه جهانكير في قلعة كَوَالِيَار ، ثم أطلقَ سراحه بعد مدة قليلة ، وأكرمَه وأبدى به حفاوة بالغة ، وخرج فور جُلوس السلطان شاه جهان على العرش على الدولة ، وقام بالثورة علناً وجهاراً ، ولجأ أخيراً إلى الجبال ومات هناك عام ١٦٤٥م.

واختير تِيْغ بَهَادُر ابن هَرْكَوْند قائداً عام ١٦٦٤ في عهد أَوْرَنْكَ زَيْب ، الذي

---

(١) وقد ثبت تاريخياً أن الذي أشار على جهانكير لقتله هو أحد الأمراء الهنادك «جندولال» الذي كان يتمتع بنفوذ على الإمبراطور، وذلك لغرض شخصي.

أعطى حق اللجوء للفارّين والخارجين على قانون البلاد ، وقد حالتْ سلطة هؤلاء دون رُقي البلاد[1] ، فزحفتْ إليها الفِرَقُ العسكرية الملكية ، واعتقلته ، وجاءتْ به إلى دلهي ، حيث حُكم عليه بأمر الملك أورنك زيب بالإعدام عام ١٦٧٥م[2].

وعَيَّن بعد قتله ابنه «كووند رائي» قائداً ، وهو الذي حول فِرقة السيخ ـ التي كانت في البداية جماعة دينيةً محضة ـ إلى شعبٍ مسلح مقاتل ، وأثار فيهم عواطف المساواة ، وعمل ـ جهدَه ـ على تنظيمهم في صورة شعب مستقل ، ولم يزل على قيد الحياة إلى وفاة الملك أورنك زيب ، وحاول خَلَفُ أورنك زيب الملكُ بَهَادُرْ شاه أن يَتفاهم مع «كووند رائي» ويُصالحه ، وولاّه قيادة الجيش بدكن ، ولكنه مات على يدي موظف أفغاني بجرح لم يبرأ منه في أكتوبر عام ١٧٠٨م ، ولم يَرشح بعدَه أيٌّ واحد لخلافته ، وأوصى أتباعه أن يعتقدوا «كرنته» ـ الكتاب المقدس لديهم ـ قائدهم ، ويعتبروا الله تعالى وحده نصيرَهم وحارسهم.

خلَف «هركووند» «بنده بيراكي» الذي كان ـ في الحقيقة» ـ قائداً عسكرياً للسيخ وكان هو ـ أصلاً من الراجبوت الكشميريين ، وقد اعتنقَ ديانة السيخ ـ فبدأ في بُنجاب عمليات النهب وقطع الطريق ، في نطاق واسع.

وكانتِ الدولة المغولية ، بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير ـ بسرعة ـ نحو السقوطِ والانهيار ، ونشبتْ حروبٌ متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد ، أتاحتِ الفرصة للسيخ أن يُضاعفوا قوتهم ـ علناً ـ فكان «بنده بيراكي» يُعمل السيف في الألوف من المسلمين ، ويقتلُهم بقَسوة ووحشيةٍ ، ويدخُل القرى ويَنهبها ، حتى وصل إلى قرب دلهي ، وأغار في مايو عام ١٧١٠م على سَرْهِند ، وفتحَ أبوابها للقتل والنهب والسلب ، وعاملَ سكان القرية من دون

---

(١) انظر A History of The Sikhs Guard, 1918.P.64 لمؤلفه: .J.D.Cunninghaum.

(٢) ليست تبعة قتل القائد بهادر على السلطان أورنك زيب وحده، بل فيه يد لمخالفيه ومعارضيه الهنادك أيضاً (انظر نهنك سنك سنديس ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥١ م).

تمييز بين صغير وكبير وقويّ وضعيف ـ بظُلم فظيعٍ وقسوة رهيبة.

وتوجَّه بهادر شاه إلى بنجاب، وهَزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكي، ولكنه لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلاً الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فُرَّخ سير على عرش البلاد بالعُنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيراً جيء به إلى دلهي عام ١٧١٦م وقُتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محبَّبةٌ لدى السِّيخ أنفسِهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتِها، وأصبح السيخ تحت قيادته قوةً عسكرية.

واستمرَّ الحاكم المغولي مُعين الملك بَنجاب (الذي يعرف بميرمنو) في عهد الملك فُرَّخ سير، على سياسته التعزيرية، ولكنَّ سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضَعُفَت حكومةُ بنجاب وتَضعضعت نتيجة حملاتِ أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنَحتِ الفُرصة مرة ثانية لقيام السيخ ونُهوضهم، ولم ينجحوا ـ هذه المرة ـ في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير تيمور ـ الذي كان والي بنجاب حينئذ ـ والذي هَدم «هرمندر» ـ أقدس معابدهم ـ وملأ البُركة المقدَّسة لديهم بالأنقاض والركام ـ فحسب، بل استولوا كذلك ـ مؤقتاً ـ على لاهور، وضُربت باسم قائدها «جسا سِنغ كلال» العُملة، إلا أنهم اضطُروا للخروج من لاهور بمقدم المَرهتة إليها عام ١٧٥٨م تحت قيادة «ركهوبا».

وتوجَّه أحمد شاه الأبدالي إلى بَنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب «بَانِي بَتْ» التي قسمتْ ظَهر المرهتة، وفور ما غادر بَنجاب إذا بالسيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعاد أحمد شاه وهَزم السيخ في «لُدْهِيَانَهْ» عام ١٧٦٢م هزيمةً نكراء، ولكنَّ السيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣م أغاروا على سَرهند، ودمَّروها وخربوها، واستولوا على لاهور مرة أخرى، وأعلنوا قيام حكومة «خالصة» ثم تفرَّق السيخ بعد ذلك في مختلف الولايات وانقسَموا إلى مختلف الفِرق التي كانت تُدعى «مسلين»، ولم يكن هنالك حاكم أعلى يحكُمهم، ولم يبق لَدَيهم أمرٌ مشترك إلا دينهم.

وبعد ثلاثين عاماً من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجمُ رنجيت سنغ الذي نَظَّم هذه الفرق المختلفة في صورةِ دولة مستقلةٍ ، ووحَّد صفوفهم.

لقد كان هدفُ ديانة السيخ تصحيحُ العقائد الدينية في الهنادك ، وما من شكَّ في أن «بَابَابَانَانَك» كان متأثِّراً بالتعاليم الإسلامية ، ولذلك فإنّ عقيدته في التوحيد ، ومساواته بين الناس واجتنابَه عبادة الأصنام والأوثان وغيرَها؛ كلُّ ذلك مِن آثار الإسلام ونتائجه[1].

وقد أثَّرت اللغة الفارسية على لغة الأدب الدِّيني عند السيخ تأثيراً بالغاً، لا سيما «ادي كرنته» ـ من الكتب المقدسة لديهم ـ يتجلَّى فيه تأثير الألفاظ الفارسية، والإسلامية، والمصطلحات الدينية والصوفية إلى حد كبير[2].

وقد كانتْ هُناك من القرائن ما يُتوقَّع بها أن تقومَ هذه الحركة الإصلاحية ـ إذا كانت متمسِّكة بأصولها ، ولم تَـذُب في الديانة الهندوكية وحضارتِها ـ بخدمة ثورية كبيرة ، وظلَّت السيخُ فِرقةً مُستقلَّة متميزةً عن الهنادك ، تقوم على أساسِ التوحيد للربِّ ، والمساواة بين الناس ، وكانت بذلك فرقة قريبة إلى المسلمين ، ولكنَّ صدامها مع الحكومات المعاصرة، ودورة الفِعل وردِّ الفعل السياسي التي فَقدتِ القلب والضميرَ، والتي تُحقق مصالح الجماعات ومقتضيات العصر ، بغضِّ النظر عن النتائج الدينية والخلقية ، وأورثَتِ السِّيخ البغضاءَ والكراهية لا للحكومات المسلِمة فحسب بل لِعامَّةِ المسلمين ، ووقفَتْهم موقفَ الحرب والنضال ضد المسلمين ، وحوَّلتهُم ـ بصفة خاصة ـ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والقرن الثامن عشر المسيحي إلى قُوة إرهابية مخيفة مزلزِلةٍ لسكان المدن الكبيرة الآمنة ، وزيادة خطيرة في القوة الهدّامة المثيرةِ للاضطرابات في الهند ، وقد تعرَّضت المساجد والمقابر في

---

(١) انظر جب جي ـ وMacaulffe، جـ: ٢، ص: ٣٤٧.

(٢) اقتبسنا الجزء الأساسي من هذه المعلومات والمادة التاريخية من «دائرة المعارف الإسلامية» (الأردية)، جـ: ١١، من مقال «السيخ» بقلم البروفسور محمد إقبال.

عهد حكوماتهم ـ بصفة عامة ـ وفي عهد مهاراجه رنجيت سنغ ـ بصفة خاصة ـ[١] لانتهاكِ حُرماتها ، ودَوْس كراماتها ، ووُضعت عراقيلُ في سبيل أداء العبادات ، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيتٍ من شعره ، يقول فيه :

«لقد ذهبتْ «خالصة» بالسيفِ والقرآن ، وقضتْ على المسلمين والإسلام في دولتها وسلطانها» .

وقد رَفع ضدَّ الوضع المكفهرِّ في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ـ تقريباً ـ وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي ـ الإمام أحمدُ بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ الموافق في ١٨٣٠ م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م) اللَّذَين كانا خرّيجي مدرسة الإمام الدهلوي وتربَّيا على أيدي ابنهِ الأكبر الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ رفعا لواءَ الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية ، وبدأ بذلك مُخططهما الواسع والعميق ومهمتُهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة ، وتأسيس الحكومة الشرعية ، وإصلاح المجتمع المسلم ، وإحياء الدين وإظهاره[٢] .

الجَاتْ (الزُّط) :

لم تكن الجات فرقَةً منظمة كالمَرهتة ، ولا فِرقةً دينية كالسيخ ، بل إن ضَعفَ الدولة المغولية والفوضى السياسية والشعورَ بعدم حماية عامة السكان ، أنشأ فيهم تنظيماً يقوم على أساس العُنف والسلبية ، وأصبحوا قُوَّة هدَّامة مُثيرةً للفتن والاضطرابات لم تكن تهدف إلى إقامة مملكةٍ أو ثورة سياسية ، بل إلى مُجرَّد استغلال للأوضاع المنحرفة وتحقيقٍ للأغراض الاقتصادية .

---

(١) انظر للتفصيل الباب ١٧ من: «سيرة السيد أحمد الشهيد» (بالأردية) للمؤلف بعنوان «وضع المسلمين في بنجاب» ص: ٤١٣ ـ ٤١٩ .

(٢) انظر «سيرة السيد أحمد الشهيد» (الأردية) جـ: ١ ـ ٢ .

يقول البروفيسور خَليق أحمد نِظامي في كتابه «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»:

«لقد كان الجات يَسكُنون المنطقة الجنوبية لجَمْنَا من آكْرَه إلى دلهي، وكانتْ حدُودهم في الشرق إلى جنبل» وقد بلغت ثوراتُهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعاً، وحسب ما يقول «سَرْكَار»: لم يكن هناك مجالٌ لقبول هذه الشوكة الشائكةِ في شوارع دلهي وآكره[1]، (Fall ,Vol ip.369) وكانتِ المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطةٍ بالغة وحذرٍ كبير، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريق أجمير، تمرُّ بهذه المنطقة.

ولمَّا مرَّ المُمثِّلون الهولنديون بهذه المنطقة عام ١٧١٢م شاهدوا هذه الاضطرابات والثورات (Later Mughals, IP 321).

وقد مرَّ جان سرمن (John Surman) عام ١٧١٥م بهذه المنطقة، وسجّل في مذكرته أعمال الجات المهدّدة للأمن والسلام (Orme Collection, P. 1694).

وقد قام الجات في عهد شاه جهان بثورة عارمة، وقُتل عام ١٠٤٧هـ الموافق ١٦٣٧م مرشد قلي خان قائد الجيش بمتهرا على أيديهم في حربٍ معهم.

يقول سرجاد وناتهسر كار في كتابه: «تاريخ أورنك زيب» ج/٥، ص/٢٩٦:

«لقد استغلَّ غيابَ أورنك زيب من شمال الهند قائدانِ جديدان من الجات: راجه رام، ورام جهره، ولم يستطعْ حاكم آكره خافي خان أن يضع الحدَّ على تحركات راجه رام ضد القانون، وقد سدَّ الجات الطُّرق ونهبوا كثيراً من المناطق، وتوجهوا إلى «سكندره» لنَهب مقبرة الملك أكبر، ولكن المير

(١) هما مدينتان رئيسيتان تبادلتا كون العاصمة في أدوار مختلفة.

أبا الفضل الذي كان قائد العسكر بها قاتَلهم بشجاعة ولم يدعِ الثوار ليتقدَّموا أمامهم ، ونهبَ راجه رام متاع الضابط التركي المعروف أصغر خان. . . وقتل أصغر خان في هذه الحرب مع الجات[١].

ويقول هَرْجَرَن دَاس مؤلف «جَهَارِكُلْزَار»: «إنَّ الجَات لمَّا بدؤوا يَنهبون دلهي خرج سكان دلهي ـ خائفين فزعين ـ من بيوتهم ، فكانوا يَهيمون على وجوههم ويتيهون في الأزقة والسِّكك ، كسفينةٍ محطمة تكون تحت رحمةِ الأمواج الطاغية ، وكان يُرى كل شخص كالمجنونِ يعدو فزعاً مضطرباً (النسخة المخطوطة ص/ ٤١٠)»[٢].

ويقول الشيخ ذكاءُ الله في ذكر وقائع عام ١٧٦٥م:

«كان الجَاتُ متسلِّطين على قلعة آكره ، وكانتْ للجات جولةٌ وصولة على بعد ١٠٠ ميل من دلهي ، وقد طرد راجه سَوْرمَل الذي كان ذكياً فطناً بارعاً في المنازلة ، ماهراً في القيادة والحكم ـ قائدَ المرهتة من آكره ، واستولى على ميوات ، وبنى أربعَ قلاع حصينة قوية ، وبدأ يطلب من حكومة دلهي تلك الطلبات التي لا تُبقي على اسم الدولة إطلاقاً ، وقد هَزِم نجيبُ الدولة بحسن تدبيره وحِيلته وبمساعدةِ من البلوجيين ، الجاتَ ، وقُتل راجه سورمل في مناضلته لنجيب الدولة.

ثم نَجمت في ولاية الجات نِزاعاتٌ وخصومات ، وقُتل اثنان من أبناء سُورج مَل ، وخلفهما الابنُ الثالث رنجيت سنغ ، وقد بلغ الجات في عهده أَوجَ التقدم والازدهار ، والمنطقةُ التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها «ألور» وفي جنوب غربها «آكره» ، وكان دَخلُ هذه الدولة عشرين مليون روبية ، وكان لديهم جيشٌ مكون من ستين ألف جندي[٣].

---

(١) انظر «الرسائل السياسية «للإمام الدهلوي» تأليف البروفسور خليق أحمد نظامي ص: ١٧٥.
(٢) الرسائل السياسية: ص: ١٧٧.
(٣) مقتبس من «تاريخ هندوستان» للشيخ ذكاء الله الدهلوي باختصار ، انظر جـ: ٩، ص: ٣١٦ ـ ٣١٨.

الوضع في دلهي:

لقد أصبحتْ ـ دلهي ـ نتيجةَ حملاتِ المَرهتة والسيخِ والجاتِ المتتابعة عليها ، والتي ظلتْ عادة يومية ، وحرمانها من أي نوع من القوة والصلاحية للصيانة والدفاع ـ شجرةً مثمرة سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق ، وأصبح سكَّان دلهي ـ الذين كان يُنظر إليهم نظرة تقدير واحترام في كل مكان ، بل كانوا يعتبرون النموذج والمَثل الكامل في العلم واللغة الحضارة ، وفي العادات والأخلاَق وكَرم المحتدِ وطيب الأصل ـ لقمةً سائغةً للمُغيرين الزاحفين.

ويُقدَّر من رسائل علماء هذا العصر ومشايخه ـ الذين كان شعارُهم الانقطاع والتبتل إلى الله تعالى والرضا بما تجري به المقادير ـ التي كتبوها إلى أصحابهم وأحبابهم ، ما كان يسودُ هناك من قِلة الأمن والفوضى والقلق ، ونكتفي هنا بإيراد بعض مُقتطفات من رسائل أحد المعاصرين المعروفين للإمام الدهلوي ، وهو الشيخ الجليل في السلسلة النقشبندية المجدِّدية الشيخ ميرزا مظهر جان جانان (١١١١ ـ ١١٩٥هـ) يقول في إحدى رسائله :

«لقد ضِقتُ ذرعاً بالاضطرابات اليومية والقَلق الزائد في دلهي»[١].

ويقول في رسالة أخرى :

«تَؤمُّ الفتنة من كل حَدْبٍ وصوب مدينةَ دلهي»[٢].

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يَذكر قِلة الأمن والفوضى في العاصمة وقَلق سُكانِها واضطرابِهم :

«إلى ما نكتُب حالَ اضطراب السُّكان في المدينة بسبب قِلة الأمن والأوبئةِ العامة ، اللَّهم أخرجنا من هذه المدينة التي أصبحت مَحطّاً لغضبِ

(١) كلمات طيبات: الرسالة رقم: ٤٠.
(٢) المصدر السابق: الرسالة رقم: ٥٤.

الله تعالى وسخَطه ، فقد أصبحتِ المملكة فوضى بغيرِ نظام ، اللَّهم فضلَك ورحمتَك»[١] .

حَمْلَةُ نَادِرْ شَاه:

عادَ الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥هـ ، ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات حتى وقعت عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٣٨م تِلك الحملة النادرية التي ضَعضعتْ ما بقي من كيان الدولة المغولية ، وخَرَّبت دلهي ومَزَّقتها شرَّ مُمزق ، وقد أثَّرت هذه الحملة في عقول الغَيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة ، وصدَمت قلوبَها صدمةً عنيفة ، حتى بغَّضت إليهم الحياة ، وسادَهم الخجلُ والحياء إلى حد أنَّهم كانوا كأنهم يُعدون العِدة لقَتلهم وانتحارهم ، وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المَقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشراف دلهي قد قرَّروا وعزموا على تنفيذ تقليد «جوهر»[٢] على طريقة الراجبوت القدماء ، فذكَّرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بحادث كربلاء ، ومصائب سيدنا حسين ـ رضي الله عنه ـ ومَنعهم من هذا القرار للانتحار ، فاختاروا طريق الصَّبر والرضا بالقضاء رُغم هذه المِحن والبلايا التي تقشعر منها الجلود وتَشيب منها الولدان ، ولا يُتصور أشدُّ منها وأَفتكُ ، وكفُّوا عن إرادة الانتحار وقتلِ أنفسهم .

الانقطاعُ إلى التَّدريس والتأليفِ في الأوضاعِ المضطربة والظُّروفِ المضادةِ:

وفي أثناء هذه الحَملات والغارات من قِبل المرَهتة والسِّيخ والجات ،

---

(١) كلمات طيبات: الرسالة رقم: ٨٦.

(٢) كان أشراف راجبوت عندما يحاط بهم من كل جانب ، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يُقدمون على قتل أهلهم وعيالهم، ثم يقفزون بأنفسهم في النار ويحترقون.

ونادِر شاه ، وهذه القلاقل والمِحن والمآسي المذهلة التي كانت تجعل عالي دلهي سافِلها وتُدمِّرها تدميراً ، والتي اضطرَّ فيها الإمام الدّهلوي بعض الأحيان إلى الانتقال من بيت إلى بيتٍ آخر.

ـ ويُستفاد من «القول الجلي» أن الإمام الدهلوي انتقلَ أيام الفتنة الدرانية عام ١١٧٣هـ (على دعوةٍ وإلحاح من أصحابه وخدمِه) من وطنه مع أهله وذويه إلى قرية «بدهانه» ولما حل شهرُ رمضان اعتكف على عادتِه القديمة أربَعين يوماً[١].

لقد كان الإمام الدَّهلوي ـ أثناءَ كل ذلك ـ مُنصرفاً بكلِّيتهِ وعنايتهِ التامة إلى التَّدريس والتأليف والدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس وتَربية المسترشدين ، بجمعيَّة قَلْبٍ وطمأنينة حتى كأنه تسودُ هناك ، ليسَ في دهلي فحسب بل في البلاد كُلِّها ، الأوضاعُ الآمنة المتَّزنة والظروف الهادئة المطمئنة ، وأنَّه منقطع ـ كُلّياً ـ في زاوية العافية والطمأنينة إلى البَحث العلمي والقيادةِ الفكرية والتربيةِ الخُلقية وإحياء الملَّة الإسلامية ، وقد أشارَ العلاَّمة السيد سليمان الندوي إلى هذه الحقيقة ـ في بلاغة ورَوعةٍ وجمال ـ يقول :

«لقد كانتْ قِلَّةٌ قليلة من المؤلِّفين ممن لا تشيع في مؤلَّفاتهم روحُ عَصرِهم ، أو لا تتجلَّى فيها مِسحةُ عهدِهم وبلادهم ، أو يأتي فيها ذكر نُكران أهلِ عصرهم وعَدم تقديرهم للعلم ، واضطراب أوضاعهم على الأقل ، ولكنَّ مؤلَّفات الإمام الدهلوي طليقةٌ من قيود الزمان والمكان ، بريئةٌ من الشكوى والملام وقَصص الهجران والنكران ، فلا يَبدو مِنها أنها أُلِّفتْ في عصر كان الأمن والطمأنينة قد امَّحتْ فيه من صَفحة هذه البلاد كالخطأ الذي يزَال ، وكانتِ البلاد كلها تُعاني من ملوك الطوائف ، والحروبِ الداخلية والفوضى السياسية ، وكلٌ نوع من أنواع الشر والفساد.

وكان قد قضي على المركز السياسي في دلهي ، وكان كلٌّ منَ يحمل السيف

(١) «القول الجلي» (المخطوط).

يَحلمُ بالمُلك والسلطان ، فالسِّيخُ في جانب ، والمَرهتة في جانبٍ آخر ، والجات في جانب ثالث ، والروهيلة في الجانب الرابع ، كلُّ هؤلاء كانوا يعيثون في البلاد تخريباً وفساداً ، وكان أمثالُ نادر شاه وأحمد شاه من القادةِ الطامحين المتحمِّسين وقوفاً على باب خيبر ، كلما أرادوا أوغلُوا في البلاد كالعاصفة العاتية ، وخرجوا كالسَّيل العرم ، فكمْ منِ مرة في أثناء ذلك خَربت دلهي ودُمِّرتْ ، ونُهبت ، ثم أعيدت وبُنيت.

ولكن عجباً بطمأنينة سُلطان العِلم والفضل في دلهي وهدوئهِ ، فكان يُشاهِد كل ذلك برأي العين ، ولكن لا سبيلِ للقلق والاضطراب إلى قلبه ، ولا للشَّعث والبَلبلة إلى فكِره ، ولا للحِران والجَفاف إلى قلمه ، ولا شكوى على اللسان ، ولا إبداء أيِّ قلقٍ وضَجر بالقلم ، فكأنما يُخيَّل إليك أن سَماء العُلُوِّ التي كان يتمكن منها ، أو سُموَّ الصبر والرضا الذي ارتفعَ إليه ، لا تصل إليه عواصفُ الأرض الهوجاء ، ولا تَعملُ فيه تقلبات الزمان والمكان ، وبهذا يُعلم كم تكونُ مَنزلة أهِل العلم من العُلو والارتفاع ، ومنصب أهلِ الرضا والتسليم بالقضاء من السمو والارتقاء.

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

إنَّ الخدمةَ الصالحةَ للعلم الصحيح صورةٌ أخرى لذكر الله تعالى ، فلو كان يُورثَ القلب الطمأنينة ويملأُ الروحَ بالسكينة فلا عَجب ولا استغراب ، اقرأ آلافاً من صفَحات مؤلَّفات الإمام الدهلوي لا تشعرُ فيها بأنها كُتبت في عهد القرن العاشر المليء بالفِتن ، الذي كان كُلُّ شيءٍ فيه عُرضةً للاضطراب وفُقدان الأمن والسلام ، بل سوف ترى بحراً من العلم والفَضل يَجري في هدوء وسَكينةٍ دُون ضوضاءٍ ولَجب ، بريئاً من وَصماتِ ألواثِ الزمان والمَكان»[١].

---

(١) انظر مجلة «الفرقان» العدد الخاص بالإمام الدهلوي ص: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

الدّورُ القياديُّ المجاهد فِي عَهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية:

لم يكن الإمام الدهلوي خلالَ العجَاج من هذه الحوادث والأزمَات ، بل في أمطارِها الغزيرة الهاطلةِ جالساً تحت السماء منصرفاً إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف ، بحيث لا تَقلبُ نفَحاتُ الرِّياح العاتية أيَّ ورقة من كتابه ، ولا تمحو قطرةٌ من قطَرات هذا المطر الغزير أيَّ حرْفٍ من حروفه ، فحسب ، بل كان يعمل ـ في جِد ونشاط وحزم وجهاد ـ لتغيير هذهِ الأوضاع واستعادة السُّلطة الإسلامية في هذه البلاد ، وإقامة مملكة قوية موطَّدة الأركانِ تشعر بمسؤوليتها وتَعترفُ بالواقع وتُنفِّذ الأحكام الشرعية ، وتُحافظ على أعراض الناس وأموالِهم وأنفسِهم ، وتَقضي على القِوى الهدَّامة التي تَعيث في الأرض فساداً ، وتَنشرُ الخيرَ والرخاء ، فقد كان يقوم في هذا الصَّدد بالدور القيادي الذي يُمكن أن يقوم به أكبرُ سياسي بَصيرٍ لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأيِّ صلة .

وإذا كُنَّا نجد له مثيلاً في حياة الدعاة والمجدِّدين والباحثين والمحقِّقين والمؤلِّفين والمصنِّفين ففي حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة الحراني الذي دعا مسلمي الشام عام ٧٠٠هـ للوقوف صفاً واحداً ضدَّ التتارِ الوحوش ، وثبَّت أقدامهم المتزلزلة ، ولما ألغى السلطان محمد قلاوون بعد مقدمِه إلى الشام عَزيمتَه على قتال التَّتار ، وأحدثَ ذلك الفوضى والاضطراب في أهل الشام ، غادر شيخُ الإسلام نفسُه إلى مصرَ ، وحرَّض السلطان على حماية الشام ومُقاومة التتار ، وشارك السلطان في الجهاد ، فكانتِ النتيجة أنِ انهزم التتارُ هزيمةً ساحقةً قلَّ أن تجدَ لها مثيلاً في التاريخ[1] .

وقد استخدمَ الإمامُ الدهلوي أيضاً مع أشغاله العلمية وجُهوده

(١) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج: ٢ «الحافظ أحمد بن تيمية».

الإصلاحية التجديدية حكمتَه السياسية وذكاءه البالغ وعلوَّ نظره ، بحيث لو كان في المغول بقيةٌ من صلاحية ، وفي أُمراء الدولة وأعيانِها من عُلوِّ همة وحِنكة سياسية ، لكانتِ الهند في مأمنٍ من الطامحين المُفسدين الأهليين القصيري النَّظر ، ولم تَطأها أقدامُ الإنكليز ، ولا استحكمتْ فيها سيطرتُهم إلا عندما وجدت الهند في أواسط القرن التاسع عشر مُهلهلةً ضعيفةً والميدان فارغاً خالياً ، فنشبَتْ أظافرها وأرستْ قواعدها . ولم تَضُمَّها إلى المملكة البريطانية فحسبْ بل استغلَّتْ قِواها ووَسائلها الثَّرية الوفيرة التي أثَّرت على سياسةِ العالم كُلِّه ، وأحكمتْ بذلك سيطرتها على البلاد العربية والإسلامية .

ونظراً إلى استقامة الإمام الدهلوي وحميةِ خاطره وعُلُوِّ هِمته وبُعد نظَرِه ومَضاءِ عزيمته ، وبإزاء ذلك الجوِّ الخانق في البلاد والقلاقل والفساد ـ الذي لا مجال فيه لأي جهد عميقٍ متواصل جاد ولا رجاء فيه لانقلاب الأحوال وتغيُّر الأوضاع ، يبدو هذا البيتُ من شعر الدكتور محمد إقبال صورةً صادقة لحقيقة الحال ، يقول فيه ما معناه :

«رَغم العواصف الهوجاء يُشعِل ذلك الرجل البَطل ـ الذي وَهبه الله تعالى عِزّةَ الملوك وإباء السلاطين ـ سراجَه المنير» .

شُعور الإمام الدّهلوي واضطرابُه:

لقد كان الإمام الدهلوي ـ الذي شاهد في إبان شعوره وسِنِّه المبكرة آثارَ حكومة السلطان أورنك زيب العظيمةَ وشوكتَها وازدهارها ، وسمعَ القصصَ والحكايات عن العهود السابقة ـ التي كان نجمُ المملكة المغولية فيها لامعاً عالياً ، وكانتْ لها مهابةٌ وجلال ، والذي صَدر من قلمه في كتابه «إزالة الخفاء» في ذكر مآثر الخلفاء الراشدين والآثارِ الزاهرة في العهود الذهبية لتاريخ الإسلام ، وواجباتِ الحكومةِ الإسلامية ومسؤولياتها ، وبما تَستحقُّ به نصرة الله تعالى وتأييده لما رأى بأمِّ عينيه في عهد سُقوطِ الدولة المغولية وعهد الملك فَرُّخ سير والملك محمد شاه ، هذه الفوضى ، ومُلوكَ الطوائف ، وسوءَ الإدارة والنظامِ ، وفُقدان الأمن في الطرق ، وتَعرُّض الأنفس والأعراض

والأموال ـ من دُون تَمييزِ بين دِين ودين وشعبٍ وآخر ـ للانتهاك والضياع ، ورُخصِ الدماء الإنسانية ، وانتهاك الشعائر والحُرمات الإسلامية ، وبُؤس المسلمين وشقائهم ـ الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من سِتة قرون ـ بكى قلبُه الحزين المتقطِّع المرهَف الحِسِّ دموعاً من دماء ، وقطَرت من قلمِه السَّيال هذه القَطرات من الدِّماء على صفحاتِ تلك الرسائل التي كتبها إلى بعض أعيان الدولة ، ووُجهائها ، وسوف نُورد هنا بعض النّماذج منها : يقولُ في رسالةٍ كتبها إلى ملك معاصر[(١)] يشكو فيها صولة سُوْرَج مَل وجَولَتـهُ وشَوكته ، وغُربة الإسلام وبُؤسه :

«ومن بعدِ ذلك ظهرت شوكةُ سورج مل وقَوِيتْ ، فقد استولى سورج مل على مسافة ٦ أميال من دلهي إلى أواخر حدود «آكره» طولاً ، ومن حدود ميرات إلى «فيروز آباد» وشكوآه آباد عرضاً ، فلا يقدِرُ أحدٌ أن يؤذِّن هناك ويُقيم الصلاة»[(٢)] .

ويَذكر في هذه الرسائل خَراب مدينة «بيانه» التي كانت عامرةً مُخصبة ، فيقول :

«لقد أُخرج المسلمون ـ كرهاً وقَسراً وبإهانة وإذلال ـ من مدينة «بيانه» التي كانت مدينة إسلامية قديمة ، ولم يزل يسكُنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»[(٣)] .

ويذكر فَقرَ الموظَّفين الرسميِّين وسوءَ حالِهم ، وقد تجاوز عددُهم مئة ألف فيقولُ :

«لمَّا انتهتْ خِزانة المِلك ، توقفت النقود أيضاً ، حتى تفرَّق الموظَّفون

---

(١) كما سيأتي بعد، وهناك جميع القرائن على أن هذه الرسالة وجهت إلى أحمد شاه الأبدالي.

(٢) الرسالة التي كتبت إلى بعض السلاطين (انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» ص: ١٥).

(٣) المصدر السابق: ص: ٩ .

شذَر مَذر ، وبدؤوا يتكفَّفون ويَستجْدون ، ولم يَبقَ للدولة إلا الاسم»[١].

وقد صدرتْ مِن قلمه ـ وهو يذكر وَضعَ عامة المسلمين ـ هذه الكلمةُ المؤثرة المُشجيةُ :

«وبالجُملةِ فإنَّ جماعةَ المُسلمين تَستحقُّ العَطفَ والرَّحمة»[٢].

ويقولُ في رسالةٍ كتبها إلى النَّواب نجيب الدولة :

«لقد لقيَ المُسلمون ـ سواء كانوا سكان دلهي أو أيَّ مكان آخر ـ صَدماتٍ عديدة ، ووقعوا ـ مراراً ـ فريسةَ السَّلب والنهب ، لقد بلغ السّكين العظم ، إنه لمقَامُ الرحمة والعطف»[٣].

ويتنبَّأ الإمام الدهلوي ـ نظراً إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثِّرة ـ بالنتائجِ الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجةُ الدراسة الواقعية غير المحايدة.

«فلو بقي غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسنون حتى يظلَّ الشعب المسلم شعباً لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام[٤] ».

نَصيحتُه للسّلاطين المَغول وأركان الدولة ورجال الحَلِّ والعَقد:

لقد درس الإمام الدهلوي تقدُّم السلاطين المغول وانحطاطَهم وعواملهما دراسةً ممعنةً ـ كما يبدو ذلك من المبحث الذي مضى في الباب السابع مِن «حجة الله البالغة» ـ وقد دَرس ـ عدا الدولة المغولية ـ تاريخَ الدول الإسلامية الأخرى بنظرةٍ دقيقة فاحصة ، واستنتجَ منه تلك النتائجَ الحكيمة التي لا يطَّلع عليها إلا منْ أكرمَه الله بحملِ القرآن الكريم وفِقهه ، الذي يَعرِف قانون الله

---

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ١١.

(٢) المصدر السابق: ص: ١١.

(٣) الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة، ص: ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) المصدر السابق: ص ١٢.

تعالى وسُنَّته في المجازاة ، ولم يكن خافياً عليه أن طبيعة هذه الأسرة الملكية قد انحرفتْ وفسَدت ـ للسُّلطة الوراثية الطويلة وكثرة وسائلِ الترف والتسلية ، وصُحبة النُّدماء المغرضين ، وقِصر نظَر المستشارين ـ واستحكَمتْ في جسمها الأدواءُ وتأصَّلت الأمراضُ ، وقد كان خبيراً بهذه الكلمة الحكيمة للفيلسوف المؤرخ العلامة ابن خلدون : «إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع»(١) .

ولكنَّ الهمَّ الصادقَ ، والطَّلبَ المُلِحَّ ، ونِداءَ القلب والضمير ، يحملُ الإنسان في مثل هذه الأوضاع أيضاً على المغامرة ـ التي لا يبقى فيها أمل النجاح إلا وهماً من الأوهام ، فإنه إذا اشتدَّ الظمأ براحل ، وبلغ قلبُه الحنَاجر ، فإنه ـ رغم العقل والذكاء والحكمة والتجارب ـ يَخطو ـ تلقائياً ـ رجاءَ الحصول على الماء إلى منبع السَّراب ، فإنَّ انخداعَ العقل دليلٌ على العطش الصادق ، وما أحسن ما قال الشاعر الفارسي عُرْفِي ، يقول ما معناه :

«ظُنَّ بنفسِك قِلَّة الظمأ الصادق ، ولا تُدِلَّ بعَقلك ، ولا تفخر به ، إذا كان عقلك ـ على علمٍ ووعي ـ لم ينخدعْ بلمَعان السراب الظاهر وبريقه الجذّاب» .

ولكنَّ الإنسان ولا سيَّما أُسرةً كهذه التي حَكمتْ ـ قُروناً طِوالاً ـ بشَوكة وعِزّ وجلال ، تختلفُ طبعاً عن سرابٍ جامد لا رُوح فيه ولا حياة ، وليس هذا الرجاء منها ببعيدٍ أن يُولَد فيها رجلٌ عصامي صاحب عزيمة وحَمية وغيرة يُغيِّر تيار الأحداث ، ويَنفخ في الدولة المحتضرة روحاً جديدة من الحياة . لقد كان الإمام الدهلوي أكبر العارفين ـ في عهده ـ بالقرآن الكريم ، والغوَّاصين في معانيه وحقائقه ، وكانتْ بين يديه هذه الآية الكريمة :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧] .

ولذلك كتب الإمام الدهلوي ـ رُغم معرفتِه بأوضاع القلعة المعلاَّة معرفةً

(١) انظر «مقدّمة ابن خلدون» فصل «إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع» ص: ٣٠٦.

جيدة - إلى أحد[1] الملوك المغول من معاصريه رسالةً نصحه فيها بإصلاح الحال ، وتقوية الدولة ، واستدعاء رحمة الله تعالى ونصره وتأييده إليه وضمَّنها توجيهاتٍ ونصائحَ حكيمة عاليةً تقومُ على أساس الحِكمة العالية والبصيرة النافذة في الدين ، والدراسةِ العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونُظم الدولة ، لقد قال في بدايتها :

«أرجو من فضلِ الله تعالى ورحمته أنَّه إذا صحَّ العمل ، وتحقَّق بموجب هذه الكلمات ، فسوف تَظهر القوة والحزم ، في شؤون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة ، يقول الشاعر ما معناه :

«لقد وَضعوني كالببغاء وراء المرآة ، فلا أقولُ إلا ما لقنني المعلِّم الأزلي (الأبدي)»[2].

وقد أشار في آخر هذه الرسالة - التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه - بعد تقديم توجيهاتٍ ناصحة حكيمة ، سياسية وإدارية - لا يمكن أن تَقوم الدولة بغيرها ، ولا تَعود الرفاهية إلى الناس وتَستحكم الثقة فيما بينهم - بأن يُولِّي على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يُتَّهموا برشوة ، ويكونون من أهل السنة والجماعة ، وأن تُعطى لأئمة المساجد رواتبُ محترمة ، ويُؤكد على أداء الصلوت بالجماعة ، ويُعلن - باهتمام بالغ - ألا ينتهكَ أحدٌ حرمة شهر رمضان ، وأخيراً ألا ينهمك «ملك الإسلام» و«الأمراء العِظام» في العيشة الباذخة المحرَّمة ، ويَتوبوا مما سلَف منهم من الذنوب توبة نصوحاً ، ويَتوَقَّوا من الذنوب في الحياة المقبلة ، فلو عَمِل بذلك فإني آمل بقاء الدولة ، وتأييد الله تعالى ونُصرته ، «ما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب»[3].

---

(١) ومن المؤسف أننا لم نطلع على اسم هذا الملك المغولي (الذي كتبت إليه هذه الرسالة المهمة).

(٢) انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» الرسالة رقم: ١، إلى الملك ووزرائه وأمرائه.

(٣) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ٨٠ - ٨١.

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسؤوليته التي كان يجب على العالِم الجليل بالدّين وشارح الكتاب والسنة ، ومُصلح عصرِه ومجدده أن يقوم بأدائها ، وهكذا يفعل مَن يعرف مسؤولياته وواجباته ، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلَت ليس على رؤوس الأسرة الحاكمة فحسب ، بل على رؤوس جميع سكان البلاد ، ولم تكن للإمام الدهلوي ـ في اتِّباعه لسلفه الأكرمين وحَسْب منهج العلماء الرَّبانيين ـ علاقاتٌ وصلاتٌ مباشرة بالبلاط والدولة ، بل كان متبوأً على حصير «الفقر» الغني ، ولكنَّ قَلبه كان مشغولاً ـ كالشيخ نظام الدين البدواني الدهلوي وخلفَه السيد نصير الدين الدهلوي ـ بالدعاء للحكومة وهدايتها وصلاحها ، ولم يكن يَضِنُّ على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بتوجيهات ناصحةٍ نافعةٍ مشافهةً وكتابةً ، وقد وقع بعضُ المرات أن فاجأ الملكُ بزيارته للإمام الدهلوي ، وطلبَ منه الدّعاء ، يقول في رسالة كتبها إلى معتمَده الحبيب ، ومسترشده وأخيه ابن خالِه الشيخ محمد عاشق الفُلَتِي :

«لقد ركبَ الملِك يوم الخميس لزيارة مَقابر الشيخ نظام الدين والمشايخ الآخرين[1] ودخل على بيتي ـ بدون إشعار سابق ـ من الباب الكابلي راكباً على أريكة ساذجة ولم يك لي بذلك سابقُ علم ، فدخل المسجد وجلس على البواري ، فرأيت تَوقير السلطان من اللازم إلى حدٍّ أن فرشتُ سُجادتي التي أَجلسُ وأُصلِّي عليها بطريقةٍ جلستُ في جانبٍ منها وجلسَ الملكِ في الجانب الآخر ، وصافحَني الملك أولاً بإكبار وإجلال ، ثم قال: كنتُ في شوق إلى زيارتكم منذُ مدة طويلة ، ولكني وصلت اليوم بدلالةِ هذا الشابّ (وكانت الإشارة إلى الوزير) ، ثم قال: إنَّ غلبةَ الكفر والفرقة والفوضى في الرعايا وصَلتْ إلى ما وصلت إليه مما يعلَمُه الجميع ، فقد شقَّ عليَّ النوم والطعام

(١) ومن المؤسف أن اسم هذا السلطان لم يذكر في هذه الرسالة، ولا عندنا مراجع نرجع إليها في الكشف عنه.

والشراب ، وأسألكم الدعاء ، فقلتُ: كنت لا أزال أشتغل بالدعاء من قبلُ ، وسوف أزيد من الآن اشتغالي بالدعاء إن شاء الله تعالى.

وقال لي الوزير ـ أثناء ذلك ـ: إن جلالة الملك يُحافظ على الصلوات الخمس باهتمام.

فقلتُ: الحمد لله ، هذا ما نَسمعُه بعد زمن طويل ، وإلا فإنه لم يُسمعْ عن الملُوك السابقين في الماضي القريب هذه المحافظة على الصلوات»[١].

ثم حكى الإمام الدهلوي للملِك ـ أخيراً ـ تلكَ الوصية التي أوصى بها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه عندَ استخلافه ، قال:

«تَعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة ، من قِبل أعداء الدِّين وأتباعِه أيضاً ، فلا علاجَ لهذه المشاكل إلا العلاجُ الواحد ، وهو أن تَجعلَ مرضاة الله تعالى نُصْب عينِك وتَستعين به ، وتَصرف النظر عن سواه»[٢].

ويقولُ في رسالة أخرى كتَبها إلى الشيخ محمد عاشق:

«جاءني الملك ووالدته[٣] ، وكان غَرض الملك من المجيء بهذه الصورة أَنْ يجلس عندي دون كلفة وحرج ، وقد جَلس ثلاث أو أربع ساعات تقريباً ، وتناول الطعام كذلك ، وكان أكثرُ كلامِه فيما يتعلّق بالاستعانةِ في سبل الخير والرفاهية للناس»[٤].

ولكنَّ الحقيقةَ الظاهرة هي أن انحطاط الأسرة الحاكمة ، وآثارَ السلطة الوراثية ، والمناوءات ، والمؤامرات الخارجية والداخلية ، كانت قد بلغتْ إلى

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) والمراد بالملك هنا أحمد شاه الذي كان ابن محمد شاه وخلفه على عرشه عام ١١٦١ هـ.
(٤) الرسائل السياسية: ص: ١١١.

حد أن أيَّ سلطان كبير قوي صاحبَ عزيمة وقوةِ إرادةٍ لم يكن يستطيع أن يُغيِّر هذا الانحطاط بالازدهار والضعف والوهن بالقوة الجديدة والحيَوية الجديدة ، ويُحدث ثورةً في أوضاع البلاد كُلِّها .

وقد أثبت التاريخُ أن أي دَولة من الدول إذا وصل انحطاطُها وتردِّيها إلى آخر حُدوده ، وكانتْ ألغامُ المؤامرات والمعارضات متهيئةً لتنسُف كيان الدولة كُلِّها ، فلا ينجَحُ أقوى الملوك إرادةً وأمضاهم عزيمة ، وأشدُّهم صبراً وبلاءً ، وأصلحُهم حالاً ، في إعادة الحياة إلى جسد الدولة الهامد ونفخِ الروح فيه من جديد ، وقد وقع أنَّ الرجل الأخير في الأسرة الحاكِمة الذي سقطت في عهده الدولةُ وانقرضت ، كانَ أصلح بكثير من كثيرٍ من سَلَفِه وسابقيه ، وأنَّه حاول جَهده المستميتَ في حماية الدولة من السُّقوط ولكنَّه لم يلْقَ أيَّ نجاح وخابتْ مَساعيه ، فقد كان مروان بن محمدٍ المعروف بمروان الحمار (ت ١٣٢هـ) في آخر الدولة الأموية والأسرة المروانية ، وآخرُ الخلفاء العباسيين المستعصمُ بالله (ت ٦٥٦ هـ) ، وكذلك آخر ملوك الأسرة التيمورية ـ إلى حد ما ـ أبو ظفر بَهادر شاه (م ١٢٧٩ هـ الموافق ١٨٦٢) من الأمثلة العديدة على ذلك .

ولذلك كانتِ الحاجة ماسَّةً إلى ألا يَقصر المُصلِح الناضج ، والمؤرخ البصيرُ ، وصاحب الفراسة الإيمانية كالإمام الدهلوي ، على إقامة الصلاة بالملوك المغول ـ اسماً ـ وأُمراء بلاطِهم ، وإيقاظ الحميَّة الدينية والغَيرة الإسلامية فيهم ، وتحريضهِم على مقاومة الأوضاع المنحرفة ، والقوى الهـدَّامة المخرِّبة ، فقد خرج هـو من نِطـاق أمـراء الـبَلَاط الضَّيق المحدود ، وراسَلَ أولئك الأمراء وقادةَ الجيوش والأبطالَ الطامحين الذين أحسَّ في داخلهم بِجَمْرةِ الحميَّة الدينية والإباء القوميِّ ، كان فيهم هؤلاء الأمراءُ والقادةُ الكبار الذين يَلي ذكرهم :

١ ـ وَزيـرُ المملكة آصِف جاه[1] .

---

(١) انظر «مجموعة الرسائل» للشيخ عبد الرحيم والإمام الدهلوي (مخطوط) في مكتبة =

٢ ـ النَّوابُ فيروز جنَك نظام المُلك أحمد شاهي.
٣ ـ الوزير عِماد المُلك.
٤ ـ تاج محمّد خان بَـلُوج.
٥ ـ النَّواب مَجدُ الدولة بَـهادُر[1].
٦ ـ النَّواب عُبيد الله خان الكشميري.
٧ ـ مَيان نياز كُل خان.
٨ ـ السَّيد أحمد رُوْهِيله.

إلاَّ أنَّ اختيار الإمام الدهلوي ـ الذي كان يُرافقه الإلهام الرباني، والفِراسة الإيمانية ـ وقعَ منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد، كان أحدُهما في داخل الهند، والآخرُ في خارجها، أعني بذلك أمير الأمراء النَّواب نجيبَ الدولة، وأحمد شاه الأبدالي حاكم أَفغانستان إذ ذاك.

النَّوابُ نَجيبُ الدَّولة:

لقد كانتْ تتوفَّر في النَّواب نجيب الدولة جميعُ الصفات والخصائص التي هي من خصائص مُؤسِّسي الدولِ والحكومات في العهد القديم، الذين قاموا بدور مُهم بارز في عهد ازدهار الدول الشخصية والأُسر المالكة وتقدُّمها ـ الذي كان يكفي فيه توفر الجَوهر الذاتي، والخصائص الذاتية اللازمة واجتماع الأوفياء والمخلصين للفتوح وإقامة الدول والحكومات ـ والذين ظهرتْ على أيديهم أي مأثَرة من مآثرِ الفتح والانتصار، والذين كان يتمكَّن منهم جَوهرُ الوَفاء بولي نِعمتهم وعادة الإحسان والكَرم مع أصحابهم ومن تحت أيديهم، وخِصيصةُ الفُروسية والشجاعة والصَّلاحية القيادية تمكُّناً راسخاً، ولكنَّ التجارب التاريخية تُفيد أن هذه الصفات والخصائص إن كانت تَنجحُ في هزيمة القوى العسكرية وفتح البلاد والأمصار.

= الجامعة العثمانية بحيدر آباد، قسم المخطوطات ص: ٢١٤.
(١) وجِّهت إليه أربع رسائل، انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» ص: ٦٦ ـ ٧٠.

ولكنها في البيئة التي يُعتبر فيها الغَدر والخيانة «فناً شريفاً» وتُعتبر مخالفةُ الأصول والضوابط وإساءة الأخلاق والأعمال سياسةً حكيمةً عالية ، واستغلال الفرص عقلاً وبصراً وكَياسة ، تتحوَّل ـ بدل أَن تكون مفيدةً نافعة ـ إلى عوائق في سبيلِ النجاح ، ودوافعَ إلى إيجاد المشاكل والمصاعب ، ولقد صادفتِ النَّواب نَجيب الدولة وآصف جاه ـ لسوء الحظ ـ مثلُ هذه البيئة الفاسدة العفنة ، وقد اتَّفق المؤرِّخون على سُمو خُلقه وصلاحيته الجندية والقيادية والإشادةِ بها ، يقول سرجاد وناتهسر كار:

«يحارُ المؤرِّخ فيما يختار من حسناتِه للإشادة بها والثناء عليها ، أَقيادَتُه المُحيِّرة في ساحة الحرب؟ أم صوابُ رأيهِ وحِدَّةُ نظَره في المشاكل؟ أم صلاحيتُه الفِطرية التي كانت تُنير له في الفوضى والاضطراب ، تلكَ الطريق التي كانت تؤدي إلى نتائج تُحالفه وتوافق هواه؟»[١].

ويقول الشيخ ذكاء الله في «تاريخ الهند»:

«لقد كان نَجيبُ الدولة عاقلاً ذكياً فطِناً حكيماً ، قلَّ من يكون مثله ، فقد انتهتْ إليه في عهده الأمانة والديانة ، فكان لا يكفُّ عن طاعة أسيادِه القدماء النَّواب دوندي خان رُوهيله ، والنَّواب شجاع الدولة ، كما كان له تَحالفٌ مع ملهرراؤهلكر ، ولعلَّك تذكر أن هذا المرَهتة كان قد فرَّ من حرب «باني بَت» تاركاً أهل وطنه وراءه، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يُداوي ـ بطريقة أو أخرى ـ هذه الدولةَ المحطَّمة المكسَّرة»[٢].

ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي:

«كان لدى نجيب الدولة تسعمئة عالم ، يتقاضى أدناهم منزلةً خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهرياً»[٣].

---

(١) Sarkar: Fall of The Mughal Empire, Vol.II P.416. وقد اقتبسنا ذلك من «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»، ص: ٢٣٢.

(٢) تاريخ هندوستان: (تاريخ الهند) جـ: ٩، ص: ٣١٥.

(٣) مجموعة الكلمات: للشيخ عبد العزيز، ص: ٨١.

وكان هو ـ حَسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نِظامي ـ أكبرَ شخصية في دلهي في الفترة ما بين ١٧٦١ ـ ١٧٧٠م ، فكان هو القطب الذي تدور حوله رحى السياسة كلها ، وكان يتحمَّل عاتقه أعباءَ إدارة الحكومة كلها[١] .

لقد اختار الإمام الدهلوي ـ الذي وهبه الله تعالى مَلَكةً خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع ، والتي لا تعطىٰ إلا لأولئك الرجال الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعةِ الرجال وتربية الأفراد بأعمالٍ جليلة بارزة ـ لتحقيق آمالِه وتكميلِ مُهمته في هذا العهد من أزمة الرجال ونُدرة الأفراد ـ النَّوابَ نجيب الدولة ، وقد تفرَّس بعد نظره ودقته ما أودعَ الله تعالى من جوهر صالحٍ وحَميَّةٍ دينية ، فبدأ الإمام الدهلوي مراسلته ، وحاوَل إشعال تلك الجَمرات الكاملة تحتَ الرماد ، يقول في رسالة إليه :

«ندعو الله تعالى أن يُشرِّف أميرَ المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المُبين ، ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول ، ويُنزل عليه بركاتٍ ورحماتٍ كبيرة .

لِيبلُغْ من الفقير وليّ الله ـ عفا الله عنه ـ بعدَ التسلميات العطِرة بالمحبّةِ أننا نشتغلُ هنا بالدُّعاء لنُصرة المسلمين ، وتَلوحُ لنا مِنَ الغيب آثارُ القبول ، ونأمل أن الله تعالى سيُحيي على أيديكم الجُهدَ والجهادَ الديني ، ويُعطي بركاتِه وثماره في الدنيا وفي الآخرة ، إنه قريبٌ مجيب»[٢] .

ويدعوه في رسالة أخرى بـ «أميرِ الغزاة ورئيس المجاهدين»[٣] ، ويقول في رسالة أخرى :

«يُخيَّل إلينا أنَّ عمل تأييد المِلة الإسلامية ونُصرة الأمة المرحومة في هذا العصر سوفَ يَتحققُ على أيديكم الذي هو مصدر هذه الأعمال الخَيِّرة ووسيلتُها ، فلا تدَعوا الوَساوس والهواجس تتمكَّن من قُلوبكم ، وستتحقَّقُ إن

(١) الرسائل السياسية: ص: ٢٣٢ .
(٢) المصدر السابق: ص: ١٩ .
(٣) المصدر السابق: ص: ٢٠ .

شاء الله تعالى جميع الإنجازات وفقَ رغبة الأحباب ورضاهم»[١].

ولا يكتفي الإمام الدهلوي في رسائله إلى النَّواب نجيبِ الدولة بكلماتِ التهنئة والدعاء ، بل يُشير عليه بوصايا نافعةٍ أساسية ، وينصحُه بالحَيطة والاجتناب من العودة إلى تلك الأخطاء والوقائع التي ظَهرت على أيدي الغُزاة السابقين والجيوش الإسلامية من قَبل ، والتي تحول دون تأييد الله تعالى ونَصرِه ، يقول في إحدى رسائله :

«عندما تَمرُّ الجيوشُ المَلكية بدلهي ، فلْيُراع بدقة نظام ألاَّ تُداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق مِن قبل ، لقد شهد أهل دلهي ـ مراراً ـ حوادث النَّهْب والسَّلْب وانتهاكَ الحُرمات والأعراض ، وهذا سببُ التأجيل في تحقق المقاصد والأهداف ، فإنَّ أنَّة المظلوم لا تذهب هكذا سُدى ، فإذا كنتم تُريدون هذه المرة أن يتحقَّق لكم ما لم يتحقق بعد ، فليؤكد تأكيداً بالغاً ، وليلتزم التزاماً قوياً بألاَّ يتعرض أيُّ جندي للمسلمين في دلهي وغير المسلمين أيضاً ، الذين يُدعون أهلَ الذمة»[٢].

ويُلفت الإمام الدهلويُّ الأنظارَ ـ مرة بعد مرة ـ في عددٍ من رسائله إلى حمايةِ البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدَّامة الثلاثة ـ التي مضى ذكرُها في بداية هذا الباب ـ وحفظُها من أضرارهم وعدوانهم ، إذ بدون ذلك لا تقومُ للنِّظام والإدارة في البلاد قائمةٌ ، ولا يَسود الأمن والسلام ، ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجدُ المسلمين آمنةً مَصونةً ، ولا أمل في عيشة عادية متَّزنة ، فقد أصبحتِ البلاد كلُّها بسببِ هذه القوى العائثة في الأرض الفسَادَ تعيشُ حالة حربٍ دائمة ، وفي صورةِ جبهةٍ عسكرية مستقلة[٣].

لقد بلَغ الإمام الدهلوي من حُبّه للنَّواب نجيب الدولة وإشادته به ، ويُعلّق

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٢٨.
(٢) المصدر السابق: ص: ٢١.
(٣) المصدر السابق: ص: ٢١ ـ ٢٢.

عليه من الآمال الجسام أن يُكرر عليه ويؤكد ـ مراراً ـ أنه إذا قام وتوجَّه لهذه المهمة فلا بد أن يَشعر الإمام الدهلوي بذلك حتى يَنصرف إلى الدعاء[(١)] ، كما يؤكِّد عليه ـ مرةً بعد مرة ـ رجاءَه الفتحَ والانتصارَ على يديه ـ ويتنبّأ بذلك، يقول في رسالة إليه:

«لا يَشُكُّ هذا الفقير في هذا الأمر ، ولا يَرتَاب فيه»[(٢)] .

وقد اتَّخذ الإمام الدهلوي النَّواب نجيب الدولة نفسَه واسطةً خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالي إلى الهند ، وأمرَه بالكتابة إليه ـ عدا مراسلاتِه معه مباشرةً التي سيأتي ذكرُها في الصفحات القادمة ـ وأكَّد عليه بذلك عدةَ مرات ، وتُوفي النَّواب نجيب الدولة بعد وفاة الإمام الدهلوي بثماني سنوات في رجب عام ١١٨٤هـ الموافق ٣١/ أكتوبر عام ١٧٧٠م ، يَقول البروفيسور خليق أحمد نظامي:

«إنَّ هذا الحادث يدل على عَدْلِه وبُعد نَظرِه ، وسوف يَبقى ذكرى دائمة في التاريخ ، إذ أنه حالَ احتضارِه وإشرافِه على الموت على فراشِه ، أصدرَ أَمره إلى جيوشه (التي كانت مُقيمة ـ إذ ذاك ـ في هابور[(٣)] وكان بها العيد والاحتفال السنوي للهندوس) أن يُحافظ على أموال الزُّوار الهندوس المُشاركين في هذا الاحتفال وأعراضِهم وأنفُسِهم»[(٤)] .

أحمد شاه الأبدالي:

لقد أدركَ الإمام الدهلوي ـ ببُعْد نظرِه ودراستِه الواقعية لأوضاع الهند ، وبالنظر إلى بِطالة أركان الدولة وأمراء البِلاد وسوء تصرفاتهم ، وانحطاط الأسرة الحاكمة وعدم كفاءتها وصلاحيتها ـ حَقيقتَينِ ظاهرتين:

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٢٥ ـ ٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص: ٣٤ ـ ٣٩.
(٣) مدينة قريبة من دلهي في الولاية الشمالية.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٣٤، نقلاً عن «سركار» جـ: ٢، ص: ٤١٥.

إحداهما: أَنَّ الحاجة المُلِحَّة الأولى لهذه البلاد هي القضاءُ على ملوك الطوائف والفَوضى والاضطراب الذي لا يدَع مجالاً لأي عمل بنَّاء وإدارةٍ حازمة ونظامٍ أفضل، ولا أَمْنَ فيه لأنفس أهل البلاد وأَعراضِهم وأموالهم ـ كما تقدَّم في الصَّفحاتِ الماضية ـ.

وتعود مسؤولية هذه الفوضَى والاضطراب وقِلة الأمن، وحالةُ الفزع والإرهاب المستقلَّةُ إلى هذه القُوى الفَوضوية المقاتلةِ الثلاثِ التي لم تكن لها خلفياتٌ كريمة وتَجاربُ سابقةٌ للحكم في بلاد تعيشُ فيها الشعوب المختلفة والحضارات والدياناتُ المتعددة، ويَحتاج تحمُّل مسؤولية الإدارة فيها إلى شعور كبيرٍ بالمسؤولية، وقوةٍ زاخرة بالتحمُّل والضبطِ وتملُّكِ الأعصاب وسَعةِ النظر ورَحابة الصدر، ولم تكُن هذه القوى تملِك تصميماً أو تخطيطاً لنشر العدل والطمأنينة في البلاد، وإعادةِ الثقة في النفوس، وإصلاح الإدارة والنظام، ولم يكن لها أيُّ تصور وتفكيرٍ فيه.

ولأجل ذلك كانت المهمة الأولى هي حماية البلاد من خَطر هذه القِوى ولا سيَّما من غلبة المَرهتة واستيلائِهم الذي لم يدعْ هذا الجُزء المركزي، الذي لم يزل عاصمة الحكومات، أي هذه المنطقة من لاهور إلى دلهي والولايات المتحدة الشمالية يعيشُ ـ لحظة ـ في أمن وطمأنينة، فلا يُدرى متى تتحولُ هذه المنطقة كلُّها إلى ساحة حرب وقتال، وتتحول المدن العامرة الزاهرة إلى غابةٍ حُـرَّةٍ مفتوحةٍ يُعطى فيها السماح للصيَّادين والقانصين أن يَصطادوا السكان الآمنين، ويَذبحوهم كالطير والمواشي، ويَقضُوا على ثرواتهم التي تَوارثُوها كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، في دقائق وثوانٍ.

وكان الخطر الثاني في صُورة السيخ والجات، الذي كانتْ تتعرضُ له مراكز المدينة والحضارة والثروةِ واليسار، وكان يَدهَمُها ويُفاجئها كآفةٍ سماوية، وبَلِيَّةٍ نازلة.

والحقيقةُ الثانية: أنَّ القضاء على هذا الخطر كان يحتاجُ إلى قائد عسكري مُحنَّك وجيش قوي مدرَّب، يكون زاخراً بالقوة العسكرية، ولكن لا يكون

ثملاً بها سكران ، ويتصفُ ـ علاوة على صفات الفُروسية والشجاعة والبطولة ـ بالغَيرة الإيمانية ، والحميَّة الدينية ، كذلك مع البراءة من الخلافاتِ الجزئية والحزازات الجانبية والأحقاد القديمة والعداوات الموروثة ، التي كانت تَـنْخُر عاصمة البلاد وأصحاب السياسة كالدُّودِ ، والتي لا يُرجى في وجودها تحقيقُ تلك الأهداف العالية التي لا يُنظر فيها إلى مصالح المِلة الإسلامية وتأييدِ الدين الحنيف ، وحفظِ البلاد وتأمينِها بدلاً من مصالح العناصر السُّلالية ، والفِرق الدينية الخاصة ، أو المصالحِ الشخصية والانتصار للذات.

وقد كان الإمام الدهلوي ينظرُ إلى أمير الأمراء النَّواب نجيب الدولة كواسطةٍ ووسيلة ، ولكنه كان يعرف أنَّه لا يكفي نظراً لخطورة الأوضاع وشدتها ، ولم يكن من المستطاع أن يَحُدَّ به ـ وحده ـ مِن سلطة تلك القوى ويكسرَ شوكَتها التي كانت قد ضاعفت قُوّتها العسكرية إلى حد أن أيَّ قوةٍ عسكرية واحدةٍ في البلاد لم تكن تَقدر على كسرها وإلحاق الهزيمة بها ، بل كانتِ الحاجة لذلك ماسَّةً إلى قائد عسكري خارجي دافقٍ بالحياة والنشاط ، ولا يكونُ ـ في نفس الوقت ـ أجنبياً غريباً في هذه البلاد تماماً ، بل يكون على معرفةٍ وإلمام بوِهاد هذه البلاد وأنجادِها ، وتقاليدِ أهلها وعاداتِهم ، وطبيعةِ الفِرَق المناوئة والمقاتِلين المقاومين ، ومواضعِ ضعفهم وسقطتِهم ، ويملك من عُلو الهمة والطُموح ما يستطيعُ به أن يُنقذَ هذه البلاد من الأخطار المُلِمَّة الواقعة ، ثم يُفوِّض السلطة إلى أحد الأكفاء القادرين من أفراد الأسرة الحاكمة القديمة أو إلى أمير أو وزير صالح وفيٍّ ، إذ كان ذلك هو المقتضى الحقيقي للواقعيةِ والمصالح المِلِّية ، وحُبِّ الوطن.

وقـد وقـع اختيار الإمـام الدهلوي ـ لهـذه المهمة الخَطيـرة العسيرة الدقيقة ـ التي تَحملُ كَكُلٍّ مُهمةٍ دقيقة خطيرة جوانبَ النفع والضَّرر ، والرِّبح والخسارة ـ على أحمد شاه الدَّراني (١١٣٦ ـ ١١٨٧هـ الموافق ١٧٢٣ ـ ١٧٧٢م) وَالي قَندهار ، الذي لم يكن أجنبياً عن الهند ولا غريباً فيها ، فقد ولِد

في مُلتان[١] ، ولا يزال فيها شارع يسمى بـ «شارع الأبدالي» وقد غزا الهندَ لمختلف أهدافه وأغراضِه تسعَ مرات من عام ١٧٤٧م إلى عام ١٧٦٩م ، وكان قد وَرد الهند قبلَ دعوة الإمام الدهلوي ونجيبِ الدولة له : ستَّ مرات .

وكان يَعرف وِهاد البلاد وأنجادَها ، وأساليب الحَرب فيها ، ونِسبة القوى العسكرية بها ، ومُيول الأمراء وأركان الدولة ونزَعاتِهم ، وقد كان من أولئك القادة العسكريين الممتازين في مُنتصف القرن الثامن عشر المسيحي والقرن الثاني عشر الهجري الذين لا يُولدون إلا بعد آمادٍ وأحقاب طويلة ، ويؤسّسون دولاً وحكوماتٍ مستقلة ، إنّـه جمع شَملَ الأفغانيين المتفرقين بتوفيقٍ ونجاح ، ونفَّذ القوانين العادلة ، وأقامَ الحسبة ، وكان يَجمعُ بين صِفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشَرفِ النفس وكَرمِ الأصل ، يتَذوّق العِلم والأدب ويُعنى بهما ، وكان محبّباً أنيساً في قومه ، متديّناً ، مُتقيّداً بالفرائض والآداب الدينية ، يُحب مجالسةَ العلماء والصالحين ، ويتأدَّب مع الأشرافِ والمشايخ ويُكرمهم ، ويرغب ـ دائماً ـ في زيادة معلوماتِه وتَبادلِ الآراءِ في الأمور العلمية .

وكـان رقيـقَ القلـبِ رحيمـاً سخيـاً كـريمـاً ، يتَمسَّـك بـأصـول المسـاواة والمسامحة الدينية ، وقد أحيا السُّنن التي كان التكلُّم بها في البيئة الأفغانية ـ إذ ذاكَ ـ مِنَ الصعوبة بمكان ، مثل الزَّواجِ بالأيامَى ، وقد كان هو نفسه مُثقّفاً وكاتباً قديراً ، وكان يَهتمُّ بتقدمه الروحي ويتمنى ذلك[٢] ، يقول فيرير :

«لقد كان أحمد شاه بريئاً من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية ، فكان يتجنّب ـ كلياً ـ شربَ الخمور وتَناوُل الأفيون ، نزيهاً سامياً على أفاعيل النهامة والنّفاق ، مُلتزماً بالدين أيّما التزام ، وكانت عاداتُه وأخلاقه الساذجة

(١) انظر «دائرة المعارف الإسلامية» Encyclopedia of Islam Davies مقال C.Collin Davies .

(٢) انظـر للتفصيـل: Ahmad Shah Durrani-Father of Modern Afghnistan-Asia Publishing House,1949 BY DR.G.Singh.

ولكن المُتَّزنة الرزينةُ ـ تُحبِّبه إلى كل شخصٍ ، كان الوصول إليه سهلاً ميسوراً ، فقد كان يُراعي العدل والنصفَة ، ولم يَشكَّ أحد قط في حكمه وقَضائه»[١] .

كان أحمد شاه الأبدالي قَدم الهند في عهد الإمام الدهلوي ستَّ مرات من قبلُ ، وقضى حاجاته المحليَّة المؤقَّتة ، ثم رجع إلى بلاده ، ولم يَقم هو في هذه الحَملات ـ سوى التظاهر بقُوته العسكرية المدعمة ، وتحقيق بعض مآربه المؤقتة ـ بمُهمة مفيدة ولم يُحقِّق مصلحةً كبيرة ، كما لم يلتزم جيشُه ـ أثناء حملاته ـ بتِلك الآدابِ والتعاليم الإسلامية التي يُتوقع العمل بها من شخصٍ مسلم متقيِّد بالشريعة .

وقد عانى الإمام الدهلوي وأصحابه أيضاً من جراء بعضِ حملاته ، من مَصائبَ وصُعوبات ، ولكنه رُغم هذه المواطِن من الضَّعف فيه والتجارب المُرّة السابقة عنه ، كان هو الأملَ الوحيد الذي يَلمعُ في الأفق ، يُصرّح الشيخ محمد عاشق الفُلتي بأن الإمام الدهلوي بعد ذلك كان يقول : «إنه سَيغلِبُ على هذه الديار» ، وقال مرة رداً على سؤال من بهادر خان بلوج : «سوف تستَحكِمُ سيطرتُه على هذه البلاد» ، وشاع ـ ذات مرة ـ نبأُ وفاته ، فلما استفسرَ الشيخ محمد عاشق الفلتي عنه قال :

«الذي يُخيَّلُ إليَّ هو أن أحمد شاه الأبدالي سوف يَعود إلى هذه البلاد ويَقلِبُ هؤلاء الكفار ظهراً لبطن ويجعلُ عالِيَهم سافِلَهم ، وأنه ـ رغم جُوره وطُغيانه ـ قد حفظه الله تعالى لأجلِ هذه المُهمة»[٢] .

لقد كان الإمام الدهلوي يتوقع أنَّ الله تعالى سوف يُصلح أحوال الأبدالي ويَهديه إلى الرشاد ، ويَستعمِلَه في خدمة ليست ـ في ظاهر الأمر ـ في وُسع

---

(١) HK/V History of The Afghans وقد اقتطفنا ذلك من «الرسائل السياسية» ص: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٢) الرسائل السياسية: ص: ٢٦ ـ ٢٧ .

أي أمير أو قائد آخر ، قال للحكيم أبي الوفاء الكشميري ذات مرة: إن الصعوبات التي يُلاقيها الأبدالي في تحقيق أهدافه هي لأجل ما ارتكبَه من ظلم وجَور (في حملاته السابقة) على مُدن الهند ، وسوف تَصلُح أحواله فيما بعد[١] .

كان الإمام الدهلوي يُريد من أحمد الأبدالي أداءَ دوره في صيانةِ هذه البلاد من هذه الأوضاع القَلِقة والفوضى العامة ، وأن يَعهد بالدولة إلى شَخص كُفء صالح ـ إلى حد ما ـ مِن أفراد الأسرة الحاكمة ، وكان الإمام الدهلوي قد تنبّأ قبل مَقْدمِه بأنه لا يَلبث ، هنا بل يُولي أمر الدولةِ أحدَ الأفراد من أولاد الملوك[٢] .

وأخيراً طلبَ الإمامُ الدهلوي من نَجيب الدَّولة كتابةَ الرسائل ـ بهذا الصدد ـ إلى أحمد شاه الأبدالي ، ثم كتب إليه ـ مباشرةً ـ رسالة مؤثِّرة بليغةً تكشفُ عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحَمِيَّته الدينية وجَراءتِه الخُلقية[٣] ، وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاعَ الراهنة في البلاد وأساليب حُكمها القديمة وإدارَة مُختلف الولايات ونُظُمها المختلفةِ ، وعددَ الفِرَق الدينية والسُّلالية المختلفة في البلاد ، ونِسبة قِواها ، وأخطاءَ الملوك السياسية وَقِصَر نظرِهم فيما يتعلَّق بهم ، واستحكامَهم وتَبوؤهم مكانةَ القوة والسلطة بصفةٍ تدريجية ، وذكَر المَرهته والجات في هذا الصدد ـ بصفة خاصة ـ وصوَّر غُربة الإسلام وبُؤس المسلمين بتأثير حملاتِهم المتكررة صُورةً مُشجية مُذيبةً للقلوب ، وحرَّض هذا القائدَ المسلم ـ الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى إيران ـ أكبرَ قوة عسكرية مُنظَّمة ـ على مقاومة هذه الأوضاع وتَثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيدِ أركانها ، وتحمّل مسؤولية البلاد على عاتقهم من جديد ، وصارَحه بقوله :

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص: ٣٠.
(٣) انظر الرسالة المفصلة في «الرسائل السياسية» الرسالة رقم: ٢، ص: ٦ ـ ١٧.

«إنَّه لا يُوجد ـ في هذا العهد ـ مَلِكٌ يملِكُ من القوة والشوكة ما يستطيعُ أن يَهزم بهما جيُوشَ الأعداء ، مع بُعد النَّظر والحِنكة العسكرية إلا سيادتكم»[١] .

ويَزيد قائلاً :

«إنَّنا عبادَ اللهِ نستشفعُ برسول الله ونسأَل بالله تعالى أن تَصرِفوا همتكم المباركةَ العالية إلى هذه الجهة ، وتُقاوموا الأعداء حتى يُكتب لكم عند الله تعالى في صحِيفتكم ثوابٌ عظيم ، ويُسجَّل اسمكم على صفحة المجاهدين في سبيل الله ، وتنالكم في الدنيا مغانمُ كثيرة لا تحصى ، ويتخلَّص المسلمون من مخالب الكفار وقَبضتهم»[٢] .

وقد عَرض الإمامُ الدهلوي في هذه الرسالة ـ نفسِها ـ ببصيرتِه السياسية واطِّلاعه العميق على الظروف والأوضاع ، عنْ هذه القِوى الناشئة البارزة التي كانتْ لها ـ لِفُقدان أي قوة منظّمة مجابهة ـ هيبتها ورُعبها فِي النفوس ، وكان يَعتقد أن لا قُدرة لأحدٍ على هزيمتها ، تقديراً صحيحاً دقيقاً لا يُقدِّمه إلا قائدٌ محنَّك أو سياسي بارع ، يقول عن المَرهتة :

«إنَّ هزيمة المَرهتة هيّنةٌ سهلةٌ ، شَريطة أن يُشمِّر غُزاة الإسلام عن ساقِ الجِدِّ والجهاد ، والواقعُ أن عُنصر المَرهتة قليلُ العدد ، ولكنَّ جمعاً كبيراً يساندهم ويُحالِفهم ، فلو فُرِّق صفٌّ واحدٌ من صفوفهم لتبدَّدتْ هذه الجماعة وتفرَّقتْ ، وأُصيبتْ بالهزيمة والضَّعْفِ والفُتور ، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحابَ قوة وشَوكة ، لذلك فإنه تنحصرُ كلُّ مهارتهم في جمع العَدد الكبير والجيش الكثير الذي يَكون أكثرَ من النمل والجراد ، أما البطولةُ والشجاعة وكثرةُ وسائلِ الحرب فليستْ فيهم»[٣] .

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ١٢ .
(٢) المصدر السابق: ص: ١٢ .
(٣) المصدر السابق: ص: ٨٦ .

إنَّ هذه الرسائل التي كتبها النَّواب نجيب الدولة ـ بتوجيهٍ من الإمام الدهلوي إلى أحمد شاه الأبدالي ، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصَّلة التي كتبها الإمام نفسُه إليه ـ وقد تقدمتْ بعضُ مقتطفاتها ـ لم تذهب سُدىً ، فقد توجَّه أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ ـ الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهتة وتَحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة ـ اللَّذَين كانا قد أثبتا وَعْيَهُما السياسي ووَحْدَتَهُما الإسلامية إلى الهند ، ومضى عام كامل في الحروب والاشتباكات الجانبية ، وأخيراً وقعتْ بين المرهتة وبين الأفغانيين والجبهةِ الإسلامية الهنديّة الموحَّدة عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤/ يناير عام ١٧٦١م تلكَ المعركة الحاسمة التي غيَّرت في الهند مجرى التاريخ ، وأخرجتِ المَرهتة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند ، ونُورد فيما يلي قصَّة هذه الحرب ونتيجَتها بإيجازٍ حَسبما يحكيها الشيخ ذكاء الله في كتابه «تاريخ الهند»[1] يقول :

«لقد حَمِي الوَطيسُ واشتدَّ لظَى الحرب ، إلا أنَّ كَفة المرهتة كانتْ راجحة ، فأصدرأحمد شاه أمره لجنُوده الفارين من الزحف أن يُحاصَروا ويُقْتَلوا ، وأعلن أنَّ من حاول الفِرار يُقتلُ فوراً ، ثم أمرَ جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحملَ من جِهة يساره على العدو ، وقد أصاب سهمُ هذا التدبيرِ مقتلَه ، وقد كان «بهاؤ» و«بسواس راؤ» في قلب الجيش راكِبين يُحرِّضان الجنودَ والمَرهتة على القتال ، وكانت الحرب بالخناجر والرماح ، وإذا به وقع ما اللهُ يَعلمُه فتزلزلتْ أَقدامُ الجُنود المَرهتة ، وذهبتْ رِيحُهم وما إن تَزلزلتْ أَقدامُهم حتى امتلأتْ ساحة الحرب بالجُثث والأشلاء ، فتعقَّبهمُ الجيشُ الإسلامي وتتبَّعهم ـ بِحماس واندفاع ـ في كل جهة وجانبٍ إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً ، وأثْخَنهم بالجراح ، وأسقطهم أكواماً من الصرعى والقتلى ، ومن بقي من المَرهتة في أيدي هؤلاء الأعداء ، فقد قَتلهم البَدو الرّعاع ، وقُتل «بسواس راؤ» و«بهاؤ» ، وكان قد أخفى بعضُ الدرَّانيين «جي كوجي سنديها»

(١) انظر للتفصيل «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء الله، جـ: ٩، ص: ٣٠٥ ـ ٣٠٩.

وسَتَرَ عليه ، ولكنه أُخذ بعد بحثٍ وتفتيش وقُتل ، وأُسر إبراهيم خان كاردي[١] ، ولقي حَتفه بعد أسبوع ، وقُتل شمشير بهادر وهو يُحاول الفرار ، وفرَّ ملهاراؤ في «مالْوه» بنفسه ، ووصل أبا جي سِنْدهيا إليه كذلك وهو أعرج ، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سِوى هذين القائدين ، ولم يلحق المَرهتة مثلُ هذه الهزيمة الساحقة من قبلُ ، ولا نزلتْ مثلُ هذه النازلة قط .

وقد أحدثتْ هذه المصيبة يأساً في النفوس ، فسقطتِ الهمم ، وبَردتِ القلوب ، ومات بالاجي لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام ، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكفَ في أحد المعابد يَدرُس اللُّغة السنسكريتية»[٢] .

وحَسْبَ تصريح أحد المؤرِّخين : «لقد طارت قُوة المَرهتة في لمحة البصر كالكافور» ، ويقول سَرجاد وناتهسر كار : «إنه لم يَبقَ بيتٌ من البيوت في ولاية مهاراشتر لم يَعُمَّه المأتم والرثاء ، فقد ذهبَ جِيل القادة والرؤساء كُلّه في معركة واحدة»[٣] .

وتوجَّه أحمد شاه الأبدالي ـ حسب تَخطيط الإمام الدهلوي ـ بعدَ تحقيقِ هذه المهمة الضرورية إلى قندهار ، يقولُ الشيخ ذكاء الله :

«لقد قَدم أحمد شاه بعدَ هذا الفتح والانتصار من «باني بت» إلى نواحي دلهي ومكثَ عِدَّة أيام ، وعيَّن الأمير عالي كوهراي شاه عالِم مَلِكَ البِلاد ، وشَفَعَ لدى المَلِك أن يُولي شجاع الدولة الوزارة ، ونجيبَ الدولة إمارة الأمراء ، ولم يكن شاه عالِم إذ ذاك في دلهي ، فعيَّن ابنه جوان بخت نائباً عنه ، وفوَّض إلى نجيب الدولة إدارة دلهي ونِظامَها ، وخَلع على شُجاع الدولة وولاّه ولاياتِ أوده وإلّه آباد ، وتوجَّه هو نفسُه إلى قندهار»[٤] .

---

(١) كان رئيس المدفعية في جيش مرهتة ، وكان رغم إسلامه وفياً لهم، وبقي بجوارهم إلى آخر لحظة.

(٢) تاريخ الهند: ج: ٩، ص: ٣٠٩.

(٣) الرسائل السياسية: ص: ٤٥.

(٤) تاريخ الهند: جـ: ٩، ص: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

يقول البروفيسور خَليق أحمد نظامي:

«لقد حاول أحمد شاه الأبدالي ـ جُهده ـ بعد حرب «باني بت» أن يدْعُوَ شاه عالم إلى دلهي، وبَعث إليه برسوله، ولما لَمْ يحضر طلب أحمد شاه من والدته النَّواب زينب محل أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يُحاول دعوة شاه عالم (إلى دلهي) حتى يتخلَّص هو من قبضة الإنكليز، ويَقدم إلى دلهي ويُضاعف قُوته ويُحكِمَها حالَ وُجود أحمد شاه الأبدالي[1].

ويقول خليق أحمد أيضاً:

«لم يكن عِند أحدٍ من المَرهتة والسيخ والجات مِنَ السَّعة وشُمول التَّصور والتفكير بحيث يُفكِّر في أساليبِ المحافظة على وَحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوي ـ حسَب مخططه المقترح ـ يُريد استعادةَ السُّلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك أكبر ـ وجهانكير ـ وشاه جهان وأورنك زيب في البلاد، ولكن عن طريقةِ الحكومة العادِلة لا المُلوك الجائرينَ الجبَّارين»[2].

ولو كانتِ الدولة المغولية تَملِكُ رصيداً من الحياة، لكانتْ تستطيعُ أن تَنتفعَ بنتائج حرب باني بت وتَستعيدَ سُلطاتها في الهند لعدة قرون قادمة، ولكنَّ الواقع أنَّ الدولة المغولية ـ إذ ذاك ـ كانتْ جسداً بلا روح، ولقد استغلَّ حربَ باني بت ـ أصلاً ـ الفاتحون في حرب «بلاسي»[3].

لقد ضيَّع شاه عالم ـ بسبب سُقوط هِمَّته وقِصر نظره ـ هذه الفُرصةَ الذهبية، ولم يَحضُرِ القلعَة ـ رغم كل الجهود والمحاولاتِ ورسالةِ والدتِه زينب مَحلّ الرقيقة الرحيمة ـ إلا بعد عشرة أعوام في أواخر عام ١٧٧١م يوم ٢٥/ ديسمبر من عام ١٧٧١ م ثُمَّ ما وقع عليه وعلى خلفائه، وقد سجَّله التاريخ

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) المصدر السابق: ص: ٤٧.
(٣) المصدر السابق: ص: ٤٥.

كُلُّه بإسهاب وتفصيل ، وقد كان أوج ذلك وذروته (Climax) تلكَ المأساة الأليمة لقلب السلطة والنظام ـ الذي لم يكن إلا اسماً ـ بل اغتصابه وسلبه ، التي وقعت على أيدي الإنكليز المستعمرين الذين لم يُضيّعوا ـ لحكمتهم وحِنكتهم وذكائِهم السياسي ـ أيَّ فُرصة من الفُرص للسَّيطرة على البلاد .

واستمرَّ ـ بعد الإمام الدهلوي ـ خليفته بحقٍّ وجَدارة ووَارِثُه في عِلمه وبَصيرته وحَميَّته الدينية ابنُه الكريم الأكبر سِراجُ الهند الشيخُ عبد العزيز الدهلوي على دَرب والده وتحقيق مُهمته التي بدأ بها ، بلْ إكمالها وتوسيع نِطاقها ، وصَرف كل همه وعِنايته ـ مع تغيُّر الأوضاع السياسية ـ إلى العدوِّ الأصيل والقوةِ الحقيقة (أي السُّلطة الإنكليزية) في ميدان السياسة ، التي تجاوزتْ حُدود خطر من الأخطار ـ التي تَحتاج لإدراكها إلى بَصيرة ووعي سياسي ـ إلى واقعٍ ملموس يكفي لشُهوده البَصر الظاهر[1] .

وقد حاول بعدَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي اثنان من تَلامذته وغَرْسه من أصحاب العزيمة والدعوة والإصلاح والجهاد ، الإمامُ أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخُ إسماعيل الشهيد ، أن يُنفِّذا ذلك المخطَّط السياسي الذي عَرضه الإمام الدهلويُّ ـ نظرياً في «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» و«التفهيماتِ الإلـٰهية» وغامرا بنفسيهما لإقامةِ الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة . ويُعلم من رسائل السيِّد أنهما إلى أيِّ حدٍ استفادا من تعاليم الإمام الدهلوي وتوجيهاتِه وأضوائهِ ، وإلى أي حدٍّ بلغت عزائِمُهم من الصَّرامة ، وهِممُهم من العُلـم ، ونَظرتُهم من البُعـد والعمق ، وقلوبُهم من الرَّحبة والسَّعة .

وقد كانوا يَهدفون إلى تحرير الهند ـ ولكنهم بدؤوا مؤقتاً بحماية مسلمي بُنجاب من النَّكبات التي تعرضوا لها ، وخَطرِ الإبادة الشاملة الـتي استـهدفوا

(١) سيأتي تفصيل هـذا الإجمال في الباب الحادي عشر في ذكـر الشيخ عبد العزيز الدهلوي .

لـه في حكم السيـخ فـي بُنجاب ، هذا الحكم العسكري ، الطائفي الجائر ، وكان الوضع الشاذُّ لا يحتمل التأجيل (كما كان شأن الإمام الدهلوي نفسِه في تحصين بيئته المعاصرة ومُجتَمعهِ المعاصر وحمايَتِهما من غارات الجَات والمَرهتة واغتيالاتِهم اليومية) وبعدَ طرد الإنكليز المستَعمرينِ ـ الذين كانوا يَصفونهم بالأجانب الدُّخلاء والتُّجار النُّزلاء ـ كانوا يُريدون حُكْمَ البلاد وتنظيمَها وإدارتها في ضوء أُصول العدالةِ والمُساواة الإنسانية ، يُقدِّر كُلٌّ ذلك ويُعلَم من رسائل السيِّدِ التي كتبها إلى السلاطين المعاصرين ، والأمراءِ المعـروفيـن ، وأصحـاب الغيـرة والحَميَّـةِ مـن المسلميـن والـوُلاة العـاقليـن الحازمين[1] .

* * *

(١) انظر للتفصيل الباب السادس عشر من كتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» (بالأردوية) بعنوان «الجهاد: دوافعه وأهدافه» ص: ٣٨٥ ـ ٣٩٤.

الفصل السادس
الحسبة على مختلف طبقات الأمة
ودَعْوَتُها إلى الإصلاح والتغيير

مِيزَةُ الإمام الدهلوي:

إنَّ العلماء الكبارَ الذين يَتذوَّقون العلمَ والبَحث والتحقيق والتأليف، ويَكونون على حظٍّ وافر من الذكاء ودِقة الملاحظة، وعُمق النظر، ينصرفون كُلياً ـ بصفة عامة ـ إلى دراسةِ الكتب والبَحث العلمي والتحقيق، أو التدريس والتأليف ويَستغرقون فيه، ويعيشون في عُزلةٍ عن واقعِ المسلمين وأدواءِ الطبقات المختلفةِ في المجتمع وانحرافاتِها ومواضعِ ضعفها، أو يَصعُبُ عليهم النزول إلى مستوى العامة، و«التدلي» إليهم من سماء العلم والنظرِ؛ الذي يجدون فيه لذةً وحلاوة أكبر من كل لذةٍ وحلاوة.

ويُمكن أن يُستثنى من هذا العُموم ـ بصورةٍ واضحة ـ شَخصيتان اثنتان: أحدُهما: **حُجَّة الإسلام الإمام الغزالي** (ت ٥٠٥هـ) الذي وضع الأصابع على أمراضِ الطبقات المختلفة من الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم في عصره ومواضع ضعفه في كتابه الخالد، الذي طبّق صيتُه الآفاق «إحياء علوم الدين»، بحَيث يتجلّى منه أنـهُ مارسِ الحياة العامة واطَّلع على الطبقات المختلفة في المجتمع عن كَثَب، مِن حِلَق دروس العلماء ومَجالس الذكر والمُراقبة لدى

المشايخ ، إلى بلاط الخُلفاء والسلاطين وقصورِ الأمراء والأثرياء ومساكنهم الوَثيرة الناعمة ، ومن هذه القصور الملكية والأميرية إلى ضَجيج حَوانيت المحترفين والتُّجار وجَلَبة الأسواق ، ويَعرف كيف تَخدعُ النَّفسُ والشيطانُ مُختلف طبقاتِ العُلماء والوُجهاء والأعيانِ ، ومختلف أوساطِ الخواصِّ والعوام ، وكيف تغيرتِ الحقائقُ الأساسية والتصوراتُ الدِّينية وكيفَ عَمَّتِ الغفلةُ على الهدفِ الأعلى(سعادةِ الآخرةِ ومرضاةِ الله تعالى)[1].

وهذا هو شأن العلامة ابنِ الجَوْزِي (٥٩٧هـ) مع شَيءٍ من الفرق في الإجمال والتفصيل والأسلوب والمَنهج ـ في كتابه الشهير (تلبيس إبليس) الذي استعرضَ فيه المجتمع المسلم كُلَّه في عصره ، واختبرَ كلَّ طبقةٍ من طبقات المسلمين على مَحكِّ السُّنة النبوية والشَّريعة الإسلامية ، ودلَّ على مواضع ضَعْفِها وانحرافاتها وأخطائها ، ولم يُحابِ في هذه الدِّراسة الناقدَة أيَّ طَبَقةٍ من الطبقات ، فقد انتقدَ فيه العُلماءَ والمحدِّثين ، والفُقهاءَ والواعظين ، والحُكَّام والسلاطين ، والزُّهَّادَ والعُبَّاد ، والمتصوِّفين والعامَّة من الناس أجمعين ، وفضحَ مُغالطاتهم وتَلبُّساتِ الشيطانِ عليهم[2].

ولكنَّ هذا النَّـقْـد فيما يتعلَّق بـ«تلبيس إبليس» أكثرُه سلبي وانتقادٌ فحسب ، وليست معه دعوةٌ قوية إيجابية واضحةٌ لإصلاح الأوضاع وتَوجيه المجتمع ، وإن كانت ، فليستْ في كمِّيتها وكيفيتها بالدرجة المطلوبَة ، ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ مجالَ هذا الموضوع ونِطاقه المحدودَ لم يَكُن يتحَمَّلُ أكثرَ من ذلك.

---

(١) انظر للتفصيل والأمثلة «إحياء علوم الدين» جـ٢ ـ ٣، أو «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ ١ . (ترجمة الإمام الغزالي).

(٢) انظر للتفصيل «تلبيس إبليس» ص: ١١٩ ـ ٣٨٤، أو «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ : ١، (ترجمة العلامة ابن الجوزي) ، [لم تنقل هذه الترجمة إلى العربية في الطبعة الأولى كما هي موجودة في الطبعة الأردوية].

الخِطاباتُ الخَاصَّة لِمُختلفِ طَبقاتِ الأُمة:

وإنَّنا نَرَى بعد هذين العالِمَين الجليلين المعروفين من مُعلِّمي الأخلاق الفاضِلة والدعاة إلى الله (اللَّذين كانا مع علو منزلتهما في مجال الإصلاح والتربية من أَجلِّ العلماء والمؤلفين) مأثرةَ الإمام الدهلوي ـ في هذا الصدد ـ مِن أَروع المآثِر وأَلمعها في تاريخ الإصلاح والتجديد ، فإنَّه قد خاطبَ السلاطين المسلمين والأُمراءَ، وأركانَ البلاط ، والجنودَ العسكريِّين ، والصُّناع والمحترفين ، وأولادَ المشايخ المُتصوِّفين ، وعُلماءَ السوءِ المنحرفين ، والوعَّاظ المُتشدِّقين المُتقشِّفين ، والزهَّاد المنعزلين ، كلَّ طبقة من هذه الطبقات على حِدة ، وفي صُورة مستقلة ، وضرَب على وَتَرهم الحسَّاس ، ودلَّ على مكامن ضعفهم وانحرافِهم وأنواع غرورهم وخِداعهم.

كما خاطبَ الأمةَ الإسلامية ـ بصورة عامةٍ ـ خطاباً جامعاً شاملاً ، وكَشفَ عن أمراضِها وأدوائِها ، ووصفَ عِلاجها.

وقد بلغَ توجُّعهُ وحُرقةُ قلبه واندفاعُه في الحَميَّة الإسلاميةِ وعَاطِفة الدَّعوة الدينية وبَلاغةِ البيان وقُوَّة التعبير في هذه الخطابات الخاصَّة أَوْجَها وذُروَتها ، يَصعُب أَن تجد أَمثلَتها في كُتب المؤلفين السابقين ـ الذين مضى ذكرهم ـ والمُصلِحين الناقدين.

وسوف نُورِد مقتطفاتٍ من كتاب «التَّفهيمات الإلٰهية» للإمام الدهلوي الذي خاطب فيه قادةَ مُختلف الطبقاتِ البارزة المؤثرة وسادَتها ، ويتجَّلى في هذه الخطابات الخاصة من دِقة نظر الإمام الدهلوي وعُمق ملاحظته وحِكمته في الدعوة، وجَراءته الخُلقية واطِّلاعه الواسعِ الدقيق ما يَحارُ بِهِ دارسُ التاريخ الذي اطلع على انحطاطِ هذا العهد ومُجتمعِه، ومراعاةِ العلماء وأصحاب الأقلام لمصالِحهم الشخصية ، ويأسِ الدعاة والمُصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجَّب ويقول: «هل كانتْ هذه الجمرةُ يا ربّ كامنةً في الرماد!».

وها نَحنُ نَـنْـقلُ هذه الكلمات الموجهة إلى مُختلف الطبقات بنصِّها :

١ـ خطابه للسّلاطين المسلمين:

«أَقول للمُلوك ، أيها الملوك ، المَرْضِيُّ عِند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تَسلُّوا السيوف ، ثم لا تُغمدوها حتى يجعلَ الله فُرقاناً بين المسلمين والمشركين ، وحتى يلحق مَرَدَةُ الكفار والفساق بضُعفائِهم لا يَستطيعون لأنفسهم شيئاً ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

فإذا ظهر الفرقان ، فرضاء الملأ الأعلى أن تَنصُبوا في كل ناحية وفي كلِّ مسيرة ثلاثة أيام وأربعةِ أيام أميراً عادلاً يأخُذ للمظلوم حقَّه من الظالم ، ويُقيم الحدود ، ويَجتهد ألا يَحصل فيهم بَغيٌ ولا قتالٌ ، ولا ارتدادٌ ولا كبيرة ، ويُفشوا الإسلام ويُظهروا شعائِره ، ويأخذ بفرائضه كل أحد ، ويكونَ لأمير كل بلدٍ شوكةٌ يقدر بها على إصلاح بلده ، ولا يكونُ له شوكةٌ يتمتَّع بسببها ويعصى على السلطان.

ويَنصب في كل إقليم كبير أميراً يُقلِّده القتال فقط يكون جمعُه اثنا عشر ألفاً من المجاهدين ، لا يخافون في الله لومة لائم يُقاتلون كلَّ باغ وعاد.

فإذا كان ذلك ، فرضاء الملأ الأعلى أن يُفتّش حينئذٍ من النّظامات المنزلية والعُقود ونحوها ، حتى لا يكون شيءٌ إلا موافق الشرع ، حتى يأمنَ الناس من كل وجه»[1].

٢ـ خطابه للأمراء وأركانِ الدولة:

«. . . . وأقولُ للأمراء: أيها الأمراء ، أَما تَخافون الله؟ اشتغلتُم باللَّذاتِ الفانية الدائِرة ، وتركتُم الرعية تأكُل بعضها بعضاً ، أما شُرِبت الخمور جهرة وأنتم لا تُنكرون؟ أما بُنيت منازل ودور للزنى وشُرب الخمر والقمار وأنتم لا تُغيِّرون؟ أما في البلاد الكبيرة لم يُضربْ فيها حَدٌّ منذ ستمئة سنةٍ أو أكثر ،

---

(١) التفهيمات الإلٰهية: جـ١ ، ص: ٢١٥ ـ ٢١٦ .

من وَجدتُموه ضعيفاً أكلتموه ، ومن وَجدتموه قوياً تركتُموه وعُتوَّهُ ، خاضتْ أفكاركم في لذائذ الطَّعامِ ونَواعِمِ النِّساء ومَحاسن الثياب والدُّور ، وما رفعتُمْ إلى الله رأساً ، وما ذَكرتُموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم ، كأنكم تُريدون باسم الله انقلابَ الزمان ، تَقولون: الله قادرٌ على كذا ، تعنون أنَّ الزمان قد ينقلب كذلك»[١].

٣ـ خطابه للعسكر:

«وأقول للعسكرية: أَيُّها العسكر! أخرَجكُم الله للجِهاد ، ولِتُظهروا كلمة الحق ، وتكبِتوا الشرك وأهله؛ فتركتُم ما أخرَجكم لأجله ، واتخذتُم رباط الخَيلِ وحَمل السلاحِ كسباً تستكثرون به أموالَكم من غير نِية الجهاد وقصدِه ، شَرِبتُم الخمرَ والبَنْج ، وحلقتُم اللِّحى وأعفيتُم الشوارب ، وظلمْتُم الناس ولم يَنالوا مما تأكلون ، فواللهِ ، إلى الله سوف تُرجعون فيُنبِّئُكم بما كنتم تَعملون.

كان مرضيُّ الحق فيكم أن تتزيَّوا بزي الصالحين من الغزاة ، اعفوا اللحى وقصوا الشوارب ، وصَلُّوا الصلوات الخمس ، واتقوا الله في أموال الناس ، واصبروا في الحرب والبأس ، وتعلموا رُخص الصلوات كالقصر والجمع ، وأنه يَجوز تَركُ السُّنن في السفر ، وكذلك أحكام التَّيمُّم ، فتمسَّكوا بها وعضُّوا على الفرائض ، وأصلحوا نِياتِكم ، يُبارك لكم ربكُم في خولكمِ ويَنصُركم على أعدائِكم»[٢].

٤ـ خطابه للمحترفة والصنّاع:

«وأَقول للمُحترفة: ضاعتْ أماناتُكم ، وذَهِلتم عن عبادة رَبكم ، وأَشركتُم بربكم ، وذَبحتم لطواغيتكم ، وحججْتُم إلى المدار[٣] والسالار[٤] ، فبئسَ

---

(١) التفهيمات الإلهية: ص: ٢١٦.
(٢) المصدر السابق: ص:٢١٦ ـ ٢١٧.
(٣) المراد به الشيخ بديع الدين المكنبوري الذي يعرف بالشاه مدار.
(٤) المعنى به هو السيد سالار مسعود الغازي المدفون في مدينة «بهرائج» ترفع باسمه الأعلام ويرد في الاحتفال بمولده آلاف الناس من الأماكن البعيدة والقريبة.

صنيعُكم ذلك ، ورُبَّ إنسان منكم جَعل الطّيرة مَالَه وكَسبه ، فجعل يتكَلَّفُ في لباسه وزيّه ومطعمه مالا يكفي لهُ ، فيُضيّع حقوق نسائِه .

ورُبَّ إنسان منكم اكتفى بشُرب الخمر واستئجار الفروج ، فيضيّع معاشه ومعادَه .

إنَّ الله هيأ لكُم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم ، إنْ أنتم اقتصدتُم واكتفيتُم بما يكون بُلغةً إلى المعاد ، وكفرتُم بنعمةِ ربكم ، أسأتُم التدبير ، أما تَخافون عذابَ جَهنم وبئس المهاد .

واصرِفوا غَدواتكم وعَشياتكم في ذكر الله ، وطُولَ النهار في حِرفتكم ، والليلَ في نسائكم ، واجعلوا الصَّرف أقلَّ من الدخل ، فما غبر؛ فواسوا فيه الغريب والفقير ، وذَرُوا شيئاً لنوائِبكم وحوائِجكم ، فإن خالفتُم هذه الأمور ، فقد أسأتُم التدبيرَ»[١] .

٥ ـ خطابُه لأولادِ المشايخ والمُرشِدين:

وقد نادى ـ هكذا ـ أولاد المشايخ ، وطَلَبةَ العِلم والزُّهّاد والوعّاظ في عصره ـ بصفةٍ خاصة ـ فيقول وهو يخاطب أولاد المشايخ يَعِظُهم ويُذكّرهم :

«وأقول لأولاد المشايخ المترسِّمين برَسْمِ آبائهم من غير استحقاق : يا أيها الناس ، مالكم تَحزَّبتم أحزاباً ، واتَّبع كلُّ ذي رأي رأيَه ، وتركتُم الطريقةَ التي أنزلها الله على محمد ﷺ رحمةً بالناس ، ولُطفاً بهم ، وهُدىً لهم ، فانتصبَ كل واحدٍ منكُم إماماً ، ودعا الناس إليه ، وزعم نفسَه هادياً مَهديّاً ، وهو ضَالٌّ مُضِلٌّ .

نحن لا نَرضى بهؤلاء الذين يُبايعون الناس ليَشتروا به ثمناً قليلاً ، أو يَشُوبوا أغراض الدنيا بتعلُّم عِلم ، إذْ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبُّه بأهلِ الهداية ،

---

(١) التفهيمات الإلهية : جـ: ١ ، ص ٢١٧ .

ولا بالذين يَدعون إلى أنفسهم ويأمُرون بحبِّ أنفسهم ، هؤلاء قُطّاع الطريق دَجّالون كذّابون مَفتُونون فتّانون ، إياكُم وإيّاهم ، ولا تتبعوا إلاّ من دعا إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، ولم يدعُ إلى نفسه ، ولا يرضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل ، إنما المرضي الإحسان ، أما لكم عِبرة في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣][١] .

خطابُه للعُلماء والطُّلاّب:

ثم يُخاطب العلماءَ والطُّلابَ في عصره ، فيقول :

«وأقول لطلبة العلم : أيُّها السُّفهاء المُسمُّونَ أنفسكم بالعلماء اشتغلتُم بعلوم اليونانيين وبالصَّرفِ والنحوِ والمعاني ، وظَننتُم أنَّ هذا هو العلم ، إنما العلم آيةٌ محكمةٌ في كتاب الله أن تتعلّموها بتفسير غريبها وسَببِ نزولها وتأويل مُعضِلها ، أو سُنّةٌ قائمةٌ من رسول الله ﷺ ، أن تَحفظوا كيف صلّى النبيُّ ﷺ ؟ وكيف توضّأ؟ وكيفَ كان يذهب لحاجته؟ وكيف يَصوم؟ وكيف يَحجُّ؟ وكيف يُجاهد؟ وكيف كان كلامُه وحفظه للسانه؟ وكيف كانت أخلاقُه؟

فاتَّبعوا هَديه واعملوا بسنته على أنه هَدْيٌ وسُنة لا على أنه فرضٌ ومكتوب عليكم ، أو فريضةٌ عادلة أتعلمون ما أركانُ الوضوء؟ وما أركان الصلاة ؟ وما نِصابُ الزكاة؟ وما قَدْرُ الواجب؟ وما سِهام فرائض الميت؟ أما السِّير وما يُرغِّب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضلٌ.

وأمّا ما اشتغلتم به وما يُهتم به ، فليس من علوم الآخرة ، إنما هي علوم الدنيا»[٢] .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء :

(١) التفهيمات الإلهية: ج: ١ ، ص: ٢١٤.
(٢) المصدر السابق: ج: ١، ص: ٢١٤.

«وأن تَشتغلوا بالعُلوم الإلَهية إلا بأنَّها آلةٌ لا بأنَّها أمورٌ مُستقلة ، أَما أَوجبَ اللهُ عليكم أن تُشيعوا العلم حتى تظهر شَعائر الإسلام في بلاد المُسلمين ، فلم تُظهروا الشعائر وأَمرتُم الناس أن يَشتغلوا بالزوائد واستكثرتُم في أَعينهم طلبَ الحق والدِّين ، أما ترون البلاد العِظام تَخلُو من العلماء ، وإن كانوا ؛ فَهُم دون ظهورِ الشعائر»[1].

٧ـ مَع الوُعَّاظِ المُعسِّرين في الدين ، والزُّهَّادِ المُنَزوين المُنعَزِلين:

ثم خاطب أُولئك الناس الذين جَعلوا وسَاوِسَهم وخَطَراتِ قُلوبهم دِيناً ، وكُلَّ من لم يَتَّفق ومقياسَهم المؤسَّس على هواجِس النفس وخَطراتِ القلب ، فكأنَّه خارجٌ عن الدين ، وقد كان مُعظم هذهِ الطبقة من الناس الذين أُصيبوا بهذا الانحرافِ من الزُّهاد المتقشّفين والعُبَّاد الغالين والوُعَّاظ المتشدقين ، ولذلك اختير لَهُم هذا العنوان:

«وأقول للمُتقشفين من الوُعَّاظِ والعُبَّاد والجالسين في الخَانقاهات:

يا أيُّها المُتَنسّكون! رَكِبتُم كُلَّ صَعب وذَلول وأخذتُم بكل رَطْب ويابس ، دَعوتُم الناس إلى الموضوعات والأباطيل ، وعسَّرتُم على الخَلْق ، وإنما بُعِثتمْ مُيسِّرين لا مُعسِّرين ، وتمسَّكتُم بكلام المغلوبين من العشاق ، وكلام العُشَّاق يُطوىٰ ولا يُروى ، واستطبتُم الوسواس وسمَّيتموه الاحتياطَ.

وكان مرضي الحقِّ فيكم أن تفهموا الإحسان بجُزئيه الاعتقادي والعملي ، فتُحصِّلوه من غير أن تَخلِطوا بِهِ أحوالَ المغلوبين وإشاراتِ المكاشفين ، فادعوا الناسَ إليه ، أما تَعلمون أن الرحمةَ كُلَّ الرحمة والهَدي ما جاءكم به محمد ﷺ ، أكانَ يفعلُ فِعلكم هذا؟ أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال»[2].

---

(١) التفهيمات الإلهية: ج: ١، ص: ٢١٥.
(٢) المصدر السابق: ج: ١، ص: ٢١٥.

٨ ـ خطابُه الشَّامل لِلأُمّة الإسلامية جَمعاءَ ، تشَخيصُ الدَّاء ووَصْفُ الدواء:

ويُخاطِبُ ـ أخيراً ـ عامّة المسلمين ، لاَ يخُصُّ فيه طبقةً مِنهم دُون طَبقة ، يقول :

«وأقول لجماعاتِ المسلمين عُموماً خطاباً واحداً:

يا معاشر بني آدم ! فَسدت أخلاقُكم ، وغلبَ عليكم الشُّحُّ ، واستحوذ عليكم الشيطان ، وذَئِرت النِّساء على الرجال ، وغَمط الرجال على النساء ، واسْتطبتم الحَرام واستبشعتُم الحلال ، فوالله إنَّ الله ما كلَّف نفساً إلا مَا تطيق.

عالِجوا شَهوةَ فُروجكم بالنكاح وإن كَثُرنَ ، ولا تتكلّفوا في نفقتكم وزيّكم مما لا تُطيقون ، ولا تزرُ وازرةٌ كأنَّها مُعلَّقة ، ولا تُضيقوا الأمورَ على أنفسكم ، فإنّكم إن ضيَّقتم خرجَتْ نفوسُكم إلى حَدِّ الصّفق.

وإنَّ الله يُحب أن يؤخَذ برُخصهِ كما يُحب أن يؤخذ بعزائِمه.

وعالِجوا شهوةَ بطُونكم بالأطعمةِ ، واكتَسبوا قَدر ما يَكفيكم ، ولا تكونوا كلاًّ على الناس تَسألونهم فلا يُعطونكم ، ولا تكونوا كَلاًّ على الخُلفاء والأمراء ، إنما المَرضي لكم الكسبُ بأيدكم إلا عبدٌ ألَهمه الله أن الله يكفيكَ ، والله يَعصمكَ من آفات الفَقر.

يا معشر بني آدم! منَ رزَقه اللهُ مسكناً يُؤويه ، ومشرباً يرويه ، ومطعماً يُشبعه ، وملبساً يستره ، ومنكحاً يُحصّن فرجه ويُعاونه في معيشته ، فقد أدّى له الدنيا بحذافيرها ، فَلْيَشكُرِ الله وليتخذ كسباً يكفيه. وليكُن من شأنه القَناعة والقصدُ في المعيشة ، ولينتهزِ الفرصةَ لذِكر الله ، وليحافظ على ثلاثةِ أوقات: الغَدوة والعَشية والسَّحَر ، وليذكرِ الله بالتهليلِ والتسبيحِ وتلاوةِ القرآن ، واستمعوا الحديث ، واحضُروا حِلَق الذكر.

يا معشر بني آدم! اتخذتم رُسوماً فاسدةً تُغيِّر الدين ، اجتمعتُم يوم عاشوراء في الأباطيل .

فقوم اتخذوه مأتماً ، أما تَعلمون أنَّ الأيام أيامُ اللهِ ، والحوادث من مشيئة الله ، وإن كان حسين رضي الله عنه قُتل في هذا اليوم ، فأيّ يوم لم يَمُت فيه محبوبٌ من المحبوبين؟

وقوم اتخذوه لعباً بحرابهم وسلاحِهم .

وقَومٌ اتخذوه مَنسكاً ، أُفٌّ لصَنيعكم اجتمعتُم يوم البراءة ، يلعبُ قومٌ ، ويَزعم قومٌ أنه يجب إكثارُ الأطعمة للموتى ، قُل هاتوا برهانكم إن كُنتم صادقين ، ورُسوماً تُضيِّق عليكم كالإفراط في الولائم ، وكالامتناع من الطلاق ، وكإمساك المرأة بعد زوجها من النكاح ، فضيَّعتم أموالكم وأوقَاتكم في الرُّسوم وتركتم الهَدي الصالح .

وكان المَرضي ألا تتَّخذوا هذه الرسوم وأن تتَّخذوا رُسوماً سَهلة ليس فيها ضِيق ، اتخذتُم المأتم عيداً ، كأنَّ إكثار الطعام واجبٌ عليكم ، وضيَّعتُم الصلوات .

وقَوْم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يَقدروا على الصلوات ، ومَنشأ هذا الفساد أنَّهم ما أخذوا رُخصَ الله .

وقومٌ اشتغلوا بتزجية الوقتِ وتَرفيهِ بالحكايات والأحاديث ، فلو أنَّهم اتخذوا مجالسهم في رُحَبٍ حَول المساجد يَسهُل عليهمُ الصلوات .

وضَيَّعتُمُ الزكاة ، وما من غَنيٍّ إلا له مُتعلِّقون من المَحاويج يُطعمهم ويُواسيهم ، ولو أنه نوى الزكاة والعِبادة لكَفاه ، وضَيَّعتُم صومَ رمضان ، فضيَّع قومٌ لأنهم صاروا عَسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما هم عليه من المِحنَة ، اعلموا أنكم أساتُم التَّدبير ، وصرتُم عِيالاً على السلطان ، ولما لم يجد السُّلطان مَا يُعطيكم ، ضيَّقَ على الرعية ، فما أَقبحَ صَنيعكم هذا ،

قوم لا يتسَخَّرون ولا يجتنبون أعمالاً شاقة ، وذلك مِن سوء تَدبيرِهم وعقلهم».

ويقول أخيراً: «ومقالاتُ المَلأ الأعلى في هذا الزمان كثيرةٌ ، والغَرفة تُنبىءُ عن الخير الكثير ، والقليلُ يكون نموذجاً عن الكثير»[1].

إصلاحُ الطُّقوسِ والتَّقاليد وتَطهيرُ المجتمعِ منها:

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات لهذه الطبقات الخاصة من النساء ، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبِدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم وشاعتْ فيه ـ بسبب الاختلاطِ الطويل بالهنادك ومُواطنتهم لعدة قرون ، وعدمِ الاهتمام بالسنَّة المشرفة والحديثِ الشريف ، وغَفلةِ العلماء وتقصيرِهم، وعَدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها ، وفقدان الحسبة الدينية ـ والتزمَ بها المسلمون التزاماً شديداً.

وشَنَّع على تلك المعتقداتِ الباطلة ، والأوهامِ والخرافات الجاهلية ، وتقليدِ غير المسلمين واتباعِهم ، وعَابَهُم عليه.

وقد كان عامَّةُ العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفُنون الحكمية لا يُعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالاً ، ويَرونها هَيِّنة خفيفة ، أو يتغاضَون عنها فِراراً من الوقوع في المشاكل ومُعارضةِ الجماهير.

وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها ـ بعد الإمام السَّرهندي الذي شنَّع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهِنْدوكية[2] ـ بجهود الإمام الدهلوي ـ وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها ـ بعدَه ـ أبناؤُه الأعلام ومن تخرّج عليهم ، ونشأ في أحضانهم من المُصلحين المجدِّدين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبد العزيز الدهلوي ابن الإمام الدهلوي) والشيخ

---

(١) التفهيمات الإلهية: ص: ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) انظر «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ٣، الخاص بحياة الإمام السرهندي وأعماله.

إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوي[١].

ونُورِد هنا مُقتطفاً من «التفهيمات الإلهية» و«وصايا الإمام الدهلوي»، يقول:

«مِن عادات الهندوس الشَّنيعة أنه إذا ماتَ زَوجُ المرأة، فلا يخلُّونها تَتزوج مرةً ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعدَه، فرحمَ اللهُ امرأً يقضي على هذه العَادة الشنيعة، وإذا لم يُمكن القضاء على رواج هذه العادة في عامة الناس، فينبغي ترويجُ طريقةِ العرب فيما بين قَبيلته، وإنْ لم يمكن ذلك، فلا بُدَّ من استقباح هذِه العادة، ومُخالفتِها من أعماق القلب على الأقل، إذ هُو آخر درجةٍ من الإنكار على المنكر.

وعادتُنا الشنيعة الثانية: أننا نُغالي في المهور، وقد كان نبينا ﷺ الذي نِيط به شرفُنا في الدنيا والآخرة ـ حدَّد لأهله الأقربين ـ الذين كانوا أفضلَ الخلق بعده ـ اثنتي عشرة أوقية ونِصفَ أوقية، وهو ما يَبلغ خمسمئة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة: الإسرافُ، فإننا نُبذِّر الأموالَ في مناسبات الأفراحِ وتقاليد الأعياد، ولم يَثبُتْ عن النبي ﷺ إلا الوليمةُ في الزواج والعقيقةُ، ولذلك فينبغي الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السّيّئة أيضاً: الإسراف والتبذير في مُناسبات المآتم باسم «سيّم، جهلّم، ششماهي، فاتح، سالانه»[٢]، مع أنه لم يكنْ شيءٌ من هذا في العرب الأوَّلين، فمن الخير أن يُهتمَّ بتعزية ورثة الميت في مُصابهم لثلاثة

(١) انظر «الصراط المستقيم» إملاءات الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وترتيب الشيخ إسماعيل الشهيد، وقد نقله المؤلف إلى العربية وطبع باسم «رسالة التوحيد» في مطبعة ندوة العلماء لكهنو الهند [وقد اعتنينا بها تصحيحاً وتحقيقاً وتعليقاً، ونشرته دارُ القلم بدمشق عام ١٤٢٤هـ (الغوري)]، وكتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» و«كاروان إيمان وعزيمت» (بالأردوية للمؤلف).

(٢) هذه تقاليد خاصة بالأيام المحدَّدة بعد وفاة شخص.

أيام ، وبالطعام ليومٍ وليلة ، ولا يُلتزم بتقليد آخر ، ولْتجتمع نساءُ القبيلة بعد ثلاثة أيام ، ولْيُطَيِّبْنَ ثِياب النساء ذوات قربى الميت ، وإذا كانت زَوجة الميتِ موجودة ، فليقض على سِلسلة المأتم بعدَ عِدَّتها»[1] .

ولقد صدَقَ الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ إذ صرَّح في مقالةٍ بعنوان «حقيقة مَنصب التجديد ومكانة الإمام الدهلوي في تاريخ التجديد» في مجلة «الفرقان» (العدد الخاص بالإمام الدهلوي) بعدَ إيراده لمقتطفات من «إزالة الخفاء» و«التفهيمات الإلٰهية» بما يلي :

«ويُقدَّر من هذه المقتطفات ـ إلى حد ما ـ أنه كيف استعرضَ الإمام الدهلوي ماضيَ المسلمين وحاضرهُم هذا الاستعراض التفصيليَّ ، وكيفَ انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب ، وأنَّ من نتائج هـذا النوع من الانتقاد اللازم أنَّ جميع العناصر الصَّالحة في المجتمع التي لا تزالُ في إيمانها وضمائِرها بقيَّـةٌ من حياة ولا تزال قلوبُها تُميِّز الصالح والطالح والشر والخير ـ يُقلقهم الشُّعور بفَداحة الخطب وسوء الأوضاع ، ويُرهِفُ شعُورَهم الإسلاميَّ إلى حد أنه يُريبهم كُلُّ أَثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم ، ويَحيك في صدورهم ، وتَـقوى قُوة التمييز وتزداد فيهم فيبدؤون يُحسُّون بشوائبِ الجاهليـة مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة ، وتستيقظُ فيهم القوى الإيمانيةُ إلى أنَّ كُلَّ شوكة من أشواك الجاهلية تَقُضُّ مَضجعهم ، وتَدفعُهم إلى الإصلاح .

ثم يَلزم المجدِّد ـ بعد ذلك ـ أن يُقدّم أمامهم مُخططاً واضحاً للبناء الجديد حتى يُركزوا أنظارَهم على الوضع المنشود الذي يُغيِّر به الوضع الراهن ، ويُكرّسوا كلَّ جهُودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة ، وقد أنجز الإمام

---

(١) التفهيمات الإلهية: جـ: ٢، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، والوصايا (بالفارسية) طبع دلهي ص ٤٢ .

الدهلويُّ هذه المهمة البنَّاءة أيضاً في شمول وإجادة وإتقان ، كما شاهدته في مُهمَّته النَّقدية الماضيةِ»[١].

* * *

(١) مجلة «الفرقان» (العدد الخاص بالإمام الدهلوي) ص: ١٠١ ـ ١٠٢.

الفصل السابع

القيام بتربية العلماء والرّاسخين ورجال العزيمة والكفَاح

أبناء الإمام الدّهلوي ـ خلفاؤه العظام ـ مُعاصِروه الكبار:

إنَّ من مزايا الإمام الدهلوي في سلسلة رجال الفكر والدعوة ، ونِعم الله تعالى الخاصة عليه بينَ المصلحين والمجددين؛ أنَّ الله عز وجل خصَّه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خيرَ خَلَف لخير سلف ، والذين لم يحَافظوا على ذلك المِشعل الذي أناره الإمام الدهلوي مُضيئاً وهّاجاً فحسب ، بل أشعلوا به مئاتٍ من الشموع والمشاعل ، ولم تزلْ هذه المشاعل تَمُدُّ المشاعل الأخرى وتنقُل إليها من نُورها وضَوئها .

واستمرَّتْ هذه السّلسلةُ المباركةُ دونَ انقطاع في شبه القارة الهندية وخارِجها من نَشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائدِ الصحيحة ، والتوحيدِ الخالص ، والردِّ على الإشراك والبدعة ، وإصلاح التقاليدِ والعادات ، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاءِ كلمة الله تعالى والجهاد في سبيله ، والحَميَّة الدينية والغيرة الإسلامية ، وإقامة المدارس الدينية ، وعَرْضِ تعاليم الإسلام الصحيحة ، والكتابة والتأليف لتبليغ هذه

الرسالة والدعوةِ إليها ، وتراجم القرآن الكريم ، والعنايةِ بالحديث الشريف ، وكُتب الفقه ، إلى يومنا هذا.

فلو دَرَسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرَّات ، ونَسَبِ هذه السلاسل والحلقات ، لرأينا أنَّ الشموع تُضيء الشموعَ ، والمشاعل لم تَزل تَمد المشاعل ، وقد أضاءتْ هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذي أشعله الإمام الدهلوي في منتصف القرن الثاني عشر وسْط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة.

الشَّبَهُ العَجيب بين الإمام الدِّهلوي والإمام السَّرْهِندي:

إنَّ هناك شبهاً عجيباً بين الإمام الدهلوي والإمام المجدِّد السرهندي مُؤسِّس السلسلة النقشبندية المجدِّدية في أبنائِهما الأعلام ونشرِ دعوتهما وطريقتهِما الخاصَّة على أيديهم ومجهودهم.

وهو رغم فضائلَ ومناقبَ أخرى كثيرة خِصّيصَةٌ نادرةٌ عجيبة في كتب التاريخ والتراجم؛ فقد كان للإمام السرهندي أربعةُ أبناء قد بَلغوا درجة النبوغ والكمال ، الشيخ محمد صادق ، والشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى ، وقد تُوفي الشيخ محمد صادق حين كان عمره ٢٥ سنة عام ١٠٢٥هـ وقد وردتْ عن الإمام السرهندي فيه كلماتٌ عاليةٌ ، ونُعوت ذاتُ قِيمة.

وقد انتشرتِ السلسلة المجدِّدية على أيدي الأبناءِ الثلاثة الكِرام المؤخَّري الذِّكر ، وتَمَّ توسيعُ نطاق هذه السلسلة وتبليغُها إلى الآفاق ، وتكميلُ تلك المهمة الثورية التجديدية التي بدأ بها الإمام السرهندي على أيدي هؤلاء الأبناء الأعلام وعن طريقهم.

ويَليهم في انتشار الطريقة المجددية الشيخ السيد آدم البَنُّوري (الذي لم تكن صلته مع الإمام السرهندي صلة قرابة ، بل كانت صلةً روحية تقوم على التربية والاسترشاد) وقد بلغتْ هذه السلسلة من القوة وكُتب لها القبول إلى حد أن

الإمام الدهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ أمداد الله المهاجر المكي وخلفاءهم الكبار والعلماء الأجلة العظام كُلَّهم ينتمون إلى هذه «السلسلة الآدمية».

ويمتازُ من بين هؤلاء الأنجال الكرام الشيخ محمد معصوم ، فقد وَصلتْ عن طريقه هذه السلسلة إلى تركستان والبلاد العربية وتركيا ، وقد صدق من قال :

«إنَّ الشيخ محمد معصوم سراجٌ يُنير سَبعَ ممالك ، فقد استنارتْ بِه الأرض مِن الهند إلى الروم».

ثُم كانت يدُه الخفية وعناياتُه الروحية التربوية هي التي تعمل وراء السِّتار حتى خَلف على عرش السلطان «أكبر» بعدَ عقبين من خُلفائه ذلك السلطانُ المجاهد المتديِّن الفقيه المتدفِّق بالحميَّة الدينية الذي كان حامياً للدين ، بدلاً من أن يكون «ماحياً له» ، وخادماً للإسلام بدلاً من أن يكون «هادماً له» ، وكان الشيخ محمد معصومُ يُخاطَب مِن قَبْل بالأميرِ الحارس للدين ، وكأنَّه بذلك كان يُعِدّه لهذا العمل العظيم.

* * *

أ ـ أبناء الإمام الدِّهلوي الأعلام

وهكذا خلَّف الإمامُ الدهلوي أربعةَ أبناء نوابغ وهم الشيخ عبد العزيز الدهلوي، والشيخ رفيع الدين، والشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الغني.

وكان من قِصتهم أيضاً أن الشيخ عبد الغني (الذي كان أصغر هؤلاء الأبناء الأربعة سناً) تُوفي قبلهم جميعاً عام ١٢٢٧هـ[١].

واستمرتْ دعوة الإمام الدهلوي وتعاليمُه ونَشْرُ علومه ومعارفه، وتربيةُ رجالِ العمل والجهاد، والمنهجُ الخاص للتدريس والتأليف الذي كان يتجلَّى فيه ذوقُ الإمام الدهلوي وصِبغة تجديده واجتهاده عن طريق هؤلاء الأبناء الثلاثة.

ثم حاز سراجُ الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ من بين هؤلاء الإخوة ـ تِلكَ المكانة العالية الممتازة التي كان يَتمتَّع بها الشيخ محمد معصوم من بين أبناء الإمام السرهندي، وقد انتشرتْ به سِلسلةُ الإمام الدِّهلوي وعلومُه ومعارفه انتشاراً عالمياً، وبلغتْ بعضُ الجوانب من عمله التجديد ذُروتها وأوجَ كمالها على يديه حتى نُضطرَّ أن نقول في أدب وتَهيُّب: إنَّ ما لم يستطعِ الوالد تحقيقه وإنجازَه، حقَّقه الابنُ النابغة وأَكمله.

وقَبل أن نَذْكُر هذهِ المُهمة من التَّكميل والتَّوسيع لأعمال الإمام الدهلوي ومآثره، التي قام بها الشيخ عبد العزيز الدهلوي، نَوَدُّ أنَ نسوق نُبذةً من سيرته وتعريفاً بشخصيته وترجمة موجزة جامعةً له، ونكتفي في هذا الصدد باقتباس ترجمته من كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ المجلد السابع، فهي على وَجازتِها شاملةٌ جامعةٌ.

---

(١) وهو والد العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد.

١ ـ الشيخُ عبدُ العزيز الدِّهلوي:

«الشيخُ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي سيِّدُ عُلمائنا في زمانه وابن سيدهم ، لقَّبه بعضهم «سِراجَ الهند» وبعضهم «حجة الله» .

وُلد ليلة الخميس لخمس ليالٍ بَقينَ من رمضان سنة تسعٍ وخمسين ومئة وألف ، كما يدل عليه لَقبُه المؤرِّخ لمولده «غلام حليم» .

حَفظ القرآن وأخذ العِلم من والده ، فقرأ عليه بعضاً وسمع بعضاً آخر بالتحقيق والدّراية والفحص والعناية ، حتى حصَلتْ له مَلَكةٌ راسخةٌ في العلوم .

ولـمَّا تُوفي أبوه إلى جوار رحمة الله تعالى ورضوانه وله ستَّ عشرة سنة عن وفاة والده ، أخذَ من الشيخ نور الله البرهانوي ، والشيخ محمد أمين الكشميري ، وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عُبيد الفلتي ، وكانوا من أجلة أَصحاب والده ، فاستفاد منهم ما فاتَه على أبيه ، وله رسالةٌ فصَّل فيها ما قرأ على والده ، وعلى غيره من العلماء ، فقال:

«إنَّه أخذَ بَعضَ كُتب الحديث مثل أحاديث «الموطأ ضِمن المسوى» و«مشكاة المصابيح» بتمامه قراءة على والده ، و«الحصن الحصين» و«شمائل الترمذي» سماعاً عليه بقراءة أخيه الشيخ محمد ، و«صحيح البخاري» من أوَّله إلى كتاب الحج سماعاً عليه بقراءة السيد المولوي ظهور الله المُراد آبادي ، و«مقدمة صحيح مسلم» وبعضَ أحاديثه ، وبعض «سنن ابن ماجه» سماعاً عليه بقراءة محمد جواد الفُلَتي ، والمسلسلات وشيئاً من مقاصدِ جامع الأصول بقراءة مولوي جار الله نزيل مكة ، وشيئاً من «سُنن النَّسائي» سماعاً عليه ، وبقية هذ الكتاب من الصِّحاح الستة قرأها سماعاً على خُلفاء والده كالشيخ نور الله وخواجه محمد أمين .

وأخذ غير ذلك من الكتب ، إجازةً عامة من أفضلِ خلفائه وابن خالِه الشيخ محمد عاشق الفلتي وخواجه محمد أمين ، وإجازةُ والده لهما مكتوبة في «التفهيمات الإلٰهية» و«شفاء العليل» ، وهؤلاء قرؤوا على والده ، مع أنَّ الشيخ محمد عاشق كان شريكاً في السماع والقراءة والإجازة لوالده عن شيخه أبي طاهر المدني ، وأسانيدُه مذكورةٌ في كتابه «الإرشاد في مهمات الإسناد» وفي غيرِ ذلك من الرسائل .

وكان طويلَ القامة ، نَحيفَ البَدن ، أسمرَ اللون ، أَنْجَل العينين ، كثَّ اللِّحية ، وكان يَكتُب النُّسخ والرِّقاع بغاية الجودةِ ، وكانت له مَهارة في الرمي والفروسية والموسيقا .

وقد قرأ عليه إخوتهُ عبدُ القادر ورفيعُ الدين وعبد الغني ، وخَتَنُه عبدُ الحي بن هبة الله البُرْهانوي .

وقرأ عليه المفتي إلٰهي بخش[1] الكَانْدَهْلَوِي ، والسيد قمر الدين السوني بتي مشاركاً لإخوته في القراءة والسماع .

وقرأ عليه الشيخ غلام بن عبد اللطيف الدهلوي «صحيح البخاري» قراءةً عليه .

وقرأ عليه السيد قطب الهدى بن محمد واضح البَرِيْلَوِيّ الصحاحَ السِّتَّة .

وأمَّا غيرهُم من أصحابه فإنهم قرؤوا على إخوته وأَسندُوا عنه ، وحَضروا مجالسه ، وسمعوا كلامه في دروس القرآن ، واستفادوا منه ما شاء الله .

وأما سِبطُه إسحاق بن أفضل العمري فإنَّه كان مقرئه يَقرأ عليه كلَّ يوم ركوعاً من القرآن وهو يُفسّره ، وهذه الطريقة كانتْ مأثورة من أبيه الشيخ ولي الله ، وكان آخر دروس الشيخ ولي الله المذكور: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨] ، ومن هناك شرع عبد العزيز ، وآخر دروسه كان ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ

(١) عطاء الله .

﴿اَللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . ومن هناك شرع سِبطه إسحاق بن أفضل كما في «مقالات الطريقة» .

وكان رحمه الله أحدَ أفراد الدنيا بفَضلِه وآدابه وعِلمه وذكائه وفهمِه وسُرعةِ حفظه ، اشتغلَ بالدروس والإفادة وله خمسَ عشرة سنة ، فدرَّس وأفاد ، حتى صار في الهند العَلَم المُفرد ، وتخرَّج عليه الفضلاء ، وقَصدته الطَّلبة من أغلب الأرجاء ، وتَهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء .

وهذا وقد اعْتَرتْـهُ الأمراض المُؤلِمةُ وهو ابن خمس وعشرين ، فأدَّت إلى المراق والجُذام والبَرص والعَمى ونحو ذلك ، حتى عدَّ منها أربعةَ عشر مرضاً مُفجعاً ، ومِن ذلك السبب فوَّض تَوليةَ التدريس في مدرسته إلى صِنْوَيه رفيعِ الدين وعبدِ القادر ، ومع ذلك كان يُدرّس بنفسِه النفيسة أيضاً ويُصنفُ ويُفتي ويعِظ ، ومواعظُه كانت مقصورةً على «حقائق التنزيلِ»[1] في كل أسبوعٍ يوم الثلاثاء .

وكان في آخر عمره لا يقدر أن يقعد في مجلس ساعة فيمشي بين مدرستيه القديمة والجديدة ، ويشتغُل عليه خلق كثير من ذلك الوقت ، فيدرِّس ويُفتي ويُرشد الناس إلى طريق الحق ، وكذلك يمشي بين العصر والمغرب ، ويذهبُ إلى الشارع الذي بينَ المدرسة والجامع الكبير ، فيتهادى بين الرجلين يميناً وشمالاً ، ويترقَّبُ الناسُ قدومَه في الطريق ، ويستفيدون منه في حلِّ مُشكلاتهم .

ومن تلك الأمراض المؤلمة فقدان الاشتهاء ، إلى حدٍّ يقضي أياماً ولياليَ لا يذوق طعمَ الغذاء حتَّى صار الأكل غِبّاً بطريق النَّوبة كالحُمى ، صرَّح بها في تقريظه على «المناقب الحيدرية» قال فيه :

«ويَعتـذر من التَّـقصير في التفريـط بأعـذار صادقـةٍ وأمراض سابقـة

---

(١) [هو «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي].

ولاحقة ، حتى أدت إلى فُقدان الغِذاء بالمرة ، وصار الأكلُ غِبّاً بطريق النَّوبة ، كالحمى لغلبة المرّة ، وتساقطتِ القوى ، واختلَّتِ الحواس ، وتهاترتِ الأعضاءُ والعظامُ والأضراس ، إلى غير ذلك».

وقال في كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسنين البَلْكَرَامِي : «وإن سألتم عن حال هذا المُحبّ ، فهو في سَقم وَاصِبٍ ليلاً ونهاراً ، وكَرْبٍ يزعجه سِراً وجَهاراً ، وقرارٍ زائلٍ وقلقٍ حاصلٍ ، وذلك لاجتماع أمراض كلٌّ منها بانفراده يكفي لإزعاج الرَّجُل وإكماده ، منها : قَبْضُ البواسير ، واحتباسُ الرِّياح في المعدة والأمعاء ، ومنها : فُقدان الاشتهاء إلى حدٍّ يقضي أياماً ولياليَ لا يذوق طَعم الغذاء ، ومنها صُعود الأبخرة إلى القلب فيُحاكي حالةَ الانزهاق والاختناق ، وربما تَصعدُ إلى الدماغ فتَحدث شقيقةً ثاقبة وصُداعاً لَذّاعاً كأنها ضَربات الدَّقاق ، وإلى الله المُشتكى ، وهو المستعان ، فهذه لا يَسعُ النطق ببنتِ شفةٍ فضلاً عن إملاءِ كتابٍ وإنشاءِ صحيفة وخطاب إلى غير ذلك».

ولعلَّك تتعجَّبُ أنه كان مع هذه الأمراض المُؤلِمة والأسقام المفجعةِ ، لطيفَ الطَّبع ، حسَن المُحاضرة ، جميلَ المُذاكرة ، فصيحَ المنطق ، مليحَ الكلام ، ذا تَواضع وبَشاشةٍ وتَودد ، لا يمكن الإحاطة بوَصفه ، ومجالستُه هي نُزهة الأذهان والعقول ، بما لديه من الأخبار التي تُشنف الأسماع ، والأشعار المهذِّبة للطباع ، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلِها وعجائبها ، بحيث يَظُنُّ السامع أنه قد عَرفها بالمشاهدة ، ولم يكنِ الأمر كذلك فإنه لمْ يعرف غيرَ مملكته ، ولكنه كان باهرَ الذكاء وقوي التَّصور ، كثيرَ البحث عن الحقائق ، فاستفادَ ذلك بوفود أهلِ الأقطار البعيدة إلى حَضرة دِهلي ، ولأنَّه قد صنَّف الناس في الأخبار مُصنَّفاتٍ يستفيدُ بها مما يقرُب من المشاهدة.

وكان الناسُ يقصدونه ليستفيدوا مِنْ علمه ، والأدباءُ ليأخذوا من أدبه ، ويَعرضوا عليه أشعارَهم ، والمحاويجُ يأتونه يَشفعُ لهم عندَ أرباب الدنيا ويُواسيهم مما يمكنه ، وكَرمهُ كلمةُ إجماع ، والمرضى يَلوذُون به لمداواتهم ، وأهلُ الجَذْب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعَّةِ أنواره ، وغرباء الديار من أهل

العلم والمَشيخة يُنزلهم في منزله ويَفْضُل عليهم بما يحتاجون إليه. ويَسعى في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم، وإذا جالَسه مُنحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعضُ الشِّقاق، جاءَ من سِحر بيانه بما يُؤلِّف بين الماء والنار ويَجمع بين الضَّب والنُّون، فلا يُفارقه إلا وهو عنه راضٍ.

قال الشيخ محسن بن يحيى التِّرهَتِي في «اليانع الجني»: إنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث تَرى الناس في مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزائِهم إليه، بل بانسِلاكهم في سِمط مَن يَنتمي إلى أصحابه، قال: ومن سَجاياه الفاضلة الجميلة التي لا يُدانيه عامة أهل زمانه قوة عارضته، لمْ يُناضل أحداً إلا أصاب غَرضه، وأصمى رميته، وأحرزَ خصله.

ومِن ذلك بَراعتُه في تحسين العبارة وتحبيرها، والتأنُّق فيها وتحريرها، حتى عدَّهُ أقرانُه مقدماً من بين حلبة رهانه، وسلَّموا له قَصَبات السَّبق في ميدانه.

ومنها فِراسته التي أقدره الله بها على تأويل الرؤيا، فكان لا يُعبِّر شيئاً منها إلا جاءت كما أخبرَ بها كأنه قد رآها، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهَّرةِ عن أدناسِ الشهوات الردية وأرجاسِها، وكم له مِن خصالٍ محمودة وفضائل مشهودة.

وجُملة القول فيه: أَنَّ الله تبارك وتعالى قد جَمع من صنُوف الفضل وشَتاته؛ التي فرَّقها بين أبناء عصره في أرضه؛ ما لو رآه الشاعر الذي يقول:

ولَـمْ أَر أمثـالَ الـرِّجـالِ تَفـاوُتـاً لَدى المَجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ

استبانَ له مثلُ ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه، فإنه قد قَصَّر، فكيفَ الظَّنُّ بأمثالِه أن يَحسنَ عَدُّ مفاخِره التي هي أكثر من حصى الحصباء ونجوم السماء.

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلَّفات كُلُّها مقبولةٌ عند العلماء محبوبةٌ إليهم يَتنافسون فِيها، ويحتجُّون بترجيحاته وهو حَقيقٌ بذلك، وفي عبارته قُوةٌ

وفصاحةٌ وسلاسةٌ تعشَقُها الأسماع وتلتذُّ بها القلوب ، ولكلامِه وَقْعٌ في الأذهان قَلَّ أن يُمعِن في مطالعاته مَنْ له فَهمٌ فيبقى على التقاليد بعد ذلك ، وإذا رأى كلاماً متهافتاً زيّفَه ومذقه بعباراتٍ عَذْبةٍ حُلوة ، وقد أكثرالحطَّ على الشيعةِ في المسائل الكلامية ، وله حُجَّة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن يَنطقوا في جَواب تُحفَتِه ببِنْت شَفة».

مصنَّفاته:

وأمّا مُصنَّفاته فأشهرها :

١ ـ تفسير القرآن المسمَّى بـ «فتح العزيز» : صنَّفه في شدة المرض ولُحوق الضعف إملاءً ، وهي في مجلدات كبار ، ضاع مُعظمها في ثورة الهند فما بقي إلا مجلدان من أول وآخر .

٢ ـ ومنها «الفتاوي في المسائل المشكلة»[1] : وقد جُمعت ما تحويها ضِخامُ الدفاتر ، والميسَّر منها أيضاً في مجلدين .

٣ ـ ومنها «تُحفة اثنا عشرية» في الكلام على المذهب الشيعي : كتابٌ لم يُسبق مثلُه .

٤ ـ ومنها كِتابه «بُستان المحدِّثين» [2] : وهو فَهرس كتب الحديث وتراجمُ أهلها ببَسطٍ وتفصيل ، ولكن لم يَتِم .

٥ ـ ومنها «العُجالة النافعة» : رسالةٌ له بالفارسية في أصول الحديث .

٦ ـ ومنها رسالةٌ فيما يجب حفظه لطالبي الحديث .

---

(١) لقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوي عالي الكعب في الفقه الحنفي، وكانت له قدم راسخة وبصيرة دقيقة فيه حتى يعتبره بعض العلماء من أصحاب الاختصاص، إنه يبذُّ فيه والد الإمام الدهلوي.

(٢) يقدر من هذا الكتاب اطلاعه الواسع على ركتب الحديث وطبقات المحدثين. [وقد نقله إلى العربية الدكتور محمد أكرم الندوي، ونشره في أعداد مجلَّة «البعث الإسلامي» الصادرة من ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند) وهو مطبوع في دار الغرب الإسلامي ببيروت].

٧ ـ ومنها «ميزان البلاغة»: متْنٌ متينٌ له في علم البلاغة.

٨ ـ ومنها «ميزان الكلام»: متنٌ متينٌ في علم الكلام.

٩ ـ ومنها «السِّرُّ الجليل في مسألة التفضيل»: رسالة له في تفضيل الخلفاء لبعضهم على بعض.

١٠ ـ ومنها «سِرُّ الشهادتين»: رسالة نفيسةٌ له في شهادة الحسنين رضي الله عنهما.

١١ ـ ومنها رسالة في الأنساب.

١٢ ـ ومنها رسالة عجيبةٌ له في الرُّؤيا.

وله غيرُ ذلك في الرسائل.

وأما مصنَّفاته في المنطق والحكمة:

١٣ ـ فمنها حاشيةٌ «على مير زاهد رسالة».

١٤ ـ وحاشيةٌ على «مير زاهد ملاَّ جلال».

١٥ ـ وحاشيةٌ على «مير زاهد شرح المواقف».

١٦ ـ وحاشيةٌ على «حاشية ملاَّ كوسج» المعروفة بالعزيزية.

١٧ ـ وحاشية على «شرح هداية الحكمة» للصدر الشيرازي.

١٨ ـ وله شرحٌ على أرجوزة الأصْمعي.

وله مراسلاتٌ إلى العلماء والأدباء.

وتخميسٌ نفيس على قَصيدتي والده («البائية» و«الهمزية»)[(١)].

---

(١) يعتبر شعر الشيخ عبد العزيز الدهلوي لاسيما قصيدته اللامية (التي أوردها مؤلف «نزهة الخواطر» في ترجمته) من أرفع نماذج الشعر العربي، ويَظهر أنه يفوق شعر الإمام الدهلوي، ولا نجد مثل هذه العربية السليقية بعده إلا في شعر تلميذه النجيب المفتي =

وكان نسيجَ وحده في النظم والنَّثر وقُوَّةِ التحرير وغَضارة الإملاء وجَزالة التعبير ، وكلامُه عفوُ الساعة ، وفَيضُ القريحة ، ومُسارعة القلم ، ومُسابقة اليد ، وعندي بفضل الله جملةٌ مِنها ، وإن كان يَسعها هذا المختصر لأوردتُ شيئاً كثيراً هاهنا .

وتُوفِّي بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف ، وله ثمانون سنة ، وقَبرُه بدلهي عند قبر والده خارج البلد[1] .

القِيام بتَكميل أعمالِ الإمام الدهلوي الخاصة ، وتوسيعِ نطاقها:

يُمكن أن نوزِّع أعمال الإمام الدهلوي التَّجديدية إلى خمسِ شُعب :

١ ـ تَرجمةُ القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه ومحتوياته في المسلمين ـ بصفة عامة ـ وتصحيحُ العقائد عن طريقه ، والجهودُ المتواصلة لتمتين صلةِ العامة بالدينِ الخالص ، والتعاليمِ الإسلامية السمحةِ العادلة .

٢ ـ القيامُ بنشر الحديث الشريف والدعوةُ إلى إحياء السنة النبوية ، وإقامةُ دروس الحديث الشريف ، والاهتمامُ بأسانيده وإجازاته ، والقيامُ بحلقاته ، وإعدادُ المدرِّسين للحديث والشارحين لكُتبه .

٣ ـ مُقاومةُ فِتنة التَّشيع والرفض ، وسدُّ كل المنافذ والأبواب ضدَّ المُحاولات المشبوهة للطعن في الصحابة رضي الله عنهم ، والتشكيك في قطعيَّة القرآن الحكيم .

٤ ـ إحياءُ الجهاد في سبيل الله ، ومقاومةُ أكبر خطرٍ وأعظم تحدٍّ لحُرية المسلمين وسُلطتِهم الإسلاميةِ في الهند .

٥ ـ تَربيةُ الرِّجال الأكفاء لمهمةِ الإصلاح والدعوةِ حَسْبَ مُقتضيات الظروفِ والأوضاعِ ومُتطلَّباتِ الدين الحقيقية .

= صدر الدين خان، اقرأ الأبيات التي وردت في الثقافة الإسلامية كنموذج لشعره، وفي «نزهة الخواطر» في ترجمته .

(١) «نزهة الخواطر» جـ: ٧ ص: ٢٧٥ ـ ٢٨٠ (الطبعة الثانية).

١ ـ الدَّعوةُ إلى فَهم القرآن الكريم والقيام بنَشرِ تعاليمه وتبليغ رِسالته:

أمَّا ما يتعلَّق بتبليغ رِسالة القرآن الكريم إلى عامة الناس ، وإصلاح العقائدِ الباطلة والتقاليد المنحرفة وإقامة الصِّلة والعلاقة مع الله تعالى عن طريقِها ، فإنَّ الشيخ عبد العزيز الدهلوي قد قام ـ فِي هذا الصدد ـ بتوسيع مُهمة والده الإمام الدهلوي ، فقد زَادها تقدماً وقبولاً وسَعة وشُمولاً .

لقد كانت دروس الإمام الدهلوي في القرآن الكريم وصَلت إلى هذه الآية من سور المائدة ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨] حيثُ وافاه الأجل المحتوم ، فبدأ الشيخ عبد العزيز الدهلوي سلسلة دُروسه منها ، وكان قد بلغ إلى قوله تعالى من سورة الحُجرات ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وإذا بهذه السِّلسلة من دروسه قد انقطعتْ مع انقطاع سِلسلة حياته ، وبدأ بعده ابن بنته الشيخ محمد إسحاق (الذي كان قد تربى وتخرج على يديه وكان خليفتَه بحق) دُروسه في القرآن الكريم.

كانتْ دُروس الشيخ عبد العزيز الدهلوي في القرآن الكريم يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ، يَحضُر فيها الخاصة من النَّاس ـ بصفة خاصة ـ والعامة منهم برغبة وشوق وتذوُّق ، وكانتْ قريحته الفيَّاضة وطَبعُه الريّان يَفيضُ في هذه الدروس في اندفاع وجوَلان ، وتَنهمرُ عليه الحقائق والمعاني كالسَّيل[1] .

وقد عمَّ بهذه الدروس تَذوُّق القرآن الكريم في العاصمة دلهي (التي كانت مركزَ العلماء وأهل الفضل والكمال) وجرتْ موجةٌ قوية من إصلاح العقائد ، وبدأت سلسلةٌ مباركةٌ لترجمة القرآن وتفسيره لم تزلْ حَلقاتُها متصلةً إلى يومنا هذا في شبه القارة الهندية ، وقد صلُحت بها نفوس مئات الآلاف من الناس

(١) انظر مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات عزيزي)، ص: ١٠ .

وحَسُنت أحوالهم وذَاقت قلوبُهم وعقولُهم عن طريقها حلاوةَ التوحيد الخالص ولذةَ القرآن الكريم ومُتعتَه الروحية ، حتى المدارسُ الإسلامية بدأتْ فيها سِلسلةُ الدروس القرآنية وتَفَهُّم معانِيه ومطالِبه بتأثير أولئك العلماء الذين تكوَّنت ثَقافتهم وتمَّت تربيتُهم في حَلقات هذه الدروس ، التي لم يُعطَ لها مكان في المنهج الدراسي إلا في صورة «التفسير الموجز»[١] للبركة فحسب ، وتحطَّم ذلك الطلسم الذي روج له علماء الدنيا أنَّ نشر القرآن الكريم في العامة نذيرُ خطر كبير وتمهيدٌ لضلالة مستطيرة ، وقد كان يعمل في ذلك وراء الستار هذا الخوفُ بأن الجماهير من الناس سوفَ تَخرجُ بذلك عن سُلطة العلماء المحترفين المرتزقين ، الذين جعلوا القرآن العظيمَ أحجيةً من الأحاجي أو لُغزاً من الألغاز ، وحاولوا بذلك إبعادَ الناس عنه وحِرمانهم منه .

والمَأثرةُ العلميةُ الإصلاحيةُ الثانيةُ للشيخ عبد العزيز الدهلوي هي تفسيره المسمى بـ«فتح العزيز» أو ما يُسمَّى بـ«التفسير العزيزي» ، أو «بستان التفاسير» ، وهو كتاب مستقل مؤلَّف من إملاءات الشيخ عبد العزيز ، وهو يَشتملُ ـ حسب تصريح الشيخ الدهلوي نفسه ـ على تفسير سورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، ثم سورة المُلك إلى آخر القرآن الكريم[٢] ، إلا أن سورة البقرة لم تتم (لأسباب لا نعلمها) فلم يُطبع منها إلا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

وقد صدرتْ لهذا الأصل الفارسي من التفسير عدةُ طبعات ويشتمل على ثلاثة مجلدات ، والمجلد الأول من سورة الفاتحة إلى ربع الجزء الثاني ،

---

(١) كان المنهج الدراسي ـ قديماً ـ يشتمل تفسير الجلالين وتفسير البيضاوي (سورة البقرة فحسب) ولم تكن ترجمة القرآن وتفسيره كله متداولاً.

(٢) انظر مقدمة تفسير «فتح العزيز» للشيخ عبد العزيز الدهلوي، ص: ٣، ويستفاد من المقدمة أن تأليف هذا التفسير بدأ بطلب من أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولي الله الدهلوي وتحريضه عام ١٢٠٨ هـ.

والمجلد الثاني من سورة الملك إلى آخر سورة المرسلات ، والمجلد الثالث من سورة النبأ إلى آخر القرآن الكريم.

وقد أَلَّفَ بعدَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي تلميذُه الفاضل العلامة حيدر علي الفيض آبادي (ت ١٢٩٩هـ) صاحب «منتهى الكلام» تكملة لهذا التفسير ، يقول مؤلف «مقالات طريقت»:

«لقد أكملَ الشيخُ حيدر علي مُؤلف «منتهى الكلام» حسب رغبة الأَميرة سَكندر بيكُم واليةِ بوفال ـ تفسيرَ «فتح العزيز» في ٢٧ مجلداً ، وشاهده كاتبُ هذه السطور»[1]. وتوجد هذه التكملة إلى آخر الجزء الخامس فحسب في مكتبة ندوة العلماء ، وقد فُقدت ورقتان من بدايتها.

وهناك تفسيرٌ بالأردوية يسمَّى «التفسير العزيزي» ويُعرف أيضاً بـ «الوعظ العزيز» ، وقد طُبع في المطبع الأنصاري بدلهي ، وهو يشتملُ حسب تصريح مُرتِّبه الشيخ أبي الفريد محمد إمام الدين ـ على مجموعة دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوي التي كان يُلقيها يومي الثلاثاء والجمعة ، وقد قُيِّدت هذه الدروس ورُتِّبت وطُبعت بهذا الاسم المذكور أعلاه ، وكان تأليفُ هذا الكتاب عام ١٢٥٩ هـ ، ويحتوي على تفسير سورة «المؤمنون» وما بعدها إلى سورة «الصافات».

ولكن رغم أنَّ تفسيرَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي لم يَكْمُل إلا أنَّه يحتوي على لَطائفَ ونِكاتٍ كثيرة نادرة لا تكاد تجدُها في عامة التفاسير المشهورة.

وقد اشتملتْ دروس الشيخ الدهلوي وكتابُه في التفسير المسمَّى بـ «فتح العزيز» على بُحوثٍ علمية في تلك المسائل والقضايا ـ بصفة خاصة ـ كان العلماء لم يجرؤوا فيها على الصراحة بالحق ، أو لم يَقوموا فيها بالبَحث والتحقيق المطلوب ، وكان قد وَقع بذلك عددٌ كبير من الدهماء والعامةِ في ضلال وعقائدَ وأعمالٍ شركية ، وانحرافات في التطبيق والسلوك.

---

(١) مقالات طريقت، ص: ٣٣.

فمن ذلك تفسيرُ آية ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، فهو من المباحث الخاصة في هذا الكتاب ، كذلك البحث في مسألة السحر في تفسير ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية ، وتحقيقات نادرة رائعة أخرى ضِمن تفسير عددٍ من الآيات ، تُعد من خصائص هذا الكتاب ومباحثه الفذة النادرة.

٢ ـ القِيامُ بتَدريس الحديث الشّريف ونشره وتَرويجه:

وأمَّا ما يتعلَّقُ بتدريس الحديث الشريف ونشرِهِ وترويجهِ ، فإنَّه يصعب أن يُوجد له مثيلٌ في تاريخ الهند العلمي والديني ، وتمتدُّ فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة ، وأنه لم يقتصر في هذه المدة الطويلة على تدريس الكتب الستة ، وتأليفِ الكتب النافعة المفيدة ـ كـ «بُستان المحدِّثين» و«العُجالة النافعة» التي تُنشيء الذوقَ الصحيح للحديث والمعرفةَ الجيدة بطبقاتِ كتب الحديث ، والاطلاعَ على مراتبِ المحدثين ومنازِلهم في العلم والفضل ، وتُعرِّف بأصوله وقواعده ، وقد جاءت فيها خُلاصة مئاتِ الصَّفحات ، ولُباب النقول والأقوال فحسبُ ، بل قد خرَّج أولئك التلاميذ النجباء والخرِّيجين الفضلاء ، والنوابغ من العلماء والمدرسين الذي أفاضوا علوم الحديث ومعارفَه ، ليس في الهند فحسب بل فِي الحجاز كذلك ، واستفادَ منهم خلائقُ من الناس لا يحصى لهم عددٌ ، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نوابغ تلاميذه وأفاضلهم ممن ترجم لهم مؤلف «نزهة الخواطر» في المجلد السابع منه فحسب إلى أربعين خريجاً ، منهم من كانت له حَلقات لدروس الحديث ، وتخرَّج على أيديهم محدِّثون آخرون وشيوخٌ أجلةٌ ومُدرسون نذكر أسماءهم فيما يلي:

١ ـ الشيخ محمد إسحاق الدِّهلوي.

٢ ـ الشيخ محمد يعقوب الدهلوي.

٣ ـ المفتي إلٰهي بَخش الكَانْدَهْلَوي.

٤ ـ الشيخ السيد أولاد حَسن القَنُّوجي.

٥ ـ الشيخ مِزار حسن علي الشافعي اللَّكْنوي.

٦ ـ الشيخ حسين أحمد المحدث المليح آبادي .
٧ ـ الشيخ حَيدر علي الطُّونكِي .
٨ ـ الشيخ خُرم علي البَلَهْوَرِي .
٩ ـ المفتي صدر الدين الدهلوي .
١٠ ـ المفتي علي كبير المَجْهلي شَهْرِي .
١١ ـ الشيخ السيد قطب الهدى الحسني الرَّائي بَرِيْلَوِي .

والذين أَسندوا عنه ـ سوى هؤلاء ـ تطولُ قائِمتهُم بحيث يصعب الإحصاء والاستقصاء ، ونكتفي هنا بإيراد بعضهم ممن يمتازون عن غيرهم بمميِّزات خاصةٍ لفضائِلهم ومناقبهم ، أو نِسبة بعض السلاسل والطرق إليهم أو لِسمعتهم الذائعة وصِيتهم المنتشر :

١ ـ الشيخ غلام علي الدِّهلوي (خليفة الشيخ الجليل مِيرزا مظهر جَانِ جانان) .

٢ ـ الشيخ أبو سعيد الدهلوي (خليفة الشيخ غلام علي) .

٣ ـ الشيخ أحمد سعيد الدهلوي (خليفة الشيخ غلام علي) .

٤ ـ الشيخ فضل الرحمن الكَنْج مُراد آبادي (خليفة الشيخ محمد آفاق الدهلوي) .

٥ ـ الشيخ بشارتُ الله البَهْرَائِجي (شيخ المفتي عنايت أحمد الكَاكُوْرَوِي) .

٦ ـ الشيخ بزرك علي المَارْهَرَوِي (شيخ المفتي عنايت أحمد الكاكوروي) .

٧ ـ الشيخ بناه عطا السَّلُّوْنَوِي (أحد كبار الشيوخ في السلسلة الجشتية النظامية ، وكانتْ له إجازة عن طريق المكاتبة) .

٨ ـ الشيخ ظُهور الحق الفُلْوَارَوِي .

وقد انتشر علم الحديث انتشاراً واسعاً كبيراً على يدي الشيخ محمد إسحاق الدهلوي الذي تخرَّج عليه علماء كبار ، وأساتذة الحديث في الهند ، إلى أن

هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ ، وأَسندَ عنه كِبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها .

ومن الذين تَتلمذوا عليه ، وكان لهم صِيتٌ واسعٌ ودَورٌ كبيرٌ :

١ ـ الشيخ السيد نذير حسين المحدِّث الدِّهلوي .

٢ ـ والمُقرىء عبد الرحمن الباني بَتِي .

٣ ـ الشيخ السيد عالم علي المُرادْ آبادي .

٤ ـ المُفتي عبد القيوم ابن الشيخ عبد الحي البَدْهَانَوِي (من أَجِلَّة خلفاء الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) .

٥ ـ الشيخ فَضلُ الرحمن الكَنج مراد آبادي .

٦ ـ والنواب قطب الدين الدهلوي (مؤلِّف «مظاهر حق») .

٧ ـ والشيخ أحمد علي السَّهَارَنْفُوْرِي (ناشر صحيح البخاري بتصحيحه وحواشيه) .

٨ ـ المُفتي عنايت أحمد الكاكوروي (أستاذ العلماء الشيخ لطف الله العلي كرهي) .

وعلماء كثيرون ممَّن يطول ذكرهم ، وهذا هو السَّندُ الوحيد الذي بقي في الهند حَسْب تصريح مؤلف «نزهة الخواطر» .

وقد استمرَّ المحدِّث نذير حسين الدهلوي (ت١٣٢٠هـ) وحده من تلامذة الشيخ محمد إسحاق الدهلوي يُدرِّس الحديث الشريف بدلهي أعواماً طوالاً ، وتخرَّج في حلقة دروسه عدد من شُرّاح الحديث وعلمائِه الأجلة وناشريه ، منهم :

١ ـ الشيخ عبد المنَّان الوزير آبادي الضرير ـ الذي كان عدد كبير من تلامذته مُنصرفين إلى التدريس والإفادة في بنجاب ـ .

٢ ـ والعارفُ باللهِ السيد عبد الله الغزنوي الأَمْرَتْسَرِي .

٣ ـ وابنه الجليل السيد عبد الجبار الغزنوي الأمَرَتْسَرِي ـ والد الشيخ داود الغزنوي.

٤ ـ والشيخ شمس الحق الدَّيَانَوِي مؤلف «غاية المقصود».

٥ ـ والشيخ محمد حسين البَتَالَوِي.

٦ ـ والشيخ غلام رسول القَلْعَوِي.

٧ ـ والشيخ محمد بشير السَّهْسَوَانِي.

٨ ـ والشيخ أمير أحمد السهسواني.

٩ ـ والشيخ الحافظ عبد الله الغازيبوري.

١٠ ـ والشيخ أبو محمد إبراهيم الآرَوِي مؤلِّف «طريق النجاة».

١١ ـ والشيخ السيد أمير علي المليح آبادي.

١٢ ـ والشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي».

ومن العلماء العرب:

١ ـ الشيخ عبد الله بن إدريس الحسني السَّنوسي.

٢ ـ والشيخ محمد بن ناصر النجدي.

٣ ـ والشيخ سعد بن أحمد بن عتيق النجدي.

وأمثالهم ممن يكفي ذكرُ أسمائهم لمعرفة انتشار هذه الدروس وسَعتِها وبُعدِ صِيتها وعظيمِ فوائدها.

ومن تلامذةِ الشيخ محمد إسحاق، الشيخُ عبد الغني المهاجر المدني (ت ١٢٩٦ هـ) الذي تتلمذَ عليه كبار العلماء وشيُوخ الحديث فيها، الذين تنوَّرت الهند كلُّها عن طريقِهم بنور الحديث الشريف ومُلئَتْ به، وترجع جميع المدارسِ الإسلامية وحَلقات الدروس للحديث الشريف فيها الآن إليه، وتَعتزُّ بالانتماء إليه، فمِن تلامذتِه الأجلة المعروفين العلامةُ رشيد أحمد الكَنْكُوْهِي،

والإمام مُحمَّد قاسم النَّـانَـوْتَـوِي (مؤسِّس دار العلوم بديوبند).

ويكفي من تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكبار ذِكرُ الشيخ محمد يحيى الكَانْدَهْلَوِي ، والشيخ خليل أحمد السَّهَارَنْفُوْرِي .

كما يُغني في تلامذةِ الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ذِكرُ شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك».

وفي قائمةِ أسماء تلاميذ الشيخ محمد قاسم النَّـانُـوْتَـوِيّ أسماءُ الشيخ أحمد حسن الأَمْرُوْهَوِيّ ، وشيخ الهند الشيخ محمود حسن الدُّيوبندي ، وفي تلامذتهم أسماء العلامة أنوار شاه الكشميري ، والعالم المجاهد السيد حسين أحمد المدني ، وأعمالهمُ الجليلة الرائدة لا تحتاج إلى تعريف وتفصيل ، ويشتمل كتاب الشيخ محسن بن يحيى الترهتي «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» فيما يتعلق بعلو أسانيد الشيخ عبد الغني وعمومِ نفعه وإفادته ، وسُمو منزلته ؛ على معلوماتٍ قيمة مفيدة .

٣ ـ الدِّفاعُ عَن السُّنة والردُّ على الشِّيعة :

وأمَّا فيما يتعلَّق بمأثرة الشيخ الدهلوي في مقاومة فِتنة الرَّفض والتشيع وحماية أهل السنة وصيانتِهم من تأثيره وعَدْوَاه ، والتي بدأها الإمام الدهلوي بكتابِه المنقطع النظير «إزالة الخفاء» . فقد أكملها ودَعمها الشيخ الدهلوي بكتابه الرائع الجلي «تحفة اثنا عشرية» (بالفارسية) ، الذي يُعد من الكتب التي تَصنَعُ التاريخ وتُحوِّل تيار الأحداث .

وكما أنَّ مؤلفات الشيخ محمد الله البِهاري كـ «سلَّم العلوم» و«مُسلَّم الثبوت» شغلَتْ علماء الهند ـ قرناً كاملاً من الزمن ـ بشرحِها والتعليق عليها والدَّوران حولها ، واستقطبتْ طاقاتهم الفكرية وعقولَهم الجبارة[1] ، وكذلك

---

(١) ويمكن الاطلاع على العدد المذهل من شروح هذا الكتاب وحواشيه في «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .

شَغل الردُّ على هذا الكتاب وتفنيدُه كبارَ علماءِ الشيعة ونوابغهم في الكتابة والتأليف ، ويكفي لذلك أنَّ كتاب «العبقات» الذي سمي بـ «عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار»[1] ، الذي ألَّفه الشيخ السيد حامد حسين الكنتوري (ت ١٣٠٦ هـ) جاء في ثمانية مجلدات كبار ، ويمكن أن يُقدر حجم هذا الكتاب وضَخامته من أن المجلد الأول منه يحتوي على ١٢٥١ صفحة ، والمجلد الثاني على ٩٧٧ صفحة ، والمجلد الثالث على ٦٠٩ صفحة ، والرابع على ٣٩٩ صفحة ، والخامس على ٧٤٥ صفحة ، والسادس على ٧٠٤ صفحة ، وقِس على ذلك البقية ، والكتاب كُلُّهُ في ثلاثين جزءاً ، وقد أكمل الكتابَ ابنُ المؤلف الشيخ السيد ناصر حسين.

ويُستفاد من كتاب «نجوم السماء» أن الشيخ دلدار علي «المجتهد الأول» وميرزا محمد كامل الدهلوي ، والمفتي محمد قلي خان الكنتوري ، و«سلطان العلماء» السيد محمد؛ كذلك ألفوا في الرد على كتاب الشيخ الدهلوي ومحوِ آثارِه كتباً ضخمة كبيرة ، وقد انتهتْ هذه السلسلة من الردود على ميرزا هادي رسوا اللكنوي (الشاعر المعروف) الذي كان رجل الأدب والفلسفة ، ولكنه حاول ـ كذلك ـ المُساهمة في هذه «المبرة».

وكيف خَطر ببال الشيخ الدهلوي أن ينقطعَ إلى هذه القضية ـ انقطاعاً كلياً ـ في خضمِّ الأشغال الصارفة عن التدريس ، وإلقاءِ الدروس العامة في التفسير والحديث ، والقيامَ بنشر الكتاب والسنَّة ، ومهمةِ التربية والإرشاد ، وتسليكِ المريدين والإفتاء ، وفصل الخصومات التي لا تدعُ فرصة للتفكير في شيء آخر ، ورغم الأمراض والآلام الشديدة التي كان يُعاني منها ، كيف انقطع ـ رغم كل ذلك ـ إلى هذه القضية التي تحتاج إلى دراسة عشَراتٍ من الكتب وآلاف من الصفحات ، مع راحةِ البال وحمية القلب والانصراف الكامل؟ لا يمكن أن يُقدَّر ذلك إلا إذا كانت هناك دراسةٌ عميقة للمجتمع المسلم في

(١) وقد طبعت الأجزاء المختلفة للكتاب في المطابع المتعددة بلكهنؤ ولدهيانة.

أواسط القرن الثاني عشر الهجري وأواخِره (النصف الآخر من القرن الثامن عشر المسيحي) في الهند ، لا سيما شمال الهند وفي دلهي ونواحيها وفي ولاية أوده ، وبهار ، وبنغال ، واطلاع واسع دقيق على الفوضى العقلية والفكرية المنتشرة في المجتمع الإسلامي الهندي ، وما كان يُحاوله بعض المتطرفين من الشيعة من زرع الشكوك والشبهات فِي حقائق الدين وتصوراته الأساسية ، وما كان للتشيُّع من التأثير على الأسر المسلمة لا سيما أُسَر الأشراف والبُيوتات الكريمة ، وأصحابِ الحكم والإدارة والطبقة المؤثرة ، وموقِفه الهجومي العنيف.

ولم يمكن أبداً أن يقدِّر ذلك مَنْ لم يستَعرض الثورات السياسية والإدارية مِن بعدِ عودة الملك همايون من إيران إلى الهند على عهد فُرخ سِير ، وبعدَه أيضاً ، وتأثير الأمراء والعلماء الإيرانيي الأصل ونفوذِهم ، وسيطرةِ الأخوة الأشراف (حسن علي خان وحسين علي خان) على بلاط دلهي وتأثيرهِم فيه ، ثم تفاصيل استيلاء النَّواب نجف علي خان على دلهي[1] ، وكذلك قِيام دولة النَّواب أبي المنصور خان صَفْدر جِنغ النيسابوري في ولاية «أَوَده» وتأثيراتُ الشيعة بعدَ شجاع الدولة ، ويَسعُ القارىء أن يُقدِّر ذلك ـ شيئاً ما ـ بتصريح الشيخ الدهلوي الذي صدَرَ من قَلمِه المعروف بالحِيطة والرزانة في مقدمة كتابه: «تحفة اثنا عشرية» ، يقولُ فيها :

«إنَّ هذه البلاد التي نسكُنها ، وهذا العهد الذي نَعيشه ، قد بلَغ فيها

(١) لقد كانت للنواب نجف علي خان سيطرة كاملة على دلهي، وكان مدافعاً متحمساً عن الشيعة ومعارضاً قوياً لأهل السنة علناً وجهاراً، وقد اشتهرت عنه وقائع من ظلمه واعتدائه، وهي وإن لم تكن صحيحة ـ كلياً ـ ويكون قد بولغ فيها أو داخلتها العصبية لأهل السنة إلا أن لها أصلاً، ولعل الشيخ الدهلوي ـ تجنُّباً من اعتدائه ـ نسب كتابه هذا إلى اسمه التاريخي «غلام حليم» بدلاً من اسمه المعروف ، وجاءت على صدر الورقة الأولىٰ من الكتاب العبارة التالية: «تأليف العالم الفاضل الأكمل الحافظ غلام حليم ابن الشيخ قطب الدين أحمد ابن الشيخ أبي الفيض الدهلوي ـ قدس سرهم ـ وحيثما أحال من رد على هذا الكتاب من المؤلفين ذكروا المؤلف بـ«الفاضل العزيز».

المذهب الاثنا عشري من الذُّيوع والانتشار والقبولِ والرَّواج بحيث قلَّ بيتٌ من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتبعُ هذا المذهب ، ومُعظمُ هؤلاء ممن لا يعرفون عِلمَ التاريخ والأخبار ، ويَعيشون في غفلةٍ وقلَّة علم بِسيَرِ أسلافِهم وأصولِهم ومنهجهم ، وعندما يتناقَشُون مع أهلِ السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم ، يأخذونَ طريق الجدال والمِراء والمغالطة ، وقد جاء تأليفُ هذه الرسالة حسبة لله تعالى لهذا الغرض حتى لا تَـزِلَّ أقدامُ المتَّبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة ، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم ، ولا يَدَعُوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التي تنبني على الحقائق تجدُ إليهم سبيلاً»[1].

ولم يتبع الشيخُ الدهلويُّ في هذا الكتاب منهجَ تِلك الكتب الكلامية التي تُولَّف على طريق المناظرة والجدل ، ولا ذلك الأسلوب الذي يُستخدم في الرد على الفِرقة المخالفة وتفنيدها وإبطالها ، وتكونُ لها لغة خاصة وأسلوب خاص ، وقد جاء في الكتاب أوّلاً ذِكرُ نشأة المذهب الشيعي وانقسامه إلى مختلف الفِرق والنِّحَلِ ، وتَعريفٌ بعلماء الشيعة المتقدمين وكُتبِهم ومؤلفاتهم ، ثم يأتي مبحث الخلافة ، والمطاعنُ التي وُجِّهت إلى الصحابة رضي الله عنهم وبدلاً من الاقتصار على الردود عليها ، فأفرد الشيخ الدهلوي أبواباً مستقلة في القضايا الأصولية من الإلَهيات والنُّبوّات والمعاد والإمامة ، ثم أفاض في الرد على مطاعن الشيعة في الخلفاء الثلاثة الراشدين وأمِّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها والصحابة الآخرين رضي الله عنهم أجمعين ، وفنَّد اعتراضاتهم واتهاماتهم.

ثم تحدَّث عن خصائص مذهب الشيعة وأوهامِه وخُرافاته وعصبيَّته ، وعلَّق على أخطائِهم وسوءِ فهمهم ومغَالطاتهم ، ويشتمل الباب الأخير (وهو الباب الثاني عشر) على «الوَلاء والبرَاء» عندهم ، وهو ينبني على عَشر مقدمات ، وقد جاء الكتاب في ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير والحروف الدقيقة.

(١) تحفة اثنا عشرية: ص ٢، طبع مطبع نولكشور، لكهنؤ، عام ١٣٢٥ هـ.

والميزة الثانية للكتاب عُذوبة لُغته وسهولتُها وطَلاقتها التي اعترف بها عُلماءُ الشيعة أنفسُهم في الهند وفي إيران ، ويتجلّى من اسم الكتاب أيضاً هذا الغرض وهذا المعنى الذي كان من الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب .

وأمّا الكُتب التي أُلِّفتْ في الرد عليها فإنه يَظهرُ من أسمائها الغَضبُ والعُنف والإثارة ، ويلمعُ فيها بريقُ السَّيف والحسام ، فمِنها ـ على سبيل المثال كتابٌ باسم «صوارم الإلٰهيات» ، وآخر باسم «حسام الإسلام» ، وثالث باسم «سيف ناصري» ، ورابع باسم «ذو الفقار» .

وسَوف يكون من الصعب بمكان أن يُقدَّر ـ في هذا العصر ـ ما أدى هذا الكتاب ـ الذي كان حاجةً من حاجات العصر ـ من دَور كبير وخِدمة جليلة ، وقد سمعَ كاتبُ هذه السطور نفسُه من الأمير الفاضل الشيخ حبيب الرحمن خان الشِّيرواني صدر الصدور (الرئيس العام) للشؤون الدينية بولاية حيدر آباد ـ سابقاً ـ (الذي كانتْ أسرته دائمة الاتصال بالشيخ الدهلوي وخلفائه أنه قال : «لقد قام هذا الكتاب في وجه السيل الجارف من التَّشيُّع سداً منيعاً) ، وكان هذا الكتاب قد طُبع وانتشر صيتُه في الآفاق في عهد الشيخ الدهلوي نفسه عام ١٢١٥هـ[١] ، وكانتْ قد بدأت سِلسلة الردود عليه ، وقد قام أحدُ تلامذة الشيخ الدهلوي الشيخ أسلمي المدراسي بتعريب هذا الكتاب ، وقد رأى كاتبُ هذه السطور هذه الترجمة العربية للكتاب في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك بالمدينة المنورة .

٤ ـ معارضةُ السُّلطة الإنكليزية والحفاظُ على كِيان الملة الإسلامية:

لقد قدَّم الشيخ الدهلوي ـ فيما يتعلَّق بالحفاظ على السلطة الإسلامية في الهند ، ومقاومة الأخطار والتحديات التي تَضَعُ عقبات كأداءَ في سبيل حرية

(١) انظر «مقالات طريقت»، ص: ٣٣.

المسلمين فيها ـ نموذجاً رائعاً للدراسة الواقعية الجادّة للأوضاع والظروف ، واليقظة العقلية وبُعد النظر والأخذِ بالعزيمة والصرامة ، التي تليق بعالم ديني من الدُّعاة والمصلحين ومن أصحاب البصيرة والفراسة ، وتجدُر بالقائد والمرشد الديني في عصره.

لقد كانتْ كُبرى القضايا في عصر الإمام الدهلوي إيقافُ غاراتِ المَرهتة وزحفهم وحملاتِهم ، التي أصبحت حادثاً يومياً ، كانت الدولة المغولية تُعاني ـ بسببها ـ من العَجز والشقاء ، والذّلة والمهانة في جانب ، وكانت أعراضُ المسلمين وأموالُهم ـ في جانب آخر ـ معرضةً للخطر ، ولم تَعُدِ الحياة في المُدن عاديةً آمنة.

وقد كان إزالة هذا الخطر والحصول على المساعدات الممكنة لإيقافه والحيلولة دونه ـ في ذلك الحين ـ كطلب رجالِ المطافىء وسيَّارات الإسعاف عند وُقوع الحريق في بيت من البيوتِ أو حيٍّ من الأحياء ، وقد كان هذا هو موقفَ الإمام الدهلوي من أحمد شاه الأبدالي وجيشِه ، وكأنه اشترطَ معه أن يعود وجيشه بعد إطفاء هذا الحريق ، وكان هذا في نظر الإمام الدهلوي حيلةً مؤقّتة وتدبيراً عارضاً لإعطاء الدولة المغولية فرصة طيبة لتَدارُك نفسِها ، أو أن يَحُلَّ محلها نظامٌ أفضل منها (إذا كان لا بدَّ منه) ، ولكنه لم ينجحْ لِقصَر نظر شاه عالِم مَلكِ الدولة المغولية ـ حينذاك ـ وسُقوط همته ، إلا أنه لم تكن قد بَدتْ في الأفق ـ إلى ذلك الحين ـ علائم سيطرة الشَّركة الشرقية الهِندية وتولِّيها لِزمام الدولة ، وقيام حكومتها عَبر البحار في هذه المنطقة النائية البعيدة ، التي كانت لتسترعي اهتمامَ الإمام الدهلوي ، وتَصرفَ كلَّ عنايته إليها.

ولكنْ تغيرت الظروف ـ سريعاً ـ في الهند بعد وفاة الإمام الدهلوي ، فقد كانتْ ولايات بنغال وبهار وأريسه الثلاث عُهد بحكمها وإدارتها عام ١١٧٩هـ الموافق عام ١٧٦٥م (بعد وفاة الإمام الدهلوي بثلاث سنواتٍ) إلى «دولة» الشَّركة الشَّرقية الهندية دون مشاركة أحدٍ ، كإقطاع أو جائزةٍ مُلوكية من الأراضي الإقطاعية ، وكانتِ الشركةُ قد حَصلت على «بَنَارَس» و«غازيبور»

كإقطاع ـ أيضاً ـ ولم يكن قد بقي بعد ذلك في أيدي مَلك الأسرة التَّيمورية شاه عالِم إلا ولاية إلٰـه آباد ، كما لم يكن له من الدَّخل إلا تلك النُّقود التي كانت يَمنحها الإنكليز إياه .

وقد أعلنَ في مجلة الوقائع (Galevtta Gazette) بكَلكُته يوم ٨/ مارس عام ١٧٨٧م الموافق ١٢٠٢هـ : «أنَّ حكومة المسلمين قد بلَغت من المَهانة والحقارة ما بلغتْ ، ولا خَوفَ علينا من الهندوس» .

ثم هَزم الإنكليزُ «سراجَ الدولة» في ساحة بَلاَسِي عام ١٧٥٧م ، وهَزموا شُجاعَ الدولة في ٢٣/ أكتوبر ١٧٦٤م الموافق عام ١٢١٤هـ في ساحة بَكْسَر ، واستشهد السلطان تِيبو عام ١٧٩٩م الموافق عام ١٢١٤هـ في ساحة سِرَنْكَابَتَن ، وكأنه ختمَ بذلك على مصير حكومة المسلمين وسُلطتهم ، ولما وقع بَصر الجنرال هارِس (Harris) على جُثَّةِ السلطان تيبو الشهيد قال : ـ بحق ـ : «الآن أصبحتِ الهندُ لنا»[1] .

إنَّ الشيخ الدهلوي كان منقطعاً إلى التدريس والإفادة بدلهي ، ولكنَّ عينه البصيرةَ النافذة إلى أعماق الحقائقِ كانت تنظرُ إلى الهند كُلِّها ، وقد رزقه الله تعالى عقليةً واقعيةً غير عادية وحميَّة مُتَّقدة ، وعزيمةً قوية صارمةً ، وقد دَرس هذا الانقلاب والتَّغيُّر الهائلِ في الأوضاع دراسة مستوعبة ، وتوصَّل بها إلى نتيجة أن الإنكليز يُشكلون أكبر خطر في هذا الحين لمستقبلِ المسلمين والبقيةِ الباقية من سُلطتهم وحكومتهم ، وقد صوَّر هذه الحقيقة في بيتٍ من شعره العربي تصويراً كاملاً ، ويظهرُ منه أنه لم يكن يَرى تأثير الإنكليز مُنحصراً في حدود الهند فحسب ، بل يَعتبرُه أوسعَ حدوداً وأبلغ مدىً ، يقول :

وإني أرى الإفرنجَ أصَحابَ ثروةٍ لقد أفسدُوا ما بَين دِلْهي وكَابُلِ

وهو أول شخص ـ في حدود علمنا ـ تجاسرَ على إعلان أنَّ الهند أصبحت

---

(١) انظر «تاريخ سلطنت خداداد (تاريخ الدولة الموهوبة) لمحمود خان محمود البنغلوري» ص : ٢٦٦ .

دارَ حرب ، وقامَ مُستعرضاً للأوضاعِ والظروف ، في ضوء الفِقه وأصوله ، بتحقيق هذه المسألة وتنقيحِها بطريق يَدلُّ على عُمق بصيرته وشجاعتِه الخلقية والدينية أيضاً ، فقد قال في «الفتاوى العزيزية» ج ١ ، في الردِّ على سؤال أنَّ دار الإسلام هل يُمكن أن تتحوَّل دار حرب أو لا؟ بعد نقلِ عبارة طويلة من «الدر المختار» :

إنَّ حُكمَ إمام المسلمين في هذه المدينة (دلهي) غيرُ نافذ ، وحُكمَ الحكام النصرانيين نافِذٌ مطبَّقٌ بِدون معارضة ونقد ، وإنَّ ما يُسمِّيه الفُقهاء بإجراءِ أحكام الكُفر يُراد به أن يَكونَ الكُفَّار أصحاب حُكمٍ وسُلطة في شؤون إدارة البلاد ، وتنظيمِ الرَّعيَّة ، وأخذِ الجبايات ، وتعشيرِ أموال التجارة ، وتعزيرِ السُّرَّاق وقُطَّاعِ الطُّرق ، والفصل في الخصومات ، والتَّعزير على عامَّة الجرائم ، وإن كانوا لا يتعرَّضون لبعض الأحكام الإسلاميَّة كإقامةِ الجُمُعة والعيدين والأذان وذَبحِ البقر ، ولكنَّ الأصل الأصيل أن تكون هذه الشؤون المتقدِّمةُ الذِّكر تحتَ رحمتهم وفي دائرة نفوذهم .

إنَّنا نرىٰ بأمِّ أعيُننا أنَّهم يَهدِمون المساجد علناً ، ولا يُسمح لأي مسلم أو ذِميٍّ أن يدخلَ هذه المدينة أو نواحيها إلاَّ بإذنهم ، ولا يَمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية ، ولكنَّ الوجهاء الآخرين كشُجاع الملك وولايتي بيكم؛ لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم ، إنَّ حُكم النَّصارىٰ يسود من مدينة دلهي إلى كَلْكُتَّه .

نعم إنَّهم لم ينفِّذوا أحكامهم في بعض المناطق ـ يميناً وشمالاً ـ كحَيْدَر آباد ، ولكهنؤ ، ورَامفُور ، إمَّا لأجلِ مصالِحهم الخاصة ، أو لأنَّ حكام هذه الولايات خضَعوا لسلطانهم وقَبلوا طاعتهم[1] .

وقد انعكست هذه التَّصوُّراتُ التي كان يحملها الشيخ الدهلوي ، والنظرةُ التي كان ينظر بها إلى الإنكليز على تصوُّراتِ خليفته الجليل وخرِّيج مدرسته

(١) الفتاوى العزيزية: جـ: ١ ، ص: ١١٤ ، طبع المطبع المجتبائي.

التربوية العظيمة الإمام الداعية المصلح السيد أحمد بن عرفان الشهيد وعواطِفه ومشاعره ، وتتجلى هذه العكوس في رسائله التي كتبها إلى وُجهاء عصره وأعيانهِ وأمرائه وبعضِ الحكام المسلمين الأجانبِ ، يقول في رسالة كتبها إلى شاه سُليمان والي «جِتْرال» :

«لقد تدهورتْ حكومة الهند وسلطتهُ ـ لسوء الحظ ـ منذُ أعوام إلى وَضع سيئ حتى استولى المسيحيُّون والمشركون على أكثرِ بقاع الهند ، وملؤوها بظلمات الظُّلم والجَور والطُّغيان»[١]

ويقول في كلمات أكثر صراحةً منه في رسالة إلى هِنْدُوْرَاؤ وزير كَوَالِيَار :

«مِن الواضح الظاهر عليكم أنَّ هؤلاء السكان وراء البحار ، قد ظلوا سلاطين العالم وملوك الأرض ، وهؤلاء البيّاعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد ، وقد أسقطوا حكوماتِ الحكام الكبار ، وانتهكوا الحُرمات والأعراض وأذلُّوهم وأرغموا أنوفهم»[٢] .

وَيكتُبُ إلى غُلام حيدر ـ الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليار ـ :

«لقد راحت مُعظم البقاع من هذه البلاد إلى سُلطة الأجانب ، وقد شمروا عن ساعد الجد في الظلم والعدوان في كل مكان ، لقد ضاعت حكومة حُكَّام الهند وخَربت»[٣] .

ويَظهرُ ـ جلياً ـ من تلك الرسالة التي يُوجِّهها الإمام الشهيد إلى الأمير كامران ، أنَّ الغرض الحقيقي من وراء هذا الجهاد الذي كان يقومُ به ، كان هو تحريرَ الهند التي كان يَتمُّ عليها استيلاء الإنكليز وسيطرتُهم بصورة تدريجية ، يقول في هذه الرسالة :

«إنَّ هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعدَ الفراغ من هذه

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد: جـ: ١، ص: ٣٨٩.
(٢) المصدر السابق: جـ: ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٣) المصدر السابق: ص: ٣٩٠.

المهمة (مُهمة بُنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهندِ بعزيمةِ القضاء على الكفر والطُّغيان إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك»[١].

ويُمكن أن يُقدَّر ذلك ـ أيضاً ـ من أن الإمام أحمد بن عرفان ذهب عام ١٢٢٧ هـ (أي قبل وفاة الشيخ عبد العزيز الدهلوي باثنتي عشرة سنة) إلى جيش الأمير أمير خان الذي كان ـ حينذاك ـ في حرب الإنكليز، وكان معه أفضلُ العناصر العسكرية في الهند، ودماءُ المسلمين الفائرة، والبقيةُ الباقية من القوة الفاتحة في الهند، وكثير من أُسود ذاك العهد وأبطاله ورجاله، وقد كانت هذه قُوةً ناهضة متقدِّمةً حُرة في الهند، لم يكن من الممكن أن يَتجاهلها أيُّ مُطَّلع بَصير، وقد كان يُمكن بتنظيمها وإحياء رُوح الأهداف الصحيحة العالية فيها أن تقف إزاءَ القُوة الناهضة للإنكليز[٢].

فقد غيَّرت مثلُ هذه القوى ذات الهِمّة والشَّهامة ـ رغم ضَعفها في العدد والعتاد ـ وُجهةَ الأحداث وتيارَ الظروف والأوضاع في تاريخ الشعوب والبلاد.

ولم يَثبُتْ لدينا حتى الآن عن طريق الوثائق الكتابية أن الإمام أحمد بن عرفان كان قصد جيش أمير خان بأمر من الشيخ الدهلوي وإرشاد صريح منه، إلا أن هُناك من القرائن ما يُفيد أن هذه الخطوة كانت بإشارةٍ منه أو ـ على الأقل ـ بموافقته ورضاه، وذلك لأنه لما صَالح النَّواب أمير خان عام ١٢٣٣ هـ الإنكليزَ، وقَنع بالحصول على عَددٍ من المناطق المفرقة غير ذات شأنٍ من ولايات راجبوتانه ومالوه، التي كانت تُسمى مجموعتها بإمارة «تونك»، واختار العزلة عن محاربة الإنكليز، رأى الإمام أحمد بن عرفان أن البقاءَ معه أكثرُ من ذلك لا غنى فيه ولا فائدة، فاختار هو ـ أيضاً ـ مفارقته والانفصال عنه، وكتب

---

(١) سيرة أحمد الشهيد: ١/ ٣٩٠.

(٢) انظر للتفصيل «سيرة السيد أحمد الشهيد»، ج: ١، وليعلم أن أمير خان لم تكن له أي صلة «بالفنداريين» الذين وصفتهم كتب التاريخ الإنجليزية وكتب المؤرخين الذين تأثروا بها بأنهم قطاع الطرق، ولفيف من الهدامين، والحقيقة في هذا الأمر أن الفنداريين كانوا ـ أحياناً ـ يلجؤون إليه، وكان هو ينقذهم من الأخطار المؤقتة المفاجئة.

رسالةً إلى الشيخ الدهلوي وكان من محتواها:

«سوف يتشرَّف الفقير بالحضور، فقد تفرَّق العسكرُ هنا وتبدد، واتفق النَّوابُ مع الإنكليز وصالحهم، فلا مجالَ لنا ـ الآن ـ للمُكث والبقاء»[١].

ويُمكن أن يُستنتج من ذلك أن هذه الرحلة للإمام أحمد بن عرفان إلى الأمير كانت بإشارةٍ من الشيخ الدهلوي، ولذلك رأى من اللازم عليه أن يُخبره بعودته عنه ومفارقته.

وهكذا استخدم الشيخُ الدِّهلوي في التعرف على ذلك الخطر الكبير ـ الذي كان يُواجهه المسلمون والهندُ كُلُّها ـ بصيرَتَه الموهوبة وفراسته الإيمانية، ولم يدَّخرْ وُسعاً في اتخاذ التدابير اللازمة لعلاج ذلك، التي كان في وسعه أن يتخذها في عهده، وتتجلَّى بصيرتهُ هذه وعاطفتهُ الإيمانية في جميع أفراد جماعة المجاهدين التي تنتمي إليه، والتي كان يقودها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وابن أخ الشيخ الدَّهلوي النابغة العظيم الشيخ إسماعيل الشهيد، في أروع مظاهرها وأجلى صورها، كما تتجلَّى مشاهدها الرائعة في حروب الشيخ ولايت علي العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمد الله، والشيخ عبد الله ضدَّ الإنكليز على الحدود، وفي تلك التضحيات الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور، والتي لا يُوجد لها نظير إلا بصعوبة[٢].

ثم انتقلت هذه العاطفةُ من هذه الجماعة المجاهدة المناضلة إلى أولئك العلماء والقادة الدينيين الذين خاطروا في سبيلها بمُهجهم وأرواحِهم عام ١٨٥٧ م، وقد اشتهر منهم الشيخُ أحمد الله شاه المَدْرَاسِي، والشيخ لياقات علي الإله آبادي، والشيخ إمدادُ الله المهاجر المكِّي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يَخبو يوماً،

---

(١) انظر «وقائع أحمدي»، ص: ٨٥، مخطوط في مكتبة ندوة العلماء ـ لكهنؤ.

(٢) انظر للتفصيل كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريحُ الإيمان»، ص: ١٨٩ ـ ٢٠٠، طبع دار ابن كثير بدمشق.

ولم تزل تتَّصلُ حلقات هذه السلسلة إلى ١٩٤٧ م.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٥ ـ تَربيةُ رجال العمل والجهاد:

أمَّا ما يتعلَّقُ بتربية رجال الجِدّ والجهاد الذين يقومون ـ حسب مُقتضيات العصرِ والأوضاع ومُتطلّبات الدين الحقيقية ـ بأعمال الدعوة والإصلاح، ويَرفعون راية الجِد والجهاد، فإن من حُسن الحظ، والحكمة الإلٰهية البالغة أنَّ نصيب الشيخ الدهلوي من ذلك أكبرُ وأعظم من كثير من سَلَفهِ ومشايخه، ومن أولئك الرجال الذين يُمكن أن تكون منزلتهم عند الله تعالى أعلى وأفضل (والقرائن تدل عليه)، فقد وفَّقه الله تعالى لتربية عددٍ من الرجال الأكفاء ذوي الصلاحية الفائقة، والهمة العالية، والعزيمة الصارمة، والتأثير في النفوس والقلوب، الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس، وكأنهم أمسكوا بقَرنٍ كامل وحَفظوه من السقوط والانهيار، لقد كان نَهْر عِلم الشيخ الدهلوي وحياته هادئاً ساكناً، ولكنه كان كما يقول الدكتور إقبال:

«مِن هذا النَّهر تتصاعدُ تلك الأمواجُ الطاغيةُ المتلاطمةُ التي تُحطم أوكارَ التَّماسيح وتَجعلُ عالِيها سافِلها».

الإمامُ أحمدُ بنُ عرفانَ الشهيد:

يكفي لإثبات هذه الدعوى أن يُذكر اسم خليفتهِ الأجل الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) الذي قاد في شبه القارة الهندية تِلكَ الحركة الإسلامية العظيمة التي لا يُوجد لها نظير في شمولها وقُوة تأثيرها ومشابهتها للدعوةِ الإسلامية الأولى، والمنهج النبوي الكريم، لا في القرن الثالث عشر الهجري فحسب، الذي هو عَهدها، بل لا نعثر في عدة قرونٍ ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية والجماعة القوية المنظَّمة للرجال المخلصين الصادقين، وأنَّ ذلك النشاط الذي قام به في مجال تصحيح العقائد وتربية الرجال والدعوة

والتذكير والتضحية والجهاد الطويل العريض ، لم يقتصر تأثيرهُ على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له ، بل تركَ آثاراً بارزةً عميقةً خالدة على الأجيال القادمة ، والركب القادم لدعاة الحقِّ والصدق ورجال الفكر والجهاد وقادة الحركة الإسلامية والخدَمَةِ لهذا الدين الحنيف .

وهو الذي بدأ بالجهود الموفَّقة والمحاولات الجادةِ للدفاع عن الهند والبُلدان المجاورة لها ، وحِمايتها إزاءَ السُّلطة الناهِضة المتزايدة للمُستعمرين الإنكليز ، وتأسيسِ الحكومة الإسلامية على مِنهاج الخلافةِ الراشدة .

وقد كان زِمام القيادة لهذه الحركة والنشاط ، والجدّ والجهاد في الهند أولاً بأيدي علماء هذه الجماعة وقادتها المخلصين ، وتَدينُ بجهُودهم الحركةُ الجديدة في مختلف بقاع الهند للتصنيف والتأليف والبحث والتحقيق والترجمة والنشر(التي ردمتْ ذلك الخليجَ الواسع العميقَ الواقع بينَ عامَّةِ المسلمين وبَين التعاليم الإسلامية الصحيحة والكتاب والسنة) .

كما أنَّ اليقظةَ الدينية والسياسية في المسلمين ـ بواسطة أو بدون واسطة ـ ليستْ إلا من ثِمار هذه الدَّعوة والحركةِ ونتائِجها الطَّيبة المباركة، وقد أثَّرت هذه الحركةُ على الثَّقافةِ الإسلامية والفكر الإسلامي واللُّغةِ والأسلوب المتداول أيضاً ، وقامت بأعمالٍ عظيمة جبَّارة في إصلاح المجتمع والقضاء على التقاليد الجاهلية ، وإزالةِ الآثار الهندوكية ، والعودةِ إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد .

ونَذكُر فيما يلي ـ لقياس ما كان لِدعوة الإمام الشهيد وتربيته من تأثيرٍ وشمول وقُوة وعُمقٍ ـ بعضَ المقتطفات من كتابات العلماء البصيرين المطَّلعين :

«يَقولُ مُولِّف الهندِ المعروفُ والمؤرِّخُ الكبير العلاَّمة السيد صديق حسن خان [القَنُّوجي] ـ والي بوفال ـ (م١٣٠٧هـ) الذي كان مِنَ المُشاهدين لآثار تربيةِ الإمام الشهيد وتعليمهِ وإرشاده ، وعاصرَ عدداً كبيراً ممَّن صَحِبوه أو شهدوه ، يقول في كتابه «تقصار جُيود الأحرار» :

«كانَ (السيد أحمد الشهيد) آيةً من آيات الله تعالى في هداية الخلق ورُجوعهم إليه ، وقد وصلتْ جماعاتٌ كثيرة وعالم بأسره بعنايتهِ المعنوية والمادية إلى منازل الوِلاية ومدارج الإحسان ، وقد طهّرت مواعظُ خُلفائه وخُطَبُهم أرض الهند من ألواثِ الشِّرك والبدع وأقذائها ، وساروا بها على دربِ الكتاب والسنة ، ولا تزالُ بركاتُ مواعظهم وتذكيرهم تسري في الوجود وتجري (كالأنهار)».

ويزيدُ قائلاً : «وبالجملة فإنَّه لم يُسمع في هذا العصر وفي أي بلدٍ من بُلدان العالم بمثل هذا العبقري الفذ ، وإنَّ ما فاض على خلق الله تعالى من هذه الجماعة القائمة بالحقِّ من خَير وفائدةٍ وهداية ، لم يحصل عُشر معشارها على أيدي عُلماء هذا العهد ومشايخه»[(١)] .

ويقول أُستاذ الأساتذةِ في عصره العلامةُ الشيخ حيدر علي الرَّامْفُوري الكوكي (م ١٢٧٣هـ) تلميذُ الشيخ عبد العزيز الدهلوي في «صيانة الناس» :

«لقد أضاء نُور هدايته وإرشاده كالسراج الوهَّاج في البلاد وقلوب العباد ، وضربَ السعداءُ المحظوظون إليه أكباد الإبل ، وشَدُّوا إليه الرحال ، وتابوا على يديه من الإشراك والمناهي والبدع والمحدَثات ـ التي كانوا قد اعتادوها ودرجوا عليها ـ وسلكوا سبيلَ التوحيد والسُّنة والرشاد ، وبعث خلفاءه الصادقين العاملين في أكنافِ البلاد البعيدة ، ومهَّد بهم لمئات الآلاف من الناس طريقَ الملة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فمن عقل ورشد ، وحالفه التوفيق والتأييد ، فقد اهتدىٰ إلى هذا الطريق»[(٢)] .

ويقولُ أحدُ علماء الهند المطلعين الثِّقات الشيخ عبد الأحد ـ الذي زار عدداً

---

(١) تفصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار (بالفارسية): ص١٠٩ ـ ١١٠ طبع بوفال عام ١٢٩٨ هـ.
(٢) صيانة الناس عن وسوسة الخناس: ص ٤، طبع عام ١٢٧٠ هـ.

كبيراً من أفراد هذه الجماعة النَّيرة الصادقة ، وكان عهده قريباً من عهد الإمام الشهيد ـ :

«لقد أسلَم على يدي السيد (أحمد الشهيد) أكثرُ من أربعين ألفاً من الهنادك وغيرهم من الكفار ، وبايعَ على يديه ثلاثةُ ملايين من المسلمين ، وأما ما يجري من سِلسلة المبايعة على أيدي خلفاءِ خلفائه على وجه الأرض كُلِّها ، فإنَّه يدخل عن طريقها في بَيعته مِئاتُ آلافٍ من الناس»[١].

ويَعتبرهُ ـ لأجلِ هذه المأثرةِ الإصلاحيةِ والتجديدية العظيمة ـ مُعظمُ أصحابِ الفكر والبصيرة المنصفين مُجدِّدَ القرن الثالث عشر الهجري.

الشيخُ عبد الحي البُرهَانَوي:

والمثال الثاني لتربيةِ الشيخ عبد العزيز الدهلوي وتعليمه وإرشاده اثنان من تَلامذتهِ النجباء والأدنين من ذوي قُرباه الشيخ عبد الحي البرهانوي ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، وقد كان الشيخ الدهلوي يَعترف لهما بالعلم والفضل والتبحر فيه ، وقد وَصفهما في إحدى رسائله «تاج المسافرين وفَخر المحدثين وأحدُ نوابغ العلماء المحققين»، وقال في رسالة كتبها إلى أحد أعيان لكهنؤ المنشي خير الدين :

---

(١) انظر «سوانح أحمدي» وانظر مزيداً من الشهادات وتصريحات الشيخ ولايت علي العظيم آبادي (١٢٦٩ هـ)، والشيخ كرامت علي الجونفوري (١٢٩٠ هـ) في رسالة المؤلف بعنوان «الإمام الذي لم يوف حقه من الاعتراف والإنصاف»، وانظر لسيرة الإمام أحمد بن عرفان ومناقبه وفضله بتفصيل «سيد أحمد شهيد» للشيخ غلام رسول مَهَر (المجلدات ١ ـ ٤) و«سيرة السيد أحمد الشهيد» للمؤلف، جـ: ١ و٢، وأما ما حصل على أيدي خلفائه من هداية عامة وإصلاح كبير وما كان لهم من تأثير ، فيُمكن أن يقدر شيءٌ من ذلك من «الذكر الجلي في كرامات السيد محمد علي» (بالأردية) تأليف أفسر الدولة جان جهان خان ابن النواب محمد خان عالم خان بهادر تهور جنك طبع عام ١٣٠٥ هـ بمطبع مرغوب دكن، إسكندر أباد، وهو في سيرة خليفة الإمام الشهيد، السيد محمد علي الرامفوري ومناقبه وكراماته ، وما تمَّ على يديه من هداية وإصلاح في مدراس».

«كلاهما لا يقلَّان عن هذا الفقير في عِلم التفسير والحديث والفقه والأُصول والمنطق وغيرهِ ، وأن ما شملتهما من عناية الله تعالى ورعايته لا أستطيع أن أؤدِّي حقَّ شكرها عليَّ ، فأعتبرهُما مِن العلماء الربانيين ، وإذا استعصى عليك إشكال فاعرِضهُ عليهما»[١] .

لقد كانت مَكانةُ الشيخ عبد الحي العلميةُ ـ لدى أهلِ العلم والفضل ـ رفيعة ممتازة ، وكان عاليَ الكعب في العلوم المتداولة ، ويُفضِّله الشيخ الدهلوي في علم التفسير على جميع تَلامِذته الآخرين ، وكان يقول: «إنه مثلي» وقد خاطبه في إحدى رسائله إليه بلقب «شيخ الإسلام» الذي لم يدع به إلا بعض خاصة العلماء .

وأمَّا الذي هو فَوق تبحُّره العلمي ونُبوغه العقلي والفكري فهو ربَّانيته وإخلاصُه ، حيثُ راجع الإمام الشهيد ـ رغم هذا العلم والفضل ـ الذي كان أصغرَ منه سناً بكثير ، وتتلمذَ عليه في العلم ، فإنه لما بايعه لم يَلبثْ أن انصبغ بصبغته ، وفَداه بِعلمِه وفضله ، وأنفق كلَّ ذلك عليه وعلى عمل الدعوة والجهاد ، ونذَرَ قَلمه ولِسانه وكلَّ ما آتاه الله تعالى من قُوة صلاحية وكفاءة لنصر الحق وتمكينه ونشرِهِ ، وأسلمَ نفسه في رحلتِه للهجرة والجهاد إلى بارئها الكريم ، وهكذا صدقَ ما عاهد الله عليه .

الشيخ محمَّد إسماعيل الشهيد:

وأمَّا الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، فإنه من أُولئك الأفراد الأفذاذ من أُولي العزم وأصحابِ الهمة العالية ، والذكاء الخارق ، والجَراءةِ الكبيرة الذين لا يُولدون إلا بعد عهود وقرون ، فقد كان يَملكُ العقليَّة الاجتهادية ، ولا يكونُ من المبالغة والإسراف في القول إذا قلنا بأنه كان يملك القدرة والكفاءة لتدوينِ كثيرٍ من العلوم مِن جديد ، وقد ذَكرهُ الشَّيخ الدهلوي في

(١) انظر «سيرة السيد أحمد الشهيد»، جـ: ١، ص: ٢١٦ ـ ٢١٧.

إحدى رسائله إليه: «بحُجَّة الإسلام»، ويتجلَّى في علمه ومؤلفاته لَونُ الإمام الدهلوي، ومَنهجه، وأسلوبهُ، طراوة علم، ولطافة استدلال واستشهاد، ودِقَّة نُكات وسلامة ذوق، وتَفقُّهاً في الكتاب والسنة واستحضاراً عجيباً للمعلومات وقُوة تعبيرٍ وبيانٍ.

وإنَّ من خصائصه الكبرى أنه خَرج من ذلك النطاق المحدود للعلماء المدرسين الأذكياء، الذين تَعيَّن لجماعتهم منذ أعوام بل منذ قرون، ولم يَدخل ساحةَ الجد والجهاد والإصلاح والإرشاد فحسب، بل قادَ فيها جيُوشه وجَحافله، وأنَّ ما قام به كتابه «تقويةُ الإيمان» وحدَه من نَفعٍ عظيمٍ للخَلق وتصحيحِ العقائد والتصوراتِ لعله لا يمكن أن تَقومَ به الجُهودُ المنظَّمة في إشراف حكومة من الحكومات إلا بجُهد وصعوبة.

وقد كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، يقول: «لقد صلح بجهُود الشيخ إسماعيل في حياته مئتا ألف وخمسون ألفاً من الناس، ولا يُمكن أن يُقاس ما جرى بعدهُ من نَفعٍ وفائدة عظيمة».

وكان قد أعدَّ نفسه ـ مع هذه المهمة العظيمة للإصلاح والدَّعوة الشعبية العامة ـ للجهاد في سبيل الله تعالى إعداداً كاملاً، ولم يكن قد أدَّى حقَّ مرافقة الإمام الشهيدِ ومُواكبَتِهِ ـ الذي كان قد بَايعه بيعة السلوك والجهاد ـ فحسب، بل كان دَورهُ في هذه المهمة دورَ قائدٍ للحركة، ونائب للأمير ووزيرٍ له، ثم أَفنى نفسَه في ذلك، وحازَ على شرف الشهادة في معركة بالاكوت، وهؤلاء الذين يَحق أن يُقال فيهم:

«رُهبان بالليل وفُرسانٌ بالنهار».

الشّيخ مُحمد إسحاق، والشّيخ مُحمد يعقوب:

لقد خلَف الشيخ الدهلوي ـ في ذَوقه الخاصِّ وتدريسهِ للحديث الشريف والاهتمامِ بأسانيده وإجازاته، والقيام بنشر العلوم الدينية وتعميمها ـ سِبطاهُ

(ابنا بنته) الشيخُ محمد إسحاق (١١٩٧ ـ ١٢٦٢ هـ)، والشيخ محمد يعقوب (١٢٠٠ ـ ١٢٨٢ هـ)، وكانا ابنين للشيخ محمد أفضل.

وقد استخلَف الشيخُ الدهلوي محمد إسحاق ووهَبه جميع كُتبه وبيته وغيرَ ذلك ، فجلس بعد وفاة الشيخ الدهلوي على كرسيِّ التدريس ، وانصرف من عام ١٢٣٩هـ إلى ١٢٥٨هـ بدلهي ، (العام الذي هاجر فيه إلى مكة المكرمة)، ومن عام ١٢٥٨هـ إلى ١٢٦٢هـ في الحجاز إلى خِدمة الحديث الشريف وتدريسه والاستغراق فيه.

وقد قرأ عليه الحديث مئاتٌ من علماء الهند ، واستفادَ منه كبار العلماء وأساتذةُ الحديث الوافدون عليه من مختلف البلدان والأمصار ، وأسندوا عنه الحديث ، كان منهم الشيخُ عبد الله سراج المكّي ، وكبارُ العلماء الآخرون.

وقد كان الشيخ الدهلوي يَشكر الله تعالى على أن رَزقه العَضُدين القويين في صورة الشيخ محمد إسماعيل (ابن أخيه)، والشيخ محمد إسحاق (سبطه)، وكان كثيراً ما يردد هذه الآية الكريمة:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقد توفِّي الشيخ إسحاق الدهلوي في ٢٧/ رجب عام ١٢٦٢ هـ بمكة المكرمة ، ودُفن في المعلاّة بمقربةٍ من مَرقد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها»[١].

ولم يزلِ الشيخ محمد يعقوب كذلك ـ منشغلاً بالتدريس والإفادة بدلهي لمدة طويلة من الزمن ، ثم هاجرَ مع أخيه الأكبر الشيخ محمد إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ ، واستوطنها واستفاد منه الأمير العلاّمة السيد صِدِّيق

(١) انظر لترجمته «نزهة الخواطر»، جـ: ٧.

حسن خان القنوجي (أمير بوفال) [١]، والشيخ السيد أحمد النصير آبادي[٢]، وخَلقٌ ، وانتقلَ الشيخ محمد يعقوب يوم الجمعة ٢٧/ ذي القعدة عام ١٢٨٢هـ إلى رحمة الله تعالى ودُفن في المعلاّة.

العُلماء الأجلاّء ، والأساتذة الكبار الذين تتلمذوا عليه:

إنَّ العلماء الذين استفادوا من دُروس الشيخ الدهلوي وتربيته وصُحبتهِ ، ثم أقاموا حلقات دروسهم ، وذاعَ صيتُهم في الآفاق ، ونفَخوا في النظام التعليمي الدينيّ رُوحاً جديدة من الحياة ، ثُم تخرَّج على أيديهم عددٌ كبير من العلماء الأجلاء ، نَود أن نذكر ـ فيما يلي ـ أسماء من بَعُد صيتهم ، واعترفَ لهم القاصي والداني بملَكتهم القوية الممتازةِ في التدريس ، وجَمعِهم بينَ المعقول والمنقول وتبحُّر عِلمهم وسَعةِ معلوماتهم ، وقد كان كلٌّ واحدٍ منهم مدرسةً قائمةً بذاته، ومؤسَّسة علميةً بمُفرده، وهؤلاء كالتالي :

١ ـ المفتي إلٰهي بَخش الكاندهلوي.
٢ ـ الشيخ إمام الدين الدهلوي.
٣ ـ الشيخ حيدر علي الرَّامفُوري الطُّونكي.
٤ ـ الشيخ حيدر علي الفيض آبادي ، صاحب «منتهى الكلام».
٥ ـ الشيخ رشيد الدين الدهلوي.
٦ ـ المُفتي صدر الدين الدهلوي[٣].

---

(١) إن ما قام به الأمير السيد صديق حسن خان من خدمة جليلة للحديث الشريف ونشر لكتبه ومصادره، وما تحولت ولاية بوفال ـ بعنايته وإشرافه ـ مركزاً لدروس الحديث الشريف، وموطناً لمحدثي اليمن، من الحقائق التاريخية ومآثره الجليلة، وإن طبع «فتح الباري» بمطبع بولاق بمصر ونشره الذي أنفق عليه ٥٠٠٠٠ ألف روبية منة عظيمة على العلماء وطلبة العلم، ويرجع إليه السبق فيه.

(٢) كان أحد الدعاة والمصلحين في سلسلة الإمام الشهيد ومن أسرته، انظر لترجمته المفصلة: «نزهة الخواطر»، جـ: ٧.

(٣) ليرجع لتراجمهم وأخبارهم إلى «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، ج: ٧.

ويُمكن أن يُقال ـ نظراً إلى هؤلاء النوابغ الأجلةِ والأساتذة الكبار ، ومن ذُكر قَبلهم من رجال الفكر والدعوة وأصحاب الهمة والعزيمة وقادةِ حركة الإصلاح والتجديد والجهادِ في سبيل الله تعالى الذين كانوا ينتمون إلى الشيخ الدهلوي ـ روحياً ومعنوياً ـ إنَّ القرن الثالث عشر الهجري كان قرنَ الشيخ الدهلوي في تعليمهِ وتدريسهِ ، وإرشاده وتربيته للرجال الذين يتجمَّل بهم التاريخ ، وتغيَّرت بهم وُجهة الأحداث ، وذلك فَضلُ الله يؤتيه من يشاء.

وسنُورِد بعد الفراغ من ذكر الشيخ الدهلوي الذي هو كالنقطة المركزية في دائرة سلسلة الإمام الدهلوي ، وواسطةُ العقد في السلك النوراني لأبنائه وتلامذته ، تراجم ابني الإمام الدهلوي الآخرين وهما الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد القادر ، وتراجمَ ثلاثة من خلفائه الكبار الشيخ محمد عاشق الفلتي ، والشيخ محمد أمين الكشميري ، والسيد أبو سعيد الحسني الرائي بريلوي ، وهي تراجم مُقتبسة من «نزهة الخواطر» ج٧.

الشَّيخُ رفيعُ الدين الدِّهلوي:

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة رفيعُ الدين عبد الوهاب بن ولي بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، المحدث المتكلم الأصولي الحجة الرَّحلة ، فريد عصره ونادرة دهره ولد بمدينة دهلي ونشأ بها واشتغلَ بالعلم على صِنوه عبد العزيز ، وقرأ عليه ولازمه ، وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتي ، وبَرع في العلم ، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين ، وصنَّف التصانيفَ وصار من أكابر العلماء في حياةِ أخيه المذكور ، وقام مَقامه في التدريس ، بعد ما أصيبت عيناه ، فازدحمَ عليه الناس ، وتلقَّى كُلٌّ واحد من تلك اللطائف على قَدر الاستعداد ، واعترفَ بفضلهِ علماءُ الآفاق ، وسارت بمصنَّفاته الرِّفاق.

قال صِنْوهُ عبد العزيز فيما كتب إلى الشيخ أَحمد بن محمد الشَّرواني : «هذا أوان الأخ الفَذِّ البَذِّ ، المتخلق من طَيِّب الخلال بما طابَ ولذَّ ، الذي هو

شقيقي في النسب ، ولَحيقي فيما يَظن بي الكرام من فُنون العلم وشجُون الأدب ، هو تِلْوي في السن ، وصنوي في الصناعة والفن ، قد ربَّاه اللهُ بِمنح ألطافه على يَديَّ ، وَمنَّ بتكميله عليَّ ، ولما زارني من مُقامه بعد ما اغترب شَطراً من أيامهِ أتحفني برسالة وَجيزة ، بل جَوهرة عزيزة ، تحتوي على نُكت مخترعةٍ هو أبو بَجدتها ، وتَنطوي على فِقَرٍ مُفتَرعةٍ لم يُسبق إلى أسوتها ، مَسوقةٍ لتفسير كلام الله المجيد في آية النور ، وَكَشف القناع عن وُجوه تلك المعاني المقصورات من الإعجاز في القصور ، ولَعمري لقد أتى في هذا الباب بالعَجَب العُجاب، وميّز القِشر عن اللُّباب، ونوَّر مصابيح زُجاجات القلوب، وروَّح الأرواح ببديع الأسلوب».

وقال محسن بن يحيى التِّرهتي في «اليانع الجني»: «وكانت له خِبرةٌ تامة بغير هذه العلوم أيضاً ، من علوم الأوائل ، وهذا قلَّما يتفق مِثلهُ لأهل العلم ، وله مؤلَّفات جيِّدة مرصفات ، رأيتُ بعضها فرأيته يكثر فيما له من المتون المهذبة في نفائسِ الفنون من رُموز خفية ، يَعسرُ الاطلاع عليها ، ويَجمعُ مَسائل كثيرة في كلمات يسيرة ، وفي ذلك دَلالةٌ واضحة على تعمُّقه في العلوم ودِقة فهمه بين الفهوم ، وكتابه «دمغِ الباطل» في بعض المسائلِ الغامضة من علوم الحقائق معروف ، أثنى عليه أهلها.

وله مختصر جامع بيَّنَ فيه سريان الحب في الأشياء كلها ، وأوضح للناس أطواره يُسمَّى «أسرار المحبة»، قلما اتَّفق مثله لغيره ممن تكلم عليها ، ولا أعرف من سبقه إلى ذلك إلا رجُلان من الفلاسفة أبو النصر الفارابي وأبو علي ابن سينا ، على ما يُفهم من كلام النَّصير الطوسي في بعض كتبه».

وله مصنفاتٌ غير ما ذكرها الشيخُ محسن ، وهي:

١ ـ رسالة في العروض.

٢ ـ رسالة في مقدمة العلم.

٣ ـ رسالة في التاريخ.

٤ ـ رسالة في تحقيق الألوان.

٥ ـ رسالة في آثار القيامة.

٦ ـ رسالة في الحجاب.

٧ ـ رسالة في برهان التمانع.

٨ ـ رسالة في عقد الأنامل.

٩ ـ رسالة في شرح أربعين كافات.

١٠ ـ رسالة في المنطق.

١١ ـ رسالة في الأمور العامة.

١٢ ـ حاشية على «مير زاهد رسالة».

ومن مصنفاته:

«تكميل الصناعة» كتابٌ عجيبٌ قلَّما اتَّفق مثلُهُ لغيره.

وله غيرُ ذلك من المؤلَّفات الجيدة.

ولهُ تخميسٌ على بَعض القصائد لوالده.

وله قصيدةٌ بليغةٌ تَدلُّ على عُلوِّ كَعبه في العلوم الفَلسفية واقتداره على العربية، عارضَ بها قصيدة الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا «العينية» التي تُعرف بقصيدة الروح، ومطلعُها:

هَبَطَتْ إليك من المَحلِّ الأرفع ... وَرقاءُ ذات تَعزُّزٍ وتَمنُّعِ

فأجابَ عنها بقصيدةٍ، أوَّلُها:

عجباً لشيخ فَيلسوفِ ألمعي ... خَفِيتْ بعَينيه منَارةُ مَشْرَعِ

تُوفي رحمه الله في حياة صِنوه الكبير عبد العزيز لِستٍّ ليال خَلَون من شوال

سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وألف بمدينة دهلي ، فدفن بها خارج البلدة عند أبيه وَجده»[(١)].

٣ـ الشَيخ عبدُ القادر الدّهلوي:

«الشيخُ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، أحد العلماء البارزين المبرِّزين في المعارف الإلٰهية ، اتفق الناسُ على وِلايته وجلالته ، توفي والده في صِغر سنه ، فقرأ العلم على صِنوه الكبير عبد العزيز بن وليِّ الله. وأخذ الطريقة عن الشيخ عبد العدل الدهلوي ، وَجَمع العلم والعمل والزهد والتواضعَ وَحُسن السلوك ، ووضع الله سبحانه له المحبةَ في قلوب عباده لما اجتمع فيه مِن خصال الخير ، فصار مَرجوعاً إليه في بلدته ومرجوعاً إليه بِعلم الرواية والدراية وتهذيب النفوس والدَّلالة على معالم الرُّشد وطرائق الحقِّ.

كان يُدرِّس ويَفيد ويَسكُن بالمسجد الأكبر آبادي في دهلي ، وقرأ عليه الشيخُ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ، والشيخُ فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي، ومِرزا حسن علي الشافعي اللكنوي، والشيخ إسحاق بن أفضل العمري الدهلوي المدفون بمكة المكرمة، والسيد محبوب علي الجعفري والسيد إسحاق بن عرفان البريلوي وخلقٌ كثير من العلماء.

ومِنْ أَعظم ما منَّ الله تعالى عليه أنه وُفِّق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره في لغة أهل الهند ، وقد اعتنى بها العلماء ، واتَّفقوا على أنه معجزة من معجزات النبي ﷺ ، قال السيد الوالي في «مهرجهانتاب»: إن الشيخ عبد القادر رأى في المنام قبل أن يُوَفَّق لها أن القرآن نَزل عليه ، فحكاه لصِنْوِهِ عبد العزيز ، فقال له صنوه المذكور: إن الرؤيا حقٌّ ، ولكنَّ الوحي قد انقطع من زمن النبي ﷺ ، وتأويله أن الله تعالى يوفقك لخدمة القرآن بما لم تُسبق إليه ، فحصلت له تلك

(١) نزهة الخواطر: ج:٧.

المُبشّرة على صورة «مُوضح القرآن» ، ومن خَصائصه أنه اختار لغةً بحذاءِ لغةٍ قاربت بما حازت في العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، حتى إنها لا تجاوز عنها في مواردِ الاستعمال ، وتلك مَوهبة إلٰهية وكرامةٌ ربَّانية يختصُّ بها من يشاء.

وإنِّي سمعتُ ورويتُ «موضح القرآن» على جَدَّتي لأمي السيدة حميراء بنت السيد علَم الهدى الحسني النصير آبادي ، عن بنتِ الشيخ عبد القادر ، من أبيها المصنِّف رحمه الله.

وكانت وفاتُه يومَ الأربعاء لتسعَ عشرةَ خَلَوْن من رجب سنة ثلاثين ومئتين وألف بدهلي ؛ فدُفن عند والده ، وكان الشيخُ عبد العزيز ورفيع الدين لا يزالان على الحياة، فكان يوم موته من أنحس الأيام عليهما ، وكانا يقولان عند دفنه : «إنا لا نَدفن الإنسان ، بل نَدفِن العِلمَ وَالعِرفان».

ومِن عجائب الدهر ، أنَّه كان للشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي أربعةُ أبناء من بطن إرادة بنت السيد ثناء الله ، أكبرهُم عبد العزيز ، ثم رفيع الدين ، ثم عبد القادر ، وأصغرهم عبد الغني والد الشيخ إسماعيل الشهيد ، فماتَ أصغرهم عبد الغني أولاً ، ثم عبد القادر ، ثم رفيع الدين ، ثم أكبرهم عبد العزيز ، وكانوا كُلّهم من أَجِلاَّء العصر علماً وعملاً وإفاضة ، إلا الشيخ عبد الغني فإنه تُوفي في عنفوان شَبابه ، فوفَّق الله سبحانه ولَده إسماعيل المذكور أنَ يتدارك ما فات والده»[1].

* * *

---

(١) نزهة الخواطر: ج: ٧.

ب ـ خلفاء الإمام الدِّهلوي العِظام

١ ـ الشَّيخُ محمد عاشق البُهْلَتِي:

الشيخُ العالم الكبير المحدِّث محمد عاشق بن عبيد الله بن محمد الصديقي البهلتي ، أحد كبار المشايخ ، يرجع نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بإحدى وعشرين واسطة ، اشتغلَ بالعلم من صباه ، ولازم الشيخ الأجلِ ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، وكان ابنَ عمته ، فصحبه وأخذَ عنه العلم والمعرفة ، وسافر إلى الحرمين الشريفين معه سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف ، فحجَّ وزارَ ، وشاركه في الأخذ والقراءة على أساتذة الحرمين ، أجلُّهم الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني ، وأجازه الشيخ أبو طاهر المذكور ، فبلَغ رتبة لم يصل إليها أحدٌ من أصحاب الشيخ ولي الله المذكور ، في العلم والمعرفة ، وصار صاحب سِرِّ الشيخ كما عبَّر به الشيخ أبو طاهر في الإجازة ، فقال: إنه مرآةُ كماله وخَدينُ جَميل خِصاله ، انتهى ، وقال شَيخه ولي الله مخاطباً له:

تُحدِّثني نَفسِي بأنَّك واصلٌ ... إلى نُقطة قَصْواءَ وسْطَ المَراكزِ
وأنَّك في تِيكَ البلادِ مُفخَّمٌ ... بكفَّيك يوماً كلُّ شيخٍ وناهِزِ

أَخذ عنه الشيخ عبد العزيز ، وصنوه رفيع الدين ، والسيد أبو سعيد البريلوي ، وخلق كثير ، ومن مصنفاته: «سبيل الرشاد» كتاب بسيط بالفارسية في السلوك.

ومنها «القول الجلي في مناقب الولي» كتاب في أخبار شيخه ولي الله.

ومنها شرح «دعاء الاعتصام» للشيخ ولي الله في الحقائق والمعارف.

ومن أعظم مآثره «تبييض المصفى شرح الموطأ» للشيخ ولي الله المذكور.

تُوفّي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى السيد أبي سعيد البريلوي(١).

٢ـ الشَيخ مُحمد أَمين الكَشْمِيري:

لقد كان الشيخ محمد أمين الكشميري من خُلفاء الإمام الأربعة(٢) الكبار، الذين انتشرتْ دعوتُه وتعاليمُه على أيديهم.

يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في «نزهة الخواطر»:

«الشيخ العالم الكبير الشيخ محمد أمين الولي إلٰهي الكشميري نِجاراً، والدهلوي دَاراً، كان من أجلّة أصحاب الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي، ينتسب إلى شيخه ويُعرف بالنسبة إليه، وهو الذي أخذ عنه الشيخ عبد العزيز بنُ ولي الله بعد وفاة والده، كما صرّح به الشيخ المذكور في «العجالة النافعة»، وفيه مفخرة عظيمة له، وقد صنَّف له الشيخ ولي الله بعضَ رسائله.

توفي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهرُ ذلك في كتاب الشيخ

---

(١) نزهة الخواطر: ج: ١٧.

(٢) يقول الشيخ عبيد الله السندي في كتابه «التمهيد»: لا يتجاوز عدد من أدرك آراء الإمام الدهلوي ونظرياته بصورة متكاملة أربعة من أصحابه: ١ ـ ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتي، ٢ ـ جمال الدين الشاه محمد أمين الكشميري، ٣ ـ الشيخ نور الله الدهلوي، ٤ ـ الشيخ أبو سعيد الحسيني البريلوي (انظر «شاه ولي الله أوران كي سياسي تحريك» (الإمام الدهلوي وحركته السياسية) للشيخ عبيد الله السندي، ص: ١٧٣ ـ ١٧٤). وقد جاء ذكر الأصحاب الثلاثة: الشيخ محمد عاشق، والشيخ محمد أمين، والشيخ أبو سعيد بتفصيل، أما الشيخ نور الله البرهانوي فقد كان من أخص تلامذة الإمام الدهلوي، وقد نال صيتاً ذائعاً في حياة الإمام الدهلوي، وقرأ عليه الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ الذي كان ختنه أيضاً ـ كتب الفقه، توفي قريباً من عام ١١٨٧ هـ.

عبد العزيز إلى الشيخ أبي سعيد بن محمد ضياء الحسني البريلوي ، الذي سافر للحج ووصل إلى مكة المباركة في ربيع الأول سنة ١١٨٧ هـ ، ورجع إلى الهند سنة ١١٨٨هـ ، كتَبه بعد رجوعه عن الحرمين الشريفين ، وأخبره بوفاة الشيخ محمد أمين»[١] .

وممَّا يدُلُّ على مكانة الشيخ محمد أمين الكشميري الخاصة لدى الإمام الدهلوي ، أنه توجد أربع رسائل في «كلمات طيبات» كتبها الإمام الدهلوي إليه ، وتحتوي على معارف وحقائق جليلة .

وقد كان للإمام الدهلوي ـ عدا هؤلاء الخلفاء الأربعة ـ خُلفاء آخرون ، لم نعثر على تراجمهم بالتفصيل ، كان منهم الحافظ عبد النبي المعروف بعبد الرحمن ، الذي كانت له ـ كما يبدو ـ صِلةٌ قوية بالإمام الدهلويّ[٢] .

٣ ـ السيِّد أبو سعيد البَرِيلَوِيّ:

السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء بن آية الله ابن الشيخ الأجل عَلم الله النقشبندي البَرِيْلَوِيّ ، أحد العلماء الربّانيين .

وُلِد ونشأ ببلدة راي بريلي ، وقرأ العلم على ملاّ عبد الله الأميتهوي ، ثم بايع عمه السيد محمد صابر بن آية الله النقشبندي ، واشتغل بأذكار القوم وأشغالِها مدة من الزمان ، ثم رحل إلى دلهي ولازم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وأخذ عنه .

ولمَّا تُوفي الشيخ ولي الله تحسَّس في نفسه شيئاً ، فلازم صاحبه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتي ، وأخذ عنه ، وكتب له محمد عاشق المذكور الإجازة ، قال فيها : إن السيد التقي النقي ، العارف بالله الولي الحميد ، السيّد أبو سعيد كان قد صحب شيخنا الأجل ولي الله المحدث رضي الله عنه ، وأخذ عنه بعض أشغال الطريقة ، ومارسها وداوم عليها ، حتى انفتح عليه ببركة توجُّه

---

(١) نزهة الخواطر : جـ : ٦ ، ص : ٢٨٦ .

(٢) انظر مجلة «برهان» مقال مسعود أنور العلوي ، عدد سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٨٣ م .

الشيخ بابُ أسرار اللطائف اليقينية البارزة منها والكامنة ، فظهرتْ عليه أحوالها وآثارُها ، وحصلَ له الشهود الذي عند القوم أتمّ المقصود.

ثم لمَّا انتقلَ الشيخ إلى دار الرضوان بدا له أن يأخذ مِن الفقير ما بقي من أشغال الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية ، وغيرها من طرق المشايخ الصوفية ، وأن يدخل في الطريقة بالطريق المتوارث بين الصوفية ، فلما رأيتُه مشغوفاً في ذلك أسعفتُ له المرام خوفاً من حديث الإلجام ، فلقنتهُ تلك الأشغال ، فلما شاهدتُ في آثارها وأوارها ووجدتُه متمكناً فيها أَجزته بعد الاستخارة لإرشاد الطالبين وتَسليك السالكين ، وأخذ البيعة في تلك الطرق جميعاً ، وألبسته الخِرقة الفقرية الفخرية إلباسَ إنابة وإجازة ، كما أجازني وألبسني شيخنا الأجل ، وكما أجازني وألبسَني العارف بالله الشيخ عبيد الله بما وصل إليه من آبائه الكرام ومشايخه العظام.

وأيضاً أجزتُه لدرس التفسير والحديث والفقه والتصوف بعد المطالعة ومراجعة الشروح ، ودرس النحو والصرف.

وأيضاً أجزته لتصريف الآيات والأسماء وأعمال الشيخ في الحوائج المشروعة ، وأجزتُه لجميع ما في «القول الجميل في بيان سواء السبيل» ولجميع ما في «الانتباه في سلاسل أولياء الله» من الأشغال والأعمال.

والسَّيد أبو سعيد كان شيخاً جليلَ الوقار ، عظيم الهيبة ، كريمَ النفس ، مُسدي الإحسان ومُقري الضيفان ، سافرَ إلى الحجاز مع أصحابه ، ووصل إلى مكَّة المباركة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومئة وألف ، فسعد بالحج ، وسافر إلى المدينة المنورة ، وأقام بها ستة أشهر ، وسمع «المصابيح» على الشيخ أبي الحسن السِّندي الصغير ، وكان جالساً تجاه المرقدِ المنوَّر للنبي المطهر عن زيغ البصر «فرآهُ كأنه خرج من الحجرة المباركة ، وبدا كتفاه أولاً ، ثم ظهر له الجسد المطهَّر وجلس قُدَّامه وتبسم» قال صاحبُه الشيخ أمين بن الحميد الكاكوروي في رسالته: إن الشيخ أبا سعيد كان يقول: إني رأيتُ رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بعين رأسي ، ثم رجع إلى مكة المباركة

وقرأ الجزَرية على الشيخ محمد ميرداد الأنصاري ، ورحل إلى الطائف ، ثم إلى الهند ، ودخل مدراس فأقام بها زماناً ، ورُزق حسن القبول في تلك الناحية وانتفعَ به الناس وأخذوا عنه ، منهم الشيخ الحاج أمين الدين بن حَميد الدين الكاكُوروي ، والشيخ عبدُ القادر الخالص بُوري ، والمير عبدُ السلام البدخشي ، والشيخ ميرداد الأنصاري المكي ، ومولانا جمال الدين بن محمد صديق قطب ، ومولانا عبد الله الأفندي ، والشيخ عبد اللطيف الحسيني المِصري وخلق آخرون ، مات في تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين وألف ببلدة رائي ، فدفن بها(١) .

* * *

(١) نزهة الخواطر: جـ: ٧.

ج ـ معاصروه الكبار

معاصر الإمام الدِّهلوي

الشيخُ المُصلِح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب

لقد كانَ الشيخُ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي الحَنبلي (١١١٥هـ ـ ١٢٠٦هـ ـ ١٧٠٣م ـ ١٧٩٢م) أحدَ المعاصرين الكبار للإمام الدِّهلوي والمصلحين العظام ، ومن علماء نَجْدٍ الممتازين وأصحاب الدعوة والعزيمة فيها ، فهو بالنَّظر إلى سنة ولادته يُقارب الإمام الدهلوي في سِنِّه [1] ، ولكنه بالنظر إلى سنةِ وفاتِه متأخرٌ عنه بثلاثين سنة ، ورغم هذه المعاصرة ، وكثير من الأمور المشتركة بينهما؛ لم نعثر على معرفة الإمام الدهلوي به وتعرُّفه عليه ، فضلاً عن مقابلته ولقائه .

وقد كان الإمام الدهلوي سافر للحج عام ١١٤٣هـ ومَكث في الحجاز أكثر من عام واحد؛ وهذه هي الفترة التي كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته فيها مُنحصرتين محدودتين في منطقة العُيَيْنَة والدِّرعية من نَجْد ، ولم يكنْ قد بايَعه الأمير محمد بن سعود ـ حينذاك ـ ولا وقعت بينهما اتفاقية على القيام بنشر هذه الدعوة وإقامة الحكومة على أساسها ومساندتها وتأييدها ، بل كانتْ هذه الاتفاقية عام ١١٥٨هـ التي أصبحتِ الدرعيةُ نتيجةً لها مركزاً لهذه الدعوة وعاصمة دينيةً لحكومتها.

وقد عُرِفت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ، وكُتب لها

---

(١) وُلد الإمام الدهلوي عام ١١١٤ هـ ولذلك فهو أكبر من الشيخ بسنة واحدة.

التأثير والنفوذ حين استولى آل سعود على مكة المكرمة عام ١٢١٨ هـ بعد وفاة الشيخ باثنتي عشرة سنة ، وبعد وفاة الإمام الدهلوي باثنتين وأربعين سنة .

وقد كانت دعوةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهادُه وجُهوده العظيمة تدورُ حول الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والردّ على مظاهر الشرك ، واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية ـ التي كان لبعض مظاهرِها وشعائرها الظهور والانتشار ـ لبُعد العهد عن زمان النبوة ، والجهل العام ، وغَفلة العلماء في بعض القبائل والأماكن من المنطقة الشرقية في الجزيرة العربية[١] .

وتَدورُ حول توضيح الفَرْق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وشَرح حقيقة التوحيد الذي طلبه الله تعالى من عباده ، ودعا القرآن الكريم إليه دعوةً صريحة واضحة ، وتنقيحِها .

وما حصل للشيخ في هذا الصدد من النجاح لا يوجدُ له نظير في الدعاة والمصلحين في العهود الماضية ، وإن كان ـ حسب ما يقول الدكتور أحمد أمين ـ يرجع ذلك ـ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ إلى قيام حكومة (وهي الحكومة السعودية) على أساسها وتبنيها لهذه الدعوة ، وتشجيعها لها وإشرافها عليها [٢] .

ولكن ممّا لا يقبل الجدل والاختلافَ أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قام ـ في هذا الصدد ـ بدور مصلحٍ ثوري عظيم ، ومهما خالفه بعض الناس في بعض أفكاره وآرائِه وأسلوبِه في عرض الدعوة ومنهجه ، ولم يوافقه مئة في المئة ؛ إلا أنه لا يمكن إنكارُ تأثير هذه الدعوة وفائدتها والحاجة إليها في تلك الظروف الخاصة .

وأمّا ما يتعلّق بتَوضيح عقيدة التوحيد وتنقيحها ، وإثباتِها بالقرآن الكريم ،

---

(١) انظر للتفصيل كتاب الأستاذ مسعود عالم الندوي «الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترىٰ عليه»، وكذلك الكتب الأخرىٰ التي ألّفت في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي كثيرة.

(٢) راجع «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» للأستاذ أحمد أمين.

وشَرح الفوارق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فإنَّ هناك شبهاً كبيراً بين آراء الشيخ وتحقيقاته وبُحوثه ، وآراء الإمام الدهلوي وتحقيقاته وبحوثه ، وليس هذا إلا نتيجة الدراسة العميقة المباشرة للقرآن الكريم وتدبُّره ، والمعرفةِ الدقيقة الواسعة بالكتاب والسنة ، وهي التي أدت بشيخ الإسلام ابن تيمية في عصره ، وكبار الدعاة والمصلحين والعلماء والمحققين في عصورهم إلى نتائج مُشابهة متقاربة ، ودفعتهم إلى تبليغ التوحيد الخالص والدعوة الجريئة الواضحة إليه .

ولكنَّ دائرة أعمال الإمام الدهلوي الإصلاحية والتجديدية أوسعُ وأشمل من ذلك بكثير ، فإنها تضُمُّ بين جوانبها إحياءَ العلوم الإسلامية وتجديدَ الفكر الإسلامي ، والكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها ، والمأثرةَ العلمية لعرض التعاليم الدينية والشريعة الإسلامية في صورةٍ متناسقة شاملة ، ومقاومة الجهود والتحجر العلمي والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية ، والعمل الاجتهادي للتطبيق بين العقل والنقل ، والتوفيقَ بين المذاهب الفقهية الأربعة ، والمحاولات الجادَّة للحِفاظ على السلطة الإسلامية في الهند ، والدراسة العميقة للأحاديث النبوية الشريفة والجهودَ التجديدية لنَشرها وتعميمها ، والدعوة إليها ، والدعوةَ إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، والوصول إلى درجة الإحسان وتعليم طرقها ومناهجها ، وتربيةَ الرجال الأكفاء .

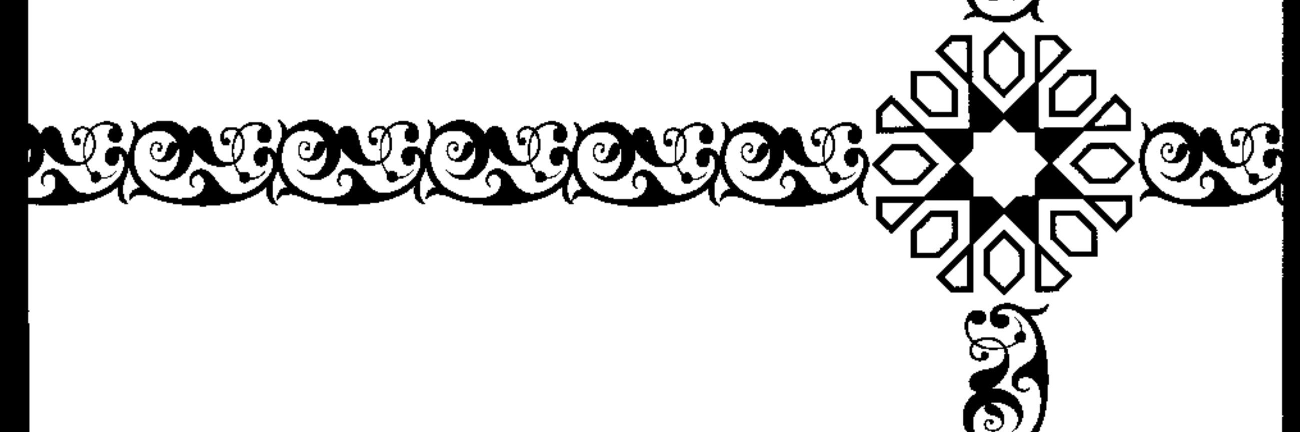
ومع كلِّ ذلك يتميَّز الإمام الدهلوي برقَّة وحنان ، وقُوةِ عاطفة كانت ـ على حد تعبير محمد إقبال الشعري ـ كوجُود ماء زمزم الرقيق الفيَّاض في أرض الحجاز الصلبة الحجرية ، وبذلك يَجمع بين صلابة عقيدة التوحيد وحَنان القلب ، وهو أثرٌ من آثار بيئة الإمام الدهلوي وتربيتِه الروحية الخاصة ، ويمكن أن نُشاهد أمثلته في قصائده ومدائحه النبوية على ممدوحها الصلاة والسلام .

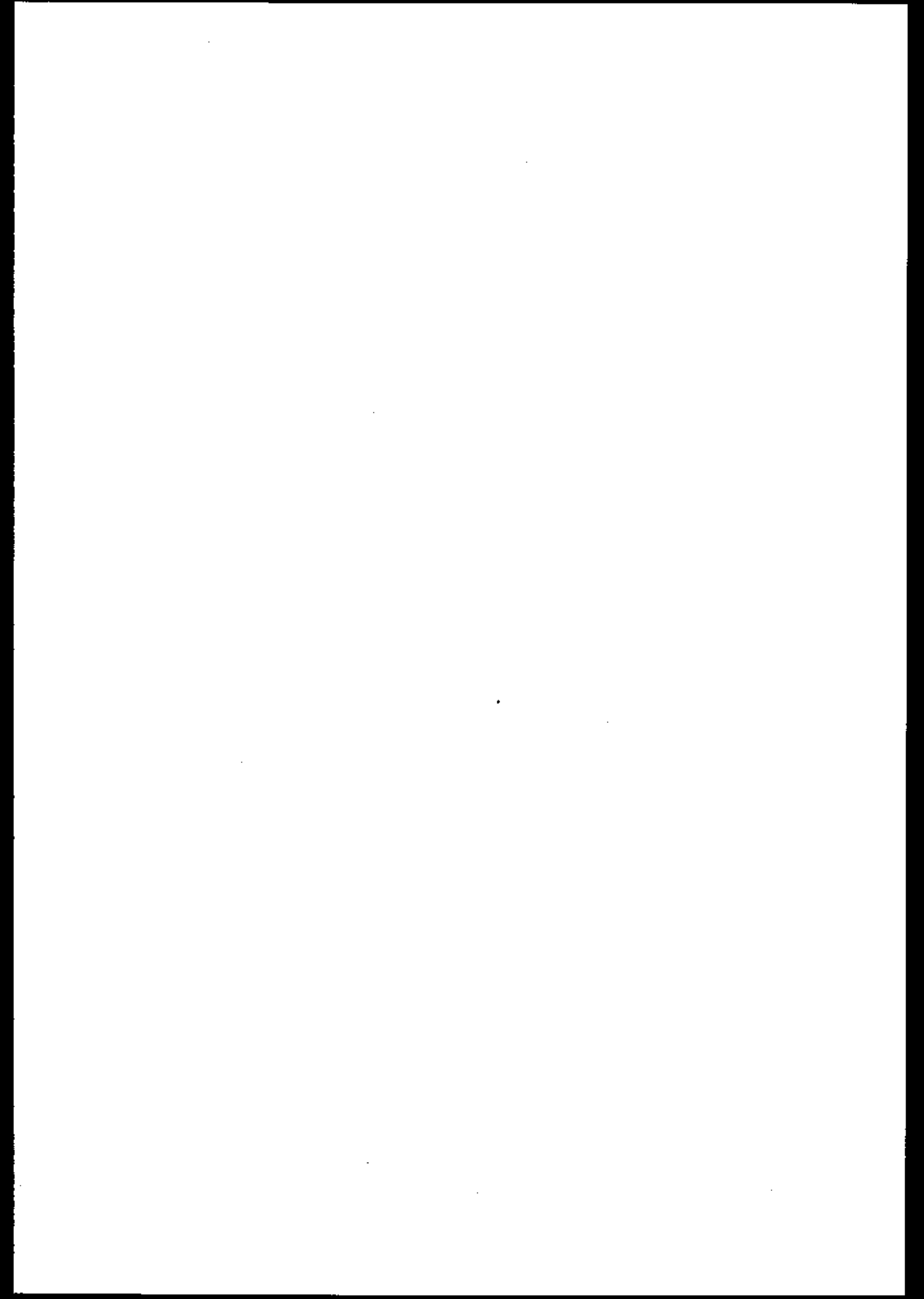
ولذلك فإنَّه من المناسب أن تكون هناك دراساتٌ مقارنَة بين الإمام الدهلوي وبين شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ، والبحثُ عن نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما بدلاً من الدراسة المقارنة بين الإمام الدهلوي والشيخ محمد بن

عبد الوهاب ـ رغم جهوده العظيمة المشكورة ـ وتتبع نقاط التشابه والاتفاق بينهما ، لأنهما ـ أي المتقدمي الذكر ـ يبدو بينهما الشيء الكثير من وُجوه التشابه في تبحُّرهما العلمي وبلوغهما درجة الإمامة والاجتهاد في علوم الكتاب والسنة ، وسَعة النظر وعُمق التفكير وتنوُّع الأعمال الإصلاحية والتجديدية ، وعظَمة الشخصية وعبقريتها ـ وقد تقدمتْ إليها إشارات في مواضع متفرقة من الكتاب ـ رغم الاختلاف الطبيعي الذي هو نتيجة البيئة والتعليم والتربية ، واختلافِ العهد والمكان ، والسلوكِ والتربية الروحية الباطنية .

* * *

الفهارس العلمية





فهرس الآيات القرآنيّة

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

* * *

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

* * *

فهرس القوافي

* * *

فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ر -

- ش -

- ص -

- ف -

- ق -

- ي -

الكتب الأجنبية

* * *

فهرس الأعلام

- ر -

- ز -

- س -

الأسماء الأجنبية

* * *

فهرس الأماكن والبقاع

- د -

- ر -

- س -

- و -

- ي -

* * *